موسوعة كفاح الشعوب (3)

كفاح الشعب الجزائري
ضد الاحتلال الفرنسي

من الحرب العالمية الثانية إلى الاستقلال 1 نوفمبر 1962م

وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي

الطبعة الأولى

1438هـ 2017م

موسوعة كفاح الشعوب

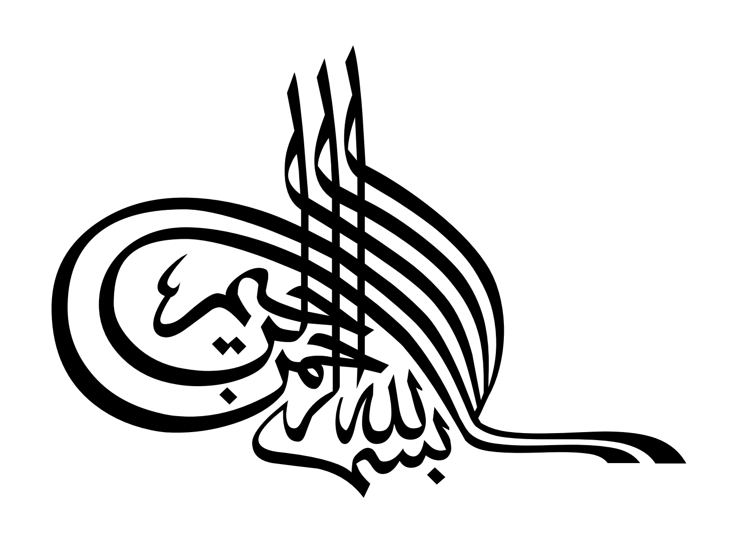
(3)

كفاح الشعب الجزائري
ضد الاحتلال الفرنسي

من الحرب العالمية الثانية إلى الاستقلال 1 نوفمبر 1962م
وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي

تأليف
د. علي محمد الصَّلاَّبي

دار ابن كثير



الإهداء

إلى الشعب الجزائري الذي رفض الدنيئة في دينه وعرضه وكرامته وحقوقه وإنسانيته، فقاوم الاحتلال الفرنسي جيلاً بعد جيل، وتصدى لكل ألوان الظلم بكافة أشكاله وأنواعه وصوره البشعة.

إلى الشعب الذي قدّم قوافل الشهداء، ودفع الثمن غالياً، وابتلي بالجوع والخوف، فما وهن لما أصابه في سبيل الله، وما ضعُفَ وما استكان للوصول إلى حريته وكرامته وحقوقه واستقلاله.

إلى الشعب الذي سطَّر ملحمة الجهاد الغالية والكفاح المرير، وعلَّم الشعوب المتعطشة للحرية بأن إرادة الشعوب تنتصر على إرادة الطغاة، لأن ذلك من سنن الله: {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً } [فاطر : 43].

قال تعالى: {فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا } [سورة الكهف:110].

* * *

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

. قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ } [سورة آل عمران:102] .

. وقال تعالى:يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا } [سورة النساء:1] .

. وقال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا } [سورة الأحزاب:71-70]

أمَّا بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى.

لقد منَّ الله عليَّ بالعيش في عالم البحث والدراسة والمطالعة والقراءة، ولقد تأثرت بشخصية الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله وأنا في الثامنة عشرة من عمري، وزادت محبتي له مع الزمن والاطلاع في سيرته، ولما أذن الله عز وجل للكتابة عن سيرته شددت الرحال إلى الجزائر العزيزة الحبيبة وزرت معارضها الدولية للكتاب، فوجدت بحراً زاخراً من الكتب والدراسات عن ابن باديس وتاريخ الجزائر وجهاد هذا الشعب العظيم ضد الاحتلال الفرنسي المقيت، فاشتريت ما كتبه الله من المصادر والمراجع، فانكشفت لي مجاهيل في علم التاريخ الحديث، وملاحم بطولية وشخصيات وطنية وربانية وإنسانية تحتاج لإزالة الركام عنها وتوصيلها إلى الشعوب العربية والإسلامية، والشعوب الحرة في هذا العالم الفسيح، فكانت هذه الموسوعة.

فالفضل لله تعالى أولاً وأخيراً، ثم لسيرة ابن باديس العطرة المباركة، التي جعلها الله سبباً لهذه الموسوعة «كفاح الشعوب»، والتي أقدم لها في هذه الصفحات «الجزء الثالث»، وبذلك تمت بحمد الله وفضله، وهي:

1 . كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر.

2 . كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الزعيم عبد الحميد ابن باديس.

3 . كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

والدراسة القادمة بإذن الله تعالى ستكون عن الأمير عبد الكريم الخطابي، وكفاح الشعب المغربي المجاهد ضد الاحتلال الفرنسي والإسباني.

والحمد لله الذي منَّ عليَّ بهذا القلم لخدمة تاريخ أمة الإسلام وقادته قديماً وحديثاً، ونسأل الله أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

وأما هذا الكتاب، فكان على الشكل التالي:

المبحث الأول: جمعية العلماء المسلمين بعد وفاة ابن باديس، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مولده واسمه ونسبه وأسرته وطلبه للعلم ورحلاته العلمية للمدينة ومصر والشام، ولقاؤه بابن باديس في المدينة، وما ترتب على هذا اللقاء من خير عميم لشعب الجزائر، ورجوعه إلى موطنه وانطلاقته في الدعوة وتأسيس جمعية العلماء، ونفيه إلى «افلو» بجنوب الجزائر بسبب رفضه دعم فرنسا في الحرب العالمية الثانية.

وتولى الإبراهيمي قيادة جمعية العلماء بعد وفاة ابن باديس من خلال الشورى بين علماء الجمعية.

وفي المبحث الأول أيضاً كان الحديث عن أهم صفات الإبراهيمي التي اتصف بها من خلال سيرته العطرة، فقد اتصف بصفات وأخلاق الدعاة الربانيين والعلماء الراسخين، من الصدق والإخلاص، والصبر والرحمة والعفو والعزيمة والهمة العالية والنظام والدقة والزهد والورع والاستقامة، وركزت على بعض هذه الصفات، كعلمه وفقهه وحماسته:

يقول عنه الشيخ محمد الغزالي: وأذكر من أولئك الزعماء اللاجئين إلى القاهرة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ؛ عرفته أو تعرفت إليه في أعقاب محاضرة بالمركز العام للإخوان المسلمين.. كان لكلماته دوي بعيد المدى، وكان تمكّنه من الأدب العربي بارزاً في أسلوب الأداء وطريقة الإلقاء، والحق أن الرجل رُزق بياناً ساحراً وتأنقاً في العبارة يذكرنا بأدباء العربية في أزهى عصورها، لكن ليس هذا ما ربطنا به أو شدَّنا إليه على قيمته المعنوية . إنما جذبنا الرجل بإيمانه العميق وحزنه الظاهر على حاضر المسلمين، وغيظه المتفجر ضد الاستعمار، ورغبته الشديدة في إيقاظ المسلمين ليحموا أوطانهم ويستنقذوا أمجادهم، وخُيِّل لي أنه يحمل في فؤاده الام الجزائريين كلهم، وهم يكافحون الاستعمار الفرنسي، ويقدمون المغارم سيلاً لا ينقطع حتى يحرروا أرضهم من الغاصبين الطغاة، وكان في خطاباته يزأر كأنه أسد جريح، فكان ينتزع الوَجل من أفئدة الهيابين ويُهيِّج في نفوسهم الحمية لله ورسوله، فعرفت قيمة الأثر الذي يقول: إن مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدم الشهداء.

وقال: كان لقاؤنا بالشيخ البشيرالإبراهيمي مصدر متعة أدبية وعلمية تجعل أدباء القاهرة وعلماءها يهرعون إليه ويتزاحمون عليه، ولكن الرجل كان يشرد بين الحين والحين، فنحسّ أنه معنا وليس معنا، كان جسمه معنا وقلبه معلقاً بالجزائر، يتحسس أبناءها ويتبع العراك الدائر بين الإسلام والصليبية في هذه القطعة الغالية في دار الإسلام، وكنت أشعر بأنه يكتب إلى رجاله أو المسؤولين عن الكفاح الجزائري، يشير عليهم بالرأي. وأستطيع الجزم بأنه ما ضعف يوماً ولا استكان، ولا يئس من روح الله، ولا شك في أن الله ناصر جنده ومعز المجاهدين المسلمين.

إلى أن قال: وقد كنت ألمح تغييراً عضوياً في وجهه، بل في كيانه كله عندما يتحدث عن ضرورة الجهاد إلى اخر رمق، وعن ضرورة بقاء الجزائر مسلمة تتكلم بلغة الوحي وتحل الفرنسية، وها قد نصر الله الجزائر ونصر وجوه المجاهدين، وعاد الدخيل من حيث جاء، واندحر أتباعه وأعوانه:

فـأدبـروا ووجـه الأرض تـلـعـنـهـم كبـاطـل من خلال الحق مهزوم[1]

وتحدثت في هذا الكتاب عن الروح التجديدية عند الإبراهيمي، فيعتبر من أنصار المدرسة التجديدية التي تؤمن بشجاعة الرأي وتتقدم الصفوف في بيان مقاصد الشريعة وقيمها النبيلة.

وبينت كونه مصلحاً كبيراً، ومفكراً عظيماً، ومجتهداً شجاعاً، ومبدعاً متألقاً، وبليغاً وأديباً وخطيباً، قال عنه أمير شعراء الجزائر محمد العيد ال خليفة:

قـل للبشـــير: رفعـتَ هـامـة أمـة ذلـت وشـــعب كـان قبلـك خـاملا

مـا زلـت تكشـــف عن خفي نبوغـه حـتى تـبـين لـلـنـواظـر مـاثـلا

أخجلـت أقطـاب البيـان فمن يكن «سـحبان» أو «قسـا» يلاقك «باقلا»

أدركـت في الفصـــحى مـدارك لم يكن في العصـــر ذو أدب إليهـا واصـــلا

وكان الإبراهيمي من كبار الزهاد، لم يرث مالاً ولم يتموَّل أموالاً، وعاش مع أسرته على مرتب شهري من صندوق «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»، وكان يسدد ديونه القديمة بديونه الجديدة، محتفظاً بالحرية والاستقلال عن أصحاب النفوذ والسلطان.

وذكرت أهم أعماله عندما تولى قيادة جمعية العلماء، ومقومات الفكر الإصلاحي عنده من:

ـ الإسلام والعروبة، والتحرير والتوحيد، والتوعية والتربية والعمل الجماعي، ووضحت اهتمامه بالشباب والنوادي الثقافية، والكشافة والعمل الخيري، والمرأة، وقضايا الزواج والطلاق، وثقافته التاريخية ونضاله السياسي ضد الاستعمار بفكره وتوجيهه وترشيده ومقالاته ومواقفه، وبينت أسفاره وعلاقاته بالعالم الإسلامي، ودعمه لقضايا الأمة والشعوب المتطلعة للتحرر.

والمبحث الثاني: تحدثت فيه عن ثورة أول نوفمبر 1954م، وعن أهم الأحداث التي ساهمت في إعلان الثورة، مثل: اثار أحداث 1945م القمعية التي قتل فيها 45 ألف جزائري من قبل الغزاة الفرنسيين، والاستعداد العسكري للمنظمة الخاصة أو السرية، وظروف دولية ملائمة، وعن كيفية الوصول إلى جبهة تحرير وطني مفتوحة للجميع، وعن اجتماع الأعضاء 22 من الثوريين، واللجنة السداسية والخماسية، وعن بيان أول نوفمبر 1954م وعلاقة الجهاد بالثورة، وعن الجزائر المجاهدة والعوامل التي ساعدت على توحيد الشعب في الثورة، وتكلمت عن ردود الفعل بعد اندلاع الثورة، كردة فعل الحكومة الفرنسية وفرنسيي الجزائر، والجامعة العربية، واثار الثورة الجزائرية في مسار الأحداث في شمال أفريقيا، وموقف جمعية العلماء من الثورة.

---

(1) اثار الإمام محمد البشير (8/4).

وبينت أن أول الشخصيات العامة والمشهورة والمؤثرة التي أيدت الثورة الشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي، وكذلك أيدت جمعية العلماء وتعاونت وساندت قادة الثورة والثوّار في السعي لنيل الاستقلال، وذكرت كفاح ونضال الاتحادات الجزائرية، كالاتحاد العام للعمَّال، والاتحاد العام للطلاب، والاتحاد العام للتجار، واتحادية فرنسا لجبهة التحرير الوطني، والحركة النسائية الجزائرية، وأشرت إلى تاريخ العلم الجزائري وقصة النشيد الوطني، وترجمت لشاعر الثورة مفدي زكرياء صاحب القصيدة المشهورة:

نطق الرصــــاص فمـا يبـاح كلام ... وجرى القصـــاص فما يتـاح ملام

وقضـــى الزمـان فلا مرد لحكمـه ... وجرى القضـــاء وتمـت الأحكـام

وقال:

يا ثـورة الـتحـريـر أنـت رســـالـة ... أزلـيـــة إعـــجـــازهـــا الإلهـــام

لـك في الجزائر حرمـة قـدســـيـة ... وبـكـل قـلـب في الـوجـود هـيـام

الشـــعب أنت ضـــميره وصـــوابه ... والجـيــش أنـت دمـاغـه الـعـلام

لـيـس الجـهـاد زعـامـة وثـنـيـة ... زلّـت بهـم في الـثـورة الأقـدام

وتنـاثرت تلـك الهيـاكـل وانطوت ... وتهـــاوت الأنصـــــاب والأزلام

ولـقـد بهـرت الـعـالمين وطـأطـأت ... يا ثـورة الـتـحـريـر دونـك هـام

وتـقـمصـــت فيـك الجزائر وانبرى ... شـــيخ يحـارب في الوغى وغلام(1)

وذكرت الإصلاحات السياسية والإدارية التي أعلنت عنها الحكومات الفرنسية لتهدئةالشعب وإبعاده عن دعم الثُّوار، ولكنها فشلت جميعها، وازداد التفاف الشعب خلف جبهة التحرير الوطني، وأمدّها بالرجال والأموال ووسائل النضال والكفاح والجهاد، ودوَّنت الأساليب القمعية الوحشية التي استخدمتها فرنسا ضد الشعب الجزائري.

وتحدثت عن مؤتمر الصومام وأهميته في تاريخ الثورة الجزائرية في تطوير جوانبها العسكرية والسياسية والإعلامية والإدارية والتعبوية، وتنظيم وتحشيد الشعب خلف جبهة التحرير، والانتقال بالثورة إلى مرحلة جديدة في صراعها مع الاحتلال الفرنسي.

وبينت وسائل فرنسا للقضاء على الثورة، من وسائل اقتصادية وسياسية وعسكرية واستخباراتية، وقمعية...الخ.

ووضحت وسائل الثورة في مواجهة فرنسا وتخطيطها، من عسكرية، وحرب عصابات منظمة طويلة النفس، وتحشيد اجتماعي، وإضرابات عامَّة، واختراقات أمنية، وعمل دبلوماسي وسياسي إقليمي ودولي، وكسب مناصرين للقضية الجزائرية على مستوى الشعوب والدول، وعن الاهتمام بالتموين والتغذية ووصولها إلى الثوار

(1) اللهب المقدس ص 44، مفدي زكرياء.

والمحتاجين الداعمين للثورة، والاهتمام بالجرحى والمرضى والإعلام، والتطوير الإداري والتنظيمي المستمر لجبهة التحرير، ودور المرأة وجهادها العظيم على كافة المستويات النضالية.

قال الشاعر:

بنت الجزائر والنضال يهزها	تاقت إلى خوض الغمار الدامي
شقت إلى الجبل الأشم مسالكاً	مسدودة في أوجه الأخصام
لقد انتطقنا وما انتطقتن بفضة	فسبائك الخرطوش خير حزام

وكان للأمهات تأثير على المجاهدين في ساحات الوغى، وقد قالت الشاعرة العراقية امال الزهاوي في قصيدتها «نداء الأم» مهداة إلى المجاهدين الجزائريين حيث تقول:

ونداء أمي صارخاً أقوى من المتفجرات

أقدم بُنيَّ على العدو كعاصفات صارخات

فبقرب ضِيقك دائماً أخواتك المتذمرات

يشددن عزمك للتحرر من ليال حالكات

صرخاتهُن بوجه خصمك بالغناء مزمجرات

أصواتهن بجنب صوتك بالعدو منددِات

يرقبن أيام الكفاح بأعين متطلعات

ينشدن فجر الانتصار بأنفس متلهفات

واستمر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في دعمه للثورة، وكتب مقالات، وخطب خطباً، وألقى محاضرات، وزار دولاً وشارك في مؤتمرات، ومن أشهر مقالاته: كيف تنجح الثورة؟ وموالاة المستعمر خروج عن الإسلام، وفرنسا وثورة الجزائر.

وفي **المبحث الثالث**: مواقف الدول والشعوب العربية من ثورة الجزائر.

وفي هذا المبحث بيّنت دور الدول والشعوب في دعم الشعب الجزائري.

.كالمملكة الليبية، حيث لعبت ليبيا دوراً كبيراً في دعم القضية الجزائرية، وثورة التحرير، انطلاقاً من إيمان قادتها وشعبها في الوقوف إلى جانب الشعب الجزائري أيام محنته، ودعم ثورته معنوياً، وقد تجسد هذا الموقف منذ زمن المصلح الكبير محمد بن علي السنوسي وتصديه للاحتلال الفرنسي ودعمه للمجاهدين، ولم تنقطع هذه الصِّلة بين الشعبين الشقيقين، وازدادت قوَّة وتحمساً مع اندلا ع ثورة نوفمبر 1954م، ووقف الملك والحكومة والشعب بكل ما يملكون لتحقيق الانتصار العظيم على الغزاة.

. وكذلك المملكة المغربية، وتونس، ومصر، والسعودية، والكويت، وقطر، والعراق، وسوريا، والأردن، والسودان،، واليمن، ولبنان.

. وكذلك الدول غير العربية كالصين، وأندونيسيا، وكوريا الشمالية، وفيتنام، والهند، وماليزيا، وباكستان، وسنغافورة، وتركيا، وغانا، ومالي، ويوغسلافيا.

. ووضحت موقف الاتحاد السوفياتي المساند لفرنسا، وتغيره بعد دخول فرنسا في المفاوضات مع الحكومة المؤقتة.

. وكذلك الولايات المتحدة المتحالفة والداعمة لفرنسا، في حربها للشعب الجزائري.

وفي **المبحث الرابع**: كان الحديث عن الحكومة المؤقتة والمفاوضات مع فرنسا، وإعلان الحكومة المؤقتة، ووزرائها، والتطور السياسي والإداري لأجهزة الحكومة كوزارة القوات المسلحة والداخلية، وما حدث لها من مشاكل وتامر، واجتماع قادة الداخل، وخلاف الحكومة مع مصر، والاحتكام إلى القادة العسكريين، وكان الحديث عن الحكومة المؤقتة الثانية والمعالم الرئيسية لسياستها وإعادة تنظيم الجيش، وكذلك تطرقت للحكومة المؤقتة الثالثة وظهور فكرة المكتب السياسي كأعلى سلطة من الحكومة المؤقتة.

وأشرت إلى مسار المفاوضات بين الجزائر وفرنسا بعد تولي ديغول السلطة، ودوافع رضوخ ديغول للتفاوض والوصول إلى «اتفاقية إيفيان» وخطاب رئيس الحكومة المؤقتة «يوسف بن خدة» للشعب الجزائري، ونص اتفاقيات إيفيان، وكيفية تطبيق الاتفاقية، ووقف إطلاق النار، تحدثت عن محاولة تخريب اتفاقيات إيفيان من طرف المنظمة المسلحة السرية الفرنسية والنهاية الحتمية للمنظمة، وإجراء استفتاء تقرير المصير، وتطوُّر الوضع بعد ترسيم المكتب السياسي، وإعلان استقلال الجزائر، ودخول القوات الموالية للمكتب السياسي إلى العاصمة، وصلاة الجمعة الأولى بعد الاستقلال في مسجد «كتشاوا» بالجزائر العاصمة، وخطبة الإمام البشير الإبراهيمي المؤثرة، والأيام الأخيرة من حياته ووفاته.

* * *

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الجمعة 1438/6/11هـ الموافق 2017/3/9م الساعة الرابعة والربع بتوقيت الدوحة بعد صلاة العصر، والفضل لله من قبل ومن بعد.

وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يكرمنا برفقة النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين.

قال تعالى: {مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} [سورة فاطر:2].

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده، متبرئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي، وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلَّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي، لتبلَّد مني العقل، ولغابت الذاكرة، وليبست الأصابع، ولجفت العواطف، ولتحجرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان.

اللهم بصِّرني بما يرضيك عني، واشرح صدري له، وجنِّبني اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري.

وأسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تثيبني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد الذي لولا أنت ثم هم ما كان له وجود ولا انتشار بين الناس. ونرجو من كل مسلم يطَّلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه.

قال تعالى: {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ} [سورة النمل:19].

وأختم هذه المقدمة بقول الله تعالى:{وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠} [سورة الحشر:10].

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين

المبحث الأول

جمعية العلماء المسلمين بعد وفاة ابن باديس

وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي

بعد وفاة ابن باديس في 16 أفريل «نيسان» 1940م، اجتمع المجلس الإداري بغياب البشير الإبراهيمي نائب رئيس المجلس الإداري، الذي كان منفياً في مدينة «افلو» الصحراوية منذ شهر اذار 1940م، وقرر المجلس انتخابه رئيساً للجمعية خلفاً لابن باديس، وأصبح الإبراهيمي منذ ذلك الحين يقود الجمعية ويصرّف أمورها ويدير أعمالها من مقر منفاه عن طريق الرسائل التي كان يتبادلها مع الأعضاء بواسطة الرسل الثقاة[1] .

* * *

(1) جمعية علماء المسلمين، دكتور أحمد الخطيب، ص 209.

أولاً: نسبه وأسرته وطلبه للعلم

1 . اسمه ونسبه ومولده وأسرته:

هو محمد البشير الإبراهيمي، ولد يوم الخميس عند طلوع الشمس في الرابع عشر من شهر شوال سنة ست وثلاثمائة وألف، الموافق الثالث عشر من يونيو سنة 1889م.

وينتمي إلى قبيلة تعرف بأولاد إبراهيم بن يحيى بن مساهل، ويرفع نسبها إلى إدريس بن عبد الله الجد الأول للأشراف الأدارسة ـ وإدريس هذا يعرف بإدريس الأكبر ـ وهو الذي خلص إلى المغرب الأقصى بعد (وقعة فخ) بين العلويين والعباسيين، وإليه ترجع أنساب الأشراف الحسنيين في المغربين الأقصى والأوسط، وهذا النسب للإبراهيمي مستفيض بين سكان الأطلس أوراس وسفوحه الجنوبية إلى الصحراء، والشمالية إلى التلول، ولأجداد الإبراهيمي كتابات متناقلة عن هذا النسب(1).

موطنه الذي تقلب فيه أجداده في تاريخ ضارب في القدم وهو السلاسل الغربية المتفرعة من جبل أوراس، وهي قمم تفصل بينها مسالك أودية وطرق هابطة من التلول إلى الصحراء، وموقعها الغرب المائل للجنوب لمدينة قسنطينة عاصمة المقاطعة الشرقية للقطر الجزائري.

2 . أسرته واهتمامها بالعلم:

ويعتبر بيت الإبراهيمي من البيوتات التي حفظت رسم العلم وتوارثته قروناً من لدن خمول بجاية وسقوطها في القرن التاسع الهجري. لقد كانت بجاية دار الهجرة للعلم، وخصوصاً للأقاليم المتاخمة لها، وقد خرج من عمود نسبه بالذات في هذه القرون الخمسة علماء في العلوم العربية، ونشروها بهمة واجتهاد في الأقاليم المجاورة لإقليمه، ومنهم من هاجر إلى القاهرة في سبيل الاستزادة من العلم والتوسع فيه ـ على صعوبة الهجرة إذ ذاك ـ ومن اثار الاتصال بالقاهرة أنه بعد رجوعهم سموا أبناءهم بأسماء كبار مشائخ الأزهر، وأدرك الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في فروع بيته من تسمى بالأمير، والصاوي، والخرشي، والسنهوري(2).

3 . بدايته العلمية وأثر عمِّه فيه:

نشأ الإبراهيمي في بيت والده كما ينشأ أبناء بيوت العلم، وبدأ في التعلم وحفظ القران الكريم في الثالثة من عمره على التقليد المتبع في بيته الشائع في بلاده، وكان الذي يعلمه الكتابة ويلقنه حفظ القران جماعة من أقاربه من حفاظ القران، ويشرف عليه إشرافاً عالياً عالم البيت، بل الوطن كله في ذلك الزمان، عمُّه شقيق والده الأصغر الشيخ محمد المكي الإبراهيمي ـ رحمه الله ـ، وكان حامل لواء الفنون العربية غير مدافع من نحوها وصرفها واشتقاقها ولغتها، أخذ كل ذلك على البقية الصالحة من علماء هذه الفنون بإقليميه، منهم:

---

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (272/5).

(2) اثار الأمام محمد البشير الإبراهيمي (273/5).

- الشيخ ربيع قري اليعلاوي.
- العلامة الشيخ محمد أبو القاسم البوجليلي.
- العلامة الشيخ محمد أبو جمعة القُلّي، خاتمة المتبحرين في العربية والفقه.

- ولم يكن هؤلاء العلماء رحلوا إلى الأمصار الكبرى ذات الجامعات العلمية التاريخية، كفاس وتونس والقاهرة، وإنما كانوا يتوارثون العلوم الإسلامية طبقة عن طبقة إلى الأجيال المتخرجة من مدن العلم الموجودة بالوطن كبجاية وقلعة بني حماد، وكلتاهما قريبة من مواطن الإبراهيمي، وكلتاهما كانت مناراً للعلم ومهجراً لطلابه ومطلعاً لشموسه إلى الفترة التي تبدأ من دخول الأتراك للجزائر. وكان أئمة العلم لا يعتمدون في تخرجهم على الشهادات الرسمية، وإنما كانوا يعتمدون على الإجازات من مشايخهم الذين يأخذون عنهم.

ولما بلغ سبع سنين استلمه عمُّه من معلِّمي القران، وتولى تربيته وتعليمه بنفسه، فكان لا يفارقه لحظة، حتى في ساعات النوم، فكان عمُّه هو الذي يأمره بالنوم وهو يوقظه منه، على نظام مضطرد في النوم، والأكل والدراسة. وكان لا يخليه من تلقين حتى حين يخرجه ـ فيأخذه معه ـ ويماشيه للفسحة، فحفظ متون العلم المهمة في ذلك السن مع استمراره في حفظ القران، فما بلغ تسع سنين من عمره حتى كان يحفظ القران، مع فهم مفرداته وغريبه، وكان يحفظ معه:

- ألفية ابن مالك ومعظم الكافية له.
- وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر.
- وحفظ جمع الجوامع في الأصول.
- وتلخيص المفتاح للقاضي القزويني.
- ورقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب.
- وحفظ الكثير من شعر أبي عبد الله بن خميس التلمساني شاعر المغرب والأندلس في المائة السابعة.
- وحفظ معظم رسائل بلغاء الأندلس، مثل ابن شهيد وابن برت وابن أبي الخصال وأبي المطرف بن أبي العميرة وابن الخطيب.

ثم لقنه عمه دواوين فحول المشارقة، ورسائل بلغائهم، وحفظ صدراً من شعر المتنبي، ثم استوعبه بعد رحلته إلى المشرق، وحفظ صدراً من شعر الطائيين، وديوان الحماسة، وكثيراً من رسائل سهل بن هارون وبديع الزمان.
وفي هذه الفترة حفظ بإرشاد عمه كل من:

- كتاب كفاية المتحفظ للأجدابي الطرابلسي.
- وكتاب الألفاظ الكتابية للهمداني.
- وكتاب الفصيح لثعلب.
- وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب ابن السكيت.

وهذه الكتب الأربعة هي التي كان لها معظم الأثر في ملكته اللغوية[1].

ولم يزل عمه ـ رحمه الله ـ يتدرج به من كتابٍ إلى كتاب، تلقيناً وحفظاً ومدارسة للمتون والكتب التي حفظها حتى بلغ الحادية عشرة، فبدأ له في درس ألفية ابن مالك دراسة بحث وتدقيق، وكان قبلها ـ درّسه ـ كتب ابن هشام الصغيرة قراءة تفهم وبحث، وكان يقرئه مع جماعة الطلاب المنقطعين عنده لطلب العلم على العادة الجارية في الجزائر إذ ذاك، ويقرئه وحده، ويقرئه وهو يماشيه في المزارع، وعلى ضوء الشمع، وعلى قنديل الزيت وفي الظلمة، حتى يغلبه النوم، ولم يكن شيء من ذلك يرهقه لأن الله تعالى وهبه حافظة خارقة للعادة، وقريحة نيرة، وذهناً صيوداً للمعاني، ولو كانت بعيدة. ولما بلغ أربع عشرة سنة مرض عمه مرض الموت، فكان لا يخليه من تلقين وإفادة، وهو على فراش الموت، بحيث ختم الفصول الأخيرة من ألفية ابن مالك وهو على تلك الحالة[2].

4 . تصدره للتدريس ورحلته لمصر:

مات عمه سنة (1321هـ/ 1903م) وعمر محمد البشير أربع عشرة سنة، وكان عمه قد أجازه الإجازة العامة، وعهد إليه أن يخلفه في التدريس لطلابه، فأصبح شيخاً وهو في سن الصبا[3]، والقيام عليهم كالعادة في حياة عمه. وانتقل في بعض السنين إلى المدارس القبلية القريبة منهم لسعتها واستيعابها للعدد الكثير من الطلبة، وتيسر المرافق بها للسكنى، ودام على تلك الحال إلى أن جاوز العشرين من عمره، فتاقت نفسه إلى الهجرة إلى الشرق، واختار المدينة المنورة، لأن والده سبقه إليها 1908 فراراً من ظلم فرنسا، فالتحق به متخفياً أواخر سنة 1911م، كما خرج والده متخفياً، ومر في وجهته هذه بالقاهرة، وأقام بها ثلاثة أشهر، وحضر بعض دروس العلم في الأزهر، وعرف أشهر علمائه وحضر دروس كل من:

ـ الشيخ سليم البشري.

ـ والشيخ محمد بخيت، وحضر درسه في البخاري في رواق العباسي.

ـ والشيخ يوسف الدجوي، حضر درسه في البلاغة.

ـ والشيخ عبد الغني محمود، حضر له درساً في المسجد الحسيني.

ـ والشيخ السمالوطي، حضر له درساً في المسجد الحسيني.

ـ والشيخ سعيد الموجي الذي كان له سند عالٍ في رواية الموطأ، وطلب أن يرويه عنه بذلك السند. وحضر مجالسه في جامع الفكهاني مع جمهور من الطلبة، وتولى الإبراهيمي قراءة بعض الموطأ عليه من حفظه[4].

---

(1) المصدر نفسه (274/5).

(2) المصدر نفسه (274/5).

(3) الشيخ البشير الإبراهيمي إمام في مدرسة الأئمة، د . محمد عمارة ص 7.

(4) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (275/5).

وحضر عدة دروس في دار الدعوة والإرشاد التي أسسها الشيخ رشيد رضا في منيل الروضة، وزار شاعر العربية الأكبر أحمد شوقي، وأسمعه عدة قصائد من شعره من حفظه فتهلل ـ رحمه الله ـ واهتزَّ، كما اجتمع بشاعر النيل حافظ إبراهيم في بعض أندية القاهرة، وأسمعه من حفظه شيئاً من شعره كذلك[1].

5 . رحلته إلى المدينة:

خرج الإمام محمد البشير الإبراهيمي من القاهرة قاصداً المدينة المنورة، فركب البحر من بورسعيد إلى حيفا، ومنها ركب القطار إلى المدينة، وكان وصوله إليها في أواخر سنة 1911م، واجتمع بوالده ـ رحمه الله ـ وطاف بحلق العلم في الحرم النبوي مختبراً، فلم يرق له شيء منها واعتبرها غثاء يلقيه رهط ليس لهم من العلم والتحقيق شيء. وقال: لم أجد علماً صحيحاً إلا عند رجلين هما شيخاي:

ـ الشيخ العزيز الوزير التونسي.

ـ والشيخ أحمد الفيض أبادي الهندي.

فهما والحق يقال عالمان محققان وسّعا أفق الإدراك في علوم الحديث وفقه السنة، ولم أكن راغباً إلا في الاستزادة من علم الحديث رواية، ومن علم التفسير، فلازمتهما ملازمة الظل، وأخذت عن الأول الموطأ دراية، ثم أدهشني تحقيقه في بقية العلوم الإسلامية، فلازمت درسه في فقه مالك، ودرسه في «التوضيح» لابن هشام، ولازمت الثاني في درسه لصحيح مسلم، وأشهد أني لم أر لهذين الشيخين نظيراً من علماء الإسلام وقد علا سني، واستحكمت التجربة، وتكاملت الملكة في بعض العلوم، ولقيت من المشايخ ما شاء الله أن ألقى، ولكنني لم أر مثل الشيخين في فصاحة التعبير ودقة الملاحظة والغوص عن المعاني، واستنارة الفكر، والتوضيح للغوامض، والتقريب للمعاني القصية، ولقد كنت لكثرة مطالعتي لكتب التراجم والطبقات قد كونت صورة للعالم المبرز في العلوم الإسلامية منتزعة مما يصف به كتّاب التراجم بعض مترجميهم، وكنت أعتقد أن تلك الصورة الذهنية لم تتحقق في الوجود الخارجي منذ أزمان، ولكنني وجدتها محققة في هذين العالمين الجليلين، وقد مات الشيخ الوزير بالمدينة في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

وأما الشيخ حسين أحمد ؛ فقد سلمه الشريف حسين بن علي إلى الإنجليز في أواخر ثورته المشؤومة، فنفوه إلى مالطا، ثم أرجعوه إلى وطنه الأصلي (الهند)، وعاش بها سنين، وانتهت إليه رئاسة العلماء بمدينة العلم (ديوبند)، ولما زرت باكستان للمرَّة الأولى 1952م كاتبته، فاستدعاني بإلحاح إلى زيارة الهند، ولم يقدر لي ذلك، وفي هذه العهود الأخيرة بلغتني وفاته بالهند[2].

ـ وأخذ أيام مجاورته بالمدينة علم التفسير عن الشيخ الجليل إبراهيم الأسكوبي، وكان ممن يشار إليهم في هذا العلم مع تورع وتصاون هو فيهما نسيج وحده.

---

(1) المصدر نفسه (275/5).

(2) المصدر نفسه (276/5).

. وأخذ الجرح والتعديل وأسماء الرجال عن الشيخ أحمد البرزنجي الشهرزوري في داره أيام انقطاعه عن التدريس في الحرم النبوي، وكان من أعلام المحدثين، ومن بقاياهم الصالحة.

. وأخذ أنساب العرب وأدبهم الجاهلي والسيرة النبوية عن الشيخ محمد عبد الله زيدان الشنقيطي، وهو أعجوبة الزمان في حفظ اللغة العربية وأنساب العرب وحوادث السيرة.

. وأتمَّ معلوماته في علم المنطق عن الشيخ عبد الباقي الأفغاني بمنزله، وكان رجلاً مسناً منقطعاً عن أسباب الدنيا، قرأ عليه الحكمة المشرقية، وكان قيماً عليها بصيراً بدقائقها.

. وذاكر صاحبه الشيخ أحمد خيرات الشنقيطي سنين عديدة في اللغة والشعر الجاهلي ومنه المعلقات العشر، وصاحبه محمد العمري الجزائري أمهات الأدب المشهورة، خصوصاً الكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، فقد ختماهما مطالعة مشتركة، فاحصة متأنية، وكذلك فعلا بكتاب الأغاني من أوله إلى اخره، وبالجملة فقد كانت إقامته بالمدينة المنورة أيام خير وبركة[1].

وكان ينفق أوقاته على إلقاء دروس في العلوم التي لا يحتاج فيها إلى مزيد كالنحو والصرف والعقائد والأدب، وكان يتردد على المكتبات الجامعة فلا يراه الرائي إلا في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، حتى استوعب معظم كتبها النادرة قراءة، وفي مكتبة السلطان محمود، وفي مكتبة شيخه الوزير، وفي مكتبة بشير أغا، أو في مكتبات الأفراد الغاصة بالمخطوطات مثل مكتبة ال الصافي، ومكتبة رباط سيدنا عثمان، وفي مكتبة ال المدني، وال هاشم، ومكتبة الشيخ عبد الجليل برادة، ومكتبة الوزير التونسي العربي زروق، كما كان يستعير المخطوطات من أصدقائه وتلاميذه الشناقطة، منها ديوان غيلان ذي الرمة، فيقرأها ويحفظ عيونها، وقد حفظ في تلك الفترة معظم ديوان ذي الرمة، كل هذا والشيخ الإبراهيمي لم ينقطع عن إلقاء الدروس[2].

6 . الحرب العالمية الأولى وهجرته إلى دمشق:

ولما جاءت سنة 1917م أمرت الحكومة العثمانية بترحيل سكان المدينة كلهم إلى دمشق بسبب استفحال ثورة الشريف حسين بن علي، وعجز الحكومة عن تموين الجيش الذي بلغ عدده خمسين ألفاً، وتموين المدنيين الذين يبلغ تعدادهم ثمانين ألفاً، فاقتضى تدبير قوادها العسكريين إذ ذاك أن ينقل سكان المدينة إلى مصدر الأقوات في دمشق بدل أن تنقل الأقوات منها إليهم، فكان الشيخ محمد البشير من أوائل المطيعين لذلك الأمر، وخرج مع والده إلى دمشق في شتاء 1917م، وكان من أول وصوله إلى دمشق اهتم بلقاء رجال العلم، وكانوا أول من بدأ بالفضل، فزاروه في منزله، وتعرف على العلماء، وعرف من خلال مجالسه الأولى مراتبهم، واصطفى منهم جماعة من أولهم صديقه الحميم الشيخ محمد بهجت البيطار[3].

---

(1) المصدر نفسه (276/5).

(2) المصدر نفسه (277/5).

(3) المصدر نفسه (277/5).

وما لبث شهراً حتى انهالت عليه الرغبات في التعليم بالمدارس الأهلية، فاستجاب لبعضها، وحمله إخوانه على إلقاء دروس في الوعظ والإرشاد بالجامع الأموي بمناسبة حلول شهر رمضان، فامتثل وألقى دروساً (تحت قبة النسر الشهيرة) على طريقة الأمالي، فكان يجعل عماد الدرس حديثاً يمليه من حفظه بالإسناد إلى أصوله القديمة، ثم أملى تفسيره بما يوافق روح العصر وأحداثه، فسمع الناس شيئاً لم يألفوه ولم يسمعوه إلا في دروس الشيخ بدر الدين الحسني، ثم بعد خروج الأتراك من دمشق وقيام حكومة الاستقلال العربي دعته الحكومه الجديدة إلى تدريس الاداب العربية بالمدرسة السلطانية، (وهي المدرسة الثانوية الوحيدة إذ ذاك)، مشاركاً للأستاذ اللغوي الشيخ عبد القادر المبارك، فاضطلع بما حمل من ذلك، وتلقى عنه التلامذة دروساً في الأدب العربي الصميم، وكانت الصفوف التي يدرّس لها الأدب العربي هي الصفوف النهائية المرشحة للبكالوريا، وقد تخرّج عنه جماعة من الطلبة هم من عماد الأدب العربي في سوريا منهم:

. الدكتور جميل صليبا.

. والدكتور أديب الروماني.

. والدكتور المحايري.

والدكتور عدنان الأتاسي.

ولما دخل الأمير فيصل بن الحسين دمشق اتصل بالشيخ محمد بشير الإبراهيمي، وأراده على أن يبادر بالرجوع إلى المدينة ليتولى إدارة المعارف بها، ولم يكن ذلك في نيته ولا قصده، لما طرأ على المدينة من تغير في الأوضاع المادية والنفسية، فأبى ذلك عليه، وما فتأئ الأمير يلح عليه فيصدّ ويأبى، إلى أن سنحت الفرصة فكرّ راجعاً إلى الجزائر موطن ابائه وعشيرته[1].

لم يكن الشيخ الإبراهيمي مع ثورة الشريف حسين بن علي ضد الخلافة العثمانية والمتحالف مع الإنجليز، فقد كان الشيخ ضد هذه الثورة، واستقر بدمشق قرابة أربع سنوات.

. وفي دمشق طلب منه القائد التركي جمال باشا بواسطة أحد أعوانه، التعاون مع العثمانيين، ولكنه أبى وفضَّل الاشتغال بالتدريس، فعمل أستاذاً للعربية في المدرسة السلطانية.

. وفي دمشق تزوج، وفيها توفي والده وأحد أولاده[2].

7 . لقاؤه بابن باديس في المدينة:

كان من تدابير الأقدار الإلهية للجزائر، ومن مخبَّآت الغيوب لها ؛ أن يرد لها عليَّ بعد استقراري في المدينة المنورة سنة وبضعة أشهر أخي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك، الشيخ عبد الحميد بن باديس، أعلم علماء الشمال الأفريقي . ولا أغالي . وباني النهضات العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية للجزائر.

---

(1) المصدر نفسه (277/5).

(2) الشيخ البشير الإبراهيمي، د . محمد عمارة ص 10.

وبيت ابن باديس في قسنطينة بيت عريق في السؤدد والعلم، ينتهي نسبه في سلسلة كعمود الصبح إلى المعز بن باديس، مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى والتي امتد ظلها على قسنطينة ومقاطعتها حيناً من الدهر[1].

يقول محمد بشير الإبراهيمي: ومع تقارب بلدينا، بحيث لا تزيد المسافة بيننا على مائة وخمسين كيلومتراً، ومع أننا لِدَتان في السن يكبرني الشيخ بنحو سنة وبضعة أشهر، رغم ذلك كله، فإننا لم نجتمع قبل الهجرة إلى المدينة، ولم نتعارف إلا بالسماع، لأنني كنت عاكفاً في بيت والدي على التعلم، ثم على التعليم، وهو كان يأخذ العلم من علماء قسنطينة متبعاً لتقاليد البيت لا يكاد يخرج من قسنطينة، ثم بعد بلوغ الرشد ارتحل إلى تونس، فأتمَّ في جامع الزيتونة تحصيل علومها.

كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي، ونخرج إلى منزلي، فنسهر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى اخر الليل، حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفترق إلى الليلة الثانية، إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها بالمدينة المنورة.

كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبيراً للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصَّلة لتلك النهضة الشاملة، التي كانت كلها صوراً ذهنية تتراءى في مخيلتينا، وصحبها من حسن النيَّة وتوفيق الله ما حقَّقها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة 1913م هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز للوجود إلا في سنة 1931م.

8 . رجوع ابن باديس إلى الجزائر:

ورجع الشيخ . ابن باديس . إلى الجزائر بعد زيارته للمدينة واتفاقه مع محمد البشير الإبراهيمي على خطة عمل شاملة لنهضة الجزائر في عام 1913م، بعد أن يقنع الإبراهيمي والده بأنه لاحق به إلى الجزائر، وأن رجوعه يترتب عليه إحياء الدين والعربية وقمع للابتداع والضلال، وإنكاء للاستعمار الفرنسي.

وكان هذا هو المنفذ الوحيد الذي يستطيع أن يدخل منه على نفس والده ليسمح له بالرجوع إلى الجزائر.

وشرع ابن باديس بعد رجوعه من أول يوم في تنفيذ الخطوة الأولى من البرنامج الذي اتفق فيه مع الإبراهيمي ففتح صفوفاً لتعليم العلم، واحتكر مسجداً جامعاً من مساجد قسنطينة لإلقاء دروس التفسير وكان إماماً فيه، دقيق الفهم لأسرار كتاب الله، فما كاد يشرع في ذلك ويتسامع الناس به حتى انهال عليه طلاب العلم من الجبال والسهول إلى أن ضاقت بهم المدينة، وأعانه على تنظيمهم وإيوائهم وإطعام المحاويج منهم جماعة من أهل الخير ومحبِّي العلم، فقويت بهم عزيمته، وسار لا يلوي على صائح.

واشتعلت الحرب العالمية الأولى وهو في مبدأ الطريق، فاعتصم بالله فكفاه شرَّ الاستعمار، وكان لوالده مقام محترم عند حكومة الجزائر، فسكتت عن الابن احتراماً لشخصية الوالد، وظهرت النتائج المرجوة لحركته في السنة الأولى.

---

(1) المصدر نفسه (278/5).

وكانت في السنة الثانية وما بعدها أكبر، وعدد الطلبة أوفر، إلى أن انتهت الحرب[1].

9 . رجوع الإبراهيمي إلى الجزائر:

قال الشيخ محمد البشير: ورجعت أنا إلى الجزائر فلقيني ـ ابن باديس ـ بتونس، وابتهج لمقدمي أكثر من كل أحد لتحقيق أمله المعلَّق عليَّ، وزرته بقسنطينة قبل أن أنقلب إلى أهلي، ورأيت بعيني النتائج التي حصل عليها أبناء الشعب الجزائري في بضع سنوات من تعليم ابن باديس، واعتقدت من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركة لها ما بعدها، وأن هذه الخطوة المسدَّدة التي خطاها ابن باديس هي حجر الأساس في نهضة عربية في الجزائر، ولمست بيدي اثار الإخلاص في أعمال الرجال، ورأيت، ورأيت شباناً ممن تخرَّجوا على يد هذا الرجل، وقد أصبحوا ينظمون الشعر العربي بلغة فصيحة وتركيب عربي حر، ومعان بليغة، وموضوعات منتزعة من صميم حياة الأمة، وأوصاف رائعة في المجتمع الجزائري، وتشريح لأدوائه، ورأيت جماعة أخرى من أولئك التلاميذ وقد أصبحوا يحبرون المقالات البديعة في الصحف، فلا يقصرون عن أمثالهم من إخوانهم في الشرق العربي، واخرون يعتلون المنابر، فيحاضرون في الموضوعات الدينية والاجتماعية، فيرتجلون القول المؤثِّر، والوصف الجامع، ويصفون الدواء الشافي بالقول البليغ[2].

* * *

(1) المصدر نفسه (279/5).
(2) المصدر نفسه (279/5).

ثانياً: انطلاقه في الدعوة وتأسيس جمعية العلماء

1 . انطلاقه في الدعوة:

استقر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ببلده، وبدأ من أول يوم في العمل الذي يؤازر عمل ابن باديس، وشرع في عقد الندوات العلمية للطلبة، والدروس الدينية للجماعات القليلة، فلما تهيأت الفرصة انتقل إلى إلقاء الدروس المنظمة للتلامذة الملازمين، ثم تدرَّج لإلقاء المحاضرات التاريخية والعلمية على الجماهير الحاشدة في المدن العامرة والقرى الاهلة، وإلقاء دروس في الوعظ والإرشاد الديني كل جمعة في بلد، ثم لما تمَّ استعداد الجمهور الذي هزته صيحات الإبراهيمي إلى العلم، أسَّس مدرسة صغيرة لتنشئة طائفة من الشباب نشأة خاصة، وتمرينهم على الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير، بعد تزويدهم بالغذاء الضروري من العلم.

وكانت أعماله هذه في التعليم الذي وقف عنايته عليه فاترة أحياناً لخوفه من مكائد الحكومية الاستعمارية، إذ ليس له سند يأوي إليه كما لأخيه ابن باديس، وكانت حركاته منذ نزل بأرض الوطن مثار ريب عند الحكومة ومنبع شكوك، حتى صلاته وخطبه في يوم الجمعة، فكان يتغطى لها بألوان من التمويه، حتى أنه تظاهر عدة سنين بتعاطي التجارة وغشيان الأسواق لإطعام من يعولهم من أفراد أسرته. ولكن الحكومة كانت تراقب بحذر، ولم تطمئن إلى حركته، فكان بوليسها يلاحقه بالتقارير ويضيق الخناق على كل من يزوره من تونس أو الحجاز، وكل هذا ولم ينقطع عن الدروس لطلبة العلم بالليل[1].

2 . تأسيس جمعية العلماء:

قال الإبراهيمي في هذه الفترة ما بين 1920م إلى 1930م: كانت الصلة بيني وبين ابن باديس قوية، وكنا نتلاقى في كل أسبوعين أو كل شهر على الأكثر، يزورني في بلدي «سطيف»، أو أزوره في قسنطينة، فنزن أعمالنا بالقسط، ونزن اثارها في الشعب بالعدل، ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختل أبداً، وكنا نقرأ للحوادث والمفاجات حسابها، فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاصات لتأسيس جمعية العلماء الجزائريين[2].

وقال أيضاً: كملت لنا على هذه الحالة عشر سنوات، كانت كلها إعداداً وتهيئة للحدث الأعظم، وهو إخراج جمعية العلماء من حيِّز القول إلى حيِّز الفعل، وأصبح لنا جيش من التلامذة يحمل فكرتنا وعقيدتنا، مسلَّح بالخطباء والكتَّاب والشعراء، يلتفُّ به مئات الالاف من أنصار الفكرة وحملة العقيدة، يجمعهم كلهم إيمان

(1) المصدر نفسه (280/5).

(2) المصدر نفسه (280/5).

واحد وفكرة واحدة، وحماس متأجج، وغضب حاد على الاستعمار، وكانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي:

ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربّيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمَّت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا.

كانت سنة 1930م هي السنة التي تمَّ بتمامها قرن كامل على احتلال فرنسا للجزائر، فاحتفلت بتلك المناسبة احتفالاً قدّرت له ستة أشهر ببرنامج حافل مملوء بالمهرجانات، ودعت إليه الدنيا كلها، فاستطعنا بدعايتنا السرية أن نفسد عليها كثيراً من برامجها، فلم تدم الاحتفالات إلا شهرين، واستطعنا بدعايتنا العلنية أن نجمع الشعب الجزائري حولنا ونلفت أنظاره إلينا[1].

تكامل العدد وتلاحق المدد.. العدد الذي نستطيع أن نعلن به تأسيس الجمعية، والمدد من إخوان لنا كانوا بالمشرق العربي مهاجرين أو طلاب علم، فأعلنا تأسيس الجمعية في شهر مايو سنة 1931م، بعد أن أحضرنا لها قانوناً أساسياً مختصراً من وضعي أدرته على قواعد من العلم والدين لا تثير شكاً ولا تخيف، وكانت الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت تستهين بأعمال العالم المسلم، وتعتقد أننا لا نضطلع بالأعمال العظيمة، فخيَّبنا ظنها والحمد لله[2].

وقال الشيخ «محمد البشير الإبراهيمي»: دعونا فقهاء الوطن كلهم، وكانت الدعوة التي وجَّهناها إليهم صادرة باسم الأمة كلها، ليس فيها اسمي ولا اسم ابن باديس، لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جهودهم، ووصفنا إياهم بأنهم بلاء على الأمة وعلى الدين لسكوتهم على المنكرات الدينية، وبأنهم مطايا للاستعمار يذلُّ الأمة ويستعبدها باسمهم.

فاستجابوا جميعاً للدعوة، واجتمعوا في يومها المقرَّر، ودام اجتماعنا في نادي الترقي بالجزائر أربعة أيام كانت من الأيام المشهودة في تاريخ الجزائر، ولما تراءت الوجوه وتعالت أصوات الحق، أيقن أولئك الفقهاء أنهم ما زالوا في دور التلمذة، وخضعوا خضوع المسلم للحق، فأسلموا القيادة لنا. فانتُخب المجلس الإداري من رجال أكفاء جمعتهم وحدة المشرب، ووحدة الفكرة، ووحدة المنازع الاجتماعية والسياسية، ووحدة المناهضة للاستعمار. وقد وكل المجتمعون ترشيحهم إلينا، فانتخبوهم بالإجماع، وانتخبوا ابن باديس رئيساً، وكاتب هذه الأسطر وكيلاً نائباً عنه، وأصبحت الجمعية حقيقة واقعة قانونية. وجاء دور العمل.

وهذه المرحلة من حياتي هي مناط فخري وتاج أعمالي العلمية والاجتماعية والأفق المشرق من حياتي.

وهذه هي المرحلة التي عملت فيها لديني ولغتي ووطني أعمالاً أرجو أن تكون بمقربة من رضى الله، وهذه هي المواقف التي أشعر فيها كلما وقفت أردُّ ضلالات المبتدعة في الدين، أو أكاذيب الاستعمار، أشعر كأن كلامي امتزج بزجل الملائكة بتسبيح الله.

---

(1) المصدر نفسه (280/5).

(2) المصدر نفسه (281/5).

وكلَّفني إخواني أعضاء المجلس الإداري في أول جلسة أن أضع للجمعية لائحة داخلية نشرح أعمالها كما في أذهاننا، لا كما تتصوّرها الحكومة وأعوانها المضلِّلون منا، فانتبذت ناحية وواصلت طرفي ليلة في سبكها وترتيبها، فجاءت في مائة وسبع وأربعين مادة، وتلوتها على المجلس لمناقشتها في ثماني جلسات في أربعة أيام، وكان يحضر الجلسات طائفة كبيرة من المحامين والصحافيين العرب المثقفين بالفرنسية، فأعلنوا في نهاية عرض اللائحة إيمانهم بأن العربية أوسع اللغات، وأنها أصلح لغة لصوغ القوانين ومرافعات المحامين، وكأنما دخلوا في الإسلام من ذلك اليوم. وخطب الرئيس عند تمام مناقشة اللائحة وإقرارها بالإجماع خطبة مؤثرة أطراني فيها بما أبكاني من الخجل، وكان مما قال: عجبت لشعب أنجب مثل فلان أن يضلَّ في دين أو يخزى في دنيا، أو يُذلَّ لاستعمار، ثم خاطبني بقوله: وري بك زناد هذه الجمعية[1].

3 . الاستعمار المادي والاستعمار الروحاني:

كان من نتائج الدراسات المتكررة للمجتمع الجزائري بين الإبراهيمي وبين ابن باديس منذ اجتماعهما في المدينة المنوَّرة، أن البلاء المنصبّ على هذا الشعب المسكين ات من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويتعرقان لحمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه: استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي يعتمد على الحديد والنار، واستعمار روحاني يمثِّله مشائخ الطرق، المؤثرون في الشعب، والمغلغلون في جميع أوساطه، المتاجرون باسم الدين، المتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية. وقد طال أمد هذا الاستعمار الأخير، وثقلت وطأته على الشعب حتى أصبح يتألم ولا يبوح بالشكوى أو الانتقاد خوفاً من الله بزعمه. والاستعماران متعاضدان يؤيِّد أحدهما الاخر بكل قوَّته، ومظهرهما معاً تجهيل الأمَّة لئلا تفيق بالعلم فتسعى في الانفلات، وتفقيرها لئلا تستعين بالمال على الثورة، فكان من سداد الرأي وإحكام التدبير بين الشيخ الإبراهيمي وبين ابن باديس، أن تبدأ الجمعية بمحاربة هذا الاستعمار الثاني لأنه أهون[2].

قال الإبراهيمي: وكذلك فعلنا، ووجد المجلس الإداري نظاماً محكماً فاتبعه، لذلك كانت أعمال الجمعية متشعبة، وكان الطريق أمام المجلس الإداري شاقاً، ولكنه يرجع إلى الأصول الاتية:

. تنظيم حملة جارفة على البدع والخرافات والضلال في الدين، بواسطة الخطب والمحاضرات، ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والأندية والأماكن العامة والخاصة، حتى في الأسواق، والمقالات في جرائدنا الخاصة.

. الشروع العاجل في التعليم العربي للصغار فيما تصل إليه أيدينا من الأماكن، وفي بيوت الاباء ربحاً للوقت قبل بناء المدارس.

. تجنيد المئات من تلاميذنا المتخرجين، ودعوة الشبان المتخرجين من جامع الزيتونة للعمل في تعليم أبناء الشعب.

. العمل على تعميم التعليم العربي للشبان على النمط الذي بدأ به ابن باديس.

---

(1) المصدر نفسه (281/5).

(2) المصدر نفسه (282/5).

. مطالبة الحكومة برفع يدها عن مساجدنا ومعاهدنا التي استولت عليها، لنستخدمها في تعليم الأمَّة دينها، وتعليم أبنائها لغتهم.
. مطالبة الحكومة بتسليم أوقاف الإسلام التي احتجزتها ووزَّعتها على معمِّريها، لتصرف في مصارفها التي وقفت عليها. وكانت من الكثرة بحيث تساوي ميزانية دولة متوسطة.
. مطالبة الحكومة باستقلال القضاء الإسلامي في الأحوال الشخصية مبدئياً.
. مطالبة الحكومة بعدم تدخلها في تعيين الموظفين الدينيين.

هذه معظم الأمهات التي تدخل في صميم أعمال الجمعية، منها ما بدأناه بالفعل ولاقينا فيه الأذى، فصبرنا حتى كانت العاقبة لنا، ومنها ما طالبنا به حتى أقمنا حق الأمَّة فيه، وفضحنا الاستعمار شرَّ فضيحة، ومجموع هذه المطالب في ظاهرها دينية، ولكنها في معناها وفي نظر الاستعمار هي نصف الاستقلال.

كانت السنة الأولى من عمر الجمعية سنة غليان: من جهتنا في تكوين الشُّعب في كل مدينة وكل قرية لتنفيذ مقاصد الجمعية، وغليان السخط علينا من الاستعمار، لأننا فاجأناه بما تركه مشدوهاً حائراً، لا يدري ما يفعل، ولا من أين يبدأ في مقاومة حركتنا، وتفرَّق أعضاء الجمعية على القطر كله يرشدون ويعظون ويزرعون الوعي، ويراقبون حركة التعليم ويحضرون أماكنه.

وعقدنا الاجتماع العام في السنة الثانية، فكانت النتيجة باهرة، والعزائم أقوى، والأمَّة إلينا أميل، وخرج المتردِّدون عن ترددهم، فانضموا إلينا، وأعيد انتخاب المجلس، فأسفر عن بقاء القديم، وزيادة أعضاء ظهرت مواهبهم في العلم، وكشَّر الاستعمار عن أنيابه، فبدأ يمنعنا من إلقاء الدروس في المساجد الواقعة في قبضته، وثارت نخوة الأمَّة، فأنشأت بمالها بضعة وتسعين مسجداً حرَّاً في سنة واحدة في أمهات القرى[1].

4 . عواصم المقاطعات الثلاث:

وفي هذه السنة قررت الجمعية تعيين العلماء الكبار في عواصم المقاطعات الثلاث، ليكون كل واحد منهم مشرفاً على الحركة الإصلاحية والعلمية في المقاطعة كلها.

قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: فأبقينا الشيخ ابن باديس في مدينة قسنطينة، وحمّلناه مؤونة الإشراف على الحركة في جميع المقاطعة، وخصصنا الشيخ الطيب العقبي بالجزائر ومقاطعتها، وخصصوني بمقاطعة وهران وعاصمتها العلمية القديمة تلمسان، وكانت هي إحدى العواصم العلمية التاريخية، التي أخنى عليها الدهر، فانتقلت إليها بأهلي وأحييت بها رسوم العلم، ونظمت دروساً للتلاميذ الوافدين على حسب درجاتهم، وما لبثت إلا قليلاً حتى أنشأت فيها مدرسة دار الحديث، وتبارى كرام التلمسانيين في البذل لها حتى برزت للوجود تحفة فنية من الطراز الأندلسي، وتحتوي على مسجد وقاعة محاضرات وأقسام لطلبة العلم، واخترت لها نخبة من المعلمين الأكفاء للصغار، وتوليت بنفسي تعليم الطلبة الكبار من الوافدين وأهل البلد، فكنت ألقي عشرة

(1) المصدر نفسه (283/5).

دروس في اليوم، أبدأها بدرس في الحديث بعد صلاة الصبح، وأختمها بدرس في التفسير بين المغرب والعشاء، وبعد صلاة العتمة أنصرف إلى أحد النوادي، فألقي محاضرة في التاريخ الإسلامي، فألقيت في الحقبة الموالية لظهور الإسلام من العصر الجاهلي إلى مبدأ الخلافة العباسية بضع مئات من المحاضرات[1].

وفي فترة العطلة الصيفية كان يختم الدروس كلها، ويخرج يومياً للجولان في الإقليم الوهراني مدينة مدينة وقرية قرية، فيلقي في كل مدينة درساً أو درسين في الوعظ والإرشاد، ويتفقد شُعبها ومدارسها، وكانت أيام جولاته كلها أيام أعراس عند الشعب، يتلقونه على عدة أميال من المدينة أو القرية، وينتقل بعض الناس معه إلى عدة مدن وقرى. فكان ذلك في نظر الاستعمار تحدياً له ولسلطته، وفي نظر الشعب تمجيداً للعلم والدين وإغاظة للاستعمار. فإذا انقضت العطلة اجتمع في الجزائر العاصمة وعقد الاجتماع العام، وفي أثره الاجتماع الإداري، ويقدم كل واحد من الدعاة حسابه، ويتم تنظيم شؤون السنة الجديدة، ثم ينصرفون إلى مراكزهم.

وبلغت إدارة الجمعية وهي في مستهل حياتها من النظام والقوة مبلغاً قوياً بديعاً، فأصبحوا لا يتعبون إلا في التنقل والحديث. أما الحكومة الاستعمارية ؛ فقد بنى العلماء أمرهم من أول خطوة على الاستخفاف بها وبقوانينها، وقد كانوا يعلنون في جرائدهم كل أسبوع بأن القوانين الظالمة لا تستحق الاحترام من الرجال الأحرار، ويقولون: نحن أحرار فلتفعل فرنسا ما شاءت.

وكان هذا الكلام ومثله أنكى عليها من وقع السهام، لأنها لم تألف سماعه، وقد اطمأنت إلى أن الشعب الجزائري قد مات، كما صرح بذلك أحد ساستها الكبار في خطبة ألقاها على ممثلي الأمم في المهرجان الذي أقامته في عيدها المئوي لاحتلال الجزائر، وكان مما قال: لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه، ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار[2].

وكانت أعمال الإخوان في المقاطعتين الأخريين مشابهة لأعمال الشيخ محمد البشير بمقاطعة وهران، لأنهم كانوا على منهاج واحد، ويسيروا على برنامج واحد، عاهدوا الله على تنفيذه[3].

5 . نفيه إلى «افلو» بالجزائر ووفاة ابن باديس:

رفض الشيخ محمد البشير الإبراهيمي دعم فرنسا في الحرب العالمية الثانية، وتمَّ نفيه من قبل السلطات الفرنسية إلى منفاه بمدينة «افلو»، قال الإبراهيمي عن ذلك: ولما ضاقت فرنسا ذرعاً بأعمالي ونفد صبرها على التحديات الصارخة لها، وأيقنت أن عاقبة سكوتها عنا هو زوال نفوذها وخاتمة استعمارها، اغتنمت فرصة نشوب الحرب العالمية الثانية، وأصدر رئيس وزرائها إذ ذاك «دالاديي» قراراً يقضي بإبعادي إلى الصحراء

---

(1) المصدر نفسه (283/5).

(2) المصدر نفسه (284/5).

(3) المصدر نفسه (284/5).

الوهرانية إبعاداً عسكرياً لا هوادة فيه، لأن في بقائي طليقاً حرًّاً خطراً على الدولة، كما هي عبارته في حيثيات القرار، ووكل تنفيذ قراره للسلطة العسكرية، فنقلوني للمنفى في عاشر أفريل سنة 1940م[1].

ووصلت إليه في منفاه بمدينة «افلو» اخر رسالة من أخيه الشيخ عبد الحميد بن باديس، وكانت وجيزة الألفاظ وقوية المعاني، جاء فيها:

الأخ الكريم الأستاذ الشيخ البشير الإبراهيمي سلمه الله.

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وبعد:

فقد بلغني موقفكم الشريف الجليل العادل، فأقول لكم: الان يا عمر؟، فقد صنت العلوم والدين، صانك الله وحفظك في تركتك، وعظّمتهما عظّم الله قدرك في الدنيا والاخرة، وأعززتهما أعزّك الله أمام التاريخ الصادق، وبيّضت محيّاها بيّض الله محيّاك يوم القيامة وثبّتك على الصراط المستقيم، وجب أن تطالعني برغباتك، والله المستعان.

وبعد أيام فقط من نفيه إلى افلو، وبعد أربعة أيام فقط من كتابة هذه الرسالة الخالدة توفي إلى رحمة الله الشيخ الرئيس الإمام عبد الحميد بن باديس، فجاء نعيه بعد تلك الرسالة بهذا الموت الفجائي، ونشرت جريدة «لاديبيش الحريان» الخبر مقتضباً مع صورة الإمام في الصفحة الأولى في 17 أفريل، فحزن الإبراهيمي حزناً بالغاً، وبكى بكاءً مراً، وضاق صدره لعدم تمكنه من حضور جنازته، ففوض أمره إلى الله واسترجع، وكتب إلى إخوانه بقسنطينة رسالة تعزية بث فيها أحزانه وشجونه، وقسم نفسه إلى قسمين: نفس سائلة، ونفس مجيبة.

نقل للقراء من الرسالة الأسئلة والأجوبة:

قال رحمه الله:

وسألت نفس أختها بأين؟

فأجابت المجيبة بلا أين؟

سؤال السائلة:

أين؟ـــــ يا أخت الحســام المنتضــى	لصـــروف الدهر في اليوم العصـــيب
أين؟ يا أختـــــ الإمـام المرتضـــى	ذو البيـان الحر والرأي المصـــيـب
أين؟ من إن أمحـل الفكـر مضـــى	يرحض الأمحـال بالفكر الخصــيـب

جواب المجيبة:

جـاءه المحتوم من صـــرف القضـــاء	فقضـــى لم يرض بالـدنيا نصــيـب

سؤال:

أيـن؟ يا أخـت ..هـلال الـداجيـة	فـارس الحلبـة كشـــاف الكربكـان
نـوراً في الـليـالي الســـاجيــة	ويـل قـومـي إن تـوارى أو غـربأيـن؟

(1) المصدر نفسه (284/5).

يا أخت إمام الناجية | وأمين الله عن مجد العرب

جواب:

حرمت منه النفوس الراجية | وتمثلت حظها منها الترب

سؤال:

أين؟ حامي الدين من شوب الضلال | ومجير الحق من إفك الهوىأين؟

يا أخت حواري الجلال | صيقل الأذهان إكسير القوى

عاف خفض العيش في برد الظلال | وامتطى للمجد نزاع الشوى

جواب:

خير الأظعان والحي الحلال | أن نجم الدين فيهم قد هوى

سؤال:

أين؟ ليث كان بالأمس هنا | خادراً قد ملأ الدنيا زئير

أغلبا في لبدتين ارتهنا | عن عرين الدين يرمي ويجير

ما ونى عن فرصة أو وهنا | هل رأيت المخذم العضب الطرير

جواب:

مسدودة في أوجه الأخصام | والحمى أصبح نهباً للمغير

سؤال:

أين؟ منا اليوم يا أخت الرئيس | كم به قد رفع القوم الرؤوس

ما له غاب؟ فما منه حسيس | ما له أقصر واليوم عبوس

من رمى الأمَّة بالجد التعيس | وسقاها جرع الغم كؤوس

جواب:

غاله من خاتل الموت دسيس | فهو قد أصبح رهناً في الرموس

إلى أن قال: والسلام عليكم مجتمعين على الحق ومتفرقين في خدمة الحق.

أخوكم المعتد بوجودكم وعطفكم

محمد البشير الإبراهيمي(1)

افلو يوم السبت 13 رجب الفرد عام 1359هـ.

---

(1) الشيخ محمد البشير بأقلام محبيه، دار الأمّة ص 281.

وأرسل محمد البشير الإبراهيمي رسالة تعزية في ابن باديس للأستاذ أحمد توفيق المدني:

الأخ الأستاذ أحمد توفيق المدني حفظه الله:

أخي!.

أَعتقد أن الراحل ـ أخي العزيز ـ لم يكن لأحد دون أحد، بل كان كالشمس لجميع الناس، وأعتقد أن فقده لا يحزن قريباً دون بعيد، وأن أوفر الناس حظاً

من الأسى لهذا الخطب هم أعرف الناس بقيمة الفقيد وبقيمة الخسارة بفقد للعلم والإسلام، لا للجزائر وحدها، فلهذا بعثت أعزيكم على فقد ذلك البحر الذي غاض بعد أن فاض ببقاء اثاره في الحياض وأنهاره في الرياض، كما يعزى على مغيب الشمس بشفقها، وعن ذبول نضارة الشباب ببقاء رونقها، وإن كانت التعازي تعاليل لا تطفأئ الغليل، ولكنها على كل حال تحمل بعض الروح من كبد تتلظى شجناً إلى كبد تتنزى حزناً.

وظني في أخي ؛ أنه لو كان يعرف عنواني لكان أول معزٍّ لأول معزًّى.

واحسرتاه!. رحم الله الراحل العزيز جزاء ما بث من علم وزرع من خير، وثقف من نفوس، ولله ذلك اللسان الجريء، وذلك الجنان المشع، وذلك الرأي الملهم، وإنا لفقدك يا عبد الحميد لمحزنون.

أخوكم الحزين الإبراهيمي[1]

* * *

(1) اثار محمد البشير الإبراهيمي (37/2).

6 ـ تولي الإبراهيمي قيادة جمعية العلماء:

قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: وبعد استقراري في المنفى بأسبوع، تلقيت الخبر بموت الشيخ عبد الحميد ـ رحمه الله ـ بداره في قسنطينة بسرطان في الأمعاء، كان يحس به من سنوات ويمنعه انهماكه في التعليم وخدمة الشعب من التفكير في علاجه، وقد شيع جنازته عشرات الألوف من الأمة رغماً عن قسوة الأحكام العسكرية وقت الحرب، واجتمع المجلس الإداري للجمعية ورؤساء الشُّعب يوم موته، وانتخبوني رئيساً لجمعية العلماء بالإجماع، وأبلغوني الخبر وأنا في المنفى، فأصبحت أدير الجمعية وأصرف أعمالها من المنفى بالرسائل المتبادلة بيني وبين إخواني بواسطة رسل ثقاة.

وكنت لما بدأت نذر الحرب تظهر وغيومها تتلبد أجتمع بالشيخ ابن باديس في داري بتلسمان، فقررنا ماذا نصنع إذا قامت الحرب؟ وقررنا من يخلفنا إذا قبض علينا، وقلبنا وجوه الرأي في الاحتمالات كلها، وقدرنا لكل حالة حكمها، وكتبنا بكل ما اتفقنا عليه نسختين، ولكن كانت الأقدار من وراء تدبيرنا فقبضه الله إليه. بقيت في المنفى ثلاث سنين تقريباً، ولما أطلق سراحي من المنفى أول سنة ثلاث وأربعين، كانت فاتحة أعمالي تنشيط حركة إنشاء المدارس[1].

* * *

(1) المصدر نفسه (285/5).

ثالثاً: من أهم صفات الإبراهيمي

اتصف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في سيرته العطرة بصفات الدعاة الربانيين والعلماء الراسخين، من الصدق والإخلاص، والدعوة إلى الله على بصيرة، والصبر، والرحمة، والعفو، والعزيمة، والتواضع، والإرادة القوية التي تشمل قوة العزيمة، والهمة العالية، والنظام، والدقة، والزهد، والورع والاستقامة.. الخ.

ونحاول في هذه الفقرة أن نركز على بعض الصفات التي تميزت بها الشخصية الإصلاحية العظيمة:

1 . علمه وفقهه وحماسته:

قال الشيخ محمد الغزالي: كانت القاهرة ـ لأكثر من ثلث قرن مضى ـ ملتقى عدة من المجاهدين الكبار، يجيئون إليها في ظل عقيدة جامعة، وأخوة وثيقة، ولغة مشتركة، وامال واحدة.

وكان المسلمون ينظرون إلى الزعماء القادمين نظرة حب جارف وإعزاز بالغ، كانوا يرون النظر في وجوههم عبادة، والحديث معهم والأنس بهم قربى إلى الله... وأذكر من أولئك الزعماء اللاجئين إلى القاهرة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عرفته أو تعرفت إليه، في أعقاب محاضرة بالمركز العام للإخوان المسلمين... كان لكلماته دوي بعيد المدى، وكان تمكنه من الأدب العربي بارزاً في أسلوب الأداء وطريقة الإلقاء، والحق أن الرجل رُزق بياناً ساحراً، وتأنقاً في العبارة يذكرنا بأدباء العربية في أزهى عصورها. لكن هذا ليس ما ربطنا به أو شدَّنا إليه ـ على قيمته المعنوية ـ إنما جذبنا الرجل بإيمانه العميق وحزنه الظاهر على حاضر المسلمنين، وغيظه المتفجر ضد الاستعمار، ورغبته الشديدة في إيقاظ المسلمين ليحموا أوطانهم ويستنقذوا أمجادهم، وخُيِّل لي أنه يحمل في فؤاده الام الجزائريين كلهم وهم يكافحون الاستعمار الفرنسي، ويقدمون المغارم سيلاً لا ينقطع حتى يحرروا أرضهم من الغاصبين الطغاة، وكان في خطاباته يزأر كأنه أسد جريح، فكان ينتزع الوَجل من أفئدة الهيابين ويُهيِّج في نفوسهم الحمية لله ورسوله، فعرفت قيمة الأثر الذي يقول:

«إن مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدم الشهداء» إن الخطيب أو الكاتب يوم يستمد توجيهاته من قلبه ويصبها في نفوس تلامذته ؛ إنما يُكوِّن فيالق من أولي الفداء، ويصنع قذائف حية من رجال ينسفون الباطل نسفاً، وذلك ما أحسسناه، ونحن نستمع إلى الشيخ البشير الإبراهيمي في القاهرة، فعرفنا لماذا ضاق به الفرنسيون وطاردوه، ومن ثمَّ قررنا الالتفاف به والاستمداد منه.

ومن الخطأ تصوُّر أن الشيخ الكبير كان خطيباً ثائراً وحسب.. لقد كان فقيهاً ذكي الفكرة بعيد النظرة. ووقع لي معه حوار في مسألتين طريفتين، قال لي مرة: لعلك قرأت في السيرة الشريفة أن أصحاب رسول الله ـ (ص) ـ ما كانوا ينصرفون عن مجلسه إلا عن ذَوَاق ـ وزن جمال ـ؟

قلت: نعم.

قال: فما الذواق الذي ينالونه في مجلسه؟

فتريَّثْتُ قليلاً ثم أجبت: لعلهم كانوا يتناولون بعض الأطعمة أو الأشربة، كما يقع في عصرنا هذا، عندما نقدِّم للأضياف والوافدين أقداحاً من الشاي أو غيره.

قال لي: ظننتك أفضل من أن تجيب هذه الإجابة الساذجة، أذلك شيء ينوِّه به الأصحاب الكرام؟!.

قلت في تلهف: فما هذا الذواق الوارد في السنة؟

قال: إنه تذوق أرقى، ألا تذكر الحديث الشريف:

ذاق حلاوة الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً؟

إن المجلس النبوي تظلله الحكمة، ومقام النبي فيه ترقيق القلوب، ورفع المستوى، وتخليص الروحانية من شوائب الأرض، وجعل البشر في مصاف

الملأ الأعلى، فما ينصرف أحد عن هذا المجلس الزكي إلا وقد تذوق نازلاً من السماء، ولا يعود إلى أهله إلا بذخر يعليه ويعليهم.

الحقّ، إن هذا المعنى كان جديداً عليّ، غير أني شعرت بأنه الحق، وأنه أولى كثيراً من تفسير الذواق بأنه طعام أو شراب.

وسألني مرة: ما تقول في هذه الذبائح التي تملأ ساحات «منى»، يتحلل بها الحجاج والعامرون من مناسكهم؟ فلم أدر ما أقول، كل ما استطعت أن أجيب به أنها من شعائر الحج والعمرة قربة إلى الله وطعمة للفقراء، وفي الاية: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} [الحج:28].

قال: ليت الحجيج يحققون هذه الغاية، فيأكلون ويتصدقون ويفرح بصنيعهم البائسون الفقراء، إنهم يذبحون ويدعون ذبائحهم على الثرى لا يقربها إنس ولا وحش، فتضيع سدى، وقد نهينا عن إضاعة المال، حبذا لو وضعت خطة للإفادة من هذا الخير المبذول وتعميم النفع به.

وما تمناه الشيخ البشير الإبراهيمي نُفذ بعد ثُلُث قرن، فقد عرفت الان أن ما يذبح يكون بقدر حاجة الفقراء، والباقي يوجه لسد ثغرات الجوع والجفاف في أماكن أخرى.. وهذا هو الفقه الصحيح وحسن التصرف في تنفيذ أحكام الشرع الشريف.

كان لقاؤنا بالشيخ البشير الإبراهيمي مصدر متعة أدبية وعلمية تجعل أدباء القاهرة وعلماءها يهرعون إليه ويتزاحمون عليه، ولكن الرجل كان يشرد بين الحين والحين، فنحس أنه معنا وليس معنا، كان جسمه معنا وقلبه معلقاً بالجزائر، يتحسس أبناءها ويتبع العراك الدائر بين الإسلام والصليبية في هذه القطعة الغالية من دار الإسلام، وكنت أشعر بأنه ما ضَعُف يوماً ولا استكان ولا يئس من روح الله، ولا شك في أن الله ناصر جنده، ومُعز المجاهدين المسلمين.

وهناك أمر لا يعرفه الكثيرون، لقد حاول أن يسد الفجوة بين جماعة الإخوان ورجال الثورة المصرية،، فإن الفريقين يقدرونه ويصغون إلى نصحه، ولكن الشر كان قد تفاقم بين الفريقين، وعزَّ على العلاج، فتوقف محزوناً.

وظل الشيخ البشير، ومعه بعض الجزائريين، يرتبون الأمور بين القاهرة الموالية للمجاهدين، وبين أرض المعركة التي احتدم فيها القتال وتضاعف الشهداء، ولا أنسى من بين أصحاب الشيخ الأخ الفضيل الورتلاني، الذي زاملني في الدراسة، وأنا في تخصص الدعوة والإرشاد، قبل مجيء الإبراهيمي ببضع سنين، وكان الشيخ الفضيل عملاقاً في مبناه ومعناه ورجلاً له وزنه، وكان يتبع الشيخ البشير على أنه تلميذ وفيّ له، ويتعاونان على نصرة القضية الجزائرية بكل ما لديهما من طاقة.

قال لي الشيخ البشير: إنكم بليتم بالاستعمار مثل ما بلينا، وشعرتم بضرواته مثل ما شعرنا، لكنكم لا تعرفون أن ما أصابنا نوع شاذ من الاستعمار يشبه السرطان من بين أنواع العلل المهلكة، إنه كان يريد محو شخصيتنا وعقيدتنا ولغتنا وتاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا، ومن المستحيل الإبقاء عليه أو البقاء معه، إن معنى ذلك الموت الخسيس، وأولى بنا أن نموت جميعاً في ميادين الكفاح والتضحية من أن نموت على هذا النحو الذي يراد لنا. والجزائري إذا غضب تحول إلى شخص اخر، وقد كنت ألمح تغيراً عضوياً في وجهه، بل في كيانه كله عندما يتحدث عن ضرورة الجهاد إلى اخر رمق، وعن ضرورة بقاء الجزائر مسلمة تتكلم بلغة الوحي وتحل الفرنسية.

وها قد نصر الله الجزائر، ونضر وجوه المجاهدين، وعاد الدخيل من حيث جاء، واندحر أتباعه وأعوانه:

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم ... كباطل من خلال الحق منهزم

ومعرفتي بالشيخ البشير الإبراهيمي تجعلني أتساءل عن حدود الوفاء للقيم والمبادأئ التي عاش من أجلها ومات في سبيلها(1).

إني أتخيله حياً، وأتصور أنه يسمع رجلاً يرطن بالفرنسية، ما أحسبه يتركه دون تقريع وتعنيف بالغين، وله الحق في غضبه ؛ فإن الاستعمار العسكري ذَنبُ، والاستعمار الثقافي هو الرأس، والحية لا تموت بقطع ذنبها.

بل الأمر كما قال الشاعر:

لا تقطعن ذَنب الأفعى وترسلها ... إن كنت شهماً فأتْبع رأسها الذّنبا(2)

2 . الروح التجديدية:

يعتبر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من أنصار المدرسة التجديدية التي تؤمن بشجاعة الرأي، وتتقدم الصفوف في بيان مقاصد الشريعة وقيمها النبيلة ومبادئها الراسخة، ويعتبر الشيخ محمد عبده من أكبر العقول التجديدية، وتأثر بهذه المدرسة تأثراً بالغاً في حركته ودعوته وطلبه للعلم وحربه على البدع والخرافات والضلالات.

---

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (8/4).

(2) المصدر نفسه (8/4).

ولقد قال في محمد عبده: ولقد ادخر الله لهذا العصر الذي تأذن فجر الإسلام فيه بالانبلاج، الواحد الذي بذ الجميع في شجاعة الرأي والفكر وقوة العلم والعقل وجرأة اللسان والقلب، وهو محمد عبده، فهز النفوس الجامدة، وحرك العقول الراكدة، وترك دوياً ملأ سمع الزمان، وسيكون له شأن[1].

إنه طريق العلماء المجددين، الذين تخطوا حدود الاجتهاد بمعناه الفقهي إلى تجديد دنيا الأمة بتجديد دينها، والذين امتلكوا الشجاعة التي جعلت منهم الشهود والشهداء.. طريق الإمام أحمد بن حنبل، والعز بن عبد السلام، والربيع بن سالم، وابن تيمية، وغيرهم من العقلانيات التجديدية العظيمة في تاريخ الأمة[2].

وفي 1957م كتب الإمام البشير إلى الذين يحتفلون بذكرى جمال الدين الأفغاني . بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة.. يكتب عن أستاذيه الأفغاني في المدرسة الحديثة للإصلاح بالإسلام، فيقول: إن من البر بأنفسنا أن نذكر العبر منها، ونجعلها دليلنا إذا أظلمت علينا السبل، وقدوتنا إذا أعوزنا الإمام القائد.

العلماء الربانيون في هذه الأمة ثلة من الأولين وقليل من الاخرين، والحكمة في هذه القلة قلة أخرى لا تلد القرون منهم إلا الواحد بعد الواحد، ولا يجيء الواحد إلى الوجود إلا بعد فترة من تحكّم الأهواء واستيلاء الخمول وسفه القيادة، والبعد عن هداية الدين، والجهل بأمور الدنيا وبالصلة الوثيقة بينها وبين الدين، وانطماس المعالم المنصوبة والأعلام الهادية فيهما، فيكون ظهوره تجديداً للدين والدنيا، ودعوة للعزة فيهما معاً، وإصلاحاً لما أفسدته الغفلة منهما معاً، ورمّاً لما تشعث من بنائهما معاً. ومن هذا القليل جمال الدين الأفغاني.

والأفغاني ينظر إليه الخليون الفارغون من علماء القشور والرسوم، على أنه ليس عالماً دينياً بالمعنى الذي يفهمونه من الدين ومن العالم الديني، الذي هو عندهم حاكي أقوال وحافظ اصطلاحات وراوي حكايات، يجلس في حلقته فيفيض في الحلال والحرام، وفي الزهد والرقائق، بكلام مقطوع الصلة بالقلب مقصور على اللسان فهو لا يؤثر، ومن ثم فهو مقصور على سمع السامع، فهو لا يتأثر وليس فيه إلا قال فلان، وقال فلان، وليس منه: قلت ولا أرتأيت ولا فكرت، حتى إذا فرغ من الكلام فرغ كل شيء منه، وخرج من الدرس فوجد البدع والمنكرات من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يهتز لها هزة الغضب ولا يتأثر لها تأثر المنكر، بل يجاري البدع والمبتدعين ويكثر سوادهم، ويكون حجة على الدين لا حجة له.

أما أصحاب العقول المتدبرة، والأفكار المثمرة، والبصائر النيّرة، والموازين الصحيحة للرجال، فإنهم يرون الأفغاني عالماً أي عالم، وفرداً انطوى على عالم، وحكيماً أي حكيم، وأنه أحيا وظيفة العالم الديني وأعاد سيرتها الأولى. .. لقد كان الأفغاني عالماً شجاعاً قوّالاً للحق جريئاً فيه، لا يخشى في كلمة الحق يقولها، ولا في الحق يدعو إليه لومة لائم، وجميع الثغر التي أتُينا منها وعلّة العلل فيها اتية من سكوت علماء الدين وبعدهم عن شؤون المسلمين العامة.

(1) الشيخ محمد بشير الإبراهيمي، د . محمد عمارة ص 39.

(2) المصدر نفسه ص 39.

وقد جزاه الله في الدنيا جزاءً عاجلاً، فرزقه طرازاً من التلامذة المستعدين، نفخ فيهم من روحه، ورباهم على مبادئه، وكانوا من بعده حملة فكرته، الشارحين لها بالعمل، وحسبكم بالأستاذ الإمام محمد عبده.

لقد اقتحم جمال الدين هذا الميدان فكان حجة لبعض العلماء وحجة على بعضهم.

رحمة الله على جمال الدين جزاء ما قدمه للإسلام والمسلمين، وكفاء ما سنه للعلماء من أُسى حسنة لم نزل نتقلب في أعطافها، وندين له بالفضل فيها[1].

هكذا ميز الإمام البشير بين «علماء الرسوم» الذين لا قلوب لهم، ولا حكمة فيهم، ولا شجاعة لديهم، والذين رسم لهم الأفغاني صورة «كاريكاتورية» عندما وصف الواحد منهم بأنه: جبَّة كالخرج، وعمامة كالبرج، ورأس فارغة.

ميَّز الإمام البشير بين هذا الصنف من «العلماء» وبين العلماء الحكماء الذين يجددون الدنيا بتجديد الدين.. وتحدث عن مكانة الأفغاني بين هؤلاء العلماء الحكماء، وعن غرسه الطيب، المتمثل في الإمام محمد عبده[2]، وعن دَيْن هذه المدرسة الإصلاحية، كانت من الصفات البارزة في الإبراهيمي روحه التجديدية التي انعكست في خطبه الدعوية، ونثره المتميز، وشعره التحرري.

3 . مصلح كبير:

كان واضحاً كل الوضوح في فكر الإمام البشير، ومنذ فجر جهاد العلماء المسلمين الجزائريين، أن الأستاذ الإمام محمد عبده هو «المصلح العظيم»، و«إمام المصلحين» و«أعجوبة الأعاجيب» و«صاحب التأثير الأكبر في حركة الإصلاح الجزائرية»..

ولقد كتب في تقرير هذه الحقيقة (1935م): إنه لا نزاع في أن أول صيحة ارتفعت في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح الديني والعلمي في الجيل السابق لجيلنا هي صيحة إمام المصلحين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه، وأنه أندى الأئمة المصلحين صوتاً، وأبعدهم صيتاً في عالم الإصلاح، فلقد جاهر بالحقيقة المرة، وجهر بدعوة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الرجوع إلى الدين الصحيح، والتماس هديه من كتاب الله وسنة نبيه، وإلى تمزيق الحجب التي حجبت عنا نورهما وحالت بيننا وبين هديهما، مبيناً بصوت يسمع الصم، وبلاغة تستنزل العصم، أن علة العلل في سقوط المسلمين وتأخرهم وراء الأمم، وانحطاطهم عن تلك المكانة التي كانت لهم في سالف الزمن ؛ هي بعدهم عن ذلك الهدي الروحاني الأعلى، وأنه لا يرجى لهم فلاح في الدنيا ولا في الاخرة، ولا صلاح حال يستتبع صلاح المال، ولا عزة جانب، تردّ عنهم عادية الغاصبين من الأجانب ؛ إلا إذا راجعوا بصائرهم واسترجعوا ذلك الهدي الذي لم يغصبه منهم غاصب، وإنما هجروه عن طوع أشبه بالكره، واختيار أشبه بالإضرار، فباؤوا بالمهانة والصغار، والضعة والخسارة.

---

(1) اثار الإمام البشير الإبراهيمي (193/5، 194، 196).

(2) الشيخ البشير الإبراهيمي، د . محمد عمارة ص 43.

كانت تلك الصيحة الداوية من فم ذلك المصلح العظيم صاخّة لاذان المتربصين بالإسلام، ولاذان المبطلين من تجار الولاية والكرامات وعبدة الأجداث والأنصاب ولاذان الجامدين من العلماء.. وجمعوا لها وملكتهم غشية الذهول ؛ علماً منهم أن أول اثارها إذا تغلغت في النفوس ؛ هو قطع الطريق على المتربصين وهدم سلطان المبطلين الزائف، ومكانتهم الكاذبة، وجاههم الخادع، وجفاف المراعي الخصبة التي كانوا يسيمون فيها شهواتهم ولذاتهم، ونضوب المنابع الروية من المال الذي كانوا يعلّون منها وينهلون..

كان الأستاذ الإمام أعجوبة الأعاجيب في الألمعية،وبُعد النظر، وعمق التفكير، وجدّة الخاطر، واستنارة البصيرة، وسرعة الاستنتاج، واستشفاف المخبات، حكيم بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معنى.

منقطع النظير في صدق الإلهام، وسداد الفهم، وصدق العزيمة، وخصب القريحة، واستقلال الفكر، ونصاعة الاستدلال، وتمكّن الحجة.

موفور الحظ من طهارة الدخيلة، والانطباع على الفضيلة، مستكمل الأدوات من فصاحة المنطق، وذلاقة اللسان، وقرطسة الفراسة، ودقة الملاحظة، وسلامة العبارة، ومطاوعة البديهة، ورباطة الجأش، وكبر الهمة، ووفرة الملكة الخطابية، وقوة العارضة في البيان، واتساع الصدر لمكاره الزمان وأهله.

حجة من حجج الله في فهم أسرار الشريعة ودقائقها وتطبيقها، وفي البصر بسنن الله في الأنفس والافاق، وفي العلم بطبائع الاجتماع البشري وعوارضه ونقائصه.

وبالجملة، فالرجل فذ من الأفذاذ، الذين لا تكونهم الدراسات وإن دقت، ولا تخرجهم المدارس وإن ترقت، وإنما تقذف بهم قدرة الله إلى هذا الوجود، وتبرزهم حكمته، في فترات متطاولة من الزمن على حين انتكاس الفطرة، واندراس الفضيلة، وانطماس الحقيقة، فيكون وجودهم مظهراً من مظاهر رحمة الله بعباده، وحجة للكمال على النقص، وإصلاحاً شاملاً وخيراً عميقاً.

ولو أن قول الشاعر:

هيهات لا يأتي الزمان بمثله ... إن الزمان بمثله لبخيل

لم يبتذله المترجمون للرجال بوضعه في غير موضعه، حتى صاروا ينشدونه في حق أشخاص يتكرم علينا الزمان بمئات من مثلهم في كل جيل، لولا هذا الابتذال السخيف لهذا البيت لقلنا: إن أحق رجل بانطباقه وصحة إطلاقه هو الأستاذ الإمام، فرضي الله عن الأستاذ الإمام[1] .

وبعبقرية حضارية، يلمح الإمام البشير ما بين «العبقرية العلمية» و«عبقرية المكان» الذي ظهرت فيه، فتغذت منه، واستفادت من تأثيراته على ما وراءه من افاق.. يلمح هذا البعد الحاكم في تأثيرات هذه المدرسة الإصلاحية على ما وراء مصر من البلاد.. فيقول:

وسبحان من قسم الحظوظ بين الجماعات فأعطى كل جماعة حظّاً لا تعدوه، وفرّق الخصائص على البقاع، فخصَّ كل بقعة بسرٍ لا يعدوها، فما زلنا نستجلي من صنع الله لك ـ «يا مصر» ـ وللإسلام لطيفة سماوية،

(1) اثار الإمام البشير الإبراهيمي (177/1 ـ 178).

وهي أنه كلما رثت جدَّة الإسلام وخالطته المحدثات ؛ سطع في أفق من افاقه نجم يهدي السارين إلى سوائه، وارتفع صوت بالدعوة إلى أصول هدايته، ثم لا يلبث ذلك النجم أن يخبو، وذلك الصوت أن يخفت، إلا أن نجماً سطع في أفقك . «يا مصر» . وصوتاً ارتفع في أرجائك، وقد ارتفعت أصوات بالإصلاح الديني في أقطار الإسلام، وفي حقب معروفة من تاريخه، فضاعت بين ضجيج المبطلين وعجيج الضالين، إلا صوت «محمد عبده» فإنه اخترق الحدود وكسر السدود[1].

وتحت عنوان «نشوء الحركة الإصلاحية في الجزائر»:

إن التأثير الأكبر في تكوينها يرجع إلى عدة عوامل:

أولها: نوازع جزئية محدودة، أحدثتها في النفوس المستعدة ؛ الأحاديثُ المتناقلة في الأوساط العلمية عن الإمام محمد عبده، ولو من خصومه الممعنين في التشنيع عليه وسبه ولعنه . وما أكثرهم بهذا الوطن:

فكانت تلك الأحاديث تفعل فعلها في النفوس المتبرمة من الحاضر، والمستشرفة إلى تبدله بما هو خير، وتكيفها تكييفاً جديداً، وتغريها أولاً بالبحث عن منشأ هذه الخصومة العنيفة لهذا الرجل. فإذا علمت أن منشأ ذلك دعوته إلى القران، أو ادعاؤها الاجتهاد كما كانوا يقولون . قرب هذا الاسم منها، فأحبته ولجّت في الانتصار له، إن لم تتبين مشربه كل التبيُّن.

ثانياً: ويضاف إلى هذا العامل قراءة «المنار» . على قلة قرائه في ذلك العهد . واطلاع بعض الناس على كتب المصلحين القيمة، ككتب ابن تيمية، وابن القيم «691 . 751هـ/ 1292 . 1350م»، والشوكاني «1173 . 1250هـ/ 1760 . 1834م» ؛ فهذا عامل له أثره في التمهيد للدعوة الإصلاحية[2].

.. لقد نجمت في هذه العهود الأخيرة ناجمة اضطراب وتبرم من طرائق التعليم المتبعة وكتبه الملتزمة، وارتفعت الأصوات بالشكوى من أضرارها وسوء عواقبها، وكأن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أعلى الحكماء صوتاً بلزوم إصلاحها، وأبلغهم بياناً لأضرارها وسوءاتها ومعايبها، وأسدّهم رأياً في تغييرها بما هو أجدى منها وأنفع، وأكثرهم عملاً جدّياً في ذلك[3].

كان الشيخ الإبراهيمي من صفاته الواضحة إيمانه بالإصلاح، إيماناً عظيماً، وتتلمذ على روادها في عصره، وأصبح من رموز المدرسة الإصلاحية بنكهة بلاغية، وأخلاقية وروحية، وعلمية جزائرية، تشهد دعوته للإصلاح قوتها من كتاب الله عز وجل وفهمه الصحيح للإسلام وفي مقاله عن «الإسلام والمسلمون» يقول:

إن التاريخ لم يعرف ديناً من الأديان لم يبق على أساس الجنسية ولم يرجع على قواعدها إلا دين الإسلام، فهو لا يختص بجنس، وهو صالح لكل جنس، وهو موافق لكل فطرة، وهو ملائم لكل نفس.. وقد اندفع في سيره الأول إلى جهات المعمورة الأربع، وانتظم أمماً مختلفة الأجناس واللغات والطبائع والألوان، فأصبحت تلك الأمم

---

(1) اثار الإمام البشير الإبراهيمي (497/3).

(2) اثار الإمام البشير الإبراهيمي (181/1).

(3) المصدر نفسه (342/1، 343).

ـ على ما بينها من تباين خلقي ـ أمة واحدة مطبوعة بطابع واحد وهو طابع الإسلام، فما هو السر في هذا ..؟

السر هو أنه دين فطري روحي، يحمل في طياته نهاية الكمال الإنساني، وأن أصوله بنيت على حكمة من خالق الحكمة، فتجد في عقائده غذاء العقل، وفي عبادته تزكية النفس، وفي أحكامه رعاية المصلحة، وفي ادابه خير المجتمع، وأن ديناً يأخذ من شرطه التخلق بالأخلاق الشريفة، ويعمد إلى الأرواح مباشرة فيغرس فيها أصول الفضائل الإنسانية، ويعمد إلى الحيوانية فيهذب من حواشيها ويكسر من حدتها، ويفلّ ما فيها من شره وشراسة، ويعمد إلى ما بين المستضعفين والمستكبرين من حاجز وفروق فيجعلها جذاذاً، لحقيقٌ بأن ينتظم تلك الأمم ومثلها معها..

بل وإن التاريخ لم يشهد ديناً جمع بين مطالب الروح والجسم، إلا هذا الدين، وإن السعادة لا تتم في الدارين إلا بالتوفيق بين المطلبين، وهذه عقبة العقبات في طريق السعادة، وسبب الأسباب في استكمالها واختلاقها، وأين تقع القوانين التي هي وضع البشر من التوفيق بين هذين المطلبين.

وإذا كان في الديانات السماوية قبل الإسلام ما لا يفي بحاجة البشر من تحصيل السعادتين ؛ فكيف بالقوانين الوضعية ونحن نرى أرقاها في أرقى الأمم موجهاً إلى استطلا ع البدن، واشباع شهواته ورغائبه، ونراها لا تحمل من جراثيم الإصلاح الروحي إلا قليلاً لا يشفي ولا يكفي[1].

ويقول عن هجر المسلمين للقران وإبتعادهم عنه:

إن أعظم مصيبة أصابت المسلمين ـ وهي جفاؤهم للقران وحرمانهم من هديه وادابه ـ منشؤها من الطرق، فهي التي غشت المسلمين لأول ما طاف بهم طائفها، وغشيهم بهذه الروح الخبيثة روح التزهيد في القران. وكيف لا يزهد المسلمون في القران، وكل ما فيه من فوائد وخيرات وبركات قد انتزعتها منه الطرق وجردته منها، ووضعته في أورادها المبتدعة، ورسومها المخترعة، ونحلته شيوخها ومقدميها وصعاليكها[2].

ولماذا يعنى الناس أنفسهم في فهم القران، وتدبره وحمل النفس على التخلق بأخلاقه والوقوف عند حدوده؛ إذا كان كل ما يناله منه مع هذا التعب يجده في الطريق عفواً بلا تعب وبلا سبب أو بأيسر سبب؟ فإذا كان هذا القران يفيد معرفة الله ـ وهي أعلى مطلب ـ فالقوم عارفون بالله، وإن لم يدخلوا كتاباً ولم يقرؤوا كتاباً، وكل من ينتسب إليهم فهو عارف بالله، بمجرد الانتساب أو مجرد اللحظة من شيخه.

وقال الإبراهيمي أيضاً: وقد قرأنا كثيراً من رسائلهم التي يتراسلون بها، فإذا هم ملتزمون لصفة واحدة يصف بها بعضهم بعضاً، وهي صفة «العارف بالله»، وأكثر الطرقيين سخاء في إعطاء هذا اللقب هم «العلوية»، ونحن قد عرفنا كثيراً من هؤلاء «العارفين بالله» فلم نعرفهم إلا حمراً ناهقة[3].وإذا كان القران متعبداً بتلاوته

---

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 36.

(2) المصدر نفسه ص 392.

(3) المصدر نفسه ص 392.

اللفظية، وهو ستون حزباً ؛ فإن تلاوة «إنجيل التيجاني» القصير وهو «صلاة الفاتح» مرة واحدة تعدل ستة الاف ختمة من القران.

وإذا كان القران قد شرع الغزو . وهو من أحمز الأعمال وأشقها . فإن تلاوة الإنجيل التيجاني مرة واحدة تعدل الاف الغزوات، وهي لا تقوم إلا على حركة اللسان، من غير اقتحام للميدان، ولا تعرض للرمح والسنان[1].

فأي تعطيل للقران أعظم من هذا؟ وأي تهويل لشعائر الإسلام ونقض لحكمها أكبر من هذا؟ وأي تزيين للتفلت من تلك يبلغ ما يبلغه هذا الكلام، من مثل هذا الدجال؟[2].

واهتمامات أستاذنا الإبراهيمي بنهضة الأمة في شتى ميادين الحياة، وفي كل أجزائها الطبيعية والاجتماعية اهتمام المصلح الخبير، والمجدد القدير، الذي عرف الأمراض ووصف بنجاح العلاج والدواء الشافي.

4 . مفكر عظيم:

من صفات الإبراهيمي أنه كان مفكراً متميزاً من الطراز الأول، وكان مفكراً يحترم نفسه وعقله وفكرته ودعوته.. فيتجنب التناقض والزلل، ويمضي في اثاره الكتابية ضمن قواعد جعلته كاتباً له قضاياه الفكرية الأصلية التي توقف عندها يدعو إليها ويبشر بها، وله منهجه الفكري الذي يتميز به حين يطرح هذه القضايا ويدلل عليها[3]، فقد ساد عمل الإبراهيمي الفكري في القضايا التي عالجها، وخاصة منها ما كان في توضيح رؤية الجزائريين للجزائر، وأسلوبه في ترسيخ المقومات وتثبيت الذات ساده مجموعة من القواعد الفكرية يقوم عمله عليها وينطلق منها، ومن هذه القواعد:

أ . قاعدة المقارنة مع الأوضاع المماثلة: عند الشعوب والديانات الأخرى.

والمقارنة أقرب الأساليب إلى نفوس الناس، وأخصر طرق الكاتب إلى توضيح ما يريد إيضاحه:

. ونجد لذلك مثلاً واضحاً في مقارنته بين سلوك الأديان الثلاثة في الجزائر وعملها وما خلفته من اثار: فعلى حين تعرّف الإسلام في إبان قوته وعنفوان فورته إلى الدينين الاخرين بالحق والخير، والعدل والإحسان، وأبقى على الدماء والعقائد والمعابد، بل حماها وحافظ عليها أكثر من محافظة الدول المسيحية، وضرب الخراج على الأرض، ولكنه لم يخرج أهلها غصباً، وضرب الجزية على الرقاب، ولكنه حماها من الظلم، وفتح لها باب العلم.. على حسن فعل الإسلام ذلك ؛ فإن الاستعمار الفرنسي جاء الجزائر يحمل السيف والصليب، ذاك للتمكن وهذا للتمكين، فملك الأرض، واستعبد الرقاب، وفرض الجزى، وسخر العقول والأبدان[4].

. ونجده كذلك واضحاً في المقارنة بين الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي، وبين الاستعمار الفرنسي والعالم الاستعماري كله.

---

(1) المصدر نفسه (1/ 392).

(2) المصدر نفسه (392/1).

(3) المصدر نفسه (391/1).

(4) عيون البصائر ص 54 . 55، الشيخ محمد بشير الإبراهيمي، بأقلام معاصريه ص 184.

فقد خالفت فرنسا هذا العالم الاستعماري كله وخرقت إجماعه، فهو يسالم الأديان حتى الباطل منها وغير المعقول، ويترك أهلها أحراراً في شعائرهم ومعابدهم، أما هي فتضايق الإسلام في الجزائر وتحتكر معابده وشعائره، وتمتهن رجاله، وتبتلع أوقافه، فلا مسجد إلا ما فتحته، ولا مفتي إلا من حنّفته وملّكته، ولا شيخ طريق إلا من سلّكته، ولا حاج إلا من حجّجته أو نسّكته، ولا صائم ولا مفطر إلا على يد لجنتها، ولا هلال إلا ما شهد برؤيته قاضيها[1].

وقال: والاستعمار كله رجس من عمل الشيطان. ولكن هناك تفاوتاً بين استعمار واستعمار، فاستعمار يباشر وسائله بالحقد، ويشربها معاني من الانتقام، واخر يباشر بنوع التسامح واللين، والاستعمار الفرنسي من النوع الأول، وبين النوعين فرق، وإن كانا بغيضين ممقوتين.. وفي الشر خيار لا يقدره قدره إلا المبتلى بالأشد من أنواعه.. ساء مثلاً الاستعماران، ما يقعد منهما الروحانيات المقعد الحسن، وما يقعدها المقعد الوطيء، وما يتعمدها بالقتل العرضي، وما يتليها بالموت البطيء.. وسيسوءان ـ وإن طال أمدهما ـ مصيراً، وسيخذلهما القاهر الذي يمهل ولا يهمل، ولا يجدون من دونه ولياً ولا نصيراً[2].

ـ وكذلك نجده واضحاً في مثل المقارنات التي كان يعقدها بين عمل جمعية العلماء وعمل الأحزاب والمؤسسات الأخرى.

هذا إلى سلسلة طويلة من المقارنات الأخرى التي عقدها البشير خلال مقالاته بين الحاكم والمحكوم، وبين الأصيل والدخيل، وبين الأحزاب في المشرق والأحزاب في أوربا، وبين الإسلام الحقيقي وبين الإسلام «الجزائري» الذي كانت تريده فرنسا للجزائر[3].

ولا تتخذ هذه المقارنات كلها نمطاً واحداً، وما كان لها ذلك مع اختلاف الموضوع وطبيعته والظروف التي تحيط بمعالجته، ومدى ما يكون انذاك من حرج يواجه الباحث حين يطرقه.. ولذلك تباينت الأبعاد التي تطبق بها هذه المقارنات في طبيعتها، عمقاً وقرباً، وقسوة وليناً، وانكماشاً وانبساطاً، وتصريحاً وتلويحاً، وكما تباينت في حدودها المكانية والزمانية، فقد تتجاوز الحاضر إلى الماضي، وقد تتجاوز الجزائر في الحاضر إلى الماضي في الأندلس، وقد تنعقد بين الجانب النظري والصورة العملية، وبين الأوضاع في الجزائر والأوضاع في فرنسا، ولعل من أبرزها هذه المقارنات:

ـ بين القول والفعل في عمل الفرنسيين.

ـ وبين إكرام الإسلام للمسيحية واليهودية.

ـ وأخص المقارنة بين مفهوم السياسة والدين عند الاستعمار، ومفهوم ذلك عند الإسلاميين في سلسلة مقالاته عن جمعية العلماء.

---

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، بأقلام معاصريه ص 184.

(2) المصدر نفسه ص 184.

(3) محاولة الاستعمار لفصل الجزائر عن بقية المسلمين بكل الوسائل.

وقد يتعذر على الباحث، وهو في ضيق من الوقت، أن يضيف كل أبعاد هذه المقارنات.. ولكنه لن يغفل البعد الذي يطالعه دائماً في النهاية التي تنتهي إليها هذه المقارنات جميعاً، وهي نتائج تتسم بالإيجابية والتفاؤل، وتمضي إلى غايتها في تأصيل مقومات الجزائر، أو في الإشادة بالعمل الإصلاحي لجمعية العلماء، أو بالنعي على الاستعمار وأنصاره، وسيكون لنا فضل حديث على الجانب الإيجابي في الفقرات التالية إن شاء الله.

وفي هذه المقارنات نستبين أقداراً لا تكاد تحصر أو تحصى من الحكمة وحسن المعالجة، وغزارة المادة، والنفاذ إلى القضايا الشائكة ومعالجتها بالحق والصدق، وتلك بعض مظاهر القدرة الفكرية عند الإبراهيمي[1].

ب ـ النزعة إلى العقل وعلمي المنطق والأصول: إن ثقافة الإبراهيمي الإسلامية، وخاصة في علمَيْ المنطق والأصول، وهما العلمان اللذان يضبطان التفكير عند الإنسان، ويعملان على إيجاد القواسم المشتركة بين المنظرين والمفكرين، والمتناقشين والمتحاورين، ويكونان اللغة المتبادلة بينهم، جعلت معالجته حافلة بالقواعد المنطقية التي ينزل عندها كل ذي عقل سليم، فهو كثيراً ما يتحدث عن علاقة ما بين الأصول والفروع:

وأي عاقل لا يدرك أن الأصول مقدمة على الفروع، أو يتحدث عن العلاقة بين الشرط والمشروط، ولا توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس ولغة ودين وتقاليد صحيحة وعادات صالحة وفضائل جنسية أصيلة، وبتصحيح عقيدتها وإيمانها بالحياة، وبتربيتها على الاعتداد بنفسها، والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغالاة بقيمها وبميراثها، وبالإمعان في ذلك كله، حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها وتستميت في سبيلها، وترى أن وجود تلك المقومات شرط لوجودها، فإذا انعدم الشرط انعدم المشروط.

ويتصل بالنزعة المنطقية أنه كان حريصاً على أن يجمع في دراساته ومقالاته بين الجزئيات والكليات، يستخدم الجزئيات لأنها سهلة على الفهم، قريبة التناول، متصلة بالأحداث نابعة منها.. ثم يسوقها ليكون منها الكليات التي يعمل على تثبيتها.

والنص الذي تقدم مثل صالح لذلك، فهو تحدث عن المقومات وعددها، ثم تحدث عن تصحيح العقيدة، ثم عن التربية بجزئيات منها: وبتربيتها على الاعتداد بنفسها والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغالاة بقيمها وبميراثها، وبالإمعان في ذلك كله حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها وتستميت في سبيلها، وترى أن وجود تلك المقومات شرط لوجودها[2].

ولعل مما يتصل بهذه النزعة المنطقية كذلك قدرة البشير على أن يستغل التناقضات بينه وبين خصمه أروع استغلال، وأن يوظفها توظيفاً محكماً لمصلحة الفكرة التي يدعو إليها، فيشكل بأسلوبه الفذ القضية على النحو الذي يؤدي إلى التسليم له بها.

---

(1) المصدر نفسه ص 187.

(2) المصدر نفسه ص 188.

فإذا كان الخلاف بين فرنسا والجزائر خلافاً بين فهمين متناقضين للدين والسياسة، وخلافاً بين قيمتين مطلقتين هما الحق والباطل، فما كان أقدر الإبراهيمي على أن يصوغ ذلك هذه الصياغة التي تضع القضية في أكمل صورها وأدق مواقفها، وينتهي بها إلى ما يريد.

فقد ختم حول هذه القضية بهذا المقطع الذي يخاطب فيه الاستعمار: وهبنا وإياك فريقين: فريق أخضع الدين للسياسة ظالماً، وفريق أدخل السياسة في الدين متظلماً، فهل يستويان؟ إننا إذا حاكمناك إلى الحق غلبناك، وإذا حاكمناك إلى القوة غلبتنا، ولكنا قوم ندين بأن العاقبة للحق لا للقوة(1).

إن لمقالات الإبراهيمي وبحوثه طعماً خاصاً، وهي لا تفتقر إلى العنصر العاطفي ولكنها لا تخضع له، وإنما تحاول أن تكسوه هذه الغلاف العقلاني الذي يدين الخصم، فلا يستطيع ـ إذ ظل في حدود المنطق السليم ـ أن يتحلل منه أو يفلت من نتائجه. إنك مع مقالاته في عالم حي تشع فيه العاطفة حيناً، ويشع فيه العقل أكثر الأحايين، ويشترك العقل والعاطفة في إضاءته في كل حين(2).

إن الإبراهيمي من خلال مقالاته وخطبه واثاره ؛ يتبين لنا أنه شخصية مفكرة من طراز فريد، مع تميز في طرحة الدعوي والفكري. ويشعر من يقرأ له مرات عديدة وعلى مراحل من العمر بالجديد في الفكر وتزاحم المعاني وقوة الألفاظ وروعة الأسلوب.

وكان الإبراهيمي بالإضافة إلى ذلك متفوق الذكاء، مصلحاً مجدداً ينادي باستقلال الفكر، ويحارب الجمود والتقليد، يقول فيه الشاعر محمد العيد ال خليفة:

ومــا هو إلا كــاتــب ثاقــب الحجى	ورائــد فــكــر مصـــــلـح ومجــدد
ينــادي إلى حريــة الفكر لا هجــاً	بهــا منـكـراً ومــا يـدعـي المـتـقـيـد
وإن رام إذكــاء العقول فمشـــعـل	وإن رام إرواء الـقــلـوب فـمـــورد(3)

5 . مجتهد شجاع:

الإبراهيمي من علماء الإصلاح، وضد الجمود والخمود، وكان ثائراً بمعنى الكلمة، ودعا إلى إعمال العقل وفتح باب الاجتهاد، والبحث عن وسائل نهضة الأمة، وشنَّ حرباً لا هوادة فيها على دعاة الجمود، حيث قال: ثم ما لهم «أسرى المألوف وأحلاف الجمود» ـ سامحهم الله ـ يجمعون بين المتناقضات فيحجرون الاجتهاد على الأحياء والأموات، إلا أن طائفة معينة كانت في زمن معين وقد مضت ومضى زمانها وجف القلم بأقوالها، ويبنون على هذا أنه لم يبق من سبيل في سبيل علم الدين إلا التقليد، قلنا: ولمن؟ قالوا: لأولئك المجتهدين. قلنا: سلمنا، فهلم بنا إلى كتبهم وارائهم المتصلة الأسانيد إليهم، ولكنهم يتناقضون فيقلدون حتى في أدق

(1) المصدر نفسه ص 189.
(2) المصدر نفسه ص 190.
(3) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 300.

العبادات العملية التي لا تؤخذ إلا من نص صريح من اية محكمة أو حديث صحيح ـ المهدي الوزاني وابن الحاج ـ حتى فيما لا نسبة فيه ـ ولا غرو ـ لأحد من أهل التخريج[1].

ويقول أيضاً: إن في الفقه فقهاً لا تصل إليه المدارك القاصرة وهو لب الدين، وروح القران، وعصارة سنة محمد (ص)، وهو تفسير أعماله وأقواله وأحواله وماخذه ومتاركه، وهو الذي ورثه عن أصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، وهو الذي يسعد المسلمون بفهمه وتطبيقه والعمل به، وهو الذي يجلب لهم عز الدنيا والاخرة، وهو الذي نريد أن نحييه في هذه الأمة، فتحيا به وتصحح به عقائدها وتقوم به فهو معها، فتصح به عبادتها وأعمالها، فإن العبادات هي أثر العقائد، كما أن الأعمال هي أثر الإرادات، وما يبنى منها على الصحيح يكون صحيحاً، وما يبنى على الفاسد يكون فاسداً[2].

ومن المعاني السامية التي احتوى عليها هذا النص:

ـ المجتهد هو الشخص الذي يستطيع أن ينفذ إلى لب الفقه والدين، ولا يركن إلى الجمود والخمود، فيجهل حقيقة الدين، ويجهل تبعاً لذلك الحكم المنطوية تحت أحكامه. ويصور لنا الإبراهيمي بشاعة التقليد والجمود الذي تسبب في جهل المسلمين فيقول: جهل المسلمون حقائق دينهم وجهلوا الحكم المنطوية تحت أحكامه، ومن أسباب ذلك جفاف الفقه عند الفقهاء، لأخذهم إياه من كتب تعلم الأحكام ولا تبين الحكم، فأثر ذلك في نفوس المتفقهة ـ وهم مرجع العام في سياسة الإفتاء ـ اثاراً سيئة منها اعتبار تلك الأحكام تعبدية ؛ تحفظ ألفاظها، ولا يتحرك الفكر في التماس عللها، وطلب حكمها، وتعرّف مقاصد الإسلام منها وتفضح وجوه المصلحة والمفسدة[3].

ـ المجتهد هو الشخص القوي المدارك، الملمّ بأصول الفقه، وبطرق الاستنباط، وبقواعد اللغة العربية، وبمقاصد الشريعة، وهو ما لخصه الغزالي أثناء حديثه عن المجتهد في قوله: وله شرطان: أحدهما، أن يكون محيطاً بمدارك الشرع، متمكناً من استثارة الظن بالنظر فيها، وتقديم ما يجب تقديمه، وتأخير ما يجب تأخيره. والشرط الثاني، أن يكون عدلاً مجتنباً للمعاصي القادحة في العدالة ؛ وهذا يشترط لجواز الاعتماد على فتواه، لأن من ليس عدلاً فلا يقبل فتواه[4].

ـ الفقه الحقيقي الذي يبلغه المجتهد هو جوهر الدين، روح القران وعصارة السنة، وهما المصدران الرئيسيان اللذان تستنبط منهما الأحكام ويؤخذ منهما الفقه الأكمل، يؤخذ من عمل السلف وكتب العلماء المستقلين المستدلين التي تقرن المسائل بأدلتها وبحكمة الشارع منها.

يقول الإبراهيمي: ولو أن فقهاءنا أخذوا الفقه من القران ومن السنة القولية والفعلية، ومن عمل السلف، أو من كتب العلماء المستقلين المستدلين التي تقرن المسائل بأدلتها وتبين حكمة الشارع منها ؛ لكان فقههم

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 293.ر
(2) المصدر نفسه ص 295.
(3) المصدر نفسه ص 295.
(4) المصدر نفسه ص 295.

أكمل، واثاره الحسنة في نفوسهم أظهر، ولكانت سلطتهم على المستفتين من العامة أمتن وأنفذ، ويدهم في تربيتهم وترويضهم على الاستقامة في الدين أعلى.

وإن من يأخذ فقه الطلاق من اية: {ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ} [سورة البقرة:229]، ومما بعدها من الايات الامرة بالوقوف عند حدود الله، الناهية عن تعديها، أو من اية:{ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ } [سورة البقرة:236].

أو من اية الحكمين ووعد الله بالتوفيق عند الإصلاح، وبالإغناء من واسع فضله عند التفرق، أو من اية تخيير النبي أزواجه بين حالين أحدهما التمتيع والسراح الجميل ؛ من أخذ فقه الطلاق من هذا المنبع العذب يعلم أي حكم مبثوثة تحت كل كلمة وكل جملة، ومن تفقه هذا الفقه ونشره في الناس يبعد جداً أن يتلاعب بتلك العقدة الإلهية التي عقدها الله بين الزوجين، فيضعها في موضعها المعروف بين المسلمين الان[1].

. الفقه الحقيقي هو الذي يجلب للمسلمين سعادة الدنيا والاخرة، ويضمن لهم العلو والمجد في جميع المجالات، وما زال مجد المسلمين وعزهم إلا لأنهم تقاعسوا عن التفقه في الدين، وتقوقعوا داخل طقوس جامدة وقوالب جاهزة ؛ ودينهم يحثهم على التدبر والتفقه والتبصر.

. هدف الإبراهيمي وأصحابه من العلماء هو إحياء الفقه لتحيا الأمة به، وهو هدف المصلحين على مر العصور، كالغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين»، وابن تيمية في فتاويه، وهدفه أيضاً تصحيح عقائد الأمة، وتقويم فهومها كي تصح عباداتها وأعمالها. ولا تصح العبادات والمعاملات إلا إذا بنيت على الصحيح.

إن الإبراهيمي كان شعلة من الذكاء النافذ والإيمان الصادق والعزم الثابت، ظهر إلى الوجود بفضل الله ومنّه في عصر الإصلاح، الذي قاده الشيخ عبد الحميد ابن باديس، وقد ألهمته الفطرة أن العلم ما فهم وهضم لا ما روي وطوي، فراح يطلبه بلا كلل ليصل إلى الحِكَم من وراء الأحكام، وإلى الأدلة والحجج من وراء الاراء والمذاهب، ولقد حضر دروس الشيخ أحمد البرزنجي في صحيح البخاري، وكان يسمع من علماء.

. وكان عالماً بالحديث والسيرة وبالمحدثين ومؤلفي السير.

. كما كان عالماً بالتفسير ومناهجه.

. وكان مطلعاً على الفقه وأصوله اطلاعاً واسعاً، ثائراً على العصبيات المذهبية، مستوعباً لمقاصد الشريعة وحكمها، عارفاً بطرق الاستدلال والاستنباط، عليماً بمنطق اللسان العربي وأسراره، ولقد ناقش الكثير من المسائل الفقهية بعمق كبير يدل على صدى معرفته بالفروع.

وأثار في هذه المقالات العديد من المسائل الأصولية.

. وكان الإبراهيمي بالإضافة إلى ذلك متفوق الذكاء، مصلحاً مجدداً ينادي باستقلال الفكر ويحارب الجمود والتقليد، يقول فيه محمد العيد ال خليفة:

وما هو إلا كاتب ثاقب الحجى ... ورائد فكر مصلح ومجدد

---

(1) المصدر نفسه ص 296.

ينـادي إلى حريـة الفكر لا هجـاً بهـا مـنـكـراً ومـا يـدعـي المـتـقـيـد

وإن رام إذكـاء العقول فمشـــعـل وإن رام إرواء الـقـلـوب فـمـورد

لم يخلف لنا الإبراهيمي مؤلفاً خاصاً يتحدث عن علم أصول الفقه، وكل ما سنقوله في هذا الصدد مستخلص من اثاره.

فالشيخ البشير الإبراهيمي عالم بأسرار القران الكريم وبأسرار السنة النبوية والإجماع والقياس، وهي المصادر الأساسية الأربعة للتشريع الإسلامي، وهو مطلع على الكنوز التي خلفها لنا الأصوليون في مجال الاستنباط والاستدلال، وفي مجال القياس، ولا سيما فيما يتعلق بشروط علة الأصل وتعليل الحكم الشرعي وتخصيص العلة المستنبطة، وكذلك الأمر فيما يتعلق بشروط علة الأصل، إما في عينها أو جنسها، وأن يكون الحكم في الفرع مماثلاً لحكم الأصل في عينه أو جنسه وألا يكون الحكم متقدماً على الأصل[1].

وهو مطلع أيضاً على ما جيء به من مجال جمع الأشباه بالأشباه، والشبه في اصطلاح الأصوليين يطلق على كل قياس من إلحاق الفرع فيه بالأصل لجامع بشبهه فيه.

ويعتقد الإبراهيمي . وهو على حق في اعتقاده . أنه على المجتهد أو الفقيه أن يعرف المصلحة التي قصدها الشارع، والعلة التي ربط بها الحكم.

وقد احتاج الفقهاء إلى المصلحة إذا لم يعثروا على دليل شرعي واضح من الكتاب والسنة والإجماع على جواز شيء أو عدم جوازه، وما لبثوا أن جعلوها معياراً من معايير الاستدلال[2].

كل ما تقدم يدلنا على أن الإبراهيمي قد اطلع على الكنوز الأصولية من تعليل وتأصيل، وتفريع واستنباط، واستخراج علل الأحكام، وجمع الأشباه بالأشباه، ومراعاة المصالح ؛ ليكون التشريع الإسلامي صالحاً لكل زمان ومكان.

يقول الإبراهيمي: إن أصحاب المذاهب لم يفرضوا على الأمة التقليد، بل نصحوا وبينوا وبذلوا الجهد في الإبلاغ، وحكّموا الدليل ما وجدوا إلى ذلك السبيل، وأتوا بالغرائب في باب الاستنباط والتعليل والتفريع والتأصيل. ولهم في باب استخراج علل الأحكام وبناء الفروع على الأصول وجمع الأشباه بالأشباه والاحتياط ومراعاة المصالح ما فاقوا به المشرعين من جميع الأمم[3].

إن ثورة الإبراهيمي على التقليد والجمود والعصبية المذهبية والخمول الفكري تتجلى في أكثر من مكان من اثاره، ويحز في نفسه كثيراً أن يشاهد هذا الجمود يعمّ المسلمين وكتبهم الفقهية، ولا يستطيع أن يصور الدرجة التي وصل إليها الفقهاء المسلمون من الجمود والجفاف، إلا الإبراهيمي الذي يقول بصدد الحديث عن الطلاق: أنا لم أسمع مدة دراستي للفقه في بعض تلك الكتب إلا كلمتين تثيران في النفس شيئاً من الإحساس الحي،

---

(1) المصدر نفسه ص 301.

(2) المصدر نفسه ص 301.

(3) المصدر نفسه ص 302.

وتنبهان على خيال من الحكمة وتبثان في المشاعر بصيصاً من النور، إحداهما في باب النكاح وهي قولهم: «النكاح مبني على المكارمة». والثانية في باب الطلاق، وهي تناقلهم لأثر: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[1].

والعلم والاستقلال الفكري: إن الإبراهيمي الذي عرف الدرجة الراقية من التقدم العلمي الذي كان عليه الغرب، ومن العمل والاجتهاد رأى أنه من الضروري أن نحث الشباب على انتهاج طريق العلم، وأن ننصحه بأن يواجه الخصم بالحجة والإقناع لا باللجاج والإقذاع[2].

وهي صفة من بين صفات كثيرة يجب أن يتصف بها الشباب الجزائري في نظر الإبراهيمي. فالشباب الذي لا يحكّم عقله في كل الأمور ليس جديراً بهذا الدين الذي يعتمد على العقل ويأمر باستخدامه في جميع شؤون الدين والدنيا، قال الإبراهيمي متحدثاً عن الإسلام:

العقل مذ كنت من شهودك	والفكر بعد العقل من جنودك

ويتمثل الإبراهيمي المثقف الجزائري: مهذباً مستنير الفكر مجوهر العقل، مستقل الفكر في الحكم على الأشياء، الجاري في تفكيره على قواعد المنطق، لا على أساس التخريف، المطلع على ما يمكن من شؤون العالم وتاريخه، الملمّ بجانب من معارف عصره[3].

كان للإبراهيمي صلة وثيقة بمجتهدي عصره، قرأ لهم وقرأ عنهم، واتصل بمعظمهم، وربط معهم روابط صداقة متينة.

أ . المودودي: أعجب الإبراهيمي كثيراً بأبي الأعلى المودودي وبشخصيته الفذة وبفكره السياسي الإسلامي، وهو في نظره أبرع عالم في استخراج ذلك الدستور من القران والحديث، ومن المصلحة العامة في التشريع الإسلامي والأصول المتفق عليها بين الأمة، لذلك يصفه لنا الإبراهيمي وصف المعجب بشخصيته وأفكاره. فيقول: إنه سديد التصرف في المقارنة والموازنة والاستنباط، مستقل في الاستدلال إلى حد يمضي من الشريعة إلى مقاصدها العامة دون احتفال بالجزئيات إلا بقدر ما يدخل من هذه إلى تلك[4].

ب . الشيخ محمد بهجت البيطار: يتميز هذا الشيخ الجليل في نظر الإبراهيمي بكونه لا يرضى بالعصبية المذهبية ولا بعلماء التقليد والجمود، ويتصف بالاستقلال في الفهم، يقول الإبراهيمي: إنه مجاوز للحدود المذهبية والإقليمية، يزن هذه المذاهب الشائعة باثارها في الأمة، لا بأقدار الأئمة، ويعطي كلاً ما يستحق، لا يرضى بكبراء الدعوى وأمراء السوء وعلماء التقليد، يرجع في ذلك كله إلى الاستقلال في الفهم والاستدلال[5].

ج . الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: قال فيه الشيخ البشير الإبراهيمي: ذلك الإمام المدرب الفقيه المجتهد الجامع لشروط الإمامة[6].

(1) المصدر نفسه ص 316.
(2) المصدر نفسه ص 316.
(3) المصدر نفسه ص 317.
(4) المصدر نفسه ص 317.
(5) المصدر نفسه ص 317.
(6) المصدر نفسه ص 318.

د . رشيد رضا: وإن إعجاب البشير الإبراهيمي بالشيخ محمد عبده يساوي إعجابه بتلميذه الشيخ رشيد رضا.

ولقد التقى الشيخ البشير الإبراهيمي بالشيخ رشيد رضا، وأعجب بشخصيته الفذة وعبقريته في كتابه تفسير الشيخ محمد عبده، وأعجب بسلفيته الحقة واستقلاله في العلم، لقد أحدث رشيد رضا: انقلاباً فكرياً في فهم الدين وصلته بالدنيا حتى في أصلب البلدان عوداً وأشدها جموداً، لذلك يقول عنه الإبراهيمي: إنه في بناء الإصلاح الركن والدعامة، وفي هيكل الإصلاح الرأس والهامة[1].

هـ ابن باديس: ولقد أعجب أيضاً الإبراهيمي بصديقه وزميله الأستاذ الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس، الذي يتميز: بلسان قوال وعزم صوال وفكر جوال، وهو العلم الجم والفضل العد، وصاحب جواهر الحجا والذكاء والعزم والجد[2].

هذه إطلالة سريعة عن دعوة الشيخ البشير الإبراهيم إلى الاجتهاد، وعن حبه واحترامه وتقديره للمجتهدين، وعن ثورته على الجمود والتقليد، فقد كان الإبراهيمي مجتهداً ومستقلاً في الفكر والاستدلال، ولقد استطاع قيادة جمعية العلماء بعد ابن باديس، واستمرت الجمعية في ثورتها العارمة على الجمود والتقليد، وعملت على إحياء ما طمس من علوم نافعة عبر العصور ومعالم الحضارة العربية الإسلامية، ودفع نحو روح الابتكار والاجتهاد لكي ينهض الشعب نهضة أصيلة بقيادة طلائع الجمعية، هذه الطلائع التي نصحها الإبراهيمي أن تتولى القيادة بإرشاد العلم، وتحسن الإدارة بنظام العلم، فتثأر لأمتها من الجهل بالمعرفة، ومن الفقر بالغنى، ومن الضعف بالقوة، ومن العبودية بالتحرير، وتكتسح من ميدان الدين بقايا الدجالين، ومن ميدان السياسة والنيابة بقايا السماسرة والمتجرين، ومن أفق الرياسة بقايا المشعوذين والأميين[3].

كان الإبراهيمي أحد قادة هذه الحركة الإصلاحية إلى جانب ابن باديس والميلي والتبسي وغيرهم.

لقد أهّلته مواهبه وعلمه الغزير وعلمه بالقران والسنة وأصول الفقه وفروعه وبأسرار اللغة العربية من طرح المسائل الأصولية طرح المتخصص، ومن توضيح قضايا الاجتهاد والتقليد وطرق الاستدلال، وصال وجال في ميادين يهاب من اقتحامها فحول الأصوليين، فتحدث عن «هوس الرواية»، وعن الرواية والدراية، وعن مقاصد الشرع وحكمه، وعن القياس والاستصلاح، وعن الاجتهاد والجمود والتقليد، وعن دور العلماء في المجتمع الإسلامي.

وإن الثورة على الجمود والتقليد لا تعني في نظر الإبراهيمي بأية حال من الأحوال التشهي والتلذذ والانقياد للأهواء في الفتوى، بل على المفتي أن يحترم طرق الاستنباط المفصلة في أصول الفقه.

---

(1) المصدر نفسه ص 318.

(2) المصدر نفسه ص 319.

(3) المصدر نفسه ص 321.

والإبراهيمي يدعو إلى نبذ روح الخمول والكسل والجمود والتقليد والعصبية المذهبية، كما يدعو أيضاً إلى سلوك طريق الابتكار، وإلى النظر وإلى العلم التطبيقي العملي، وإلى تطبيق الجزئيات على الكليات، وهو روح العلم، ولا علم بدونه[1].

6 . مبدع متألق:

ليس متاحاً لكل الناس الوقوف على تجليات الإبداع في فكر الشيخ، فخصائصه ومميزاته ليست في متناول الجميع، ذلك أن كل قراءة منهجية دقيقة وعميقة للشيخ الإبراهيمي ؛ كي تحقق أهدافها المقصودة، لابد من أن تسبق بعملية إعداد واستعداد، تتمثل - على الخصوص - في التزود بأدوات معرفية معينة، تكون بمثابة المفاتيح الإبستيمولوجية التي تساعد على فك الألغاز والرموز، فيما يوشك أن يصبح بمثابة الطلسم المعرفي لهذا النص عند البعض.

ذلك أن الفكر الإبراهيمي تحكمه صعوبة تجعله مستعصياً على العقل العادي، وهي صعوبة تصنعها غرابة اللفظ، وبراعة الصياغة، وأناقة الأسلوب، ومرجعية المعنى. وهي كذلك معطيات غير متاحة الفهم إلا لمن أوتي مجموعة من الأدوات المعرفية الخاصة، وتتمثل في الإلمام الشامل باي القران، والإحاطة الوافية لقواعد فقه اللغة، والتعمق الدقيق في المحيط التراثي العربي عموماً والجزائري منه بصفة أخص، هذا إلى جانب الثقافة الموسوعية التي تجمع التاريخ الإنساني في شقيه العربي الإسلامي والأجنبي، ويشفع لنا فيما نذهب إليه هذا الاستلهام العجيب الذي يستوحيه من اي القران، فيسيل على لسانه فصاحة، وعلى قلمه بلاغة، فيسمو بأدبه سمو اي القران، ويعلو بمعاني إنتاجه علو الإعجاز القراني في مخاطبة سامعيه، نلمس ذلك في وصف الشيخ لواقع الإنسان والمجتمع والوطن والأمة، وفي مقارعته للخصوم سواء كانوا من بني جلدته، أو كانوا من أعداء أمته.

يقول في وصفه لفاجعة فلسطين، وهي أم القضايا، وواجبات العرب نحوها. يقول بشأنها: أعمال عرب فلسطين مقدمة فأين الكتاب؟ وطليعة فأين الكتائب؟ وواجب، فأين ما لا يتم الواجب إلا به؟ ويغرس قلمه في المعنى القراني: وما على عرب فلسطين بعد ذلك من سبيل، إنما السبيل على العرب في مشارق الأرض ومغاربها.

ومن التجليات لإبداع الشيخ ما نجده في فلسفة اللغة ومنطق المعنى، ففي تشنيعه بمبدأ التجزيئية الذي تعمل به فرنسا في تسمية المذهب الحنفي وليس له أتباع، يصوغ في إبداع عقلي عجيب هذه المعادلة، يقول مخاطباً خصومه: فإذا سوغ لكم منطقكم أن تقولوا: هذا مفتي مذهب، وكل مفتي مذهب له أتباع ؛ فلا تأمنوا أن يقول قائل: إنه مفتي مذهب غير موجود فله أتباع غير موجودين، فإن قلتم إنكم لا تريدون المذهب الفقهي، وإنما تريدون المذهب «الصناعي». قلنا إن هذا المذهب لا يتبع العاصمي فيه إلا الأخسرون أعمالاً، الأضلون سعياً[2].

---

(1) المصدر نفسه ص 321.

(2) اثار الإمام الإبراهيمي (454/3).

وهناك خاصية تميز بها الإمام الإبراهيمي في فكره الإبداعي، وهو الاستعانة بكل مكونات علمه الدينية واللغوية والسياسية والأدبية لصياغة فلسفة المفتى عنده بعد هندسة لفظه، هندسة تسمو عن الإمكان الفني العادي، ففي تحليلنا لإبداع الشيخ نلمس هذه المحسنات البديعية التي لا يأتي بها إلا من كان له تضلع في علم البيان والبلاغة.

ويزين ذلك فنون من علم البديع والبلاغة، كالطباق والمقابلة والسجع والجناس، وكلها فنون تطبع النص الإبراهيمي بأسلوب خاص متميز، يفيض عذوبة ويتألق جمالاً.

إن صياغة المعنى عنده تخضع للمصطلح النحوي، والمصطلح الفقهي، والمصطلح العربي، إضافة إلى المصطلح الأصولي والمنطقي، وخذ على سبيل المثال نماذج من هذا التوظيف للإبداع اللفظي والمعنوي.. ولنبدأ بإبداع الحكمة التي يقول بشأنها:

إن القوة إذا لم يزنها العقل ضعف، وإن العلم إذا لم تحطه الحكمة جهل، وإن الملك إذ لم يحكمه العدل زائل، وإن سلاح الحق من الحرير، يفلّ بسلاح الباطل من الحديد، ويا ويح الأقوياء من غضب الله، وغضب المستضعفين من عباده[1].

وفي مثال اخر من الحكمة، يقول في وصفه للعملاء: واعجباً لما تصنعه هذه الحكومة ببعض الرجال منا، تعمد إلى الواحد منهم فتبقيه على سحنته، ولكنها تفرغه من شحنته[2].

فإذا ذهبنا إلى توظيفه للمصطلح النحوي ؛ وجدناه يستعين بقواعد النحو من خفض وضم كما يقول، فيوظفه لتوعية الشعب، وإلى تركيب الإسناد، والتركيب الإضافي، والتركيب الوصفي، والتركيب المزجي، لينتهي إلى نتيجة هامة وهي أن الإسلام وفرنسا كتركيب نحوي، لا يقبل الإسناد، ولا الإضافة، ولا الوصف، ولا المزج.

وأما في استخدامه للمصطلح الفقهي والأصولي ؛ فإننا نجد ذلك في سلسلة مقالاته «فصل الدين عن الحكومة»، وأبين ما يكون ذلك في استعانته بالمصطلح الفقهي الأصولي عندما يقول: ولكننا نغير العنوان هذه المرة، فنقول: فصل الحكومة عن الدين، قلباً في الوضع لا في الموضوع، وتفاؤلاً للحالة بعدم الاستبقاء، كما يتفاءل بقلب الرداء في الاستسقاء[3].

ويلجأ أحياناً إلى المصطلح الصرفي، فيبدع إبداعاً لا مثيل له، كما هو الحال في رواية الثلاث، التي هي قمة الإبداع في الأدب الظريف، يقول عن أبطال روايته في وصفه «الشمة والشمامين»، «وهي تبغ محلي جزائري يشم بالأنف».

وعنـدهم مصـطلحـات الصـرف	ظـاهـرة في فـعـلـهـم والـظـرف
الـنـقـل والـتـحـريـك والتسـكين	والـفـتـح والـتشـديـد والـتـمـكين
والضـم، والصـحـة والإعـلال	والحـذف والـتـعـويـض والإبـدال

(1) المصدر نفسه (389/3).

(2) أعلام ومواقف في ذاكرة الأمة، د . عبد الرزاق قسوم ص 51 إلى 54، اثار الإمام (389/3).

(3) المصدر السابق ص 55، اثار الإمام (118/3).

والـقـلـب والـترخـيـم والإدغـام والـفـك، والـتـخـفـيـف والإشمـام

وفـيـهـم الأصـول والـزوائـد وعـنـدهـم في شمـهـا فـوائـد

أي كل مصطلح من هذه المصطلحات، كما نلاحظ، يحمل دلالات معاني في فقة لغتنا العربية وقواعدها النحوية والصرفية، ولا يمكن أن يتم هذا إلا لموسوعيّ كالشيخ الإبراهيمي، أوتي جوامع اللغة بكل مقوماتها فهو يطوعها لبنانه، ويخضعها لحكمة عقله وجنانه.

وإن هذه الأمثلة التي قدمناها ليست إلا عينات مما يحفل به الشيخ الإبراهيمي من جوانب الإبداع، الذي يتجلى في الجد وفي الهزل، وفي الوصف وفي الذم، وفي المدح وفي الهجاء، ويعتقد أننا سنكون أخللنا بالموضوعية إن نحن أغفلنا نماذج من الوصف الممزوج بالنقد والهجاء لمن استحقوا ذلك بسبب مواقفهم الجماعية المتخاذلة، وهو ما يعلي من مكانة الشيخ في إبداعه الأدبي الموصوف.

فهذه الصورة الفنية، على ما فيها من تقزز، والتي يقدمها عن المشعوذين والمجاذيب، يوظفها الشيخ للتشنيع بها على خصومه، بقصد تقبيح مشهدهم في عيون الجميع، ولكنه يستخلص منها حكمة في منتهى الإقناع[1].

يخاطب بهذا الصدد خصومه من المضللين باسم الدين:

ونقول لكم سلموا العلم بالكتاب والسنة وهدي السلف إلى من مارسها بالبصيرة النافذة، وتناولها بالذهن الوقاد والقريحة الحية، وأنفق فيها من عمره مثل ما أنفقتم في اللهو واللغو، والتطبيل والتزمير.. فهل يجب التسليم عندكم للمشعوذ إذا شعوذ، وللشيطان إذا استحوذ، وللمجذوب إذا اختلت أعصابه، وفقد صوابه، وسال لعابه؛ ولا يجب التسليم لكتاب الله إذا قام دليله، ولهدي نبيه إذا اتضح سبيله؟[2].

يقول الدكتور منصور فهمي، معلقاً على محاضرة ألقاها الشيخ في نادي جمعية الشبان المسلمين: إن هذا المنبر الذي يقف فيه الشيخ، ساحة مقدسة ينبغي أن يدخلها الناس كما يدخلون الحرم المقدس، وعلى هذا فإني لم أر ولم أسمع في حياتي من هو أفصح وأبلغ من الشيخ البشير[3]

يقول الشاعر محمد العيد الخليفة من قصيدة في الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

قـل للبشـير رفعـت هـامـة أمـة ذلـت وشـعـب كـان قبلـك خـاملاً

مـا زلـت تكشـف من خفي نبوغـه حـتى تـبـين لـلـنـواظـر مـاثـلاً

أخجلـت أقطـاب البيـان فمن يكن «سـحبان» أو «قسـا» يلاقك «باقلا»

أدركت في الفصـحى مـدارك لم يكن في العصـر ذو أدب إليهـا واصـلاً

---

(1) أعلام ومواقف في ذاكرة الأمة، د . عبد الرزاق قسوم ص 56.

(2) المصدر نفسه ص 57.

(3) المصدر نفسه ص 57.

باريت فيها «المجد» [1]عبر محيطه[2] و«المجد» لا يعدو المجد العاملا[3]

ناهيك بالخُطب الفصائح شواهداً أدهشت أشهاداً بها ومحافلا

تالله لا أوفيك حقَّك كله مهما نسجتُ لك المديح غلائلا[4]

7 . بليغ وأديب وخطيب:

كان الإبراهيمي إذا تحدث، تدفق كأنه البحر الثجاج، ويتألق كأنه السراج الوهاج، وكان يشدُّ الحاضرين ببيانه الناصع، وخطابه الرائع، وسعة اطلاعه على الأدب والتاريخ، واستشهاده بحكم البلغاء، وروائع الشعراء، ووقائع المؤرخين[5].

إن الشيخ الإبراهيمي، قبل أن يكون مفكراً مصلحاً وسياسياً محنكاً؛ كان أديباً بليغاً، وشاعراً، وخطيباً مفوهاً، عالماً فقيهاً في العربية»، خبيراً بأسرارها، متضلعاً في اداها وفنونها، إلى جانب علمه بالتفسير وبالحديث وعلومه وبالفقه وأصوله.

وقد خلَّف إنتاجاً غزيراً يشهد أنه، بحق، مدرسة كاملة، بل فلتة من فلتات هذا الزمان، كما كان ينعته كبار المفكرين والأدباء العرب والمسلمين في المشرق والمغرب، بالرغم من أن واقع أمته في عصره، قد فرض عليه، وعلى غيره من إخوانه العلماء العاملين، الجهاد في جبهات كثيرة، فكان رجل ميدان أكثر مما كان رجل تأليف وتصنيف، فهو من الذين «شغلوا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب» [6].

فلم يكن غريباً أن تشهد له مجلة «الشهاب» لصاحبها الإمام عبد الحميد بن باديس، بالإمارة في مجال الكتابة، كما شهدت لمحمد العيد ال خليفة، بالإمارة في مجال الشعر، وذلك في مقال بعنوان: بين أميرين: أمير شعراء الجزائر وأمير كتّابها، كما لم يكن غريباً أن يحظى بتقدير كبير في الأوساط العلمية والشعبية على السواء، فينتخب عضواً في المجامع اللغوية والعلمية في القاهرة، وبغداد، ودمشق.

لقد كان . رحمه الله .: إماماً في العربية وبلاغتها، تفقه في أسرارها وتغذى باداها واستنار بقرانها، وكان خطيباً مصقعاً، يهز القلوب ببيان ساحر، يعيد للأذهان ما كان للخطابة العربية من سلطان، في عهد قيس بن ساعدة وسحبان، كان محدثاً بارعاً، لطيفاً، يغمر مجالسه بالحكمة، ويجملها بالنكتة، ويعطرها بأريج ينعش الأرواح والعقول[7].

---

(1) المجد الأول: هو مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي.

(2) المحيط: القاموس المحيط للفيروز ابادي.

(3) المجد الثاني: السؤدد والرفعة. الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 385.

(4) ديوان محمد العيد، ص 410.

(5) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته ص 41.

(6) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 73.

(7) المصدر نفسه ص 73.

وكان ديواناً لأيام العرب، واداهم وتقاليدهم، في أفراحهم وأحزانهم، في حربهم وسلمهم، يروي عن فهم وبصيرة، ويصدر عن حافظة واعية، وذاكرة منجدة، وكان إلى جانب ذلك فحلاً في الفصيح والملحون، يذكرك بالمعري في لزومياته، وأبي الطيب في حكمه وأمثاله(1).

أما أسلوبه في الكتابة، فهو جاحظ عصره، وبديع زمانه، مما جعله بحق، معجزة من معجزات الثقافة العربية الإسلامية في القرن العشرين(2).

ونماذجه في أسلوبه البليغ الأديب في مجالات مختلفة ؛ تؤكد تمكّنه من أسرار البيان العربي، وبخاصة في مجال التشبيه الذي هو أخصب المجالات للتعبير عما في النفوس والعقول، فقد كان عمدته في تفصيل المجمل وتقييد العام وتبسيط المركب، وتجسيم المجرد، فإذا المعنى أمام القارئ أو السامع شيء قائم أمامه، يُرى أمامه بالعين، ويلمس بالأيدي.

انظر كيف يصور للناس إيمانه العميق بأن ما انتزعه الاستعمار بالقوة لا يمكن أن يسترد منه إلا بالقوة، فهيهات هيهات أن يغير الاستعمار طبيعته ويتنازل عن حق من حقوقه إذا لم يغير هذا الشعب نفسُه طبيعة الرضوخ والاستكانة، وهو ما ركزت عليه جمعية العلماء في برنامجها الإصلاحي الشامل للنهوض بالأمة، قال رحمه الله: وقد نجحت الجمعية إلى حد بعيد في إفهام الأمة هذه المعاني الاجتماعية وتوجيهها إلى مجاراة السابقين، وتهيئتها لأن تكون أمة عزيزة الجانب، مرعية الحقوق، ثابتة الكيان، محفوظة الكرامة، صالحة للحياة، مساوية للأحياء، وفي إعلامها أن بغي القوي على الضعيف، قد طمس معالم الحق بينهما، وردَّهما إلى نوع من الحيوانية، كالذي بين الذئب والخروف، حتى أصبحت الاستطالة في الأقوياء طبيعة، والاستكانة في الضعفاء طبيعة، وإن طبيعة الأولين لا تتبدل إلا بعد أن تبدل طبيعة الاخرين، وإن الحقوق التي أخذت اغتصاباً لا تسترجع إلا غلابا(3).

وانظر إليه، كيف يؤكد هذه الحقيقة، ويجسد هذا المعنى بتشبيه رائع في بساطته، عميق الدلالة في واقعيته: ليس من سداد الرأي أن يضيع الضعيف قوته في لوم الأقوياء، وليس من المجدي أن يدخل معه في جدل.

إن من تمام معنى اللوم أن يتسبب في توبة، أو يجر إلى إنابة، ونحن نعلم أن القوم لا يتوبون ولا يذكرون، فالواجب أن نلوم أنفسنا على التقصير ونقرعها عن الانقياد لاراء هؤلاء القوم ولإرشادهم، وأما لومنا إياهم فهو لوم الخروف للذئب، وأما طمعنا في توبتهم فهو طمع الخروف في توبة الذئب، فإن أردتم أن تروا المثل الخارق من توبة الذئب، فقلموا أظافره، واهتموا أنيابه.

واستمع إليه في إرهاصاته المبكرة بالثورة على المستعمر وهو يصور الرفض والسخط الكامنين في نفوس أبناء الجزائر، في إحدى مناجاته لوطنه الحبيب، مؤكداً عزمهم الشديد على الثورة لاسترجاع الحق المغصوب، بأسلوب عربي مبين، اعتمد فيه السجع من غير تكلف، فجاء مزمجراً زمجرة الشعب المهان، قوياً قوة الإيمان بانتصار الحق، ولو طال الزمان.

---

(1) المصدر نفسه ص 73.

(2) المصدر نفسه ص 73.

(3) المصدر نفسه ص 74.

سلام عليك يوم لقيت من عقبة وصحبه براً، فكنت شامخاً مشمخراً، ويوم لقيت من بيجو وحزبه شراً، فسلمت مضطراً، وأمسيت عابساً مكفهراً، وللانتقام مسراً، وسلام عليك يوم تصبح حراً، متهللاً مفتراً، معتزاً بالله لا مغتراً[1].

أ. أسس الكتابة الأدبية الراقية لدى الإبراهيمي:

تتمثل أسس الكتابة الأدبية للإبراهيمي في أمور منها:

. رُقي الألفاظ والمعاني والأساليب، ولا يتأتّى هذا الرُّقي في نسيج الكتابة الأدبية للكاتب من الكتاب، حتى يكون ألمّ على محفوظ غزير من النصوص الأدبية راقٍ إذ لا يعقل أن ينبُغ كاتب كبير وهو لا يحفظ نصوصاً أدبية كبيرة، وجمّاع الشأن في المسألة هو ما يطلق عليه الشيخ «معرِض العربية الراقية» [2].

وحرص الشيخ على أن ترقى البصائر بقرائها إلى تذوق اللغة العربية وأدبها الجميل، ولذلك حدَّد مذهب هذه الجريدة العجيبة في الكتابة.. فلينظر الناظر أين كنا بالأمس، من شأن العربية الإعلامية؟ وأين صرنا اليوم؟ والإبراهيمي بتحديده مستوى الكتابة الراقية، حدَّد تلقائياً، بالمقابل، مستوى الكتابة الدّنيا، وهي كما يقول: ما ينحط عن تلك المنزلة، ولا يصل إلى درجة الإسفاف، وبين الطرفين أوساط ورُتب تعلو وتنزل، وهي مُضطربٌ واسع يتقلب فيه كتَّابُنا: من سابق إلى الغاية مستشرق لبلوغها، ومقصر عن ذلك[3].

. وقد تمثَّل الإبراهيمي اللغة معرضاً قائماً في سُوق أنيقة تُعرض فيها كرائم الألفاظ، فحدَّد مواصفات هذه السُّوق الأنيقة التي ليست كأيِّ شيء من الأسواق، تُعرض فيها أي بضاعة من البضائع المزجاة، بل هي سوق تُجلب إليها كرائم ألفاظ العربية المؤتنفة، وتُساق إليها عقائل المفردات المؤتلفة[4].

. نجد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يصطنع مصطلحين اثنين في هذا المقام وهما: المأنوس والغريب، فأمَّا الغريب فهو معروف لدى الناس، وأما المأنوس فمصطلح من مصطلحات الشيخ، فاللفظ المأنوس هو الذي يستأنس له القرَّاء أو المتلقون، فتقبله أذواقُهم، ولا تنبو عنه أسماعهم، وذلك على الرغم من أنه كان من أصله غريباً حوشِيّاً، لأن الاستعمال الكثير لمثل هذه الألفاظ في تمثل الشيخ، هو الذي يصيّرها مأنوسة مألوفة لدى المتلقين[5].

وبحكم هذه المبادأئ التي وضعها الإبراهيمي للغة الكتابة العالية المستوى، التي كان يمكن أن تُقبل للنشر في جريدة البصائر، فقد يضطر إلى إهمال كل الكتابات الرديئة التي كانت تنثال عليه من الكتَّاب، وعن ذلك يقول: ولكنَّ بعض الكتاب، هداهم الله رشدهم، بالغوا قبل أن يبلُغوا، فهم يوافوننا بمقالات دون الطرف

(1) المصدر نفسه ص 75.

(2) المصدر نفسه ص 220.

(3) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير ص 220.

(4) المصدر نفسه ص 222.

(5) المصدر نفسه ص 223.

الأدنى، فنضطر إلى إهمالها اضطراراً، فيلوذون بحق (التشجيع)... وليفهموا أن الاعتماد على التشجيع مُعْطش ومُجيع[1].

وبفضل هذه الصرامة في اشترط المستوى اللغوي العالي أو دون ذلك على أن لا يُسفَّ إلى الدَّرك الأسفل، أصبحت جريدة البصائر مدرسة أدبية مثار إعجاب المشارقة والمغاربة جميعاً، فكان أدباءِ ومثقفون منهم يحفظون نصوصاً من مقالات الإبراهيمي، فيستظهرونها استظهاراً[2].

ب . النزعة الخطابية:

إن طغيان الانفعال ـ الذي هو انعكاس للصدق ـ يدفع الإبراهيمي أحياناً إلى استخدام أدوات الخطابة حتى وهو يكتب مقالة أو يلقي محاضرة، ومن ثم يلحظ أنَّ بعض تلك المقالات تحوَّلت فعلاً إلى خطب حماسية لاهبة يحشد لها الكاتب كل الأدوات البلاغية المجسِّدة لهذه النزعة، وقد يتجلَّى ذلك في مواقف تستدعي الحزم والصرامة، وتتطلب الحسم والبتر، كما جاء ذلك في مقالاته عن العرب وفلسطين، أو في مقالاته عن دور الأحزاب المتناطحة في جزائر ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومن هذا المقال الأخير نقتبس ما يلي: يا إخواننا!. إنكم أحرجتمونا بأعمالكم وأقوالكم وأحوالكم، فأخرجتمونا من مقام التلطف في النصيحة إلى مقام الإيجاع في التنديد، وأردتم أن تثلموا سيفاً من سيوف الحق، فلا تلوموه إذا خشن متنه والم جرحه، فتجرَّعوا هذه النصائح على مرارتها، فلسنا لمكاننا في الدين أقل من أن ننصح، ولا أنتم ـ بمكانتكم في أنفسكم ـ أجل من أن تنتصحوا[3].

إن العبارات في النص السابق بنيت كلها على الإثبات والنفي، والأمر والنهي، وافتتحت بأداة النداء، دخلتها أدوات التوكيد والقسم، وهي كلُّها أدوات بلاغية تخدم النزعة الخطابية على النحو الذي بيّنّاه سابقاً.

وقد يدفعه الحرص على تأكيد المعنى وجعله قائماً في النفوس، فيصوغه صياغة تساويه تأكيداً وقوة، فيكرِّر استخدام أداة التأكيد مرَّات عديدة، حتى ولو جاءت على رأس كل جملة من المقطع:

يا هؤلاء!. إن الاستعمار شيطان، وإنَّ الشيطان لكم عدو، فاتخذوه عدوًّا، وإن الاستعمار شرٌّ، ومحال أن يأتي الشر بالخير، ومحال أن يجنى من الشوك العنب، إن فرنسا نبيَّة في الاستعمار، وإنها ترى أنه شرع لا ينسخ وعقد لا يفسخ، فدعوها وشرعها لله وسنن الله، وللزمان وتصاريف الزمان[4].

على أن الانفعال لا يدفع صاحبه إلى الغضب والثورة دائماً، بل قد يدفعه إلى الحنين والأسيان إلى نغمة مشجية حزينة تكاد النفس تذهب معها حسرات، ولا إخال قارئاً يقرأ مقطوعته الرائعة التي يصف فيها حنينه وشوقه إلى الجزائر وهو بديار الغربة بعيداً، ثمَّ لا يتعاطف مع الإبراهيمي تأثراً وانفعالاً: قل للجزائر الحبيبة هل يخطر ببالك من لم تغيبي قط عن باله؟

(1) المصدر نفسه ص 224.

(2) المصدر نفسه ص 224.

(3) البصائر س 42: 74 (1949م) ص 40.

(4) البصائر س 42: (1947م)، نقلاً عن الملتقى الدولي ص 293.

وهل طاف بك طائف السلوّ، وشغلك مانع الجمع وموجب الخلوّ عن مشغول بهواك، عن سواك؟ إنَّه يعتقد أنَّ في كل جزيرة قطعة من الحسن، وفيك الحسن جميعه، لذلك كُنَّ مفردات وكنت جمعاً، فإذا قالوا: «الجزائر الخالدات» رجعنا فيك إلى توحيد الصفة، وقلنا: «الجزائر الخالدة»، وليس بمستنكر أن تجمع الجزائر كلها في واحدة[1].

ومن يتأمل مقاله هذا الذي يناجي فيه الجزائر، وهو بعيد في ديار الغربة، يدرك أن الشاعرية قد تتحرَّك في قطعة من النثر الفني وتبلغ من النفس ما تبلغه بعض الأبيات الموزونة المقفاه. إن تلك المناجاة تعبر بصدق عن نفسية الإبراهيمي الذي خُلق شاعراً رقيق الإحساس، كما يقول ذلك عن نفسه: وأشهد أنِّي خلقت رقيق الإحساس، سليم دواعي الصدر، سريع الاستجابة إلى التسامح والإغضاء، رحيماً بالبائسين، شفيقاً عليهم، مسعداً لهم بما أملك من لسان ثر، وجاه نزر[2].

إن الأديب المبدع لا يأخذ ألفاظه من الكتب وإنما يستمدُّها من نفسه، والكاتب يبدع ألفاظه كالوتر لا تحمل معنى، وإنَّما تحمل معاني، ولا تخرج معانيها من ذاتها إلا إذا وفق الأديب في توقيع انفعالاته عليها[3].

إن أجلّ ما يلفت النظر في كتابات الشيخ الإبراهيمي هو جرأته النادرة على مناقشة كل ما يراه صالحاً للمناقشة، مبدياً رأيه في كل ما يمكن إبداء الرأي فيه.

وقف في مهرجان أحمد شوقي في أكتوبر 1958م أمام الأدباء العرب ليقول رأيه الصريح في شعر شوقي، لا تثنيه سمعة شوقي وصداه عن قول كلمة الحق، التي رأى واجبه الوطني يملي عليه قولها، ولم تشغله كلمة الحق هذه عن إشارة بمكانة شوقي وفضله على الإسلام والعربية، يقول:

إنَّ الجزائر الفتية مدينة بجميع فروع نهضتها، بل في أصول ثورتها لشوقي، فكم حدونا الشباب بشعره المطرب القوي، ووجَّهنا ذلك الشعر إلى مكامن الإحساس في نفوسهم، فكان ذلك أحد الأسباب في ثورته الخالدة التي أقضت مضاجع الفرنسيين، وأتت بخوارق العادات من الشعب الجزائري... ومع تأثر الجزائر الشديد بشعر شوقي وعقيدتها التي لا تتخلخل في شاعريته، ومع اعترافها بأنه أوَّل من هزَّ هذا الشرق العربي ببدائعه واياته ؛ فإن أدباء الجزائر، ما زالوا يعتبون عليه، بل ما زالوا ينقمون عليه مدحه لفرنسا وافتتانه بحضارتها المزيَّفة، وتخطِّيه الأصول التاريخية التي لا تعترف لفرنسا ببعض ما ينوء به شوقي من فضائلها فهو يقول:

دم الثوار تعرفه فرنسا	وتعرف أنه نورٌ وحق
جرى في أرضها فيه حياة	كمنهلِّ السماء وفيه رزق
وحُرِّرت الشعوب على قناها	فكيف على قناها تُسْتَرَقُّ

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير ص 294.

(2) المصدر نفسه ص 294.

(3) المصدر نفسه ص 295.

سامحك الله يا شوقي!. أي شعب تحرَّر على قنا فرنسا؟ فإن كان بعض ذلك فهو من باب الربا الفاحش تأخذ فيه فرنسا أكثر ممَّا تعطي، وليس خالصاً لوجه الحرية والتحرير[1].

ج. التهكُّم والسخرية:

من أبرز الخصائص التي تميَّز بها أسلوب الإبراهيمي ما يشيع في تعابيره من سخرية وتهكُّم، لاذعين حيناً مقبولين حيناً اخر، وتلك سمة عُرفت بها الكتابة عند كبار الأدباء قديماً وحديثاً، يكفي أن نذكر من بينهم الجاحظ في الأقدمين، والمازني في المحدثين، وهذا الطعم الذي تُمزج به الكتابة يعطيها نكهة مستساغة، وذوقاً مُحبباً يُبعد عن الكتابة هذه الصرامة والجدية التي ما لابست كتابة ولزمتها إلا وطبعتها بالجفاف والاستثقال[2].

على أن الشيخ الإبراهيمي لم يكن يستخدم هذا اللون من التعبير في جميع ما يكتب، وإنما هو لون يتخيره عندما يرى أن المقام يفرضه والظروف تقتضيه، سواء أكان ذلك متعلِّقاً بمناقشة قضية من القضايا أم بانتقاد شخصية من الشخصيات، ولكن الشيخ كان في كل ذلك لاذع التهكم مريره، بارع السخرية رائعها، وهذه الخاصية عند الإبراهيمي، تتوزَّعها مقالاته الطويلة، ولا سيما تلك التي خصَّصها للتحدُّث عن الاستعمار الفرنسي وأعماله ورجاله، أو تلك التي يتحدث فيها عن مواقف مناوئي جمعية العلماء وغيرها، أو تلك التي يصف فيها الواقع المزري تجاه قضية فلسطين.

إن التهكُّم في مثل تلك المواقف يمتزج بالألم، والسخرية مبطنة بالأسى والأسف، ولعل خير مثال على هذا الاتجاه عنده: المقطوعة التالية وهو يأسى فيها حزيناً لمصير فلسطين التي ضاعت بين حكام فاسدين، ورعية متخاذلة، وعدوٍ شرس لدود، وذلك حيث يقول، موظفاً القران الكريم، والأمثال العربية تصويراً، وإيقاعاً: ما أضاع فلسطين إلا العرب، وقد جاءتهم النذر فتمارَوْا بها، ثمَّ حق الأمر وهو غاوون فاندهشوا، ثمَّ وقعت الواقعة فأبلسوا، تعمد خطباؤهم إلى الخُطب ينمقونها وشعراؤهم إلى القصائد يزوقونها، وساساتهم إلى الدعاوي يلفِّقونها، وعامتهم إلى الخرافات يصدِّقونها، بينما عمد ملوكهم إلى الأمداد يعوقونها وإلى الأهواء ينعقونها، وقُضي الأمر وأوسعناهم سبَّاً وراحوا بالإبل، وبعد أن كنا أهل فلسطين أصبحنا نقول ما قالته الجهضمية في مكة: بل نحن كنَّا أهلها[3].

والتهكُّم عنده قد يُتخذ وسيلة من وسائل الهجوم الحاد، يرمي من ورائه إلى إرباك الخصم وفضحه، والنيل من مواقفه وأعماله، وبذلك يُحيله إلى مرمى لسهامه المصيبة، ويعرضه لكل صفات المقت والازدراء، ولنسمعه كيف يخاطب المستعمرين الذين كانوا يُغلقون المدارس العربية الحرَّة بدعوى أنها لا تتوافر على المتطلبات الصحية، يقول: وما لهذه الحكومة لا تذكر المحافظة على الصحة إلا في سياق الحديث على مدارسنا؟ وأين هذه من هذه الألوف المؤلفة التي تنام على الأرصفة في زمهرير الشتاء؟ أين هي من هذه العوالم من الأحياء الذين يسكنون القبور؟ أين هي من هذه المناظر المحزنة التي تقع عليها العين في قلب العاصمة وفي أرباضها؟ أودام

(1) المصدر نفسه ص 298.
(2) المصدر نفسه ص 298.
(3) المصدر نفسه ص 300.

يحفرون لسكانهم الغيران كالفئران ينامون فيها هم وأطفالهم، فيفتك بهم السل ويغشاهم الموت من كل مكان، ولو أنَّ طفلاً منهم خرج من غاره ودخل مدرسة عربية لجاءت الحكومة تسعى وهي تخشى أن يصيبه سوء من عدم المحافظة على الصحة[1].

إن براعة الإبراهيمي في هذا المجال تعود إلى موهبته الأدبية، وبصره النافذ بوضع الكلمات والألفاظ في مواضعها من الجملة تستحيل إلى لفظة تتدفَّق حياة، وتتوثب حركة بما يشيعه فيها من سخرية مبطنة وتندّر غير ظاهر. ويمكن أن تدلل على هذه الخاصية من قوله في عبد الحي الكتاني الطرقي، وما يشاء الاستعمار إخماد حركة إلا كانت على يديه البركة. إنَّ لفظه البركة عندما استعملت هنا تحولت إلى لفظة مضحكة، لأن الإبراهيمي استخدمها استخداماً عكسياً بحيث قال: كتبت أيها الشيخ كثيراً من الباطل، وسنكتب قليلاً من الحق، ولكن قليلنا لا يقال له قليل، ولو كنت وحدك تكتب بقلمك وتقول بلسانك وتعبِّر عن فكرك لأوْلَيْناك جانب الإهمال، وسكتنا عنك طول العمر كما سكتنا عنك عن ماضيك القريب، وفي ماضيك البعيد، احتقاراً لشأنك واستهانة بما أهان الله منك، وربما عذرناك في مجانبتك للصدق بأنَّك لا تعرفه وإنما يؤاخذ الإنسان بترك ما عرف، وربَّما أثنينا عليك بالوفاء للصاحب الذي صاحبك منذ عقدت التمائم وهو الكذب، وباستقامتك على الجبلّة التي جبلت عليها، وهي الشر، وبالموهبة التي خصصت بها، وهي البراعة في قلب الحقائق، وربَّما حماك من هذه النار التي تصلاها، وهي نار الحقد، ومعذرة فإن الميسور أن نطفأئ النار ذات الوقود، وليس من الممكن أن نطفأئ الحقد من صدر الحقود[2].

ومن الواضح كيف يستخدم الإبراهيمي براعته الأدبية في النيل من الخصم هذا النيل الموجع، وكيف يستغل الإبراهيمي موهبته الخالية، ومعرفته الدقيقة باللغة العربية وأسرارها، واطِّلاعه على الأساليب البلاغية تقديماً وتأخيراً فصلاً ووصلاً، حتى أصبحت الجملة الاعتراضية حين توضع في موضعها تتقلَّب هي في حدِّ ذاتها من معنى المدح إلى معنى الذمِّ، حين تصبح أداة عاملة على التهكُّم الموجع[3].

ومن تهكُّمه المرير المضحك، تعليقه على أمسية شعرية سمع فيها بعض الشعراء الذين يدَّعون التجديد، وهم يقرؤون شعراً خرجوا فيه عن اللغة والوزن والأخلاق، ويبدو أن ذلك منه كان أواخر الخمسينيات أي مع البدايات الأولى لظهور مثل هذا الشعر، وبالقدر الذي كان تعليقه تعبيراً عن الازدراء والمقت ؛ بالقدر الذي كان تعبيراً عن أصالة عربية إسلامية عميقة الجذور.

لقد دفعته هذه الأصالة إلى أن يرفض رفضاً مطلقاً هذا النوع من الشعر الذي راه دخيلاً غريباً، ولم يجد له تعريفاً ولا تحديداً سوى قوله: إن اللغة العربية على سعتها مفرداتها ناقصة لأنَّنا لا نجد فيها الكلمة أو الصفة التي يمكن أن نصف بها أمثال هؤلاء الشعراء المجدِّدين، إلا أن لي من عروبتي وغيرتي على لغتي ما يشفع لي بالاشتقاق فأقول: إن العرب قد وضعوا للنساء جمعاً ينتهي بألف وتاء، فقالوا: مجدِّدات، وسموه الجمع المؤنث

(1) عيون البصائر ص 377، نقلاً عن الملتقى الدولي ص 300.

(2) الملتقى الدولي ص 302.

(3) الملتقى الدولي ص 302.

السالم، ووضعوا للرجال جمعاً ينتهي بواو ونون، فقالوا: مجدِّدون، وأسموه الجمع المذكر السالم، ولكن هؤلاء المجدِّدين الذين سمعتهم الليلة لا هم بالنساء فيؤنثون، ولا هم بالرجال فيذكرون، إنَّهم بين ذلك، ولا نجد أي حرج في أن نتبع أئمتنا الأجلاء وفقهاءنا الأدلاء، ونعطي أمثال هؤلاء ما أعطوه للخنثى، أي: نصيباً كأنثى وهو ألف وتاء، ونصيباً كذكر وهو واو ونون، فنقول: مجدِّدونات، فإن سألتموني ماذا نسمِّي هذا الجمع؟ أقول: نسميه «جمع المخنث السالم».

إن الإبراهيمي وهو على ما يعرف به من تمسُّك بالشخصية العربي الإسلامية؛ دفعته غيرته إلى رفض هذا النوع من التجديد الذي يراه انسلاخاً. وإن ذوقه العربي الأصيل الذي تشرّب الأدب في منابعه ؛ نبا به عن أن يتذوق هذا النوع من الشعر الذي راه خارجاً عن الشخصية موقفاً، وفناً، وقواعد[1].

د . أثر القران الكريم في نثره الفني:

إن أهم مصدر وأبلغه تأثيراً في أسلوب الإبراهيمي فيما نحسب هو القران الكريم، هذا المعين المتفجِّر سحراً وروعة بيان، المتدفق الذي يملأ النفس ارتياحاً، وما من شك في أنَّ هذا التأثير يعود إلى الحافظة الذهبية التي وهبها الله للإبراهيمي، فقد حفظ القران كلَّه عن ظهر قلب وهو في التاسعة عن عمره، ودأب على تدارسه والمتمعُّن في معانيه، وتذوُّق بيانه طول عمره، فظهر أثر ذلك كله في نفسه، وقلبه، وفكره، ولسانه.

إن الثقافة العربية عند الإبراهيمي ارتكزت على قاعدة القران الكريم، واستمدَّت حيويّتها وتجدُّدها من هذه الجذور الضاربة بعمق في ثرى القران، فهو بالنسبة إليه المورد والمصدر، منه يستقي وإليه يعود. ولقد دلَّت كتاباته عن القران على إدراك عميق لأسراره، وفهم دقيق لمعانيه، وتذوُّق قلَّ نظيره لإعجازه، ولعلَّ هذه الخاصية هي التي جعلت ابن باديس يدعوه إلى أن يخلُف رشيد رضا في إكمال تفسير القران على طريقة المنار[2].

وكيف لا يكون أثر القران في أسلوب الإبراهيمي كذلك؟ وهو يَعُد القران أصل وجود الأمة الإسلامية التي هو واحد من أفرادها المعتزِّين بالانتماء إليها، إن الأمَّة الإسلامية في نظر الإبراهيمي لم تبلغ ما بلغته في العلم والتشريع والأدب والحكمة إلا بفضل القران[3].

وكان يوصي الشعب الجزائري بالعيش مع القران في هذا المجال، قال: أحيوا قرانكم تحيوا به، حقِّقوه يتحقق وجودكم به، أفيضوا من أسراره على سرائركم، ومن ادابه على نفوسكم، ومن حكمه على قولكم، تكونوا به أطباء، ويكن بكم دواء[4].

---

(1) الملتقى الدولي ص 306.
(2) المصدر نفسه ص 283.
(3) المصدر نفسه ص 283.
(4) المصدر نفسه ص 284.

وقال: لا تعتمدوا على حفظ المتون وحدها، بل احفظوا ما يُقوِّي مادتكم اللغوية وينمِّي ثروتكم الفكرية، ويغذي ملكتكم البيانية، والقران القران.. تعاهدوه بالحفظ، وأحيوه بالتلاوة، وربُّوا ألسنتكم على الاستشهاد به في اللغة والقواعد، وعلى الاستشهاد به في الدين والأخلاق، وعلى الاستظهار به في الجدل، وعلى الاعتماد عليه في الاعتبار بسنن الله في الكون.

وما من شك في أن الإبراهيمي لم يؤمن بجدوى هذه الطريقة في تربية النشء تربية عربية إسلامية سليمة إلا بعد أن لمس ذلك في نفسه.

إن أثر القران الكريم في الأدب الإبراهيمي يمس الظواهر الفنية والمعنوية عنده، سواء جانب التعبير، أو جانب التصوير، أو جانب التنغيم(1).

إن الإبراهيمي حين يرتكز في تكوين الصورة التعبيرية إلى القران الكريم ؛ يفعل ذلك عن تدبر لمعناها وكل ما توحي به من أبعاد، ظلالاً وصوراً وإيحاءات فنية رائعة، ولا يسوقها كما يفعل بعض الكتَّاب تبياناً أو توضيحاً لا يتعدَّى المعنى المجرَّد الدلالي للجملة. ولنأخذ لذلك مثلاً هذه التعبيرات المستوحاة من القران، قال: هذا الشَّمال قد أصبح أهله كأصحاب الشِّمال في سَموم من الاستعمار وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم، أفسد الاستعمار أخلاقهم، ووهن عزائمهم، وضرب بينهم وبين العلم بسور ليس له باب(2).

فهو لكي يصور مبلغ ما وصل إليه الاستعمار من فظاعة وبشاعة في الحيف والظلم؛ لم يجد له في تصوُّره مثيلاً إلا تلك الصورة التي ارتسمت بذاكرته بما يلقاه الكفار في جهنم. كما وردت في سورة الواقعة: {وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤} [سورة الواقعة:44-41].

أما الإجراءات التعسُّفية القاهرة التي كانت مطبَّقة على الجزائريين المسلمين حتى لا يتعلموا ولا يتقدموا ؛ فإن الصورة التي تجسِّدها هي هذا السور الذي يتمثله فاصلاً بين المؤمنين والكفَّار، كما تصوره الاية الكريمة من سورة الحديد، ولا يجد صورة تجسِّد أعمال العملاء إلا تلك الصورة القرانية التي تجسِّد المنافقين الذين طالما اذوا رسول الله بكل أنواع الإذاية، ولكنَّه يشير إلى هذه المقارنة بلطف من خلال توظيف هذه الصورة الإشارية المستقاة من القران الكريم: إن في صفوفكم دساسين مدخولين من الرجال، لهم أغراض من المنافع والكراسي، ولهم مقاصد في الإفساد، إنكم تعرفونهم بسيماهم، وتعرفونهم في لحن القول: {وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ} [سورة محمد:30].

وهو لكي يصف اتجاه الصحافة الاستعمارية وكتاباتها التي تناصر سياسة الحيف والظلم ضدَّ الجزائريين؛ لجأ إلى ايات قرانية تصوِّر أعمال المنافقين، أو هي تصوِّر مصير الكفَّار يوم الجزاء والحساب، فيقول: وأما الصحافة في الجزائر، فإنَّها استعمارية خالصة لحماً ودماً، تعيش على ماله، وتسير بتوجيهه.. تأمر في حق الأمة الجزائرية

(1) المصدر نفسه ص 285.

(2) المصدر نفسه ص 286.

بالمنكر، وتنهى عن المعروف وتضع الموازين البخس لصالحها.. ولا تقنع بما يقع من الحكام من ضغط وزجر وإعنات، بل تعدُّه تقصيراً منهم في الواجب، ولذلك كلِّه تراها لا تدعو ثبوراً واحداً، بل تدعو ثبوراً كثيراً[1].

ولإثبات أصالة الشعب العربي المسلم، يوظِّف هذه الصورة التعبيرية الرائعة التي استنجد فيها بمعلوماته القرانية شكلاً ومضموناً، داحضاً بها دعوى الاستعمار: «الجزائر فرنسية». قال: ولو أن الاستعمار شرعها زجلاً بالتسبيح في ناشئة الليل، وجعل كفاء سماعها جزاء الأبرار، لكان في اذاننا وقر من سماعها، ولعددناها غثة مرذولة ممجوجة مملولة، ولهدينا بالفطرة مع الطيب من القول: وهو أن الجزائر ليست فرنسية، ولن تكون فرنسية، كلمات قالها أوَّلنا، ويقولها اخرنا، ومات عليها سلفنا، وسيلقى الله عليها خلفنا[2].

ويقول متهكماً بأولئك الموظفين الرسميين الذين توظِّفهم الحكومة الفرنسية في وظائف دينية، فباعوا ضمائرهم ودينهم، وباؤوا بخزي الدنيا والاخرة:

وإن هذه الحكومة تقدِّم التجريب على التخريب، وقد جربتكم فوجدت منكم جداراً متداعياً للسقوط، فما أقامته بل خرَّبته، لأنه لم يكن لغلامين يتيمين في المدينة، ولا كان تحته كنز لهما، ولا كانت هي تنظر بعين صاحب موسى[3].

إن هذه الخاصِّية التي تميز بها أسلوب الإبراهيمي جعلت نُقاداً ودارسين كباراً يقفون عندها معجبين منوهين، يقول الدكتور إبراهيم السامرائي معلقاً على كتاب عيون البصائر: لقد كانت هذه المقالات نماذج أدبية عالية، ذلك أنَّ صاحبها مَلك من العربية ناصيتها، فذلت له أوابدها، وعرف شوارِدها، فالعبارة سليمة تعتمد أدب العربية في أعصارها الزاهرة، وإن القارئ ليشعر وهو يقرأ هذا السفر الغالي من أن صاحبه ثَقِف أدب القران وعرف بيانه ووعى أسراره، فكان ذلك أَمارة من أَمارات أدبه، وطابعاً يتميز به فنُّه الأصيل[4].

هـ مكانته الأدبية:

إن مكانة الإبراهيمي الأدبية لا ينظر إليها من خلال منظور ضيق لا يتعدَّى الجزائر أو المغرب العربي، بل مكانته تتجاوز هذه الحدود إلى الوطن العربي والإسلامي بمحيطه الواسع، ويفرض اسمه ضمن الأدباء المشهورين الذين عرفهم العصر الحديث.

وقد كان الأدباء في المشرق العربي يطلقون عليه الأستاذ الإمام، اعترافاً منهم بفضله وأدبه، وسعة علمه. وقلة هم أولئك الذين حَظُوا بمثل هذه المكانة، ففي مصر كان له معجبون من الأدباء والعلماء، من أمثال الفيلسوف منصور فهمي، وإبراهيم مدكور، وكامل كيلاني، وبنت الشاطأئ، والغزالي وغيرهم، وقد بلغ بهم الإعجاب به أن بويع بإمارة البيان، كما بويع من قبل شوقي بإمارة الشعر.

(1) عيون البصائر ص 401، الملتقى الدولي ص 287.
(2) الملتقى الدولي ص 288.
(3) الملتقى الدولي ص 288.
(4) الملتقى الدولي ص 288.

يقول الأستاذ موسى الأحمدي: .. أذكر عندما كنت بمصر في طريقي إلى الديار المقدسة سنة 1953م ؛ أن حضرت إحدى هذه الندوات التي كان فيها الشيخ هو السابق المبرز، وحدث عندما انتهى الشيخ البشير من إلقاء كلمته، أن قام الفيلسوف الكبير الدكتور منصور فهمي. وهو أستاذ طه حسين وزكي مبارك وأدباء كثيرين. ونزع حذاءه معلناً: أن هذا المنبر الذي يقف فيه الشيخ ساحة مقدسة ينبغي أن يدخلها الناس كما يدخلون الحرم، وقال بأنَّه لم يسمع أو يَر في حياته من هو أفصح أو أبلغ من الشيخ البشير، ودعا جميع العلماء والأدباء في الوطن العربي إلى أن يلقوا الله بمقاليد اللغة والبيان، ثم توجَّه إلى الشيخ قائلاً: أنت ملِك العربية بهذا العصر، ملكت نواصيها ونواصينا. ثمَّ ثنى المربِّي الكبير الأستاذ كامل كيلاني فأعلن المبايعة[1].

وفي القاهرة كان الشيخ يجمع الأدباء والعلماء إلى ندواته ومحاضراته بجذبهم إليه بعلمه وأدبه وقوَّة شخصيته[2]، ممَّا جعل اللقاء به كما يقول الشيخ الغزالي: مصدر متعة أدبية وعلمية تجعل أدباء القاهرة وعلماءَها يُهرعون إ ليه ويتزاحمون عليه[3].

وقد توِّجت هذه المكانة باعتراف العضوية له في مجمع الخالدين بالقاهرة، كما كان عضواً مراسلاً لمجمعي اللغة في كل من دمشق وبغداد، وكان مرجع العلم والأدب في هذه المجامع، التي تضُم بين جدرانها جلَّة العلماء وصفوة الأدباء في الوطن العربي. ممَّا جعل الدكتور إبراهيم مدكور أحد الأعضاء البارزين بالمجمع اللغوي بالقاهرة يقول عنه: كنَّا نعول التعويل كلَّه على مساهمته والإفادة من علمه وفضله[4].

وفي دمشق ترك صيتاً ذائعاً، وإشادة بالغة، حيث كان يشد الإعجاب ما بين مكتب عنبر، والمدرسة السلطانية، والجامع الأموي، وتخرج على يده من يعد اليوم من مشاهير الأدباء والعلماء، وكان طلبته يعجبون بسعة علمه، وقوَّة ذاكرته، واستقامة منهجه[5].

ولم يقلَّ إعجاب أدباء العراق به عن إعجاب الأدباء به في دمشق أو مصر، ويكون الإعجاب منصبّاً على سعة العلم، وفصاحة اللسان، وشمولية الاطلاع على الواقع ومسايرته. وهذه الخصائص ينوه جمال الدين الأتاسي بها حين يقول: ونحن في العراق عزز عواطفنا وألهب أحاسيسنا في محاضراته وأحاديثه، لم نشهد أديباً أو داعية بمقدراته، وطول نفسه، وإجادته لفن القول، وسعة اطلاعه على ألاعيب الاستعمار، وكان صادق الحب لوطنه ودينه[6].

(1) الإمام الرائد الشيخ الإبراهيمي ص 92، الملتقى الدولي ص 329.
(2) الملتقى الدولي ص 329.
(3) الملتقى الدولي ص 329.
(4) مجلة اللغة العربية القاهرة ج 21 (1966) ص 130.
(5) الملتقى الدولي ص 330.
(6) الملتقى الدولي ص 330.

8 . زهده وإخلاصه:

كان الإبراهيمي من كبار الزهاد، لم يرث مالاً ولم يتموَّل أموالاً، وعاش مع أسرته على مرتب شهري من صندوق «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»، والذي كان يسدد ديونه القديمة بديون جديدة، محتفظاً بالحرية والاستقلال عن أصحاب النفوذ والسلطات.. سالكاً في ذلك طريق العلماء الأعلام ـ الذين لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ـ مكتفين بالعلم والجهاد، أسوة بالنبيين والصديقين، وحسن أولئك رفيقاً[1].

تحدث الشيخ عن حالته المادية فقال: ليس لي مال موروث ولا مكتسب، وأهلي يعيشون في الجزائر على مرتب شهري من صندوق الجمعية، تضايقهم فيها نفقات الولد الذي يدرس في باريس، أما أنا فلا أدري الحكمة التي بنى عليها محرر «المصور» هذا السؤال المحرج، ولا أدري أأجيبه بالواقع؟ أم أجيبه بظن الناس وتقوُّلهم؟ فلأجبْهُ بالاثنين، فالناس يظنون أنني أتقاضى مرتباً من الحكومة السعودية أو من غيرها من الحكومات العربية، وليس لهذه الظنون حقيقة ولا ظل من الحقيقة. أما الواقع ـ وسامح الله الأخ الذي أدمج هذا السؤال في الأسئلة فأحرجني بالسؤال، وأحوجني إلى الإجابة ـ.. الواقع يا سيِّدي السائل أنني أعيش بالدَّين «بفتح الدال»، وفي خلاص هذا الدين طريقة، وهي قضاء الدَّين بالدِّين، كما قالوا فيمن يغسل الدم بالدم، ولا أدري أيؤاخذ القانون على هذا؟ وما دخل القانون إذا لم تقع مطالبة، على أن إقامتي بمصر مؤقتة، وقد دخلتها شريفاً، وسأخرج منها إن شاء الله أشرف مما دخلتها[2].

كان رحمه الله زاهداً في الدنيا متفانياً في هدفه الكبير، عاملاً على تحرير شعبه من الاستعمار، وتبليغ رسالات الله لمواطنيه، حريصاً على تعليمهم وتربيتهم وإعدادهم، يقول رحمه الله: لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلاً، ولكنني ألفت للشعب رجالاً، وعملت لتحرير عقوله تمهيداً لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته، فأصبح مسلماً عربياً، وصححت له موازين إدراكه، فأصبح إنساناً أبياً، وحسبي هذا مقرباً من رضا الرب ورضا الشعب[3].

وبالرغم من احترافه هذه الصناعة الثقيلة ـ تربية الرجال وإيقاظ الأمة ـ فلقد ترك من الاثار العلمية «عيون البصائر»، و«الاطراد والشذوذ في اللغة» و«أسرار الضمائر العربية» و«التسمية بالمصدر» و«كاهنة أوراس» و«رسالة العنب» و«فصيح العربية من العامية الجزائرية» و«أرجوزة» في 36 ألف من أبيات الشعر، ضمّنها تقاليد الشعب الجزائري وعاداته، وأما مقالاته، فإنها قد جمعت فكونت خمس مجلدات قاربت صفحاتها ألفين وخمسمائة صفحة[4].

لقد تميزت شخصية الإبراهيمي بزهده في الحطام الزائل، وإخلاصه لدعوته ودينه، وكان يذكر نفسه وإخوانه وتلاميذه بأهمية الإخلاص في الأعمال، ويعتبر ذلك هو السر الإلهي في نفع العالم والانتفاع به حيث يقول:

---

(1) الشيخ البشير الإبراهيمي، د . محمد عمارة، ص 15.

(2) اثار الإمام محمد البشير (170/5).

(3) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، د . محمد عمارة ص 14.

(4) المصدر نفسه ص 14.

لقد صدق أولئك العلماء ما عاهدوا الله عليه، وفهموا الجهاد الواسع، فجاهدوا في جميع ميادينه، فوضع الله القبول جزاء من الله على الإخلاص، يعجله لعباده المخلصين، وهو السر الإلهي في نفع العالم والانتفاع به، وهو السائق الذي يدُعُّ النفوس المدْبِرة عن الحق إلى الإقبال عليه، ونفوذ الرأي وقبول الكلام من العالم الديني الذي لا يملك إلا السلاح الروحي، هو الفارق الأكبر بين صولة العالم وصولة الملك، وهو الذي أخضع صولة الخلافة في عنفوانها لأحمد بن حنبل (164 . 241هـ/ 780 . 855م).

وأخضع صولة الملك في رعونتها للعز بن عبد السلام (577 . 660هـ/ 1181 . 1262م).

وإن موقف هذين الإمامين من الباطل لعبرة للعلماء لو كانوا يعتبرون، وإن عاقبتهما لاية من الله على تحقيق وعده بالنصر لمن ينصره.

وما لنا من فائت نتمنى ارتجاعه أعظم من بعث تلك الشجاعة، فهي أعظم ما أضعنا من خصالهم، وحُرمناه بسوء تربيتنا من خلالهم.. ولعمري إن تلك القوى لم تمت، وإنما هي كامنة، وإن تلك الشُعَل لم تنطفأئ، فهي في كنف القران امنة، وما دامت نفحات القران تلامس العقول الصافية، وتلامس النفوس الزكية ؛ فلا بد من يوم يتحرك فيه العلماء فيأتون بالأعاجيب.

وما زلنا نلمح وراء كل داجية من تاريخ الإسلام نجماً يشرق، ونسمع بعد كل خفتة فيه صوتاً يخرق، من عالم يعيش شاهداً، ويموت شهيداً، ويترك بعده ما تتركه الشمس من شفق يهدي السارين المدلجين إلى حين[1].

9 . إنسانيتة الرفيعة:

من صفات شخصية الشيخ الإبراهيمي صفة الإنسانية الرفيعة، وكان رحمه الله أمة في رجل، وكان طاقة جبارة من العزيمة والنشاط والشجاعة والجرأة في الحق، وفي ذلك عُذِّب وسُجن ونُفي وشُرِّد فما لانت له قناة، ولا وهنت له عزيمة، بل ما زاده ذلك إلا قوَّة وصلابة، واسترسالاً في الجهاد الوطني والإصلاح الاجتماعي، وكان يحمل بين جوانحه روحاً شفافة تتمثل فيها العاطفة الإنسانية بأجلى معانيها، حيث كان يحب الخير، ويفعل الخير، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكان صاحب لهفة لا يرد طالب حاجة، فهو يخدم المجتمع ككل ويخدم الأفراد لأنه يعتبر الشيئين مكملين لبعضهما، حيث كان رأيه أن خدمة الأفراد تشكل في مجموعها خدمة للجماعة، لأن الفرد جزء من الجماعة، وكان رأيه هذا رداً على محترفي الزعامة، الذين يتكبرون عن ملاقاة الأفراد وقضاء حوائجهم، وحجتهم في ذلك أنهم يخدمون الشعوب والجماعات، ولا وقت لديهم للنظر في أمور الأفراد، ولكن وقتهم يتسع لخدمة نزعتهم الفردية وزعامتهم المصطنعة، فالزعيم الحقيقي هو الذي يفني ذاته في خدمة الفرد والجماعة، وهكذا كان الإمام البشير.

وكان رحمه الله وفياً لأصدقائه ومعارفه، ويسأل عنهم ويعودهم، ويتتبع أخبارهم على البعد، فإذا عرف أن لدى أحدهم مشكلة أو به خصاصة أو ضائقة ؛ سعى بكل ما أوتي من قوة لحل مشكلته وتفريج كربته، مستخدماً

(1) المصدر نفسه ص 38.

في ذلك ماله وجهده ونفوذه ودالته على الناس، يفعل كل ذلك بنفس راضية ودون كلل أو ملل، وكم من أسرٍ من معضلات كبيرة حلّها، وكم من حوائج قضاها للناس في الجزائر وفي مختلف البلاد التي زارها.

وإلى جانب مواقفه البطولية الصلبة المعروفة، التي كانت لا تلين له فيها قناة، أمام الحكام الجائرين وأصحاب السلطة المتعالين، ممن يرى أنهم انحازوا عن جادة الصواب، حيث كان لا يتزعزع ولا يتضعضع، ولا يبالي ولا يأبه بوزير أو أمير أو رئيس، كانت له نفس شفافة متواضعة أمام الضعفاء وفي المواقف الإنسانية، فقد كان مرة يزور عام 1961م إبان الثورة التحريرية مركز بنات الشهداء بمدينة طرابلس ليبيا، فوقف يلقي كلمة فيهن عن الجزائر وبطولاتها وأمجادها وشهدائها الميامين، ودورهن في جزائر الغد المستقلة، فلم يتمالك نفسه وأجهش رحمه الله بالبكاء، تأثراً من مشهد بنات الشهداء الأبرار، وأثناء خروجه من المركز صادفه أحد المناضلين الجزائريين وقد قطعت رجلاه، فحاول المناضل أن يقبل يدي الشيخ فلم يمكّنه بل سبق إلى تقبيله وعيناه تدمعان.

هذه لمحة من اللمحات الإنسانية لشخصية الشيخ الغنية المتعددة الجوانب[1].

هذه من أهم صفات الشيخ الإبراهيمي، والكثير من الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة سيراها القارئ بإذن الله متناثرة في مباحث هذا الكتاب.

* * *

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 355، 356.

رابعاً: أهم أعمال الإبراهيمي عندما تولى قيادة جمعية العلماء

ولما أُطلق سراح الشيخ محمد البشير من منفاه أول سنة 1943م، كانت فاتحة أعماله تنشيط حركة إنشاء المدارس، فأنشأ في سنة واحدة ثلاثاً وسبعين مدرسة في مدن وقرى الجزائر، بأموال الشعب، واختار لتصميمها مهندساً عربياً مسلماً، فجاءت كلها على طراز واحد لتشهد للأجيال القادمة أنها نتاج فكرة واحدة.

وتسارع الناس على بذل الأموال لبناء المدارس، حتى زادت على الأربعمائة مدرسة، ورجع الشيخ لإلقاء دروسه العلمية للطلبة وللعامة. ولما رأت فرنسا أن عقابها للشيخ بالتغريب ثلاث سنوات لم يكف لكسر شوكته، وأنه عاد من المنفى أمضى لساناً وقلباً وعزيمة مما كان، وأن الحركة التي يقودها لم تزدد إلا اتساعاً ورسوخاً ؛ انتهزت فرنسا فرصة نهاية الحرب ودبرت للجزائر ثورة مفتعلة، فقتلت من الشعب الجزائري ستين ألفاً، وساقت إلى المعتقلات سبعين ألفاً، وألقت بالشيخ في السجن العسكري المضيق، تمهيداً لمحاكمته بتهمة التدبير لتلك الثورة ومجرميها، وكان من زملائه في السجن: الدكتور شريف سعدان، والصيدلي فرحات عباس، والمحامي شريف حاج سعيد، وغيرهم.

ولما خرج من السجن عاد إلى أعماله أقوى عزيمة مما كان عليه وأصلب عوداً وأقوى عناداً، وعادت المدارس التي عطّلتها الحكومة زمن الحرب، وأحيا جميع الاجتماعات التي كانت معطّلة بسبب الحرب، ومنها الاجتماع السنوي العام، وأحيا جريدة «البصائر» التي عُطّلت من أول الحرب باختياره وباتفاق بينه وبين ابن باديس لحكمة، وهي أنهم لا يستطيعون تحت القوانين الحربية أن يكتبوا ما يريدون، ولا يرضى لهم دينهم وهمتهم وشرف العلم، وسمعة الجمعية في العالم ؛ أن يكتبوا حرفاً مما يراد منهم، فحكموا عليها بالتعطيل، وقالوا: بيدي لا بيد عمرو، وحسناً فعلوا، وكذلك عطّلوا مجلة «الشهاب» الناشرة لأفكار الجمعية.

ولما قرّر الشيخ مع زعماء جمعية العلماء المسلمين إحياء جريدة «البصائر» ؛ ألزمه إخوانه أن يتولى إدارتها ورئاسة تحريرها، فقبل مكرهاً، وتضاعفت مسؤولياته، وثقلت الأعباء، فرئاسة الجمعية وما تستلزم من رحلات، وما يتبع الرحلات من دروس ومحاضرات، كل ذلك كان يستنزف جهد الشيخ الإبراهيمي، وزادت عليها أعباء الجريدة وتحريرها.

ولكن عون الله إذا صاحب أمراً خفت عليه الأثقال، وكان يقوم للجمعية بكل واجباتها، ويقوم للجريدة بكل شيء، حتى تصحيح النماذج، ويكتب الافتتاحيات بقلمه، وقد تمر الليالي ذوات العدد من غير أن يطعم النوم، وكان يقطع الألف ميل بالسيارة في الليلة الواحدة، وما من مدرسة تفتح إلا ويحضر افتتاحها ويخطب فيها، وما من عداوة تقع بين قبيلتين أو فردين إلا ويحضر بنفسه ويبرم الصلح بينهما، وبرغم الاستعمار الذي من همِّه بث الفتن وإغراء العداوة والبغضاء بين الناس، فكان معطلاً لتدبيراته في جميع الميادين[1].

---

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (286/5).

1 . معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس:

بلغ عدد المدارس الابتدائية العربية أربعمائة وزيادة، وبلغ عدد تلاميذها إلى اليوم الذي سافر فيه الشيخ الإبراهيمي إلى الشرق مئات الالاف بين بنين وبنات، وبلغ عدد معلميها ألفاً وبضع مئات، وبلغت ميزانيتها الخاصة «وهي فرع من الميزانية العامة لجمعية العلماء» مائة مليون فرنك وزيادة إلى نهاية خروج الشيخ الإبراهيمي من الجزائر سنة 1952م.

ولما بلغ عدد المتخرجين من مدارس الجمعية بالشهادة الابتدائية عشرات الالاف ؛ وجد الإبراهيمي نفسه أمام معضلة تحتاج إلى حل ؛ ذلك أن حاملي هذه الشهادة ذاقوا حلاوة العلم فطلبوا المزيد، وأرهقوا الإبراهيمي وإخوانه من أمرهم عسراً، وألحوا عليه أن يتقدم بهم خطوة إلى التعليم الثانوي.

وناشد الأمة أن تعينه بقوة ليبلغ بها إلى هدف أبنائها، فاستجابت، فكان ذلك مشجعاً على إنشاء معهد ثانوي بمدينة قسنطينة، نسبه الشيخ الإبراهيمي إلى إمام النهضة ابن باديس، تخليداً لذكره، واعترافاً بفضله على الشعب. فاشترى الإبراهيمي مع إخوانه داراً عظيمة واسعة من دور عظماء البلدة، وجعلنا منها معهداً ثانوياً، وهيأنا له من سنته الأساتذة والتلامذة والكتب والمال، فكان التعليم فيه بالمعنى الكامل عند غيرنا من الأمم، ببرامجه وكتبه وأدواته، وكان هذا المعهد تاجاً لمدارس جمعية العلماء وغرَّة من أعمالها.

وكانت نية الإمام الإبراهيمي معقودة على إنشاء معهدين ثانويين اخرين، أحدهما بمدينة الجزائر، والثاني بمدينة تلمسان، وقد بلغ تلامذة المعهد الباديسي في السنة الأولى ألفاً أو يزيدون، وكلهم منتخبون من مدارس الجمعية الابتدائية من جميع أنحاء الجزائر، ثم اشتروا من مال الأمة داراً أخرى تتسع لسكن سبعمائة طالب، وبعد خروج الإبراهيمي إلى المشرق عام 1952م افتتحها إخوان الإبراهيمي من بعده، وقسموها إلى قاعات نوم فسيحة بأسرّتها ودواليب الثياب، وكتب المطالعة، على ترتيب بديع، وفي الدار ما يريح الطالب من مغتسلات، وحمامات، ومطابخ، وغرف طعام(1).

أ . معهد ابن باديس فرع من جامعة الزيتونة:

فكرت جمعية العلماء في أن تجعل هذا المعهد فرعاً من فروع الزيتونة، يستظل بحمايتها ويتمتع بما لها من قوانين وتراتيب إدارية، وللحصول على اعتراف الإدارة الزيتونية بذلك، بادر الشيخ الإبراهيمي بالكتابة إلى جمعية الطلبة الجزائريين كي تتولى الاتصال بفضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور مدير الإدارة الزيتونية، وتتدخل لديه لهذه الغاية، ولتنفيذ هذه المهمة الدقيقة، يروي الأستاذ عبد الرحمن شيبان أن: الجمعية أقامت بناديها الكائن بنهج عبد الوهاب بتونس حفلة تكريم للإمام محمد الطاهر بن عاشور بصفته رئيساً شرفياً لها، حضرها بالإضافة إلى الشيخ الشاذلي ابن القاضي: مدير المدارس، وبعض أعضائه الشيخ علي النيفر، والشيخ محمد المختار بن محمود، والشيخ الفاضل بن عاشور.

---

(1) اثار الإمام محمد البشير (286/5).

وفي هذه الحفلة عرضنا على مدير الزيتونة رغبة جمعية العلماء، فأكبر هذه المبادرة العلمية، وأعرب عن اغتباطه الشديد بأن يعترف بمعهد يحمل اسم أحد التلامذة الأصفياء الإمام عبد الحميد بن باديس، كفرع للجامعة الزيتونية[1].

ونتيجة لهذا الموقف الإيجابي الذي وقفه الشيخ الطاهر بن عاشور من قيام المعهد الباديسي وحماسه لهذا المشروع، ومد يد العون له بمختلف الوسائل والطرق، واعتباره فرعاً من فروع الزيتونة المنتشرة في سائر المدن التونسية ؛ نجد الشيخ الإبراهيمي يجرد قلمه للتنويه بالشيخ الطاهر بن عاشور والإشادة بعلمه ومكانته في أكثر من مناسبة، معتبراً إياه أحد أعمدة الإصلاح وعلماً من أعلام التاريخ المعاصر، قائلاً عنه: الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور علم من الأعلام الذين يعدهم التاريخ الحاضر في ذخائره، فهو إمام متبحر في العلوم الإسلامية ومستقل في الاستدلال لها، واسع الثراء في كنوزها، فسيح الذرع في تحمّلها، نافذ البصيرة في معقولها، واسع الاطلاع على المنقول منها، أقرأ وأفاد، وتخرجت عليه طبقات ممتازة في التحقيق العلمي، وتفرد بالتوسع والتجديد لفروع من العلم ضيقها المنهج الزيتوني، وأبلاها الركود الذهني، وأنزلتها الاعتبارات التقليدية دون منزلتها بمراحل، فأفاض عليها هذا الإمام من روحه وأسلوبه حياة وجدة، وأشاع فيها مائية ورونقاً حتى استرجعت بعض قيمها في النفوس ومنزلتها في الاعتبار[2].

وإقراراً لما للشيخ ابن عاشور من الفضل في إخراج هذا المشروع الجليل إلى حيز الوجود ورعايته ؛ كان الإبراهيمي لا يذكر المعهد الباديسي إلا مقروناً باسم علمين لولاهما لما تحققت هذه الخطوة العلمية ؛ ولما رأى هذا المعهد النور، أولهما ابن باديس أبو النهضة العلمية في الجزائر، وراسم ملامح هذا المشروع، الذي يحمل المعهد اسمه اعترافاً بفضله على الثقافة العربية في الجزائر، وثانيهما الشيخ الطاهر بن عاشور، أستاذ معظم أعضاء الجمعية، وباعث الروح في المشروع، وراعيه عن بعد، ومديره المباشر باعتباره مديراً للإدارة الزيتونية بأكملها. فلكلا الرجلين يدين معهد ابن باديس في وجوده، وعلى اسميهما يقوم المعهد شامخاً متحدياً لإرادة الاستعمار، مجسماً الإرادة الطموحة للجمعية[3].

ب ـ من أهم مشايخ معهد ابن باديس:

جندت الجمعية خيرة أساتذتها لتولي التدريس بالمعهد، وضبطت لإدارته الشيخ العربي التبسي، والشيخ محمد خير الدين مساعداً له، وقد جاء في القانون التأسيسي للمعهد ما يأتي: يسمى المعهد معهد ابن باديس، وتتألف إدارته من ثلاث هيئات متضامنة، وكل واحدة منها مسؤولة فيما يخصها من أعمال المجلس الإداري لجمعية العلماء: الأولى الهيئة العلمية، والثانية الهيئة المالية، والثالثة هيئة المراقبة والضبط، وكانت الوجوه البارزة من أساتذة المعهد عند تأسيسه تتمثل في الشخصيات الاتية: العربي التبسي، أحمد حماني، حيرش عبد المجيد، نعيم النعيمي، حسين أحمد، الشيخ العباس بن الشيخ الحسين، ومولود النجار.

---

(1) عبد الرحمن شيبان، مجلة «الأصالة» ماي 1978م ص 88.

(2) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 153.

(3) المصدر نفسه ص 153.

وبعد سنة 1949م وظفت الجمعية بالمعهد أساتذة اخرين وهم: بلقاسم البيضاوي، جفري عمر شرفي علي، بوروح أحمد المدعو «أحمد بو رزاق»، وكذلك «أحمد العدوي»، و«معط الله» «خريج جامعة القرويين»، والشيخ الطاهر حراث «سعدي»، والشيخ الساسي، والشيخ «محمد الحفناوي» [1].

ج . شروط الالتحاق بالمعهد الباديسي:

وقد ضبطت شروط الالتحاق بالمعهد بالنسبة للطلبة على النحو الاتي:

. أن يكون التلميذ حاصلاً على الشهادة الابتدائية.

. من لم يكن حاصلاً على الشهادة الابتدائية يدخل عن طريق الامتحان الكتابي والقراءة والحساب واستظهار ربع من القران الكريم على الأقل.

. حدد سن المترشح ألا يَقِل عن 16 سنة.

. القدرة على نفقات الأكل والسكن، وإحضار الكسوة، والغطاء اللازمين، كون المعهد غير قادر على تغطية هذه النفقات لضيق موارده المالية.

. أن يقدم طلب التسجيل في المعهد من قبل الأب أو الوكيل ما دام التلميذ قاصراً.

. أن يكون سالماً من كل الأمراض المعدية[2].

ونظراً لتزايد أعداد الطلبة، فقد حاول القائمون على المعهد السعي لاستغلال الجامع الكبير والجامع الأخضر في التدريس منذ عام 1949م، وجرت عدة محاولات لأعيان المدينة لدى حاكم العمالة دون جدوى، وفي العام الموالي حول جزء من الطلبة إلى مسجد سيدي قوش، وفي السنة الدراسية 1952 . 1953م تزايدت أعداد الطلبة وتوجب على إدارة المعهد استغلال المسجد الكبير والمسجد الأخضر دون إذن، وهو ما أثار غضب سلطات العمالة، ولكنها لم تجد أمام الأمر الواقع شيئاً تفعله.

د . إغلاق المعهد الباديسي:

وقد استمر المعهد في أداء مهمته، وفي سنة 1957م، وُضع حد نهائي في ظل الأحكام العرفية لهذا المركز العلمي من قبل السلطات الفرنسية، وذلك على خلفية اكتشاف الإدارة الفرنسية لخلية المعهد الثورية، حيث كان أساتذة المعهد ينشطون ضمنها في دعم الثورة، فقد عثر يوم 11 أوت 1957م على رسالة لدى أحمد حماني ودلتها التحقيقات على اكتشاف عناصر الخلية على أساتذة وطلاب المعهد فقررت إغلاق المعهد.

وفي يوم 24 سبتمبر من نفس العام ظهر على أعمدة جريدة البرقية القسنطينية، مقالاً بعنوان: معهد ابن باديس كان دعامة للثوار في الشرق الجزائري. وجاء فيه ما يلي: إن العلماء لم يقتنعوا قط بالعمل الديني المحض، بل جعلوا من التعليم الذي يديرونه مجالاً للدعاية في صالح الثوار[3].

---

(1) إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس، د . عبد الله مقلاتي ص 35.

(2) المصدر نفسه ص 36.

(3) إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس وطلابه في الثورة، د . عبد الله مقلاتي ص 37 إلى 38.

وكانت السلطات الولائية قد قررت بمقتضى المرسوم رقم 572، 372، وبتاريخ الثالث سبتمبر 1957م غلق معهد ابن باديس، وفي يوم 16 أكتوبر سنة 1957م قدم رئيس مصلحة المخابرات الفرنسية تقريراً للأمين العام للحكومة جاء فيه: إن جمعية العلماء التي تظهر بمظهر الحذر والتجديد، تحمل أهدافاً غير معلنة، وتهدف إلى تعميم اللغة العربية والاتحاد الإسلامي والتمسك بالمبادأئ الأصلية للدين ومحاربة الزوايا. ويعتبر المعهد الذي كان له دور تعليمي ووطني هام تاجاً لمدارس الجمعية وثمرة عملها، كان لإنشائه دور هام في تكوين أبناء الأمة وتهيئتهم لقيادة البلاد والنهوض بها في شتى ميادين الحياة، فمنه تخرجت البعثة العلمية التي كانت ترسلها الجمعية إلى معاهد وجامعات الأقطار العربية في المشرق والمغرب، ومن صفوفه تخرج الوعاظ والمرشدون، والخطباء والكتاب والقضاة، والمعلمون الذين تعتمد عليهم الجمعية في تأدية رسالتها لنشر التعليم العربي، والإصلاح الديني والاجتماعي، ومحاربة الخرافات والشعوذة[1].

ومنها تخرجت إطارات كثيرة ساهمت في ثورة التحرير، وكانوا على موعد مع رسالة الجهاد التي تلقوها من شيوخهم، ونصت عليها تعاليم الإسلام العظيم للتصدي ومحاربة الغزاة.

هـ تطور المعهد الباديسي وازدهاره:

تطور المعهد الباديسي وازدهر بسرعة مذهلة بعد إنشائه بسنوات قليلة، ويرجع ذلك إلى عزيمة مسيِّره والامال المعلقة عليه، ويعزو الإبراهيمي عوامل النجاح إلى:

. إخلاص القائمين على تسييره من مسؤولين وإداريين وأساتذة.

. إيمان الممولين للمعهد بضرورة نشر العلم بين أبنائهم.

. بلوغ التعليم الابتدائي هدفه، حيث أصبحت المدارس تخرّج العشرات من تلامذة السنة الخامسة، لم يجدوا سبيلاً لمواصلة التعليم بالمعهد.

. وهناك العامل النفسي، وهو قوة المقاومة من عناصر الإصلاح إلى عناصر الفساد، ومن قوى الخير لقوى الشر، فنشأ من ذلك كله مزيج من التأثر والتأثير.

. اهتمام الشعب بالمعهد، حيث أصبح أولياء التلاميذ يعلقون عليه امالاً عريضة في تخريج أبنائهم بشهادات علمية عالية.

. فشل المعارضة في عرقة سير المعهد، بسبب النائج التي حققها الطلبة في مختلف الأقسام والسنوات الدراسية خلال السنوات الأولى من إنشائه، حيث تجاوزت المستوى العادي.

. إدخال المواد العلمية في المقررات الدراسية: مثل الرياضيات والعلوم الطبيعية، التي كان التلميذ العربي محروماً منها.

. تطوع بعض الأساتذة والأطباء لإلقاء الدروس في المعهد، حيث كان الدكتور: عبد القادر بن شريف يقوم بإلقاء دروس في حفظ الصحة على تلامذة المعهد، مستعيناً بأشرطة سينمائية، وتطوع الصيدلي الأستاذ علاوة

---

(1) المصدر نفسه ص 38.

عباس، بإلقاء دروس أسبوعية في علم وظائف الأعضاء وتركيب الجسم، وكان رفيق دراسة لأحمد رضا حوحو بثانوية سكيكدة، وتطوع الأستاذ «محمد الجيجلي» من أساتذة التعليم الفرنسي بإلقاء دروس في الجغرافيا[1].
وهكذا فقد تمكن المعهد ـ على الرغم من الإمكانيات المحدودة ـ من إنجاح مهمته التعليمية، وبعث نشاط ثقافي واسع في عاصمة الشرق الجزائري، ولا بد من الإشارة إلى أن المعهد مر أحياناً بظروف صعبة، وخاصة خلال مرحلة الثورة التحريرية.

وكان المعهد يؤدي دوراً ثقافياً اخر، موازياً لمهمة التعليم، مثل القيام بمختلف التظاهرات الثقافية داخل المعهد وخارجه وبدار العلماء التابعة لجمعية العلماء أيضاً مثل:

ـ إلقاء دروس الوعظ والإرشاد لعامة الناس ولا سيما في شهر رمضان، حيث يكلف كل أساتذة المعهد بهذه المهمة.

ـ تقديم عروض مسرحية وموسيقية ورياضية.

ـ إلقاء المحاضرات العامة بمناسبة الأعياد الدينية.

ـ الاحتفال بالذكرى السنوية لوفاة ابن باديس، بالإضافة إلى نشاط الكشافة التابعة لجمعية العلماء.

ـ تدريب الطلبة على الخطابة ونظم الشعر في ندوات أسبوعية بالمعهد، كان يشرف عليها الأستاذان الشيخ «الطاهر حراث» والشيخ «عبد الرحمن شيبان» [2].

إن رسالة معهد ابن باديس كانت تتجسد في إحياء اللغة العربية والدين، وبعث الشخصية الوطنية، وقد نجح المعهد في أداء دوره العلمي والحضاري والسياسي، حيث كوّن رجاله نخبة من الطلاب صادقة العزم على تجسيد ما تلقوه من مبادأئ في أرض الواقع، وهو ما تجسد في كدّهم وجدّهم الدراسي، وفي إيمانهم بثوابت الشخصية الوطنية من أجل التحرير، وقد عمّر معهد ابن باديس نحو عشر سنوات، كانت أيام عزه وازدهاره، علَّم فيها أساتذته لأبناء الشعب هويتهم وشخصيتهم وتاريخ أمجادهم ومقاومتهم الوطنية[3]، وساهم تلاميذ المعهد وشيوخه في حرب التحرير، وهذا ما سوف يأتي تفصيله بإذن الله تعالى.

2 ـ تعليم البنات ومعاناة مدارس الجمعية:

حمَّل الإمام الإبراهيمي جسمه المريض ما لا طاقة له به من أسفار كثيرة، وترحال دائم، وتنقل مستمر، ليضع حجر أساس مدرسة في الشرق، ثم ينتقل لتدشين مدرسة في الغرب. وهكذا دواليك... وعلى القارئ أن يقدر الجهد الكبير الذي بذله الإمام طيلة ستة أعوام /1946 ـ 1952م/ إذا عرفنا أنه في سنة 1948م وحدها بُدأئ بناء 37 مدرسة عبر التراب الوطني.

(1) المصدر نفسه ص 43.

(2) المصدر نفسه ص 44.

(3) المصدر نفسه ص 50.

وللإمام الإبراهيمي من وراء هذه التنقلات الكثيرة المضنية فلسفة اجتماعية، وهي معرفة مدى انتشار الوعي وارتفاعه في الأمة، وتعويدها على التجمعات الهادفة بدل تلك التجمعات الحزبية أو البدعية، ونزع رهبة السلطات الفرنسية من قلوب أفرادها.

ويلاحظ في هذه الفترة التوسع في تعليم البنت الجزائرية، في مجتمع كان يعتبر تعليم البنت إحدى الكبر، وقد جادل الإمام الإبراهيمي جدالاً كثيراً عن حقها في التعليم، بل عن واجبه عليها، إذ الإسلام يجعل العلم فريضة على المسلم ذكراً كان أو أنثى، وبذلك وصل عدد الإناث في مدارس الجمعية 5696 بنتاً سنة 1951، ليقفز إلى ثلاثة عشر ألف بنت سنة 1953م، وهو عدد ضخم نظراً لظروف ذلك المعهد الاجتماعية والنفسية والمادية.

وقد كان الإمام يخطط لإنشاء دار للمعلمات، ومعهد للبنات على غرار معهد ابن باديس للذكور، وجامعة عربية بين الروح الإسلامية الشرقية والعلوم الحديثة النافعة.

وساء الاستعمار الفرنسي أن تُقبِل البنت الجزائرية على مدارس جمعية العلماء، حيث تتلقى العلم النافع وتتربى التربية الصالحة وتتخلق بالخلق القويم، فأوحى إلى شياطينه أن يثيروا الغبار حول ذلك التعليم، ويشيعوا قالة السوء عن مدارس الجمعية التي «عرّضت الأعراض للتمزيق».

وسلَّ الإمام قلمه البتار على أولئك الرهط، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون وكشف هدف تلك الحملة، وهو أن الاستعمار: متشائم بتعليمها ـ الجمعية ـ للبنت المسلمة، لأن نتيجة تكوين بنت صالحة، تصبح غداً زوجة صالحة، وبعد غدٍ أماً صالحة، وهاله أن تعمر البيوت بالصالحات فيلدن جيلاً صالحاً صحيح العقائد متين الإيمان، قويم الأخلاق، طموحاً إلى الحياة، فتطول به غصته، ثم تنتهي به قصته.. ولأن الاستعمار بعيد النظر، عارفاً بما للمرأة في أمتها من أثر؛ فهو لذلك حرَّكهم وما زال يحركهم لإثارة هذا الغبار الأسود في وجه جمعية العلماء، لزعزعة ثقة الأمة بالجمعية في خصوص تعليم البنت[1].

وقد عانت مدارس جمعية العلماء كثيراً من عراقيل السلطات الفرنسية، وأصاب معلميها كثير من الأذى، لأنهم كانوا يقومون بعملية «تحصين» و«تطعيم حضاري» ضد الفَرْنسة والتنصير، ولذلك كانت تلك السلطات تعتبر تلك المدارس: عبارة عن خلايا سياسية، والإسلام الذي يمارسونه ـ أي العلماء ـ هو مدرسة حقيقية للوطنية[2].

وللتقليل من تأثير مدارس جمعية العلماء على الأطفال الجزائريين، وإفساداً لذلك التطعيم الحضاري والتحصين المعنوي حاولت السلطات الفرنسية فرض تدريس اللغة الفرنسية لمدة خمس عشرة ساعة أسبوعياً في مدارس الجمعية، قال الإبراهيمي: رفضت المفاهمة في المشروع بحذافيره وفي جملته وتفصيله، وأبى لي ديني أن أعطي الدنية فيه، وأبَت لي عروبتي أن أقر الضيم للغتي، وأبى شرف الجمعية وشرف العلم أن أتمادى في مفاهمة ضالة

---

(1) اثار محمد البشير الإبراهيمي (22/2)، من مقال محمد الهادي الحسين عام 1996 اسمه السياق التاريخي (1940 ـ 1952).

(2) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (22/2).

عقيمة في حق طبيعي ثابت، وللحكومة أن تسقط السماء علينا كِسَفاً، وأن تتجنى علينا ما شاء لها التجني والظلم(1).

3 . تكوين لجنة التعليم العليا:

يؤمن الإمام الإبراهيمي أنه: إذا اختلفت الأصول والمناهج في أمة كانت كلها فاسدة، لأن الصالح كالحق لا يتعدد ولا يختلف(2). وأن توحيد الغايات لا يأتي إلا بتوحيد الوسائل، ولذلك قرر ـ مع إخوانه قادة الجمعية ـ إنشاء لجنة خاصة بالتعليم، فأنشئت في 13 سبتمبر 1948م وكانت بمثابة وزارة تربية شعبية(3)، وعُهد إليها بوضع البرامج، وتقرير كتب الدراسة، وإصدار اللوائح التنظيمية، وتعيين المعلمين، ووضع الدرجات لهم، واختيار المفتشين، وتنظيم ملتقيات تربوية وندوات بيداغوجية لمناقشة قضايا التعليم وتحسينه، ورفع مستواه، ويدل إنشاء هذه اللجنة على التطور الذي أحرزته الجمعية، وعلى الروح التنظيمية التي أصبحت تطبع أعمالها(4).

4 . المركز العام:

لم يكن للجمعية قبل سنة 1947م مقر خاص بها، وبعد أن استأنفت نشاطها عقب الحرب العالمية الثانية، قررت أن يكون لها في العاصمة مقر خاص، يتناسب ومكانتها الدينية وقيمتها العلمية وأهميتها السياسية، وقد اختير هذا المركز في حي القصبة التاريخي ـ قلب العاصمة ـ لما يمثله هذا الحي من أمجاد وأبعاد في تاريخ الجزائر، ومن أعلم من جمعية العلماء ورئيسها بإيحاءات التاريخ، ودوره في شحذ همم الشعوب وشحن نفوسها، ودفعها إلى استعادة دورها في صنع التاريخ والإسهام في الحضارة؟ وهو ما أشار إليه فضيلة الشيخ أحمد سحنون في قصيدته التي ألقاها بمناسبة افتتاح هذا المركز، فقال:

وفيك يُبعث ماض طالما حييت ... على ماتيه أجيال وأعصاريا
فتية الضاد حان الوقت فاطرحوا ... هذا الْوَنَى وانهضوا فالناس
قد طارواسيروا على نهج اباء لكم سلفوا ... فإنهم في طريق المجد قد ساروا
شقوا الزحام إلى العلياء واقتحموا ... أخطارها إنما العلياء أخطارا
سعوا لتحيوا حياة العز أو فَرِدُوا ... حوض الردى فالردى يمحى به العار
أرواح ابائكم في الخُلد قد هتفت ... تحرروا فجميع الناس أحرار(5)

(1) المصدر نفسه (22/2).
(2) المصدر نفسه (22/2).
(3) المصدر نفسه (22/2).
(5) المصدر نفسه (23/2).
(5) المصدر نفسه (24/2).

5 . التوسع في تأسيس الشُّعب:

الشُّعبة: هي أصغر مؤسسة في هيكلة جمعية العلماء، ومهمتها تأطير الحركة الإصلاحية والإشراف على تأسيس المدارس والمساجد في المدن والأحياء، وقدكان عدد هذه الشُّعَب عشية اندلاع الحرب العالمية 58 شعبة، ثم وصل العدد سنة 1953م إلى 300 شعبة، مما يدل على الانتشار الواسع الذي حققته الجمعية، والمكانة الكبيرة التي أصبحت تتمتع بها لدى الشعب الجزائري، مما يؤكد مقولة: إن جمعية العلماء عبارة عن دولة داخل دولة[1].

6 . توسيع المجلس الإداري وتنقيح القانون الأساسي للجمعية:

كان الاجتماع العام لجمعية العلماء الذي عقد بالجزائر العاصمة يومي 30 سبتمبر . 1 أكتوبر 1951م اجتماعاً متميزاً، حيث جُدِّدت فيه مبايعة الإمام الإبراهيمي لقيادة الجمعية، ووُسِّع مكتبها الإداري ووُزِّعت أعمال الجمعية على لجان، ونُقِّح القانون الأساسي الذي وُضع سنة 1931م، حيث تقرر أن يكون للرئيس نائبان بدل نائب واحد، وللكاتب العام ثلاثة نواب بدل نائب واحد، ولأمين المال نائبان، ورُفِع عدد المستشارين إلى ستة عشر بدل أحد عشر مستشاراً.

ومن أهم ما اتخذه المجلس الإداري الجديد، هو منح لقب رئيس شرفي لجمعية العلماء لبعض العلماء غير الجزائريين ممَّن عُرف بحمل الفكرة السلفية الإصلاحية والدفاع عنها، ولا نعلم جمعية . غير جمعية العلماء . في العالم العربي والإسلامي اتخذت مثل هذه الخطوة، وهذا دليل اخر على النظرة الإسلامية والاستراتيجية لقيادة جمعية العلماء، ولا ريب في أن صاحب هذه الفكرة هو الإمام الإبراهيمي نفسه.

أما العلماء الذين تقرر منحهم هذه الرئاسة الشرفية فهم: محمد بن العربي العلوي «المغرب»، أحمد بن محمد التجاني «المغرب»، عبد العزيز جعيط «تونس»، عبد اللطيف دراز (مصر)، محمد أمين الحُسيني «فلسطين»، عبد القادر المغربي «طرابلس الشام»، محمد بهجت البيطار «دمشق»، محمد نصيف «الحجاز»، تقي الدين الهلالي «بغداد»، مسعود الندوي «باكستان» [2].

7 . مالية جمعية العلماء:

مالية جمعية العلماء تأتيها من موردين: اشتراكات الشعب الشهرية، والتبرعات غير المحدودة، وميزانيتها في السنوات الأخيرة أصبحت ضخمة وقد قسمتها إلى أقسام، فمالية بناء المدارس لا تدخل خزينة الجمعية، بل تقبضها الجمعية المحلية وتنفقها على البناء، فإذا تم البناء جرى الحساب علناً على رؤوس الأشهاد بحضرتي، وسُدَّ بابها، والمالية الخاصة بأجور المعلمين والقَوَمة على المدرسة تؤخذ من اباء التلاميذ بواسطة أمين مال الجمعية المحلية في مقابل إيصالات رسمية مختومة بختمها، ولكل مدرسة جمعية محلية قانونية تنتخبها جمعية العلماء

---

(1) المصدر نفسه (25/2).

(2) المصدر نفسه (25/2).

من أعيان المدينة أو القرية، ولا تحاسب جمعية العلماء إلا في اخر السنة في الاجتماع العام، والمال الذي يتحصل من الاشتراك العام في جمعية العلماء هو الذي يدخل إلى خزانتها، ويحاسب عليه أمين مالها في التقرير المالي الذي يتقدم به إلى الاجتماع العام، ويضاف إليه ما يتحصل من التبرعات غير المحدودة.

أما الجريدة فإنها قائمة بنفسها من أثمان الاشتراك فيها.

وقد قررت في كل اجتماع عام أن تعرض على المجلس الإداري جميع المداخيل المذكورة من أجور التعليم، والاشتراكات العامة والتبرعات، كل ميزانية على حدة، وكل مدرسة يفيض دخلها على خرجها يدخل المبلغ الفائض في الخزينة العامة وكل مدرسة ينقص دخلها عن خرجها يعتمد لها من الخزينة العامة، ما يسدد عجز ميزانيتها، وكل هذا على نظام بديع يؤدي إلى اشتراكية بين المدارس مع بعضها، وبين الشعب والجمعية المحلية[1].

8 . أثر أعمال الإبراهيمي وإخوانه على الشعب:

قال الإمام الإبراهيمي: أثر أعمالنا في الشعب بارز لا ينكره حتى أعداؤنا من الاستعماريين، وخصومنا من إخواننا السياسيين، فمن اثارنا:

. بث الوعي واليقظة في الشعب حتى أصبح ويعرف ماله وما عليه.

. ومنها إحياء تاريخ الإسلام وأمجاد العرب التي كان الاستعمار يسدّ عليه منافذ شعاعها، حتى لا يتسرب إليه شيء من ذلك الشعاع.

. ومنها تطهير عقائد الإسلام وعباداته من أوضار الضلال والابتداع، وإبراز فضائل الإسلام، وأولها الاعتماد على النفس، وإيثار العزة والكرامة، والنفور من الذلة والاستكانة والاستسلام.

. ومنها أخذ كل شيء بالقوة.

. ومنها العلم، هذه الكلمة الصغيرة التي تنطوي تحتها جميع الفضائل.

. ومنها بذل المال والنفس في سبيل الدين والوطن.

. ومنها نشر التحابب والتاخي بين أفراد المجتمع.

. ومنها التمسك بالحقائق لا بالخيالات والأوهام.

فكل هذه الفضائل كان الاستعمار يغطيها عن قصد، لينساها المسلمون على مر الزمان بواسطة التجهيل وانزواء العقل والفكر، وقد وصل الشعب الجزائري إلى ما وصل إليه، بفضل جمعية العلماء، وما بذلناه من جهود في محور الرذائل التي مكّن لها الاستعمار، وتثبيت الفضائل التي جاء بها الإسلام، ولو تأخر وجود الجمعية عشرين سنة أخرى لما وجدنا في الجزائر من يسمع صوتنا، ولو سلكنا سبيلاً غير الذي سلكناه في إيقاظ الأمة وتوجيهها في السبيل السوي ؛ لما قامت هذه الثورة الجارفة في الجزائر التي بيّضت وجه العرب

---

(1) المصدر نفسه (287/5).

والمسلمين، ولو نشاء لقلنا إننا أحيينا اللسان العربي، والنخوة العربية، وأحيينا دين الإسلام وتاريخه المشرق، وأعدنا لهما سلطانهما على النفوس وتأثيرهما في العقول والأرواح، وشأنهما الأول في الاتعاظ والأسوة، فأحيينا بذلك كل الشعب الجزائري فعرف نفسه، فاندفع إلى الثورة يحطم الأغلال ويطلب بدمه الحياة السعيدة والعيشة الكريمة، ويسعى إلى وصل تاريخه الحاضر بتاريخه الغابر(1).

لقد نجح الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وإخوانه من أبطال جمعية علماء المسلمين في:

. تأسيس المدارس العربية الإسلامية الحرة، يتولى أمرها جيل أخرجته مدرسة ابن باديس، ولقد بلغ عدد هاتيك المدارس أربعمائة رغم مقاومة الاستعمار العنيفة، تسير كلها حسب منهاج واحد محكم الوضع، يغشاها ما يزيد عن مائة وخمسين ألفاً من صبيان وبنات، تخرجت من بين صفوفهم أفواج من الطلبة، استكملوا دراستهم الثانوية في معهد ابن باديس، ثم أرسلت بهم الجمعية إلى المعهد الزيتوني الطيب الذكر بتونس وإلى معاهد الشرق العربي، وأسفرت هذه الجهود عن تكوين جيل كامل من الشعراء بلغوا الذروة، وكتاب مجيدين، وخطباء مفوهين، ودعاة مخلصين، ولقد قام كل أولئك بواجبهم على الوجه الأكمل أثناء حربنا التحريرية الكبرى، وإن منهم لفريقاً يتبوأ الان مراكز مرموقة في مختلف ميادين الحياة الجزائرية.

. بناء وتعمير المساجد الحرة، التي تباهى القوم عندنا برفع قواعدها في طراز معماري أندلسي أصيل، وبذلوا في سبيل إقامتها كما بذلوا في سبيل بناء المدارس الحرة ما ملكته أيديهم من مال، وما ملكته نساؤهم من حليّ، فكان الناس عندنا رجالاً ونساء يؤثرون الله والعروبة على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وفي هاتيك المساجد التي أربا عددها على المائة، كان الشعب في كل الاتجاهات يتلقى دروس الدين والحكمة الإسلامية، ويستمع إلى الخطب التوجيهية الحية، ويتلقى سيرة السلف الصالح، والتوجيهات الحكيمة من أجل بناء مستقبل الجزائر الحرة العربية المسلمة، وهجر أكثر الأحرار مساجد الحكومة إلى أن طهرها الله بعد الاستقلال.

. جولات دورية، دائمة دائبة، تقوم بها صفوة مختارة من العلماء ومن كبار الطلبة يغشون كل مجتمعات القطر الجزائري في كل اتجاهاته المترامية الأطراف، يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويلقون الدروس والمواعظ والمحاضرات، ويبشرون بمستقبل الجزائر ضمن دائرة العروبة والإسلام، فكان الشعب الجزائري كله يتلقى في نفس الوقت، علماً واحداً وتوجيهاً دينياً واحداً، ودعوة للكفاح الصالح واحدة، إلى جانب ما كان يتلقاه من رجال الحركة الاستقلالية من وعي سياسي، وما كان يجده من تنظيم محكم.

. صحافة حرة حية، من طراز ممتاز، على نمط جريدة «البصائر» تناضل في سبيل الإسلام والعروبة، والقومية، تنصر القضايا العادلة في مختلف جهات العالم، وتنشر المبادأئ القومية، وتبث الأفكار الجريئة الحرة، فأضفت على الجزائر صورة وضاءة مشرقة، بما كان فيها من تحرير بليغ ودراسات عميقة، وشعر فحل، يعدّ . ولا فخر . من أمجاد العروبة الحاضرة. كل هذه الحركة العملاقة، كانت تسيرها وسط الزوابع والأعاصير، يد الربان الماهر

(1) المصدر نفسه (288/5).

القدير الإبراهيمي، فيوصلها إلى ساحل السلامة دون أن يمسها سوء، ونمت وبلغت أوجها، فكانت، {كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ } [سورة الفتح:29]، وما غادر الإبراهيمي العظيم الديار، إلا بعد أن أصبح غرسه كشجرة مباركة، {أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۢ ٢٥} [سورة إبراهيم:25]

هذه هي، في أكثر ما يكون من الإيجاز والاختصار، الصورة الحقيقية لذلك البطل الفذ، الذي اجتمعت فيه خصال الأريحية والعبقرية، والذي ألف بين العلم والأدب والجهاد، وكان من كبار العلماء وخيار الأدباء ومن سادة المجاهدين.

هذا هو الرجل الفحل الذي خاطب موطنه أيام الثورة الكبرى بقوله: أي وطني!. ما ملكتُ فوق ثراك شبراً، أتراني أملك تحت ترابك قبراً؟

9 . اهتمام الإبراهيمي بالبعثات العلمية:

لم يكن النشاط السياسي الاجتماعي والثقافي، الذي انغمس فيه الشيخ البشير منذ وصوله إلى الشرق العربي ؛ يصرفه عن المهمة الأساسية التي غادر الجزائر من أجلها، ألا وهو العمل على فتح أبواب معاهد التعليم المختلفة في وجه الشباب الجزائري، المحروم من العلم والمعرفة باللغة العربية في بلاده، وقد كانت أول بعثة أرسلتها جمعية العلماء إلى معاهد الشرق العربي توجهت إلى القاهرة في نوفمبر 1951م قبل أن يسافر الشيخ إليها في 1952، وضمت هذه البعثة 16 طالباً في البداية، ثم ازداد عدد أفرادها بعد وصوله إلى القاهرة إلى 25 طالباً وطالبة واحدة[1].

وكانت بعثات جمعية العلماء في البداية قاصرة على مصر وحدها، حيث تمكنت جمعية العلماء بواسطة مكتبها بالقاهرة، من الحصول على عدد من المنح من الأزهر ووزارة المعارف لأبناء الجزائر خلال عام 1951م والأعوام التالية له، وبعد رحلة الشيخ البشير إلى المشرق العربي تمكن من الحصول على منح أخرى للطلبة الجزائريين في كل من العربية السعودية بعد قيام الثورة الجزائرية سنة 1954م.

وكان المركز الرئيسي الذي يشرف منه الشيخ البشير الإبراهيمي على هذه البعثات ويصرف شؤونها يوجد مقره في القاهرة، حيث يقيم هو في معظم أوقات العام، ولكنه كان يعين نائباً عن خارج مصر من أبناء البلدان التي توجد فيها البعثة، للإشراف على أفرادها من الناحية الأخلاقية والاجتماعية، وكان بين وقت واخر يقوم بزيارات للعراق، وسوريا، والكويت، كي يتفقد بنفسه حال أعضاء البعثات، ويتصل بالمسؤولين من التربية والتعليم في البلدان التي يزورها، بقصد الحصول على منح جديدة للطلبة الجزائريين الذين توفدهم الجمية إلى الشرق العربي من أجل الدراسة، ويغتنم زيارته لتفقد البعثات، فيلقي على أعضائها المحاضرات التوجيهية

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 46.

والإرشادات العلمية والتربوية. وأما أعضاء بعثة الجمعية بالقاهرة، فقد كان يجتمع بهم مرة كل أسبوع في مركز الجمعية الموجودة بشارع شريف بالقاهرة[1].

وقد أثمرت جهود الشيخ البشير الإبراهيمي، التي بذلت في تكوين البعثات العلمية بجمعية العلماء، التي عمل بكل جهوده على فتح أبواب معاهد العلم في وجهها في مختلف البلدان العربية، ورعاها ووجهها أثناء دراستها توجيهاً وطنياً سديداً، حيث نجح ما يقرب من 90% من أفرادها في دراساتهم الثانوية والجامعية، وعندما نشبت ثورة الفاتح من 1954م كانوا من جنودها، وساهم عدد كبير من أفرادها بفكرهم وثقافتهم في مختلف أجهزة الثورة، وهم اليوم بعد الاستقلال يساهمون بفكرهم وثقافتهم في معركة البناء والتشييد الوطني، ونشاطهم يغطي أهم المجالات الوطنية كالإعلام والثقافة والتربية والتعليم والعدل والدبلوماسية، والتدريس في الجامعات الوطنية إلى غير ذلك من الميادين الأخرى.

ولا شك أن الفضل في تكوين هذه النخبة الممتازة من الشباب الجزائري تكويناً عربياً وإسلامياً ووطنياً ؛ إنما يعود إلى الشيخ البشير الإبراهيمي ورفاقه من رجال الحركة الإصلاحية في الجزائر، الذين أعدوا هذا الجيل الذي نتحدث عنه الان وأجيالاً أخرى عديدة سابقة عليه، في ظروف كانت من أصعب وأشد الظروف التي مرت بها الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، أعدوه من المراحل الابتدائية، وواصلوا جهودهم في إعداده، حتى حصل البعض منهم على الشهادات الجامعية في مختلف الفروع العلمية[2].

* * *

(1) المصدر نفسه ص 231.

(2) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 235.

خامساً: مقومات الفكر الإصلاحي عند

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي واهتماماته الاجتماعية

من تأمل في سيرة الإمام الإبراهيمي، وفي تراثه الأدبي والفكري، تبين له بوضوح وجلاء خطه الإصلاحي، ومنهجه التجديدي، وأهم مقومات الفكر الإصلاحي والتجديدي عنده في النقاط الاتية:

1 . الإسلام والعروبة: أساساً ومنطلقاً:

يرى الإبراهيمي أن أهم مقوم من مقومات الفكر الإصلاحي: الإسلام، ويقول في ذلك: إن الإسلام في الجزائر ثابت ثبوت الرواسي، متين القواعد والأواسي، قد جلا الإصلاح حقائقه، فكان له منه كفيل مؤتمن، واستنارت بصائر المصلحين بنوره، فكان له منهم حارس يقظ، وعاد كتابه «القران» إلى منزلته في الإمامة، فكان له منه الحمى الذي لا يطرق، والسياج الذي لا يخرق[1].

وطالما شرح الإمام الإبراهيمي هذا الإسلام العظيم، بقلمه الفياض وعبارته المشرقة، فجلّى أسراره، وجسد اثاره، وكشف اللثام عن عقيدته الحنيفية، وعن شريعته السمحة، وعن قيمه الملائمة للفطرة، والمهذِّبة للغريزة التي تسمو بالإنسان حتى يتميز عن الحيوان.

اقرأ له هذه القطعة التي يتحدث فيها عن الإسلام دين التحرير، فيقول: إن الإسلام هو «دين التحرير العام»، فأرسل هذا الوصف إرسالاً بدون تحفظ ولا استثناء، لأنَّه الحق الذي قامت شواهده، وتواترت بيِّناته، ومن شواهده وشهوده، تلك الأجيال التي صحبت محمَّداً وامنت به، واتَّبعت النور الذي أنزل معه، ثمَّ الذين صحبوهم، ثمَّ الذين اتَّبعوهم بإحسان.

ونحمد الله على أن العلاقة بين الألفاظ ومعانيها لم تنقطع عند جميع العقلاء من أجناس البشر، والعقلاء هم حُجَّة الله على من سواهم، وما زال الخير يُسمَّى خيراً، والشر يُسمَّى شراً، والفضيلة فضيلة، والرذيلة رذيلة، فالسارق يسرق وهو يعتقد أنَّه متعدٍّ على مال الغير، والمتبع لخطوات الشيطان لا يقول: رضي الله عن إبليس، وإنما يقول: لعنه الله، وإن هذه لمن أسرار فطرة الله التي فطر خلقه عليها، يواقعون الشر ولا يسمونه خيراً، فيسجِّلون بذلك الشهادة على أنفسهم، إلا المطبوع على قلوبهم، الفاقدين للشعور، كالذين إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض، قالوا: إنما نحن مصلحون، وكصرعى التقليد للحضارة الغربية، الذي استرقتهم الشهوات فاستباحوا المحرَّمات باسم الحرية، وكالمسيرين للدولة الغربية، أسكرتهم القوَّة فبغوا على الضعفاء وسلبوا أوطانهم، وسمَّوا بغيهم استعماراً.

إنَّ من الظلم والحيف والغش والفساد في الأرض تسمية الأشياء بغير أسمائها، لأنه قطع للأسباب عن مسبّباتها، وقد عيب في قوله تعالى:{وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ} [البقرة: 27]، أن منه قطع الدّوال عن

---

(1) البصائر، العدد 13 الأولى من السلسلة الثانية 1947م.

مدلولاتها، وإن أعظم شرور هذه الحضارة الغربية أنَّها فتحت الباب لهذا النوع من المسخ وشجعت عليه، فأفسدت الفطرة والضمير الذي سمَّاه محمد (ص) «وازع الله في نفس المؤمن». والتحرير الذي جاء به الإسلام شامل لكل ما تقوم به الحياة وتصلح عليه كل المعاني والأشخاص، والدين الإسلامي لا يفهم التحرير بالمعنى الضيق، وإنما يفهمه على أنَّه كل إطلاق من تقييد، أو تعديل لوضع منحرف، أو إنصاف لضعيف من قوي، أو نقل شيء من غير نصابه إلى نصابه. قالت أسماء بنت أبي بكر حينما بعث لها أبوها بجارية تقوم لها بعلف الفرس: فكأنما أعتقني[1].

أ . الإسلام دين التحرير العام:

حرَّر الإسلام العقل وجميع القوى التابعة له في النفس البشرية، والعقل هو القوة المميزة للمتضادات والمتنافرات التي بني عليها هذا العالم، كالصلاح والفساد، والخير والشر، والنفع والضر، ولذلك جعل مناطاً للتكاليف الدينية والدنيوية، وقد يطرأ عليه ما يطرأ على الموازين المادية من الاختلال فيتعطل أو ينعكس إدراكه، والإسلام يعلو بتقدير العقل والفكر إلى أعلى درجة، ويقرِّر أن إدراك الحقائق العليا في الدين أو الكون ؛ إنَّما هو حظ العقول الراجحة والأفكار المسدّدة، وأن العقول المريضة والأفكار العقيمة تنزل بصاحبها إلى الحيوانية، بل إلى أحطّ من الحيوانية، ففي القران العظيم: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ} [سورة الأعراف:179].

ولهذه المنزلة التي وضع الإسلام العقل فيها ؛ حماه من المؤثرات والأمراض والعوائق، وأحطّ دركة يرتكس فيها العقل هي الوثنية، فهي أكبر معطل له عن أداء وظيفته، حين لا يسمو إلى الجولان في العوالم الروحية، وحين تفتنه الماديات بظواهرها من طريق الجوارح الحسّية. أعلن الإسلام من أوَّل يوم حرباً شعواء على الوثنية بجميع أنواعها، وهي أشد ما كانت سلطاناً على النفوس، وتغلغلاً فيها، وإفساداً لفطرة الخير وإطفاء لنورها ؛ حتى اجتثها ومحا اثارها من النفوس والافاق، وعمر مكانها بالتوحيد.

أتدرون السر في تلك الحملات على الوثنية؟ هو تحرير العقل من نفوذها وسلطانها، حتى يواجه أمانة الدين الجديد صحيحاً معافى، ويؤدِّي الوظيفة التي خلق لأدائها، وما هدم أصحاب محمد الأصنام بأيديهم ؛ إلا بعد أن هدم محمد الوثنية في نفوسهم، وبعد أن بنى عقولهم من جديد على صخرة التوحيد، ولولا ذلك لما أقدم خالد على هدم طاغية «ثقيف». وحرر الخلطاء بعضهم من بعض بما شرَّعه الله من أحكام عادلة تقوم بالقسط، وترفع الحيف والظلم، ووقف بكل واحد عند حدّه وحفظ له حقوقه.

فحدَّ الحدود بين المرأة والرجل، وبين المحكوم والحاكم، وبين الفقير والغني، وبين العبيد والسادة، وبين العمال وأصحاب المال، وهذه الأنواع من الحدود تناولتها النصوص القطعية من القران والأحاديث، واكتنفتها في طلب النصوص مؤثرات من الترغيب والترهيب تزيدها قوة ورسوخاً في النفس، فأما تحرير المحكومين من

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 46.

الحاكمين ؛ فلا مطمع أن يأتي فيه على وجه الدهر ما جاء به الإسلام من شرائع العدل والإحسان والشورى والرفق والرحمة وعدم المحاباة حتى في النظرة والكلمة والمجلس.

وأوَّل ما يسترعي النظر من ذلك سيرة محمد (ص) وأقضيته في حياته وما أدبه به ربه من مثل قوله: {وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ} [سورة المائدة:49] ، وقال تعالى: {لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ} [سورة الأنعام:66] ، وَ{وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ} [سورة ق:45].

ثم سيرة الخلفاء الراشدين في الحكم ؛ فإنّها كانت مثالاً من أحكام النبوة التي هي وحي يوحى، وإنَّ الأمثلة التي ضربها عمر في إقامة العدل وقوة الاضطلاع، لأمثلة خالدة على الدهر، فاق بها من قبله، وأعجز من بعده، وما أروع قوله: من رأى منكم اعوجاجاً فيَّ فليقوِّمه، وأروع منه قول مجيب من أفراد الرَّعية: «لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوَّمناه بسيوفنا»، وأبلغ منهما في الروعة أن يحمد عمر ربَّه على أن يكون في أمة محمد من يقوِّم عمز بسيفه.

والتشريع الإسلامي متصل الحلقات من العقائد والعبادات إلى الاداب والمعاملات، وكلُّه يرمي إلى غاية واحدة، وهي إنشاء أمَّة متَّحدة المبادئ والغايات، متناسقة فيما بينها لتحمل الأمانة كاملة صحيحة إلى الأجيال اللاحقة، وقد تمَّ للإسلام وما أراد عدَّة قرون، وما زلنا ـ بحمد الله ـ نحمل بقايا من ذلك، ولولاها لكنَّا في الغابرين.

وحرَّر الإسلام الفقير من الغني، وجعل للفقراء حقاً معلوماً في أموال الأغنياء، ووجه التحرير هنا أن الفقير كان يسأل الغني فيعطيه أو يحرمه تبعاً لخلقه من تسهّل أو كزازة، فإذا أعطاه شيئاً أخذه على أنه مكرمة ممنونة تجرح نفسه، وإن أشبعت بطنه، ولكن الإسلام ألزم الغني بدفع الزكاة للفقير وسمَّاها حقاً معلوماً، وتسمية هذا المال حقاً لله تشعر الغني بالرضا والتسليم والاطمئنان إلى إخلافِهِ ومضاعفته، وترفع عن الفقير غضاضة الاستجداء ومهانة السؤال، وتطهر نفسه مع ذلك من رذيلة الحقد على الغني، وهذا الحقد هو أساس الشيوعية[1].

ومن عجائب الإسلام في إدخال التربية النفسية في الأحكام، أنه لا يأمر بشيء، ولا ينهى عن شيء من العمليات ؛ إلا بعد أن يمهِّد للنفس ويعمرها بخوف الله وحده، ويقنعها بالاثار التي تترتب على المأمور به أو المنهي عنه، فإذا جاء دور العمل كانت النفس مطمئنة بالعلم وراضية بالعمل مهما شق، ولهذا كانت عقائد الإسلام وعباداته وأحكامه وادابه كلها مترابطة، وكلها متعاونة على تهذيب المسلم، ولهذا السر صلح شأن المسلمين الأولين، لأنهم أقاموا الدين كله،عينياً في العينيات، وكفائياً في الكفائيات، وكانوا لا يتهاونون في الصغيرة، احتياطاً للكبيرة، ومن أوامر القران: {أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ} [سورة الشورى:13].

ـ وحرَّر الإسلام المرأة من ظلم الرجال وتحكّمهم، فقد كانت المرأة في العالم كله في منزلة بين الحيوانية والإنسانية، بل هي إلى الحيوانية أقرب، تتحكَّم فيها أهواء الرجال، وتتصرَّف فيها الاعتبارات العادية المجرَّدة من العقل،

(1) المصدر نفسه ص 48، 49.

فهي حيناً متاع يتخطف، وهي تارة كرة تتلقف، تعتبر أداة للنسل أو مطية للشهوات، وربَّما كانت حالتها عند العرب أحسن، ومنزلتها أرفع، يرون فيها عاملاً من عوامل ترقيق العواطف وإرهاف النفس، ودواء لكثافة الطبع وبلادة الحسّ، ويجدون فيها معاني جليلة من السمو الإنساني، وأشعارهم ـ على كثرتها ـ عامرة بالاعتراف بسلطان المرأة على قلوبهم، وبشرح المعاني العالية التي يجدونها فيها، ولا عبرة بما يشاع عنهم من وأد البنات، فإنه لم يكن عاماً فاشياً فيهم، وتعليله عند فاعليه يشعر أنه نتيجة حب طغى حتى انحرف، وأثر عقل أسرف في تقدير العواقب، لا نتيجة كراهية لنوع الأنثى، وعلى كل حال فالوأد خطأ كبير، وجريمة شنيعة، وشذوذ في أحكام الرجال خارج عن نطاق الإنسانية، وحسبه تسفيهاً قوله تعالىَ: {أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥٩} [سورة النحل:59].

وحرَّر الإسلام الحيوان الأعجم من الإنسان، وحرَّم عليه أن يحمِّله ما لا يطيق من الأحمال والأعمال، وأن يجيعه أو يعطشه، فإذا فعل فيه شيئاً من ذلك بيع عليه جبراً بحكم الحاكم، وأوصى في الرفق بالحيوان وصايا زاجرة، وفي حديث نبوي أن امرأة دخلت النار بسبب هرة أمسكتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض، وأن إمرأة عاصية لله دخلت الجنة بسبب كلب وجدته يلهث عطشاً على حفِّ بئر، فأدلت خفّها وسقته، وما من شيء تفعله جمعيات الرفق بالحيوان في هذا العصر إلا وقد سبق الإسلام إلى أكمل منه[1].

ب ـ ربط الإسلام بالعروبة:

والإسلام الذي يدعو إليه الإبراهيمي مختلط بالعروبة اختلاط اللحم بالدم، وكأنما عنده مركب كيماوي امتزج فيه العنصران، كما امتزج الأوكسوجين والهيدروجين، فكوَّنا «الماء» الذي جعل الله به كل شيء حي.

والعروبة التي يدعو إليها ليست عرقية ولا عنصرية، بل هي عروبة لغة وثقافة، وجوهرها اللسان العربي، وهو الذي نزل به القران الكريمَ {نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥} [سورة الشعراء:195].

وهو الذي تكلَّم به الرسول عليه الصلاة والسلام، ورويت به أحاديثه، ودوِّنت به سنَّته، التي هي المصدر الثاني للإسلام بعد القران.

والعربية هي لغة الأذان والإقامة، والقراءة في الصلاة، والتلبية في الحج وغيرها.

وقد أوجب الإمام الشافعي على كل مسلم أن يتعلَّم من العربية ما يؤدِّي به صلاته وعبادته.

كما أن القران عربي، ومحمد رسول الإسلام عربي، وأصحابه الذين امنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزله معه: عرب، حتى من لم يكن منهم عربي الأرومة والعرق فقد تعرب باللسان حين تكلَّم العربية، وقد روي حديث عن النبي (ص) يقول: «إنما العروبة اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي».

(1) اثار الإمام محمد البشير (360/4).

وأرض العرب هي أرض الإسلام ومهده ومنبته، فيها نشأت الدعوة، وإليها كانت الهجرة، وبها كانت الوفاة، وهي التي ضمت رفاته عليه السلام. والمساجد الكبرى المقدَّسة في الإسلام، والتي لا تشد الرحال إلا إليها من أرض العرب: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى.

ويَعتبر الشيخ الإبراهيمي أهمَّ مكونات «الذات الجزائرية» ؛ إنما هي «الإسلام والعروبة» [1].

واهتم الإبراهيمي باللغة العربية وأدواتها وروحها وثقافتها اهتماماً عظيماً، وأشاد بها في المحافل والمؤتمرات وخطبه ومحاضراته ومقالاته، ومن أشهر ذلك: الخطاب الذي ألقاه الأستاذ الشيخ الإبراهيمي في إحدى اجتماعات جمعية العلماء المسلمين، والذي نقلته جريدة الشهاب عام 1939، والذي عنوانه:

العربية: فضلها على العلم والمدنية، وأثرها في الأمم غير العربية:

جاء فيه: .. لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متَّسعة الافاق، غنية بالمفردات والتراكيب ؛ لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان واداب فارس والهند، ولألزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم تعلم تلك اللغات، ولو فعلوا لأصبحوا عرباً بعقول فارسية وأدمغة يونانية، ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمّته.

لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون[2].

لقد فهم العرب لأول عهدهم بالإسلام وبإرشاد القران ؛ أن هناك أُمَّما قد خلت عمرت الأرض ومكّن لها الله فيها، وكانت أكثر أموالاً وأعزَّ نفراً وأثبت اثاراً، وامتثلوا أمر القران بالسير في الأرض والنظر في اثار تلك الأمم والاعتبار بمصائرها وعواقبها، ونبَّههم القران إلى أن مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً، فكان هذا الإرشاد القراني المتكرر حافزاً إلى التنقيب عن اثار المدنيات القديمة ودراستها والاطِّلاع على الصالح النافع منها والأخذ به، وكان من اثار هذا التنبيه القراني أن تفتحت أذهان المسلمين إلى دراسة هذه المدنيات واقتباس النافع منها، وكان من فضل القران على العالم أنه أبقى بهذا الإرشاد على علوم كادت تندثر، وعلى اثار مدنيات كادت تطمس.

إن الفائدة الكبرى التي يعلِّقها القران على السير في الأرض والوقوف على اثار الأمم البائدة هو الاعتبار بحال الظالمين وعقبى الظالمين، ليعلم المعتبر أن الظلم هو سوس المدنيات، فيقيم العدل، وإذا جاء العدل جاء العمران، وإذا جاء العمران قامت المدنية، وكان العدل سياجها والعلم سراجها، وهذه مدينة الإسلام.

إن إرشاد الإسلام للمسلمين بأخذ الصالح النافع أينما وجد ؛ هو الذي يدفعهم بعد تمكُّن سلطانهم وتمهُّد ملكهم إلى البحث عن الاثار العقلية للأمم التي سبقتهم، فاطَّلعوا على ما أنتجت قرائح يونان وفارس والهند في العلوم والاداب، فنقلوها إلى لغة القران، ووجدوا فيها خير معين على ذلك[3].

(1) الملتقى الدولي ص 51.

(2) اثار الإمام محمد البشير (376/1).

(3) المصدر نفسه (376/1).

يقول الشيخ محمد البشير في خطابه لمستمعيه: هنا الجانب العامر في لغتكم، وهنا النقطة التي سقنا هذا الحديث كله من أجلها، وهنا الموضوع وهو: فضل اللغة العربية على العلم والمدنية[1].

قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم، ونظمها الاجتماعية، واداها، فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والاداب والاجتماع، وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة والحاضرة، وهذا هو التراث العقلي المشاع الذي لا يزال يأخذه الأخير عن الأول، وهذا هو الجزء الضروري في الحياة، الذي إما أن تنقله إليك فيكون قوّة فيك، وإمَّا أن تنتقل إليه في لغة غيرك فتكون قوة لغيرك، وقد تفطن أسلافنا لهذه الدقيقة فنقلوا العلم ولم ينتقلوا إليه.

وقد قامت لغتهم بحفظ هذاالجزء الضروري من الضياع بانتشاله من أيدي الغوائل، وبنقله إلى الأواخر عن الأوائل، وبذلك طوَّقت العالم منة لا يقوم بها الشكر، ولولا العربية لضاع على العالم خير كثير.

أيها الإخوان:

إن: كثيراً من العلوم التي بنيت عليها الحضارة الغربية، لم تصلها إلا عن طريق اللغة العربية بإجماع الباحثين منا ومنهم، وإن المنصفين منهم ليعترفون للغة العربية بهذا الفضل على العالم والمدنية، ويوفونها حقها من التمجيد والاحترام، ويعترفون لعلماء الإسلام بأنهم أساتذتهم في هذه العلوم، عنهم أخذوها وعن لغتهم ترجموها، وأنهم يحمدون للدهر أن هيَّأ لهم مجاورة المسلمين بالأندلس وصقلية وشمال أفريقيا وثغور الشام حتى أخذوا عنهم ما أخذوا، واقتبسوا عنهم ما اقتبسوا، ولا يزال هؤلاء المنصفون يذكرون فضل معاهد الأندلس العربية، ومعاهد شمال أفريقيا، ومعاهد الشام على الحضارة القائمة، ولا يزالون ينتهجون بعض المناهج الدراسية الأندلسية في معاهدهم إلى الان، ولا يزالون يردون كل شيء إلى أصله، ويعترفون لكل فاضل بفضله[2].

إن العربية لم تخدم مدنية خاصة بأمَّة، وإنما خدمت المدنية الإنسانية العامة، مدنية الخير العام والنفع العام، ولم تخدم علماً خاصاً بأمَّة، وإنما خدمت العلم المشاع بين البشر بجميع فروعه النافعة، ومن يستقرأئ خاصة هذه اللغة لعلم الطب وحده، يتبين مقدار ما أفاءت هذه اللغة على البشرية من خير ونفع.

وقد كانت هذه اللغة في القرون الوسطى ـ يوم كان العالم كله يتخبَّط في ظلمات الجهل ـ هي اللغة الوحيدة التي احتضنت العلم واوته ونصرته.

أيها الإخوان:

هذا فضل لغتكم على المدنية الإنسانية، وفضلها على الأمم غير العربية، وأما فضلها على الأمم العربية، فإنه يزيد قدراً وقيمة على فضلها على الأمم الأخرى، وإذا قلنا الأمم «العربية»، فإننا نعني الأمم الإسلامية كلها، لأنها أصبحت عربية بحكم الإسلام ولغة الإسلام، فاللغة العربية منذ دخلت في ركاب الإسلام على الأمم التي أظلَّها ظلّه ؛ كانت سبباً في تقارب تفكيرهم وتشابه عقلياتهم وتمازج أذواقهم وتوحيد مشاربهم، وإن هذا لمن

(1) المصدر نفسه (376/1).

(2) المصدر نفسه (377/1).

المناهج السديدة في توحيد الأمم المختلفة الأجناس، ولولا العربية لاختلفت الأمم الإسلامية في فهم حقائق الدين باختلاف العقليات الجنسية، وقد وقع بعض هذا، ولكنه من القلة بحيث لا يظهر أثره في الحركة العامة للأمة.

إن الأمم التي دخلت في الإسلام متفاوتة الدرجات في الانفعالات النفسية وأنماط التفكير، متفاوتة في الإدراك والذكاء، متفاوتة في القابلية والاستعداد، متفاوتة في التصوير والتخيُّل، ولكن اللغة العربية فتحت عليها افاقاً جديدة في كل ذلك، ما كانت تعرفها لولا العربية، ودفعتها بما فيها من قوة وبما لها من سلطان إلى التفكير والتعقل على منهج متقارب، وحفزت الأفكار الخامدة إلى التحرُّك، وزادت الأفكار المتحرِّكة قوة على قوة.

أيها الإخوان:

إن اللغة العربية هي التي قاربت بين الفكر الفارسي المنفعل القلق وبين الفكر البربري الرصين الهادأئ، ثم هيأت لكل فكر قابليته.

واللغة العربية هي التي سهَّلت لهذه الأمم المختلفة أسباب العلم والمدنية، ومهَّدت لها الطرائق المؤدية إليهما، حتى أخذت كل أمة حظها منهما.

واللغة العربية هي التي أفضلت على علماء الإسلام بكنوزها ودقائقها وأسرارها، وأمدتهم بتلك الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية والفنية، التي تعجز أية لغة من لغات العالم عن إحضارها بدون استعانة واستعارة، فبحثوا في كل علم، وبحثوا في كل فن، وملؤوا الدنيا مؤلفات ودواوين، ومن عرف كتاب أبي حنيفة الدينوري في النبات، وكتاب أبي عبيدة في الخيل، وكتاب الهمداني في تخطيط جزيرة العرب، وكتاب الجاحظ في الحيوان، وكتاب الأئمَّة في الطب والنجوم والإبل؛ رأى العجب العجاب من اتساع هذه اللغة وغزارة مادتها، وعلم مقدار فضلها على الأمة العربية، كما أن من يقرأ شعر الشعراء النفسيين من الفرس بهذه اللغة، وشعر الشعراء الوصافين في الأندلس ؛ يتجلى به أي إفضال أفضلته اللغة العربية على تلك القرائح الوقَّادة، التي وجدت في العربية فيضاً لا ينقطع مدده، وأضافته إلى فيض الاستعداد، وما أمتن الإنتاج الأدبي إذا كان يصدر عن اتساع في اللغة واتساع في الخيال[1].

ج . حماية الإسلام من المتأكلين باسمه:

وكان من حرص الشيخ على حماية الإسلام من الدجالين، أن يصب جام غضبه على أولئك الذين يلبسون لبوس العلماء، ثمَّ هم يعملون لخدمة الاستعمار تحت عنوان الوظائف الدينية، كالإمامة والخطابة والتدريس والفتوى، وهذه هي الكارثة، أن يتحدث باسم الإسلام رؤوس جهال، يُسألون فيفتون بغير علم، فيَضلون ويُضلون، أو أسوأ من ذلك: أن يفتوا بما يرضي سادة الاستعمار، وإن أسخط الواحد القهار، وإنَّما ينتصر الإسلام بالعلماء لا بالعملاء، وبالدعاة لا بالأدعياء، يقول الإمام الإبراهيمي: إن المسجد لا يؤدي وظيفته، ولا يكون مدرسة للقران ؛ إلا إذا شاده أهل القران وعمروه على مناهج القران، وذادوا عنه كل عادية، وما

(1) المصدر نفسه (379/1).

جعل القران المساجد لله إلا لتكون منبعاً لهدايته، وما وصف الذين يعمرون مساجد الله بأنَّهم لا يخشون إلا الله[1]؛ إلا ليقيم الحجة على ضعفاء الإيمان ويعزلهم عن هذه المرتبة.

وصدق الله وصدق رسوله الذي وصف القران بأنه «لا تنقضي عجائبه»، فوالله لكأن هذه الجملة «لم يخش إلا الله» من هذه الاية بهذا الأسلوب المفيد للحصر بأبلغ صيغة نزلت اليوم، وهَّاجة بأنوار الرسالة، مطلولة بأنداء الوحي، لتكون حجَّتنا القاطعة على هذا النمط من عمّار المساجد الذين يخشون المخلوق ولا يخشون الله[2].

لقد وقف الإمام الإبراهيمي وإخوانه من علماء المسلمين ليذودوا عن الإسلام في شتى الميادين، كما يَذود الأسد عن عرينه، وكما يدافع الحر عن عرضه، وكما يدافع الوالد عن ولده وفلذة كبده، ودافع عنه في ميادين عدة، منها:

. في الميدان الخارجي بما ردَّت به من شُبه الطاعنين، وكفكفت من غلوّ المبشرين، وبما أقامت من حصون في وجوه الملحدين.

. وفي الميدان الخاص بحكومة الاحتلال، وخصوصاً في قضية «فصل الدين عن الحكومة» التي تناولها الشيخ في مقالات عدَّة تحمل النور والنار، تناولتها بالشرح والتحليل، وبالبيان والتدليل، ولم يهن لها عزيمة، ولا خارت لها من المطالبة قوة، ولم يخدعها وعد ولا ردّها وعيد.

. وفي الميدان الداخلي بينها وبين قومها وأبناء ملّتها حتى تعلّم الجاهل واهتدى الضال، وفاء إلى الرشد الغويّ[3].

2 . التحرير:

وكان هدف الشيخ الإبراهيمي من عمله الإصلاحي الكبير الذي بدأه مع ابن باديس ورفقائه في الدرب، هو إعداد الشعب الجزائري المسلم ليوم لا ريب فيه، هو يوم التحرر من الاستعمار الفرنسي الاستيطاني المتغطرس، الذي طال ليله، وطمَّ سيله، ولن يحرِّر الوطن الجزائري من نير الاستعمار إلا الشعب الجزائري، ولن يتمَّ ذلك إلا إذا حرَّرنا نفسية الشعب من الخنوع للمستعمر، ومن التبعية لثقافته، ومن اليأس من مقاومته.

وحينئذ سيتحوَّل هذا الشعب كله إلى جنود للكفاح، بل إلى أبطال تنشد الجهاد والاستشهاد، حين تُحلُّ العقدة، وتتحكم العقيدة، وتتضح الغاية، وتستبين الطريق، وتستحكم العزيمة، ويسود قبل ذلك كله الإيمان بالله، والثقة بنصره، والإيمان بأنَّ الحق مع الشعب المجاهد، وأنَّ الباطل مع العدو المستعمر، وأن الحق لابد أن ينتصر على الباطل: {بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ} [سورة الأنبياء:18].

---

(1) الملتقى الدولي ص 52.

(2) من مقالة نشرت في البصائر، العدد 153 سنة 1951م.

(3) الملتقى الدولي ص 53.

كان لا بد من غرس العزة في الأنفس، واليقين في السرائر، والأمل في القلوب، والبغض للذل والخنوع، والشعور بالسيادة، والتوق إلى الحرية، وهذا ما فعلته «جمعية العلماء» ورجالها منذ تأسيسها، وفي مقدِّمتهم رئيس الجمعية الأول: الإمام عبد الحميد بن باديس ونائبه الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

وكان الإبراهيمي ـ وهو أديب من الطراز الأول ـ له طابعه المتميِّز وأسلوبه الخاص، يرسل قلمه شواظاً من نار على الاستعمار ووحشيته، وأساليبه في القهر والإذلال، ومحاولة طمس الهَوية، وتغيير معالم الشخصية الجزائرية، وكانت «البصائر» تحمل دائماً ما يجود به قلم الشيخ من نفحات على الوطن ولفحات على الاستعمار[1].

ـ التحرير الذي ينشده الإبراهيمي:

والتحرير الذي ينشده الإمام الإبراهيمي: تحرير كامل شامل، يشمل تحرير الإنسان، وتحرير الأرض، وتحرير الفرد، وتحرير المجتمع، وتحرير الرجل، وتحرير المرأة، وتحرير العقل، وتحرير البدن، والتحرير من الاستعمار الخارجي والاستعمار الداخلي، هذا هو التحرير المنشود للإبراهيمي، وإن شئت قلت: إنه التحرير الذي تنشده جمعية العلماء، فما الشيخ في وقفته إلا لسانها المعبر، وعقلها المفكر، وداعيتها المذكر[2].

ـ إشاعة كلمة «الحرية» في محيط الشعب:

وكانت كلمة «الحرية» من الكلمات المحظورة التي لا يجوز ذكرها في حديث ولا خطبة، ولا درس ولا محاضرة ولا كتاب، كأنَّما لا توجد في اللغة أصلاً، وكان الاستعمار حريصاً على إخفائها وإماتتها، فنشروها من قبرها، وأشاعوها بين الناس، وحبَّبوها إليهم.

يقول العلامة الإبراهيمي متحدثاً عن سنوات المخاض والتحضير للنهضة الكبرى:

كانت السنوات العشر ـ التي هي أوائل المرحلة الثالثة في تقسيمنا ـ كلها إرهاصات بتكوين جمعية العلماء، وكانت كلمات: الوطنية، والإسلام وتاريخه، والحرية والاستقلال ؛ قد وجدت مساغها في النفوس، وممرَّها إلى العقول، لأنها كانت تخرج من لسان ابن باديس وصحبه العلماء الشجعان، الموثوق بعلمهم ودينهم وأمانتهم، فيرنّ رنينها في الاذان، ويجاوز صَدَاها إلى الأذهان، بعد أن كانت هذه الكلمات محرَّمة في فقه الاستعمار ومهجورة في فقه الفقهاء، الذين نشؤوا تحت رهبة الاستعمار، ومجهولة عند بقية الأمة، فكان أوَّل من نطق بها على أنها لغة حيَّة صحيحة الاستعمال هو عبد الحميد بن باديس العالم الديني، واثنان أو ثلاثة من طرازه، ولكن ابن باديس كان يقولها لتلامذته في حِلَق الدرس ليطبعهم عليها، فلمَّا أحسَّ بالنجدة من إخوانه أصبحت هذه «الحملة» مطروحة للاستعمال في السوق العامة، ولذلك ارتاع لها الاستعمار وقدّر عواقبها الوخيمة عليه[3].

---

(1) الملتقى الدولي ص 57.

(2) الملتقى الدولي ص 57.

(3) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، ص 58.

3 . التوحيد:

كانت الحرية ـ أو التحرير ـ هي الأمل الأوَّل الذي يسعى لتحقيقه الإمام الإبراهيمي، وكانت الوحدة ـ أو التوحيد ـ هي الأمل الثاني الذي يرنو إليه أو يصرُّ عليه.

وهذه الوحدة تبدأ بوحدة الجزائر أولاً، فوحدة الشمال الأفريقي أو المغرب العربي، فوحدة الأمة العربية، وإنتهاء بوحدة الأمة الإسلامية.

وكانت وحدة الجزائر والجزائريين هي شغله الشاغل، فهو يعمل دائباً بعلمه ولسانه وفكره ووجدانه، وحركته مع إخوانه، لصهر عنصري الشعب الجزائري، كما عرَّب المغرب العربي كله.

وهو يعجب من الذين يريدون أن يجعلوا البربر فرنسيين، وليس بينهم وبين فرنسا نسب ولا اصرة دينية ولا عرقية، ولا تاريخية ولا جغرافية ؛ في حين بينهم وبين العروبة أكثر من اصرة.

واجتهد الشيخ الإبراهيمي أن يُجَنب الشعب الجزائري أسباب الخلاف الديني من جرَّاء الاختلاف في قضايا علم الكلام، أو مذاهب الفقه، أو اتجاهات التصوف، كما حذَّر الشيخ من مكايد الاستعمار ودسائسه، ومن همزاته ووساوسه، ومن سياسته المعروفة، التي شعارها «فرِّق تسد».

وحاول الشيخ هو ورفقاء دربه: أن يجمعوا الشعب على الإسلام الصحيح، الإسلام الأول، إسلام القران والسنة، وأن يحرِّروه ممَّا سوى ذلك من مبتدعات العامة، وضلالات الخاصَّة، أو ما سمَّاه الإمام محمد عبده: شهوات سلاطين، أو نزغات شياطين.

وقد حرص الإبراهيمي على توحيد الشعب الجزائري في شعائره الدينية. كما حرص على توحيد مواقفه الوطنية، وقد جاهد وكافح من أجل توحيد الشعب في صيامه وفطره، وكتب في ذلك مقالات ضافية، يَرُدّ بها على لجنة الأهلّة المعينة من قبل السلطة الفرنسية، ويهيب بالشعب المسلم أن يوحِّد صيامه وإفطاره(1).

وبدأ الشيخ دعوته إلى الاتحاد ـ كما قلنا ـ من المنطلق الطبيعي والمنطقي: أن تتَّحد الجزائر وشعبها أولاً في مواجهة الاستعمار الفرنسي بسلطانه وجبروته، فكانت الدعوة إلى توحيد عنصري الوطن: العرب والبربر، ثمَّ كانت الدعوة إلى اتحاد الأحزاب الوطنية التي تعمل لتحرير الجزائر، وكان الشيخ يلحُّ في هذه الدعوة ويؤكدها ويكرِّرها، ويناضل عنها بقوة، يقول في ذلك:

كل مسلم عربي جزائري مخلص يؤيِّدنا في الدعوة إلى هذا الاتحاد ويودّ منه ما نودّ، ويعتقد فيها ما نعتقده، من أنه المعقل الوحيد للقضية الجزائرية، والوسيلة الوحيدة لنجاحها، ويرى ما نرى من اثار هذا التفرق الشنيع الذي شتت شمل هذه الأمة الضعيفة، فزادها ضعفاً على ضعف، في وقت تطلعت فيه إلى المطالبة بحقها، فهي فيه أحوج ما تكون إلى جمع القوى، والتئام الشمل، واتحاد الكلمة.

تَرد علينا رسائل كثيرة من عقلاء الأمة المخلصين لها، السالمين من عصبية الحزبية، وكلها حضٌّ على السعي في الاتحاد بين الأحزاب، وجمع الكلمة المتفرّقة في هذا الوقت، الذي تجمعت فيه جموع الاستعمار على دحض

---

(1) المصدر نفسه ص 64.

حقّناً بباطله، وفي هذا الجوّ الذي كله نذر ومخاوف، والرسائل على كثرتها بحيث لا يخلو منها بريد يومي، وخصوصاً في الأسابيع الأخيرة، كأنما كتبت بقلم واحد في أمور ثلاثة:

التشهير بضرر الخلاف، والتنويه بضرورة الاتحاد، وتعليق الأمل في جمع الكلمة على كاتب السطور وجمعية العلماء، وقد تغالى بعض الكاتبين، فعصب قضية الاتحاد برأس كاتب هذه الكلمة وجعلها عهدة في عنقه، وبالغ بعضهم ـ وهو من ذوي الاراء النيرة والعلم الواسع والإخلاص المحقق ـ فقفز إلى غاية الغايات وهي جمع الكفاءات في حزب واحد، أما ضرر الخلاف على القضية الجزائرية فهو أمر يستوي في إدراكه جميع الناس، وأما ضرورة الاتحاد فهي أمر لا يختلف فيه عاقلان، وهو أمنية كل مسلم مخلص لدينه وجنسه ووطنه، وقد شعر به المسؤولون من رجال الأحزاب فتداعوا إليه جهرة، في حين حِدَّة الخلاف وعنفوانه، ووجود أقوى أسبابه، ولا يماري في لزوم الاتحاد إلا قصير النظر في العواقب، أو خادم لركاب الاستعمار من حيث يدري أو لا يدري، أو مدخول النسب في الوطنية[1].

أ ـ توحيد الشمال الأفريقي:

وبعد توحيد الجزائر شعباً ووطناً: توحيد فكرتها، وتوحيد عبادتها، وتوحيد وقفتها، ورصُّها صفاً واحداً في مواجهة المعركة المرتقبة، الاتية في يوم لا ريب فيه ؛ اتَّجه الشيخ إلى توحيد الشمال الأفريقي أو المغرب العربي ـ كله ـ فإنما هو وطن واحد، وشعب واحد، بعضه من بعض، وأقصاه موصول بأدناه، فهو شعب عربي مسلم، ربطت بينه العروبة والإسلام، كما ربط بينه الهمُّ الواحد، والمصير الواحد، وهو محاربة الاستعمار، وتحرير البلاد من نيره وناره ومن ذله وإساره.

ولذا كان حريصاً أن يثبت بنصاعة بيانه، وفصاحة لسانه، وسطوع برهانه، أن الشمال الأفريقي كلَّه عربي كما أنَّ كلَّه مسلم، وأن الإسلام قد أذاب بين الجميع كل الفروق العرقية، ووحَّدهم خلف القران الكريم والرسول العظيم، كما وحَّدهم في الصلاة خلف إمام واحد، يتلون كتاباً واحداً، ويؤدون حركات واحدة، ويتعرَّفون إلى الله بعبادة واحدة، تفتتح بالتكبير وتُختم بالتسليم.

وتحدَّث الشيخ عن وحدة الشمال الأفريقي بلسان صادق وبيان دافق، وبرهان ناطق، يقيم الحجَّة على الخصم، ويُخرس لسانه فلا يتكلم، ويفحمه فلا يجادل، تقرأ للشيخ مقالاً في «البصائر» تحت عنوان «عروبة الشمال الأفريقي» يقول فيه:

عروبة الشمال الأفريقي بجميع أجزائه طبيعية، كيفما كانت الأصول التي انحدرت منها الدماء، والينابيع التي انفجرت منها الأخلاق والخصائص، والنواحي التي جاءت منها العادات والتقاليد، وهي أثبت أساساً وأقدم عهداً، أصفى عنصراً من إنكليزية الإنكليز وألمانية والألمان.

قضت العروبة بقوَّتها وروحانيتها وأدبها وسُموّ خصائصها وامتداد عروقها، في الأكرمين الأُول من نبات الصحاري، وبُناة الحاضرات فيها ؛ على بربرية كانت منتشرة بهذا الشمال، وبقايا ارية كانت منتشرة فيه، وفعل

(1) اثار البشير الإبراهيمي (337/3).

الزمن الطويل فعله حتى نسي الناس ونسي التاريخ الحديث أنَّ هنا جنساً غير عربي، وضرب الإسلام بيسره ولطف مدخله، وملاءمة عقائده للفطر، وعباداته للأرواح، وادابه للنفوس، وأحكامه للمصالح، على كل عرق ينبض بحنين إلى أصل، وعلى كل صوت يهتف بذكرى إلى ماضٍ بعيد، وزاد العروبة تثبيتاً وتمكيناً في هذا الشمال هذه الأبجدية العربية الشائعة التي حفظت أصول الدين، وحافظت على متون اللغة، ودوَّنت الاداب والشرائع وكتب التاريخ، وسجَّلت الأحكام والحقوق، وفتحت الباب إلى العلم، وكانت السبيل إلى الحضارة.
كل هذه العوامل صيَّرت هذا الشمال عربياً قارّ العروبة على الأسس الثابتة: من دين عربي، ولغة عربية، وكتابة عربية، واداب عربية، ومنازع عربية، وتشريع عربي، وجاء التاريخ ـ وهو الحكم في مثل هذا ـ فشهد وأدَّى، وجاءت الجغرافيا الطبيعية فوصلت هذا الشمال بمنابت العروبة من جزيرة العرب.. وجاء الزمن بثلاثة عشر قرناً، تشهد سِنوها وأيَّامها بأنها فرغت من عملها، وتمَّ التمام[1].
ويعود إلى الموضوع في خطابه التاريخي للوفود العربية والإسلامية للأمم المتحدة في باريس فيقول:
وإنَّ هذا الشمال الأفريقي كل لا يتجزأ، تربط بينه وبين أجزائه دماء الأجداد، ولسان العرب، ودين الإسلام، وسواحل البحر في الشمال، وجبال الرمال في الصحاري، وسلاسل الأطلس الأشمّ في الوسط، واتحاد الماء والهواء والغذاء، وإنَّها لخصائص تجمع الأوطان المتباينة، فكيف لا تجمع الوطن الواحد؟
إنَّ تفرق هذه الأجزاء لم يأت من طبيعتها وإنما جاء من طبائعنا الداخلية، ومن تأثراتنا الغريبة بالدخلاء، وإنني متفائل بأن هذه الليلة ستكون فاتحة لعهد جديد واتحاد عتيد، ونور من الرحمة والإخاء ينتظم المغارب في سلك.
إنني متفائل بما يتفاءل به السارون المدلجون من انبلاج الفجر، فعسى أن يتحقق هذا التفاؤل فتكون هذه الليلة أول خيط في نسيج الوحدة الأفريقية التي هي اخر أمل للمتفائلين مثلي، وإنَّ العنوان الدَّالّ على ما وراءه هو: اجتماع جميع حركات الشمال الأفريقي في هذا المحفل الزاهر، وإن البشير بتحقق هذا الأمل هو امتزاجنا بإخواننا الشرقيين حول هذه الموائد، ومن بركاتهم أن تجتمع حركاتنا كلها في صعيد واحد، وكلها لسان يعبر، وقلب يفكر، واذان تسمع، وإنا لنرجو أن تكون قلوبنا غداً غير قلوبنا بالأمس، وأن نفيء إلى الحق الذي أمر الله بالفيأة إليه، وإنَّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم[2].

ب ـ توحيد العرب والمسلمين:

وهو حين يدعو إلى وحدة الجزائر، فوحدة المغرب العربي، فوحدة العرب، ينتهي إلى الوحدة الكبرى لأمة الإسلام كلها، من المحيط إلى المحيط من جاكرتا إلى مراكش[3].

(1) نشرت في العدد 150 من جريدة «البصائر» سنة 1952م.
(2) «البصائر» العدد 183 السنة الخامسة 18 فبراير 1952م.
(3) الملتقى الدولي ص 68.

وطالما كتب الإبراهيمي يستصرخ المسلمين ليجتمع شملهم، ويتّحد صفُّهم، وينعي عليهم تفرُّقهم، ودينهم يوجب عليهم أن يجتمعوا، وينكر عليهم تقاطعهم، ومصلحتهم تفرض عليهم أن يتواصلوا، وقد كتب كلمة قوية في «البصائر» تحت عنوان «أرحام تتعاطف» جاء فيها:

طالما نعينا على المسلمين خصوصاً، وعلى الشرقيين عموماً، هذا التقاطع الذي شتَّت شملهم، وفرَّق جامعتهم، وصيَّرهم لقمة سائغة للمستعمرين، وطالما شرحنا للمسلمين أسرار التواصل والتراحم والتقارب الكامنة في دينهم، وأقمنا لهم الأدلة، وضربنا لهم الأمثال، وسُقنا المثُلات، وجَلونا العبر، وكانت نذر الشر تتوالى، فيتمارون بها وصيحات الضحايا منهم تتعالى، فيصمُّون عنها، والزمن سائر، والفلك دائر، وهم في غفلة ساهون.

دعوناهم إلى الجامعة الواسعة التي لا تضيق بنزيل، وهي جامعة الإسلام إلى الروحانية الخالصة التي لا تشاب بدخيل، وهي روحانية الشرق، وحذرناهم من هذه الأفاحيص الضيقة، والوطنيات المحدودة، التي هي منبع شقائهم ومبعث بلائهم، وبينَّا لهم أنها دسيسة استعمارية، زيَّنها لهم سماسرة الغرب وعلماؤه وأدلاؤه، وغايتهم منها التفرقة، ثم التمزيق ثم القضم ثم الهضم. وإن الاستعمار ـ بهذه الدسيسة وأشباهها ـ يُفسد فكرة الله فيهم، وينقُض دين الله عندهم، ففطرة الله تُلهم نصر الأخ لأخيه، وحماية الجار لجاره، دين الله يوجب حقوق الأخوة، ويدعو إلى إيثار الجار والإحسان إليه، وهو بهذا يعمِّم التناصر، ويقيم في الأرض شرعة التعاون، فما من جار إلا له جار والناس كلُّهم متجاورون جوار الدار للدار، فجوار القرية للقرية، فجوار المدينة للمدينة، فجوار الوطن للوطن، فإذا أخذوا بهذه الشرعية وأقاموا حدودها عمَّ التناصر والتعاون، وسدَّت المنافذ على المغِيرين وعلى المفسدين في الأرض[1].

ج ـ داؤنا الانقسام، ودواؤنا الوحدة:

ويذكر الشيخ الإبراهيمي في خطابه الذي ألقاه في باريس، أمام الوفود العربية والإسلامية في الأمم المتحدة هذه الكلمات القوية المزلزلة، والمعبرة عن داء الفرقة ودواء الوحدة بقلمه البليغ المبدع.

أيها الإخوان:

إن النقطة التي ابتدأ منها بلاؤنا وشقاؤنا هي أنَّهم أرادونا على الانقسام، وزيَّنوه لنا كما يزيِّن الشيطان للإنسان سوء عمله، فأطعناهم وانقسمنا، فوسعوا شقة الانقسام بيننا بأموالهم، وأعمالهم وارائهم وعلومهم، ولم يتركوا أداة من أدوات التقسيم إلا حشدوها في هذا السبيل، ولم يغفلوا الأستاذ والكتاب والراهب والمرأة والتاجر والسمسار حتى بلغوا الغاية في تقسيمنا شيعاً ودولاً وممالك، كما توزع قطعة الأرض الكبيرة الصالحة إلى قطع صغيرة لا تصلح واحدة منها ولا تكفي، ثمَّ عمدوا إلى خيرات الأرض فاحتكروها لأنفسهم واستخرجوها بعقولهم المدبِّرة، وأيدينا المسخَّرة، فكان لهم منها حظُّ العقل، ولنا منها حظُّ اليد، ولو أنَّنا تعاسرنا عليهم من أوَّل يوم في تقسيمنا، ولذنا بكعبة الوحدة نطوف بها ونلتزم أركانها لما نالوا منَّا نيلاً، ولما وصلنا إلى هذه الحالة.

(1) نشرت في العدد 148 من جريدة «البصائر» سنة 1951م.

وأمَّا وقد بلغوا من تقسيمنا ما يريدون، وأصبحنا في درجة من الضعف المادي والضعف العقلي، نعتقد فيها أن خلقنا خلقة الأرنب، وخلقهم خلقة الأسد، وجف القلم، ولا تبديل لخلق الله، فأوّل واجب علينا، بل أوّل نقطة يجب أن نبتدأئ منها السير، هي أن نكفر بهذا الانقسام، ونُكفِّر عنه بضدِّه، وهو الوحدة الشاملة لجميع الأجزاء، وكيف يكون ذلك، وقد بنيت على ذلك التقسيم أوضاع جديدة، وممالك وملوك وحدود، وإن تغيير الممالك لصعب، وإنَّ فطام الملوك عن لذَّة الملك لأصعب منه؟

فلنلتمس مفتاح قضيتنا من بين هذا الركام من الأدوات البالية، ولنعتصم بالأمر الميسور، وهو أن نوحِّد التعليم ومناهجه، والتجارة وأوضاعها، ولنطمس هذه الحدود الفاصلة بين أجزاء الوطن الواحد، وليرتفق بعضنا ببعضنا فيما يزيد فيه بعضنا على بعضنا، ولنكن يداً واحدة على الأجنبي، ولنعتبر المعتدي على جزء منّا معتدياً على جميع الأجزاء، وعدو العراق هو عدو مراكش، ولنذكر من خصال الأمم ما فعلته إيطاليا في ضم أجزائها، وما فعلته ألمانيا، وما فعلته فرنسا التي لم تنم لها عين في قضية الألزاس واللورين، ولو أن معتدياً اعتدى على جزء من إنكلترا «وهي كجزيرة العرب» تداعى الإنكليز من أطراف الأرض لاسترجاعه، فلم لا نكون كذلك؟ إنَّهم إن علموا ذلك منَّا، وعلموا جدّنا فيه تابوا عن سيرتهم فينا وأقلعوا، أمَّا من لان للأكل فليس من حقِّه أن يلوم الأكلة.

والذي روحي بيده.. ما يسرني أن للعرب ثماني دول، ولا أن للمسلمين عشرين دولة، ما داموا على هذه الحالة، وإنَّما يسرُّني ويثلج صدري أن يكون المسلمون كلهم شعباً واحداً بحكومة واحدة، وعلى اتجاه إلى السعادة واحد، فإذا وُجِدَ هذا الشعب لم يبق لهؤلاء الأقوياء إلا أن يقولوا: إن في الشرق قوماً جبارين، وإنه لم يبق لنا بينهم موضع.

إن القوم استضعفونا، ففرَّقونا، فأكلونا لقمة لقمة، فأوجِدوا هذا الشعب الموحد تَحْيوا وتُحْيوا العالم به، أوجِدوه تَسعدوا وتُسعِدوا العالم به.. إنَّ العالم اليوم مريض، وإنَّه يلتمس الشفاء، فأروه أن في الإسلام شفاءه، وإنَّه في خصام منهك وإنَّه يلتمس الحكم، فأحيوا الإسلام الصحيح يكن حكماً في مشكلة هذا العصر.. مشكلة الغنى والفقر.. تكتَّلوا يمدَّكم العصر بروحه.. إنه عصر التكتُّل، وإن الأقوياء لم تغُن عنهم قوتُهُم شيئاً، فأصبحوا يلتمسون أنواعاً من التكتل مع القريب، ومع الغريب، فهذه إنكلترا تتكتل، وهذه أمريكا، وهذه روسيا، فكيف لا يتكتل الضعفاء[1]؟!.

قال الشيخ هذا قبل أكثر من نصف قرن «سنة 1952م»، فكيف لو عاش إلى عصرنا، ورأى ما فيه من تكتُّلات واتحادات مثل الاتحاد الأوربي؟ الذي أمسى حقيقة واقعة بعد حروب بين الأوربيين بعضهم وبعض استمرت قروناً، اخرها الحربان العالميتان، اللتان سقط فيهما من القتلى والضحايا بالملايين[2].

د . بدء تفرُّق المسلمين في الدين:

(1) جريدة «البصائر» 183 في 18 فبراير 1952م.

(2) الملتقى الدولي ص 71.

ويتحدَّث الشيخ الإبراهيمي عن بدء ظهور التفرُّق في المسلمين حديثاً يُنبِأئُ عن وعي بتاريخ الأمة الفكري، فيقول:

أول ما نشأ في المجتمع الإسلامي من جراثيم التفرُّق في الدين: الكلام في القدر والخوض في الصفات، وقارن ذلك حدوث الخلاف في الخلافة: فهل هي شعبة من الدين، تفتقر إلى تنصيص من الشارع؟ أو هي مصلحة دنيوية ترجع إلى اختيار أهل الرأي في الأمة؟

وقد سبق الخلافَ العمليَّ الخلافُ العلمي في هذه المسألة، وهي المعترك الأوَّل الذي اشتجرت فيه الاراء حتى تفرقت بعد أن اشتجرت فيه الرماح حتى تقصفت، كما أنَّها أوَّل مسألة امتزجت فيها الأنظار الدينية بالأنظار الدنيوية «أو السياسية» كما يقولون، وفي هذا المعترك نبتت جرثومة التعقُّب الخبيثة.

ثم توسعت الفتوحات وبسط الإسلام ظلَّه على كثير من الممالك التي كانت لها أثارة من عمران، وشيء من سلطان، ودانت له كثير من الأمم، وفي كل أمة طوائف دخلت في الإسلام وهي تحمل أوزاراً من بقايا ماضيها، وما كادت هذه المجموعات البشرية تمتزج ويفعل الإسلام فيها فعله حتى ظهرت عليها أعراض التفرُّق.

فظهر أصحاب المقالات في العقائد، وأحدثوا بدعة «التأويل»، الذي هو في الحقيقة تحريف مسمًّى بغير اسمه، وتوفَّرت الدواعي لظهور المذاهب الفقهية، والمذاهب الكلامية، والمذاهب الصوفية، في أزمنة متقاربة، وكان لترجمة الفلسفة اليونانية والحكمة الفارسية والهندية أثر قوي في تعدُّد المذاهب الكلامية والصوفية، بما أتت به الأولى من بحث في الإلهيات على الطريقة العقلية الصرفة، وبما غذت به المتكلمين من الأنظار المختلفة، وأمدتهم به من طرائق الجدل القانونية، وهذا مبدأ التفرُّق الحقيقي في الدين، لأن المتكلمين يزعمون أن علومهم هي أساس الإسلام، والصوفية يقولون: إن علومهم هي لباب الشريعة وحقيقتها(1).

هـ ظهور المذاهب الفقهية والتعصُّب لها:

أمَّا المذاهب الفقهية، فحدوثها ضروري ما دامت السنة لم تُجمع، وبعد جمعها لم تكن وافية بالتنصيص على الوقائع الجزئية، ومتونها وأسانيدها بعد خاضعة للتزكية والتجريح، لأنَّها لم تنقل بطريق التواتر، وما دامت مدارك المجتهدين ـ الذين هم المرجع في هذا الباب ـ متفاوتة بالقوَّة والضعف في الاستنباط ووجوه القياس وعلله، وما دامت الوقائع التي تناط بها الأحكام لا تنضبط، وقد استحدث العمران أنواعاً جديدة من المعاملات الدنيوية لا عهد للإسلام الفطري فيها، وصوراً شتى من المعايش ووجوه الكسب لم تكن معروفة ؛ فمن سماحة التشريع الإسلامي ومرونته أن تتناول هذه المستحدثات الجديدة بأنظار جديدة، وتستنبط من أصوله أحكام لفروعها، وكل هذا لا حرج فيه وليس داخلاً فيما نشكوه، بل نحن أوّل من يقدر قدر أولئك الأئمة الذين هم مفاخر الإسلام.

وهي في حدِّ ذاتها ليست هي التي فرَّقت المسلمين، وليس أصحابها هم الذين ألزموا الناس بها، أو فرضوا على الأمة تقليدهم، فحاشاهم من هذا، بل نصحوا وبينوا، وبذلوا الجهد في الإبلاغ، وحكّموا الدليل ما وجدوا إلى

(1) الملتقى الدولي ص 72.

ذلك السبيل، وأتوا بالغرائب في باب الاستنباط والتعليل، والتفريع والتأصيل، ولهم في باب استخراج علل الأحكام، وبناء الفروع على الأصول، وجمع الأشباه بالأشباه، والاحتياط ومراعاة المصالح؛ ما فاقوا به المشرِّعين من جميع الأمم[1].

وإنما الذي نعدُّه في أسباب تفرُّق المسلمين هو هذه العصبية العمياء التي حدثت بعدهم للمذاهب، والتي نعتقد أنهم لو بُعثوا من جديد إلى هذا العالم، لأنكروها على أتباعهم ومقلديهم، وتبرؤوا إلى الله منهم ومنها، لأنها ليست من الدين الذي أؤتمنوا عليه، ولا من العلم الذي وسَّعوا دائرته.

وقد طغت شرور العصبية للمذاهب الفقهية في جميع الأقطار الإسلامية، وكان لها أسوأ الأثر في تفريق كلمة المسلمين، وإنَّ في وجه التاريخ الإسلامي منها لندوباً.

أمَّا اثارها في العلوم الإسلامية، فإنَّها لم تمدَّها إلا بنوع سخيف من الجدل المكابر، لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا عاصم من شرور هذه العصبية إلا صرف الناشئة إلى تعليم فقهي، يستند على الاستقلال في الاستدلال، وإعدادها لبلوغ مراتب الكمال، وعدم التحجير عليها في استخدام مواهبها إلى أقصى حد[2].

و . المذاهب الكلامية:

وأمَّا المذاهب الكلامية، فلم يكن أثرها بالقليل في تفرُّق المسلمين وتمزُّق شملهم، ولكنَّها لما كان موضعها البحث في وجود الله وإثبات صفاته، وما يجب له من كمال، وما يستحيل عليه من نقص، كل ذلك من طريق العقل؛ كانت دائرتها محدودة وكان التعمق فيها من شأن الخواص، وقعد بالعامة عن الدخول في معتركها، إحساساً بالتقصير في أدواته من جدل وعقليات يحتاج إليها في مقامات المناظرة والحِجاج، فليس علم الكلام كعلم التصوف مطية ذلولاً يندفع لركوبها العاجز والجازم، فالتصوُّف شيء غامض، يسعى إليه بوسائل غامضة، ويسهل على كل واحد ادِّعاؤه والتلبيس به، فإن خاف مدَّعيه الفضيحة لم يعدم سلاحاً من الجمجمة والرمز وتسمية الأشياء بغير أسمائها، ثم الفزع إلى لزوم السمت، والتدرُّع بالصمت، والإعراض عن الخلق والانقطاع والهروب منهم، ما دام هذا كله معدوداً في التصوف وداخلاً في حدوده، ولا كذلك علم الكلام الذي يفتقر إلى عقل نيِّر وقريحة وقادة وذكاء نافذ، ويحتاج منتحله إلى براعة ولسن ومران على المنطق ومقدِّماته ونتائجه، وأقيسته وإشكاله، ولم كل هذه العدد؟

كل هذه العدد للمناظرات وما تستلزمه من إيراد ودفع وإفحام وإلزام، وأين العامة من هذا كله؟ لذلك لم يكن لها من حظ من هذا العلم إلا معرفة أسماء بعض الفرق والانتصار لها انتصاراً تقليدياً، ولذلك كانت اثار التفريق الناشئة عن هذه المذاهب الكلامية قاصرة على طبقات مخصوصة، ولم تتغلغل في العامة كما تغلغلت اثار التصوُّف.

---

(1) المصدر نفسه ص 73.

(2) اثار البشير الإبراهيمي (1/95 . 96).

وقد انقرضت تلك الفرق، وانقرض بانقراضها سبب جوهري من أسباب التفرُّق، بل مات بموتها شاغل طالما شغل طائفة من خيرة علماء المسلمين ببعضهم، وجعل بأسهم بينهم شديداً، وألهاهم بما يضرّ عمَّا ينفع.
تلاشت تلك الفرق، ولم تبق إلا أخبار معاركها الجدلية في كتب التاريخ، وإلا اراؤها المدوَّنة في كتبها فتنة للضعفاء، وتبصرة للحصفاء، ولم يبق من تلك الأسماء التي كوَّنت قاموساً من الأنساب إلا اسمان يدوران في أفواه العامة وأشباه العامَّة، ويستعملونهما في أغراض عامية، وهما «أهل السنة والمعتزلة» [1].

ز . تخلف دراسة علم التوحيد:

ومن المحزن أنَّ دراسة علم التوحيد حتى في كلِّيَّاتنا «الراقية» ـ كالأزهر والزيتونة ـ لا تزال جارية على تلك الطرائق، وفي تلك الكتب، ولا تزال تقرَّر فيها تلك الاراء، ولا تزال تذكر فيها أسماء تلك الفرق التي لم يبق لها وجود، ويستعرض سيدنا المدرِّس تلك الاراء، ثم يدحضها، ويقيمها، ثم ينقضها، وتقطع أوقات الطلبة المساكين في ذلك ويا ضيعة الأعمار.

أمَّا الشبهات التي يوردها كل يوم ملاحدة العصر ومبشِّرو المسيحية على الإسلام، ويفتنون بها العلماء فضلاً عن العوام ؛ فإنَّ كلياتنا «العلمية الدينية» ومدرِّسيها لا يعيرونها أدنى اهتمام ولا يعمرون بها وقت الطلبة.. فيا للفضيحة [2].

وأما المذاهب الصوفية، فهي أبعد أثراً في تشويه حقائق الدين، وأشدَّ منافاة لروحه، وأقوى تأثيراً في تفريق كلمة المسلمين ؛ لأنها ترجع في أصلها إلى نزعة غامضة مبهمة، تستَّرت في أوَّل أمرها بالانقطاع للعبادة، والتجرُّد من الأسباب، والعزوف عن اللذات الجسدية، والتظاهر بالخصوصية، وكانت تأخذ منتحليها بشيء من مظاهر المسيحية، وهو التسليم المطلق، وشيء من مظاهر البرهمية وهو تعذيب الجسد وإرهاقه، توصلاً إلى كمال الروح ـ زعموا ـ وأين هذا كلُّه من روح الإسلام وهدي الإسلام؟ ولم يتبين الناس خيرها من شرِّها لما كان يسودها من التكتم والاحتراس، حتى جرت على ألسنة بعض منتحليها كلمات كانت ترجمة لبعض ما تحمل من أوزار، فراب أئمة أمرها، وانفتحت أعين حراس الشريعة، فوقفوا لها بالمرصاد، فلاذ منتحلوها بفروق مبتدعة يريدون أن يثبتوا بها خصوصيتهم كالظاهر والباطن، والحقيقة والشريعة، إلى ألفاظ أخرى من هذا القبيل، لا تخرج في فحواها عن جعل الدين الواحد دينين.

وما كاد السيف الذي سُلَّ على الحلاج وصرعى مَخْرِقَتِهِ يغمد، ويوقن القوم أنهم أصبحوا بمنجاة من فتكاته؛ حتى أجمعوا أمرهم، وأبدوا للناس بعض مكنونات أسرارها ملفوفة في أغشية جميلة من الألفاظ، ومحفوفة بظواهر مقبولة من الأعمال، وحاولوا أن يصلوا نحلتهم تلك بعجرها وبجرها بصاحب الشريعة أو بأحد أصحابه، فلم يفلحوا، وافتضحت حيلتهم، وانقطع الحبل من أيديهم، فرجعوا إلى ادِّعاء الكشف وخرق الحجب، والاطلاع على ما وراء الحسِّ، إلى اخر تلك «القائمة» التي لا زلت تسمعها حتى من أفواه العامَّة وتجدها في معتقداتهم [3].

---

(1) اثار البشير الإبراهيمي (1/96 . 97).
(2) الملتقى الدولي ص 75.
(3) المصدر نفسه ص 77.

4. التوعية والتربية:

اعتمد الشيخ الإبراهيمي في منهجه الإصلاحي على ركيزتين أساسيتين هما: التوعية والتربية، وهما في الواقع ركيزتا جمعية العلماء، فما كان للشيخ أن يحيد عنهما، وهو الأمين على مسيرة الجمعية والمِضِي بها قُدماً في طريقها الذي رسمته من أوَّل يوم.

وأمَّا التوعية، فهي لجماهير الشعب الذي هو هدف الإصلاح ووسيلته معاً.

وأمَّا التربية فهي للطلائع التي ينتظر منها أن تقود معركة التحرير، ومعركة البناء والتقدم فيما بعد.

وكانت التوعية في نظر الشيخ ـ كما هي في نظر جمعية الإصلاح منذ نشأت ـ تقوم على فهم الدين فهماً صحيحاً، بحيث تنشأئ مسلماً سليم العقيدة، صحيح العبادة، مستقيم السلوك، عزيز النفس، قوي الجسم، حر الإرادة، مستنير العقل، محباً للخير، غيوراً على أهله ووطنه ودينه، عالماً بمن هو صديقه ومن هو عدوُّه.

وكان إنشاء هذا الجيل هو قُرَّة عين الشيخ وإخوانه، وكان هو معقد الأمل في تحقيق النصر المنشود على الاستعمار الفرنسي، وما خلَّفه من اثار في الأنفس والعقول والحياة، وكان الاستعمار الفرنسي اللعين يعرف تمام المعرفة أن هذا الجيل هو الخطر الحقيقي على وجوده وبقائه في الجزائر، ولذا كان له بالمرصاد، وكان يعوّق طريقه بكل ما يمكنه، ولكن الإبراهيمي كان ماضياً في سبيله، مستعيناً بربه، مشدود الأزر بإخوانه من العلماء وشعبه الجزائري الأبيّ.

وكانت جولات الشيخ في طول البلاد وعرضها، ودروسه وخطبه ومحاضراته، وأحاديثه الخاصة والعامة، ومقالاته في «البصائر» ؛ كلها تدور حول إيقاظ الوعي الديني الحقيقي، وتنقية الفكر الإسلامي من الخرافات والأباطيل والبدع التي شوَّهت وجه الدين الجميل، وأضافت إليه من الزوائد والشوائب ما كدَّر صفاءه، ولوَّث نقاءه، ومن المحدثات ما عسَّر الدين الذي أراد الله به اليُسر ولم يرد به العُسر، وما جعل فيه من حرج.

وكل عمل من هذا السبيل يهدم لبنة من لبنات الاستعمار المخرِّب، ويضع لبنة من لبنات الجزائر العربية المسلمة جزائر الغد، ويغرس الامال في أنفس الجزائريين بقدر ما يغرس المخاوف في قلوب الفرنسيين(1).

أ ـ أشنع أعمال فرنسا في الجزائر:

ويتحدث العلامة الإبراهيمي عن التخريب الهائل الذي مارسته فرنسا في الجزائر منذ احتلالها، فيقول: كانت الجزائر قبل احتلال الفرنسيين لها في سنة 1830م دولة مستقلة غنية، تملك خصائص الدول في ذلك العصر، وأهمُّها العلم بالدين والدنيا، وفيها من الأوقاف الإسلامية الدارَّة على العلم والدين ووجوه البر ما لا يوجد مثله في قُطر إسلامي اخر، ومنذ تغلب عليها الاستعمار الفريد في الخبث، وهو يعمل جاهداً على قتل شخصيَّتها بالقضاء على الدين واللغة العربية، وكان أوَّل عمل قام به هو مصادرة الأوقاف الإسلامية والمعاهد التابعة لها من مساجد ومدارس وزوايا، وتحويلها إلى كنائس وثكنات واصطبلات وميادين ومرافق عامة، ثم أصدرت قانوناً لا نعرف له نظيراً في تاريخ البشرية العاقلة، يقضي باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في وطنها وبين أهلها،

(1) المصدر نفسه ص 78.

يتوقَّف تعليمها على إذن خاص وشروط ثقيلة، وزادت تلك الشروط على الأيام ثقلاً وعنتاً، حتى أصبحت في السنوات الأخيرة لا تطاق، وأصبح معلِّم العربية يقف في قفص الاتهام مع اللصوص والسفاكين، وتجري عليه العقوبات مثلهم بالسجن والتغريم والتعذيب.

ثم دأب الاستعمار «من مائة ونيف وعشرين سنة» على طمس كل أثر للإسلام والعربية، وقطع كل صلة بينهما وبين الشرق، ليتم له مسخ الأمة الجزائرية، وإدماجها في الأمة الفرنسية، ولكن المناعة الطبيعية في هذه الأمة، وتصلّبها في المحافظة على التراث الإسلامي المقدس، وعلى خصائصها الشريفة، دفع عنها ذلك البلاء وأنقذها من ذلك المصير[1].

ب . توعية الشعب وتنويره:

ويشرح الشيخ ما تقوم به جمعية العلماء من تنوير وتوعية للشعب الجزائري، وتحرير عقله ووجدانه وإرادته من الأوهام والضلالات، وشغله بمعالي الأمور عن سفاسفها، ووصله بالحق بدلاً من ركضه وراء الباطل، عن طريق المساجد والأندية وغيرها، فيتحدث عن مبدأ جمعية العلماء وغاياتها فيقول: مبدأ جمعية العلماء يرمي إلى غاية جليلة، فالمبدأ هو العلم، والغاية هي تحرير الشعب الجزائري، والتحرير في نظرها قسمان:

. تحرير العقول والأرواح، وتحرير الأبدان والأوطان، والأول أصل للثاني، فإذا لم تتحرَّر العقول والأرواح من الأوهام في الدين وفي الدنيا، كان تحرير الأبدان من العبودية والأوطان من الاحتلال متعذراً أو متعسراً، حتى إذا تمَّ منه شيء اليوم، ضاع غداً، لأنه بناء على غير أساس، والمتوهم ليس له أمل، فلا يرجى منه عمل.

لذلك بدأت جمعية العلماء . من أوَّل يوم نشأتها . بتحرير العقول والأرواح بالدروس والمحاضرات، حتى بلغت من ذلك أقصى غاية من الجهد وأقصى غاية من النتائج، وأصبح الشعب في جملته صافي الفكر، مستقل العقل، متوهج الشعور، مشرق الروح، فاهماً للحياة، واسع الأمل فيها، عاملاً للحرية والاستقلال، مؤمناً بماضيه، عاملاً على ربط الحاضر بالماضي، ووصله بالوطن العربي الأكبر، متبصراً في وزن رجاله، لا ينطلي عليه غش الغشاشين ولا تدجيل الدجَّالين. ومعلوم أن هذه المعاني لا تدخل النفوس دفعة واحدة، وإنَّما تكمل بالتدرُّج. والذي وصل إليه الشعب الجزائري من هذا هو نتيجة نيف وعشرين سنة من أعمال جدّية متواصلة، ولكنَّه لا يتم عادة في أقل من خمسين سنة[2].

ج . أعمال جمعية العلماء في التعليم والتوعية:

ويعدِّد الشيخ ما قامت به جمعية العلماء من أعمال مجيدة للشعب فيقول:

. زادت الجمعية على هذا العمل العام اخر خاصاً، وهو العمل على تخريج جيل جديد، يتلقى هذه المعاني في الصغر، ويثبتها بالعلم الصحيح، لتحارب الاستعمار بسلاح من نوع سلاحه وهو العلم، فأسَّست في هذين

(1) المصدر نفسه ص 79.

(2) المصدر نفسه ص 80.

العقدين من السنين نحو مائة وخمسين من المدارس الابتدائية للعربية والدين، وشيَّدتها بمال الأمة وصيرتها ملكاً للأمة، وهي تضم اليوم ما يقرب من خمسين ألف تلميذ من حملة الشهادات الابتدائية من مدارس الجمعية.
. بما أن المساجد التي هي تراث الأجداد صادرتها الحكومة الفرنسية وصادرت أوقافها من يوم الاحتلال، فأحالت بعضها كنائس وبعضها مرافق عامة، وهدمت كثيراً منها لتوسيع الشوارع والحدائق، واحتفظت بالباقي لتتخذ منه حبالة تجرّ أشباه الموظفين الدينيين، وما زالت إلى الان هي التي تعيِّن الأئمة والخطباء، والمؤذنين والقومة، ولكنَّها تستخدمهم في الجاسوسية والمخابرات، وتجري عليهم المرتبات من الخزينة العامة، لذلك التفتت الجمعية إلى هذه الناحية الحيوية، وشيَّدت بمال الأمة نحو سبعين مسجداً في أنحاء القطر، لأداء الشعائر وإلقاء الدروس الدينية، والحكومة الفرنسية تنظر إلى هذه المساجد نظرتها إلى الحصون المسلحة.
. في الجزائر مئات الالاف من الشبان العرب المسلمين، فاتهم التعليم الديني والعربي، ولا تلقاهم الجمعية في المدارس ولا في المساجد، والاعتناء بهم واجب، فأنشأت لهم الجمعية عشرات من النوادي المنظمة الجذَّابة، تلقي عليهم فيها المحاضرات العلمية والدينية والاجتماعية، وأدَّت هذه النوادي أكثر ممَّا تؤدِّيه المدارس والمساجد من التربية والتوجيه.
. أنشأت الجمعية للعمال الجزائريين في باريس وغيرها من مدن فرنسا عشرات من النوادي، وزوَّدتها بطائفة من الوعاظ والمعلِّمين من رجالها، يتعلَّم فيها أولئك العملة ضروريات دينهم ودنياهم، ويتعلم فيها أبناؤهم اللغة العربية تكلُّماً وكتابة، ويتربَّون على الدين والوطنية، وقد استفحل أمر هذه النوادي واتت ثمراتها قبل الحرب الأخيرة، ثمَّ قضت عليها الحرب، ثم حاولت الجمعية تجديدها بعد الحرب، غير أن التكاليف المالية تضاعف واحدها إلى الالاف، فكان ذلك وحده سبباً للعجز.
. أنقذت الجمعية عشرات الالاف من أبناء الجزائر من الأمية بوسائل دبرتها ونجحت فيها نجاحاً عجيباً، وإن هذا العمل من غرر أعمالها، لأن الأمية تشلُّ[1] الشعوب.

د . الميدان الداخلي:

كان أمام الشيخ البشير . ومن قبله الشيخ ابن باديس . ميدانان للكفاح، ميدان الاستعمار الخارجي، وميدان الاستعمار الداخلي، استعمار العقول والنفوس والضمائر بالأوهام والضلالات والبدع، فاختار الشيخان البدء بالميدان الداخلي، فهو أحق وأولى بالاهتمام.

وعلَّل ذلك الشيخ الإبراهيمي فقال: كانت الحكمة لاختيارنا الميدان الأوَّل للهجوم، أنَّ موضوع النزاع ديني، ونحن علماء دين يعترف لنا بالإمامة العلمية حتى الاستعمار وأعوانه، ولا يستطيع الاستعمار أن ينتصر لأوليائه في نزاع ديني انتصاراً سافراً، وإنَّما ينتصر لهم بوسائل أخرى لا تؤثر في هدفنا الذي نرمي إليه، وهو انتزاع الأمة من هؤلاء المستغلين لها باسم الدين، وإنقاذها من جبروتهم، وإننا إذا جرّدناهم من سلطانهم الوهمي، كانت معنا على الاستعمار الخارجي الحقيقي، ومن لم يكن الشعب معه كان مخذولاً في كل ميدان.

---

(1) نشرت في صحيفة «منبر الشرق»، وصحيفة «الدعوة» أغسطس 1954م.

بدأنا هذه الحركة بجنب حركة التعليم الديني العربي، وأطلقنا عليها اسمها الحقيقي وهو: «الإصلاح الديني»، وهو اسم يهيج الاستعمار الخارجي في الدرجة الثانية، فكان من تفاوت التهيُّج فسحة، سرنا فيها خطوات إلى النجاح، وكانت أعمالنا تسير في دائرة ضيقة، لأنَّ الاستعداد لظهور جمعية العلماء لم يتمّ إذ ذاك، وكان مبدأ «العمليات» بدروس دينية ومحاضرات.

ورأى المرحوم عبد الحميد بن باديس: أنه لابد من جريدة تظاهر الفكرة، وتخدمها، فأنشأ جريدة «المنتقد»، وهي أول جريدة إصلاحية بالشمال الأفريقي، فكانت أرفع صوت وأفعل وسيلة لنشر الإصلاح الديني، فارتاع لها الاستعمار الفرنسي وعطّلها في مدَّة قريبة بما يملك من قوانين، فأصدر المرحوم جريدة أخرى باسم «الشهاب» كانت أسدّ رماية، وأوسع خطى من سابقتها، وسكت عنها الاستعمار، فنقلها صاحبها من جريدة إلى مجلة، طال عمرها بضع عشرة سنة، ورافقت سنوات الإرهاص لجمعية العلماء، فسجَّلت خطوات الحركة، وكانت لها مواقف رائعة في عدَّة ميادين، فخدمت العلم والدين والسياسة، وتردَّد صداها في المغارب الثلاثة، فتركت في كل قطر أثراً حميداً في النفوس، وفضحت الاستعمار الفرنسي فضائح لا ينسى خزيها[1].

هـ التربية:

وكانت التربية في نظر الشيخ ـ وفي نظر الجمعية ـ هي الوسيلة المثلى لغرس التعاليم الإسلامية التجديدية، ومعها النزعة العروبية الوطنية في عقول الناشئة وفي قلوبهم، ومقاومة تيار «الفرنسة» الذي يعمل منذ احتل الجزائر على أن يجرِّدها من هويتها الإسلامية والعربية، وذلك بفرض الفرنسية لغة وحيدة في التعليم وإبعاد العربية تماماً عن هذا المجال، وحذف الدين الإسلامي من مجال التربية والتعليم حذفاً تاماً، باعتبار أن الدولة «علمانية» «لائكية»، وأنها لا تعلّم الدين في مدارسها.

فكان المطلوب هنا عملاً مضاداً لما يهدف إليه المستعمر، تقوم التربية فيه على أساس أن الدين هو الأساس، والعربية هي اللسان.

فإذا كان التعليم الفرنسي السائد يقصد إلى فرنسة الجزائريين، فإن التعليم الذي قاده من قبل ابن باديس وقاده من بعده الإبراهيمي يقصد إلىإعادة «أسلمة» الجزائريين و«تعريبهم»، أو إلى إبقاء الإسلام والعروبة عند من بقيا عنده. وكان شعار جمعية العلماء منذ البداية: الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا. ولذلك كان تركيزهم المستمر والدؤوب على ضرورة «التعليم العربي»، الذي يجب أن تتاح له فرصة بجوار «التعليم الفرنسي» السائد والمهيمن على الساحة كلها، وكانت مناهج هذا التعليم وكتبه ولغته ومعلِّموه وإدارته والجو المدرسي العام ؛كلها تصبُّ في هذا الاتجاه، حتى الأناشيد التي تحفّظ للطلاب تغرس فيهم هذه المعاني، وتنمِّي فيهم هذه المشاعر مثل النشيد المعروف الذي ألَّفه الإمام ابن باديس نفسه ويحفظه الجميع:

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله ... أو قال مات، فقد كذب

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير ص 83.

ومن حسن حظ الجزائر: أن الله تعالى وهبها رجلاً مربياً من الطراز الأول، ومنحه من المواهب والملكات ما قاد به كتيبة التربية على بصيرة ووعي بالهدف المنشود، والمنهج المقصود، وأعدَّ له من الرجال الكفاة من يذلِّل بهم الصعاب، ويتخطى بهم العقاب، إنه الإمام ابن باديس الذي كان هدية الله للجزائر، كما يتحدث عنه الإبراهيمي(1).

يقول الإبراهيمي في إحدى مقالاته أو دراسته عن جمعية العلماء ومؤسسها:

وعبد الحميد بن باديس باني النهضة وإمامها ومدرِّب جيوشها: عالم ديني، ولكنه ليس كعلماء الدين الذين عرفهم التاريخ الإسلامي في قرونه الأخيرة، جمع الله فيه ما تفرَّق في غيره من علماء الدين في هذا العصر، وأربى عليهم بالبيان الناصع، واللسان المطاوع، والذكاء الخارق، والفكر الولود، والعقل اللمَّاح، والفهم الغوَّاص على دقائق القران وأسرار التشريع الإسلامي، والاطلاع الواسع على أحوال المسلمين ومناشئ أمراضهم، وطرق علاجها، والرأي السديد في العِلميات والعمليات، من فقه الإسلام وأطوار تاريخه، والإلمام الكافي بمعارف العصر، مع التمييز بين ضارها ونافعها، مع أنَّه لا يحسن لغة من لغاتها غير العربية.

وكان مع التضلع في العلوم الدينية واستقلاله في فهمها، إماماً في العلوم الاجتماعية. يكمل ذلك كله: قلم بليغ شجاع يجاري لسانه في البيان والسحر، فكان من أخطب خطباء العربية وفرسان منابرها، كما كان من أكتب كتّابها، وهو من بيت عريق في المجد والملك والعلم، يتصل نسبه الثابت المحقَّق بالمعز بن باديس، مؤسس الدولة الباديسية الصنهاجية، إلى صنهاجة القبيلة البربرية العظيمة التي حدَّثناكم عن دولها واثارها بالجزائر، والمعز بن باديس ؛ وهو الذي تولى الدولة الصنهاجية بالقيروان بعد والده، ويزعم بعض النسَّابين أنها يمنية وصلت إلى شمال أفريقيا في إحدى الموجات التي رمى بها الشرقُ الغربَ من طريق برزخ السويس في الأولين، كما رماه بالموجه الهلالية في الاخرين.

هذا الرجل النابغة يشهد التاريخ أنَّه واضع أساس النهضة الفكرية في الجزائر، وقد سلك لها المسلك العلمي الحكيم، وهو مسلك التربية والتعليم، وأعانه على ذلك استعداده الفكري وكمال أدواته، فتصدّر للتعليم حوالي سنة 1914م ببلدة قسنطينة التي هي مستقر أسرته من المائة السابعة للهجرة، وعمره إذ ذاك دون الخامسة والعشرين، فجمع عليه عشرات من الشبان المستعدين، فعلّمهم وربَّاهم، وطبعهم على قالبه، ونفخ فيهم من روحه، وبيانه، تطوّعاً واحتساباً، لا يرجو إلا جزاء ربه، ولا يقصد غير نفع وطنه.

وكان ـ رحمه الله ـ يؤثر التربية على التعليم، ويحرص على غرس الفضائل في نفوس تلامذته قبل غرس القواعد الجافة في أدمغتهم، ويدرِّبهم على أن ينهجوا نهجه في العمل للعروبة والإسلام، فما انتهت الحرب العالمية الأولى حتى تخرج على يده وعلى طريقته جيل من الشبان، تتفاوت حظوظهم من العلم النظري، ولكنهم طراز واحد في العمل، وصحَّة التفكير، والانقطاع للجهاد.

(1) المصدر نفسه ص 85.

وكان من طريقته في التربية: أن يرمي إلى تصحيح الفكر، وصقل العقل، وترقية الروح، وتقوية الخلق، وتسديد الاتجاه في الحياة، وأنه يستخرج من قواعد العلوم التعليمية قواعد للاجتماع، وينتزع منها دروساً في التربية والأخلاق[1].

وقد استطاع ابن باديس أن يخرج للأمة الجزائرية في الزمن اليسير جيلاً يفهم الحياة ويطلبها عزيزة شريفة، ويتدرَّع إليها بالأخلاق المتينة، وقد كان يدربهم على الأعمال النافعة، كما يدرِّب القائد المخلص جنوده، ويعدّهم لفتح مصر، أو لقاء مصرع، ولتلامذته إلى اليوم سمات بارزة في إتقان الدعوة الإصلاحية التي أعلنتها جمعية العلماء في حياته، وفي صدق الاتجاه، وفي إتقان صناعة التعليم على طريقته، وهم الرعيل الأوَّل في الثورة الفكرية الجارفة التي نقلت الجزائر من حال إلى حال.

وقد كان تعليمه والافاق التي فتحها ذهنه الجبَّار، وأسلوبه في الدروس والمحاضرات ؛ كل ذلك كان ثورة على الأوضاع التعليمية المعروفة في بلادنا، حيث ابتدأ التعليم، وتوسَّط فيه، وفي جامع الزيتونة حيث انتهى، ولم يكن علمه نتيجة دراسته التقليدية في البلدين المحدودة بسنوات معدودة، وكتب مقروءة على نحو ما في الأزهر، وإنما كان علمه نتيجة استعداد قوي، وذكاء خارق، وفهم دقيق، وذهن صيود لشوارد المعاني، غوَّاص إلى نهايتها، كما وصفناه في أول الحديث[2].

وبعد الشيخ ابن باديس: قاد الإبراهيمي سفينة التربية والتعليم، فكان يعلِّم بنفسه أحياناً، ويوجِّه المعلِّمين، ويؤلف في التربية، حتى أنه صنَّف كتاباً باسم «مرشد المعلمين»، قدَّمه أحد أبناء الجمعية «الأستاذ محمد العُسيري» فقال:

وضع أستاذنا الجليل محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء منذ سنوات برنامجاً حافلاً للتعليم العربي بجميع أنواعه، وضمَّنه أصولاً عظيمة من علم التربية، وقد سألناه منذ عامين: أن يجرِّد لنا فصولاً عملية تتعلق بالسنوات الست الابتدائية ففعل، وسلّمه لنا لنطبعه وننتفع به، وطالعناه فلم نجده كالبرامج المعتادة، وإنما هو «معلم مكتوب». فهو يأخذ بيد المعلِّم ويسير به خطوة بخطوة إلى الغاية لا يضل عنها ولا يجور، وكأنما هو «ملقِّن» من وراء المعلم يملي عليه الكلام ويرشده إلى كيفية العمل، لذلك اثر جماعة من قدماء المعلمين تسميته «مرشد المعلمين» [3].

5 . العمل الجماعي:

وإذا كان الشيخ الإبراهيمي يؤمن بالتوعية والتربية منهاجاً للإصلاح، ولا يكتفي بمجرَّد الخطب الرنَّانة، والكلمات المسجوعة، أو الدعايات الحزبية ؛ فإنه يؤمن كذلك، كما امن شيخه ورفيقه وأسوته الإمام ابن باديس «بالعمل الجماعي» ضرورة وشرطاً للنجاح وتحقيق الرجاء.

---

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 83.

(2) الملتقى الدولي ص 88.

(3) المصدر نفسه ص 90.

فالعمل الفردي ـ مهما يصحبه من الإتقان والإخلاص ـ محدود الأثر، محصور مقيَّد الإمكانات، ولكن إذا تضامَّت الجهود وتلاحمت القوى، أصبحت اللبنات المتفرقة بنياناً مرصوصاً، يشدُّ بعضه بعضاً.

فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، ضعيف بمفرده، قوي بجماعته، ويد الله مع الجماعة، وإنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية، والشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، وقد قال تعالى لموسى: {سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ} [سورة القصص:35] .

وفكرة الإمام ابن باديس ورفقائه هنا، هي نفس فكرة الإمام حسن البنا وإخوانه في مصر، حيث لم يكتف بالوعظ والإرشاد طريقاً للإصلاح، ولكنَّه رأى أن العمل الجماعي المنظم ضرورة لابد منها لنصرة الإسلام وإحيائه، وتجديد أثره في الأمَّة، ولتحرير مصر وبلاد العرب والمسلمين من الاستعمار وكل سلطان أجنبي لإقامة دولة الإسلام فيها.

توافق الإمامان على غير التقاء بينهما، وأنشأ حسن البنا جمعية الإخوان المسلمين سنة 1928م أو 1929م، وأسس ابن باديس جمعية العلماء سنة 1931م، وإن كنت قرأت مقالة العلامة الإبراهيمي أن فكرة الشيخ ابن باديس في إنشاء الجمعية، كانت أسبق من ذلك، فقد حاول أن يُنشأئ جمعية أطلق عليها: جمعية «الإخاء العلمي» سنة 1924م، ولكن حالت الحوائل دون ذلك.

أسَّس ابن باديس جمعية العلماء للنهضة والإصلاح والتحرير، وكان نائبه ورفيق دربه البشير الإبراهيمي، وبعد وفاته كان أميناً على العمل الذي معاً وَفَّيا له، حريصاً على أن يستمر في إيتاء أُكُله، وتحقيق أهدافه الكبيرة، كما كان حريصاً أبلغ الحرص على أن يعطي كل ذي حق حقه، فيتحدَّث عن ابن باديس أنه: هو المؤسِّس والباني، والبادئ، وأوَّل من بذر بذور الإصلاح والتجديد، وأوَّل من ارتفعت صَيْحته بتحرير الجزائر ونهوضها وبنيانها من جديد، بل أوَّل داعية إلى التجديد والإصلاح في المغرب العربي كله.

والعمل الجماعي أقدر على إنجاز المشروعات الكبيرة، وتحقيق الامال الطموحة، ممَّا لا يستطيع الأفراد وإن بلغوا ما بلغوا أن يحققوه، وها هو الإبراهيمي يُعدِّد لنا في مقال له: ما قامت به «جمعية العلماء» من أعمال أصيلة ومنجزات جليلة: {وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ} [سورة الأعراف:58] مدرسة عربية مجهَّزة بكل الأسباب المادية العصرية اللازمة للمدارس، وبجهاز اخر من المعنويات أعظم منها شأناً وأجلُّ خطراً، وبجند من المعلمين الأكفاء قوامه: مائتان وخمسون معلماً من بينهم عشرات النوابغ في التعليم والإدارة، ومشحونة بزهاء ثلاثين ألف تلميذ من أبناء الأمة بنين وبنات، يتلقَّون مبادأئ الدين الصحيح: عقيدة وأعمالاً، ومبادئ العربية الفصيحة: نطقاً وكتابة وإنشاء، ويتربَّون على الوطنية الحقيقية وعلى الهداية الإسلامية والآداب العربية، ويتكوَّن منهم جيل مسلَّح بالعلم، ثابت العقيدة في دينه ووطنه، قوي العزيمة في العمل لهما.

ويزيد في قيمة هذه الحصون أن الأمَّة تملك أعيان نحو الخمسين منها، وتملك الانتفاع بالباقي على وجه الكراء، وسبعة وثلاثون مدرسة أخرى شرعت الأمة الإسلامية في تشييدها في هذه السنة، وفيها ما يحتوي على ستة عشر قسماً، وفيها ما تقدَّر نفقاته بخمسة عشر مليوناً من الفرنكات.

ومعهد تجهيزي عظيم، يخطو إلى الرقي والكمال في كل يوم، في نظامه وفي برنامجه وأساتذته وتلامذته، يؤوي من تخرجه تلك المدارس، ليزوِّد الأمَّة منهم بالوعاظ والمرشدين وخطباء المنابر، ويزوِّد الطامحين منهم إلى المزيد من العلم بالمؤهلات إلى ما يطمحون إليه.

وجمعيات بلغت المئات، مقسَّمة على العلم والإحسان والأدب والرياضة، تبث في الأمَّة: النظام والإدارة وآداب الاجتماع، وديمقراطية الانتخاب، وتعلمها كيف تناقش، وكيف تصوغ الرأي، وكيف تدافع عنه، وكيف تنقضه بالحجة، وكيف تزن الأفكار، وكيف تُحاسِب العاملين، وتدربها على التدرج من الإدارات الصغرى إلى الإدارات الكبرى؟، لأن الأمَّة التي لا تحسن إدارة جمعية صغيرة لا تحسن بالطبع إدارة مجلس فضلاً عن حكومة، ولا كالجمعيات مدارس تدريب ونماذج تجريب.

ونوادٍ بلغت العشرات، غايتها إصلاح ما أفسدت المقاهي والملاهي من أخلاق الشباب، وكلها ميادين للعمل، ومنابر للخطابة، ومستغلات للعلم والتعليم.

والالاف من الشباب العربي المسلم كان كالمجهول في نسبه، وكالجاهل لحسبه، ففتحت المحاضرات الحيَّة أذهانه على تاريخ أسلافه، وفتقت ألسنته على ادابهم، فتقاسم على أن يقفو الأثر، ويجدِّد ما اندثر، وأقبل على العلم حتى إذا ضاقت به الجزائر فارقها كالنحلة، ترحل إلى المكان السحيق، لترجع إلى خليتها بالرحيق[1].

وإصلاح ديني تمكن من النفوس وتغلغل إلى الأفئدة، فطهرها من الشوائب التي شابت الدين، ومن النقائص التي شانت الدنيا، وصحَّح العقائد، فصحَّت القواعد، وصحَّح العزائم، فأقدمت على العظائم، وإذا صحّت العقائد وصلحت النيات، ظهرت الاثار في العزائم والإرادات، وفضائل شرقية كانت مشرفة على التلاشي، فأحيتها مدارسة القران وممارسة التاريخ، وإفشاء الاداب العربية، ونشر الماثر العربية.

وأمَّة كاملة كانت نهباً مُقَسَّماً بين استعمارين متعاونين على إبادتها: مادي متسلِّط على الأبدان، وروحاني متسلِّط على العقول، فصحَّحت حركة الإصلاح الديني عقولها فصحَّ تفكيرها، واتَّزن تقديرها، واستقام اتجاهها للحياة، وإنَّ تحرير العقول من الأوهام، سبيل ممهَّد إلى تحرير الأبدان من الاستعباد.

هذا هو رأس المال الضخم الذي أثلته جمعية العلماء للأمَّة الجزائرية في بضع سنين، وغذت به البقايا المدَّخرة من ميراث الأسلاف.

وهذه هي الأعمال التي عملتها جمعية العلماء للعروبة والإسلام، فحفظت لهما وطناً أشرف على الضياع، وأمَّة أحاطت بها عَوَامِل المسخ، فأصبحت أمَّة عربية مسلمة شرقية نضاهي بها أخواتها من العروبة والإسلام، بل نتباهى بها.

وما شيَّدت جمعية العلماء هذا البناء الشامخ من الماديات والمعنويات ورفعت سمكه ؛ إلا بعد أن أزالت أنقاضاً من الباطل والضلال تنوء بالعصب أولي القوة والأيد، وبعد أن نازلت جيوشاً من المبطلين المضللين نكص عن

(1) الملتقى الدولي ص 94.

لقائها الأبطال، وبعد أن لقيت من حماة الاستعماريين ما تلقاه فئة الحق من فئات الباطل: كانوا أكثر وأوفر، وكنَّا أثبت وأصبر، وكانت العاقبة للصابرين[1].

6 . اهتمامه بالشباب:

كان وضع الشباب في الجزائر في مقدمة المسائل التي اهتمت بها جمعية العلماء، لأنها أدركت منذ اللحظات الأولى بأن تطوير الحركة الإصلاحية يتوقف على الشباب، لذلك فقد وجهت قسماً كبيراً من نشاطاتها الاجتماعية نحو الشباب بشكل خاص، فبالإضافة إلى المدارس والمساجد التي سبق وتحدثنا عنها، عمل الشيخ الإبراهيمي وابن باديس من قبله على إنشاء النوادي الثقافية والفرق الكشفية بهدف تربية الشباب تربية اجتماعية وطنية.

أ . النوادي الثقافية:

كان هدف جمعية العلماء من وراء تشجيعها إقامة النوادي الاجتماعية، هو إيجاد أمكنة عامة تجمع الشبان الجزائريين على اختلاف نزعاتهم الفكرية والسياسية والثقافية، ويمكن عن طريق البرامج الثقافية والعظات الدينية التي تقدم في النادي وضع هؤلاء الشبان في جو مشبع بمبادأئ الإسلام والعروبة[2]. كان كل نادٍ من النوادي الثقافية التابعة للحركة الإصلاحية يتألف بصورة عامة من قاعة اجتماعات، وغرفة للصلاة، ومقصف صغير تقدم فيه المشروبات المباحة، وكانت ميزانية هذه النوادي تتكون من الاشتراكات المنتظمة التي يدفعها أعضاؤها المنتسبون من ناحية، ومن حصيلة بيع المشروبات لروادها من ناحية أخرى، وكانت النوادي تخصص جزءاً هاماً من إيراداتها سنوياً لمساعدة المدارس الإصلاحية التي تقع في ناحيتها، ولعل هذه المساندة للتعليم العربي الحر ؛ هي من الأسباب الرئيسية التي دفعت الحكومة الفرنسية في إطار سياستها المناوئة لجمعية العلماء ورسالتها التعليمية؛ إلى إصدار مرسوم 13 جانفي 1938م، الذي كان من أهم ما ورد فيه: حظر بيع المشروبات المباحة داخل النوادي الثقافية إلا بترخيص من الإدارة الفرنسية[3].

اقتصرت نشاطات النادي الإصلاحية على المجالات الثقافية والفنية والاجتماعية والدينية، ففي قاعاتها وغرفها كانت تعقد مؤتمرات الشبيبة والطلبة، وتلقى المحاضرات العامة، وتقام التمثيليات والمهرجانات الثقافية، والدينية بمناسبة الأعياد الإسلامية[4].

وانتشرت النوادي الثقافية في كثير من المدن الجزائرية وكان أهمها:

. نادي الترقي في العاصمة، الذي أسس قبل ظهور الجمعية، ثم أصبح فيما بعد من النوادي الإصلاحية الرئيسية.

---

(1) «البصائر» العدد 46 . السنة الثانية من السلسلة الثانية . 23/أوت/1948م.

(2) جمعية العلماء المسلمين، د . أحمد الخطيب ص 227.

(3) المصدر نفسه ص 229

(4) المصدر نفسه.

. نادي صالح باي في قسنطينة، الذي أسس عام 1926م، وأصبح يعرف فيما بعد باسم: نادي عبد الحميد بن باديس.

. نادي الاتحاد في قسنطينة.

. النادي الإسلامي في الميلة.

. نادي التقدم في البليدة.

. نادي النجاح في سيدي بلعباس.

. نادي العمل في سكيكدة.

. نادي الشبان المسلمين في قالمة.

اهتمت جمعية العلماء عن طريق النوادي، بملء الفراغ الذي كان يعاني منه الشباب، فأخذت تنشط فيهم الملكات الرياضية والفنية، وتشجعهم على إقامة الفرق الرياضية والمسرحية والموسيقية[1].

وبالإضافة إلى النوادي الثقافية شجعت جمعية العلماء الشبان الجزائريين على تكوين المنظمات الكشفية، وقد شملت هذه المنظمات منذ بدء ظهورها بالرعاية والاهتمام[2].

ب . الكشافة:

كانت الكشافة في الجزائر قبل الثلاثينيات فرنسية خالصة، وكانت تضم فرقاً كشفية دينية وعلمانية، مثل الكشافة الكاثوليكية والكشافة اللائكية، ويبدو أن بعض الشبان الجزائريين الذين بهرهم الزي الخاص، والنياشين، والنظام والانضباط، انخرطوا في صفوف الكشافة الفرنسية، إلى أن جاءت احتفالات الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر عام 1930، ومشاركة الكشافة الفرنسية في عرض التحدي والاستفزاز للشعور الوطني الجزائري، فانسحب الكشافون الجزائريون من بين صفوفها، وأخذوا يسعون إلى تنظيم كشفي مستقل بهم، يشجعهم ويشد أزرهم رجال الإصلاح، الذين كانوا يطمحون إلى تكوين منظمات وطنية لها مظهر عسكري، يمكن أن يصبح أفرادها تحت الغطاء الكشفي «جنود العروبة والإسلام» [3].

وبالفعل فقد أنشأ رائد الحركة الكشفية الجزائرية «محمد بوراس» أول فوج للكشافة الجزائرية عام 1930م في مدينة مليانة، أطلق عليه اسم «فوج الخلود»، ثم أنشأ فوجاً اخر في العاصمة باسم «فوج الفلاح».

تأثر بوراس بعلماء الحركة الإصلاحية أمثال العقبي وابن باديس والمدني، وسعى عام 1935م إلى إنشاء جامعة للكشافة الإسلامية، نظير الكشافة الكاثوليكية والإسرائيلية واللائكية، بقصد جمع الأفواج الكشفية المشتتة في المدن الجزائرية في تنظيم كشفي موحد، ولكن الإدارة الفرنسية رفضت طلبه، وكان عليه أن ينتظر حتى تتولى

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه ص 230.

(3) المصدر نفسه ص 230.

«الجبهة الشعبية» الحكم في فرنسا، لكي يؤسس عام 1937م أول تنظيم كشفي وطني، عرف باسم «الكشافة الإسلامية الجزائرية» [1].

وانعقد أول مؤتمر للأفواج الكشفية الجزائرية بعد توحيدها في شهر جويلية عام 1939م في العاصمة، برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس الفخرية، وكان الشعار الذي رفعه المؤتمر هو نفس شعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين «الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا». ويبين لنا محمد صالح رمضان أن الكشافة الإسلامية الجزائرية نشأت وترعرعت في أحضان الحركة الإصلاحية العامة، التي تشرف عليها وتوجهها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، واسمها دال على ذلك، كما نبتت معظم أفواجها وأكثر جمعياتها في أوساط وبيئات إصلاحية إلى جنب المدارس الحرَّة الشعبية، بل كان أغلب فتيان الكشفية وقادة مسيرتها من تلاميذ هذه المدارس، أو من أعضاء جمعياتها المحلية، وكان مرشدوها جميعاً من معلمي تلك المدارس.. وكان أقطاب الحركة الإصلاحية وأئمتها يشجعونها ويساعدونها، بتأييدهم ومشاركتهم لها في تجمعاتها، كابن باديس في قسنطينة، والعقبي في العاصمة، والإبراهيمي في تلمسان[2].

وكانت أناشيد الحركة الكشفية الجزائرية من وضع شعراء الحركة الوطنية والحركة الإصلاحية الجزائرية، أمثال: محمد العيد، ومفدي زكريا، وحسن بلكيزد[3]. وكانت هذه الأناشيد مشبعة بالروح الوطنية الاستقلالية، وبالانتماء القومي العربي.

ويبدو مما تقدم أن اهتمام الجمعية كان منصباً على النواحي الاجتماعية التي تغذي الإحساس الوطني، ولم يتسنَّ لها الاهتمام ببعض النواحي الاجتماعية الأخرى، مثل: مساعدة المحتاجين، ومداواة المرضى، ورعاية الأيتام[4].

ج. عناية الإبراهيمي بتكوين الشباب خلقياً وعلمياً:

أمران كان الشيخ البشير الإبراهيمي يركز عليهما كثيراً في تربية الشباب وتكوينهم، وإعدادهم لمواجهة أعباء الحياة العامة بكل أبعادها الفردية والاجتماعية والوطنية، هذان **الأمران هما**:

. الأخلاق.

. العلم بمعناه الواسع، أي: علم الدين، وعلم الدنيا.

فقد كان رجلاً متنوِّراً، منفتح الذهن والفكر لمتطلبات عصره، يعيش همومه، وينفعل بأحداثه وتطوراته، ولذلك كان يحث الشباب على القراءة والمطالعة في كل علم وكل فن، وعدم الاقتصار على فن واحد واختصاص واحد فقط، فطالب العلم في رأيه مثل النحلة، ترتشف من رحيق جميع الأزهار كي تنتج عسلاً مصفى، وكذلك

(1) المصدر نفسه ص 231.
(2) المصدر نفسه ص 231.
(3) المصدر نفسه ص 231.
(4) المصدر نفسه ص 231.

طالب العلم يجب ألا يكون أفقُه محدوداً بنوع واحد من القراءة، حتى يكون ابن عصره في الثقافة والمعرفة والفكر، وهذا لا يناقض التخصص في نوع معين من الدراسات العلمية.

وقد كان هو يقرأ في سائر فروع العلوم الإنسانية، ولم تنحصر قراءاته ـ كمعظم علماء الدين الإسلامي أمثاله ـ على الفقهيات، وما يتصل بها من حديث وتفسير، وسير وأدب، وشيء قليل من التاريخ الإسلامي العام[1].

وعندما كان يجتمع بالشباب صباح يوم الجمعة في كل أسبوع في مركز جمعية العلماء بالقاهرة، كانت أحاديثه في معظمها تدور حول شيئين اثنين:

ـ الثقافة العربية المحارَبة من طرف فرنسا في الجزائر، وواجب طلاب العلم نحو إحيائها وبعثها للوجود بعد انتهاء دراستهم.

ـ الوطن الجزائري وما يعانيه من الاستعمار الفرنسي، في لغته وسيادته الوطنية، وواجب الشباب، وطلاب العلم، في تحريره من الاستعمار، والنهوض به في شتى الميادين.

وقد كان كثير التذكير للشباب وطلاب العلم لما كانوا بالقاهرة بالأعباء التي تنتظرهم في الوطن بعد عودتهم إليه، وكان يقول لنا ما معناه: إنكم لن تستطيعوا أن تنفعوا وطنكم وأمتكم إلا إذا ملكتم سلاحين هامين، بدونهما لن تفلحوا في الحياة، ولن يستفيد منكم وطنكم شيئاً هاماً:

ـ الأخلاق القويمة المتينة.

ـ العلم القوي المتين أيضاً[2].

وكان يحذر طلاب العلم من الشباب من اللفظية والسطحية، في الدراسة والتحصيل، ويطلب منهم العمق في الفهم لكل ما يقرؤون، والنقد الموضوعي لكل ما يطالعون، ووجوب عرض أفكار واراء مؤلف الكتاب الذي يقرؤونه على عقولهم لغربلتها قبل التسليم بها، وكان يحثهم على أن تكون المكتبات هي مكانهم المفضل للقراءة والبحث والمطالعة، والتحصيل وزيادة المعارف.

وكان عندما يتحدث عن الأخلاق والعلم تكون لغته حارة نابعة من أعماق وجدانه، تفيض بالحب والإيمان والقوة في كل جملة وكل عبارة من كلامه، مما يدل على إيمانه العميق بدور الأخلاق والعلم في نهضة الشعب وتحريره وبنائه على أسس سليمة.

استمع إليه وهو يتحدث في التقرير الأدبي في مؤتمر جمعية العلماء في أكتوبر 1951م عن دور المدرسة التي تقوم جمعية العلماء بتشييدها في الجزائر في النهضة القومية والوطنية، يقول:

..فالمدرسة هي جنة الدنيا، والسجن هو نارها، والأمة التي لا تبني المدارس تبنى لها السجون، والأمَّة التي لا تصنع الحياة.. يُصنع لها الموت، والأمَّة التي لا تعمل لنفسها ما ينفعها ويسعدها، يعمل لها غيرها ما يضرها ويشقيها، والأمَّة التي لا تغضب للمذاهب، ترضى بالذل الجليب، والأمَّة التي تتخذ الخلاف مركباً، يغرقها في

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 231.

(2) المصدر نفسه ص 232.

اللجة، والأمَّة التي لا تكرم شبابها بالعلم والتثقيف، مضيعة لرأس مالها، والأمَّة التي لا تجعل الأخلاق ملاكها أمَّة تتعجل هلاكها، والأمَّة التي لا تلد لغيرها، أمَّة تلد العبيد، لا أمَّة تلد الأحرار الصناديد، والأمَّة التي تعتمد في حياتها على غيرها طفيلية على موائد الحياة، حقيقة بالقهر والنهر وقصم الظهر.

ثم يقول: والحياة بلا علم متاع مستعار، والوطن بلا علم عورة مكشوفة، ونهب مقسم، سنة من سنن الله، كسنته في تكوير الليل على النهار، ثم يضيف: وإن المدرسة هي طريق الحياة، وطريق النجاة، وطريق السعادة، وإن الوطن أمانة الإسلام في أعناقنا، ووديعة العرب في ذممنا، فمن بعض حقه علينا أن نحفظ دينه من الضياع، وأن نحفظ لسانه من الانحراف، وأن لا سبيل إلى ذلك إلا بالمدرسة، التي تبنيها الأمَّة بمالها، وتحوطها برعايتها، وتجعلها حصوناً تقي أبناءها الانحلال الديني والانهيار الخلقي، وتحفظهم من ترف الغنى وذلّ الفقر، وتربيهم على الرجولة والقوة، وتوحيد النزعات، وتصحيح الفطرة، وتقويم الألسنة، وتمتين الإرادات والغرائز، وتغرس الفضيلة في نفوسهم، وتصلح فيهم ما أفسده المنزل والشارع، وتروضهم على حب الوطن وبنائه طبقاً على طبق[1].

وفي إحدى افتتاحيات البصائر التي كتبها في عام 1947م تحت عنوان: إلى أبنائي الطلبة الجزائريين في سبيل العلم، نقتطف الفقرات التالية:

يا أبناءنا!. إن الحياة قسمان: حياة علمية، وحياة عملية، وإن الثانية منهما تنبأئ على الأولى قوة وضعفاً وإنتاجاً وعمقاً، وإنكم لا تكونون أقوياء في العمل، إلا إذا انقطعتم له، ووقفتم عليه الوقت كله.. ثم يضيف..: أنتم اليوم جنود العلم، فاستعدوا لتكونوا غداً جنود العمل، فإن الوطن يرجو أن يبني بكم جيلاً قوي الأسر، شديد العزائم، سديد الاراء، متين العلم، متماسك الأجزاء، يدفع عنه هذه الفوضى السائدة في الاراء، وهذا الفتور البادي على الأعمال، وهذا الخمول المخيم على الأفكار[2].

د ـ المعلمون والشباب في فكر الإبراهيمي:

قال الإبراهيمي للمعلمين: ثمَّ احرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال، منطبقاً على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال، فإن الناشأئ الصغير مرهف الحس.. فإذا زيَّنتم له الصدق فكونوا صادقين، وإذا حسَّنتم له الصبر فكونوا من الصابرين،.. ألا إن رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة بالقدوة، وأما ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم والمعرفة فهو ربح وفائدة[3].

إن هذه اللفتة من الإبراهيمي يحتاجها المربون في كل مرحلة، لأن الواجب تقديم التربية بالقدوة الصالحة على ضخ المعلومات وفروع المعرفة، لأن التلقين وبعده حفظ المعلومات أمر سهل ومتيسر، والأهم منه أن يستميل

(1) المصدر نفسه ص 233.

(2) المصدر نفسه ص 234.

(3) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر ص 291.

المعلم تلامذته، وأن يحبُّوه فيشكِّل لهم القدوة، مضافاً إلى ذلك أن واجبه مراقبة نفسه وأن يسأل في كل مرّة: هل يصلح ما أمارسه ليكون منهجاً لإعداد الجيل[1].

قال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [سورة البقرة:44].

وقال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتيَ مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

وهذا ما وجّه إليه الإبراهيمي، بأن المعلّم قدوة ونموذج، قائلاً: إن المعلم لا يستطيع أن يربي تلاميذه على الفضائل إلا إذا كان هو فاضلاً.. ولا يستطيع إصلاحهم إلا إذا كان هو صالحاً، لأنهم يأخذون منه بالقدوة أكثر مما يأخذون منه بالتلقين[2].

ووجّه الإبراهيمي المعلمين كي يعدُّوا الشباب على أسس الفضيلة ومحاسن الأخلاق، لأن العلم وحده لا يحقق هذه الغاية. لقد توجَّه إلى المعلمين مخاطباً: إن العلم لم ينهَ مفسداً عن الإفساد، ولم يزعْ مجرماً عن الإجرام، ولم يُمِت في نفوس الأقوياء غرائز العدوان والبغي على الضعفاء، بل ما زاد المتحرِّرين من الفضيلة إلا ضراوة بالشر، وتفنُّناً في الإثم، فاجعلوا الفضيلة رأس مال نفوس تلامذتكم، واجعلوا العلم ربحاً[3].

ودعا الإبراهيمي المعلمين إلى مخالفة كل ما يقوم به المستعمر إذا أرادوا الإصلاح، حيث قال: إن أردتم أن تعرفوا الطريقة المثلى لخدمة أمتكم وتتبينوا الطريق القاصد، فانظروا إلى الاستعمار، واعرفوا الطرق التي سلكها لقتل أمتكم، فاسلكوا ضدَّها لإحيائها، وادرسوا الوسائل التي تذرَّع بها لاستعباد أمتكم، فاستخرجوا منها وسائل تحريرها[4].

وقال في المعلمين: إنهم دعائم هذا البناء التي تمسكه أن يزول، وتصونه أن يختلّ، أو يحول، فهم أشبال الغاب، وحماة الثغور، وعمَّار المدارس، وسقاة المغارس، مربو الجيل وأئمته، المعلمون المستحقون لأجر الجهاد، .. جيش الحق.. وألسنة الصدق[5].

وإذا سأل بناةُ الجيل، وحماةُ ثغور الشباب عن الاختراقات المعادية، والمجاهدون في بناء جيل واعد عن أسس التربية المطلوبة منهم، أجابهم الشيخ المربي بما يلي: ربُّوهم على الرجولة، وبُعد الهمَّة، وعلى الشجاعة والصبر، وعلى الإنصاف والإيثار، وعلى البساطة واليسر، وعلى العفة والأمانة، وعلى المروءة والوقار، وعلى الاستقلال والاعتداد بالنفس، وعلى الدين والعلم والوطن والوالدين والمعلم[6].

---

(1) الملتقى الدولي ص 347.
(2) المصدر نفسه ص 347.
(3) المصدر نفسه ص 348.
(4) اثار محمد البشير الإبراهيمي (116/2).
(5) الملتقى الدولي ص 348.
(6) المصدر نفسه ص 349.

إن هذا النَّص التوجيهي يحوي قواعد ومقوِّمات نافعة في عالم إعداد الشباب، وتنشئتهم النشأة المرضية، ويمكن استخلاص القواعد التالية منه:

. يدعو الإبراهيمي المعلمين إلى تربية الناشئة على القدرة على تحمُّل المسؤولية، لأن الرجولة ما هي إلا هذا الأمر، وهي مع ذلك جدية، وجدارة على حمل التبعات، والتصرف بروح مسؤولية، فالرجولة تكليف لا تشريف.

. يبرز الإبراهيمي أهمية الشجاعة والجرأة، لأن الجبان متردد مرتبك قلق، لا يقوى على اتخاذ قرار، ولا على البناء وصنع التقدم، وليس عنده استعداد للتضحية، وهذا شأن مهم نبَّه إليه الصحابي خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: خضت نيفاً ومائة معركة، ولم يبق في جسمي موضع إلا فيه ضربة من سيف، أو طعنة من رمح، أو رمية من سهم، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي، فلا نامت أعين الجبناء.

. ويطرح الإبراهيمي أن يربِّي الشباب والجيل على التزام «الإنصاف»، أي العدل، ولا يخفي على أحد أهمية ذلك، فمن قام بنيان شخصيته على العدل والإنصاف يمارس ذلك مع سواه، وفي الوقت نفسه فإنه يقاوم كل ظالم مستبد، والعدل أساس مكين في حياة الأمم، والعرب قالت في حِكمها: العدل إن دام عمَّر، والظلم إن دام دمَّر.

والحرية في منهج حياة الفرد تقاوم الاحتلال والاستعمار، وتفتح الباب للإبداع والعطاء.ز والاستسلام للاستبداد والاستعمار من أكثر الأسلحة فتكاً في الفرد والمجتمع، ومفيد هنا أن نتذكر قول الفاروق «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه لعمرو بن العاص بشأن استبداد ابنه بقبطي حيث خاطبه: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمَّهاتهم أحراراً[1]؟

. أمَّا خلق الإيثار فإنه يصنع التضامن، ويشدُّ روابط المجتمع، ويرفع درجة الاستعداد للتضحية، انطلاقاً من قوله تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [سورة الحشر:9].

. والعفَّة نحتاج إليها في عالم التربية، حيث يمطر الغربي ساحتنا بضروب الفتن، وألوان الرذائل، ولا حسن كالعِفَّة والترفع فوق سوافل الأشياء.

. الأمانة ضرورة لتوليد الثقة بين أبناء الأمَّة، كما أنها تعلو بالهمم باتجاه الشعور بالمسؤولية، وحملها بكل جدارة، وإذا اقترنت بالقوَّة . وهو مطلب للشباب سبق ذكره . تصل بنا إلى ركني القيادة الناجحة المطلوبة، والتي وردت في الاية الكريمة: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ٢٦} [سورة القصص:26].

. الاعتداد بالنفس والعزَّة والكرامة، مفردات تحتاجها التربية للإعداد لجيل يصنع الاستقلال ويحرِّر الأرض والمقدسات، هذا في عصر الإبراهيمي، كما هو الحال في أيامنا هذه، لأن من كان في شخصيته مثل هذه

(1) المصدر نفسه ص 350.

المقوّمات فإنه لن يتهاون أو يتخاذل، وهو الملتزم دين الله تعالى الذي أبلغه في الاية الكريمة: {وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ } [سورة المنافقون:8] .

. والحب والسماحة، ركنان في الإسلام دين الرحمة، فالمحبة تشدّ وثاق المجتمع، وتعمِّم قاعدة التاخي في الله تعالى، والسماحة هي ما أصل إليه الإسلام قراناً وسنَّة لجهة قبول الاخر المسلم، والاخر الإنسان، والاخر أي معتقد ؛ شرط أن لا يتعدَّى على دين المسلمين أو أوطانهم وحقوقهم، قال الله تعالى: {لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨} [سورة الممتحنة:8].

. أما الحب فإنه أساس في العملية التربوية، وفي استجابة الشباب الذي يحب والديه وأساتذته لتوجيههم، فالقاعدة المأثورة تقول: المرء يطيع من يحب[1].

هـ الإبراهيمي وإعداد جيل الشباب:

إن الشباب هم الرأسمال البشري، صاحب الدور المتميّز في الأمَّة، والشباب يحتاج لإعداد خاص يؤهلهم باتجاه ما تنتظره أمَّتهم منهم، وهذا يتطلب التهذيب الأخلاقي، والتزوّد بالعلوم، والتمرين على دور نافع في مسار الأمة الحضاري. والأمَّة التي تهمل شبابها تكون قد فرَّطت بالعناصر الأَولى بالعناية، وهذا يهدِّد مستقبلها.

لقد وجَّه الإبراهيمي إلى هذا قائلاً: إن الأمَّة الرشيدة هي التي تحرس شبّانها في طور الشباب من الافات التي تصاحب هذا الطور، طور له ما بعده من زيغ أو استقامة، وتحافظ على أهوائهم أن تتجه اتجاهاً غير محمود، وتحافظ على عقولهم أن تعلق بها الخيالات، فتنشأ عليها، ويعسر أو يتعذَّر رجوعهم عنها، وتحافظ على ميولهم وعواطفهم أن تطغى عليها الغرائز الحيوانية، لأن هذا الطور هو طوار تنبُّهها ويقظتها[2].

إنها قراءة موضوعية لمرحلة الشباب واستعداداته، تحتاج العناية الكافية كي يصل الشاب إلى برِّ الأمان، وشبابنا في تصارع الأنواء، وهياج عواطف المغريات، يحتاج أوَّل ما يحتاج إلى الالتزام الديني، والالتزام القومي العربي الذي يعني الالتزام بالقيم الناظمة للمسار الحضاري للأمَّة، فهذا هو العامل الحاسم في تكوين شخصية الشاب المحصَّن، ضد ما ينشره الأعداء والخصوم من مفاسد، تبعث نوازع المادة على حساب القيم والضوابط والفضائل.

وينبِّه الإبراهيمي إلى هذا في قوله: إذا أحبَّ الشباب دينه وفضائل دينه ولغته وأسرار لغته، أحبَّ العرب جميعاً، وأصبح في نفسه دافع إلى الاجتماع في الدين والعروبة[3].

إن التوجيهات الانفة الذكر بشأن الشبان تتحقَّق بالرتبية، التي تتدرج في إعطاء التلامذة الجرعات التي ترتقي بالطلاب، ليكونوا شباب اليوم المستقيم ورجال الغد المأمول، بناء على ذلك اعتنى الإبراهيمي بالمنهاج والمقررات في هيكلية التعليم العربي في الجزائر الذي يقاوم مفاعيل التعليم الاستعماري، لأنه لكل منهج فلسفته ومنطلقاته،

(1) الملتقى الدولي ص 351.

(2) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (294/3).

(3) المصدر نفسه (301/5).

وما يكون في المناهج في الدورة الحضارية الإسلامية والعربية، هو حكماً غير تلك التي تكون في الدورة الحضارية الغربية، لذلك يكون الاستيراد خطيراً، كما أن التسليم بقيم التربية غير النابعة من هويَّة الأمة خطر داهم، هذا بالإضافة إلى الخطر الذي يتولَّد عن الانبهار بما عند غيرنا، لأن استيراد منتجات التقنية والالات مع الانفتاح على تجارب الشعوب أمر مقبول، أمَّا تسليم أجيالنا لمناهج تربوية غير أصيلة فيتهدَّدُ شبابنا وأجيالنا[1].

إنَّ المرحلة الأولى من التعليم عند الإبراهيمي تستغرق ستَّ سنوات، ومن تجاوز المرحلة الابتدائية هذه: يصبح صحيح التأدية للقراءة، طيّع اليد والقلم بالكتابة، محصِّلاً لمبادأئ الدين الإسلامي علماً وعملاً، ولمبادأئ التاريخ الإسلامي الذي هو جزء من الدين، وأول تلك المبادأئ: السيرة النبوية،ءْءْ وسيرة الخلفاء الراشدين، وذوي الاثار الخالدة من الصحابة والتابعين، فإن انقطع عن التعليم استطاع بمعونة حظه من العربية أن يبلغ ما شاء بالدراسة والمطالعة، لأنه يقرأ قراءة صحيحة ويفهم فهماً صحيحاً، وخرج على الحالين برأس مال عظيم من دينه وفضائل دينه، وقوميته ولغته وتاريخه، ونتيجة هذا أن يكون عضواً حقيقياً من أمَّته، صالحاً للحياة لها وبها ومعها[2].

ويكمل الإبراهيمي فيقول: إنَّ مراحل التعليم الابتدائي هي ـ بالأصول ـ مراحل التكوين الأولى للناشئة، وعلى أساسها يُبْنى مستقبلها في الحياة، فإن كان هذا التكوين صالحاً كانوا صالحين لأمتهم ولأنفسهم، وإن ناقصاً مختلاً زائفاً بنيت حياة الجيل كله على فساد، وساءت اثاره في الأمَّة[3].

إن مناهج التعليم الابتدائي ـ كما حدَّدها الإبراهيمي ـ تشكِّل ثوابت لا غنى عنها في تكوين شخصية الشاب الجزائري والعربي عموماً، كي يتأهل بعدها لاستكمال مراحل الدراسة أو كي يخرج إلى الحياة وإلى سوق العمل، ومع العمل يستطيع، بناء لهذا الزَّاد الذي تناوله في وجبة التعليم الابتدائي، يستطيع أن يواصل تحصيل المعارف بواسطة المطالعة وتمحيص الكتب، كي يرتفع بنيان علومه لبنة بعد أخرى.

والمرحلة التأسيسية يتوزَّع فيها التحصيل فيما يلي:

ـ إتقان العربية قراءة وكتابة.

ـ مبادأئ الدين الإسلامي وأساساته التي لا تتقوَّم الشخصية إلا بها.

ـ الاطلاع على السيرة النبوية الشريفة وسيرة الصحابة والسلف، فذلك يشكل موطن نظام القدوة الحسنة التربوي للناشئة.

ـ تحصيل العلم بالتاريخ العربي الإسلامي، ففيه العبر والدروس، ويحمل التراث، وينقل الخبرات إلى الأجيال، ويحقق التواصل، وكما قيل: التاريخ ذاكرة الأمم والشعوب.

ـ ما سبق ذكره من العلوم يثبِّت الانتماء، ويربط الشباب مع هويته، ويؤصِّل تكوينه ديناً وقوميَّة ووطنية، وهذا هو منطلق جمعية العلماء الذي حدَّدته بالإسلام، والعروبة، والوطنية الجزائرية.

(1) الملتقى الدولي ص 353.

(2) اثار الشيخ محمد البشير (109/2).

(3) الملتقى الدولي ص 353.

والشباب يحتاج مؤسسات الرعاية، ومواضع إبراز المواهب، وعند هذا لا يلبي المسجد بمفرده هذه الحاجة رغم أفضلية موقعه في فرائض المسلم، وارتباطه بالإسلام، فالمعلوم أن الشباب لهم هوايات وعواطف وانفعالات، وأوقات فراغ، وحاجات للتسلية وصرف الطاقات، لهذا عملت الجمعية، وفي قلبها الإبراهيمي، على تأسيس الأندية، فكما المسجد حاجة مسيسة للشيوخ وكبار السن، والحضانات والمدارس حاجة للأطفال والفتيان ؛ فإن الأندية حصن حصين للشباب إن قامت على التقوى، وسادتها القيم السامية، والأنماط الأخلاقية الفاضلة، هذا مع توفير ما يطلبه الشباب.

قال الإبراهيمي عن الأندية الشبابية: أنشأت الجمعية في مدَّة قصيرة عشرات النوادي في المدن والقرى، ودعت إليها الشبّان فاستجابوا وأقبلوا عليها لأنَّها أقرب إلى أمزجتهم، ولأن فيها شيئاً من التسلية والمرح، ولأن فيها قليلاً من جوّ المقهى.. وفي ظلِّ هذه الجواذب التقت الجمعية بالشبان، وقامت بحق الله فيهم، فنظمت لهم فيها محاضرات تهذب بها أخلاقهم، وتعرِّفهم بأنفسهم وقيمتهم ومنزلتهم في الأمَّة، وتجمع قوتهم، ودروساً تعلمهم بها دينهم ولغتهم وتاريخهم، فكان لمشروع النوادي اثار من الشباب تساوي اثار المدرسة في الأطفال، وتفوق اثار المساجد في الشيوخ والكهول[1].

إنَّ نوادي جمعية العلماء التي يشير إليها الإبراهيمي تشكِّل ضرورة تربوية، وفقدانها أو عدم وجودها سيخلف مشكلة، والمتفحِّص لشوارع المدن في الوطن العربي وسواه ؛ يعرف أهمية ما قررَّته جمعية العلماء، حيث نجد مقاهي شبكة المعلومات الدولية، وأماكن تسلية أخرى تعجُّ بالمفاسد وبعوامل الانحدار والانحراف، ولو أقامت الحكومات والمؤسسات الأهلية أندية كما فعلت جمعية العلماء لكانت أدَّت للشباب حقوقه، وعصمته من الزلل والانحرافات، التي تدفع الأوطان والأسر الثمن غالياً عندما يجنح الأحداث أو الشباب.

ولكن الإبراهيمي يكمل توجيهاته الحكيمة للشباب، حتى يدعوهم إلى الوسطية والاعتدال والابتعاد عن الغلو، ونجده يوجِّههم إلى تخصيص قدر من الوقت لكل نشاط بدني أو فكري بعد إتمام الواجبات المناطة بالفرد، ويقول للشباب: لا تقطعوا الفاضل من أوقاتكم في ذرع الأزقة إلا بمقدار ما تستعيدون به النشاط البدني، ولا في الجلوس في المقاهي إلا بقدر ما تدفعون به الملل والركود، ولا في قراءة الجرائد إلا بقدر ما تطّلعون به على الحوادث الكبرى.. خذوا من كل ذلك بمقدار، ووفروا الوقت كله للدرس النافع والمطالعة المثمرة[2].

إنَّ حاجات الشباب متنوعة خارج إطار العمل أو الدراسة، ولا بأس أن يخفف الشباب عن نفسه، ويروِّح في وقت بعد اخر، وضمن الحدود المقبولة، وقد أرشد إلى ذلك الحديث النبوي الشريف الذي جاء فيه: «روِّحوا عن النفس ساعة فساعة».

والإبراهيمي الذي امن بضرورة السعي لتحصيل المعارف عمل بشكل مستمر التزاماً بالقول المأثور: «اطلب العلم من المهد إلى اللحد». وهذا التحصيل لا يكون في قاعات المدارس والمعاهد والجامعات، وإنما له مصدر

(1) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (173/4 . 174).

(2) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (203/3).

اخر أولى بالاعتماد من قبل الشباب، هذا المصدر هو المطالعة. ويشخِّص الإبراهيمي الدَّاء ويصف العلاج، فيقول: إنَّ شبابنا المتعلِّم كسول عن المطالعة، والمطالعة نصف العلم أو ثلثاه، فأوصيكم يا شباب الخير بإدمان المطالعة والإكباب عليها، ولتكن مطالعتكم بالنظام، حرصاً على الوقت أن يضيع في غير طائل، وإذا كنتم تريدون الكمال فهذه إحدى سبل الكمال.

تأسيساً على ما تقدَّم نخلص إلى أن الإبراهيمي يحدِّد القواعد لإعداد الجيل بما يلي:

. الإعداد السليم من جهة الالتزام الديني.

. المناهج التعليمية التي تسهم في تكوين شخصية الناشئة مع التحصين من الزيغ والأهواء والمغريات.

. توفير الرعاية الدائمة للشباب بعد الخروج إلى سوق العمل أو قبله، وهذا يحتاج إلى المرافق العامة التي توفِّر له فرص الترويح عن النفس، وقضاء أوقات الفراغ بما هو مفيد، وبما يبعده عن شواطأئ الخطر، ومنزلقات الفساد.

. تنبيه المواهب والمعارف بالمطالعة ومتابعة البحث، لأن التحصيل والاكتساب من الأمور التي يحتاجها الفرد من المهد إلى اللحد.

. تفعيل العمل المؤسسي الأهلي، كي توظف من خلاله الطاقات المتطوعة من أجل الصالح العام، وفي رحابه يتم صقل شخصية الفرد، وتتم رعاية مواهبه، وتنمية ملكاته كي تتفتَّح له سبل الإبداع والعطاء دون حواجز أو معوقات[1].

إن الإمام محمد البشير الإبراهيمي يرى أن: الشباب في كل أمَّة هم الدم الجديد الضامن لحياتها واستمرار وجودها، وهم الامتداد الصحيح لتاريخها، وهم الورثة الحافظون لماثرها، وهم المصحِّحون لأغلاطها وأوضاعها المنحرفة، وهم الحاملون لخصائصها إلى من بعدهم من الأجيال[2].

وقال الإبراهيمي منادياً الشباب: يا شباب الإسلام!. وصيَّتي إليكم أن تتَّصلوا بالله تديناً، وبنبيكم اتباعاً، وبالإسلام عملاً، وبتاريخ أجدادكم اطلاعاً، وباداب دينكم تخلقاً، وباداب لغتكم استعمالاً، وبإخوانكم في الإسلام ولداتكم في الشبيبة اعتناءً واهتماماً، فإن فعلتم حزتم في الحياة الحظ الجليل ومن ثواب الله الأجر الجزيل[3].

7 . اهتمامه بالمرأة:

كان وضع المرأة الجزائرية في أوائل القرن العشرين متخلفاً للغاية، فأبواب التعليم موصدة في وجهها، ومشاركتها في المجتمع لم تتعد دور ماكينة الأولاد، بالإضافة إلى بعض الأعمال الإنتاجية البدائية، كغزل الصوف، ونسج البرانس، ومساعدة الرجل في الريف في أعماله الزراعية، وما عدا ذلك فقد كان يخيم على وضعها الاجتماعي جو قاتم، فلا رأي لها في الزواج، وكانت تعاني من اثار الطلاق.

---

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 356.

(2) اثار الإمام محمد البشير (120/4).

(3) اثار الإمام محمد البشير (121/4).

وكان للحركة الإصلاحية الجزائرية التي قادها عبد الحميد بن باديس ـ والبشير الإبراهيمي من بعده ـ رأيها في الموضوع، فكانت الحركة الإصلاحية ترى بأن التعليم والتعليم الوطني والديني على الخصوص هو المدخل الأول لتحرير المرأة، وأن الحجاب لا يقف عائقاً أمام تطورها، وفي ذلك يقول ابن باديس: إذا أردتم إصلاحها الحقيقي فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها، فإن حجاب الجهل هو الذي أخرها، وأما حجاب الستر فإنه ما ضرها في زمان تقدمها، فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة وبنات بجاية مكاناً عالياً في العلم، وهنَّ متحجبات، فليت شعري ما الذي يدعوكم اليوم إلى الكلام في كشف الوجوه قبل كل شيء[1].

إن جمعية العلماء بقيادة العالمين ابن باديس والإبراهيمي سارت في المجال الاجتماعي بخطى متقدمة، ونظرت إلى المرأة كعنصر مهم في نهضة الجزائر والتصدي للمشروع الفرنسي الاحتلالي، وذلك من خلال تعليمها وتهذيبها، وغرس مفاهيم الحشمة والفضيلة والصيانة في نفوس الفتيات المقبلات على التعليم في مدارسها. وعمل الإبراهيمي على توجيه المجتمع نحو قيم القران الكريم وتعاليمه في شؤون الحياة، ومنها الاجتماعية، فتحدث عن الزواج والصداق والطلاق.

أ ـ الزواج:

ورأيه في هذه القضية يتمثل في ضرورة الحث على الزواج في الوقت المناسب، ويقول في هذا الشأن:
حتى لا يضيع على الجنسين ربيع الحياة، ونسماته وأزهاره وبهجته وقوته، ويضيع على الأمَّة نبات ذلك الربيع وثمر الخصب، والنماء والزكاء فيه، ثم تضيع بسبب ذلك أخلاق وأعراض وأموال، وإذا زادت هذه الفاشية فشواً، واستحكم هذا التقليد الفاسد ؛ فإن الأمَّة تتلاشى في عشرات السنين[2].

ويقصد بالتقليد الفاسد إعراض الشباب عن الزواج. وحين كان الإبراهيمي يدعو إلى الزواج المبكر والتناسل، كان واعياً جداً بالمراحل الصعبة التي كان يمر بها المجتمع الجزائري، والتي تميزت بارتفاع معدل الوفيات عند الأطفال والشيوخ، نتيجة الجوع والمرض والفقر، إضافة إلى عمليات التقتيل والنفي والتشريد والضياع والهجرة التي كان يمارسها الاستعمار الفرنسي بالجزائر، حيث لم يتجاوز عدد السكان يوم دخول الاستعمار الفرنسي، و لم يكن بعيداً عن هذا التقدير، إضافة إلى ما كانت تدفع به الثورات والانتفاضات الجزائرية المتتالية من الشباب من أعداد هائلة من الشهداء من أجل الحرية والاستقلال[3].

ب ـ في الصداق:

غير أنه بقدر ما كان يحث على الزواج المبكر، بقدر ما كان مدركاً للأسباب والعوامل التي تبعد التفكير في الزواج عند الشباب، لقد كان ينتقد كثيراً أولئك الاباء الذين يغالون في مهور بناتهم، يقول: لو أننا وقفنا عند حدود الله، ويسرنا ما عسرته العوائد من أمور الزواج ؛ لما وقعنا في هذه المشكلة، ولكننا عسّرنا وحكّمنا

(1) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، د . أحمد الخطيب ص 232.
(2) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 90.
(3) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 90.

العوائد، والعجائز القواعد، في مسألة خطيرة كهذه، فأصبح الزواج الذي جعله الله سكناً وإلفة ورحمة ؛ سبيلاً للقلق والبلاء والشقاء، وأصبح اللقاء الذي جعله الله عمارة بيت، وبناء أسرة ؛ خراباً لبيتين، بما فرضته العوائد في مغالاة المهور، وتفتن في النفقات والمغارم[1].

وعمل الإبراهيمي على مساعدة الراغبين في الزواج بشكل عملي وتنظيمي، بالإشراف على زواج معظم الفتيات المتعلمات بمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، ومدن أخرى غيرها، على أساس مهور رمزية تمثلت في كثير من الحالات يكتب شعر وأدب وتربية، ومصاحف قرانية، وهدايا رمزية قدر المستطاع، ولعل أكثر هذه الزيجات نجاحاً في بلادنا، هي هذه الزيجات، كما أثبتت الأيام فيما بعد.. لأنها لم تبن على المصالح المادية، بل بنيت على البر والتقوى والمودة والرحمة من جهة، وحافظت على صحة البنية الاقتصادية للأسرة من جهة أخرى.

وقد استمر العمل بهذا القرار الحكيم حتى أيام الكفاح المسلح، حيث بقي الصداق رمزياً عند زواج المجاهدين والمجاهدات، لقد كان سابقاً عصره في تقديس الحياة الأسرية بوصفها القاعدة الصلبة والأساسية لبناء المجتمعات، وكان يعمل مصلحاً وواعظاً على المستوى الفردي والجماعي، على الارتفاع بمستوى هذه الأسرة وتفتحها وازدهارها، فكان التوافق الاجتماعي والفكري من أهم الشروط التي يطلب احترامها عندما يتدخل إيجابياً، وكالأب الروحي العطوف في زواج المجاهدين والمجاهدات، وزواج الأساتذة والمعلمين بالمدارس الحرة، كانت الأسرة بالنسبة إليه من أسس نهضة المجتمع الجزائري، والمرأة فيها يجب أن تكون من شروط القيادة الأسرية لتربية الجيل وتهذيب النشء.

في وقت كانت فيه الفتاة تباع وتشترى في سوق المزايدة، خصوصاً داخل بعض الأسر التي تغلبت عليها الروح المادية والإقطاعية والبرجوازية، فكان أن وجد لدى معظم الأسر من عامة الناس. خصوصاً في مدينة قسنطينة . الاستجابة الكاملة لارائه ووصاياه الإصلاحية تجاه تعليم البنت، واحترام إنسانيتها في الزواج، فكانت هذه أولى الخطوات في تطبيق المبادأئ الاجتماعية السليمة والمطلوبة في إنشاء مجتمع سليم[2].

ج . رأيه في الطلاق:

أما في القضية الثالثة وهي الطلاق: فإنه يبني رأيه فيها على الحديث الشريف: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»، ويقول: الطلاق حل عقدة، وبتّ حبال، وتمزيق شمل وزيال خليط، وانفضاض سامر، فيه كل ما في هذه المركبات الإضافية التي استعملها شعراء العرب، وجرت في ادابهم العاطفية مجرى الأمثال، من التياع وحرارة، وحسرة ومرارة، ويزيد عليها جميعاً بمعنى اخر وهو ما يصحبه من الحقد والبغض والتألم والتظلم[3].

إنه رأي مبني على الوضعية الأسرية المتردية التي كان يشاهدها يومياً ككاتب مفكر وحكيم مصلح، حيث يتفشى الإهمال العائلي، والتفكك الأسري، واليتم والتشرد وانحراف الأحداث، نتيجة نظرة استعبادية متخلفة

(1) المصدر نفسه ص 91.

(2) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص .92.

(3) المصدر نفسه ص 92.

للمرأة من جهة وللأسرة ودورها القيادي في المجتمع من جهة أخرى، كحالة من حالات التخلف الاجتماعي التي فرضها المستعمر.

هكذا كان الإبراهيمي.

الكلمة الصادقة التي لا تبلى فيها جدة، والكلمة المخلصة النابضة أبداً، والكلمة المنهج الرشيد شامخة وارفة الظل، دانية القطوف.

كان فريداً بين علماء الإسلام، ولكنه نمط ليس غريباً، لأنه جمع في نسق واحد بين القيادة والزهادة والنزاهة، بين علوم الشريعة وعلوم اللسان والمعرفة بالسير والأخبار، ومذاهب أهل الفرق والديانات، وجاءت كتاباته الوافرة متنوعة الفنون متشعبة المقاصد، حتى أنه عالج كل الموضوعات الإنسانية والحضرية.

وهكذا يتراءى لنا أنه كان يعيش حياة قومه متكاملة، ويتفاعل معها سواء في مجال العلم والأدب، أو الفكر والسياسة، وكان دوماً متطلعاً إلى الأحسن، يخلق كل مرة افاقاً جديدة بفكره وعلمه، باحثاً دوماً عن صيغ جديدة لحياتنا الفكرية، صيغ تجمع بين أصالة ثقافية بمقوماتها الأساسية، ومعاصرة تجعلنا جزءاً من زماننا فكراً وجسداً، وذلك بالاجتهاد والتنقيب في الموروث من تراثنا الحضاري، لنأخذ جزأه العاقل المبدع الخلاق وننبذ جزأه الخامل البليد.. ونتحول من حضارة اللفظ إلى حضارة الفعل[1].

8 . رأيه في علماء الدين:

يرى الإمام الإبراهيمي أنه لا توجد في الإسلام «وظيفة» أشرف قدراً، وأسمى منزلة، وأرحب أفقاً، وأثقل تبعة، وأوثق عهداً، وأعظم أجراً عند الله من وظيفة العالم الديني، لأنه وارث لمقام النبوة، واخذ بأهم تكاليفها، وهو الدعوة إلى الله، وتوجيه خلقه إليه، وتزكيتهم وتعليمهم، وترويضهم على الحق حتى يفهموه ويقبلوه، ثم يعملوا ويعملوا له.

فالعالم بمفهومه الديني في الإسلام، قائد، ميدانه النفوس، وسلاحه الكتاب والسنة وتفسيرها العملي من فعل النبي (ص) وفعل أصحابه، وعونه الأكبر على الانتصار في هذا الميدان ؛ أن ينسى نفسه ويذوب في المعاني السامية التي جاء بها الإسلام، وأن يطرح حظوظها وشهواتها من الاعتبار، وأن يكون حظه من ميراث النبوَّة أن يزكّي ويعلّم، وأن يقول الحق بلسانه ويحققه بجوارحه، وأن ينصره إذا خذله الناس، وأن يجاهد في سبيله بكل ما اتاه الله من قوَّة.

ويرى الإبراهيمي أن الوسيلة الكبرى في نجاحه في هذه القيادة هي أن يبدأ بنفسه في نقطة الأمر والنهي، فلا يأمر بشيء مما أمر به الله ورسوله حتى يكون أول فاعل له، ولا ينهى عن شيء مما نهى الله ورسوله عنه ؛ حتى يكون أول تارك له.

(1) المصدر نفسه ص 93.

كل ذلك ليأخذ عنه الناس بالقدوة والتأسي أكثر مما يأخذون عنه بوساطة الأقوال المجرَّدة، والنصوص اللفظية، لأن تلاوة الأقوال والنصوص لا تعدو أن تكون تبليغاً، والتبليغ لا يستلزم الاتباع، ولا يثمر الاهتداء ضربة لازم، ولا يعدو أن يكون تذكيراً للناس، وتبكيتاً للقاسي، وتنبيهاً للخامل، وتعليماً للجاهل، وإيقاظاً للخامل، وتحريكاً للجامد، ودلالة للضال.

أما جرّ الناس إلى الهداية بكيفية تشبه الإلزام ؛ فهو في التفسيرات العملية التي كان المرشد الأول يأتي بها في تربيته لأصحابه، فيعلمهم بأعماله أكثر مما يعلمهم بأقواله، لعلمه وهو سيد المرسلين بما للتربية العملية من الأثر في النفوس، ومن الحفز إلى العمل بباعث فطري في الاقتداء، وقد رأى مصداق ذلك في واقعة الحديبية حين أمر أصحابه بالقول فتردَّدوا مع أنهم يعلمون أنه رسول الله، وأنه لا ينطق عن الهوى، ثم عمل فتتابعوا في العمل اقتداء به وكأنهم غير من كانوا.

كان الصحابة لاستعدادهم القوي لتحمُّل الإسلام بقوة يحرصون على أخذ همات العبادات من فعله (ص)، كما يحرصون على التمثُّل بأخلاقه والتقليد له في معاملته لله، ومعاملته لخلقه، وعلى التأسي به في الأفعال والترك في شؤون الدين والدنيا، لعلمهم أن الفعل هو المقصد والثمرة، وأن الأقوال في معظم أحوالها إنما هي أدوات شرح وقوالب تبليغ والات أمر ونهي، ووسائل ترغيب وترهيب، وأن في قول قائلهم: أنا أشبهكم صلاة برسول الله لدليلاً على تغلغل هذه النظرة في مستقرِّ اليقين من بصائرهم، وأنهم كانوا يتشدَّدون في أخذ الصور العملية من أفعاله (ص) كما هي، ويتحرجون من التقصير فيها، ومرماهم في ذلك أن العمليات المأخوذة من طريق العيان أقرب إلى اليقين وموافقة مراد الله منها، وبذلك تتحقق اثارها في النفوس.

وقد كانوا يفهمون العبادة بهذا المعنى: أن تعبد الله كما شرع على الوجه الذي شرع، فالكيفيات داخلة في معنى التعبُّد، لذلك لم يُحدث السلف زوائد على العبادات من أذكار وغيرها بدعوى أنها زيادة في الخير، كما عمل الخلف، وكانوا يفهمون يسر الدين بمعناه السامي وهو أنه لا إرهاق فيه ولا إعنات، وأنه ليس في المقادير الزائدة عن إقامة التكاليف أو في المعاذير الصحيحة العارضة للتكاليف ـ لا كما نفهمه نحن ـ تساهلاً وتطفيفاً[1].

فهمَ علماء السلف الإسلام كاملاً بعقائده وعباداته وأحكامه وأخلاقه، وفهموا ما بين هذه الأجزاء من الترابط والتماسك ووحدة الأثر والتأثير، وأنها ـ في حقيقتها ـ شيء واحد، هو الدين، وهو الإسلام، وأن ضياع بعضها مؤذن بضياع سائرها، أو هو ذريعة له، فلا يقوم دين الله في أرضه إلا بإقامة جميعها، وإذا قال القران: {أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ} [سورة الشورى:13] فمعناه إقامة جميعها، وأنه ليس من هذا الدين أن يصلي المسلم ثم يكذب، ولا أن يذكر الله ثم يحلف به حانثاً باللسان الذي ذكره به متقرباً إليه، ولا أن يمسك عن الطعام، ثم يأكل لحوم الخلق، ولا أن يخاطب ربه: {إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥} [سورة الفاتحة:5] ثم يتوجه إلى غيره عابداً ومستعيناً فيما هو من خصائص الألوهية، ولا أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه، ولا أن

(1) المصدر نفسه (110/4).

يأمر الناس بالجهاد ثم يرضى لنفسه أن يكون مع الخوالف، أو ببذل المال في سبيل العلم ثم يقبض يديه كأنه خارج من التكليف، أو بالبر وينسى نفسه، ولا أن يترخَّص في الحق إرضاءً لغويّ أو غنيّ، ولا أن يؤخِّر كلمة الحق عن ميقاتها حتى يضيع الحق[1].

أ ـ رأيه في العلماء السابقين:

كان كل واحد منهم يرى أنه مستحفظ على كتاب الله ومؤتمن علىسنَّة رسوله، في العمل بها وتبليغها كما هي، وحارس لهما أن يحرفهما الغالون أو يزيغ بهما عن حقيقتهما المبطلون، أو يعبث بهما المبتدعة، فكل واحد حذر أن يؤتى الإسلام من قبله، فهو ـ لذلك ـ يقظ الضمير، متأجج الشعور، مضبوط الأنفاس، دقيق الوزن، مرهف الحس، متتبع لما يأتي الناس وما يذرون من قول وعمل، سريع الاستجابة للحق إذا دعا إليه داعيه، وإلى نجدته إذا ريع سربه أو طرق بالسر حماه.

وكانوا يأخذون أنفسهم بالفزع لحرب الباطل لأول ما تنجم ناجمته، فلا يهدأ لهم خاطر حتى يوسعوه إبطالاً ومحواً، ولا يسكتون عليه حتى يستشري شرَّه ويستفحل أمره، فتستغلظ جذوره، ويتبوَّأ من نفوس العامة مكاناً مطمئناً.

وكانوا يذكرون دائماً عهد الله، وأنه أخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق، وأن الحق هو ما جاء به محمد عن ربه لهداية البشر وصلاح حالهم، وكانوا يزنون أنفسهم دائماً بميزان الكتاب والسنة، فما وجدوا من زيغ أو عوج قوَّموه في الحال بالرجوع والإنابة، كما يفعل المفتونون بالجسمانيات في عصرنا هذا في وزن أبدانهم كل شهر.

وكان العلماء يردُّون كلَّ ما اختلفوا فيه من كل شيء إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا إلى قول فلان، ورأي فلان، فإذا هم متَّفقون على الحق الذي لا يتعدد، ولقد أنكر الإمام مالك على ابن مهدي ـ وهو قرينه في العلم والإمامة ـ عزمه على الإحرام من المسجد النبوي، فقال ابن مهدي: إنما هي بضعة أميال أزيدها. فقال مالك: أو ما قرأت قوله تعالى:{فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣} [سورة النور:63] ؟

وأية فتنة أعظم من أن تسوِّل لك نفسك أنك جئت بأكمل مما جاء به رسول الله (ص)؟ أو كلاماً هذا معناه.. ثم تلا قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة:3]، وقال كلمته الجامعة التي كان عليها لالاء الوحي، وهي قوله: «فما لم يكن يومئذ ديناً فليس اليوم بدين».

وكانوا يحكمون دينهم في عقولهم، ويحكمون عقولهم في ألسنتهم، فلا تصدر الألسنة إلا بعد مؤامرة العقل، ويعدون العقل مع النص أداة للفهم معزولة عن التصرُّف، ومع المجملات ميزاناً للترجيح، يدخل في حسابه المصلحة والضرورة والزمان والمكان والحال، ويميز بين الخير والشر، وبين خير الخيرين، وشر الشر الشرّين، لذلك غلب صوابهم على خطئهم في الفهم والاجتهاد، ولذلك أصبحت فهومهم للدين وسائل للوصول إلى الحق،

(1) المصدر نفسه (111/4).

واراؤهم في الدنيا موازين للمصلحة، وما هم بالمعصومين، ولكنهم لوقوفهم عند الحدود وارتياض نفوسهم على إيثار رضى الله، وشعورهم بثقل عهده، وفّقهم الله لإصابة الصواب.

وكانوا يزنون الشدائد التي تصيبهم في الطريق إلى إقامة دين الله بأجرها عنده، ومثوبتها في الدار الاخرة، لا بما يفوتهم من أعراض الدنيا وسلامة البدن وخفض العيش وراحة البال، فكل ما أصابهم من ذلك يعدُّونه طريقاً إلى الجنة ووسيلة إلى إرضاء الله، وكانوا ملوكاً على الملوك، واقفين لهم بالمرصاد، لا يقرونهم على باطل ولا منكر، ولا يسكتون لهم على مخالفة صريحة للدين، ولا يتساهلون معهم في حق الله، ولا يترضونهم فيما يسخط الله.

بتلك الخلال التي دللنا القارئ عليها، باللمحة المنبِّهة، قادوا الأمَّة المحمَّدية إلى سعادة الدنيا وسعادة الاخرة، وبسير الأمراء المصلحين على هداهم سادوا أغلب الجزء المعمور من هذه الأرض بالعدل والإحسان، إذ كان الأمير في السلم لا يصدر إلا عن رأيهم، والقائد في الحرب لا يسكن ولا يحرِّك إلا بإشارتهم في كل ما يرجع إلى الدين، فجماع أمر العلماء إذ ذاك أنهم كانوا «يقودون القادة».

ما رفعهم إلى تلك المنزلة بعد العلم والإخلاص، إلا أنهم كانوا «حاضرين» غير «غائبين»، كانوا يحضرون مجالس الرأي مبشرين شاهدين، وميادين الحرب مغيرين مجاهدين، طبعهم الإسلام على الشجاعة بقسميها: شجاعة الرأي وشجاعة اللقاء، فكانوا يلقون الرأي شجاعاً فيقهر الاراء، ويخوضون الميادين شجعاناً فيقهرون الأعداء. وللاراء اقتتال يظفر فيه الشجاع القوي، كما للأناسي اقتتال يظفر فيه الشجاع القوي، والعالم الجبان في أمة عضو أشلّ، يؤود ولا يذود، ولعمري إن في اتحاد صف الصلاة وصف القتال، في الاسم والاتجاه والشرائط لموقف عبرة للمتوسمين.

صدق أولئك العلماء ما عاهدوا الله عليه، وفهموا الجهاد الواسع، فجاهدوا في جميع ميادينه، فوضع الله القبول في كلامهم عند الخاصة والعامة، وإن القبول جزاء من الله على الإخلاص، يعجله لعباده المخلصين، وهو السر الإلهي في نفع العالم والانتفاع به، وهو السائق الذي يَدُعُّ النفوس المدبرة عن الحق إلى الإقبال عليه، ونفوذ الرأي وقبول الكلام من العالم الديني الذي لا يملك إلا السلاح الروحي، هو الفارق الأكبر بين صولة العلم وصولة الملك.

وهو الذي أخضع صولة الخلافة في عنفوانها لأحمد بن حنبل، وأخضع صولة الملك في رعونتها للعز بن عبد السلام، وإن موقف هذين الإمامين من الباطل لعبرة للعلماء لو كانوا يعتبرون، وإن في عاقبتهما الحميدة لاية من الله على تحقيق وعده بالنصر لمن ينصره.

نصر الله أولئك الرجال الذين كانوا يوم الرأي صدور محافل، ويوم الروع قادة جحافل، وفي التاريخ محققين لنقطة الاقتراب، بين الحرب والمحراب، ولقد كانوا يقذفون بكلمة الحق مجلجلة على الباطل، فإذا الحق ظاهر وإذا الباطل نافر، ويقذفون بعزائمهم في مزدحم الإيمان والكفر، فإذا الإيمان منصور، وإذا الكفر مكسور، ووصل الله ما انقطع منا بهم بإحياء تلك الخلال، فما لنا من فائت نتمنى ارتجاعه أعظم من بعث تلك الشجاعة، فهي أعظم ما أضعنا من خصالهم، وحرمناه ـ بسوء تربيتنا ـ من خلالهم.. ولعمري إن تلك القوى

لم تمت، وإنما هي كامنة، وإن تلك الشعل لم تنطفأئ، فهي في كنف القران امنة، وما دامت نفحات القران تلامس العقول الصافية، وتلابس النفوس الزكية؛ فلا بدَّ من يوم يتحرَّك فيه العلماء، فيأتون بالأعاجيب، وما زلنا نلمح وراء كل داجية في تاريخ الإسلام نجماً يشرق، ونسمع بعد كل خفتة فيه صوتاً يخرق، من عالم يعيش شاهداً، ويموت شهيداً، ويترك بعده ما تتركه الشمس من شفق، يهدي السارين المدلجين إلى حين.

وما علمنا فيمن قرأنا أخبارهم وتقفينا اثارهم من علماء الإسلام، مثلاً شروداً في شجاعة النزال بعد الحافظ «الربيع بن سالم» عالم الأندلس، بل أعلم علمائها في فقه السنّة لعصره، فقد شهد وقعة تعدّ من حوامد الأعمار، فبذ الأبطال المساعير، وتقدم الصفوف مجلّياً ومحرّضاً والحرب تقذف تياراً بتيار، حتى لقي ربه من أقرب طريق.

ولا علمنا فيهم مثالاً في شجاعة الرأي العام أكمل من الإمام أحمد بن تيمية . وعصراهما متقاربان . فقد شنَّها حرباً شعواء على البدع والضلالات، أقوى ما كانت رسوخاً وشموخاً، وأكثر اتباعاً وشيوخاً يظاهرها الولاة القاسطون، ويؤازرها العلماء المتساهلون المتأوِّلون.

وقد ادَّخر الله لهذا العصر الذي تأذن فجر الإسلام فيه بالانبلاج، الواحد الذي بذ الجميع في شجاعة الرأي والفكر وقوة العلم والعقل، وجرأة اللسان والقلب، وهو محمد عبده، فهز النفوس الجامدة وحرَّك العقول الراكدة، وترك دوياً ملأ سمع الزمان، وسيكون له شأن[1].

ب . رأيه في علماء عصره:

وأما علماء الخلف فهم أقل من أن تسمِّيهم علماء دين، وأقل من أن تسميهم علماء دنيا. أما الدين فإنهم لم يفهموه على أنه نصوص قطعية من كلام الله، وأعمال وأقوال تشرح تلك النصوص من كلام رسول الله (ص) وفعله، ومقاصد عامة تؤخذ من مجموع ذلك ويرجع إليها فيما لم تفصح عنه النصوص، وفيما يتجدد بتجدُّد الزمان، لم يفهموه على أنه عقائد يتبع العقل فيها النقل، وعبادات كملت بكمال الدين، فالزيادة فيها كالنقص منها، وأحوال نفسية صالحة هي أثر تلك العقائد والعبادات، واداب تصلح المعاملة وتصحِّحها بين الله وعباده، وبين العباد بعضهم مع بعض، بل فهموا الدين وأفهموه على أنه صور مجرَّدة خالية من الحكمة، وحكّموا فيه الاراء المتعاكسة والأنظار المتباينة من مشايخهم، حتى انتهى بهم الأمر إلى إطراح النصوص القطعية إلى كلام المشايخ، وإلى سدِّ باب الفكر بالتقليد، وتناول حقائق الدين بالنظر الخاطأئ والفهم البعيد. والفكر كالعقل نعمة من نعم الله على هذا الصنف البشري، فالذي يعطله أو يحجر عليه جانٍ مجرم، كالذي يعطل نعمة العقل، ولعمري إن سدَّ باب الاجتهاد لأعظم نكبة أصابت الفكر الإسلامي، وأشنع جريمة ارتكبها المتعصبون للنزعات المذهبية.

وأما الدنيا فليسوا علماء دنيا بالمعنى الأعلى لهذه الكلمة، وهو أن يعالجوا الكسب بطرق علمية، ويدرسوا وسائل الثراء بعزائم صادقة، ويضربوا في الأرض لجمع المال بكد اليمين وعرق الجبين، وأما المعنى السخيف

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (113/4).

لهذه الكلم فهم أوفر الناس حظاً منه، فهم يطلبون المعيشة بأخس وسائلها، فيحصلون منها على فتات الموائد يشترونه بدينهم وماء وجوههم، هانوا على أنفسهم فهانوا على الله وعلى الناس، فرضوا بالدون والهون[1].

. بداية التفكك:

نعني بعلماء الخلف هذه العصابة التي نشهد اثارها ونسمع أخبارها، ونحدِّدها تحديداً زمنياً بمبدأ المائة العاشرة للهجرة، من يوم بدأت الشعوب الإسلامية في التفكُّك والانهيار، ولم يظهر لهؤلاء العلماء أثر في دفع البلاء قبل إعضاله، بل كانوا أعواناً له وكانوا بعض أسبابه، وإنما نحدد هذا التحديد متساهلين وإن كان المرض ممدود الجذور إلى ما قبل ذلك الحد من القرون، ولكن المرض لم يصل إلى درجة الإعضال إلا في المائة العاشرة وما بعدها[2].

إن الناظر في تاريخ العلم الديني الإسلامي يرى أن طوره الأول كان علماً متيناً، وعملاً متيناً، وأن طوره الوسط كان علماً سميناً وعملاً هزيلاً، وأما طوره الثالث والأخير فلا علم ولا عمل، إنما هو تقليد أعمى ونقل أبكم، وحكاية صماء، وجفاف جاف، وجمود جامد، وخلاف لا يثبت به حق، ولايُنفى به باطل، ولا تتمكن به عقيدة، ولا تثبت عليه عزيمة، ولا تقوى عليه إرادة، ولا تجتمع معه كلمة، ولا ينتج فيه فكر، ولا تستيقظ معه عزة، ولا تثور كرامة، ولا تتنبَّه رجولة ولا نخوة، لأن الشخصية فيه موءودة، والروح المستقلة معه مفقودة، إنما هو تواكل يسمُّونه توكلاً، وتخاذل يسكّنونه بالحوقلة والاسترجاع، وخلاف ممزِّق لأوصال الدين يسمُّونه رحمة[3].

لقد أذل الطمع أعناق علماء الخلف، وملكت «الوظيفة» عليهم أمرهم، وجرّت عليهم الأوقاف المذهبية كل شر، فهي التي مكَّنت لنزعة التقليد في نفوسهم، وهي التي قضت على ملكة النبوغ واستقلال الفكر فيهم، وهي التي طبعتهم على هذه الحالة الذميمة وهي معرفة الحق بالرجال، وهي التي ربطتهم حتى في أحكام الدنيا وأوجه الحياة بالقرن الثاني لا في قوَّته وعزَّته وصولته، بل في حبس ركاب عنده، وتعطيل دوران الفلك العقلي بعده، ولذلك لم يسايروا الزمن ولم يربطوا بين حلقاته، فعاشوا بأبدانهم في زمن، وبأذهانهم في زمن، وبين الزمنين أزمنة، تحرَّكت وهم ساكنون، ونطقت وهم ساكتون[4].

ج . خطابه إلى علماء عصره:

أرأيت لو كان علماء الدين قائمين بواجب التذكير بالقران، مؤدِّين لأمانة الله، راعين لعهده في أمة واحدة، أكانت الأمة الإسلامية تصل إلى هذه الدركة التي لم تصل إليها أمة؟ فهي كثيرة العدد تبلغ مئات الملايين ولكنها غثاء كغثاء السيل.

---

(1) المصدر نفسه (114/4).

(2) المصدر نفسه (115/4).

(3) المصدر نفسه (115/4).

(4) المصدر نفسه (115/4).

واجب العالم الديني أن ينشط إلى الهداية كلما نشط الضلال، وأن يسارع إلى نصرة الحق كلما رأى الباطل يصارعه، وأن يحارب البدعة والشر والفساد قبل أن تمدَّ وتبلغ أشُدَّها، وقبل أن يتعوَّدها الناس، فترسخ جذورها في النفوس ويعسر اقتلاعها.

وواجبه أن ينغمس في الصفوف مجاهداً ولا يكون مع الخوالف والقعدة، وأن يفعل ما يفعله الأطباء الناصحون من غشيان مواطن المرض لإنقاذ الناس منه، وأن يغشى مجامع الشرور لا ليركبها مع الراكبين بل ليفرِّق اجتماعهم عليها.

وواجبه أن يطهِّر نفسه قبل ذلك كله من خلق الخضوع للحكَّام والأغنياء، وتملقهم طمعاً فيما في أيديهم، فإن العفَّة هي رأس مال العالم، فإذا خسرها فقد خسر كل شيء وخلفها الطمع فأرداه.

إن علماء القرون المتأخرة ركبتهم عادة من الزهو الكاذب والدعوى الفارغة، فجرّتهم إلى اداب خصوصية، منها أنهم يلزمون بيوتهم أو مساجدهم كما يلزم التاجر متجره، وينتظرون أن يأتيهم الناس فيعلموهم، فإذا لم يأتهم أحد تسخَّطوا على الزمان وعلى الناس، ويتوكؤون في ذلك على كلمة إن صدقت في زمان، فإنها لا تصدق في كل زمان وهي: إن العلم يؤتى ولا يأتي. وإنما تصدق هذه الكلمة في علم غير علم الدين، وإنما تصدق بالنسبة إليه في جيل عرف قيمة العلم فهو يسعى إليه، وأما في زمننا وما قبله بقرون، فإن التعليم والإرشاد والتذكير أصبح باباً من أبواب الجهاد، والجهاد لا يكون في البيوت وزوايا المساجد، وإنما يكون في الميادين حيث يلتقي العدو بالعدو كفاحاً، وقد قال لي بعض هؤلاء وأنا أحاوره في هذا النوع من الجهاد

وأكتب عليه تقصيره فيه: إن هذه الكلمة قالها مالك للرشيد، فقلت له: إن هذا قياس مع الفارق في الزمان والعالم والمتعلم، أما زمانك هذا فإن هذه الخلة منك ومن مشائخك ومشائخهم أدَّت بالإسلام إلى الضياع وبالمسلمين إلى الهلاك، فالشبهات التي ترد على العوام لا تجد من يطردها من عقولهم ما دام القسيسيون والأحبار أقرب إليهم منكم، وأكثر اختلاطاً بهم منكم، والأقاليم الإفرنجية تغزو كل يوم أبنائي وأبناءك بفتنة لا يبقى معها إيمان ولا إصلاح، ففي هذا الزمان يجب على عليَّ وعليك وعلى أفراد هذا الصنف أن نتجنَّد لدفع العوادي عن الإسلام والمسلمين حتي يأتينا الناس، فإنهم لا يأتوننا، وقد انصرفوا عنا وليسوا براجعين، وإذا كان المرابطون في الثغور يقفون أنفسهم لصدّ الجنود العدوَّة المغيرة على الأوطان الإسلامية؛ فإن وظيفة العلماء المسلمين أن يقفوا أنفسهم لصدّ المعاني العدوَّة المغيرة على الإسلام وعقائده وأحكامه، وهي أفتك من الجنود لأنها خفيَّة المسارب، غرَّارة الظواهر، سهلة المداخل إلى النفوس، تأتي في صورة الضيف، فلا تلبث أن تطرد ربّ الدار.

فقد علماء الدين مركزهم يوم أضاعوا الفضائل التي هي سلاح العالم الديني، وأمهاتها الشجاعة والقناعة والعفة والصبر. وإن تجرُّدهم من هذه الفضائل ليرجع في مبدأ أمره إلى خدعة من أمراء السوء المتسلطين، حينما أثقلت عليهم وطأة العلماء وقيامهم بالواجب الديني في الأمر والنهي، وعلموا أن العامة تبع للعلماء، وأن سلطان العلماء أقوى من سلطانهم، وأن كلمة مؤثرة من عالم مخلص تقع في مستقر التصديق من العامة قد تأتي على

السلطان الحاكم المتسلط ؛ فسوَّلت لهم أنفسهم أن يحدّوا من هذا التأثير الواسع القوي، فأخذوا يروِّضون علماء الدين على المهانة، وألصقوا ما بهم من الحاجة إلى ما في أيديهم من متاع الدنيا، ليجعلوا من ذلك مقادة يقودونهم بها إلى ما يهون، ثمَّ ربَّوهم على الطمع والتطلُّع إلى الاستزادة ومدِّ الأعين إلى زهرة الحياة الدنيا، فزلّوا ثم ضلّوا ثم ذلّوا، وتعاقبت الأجيال وتقلبت الأحوال فإذا العالم الديني تابع لا متبوع، ومقود بشهواته لا قائد، يراد على العظائم فيأتيها طائعاً يتحيَّل على دين الله إرضاءً للمخلوق، ويحلِّل ما حرَّم الله من دماء وأموال وأعراض وأبشار،يشتري بذلك جاهاً زائلاً وحالاً حائلاً ودراهم معدودة[1].

ومن الكيد الكبار الذي رمى به الأمراء المستبدون هؤلاء العلماء الضعفاء في العصور الأخيرة أنهم يعفونهم من الجندية التي هي حلبة الرجال، وأن في قبول العلماء لهذا الإعفاء وسعيهم له لشهادة يسجِّلونها على أنفسهم بفقد الرجولة، وقد استطابوا هذا الإعفاء وأصبحوا يعدّونه تشريفاً لهم وتنويهاً بمكانتهم ومعجزة خصّوا بها، ودليلاً تقيمه الحكومات الإسلامية على احترامها للعلماء.. فهل يعلمون أن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من الملوك الصالحين، ما كانوا ليعفوا عالماً من بعوث الجهاد والفتح؟ وما كان مسلم فضلاً عن عالم ليطلب الإعفاء أو يتسبب له أو يرضى به لو عرض عليه، بل كانوا يتسابقون إلى ميادين الجهاد، والعالم الديني ـ دائماً ـ في المقدمة لا في الساقة، ولقد كانوا يعدون الاعتذار عن الخروج من سمات المنافقين.

أيها العلماء:

هذا قليل من مساوينا، فلا تظنُّوا أني متجنّ أو متزيّد، كونوا منصفين للدين من أنفسكم، إني أحاكمكم إلى ضمائركم حين تستيقظ فيها معاني الإرث النبوي والاستخلاف المحمدي، أليس من الحق أن هذه المساوئ وأمثالها معها مجتمعة فينا؟

ألسنا نأمر الناس بالجهاد ثم نكون من الخوالف؟ ونأمرهم ببذل المال في سبيل البر ثم نقبض أيدينا؟ كأن الجهاد بالنفس والمال ـ وهو ثمن الجنة ـ لم يُكتب علينا؟

إنني ـ يا قوم ـ أعتقد أن أقسى عقوبة عاقبنا بها الله على خذلنا لدينه؛ هي أنه جرَّد كلامنا من القبول والتأثير، فأصبح كلامنا في أسماع الجيل القديم مستثقلاً وفي أسماع الجيل الجديد مسترذلاً، ومن ظن خلاف ذلك فهو غر أو مغرور أو هما معاً.

أصبحنا في أمتنا غرباء تزدرينا العيون، وتتقاذفنا الظنون، لأننا أصبحنا كالدراهم الزيوف، فيها من الدراهم استدارتها ونقوشها وليس فيها جوهرها ومعدنها[2].

(1) المصدر نفسه (118/4).

(2) المصدر نفسه (118/4).

❋ ❋ ❋

سادساً: الثقافة التاريخية عند الإبراهيمي

طوَّف الشيخ الإبراهيمي في كتاباته وخطاباته ومحاضراته في مواضيع شتى، تناولت السياسة والتربية والنفس والاجتماع والأخلاق والتاريخ.. ولم يخل موضوع منها إلا وفيه إشارة إلى الماضي القريب والبعيد يستمد منه الخبرة، ويستخلص منه العظة، ويتخذ منه مدداً لثورته على المستعمر وفضح مكايده وردِّ أحقاده وأطماعه.

وهو ـ وإن لم يؤثر عنه كتاب في التاريخ بمعناه الخاص ـ فقد كان شغوفاً بقراءة التاريخ الإنساني عموماً، وتاريخ المسلمين على وجه الخصوص، لكنها قراءة الواعي، الراصد لبواعث الفعل التاريخي، المتتبع للخط البياني لأمة الإسلام عبر تاريخها الطويل، صعوداً وهبوطاً، وصولاً إلى القمة أو نزولاً إلى القاع.

لذلك لا نقرأ عند الإبراهيمي الأحداث التاريخية مزدحمة بالتفاصيل والجزئيات، ولا نجد ذكراً لمصادر التاريخ القديمة، كالطبري والمسعودي وابن الأثير، وابن عبد الحكم، بل نجد ذكراً لدواوين الشعراء، ومدوّنات الفقه، ومتون اللغة، التي التهمها أثناء حياته المبكرة.

ويرى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله ؛ أن مصدر الإبراهيمي الأساسي في الثقافة التاريخية إنما هو التجربة الشخصية والمطالعة الحرة، فقد عاش منذ سنوات المراهقة متنقلاً بين عواصم العالم متأملاً في أهلها، مخالطاً لعلمائها، مطالعاً في مكتباتها، وفي هذه الأثناء قرأ الكثير من كتب التاريخ والرحلات والتراجم دون أن يذكر ذلك بالاسم والعنوان إلا نادراً، كذكره ابن خلدون وابن الخطيب ورسائل الضابط الفرنسي سان طارنو[1].

وقراءة الإبراهيمي للتاريخ لم تكن قراءة العابر المعجول، الذي يفاخر بكثرة ما جمع من التصانيف وعديد ما يحفظ من العناوين، إنما كانت قراءة الفقه بطبائع الشعوب، وعلل الحضارات، وسنن الاجتماع، المتسائل عن سبب النكوص بعد الإقدام، والذلة بعد العزة، والانكسار بعد الازدهار. إن حديثه في ثنايا اثاره عن التاريخ لا يخلو من إلماعات واستنتاجات تدل على عميق فقهه وعظيم حكمته، وبراعة استشهاده، ويتضح ذلك في مقاله في هجرة النبي (ص) من مكة إلى يثرب، حيث ينفذ إلى لطائف القران الكريم في حديثة عن الهجرة المحمدية، فسمَّاها «إخراجاً» ولم يسمها «هجرة» بصريح اللفظ.

يقول الإبراهيمي: وإنما سمَّى الصحابة «المهاجرين»، ونوه بالهجرة وحض عليها، وقرنها بالإيمان، وجعلها شرطاً في الولاية، فقال:{وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ } [سورة الأنفال:72].

وبعض الحكمة في ذلك أن التذكير بالإخراج من الديار يُذكي الحماس، ويُبقي الحنين إلى الديار متواصلاً، ويُنمِّي غريزة الانتقام والأخذ بالثأر. ويبعث الحميّة في نفوس الأحرار منهم، ويقرع عليهم خصامهم وتلاحيهم فيما بينهم، وهم في هذا الظرف أحوج ما يكونون للوئام والتصافح والتاخي.

(1) أبحاث إسلامية في الفكر والتاريخ، د . نجيب بن خيرة ص 395.

ثم يوجه الشيخ خطابه إلى الجزائريين يستثير شهامتهم ويذكرهم بإخراج المستعمر لهم، وصدِّهم عن سبيل الله فيقول: إن للإخراج من الديار لشأناً أيّ شأن في القران، فهو يُبدأئ ويعيد في تقبيحه وإنكاره وتحريمه، وهو يقرنه بالقتل تشويهاً له وتشنيعاً عليه، وإن له في نفوس الأحرار لأثراً يتعاصى عن الصفح والعفو[1].

ثم يقول: وما زالت منذ درست السيرة بعقلي، أقف في بعض مقاماتها على ساحل بحر لُجِّي من العبر والمثلات، ومن بين تلك المقامات حادثة الهجرة، فلا يكاد عقلي يستثير بواعثها الطبيعية حتى أتلمَّح العوامل الإلهية فيها، فأستجلي من بعض أسرارها التمهيد للجمع بين أصلَيْ العرب اللذين كانا في الجاهلية يتنازعان ملاءة الفخر، ويؤرث الرؤساء والشعراء بينهما نار العصبية، حتى أضعفتهما العصبية، وحتى أطمع الضعف فيهما جاريهما القويين: جار الجنوب الحبشي، وجار الجنب الفارسي، وكادا يستعبدان هذا الجنس الحر لولا أن فال رأي أبرهة في الفيل، ومالت رايات فارس في ذي قار[2].

وقد تحدث الإبراهيمي عن تاريخ الإسلام، والرومان، وأحوال المغرب العربي وفلسطين والجزائر.

1 . تاريخ الإسلام:

ترجع صلة الشيخ الإبراهيمي بالتاريخ الإسلامي إلى كتب السيرة النبوية والغزوات، وحياة الصحابة، والتابعين، وهذه الصلة ترجع بدورها إلى ثقافته الدينية والشرعية، فمصادره الإسلامية هي القران والسنة، وأمهات كتب التفسير والحديث، بالإضافة إلى تاريخ الأدب والسياسة والمذاهب والفرق.

ومن خلال هذه الثروة اطلع الشيخ على تراجم الرجال، وأصول الأحكام، وقواعد الاجتهاد، وحركة التأليف، والصراع السياسي والفكري بعد وفاة الرسول (ص)، وعهد الخلفاء الراشدين، ثم قيام الدولة العربية الإسلامية بعصورها المختلفة، بما في ذلك أدوار الدولة المملوكية والدولة العثمانية ودول ملوك الطوائف ودول المغرب العربي خاصة.

ونحن نلاحظ هذه الثقافة التاريخية الإسلامية عند الشيخ الإبراهيمي من وصفه المسهب لبعض الغزوات مثل غزوة بدر الكبرى، ومعاني الهجرة النبوية والأعياد الإسلامية، فهو يتناول هذه الأحداث والمناسبات من الناحيتين الدينية والتاريخية، ثم يربط بينها وبين الواقع، كأحداث الثورة الجزائرية، والدعوة إلى النهضة والوحدة لمواجهة الاستعمار.

وليس كالإبراهيمي من يحسن سوق العبرة من الحدث التاريخي، ولا أدل على ذلك من إيراده قصة العزِّ بن عبد السلام «سلطان العلماء» مع مماليك مصر، حين أفتى بأن على هؤلاء المماليك الأمراء بيع رقابهم لأنها مملوكة لبيت مال المسلمين..

فقد علَّق الإبراهيمي على ذلك بقوله: إنَّ العز بن عبد السلام قد قوَّم بكلمته وضعاً مقلوباً كان سبباً في انقراض كثير من الدول الإسلامية، وهو احتكار المماليك لمراتب الإمارة، ثم أضاف الإبراهيمي إلى ذلك

(1) أبحاث إسلامية في الفكر والتاريخ، د . نجيب بن خيرة ص 396.

(2) أبحاث إسلامية في الفكر والتاريخ، د . نجيب بن خيرة ص 396.

تعميماً عظيماً واستنتاجاً حكيماً فقال: لو رزق الله بغداد عالماً كابن عبد السلام في شجاعته ؛ لأنقذ الخلافة العباسية من المماليك الأتراك ببيعهم في سوق الرقيق، ولو رزق الأندلس عالماً مثله؛ لأنقذ الدولة الأموية فيها من موالي المنصور بن أبي عامر.

وطالما أحال الإبراهيمي قارئه على أحداث تاريخية في العالم الإسلامي كالحروب الصليبية وظهور الفرق والمذاهب والأحزاب وغارات الدول الأجنبية، مستنتجاً منها استنتاجات شُجاعة ؛ مما يجعله في مقدِّمة المثقفين ثقافة تاريخية إسلامية عميقة قلّ من يشاركه فيها من أبناء جبله، لأن المعرفة التاريخية إذا لم توظف لمصلحة الحاضر والمستقبل؛ فإن المتحف أو حتى القبر، أولى بها[1].

2 . الاستعمار الروماني:

الاستعمار عند الشيخ الإبراهيمي ليس فرنسياً فقط، بل هو ممتد ومتمثل في صراع الشرق والغرب، وفي تثاقف الحضارات ذاتها، سواء في العهد الروماني الظالم، الذي غطى بظلامه المغرب والمشرق على السواء، أو في العهد الفرنسي الذي لا يقلّ في نظره ظلاماً وظلماً.

ففي كلمة له بعنوان «الجزائر المجاهدة» حلَّل الشيخ أوضاع الجزائر القديمة والحديثة انطلاقاً من موقعها الجغرافي قائلاً ؛ إن هذا الموقع هو الذي رشَّحها لتحوز السبق في الجهاد، وهو يعني به موقعها على الضفة اليسرى للبحر المتوسط وبالضبط في مواجهة مرسيليا، حيث تتشكل أوسع نقطة بين ضفتي هذا البحر بالنسبة لجيران الجزائر «تونس والمغرب».

وقد حلَّل الإبراهيمي طموح الأمَّة اللاتينية في استعمار جيرانها في الضفة الأفريقية تحليل الخبير بأوضاع الأمم الغابرة، فقال عن الأمم اللاتينية: إنها ذات أطماع وفتوحات وكبرياء ودماء منذ كانت، ولم يزدها ظهور الدين المسيحي السامي الروح إلا ضراوة وطموحاً في الغلبة، لأن الطبيعة المادية المتكالبة لتلك الأمم غلبت طبيعة الدين المسيحي الروحية المتسامحة، وبذلك أصبح الدين المسيحي ديناً رومانياً لا شرقياً[2].

ومن تحليلات الشيخ الإبراهيمي القائمة على الاستقراء والاستنباط، ما جاء على قلمه حول روح المقاومة والجهاد، التي تميَّز بها سكان شمال أفريقيا منذ القدم، فهو يرى أن الإسلام قد مزج بين البربر والعرب مزجاً قوي فيهم معنى الحِمى والعِرض والحِفاظ.. وهو الذي ترك الأمة الجهادية أمة جهاد بجميع معانيه، وعلى هذا يجب أن يبني المؤرخ تاريخ الجهاد النفسي في هذه الأمة.

وقد حدث الجهاد بالنفس في الجزائر عبر العصور الإسلامية، لأن الجارين المتقابلين روما وقرطاج، أصبح كل منهما بالمرصاد للاخر. وللإبراهيمي في العلاقة بين هذين الجارين المتصارعين رأي طريف وواقعي، فهو يقول إنَّ العلاقة بينهما كانت صراعاً على العيش المادي أو القمح والزيت، وهما المادتان اللتان جلبتا الاحتلال الروماني لإفريقيا الشمالية، ثم صار صراعاً على الدين، وقد زاد من حدَّة هذا الصراع في نظره أن العرب بدينهم

---

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 118.

(2) المصدر نفسه ص 119.

قد خلفوا الرومان على حضارتهم في أفريقيا، ثم دخول العرب إسبانيا قد جعل الرومان يتطيرون ويظنون أنها القاضية على روما وديانتها وحضارتها وشرائعها.

وهنا تبهرك ثقافة الشيخ التاريخية، إذ يظهر كأنه صاحب اختصاص في تطوُّر الحضارات وفلسفة التاريخ، فقد تحدَّث أيضاً عن انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية، وعن تدهور حالة الرومان وصعود نجم العرب، كما عرض لضعف الأندلس بعد ذلك وظهور ملوك الطوائف، وتداعي اللاتين إلى إحياء روح الثأر والانتقام وشنّ الغارات على سواحل شمال أفريقيا، وعندئذ تصدرت الجزائر الجهاد المنظم على أيدي الدول، وغير المنظم وهو الجهاد الفردي الدائم عن طريق «الرباط»، الذي وصفه بأنه يشبه حرب العصابات.

وبذلك كانت الثغور الجزائرية دائماً عامرة بالمرابطين، الذين نذروا أنفسهم لله وحماية دينه من مالهم الخاص لا من مال الحكومات، ولم ينقطع دور الرباط في نظره إلا عند الاحتلال الفرنسي، وهو الاحتلال الذي وصفه بالمدبَّر لإعادة شمال إفريقيا إلى الحظيرة اللاتينية، كما كان قبل الإسلام، وقد أنحى الشيخ باللائمة على سكوت العرب والمسلمين على هذه الفاجعة عندئذ[1].

3 . أحوال المغرب العربي:

تناول الشيخ من الناحية التاريخية موضوعات عديدة حول أقطار المغرب العربي غير الجزائر، مثل تونس، ومراكش، وليبيا.

فقد تحدَّث مثلاً عن «العرش المحمدي العلوي»، وأرجعه إلى القبائل التي خرج منها أو ساندته من إدريس الأكبر وأبناء علي «رضي الله عنه» إلى ارتباط العرش بالبربر من لمتونة وهنتانة وبني مرين، وقال: إن هذا العرش قد مدّ بظلاله حتى وصلت إلى عتبات «برقة»، فالإبراهيمي هنا لا يتحدث عن الأمجاد فقط، ولكنَّه يتحدَّث عن تاريخ المنطقة التي لعب فيها أشراف المغرب دوراً بارزاً، وقد مدح الإبراهيمي هذا العرش من أجل ما بناه وحافظ عليه من حضارة عربية إسلامية عريقة، فهو عرش حرس في نظره اللغة العربية وحمى الدين الإسلامي، ودافع عن الإسلام والعروبة، وهي الايديولوجية العزيزة على الشيخ الإبراهيمي.

إنَّ أشراف المغرب ـ خلافاً لحكَّام الجزائر العثمانيين ـ قد رعوا العلم والبيان، وأنجبت دولهم أعلاماً في الأدب، ونوابغ في الفقه والتشريع، وأساطين في الفلسفة، وأثباتاً في التاريخ والأخبار.

أمَّا حديثه عن ليبيا، فقد جاء في شكل سلسلة من المقالات لم تخل من إشارات تاريخية، فقد مشى على أرضها الصحابة والتابعون الذين فتحوا المغرب والأندلس، أمثال إدريس بن عبد الله، وعبد الرحمن الداخل، ولم ينس الإبراهيمي الرحالة والحجاج الذين أقاموا في ليبيا أو عبروها وهم في طريقهم إلى مراكز العلم والحج، وقد ذكر منهم ابن بطوطة والعياشي والعبدري والفهري والتيجاني والورتلاني. كما ذكر منهم رواداً في الشعر الملحون استطاعوا وصف ركب الحج وصفاً دقيقاً، ثم جاء على أسماء المدن والبلدات الليبية التي شاهدها هؤلاء أو

(1) المصدر نفسه ص 120.

عاشوا فيها زمناً، وبالإضافة إلى ذلك أطال في وصف الكفاح الليبي في مقاومة الاحتلال الإيطالي وصف خبير بالاستعمار ومقاومته[1].

وتحت عنوان «عروبة الشمال الإفريقي» أشاد الإبراهيمي بدور الدول البربرية التي قامت في المنطقة وأعطتها صفتها العربية، فقد نوّه بفضل دول لمتونة و الريستمية و الموحدية والصنهاجية و المرينية و الزيانية قائلاً: إنها دول ليس لها من البربرية إلا النسبة العرقية، فيما عدا ذلك فهي دول عربية صميمة، فهي التي أنبتت ورعت الإدارة والقضاء والحضارة.. وأكد الإبراهيمي أنَّنا لم نقرأ أن الشعراء تقرَّبوا لملوك هذه الدول بالشعر البربري، إلا أن يكون في النادر المصطبغ بالبداوة[2].

إن هذه العروبة عنده، هي التي صيرت شمال أفريقيا وطناً واحداً، ولم تفرّقه إلا سياسة الخلاف في عصوره الوسطى والاستعمار الفرنسي الحديث، وأكَّد الإبراهيمي أن الاستعمار يعمل على توهين العربية بالبربرية، وهو يسمي ذلك «قتل الموجود بالمعدوم»، ومن أباطيل الاستعمار في نظره، أنه يسمِّي السوداني المتجنِّس لتوه فرنسياً، بينما ينكر على البربري المتعرِّب منذ ثلاثة عشر قرناً أن يكون عربياً[3].

4 . تاريخ الجزائر:

تبرز ثقافة الشيخ البشير الإبراهيمي التاريخية فيما كتب عن تاريخ الإسلام في الجزائر ومؤسساته:

فالإسلام في رأيه انغرس في الجزائر منذ القرن الأول للهجرة، بعد أن اجتثت بقية الصحابة الوثنية عن البربر وعتوّ الرومان، ونشروا عقائد الإسلام حتى استقرت في النفوس وسادت المحبة بين السكان، لأن الفتح الإسلامي كان بعيداً عن معنى الفتح المتعارف عليه عند المؤرخين والحربيين، فهو ليس فتحاً مبنياً على القسوة والقهر.

ويرى الإبراهيمي أن الإسلام انحدر في شمال إفريقيا مع تاريخه، فهو مرَّة يضعف ومرَّات يقوى، ولكنَّه احتفظ دائماً بسلطانه على النفوس، ومن اثار الإسلام في الجزائر (وشمال إفريقيا عموماً) ازدهار العلوم والاداب وكثرة التأليف وظهور النوابغ، وعمران المساجد والمدارس والحصون والقصور، وانتشار الأوقاف التي قضت ـ كما قال ـ على الافات الثلاثة المبيدة للشعوب وهي الجهل والفقر والمرض.

واللافت للنظر أن الشيخ كتب عن هذه الإنجازات والاثار وكأنه أحد المؤرخين المعاصرين، فيقول: من اطلع على رواية المؤرخين وترجماتهم، ورأى بقايا الوثائق الوقفية المسجونة في مكاتب الاستعمار بالجزائر، عجب لما فعل الإسلام في نفوس أسلافنا، ومن قرأ تاريخ المدن الجزائرية العلمية التي كان لها من الحضارة أوفر نصيب، مثل: تلمسان وبجاية وتيهرت وقلعة بن حماد والمسيلة وطبنة وبسكرة ؛ علم أية سمات خالدة وسم بها الإسلام هذا القطر.

---

(1) المصدر نفسه ص 121.

(2) المصدر نفسه ص 121.

(3) المصدر نفسه ص 122.

ويقف الإبراهيمي وقفة مؤرخ حديث أيضاً ليعرّف قرّاءه بتكوين خريطة الجزائر ودولتها، فيلاحظ أنها اليوم جديدة من حيث الحدود الجغرافية والإدارية[1].

لقد تشكَّلت خريطة الجزائر في العهد العثماني، وتمَّت في عهد الاحتلال الفرنسي، أمَّا قديماً فقد كانت قطعة من المملكة العربية الإسلامية التي أقامها الفاتحون منذ القرن الأول الهجري، وجعلوا عاصمتها القيروان، لقد كانت القيروان هي التي تتحكم في تونس والجزائر ومراكش ثم الأندلس بعد فتحها، وكان والي القيروان هو الذي يعين ولاة هذه الأقطار، ولا دخل لمركز الخلافة في المشرق في تعيينهم. ولما ظهرت الدعوة الأموية في الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية انفصلت مراكش عن القيروان، وليس بين مراكش والجزائر ولا بين تونس والجزائر حدود فاصلة، بل إن الأطلس زاد العلاقة بين هذه الأقطار متانة، كما زادها الإسلام متانة أخرى، لأنه هو الذي جمع الأقطار الثلاثة في ملاءة واحدة[2].

تناول الشيخ الإبراهيمي تاريخ الجزائر في مناسبتين على الأقل: الأولى في أربع محاضرات بعنوان: «الاستعمار الفرنسي في الجزائر» ألقاها على طلبة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة سنة 1955م، والثانية مقالة بعنوان «فرنسا وثورة الجزائر» كتبها في القاهرة 1959م، أما محاضرات المعهد فقد ارتجلها ثم كتبها وقدمها لإدارة المعهد لطبعها وتوزيعها على طلبته، «وهو تقليد كان المعهد يتعامل به مع الأساتذة الزائرين».

ابتعد الشيخ في المحاضرات عن أسلوب الأدب والسياسة والصحافة وعالج الموضوع بأسلوب تاريخي، وقد اعترف بأنه كان في الكتابة أكثر هدوءاً منه في الإلقاء، أي أنه كان أكثر علمية ومنهجيَّة.

وفي هذه المحاضرات قسم تاريخ الجزائر إلى مراحل، وجعل المرحلة الأخيرة هي الاحتلال الفرنسي، وتحدَّث أثناء المرحلة الأخيرة عن دور الأحزاب والجمعيات والقادة، ووصف منهجه بقوله: ألممت فيما كتب بشيء من تاريخ الجزائر من يوم أسلمتْ، ومن يوم تعرّبت، ثم بشيء من أخبار الدول التي قامت بها من أهلها، ثم مررت بتاريخ العهد التركي «كذا»، وهو أطول العهود فيها، مروراً أهدأ مما سمعه الطلاب مني وأبطأ.

وأما مقالته «فرنسا وثورة الجزائر»، فقد ظهر فيها عارفاً بواجبات المؤرخ وأدواته، بل ظهر فيها كأحد المنظّرين وليس فقط أحد رواة الأخبار، فمن رأيه أن التاريخ لا يكتب «ساخناً»، وإنما يكتب بعد برودة الحدث وسكون غباره، والأهم من ذلك عنده هو ألا يكتب عن الحدث التاريخي إلا بعد توفُّر الوثائق والأدوات، ولا بد مع ذلك من تمتُّع المؤرخ بميزات تتمثل في الثقافة العميقة والذكاء الحاد والنزاهة الخالصة.

ويرى الإبراهيمي أنَّ التاريخ الوطني لا يكتبه إلا مؤرخ وطني، وهذه قضية حيوية في كل العصور وعند مختلف الأمم، فالمؤرخ هو صوت أمته، وهو المعبر عن هويتها الحقيقية مهما تفنَّن الاخرون وأخلصوا في الكتابة عنها. لقد تمنَّى الإبراهيمي في هذا الصدد أن يقيض الله للجزائر مؤرخاً من أبنائها تتوفَّر فيه الميزات التالية: وهو أن يكون مستنير البصيرة مسدد الفكر والتعليم، صحيح الاستنتاج.. لكي يكتب: تاريخاً لا يقف عند الظواهر

---

(1) المصدر نفسه ص 124.

(2) المصدر نفسه ص 125.

والسطحيات.. بل يتغلغل إلى ما وراء ذلك من الأسباب النفسية التي تحرك فرنسا إلى «ارتكاب» هذه المجازر البشرية، وإلى العوامل التي تدفع المقاتلين «الجزائريين» إلى هذه الاستماتة في حرب حارت فيها عقول ذوي العقول[1].

وقد تواضع الإبراهيمي فقال إنه لا يضع بذلك خطة لكتابة تاريخ الثورة، مثلاً، ولا يرسم الطريق لهذا المؤرخ الوطني أو الفارس المنتظر، ولكنه يريد أن يقول: لعل هذا المؤرخ الذي أعدَّه الله لهذه المنقبة لم يولد بعد، وإنما الشرط أن يكون جزائرياً[2].

هذه الجملة من المواصفات التي ساقها الشيخ الإبراهيمي للمؤرخ عموماً، ومؤرخ الثورة خصوصاً، يجب أن تكون ضمن مواصفات الكتابة التاريخية عندنا، فالمؤرخ في نظره يجب أن يكون متين الثقافة، قوي الاستنباط، قادراً على ربط الأسباب بالمسبّبِات، عارفاً بطرق الغوص فيما وراء مظاهر الأشياء واستكناه الدوافع الباطنة، لكأن الشيخ الإبراهيمي وهو يضع هذه المواصفات للمؤرخ ينظر في «مقدمة ابن خلدون» التي نعرف من مقالته «تلمسان وابن خلدون» أنه قرأها وأعجب بها وبصاحبها[3].

5 . ملامح منهج الإبراهيمي في تناول قضايا التاريخ:

أ . تاريخ أمة متصل الحلقات:

يتناول الإبراهيمي التاريخ . وخاصة التاريخ الإسلامي . باعتباره تاريخ أمة متصل الحلقات، مترابط الأزمنة، وليس على أساس أُسر تعاقبت على الحكم، ليثبت أن الأمَّة هي التي تصنع العظماء في تاريخها، وعظماؤها هم نتاج وضع الأمَّة وظروفها، مما يحقق العبرة والعظة والاستنباط بعيداً عن التعصب المقيت لهذه الدولة أو تلك أو لهذا العنصر، وهو منهج أقرب إلى الروح العلمية من طريقة الأجزاء المبتورة والجزر المعزولة، لأن الدارس يتتبع تطور تاريخ أمته خطاً متصلاً، يرقب فيه أسرار النمو والازدهار وعوامل الضعف والانكسار.

ب . الاهتمام بالأحداث الكبرى:

لا يُعنى الشيخ الإبراهيمي بالتفاصيل والجزئيات، بل يعرض للأحداث الكبرى، والخطوط العريضة، ويأخذ بيد القارئ إلى لُبِّ الحدث وجوهر الموضوع. فعصر الإبراهيمي وجيله الذي يخاطبه أو يقرأ له يواجه من التحديات ما يمنعه من تتبع التفاصيل والإغراق فيها، بل يريد أن ينفذ سريعاً إلى الأدواء والعلل، ويصف الدواء الناجح، ويساعده على هذا المنهج: أدب رفيع، وبيان ساحر، ولغة محكمة.

ج . أهمية الوثائق والأدوات:

(1) المصدر نفسه ص 126.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه ص 127.

يرى الإبراهيمي أن التاريخ لا يُكتب «ساخنا»، وإنما يكتب بعد برود الحدث وسكون غباره، وهذا منهج المؤرخ العارف بواجبات المؤرخ وأدواته، فالحدث التاريخي لا يُكتب إلا عند توفر الوثائق والأدوات، ولا بد مع ذلك من تمتع المؤرخ بميزات تتمثل في: الثقافة العميقة، والذكاء الحاد، والنزاهة الخالصة، وقوة الاستنباط، والبحث عن العلل والأسباب، والغوص وراء الظواهر، ومعرفة الدوافع الباطنية[1].

د . تركيزه على التاريخ الجامع للمشرق والمغرب:

ركّز الإبراهيمي في أكثر مقالاته ومحاضراته وأحاديثه . وخاصة تلك التي كتبها أو ألقاها في بلاد المشرق العربي . على التاريخ الإسلامي الجامع للمشرق والمغرب، فيأتي بالشواهد من عصر الرسالة، ثم تاريخ الراشدين ومن بعدهم الأمويين والعباسيين، باعتبار أن هذه العصور تمثل الوحدة التاريخية للأمة الإسلامية، وهو منهج ذكي حصيف يقوم على قاعدة: خاطبوا الناس بما يفهمون، أما تواريخ المغرب الإسلامي من الفتح إلى الاحتلال فلا يعرض لها إلا قصد التعريف أو شرح السياق التاريخي، مبيناً أن أفق المغرب جزء لا يتجزأ من جسم الأمة، إن أضاعته أو تناسته أو فرّطت فيه هِيض جناحها، وضُربت في مقتلها. وأعداء الأمة لا يفرقون بين مشرق الأمَّة ومغربها[2].

هـ تعامله مع سنن التاريخ:

لقد رصد الإبراهيمي الواقع الإسلامي بكل ما يحمل من علل وأدواء وتخلف وتراجع حضاري شامل، من خلال رؤية تحليلية وبصيرة نافذة، فراح يستمد العلاج من سنن التاريخ ويتعرف على القوانين التي تحكم الاطراد الحضاري، محاولاً استجلاءها من الأصول الإسلامية: قراناً وسنة وتراث الإسلام الثقافي، غيرمتجاوز ذاتية الأمة ومقوماتها العقيدية والفكرية، التي صاغت وبلورت التجربة الإسلامية في التاريخ.

ففي مقال له بمجلة «الأخوة الإسلامية» بعنوان «حالة المسلمين» كتب مشخّصاً الداء وواصفاً الدواء:

نعترف أن نومنا كان ثقيلاً، وبأن عمر أمراضنا كان طويلاً، نعرف أن النوم الثقيل لا يصحو صاحبه إلا بصوت يصخّ أو بضرب يصكّ، وأن المرض الطويل لا يشفى المبتلى به إلا بتدبير حكيم قد يفضي إلى البتر أو القطع، وقد أصابنا من القوارع ما لو أصاب أهل الكهف لأبطل المعجزة في قصتهم، ومما كانوا فيه مثلاً في الاخرين، ولكننا لم نصحُ من نوم إلا لنستغرق في نوم، ولم ننفلت من قبضة منّوم إلا لنقع في قبضة منوّمٍ[3].

ثم يُرجع العلة كلها إلى رجلين: رجل سياسة لم يتديّن، ورجل دين لم يخلص، فيقول: وما أضلّنا إلا المجرمون الذين يدعون بعضهم إلى الجمع بوسيلة التفريق، ويدعون بعضهم إلى النجاة بطريقة التغريق، والأولون هم رجال الدين الضالون الذين فرَّقوه إلى مذاهب وطوائف، والاخرون رجال السياسة الغاشون الذين بدلوا المشرب الواحد فجعلوه مشارب[4].

---

(1) المصدر نفسه ص 401، 402.

(2) المصدر نفسه ص 402.

(3) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (220/4).

(4) المصدر نفسه (220/4).

ثم يدعو إلى الرجوع إلى الأصل الذي صلح به سلف هذه الأمَّة، ووضعوا عليه أساس نهضتهم: فهل هبّة من روح الإسلام على أرواح المسلمين تذهب بهؤلاء وهؤلاء إلى حيث ألفت، وتجمع قلوبهم على عقيدة الحق الواحدة، وألسنتهم على كلمة الحق الجامعة، وأيديهم على بناء حصن الحق على الأسس التي وضعها محمد صلى الله عليه وسلم[1]؟

ويمكن أن نلمس اثار هذا المنهج في قضايا عديدة عرض لها الإبراهيمي، ونحن في هذا المقال نختار بعض القضايا مثل: أثر الدين في النهضة، وعروبة الشمال الأفريقي، والوحدة الإسلامية، لما بينها من التدخل، ولما فيها من حضور للتاريخ، واستشهاد بحوادثه، لخدمة الحاضر وبناء المستقبل، وقد قيل: إن التاريخ كله تاريخ معاصر، وذلك لما للتأثير البالغ للتجربة التاريخية على واقع الفرد والجماعة، وإلى إمكان تجدد الوقائع ذاتها إذا تهيأت الشروط وتشكلت الدوافع كما تشكلت أول مرة[2].

و . تتبع أسباب الصعود والنزول:

والشيخ الإبراهيمي يقرأ تاريخ الإسلام بفقه بصير يتابع فيه خطّه السائر، صاعداً إلى الأوج، أو نازلاً إلى القاع، ووراء ذلك أسباب دافعة وعلل مطّردة.. ويوم أن خرج الإسلام من جزيرة العرب وشرَّق وغرَّب في الأقطار الموات، استنهض الفكر في العقول والأنس في القلوب، وغزا مجاهيل البيد والفيافي والقفار وأحالها إلى روض ينسم بالحرية والحضارة والحياة.. وما كان ليحدث شيء من ذلك لولا الإسلام.

لذلك نراه . أي الإسلام . في جميع مراحل التاريخ يقطع الفيافي بلا دليل، ويقطع البحار بلا هادٍ، ويغزو مجاهل أفريقيا في الوسط والجنوب ومنتبذات اسيا في الوسط والشرق، ثم يدخل شرق أوربا مع الفتوحات العثمانية، كما دخل غربها في القديم في الفتوحات الأموية، وكما دخل جنوبها مع الفتوحات القيروانية ؛ وهو في كل ذلك يقحم الأذهان من غير استئذان، وليت تلك الفتوحات العربية هي التي غرسته أو مكّنت له، لأن الفتح في الإسلام لم يكن في يوم ما إكراهاً على الدين، وإنما مكّنت للإسلام طبيعته ويسره ولطف مدخله على النفوس وملاءمته للفِطر والأذواق والعقول[3].

ثم يقرر الشيخ الإبراهيمي بعد هذه الحقيقة التاريخية، أن أمَّة الإسلام لو أبقت على هذا الدين سائقاً وقائداً، سليم العقائد، مجلوّ الحقائق، صافي الفطرة، لما وصلت إلى هذا الضعف والتفرق والشتات.. فيقول: ولو بقي الإسلام على روحانيته القوية، ونورانيته المشرقة، ولو لم يفسده أهله بما أدخلوه عليه من بدع، وشانوه به من ضلال، لطبّق الخافقين، ولجمع أبناءه على القوة والعزة والسيادة حتى يملكوا به الكون كله، ولكنهم أفسدوه واختلفوا فيه، وفرّقوه شيعاً ومذاهب، فضعف تأثّرهم به، فضعف تأثيره فيهم، فصاروا إلى ما نرى ونسمع[4].

---

(1) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (221/4).

(2) أبحاث إسلامية في الفكر والتاريخ ص 404.

(3) المصدر نفسه ص 408.

(4) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (385/2).

ويعود الإبراهيمي إلى الموضوع ذاته في موضع اخر ليثبت المعادلة التي تقررت عبر التاريخ الإسلامي، وهي أن العزة لن تعود إلى المسلمين ما بقوا يستمدون عزتهم من غير دينهم، ويستلهمون الرشد من غير كتابهم. ودين الإسلام تقوى اثاره بقوة فهم المسلمين له، وإقامتهم لشعائره، ووقوفهم عند حدوده.

ففي حديث له ألقي من إذاعة «صوت العرب» بالقاهرة عام 1955م يقول: الجزائر . أيها المستعمرون الكرام . من أزكى المغارس التي غُرست فيها شجرة الإسلام، فنمت وترعرعت، ثم اتت أكلها طيباً مباركاً فيه من القرن الأول للهجرة، فقد حمل الفاتحون وفيهم أولو بقية من أصحاب رسول الله (ص) تعاليم الإسلام إلى شمال أفريقيا، وقلب هذا الشمال: هو ما نسمِّيه اليوم: الجزائر، فنشروها بالإقناع، وثبتوها بالشواهد العملية، بعد أن اجتثوا من الشمال وثنية البربر وبقايا العتوّ الروماني، نشروا عقائد الإسلام حتى استقرَّت في النفوس، وعباداته حتى اطمأنت إليها النفوس، وأحكامه حتى حققت العدل، وحفظت الحقوق، وصانت المصالح، وضمنت المساواة، وأخلاقه حتى تعايش الناس على المحبة وتعاونوا على البر والتقوى[1].

ويُرجع الشيخ الإبراهيمي كل تنوير حصل في هذا الشمال الإفريقي مبعثه إلى نور الإسلام الذي أشرف من المشرق، فبدد الظلمات وأزال الجهالات، وبعث سكان هذا الشمال خلقاً اخر، وما الاثار العلمية والأدبية والعمرانية التي كان لهذا الأفق فيها أوفر نصيب إلا من خير هذا الدين، فعمرت حواضر كانت مفاوز، وقفار لا يعرفها حيّ ولا يقف عندها إنسان[2].

فيقول: ومن قرأ تاريخ المدن الجزائرية العلمية التي كان لها في الحضارة أوفر نصيب: تلمسان وبجاية، وتيهرت، وقلعة بني حماد، والمسيلة، وطبنة، وبسكرة، من قرأ هذه التواريخ؛ علم أية سمات خالدة وسَمَ بها الإسلام هذا القطر[3].

هذه جولة قصيرة في ثقافة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي التاريخية وكتاباته عن بعض القضايا ذات الطابع التاريخي، ونلاحظ على ذلك باختصار أن الإبراهيمي: كان ظاهرة فريدة بين جيله في تفسيره العقلاني للحوادث التاريخية، سواء منها القديمة أو الحديثة أو المعاصرة، في وقت لم يدرس فيه التاريخ في مدرسة ولا جامعة، ولا شك أن ذلك يغير من نظرتنا المسبقة القائمة على أن علماء الفقه والأدب والدين لا يعرفون التطوُّرات التاريخية ونتائجها إلا سطحياً، أو أنهم لا يعرفون، إذا عرفوا، أكثر من وقائع التاريخ الإسلامي، وأنهم على كل حال لا يتقنون قواعد البحث العلمي، فقد أظهرت هذه الصفحات أن الشيخ الإبراهيمي كان له تصوُّره لمسيرة الحضارة الإنسانية في مختلف عصورها وروافدها، وهو إن لم يكن فيلسوفاً بالمعنى التقليدي للكلمة؛ فإنه استطاع أن يزاوج بين الدين والتاريخ والفلسفة[4].

---

(1) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (72/5).

(2) أبحاث إسلامية في الفكر والتاريخ ص

(3) المصدر نفسه ص 408.

(4) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 127.

❋ ❋ ❋

سابعاً: نضاله السياسي

مع دخول فرنسا الحرب العالمية الثانية في سبتمبر 1939م، رفضت جمعية العلماء تأييدها لفرنسا أو التعاطف معها، وكان رد فعل فرنسا التضييق على جمعية العلماء، وأمرت الإبراهيمي بتوقيف دروسه ومحاضراته «بدار الحديث»، وطردت الطلبة الداخلين بها، وتقرر نفيه إلى مدينة «افلو» الصحراوية في 10 أفريل من عام 1940م، كما مرَّ معنا، وبعد خروجه من السجن شرع في عمله الوطني من خلال قيادته لجمعية العلماء. وتعتبر المرحلة التاريخية التي تلت الإفراج عن الشيخ الإبراهيمي مع نهاية ديسمبر 1942م، وحتى أفريل 1945م من المراحل المتميزة في حياة رئيس جمعية العلماء، باعتبار أنه سيحاول تجسيد استراتيجية الجمعية بصفته رئيساً لإدارتها، وذلك بخلق ديناميكية لاستئناف نشاطها، خصوصاً عندما تشعر «الجمعية» بالمضايقات التي تتلقاها من طرف الإدارة الاستعمارية والتعسفات «الارتجالية» المطبقة ضد إطاراتها ومسؤوليها، كما حدث للشيخ العربي التبسي الذي اعتقل في 25 مارس 1943م من قبل السلطات العسكرية، متهمة إياه بالتجسس لصالح ألمانيا النازية[1].

وخلال هذه الفترة، تشير جميع التقارير الإدارية الاستعمارية والبوليسية التي كانت تراقب تنقلات البشير الإبراهيمي وتحللها ؛ إلى الاستمرارية والدابة التي صحبت رئيس الجمعية داخل العواصم الإصلاحية الأساسية، والتي جعلت عجلة استئناف النشاط التعليمي تمشي تدريجياً مع توسعه بفتح المدارس الجديدة ولترقى إلى وتيرة حسن التنظيم والفعالية بإلقاء الدروس والمحاضرات في المقرات والنوادي التابعة لجمعية العلماء[2].

وفي إطار نشاطه الدؤوب وتحركاته المستمرة، وزيارته للمدن والأرياف، كان ينسّق ويتشاور مع العلماء وإطارات ومسؤولي الجمعيات الإصلاحية، بدون إغفال الاتصال بالأعيان الجزائريين والشخصيات السياسية من النواب كفرحات عباس وغيره، كان يتم ذلك دائماً وفق العمل على توحيد الجبهة الداخلية ضد الاحتلال الفرنسي، فقد كان الإبراهيمي يسعى لإيجاد مؤازرة ومساندة معنوية وسياسية مستمرة تكون بجانب جمعية العلماء، إضافة إلى الدعم الشعبي والنخبوي الذي كسبته داخل الأوساط الجزائرية في المدن والقرى[3].

1 . إستيلاء الحلفاء على الجزائر:

بعد استيلاء الحلفاء على الجزائر وتحريرها من جماعة «فيشي» الموالين للألمان، وفي شهر ديسمبر من عام 1942م اتصل الجنرال دارلان بفرحات عباس، وطلب منه أن يقوم قادة الحركة الوطنية الجزائرية بمساعدة فرنسا الحرة ـ وهي «حركة المقاومة الفرنسية التي يرأسها ديغول» ـ في تجنيد الجزائريين من أجل المشاركة في تحريرها، وانذاك اتصل فرحات عباس بدوره بجمعية العلماء التي شاركت في تحرير البيان المقدم للمسؤولين الفرنسيين فيما بعد، والذي اشترط فيه فرحات عباس وتوفيق المدني على جمعية العلماء أن تظهر فرنسا رغبتها

---

(1) الدور الإصلاحي والنشاط السياسي للشيخ محمد البشير الإبراهيمي، إبراهيم مهديد ص 179.

(2) المصدر نفسه ص 183.

(3) المصدر نفسه ص 184.

في الإصلاح الحقيقي، وذلك بإنجازات علنية وصادقة وسريعة. وقد طلب الوفد الجزائري من المسؤولين الفرنسيين الجدد في الجزائر، أن يعقد مؤتمر عام يضم النواب الجزائريين وممثلي كل الهيئات الإسلامية، وذلك بقصد إصدار قانون أساسي يشتمل على الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبذلك يشعر المسلمون أن مطالبهم هي في طريق التحقيق، ويفهموا جيداً الواجبات التي يقومون بها في سبيل المجهود الحربي. لكن القادة الفرنسيين رفضوا هذه المطالب(1).

2 . تحالف الحركات الوطنية:

وفي شهر جانفي من عام 1943م، اتفق قادة الحركات الوطنية في الجزائر أن يعقدوا اجتماعاً مشتركاً بقصد تكوين تحالف بين الحركات السياسية في الجزائر، وتحديد المطالب السياسية للشعب الجزائري، وحضر الاجتماع التأسيسي لهذا التحالف الدكتور بن جلول وفرحات عباس وتوفيق المدني من جمعية العلماء، وقد تم الاجتماع في مكتب المحامي أحمد بو منجل، وكان يرأسه الدكتور بن جلول، وبعد نقاش طويل اتفق الجميع على إصدار وثيقة تتضمن النقاط الاتية:

. إنشاء مجلس تأسيس لتحرير دستور لدولة الجزائر.

. تكوين حكومة جزائرية مستقلة تشارك مع فرنسا ومع المتحالفين في المجهود الحربي بصفة جزائرية معترف بها.

. إلغاء تبعية الجزائر لفرنسا على أن تكون العلاقات بينهما محددة بواسطة معاهدة حرة.

. إلغاء نظام الاستعمار، وتحديد ملكية الأرض وتوزيع الأرض من جديد على الفلاحين الذين انتزعت منهم في الماضي.

. الكف عن سياسة وحدة العلم البحري، التي تجعل الجزائر أسرة خاضعة لشركات النقل البحرية الفرنسية وتخسر بذلك أموالاً طائلة.

. إنشاء النقد الجزائري الخاص بالدولة الجزائرية على قاعدة الدينار يساوي 1،000 فرنك، الدرهم يساوي 100 فرنك، الفلس يساوي فرنكاً.

. دخول الجزائريين المستحقين حالاً ميدان الوظائف العامة، على أن تصبح بعد قليل أغلبية الوظائف بيدهم حسب عددهم.

. إعلان وجود «الجنسية الجزائرية» على أن تشمل كل المسلمين، مع من يريد من الفرنسيين واليهود.

. إنشاء مجلس استشاري يضم نخبة الجزائريين حالاً، لكي يقف على تنفيذ هذا المنهج.

. تدعى الدولة الجزائرية حالاً دولة مشاركة مع المتحالفين، تقاتل معهم، ثم تحضر كل مؤتمرات السلام، وتكون عضواً بهيئة الأمم المتحدة، بعد قرار السلام.

(1) التاريخ السياسي للجزائر، د . عمّار بوحوش ص 265.

ومن خلال هذه الوثيقة قام فرحات عباس بكتابة «بيان الشعب الجزائري» الذي قدمه لرجال المقاومة الفرنسية، والسيد مورفي ممثل الولايات المتحدة بالجزائر، لكن ديغول وجماعته رفضوا مطالب الحركات السياسية الجزائرية، وأعلنوا عن تشكيل لجنة لدراسة الإصلاحات السياسية في الجزائر، وقد تم استدعاء فرحات عباس نيابة عن الحركة الوطنية لتقديم مطالب جمعية العلماء وبقية الحركات السياسية، إلا أن النتيجة كانت سلبية، ولم تظهر أية بادرة لتغيير الأوضاع السياسية في الجزائر إلا يوم 12 ديسمبر 1943م عندما خطب ديغول بقسنطينة، ووعد فيها بإعطاء الجنسية لبعض الجزائريين مع المحافظة على هويتهم العربية الإسلامية[1].

3 . اجتماع القمة في مدينة سطيف:

وفي شهر أفريل من عام 1943م، أي بعد خروج مصالي الحاج من السجن ووضعه تحت الإقامة الجبرية في قصر البخاري، شارك البشير الإبراهيمي في اجتماع القمة الذي انعقد في مدينة سطيف بين فرحات عباس ومصالي الحاج، والسيد موريس لابور في الحزب الشيوعي الجزائري، والذي تم الاتفاق فيه بين هؤلاء الزعماء على مبدأ إقامة دولة جزائرية بعد أن تنتهي الحرب، وإنشاء برلمان انتقالي يتكلف بوضع الدستور الجزائري الجديد، لكن البيان الثاني الذي حرره فرحات عباس وقدمه إلى الجنرال كاترو رفضه الفرنسيون، لأنه يتضمن مبدأ دولة جزائرية، لها برلمانها الخاص بها.

وبعد انتهاء الحرب، قررت جمعية العلماء يوم 6 ماي 1945م توسيع نشاطاتها السياسية والثقافية إلى بقية دول المغرب العربي، فأرسلت وفداً إلى تونس واخر إلى المغرب الأقصى، وذلك بقصد توحيد العمل على مستوى أقطار المغرب العربي[2].

4 . أحداث مايو 1945م والأسبوع الأسود:

لقد كان الثامن من ماي 1945م مرحلة أساسية من أساسيات الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري، يقول المؤرخ الجزائري المتميز (أخي وصديقي) الدكتور محمد الأمين بلغيث عن هذه المجزرة الوحشية والأعمال الإجرامية: أعطت هذه المرحلة نقلة نوعية في وعي الحركة الوطنية بالخطر الذي ترتب على جميع المستويات، إذ تقرر بعد هذا «اليوم الحزين» تهيئة الظروف المناسبة للعمل المسلح والثورة الشاملة على الوجود الاستعماري. فعلى الرغم من البؤس الذي عرفته الجزائر منذ مطلع الأربعينات من هذا القرن، كما وصفته التقارير والدراسات المعاصرة، من أمراض وأوبئة حصدت الالاف، إلى مجاعة أدت إلى بؤس شديد، أدى بغالبية الجزائريين إلى أكل الأعشاب وشرب المياه العفنة. كما كانت الجزائر منذ 1942م عرضة لاحتلال الحلفاء من أمريكان

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 267.

(2) المصدر نفسه ص 268.

وبريطانيين ومعهم أنصار فرنسا الحرة، وعلى الرغم من ذلك ؛ فإن عهداً جديداً من الحياة السياسية قد بدأ في الجزائر أكثر حركية وأكثر همة[1].

وعدَّ المؤرخون الجزائريون أن مجازر شهر ماي 1945م، حلقة من حلقات السلسلة الطويلة لعمليات الإبادة، التي دشنتها فرنسا الاستعمارية منذ 1823م، عندما قامت بعملية إبادة رسمية ضد مشاتي قبيلة العوفية في السادس أفريل من السنة المذكورة أعلاه، والتي وصفها دي روفيقو: بشماتة المنتصر، وصفاً لا يليق بالشرف الإنساني ولا الشرف العسكري[2].

ولا يمكن أن ندرك أبعاد حوادث شهر ماي 1945م إلا بعد طرح إشكاليتين طالما عالجهما المؤرخون والسياسيون من أوجه مختلفة، حيث تساءل كثير من الملاحظين عن حوادث ماي ؛ هل هي ثورة فاشلة حاولها الوطنيون الجزائريون ضد الوجود الفرنسي في بلادهم؟ فاستحقوا بذلك القمع الشديد الذي عانوه والدرس القاسي الذي أخذوه، أو كانت مجزرة دبرها الفرنسيون ضد الجزائريين الأبرياء، بينما كانوا يحتفلون بعيد انتصار الحلفاء الذي يرمز إلى انتصار الحرية والديمقراطية[3]؟

والمتتبع للوثائق المعاصرة والتقارير الأجنبية والوطنية، يدرك النقلة السياسية التي وصلت إليها الحركة الوطنية، ممثلة في «حركة أحباب البيان والحرية» التي انضمت إليها معظم الأحزاب الوطنية، والتي وجد حزب الشعب وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين فيها تطلعاتهم الوطنية والحضارية[4].

لقد حاول فرحات عباس أن يكون الشخصية المحورية بقيادة الحركة الوطنية الجزائرية بعد مرحلة مطلع الأربعينات، التي كانت فيها الحركة الوطنية ما بين 1940 . 1942م تفتقر إلى قيادة قوية، فقد مات الإمام عبد الحميد بن باديس الذي كان محلّ تقدير الجميع تقريباً، ودخل مصالي الحاج السجن والمنفى، وفقد ابن جلول ثقة الجزائريين منذ ظهوره في الثلاثينات بمظاهر مترددة وشخصية غامضة، لهذا ظهر فرحات عباس في أفق الحركة الوطنية ليسد الفراغ السياسي الذي تركه غياب ابن باديس ومصالي والعقبي وابن جلول، وهذا من خلال حركة أحباب البيان الجزائري، وهي المنظمة التي التف حولها الجزائريون بصورة ملفتة، وما كادت سنة 1944م تنتهي حتى كانت الحركة الوطنية أكثر صلابة وأكثر وعياً وأعمق تجربة، بالإضافة إلى أنها دخلت مع الاستعمار الفرنسي وإدارته في الجزائر عهداً من التحدي والمواجهة لم تعرفه من قبل، وهو العهد الذي انتهى بمأساة 8 ماي 1945م[5].

أ . ماي 1945 المجازر الفرنسية في الجزائر:

---

(1) تاريخ الجزائر المعاصر، د . محمد الأمين بلغيث ص 173.

(2) المصدر نفسه ص 173.

(3) المصدر نفسه ص 173.

(4) المصدر نفسه ص 174.

(5) المصدر نفسه ص 176.

لقد كان نشاط الحركة الوطنية يعود في أصله إلى النقلة النوعية التي قام بها أنصار «أحباب البيان والحرية» والمطالب القوية التي تقدم بها أصحاب البيان، التي رفضت الإصلاحات الفرنسية المعهودة والمتكررة والتي لا تحقق للجزائريين طموحاتهم في الحرية والتقدم، لقد خرج الجزائريون إلى الشوارع يوم الثلاثاء الثامن ماي 1945م، وهم يعلنون لفرنسا الاستعمارية أن زمن العبودية قد ولَّى، وأن عصراً جديداً قد أطل في أفق الجزائر، التي تحمَّل أبناؤها وأبناء المستعمرات الأخرى مسؤولية حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، وفقدوا الالاف في جبهات الحرب في إيطاليا وفرنسا وغيرها من الجبهات أثناء مرحلة الصراع مع الفاشية والهتلرية، وتحمَّل أبناء المستعمرات ـ ومنهم شعوب المغرب العربي ـ عنتها ووحشيتها.

فكانت وحشية المستعمرين وقوات الشرطة والجيش الفرنسي بالمرصاد، منذ أن أخرج الجزائريون الأعلام الوطنية تعبيراً منهم عن شخصيتهم التي جاؤوا للدفاع عن شرفها، وإعلان مطالبهم في تحقيق مبادأئ ميثاق سان فرانسيسكو، وتحقيق أماني الشعوب في الحرية والديمقراطية.

وكانت إشارة بدء المجزرة في سطيف قد بدأت عقب إطلاق المحافظ أوليفيري النار في الهواء. وكانت تلك الطلقة بمثابة الإشارة التي جعلت رجال الشرطة والقمع يستعدون للقيام بعملياتهم القمعية على مختلف أجنحة موكب المتظاهرين في مدينة سطيف، والذي قدر عدد أفراده بحوالي 000،15 متظاهر، وتجمع الموكب وقدم رجال الشرطة من كل مكان، فقتلوا بوزيد سَعّال حامل الراية الجزائرية وأحد حاملي الزهور، واعترض المتظاهرون رجال الشرطة والمعمرين الأوربيين، فقتل منهم 29 شخصاً، ومنذ ذلك الحين بدأت العملية المدبرة في إبادة الجزائريين في قالمة وسطيف وخراطة، واستخدم العدو كل الأسلحة البرية والطائرات والبوارج البحرية، نسفوا المباني وأحرقوا المشاتي، وكانت عملية الإبادة المعبرة عن حقد دفين وعنصرية لا مثيل لها في تاريخ البشرية عنوان هذه المجازر، التي ما زادت الجزائريين إلا تصلباً في مطالبهم، وقوة في تقرير مصيرهم بأيديهم وبقوة السلاح، لا بورقة انتخاب مزورة سلفا[1].

ب ـ بين الإبادة الجماعية وحقوق الجزائريين في محاكمة القتلة:

لقد كانت المجزرة كبيرة ولا يمكن تصورها في العقد الخامس من القرن العشرين، حيث اتضح للساسة الاستعماريين أن عصر الإمبراطوريات قد انتهى، وأن مبادأئ سيادة فرنسا على ممتلكاتها فيما وراء البحار قد بدأ نجمها يعرف شروقاً غير ما توقعته «فرنسا المنتصرة»، كما يحلو للجنرال «شارل ديغول» أن يسميها، وهو الشاهد والمسؤول الأول عن جرائم الثامن ماي 1945م في الجزائر، والمسؤول عن جرائم الثامن ماي 1945في الجزائر، والمسؤول عن جرائم جنرالاته الجبناء في مرحلة عودته إلى السلطة (1958 ـ 1962) [2].

ج ـ أعداد الشهداء:

(1) المصدر نفسه ص 176، الحركة الوطنية الجزائرية، أبو القاسم سعد الله (227/3).

(2) تاريخ الجزائر المعاصر، د ـ محمد الأمين بلغيث ص 177.

إذا عدنا للحديث عن أعداد القتلى في مذابح «مغول القرن العشرين»، فنجد الوثائق الرسمية الفرنسية والتقارير الأجنبية تتباين في تحديد أسباب الإبادة وأعداد القتلى الأوربيين والجزائريين. وقد اختلفت أرقام وإحصائيات الجامعة العربية وأرقام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبقية أحزاب الحركة الوطنية، وقد أجمع المؤرخون استناداً إلى تقارير رجال الحركة الوطنية على تحديد ضحايا الإبادة ومجازر عصابات الإجرام من غلاة المعمرين وجبناء الجيش الفرنسي . الذين دخلت عليهم القوات النازية إلى باريس بالموسيقى العسكرية بعد تحطيم تحصيناتهم الهشة في خط ماجينو ..

قال الدكتور محمد الأمين بلغيث: فقد أجمع رجال الحركة الوطنية على قتل 45 ألف شهيد من ضحايا الأسبوع الدموي، حيث استخدم غلاة الاستعمار شتى أنواع التقتيل والإعدام والحرق، وقد توالت أيام المجزرة الرهيبة، حيث تفنن فيها أحفاد بيجو وكلوزيل ودي روفيقو وغيرهم في قتل المواطنين الجزائريين العزل والتمثيل بهم، حيث أحرقوا الأحياء بعد جمعهم بالعشرات ورشهم بالبنزين في حظائر بيع الحيوانات، وبقروا بطون الحوامل على رهان زجاجة خمر بين جنديين؛ إن كان ما في بطن الحامل ذكراً أم أنثى، وألقوا بالشيوخ من أعالي الطائرات، كما رشوا الاف الجثث بالجير حتى لا تؤذي الأوربيين، وتركوها أياماً وليالي على أرصفة الطرقات لتكون عبرة لمن بقي حياً من الجزائريين، ولتكون مسرة وابتهاجاً لحثالات الأوربيين.

وهكذا أسفرت حوادث الثامن ماي 1945م التي شملت القطر الجزائري، أسفرت بعد 15 يوماً عن قتل 89 أوربياً، بعضهم قتل بأيدي أوربيين سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، وما يقرب من 45 ألف مواطن جزائري لقوا حتفهم في عمليات القمع والقتل والإبادة الجماعية، كما اعتقل 5،000 مواطن، وهناك المشاتي والقرى التي لم يبق منها إلا الدخان المتصاعد، وكانت هذه المجازر من إمضاء كل القوات الفرنسية العامة في الجزائر وعلى رأسها قوات اللفيف الأجنبي.

إن مجازر الثامن ماي 1945م التي تركزت أساساً في مناطق قالمة وسطيف وخراطة لم تُثنه روح المقاومة لدى الشعب الجزائري، بل كانت بداية مرحلة جديدة، أعيد خلالها النظر في الاستراتيجية وفي وسائل العمل والكفاح للمرحلة المقبلة.

ويمكن حصر النتائج الإيجابية في:

1ً. ظهور جيل جديد شاب عركته المحنة والمأساة، يرفض أسطورة الحضارة الفرنسية المتحررة والتحريرية، التي كانت النغمة المفضلة لعدد من مثقفي الجيل القديم.

2ً. اقتناع الشعب الجزائري بأن تحقيق الاستقلال لا يمكن أن يكون إلا بالسلاح والسلاح وحده، وبذلك أصبحت دعوة الكفاح المسلح تجد سبيلها في أوساط شباب ما بعد الحرب العالمية الثانية[1].

لقد أوضحت أحداث ماي 1945م الطريق للشعب الجزائري بأن الحرية لا تُوهب وتهدى، ولكن تنتزع انتزاعاً من الطغاة المستعمرين، وتروى شجرتها الزكية بدماء الأحرار.

---

(1) المصدر نفسه ص 178.

وقد كانت ذكرى الاعتداء الفرنسي المسلح والبربري ضد الشعب الجزائري الأعزل مجال تذكير من رجال الحركة الوطنية في الجزائر والقاهرة ودمشق، لأن استعراض وتعدد المآسي التي مر بها الشعب الجزائري شكلت أزمة ضمير لدى رجال الحركة الوطنية، الذين عالجوا الأخطاء التي عرفتها كل الانتفاضات المباركة والأساليب التي سحقت بها، إلى حين إعداد الأمة والشعب والرأي العام المحلي والإقليمي لما يعرفه هذا الوطن من مأساة، كان ولا يزال سببها المباشر فرنسا الاستعمارية[1].

قال الشاعر:

قـتـل امـرأئ في غـابـة جـريـمـة لا تـغـتـفـر

وقـتـل شـعـب كـامـل مسـألـة فـيـهـا نـظـر

د . أحداث شهر ماي 1945م «الجريمة والعقاب»:

قال الدكتور محمد الأمين بلغيث: إن من أفظع جرائم الدولة: الإبادة الجماعية، إن المسؤول الأعلى عن كل إبادة جماعية هي الدولة التي وقعت فيها الجريمة وتحت مسؤوليتها، فهذا ما قررته محكمة الشعوب الدائمة المنعقدة بباريس في أفريل 1984م، فما هو حظ مرتكبي الجرائم والأعمال الوحشية والإبادة الجماعية ضد الجزائريين؟ وكما تثبت الشهادات التاريخية والوثائق الحية، فهل وجد الضحايا من محكمة الشعوب إنصافاً وعدلاً؟ وهذا باعتراف الدولة الفرنسية سليلة الثورة الفرنسية وقانون المواطنة وحقوق الإنسان، فهل من حقنا كجزائريين ومؤرخين أن نطالب بحقوق الضحايا المادية والمعنوية من السلطات الفرنسية الحالية؟ أم ننسى أننا قد خنا ذكرى هؤلاء الشهداء، ولم ننصف العدالة والحقيقة التاريخية بمحاكمتنا للمجرم أي كان؟؟[2].

5 . دستور عام 1947م وموقف جمعية العلماء:

كان موقف جمعية العلماء من دستور عام 1947م واضحاً، وأصدرت الجمعية بلاغاً إلى الأمة الجزائرية جاء فيه:

إن الدستور الذي وضعته الحكومة الفرنسية للجزائر ووافق عليه برلمانها في أكتوبر 1947م هو دستور ناقص من جميع جهاته، لم يحقق رغبة واحدة من الرغائب الوطنية للجزائر، وافته أنه فرض عليها فرضاً ولم يؤخذ رأيها فيه. والدستور النافع هو الذي يكون للأمة رأي في وضعه، واختيار لمناهجه ويد في تشريعه، ويكون ناشئاً عن رغائبها ليكون محقِّقاً لرغائبها. ولتلك الافة لم يرضه حزب من أحزاب الأمَّة ولا نائب من نوَّابها، على اختلاف مشاربهم الحزبية، وعلى تفاوت حظوظهم في الوطنية، بل قابله جميعهم بالاستنكار.

والمجلس الجزائري الذي ينفذ ذلك الدستور، هو مجلس ناقص أيضاً من جهات كثيرة، بعضها في أصل وضعه، كعدم اعتبار النسبة العددية في السكان، وبعضها في وسائل تشكيله كاستبداد الحكومة بتخطيط الدوائر

(1) المصدر نفسه ص 179.

(2) المصدر نفسه.

الانتخابية، وتدخلها في توجيه الانتخاب إلى جهاتها، وضغطها على حرية المنتخبين، كما عهدناه منها فيما هو أقل من هذا الانتخاب قيمة وأحط منه اعتباراً.

ومع تلك النقائص كلها ؛ فإن مصلحة الأمة الحقيقية توجب عليها أن تجاري الظروف، وأن تستغل ما في هذا الدستور من خير ولو كان كقطرة من بحر.

وجمعية العلماء التي هي جمعية الأمة كلها تفرض عليها حقيقتها ووضعيتها أن تكون فوق الطوائف والأحزاب، لتكون حكماً بينهم إذا اختلفوا على مصلحة، وهي التي لا تستمد حكمها إلا من منطق الواقع والحكمة والمصلحة العامة والنظر البعيد.

وعليه، فهي تتقدَّم إلى الأمة العربية الجزائرية بأحزابها وهيئاتها وأفرادها بالحقائق الاتية:

أولاً: إن اختلاف الأحزاب، وما جرَّه الخلاف من سباب، وما جرَّه السباب من أحقاد، وما جرَّته الأحقاد من تضييع للمصلحة، كل ذلك استنكرته الجمعية بالاعتقاد وأنكرته بالقول الصريح، وسعت في إزالته بالعمل الجدِّي، لأنها تعلم أن عواقبه وخيمة، وأن أدنى عواقبه تمزيق الشمل وإضعاف القوة: وأنه ـ أولاً وأخيراً ـ ليس من مصلحة الوطن والأمَّة، وإنما هو من مصلحة خصوم الوطن وأعداء الأمة.

وقد قامت الجمعية في أوقات ومناسبات شتى بمساعٍ جدِّية صريحة للتقريب بين الأحزاب، وإقرار روح الأخوة والتسامح في النفوس، لتصل من ذلك إلى اتحاد متين يوجِّه الجهود والكفاءات إلى خدمة المصالح الحقيقية للوطن. واخر جهودها ما قامت به في هذه الأسابيع الأخيرة المتصلة بكتابة هذه السطور..

وهي ـ وإن لم تصل إلى غايتها من جمع الكلمة ـ لم تيأس من ذلك ولم تفشل، وما زالت تفترص الفرص لتجديد السعي في جمع الكلمة على الحق، وتوحيد الأحزاب على المصلحة العامة للوطن، وهي تعتقد أن الاتحاد الذي تنشده الأمة، وتعلِّق امالها على جمعية العلماء في تحقيقه، إذا لم يتم اليوم فسيتم غداً. والجمعية تعلن أنه ليس من مصلحة الأمة ولا من مصلحة الأحزاب ولا من مقتضيات الذوق ؛ أن تشرح مساعيها للاتحاد في هذه الظروف[1].

ثانياً: يجب على الهيئات الداعية للانتخابات باسم الحرية أن تجرِّد دعايتها من السب والقدح وجرح العواطف وإثارة الأحقاد، وأن تبني تلك الدعاية على أشرف ما تُبنى عليه الدعايات في الأمم الحيَّة، وهو المبادأئ والبرامج ووسائل تحقيقها، وعلى القادة والمترشحين أن لا يقولوا ولا يعملوا إلا ما يبقي على الأخوَّة، ويعين في المستقبل على جمع الكلمة. وعلى عقلاء الأمَّة أن يُلزموا أولئك الدعاة عند حدود الاعتدال، ويُفهموهم أن في مكافحة الاستعمار ما يستفذ أقوال القائلين وأعمال العاملين، وليعلموا جميعاً أن هذه النقطة من أسس تربية الأمَّة تربية رشيدة.

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (191/2).

ثالثاً: يجب على الأحزاب التي تجعل رائدها مصلحة الوطن العليا ؛ أن تجري في الدورة الثانية على قاعدة متبادلة وهي أن تسلم الأقلية منهم للأكثرية، وأن تعاونها على الفوز، لكي يسدوا الطريق في وجه الحكوميين والانتفاعيين الذين لا يمثلون إلا أنفسهم.

رابعاً: يجب على الناخبين أن يقدِّروا هذه الانتخابات حق قدرها، وأن لا يستخفوا بها، ولا يقاطعوها، وأن لا يتخلف أحد عن الانتخاب، وأن لا يتأثر بتهديد الإدارة وتخويفها، وليعلم أن إعطاء ورقته شهادة للوطن أو عليه، فليعرف أين يضع ورقته، ولمن يعطي شهادته، وإن المقاطعة وإعطاء الورقة لغير الرجال العاملين هو تضييع لحقوق الوطن يعود عليه بأشأم العواقب.

خامساً: يجب على الأمَّة أن تميِّز بين أصحاب المبادأئ وأصحاب الأغراض والمنافع الشخصية، وأن تفرِّق بين من يقدِّمه حزب أو جماعة من الأمة وبين من يقدِّم نفسه.

والواجب عليها بعد أن تميِّز هؤلاء من هؤلاء ؛ أن تعطي أصواتها لأصحاب المبادأئ، وتنبذ الفريق المستغل المستعمر المفتون بكراسي النيابة لا ليخدم الأمَّة بل ليخدم نفسه، وقد جربت الأمة هذا النوع من النوَّاب، ولا يُلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين، وإن أخزى الرجال رجل يتوصل إلى النيابة عن الأمة بوسائل سخيفة وأوراق مسروقة وحريات مغصوبة.

سادساً: يجب على الأمَّة أن تحذر كل الحذر من المرشحين المستقلين، فإن هذا الوصف خداع يلوذ به كل حكومي وينتحله كل انتفاعي، ولا يصدق منه إلا القليل، وإذا وجد من هذا القليل مترشح فأهل دائرته أعلم به. فليستوثقوا منه ومن صلاحيته وخدمته للمصلحة الوطنية.

أيتها الأمة:

إننا نعرف الإدارة الجزائرية الاستعمارية، ونعرف أنها لم تغيِّر شيئاً من عاداتها القديمة، ونعلم أنها تجهد جهدها لتقيم من هذا الانتخاب دليلاً على أن نوَّاب الجزائر لا يطلبون لها إلا الخبز والثياب، وأن هذا هو كل ما تطلبه الأمَّة الجزائرية وكل ما تستحقه، فكَذِّبي هذا الدليل بدليل يدحضه بحسن اختيارك للرجال ذوي المبادأئ المطالبين بحقوقك السياسية، المثبتين لاستحقاقك الحرية الكاملة، التي ترفعك إلى المكانة العالية بين الأمم الحية.

عن المجلس الإداري

الرئيس: محمد البشير الإبراهيمي

إن العلامة محمد البشير الإبراهيمي يسطر لنا بقلمه الممتع وتجربته الثرية فقه الكلمة، وعلماء أحبوا اللغة ومعلمين راضو الأجيال على ذلك، أين نحن وأحزابنا من ذلك؟

يا إخواننا ـ خطاب عطف وتشريف ـ لسنا والله نبغضكم، فما أنتم إلا جزء منا، ولسنا والله نحتقركم، فما أنتم إلا رأس مال هذه الأمة الفقيرة، ولسنا والله نتهمكم بممالأة الاستعمار فأنتم عندنا أجلّ من ذلك، ولكننا

نعدّ مقاومة المقاومين منكم لجمعية العلماء ناشئة عن بعدهم عن التربية الإسلامية والثقافة العربية، ونجد في كل عيب من عيوبهم أثراً بارزاً من اثار الاستعمار في تربيتهم.

إن أقبح ما في أساليبكم أنكم تقسرون المبادأئ على الخضوع للشخصيات في أمة حديثة عهد بعبادة الأشخاص، فتعرضونهما معاً للضياع، وإن أسوأ أعمالكم احتقاركم للسواد الأعظم من الأمة ـ وهي أمتكم ـ فلا تفكرون في إعدادها ولا في درجة استعدادها، ولا تلتفتون إلى تصحيح الأسس فيها، ولا تعبؤون بدينها ولا بلغتها، ولا تظهرون بالمظاهر التي تقربكم منها، ولا تنيرون أمامها السبل ببرامج واضحة ومبادأئ معقولة، ولا تشركونها في رأي ولا مشورة، ولا تتصلون بها إلا حين ينعق غراب الانتخاب[1].

إن منكم من يحتقر لغة الأمة فلا يقيم لها وزناً، وفيكم من يحتقر دينها فلا يقرأ له حساباً، وفيكم من يحتقر بناتها فلا يتزوج منهنَّ، وفيكم من يأنف من خؤولتها لأبنائه فيختار لهم أخولاً غرباء، وإن بعض ذلك لقدْح محسوس في أمتكم الحاضرة، وإن بعضه لسم مدسوس في أعراق أمتكم المقبلة. فيا ويحكم!. هل هذا كله إلا من اثار الاستعمار في نفوسكم، شعرتم أم لم تشعروا؟

ويا إخواننا.. إنكم أحرجتمونا بأعمالكم وأقوالكم وأحوالكم، فأخرجتمونا من مقام التلطف في النصيحة إلى مقام الإيجاع في التنديد، وأردتم أن تثلموا سيفاً من سيوف الحق، فلا تلوموه إذا خشن متنه والم جرحه، فتجرَّعوا هذه النصائح على مرارتها في لهواتكم. فما نحن ـ بمكاننا في الدين ـ أقل من أن نَنصح، ولا أنتم ـ بمكانكم في أنفسكم ـ أجل من أن تنتصحوا.

يا إخواننا.. إن الدعوى والزعم وسفاسف الأقوال وتوافه الأعمال وتصغير الكبائر وتكبير الصغائر؛ كل ذلك مما لا تقوم عليه عقيدة سياسية ولا تربية وطنية.

إننا لو جمعنا كل ارائكم في السياسة وفرضنا تحقيقها لما أفادت الأمة شيئاً، وهي بهذه الحالة من التربية فكيف وأنتم متباينون؟ وكيف وأنتم مع الخلاف يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضاً؟

إن وراء السياسة شيئاً اسمه الكياسة، وهي خلق ضروري للسياسي. وإن السياسي الذي يحترم نفسه، يحترم غيره مهما خالفه في الرأي، ومهما كان الخلاف جوهرياً، فإذا لزم النقد فلا يكون الباعث عليه الحقد، وليكن موجهاً إلى الاراء بالتمحيص، لا إلى الأشخاص بالتنقيص[2].

إننا لا نتصور كيف يخدم السياسي أمته بتقطيع أوصالها وشتم رجالها وتسفيه كل رأي إلا رأيه، ولا نتصور أن مما تخدم به الأمة هذه الدروس «العالية» في أساليب السب، التي يلقنها بعض الأحزاب لطائفة من شباب الأمة في «معاهد» المقاهي والأزقة، إن تضرية الشباب على الشتم والسباب جريمة لا تغتفر.

---

(1) اثار الأمام محمد البشير الإبراهيمي (67/3).

(2) المصدر نفسه (67/3).

إن شباب الأمة هو الدم الجديد في حياتها، فمن الواجب أن يصان هذا الدم عن أخلاط الفساد، ومن الواجب أن يتمثل فيهم الطهر والفضيلة والخير، ومن الواجب أن تربى ألسنتهم على الصدق وقول الحق، لا على البذاء وعورات الكلام.

يا قومنا: إننا نخشى أن تفسدوا على الأمة «بهذه الدروس» جيلاً كاملاً كنا نجهد أنفسنا في تربيته على طهارة الإسلام، وهمم العرب، ومجد العروبة، والإيمان بحقوق الوطن، والعمل على تحقيق استقلاله وحرِّيَّته، ونبنيه طبقاً عن طبق، ونعلي أخلاقه خلقاً عن خلق، نخشى أن تضيِّعوا على الأمة هذا الجيل، وتفسدوا مواهبه، وتلهوه بالمناقشات الحزبية عن الحقائق القومية[1].

نخشى ذلك.. ونخشى أكثر منه على هذه الطائفة المقبلة على العلم المنكبّة على تحصيله.. هذه الطلائع التي هي امال الأمة ومناط رجائها والتي لا تحقِّق رجاء الأمة، إلا إذا انقطعت إلى العلم وتخصَّصت في فروعه، ثم زحفت إلى ميادين العمل مستكملة الأدوات تامة التسلُّح، تتولى القيادة بإرشاد العلم، وتحسن الإدارة بنظام العلم، فتثأر لأمَّتها من الجهل بالمعرفة، ومن الفقر بالغنى، ومن الضعف بالقوة، ومن العبودية بالتحرير، وتكتسح من ميدان الدين بقايا الدجالين، ومن ميدان السياسة والنيابة بقايا السماسرة والمتَّجرين، ومن أفق الرياسة بقايا المشعوذين والأميين.

هذه الطائفة الطاهرة، الطائفة بمناسك العلم، قد ألهبتم في أطرافها الحريق بسوء تصرفكم، فبدأت تنصرف من رحاب العلم إلى أفنية المقاهي، ومن إجماع العلم إلى خلاف الحزبية.

إن من طلاب العلم هؤلاء من يدرس الدين، وإن الدين لا يجيز لدارسه أن يفتي في أحكامه ؛ إلا بعد استحكام الملكة واستجماع الأدلة، حذراً من تحليل محرّم. وإن منهم الدارس للطب، وإن قانون الطب لا يُجيز لدارسه أن يضع مبضعاً في جسم إلا بعد تدريب وإجازة خوفاً من إتلاف شخص، فهل بلغ من هوان الأمة عليكم أن تضعوا حظها في الحياة في منزلة أحطّ من حظ امرأة في طلاق، وأن تجعلوا حقَّها في الدواء أبخس من حق مريض على طبيبه؟

إنها ـ والله ـ لجريمة يقيم بها مرتكبوها الدليل على أنهم أعداء للعلم وقطَّاع لطريقه، أم يقولون: «لا علم بدون استقلال» [2].

فيعاكسون سنة الله التي تقول: «لا استقلال بدون علم»، أم يقولون ما قاله كبير منهم: «إن محمداً لم يأت بالعلم، وإنما أتى بالسياسة». و«إن روسيا لم تفلح بالعلم، وإنما أفلحت بالسياسة».

يا قومنا.. إن الأمة تنظر إلى الأعمال لا إلى العقائد، وإننا لنتوقع أن تشعر الأمة بما في سلوككم من اضطراب وتناقض بين المبادئ والأعمال، فتتزعزع ثقتها بالأحزاب جميعاً، ويذهب الحق في الباطل، وإننا ـ والله ـ لا نرضى لكم هذه العاقبة، ولا نرضى لأمة فقيرة من الرجال أن يسوء ظنّها برجالها.

---

(1) المصدر نفسه (68/3).

(2) المصدر نفسه (68/3).

هذه نصائح مريرة، وحقائق شهيرة، لم نسمِّ فيها أحداً، فمن استفزَّه الغضب منها، أو نزا به الألم من وقعها، فهو المريب، يكاد يقول خذوني.

جمعية العلماء فوق الأحزاب كلها:

وبعد.. فإن جمعية العلماء فوق الأحزاب كلها، ما ظهر منها وما بطن، وإن مبدأها أعلى من المبادأئ كلها، ما استسرّ منها وما علن، ولقد اتصلت بجميع الأحزاب فرادى ومجتمعين في المصالح العامة، فأرتهم بأقوالها وأعمالها أنها فوق الأحزاب، وقد احتكت بها جميع الأحزاب، مِن خاطب لوُدِّها إجلالاً، إلى رائم من نفوذها استغلالاً، إلى عامل على الكيد لها احتيالاً، فأرتهم بمعاملاتها لجميعهم أنها فوق الأحزاب، ودعت الأحزاب إلى الصلح والاتحاد، وجمعتهم للاشتراك في العمل، فكانت في ذلك كله فوق الأحزاب[1].

وما دامت تعمل في ميدان لا يختلف فيه الرأي، ولا يتشعَّب فيه الهوى، فإن منطق الواقع لا يسمح لها بغير ذلك، وإن تاريخها يشهد بأنها تنصر الحق حيثما وجد، وتدور معه حيث دار، وأنها تزن الرجال بأعمالهم الصحيحة، ومبادئهم الثابتة، وتزن الأحزاب ببرامجها الواضحة وارائها العملية، وأنها تقارب الجميع وتباعدهم على قدر قربهم من الإسلام والعروبة وبعدهم عنهما.

هذه هي الحقيقة لا يماري فيها إلا ذو دخلة سيئة وهوى مضلّ.

أما حين تمتد الأيادي الاثمة إلى حمى الدين أو حمى القومية العربية، أو حين يتساهل السياسون في حقهما ؛ فإن للجمعية في ذلك كلمتها الصريحة التي لا جمجمة فيها، وموقفها المشرِّف الذي لا هوادة فيه.

حاربت سياسة الاندماج في جميع مظاهرها، فقاومت التجنيس ونازلت أنصاره الخُمس ودعاته المقاويل، حتى قهرتهم وأخرستهم وقطعت الحبل في أيديهم، ثم أفتت فتواها الجريئة فيه، يوم كانت الجرأة في مثل هذه المسائل باباً من العذاب، فكان ذلك منها تحدياً للاستعمار، وإبطالاً لكيده، وتعطيلاً لسحره، وأثبتت بتلك المواقف للجزائر إسلاميتها، وحاربت العنصرية التي كان الاستعمار يغذيها ويعدّها من أمضى أسلحته لقطع أوصال الأمة، فقطعت دابرها والاستعمار خزيان ينظر، وأثبتت بذلك للجزائر قوميتها العربية.

وحاربت . اخر ما حاربت . لائحة 7 مارس بشدة وقوة، وشنعت بها في دروسها وخطبها، وبينت للأمة الدسائس التي تنطوي عليها اللائحة، وأنها وسيلة «شيطانية» إلى الاندماج، جيء بها بعد خيبة الوسائل التي تقدمتها[2].

هذه هي الميادين التي تفردت فيها جمعية العلماء بالبطولة في حرب الاندماج ودعاته والمروِّجين له، وهذه أعمالها فيه قائمة بشواهدها، داحضة لافتراء المفترين وأقاويل المتقوِّلين، بأنها أيدت أو تؤيِّد سياسة الاندماج، ولو كانت الجمعية تحارب الاندماج باسم السياسة وبأسلوب السياسيين لجاز أن يقال: قد بدا لها بداء. وما أكثر البدَوات في السياسة، ولكنها حاربته باسم الدين، والدين كله يقين لا يتزعزع، وبصائر لا تزيغ[3].

---

(1) المصدر نفسه (69/3).

(2) المصدر نفسه (69/3).

(3) المصدر نفسه (70/3).

7 . قضية فصل الدين عن الحكومة:

لقد اهتم الإمام الإبراهيمي بهذا الموضوع الخطير، وعمل على فصل شؤون الدين عن سيطرة الحكومة الفرنسية في الجزائر، وكافح كفاحاً عظيماً، وناضل نضالاً مريراً لتكون شؤون الدين الإسلامي من حج وإمامة وصيام وصلاة وتعاليم وقضاء وغير ذلك، بعيدة عن سيطرة الحكومة الفرنسية في الجزائر، ومما كتبه في هذا المجال:

أ . الواجب على أعضاء المجلس الجزائري المسلمين أن يطلبوا إدخال الدين المسيحي بكنائسه وأمواله ورجاله تحت سلطة الحكومة دخولاً عملياً، بحيث تكون هي التي تتصرف في الأموال، وتولي من يكون جارياً على هواها، وتعزل من يدعو إلى نزعة سياسية أو إلى حزب أو إلى إنتخاب، وأن يطلبوا إدخال الدين اليهودي ببيعه وأحباره وأوقافه تحت سلطتها أيضاً، بحيث لا يجري شيء من التصرفات في ذلك الدين، إلا بأمرها وعلى ما يرضيها، فتسمي الموظفين الدينيين، وتقوم لهم بأجورهم، وتحاسبهم على الأنفاس، وتعزل كل من يستحق العزل، كل ذلك على ما يشهد «الدوسي» المبارك.

يجب على النواب أن يطالبوا بهذا ويتشددوا فيه، لأنه إنصاف وعدل وحكومة الجزائر منصفة عادلة . تبارك الله أحسن الخالقين . ولأنه المظهر الواضح لقوة الحكومة وسلطتها، ولأنه زيادة في تلك القوّة وتلك السلطة.

فإذا أبى عليهم ذلك زملاؤهم من النواب الفرنسيين واليهود، وقالوا: إنهم لا يتدخلون في الأديان، أو أبت الحكومة، وقالت: إنها حكومة لائكية، فليقل النواب المسلمون في صراحة وحق: والإسلام؟ لماذا يبقى غريباً شاذاً بعيداً عن هذه اللائكية؟

إن الأديان في الوطن ثلاثة، فمن الواجب أن تعامل معاملة واحدة، وإن المسلمين ومعابدهم أكثر عدداً، فمن الإنصاف أن يكونوا هم القاعدة في المعاملة والأصل في وضع الأحكام، وما دام دينهم مستعمَراً فمن العدل أن يكون الدينان مستعمَرين أيضاً، فإذا لطفنا العبارة قلنا: ما دام الإسلام في قبضة الحكومة، فليكن الدينان الاخران في قبضتها أيضاً.

هذا هو المنطق المعقول الحكيم الصائب المتزن، فليتمسك به النواب المسلمون وليكونوا رجالاً، فإذا رضيت الحكومة «واستطاعت» ضمَّ الدينين إلى حوزتها، ووضعتهما تحت تصرفها، كما ضمت الشركات المالية مثلاً، فإن الأمة الإسلامية من وراء النواب ترضى ببقاء مساجدها وأوقافها بيد الحكومة، ونحن نكسر الأقلام، ونكمّ الأفواه، ونحبس الألسنة، فلا نتحرك في هذه المسألة بحرف ولا نفس، لأن هذه الحالة الخاصة بنا إن كانت خيراً ؛ فنحن لا نرضى أن نستأثر بها دون جيراننا المسيحيين واليهود، وإن كانت شرَّاً فلماذا نختص بها وحدنا، ونحن نريد أن يشاركونا فيها حتى يخفّ ثقلها ويهون وقعها، والمصيبة إذا عمّت هانت، ومن معاني الديمقراطية الاشتراك في الخير والشر.

إن المسألة خطيرة، وإنها مسألة تهم تسعة ملايين من المسلمين، وإن النواب مسؤولون عنها عند الله، محاسبون عليها من الأمة، وإن حجة الأمة فيها أوضح من الشمس، وإننا سنشرحها للنواب حتى يكونوا على بصيرة، وحتى لا يغتروا بالاراء المسخرة من الطوائف المسحرة[1].

ب ـ **لو كانت الحكومة الفرنسية صادقة** في فصل الإسلام عن حكومة الجزائر، مجتهدة فيه غير مقلدة للإدارة الجزائرية، ولا متأثرة بأفكارها الاستعمارية الضيقة، لو كانت كذلك لتولت بنفسها ذلك الفصل قبل تقرير دستور الجزائر، ولنفذت الفصل بأصوله وفروعه حتى يكون الدستور ـ كدساتير الأمم الديمقراطية ـ خالصاً للدنيويات التي يشترك فيها جميع الناس، خالياً من الدينيات التي تخص الطوائف، وبذلك يكون دستوراً لأمة جزائرية منسجمة حرة في أديانها مقيدة بدستور واحد في دنياها، ولكن الحكومة الفرنسية ـ فيما بلونا من أمرها ـ يدركها الغرق في تيار المستعمرين وأعوانهم من الحكام الإداريين كلما اعترضتها مشكلة من مشاكل الجزائر، فلا تسنّ إلا ما يرضيهم وإن أغضبت الحق والإنسانية وهدمت الجمهورية والديمقراطية، ولا ندري أذلك كله دلال أم هيبة أم هما معاً[2].

وفي فصل الدين عن الحكومة وإيكاله إلى أهله شرف عظيم للحكومات الديمقراطية، وأيُ شرف أعظم لفرنسا ـ مثلاً ـ من أن يعلن رئيس جمهوريتها أو رئيس وزرائها ـ بموافقة برلمانها ـ أنها فصلت الإسلام بمساجده وأوقافه وقضائه عن حكومة الجزائر، وتركته لأهله يتصرفون فيه بحرية كما يتصرف إخوانهم في المغرب وتونس والهند والصين، فتفوز فرنسا وبرلمانها بالذكر الحسن والثناء الطيب في العالم الإسلامي أولاً، وفي العالم الديمقراطي ثانياً، لأن التسلط على الأديان بالصورة التي في الجزائر ليس من الإسلام ولا من الديمقراطية ولا من الإنسانية، فلا عجب أن يطرب لتحرير دين عظيم من ربقة الاستعباد في ناحية من الأرض، كل مسلم على وجه الأرض، وكل ديمقراطي، وكل إنسان.

ولكن الحكومة الفرنسية تتنازل عن هذا الشرف العظيم، وهو إعلان الفصل القطعي تشريعاً وتنفيذاً، للمجلس الجزائري، وهو محجور للبرلمان الفرنسي، وللحكومة الجزائرية وهي فرع الحكومة الفرنسية، فهل كان هذا التنازل تواضعاً وزهداً وإيثاراً للمجلس الجزائري ومحبة؟ لا لا.

ونحن نعرف السر في هذا التنازل، ونعرف أن حكومة فرنسا وحكومة الجزائر كانتا على اتفاق فيه، ونعرف أن من تقاليد الحكومة الجزائرية التمسك الشديد بهذه السلطة المطلقة على مساجد المسلمين وأوقافهم، وما هي سلطة، بل هي ملك مديد، رعاياه هذا العدد العديد من المفتين والأئمة، والمؤذنين و«رجال الدين»، وإن لحكومة الجزائر في بقاء هذا الجيش تحت يدها مارب أخرى تفوتها بإنفلاته من يدها. وما زالت هذه الحكومة منذ عشرات السنين تعارض في قضية الفصل وتطاول وتمدّ الاجال، إلى أن أرهقتها المطالبة وحدثت فكرة

(1) المصدر نفسه (84/3).
(2) المصدر نفسه (84/3).

«دستور الجزائر»، فأوحت إلى حكومة فرنسا أن تنص على الفصل، وتكل تنفيذه إلى المجلس الجزائري الذي ولّده الدستور، لتصل عن طريقه إلى فائدتين:

الأولى: بقاء ما كان على ما كان.

الثانية: إفهام العالم بأن نواب المسلمين هم الذين رضوا بل طلبوا إبقاء ما كان على ما كان.

وما فعلت هذا إلا لاعتمادها على نفسها، وعلى وسائلها المعروفة في تكوين المجلس الجزائري، وتشكيله على الكيفية التي تضمن لها ما تريد، وقد فعلت كل ذلك وكونت لنفسها وسائل الفوز، ولم تبق إلا غيرة السادات النواب على كرامة دينهم وتقديمها على كل اعتبار، فليفهم النواب المسلمون هذا جيداً، وليحاسبوا ضمائرهم، وليعلموا أن الدين لا مساومة فيه ولا مهاودة، وأن جميل الحكومة مع بعضهم في الأول لا يكون على حساب الدين في الأخير.

ج ـ ...**ووقع الفصل في باريز لفظاً وكتابة ونصَّاً** في الدستور، فهل يقع الفصل هنا في الجزائر؟ وهل يقع على ما تريده الأمة، أو على ما تبغيه الحكومة؟ والنواب المسلمون مهما يبلغ ببعضهم التأثر، فإنهم لا يوافقونها على إبقاء ما كان على ما كان، لأن ذلك مناقض للفصل الذي نص عليه الدستور نصَّاً صريحاً.

أما الحكومة الجزائرية فإنها تحلف برأس كل عزيز عليها أنها قادرة على الجمع بين الفصل والوصل في ان واحد، وأنها زعيمة بالجمع بين المتناقضات ولا عجب من حكومة كاثوليكية لائكية، أن تضيف لهما نقيضاً ثالثاً هو «التمسك بالإسلام».

قال الرواي: وكيف يتم ذلك؟

د ـ ذلك أن الحكومة الجزائرية معروفة بالحزم في مثل هذه القضية من شؤون المسلمين، ومعروفة بادخار الرجال لأوقات الشدة، وبوضع الإحسان عند من يشكره ولا يكفره، ومن بين من ادخرتهم لهذه القضية وجربتهم فكشفت التجربة عن إخلاص وطاعة، واصطنعتهم وكان الاصطناع في محله. رجل طموح إلى المناصب، يركب لأجلها الصعب والذلول، ويستسهل في سبيلها إخراب البصرة وإحراق روما، وهو الحاج، الحاج فعلاً، الحاج نية، أمير الحج الجزائري في إحدى الحجات، الشيخ محمد العاصمي المفتي الحنفي بالجزائر. ما زلنا نتتبع أعمال هذا الرجل منذ سنين، ونتوسم من حركاته أنه نصب وخفض معاً، وأنه مهيأ من الحكومة لأن يكون «حلقة مفقودة» لقضية ما في يوم ما، حتى أوقفنا حسن حظنا أو حظه في هذه الأيام على تقرير مطول في هذه القضية مرفوع باسمه إلى المجلس الجزائري، مقدم إلى بعض أعضائه دون بعضهم، ومما يلفت منه نظر القاصرين «أمثالنا» ـ وبين لهم أن الأمر مدبر من زمان بعيد ـ أن التقرير مؤرخ بيوم 21 مارس سنة 1948م مع أن المجلس الجزائري لم ينتخب أعضاؤه إلا يوم 4 إبريل سنة 1948م[1].

وقرأنا التقرير من أوله إلى اخره، وأعدنا قراءته استجلاء أو استحلاء، فوالذي خلق العاصمي ـ وقدّر أن يكون مفتياً في العاصمة ـ ما وجدنا فيه من العاصمة إلا اسمه وختمه، أما ما عدا الاسم والختم فهو وضع إدارة الفتيا

---

(1) المصدر نفسه (86/3).

ورجال «غير رجال الدين». وقد فهمنا التقرير ومراميه والمحور الذي يدور عليه، وسنشرحه شرحاً يفك معضلاته ويفتح مقفلاته، ومعذرة إلى القراء فهذه طلائع يتبعها الجيش العرمرم، ومقدمات بعدها الحكم المبرم[1].

8. ملاحظات عامة على التقرير الحكومي العاصمي:

قال الإبراهيمي: في الإدارة الجزائرية العليا مطبخة ـ ليست كالمطابخ ـ تُطبخ فيها الاراء والأفكار في كل ما دقَّ وجلَّ من شؤون المسلمين. والقائمون على هذا المطبخ طهاة يُحسنون الفن، ودهاة يحكمون بأول الظن، وهم منتخبون من طراز خاص، أول الشروط فيهم أن يكونوا قد أفنوا أعمارهم في حكم المسلمين، واجتازوا المراتب الإدارية من أدناها إلى أعلاها، وتمرسوا بمحكوميهم وفهموا ميولهم واتجاهاتهم ودرسوا مواطن الضعف والقوَّة فيهم، واخر الشروط فيهم أن يكونوا استعماريين قبل كل شيء، والسيد السند من هؤلاء هو الذي يُثبت أنه حكم المسلمين حكماً استبدادياً، وعرف كيف يُرهقهم وكيف يُذلهم وكيف يضرب بعضهم ببعض، ويمزق شملهم، وكيف يستلب منهم العقل والإدراك، وكيف يروّضهم على أن يقابلوا اللكم بالبكم، والصفع بالشكر، حتى يكتسب من كل ذلك ملكة فيما يسمونه «السياسة الأهلية»، بحيث لو كانت لها درجات كالدرجات العلمية ؛ لمنحوا صاحبها لقب أستاذ في الشيطنة، كما يقال أستاذ في الفلسفة.

في هذا المطبخ طبخ التقرير العاصمي ملفوفاً بتوابله، وفيه وُلد محفوفاً بقوابله، فجاء كما رأيناه وفيه طعم الإدارة ولونها وريحُها، ولو نطق لشهد بالمطبخ والطابخ[2].

وفي تلك الإدارة نفسها معمل لصنع الرجال على أشكال ومقادير مخصوصة، لا يشترط في المادة الخام إلا أن تكون ذات قابلية واستعداد وطوع وانقياد، وفي المعمل جهاز كيموي من خصائصه إحالة الأعيان معاني، والمعاني أعياناً، فيحيل الرجال مكائد، والمكائد رجالاً.

وفي هذا المعمل صُنع العاصمي وامتحن، فكشف الامتحان عن استيفاء الخصائص والصلاحية للاستعمال، وأصبح ـ بعد استكمال التجربة والاختبار ـ موظفاً في إحدى هذه الوظائف المدَّخرة لوقت الحاجة، ولمن تدعو إليهم الحاجة، وهي الإفتاء الحنفي بالجزائر، أي مفتي الجامع الحنفي بالجزائر، إذ لم يبق من الحنفية فيها إلا جامع يحمل هذه النسبة المجردة، ورأى أن الجامع يجمع ولا يفرق، فوضع فيه رجلاً ـ أيًّا كان ـ ليفرق به ولا يجمع، وحفظ به هذه الوظيفة لهذه الغاية.

ومن دأب الاستعمار فينا أن يُعمر الرجال بالوظائف لا الوظائف بالرجال، وإذا لم يبق في الجزائر من يتعبد على مذهب أبي حنيفة أو يتعامل عليه، فأي معنى لوجود مفتٍ حنفي أو قاضٍ حنفي، لولا أن للاستعمار مأرباً في بقاء هذه المعالم الصورية من بقايا العهد التركي، على أن نسبة المساجد إلى المذاهب ليست من الإسلام في شيء، إذ هي منافية لروح الإسلام، ومناقضة لحكمته في المساجد[3].

---

(1) المصدر نفسه (87/3).
(2) المصدر نفسه (87/3).
(3) المصدر نفسه (88/3).

إن وظيفة المفتي من أساسها تزوير على الإسلام، لأن الفتيا في الحلال والحرام حق على كل عالم بالأحكام مستوفٍ للشرائط المقررة في الدين.. وإن وجود وظيفة مفتٍ حنفي في الجزائر تزوير على المذهب الحنفي، وابن العاصمي ومن جرى مجراه من فقه أبي حنيفة ودقائقه وقياسه؟

إن نسبة الحنفي تشترك في بني حنيفة وأبي حنيفة، فلينظر العاصمي أشبه النسبتين به، وبنو حنيفة هم قوم مسليمة الذين اووه ونصروه، ومن غرائب الشبه أن مسيلمة الحنفي كان تشويشاً على مطالب المسلمين الحقة والتقرير محبوك الأطراف حبكاً استعمارياً، مسبوك الألفاظ سبكاً إدارياً، يبدأ من الحكومة وينتهي إليها، يلوح من خلال ألفاظه ومعانيه حرص الحكومة على أن لا يفلت هذا الصيد من يدها، فهي تستنجد التاريخ وتستشهد بعوائد المسلمين ونظم الأقطار الإسلامية، وهو ينطوي على تلك الروح التي نعرفها في المعاهدات السياسية من دس الحيلة وإخفاء الغرض، والاستهواء بالمصلحة، والتزوير على التاريخ، والقياس مع الفارق، وهو يدور على أصل واحد، ولكنه أصل فاسد، يفسد كل ما انبنى عليه، وهو أن أولى الناس بالتصرُّف في المساجد هم الموظفون الرسميون ويسميهم التقرير «رجال الدين»، كأن الأمة كلها نساء الدين، وليس من رجاله إلا العاصميُّ واله وصحبه، ويستشهد على ذلك بأن الحالة كانت على هذا في العهد التركي، وهو على هذا في الأقطار الإسلامية، وهذا كله افتراء على الحقيقة وعلى التاريخ سنكشف أمره، ويستنتج التقرير من هذا أن المسألة كانت إدارية ويجب أن تبقى إدارية، ويبدأئ في هذا ويعيد لأنه هو بيت القصيد.

وهو يقبح الانتخاب (يعني انتخاب الجمعيات الدينية في تكوينها، وانتخابها هي للمجلس الإسلامي الأعلى، الذي أجمع عليه كل المطالبين وأهل الرأي)، ويغالط في الأمر بأن انتخاب تسعة ملايين هو الفوضى بعينها ويقدح في الجمعيات الدينية.. بأن وظيفتها الترميم والإصلاح والفرش، ويهوِّل بأن الانتخاب مدخل من مداخل السياسة إلى المساجد، كما يقدح في الجمعيات والهيئات المطالبة بحقوق الأمة في دينها ؛ بأن وراء كل واحدة منها حزباً سياسياً يؤيدها، إلى غير ذلك مما سننقله عند المناقشة التفصيلية[1].

يا هذا أو يا هؤلاء، أعني البارز منكم والمستتر، إن الإسلام دين «ديمقراطي» سمح، وليس فيه نظام «أكليريكي» متسلط كبقية الأديان، وإنما هو دين روحي، تقوم بمصالحه المادية الخلافة إن كانت، فإن لم تكن فالحكومة القائمة، فإن لم توجد فجماعة المسلمين، وإن من تسمونهم رجال الدين، تعينهم ـ في غير «الجزائر» ـ الحكومات الإسلامية أو جماعة المسلمين، وجماعة المسلمين لا تكيد لدينها بل تنصح وتسدد وتقارب، ولا تختار للوظائف الدينية إلا أصحاب المؤهلات العلمية المستكملين للشروط الدينية، لأن وراء الجميع رقيباً وعتيداً من الدين، وأمام الكل حساباً شديداً يوم الدين.

وأما «رجال الدين» عندنا، فقد اختارتهم حكومة لائكية متسلطة، وما اختارتهم إلا بعد أن عرفتهم ووزنتهم بميزانها لا بميزان الإسلام، وراعت فيهم شروطها لا شروط الإسلام، وما رأيناها تحفل في هذه الوظائف بالعلم

(1) المصدر نفسه (89/3).

ولا بالكفاية الدينية، وإنما تحفل بشيء واحد هو ما يشهد به «الدوسي»[1]، وما عهدنا موظفاً من هؤلاء جاءته الوظيفة وهو في داره من غير أن يسعى لها سعيها، بل ما وصلت الحكومة حبلهم بحبالها إلا بعد أن اتخذوا لها الأسباب وطافوا بالأبواب.

وما زلنا نقول: إن الحكومة تحتفظ بهذه الوظائف الدينية لأصحاب الخصائص المطلوبة لها، وإنها في حقيقتها مصائد لا وظائف، وإنها لا تدفع لهم الأجور على الصلاة والأذان والصيام، فسواء عندها أصلَّى المسلمون أم لم يصلوا، إنما تدفعها لغايات ومقاصد يجمعها قولك: «القيد والصيد». ومحال على الحكومة أن تُطعم ثمرها من يعصي أمرها. وقد قرأنا في محاضر المجلس المالي القديم أسماء عجيبة لأجور هذا النوع من الموظفين، أليس تسليم الحكومة المساجد إلى هؤلاء الموظفين تسليماً من الحكومة إلى الحكومة، وهل يستطيع واحد من هؤلاء أن يعصي لها أمراً، ولو كان فيه خراب مكة[2].

أما ما يغالط به التقرير من أن الانتخاب يجر السياسة إلى المساجد، وما يتهمنا به معشر المطالبين برفع سلطة الحكومة عن الدين وتسليمها للأمة، من أن وراءنا أحزاباً سياسية، فهو سلاح من أسلحة الحكومة المغلولة ما زالت تحارب به كل عامل، وكلمة من كلماتها المعلولة، ما فتئت تسكت بها كل قائل، ونحن نرد عليها هذه التهمة بالحقيقة، وهي أن تسلطها على مساجدنا وأوقافنا ـ وهي لائكية ـ هو عين السياسة، وإسنادها الوظائف الدينية إلى من تختاره وترتضيه هو رأس السياسة، ووضع هذا التقرير باسم العاصمي هو ذنب السياسة، ولولا السياسة ما كان للمفتي الحنفي وجود، ولولاها ما تيسرت حجاته المتعددة ولا قضيت حاجاته المتجددة، وإذا كان غير العاصمي منسوباً إلى السياسة أو متهماً بها، أو لصيقاً فيها ؛ فالعاصمي ابن السياسة لصلبها ولرحمها، ولكنه ولد من غير السبيل المعتاد، على رأي عبد الحي الكتاني[3].

9 ـ هل دولة فرنسا لائكية؟:

في مقاله: هل دولة فرنسا لائكية؟ تحدث الشيخ الإبراهيمي عن الوزير الوالي فقال: لم نتعرَّض لأعمال الوزير الوالي وخطبه المتكررة، حتى سمعنا خطبته الأخيرة «بعين صالح» وقرأناها في الصحف، فلفتتنا كلمات منها، جلَّى فيها مقاصد الاستعمار بالجزائر، ونبَّهنا على السر في تشدُّد حكومته في قضيتنا الدينية، وتصامِّها على سماع كلمة الحق فيها. تلك الكلمات هي ثناؤه ـ في معرض الامتنان على الجزائر ـ على الجندي والمعلِّم والطبيب والراهب، وقرنه إياهم في قرن، ومعنى هذه الكلمات عندنا أن فرنسا قذفت هذا الوطن بأربعة أنواع من القوى، مختلفة التأثير، متَّحدة الأثر، متباعدة الميادين، ولكنها تلتقي على هدف واحد، وهو التمكين للاستعمار، وأنها حاربته بأربعة أصناف من الأسلحة البشرية، أخفّها فتكاً وأقصرها مدى: الجندي.

---

(1) «الدوسي»: كلمة فرنسية بمعنى الملف.

(2) المصدر نفسه (90/3).

(3) المصدر نفسه (96/3).

جاءت فرنسا إلى الجزائر بالراهب «الاستعماري»، لتفسد به على المسلمين دينهم، وتفتنهم به عن عقائدهم، وتشككهم بتثليثه في توحيدهم، وتضار في ألسنتهم كلمة «الهادي» بكلمة «الفادي»، ذلك كله بعدما أمدته بالعون، وضمنت له الحرية، وكفرت به هناك لتؤمن به هنا.

وجاءت بالمعلِّم الاستعماري ليفسد على أبناء المسلمين عقولهم، ويلقي الاضطراب في أفكارهم، ويستنزلهم عن لغتهم وادابهم، ويشوّهِ لهم تاريخهم، ويقلِّل سلفهم في أعينهم، ويزهدهم في دينهم ونبيهم، ويعلِّمهم ـ بعد ذلك ـ تعليماً ناقصاً: شر من الجهل.

وجاءت بالطبيب «الاستعماري» ليحاري على صحة أبنائها قبل كل شيء، باية أنه لا يكون إلا حيث يكون الأوربيون، لا في المداشر التي يسكنها الألوف من المسلمين وحدهم، ولا في القبائل المتجاورة التي تعد عشرات الألوف منهم.

أما هذا الطبيب الاستعماري بالنسبة إلى المسلمين فكأنما جاء ليداوي علة بعلل، ويقتل جرثومة بخلق جراثيم، ويجرِّب معلوماته فيهم كما يجرّبها في الأرانب، ثم يعيش على أمراضهم التي مكن لها الاستعمار بالفقر والجهل، مما جعل الجزائر كلها ـ إذا استثنينا الحواضر ـ بستان المشمش في نظر ابن الرومي. هذا هو المعنى الذي نفهمه من مجيء هؤلاء ومن ثناء السيد الوزير عليهم، وبعد فهل تتسع الصدور لمناقشة هذه الكلمات الصريحة بكلمات صريحة؟

جاءت فرنسا إلى الجزائر بالجندي ففتح بالقوَّة ومهَّد بالقوة وسجَّل لها في تاريخ الإنسانية صحائف لا ندري ما لونها، إلا إذا قرأنا «رسائل سانت أرنو»، وتقرير لجنة البحث البرلمانية سنة 1833م، وكتاب «كريستيان»، وكلام النائب المنصف «روجي» في مجلس الأمة الفرنسي شهر جانفي سنة 1834م.

ثم جاءت بعده بالمعلِّم والطبيب والراهب بعد أن أجرت لهم عملية التلقيح بمبادئ «الاستعمار»، وهي مادة من خصائصها تعقيم الخصائص، فلم يبق المعلم معلماً علميًّاً، ولا الطبيب طبيباً إنسانياً، ولا الراهب أباً روحياً. وإنما جاؤوا في ركاب الاستعمار ليخدموه ويثبِّتوا أركانه.

ونظر الناس بعد مرور مائة وعشرين سنة على هذه «الرحمات» الثلاثة المرسلة إلى الجزائر من سماء فرنسا، فإذا تسعة وتسعون في المائة من أبناء الأمة الجزائرية أمِّيون، لم يَروا مدرسة، ولم يسمعوا بمعلم، فقدوا قديمهم ببركة الاستعمار ولم يجدوا الجديد. وإذا الطب الاستعماري لم يقض على المرض وإنما قضى على الصحة، فأربعمائة ألف من مجموع الأمَّة مسلولون والباقون معلولون، وعشرات الالاف من الأجنَّة تسقط لفقد العناية، ومثلها من الصبيان يموت لسوء التغذية، ومثلها من الأحداث يذبل عوده لفقد وسائل التنمية. وإذا الراهب المبشِّر ذئب فلاة يتربص اليتيم لينصّر الأبناء والمجاعات ليفتتن الاباء، فكان من وصايا المسيح عنده أن لا يطعم البطن إلا إذا أخذ القلب، وأن لا يكسو الظهر إلا بالتجريد من الدين، ولا ينشر تعاليم المسيح إلا باستغلال أزمات الضعفاء والبائسين.

حاشا لدين المسيح عليه السلام وكلمته التي ألقاها إلى مريم أن يكون هذا طريقه إلى النفوس، وهذه طريقته في الانتشار. إن المسيح كان عدوًّاً للظلم والباطل، وإن الاستعمار أقبح الباطل وأشنع ظلم على وجه الأرض، فهل يُعدُّ من أتباع المسيح وورثة هديه من ينصر الاستعمار؟.

إن الاستعمار القائم على الجندي والمعلم والطبيب والراهب هيكل حيواني يمشي على أربع.

وإن الاستعمار قد قضى بواسطة هؤلاء الأربعة على عشرة ملايين من البشر، فرمى مواهبهم بالتعطيل، وعقولهم بالخمود، وأذهانهم بالركود، وأفكارهم بالعقم، وأضاع على الإنسانية بضياعهم عشرة ملايين من المواقف والعقول والأذهان والأفكار، وهي رأس مال عظيم كانت تستعين به ـ لولا الاستعمار ـ على الخير العام والمنفعة وتنفع به في إقامة دعائم المدنية، فما أشأم الاستعمار على الإنسانية.

إن هذه الأمة كانت قبل الاستعمار ذات مقومات في دينها ولسانها، وذات مقومات من ماضيها وحاضرها، وكانت أرقى عقلاً، وأسمى روحاً، وأوفر علماً، وأعلى فكراً من أمم البلقان لذلك العهد، بدليل أن هذه الأمة كان لها حظ من حكم نفسها بنفسها لم تصل إليه تلك، ولو سارت سيرها الطبيعي ولم يعترضها الاستعمار بعوائقه وبوائقه، لأنجب المعلم يملي الحكمة لا المعلم الذي يمالأئ الحكومة، ولأنجبت الجندي الذي يحرس الحق لا الجندي الذي يخرس الحق، ولأنجبت المتأله الذي يؤمن بمحمد وعيسى ويوحِّد الناس على هديهما، لا المتأله الذي يسخر لإحياء فريق بإماتة فريق.

إننا أمة علم ودين لم ينقطع سندنا فيهما إلى ابائنا الأولين، وإننا أمة شكران لا أمة نكران، فلو أن المعلِّم الذي جاءتنا به فرنسا علّم ناصحاً، وربِّى مخلصاً، وثقف مستقلاً، وبث العلم لوجه العلم، ونشر المعرفة تعميماً للمعرفة، وزرع الأخوة الصادقة في سبيل الإنسانية الكاملة، ولم يقيده الاستعمار ببرامجه ولا سيَّره على مناهجه ؛ لظهرت اثاره الطيبة في الأمة، ولأنطقتنا تلك الاثار بالاعتراف والثناء بالجميل، ولكنه علّم متحيزاً إلى فئة، وأورد على غير مشربنا، وغرس في نفوس أبنائنا التنكر لما فيهم والتسفيه لتاريخهم والنسيان للغتهم ودينهم، أفهذه هي النعمة التي تمنها فرنسا علينا وتتقاضانا شكرها؟

ولو أن الراهب الذي جاءتنا به فرنسا جاء لينشر تعاليم عيسى بين أتباعه وبث تسامحه بين أشياعه وغير أشياعه ؛ للقي منا التبجيل والاحترام، لأننا أعلم الناس بتعاليم المسيح، ولأننا لا نفرّق بين أحد من رسل الله، ولأننا نعتقد أن النبوات كلها حق وهداية وخير، ولأن لاحقها ينسخ سابقها بما هو أكمل وأفضل وأجمع لشمل البشر، وأنضى للشر والفساد بينهم، ولكن الراهب الذي جاءتنا به فرنسا إنما جاء ليبارك على القاتل، ويدني الصيد من الخاتل، ويعاون المعمر على امتلاك الأرض، والحاكم على انتهاك العرض، وإنما جاء ليغفر للذين يسفكون دماء الأبرياء ما اقترفوه من ذنوب واثام، أفهذه هي المنقبة التي تفتخر بها فرنسا وتعدّها من وسائل التمدين وتتقدم بها إلى التاريخ؟

هناك المظهر وهنا المخبر.. هناك يقولون إن فرنسا حاملة لواء الحرية وحادية الأمم إليها، وإنها حامية حقوق الإنسان، وإنها زعيمة التحرير في العالم، وإنها أستاذة المثُل العليا للإنسانية، وإنها منارة العدل التي يهتدي بها

المظلومون، يبدؤون القول في ذلك ويعيدونه وينشرونه في العالم، ويكتبونه في كل سطر من صحفهم ومؤلفاتهم، وهنا يفرضون علينا العبودية، ويمنون بها علينا، ويريدون منا أن نسمِّيها بغير اسمها، وأن نكافئهم عليها حمداً وشكراً، ويزور بلادنا من سمع تلك الدعاية وتأثر بها، فتصوَّرَنا بها أحراراً في ملكوت وأبراراً في نعيم، فلا تقع عينه إلا على عهود بائدة من الأشخاص والأحكام والمعاملات، لا تصلح إلا لمتاحف الأثريات، ولا ترى من هذه الأمة إلا عظاماً معروقة وجموعاً مفروقة، وأشكالاً من الجحيم مسروقة، ويتردَّد بين تكذيب السماع وتصديق العيان، ولكن الحقيقة أن ذلك مظهر، وهذا مخبر، ويا بعد ما بينهما!.

وقبل وبعد: فهل حكومة فرنسا بعد إعدادها للرهبان، واعتمادها على الرهبان، دولة لائكية[1]؟

10. كتاب مفتوح إلى رئيس الجمهورية الفرنسية:

لم يترك الإبراهيمي وسيلة ولا طريقة للدفاع عن بلده ووطنه وشعبه ودينه، فخاطب الجميع بوسائل عصره، ومن بينهم رئيس الجمهورية الفرنسية، حيث كتب إليه كتاباً مفتوحاً، جاء فيه: أيها الرئيس:

نحييكم على كثرة الحوائل بيننا، كما يحيي العربي الكريم ضيفه، ويسوءنا ويسوء الحقيقة أن تزوروا الجزائر فتروا كل شيء إلا الجزائر.

يسوء الحقيقة أن تزوروا الجزائر زيارة تعدُّ من أعمالكم، وتسجل في تاريخكم، وتشغل نقلة الأخبار ومستمعيها أياماً، ويسيل فيها نهران من مال ومداد، وأنتم لم تروا الجزائر الحقيقية بما فيها من ماسٍ وبلايا، وجهل وفقر وظلم، وشعب كامل يتألم، وطائفة قليلة تتحكم، وإنما رأيتم زُمراً لم يحدُها إليكم أمل واسع، ولم يحفزها إلى لقائكم ضمير حر، ولم يعرضها أمامكم سائق من عقيدة، ولا داع من اختيار، وإنما جمعت بوسائل كالتجنيد الإجباري، وسيقت بأسباب من الترهيب والترغيب ليس فيها إيمان ولا وجدان.

يسوء الحقيقة والواقع أن تزوروا الجزائر هذه الزيارة التقليدية التي تقابل بالمظاهر المصطنعة والخطب المصنوعة، وأن تحاطوا بالمواكب الرسمية التي تحجب عنكم الحقائق، كما يحجب الضباب نور الشمس، وأن تصافح سمعكم أصوات ليس فيها صوت حر، فلو كنتم أجانب عن الجزائر وعما يجري فيها لخشينا أن تصدروا عن الجزائر وفي ذهنكم منها صورة غير صورتها.

كل الذي ترونه وتسمعونه في زيارتكم هذه مجموعاً ومتفرقاً ليس هو الجزائر ولا صوت الجزائر، وإنما هو شيء مألوف في الجزائر لا يثير اهتماماً من عاقل، ولا حركة من مجنون.

أما حقيقة الجزائر فاستجلوها ـ إن كنتم تريدون الحقيقة ـ مما وراء المظاهر تجدوها في جملة: وطن تسعة أعشار من فيه رقيق زراعي وخدم صناعي، مفروض عليه الحرمان من كل حق، وعشر العاشر سادة مفروض لهم التمتع بكل حق، وبين الفريقين فريق انفصل عن الأول ولم يصل إلى الثاني، وهو الذي ترونه[2].

أ. لم تتغير الحكومة:

---

(1) المصدر نفسه (98/3، 99).

(2) المصدر نفسه (92/3).

تغير الكون وما فيه ولم تتغير الحكومة في نظرتها إلى الدين الإسلامي والمسلمين، فالدين الإسلامي مملوك للحكومة الجزائرية، تحتكر التصرف في مساجده ورجاله وأوقافه وقضائه، وقضية فصل الدين عن الحكومة معلقة بين السماء والأرض، لا يهبط بها إنصاف ولا يصعد بها عدل، واقفة بين حكومة فرنسا وحكومة الجزائر موقف التنافس، تلك تحكم بالفصل قولاً وهذه تحكم بالوصل عملاً، وهي تماطل في الفصل لأنها لا تريده، وهي تهيأئ الوسائل لتعطيل تنفيذه، أو لجعله صورة بلا حقيقة وجسداً بلا روح، وهي تملك من وسائل التعطيل مجلساً يقدم البحث في مرتباته وألقابه على البحث في مصالح الأمة، التي لم يكن لها في تكوينه رأي ولا في انتخابه حرية.

ب . التعليم الديني:

والتعليم الديني في هذا الوطن المسلم معطل بتعطيل المساجد، ومئات الالاف من شباب المسلمين تتشوق إلى تعلم دينها، ولكن مساجدهم الموقفة لذلك مغلقة في وجوههم، والدين الإسلامي وتعلمه وتعليمه حق طبيعي وضروري لتسعة ملايين من المسلمين، ولكنهم محرومون منه، والتعليم العربي في هذا الوطن العربي جريمة يعاقب مرتكبها بما يعاقب به المجرم من تغريم وتغريب وسجن، ومدارسه تعاني من التضييق والتعطيل ألواناً متجددة، ورجاله عرضة في كل حين للمحاكمات، في المحاكم الجمهورية التي تتسم بوسمكم، والمحاكمات على التعليم جارية على قدم وساق في هذه الأيام التي تسبق زيارتكم، كأنها إعداد لها وابتهاج بها، ولو كانت قضايا المحاكم وسجلات البوليس وأعمال الحكام مما يعرض عليكم، أو كان عمار السجون ممن يمثلون بين يديكم ؛ لرأيتم من الأولى عشرات القضايا المتعلقة بالتعليم العربي في ضمن الجرائم والمخالفات، ولرأيتم من بين الاخرين كثيراً من المعلِّمين في عداد المجرمين. وإن قانوناً يمنع التعليم كيفما كان لونه، ويعاقب المعلم كيفما كان جنسه ؛ لهو قانون عدو للعلم، فكيف تسيغه فرنسا «العالمة»؟ وكيف تشرعه فرنسا «المعلمة»؟.

ج . يأس من العدالة:

أيها الرئيس!. إن الشعب الجزائري قد أصبح . من طول ما جرب ومارس . في حالة يأس من العدالة وتسفيه للوعود والعهود، وكفر بهذه الديمقراطية التي يسمع بها ولا يراها، وإنه أصبح لا يؤمن إلا بأركان حياته الأربعة: ذاتيته الجزائرية، وجنسيته ولغته العربيتين، ودينه الإسلامي، ولا يستنزل عنها بأرقى الخطب والمواعيد، ولا يبغي عنها حولاً ولا بديلاً.

وإن الشعب الجزائري لا ينتفع بنتائج شيء لا رأي له في مقدماته، وإن الدستور الجزائري على نقصه واختلاله لم يكن للأمة فيه رأي، فكيف يجنى منه ثمرة؟ أو ينتفع منه بنتيجة؟ إن المجلس الذي انبثق منه ناقص بنقصه، مختل باختلاله، وقد جالت الأيدي في تكوينه، فجاء كالمولود سقطاً ليس فيه شيء من خصائص الحياة، فكيف ترجى منه الحياة؟.

د . مريض متطلع للشفاء:

وإن الشعب الجزائري مريض متطلع للشفاء، وجاهل متوثب إلى العلم، وبائس متشوق للنعيم، ومنهوك من الظلم مستشرف إلى العدالة، ومستعبد ينشد الحرية، ومهضوم الحق يطلب حقه في الحياة، وديمقراطي الفطرة والدين يحنّ إلى الديمقراطية الطبيعية لا الصناعية، ولكنه ليس كما يقال عنه: جائع يطلب الخبز، فإن وجده سكت.

أيها الرئيس:

إن حكومات الجزائر تعاقبت في ألوان من المذاهب، ولكن الشعب الجزائري لم ينل على يدها خيراً، ولم يصل إلى قليل ولا كثير من حقه المهضوم، لا في دينه ولا في دنياه، وإنما هي مظاهر تتبدل بلا فائدة، وسطحيات بلا جدوى، وأسماء بلا معان، والحقيقة هي هي.

هـ الحكومات المتعاقبة:

وإن هذه الحكومات المتعاقبة تجري ـ من يوم كانت ـ على أسلوب من شر أساليب الاستعمار وأقبحها، فهي تتخذ الدين الإسلامي الة لخدمة السياسة، ولذلك تتمسك هذا التمسك بمساجده وأسبابه، وهي تجعل السياسة الة لهدم الدين الإسلامي، وهي تحارب اللغة العربية والتعليم العربي لتجعل من ذلك وسيلة إلى محو الجنسية العربية، وهي تسد أبواب العلم في وجوه المتعلمين بوسائل شتى، ليبقى الشعب أمِّياً جاهلاً فينسى نفسه وتاريخه، ويقنع بأخس الحظوظ في الحياة، وإن بقاء نحو من مليونين من أبناء الشعب محرومين من التعليم بجميع أنواعه لأصدق دليل على ذلك.

إن حكومة توسع السجون، وتضيق المدارس، حكومة سيئة الظن بنفسها قبل أن تكون سيئة الظن بالشعب[1].

و ـ الوحدة الفرنسية:

ظهرت في عهد هذه الجمهورية الرابعة نغمة جديدة أنكرناها وكفرنا بها، لأنها لا تنسجم مع ماضينا ولا تتناسق مع حالنا ولا مستقبلنا، وانتقدنا الرأي العام العالمي العاقل اليقظ المنطقي، لأنها ناشزة عن قرارها، مخالفة للواقع المحسوس، هذه النغمة هي نغمة «الوحدة الفرنسية». ولا يشك عاقل في أن كلمة الوحدة هذه مقطوعة الصلة من معناها، وكأن واضعها هازأئ بنفسه أو بالناس أو بهما معاً، وكأنها سخرية ساخر، لم تسبقها روية، ولم يحكمها منطق، ولم يحكها تدبر.

ولا يسيغ منطق ولا عقل كيف تكون الوحدة بين سيد وبين مسود؟ وكيف تتصور بين حاكم مزهو بعصبية تظاهرها عصبية دينية وبين محكوم؟ وكيف تتفق في وطن ساكنوه صنفان وقوانينه صنفان؟ وكيف تتم في بلد كنيسته حرة وبيعته حرة؟ ومسجده مستعبد؟ وكيف تتجاوز في عقيدة أو لسان مع كلمة السيادة الفرنسية التي تلوكها الألسنة، وتنضح بها الأقلام خصوصاً في هذه الأيام؟.

إنكم أقمتم في الجزائر في عهدها الأخير عامين، وأُحطتم رؤية وعلماً بما يجري فيها، وأنها باقية حيث تركتموها ما تقدمت إلا في التأخر، وما ترقت إلا في الانحطاط. فنعيذكم بشرف الحرية وحرمة الضمير الإنساني، وكرامة

---

(1) المصدر نفسه (93/3).

العلم ؛ أن لا تغتروا بما تسمعونه من خطب وبما ترونه من مظاهر، فكل ذلك مهيأ لتغطية الحقيقة والتضليل عنها، فالتمسوها في جدب العقول لا في خصب الأرض، وفي فوضى الحياة لا في نظام المواكب، وفي بؤس البادية لا في نعيم المدينة، تجدوها ماثلة للعيان ناطقة بالبرهان، صادقة في البيان[1].

11 . خطاب للشعب ضد فرنسا:

باءت الحوارات والمساعي السلمية للحصول على حقوق الشعب الجزائري من فرنسا بالفشل الذريع، فأعلن الإمام الإبراهيمي رأيه للشعب، ووجه إليه خطابه الشهير المسمى «الكلمة الأخيرة»:

أما ان لعشاق سلمى أن يقولوا: صحا القلب عن سلمى؟

أما ان للحالمين بالوحدة الفرنسية أن ينفضوا عنهم الأحلام؟

أما ان للمنتظرين أن يقطعوا حبل الانتظار؟

أما ان للمستضعفين بالأمل أن يُريقوا صُبابة الأمل؟

يا هؤلاء!. إن الاستعمار شيطان، وإن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّاً، وإن الاستعمار شر، ومحال أن يأتي الشر بالخير، ومحال أن يُجنى من الشوك العنب.

ارجعوا واجتمعوا واجمعوا الأمة في مؤتمر واشرحوا لها الحقيقة، ودعوا لها الكلمة الأخيرة في تحديد الموقف وتقرير المستقبل، لا اندماج إلا لبعضكم في بعضكم، ولا اتحاد إلا لأجزائكم الطبيعية بعضها مع بعض[2].

12 . مصطلح الاستعمار:

تحدث الإبراهيمي عن مصطلح الاستعمار، فقال: مادة هذه الكلمة هي العمارة، ومن مشتقاتها التعمير والعمران، وفي القران: {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [سورة هود:61]، فأصل هذه الكلمة في لغتنا طيب وفروعها طيبة، ومعناها القراني أطيب وأطيب.. ولكن إخراجها من المعنى العربي الطيب إلى المعنى الغربي الخبيث ظلم لها، فاستحقت الدخول من هذا الباب، والإدراج تحت هذا العنوان، فالذي صيّر هذه الكلمة بغيضة إلى النفوس، مستوخمة في الأذواق، هو معناها الخارجي ـ كما يقول المنطق ـ وهو معنى مرادف للإثم والبغي والخراب والظلم والتعدِّي، والفساد والنهب والسرقة والشره، والقسوة والانتهاك والقتل والحيوانية، إلى عشرات من مئات من هذه الرذائل تفسِّرها اثاره وتنجلي عنها وقائعه.

وواعجبا!. تضيق الأوطان على رحبها بهذه المجموعة وتحملها كلمة لا تمتّ إلى واحد منها بنسب، وإذا كنَّا نسمِّي من يجلب هذه المجموعة ـ من كبائر الإثم والفواحش إلى وطن ـ ظالماً، فأظلم منه من يحشرها في كلمة شريفة من لغتنا: ليخدع بها ويغرُّ، وليهوِّن بها على الفرائس شراسة المفترس وفظاعة الافتراس.

---

(1) المصدر نفسه (94/3).

(2) المصدر نفسه (289/3).

أما والله لو أن هذا الهيكل المسمَّى بالاستعمار كان حيواناً لكان من حيوانات الأساطير بألف فم للالتهام، وألف معدة للهضم، وألف يد للخنق، وألف ظلف للدوس، وألف مخلب للفرس، وألف ناب للتمزيق، وألف لسان للكذب وتزيين هذه الأعمال، ولكان مع ذلك هائجاً بادِيَ السوءات والمقابح على أسوأ ما نعرفه من الغرائز الحيوانية.

سمّوا الاستعمار تخريباً ـ إذ لا تصح كلمة استخراب في الاستعمال ـ لأنَّه يخرب الأوطان والأديان والعقول والأفكار، ويهدم القيم والمقامات والمقوِّمات والقوميات.

وخذوا العهد على المجامع اللغوية أن تمنع استعمال هذه الكلمة في هذا المعنى الذي لا تقوم بحمله عربة مزابل[1].

13 . مفهوم الديمقراطية:

قال الإبراهيمي: والديمقراطية رأي يوناني نظري جميل، منسوب إلى اسم صاحبه، وهو قائم على أن الشعب هو مصدر السلطة، ومن ثم فهو صاحب الحق في الحكم والتشريع، وعلى أن الأفراد متساوون في هذا الحق، ويناقضه رأي اخر يوناني النشأة أيضاً. اصطرع الرأيان في ميدان الجدال، ثم اصطرعا في ميدان العمل، حتى أصبحا مذهبين في سياسة الحكم وبابين في فلسفة الاجتماع، وكانت هذه الاراء الجميلة في الحياة مثل رأي ديمقراط تدور بين فلاسفة اليونان وقياصرة الرومان، أولئك يدرسونها جدلاً وهؤلاء يدرسونها عملاً، إلى أن انتصف الله للحق بالإسلام، فجاء بالشورى والمساواة ـ حكماً من الله ـ وأين حكم العقول من حكم خالق العقول؟

وجاء عمر فلقَّن العالم درساً عملياً في المثل الأعلى للحكم، ثم جاءت الحضارة الغربية المجتهدة في إثمار الحقول، المقلدةُ في إثمار العقول، وكان من اثار التعصُّب فيها للارية والمسيحية أنها اثرت الديمقراطية على العُمرية، اثرتها في التسمية والنسبة، أما في التطبيق والعمل، فإن هذه الحضارة ـ وهي حاضنة المتناقضات ـ اتسعت لرأي ديمقراطي ولرأي ميكيافيلي صاحب كتاب «الأمير». فإذا أرادت التلبيس ألبست الثاني ثوب الأول. لم تُظلم هذه الكلمة ما ظُلمت في هذه العهود الأخيرة، فقد أصبحت أداة خداع في الحرب وفي السلم، جاءت الحرب فجندها الاستعمار في كتائبه، وجاء السلم فكانت سراباً بقيعة، وقد كثر أدعياؤها ومدَّعوها والداعون إليها، والمدّعي فيها لابس ثوب زور، أصبح استعمار الأقوياء للضعفاء ديمقراطية، وقتلهم للعزّل الأبرياء ديمقراطية، ونقض المواثيق ديمقراطية، لك الله أيتها الديمقراطية[2].

إن مفهوم الشورى في الإسلام أعمق من الديمقراطية، لأن الإسلام أضاف لها بُعداً تعبدياً، وجعلها من القيم الإنسانية الرفيعة، ومن المقاصد الكبرى لهذا الدين. ورتب على العمل بها ثواباً وعلى تركها عقاباً، كما أن فلسفة الحكم في الدولة المدنية الحديثة التي مرجعيتها الإسلام، ترتكز على الشورى التي ذكرت في القران الكريم،

(1) المصدر نفسه (508/3).

(2) المصدر نفسه (508/3).

ومارسها الرسول (ص) والخلفاء الراشدون ؛ فقد عرفت طريقها إلى الحياة السياسية وأصبحت من ركائز الدولة في عصر صدر الإسلام.

إن الإسلام العظيم اعتبر الشورى منهج حياة إنسانياً، فضلاً عن كونها ضرورية في نظام الحكم.

إن تشريع الشورى بذاته قائم على المصلحة ودرء المفسدة، وهذا لا ينحصر في الشورى، فالتشريعات الإسلامية كلها قائمة على ذلك من جلب المصلحة ودرء المفسدة، كما يقول العز بن عبد السلام: الشريعة كلها نصائح، إمَّا بدرء مفاسد، أو بجلب مصالح[1].

ولو احتسبتْ الشورى وانتسبتْ لقالت: أنا الخير، وأبي العدل، وأمي الإحسان، وأخي الوفاء، وأختي العِزَّة، وعمِّي النفع، وخالي الرفعة، وابني الغنى، وبنتي العمل، ووطني العمار، وعشيرتي العلم.

14 . حدِّثونا عن العدل فإننا نسيناه:

وظف الإبراهيمي قلمه الشجاع في كشف الاستعمار وتعريته أمام الشعب الجزائري بدون تردد ولا تلعثم، ومن هذه المقالات العظيمة في معانيها ومبناها هذا المقال الذي قال فيه:

. ومن أين نلتمس العدل؟

. أمن فرنسا الاستعمارية؟

إن فرنسا اثنتان، تلك التي يتمجد التاريخ بصحائفها البيضاء في العلم والعرفان، ويتغنَّى بروائعها في الأدب والفن، ويتحدَّث عن وقائعها في تحرير نفسها من الاستعباد الروحي والعقلي والبدني، ويشيد بأعلامها في السياسة والبيان. ونحن لم نر فرنسا الموصوفة بهذه الصفات ولم نعرفها، ولم نحسّ بها، ولا شأن لنا معها إلا شأن البعيد الدار، المختلف الأوطار عن الأوطار.

وأما فرنسا الثانية، التي تاريخها بتاريخنا من سنة 1830م إلى الان، فهي التي عرفناها فاتحة بالسيف، حاكمة بالحيف، وأيأسنا من عدلها أنها حققت لنا معنى المثل: المستجير بعمرو.. وكيف نستدفع البلاء بما هو أصل البلاء؟

إن فرنسا هذه التي نعرفها، دولة أشربت معاني الاستعمار وما يتبعه من احتقار وظلم واستعباد، وما يستلزمه من عتو وغطرسة وأنانية، ومن العجب أنها مع هذا تنتحل الصفات الأخرى التي تدَّعيها وتفخر بها في العالمين، فهي كالجزار يذكر الله ويذبح، ونحن لا نعرف إلا صحائفها السوداء في معاملتنا ووقائعها في ظلمنا وتقتيلنا، ولا نصدق بشيء مما تدّعيه لنفسها أو يدَّعيه لها المفتونون بها من العدل والديمقراطية.

لم نرَ من فرنسا الاستعمارية إلا الهضم لديننا، والمحو للغتنا ومقوِّماتنا، والزراية بجنسيتنا، والمنّ علينا بما لم نذق طعمه ولم نَرح رائحته، والاستكبار في الأرض بغير الحق، والنكران لفضلنا عليها في الأزمات، أفلا يعذرنا العقلاء، إذا أنكرنا كل فضيلة تتسم بها، أو يسمُها بها المفتونون بمدنيتها، المسبِّحون بحمدها.

---

(1) المصدر نفسه (508/3).

والنـاس أكيس من أن يمـدحوا رجلاً حـتى يـروا عـنـده اثار إحســـــان

تريدنا فرنسا الاستعمارية على أن نحمدها بما لم تفعل، فنقول: عسى ولعلّ.. ثم تريدنا على أن نحمدها بما فعلت معنا من ظلم وعدوان، وأن نصوِّر مساوئها فينا محاسن، وأن نسمِّي شرَّها خيراً، وجورها عدلاً، وإساءتها إحساناً، وإهانتها تشريفاً، وأن ننكر إحساسنا وعقولنا، وأن نتنكر للمنطق وللواقع، فلا نقول إلا ما يرضيها وإن جانب الحق، ولا نعمل إلا ما يوافق هواها وإن أسخط الله، فنقول: لا، ثم لا، لأن ترجمة هذا كلِّه أنها تلطمنا فتشكرها على اللطمة، وتعذِبنا فنقدم لها شواهد الإخلاص.

هذه هي فرنسا التي نعرفها، أو هذا هو الجانب الذي نعرفه من جوانب فرنسا، قلنا فيه ما نعرف، وشهدنا بما نعلم، فإن كان لها جانب غير الذي عرفناه، فسلوا عن العسل من ذاق طعمه، أما نحن فقد ذُقنا الحنظل، فوصفنا الحنظل.

ولو أن حاتماً جمع كل ما قاله في نفسه وقاله الشعراء فيه في ديوان، وقرأه على جار له حُرم رفده فلم ينل من لحوم نحائره حُزة ولا من أوبارها جزة، أكان يهتز لذلك ويشكره عليه، إن لم يكذبه؟ وكذلك نحن، لا نهتز لما تمتدح به فرنسا، أو يمدحها به المادحون ؛ ما دمنا لم نرَ منه في أنفسنا إلا عكسه ونقيضه، وقلْ أنت: أنا غني، فلعلك لا تجد من يكذبك، ولكنك حين تقول: أنا الجواد المفضل، تجد ـ لا محالة ـ من يقول لك: وأين الأثر؟ ولو أن ذكرك بالإحسان والعدل استفاض حتى ملأ مسامع الدنيا، لما أغنى عنك يوم الفخار شيئاً، إذا جاء جارُ بيتك يحمل من ترويعك له دلائل، ويستظهر على تجويعك له بشواهد وبينات.

إن الاستعمار غشاوة على الأبصار، ورين على البصائر. فهو ـ كما يرمي فاعله بالعمى عن الحقائق ـ يرمي المبتلى به بالعمى عن المحاسن، فلو أن فرنسا خلعت ثوب الاستعمار ومحت رسومه، لزالت هذه الغشاوة عن بصرها، فعرفت لنا حقوقنا، ولزالت عن أبصارنا فعرفنا لها محاسنها، وما دام الاستعمار، فالرين على البصائر والغشاوة على الأبصار، وليس في طبائع الأشياء غير هذا.

وإلى عقلاء العالم، وساقة القوافل البشرية نسوق الحديث، وإن كنا في شك من أن المادية الخبيثة أبقت في العقلاء معنى التعقُّل، حتى يدركوا كيف يسعد الأقوياء بشقوة الضعفاء، وفي مرية من أن الاستعمار ترك لأولئك الساقة وجهة غير وجهته التي يزاحم عليها سائق سائقاً ويجاري فيها متخلف سابقاً[1].

ثم قال: هل أتاكم نبأ عشرة ملايين من سلائل البشر الراقية، تحكمها فئة تعادل عشرها، ليس بينهما من الجوامع إلا الادمية، ولا من الصلات إلا صلة القوي بالضعيف، ولا من العلائق إلا امتصاص الأقل لدم الأكثر، وسمنه بهزاله، واعتزازه بإذلاله.

إن هذه الملايين تُساس بقوانين لا رأي لها فيها، وبمجموعة من النُّظم لا يد لها فيها، وبأنواع من الإدارات غابت عن وضعها، وهي موضع تنفيذها، وبعُصَب من الرجال ليس فيهم واحد منها.. إلا واحد يمسك عنقها للذبح واخر يضرب بدنها للإرضاء، وكيف ترجو هذه الملايين العدل أو تتخيله؟ وليس من أبنائها قاضٍ مستقل

(1) المصدر نفسه (372/3).

في محكمة، ولا رئيس مسؤول في إدارة، ولا ضابط كبير في ثكنة، ولا حاكم كبير ولا صغير في مركز، ولا مدير حرّ في مصلحة، بل كل فرد منها خادم مطيع، وكل أجنبي عنها مخدوم مطاع، وكل الوظائف الرئيسية في وطنها محتكرة لغيرها، وكل المنافع الثابتة أو النابتة في أرضها محرَّمة عليها.

تشريك المواطنين في الرأي والحكم هو سمة زمنكم، ولكن هذه السمة مطموسة في الجزائر، وحرية المعتقدات والأديان هي شعار زمنكم، ولكن هذا الشعار لا يوجد في الجزائر، وحرية التنقُّل هي مفخرة زمانكم، ولكنها معدومة في الجزائر، والمساواة في القانون والعدالة من ثمرات زمنكم، ولكنها محرَّمة في الجزائر، والديمقراطية هي دعوى زمنكم ولكنها باطلة في الجزائر، وحرمات المنازل والأعراض من تبجحات زمنكم، ولكنها مهتوكة في الجزائر، وعصمة الأبدان من الضرب والتعذيب من أكاذيب زمنكم، ولكن الجزائر أصبحت مدرسة عالية لتعليم النمط الرفيع من أنواع الضرب وأساليب التعذيب، وأصبحت تجاربه الأولى في أبداننا، ولولا هدير البحار وصخب الساسة، لسمعتم أنين المكلومين، ولامتزج في اذانكم حفيف السياط بالصراخ و«العياط»، وليوشكن إن تمارى زمنكم في التفنُّن، ولم تبادروا جرثومة الاستعمار بالاستئصال ؛ أن تستمرئوا لذة نيرون باحتراق روما، وأن يهاجر أبناؤكم إلى الجزائر للتخصص في فن التعذيب على أساتذته.

نعم نعم . ولا نُنكر الفضل . إن حرية الفضيلة من افات زمنكم، وهي موجودة على أكمل وجه وأتمّ حال في الجزائر.

ويحكم!. إنكم لسائرون بهذه القوافل إلى الدمار، وإن حاديكم إليه هو الاستعمار، فعاملوه بالقطيعة تتواصلوا واقضوا عليه قبل أن يقضي عليكم.

ويحكم!. إن هذا العارض الذي تسمُّونه الاستعمار ليس ذاتياً في زمنكم، ولا هو من طبيعته، فإن تركتموه حتى يُلبس العصر الجديد لبوسه كان عوناً عليكم، إن الزمان لا تؤمن غوائله وتقلباته، أم أنتم في أمان من الزمان؟

ويحكم!. إن هذا الاستعمار الذي تؤيدونه، وهذه الديمقراطية التي تنوون إقرارها في العالم أو إقرار العالم عليها، ضدان لا يجتمعان، فلماذا تغشُّون أنفسكم وتغشُّون العالم وتكذبون على الحق؟

ويحكم!. أحيوا العدل وانشروه، وأميتوا الاستعمار واقبروه ؛ تكن الأمم كلها معكم بقلوبها وعقولها وأبدانها وأموالها، وتأمنوا البوائق التي تخشون انفجارها، فإن لم تفعلوا فأيقِنوا أن كل ما تنفقونه من جهد ووقت ومال في تمكين الاستعمار ضائع، ولا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً، ثم ما يزال بكم هذا الغول الذي تربُّونه وتحتضنونه حتى يُرديكم في هاوية.

أفكلما رثَّ حبل الاستعمار، وتصدَّع جداره، وأشرف على الفناء في حربين ماضيتين، جاءت أمريكا حاضنة الديمقراطية، تكفكف دموعه، وتنظم جموعه، وترمِّم جداره، وتعمر بالدولار داره؟

إن الأمم الضعيفة قد لُدغت من جحر واحد مرتين، فاحذروا الثالثة، وقد أصبحت هذه الأمم تلقب أمريكا بلقب لا يشرِّفها وهو أنها «نصيرة الاستعمار»، الاستعمار عمل أوَّله ختل، واخره قتل، وشر لا بقاء عليه، ثم لا بقاء له، ووحش مروض اخر صرعاه رائضه، ومرض اكل يأتي على المكاسب، ويثني بالمواهب، ومخلوق

لئيم يُدان ولا يفي، وينتقم ولا يشتفي، ويستأصل ولا يكتفي، ويجاهر بالسوأى ولا يحتفي، وكنود أوْلى الأيدي عنده بالقطع يد مُدَّت بإحسان إليه.

والمساواة عدل تنمو عليه الأخوة، وتنبعث منه القوة، والاستقلال تكافؤ في الادمية واحترام الإنسانية، وتبادل المنفعة والخير، وتحقيق لسنة الله، والعدل من الأقوياء هو الميزان الذي يُقرّ كل شيء في نصابه، ولكن أين هو؟ لم يبق منه، إلا الحديث عنه، فحدِّثونا عنه، فإننا نسيناه[1]؟

إن شيخنا العلامة الإبراهيمي يتحدث بمرارة عن مبدأ إنساني أصيل غرس الله محبته في فطرة الإنسان التي لم تتلوث ولم تنحرف، والذي بيّنه الله عز وجل في محكم كتابه، وجعله مقصداً من مقاصد القران الكريم، كيف غاب عن شعبه؟ وكيف مارس الاستعمار الظلم بكافة أشكاله وأنواعه وصوره البشعة من ظلم الأفراد إلى ظلم الجماعات والشعب بأكمله.

إن الإبراهيمي ينطلق في مفاهيمه ودعوته ونضاله وكفاحه من الفكر الإسلامي الأصيل المستمد من القران الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولذلك يرى أن العدل الحقيقي هو ميزان الله في الأرض، الذي يؤخذ به للضعيف من القوي، وللمحق من المبطل، والعدل إعطاء كل ذي حق حقه، وهو المساواة بين الناس جميعاً في إعطاء الحقوق، والمساواة في المكافأة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

والعادل هو الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه دون إفراط أو تفريط، أي القسط في الشيء، وأداء حقوق الله وحقوق العباد.

15 . نحن سياسيون:

عندما اطلع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي على موقف المجلس الجزائري من قضية فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسية، وعلى البرقية التي أرسلتها جمعية العلماء في الجزائر للحكومة الفرنسية بباريس والمنشورة في البصائر، كتب مقالاً عام 1953م من القاهرة في صميم القضية الدينية، بداية النهاية، فقال:

أيظن الخليّون الغافلون من الفريقين أن المعارك بيننا وبين الحكومة الاستعمارية في قضية المساجد والأوقاف انتهت بهذه الطريقة الهازلة الشوهاء، التي تمخض بها المجلس الجزائري، ووضعها لأقصى أمد الحمل سقطاً بعد الام وأوجاع زاد في فظاعتها أن حمله بها كان عن سفاح؟ ولا عجب إذ حملها كرهاً أن يضعها كرهاً، إنما هذه نهاية طور من أطوارها الغريبة التي صحبتها العقلية الفرنسية منذ كان الاستعمار في الجزائر، وقد تعوَّدنا من هذه العقلية المذبذبة بين الدين والإلحاد الملقحة بجراثيم اليهودية والمادية ؛ أنها كلما عرضت لقضية الدين الإسلامي في الجزائر جالت بها في مثل هذه المجالات الملتبسة، وعالجتها بنصوص لا يعرف فيها عموم من خصوص، وتركت القضية دائرة، والعقول معها حائرة، ولكنها لم تحشد لها في مرة من المرات مثل هذا الحشد.

---

(1) المصدر نفسه (374/3).

كنا نقدِّر هذه النهاية ونحن في مراحل العراك، ونصوِّرها بقريب مما وقعت عليه مما دلَّتنا عليه التجارب، ومما استقيناه من مقاصد هذه الحكومة، وأنها نذرت عن نفسها، فوفت بالنذر أن تكون عدواً للإسلام ما دام لها وجود، وخصماً للمسلمين ما امتدَّت بها الحياة، وحرباً على الحق في أي ميدان ظهر.

ومن عجيب صنع الشيطان في هذه الحكومة أنها كلما ضعفت فيها النزعة الدينية بكثرة المذاهب العقلية وتيار الحضارة المادية، أمدَّها الشيطان بلقاح من اليهودية المعادية للإسلام والنصرانية معاً، فأذكت فيها ما برد، وضربت منها ما ضعف بما قوي، وشفت غيظها من الفريقين، أليس حاكم فرنسا اليوم والمتحكم في مصائرها يهودياً، ومن ورائه يهود العالم؟

كنا نعلم هذه النهاية لقضية الإسلام في الجزائر من يوم عرفنا اليمين من الشمال، وبلونا أحزاب اليمين في فرنسا وأحزاب الشمال، لأننا عاصرناهم جميعاً وعاشرناهم قائلاً وسميعاً، فما وجدنا منهم في جانبنا منصفاً، ووجدناهم يختلفون إلى درجة الشقاق، ويشتجرون إلى نهاية اللجاج، حتى إذا لاح شبح من أشباحنا لعيونهم، وعرضت قضية من قضايانا تحت أيديهم ؛ تألفت الأحزاب وتالفت الاراء وتألبت الجموع، لأننا نحن وديننا عدو مشترك في نظرهم، وكأن منافرة الضاد للهواتهم مستلزمة لمنافرة دينه لأذواقهم، واللهاة هي نهاية المقاطع الحرفية، كما أنها نهاية الحاسَّة الذائقة.

جاهدنا في سبيل هذه القضية عشرين سنة أو تزيد، لم يقلّ لنا فيها رأي ولم تقلّ عزيمة، ولم يكلّ لنا فيها قلم ولا لسان، ووقفنا فيها مواقف صادقة خالصة لله ولدينه ولهذه الأمَّة، التي كتب الله عليها أن يكون بعض أبنائها وبالاً عليها وعلى دينها وأعوناً عليها مع الغاصب، وألجأنا الاستعمار مرات إلى إبرازها بعد أن كان حريصاً على إضمارها، وإلى الحديث عنها بعد أن كان الحديث عنها محرَّماً، وإلى نقلها من ميدان إلى ميدان، ومن وراء البحر إلى ما دون البحر، وشغلناه بها عن كثير من مهماته، ونقضنا شبهاته فيها بالحجج والبيّنات، وأفادنا الاشتغال بها والاهتمام بالبحث فيها فوائد، أقلها الاطِّلاع على الوثائق الأصلية التي أملاها التعصُّب الديني والحقد الصليبي، وأجلّها افتضاح المارقين منا الذين باعوا جوهر الدين بعرض الدنيا، وظن الاستعمار أنه يغالبنا بهم وبأسمائهم وألقابهم، فخذله الله بهم وفضح بعضهم ببعض، وحصلنا من ذلك كله على ذخيرة مادية وأخرى معنوية، وسنترك القضية للأعقاب المجاهدين واضحة المعالم كاملة الوثائق، ناطقة بالحق على الأعوان والخوان، وكأن هذا الدور أخير . وما هو بالأخير . ولكنه انفرد بمظاهر هي التصميم والحزم منَّا والعناد والكيد من خصمنا، فقد بالغنا في التحدي فبالغ في التداهي والتحايل، فلفَّ القضية بلفافتين من الدستور الجزائري والمجلس الجزائري، ونقلها ملفوفة بهما من فرنسا إلى الجزائر، وحملت المجلس الجزائري على أن يحمل هذا الحلَّ الأخير نتناً ويضعه يتناً.

وكان في هذا المجلس كثير ممن اسمه محمد، وهو عدو لمحمد ودين محمد، وإننا لنجزم بأن هذا الحل المشوَّه موضوع مع الدستور الجزائري في ان واحد، وإنما أخَّروه ليخرجوه إلى الناس باسم مجلس يجمع المذبح والمسبح،

ويجمع السيد والعبد، والزبد بلا زبد، وفيه جماعة ينطقون بالعين من مخرجها، مع علمنا بالنتائج قبل سوق مقدماتها.

دعانا إلى خوض تلك المعارك وإلى إثارة ذلك النزاع المحتدم، عهد الله في نصرة دينه يجب أن نفي به، وعهد من محمد (ص) في الجهر بكلمة الحق في وجه من يثقل عليه سماعها، وقد جمجم بها الجبناء من أسلافنا فأضاعوا الحق وباؤوا بإثم الإضاعة، والجبناء من معاصرينا فكانوا حجة الباطل علينا، ولله الحجة البالغة.

وشيء اخر جعلنا نلجّ في خصومة الاستعمار، وهو أنه يعدّ سكوت الساكت رضى بالمسكوت عليه، فيصبح حقاً مكتسباً ثلاث مرات: مرة بالقوة التي يملك أسبابها، ومرة بالحيلة التي يفتح أبوابها، ومرة بسكوت أهل الحق على حقّهم. فأردنا أن لا يسجِّل التاريخ علينا ما سجَّله على الأقدمين من سلفنا، من مهانة السكوت بعد الإضاعة. أو السكوت الذي سبب الإضاعة، ومن وقاحة الاستعمار أنه يسمّي الحقوق المغتصبة حقوقاً مكتسبة، وقد أفحمناه مراراً بأن أملاك الدولة المغلوبة قد تصبح بحكم السيف والمدفع أملاكاً مكتسبة للدولة، ما دام السيف سبباً رابعاً من أسباب الميراث، أما أملاك الله التي هي الأوقاف الدينية، وبيوته التي هي المساجد؛ فهي ميراث للدين وأهله، لا تغتصب ولا تكتسب، إلا لعدو لله يحاربه كما يحارب المخلوقين، ثم يلجّ في طغيانه فيعتقد أنه انتصر عليه[1].

أما جمعية العلماء، فهي لم يجدّ عليها جديد، وما رأت من نتائج جهادها إلا أنها كشفت الستر عن حقيقة الاستعمار للمغرورين فيه، وجرّأت المكافحين الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان، على الأخذ بتلابيبه، حتى لا يستريح ولا يهدأ له بال، وعلى زعزعة أركانه إن لم يقدروا على إتيانها من القواعد. ولا ترى جمعية العلماء إلا أن المسألة ما زالت في النقطة التي منها بدأت، وأن هذه الأصباغ الحائلة لم تنقل خطأ إلى صواب، ولم تقر حقيقة في نصاب.

ولا نقول ربحنا أو خسرنا، فالربح والخسارة من مفردات قاموس التجّار، أما الجهاد الذي غايته تثبيت الحقائق الإلهية في الأرض وغرس البذور الروحية في الوجود فلغته سماوية لا تحمل معاني التراب، متسامية لا تسفّ إلى ما تحت السحاب، وأما المجاهدون في ذلك السبيل، فلا يعدون الربح والخسارة في ارائهم، ولا يدخلون الوقت ـ طال أم قصر ـ في حسابهم. ولو كانت فرنسا تتقابض مع الناس بالضمائر والعقول والقيم والمثل والغايات ؛ لقلنا ـ إنها بتصرفها في القضية الإسلامية ـ خسرت تاريخها ومبادئها ومقوِّماتها ودعاويها التي تذيعها في الناس وبضائعها المزوَّرة التي تعرضها على العالم، ولكنها لا تتقايض ـ فيما تكشفت عنه في العهد الأخير ـ إلا بالتنمُّر للضعفاء والتذلل للأقوياء والكيد فيما بين ذلك.

ووالله!. لو أنها تركت في قلوبنا مكاناً للشفقة لأشفقنا عليها من هذا التخبُّط الذي تعانيه، ومن هذا الإفلاس الذي أصابها في الرأي والرجال، حتى أصبح أعداؤها هم الذين يسيرونها، والموثورون لها هم الذين يتحكمون في مصائرها.

---

(1) المصدر نفسه (259/4).

إن فرنسا اليوم تتحرك في سيادتها معنا بطريقة الاحتراق الداخلي، ووقود ذلك الاحتراق هو الحقد، فهل ينفعها هذا الوقود؟ أم يعود فيحرق المحرِّك والمحرَّك؟ وهل تحفظ لها الحياة هذه الحركة؟ أم هي ذاهبة بها إلى الزوال؟ الحكم لله العلي الكبير[1].

ـ جمعية العلماء لا تستكين:

وواصل الإبراهيمي حديثه فقال: وما ظن الاستعمار بجمعية العلماء؟ أيظن أنها تملّ وتكلّ فتضعف فتستكين؟ لا والله!. ولقد خاب ظنه وطاش سهمه، إنما يكلّ من كان في ريب من أمره، وعماية من عمله، أما من كان في أمره على بينة، ومن عمله على بصيرة، ومن ربه على عهد ؛ فهيهات لما يظنه به الظانون، وإن جمعية العلماء لفي موقعها الثابت، وعلى عقيدتها الراسخة، وفي ميدانها الفسيح من الكفاح، ولقد جاهرنا هذه الحكومة مراراً بأن هذه القضية دينية محضة، فلتنفض يدها منها، ولتبق المجال خالصاً لسياستها معنا ولنا مع سياستها، فأما إذ أبت إلا أن تجعل ديننا جزءاً من سياستها، فسننتقل معها إلى الميدان الذي أرادته واختارته لنفسها ولنا، وسنقود كتائب السياسة في أضيق مواجهها، جالبة علينا ما جلبت، وسوف تجدنا ـ كما عرفتنا ـ حيث تكره، لا حيث تحب، وسوف نعلّمها فقهاً جديداً، وهو أن أرض الجزائر حتى سجونها مساجد لإقامة الصلوات، وأن كل عود فيها حتى المشانق منابر خطبة ومطية خطيب، وأن كل صخرة فيها مئذنة ينبعث منها «الله أكبر». وسوف يُريه بنا أن عاقبة المعتدي على الإسلام وخيمة.

أ ـ نحن سياسيون منذ خلقنا لأننا مسلمون منذ نشأنا، وما الإسلام الصحيح بجميع مظاهره إلا السياسة في أشرف مظاهرها، وما المسلم الصحيح إلا المرشح الإلهي لتسيير دفَّتها أو لترجيح كفَّتها، فإذا نام النائمون منا حتى سلبت منهم القيادة ثم نزعت منهم السيادة، فنحن ـ إن شاء الله ـ كفَّارة الذنب وحبل الطُّنُب.

ب ـ نحن سياسيون طبعاً وجبلة، ونحن الذين أيقظنا الشعور بهذا الحق الإلهي المسلوب، فما سار سائر في السياسة إلا على هدانا، وما ارتفعت فيها صيحة إلا وكانت صدى مردداً لصيحاتنا، ولكننا كنَّا لا نريد أن نخلط شيئاً كل وسائله حق، بشيء بعض وسائله باطل، وأن نميِّز بين ما لا جدال فيه ممَّا فيه جدال، وكنَّا نريد أن نبدأ بأصل السياسات كلها وهو الدين لنبني عليه كل ما يأتي بعده، فنسالم ونحن مسلمون، فيكون في إسلامنا ضمان للمعادلة حتى مع خصومنا، فمن كان من أبنائنا في ريب من الحكمة في سلوكنا، فلينظر تشدد الاستعمار معنا، وشدة «تمسُّكه». إنه لا يعاديكم فيسرف في العداوة، ويظلمنا فيمعن في الظلم؛ إلا لأنكم مسلمون، ولأن هذا الإسلام منبع قوة تقتل الضعف، ومبعث روحانية تقهر المادة، فهل لكم أن تقابلوا «تمسُّكه» بالمعنى الذي يريده، بتمسُّك من جهتكم بالمعنى الذي يريده الله؟

ج ـ نحن سياسيون لأن ديننا يعدّ السياسة جزءاً من العقيدة، ولأن زمننا يعتبر السياسة هي الحياة، ولأنها اية البطولة، ولأن وضعها يصير نوع من الجهاد، ونحن مجاهدون بالطبيعة، فنحن سياسيون بالطبيعة، ولأن الاستعمار الفرنسي بظلمه وعسفه لم يغرس في الجزائر إلا ثمرتين:

---

(1) المصدر نفسه (260/4).

. بُغض كل جزائري لفرنسا حتى الأطفال.

. وصيرورة كل جزائري سياسياً حتى الأئمة.

ليت الاستعمار يأخذ من هذه الصراحة ما يغريه بزيادة التشدُّد، ظناً منه أنه يشغلنا بجانب عن جانب، ويلهينا بديننا عن دنيانا، حتى يعلم أننا أصبحنا ـ والفضل له ـ لا يلهينا شيء عن شيء، وإننا إذا لم نستطع شيئاً استطعنا أشياء، وأننا إذا لم نستطع أن نكون عطشاً لخصمنا كنا كدراً في الماء، وأننا إذا حرمنا قمح الأرض زرعناها أشواكاً، وأنه لم يبق قلب في الجزائر يتَّسِع لذرة من حب فرنسا، أو يتسع لخيط أمل فيها، وليعلم أخيراً أن الله للظالمين بالمرصاد.

إن كانت مهزلة المجلس الجزائري وقراراته في قضيتنا هي نهاية البداية في ظنّه، فإنها بداية النهاية في يقيننا، وإن درسها الأول كلمتان: شحذ الرأي وتصميمه، ومواصلة الكفاح وتعميمه.

إن الاستعمار الفرنسي استعمار صليبي، بنى أمره من أول يوم على ابتلاع الأوقاف الإسلامية، ليجرّد الإسلام من السلاح المادي، فيتسلط على معابده ورجاله، ويقودهم بزمام الحاجة إلى حيث يريد، ولولا فهمنا لهذه الحقائق لما تشددنا كل هذا التشدد في قضية الأوقاف[1].

* * *

(1) المصدر نفسه (261/4).

ثامناً: سفر الإبراهيمي إلى المشرق عام 1952م

كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، قد أعطت لكل مرحلة حقها، ولم تطلب منها ما لا تحتمله ظروفها الاجتماعية وأحوالها النفسية وأوضاعها السياسية، فلم تتجاوز مرحلة إلى التي بعدها إلا بعد الاطمئنان إلى تمام المرحلة السابقة، فأقامت كيانها طبقاً عن طبق، وأعلنت بنيانها سافاً عن ساف، مما جعلها تسلم من الانتكاس وتنجو من الارتكاس. وبلغت الجمعية ـ بعد عشرين سنة من تأسيسها ـ أشدها، واستوت على سوقها واستغلظ عودها، وتجذرت مبادئها في عقول الجزائريين ورسخت في قلوبهم، بعد أن رأوا بأعينهم وأدركوا ببصائرهم حجم التغيير النفسي والتطور العلمي والوعي السياسي التي أحدثته، فعلّقوا عليها امالهم:

جمعية علماء المسلمين ومن	للمسلمين سواك اليوم منشود
خاب الرجا في سواك اليوم فاضطلعي	بالعِبءِ مذ قرَّ دجال ورعديد
أمانة الشعب قد شُدَّتْ بعاتقكم	فما لغيركم تُلقَى المقاليد

وأدركت الجمعية أن المسؤولية الملقاة على عاتقها ـ دينياً وعلمياً وسياسياً ـ أكبر من طاقتها وأضخم من إمكاناتها، فوّلت وجهها إلى أخواتها وقررت أن تستغل عمقها الاستراتيجي، وهو العالم العربي والإسلامي.

لقد بدأت جمعية العلماء هذه المرحلة بفتح مكتب لها في اخر سنة 1950م بالقاهرة، فهي أهم مركز حضاري وثقافي وسياسي في الشرق انذاك، وهي مقر جامعة الدول العربية، وملتقى صفوة المفكرين وخيرة العلماء العرب، ثم خطت الجمعية خطوة أخرى في خريف سنة 1951م، فعينت كوكبة من العلماء ذوي السمعة الواسعة والشهرة الذائعة، والمكانة الرائعة، والمصداقية الكبيرة في أوطانهم وفي العالم الإسلامي ؛ عينتهم رؤساء شرفيين لها، ليقوموا بالتعريف بها، وبالقضية الجزائرية التي تجاهد في سبيلها، في أوساطهم ولدى المسؤولين في أوطانهم.

ثم اتصلت مباشرة بواسطة رئيسها الإمام الإبراهيمي في اخر سنة 1951م بالوفود العربية والإسلامية في مؤتمر الأمم المتحدة الذي عقد في باريس، حيث اقترح عرض قضية الجزائر على الجمعية العامة في دورتها الحالية[1].

1 ـ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في خطاب أمام الوفود العربية والإسلامية في الأمم المتحدة:

في مساء الثلاثاء 29 جانفي أقامت شعبة جمعية العلماء بباريس مأدبة عشاء بنزل «العالمين» (دوموند) في شارع الأوبرا، على شرف الوفود العربية والإسلامية في منظمة الأمم المتحدة، وقد ألقيت في هذا الحفل ثلاث خطب:

الأولى: للأستاذ عبد الرحمن عزّام الأمين العام لجامعة الدول العربية.

والثانية: للأستاذ محمد البشير الإبراهيمي رئيس علماء الجزائر.

والثالثة: للأستاذ فارس الخوري رئيس الوفد السوري.

(1) المصدر نفسه (10/4).

وقد ألقى الأستاذ الإبراهيمي خطبته ارتجالاً، ولخصها الأستاذ أحمد بن سودة تلخيصاً وافياً، بحيث لم يندّ عنه إلا القليل من ألفاظها ومعانيها.

ـ حضرات أصحاب المعالي والوزراء.

ـ حضرات أصحاب السعادة والعزِّة.

ـ حضرات الزملاء حملة الأقلام.

ـ حضرات الإخوان.

هذه ليلة ارتفعت فيها الكلف وغاب عنها العواذل، وغفل عنها الرقباء ـ إن شاء الله ـ فاسمحوا لي أن أخرج عن الوضع المتعارف في رسوم الخطاب، فأنا بصفتي رجلاً مسلماً ودينياً أمثل الإسلام في بساطته وسماحته واعتباراته الروحية، يحلو لي أن أخاطبكم بما جاء به الإسلام في ادابه الراقية، ومثله العليا، وهو وصف الأخوة. إن النبوة هي أكمل الخصائص الإنسانية، واشرف المواهب الإلهية، ولكن الله حين يرفع ذكر الأنبياء يضعهم في الدرجة الأولى في معارج الرقي، وهي درجة العبودية لله، فمحمدٌ عبد الله قبل أن يكون رسوله، وفي القران: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ} [الأنفال : 41]. {وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ } [سورة ص :45].

فأنا حين أخاطب إخواني الكرام، الذين أتاح لي الحظ السعيد أن أقف أمامهم في هذه اللحظة، لا يحلو لي إلا أن أخاطبهم بهذا الوصف الجليل، وهو وصف الأخوة الذي منذ فقدناه لم نجد أنفسنا، وكأننا حبات انقطع سلكها فانتشرت، فأصبحت كل حبة منها في كفِّ لاقط، فمعذرة إلى إخوتي الذين أعتزّ بأخوتهم أن خرجت عن النمط المألوف في رسوم الخطاب، وخاطبتهم بـ (يا أيها الإخوان) «تصفيق متواصل».

أيها الإخوان المتلاقون على هوى واحد وهو هوى الوطن الجامع، المتعبدون بعقيدة واحدة هي عقيدة تحرير هذا الوطن الجامع، الطالعون كالكواكب من أفق واحد، هو هذا الشرق الذي أطلعت سماؤه الشمس والقمر، وأطلعت أرضه الأنبياء والحكماء.

أحييكم باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وباسم شعبتها المركزية بباريس، تحية العروبة التي هي أكرم ما أنجبت البشرية من سلائل، وتحية الإسلام الذي هو أصفى ما تشظفت عنه صدفة الوحي من لالأئ، وتحية الشرق الذي أعتقد مخلصاً أنكم أزكى نباته، وأنكم الصفوة المختارة من بُناته، وأحييكم باسم الجزائر العربية المسلمة المجاهدة الصابرة، التي هي غصن فينان من دوحة الإسلام، وفرع ريَّان من شجرة العروبة، وزهرة فوَّاحة من رياض الشرق «تصفيق حاد» تغرَّبت هذه الزهرة كما تغربت قبلها نخلة عبد الرحمن الداخل، فلم تشْنْها غربة، وما زالت متَّصلة بالشرق العربي تستمد منه القوَّة والفتوَّة، وما زالت متَّصلة بالشرق الإسلامي، تستصبح بأنواره وتتغنى بأمجاده، وتعيش على ذكرياته، وهي على صلة بالشرق متينة، كانت وما زالت متمسكة بحبله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها «تصفيق».

وما زالت قائمة على غرس عقبة والمهاجر وحسَّان بن شريك، بالتعهُّد والحفظ، وما زالت ناطقة بلسان هلال بن عامر بن صعصعة منذ طغت موجة أبنائه عليها.. تلك الموجة التي يسمِّيها المؤرخ المجحف: إغارة على الأوطان، وتخريباً للعمران، ويسمِّيها المؤرخ المنصف: إنارة للأذهان، وتعريباً للسان، فحيثما حلَّ هلال من سهولها حلت العروبة، وأينما سار، سار في ركابه البيان العربي الذي من بقاياه ما تسمعون.

هذه هي الجزائر التي أحييكم باسمها، والتي ترون أبناءها أمامكم بين شيخة وشباب يلتقيان في غاية واحدة، وإن نزغ بينهما الشيطان، فكما ينزغ بين الأخوين، ولكنهما في النهاية إلى التجمُّع والاتحاد، وهؤلاء أبناء الجزائر الذين أحييكم باسمهم يا إخواننا وأستحي، وكم وددنا لو اجتمعت هذه الوفود في دارنا «الجزائر» فترون ما يشرح صدوركم، ويهيج خواطركم، من ارتباط الجزائر بالشرق والعروبة والإسلام[1].

. أيها الإخوان.. أيها الزملاء حملة الأقلام:

أحقيقة ما ترى عيني أم خيال؟ إخوة طوَّحت بهم الأقدار وفرَّقتهم صروف الدهر في الأقطار، حتى ما يلتقي رائح منهم بمبتكر، ثم يجتمعون في هذه الليلة وفي هذه البلدة على غرة وعلى غير ميعاد، كما تجتمع أشتات الزهر في إبَّانها وفي مكانها، تختلف منها الألوان والأشكال ويجمعها الشذى والطيب والجمال.

أحق أن باريس، وهي منبع شقائنا، وهي الصفحة العابسة في وجوهنا ؛ تنزل لحظة من عادتها، فتتيح لنا أن نجتمع بين حناياها هذا الاجتماع الرائع؟ فلولا حقوق الأوطان في أعناقنا، ولولا عهود يجب أن نرعاها لديارنا ؛ لكنَّا نغفر لباريس جميع ما جرَّته علينا من جرائر. ونمحو لها بهذه الحسنة جميع السيئات، ولكن تأبى علينا ذلك دماء في تونس تسيل «تصفيق وتأثر»، وشعب في المغارب الثلاثة يعذب، وشباب تفتح له السجون والمعتقلات، وتغلق في وجهه المدارس والمعابد، ودين في الجزائر ممتهن الكرامة، فهيهات أن نصفح عن باريس أو نصافحها بعد أن جنينا المر من ثمراتها، وهيهات أن يسمِّيها دار العلم، من لم ير

منها إلا الظلم، وهيهات أن يدعوها عاصمة النور من لم تغشه منها إلا الظلمات، وهيهات أن يلقبها دار المساواة من لم تعامله إلا بالإجحاف[2].

أيها الإخوان:

هذا هو الشرق رمى باريس بأفلاذ كبده، يدافعون عن حماه بالحق، ويجادلون عن حقِّه بالمنطق، وما منهم إلا السيف مضاءً، والسيل اندفاعاً، فإن وراءهم لشباباً سينطق يوم يسكتون، وسيتكلم بما يُخرس الاستعمار ويسوءه، وإن بعد اللسان لخطيباً صامتاً هو السنان، وإننا لرجال وإننا لأبناء رجال وإننا لأحفاد رجال، وإن أجدادنا دوَّخوا العالم، ولكن بالعدل، وسادوه، ولكن بالإحسان، وإن فينا لقطرات من دماء أولئك الجدود، وإن فينا لبقايا مدَّخرة سيجليها الله إلى حين.

(1) المصدر نفسه (466/2).

(2) المصدر نفسه (466/2).

رمى الشرق باريس بهذه الأفلاذ، فخاطبوا الأمم وخطبوا في منظمة الأمم، هذه المنظمة التي سميت بغير اسمها، وحُلّيت بغير صفتها، وما هي إلا مجمع يقود أقوياؤه ضعفاءه، ويسوق أغنياؤه فقراءه، وما هو إلا سوق تُشترى فيه «الأصوات» بأعلى مما كانت تشترى به أصوات «الغريض» و«معبد»، غير أن الأصوات القديمة كانت فَنّاً يمتزج بالنفوس وموسيقى تتسرَّب إلى الخواطر، أما هذه الأصوات، فإنها تنصر الظلم، وتؤيد الاستعلاء والطغيان، وشتَّان بين الصوتين، وتباع فيه الذمم والهمم والأمم بيع البضائع في السوق السوداء، وما هي إلا مجلس نصبوه للشورى فكان للشر، وعقدوه للعدل والتناصف، فكان فيه كل شيء إلا العدل والتناصف.

رمى الشرق باريس بأفلاذ كبده، فعزَّ على المغرب أن يبقى بعيداً معقرب الدار، فرمى باريس بأفلاذ من كبده، ليلقى الأخ أخاه فيتناجيان بالبر والتقوى ويتطارحان الألم والشكوى، ويهش وجه لوجه ويخفق قلب لقلب وتصافح يد يداً، وتردّ تحية عن تحية، ثم يقوى ساعد بساعد ويشتد عضد بعضد، ويمتزج ضعف بضعف فينبثقان عن قوَّة، وضعيفان يغلبان قوياً «تصفيق».

أيها الإخوان:

لم يؤثّر الفاتحون المتعاقبون على الشمال الأفريقي، ولا أثَّرت الأديان الراحلة إليه جزءاً مما أثّر الإسلام وأثرت العروبة، ذلك لأن الفاتحين لهذا الوطن قبل الإسلام إنما جاؤوه بدين القوة وشريعة الاستغلال.

أما الإسلام، فقد جاء بالعدل والإحسان، وجاء وافياً بمطالب الروح ومطالب الجسم، وجاء لإقرار الإنسانية بمعناها الصحيح في هذه الأرض، لذلك كان سريع المدخل إلى النفوس، لطيف التخلل في الأفكار، قوي التأثير على العقول، ولذلك طال في هذا الشمال أمده، وسيبقى ما دامت الفوارق قائمة بين الإنسان والحيوان، وإن هذا الشمال الأفريقي كل لا يتجزأ «تصفيق» تربط بين أجزائه دماء الأجداد، ولسان العرب، ودين الإسلام،وسواحل البحر في الشمال، وحبال الرمال في الصحارى، وسلاسل الأطلس الأشم في الوسط، واتحاد الماء والهواء والغذاء. وإنها لخصائص تجمع الأوطان المتباينة، فكيف لا تجمع الوطن الواحد؟ إن تفرق هذه الأجزاء لم يأت من طبيعتها، وإنما جاء من طبائعها الدخيلة، ومن تأثراتنا الغريبة بالدخلاء، وإنني متفائل بأن هذه الليلة ستكون فاتحة لعهد جديد واتحاد عتيد ونور من الرحمة والإخاء ينتظم المغارب في سلك.

إنني متفائل بما يتفاءل به السارون المدلجون من انبلاج الفجر، فعسى أن يتحقق هذا التفاؤل، فتكون هذه الليلة أول خيط في نسيج الوحدة الأفريقية التي هي اخر أمل للمتفائلين مثلي. وإن العنوان الدال على ما وراءه هو اجتماع جميع حركات الشمال الأفريقي في هذا المحفل الزاهر، وإن البشير بتحقق هذا الأمل هو امتزاجنا بإخواننا الشرقيين حول هذه الموائد. ومن بركاتهم أن تجتمع حركاتنا كلها في صعيد واحد، وكلها لسان يعبِّر، وقلب يفكِّر، واذان تسمع، وإنا لنرجو أن تكون قلوبنا غداً غير قلوبنا بالأمس، وأن نفيء إلى الحق الذي أمر الله بالفيأة إليه: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ} [سورة الرعد:11].

أيها الإخوان:

يقول المستعمرون عنَّا: إننا خياليون، وإننا ـ حين نعتز بأسلافنا ـ نعيش في الخيال ونعتمد على الماضي ونتكل على الموتى، يقولون هذا عنَّا في معرض الاستهزاء بنا، أو في معرض النصح لنا، وإنا لا أدري متى كان إبليس مذكِّراً؟ ما يرمون إليه أنهم يريدون أن ننسى ماضينا فنعيش بلا ماضٍ، حتى إذا استيقظنا من نومنا أو من تنويمهم لنا لم نجد ماضياً نبني عليه حاضرنا، فاندمجنا في حاضرهم، وهو كل ما يرمون إليه. وسلوهم،.. هل نسوا ماضيهم؟ إنهم يبنون حاضرهم على ماضيهم، إنهم يعتزون بابائهم وأجدادهم، إنهم يخلدون عظماءهم في الفكر والأدب والفلسفة والحرب والفن، إنهم لا ينسون الجندي ذا الأثر، فضلاً عن القائد الفاتح، وهذه تماثيلهم تشهد، وهذه متاحفهم تردد الشهادة. إن القوم يحتقرون حاضرنا الذي أوصلونا إليه، ويعتقدون أننا صبيان. فيتذكَّرون ماضيهم ليبنوا عليه حاضرهم ومستقبلهم، وينكرون علينا ذلك.

فمن حقِّنا، بل من واجبنا أن نعرف ماضينا والرجال الذين عمروه في ميادين الحياة، فنعرف من هو أبو بكر ومن هو عمر؟ ونعرف ما صنع عقبة وحسان وطارق وموسى وطريف في الغرب؟ وما صنع المثنى وسعد وخالد وقتيبة في الشرق؟ إلا أنهم يذكّرون أبناءهم بماضيهم ويلقِّنونهم سير أجدادهم وأعمالهم، وإنهم يذكّرون أبناءنا المتأثرين بعلومهم وصناعاتهم بذلك، ويأتونهم بما يملأ عقولهم ونفوسهم حتى لا يبقى فيها متسع لذكريات ماضينا وأسلافنا، وإن الواحد من هذا الصنف من أبنائنا ليعرف الكثير عن نابليون ولا يعرف شيئاً عن عمر، ويحفظ تاريخ «جان دارك» عن ظهر قلب، ولا يحفظ كلمة عن عائشة وخديجة، وإن هذه لهي الخسارة التي لا تعوَّض.

وإنِّي أتخيل أن لهم في تحريف الكثير من أسماء أعلامنا مأرباً يوم كانوا يأخذون العلم عنَّا: كأنهم ألهموا من يومئذ أن الزمان سيدول وأن دورة الفلك علينا بالسعد ستنتهي، وأننا سنعود إلى الأخذ عنهم، فحرَّفوا أسماءنا لتشتبه على أبنائنا، فلا يعرفون أن «أفيرويس» هو ابن رشد، وأن «أفيسن» هو ابن سينا، وأن «جيبرال طار» هو جبل طارق، وهكذا يتكلم أبناؤنا اليوم بهذه الأسماء، وهكذا ينطقون بها، ولا يهتدون إلى أصحابها حتى يقيض الله لهم من يكشف الحقيقة، ثم يبقى أثر الشك في نفوسهم، لما يصحب تثقيفهم الأجنبي من تحقير لجنسهم وحكم علىتاريخهم بالعقم الفكري...

وإنها لمصيبة يجب علينا أن نتنبَّه إلى خطرها ونبادرها بالعلاج، وإن دواءها الوحيد هو تثقيف أبناءنا تثقيفاً عربياً شرقياً موحداً، وأقول موحداً لأنني أعتقد أن الخلافات السياسية التي مُني بها الشرق يرجع معظمها إلى اختلاف الثقافات، فالمثقف ثقافة إنكليزية يحترم إنكلترا، والمثقف ثقافة فرنسية يحترم فرنسا، وهكذا وزَّعنا الاحترام على الغير، فلم يبق من احترامنا لأنفسنا شيء، وكأننا استبدلنا بجنسيتنا الواحدة جنسيات متعددة، كلها غريبة عنا، وكلمة مجمعة على اهتضامنا وهضمنا، ولولا نزعات موروثة عن الأجداد الذين قهروا الرومان في أفريقيا ودفعوا الصليبيين عن الشرق ؛ لم يبق لنا من ذلك التراث الغالي شيء بفعل التجهيل الذي هو غاية الاستعمار فينا، وبفعل هذه التعاليم الغريبة عنَّا.

أيها الإخوان:

ليس من سداد الرأي أن يضيّع الضعيف وقته في لوم الأقوياء، وليس من المجدي أن يدخل معه في جدل. إن من تمّام معنى اللوم أن يتسبَّب في توبة، أو يجرّ إلى إنابة، ونحن نعلم أن القوم لا يتوبون ولا يذّكّرون، فالواجب أن نلوم أنفسنا على التقصير، ونقرّعها عن الانقياد لاراء هؤلاء القوم ولإرشادهم.. أما لومنا إياهم فهو لوم الخروف للذئب، وأما طمعنا في توبتهم فهو طمع الخروف في توبة الذئب، فإن أردتم أن ترو المثل الخارق من توبة الذئب فقلِّموا أظافره، واهتموا أنيابه، كذلك إن أردتم توبة القوي فاحتقروا قوته، واحذروا أن تكونوا زيادة فيها، فإنه يتصاغر ثم ينخذل، ثم يساويكم، فإذا هو أقل منكم وأضعف. إن هذه هي الأمثال التي يعقلها الطغاة، وإن هذه هي التوبة التي يجب أن يُحملوا عليها حملاً ويُلجؤوا إليها إلجاءً.

كذلك يجب أن لا نقضي أعمالنا في التلاوم، وأن لا نكون كمن قال فيهم القران: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ} [سورة القلم:30]، فإذا تلاومنا فليكن ذلك زجراً عن الشر، وردعاً عن الخلاف، ثم رجوعاً سريعاً إلى الحق، ولقد نهى شوقي إخواننا المصريين حينما كانوا يتلاومون فيشغلهم التلاوم عن قضيتهم والاستعداد، وبرأهم في موقف تجب فيه المؤاخذة الوطنية، ليردَّهم إلى سبيل الرشاد فقال:

أيـهـا الـقـوم، كـلـكـم أبـرياء	لا يلم بعضكم على الخطب بعضاً

فلندع اللوم والعتاب جانباً، ولنفعل ما يفعله الصاحي حين يستيقظ من النوم من حزم وتشمير وجد، فبذلك يلحق القوافل المبكِّرة، لا بالتباطؤ والإخلاد ولعن الشيطان ومعاودة النوم.

إن شبابنا هم أحق الناس باستجلاء هذه العبر، وهم أحق بوصل مبتدئهم بالخبر، وهم أحق بأخذ مواعظ الحياة عن المتنبي، وبتلقي دروسه الفطرية البدوية عنه، وأن لا يكونوا شباباً . بالمعنى الذي يملأ هذه الكلمة . حتى يؤدُّوا امتحاناً في الحياة على منهج المتنبي وطريقته، إذ يقول:

وأهوى من الفتيان كلَّ سُميدع	نجيب كصدر السمهري المقوَّم
خطت تحته العيس الفلاة وخالطت	به الخيل كَبّات الخميس العرمرم

فإن فعلوا ذلك فأنا كفيل لهم أن يدخلوا هذا البحر المتلاطم من حضارة عصرهم ولا يغرقوا، وأن يعبُّوا من هذه التعاليم المتباينة في حياة عصرهم ثم لا يشرفوا «تصفيق».

أيها الإخوان:

إن القوم درسونا وفهمونا وتيقَّنوا أننا لن نضيع ولن نفنى ما دمنا متمسكين بالعرى القوية من الإسلام والعربية والشرق، فرمونا بالوهن في مقوِّماتنا حتى تضعضعت، وبدؤوا بالدين فسخروا علماءه بوسائل شتى حتى أضعفوا سلطانهم وأزالوا هيبتهم من نفوس المسلمين، ووجدوا ثغراً قديمة من ضلالاتنا فيه فوسَّعوها، وأدخلوا فيه ما ليس منه، وشجَّعوا البدع المحدثة في الدين بتشجيع أهلها، وأعانهم على ذلك كله الانحطاط العام الذي ابتليت به العلوم الإسلامية من المائة الثامنة إلى الان، فكاثروها بعلومهم المادية حتى غمروها، وزهدوا أهلها فيها وأصبحت عقيمة جامدة، ثم عمدوا إلى الكبراء فأغووهم بالأموال والألقاب والرتب، وأغروا بينهم العداوة والبغضاء وشغلوهم بالتوافه عن العظائم، وببعضهم عن الأجنبي، وبأنفسهم عن الشعوب، فما استفاقوا وما

استفقنا إلا وأوطاننا مقسَّمة وقسمتنا هي القليلة وممالكنا كثيرة، ولكن معانيها للأجنبي، وألفاظها لنا، ثم عمدوا إلى الشباب فرموه بهذا التهويل من الحضارة الغربية وبهذه التعاليم التي تأتي بنيانه الفكري والعقلي من القواعد، وتحرف المسلم عن قبلته، وتحول الشرقي إلى الغرب.

وإن من خصائص هذه الحضارة أن فيها كل معاني السحر وأساليب الجذب، وحسبكم منها أنها تفرّق بين المرء وأخيه والمرء وولده، فأصبح أبناؤنا يهرعون إلى معاهد العلم الغربية عن طوع مِنَّا يشبه الكره، أو عن كره يشبه الطوع، فيرجعون إلينا ومعهم العلم وأشياء أخرى ليس منها الإسلام ولا الشرقية، ومعهم أسماؤهم وليس معهم عقولهم ولا أفكارهم، وإن هذه لهي المصيبة الكبرى التي لا نبعد إذا سمَّيناها مسخاً، وليتها كانت مسخاً للأفراد، ولكنها مسخ للأمم ومسخ لمقوِّماتها.

أيها الإخوان:

إن النقطة التي ابتدأ منها بلاؤنا وشقاؤنا أنهم أرادونا على الانقسام وزيَّنوه لنا، كما يزيّن الشيطان للإنسان سوء عمله، فأطعناهم وانقسمنا، فوسعوا شقة الانقسام بيننا بأموالهم وأعمالهم وارائهم وعلومهم، ولم يتركوا أداة من أدوات التقسيم إلا حشدوها في هذا السبيل، ولم يغفلوا الأستاذ والكتاب والراهب والمرأة والتاجر والسمسار، حتى بلغوا الغاية في تقسيمنا شيعاً ودولاً وممالك، كما توزّع قطعة الأرض الكبيرة الصالحة إلى قطع صغيرة لا تصلح واحدة منها ولا تكفي، ثم عمدوا إلى خيرات الأرض فاحتكروها لأنفسهم واستخرجوها بعقولهم المدبِّرة وأيدينا المسخَّرة فكان لهم منها حظ العقل، ولنا منها حظ اليد، ولو أننا تعاسرنا عليهم من أول يوم في تقسيمنا، ولذنا بكعبة الوحدة نطوف بها ونلتزم أركانها ؛ لما نالوا منا نيلاً، ولما وصلنا إلى هذه الحالة، أما وقد بلغوا من تقسيمنا ما يريدون، وأصبحنا في درجة من الضعف المادي والضعف العقلي نعتقد فيها أن الله خلقنا خلقة الأرنب وخلقهم خلقة الأسد، وجفَّ القلم، ولا تبديل لخلق الله.

فأول واجب علينا، بل أول نقطة يجب أن نبتدأئ منها السير هي أن نكفر بهذا الانقسام، ونكفِّر عليه بضدِّه، وهو الوحدة الشاملة لجميع الأجزاء، وكيف يكون ذلك، وقد بُنيت على ذلك التقسيم أوضاع جديدة وممالك وملوك وحدود، وإن تغيير الممالك لصعب، وإن فطام الملوك عن لذة الملك لأصعب منه؟ فلنلتمس مفتاح قضيتنا من بين هذا الركام من الأدوات البالية، ولنعتصم بالأمر الميسور، وهو أن نوحِّد التعليم ومناهجه والتجارة وأوضاعها، ولنطمس هذه الحدود الفاصلة بين أجزاء الوطن الواحد، وليرتفق بعضنا ببعضنا، فيما يزيد فيه بعضنا على بعضنا، ولنكن يداً واحدة على الأجنبي، ولنعتبر المعتدي على جزء منا معتدياً على جميع الأجزاء، وعدو العراق هو عدو مراكش، ولنذكر من خصال الأمم ما فعلته إيطاليا في ضم أجزائها، وما فعلته ألمانيا، وما فعلته فرنسا التي لم تنم لها عين، ولم ينعم لها عيش في قضية الألزاس واللورين، ولو أن معتدياً اعتدى على جزء من إنكلترا، «وهي كجزيرة العرب»؛ لتداعى الإنكليز من أطراف الأرض لاسترجاعه. فلمَ لا نكون كذلك؟

إنهم إن علموا ذلك منَّا، وعلموا جدَّنا فيه تابوا عن سيرتهم فينا وأقلعوا، أما من لان للأكل فليس من حقه أن يلوم الأكلة.

والذي روحي بيده!... ما يسرّني أن للعرب ثماني دول، ولا أن للمسلمين عشرين دولة، ما داموا على هذه الحالة، وإنما يسرني ويثلج صدري أن يكون المسلمون كلهم شعباً واحداً بحكومة واحدة وعلى عقيدة في الحياة واحدة، وعلى اتجاه إلى السعادة واحد، فإذا وُجد هذا الشعب لم يبق لهؤلاء الأقوياء إلا أن يقولوا: إن في الشرق قوماً جبَّارين، وإنه لم يبق لنا بينهم موضع.

إن القوم استضعفونا ففرّقونا فأكلونا لقمة لقمة، فأوجِدوا هذا الشعب الموحَّد تَحيوا وتُحيوا العالم به، وأوجِدوه تَسعدوا وتُسعدوا العالم به.

إن العالم اليوم مريض، وإنه يلتمس الشفاء، فأروه أن في الإسلام شفاءه، وإنه في خصام منهك، وإنه يلتمس الحكم، فأحيوا الإسلام الصحيح يكن حكماً في مشكلة هذا العصر، مشكلة الغنى والفقر، تكتَّلوا ففي استطاعتكم أن تتكتلوا.. تكتلوا يمدّكم العصر بروحه، إنه عصر التكتل وإن الأقوياء لم تغن عنهم قوّتهم شيئاً، فأصبحوا يلتمسون أنواعاً من التكتل مع القريب ومع الغريب، فهذه إنكلترا تتكتَّل، وهذه أمريكا، وهذه روسيا.. فكيف لا يتكتل الضعفاء؟

إننا ضعفاء، ومن القوة أن نعترف بأننا ضعفاء، لأن من كتم داءه قتله، فمن الواجب علينا أن لا نتعاظم بالكذب ما دمنا لا ننال إلا الفتات من مائدة الحياة.

أيها الإخوان:

إذا حدَّثتكم عن الإسلام، أو أجربته علي لساني، فلست أعني هذه المظاهر الموجودة بين المسلمين، وإنما أعني تلك الحقائق التي سارت الإنسانية على هداها قروناً فما ضلَّت عن سبيل الحق ولا زاغت، إنما أعني تلك الاداب التي صحَّحت العقل والفكر، وصحَّحت الاتجاه والقصد، ووحَّدت القلوب والشواعر، فإن أردتم أن تستبدلوا السعادة بالشقاء فعودوا إلى ذلك الطراز العالي المتَّصل بالسماء، إن السعادة منبثقة من النفوس وإن الشقاء لكذلك، وإن إرادة الإنسان هي زمامه إلى الجنة أو إلى النار.

أن أول من يجب عليه أن يؤذن بهذا الصوت جهيراً مدوياً هم علماء الإسلام، فكل عالم مسلم لا يدعو إلى اتحاد المسلمين، وإلى إحياء حقائق الإسلام العالية، وإلى إسعاد الشرق بها فهو خائن لدينه، ولأمانة الله عنده، وإن العالم المسلم الذي يسكت عن كلمة الحق في حينها، والذي لا يعمل لإقامة الحق، ولا يرضى أن يموت في سبيل الحق، جبان، والجبن والإيمان لا يلتقيان في قلب مؤمن، إن عهد الله في أعناق علماء الدين ثقيل، وإن أمانة الإسلام في نفوس علمائه لعظيمة، وإنهم لمسؤولون عليها يوم تنشر الصحائف في هذه الدار، وفي تلك الدار.

أيها الإخوان:

إن الكلام لطويل، وإن الوقت لقصير، فليكن اخر ما نتواصى به: الحق والصبر والاتحاد.

والسلام عليكم ورحمة الله[1].

2 . أهدافه في السفر إلى المشرق:

سافر الإمام الإبراهيمي إلى المشرق بتكليف من جمعية العلماء للسفارة بينها وبين الشرق العربي، فطاف العراق والحجاز وسوريا والأردن ومصر ولبنان، وتردد على هذه الأقطار مرات في ثلاث سنوات، ولقي ملوك العرب ورؤساء حكوماتهم ووزراء معارفهم وجميع أهل الرأي فيهم، وأدى رسالته الخاصة والعامة أكمل تأدية.

أما الرسالة العامة:

فهي: تعريف الشرق العربي بالغرب العربي تعريفاً تاريخياً شاملاً، وبيان أنه قطع متجاورات متصلة الأجزاء بالشرق، وأن سكان هذه القطع يشكلون نصف العرب تقريباً، فإذا تمادت القطيعة وعدم التعاون بين شرق العرب وغربهم -كما هو واقع- التهمت أوربا شمال أفريقيا العربي وهضمته إلى الأبد، وضاع على العرب نصف عددهم. والأمم في هذا الزمان تتكتل وتتكاثر حتى بمن ليس منها في عرق ولا دين ولا صلة، فكيف لا يتكتل العرب ويتكثرون بمن هو من صميمهم في النسب واللغة والخصائص؟

ففي سبيل أداء هذه الرسالة العامة وشرحها قضى الشيخ الإبراهيمي ثلاث سنوات، وألقى مئات الأحاديث والمحاضرات، واستصرخ واستنجد ونصح ووعظ وسمى الأشياء بأسمائها، وقال كلمة الحق جهيرة، وشرح وعلل وانتقد، وصاحبه توفيق الله في أداء هذه الأمانة[2].

وأما الرسالة الخاصة:

فهي استنجاد جمعية العلماء الجزائريين بالحكومات والهيئات العربية، وطلب العون المادي والمعنوي منها، حتى تستطيع الجمعية الاستمرار في عملها العظيم، وهو إنقاذ الجزائر العربية من البربرة والاستعجام، وقطع الطريق على الاستعمار الفرنسي ومقاصده السيئة التي بيّتها للجزائر، وقد أعلنها وأصبح يعمل لها في وضح النهار بعد ما استيقن أن الهيكل العربي تقطعت أوصاله، وبعد ما سحر طائفة من إخواننا العرب الشرقيين بلغته وحضارته وتهاويله فأصبحوا يسبّحون بحمده، وفي اذانهم وقر عن استغاثتنا، ومن بيننا وبينهم حجاب. والعون الذي تريده جمعية العلماء الجزائريين من حكومات العرب وهيئاتهم، نوعان:

النوع الأول: قبول طوائف من أبناء الجزائر ترسلهم الجمعية ليدرسوا في المعاهد العربية على اختلاف أصنافها، ثم يرجعون إلى وطنهم الجزائر، فيقومون بالتعليم في مدارس الجمعية الابتدائية والثانوية ويسدون فراغاً بدأت الجمعية تشعر به من الان، ويسيّر النوابغ منهم فروع الأعمال الأخرى للجمعية وهي كثيرة مقسمة على لجان منظمة، ولكنها تفتقر إلى رجال ذوي كفاءات، فهذا إجمال النوع الأول.

أما **النوع الثاني** من العون الذي تطلبه جمعية العلماء الجزائريين من الحكومات والهيئات العربية والشعوب العربية أيضاً: أن يمدوها بمبالغ من المال ناجزة أو مقسمة على السنين، لتستعين ببعضها على حفظ القديم من

---

(1) المصدر نفسه (472/2).

(2) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 426.

مدارسها ومشاريعها، ولننشأئ ببعضها مدارس جديدة للمشردين من أبناء الأمة، المحرومين من التعليم بجميع أصنافه.

فكيف كانت سفارته؟ وماذا كانت نتائجها؟

تحدث عن مشكلة العروبة في الجزائر، والتي سمَّاها مشكلة المشكلات في نهضة الجزائر الإصلاحية العلمية العربية، وأن على الحكومات العربية منفردة في عواصمها، مجتمعة في مجلس الجامعة العربية، وممثلة في أمين الجامعة العامة، وقدم المذكرات المتتابعة في هذه المشكلة موضحاً وشارحاً ومنذراً بالعواقب، ومحذراً من الإهمال والتقصير، وبين للملك سعود بن عبد العزيز ولحكومة العراق ببغداد مرات، ولحكومة سورية ممثلة في الشيشكلي، وفي وزارة المعارف بعده بدمشق، ولحكومة مصر في العهدين ومعظم المسؤولين فيها، ولوزارة الأوقاف المصرية، ووجه عدة مذكرات إيضاحية عن هذه المشكلة لجميع الحكومات العربية بواسطة سفرائها في القاهرة[1].

والمحور الذي تدور عليه تلك الأحاديث والمذكرات بالنسبة للنوع الثاني، يدور على النقط الاتية:

أولاً: النهضة التعليمية العربية التي تضطلع بها جمعية العلماء الجزائريين معرضة لأخطار مالية تؤدي إلى انهيارها.

ثانياً: هذه النهضة العلمية أصبحت حقيقة قوية يعترف بقوتها وخطرها الاستعمار قبل غيره، والحق ما شهدت به الأعداء.

ثالثاً: النهضة العلمية يجب أن تكون مقدمة في الاعتبار على جميع أنواع النهضات، مقدمة في العون المالي لأنها هي الأصل وهي الطريق إلى الحرية والاستقلال، وما تحررت أمة أمية.

رابعاً: لم تستطع هذه النهضة ـ بعد جهاد عشرين سنة ـ أن تعلّم أكثر من عشرات الالاف، من مليوني طفل محرومين من التعليم.

خامساً: جمعية العلماء الجزائريين متدرجة في الإنقاذ حسب استطاعتها، وهذه الاستطاعة محدودة لأن قدرة الأمة المالية محدودة.

(1) المصدر نفسه ص 427.

سادساً: جمعية العلماء الجزائريين في حاجة ملحة إلى الأنواع الاتية من المدارس:

أ . مائة وخمسون مدرسة ابتدائية علىالأقل في كل خمس سنين، حتى ينتهي عدد المدارس إلى ألف مدرسة.

ب . ثلاثة معاهد ثانوية على الأقل للذكور واثنان للبنات، في ظرف خمس سنوات، لترضي بها جزءاً من هذا الجيش المتكاثر من حملة الشهادات الابتدائية.

ج . معهدان كبيران على أقل للمعلمين، ومعهد على الأقل للمعلمات، في أقرب زمن، لتسد بمن يتخرج منها حاجة المدارس الابتدائية الجديدة إلى المعلمين.

أما رجال التعليم العالي، فالجمعية معتمدة في تخرجهم على الكليات العربية والجامعات في الشرق العربي.

لقد طلب الإبراهيمي من الحكومات العربية أن تبني للأمة الجزائرية ـ التي هي جزء منها ـ هذه الأنواع من المدارس كما تبني في أوطانها لشعوبها، ولها أن تباشر ذلك بنفسها إن سمحت لها الأوضاع السياسية، ولها أن توكل جمعية العلماء وتحاسبها على الفلس كما هو دين جمعية العلماء.

وكانت نتائج هذه الرحلة الشاقة:

أولاً: قررت حكومة مصر الملكية قبول عشرة طلاب بعثة من جمعية العلماء في معاهدها على حسب استعدادهم، وخصصت للواحد منهم خمسة جنيهات مصرية للشهر، وتتقاضى من كل واحد منهم في أول كل سنة دراسية رسوماً ذات أنواع تتحيف المخصص الشهري إلى أربع جنيهات وأقل في بعض الأوقات.

. وقررت حكومة الثورة لأول عهدها قبول أربعين طالباً على نفقتها عشرين على المعارف، وعشرين على الأزهر، فثبت نصيب المعارف بكل سهولة وحزم، ولم يثبت شيء من نصيب الأزهر. وأتعب الإبراهيمي التردد سنتين ثم سكت.

وفي سنة 1954م قبل اندلاع الثورة بقليل صرح الرئيس جمال عبد الناصر بقبول مائة طالب جزائري بعثة لجمعية العلماء، وتمت الإجراءات ولكن قيام الثورة في الجزائر عطل البعثة عن السفر.. وكانت المخصصات التي أرصدتها الحكومة المصرية لا تكفي للضروريات التي يحتاجها الطلاب، واستلزم ذلك جهداً كبيراً من الإبراهيمي ليقوم لطلبة البعثة بالبقية، وهي لا تقل عن مبلغ ما تدفعه الحكومة المصرية، وقد تزيد في كثير من الأوقات.

ثانياً: قررت حكومة سوريا قبول بعثة جمعية العلماء من عشرة تلاميذ لسنة 1954/53م، وعشرة لسنة 1955/54م.

ثالثاً: قررت حكومة العراق قبول عشرة طلاب لسنة 1953/52م، وقبول خمسة اخرين سنة 1954/53م.

رابعاً: قررت حكومة الكويت قبول خمسة عشر طالباً لجمعية العلماء الجزائريين من سنة 1953م.

خامساً: قرار إمام اليمن ببرقية رسمية الإنفاق على طالبين من بعثة جمعية العلماء الجزائريين في مصر من شهر مارس سنة 1953م، ولكن لم يتحقق شيء من ذلك إلا متأخراً.

سادساً: قررت الحكومة السعودية قبول خمسة طلاب في المعهد العلمي بالرياض على نية الزيادة في العام الدراسي الذي بعده.

فنتيجة هذه المساعي الجدية من الإبراهيمي في ثلاث سنوات متوالية، مع الحكومات العربية باسم الأمة الجزائرية أن أصبح لجمعية العلماء في الشرق العربي مائة تلميذ، أنفق عليهم الاف الجنيهات في السنة، زيادة على ما تنفقه الحكومات، وأما أحوال هذه البعثات في كفاية المخصصات الحكومية وعدم كفايتها، فبعثة الرياض موسع عليها إلى ما فوق الكفاية، وتليها بعثة الكويت في التوسعة، وتليها بعثة العراق، أما بعثة مصر وبعثة سوريا ؛ فكان الإبراهيمي منها في عذاب أليم لعدم كفاية المخصصات الرسمية[1].

واستطاع الإبراهيمي أن يجمع بضعة عشر ألف جنيه مصري، أرسلت من أقطار عربية مختلفة وفي أزمنة متفاوتة إلى مركز جمعية العلماء الجزائريين، وأرسلت الإيصالات إلى أصحابها مقرونة بالشكر، ومجموعها لا يبني للجزائر مدرسة ابتدائية ذات عشر فصول، وعلى هذا فهي لا تحل «مشكلة العروبة في الجزائر» [2].

واستمر نضال الإبراهيمي وجهاده لقضية الإسلام والعروبة وإخراج المحتلين من بلاده.

وقد تركت رحلته إلى المشرق اثاراً سياسية وفكرية وثقافية، وألقى محاضرات وكتب مقالات مهمة في التاريخ الجزائري الحديث والفكر الإسلامي المستنير. وكتب مقالات سمَّاها (رحلتي إلى الأقطار الإسلامية) من رغبته لدراسة الشعوب والالتقاء بعلمائها، ودراسة أحوال الحكومات الإسلامية القديمة والحديثة، ومعرفة دراسة نفسية شباب الأمم الإسلامية المتباعدة الديار، ومبلغ تأثرهم بالعوامل الخارجية التي تبعدهم عن روح الإسلام، والبحث عن كيفية العلاج.

ووصف في هذه المقالات رحلته إلى باكستان بشيء من التفصيل، ألقى هناك المحاضرات المؤثرة التي نفع الله بها، فتكلم عن أخوة الإسلام، ودعا إلى الرجوع إلى هدي القران والسنة، وتحدث عن خماسيات عمر الأميري، وديوانه مع الله، في كراتشي بباكستان.

3 . وفي العراق:

كانت له صولات وجولات ولقاءات، وأحبه الشعب العراقي، وتفاعل مع قضية الجزائر، وألقى محاضرة عنوانها: (لا يصلح اخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) فنقلتها إذاعة بغداد.

. وحديث اخر عنوانه: تعارف المسلمين مدعاة لقوتهم وعزتهم.

. وألقى كلمة في الموصل الحدباء.

وكرَّمته بغداد غاية التكريم في احتفال مهيب عام 1952م.

كما أنني أذكر أن شيخي الدكتور عبد الكريم زيدان من كبار علماء العراق حدثني عن محبة الشعب العراقي للشيخ الإبراهيمي، وذكر لي تأثير تلك الزيارة ونجاحها في تحقيق أهدافها.

---

(1) المصدر نفسه ص 430.

(2) المصدر نفسه.

واعتبر الإبراهيمي تكريم الشعب العراقي له في بغداد ليس لشخصه، وإنما موجَّه إلى وطنه وأبناء وطنه الزائدين عن حماه، وألقى خطاباً كعادته، أسر القلوب وبهر العقول، جاء فيه:

أحييكم عن جمعية العلماء الجزائريين، التي أتت بما يُشبه معجزة موسى في إنقاذ أمة، وبما يشبه معجزة عيسى في إحياء ميِّت، وكانت في نفسها من معجزات محمد (ص) في خدمة دينه وإحياء لسانه.

وأحييكم باسم الشمال الأفريقي الجبَّار على الأعداء وعلى العوادي، الثائر على الهوان والظلم منذ برأه الله، مقبرة الطغاة، وجحيم البغاة، لا مقصِّراً إن شاء الله في جزائه ولا مفرِّقاً لأجزائه، ولا معترفاً بالحدود الي خطتها يد الظلم والعدوان. إلى أن قال:

أيها الإخوان:

إن الشمال الأفريقي كله فلذة من كبد الإسلام، وقطعة من وطن العروبة الكبير، وبقية مما فتح عقبة والمهاجر وحسَّان، وإن هذا الوطن هو أحد أجنحتكم التي تطيرون بها إلى العلاء، وإنه لامتداد لوطنكم الأكبر، وإنه متصل بكم اتصال الكف بالساعد، تصلون إليه كما وصل أجدادكم مشياً، ويصل إليكم كما وصل أسلافه حبواً، فريشوا هذا الجناح المهيض حتى تقوى قوادمه على الطيران، وصونوا حماه فإنه حماكم، وذودوا عن حوضه فإنه حوضكم، لأنَّه يحمل أمانة الأجداد التي تحملونها، فأعينوه على التحرير وأنقذوه من سوء المصير.

إن في هذا الشمال الذي يحدثكم لسانه كنوزاً من تراث العربية والإسلام، طمرها الاستعمار برطانته عمداً وطمس محاسنها بحضارته قصداً، فأعينونا بقوة نستخرج هذه الكنوز بإحياء الأخلاق والاداب والتاريخ.

إن بينكم وبينه صلات من اللغة والدين، وأرحاماً من الجنس والخصائص، فصلوا هذه الأرحام يكن بعضنا لبعض قوة.

إنكم لنا أئمة في الخير، وإنَّا بكم مؤتمُّون في الحق، فحققوا شروط الإمامة فيكم وطالبونا بتحقيق شروط الاقتداء، وَلنُقم الصفوف في معترك الحتوف تحت ظلال السيوف وإلا هلك الإمام والمأموم.

أما والله لن نُفلت من مخالب الاستعمار فُرادى، ولا نفلت منه إلا يوم نصبح أمة واحدة تلقى عدوَّها برأي واحد وقلب واحد، فإن لم نفعل، ولم نكفر بهذه الفوارق التي وضعها الشيطان بيننا، فلا نلم الاستعمار، ولنلُم أنفسنا.

أيها الإخوان:

إن أضعف سلاح رَمانا به الاستعمار هو سلاح الحديد والنار، إن سلاح الحديد يقتل الأجسام، فينقل الأرواح إلى مقام الشهادة. أما السلاح الفتَّاك الذي رمانا به فهو يقتل الأرواح ويجردها من أسباب السعادة، هذا السلاح هو حضارته وعلومه التي اتخذها رماداً يغطي به الصليبية الحقيقية التي لم تنطفأئ نارها في هذه القرون كلها[1].

---

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (105/4).

4. في المملكة العربية السعودية 1954:

التقى بالأمراء والملوك والعلماء والدعاة، وحاضر وناقش وكتب المقالات المدوية، ومن أشهر ما كتب:

. وظيفة علماء الدين، في مجلة المنهل محرم 1372هـ أكتوبر 1952م.

. الشباب المحمدي، قي مكة في 1 صفر الخير 1372هـ، وجاء في هذه الكلمة:

والشباب المحمدي أحقّ شباب الأمم بالسبق إلى الحياة، والأخذ بأسباب القوة، لأن لهم من دينهم حافزاً إلى ذلك، ولهم في دينهم على كل مكرمة دليل، ولهم في تاريخهم على كل دعوى في الفخار شاهد.

أعيذ الشباب المحمدي أن يشغل وقته في تعداد ما اقترفه اباؤه من سيئات، أو في الافتخار بما عملوه من حسنات، بل يبني فوق ما بنى المحسنون، وليتق عشرات المسيئين، وأعيذه أن ينام في الزمان اليقظان، أو يهزل والدهر جادّ، أو يرضى بالدون من منازل الحياة.

يا شباب الإسلام! وصيتي إليكم أن تتصلوا بالله تديناً، وبنبيكم اتِّباعاً، وبالإسلام عملاً، وبتاريخ أجدادكم اطلاعاً، وباداب دينكم تخلقاً، وباداب لغتكم استعمالاً، وبإخوانكم في الإسلام ولِداتكم في الشبيبة اعتناءً واهتماماً، فإن فعلتم حزتم من الحياة الحظ الجليل، ومن ثواب الله الأجر الجزيل، وفاءت عليكم الدنيا بظلها الظليل.

. وتحدث عن أصدقائه الذين التقى معهم بالمدينة لما كانت مهاجراً وطالباً في مطلع شبابه، وخص بالذكر الشيخ الوجيه «محمد نصيف»، وقال في حقه:

أيها الإخوان:

إذا لم يُنصف الحجاز شيخه ومخلد مجده ورافع رايته أستاذنا الشيخ نصيفاً ؛ فإن العالم الإسلامي كله ينصفه، فكلنا أَلسِنة شاهدة بأنه مجموعة فضائل نعدّ منها ولا نعدِّدها،وإنه مجمع يلتقي عنده علماء الإسلام وقادته وزعماؤه، فيردون ظماء ويصدرون رواء، والتي أقولها بصيحة صريحة، وأؤدِّيها شهادة للحق والتاريخ بأنه محيي السنة في الحجاز من يوم كان علماؤه ـ ومنهم أشياخنا ـ متهورين في الضلالة، وأنه صنع للسلفية وإحياء اثارها ما تعجز عنه الجمعيات والحكومات، وأنه أنفق عمره وماله في نصرها ونشرها في هدوء المخلصين وسكون الحكماء، وسيسجل التاريخ العادل اثاره في عقول المسلمين، وسيشكر الله له غزوه للبدع بجيوش السنن، المتمثلة في كتبها وعلوم أئمتها، وجمعية العلماء نفسُها مَدِينة له، فإن الكتب السلفية لم تصلنا إلا من يده، وسيسجَّل أنه مفخرة من مفاخر الإسلام، وأنه كفَّارة عن تقصير العلماء، وأنه زهرة فوَّاحة في أرض الحجاز، وأنه جماله الذي يغطِّي كل شين.

إني كنت قلت في الشيخ نصيف أبياتاً منها:

قل للذي عاب الحجاز ... وجانب المثَلَ الحصيفا

هيهات لست ببالغ ... مُدَّ الحجاز ولا «نصيفا» (1)

---

(1) اثار محمد البشير الإبراهيمي (125/4).

وتواصل مع علماء الحجاز ونجد، وخاطب علماء نجد في قصيدة طويلة مطلعها:

إنَّا إذا مـا ليـلُ نجـد عســـعســـــا	وغـربـت هـذي الجـواري خُـنَّســـــا
والصــــبح عن ضـــيـائـه تنفَّســــا	قُمنـا نؤدِّي الواجـب المقـدســـــا[1]

5. في مصر: 1952م

جالس العلماء والساسة والحكَّام وناظر وخاطب، وألقى المحاضرات وكتب المقالات تعريفاً بقضية شعبه ودينه وعروبته، وطالباً العون من إخوانه المسلمين لمساعدة شعب الجزائر على التخلص من المحتلين.

ومما كتبه في مجلة الرسالة: صوت من نجيب فهل من مجيب؟

أ. في ذكرى المولد النبوي الشريف، ونقتطف شيئاً مما قاله في هذه المناسبة حيث قال:

ومولد محمد (ص) هو الحد الفاصل بين حالتين للبشرية.

. حالة في الظلام جللها قروناً متطاولة، وحالة من النور كانت تترقبها، وقد طلع فجرها مع فجر هذا اليوم، فميلاد محمد (ص) كان إيذاناً بنقل البشرية من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهداية، ومن الوثنية إلى التوحيد، ومن العبودية إلى الحرية، وبعبارة جامعة: من الشر الذي لا خير فيه إلى الخير الذي لا شر معه.

مولد محمد (ص) هو مولد تلك التعاليم التي حرَّرت العقل والفكر، وسمت بالروح إلى الملأ الأعلى، بعد ما تدنت بالمادة إلى الحيوانية، وبالشهوات إلى البهيمية، وبالمطامع إلى السبعية الجارحة.

ومولد محمد (ص) هو مولد الإسلام، ذلك الفيض العميم من المعاني التي أصلحت الأرض، ووصلتها بالسماء، وفتحت الطريق إلى الجنة.

فقولوا لمن جاء بعد محمد من زاعم يزعم الانتصار للحق، وزعيم يهتف بالحق، وداعٍ يدعو إلى الحرية، ودعيّ يكذب على الحرية، وعاقل يبكي على العقل، ومفكِّرٍ يجهد في تحرير الفكر، وروحاني يعمل لسمو الروح، وأخلاقي يضع الموازين للمثل العليا، وحاكم يحاول إقامة العدل في الأرض، وحائر لا يدري من أين يبتدأئ ولا أين ينتهي، قولوا لهم جميعاً: قد سبقكم محمد (ص) إلى هذا كله، وقد نصب لكم بقرانه وسيرته أعلام الهداية في كل مصعد وكل منحدر، ولكنكم قوم لا تفقهون أو لا تصدقون، فارجعوا إليه إن كنتم صادقين، تجدوه منكم قريباً.

هذه المعاني التي يجب أن نستشعرها حينما نذكر المولد، وحينما نحتفل به، أما عدا ذلك مما نفعله ونقوله، فزوائد لا قيمة لها في العقول، ولا أثر لها في النفوس[2]..

ثم قال: لو فهمنا المولد المحمدي بهذه المعاني لكان إظلاله لنا في كل عام تجديداً لهممنا، وإيقاظاً لشواعرنا، وصقلاً لأذهاننا، وجلاء لأرواحنا، ولكانت اثار ذلك سموَّاً في أرواحنا، وسداداً في ارائنا، وتحولاً إلى الخير في أحوالنا، وجمعاً لكلمتنا على الحق، وتوحيداً لصفوفنا في النوائب.

---

(1) المصدر نفسه (126/4).

(2) المصدر نفسه.

ولكننا فهمناه على قياس من عقولنا وهي جامدة، وعلى نحو من هممنا وهي خامدة، وعلى نمط من عاداتنا وهي سخيفة، وقصرناه على هذه التوافه: لعب للصغار ليس فيه فائدة، وخطب للكبار ليس فيها عائدة، فعلنا بمولد محمد (ص) ما فعلناه بسيرته، فاقتصرنا في كليهما على أضعف جانبيه، فنحن في مولده نلهو ونلعب، وقد نفرح ونطرب، ونعمر يومه وأسبوعه بحفلات تقليدية ليس فيها روح، كذلك نحن نتدارس سيرته التي هي التفسير العملي للإسلام، فلا ندرس إلا جانبها البشري من كيفية أكله ولباسه ونومه، لا جانبها الملكي من صبره وجهاده وتربيته لأمته وبناء الدولة الإسلامية.

يختلف الفقهاء في هذه الحفلات المولدية، وهل هي مشروعة أو غير مشروعة؟ ويطيلون الكلام في ذلك بما حاصله الفراغ والتلهي وقطع الوقت بما لا طائل فيه، والحق الذي تخطَّاه الفريقان أنها ذكرى للغافلين، وإنما لم يفعلها السلف الصالح لأنهم كانوا متذكرين بقوة دينهم، وطبيعة قربهم، وعمارة أوقاتهم بالصالحات.

أما هذه الأزمنة المتأخرة التي رانت فيها الغفلة على القلوب، واستولت عليها القسوة من طول الأمد، واحتاج فيها المسلمون إلى المنبِّهات، فمن الحكمة والسداد أن يرجع المسلمون إلى تاريخهم يستنيرون عبره، يدرسون سيره، وإلى قرانهم يسجلون حقائقه، وإن من خير المنبِّهات مولد محمد (ص) لو فهمناه بتلك المعاني الجليلة.

أيها المسلمون: قبل أن تقيموا حفلات المولد أقيموا معاني المولد، وتدرَّجوا من المولد المحمدي الذي هو مولد رجل، إلى البعثة المحمدية التي هي مولد دين نسخ الأديان، لأنه أكمل الأديان، وهناك تضعون أيديكم على الحقيقة التي تهديكم إليها هذه الذكرى.

حاسبوا أنفسكم في كل عام من أين انتقلتم وإلى أين وصلتم، أشيعوا بينكم في هذه الذكريات المحبة والأخوة والاتحاد على الحق، واذكروا أن صاحب هذه الرسالة بعث بالعزَّة والكرامة والعلم والقوة، فكونوا أعزَّة، وكونوا أحراراً، وكونوا أقوياء، واعرفوا محمداً بدينه وقرانه وسيرته لا بمولده، وأقيموا دينه ولا عليكم بعد ذلك أن تقيموا مولده أو لا تقيموه.

إن محمداً (ص) يطالبكم بإقامة الدين لا بإقامة المولد، وإن دينكم دين الحقائق والأعمال والنُّظم، فارجعوا إلى تلك الحقائق، وانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم[1].

واستمرت المحاضرات والمقالات والكلمات في مقامه بالقاهرة.

ب ـ ألقيت كلمة للإبراهيمي في الحفل الذي أقيم في فندق «سمير أميس» بالقاهرة تكريماً للأستاذ الفضيل الورتلاني في شهر نوفمبر 1952م، ومما جاء في هذه الكلمة:

وأقول في ولدي وتلميذي وخالصتي الأستاذ الفضيل الورتلاني ما يقوله الوالد العاقل الحساس في ولده البرّ، وما يقوله الشريك الأمين في شريكه الأمين، وما يقوله الزميل الشريف في زميله الشريف، وأقول فيه في المشهد ما أقوله في المغيب، ولا أقول ـ إن شاء الله ـ إلا حقاً.

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (144/4).

أقول: إنه رجل أي رجل، أو إنه الرجل كل الرجل، بالمعنى الذي تعرفه العرب من هذين التركيبين القصيرين الجاريين مجرى لغة البرقيات في زمننا تجمع ضيق اللفظ واتساع الدلالة(1).

ج . وتحدث عن سيد قطب عندما أرسل مقالاً له إلى صحيفة البصائر عنوانه «كفاح الجزائر»، وكان مقاله الأول من سلسلة مقالات كتبها الأستاذ سيد قطب خصيصاً لـ«البصائر».

وقال الإبراهيمي في سيد: تمتزج فكرة الوطن الإسلامي الأكبر بنفس الأستاذ سيد قطب امتزاج الروح بالجسد والعقيدة بالعقل، فهو حفظه الله لم يفتأ يدعو المسلمين في الشرق والغرب بكتاباته الضافية إلى السير على ضوء هذه الفكرة في حركاتهم التحريرية، وكفاحهم العام، والاعتصام بأخوتهم الإسلامية التي هي المهيع الأمين، لتحقيق أمانيهم وامالهم في الحياة كمسلمين، لهم من تعاليم دينهم ومجد تاريخهم كل ما يهديهم سواء السبيل، إذا غشيتهم الظلمات وألمت بساحتهم خطوب وملمَّات.

وقد وجد الأستاذ في صحيفة «البصائر» التي هي اللسان المعبِّر عن كفاح الجزائر، في سبيل المحافظة على إسلامها وعروبتها، وربط نهضتها بالعالم الإسلامي صدى دعوته الصارخة، فأحبَّها وبادر بإرسال هذه الكلمة البليغة الجامعة لها، وهي إذ تحلّي صدرها بها، إنَّما تنشر صفحة من جهاد أحد العلماء العاملين من أعلام هذه النهضة، التي لن تقف دون أن تصل بالإسلام والمسلمين إلى أهدافهم السامية، في طريق كفاحهم من أجل الوحدة والحرية والاستقلال(2).

د . وأرسل من القاهرة برقيات على إثر اغتيال الزعيم التونسي فرحات حشَّاد إلى «الاتحاد العام التونسي للشغل» جاء فيها:

إن الجريمة الفظيعة، جريمة اغتيال رئيسكم العظيم المرحوم فرحات حشَّاد، قد تركت في أنفسنا ألماً شديداً، ونحن نقاسمكم امالكم والامكم، وقضيتكم قضيتنا، وتقبلوا باسم الشعب الجزائري أحرَّ التعازي(3).

هـ وقدَّم الإمام الإبراهيمي مذكرة إيضاحية لوزارة المعارف المصرية ومشيخة الأزهر الشريف وللأمانة العامة لجامعة الدول العربية في يناير 1953م، تحدثت تلك المذكرة عن الشعب الجزائري، وجمعية العلماء، ونشأة هذه الجمعية، وعن تشكيلات الجمعية في عصره، وجرائد الجمعية، ومالية الجمعية، وأعمال الجمعية لحفظ الإسلام على مسلمي فرنسا، ومواقف مشهودة لجمعية العلماء وموقفها من المبشرين المسيحيين، ومن الإلحاد، ومن الخمر، ومن تعليم النساء، وموقف فرنسا من الجمعية، وعن أمهات أعمال جمعية العلماء، من مقاومة الأمية، والمحاضرات الدينية والاجتماعية، وتأسيسها للنوادي العلمية، وبناء المدارس والمعهد الباديسي، وعن طموحات جمعية العلماء لإقامة مشروع جامعة عربية إسلامية في الجزائر، وبين لهم خلاصة النتائج الإيجابية من أعمال جمعية العلماء وتوجيهاتها:

في المعنويات:

---

(1) المصدر نفسه (148/4).

(2) المصدر نفسه (153/4).

(3) المصدر نفسه (153/4).

. استقرار الإصلاح الديني الإسلامي بمعناه الصحيح الواسع، وأساسه الرجوع إلى القران.

. إذكاء النزعة العربية في النفوس.

. تقوية الشعور السياسي وتكوين رأي عام له.

. التوجه إلى الشرق والتنويه بتاريخه وأمجاده.

. إحياء الفضائل والأخلاق المتينة، وعقد جملتها بالقلوب لا بالألسنة.

. خطوات سديدة في بناء الأسرة على المحبة، وبناء المجتمع على التعاون.

. وضع المرأة المسلمة في موضعها من الفطرة ومنزلتها في الإسلام.

. التقليل من الافتتان بالحضارة الغربية.

. قمع الإلحاد.

. إيقاف التبشير عند حده.

. التخفيف من ويلات الأمية.

. نظام الوعظ والإرشاد تظهر روعته في كل رمضان على الخصوص، قوامه 140 واعظاً.

في الماديات:

. تشييد سبعين مسجداً حرًّاً على نماذج مما كان يؤديه المسجد في التربية.

. مائة وبضع وأربعون مدرسة ابتدائية مجهَّزة أحسن تجهيز تتسع لخمسين ألف تلميذ.

. معهد ثانوي كامل الأدوات والمرافق يحتوي على ألف تلميذ.

. بعثات إلى جامع الزيتونة تبلغ ألفاً وخمسمائة تلميذ.

. بعثات إلى جامع القرويين تبلغ مائتي تلميذ.

. هذه البعثات التي بدأت طلائعها تزحف إلى مصر والعراق، وسوريا والكويت.

. حركة مباركة لحفظ العروبة والإسلام على العمَّال النازحين إلى فرنسا.

. مكتبة جديدة حافلة في المعهد تهّيأئ للباحثين مراجع البحث، وتعوِّض ما أتلفته يد الاستعمار من كتبنا ومكتباتنا، وقد زوَّدها سمو الأمير سعود ولي عهد المملكة العربية السعودية في السنة الماضية بألف مجلد.

. إنشاء مكتب ثقافي للجمعية في القاهرة، ليكون صلة بين الجزائر والشرق، ويشرف على البعثات الحاضرة والمنتظرة، وستجني العروبة والإسلام منه خيراً كثيراً.

خاتمة:

هذه هي الأعمال الجليلة التي قدَّمتها جمعية العلماء للأمة الجزائرية، بل الأمة الجزائرية، بل قدمتها الجمعية والأمة معاً للعروبة والإسلام، فحفظت للعرب طائفة من رأس مالهم، وربحت للمسلمين جزءاً كبيراً من مجموعهم كاد يضيع منهم.

قامت جمعية العلماء بهذه الأعمال مستعينة بالله، معتمدة على الأمة، مع كيد المستعمرين، وخذلان الضالين، وتشويش الجاهلين الذين يخربون بيوتهم بأيديهم[1].

لم تتوجَّه الجمعية في هذه المراحل القاسية إلى خارج الجزائر، لأن من مراميها البعيدة تربية الأمة على الاعتماد على نفسها، وعلى التكافل في المصلحة العامة، وهو باب من أبواب التربية الاستقلالية المفضية إلى الاستقلال الحقيقي.

ولكنها بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة التي بينَّاها في الفصول السابقة أجهدها الإعياء ووقفت مبهورة، والتفتت إلى إخوانها في الشرق وإلى حكوماتهم تلتمس العون والمدد، وتحمل صحيفة أعمالها بيمينها، ولا مجال للتراجع لأن معناه الموت، ولأن نتيجته شماتة الأعداء، وهي أنكى على الحر من الموت، وأنا رائدها إلى الروض وفارطها على الحوض، وقد بلَّغت.

ليست القضية قضية شخص أو أشخاص، فلا نحن ولا الأمة من ورائنا نرضى بهذا، ولا ندين به، فقد ربيناها بعد أن ربينا أنفسنا علىتقديس المبادأئ ونسيان الأشخاص والشخصيات إلا في مقام التأسي والوزن، وإنما هي مسألة أمَّة تعدّ أحد عشر مليوناً من صميم العروبة، مصمِّمة على تصحيح نسبتها وتثبيت إسلامها، لتبني عليهما استقلالها، لأنها تؤمن بأن الاستقلال على غير أساس العروبة والإسلام هو استقلال على غير أساس، فهو منهار من ساعته، فإذا تمَّ فهو استقلال لأمة لا تعرفها العروبة ولا يعرفها الإسلام،ولا ينفع استقلالها العروبة ولا الإسلام.

قد وجب حق الأخ علىأخيه، ووجب على حكومات العرب أن تقف موقف الجد والتضحية والواجب من هذه الحركة حتى تصل إلى غاياتها، وإن كل ما تنفقه الحكومات العربية في هذا السبيل فهو قليل، وهو ضربة في الصميم، وهو عائد عليها في القريب بأرضه وثمراته[2].

إن جمعية العلماء واسطة بين الطرفين، وترجمان صادق بينهما، وإنها لا ترضى بما دون الواجب، ولا ترضى لنفسها بالتصدّق والامتنان والمجاملة، وللحكومات العربية عليها حق المحاسبة الدقيقة، فقد أخذت بذلك في جميع أعمالها.

قد بلّغت، اللهم اشهد

محمد البشير الإبراهيمي

---

(1) المصدر نفسه (179/4).

(2) المصدر نفسه (180/4).

رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

القاهرة في 5 رجب 1382هـ

الموافق 20 مارس 1953م[1]

و . تحية غائب كالايب:

اشتاق الإبراهيمي في رحلته إلى المشرق إلى وطنه، وحتى إلى بلده وشعبه وإخوانه وتلاميذه، فعبَّر عن شوقه وحنينه بكلمات صادقة معبرة عن معاني عظيمة في حب الأوطان من أصحاب الفكر السليمة.

فكتب في مقال له في صحيفة البصائر عام 1953م مقالة بعنوان: «تحية غائب كالايب» نقتطف منها:

سِر يا صبا ـ يقصد ريح الصبا ـ طاب مسراك وصفا مجراك، في جو ضاحك الصفحة، وفضاء سافر الغرَّة، لا جبلا نعمان يعترضان مهبَّك، ولا عواصف الدبور تعارض مدبَّك، فإذا لاحت لك بواذخ الأطلس فاسلك منها ما سلك بنو هلال، فرقة عن اليمين وفرقة عن الشمال، وخذ من اثارهم بما يُجدي، فكلاكما نجدي، وستقع في شمالك على الخؤولة، وفي يمينك على العمومة، فابثُث أسرارك وانثُث أخبارك، فهناك محطة الهوى والشوق.

أدِّ التحية عني للجزائر التي غذّت وربَّت، وأنبتت القوادم في الجناح، وأسلفت الأيادي البيضاء، وأسدت العوارف الغر، وأشربت من الطفولة حب العروبة والإسلام، وأخذت باليد إلى رياضهما، ففتقت اللسان على أشرف لغة وسِعت وحي الله ووحي العقول، وفتحت القلب لأكمل دين جمع الروح والمادة، ثم أورثت ـ فيما أورثت من ماثر العرب وفضائل الإسلام ـ أنفاً حمياً، وفؤاداً ذكياً، ولساناً جريئاً، وهمة بعيدة، وإباء للمشارب الكدرة، وقناة لا تلين إلا للحق، وذياداً عن حُرمات الحِمى والدين، ونفساً لو تراءت لها زخارف الدنيا من وراء الدنايا ما خاضتها إليها، وروحانية أحد طرفيها في الأرض والاخر في السماء تأمر في ذلك كله وتنهى.

ثم عمِّم التحية إلى كل من تديّر الجزائر من إخوان الصدق، وأحلاف الحق، من علماء جلاهم الإسلام سيوفاً، وبراهم سهاماً، وقوَّمهم رماحاً، ثم وحَّدتهم العقيدة على غاية، وجمعهم الحق على بساط، وألف بينهم الجهاد في ميدان، فاجتمعت قلوبهم على هداية بها، وألسنتهم على دعاية إليها، وأيديهم على بناء

لها، ومن أنصار كانوا للدعوة السلفية الإصلاحية خزرجها وأوسها، وكانوا للنهضة الجزائرية عمادها وأُسَّها، وكانوا الأحجار الأولى لبناء الجزائر الجديد، والكتائب المبكِّرة لإحياء مجد العرب بعز الإسلام[2].

ومن شبَّان ربيناهم للجزائر أشبالاً، ووتَّرناهم لعدوِّها قسيّاً ونبالاً، وصورنا منهم نماذج للجيل الزاحف بالمصاحف، وعلمناهم كيف يُحيون الجزائر؟ وكيف يحيون فيها؟

وقال: لن أنسى ـ يا أم ـ أنك كنت لي ماخِطة الغِرس وماشطة العِرس، فلا تنسي أني كنت لك من عهد التمائم إلى عهد العمائم، ما شُغلت عنك إلا بك، ولا خرجت منك إلا عائداً إليك، لا تنسي أنني ما زلت

(1) المصدر نفسه (180/4).

(2) المصدر نفسه (182/4).

ألقى الأذى فيك لذيذاً، والعذاب في سبيلك عذباً، والنصب في خدمتك راحة، والعقوق من بعض بنيك برّاً، والحياة في العمل لك سعادة، والموت في سبيلك شهادة، ولا تنسي أنني عشت غيظاً لعداك وشجىً في حلوقهم، وكدراً لصفوفهم، وأنني ما زلت أقارع الغاصبين لحقّك في ميدان، وأكافح العابثين بحُرماتك في ميدان، وأعلِّم الغافلين من أبنائك في ميدان، ثلاثة ميادين، استكفيتني فيها فكفيت، ورميت بي في جوانبها فأبليت، ولا منَّة لي يا أمَّ عليك، وإنما هي حقوق أوجبتها شرائع البر، قام بها الكرام، وخاس بعهدها اللئام.

خطت الأقدار في صحيفتي أن أفتح عيني عليك وأنت موثقة، فهل في غيب الأقدار أن أغمض عيني فيك وأنت مطلقة؟ وكتبت الأقدار عليَّ أن لا أملك من أرضك شبراً، فهل تكتب لي أن أحوز في ثراك قبراً[1].

وقال: لله في تقدير السنين أسرار، فيها تحسب الأعمار، وفيها تُؤتي الأشجار الثمار، وفيها يتجدد الحنين والادِّكار، وفيها يهيج الشوق بين المتجانسات فينشأ بين الفعل والانفعال وجود، ولقد غبتُ عن الجزائر سنة وبعض السنة، فكنت أغالب الشوق فأغلبه، فلما قيل: هذا يوم 7 مارس ـ وهو موفِّي سنة الفراق ـ هجم عليَّ من الشوق ما لا يُغلب، فتمثَّلت بقول الوزير ابن الخطيب السلماني:

وجاشت جنود البين والصبر والأسى عليَّ فكان الصبر أضعفها جنداً

غبت عن الجزائر بجسمي سنة وبعض السنة، ولكنني ما غبت عنها بروحي وفكري دقيقة ولا بعض الدقيقة، وما عملت لغيرها عملاً ولا جزءاً من عمل، فلساني رطب بذكرها، وشخصي عنوان عليها ورمز إليها، وأحاديثي تعريف بها وإغلاءٌ لقيمتها، ومحاضرتي في المحافل الحاشدة في الشرقيين هي فضائلها شائعة، ومفاخرها ذائعة، ومباخرها ضائعة، وأعمالي تمجيد لها ورفع لشأنها وتنويه بنهضتها وتشريف «لجمعية علمائها».

وما الجزائر إلا جمعية العلماء، لولاها لكانت الجزائر مثل جزائر واق الواق، اسماً يجري على اللسان، ومسمًّى معدوماً من الوجود، لا يُنكر هذا إلا صبيٌّ أو غبيٌّ أو عقل وراءه خبي[2].

أشهد لقد كنت ألقى في أسفاري أنواعاً من التعب، فلا يهوِّنها عليَّ ولا يغريني بالإقدام على غيرها ؛ إلا يقيني أنها مقلد في قيمة الجزائر وقيمة جمعية العلماء، وكنت ألقى من إخواني في العروبة والإسلام إقبالاً عليَّ واحتفاءً بي على نسق من فضلهم وتكرُّمهم، فلا يزدهيني من ذلك إلا أنه احتفاء بالجزائر وبجمعية العلماء، وسعدت بلقاء كثير من عظماء الشرق وعلمائه وأمرائه وقادة الرأي فيه، فما عددت ذلك إلا من سعادة الجزائر وجمعية العلماء، ووالله ما أنسانيهما تبدُّل المناظر وتنوّع الأشخاص، ولا لفتني عنهما تعاقب المحاسن على بصري وتوارد معانيها على بصيرتي، بل كانتا دائماً شغل خواطري ونجوى سرائري، وطالما طرقتني منهما أطياف كأنها أسياف، فأرتاع وألتاع،وأكاد أطير شوقاً، ثم يمسح ذلك كله عن نفسي أن في سبيلهما سكوني واضطرابي،

(1) المصدر نفسه (183/4).

(2) المصدر نفسه (184/4).

ولو خرجت تاجراً لكنت في الأخسرين صفقة، ولو خرجت متروِّحاً لكنت كمن هجر الجام ومديره، والروض وغديره، إلى جفاة السَّفر وجفاء القفر[1].

وقال: ويميناً لو تبرَّجت لي المواطن في حُللها، وتطامنت لي الجبال بقُللها، لتفتنني عنك لما رأيت لك عديلاً ولا اتخذت بك بديلاً، وإذا كان أوطان الإسلام كلها وطن المسلم بحكم الدين، فإن اختصاصك بالهوى والحب من حكم الفطرة السليمة ولنا في رسول الله أسوة حسنة في حبِّه لمكَّة وحنينه إليها.

ورضيت أكمل الرضى أن كان جهد المقلّ مني يرضيك، وما هو إلا لبنة في بنائك وقطرة في إنائك ورعيٌّ لذمتك وسعيٌ في كشف غمتك، ورضيت من الجزاء على ذلك كله برضى الله وقبوله، فلا يهولنَّك فراغك مني أياماً، فعسى أن يكون المسك ختاماً، وعسى أن تسعدي باثار غيبتي أعواماً...[2]

أيها الوطن الحبيب:

أما الشوق إليك فحدِّث عنه ولا حرج، وأما فراقك فشدَّة يعقبها الفرج، وأما الحديث عليك فأزهار تضوَّع منها الأرج، وأما ما رفعت من ذكرك فسلْ من درب ودرج، وأما الانصراف عنك فإجحاف بالغيّ لم يجاوز صاحبه اللوى والمنعرج، وأما الأوبة فما زلت أسمع الواجب يهتف بي: أن يا بشير، إذا قضيت المناسك فعجِّل التوبة إلى ناسك.

وسلام عليك يوم لقيت من «عقبة» وصحبه بِرَّاً فكنت شامخاً مشمخراً، ويوم لقيت من «بيجو» وحزبه شراً، فسلَّمت مضطراً، وأمسيت عابساً مكفهراً وللانتقام مسرَّاً، وسلام عليك يوم تصبح حرَّاً، متهللاً مفتراً بالله لا مغتراً.

ومعذرة إليك إذا كنت ارتخيت، ثم انتخيت، فإنما هي نخوة الأُباة الأشاوس، يدفعون بها وساوس الصدور، ويدفعون بها في صدور الوساوس[3].

إن الإمام الإبراهيمي كان في الخمسينيات نسيجاً وحده، وأوتي من الذكاء، ورجاحة العقل، وحضور القلب، وروعة البيان، والثبات على المبادأئ والقيم، ومحبة الإسلام، والتعلق بالقران، والدفاع عن الأوطان، ما يجعله من كبار المصلحين في وطنه الصغير «الجزائر» ووطنه الكبير «العالم العربي الإسلامي».

ز ـ سعيه لإطلاق سراح المودودي من السجن:

كان المودودي من كبار علماء الإسلام، ومن الدعاة لتحكيم شرعه وإقامة حكومة إسلامية ودستور إسلامي. واصطدم بالحكَّام في باكستان الذين حاربوا اراءه وتوجهاته، وحدثت اضطرابات وسالت دماء، واعتقل المودودي وسجن الكثير من أصحابه، وأحالته إلى محكمة عسكرية عقدت بمدينة لاهور، وحكمت عليه بالإعدام ثم خفضت حكم الإعدام بالسجن أربعة عشر عاماً.

(1) المصدر نفسه (184/4).
(2) المصدر نفسه (185/4).
(3) المصدر نفسه (185/4).

واهتز المسلمون بباكستان لهذا الحكم القاسي بنوعيه الثقيل والخفيف، وانصبَّ على الحكومة تيار من الاحتجاج والتظاهر بالغضب، بسببه تمَّ تخفيف الحكم على المودوي، وقامت الهيئات الإسلامية القوية بالاحتجاج والاستنكار من مصر وسوريا والعراق والكويت، وتأكدت الأخبار عند الإبراهيمي وهو بالكويت، فغضب وحزن لما بينه وبين الرجل من صلات، ولما بينه وبين جمعية العلماء من تقدير.

وكان الإمام الإبراهيمي يرى بأن المودودي ليس رجل إقليم أو قطر، إنما هو للمسلمين كلهم، فمن بعض حقه على الأمة أن تسعى في خلاصه من السجن بعد أن تراجعت الحكومة عن حكم الإعدام، ولذلك أبرق برقية لكل من حاكم باكستان العام ورئيس حكومتها باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وباسم المغرب العربي كله لأن حظ المودودي في الإسلام والانتصار لحماته ليس بقليل(1).

نص البرقية التي أرسلها الإبراهيمي، والورتلاني إلى حاكم باكستان وإلى رئيس وزرائها في قضية المودودي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

حضرة صاحب الفخامة السيد غلام محمد حاكم باكستان العام. كراتشي

حضرة صاحب الدولة السيد محمد علي رئيس الوزارة الباكستانية. كراتشي

شاع في أنحاء العالم أن المحكمة العسكرية بمدينة لاهور حكمت بالإعدام على عالم من أكبر علماء الإسلام، ومن أعظم دعاته، وهو الشيخ أبو الأعلى المودودي، ثم شاع الخبر بأن الحكومة الباكستانية خفضت هذا الحكم إلى السجن أربع عشرة سنة.

إن هذه الأخبار أحزنت مئات الملايين من المسلمين في العالم، وسرَّت أعداء الإسلام كلهم، ومهما تكن الدواعي لهذه الأحكام القاسية ؛ فإن المسلمين في جميع الدنيا لا يرضون لحكومة باكستان الإسلامية أن يسجِّل عليها التاريخ قتل علماء الدين أو سجنهم، لأنها لا تعدم بإعدام المودودي شخصاً، وإنما تحطم سيفاً من سيوف الإسلام، وتسكت صوتاً من أصوات الإسلام، وتطمس مفخرة من مفاخر الإسلام، ويا فرحة أعداء الإسلام بذلك.

إننا باسم جمعية العلماء الجزائريين، وباسم ثلاثين مليون مسلم في المغرب العربي، نتوجَّه في شدة وإلحاح إلى دولة باكستان الرشيدة التي نفخر بها، ونعلِّق عليها الامال في إعلاء كلمة الإسلام، أن ترجع عن هذه الأحكام التي تزعج نفوس المسلمين، وتطلق سراح المودودي عاجلاً لتردَّ الاطمئنان إلى نفوس جميع المسلمين.

إن فرح المسلمين بنشأة باكستان وعطفهم عليها، وانتصارهم لقضاياها، هو رأس مال عظيم للدولة الباكستانية، الواجب أن تزكيه بإطلاق حرية رجل من أكبر رجال الإسلام مهما كانت جريمته السياسية، فإنها لا تعدو أن تكون جريمة رأي(2).

(1) المصدر نفسه (190/4).

(2) المصدر نفسه (191/4).

ولم يكتف الشيخ الإبراهيمي بذلك، فكان يرى من تمام الواجب عليه لصديقه المودودي ؛ أن يعرِّف به بني وطنه وقرَّاء «البصائر» فكتب مقالاً في التعريف به ختمه بقوله: وسلام على المودودي طليقاً وسجيناً، ومما جاء في هذا المقال:

الأستاذ العلامة أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان، أصفه وصف العارف الذي قرأ وشاهد، فهو رجل لم ترَ عيناي كثيراً من مثله، بل لم أرَ مثله في خصائص امتاز بها على علماء الإسلام في هذا العصر، منها الصلابة في الحق، والصبر على البلاء في سبيله، والعُزوف عن مجاراة الحاكمين، فضلاً عن تملُّقهم، وهو أفقه من رأيته أو سمعت به في باكستان والهند في حقائق الإسلام تشريعاً وتاريخاً.

واسع الاطِّلاع، دقيق الفهم، بارع الذهن، نيّر الفكر، كبير العقل، مشرق الروح على تجهُّم في ظاهره، سديد التصرف في المقارنة والموازنة والاستنباط، مستقلٌّ في الاستدلال إلى حد يمضي من الشريعة إلى مقاصدها العامة، دون احتفال بالجزئيات إلا بمقدار ما يدخل من هذه إلى تلك، عميق الغوص في استخراج النكت، متين العقدة، تظهر اثارها على أعماله ومواقفه قوة وثباتاً، كما تظهر اثار الغذاء الصالح على البدن فراهة ونعمة، فلسفي النزعة العلمية لا العقلية، يذوده افتتانه بالنص والواقع عن أن يكون فيلسوفاً عقلياً، ولولا ذلك لكانه، فهو يؤمن بالنص، ويؤمن بعمل العقل في النص، ثم لا يزيد إلا بمقدار.

جمهوري العشرة، ولكنه خصوصي الزعامة، يرى أن لها ـ لا للزعيم ـ حقوقاً تحفظ النظام، وتوزّع الأعمال على الكفاءات، وتقف بالمتطفلين عند حد، فهمت هذا من مجموع أحواله ومن ملابستي لبعض أنصاره، فصورته بهذه العبارات، وأنا أرى أن الفرق بين الزعامة والزعيم شيء دقيق، ودقَّته هي التي غرَّت الزعماء بأنفسهم، وغرَّت الأتباع بهم[1].

وهو هيوب للتحدث بالعربية، مع دقة فهمه للقران والحديث وكتب الدين، واقتداره على تطبيقها، ويرجع سبب ضعفه في الكلام بالعربية إلى قلة استعماله لها في الحديث والكتابة، فهو مع كثرة مؤلفاته التي تبلغ العشرات لم يكتب كتاباً واحداً بالعربية، وكل مؤلفاته بالأوردية والإنكليزية، وكلها في المواضيع الإسلامية الخطيرة، التي تقتضيها النهضة والتجديد، ويكثر الخوض فيها في هذا العصر، ويتناولها الغربيون بالنقد والتشويه، وللأستاذ مشاركة قوية في معارف العصر واطِّلاع على حضارته وهو يزنها بالميزان القسط، فلا إنكار ولا اندفاع، بل إنه يقف منها موقف الحذر والانتباه، وقد ترجم أحد أعضاء الجماعة طائفة من كتبه إلى العربية، فمكن بذلك أبناء العرب من الاطِّلاع على أفكاره، وهذا العضو هو صديقنا الوفي الشيخ مسعود عالم الندوي، وقد أهدى لي جميعها منذ سنوات وأنا في الجزائر، فلمحتُ فكراً شفافاً، ورأياً حكيماً، وفكراً عميقاً، وتساوقاً بين الألفاظ ومعانيها[2].

(1) المصدر نفسه (186/4).

(2) المصدر نفسه (187/4).

والعلامة المودودي وثيق الصلة بجمعية العلماء الجزائريين عن طريق جريدة «البصائر»، متتبع لحركتها، معجب بها وبأعمالها، قويُّ الشعور بقرب المسافة بين مبادئها ومبادئه.

وهو يحمل بين جنبيه قلباً عامراً بالاهتمام بأحوال المسلمين، والأسى لحاضرهم، والإعجاب بماضيهم، والتنويه بالنظام الحكومي في الإسلام، يراه أعدل نظام إنساني وأضبط نظام للنزوات البشرية، وأحفظ نظام للمصالح المتشابكة، ومن هنا نشأت فكرته في الحكومة الإسلامية، وقد سرَّ كثيراً بالمعاني التي تنطوي عليها رحلتي، لأن تقارب المسلمين بالتعارف يُفضي بهم إلى التعاون على إصلاح شؤونهم، وهو ينعي عليَّ شيئاً واحداً، وهو أنني لم أشتغل بتأليف كتب عن أحوال المسلمين على النمط الذي سمعه من كلامي، فأجبته بما لم يقتنع به، لأنه يعتقد أن هذه الأحاديث العادية التي سمعها مني كتب لا ينقصها إلا التدوين، ورأيه في التأليف أن تكون الكتب صغيرة الحجم حتى تسهل قراءتها وتصريفها، وهذا هو المسلك الذي سلكه في كتبه، فكلها كراريس مستقلة بموضوعات.

وقد التقى البشير الإبراهيمي بالمودودي عند زيارته في باكستان، وقال الإبراهيمي عن هذا اللقاء في مدينة لاهور في إحدى فنادقها:

فزارني وتعارفت الأجساد بعد تعارف الأرواح، فإذا هو رجل رَبعة مهيب الطلعة، ممتلأئ صحة وحيوية، يغلب السواد البياض على لحيته الكثة المهيبة، ثم استدعاني إلى داره، وهي مركز الجماعة، فاجتمعنا على الشاي في ثلة من أعضاء الجماعة، وطلبوا مني كلمة ونحن على موائد الشاي، فخطبت وأفضت في المواضيع الإسلامية الشاغلة للأفكار، وكان ـ خفَّف الله محنته ـ يستوقفني كلما علت لغتي وتخللتها الإشارات والكنايات، ليترجم له أحد تلامذته البارعين في العربية ما غمض عليه، تقصِّياً منه للمعاني وحرصاً على أن لا يفوته منها شيء.

أما ما بينه وبين حكومة باكستان، فأكبر أسبابه وأظهرها أن مبدأ الجماعة الإسلامية هو إقامة حكومة إسلامية في باكستان، بالمعنى الصحيح الكامل الذي لا هوادة فيه ولا تساهل، يتضمن دستورها الحكم بما أنزل الله في المعاملات والحدود والقصاص. وللأستاذ المودودي في ذلك اراء بعيدة المدى ومناهج وتخطيطات مدروسة لا تقبل الجدل، بل له دستور كامل مهيأ، وقد نقلت منه مجلة «المسلمون» الغرَّاء التي تصدر بمصر قطعاً دلَّت على ما ذكرناه، وعلى انفساح ذرع العلاَّمة المودودي في فهم النظام الإسلامي، وحجة الجماعة في ذلك، أن المسلمين ما رضوا بالانفصال عن الهند، وما هانت عليهم التضحيات الجسيمة التي لم تضحِّ بها أمة في الدماء والأموال ؛ إلا في سبيل إقامة دينهم على حقيقته، أما إبقاء ما كان على ما كان، فهو لا يساوي تلك التضحيات ولا جزءاً منها.

وحكومة باكستان ـ وإن كانت إسلامية المظهر ـ مدنية المخبر، لم تزل تسير على النظم التي وضعها الإنكليز في الهند، وهي تريد أن يكون دستورها إسلامياً، لأن الشعب يريد ذلك، أو لأن معظم الشعب يريد ذلك، ولكنها تريده تدريجياً، ومع التسامح والتسهُّل ومراعاة مقتضيات الأحوال، وهناك طائفة من المستغربين لا تريد الدستور الإسلامي، ولكنها تعمل في الخفاء غالباً لقلتها بالنسبة إلى الشعب، ويعتقد المتبصِّرون أن هذه

الطائفة تلقى تأييداً أجنبياً قوياً، ولا تتسع هذه الكلمة لترجيح إحدى الفكرتين، وإن كان لنا في ذلك رأي صارحنا به بعض المسؤولين في ذلك الحين.

لهذا الذي شرحناه ضاقت الحكومة ذرعاً بالمودودي وتشدُّده وصلابته، وصراحة ارائه وتسرُّعه «في نظرها»، فكانت تحبسه كلما ظهرت اراؤه المؤثرة، أو فتاواه في الحوادث الخاصة، وتنظر إليه بعين الحذر دائماً[1].

واستمر في حديثه عن المودودي ثم قال: فإننا نقول كلمة صريحة لوجه الحق، وهي أن المودودي وحده أقدر رجل على وضع الدستور الإسلامي المنشود لدولة باكستان، وأبرعُ عالم في انتزاع ذلك الدستور من القران والحديث ومن المقاصد العامَّة في التشريع الإسلامي والأصول المتَّفق عليها بين الأمة، وأنا مع هذا مؤمن بأن العقبة الكأداء في طريق المودودي ودستوره ليست هي الحكومة وحدها، بل العقبة التي تنبهر فيها الأنفاس هي جمود فقهاء المذاهب، وما أكثر المذاهب في باكستان[2].

استقر الإبراهيمي في المشرق محاضراً وكاتباً، وخطيباً يدافع عن قضية شعبه في دول المشرق وشعوبها حتى اندلعت الثورة الجزائرية، وسيأتي الحديث عنها مفصلاً بإذن الله تعالى.

* * *

تاسعاً: اهتمامه بليبيا وفلسطين

1 . ليبيا:

أ . ليبيا موقعها منا:

تحدث الإبراهيمي عن ليبيا في أماكن متعددة من تراثه، منها هذا المقال، الذي تكلم فيه عن موقعها من الجزائر وشعبها فقال:

---

(1) المصدر نفسه (189/4).

(2) المصدر نفسه (189/4).

ليبيا ـ بأجزائها الطبيعية ـ قطعة ثمينة من وطن العروبة الأكبر، ومعقل حصين من معاقل الإسلام الباذخة مكتنفة الشمال والجنوب بجمالين من مياه البحر الأبيض ورمال الصحراء المغبرة، مسورة الشرق والغرب بجمالين من عظمة مصر ومجد تونس فهي رقعة من صنع الله مطرزة الحواشي بما يسحر الألباب، ويفتن النفوس، ويستهوي الأفئدة، ويذكر بالعزة، ويفتق القرائح عن روائع الوصف وبدائع التمثيل، وهي ـ لذلك كله ـ نازلة من نفس كل عربي في مستقر الغيرة والحفاظ، ومن نفس كل مسلم في منزلة الحب والكرامة، وننفرد نحن سكان الشمال الأفريقي بمعنى من معاني التقدير لهذه القطعة العزيزة من وطن العروبة والإسلام، وهو أنها كانت مجرَّ عوالي الفاتحين من أسلافنا، ومجرى سوابقهم إلى هذا الشمال، يحملون إليه التوحيد والحكمة والسلام، فعلى ثراها مرَّ عقبة والمهاجر وحسان، ومن بعدهم موسى وطارق، وإدريس وعبد الرحمن، وفي جنباتها تصاهلت جياد الكماة الصيد من مضر ويمن، وأنها كانت كذلك مجازاً للأبطال من بني هلال الذين غرسوا العروبة بهذا الشمال، وأنها كانت أخت الجزيرة، تلك أنبطت، وهذه أحْرَتْ، وتلك أنبتت، وهذه أرْوَتْ، وتلك قدحت، وهذه أورت، وأنها صارت ـ بعد ذلك ـ بابنا إلى الشرق، يوم كان أبرَّ ببنيه وأحنى عليهم من البحر، لا نلج حظائره القدسية إلا منه، حجاجاً، وتجاراً، ومستبضعي علم[1].

ـ الرَّحالة وقوافل الحجيج:

إن كل قارأئ مطلع في هذا الوطن الجزائري ليعرف عن ليبيا وقراها وجبالها وأوديتها ودُروبها مثل أو أكثر مما يعرف عن وطنه، لكثرة ما يقرأ عنها في كتب الرحالين المغاربة من أمثال: الفهري، والعبدري، وابن بطوطة، والتيجاني، والعيَّاشي، والورتلاني، وإن كل عامي راوية للشعر الملحون ليحفظ أسماء قراها ووديانها وجبالها، أكثر مما يحفظ من أمثالها في بلاده، لكثرة ما يسمعها في قصائد شعراء الملحون الواصفين لركاب الحج، المعَدّدين لمنازله، احتذاء للبوصيري في «عدة منازل»، ومن أمثال: محمد الشلالي، وابن السنوسي، وابن خلوف، وابن يوسف وغيرهم من الشعراء الشعبيين في المائة الثانية عشرة إلى الان.

وهؤلاء هم الذين انتهت إلينا أخبارهم وأشعارهم عن طريق الحفظ والرواية، وقد كانوا يُرحِّلون ركب الحج من مراكش إلى مكة، ويصفون الجادَّة التي يسلكها وصفاً شعرياً مشوقاً، أحسن مما يصفه الجغرافي المتقصِّي، وأدخل في النفس منه، حتى يخيل إلى السامع أن هذه الموصوفات منه بمرأى العين. وأذكر أنني في سن الصبا كنت سمعت أسماء زوارة، وطرابلس، والجبل، ومصراته، والخمس، وزليطن، وبنغازي ودرسة وأجدابية متناثرة في هذا الشعر، موصوفة، محددة المسافات التي تفصل بينها، قبل أن أقرأها في كتب الرحلات والجغرافيا، وقبل أن أسمعها من أفواه السفار، أو من أفواه أهلها[2].

علاقة الأخوّة:

---

(1) المصدر نفسه (403/3).

(2) المصدر نفسه (403/3).

ولإخواننا الليبيين ـ أو الطرابلسيين، كما نسميهم ـ علينا حق الدين، وحق اللغة، وحق الجنس، وحق الجوار، وحق الاشتراك في الالام والمحن، وفي الامال المقترحة على الزمن، وهذه كلها أرحام، يجب أن تبلّ ببلالها، وحقوق في ذمة المروءة والوفاء يجب أن تؤدى، وإن من حسن القضاء عند الكرام الأوفياء أن يكون في وقت الحاجة إليه، وإن هؤلاء الإخوان اليوم في طور امتحان عسير معقد، تتخلله الأهواء والمطامع، ويحيط به الكيد والتعنيت من كل جانب، وإن نجاحهم فيه يتوقف على جمع الكلمة، وتسوية الصف، وتوحيد الرأي، ومتانة الإيمان بالحق، والحذر الشديد من الأشراك المنصوبة، والعُصب الدخيلة، والنظر البعيد في العواقب المخبوءة والمكايد الخفية، والاحتفاظ بكلمة الفصل يقولها الواحد فترددها الملايين، وإنهم في حالة انتقال من حال إلى حال، كانوا يواجهون فيه ثلاثة أعداء متشاكسي المصالح، متبايني المطامع، متظاهرين بالتقوى والعدل والنصيحة الرشيدة للمستضعفين، ولكنهم متفقون على الاستغلال لا على الاستقلال، ومن ورائهم ذلك الثعلب القديم ـ وقد قصمت الحرب ظهره ـ جائعاً يتضوَّر، وقابعاً يتحفز، وحانقاً يتلظى، وراجياً يتعلق، وطامعاً يتملق، ينتصر بالمتات، وينتظر الفتات[1].

ـ جهاد الليبيين:

قاوم هؤلاء الإخوان الكرام الاستعمار الإيطالي، ووقفوا في وجهه وقفة المستميت، لم يثنهم التقتيل والتشريد، حتى إذا استيأسوا، وظنوا أن هذا الجبار العنيد ختم عليهم بالعبودية المؤبَّدة، جاءت الحرب الأخيرة، وعاد الرجاء، ونبض عرق البطولة، وهبَّ المغاوير من سلائل العرب، يثأرون لعمر المختار والشهداء الأبرار، حتى اشتفوا، وأوبقت إيطاليا جرائرها، فأبادها الله، وما كان إخواننا يدرون أنهم يعينون استعماراً على استعمار، أو أنهم سينتقلون من شِدق الأفعى إلى ناب الأفعوان، ولكنهم لم يهنوا ولم يفشلوا في طلب استقلالهم، فصمَّت الاذان عن سماع صوتهم حيناً، ثم تصادمت المطامع، فكان لأصوات الدول الضعيفة في مجلس الأمم مجال في الاذان الصماء ومنفذ إلى القلوب الغلف، فقضى ذلك المجلس باستقلال ليبيا طائعاً كمكره، ولكنه أرجأ الإنجاز إلى أول سنة 1952م.

كنا نعرف أن الاستقلال جنة لا يعبر إليها إلا على جسر من الضحايا، وكنا نعدّ إخواننا الليبيين أو الداخلين إلى هذه الجنة بغير حساب، لأنهم قدَّموا من الضحايا ما لم تقدمه أمة شرقية، ولأنهم جمعوا أسباب الفلاح الأربعة: الصبر والمصابرة والمرابطة والجهاد، ولكن شيطان الاستعمار أبى عليهم ذلك، ووضع في طريقهم برزخاً زمنياً أو جسراً ثانياً غير الضحايا والقرابين والأعمال الصالحة، وهو هذا الأجل المحدد سنة 1952م.

ويقول الاستعمار: إنه وضعه للإعداد والتشويق، ونقول نحن: إنه وضعه للإبعاد والتعويق، ومرحباً بالسنتين إذا كنا نقضيهما في الاستعداد والتأهل وإصلاح الفاسد من أخلاقنا ورجالنا وأعمالنا.

واهاً لهذا الوطن المتردِّد في لهوات الزمان، الذي جنى عليه موقعه من البحر الأبيض ومن الصحراء، فثبتت عليه أعين الطامعين، وازدحمت عليه أقدام الأقوياء، وحامت عليه حوائم الدرهم والدينار، تغرّ وتُغري وإنَّ لها في

(1) المصدر نفسه (404/3).

نفوس ضعفاء الإيمان وفاقدي الضمائر لموقعاً، ومن وراء الدرهم والدينار سماسرة تتخطف، وصَواجة تتلقَّف، وأبالسة تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف، وتدفع الألقاب قيماً للمالك، ومن أبناء الوطن فريق من أعوان التفريق، وأعواد التحريق، وهذا أصل البلاء، وهنا منبت العلة وهنا ـ فقط فقط ـ جرثومة الطاعون، وهنا العدو الحقيقي فاحذروه.

وحناناً على إخواننا المجاهدين.. كتب عليهم أن يتجرَّعوا ثلاث مرارات في جيل واحد: مرارة الإهمال في العهد التركي، ومرارة الاستعباد في العهد الإيطالي، وهاهم أولاء يتجرَّعون مرارة التنكر من حلفاء دلوهم بغرور، وسجروا بهم التَّنُّور، ثم أخلفوا الوعد ونقضوا العهد.

من بعض حقكم علينا ـ أيها الإخوان ـ أن نسعدكم، ولو بقول معروف، من نصيحة خالصة، ودعاية نافعة، وتذكير منبه، وليسعد النطق إن لم يسعد الحال[1].

ب ـ ليبيا ماذا يراد بها؟

كتب الإمام الإبراهيمي مقالاً عن ليبيا في الخمسينيات سمَّاه «ليبيا ماذا يراد بها؟». أحاول أن أعرضه في فقرات مهمة، منها:

ـ العمل للاستقلال:

شاعت بيننا ـ معشر المستضعفين ـ كلمة خاطئة ألجأنا إليها الضعف، وأملاها علينا العجز، فألفناها حتى غطَّى الإلف خطأها وسخافتها، ويسَّرها التعوّد على الألسنة والأقلام، كما يسّر كلمة الكفر على لسان قائلها، وكأننا ورثناها عن الساسانيين أصحاب الكُدية لا أصحاب الملك والدولة، كانت لغة الساسانيين مبعثها الجبلة، والجبلة شعبة من القوَّة، فكلمتنا هذه مبعثها الاستخذاء، والاستخذاءُ وليد الضعف.

هذه الكلمة الخاطئة هي «طلب الاستقلال»، ومعناها في الواقع طلب الحق من غاصبه، أو طلب الملك من سالبه، ولو كان من طبيعة الغاصب السالب أن يرد المغصوب فيئة إلى الرشد وإنابة إلى الله ؛ لردَّه من غير طلب، ولا رفع دعوى، ولا إقامة دليل، أما الكلمة المصيبة لهدف الحق فهي «العمل للاستقلال»، إن العامل للشيء سائر إليه بذرائعه الطبيعية، خطوة خطوة، فهو واصل إليه لا محالة، وهو اخذ له حين يأخذه بالاستحقاق الطبيعي، أما طالب الشيء في مفهومه العرفي فهو كطالب الصدقة، إما أن يعطى وإما أن يُحرم، فإن أعطِيَ فبفضل، وإن حُرم فبعدل، وعجيب أن نعيش هذه الكلمة الجوفاء بيننا مع كلمة عبقرية تضارها وتناقصها وهي أن «الاستقلال يؤخذ ولا يعطى».

شروط الاستقلال الحقيقية هي: الإيمان به مع التصميم، ثم العمل له مع الإصرار، ثم المحافظة عليه بعد تحصيله. وليس منها ـ عندنا ـ إلا طلبه. وإخواننا الليبيون عملوا للاستقلال على قرب عهدهم بانتزاعه منهم، وبذلوا في استرجاعه فوق ما يبذله من في منزلتهم من الضعف والقلة، وإن حبله لم ينقطع من أيديهم وإن روائحه العطرة لتُفعم أنوفهم، وإن أخيلته الجميلة لتتراقص في أذهانهم، وإن ذكرياته لماثلة في نفوسهم مثول ذكريات الشباب

(1) المصدر نفسه (404/3).

في نفوس الشيوخ، وليس بين إشراق الشباب وأفوله إلا فسحة في العمر، وإن كثيراً من الأحياء في ليبيا أدركوا زمن انتزاعه، وسيدركون زمنارتجاعه[1].

. مجلس الأمم المتحدة:

هذا الشيء الذي يسمونه «مجلس الأمم المتحدة» لم يبلغ من العدل والرحمة أن يقسم الحقوق بالسوية، وأن يقتص للجمَّاء من القرناء، بل دينه وديدنه أن يركّب للقرناء قروناً أخرى تنطح بها المستضعفين وتذودهم بها عن مراتع الحياة ومواردها، وقد قرر ذلك المجلس استقلال القطر الليبي العزيز، استقلالاً شابه الدخن وشانه بالتأجيل. ومع ذلك فقد تهللت أسرَّة وخفقت قلوب وحييت امال كانت كامنة في النفوس، وتشوَّف المدلجون . بعد هذه التباشير . إلى الفجر الصادق، بتبلُّج عموده على هذه التباشير . إلى الفجر الصادق، بتبلُّج عموده على هذه الرقعة، املين أن يعمَّ بقية الرقاع، لكن المتعمقين كانوا يرون أن هذا القرار ليس من طبيعة الروح الشريرة التي تصرف ذلك المجلس وتسيره، وإنما هو ثمرة من ثمرات الجهاد المتواصل، من ذلك الشعب الذي نقص الاستعمار عدده وأمواله، ولم ينقص اعتداده بنفسه وإيمانه بحقه، وإنه أثر من اثار أصوات الدول الصغيرة التي أكسبها الاتحاد قوة في ذلك المجلس، فاتجه سعيها إلى نصرة الضعفاء، وكل ضعيف للضعيف نسيب.

. التشاكس بين مطامع الأقوياء:

«وعن استقلال ليبيا» يرى الإبراهيمي: وأنه نتيجة من نتائج التشاكس بين مطامع الأقوياء ومخاوف بعضهم من بعض، فلولا التنين الذي ابتلع الصين، ولم تزل كبده حرّى إلى نُغبة من ماء البحر الأبيض، لما وافقت أمريكا وإنكلترا على قرار الاستقلال، ولولا العملاق الذي يضع رجله على طهران، ويده على الظهران، وعينه على وهران، لما صادقت روسيا على ذلك القرار، فهو بما حقّه من هذه الأسباب، استقلال كِياد من الدول الغربية لروسيا، يردن منه إقصاءها عن البحر المتوسط، ليأمنَّ شرها وشركها، ثم يقسمن الفريسة أجزاء، كما شاء لهن الهوى بأسماء خلابة من ورائها قوى غلابة، وما كان ذلك التأجيل إلا لهذا، وقد ظهرت الحقائق جلية بما بدر منهنّ، الواحدة بعد الأخرى، قبل أن يجفّ مدادُ قرار الاستقلال، هذه في فزان، وتلك في برقة، وثالثة تنتظر طرابلس، وإنهن لبالغات إلى أهدافهن وواجدات فينا من يأخذ بأيديهن إليها، ومن يمدون لها في أسباب المطامع فيقطع لأجلها صلته بالله، وعلاقته بالوطن، إلا إذا بدأنا بالأشراك المنصوبة بيده فأزلناها، وبادرنا إلى الأوثان المرفوعة باسمه فكسرناها، وعمدنا إلى النقائص المتأصلة في نفوسنا فاستأصلناها، وصمدنا إلى الجموع المتفرقة فجمعناها، وإلى الألسنة الجامحة فقمعناها، وإلى الألقاب المهينة فمحوناها، وإلى العزائم المرتخية فقوَّيناها بالحق وشددناها، وإلى جميع الثغر التي يأتينا منها العدو، فأغلقناها في وجهه وسددناها، ثم لقيناه بعد ذلك بصف واحد وإرادة واحدة، ولسان واحد، ورأي جميع، وعزيمة ترتد عنها المحاولات حسرى، وكلمة واحدة لا يقبل معناها التأويل وهي: «أن هذا الوطن الواحد لا يقبل التقسيم، وأن أبناءه وحدة لا تقبل التجزئة، وأنهم

---

(1) المصدر نفسه (406/3).

يريدون حياة حرة كريمة»، ولو فعلنا ذلك لجاء الاستقلال، عفواً بلا طلب، صفواً بلا كدر، بمعناه في لغتنا لا في لغة قياصرة مجلس الأمم.

إن هؤلاء الأقوياء قد راضونا على الشهوات الخسيسة، حتى عرفوا مواقعها ومداخلها إلى نفوسنا، فأصبحوا يقودوننا بزمامها ويبتزُّون ضمائرنا بالشهوات النفسية كالرتب والألقاب، وأموالنا بالشهوات الحسية، كفضول اللباس والطعام والشراب، وإن أوقى الجُنن منها الزهد فيها والتعفف عنها، ولو أن أهل فزان ـ مثلاً ـ استنارت بصائرهم، ونالت منهم الموعظة بغيرهم، فرفضوا لقب «الباي» وهجروا شرب «التاي» ؛ لسعت إليهم الحرية حبواً[1].

ـ داء الليبيين:

من كتم داءه قتله، وقد ان أن نعلن داءنا، ونعترف بنقائصنا، وإن لم يكن لنا فضل المعترف، فقد فضحنا الزمان قبل أن نفيء إلى أنفسنا، ونتدارك الوهي بالترقيع، فصيَّرنا بذلك مثلة في الإنسانية. وداء إخواننا الليبيين هو داؤنا جميعاً، ليس لأحدنا فيه فضل إذ لا فضل في النقص، ولا بيننا فيه تفاضل لأن علة العلل واحدة، هو الداء الذي ترك جزيرة العرب تضم ملاءتها على بضع دول وإمارات وعلى عدة ملوك وأمراء، ولولا ذلك الداء لكان للعرب دولة واحدة لأنهم أمة واحدة في رقعة واحدة، ولكن ذلك أرهب لعدوِّهم وأحفظ لحقيقتهم، ولولا ذلك الداء لما ضاعت فلسطين، ولما بؤنا بسبّة الدهر وعار الأبد.

أصل دائنا التفرق والخلاف، بدأ صغيراً في الدين، ثم بدأ كبيراً في الدنيا، ومن الخلاف تشعب شعب تلتقي معه في الأثر والنتيجة، والشر والضر، والطعم المر، كما يحمل الفرع خصائص أصله، فاذكر الخلاف تذكر التخاذل والأنانية ووهن العزائم، واذكر الخلاف تذكر عدم الاعتداد بالنفس، وعدم الثقة بين الإخوان، واذكر الخلاف تذكر تعدد الزعماء والأحزاب في الوطن الواحد، واذكر الخلاف تذكر ضعف العقيدة وخطل الرأي، واذكر الخلاف تذكر بيع الذمم والضمائر والتفريط في المصالح الوطنية، واذكره تذكر كل مرض عقلي نعانيه وكل حقيقة في الحياة نغلط فيها، فالرجولة مائعة والتفكير سطحي، والتضحية أقوال، والأهواء متبعة، والزعامة زعم، والنصر تصفيق، والقضايا الخطيرة نلقاها بالعقول الصغيرة، والألسن القصيرة، وهذه الأمراض هي التي أدركها المستعمرون فينا فاحتقرونا، ولو لم يعتبرونا أطفالاً لما وضعوا في أيدينا هذه اللعب يلهوننا بها عن أعمال الرجال.

أيها الإخوة الليبيون: إن لكم إخواناً يصل بينكم وبينهم الماء والصحراء، ويشرفون عليكم من محارم هذه السلاسل الشامخة في الأطلس الكبير، وإنهم يشاركونكم في الشدائد والمحن، كما شاركوكم في الألسنة والسحن، وإنهم يقاسمونكم مرارة الامتحان الذي أنتم فيه، فانظروا في أيّ موضع وضعتكم الأقدار؟ إنكم في موضع قدوة لشعوب ترجو ما ترجون، وتعمل لما تعملون، فاحذروا أن تكونوا قدوة في الهزيمة ومثالاً لخيبة الأمل، واقتلوا

(1) المصدر نفسه (407/3).

الألقاب تحيوا الحقائق، إننا نعيذكم بشرف الرجولة أن تكون فيكم سيوف اليمن وجنرالات تونس[1]، فتلك لا تصلح للضرب، وهذه لا تغني في الحرب[2].

ج . التهنئة باستقلال ليبيا:

. نصّ البرقية التي أرسلها رئيس جمعية العلماء إلى الملك إدريس السنوسي.

الجزائر في 24 ديسمبر 1951م.

جلالة الملك إدريس السنوسي ملك ليبيا . بنغازي.

جمعية العلماء المسلمين المترجمة عن إحساسات الأمة الجزائرية تُعلن مشاركتها للشعب الليبي في ابتهاجه بتحقيق استقلاله، وترفع إلى جلالتكم تهانيها الأخوية، راجية تتويج هذا الاستقلال بالوحدة الشاملة، والتقدُّم المطَّرد، تحت رعايتكم الحكيمة.

الرئيس: محمد البشير الإبراهيمي

. نصَّ البرقية التي بعث بها رئيس جمعية العلماء إلى سعادة بشير بك سعداوي، رئيس المؤتمر الوطني بطرابلس.

الجزائر في 24 ديسمبر 1951.

جمعية العلماء المسلمين المعبِّرة عن عواطف الشعب الجزائري تشارككم في الفرح بإعلان الاستقلال وتتقدم إلى شعب ليبيا بالتهنئة الأخوية، وتتمنَّى أن تتضافر الجهود لتحقيق وحدة ليبيا.

الرئيس: محمد البشير الإبراهيمي[3]

د . كلمة إلى الشعب الليبي:

هذه الكلمة أُلقيت في إذاعة «صوت العرب» بالقاهرة سنة 1953م، وكان الإبراهيمي معترضاً على المعاهدة التي تريد إبرامها المملكة الليبية مع الإنكليز، وطالب الليبيين بالوقوف صفاً واحداً في طريق هذه المعاهدة.

فوجَّه خطابه إلى الليبيين فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوان الليبيون الكرام:

حيَّاكم الله وبصَّركم بالعواقب، وجعل لكم في الماضي عبرة للحاضر وعظة للمستقبل، ونصركم في معارك الرأي كما نصركم في معارك الحرب، وأراكم الخير خيراً لتتبعوه، والشر شراً لتتقوه وتجانبوه، ووقاكم شر تحكُّم الأفراد وزلل الساسة، وأخرجكم من ظلمات الاستبداد إلى نور الشورى، ووفَّق قادتكم إلى التي هي أحسن عاقبة، وجعل لكم في كل مسلك ضيِّق فرجاً عاجلاً ومخرجاً حسناً.

---

(1) من الألقاب العسكرية الموروثة في تونس في العهد التركي، ولما احتلت فرنسا تونس بقيت الألقاب مجردة من معانيها.

(2) المصدر نفسه.

(3) البصائر العدد 178 . 179 السنة الرابعة 7 جانفي 1952م.

وسلام عليكم بما جاهدتم في سبيله، وناضلتم عن دينه، وبما حافظتم على هذه القطعة الثمينة من الوطن العربي العزيز التي هي ميراث مشترك بينكم وبين إخوانكم العرب بالفرض وإخوانكم المسلمين بالتعصيب.

ـ أثمان غالية في سبيل الحرية:

أيها الإخوان:

لم يعرف العصر الحديث شعباً غيركم دافع عن حريته كما دافعتم، ولا شعباً دفع من أثمان الحرية مثلما دفعتم، فقد قدمتم من دمائكم وأموالكم ما لم يقدِّمه غيركم من الأمم التي ابتليت بتسلط الأقوياء عليها.. قدمت الأمم شبَّانها فداء لأوطانها، أما أنتم فقدمتم الشبَّان والكهول والشيوخ، وناهيكم بشيخ المجاهدين وإمام الشهداء عمر المختار، فضربتم الأمثال وملأتم التاريخ بالأعمال، وصبرتم في سبيل وطنكم على الجوع والعطش والعري والتشريد، ولم تهن لكم عزيمة ولا ضعف إيمان ولا تزعزعت عقيدة، ولم تخطئوا كما أخطأ غيركم في فهم الحقيقة الكاملة للحياة، وهي أن يحيا الإنسان كريماً أو يموت كريماً، وإن الحياة بلا حرية موت أفظع من الموت، كذلك لم يبتلِ الله فيمن ابتلى من خلقه بمثل ما ابتلاكم به من استعمار حيواني شره أذاقكم لباس الجوع، ولم يستطع أن يذيقكم عذاب الخوف، ولكنكم أذقتموه الهزائم التي سجَّلها التاريخ، وقاوم ضعفُكم الذي يمدّه الإيمان قوَّته التي يمدُّها الطغيان، وصدقتم ما عاهدتم الله عليه، فمنكم من قضى نحبه ومنكم من ينتظر، وما بدَّلتم تبديلاً[(1)].

ـ استقبال الناس لاستقلالكم:

أيها الإخوان:

لم تتفق جمعية الأمم على قضية مثلما اتفقت على استقلالكم ؛ على ما شاب ذلك الاستقلال من شوائب، وعلى ما حفَّه من مصائب، وعلى ما سبقه وتبعه من مناورات وألاعيب فكل ذلك يشفع له أنه مولود، والمولود يولد ضعيفاً ثم تقويه العناية والرعاية والحياطة والمحافظة، وكذلك قال الناس عنكم وبذلك استقبلوا استقلالكم مع الرحمة بكم والإشفاق عليكم.

أيها الإخوان:

فرح إخوانكم العرب والمسلمون باستقلالكم، لأنهم يعدُّونه جزءاً من استقلالهم أو تثبيتاً له أو وسيلة لاستقلال غير المستقل منهم، بل لأنهم يرون فيه تحقيقاً لأكبر حاجة في نفوسهم وهي الاتصال بين شرقهم وغربهم، فقد كانت ليبيا ـ وما زالت ـ كما وضعها الله جسراً بين الشرق والغرب، مرَّ عليه الفاتحون من أسلافنا يحملون إلينا الهدى ودين الحق، ومرَّت عليه مواكب العروبة ممثلة في بني هلال بن عامر بن صعصعة، يحملون إلينا الخصائص الجنسية والبيان، ومرَّ عليه الدعاة إلى الحق من أئمة الدين، والحاملون للعدل والإحسان من الغزاة المجاهدين،

(1) المصدر نفسه (239/4).

فعلى سهول أرضكم مرَّ عقبة فاتحاً، وأبو المهاجر منبتاً، وحسَّان معمراً ومطهراً للبقعة، وطارق موسعاً للرقعة، وعليها مرَّ إدريس ليغرس في المغرب شجرة النبوَّة، وعبد الرحمن ليقيم فيه الخلافة المروانية[1].

. واجبات الملك والحكومة:

فكان أول الواجبات على مليككم وحكومتكم أن يحافظوا على هذا الاستقلال، وأن يقدِّروا الأثمان التي اشتُري بها، وأن يسوسوه بالحكمة والحذر، وأن يحفظوا ذمة الشهداء الأبرار من بنيه، وأن يرعوا حرمة ما أريق على جوانبه من دموع ودماء، وأن يديجوه على الذلل السماح من الطرائف، وأن يجنِّبوه وهو في خطواته الأولى مزالق المعاهدات مع من لا عهد له ولا ميثاق، وأن يربطوا مستقبله بالشرق لا بالغرب وبالقريب لا بالغريب.

ولكنهم ـ مع الأسف ـ جاؤوه بالكفن وهو في ثياب العرس، وعرضوا النوائح في مواكب الفرح، وأرادوا أن يعالجوه من الفقر فعالجوه بالفقر ومعه الذل، وأن يداووه فداووه من الحمَّى بالطاعون، وقيَّدوه بقيد من حديد مع مستعمر عتيد وجبَّار عنيد وعدوّ لدود عرف بنقض العهود وتجاوز الحدود، ومع مفترس ما زالت أظافره حمراء من دماء المسلمين والعرب، وما زال واضعاً قدميه النجستين على البقاع الطاهرة من أرضنا في «القناة» من مصر وفي «الحبانية» من العراق وفي «المفرق» من الأردن، وما زال ممتداً كالسرطان على الشواطئ الشرقية لجزيرة العرب، وما زال في السودان يماطل بالوعد الباطل.

كل هذه الأوصاف تعبير لجنس اسمه الإنكليز، وكل تلك البلايا وأمثالها معها شرح للمعاهدة التي تريد حكومة ليبيا أن تعقدها مع الإنكليز.

أيها الإخوان الليبيون:

إنها ليست معاهدة.. إنها استعمار أشنع من الاستعمار الإيطالي، بلوتم مُرَّه، وعانيتم شرَّه، إنها في مالها تضييع للوطن واستعباد لبنيه.. إنها تمكين اختياري للعدو في رقابكم، إنكم ستصبحون بسببها غرباء في أوطانكم مستعبدين لأعدائكم.. إنها مكيدة خفيت حتى اتضحت، واستترت حتى افتضحت، ودُبِّرت بليل لتغطية ما فيها من الويل.

أيها الإخوان:

سلوا إخوانكم وجيرانكم في مصر: ماذا لقوا من العدو الغادر في مدة سبعين سنة؟ سلوهم هل صدق له معهم عهد أو برَّ له يمين؟ سلوهم هل جلا عن أرضهم في المواعيد الكثيرة التي قطعها على نفسه بالجلاء؟ وهل وقف عند نصوص المعاهدات التي أبرمها ووقع عليها؟

العاقل من اتَّعظ بغيره، فاتَّعظوا ولا تقدموا على أمر فيه هلاككم وهلاك إخوانكم، فإن معاهدته معكم معناها الكيد لمصر وتطويقها، فبينما تجاهد لإخراجه من القناة الضيِّقة، إذا به يحادها بكم وبوطنكم الواسع الغني.

أيها الإخوان:

---

(1) المصدر نفسه (239/4).

إذا نفذت هذه المعاهدة فسترون بأعينكم بعد سنوات قليلة سماءكم وقد ملئت بطياراته، وأرضكم وقد غصَّت بجنوده ومطاراته، خيرات أرضكم مما على ظهرها وبطنها وهي في قبضته يصرفها بمشيئته وفي قبضته، والاتصالات بينكم وبين إخوانكم في الشرق وفي الغرب وقد أصبحت مقطوعة ممنوعة.

أيها الإخوان:

إننا نخاطب الليبيين، وإن حكَّامكم منكم فهم داخلون في الخطاب، فليراجعوا بصائرهم، وليرجعوا إلى أمتهم يستهدونها ويسترشدون بها، وإلى إخوانهم العرب يستعينونهم ويستنجدون بهم، وليخافوا عذاب الله وحساب التاريخ.

أيها الإخوان:

إن الضرورة الدافعة إلى هذه الصفقة الخاسرة مليون جنيه، ولكنكم ستبيعون فيها الوطن كله وشرف الوطن كله وحرية الوطن كله، وإن هذا الثمن البخس الذي تبيعون به وطناً كاملاً وشعباً كاملاً تستطيع كل حكومة عربية أن تسدَّه عنكم في كل سنة، ومن حدَّثكم بغير هذا فهو مخدوع أو خادع.

أيها الإخوان:

قفوا كلكم صفاً واحداً في طريق هذه المعاهدة المخسرة حتى تمزِّقوها قبل أن تمزقكم[1].

2 . فلسطين:

كانت اهتماماته بكل قضايا الأمة وعلى رأسها قضيتها المحورية قضية أرض الإسراء والمعراج والأقصى: فلسطين.

فلسطين، التي خصَّها بالمزيد من الاهتمام، فهو يعيش فيها وتعيش فيه، يذكّر بمحنتها، ويحامي عن حقَّها، ويحرِّض العرب والمسلمين على الذود عن حياضها، ويدعو الجزائريين خاصة أن ينهضوا بواجبهم نحوها، ولا يتخاذلون عن نصرتها بكل ما يستطيعون، كان هذا موقفه قبل أن تقوم دولة الكيان الصهيوني وبعد أن قامت.

استمع معي إلى ما كتبه في البصائر في العدد «5» سنة 1947م:

يا فلسطين، إن في قلب كل مسلم من قضيتك جروحاً دامية، وفي جفن كل مسلم جزائري من محنتك عبرات هامية، وعلى لسان كل مسلم جزائري في حقِّك كلمة مترددة هي: فلسطين قطعة من وطني الإسلامي الكبير قبل أن تكون قطعة من وطني العربي الصغير، وفي عنق كل مسلم جزائري لك يا فلسطين حقٌّ واجب الأداء وذمام متأكِّد الرعاية، فإن فرَّط في جنبك، أو أضاع بعض حقِّك، فما الذنب ذنبه، وإنما هو ذنب الاستعمار الذي يحول بين المرء وأخيه، والمرء وداره، والمسلم وقبيلته.

يا فلسطين، إذا كان حب الأوطان من أثر الهواء والتراب، والمارب التي يقضيها الشباب، فإن هوى المسلم لك أن فيك أولى القبلتين، وأن فيك المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وأنك كنت نهاية الرحلة الأرضية

(1) المصدر نفسه (241/4).

وبداية الرحلة السماوية، ومن تلك الرحلة الواصلة بين السماء والأرض صعوداً بعد رحلة ادم الواصلة بينهما هبوطاً، وإليك إليك ترامت همم الفاتحين وترامت الأيْنُق الذلل بالفاتحين، تحمل الهدى والسلام وشرائع الإسلام، وتنقل النُّبوة العامة إلى أرض النبوات الخاصة، وثمار الوحي الجديد، إلى منابت الوحي القديم، وتكشف عن الحقيقة التي كانت وقفت عند تبوك بقيادة محمد بن عبد الله، ثم وقفت عند مؤتة بقيادة زيد حارثة، فكانت الغزوات تحويماً من الإسلام عليك، وكانت الثالثة ورداً، وكانت النتيجة أنَّ الإسلام طهَّرك من رجس الرومان، كما طهَّر أطراف الجزيرة قبلك من رجس الأوثان[1].

وفي هذه المقالة يقول: أيظن الظانون أن الجزائر بعراقتها في الإسلام والعروبة تنسى فلسطين؟ وتضعها في غير منزلتها التي وضعها الإسلام من نفسها؟ لا والله: يأبى لها ذلك شرف الإسلام، ومجد العروبة، ووشائج القربى. ولكنَّ الاستعمار الذي عقد العقدة لمصلحته، وأبى أن يحلَّها لمصلحته، وقايض بفلسطين لمصلحته، هو الذي يباعد بين أجزاء الإسلام لئلا تلتئم، ويقطع أوصال العروبة كيلا تلتحم، وهيهات.

ويستمر الشيخ علىهذا النهج في التركيز على فلسطين، والتعريف بعدالة قضيتها، وجمع الأمة كلها حولها، في سبع مقالات مطوَّلة، بأسلوب الشيخ الذي يُحرِّك السواكن، ويثير الكوامن، ويفجِّر المكنون من الطاقات.

انظر ما كتبه عن «عيد الأضحى وفلسطين»:

«النفوس حزينة واليوم يوم الزينة، فماذا نصنع؟».

إخواننا مشرَّدون، فهل نحن من الرحمة والعطف مجرَّدون؟

تتقاضانا العادة أن نفرح في العيد ونبتهج، وأن نتبادل التهاني، وأن نطرح الهموم، وأن نتهادى البشائر، وتتقاضانا فلسطين أن نحزن لمحنتها ونغتمّ ونُعنَى بقضيتها ونهتمّ.

ويتقاضانا إخواننا المشرَّدون في الفيافي، أبدانهم للسوافي، وأشلاؤهم للعوافي ؛ أن لا ننعم حتى ينعموا، وأن لا نطعم حتى يطعموا.

ليت شعري... هل أتى عبَّادَ الفلس والطين، ما حلَّ ببني أبيهم في فلسطين؟

أيها العرب، لا عيد حتى تنفذوا في صهيون الوعيد، وتنجزوا لفلسطين المواعيد، ولا نحر حتى تقذفوا بصهيون في البحر، ولا أضحى حتى يظمأ صهيون في أرض فلسطين ويضحى.

أيها العرب: حرام أن تنعموا وإخوانكم بؤساء، وحرام أن تطعموا وإخوانكم جياع، وحرام أن تطمئن بكم المضاجع وإخوانكم يفترشون الغبراء.

أيها المسلمون: افهموا ما في هذا العيد من رموز الفداء والتضحية والمعاناة، لا ما فيه من معاني الزينة والدعة والمطاعم، ذلك حقُّ الله على الروح، وهذا حقُّ الجسد عليكم.

إنَّ بين جنبيَّ ألماً يتنزَّى، وإن في جوانحي ناراً تتلظى، وإن بين أناملي قلماً سُمته أن يجري فجمح، وأن يسمح فيما سمح،، وإن في ذهني معاني أنحى عليها الهم فتهافتت، وإن على لساني كلمات حبسها الغم فتخافتت.

---

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 97.

ولـو أن قـومـي أنـطـقـتـني رمـاحـهـم نـطـقـت ولـكـن الـرمـاح أجَـرَّت[1]

وكتب مرة أخرى بمرارة مقالاً يقول فيه: هل لمن أضاع فلسطين عيد؟

ولنقرأ هذه الكلمات البليغة المعبِّرة التي ارتجلها الإبراهيمي في حفل أقامته جمعية الأخوة الإسلامية في العراق، ونشرتها مجلتها قال:

إن معرفة كارثة فلسطين لا تعدو أن تكون أسئلة وأجوبة، فإن استطعنا أن نعرف الأجوبة استطعنا أن نعرف الداء، ثم نعالجه.

أما **السؤال الأوَّل**، فهو:

هل أضعنا فلسطين؟

الجواب: نعم.

السؤال الثاني:

هل أعطيناها أم أخذوها منا؟

الجواب: أعطيناها نحن.

السؤال الثالث:

هل يمكن استرجاعها؟

الجواب: يمكن استرجاعها.

ثم قال: بماذا أضعنا فلسطين؟

الجواب: أضعناها بالكلام.

فقد كان الشعراء ينظمون القصائد الطويلة العريضة في مديح العرب وتسفيل اليهود، والكُتَّاب يكتبون، والسَّاسة يصرِّحون، فبين النظم والتصريح والكتابة والخطابة ضاعت فلسطين.

ثم قال:

الرجل البطل يعمل كثيراً ولا يقول شيئاً[2].

وفي مقال اخر ختم مقالته بهذه الكلمات المضيئة التي يكاد يحفظها الجزائريون كافة:

أيها العرب، أيها المسلمون:

إن فلسطين وديعة محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمَّتنا، وعهد الإسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود ونحن عصبة إنَّا إذن لخاسرون[3].

---

(1) نشرت في العدد (53) من جريدة البصائر 1948م.

(2) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 99.

(3) الملتقى الدولي ص 99.

3 . تونس:

كتب تحت عنوان «كوارث الاستعمار» مواسياً لتونس يقول:

فات «البصائر» . بسبب عطلة المطبعة أسبوعين في اخر رمضان . أن تشارك الأمة التونسية العزيزة في إعلان الحزن، على ما أصابها في العهد الأخير من كوارث الاستعمار، التي تجلّت في الحادثتين الداميتين، حادثة (جبل الجلود) و(حادثة صفاقس).

أمّا التألم والامتعاض من قتل الأبرياء المسالمين، وأمّا الحزن والأسى لإخواننا الذين ماتوا مظلومين، ولأطفالهم وزوجاتهم الذين بقوا بلا مال ولا عائل، فإنَّ حظّنا منها لا يقلّ عن حظ إخواننا التونسيين، ومحال أن يتألم عضو من جسد، ولا يتألم له سائر الأعضاء، وقد ألّفت هذه المصائب المتوالية، وهذه المصائب المتَّحدة المصدر بين قلوبنا تأليفاً جديداً محكم النسج، وأرهفت إحساسنا وصيَّرتنا كتلة من لحم مرضوض، في لجة من الدموع المرفضة، فلا يمتاز في مصائبنا معزٍّ من معزّى.

عذرنا إلى إخواننا أنَّنا لم نخسر في باب التعزية إلا سطوراً سوداً في أوراق بيضاء تقرأ وتهجر، وعوضنا الغالي عنها إحساسات مضطربة في نفوس متألمة[1].

ويكتب المقالات في الصفحات المتعددة عن «المغرب»، وقد كان يسمّى في ذلك الوقت «مراكش» أو المغرب الأقصى، ويتحدَّث عن الملك محمد الخامس الذي وقف ضدَّ فرنسا، وقامت بنفيه خارج البلاد، وأثنى عليه جميلاً على قلة ثنائه على الملوك والأمراء، بل كثيراً ما يصليهم ناراً من كلمه، الذي نراه أحياناً أحدَّ من السيف[2].

4 . لمصر مكانة خاصة:

وهذه مصر كنانة السهام، أرض العبقرية وسماء الإلهام، وقبلة العرب ومحراب الإسلام، تدفع بقوة إيمانها ألوهية فرعون جديد، وتدفع بيقظتها كيد شيطان مريد، بعد أن أنقذها الإسلام من تعبد الفراعنة الأوَّلين، وإن فرعون الجديد لعال في الأرض . كأخيه . وإنه لمن المفسدين[3].

ويتحدَّث في مقال خاص رائع يخاطب فيه مصر «يا مصر» فيقول وما أبدع ما يقول:

انثري كنانتك . يا كنانة الله . فإن لم تجدي فيها سلاح الحديد والنار فلا تراعي، واحرصي على أن تجدي فيها السلاح الذي يفلّ الحديد، وهو العزائم. والمادة التي تطفأئ النار، وهي اتحاد الصفوف، والمِسنّ الذي يشحذ هذين، وهو العفة والصبر.

فلعمرك . يا مصر . إنهم لم يقاتلوك بالحديد والنار، إلا ساعة من نهار، ولكنَّهم قاتلوك في الزمن كلِّه بالأستاذ الذي يفسد الفكر، وبالكتاب الذي يزرع الشك، وبالعلم الذي يمرض اليقين، وبالصحيفة التي تنشر الرذيلة،

---

(1) الملتقى العدد «5» . السنة الأولى من السلسلة الثانية 1947م.

(2) الملتقى الدولي ص 100.

(3) المصدر نفسه ص 102.

وبالفيلم الذي يزيِّن الفاحشة، وبالبغيّ التي تخرب البيت، وبالحشيش الذي يهدم الصحة، وبالممثلة التي تمثِّل الفجور، وبالراقصة التي تغري بالتخنث، وبالمهازل التي تقتل الجدَّ والشهامة، وبالخمرة التي تذهب بالدين والبدن والعقل والمال، وبالشهوات التي تفسد الرجولة، وبالكماليات التي تثقل الحياة، وبالعادات التي تناقض فطرة الله، وبالمعاني الكافرة التي تطرد المعاني المؤمنة من القلوب.

فإن شئت أن تذيبي هذه الأسلحة كلها في أيدي أصحابها ؛ فما أمرك إلا واحدة، وهي أن تقولي: إني مسلمة. ثم تصومي عن هذه المطاعم كلها.. إن القوم تجَّار سوء فَقَاطِعِيهم تنتصري عليهم، وقابلي أسلحتهم كلها بسلاح واحد وهو التعفُّف عن هذه الأسلحة كلها.. فإذا أيقنوا أنك لا حاجة لك بهم، أيقنوا أنهم لا حاجة لهم فيك وانصرفوا.. وماذا يصنع «المرابي» في بلدة لا يجد فيها من يتعامل معه بالربا[1]؟

5 . حركة الإسلام في أوربا:

ولا يكتفي الشيخ بحمل هموم الإسلام وأمَّته في العالم الإسلامي فقط، بل تمتد همه إلى الأقلِّيات الإسلامية التي تعيش في الغرب، وفي غيره، فتراه يكتب عن حركة الإسلام في أوربا قائلاً:

الإسلام روح تجري، ونفحة تسري، وحقيقة ليس بين العقول وبين قبولها إلا مواجهتها لها، وليس بين النفوس وبين الإذعان لها إلا إشراقها عليها من مجاليها الأولى.

لذلك نراه في جميع مراحل التاريخ يقطع الفيافي بلا دليل، ويقطع البحار بلا هاد، ويغزو مجاهيل أفريقيا في الوسط والجنوب، ومنتبذات اسيا في الوسط والشرق، ثمَّ يدخل شرق أوربا مع الفتوحات العثمانية، كما دخل غربها في الجنوب مع الفتوحات الأموية، وكما دخل جنوبها مع الفتوحات القيروانية، وهو في كل ذلك يقتحم الأذهان بغير استئذان.

وليست تلك الفتوحات الحربية هي التي غرسته، أو مكنت له الان. الفتح في الإسلام لم يكن في يوم ما إكراهاً على الدين، وإنَّما مكنت للإسلام طبيعته ويسره، ولطف مدخله على النفوس، وملاءمته للفطر والأذواق والعقول. ولو بقي الإسلام على روحانيته القوية، ونورانيته المشرقة، ولو لم يفسده أهله بما أدخلوه عليه من بدع، وشانوه من ضلال ؛ لطبّق الخافقين، ولجمع أبناءه على القوَّة والعزَّة والسيادة، حتى يملكوا به الكون كلَّه، ولكنهم أفسدوه واختلفوا فيه وفرَّقوه شيعاً ومذاهب، فضعف تأثرهم به، فضعف تأثيره فيهم، فصاروا إلى ما نرى ونسمع.

لا يعود المسلم إلى العزّةِ والسيادة حتى يغيِّر ما به، فيرجع إلى حقائق القران يَسْتَلهمها الرشد، ويستمدّ منها تشديد العزيمة، وتسديد الرأي، وإصابة الصواب، ومتانة الأخلاق، فيأخذ دينه بقوة، تهديه إلى أن يأخذ دنياه بقوة، ويقوده كل ذلك إلى أخذ السعادة بأسبابها.

---

(1) المصدر نفسه ص 103 جريدة البصائر العدد 178 سنة 1952م.

ولو كان المسلم مسلماً حقاً لعرف نفسه، ولو عرف نفسه لعرف أخاه، ولو عرف أخاه لكان قوياً به في المعنى كثيراً به في المادة، ويوم نصل إلى هذه الدرجة نكون قد أعدنا تاريخ الإسلام من جديد، ونكون قد أضفنا إلى هذا العُنْصُر المادي العصري الفوار عنصراً روحانياً فواراً يلطف من حدَّته، ويخفِّف من شدَّته، فيتكوَّنُ منهما مزاج صالح، يصلح عليه الكون كله، لا المسلمون وحدهم.

إنك لترى للمسلمين وجوداً في كل قطر، وتسمع عنهم نبأ في كل ناحية، ولكنَّهم متفرِّقون في زمن أصبح فيه التكتُّل شرطاً للحياة، ومتباعدون في وقت أصبح فيه التقارب أساساً للقوة، ومتناكرون في عصر أصبح فيه التعارف أقوى وسائل التعاون، ومنصرفون عن الجامعة الإسلامية الواسعة إلى جوامع أخرى ضيِّقة الافاق، من جنسية وإقليمية، في هذا الزمن الذي يتداعى فيه أتباع الأديان القديمة، ومعتنقوا النحل الحديثة، إلى التجمُّع حول المبادأئ الروحية أو الفكرية.

وهناك في الأقاصي من شمالي أوربا طوائف من إخواننا المسلمين المنحدرين من السلائل التركية والصقلية التي امتزجت في شبه جزيرة البلقان، ثم مدت مدها إلى النمسا، وهنغاريا، ثم نزحت منها مجاميع إلى الشمال، فكانت بقاياها هذه المجموعة المتوطِّنة في «فنلندا»، ولا نشك أن إخواننا هؤلاء قد اصطبغوا بصبغة ذلك الوطن في حياتهم الدنيوية وطرق معايشهم، ولا نشك أنهم أخذوا فيها بنظام العصر وقوَّته وجدِّه، ولكنهم في حياتهم الدينية مستضعفون محتاجون إلى إمْدَاد من إخوانهم المسلمين في جميع الأقطار، تقوِّي ضعفهم المادي، وتكمل نقصهم العلمي، وتشعرهم بالعزَّة والكرامة، وترفع رؤوسهم بين مواطنيهم[1].

وقد كتب الشيخ حبيب الرحمن شاكر إمام المسلمين في فنلندا، يظهر من ذلك كله ما هم في حاجة إليه، فليس لهم مسجد جامع يؤدون فيه الشعائر الدينية، وإنما يصلُّون الجمعة في قاعة سينما يكترونها لساعات، وليس عندهم من الكتب الدينية العربية شيء إلا المصاحف. وإنما يتمتعون بشيئين مهما تكن قِيمَتُهُما غالية فإنهما لا تغنيان عن المفقود، وهما:

العقيدة المتينة، والحرية التامة.

وجمعية العلماء تبتهج بهذه الصلة الجديدة بإخواننا مسلمي فنلندا، وتصل بهذه الكلمة وشائج القربى الدينية، وتحرك بها سواكن هِمَم المسلمين في الشرق والغرب، ليلتفتوا إلى هذه الناحية من جسمهم، فيداووا علَّتها، ويسدّوا خلتها، ويربحوا بها ما يزيد في عددهم، وإن هذا لأقلَّ ما يوجبه الإسلام على المسلم[2].

* * *

(1) المصدر الملتقى الدولي ص 108.

(2) الملتقى الدولي ص 94.

المبحث الثاني

ثورة أول نوفمبر 1954م

للشعب الجزائري نضال كبير، وكفاح مرير وجهاد عظيم، توارثته الأجيال منذ دخول المحتلين الفرنسيين إلى بلادهم، وأصبحت الأجيال تسلّم راية الجهاد لبعضها على التوالي، وكان جهاد الشعب الجزائري شاملاً وعظيماً، وعلى كل المستويات السياسية والعسكرية والحضارية... الخ.

بني على روح الإسلام وحب الأوطان، والاستعداد للشهادة في سبيل الله عز وجل. وكان للفكر الإصلاحي الذي قاده ابن باديس وجمعية العلماء تأثير كبير في كل مدن وقرى ووديان وجبال وسهول وصحارى الجزائر، فقد أعدّ ابن باديس جيلاً مؤمناً بحقه في الحياة معتزاً بهويته، رافضاً للاحتلال متشوقاً لحريته.

كان ابن باديس توّاقاً إلى التضحية في سبيل تحرير شعبه وبلاده من المحتل الغازي بالنفس والروح. ويذكر الأستاذ إبراهيم الكتاني أنه كان في خريف سنة 1937م في تلمسان بمناسبة تدشين مدرسة دار الحديث بها، وقد رافق الإمام ابن باديس الوفد إلى حيث أطلال مسجد المنصورة، حيث حرر نداء يدعو فيه الأمة الجزائرية للصيام وملازمة المساجد، بمناسبة ذكرى مرور مائة سنة على احتلال قسنطينة، ولما قرأه على الوفد جعل أحد تلاميذه يثبط عزيمته ويحذره مغبة نشره، فغضب ابن باديس وقال: يا أبنائي، إنكم تعلمون أني لم أطلب أي شيء لنفسي، ولكني اليوم أطلب لنفسي شيئاً واحداً، وهو أن تسمحوا لي أن أكون أول ضحية في سبيل الجزائر عندما يحين الوقت للتضحية في سبيلها[1].

ولم يكن يتحرج ـ أبداً ـ من الإفصاح بالهدف الاستراتيجي البعيد من وراء حركته الجهادية لتلاميذه، عندما يسألونه طالبين منه الإعلان بالثورة والمطالبة بالاستقلال، فيذكر محمد خير الدين أنه ذات يوم من عام 1933م التف نفر من الشباب المتحمس حول الإمام ابن باديس بنادي الترقي، وطلبوا منه أن يرفع صوته قوياً مدوياً عالياً، مطالباً باستقلال الجزائر وحريتها، فقال لهم: وهل رأيتم أيها الأبناء إنساناً يقيم سقفاً دون أن يشيد الجدران؟ فقالوا: كلا ولا يمكن هكذا.

فقال لهم: إن من أراد أن يبني داره فعليه أن يبني الأسس ويقيم الجدران أولاً، ثم يشيد السقف على تلك الجدران، ومن أراد أن يبني شعباً ويقيم أمة فإنه يبدأ من الأساس لا من السقف.

وهذا الكلام نفسه الذي أجاب به تلاميذه، قاله لمصالي الحاج الذي كان يطالب بالاستقلال: وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل، أن يتركه بدون سقف، وهل غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال[2]؟

---

(1) مذكرات محمد خير الدين (407/1).

(2) كفاح الشعب الجزائري (716/2)، للصلابي.

وصرّح سنة 1940م في اجتماع خاص في بيته بمبنى جمعية التربية والتعليم الإسلامية مقسماً، فقال: والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقني على الثورة لأعلنتها[1].

وحينما حمي وطيس الحرب العالمية الثانية، اجتمع به جماعة من أنصار حركته فقال: عاهدوني. فلما أُعطي له العهد بالمصافحة قال: إني سأعلن الثورة ضد فرنسا عندما تُشهر عليها إيطاليا الحرب.

وذُكر عنه أنه عندما يسأله تلاميذه: كيف يمكن تخليص الجزائر من قبضة الاستعمار؟ يشير إلى الجبال البعيدة قائلاً: هناك يكون الخلاص، كما يقول عنه أحد تلاميذه: كان يريد الخروج على فرنسا إلى جبال الأوراس ليعلنها ثورة على فرنسا لو وجد رجالاً يساعدونه[2].

كان ابن باديس يعلق اماله على تلاميذه الذين يدرسهم، والكبار الذين يزورهم ويحترمهم، ويلح على الجميع في دروسه ومحاضراته على الاستعداد المادي والمعنوي لمواجهة هذا العدو في يوم ما[3].

واستعمل عبد الحميد بن باديس في العديد من مواضيع شعره ونثره كلمات وعبارات تحمل دلالات ثورية وتحررية، استعملها من أجل بث الحماسة في نفوس من يخاطبهم بخطبه أو يلقي عليهم ما نظمه من قصائد، فكانت بدورها دالة على الفكر الثوري التحرري في شخصيته. وهذه أبيات من قصيدته التي ترنم بها الشعب الجزائري ولازال يذكرها حتى يومنا هذا:

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له ... رام المحال من الطلب
يا نشء يا ذخر الجزائر ... في الشدائد والكرب
يا نشء أنت «رجاؤنا» ... وبك «الصباح» قد اقترب
خذ للحياة سلاحها ... وخض الخطوب ولا تَهَبْ

إلى أن قال:

من كان يبغي وُدَّنا ... فعلى الكرامة والرحب
أو كان يبغي ذلنا ... فله المهانة والحَرب
هذا نظامُ حياتنا ... بالنور خُطّ وباللّهب
حتى يعود لشعبنا ... من مجده ما قدْ ذهب
هذا لكم عهدي به ... حتى أُوَسّد بالتربف
إذا هلكت فصَيْحتي ... تحيا الجزائر والعرب[4]

---

(1) المصدر نفسه (716/2).
(2) المصدر نفسه (716/2).
(3) المصدر نفسه (716/2).
(4) الشيخ عبد الحميد بن باديس، د . تركي رابح ص 225 . 226.

وارتجل ابن باديس في حفل أقامته مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة يوم 27 رمضان 1356هـ بمناسبة إحياء ليلة القدر نشيد «اشهدي يا سماء»، نشر في
جريدة البصائر، ومما جاء فيه:

اشـــــهـــدي يا سمـــاء	واكـــتـــبن يا وجـــود
أنـــنـــا لـــلـــحـــمـــى	ســـــنـــكـــون الجـــنـــود
فـــنـــزيـــح الـــبـــلا	ونـــفـــكّ الـــقـــيـــود

إلى أن قال:

ونـــذيـــق الـــردى	كـــل عـــات كـــنـــود
فـــيرى جـــيـــلـــنـــا	ذكـــريات الجـــدود
ويـــرى قـــومـــنـــا	خـــافـــقـــات الـــبـــنـــود
ويُـــرى نجـــمـــنـــا	لـــلـــعـــلا في صـــعـــود
فـــتضـــم اسمـــنـــا	صـــــفـــحـــات الخـــلـــود
هـــكـــذا هـــكـــذا	هـــكـــذا ســـنـــعـــود[1]

ونلمس في الأبيات السابقة العمق الثوري في شخصية الإمام ابن باديس وتعطشه إلى الحرية، والتي نلمسها في قوله «فنزيح البلا... ونفك القيود»، كما توعّد المحتل بقوله «ونذيق الردى... كل عات كنود». ونجده أيضاً في هذه الأبيات يستعمل كلمات ذات بعد تحرري وثوري مثل: «الحمى» «جنود» «القيود». واستدل ابن باديس في أحد خطبه ببيت الأحنف بن قيس، ليبرز ما على القائد من واجبات فقال:

إنّ عـــلـــى كـــلّ رئـــيـــس حـــقـــاً	أن يخضـــــب الصـــعـــدة أو تنـــدقّـــاً

والصعدة هي الرمح، يريد أن يخضب بالدماء أو تنكسر وتندق في يده أثناء محاربته للأعداء، ومن خلال استدلاله بهذا البيت أيضاً نلمس ثورية ابن باديس، وقد أتبع كلامه السابق بالقول: لكن صعدتنا هي القلم، وخضابه الحبر، ولكن لا يندق هذا القلم حتى تندق أمامه جبال من الباطل، فعلا القاعة تصفيق عال وهتاف بكلمة الله أكبر.

وذكر ابن باديس في العدد الخامس من جريدة المنتقد الصادرة يوم الخميس 11 محرم 1344هـ/ 30 جويلية 1925م قوله نشرنا قصيدة العالم الشاعر الحاج أحمد البوعَوني مبتهجين بأن يكون المنتقد ميداناً تلتقي فيه تجربة الشيوخ بنشاط الشبان، حتى يحق له أن يقول أنه يتقدم للجهاد الحيوي، ثم ذكر بيتاً شعرياً:

بشـــــبـــان يـــرون الـــقـــتـــال مجـــداً	وشـــــيـــب في الحـــروب مجـــربـــين

(1) كفاح الشعب الجزائري (714/2).

فابن باديس اعتبر أن جريدة المنتقد تهدف إلى إعداد الشباب لما سمّاه «الجهاد الحيوي»، الذي عرّفه بأنه «القتال» و «الحروب»، والذي يشارك فيه الشباب المندفعون والشيوخ المجربون، كما كانت الخطب التي يلقيها الإمام عبد الحميد ابن باديس مليئة بمعاني الجهاد وإثارة الحماسة في النفوس ورافعة للهمم والمعنويات.

وقد كان ابن باديس في كثير من خطبه يستدل بالأحداث والأمجاد التاريخية لإثارة الحماسة في نفوس من يخاطبهم، ومن ذلك قوله لما ذكر بلدة سيدي عقبة أنها: مدفن أسلافنا الفاتحين الذين محقوا الشرك والاستبداد عن هذه البلاد، فقد أنجبت لنا المصلح الشيخ الطيب العقبي، الذي يجاهد اليوم ليسحق البدعة والفساد من هاته الأرض، ذرية بعضها من بعض[1]. كما تضمنت خطبه كلمات ذات بعد ثوري، فقد جاء في قوله بمناسبة صدور مجلة الزيتونة والابتهاج بصدورها قوله: ويحق لي وأنا جندي من جنود الإصلاح الإسلامي العام أن أسرّ سروراً بتعزز معاقل الإصلاح بها[2]، كما وصف في نفس البيان جريدته التي صودرت بـ «الشهيدة».

يتبين لنا مما سبق أن ثورية الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس أبانت عنها خطبه وأشعاره والعبارات التي كانت تجري على لسانه، مما يؤكد لنا البعد الثوري والتحرري في شخصية ابن باديس الثائر على المحتلين والغزاة[3]، كان لابد لابن باديس وجمعية العلماء في عهد الإبراهيمي دور كبير في قيادة الأمة الجزائرية، وصياغة المقومات الشخصية الجزائرية، التي ساعدت في إيجاد أرضية فكرية وعقائدية ساهمت في إنجاح ثورة نوفمبر 1954م.

* * *

(1) المنتقد العدد 6 جويلية 1925، ص 114 . 115، كفاح الشعب الجزائري (714/2).

(2) كفاح الشعب الجزائري للصّلاّبي (715/2).

(3) المصدر نفسه (715/2).

أولاً: أهم الأحداث التي ساهمت في إعلان الثورة

كان الشعب الجزائري لا يكلّ ولا يملّ في التصدي للغزاة المحتلين، وكان يتطلع إلى وقت الخلاص ويستعد للفرصة التي تتاح لكي يحقق استقلاله. وساهم ظلم المحتلين وعوامل عدة في اندلاع ثورة نوفمبر، من أهمها:

1 . اثار أحداث 1945م:

إن مجازر الثامن ماي 1945م التي تركزت أساساً في مناطق قالمة وسطيف وخراطة لم تنه روح المقاومة لدى الشعب الجزائري، بل كانت بداية مرحلة جديدة أعيد خلالها النظر في الاستراتيجية، وفي وسائل العمل والكفاح للمرحلة المقبلة.

ويمكن حصر النتائج الإيجابية في ظهور جيل جديد شاب عركته المحنة والمأساة، يرفض أسطورة الحضارة الفرنسية المتحررة والتحريرية، التي كانت النغمة المفضلة لعدد من مثقفي الجيل القديم.

واقتناع الشعب الجزائري بأن تحقيق الاستقلال لا يمكن أن يكون إلا بالسلاح والسلاح وحده، وبذلك أصبحت دعوة الكفاح المسلح تجد سبيلها في أوساط شباب ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وقد كانت ذكرى الاعتداء الفرنسي المسلح والبربري ضد الشعب الجزائري الأعزل، مجال تذكير من رجال الحركة الوطنية، وخاصة حزب الشعب في الجزائر والقاهرة ودمشق، لأن استعراض وتعداد الماسي التي مر بها الشعب الجزائري، شكل أزمة ضمير لدى رجال الحركة الوطنية، الذين عالجوا الأخطاء التي عرفتها كل الانتفاضات المباركة، والأساليب التي سحقت بها، إلى حين إعداد الأمة والشعب والرأي العام المحلي والإقليمي لما يعرفه هذا الوطن من مأساة، كان ولا يزال سببها المباشر فرنسا الاستعمارية[1].

لقد أيقنت الأحزاب والجمعيات الجزائرية أن الهوّة بين أهداف الاستعمار الفرنسي والمستوطنين المحتلين للجزائر والشعب الجزائري واسعة، والان ازدادت الهوّة واتسعت ولا تقبل الترقيع.

واستنتج الوطنيون أن الاستعمار الفرنسي لن يُقتلع من الجزائر إلا بالقوّة[2].

ولم يستطع تجمع الاحزاب نفسه أن يقاوم الزلزال السياسي الذي هزّ الجزائر في سنة 1945م، وظن فرحات عباس بأنه يرفض الاندماج كما يرفض الانفصال، وبأنه يريد أن يحرر الجزائر من النظام الاستعماري، وأن يندد بالفرنسيين الذين أصابهم مُركّب الاستعلاء، والذين عذّبوا وقتلوا مدّة أسابيع جزائريين أبرياء، وصرّح أيضاً بأنه يشجع الأخوة بين المسلمين والفرنسيين المسيحيين منهم واليهود.

وفي التاسع من أوت 1946م، اقترح فرحات عباس جمهورية جزائرية متمتعة بالحكم الذاتي داخل الاتحاد الفرنسي، كما اقترح انتخاب برلمان جزائري ورئيس للجمهورية، ثمّ على الحكومة الفرنسية أن تعيّن ممثلاً لها في الجزائر.

(1) تاريخ الجزائر المعاصر، د . محمد الأمين بلغيث ص 179.

(2) الثورة الجزائرية، د . بو علاّم بن حمودة ص 140.

وبالنسبة إلى مصالي الحاج فقد قرر أن ينشأئ حزباً رسمياً، ليتمكن الوطنيون من الترشح في الانتخابات التشريعية المقررة في نوفمبر 1946م، واسم هذا الحزب هو «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية»، ورفضت السلطات الاستعمارية بعض الترشحات منها ترشح مصالي الحاج ولَحَول حسين. ونجح في انتخابات 1946م التشريعية كل من محمد الأمين دبّاغين، وجمال دردور، ومسعود بو قادوم، وأحمد مزغنّة، ومحمد خيضر، وهم من حزب الوطنيين « MTLD ».

وأما الحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر فقد اخطأ في تحليله لأحداث 1945م، فقد أعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي « PCE »، في جريدة يوم 12 ماي 1945م: لابد أن نعاقب في الحين وبدون هوادة منظمي التمرد ومن أداروه[1].

وقد استقبل الحاكم العام يوم 10 ماي 1945م وفداً من الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الشيوعي الجزائري، تكلم هذا الوفد عن «استفزازات ناشطين هتلريين من صفوف حزب الشعب الجزائري وحزب الشعب الفرنسي»، وعن ناشطين اخرين مختبئين في منظمات تدعي بأنها ديمقراطية، وهاجم الوفد مصالي والوطنيين الذين لم يعينوا فرنسا لما كانت محتلة ويطالبون الان بالاستقلال، وبعد ذلك يضيف الأمين العام للحزب الشيوعي: أن من يطالبون بالاستقلال هم عملاء وأعوان أو غير واعين للإمبريالية.

ولكن بعد الجرائم التي ارتكبها الاستعمار عند وقف المظاهرات، وقع المكتب السياسي للحزب الشيوعي الجزائري موقفه بنداء وجهه لإنشاء لجان تُعين المعتقلين، وشجع المطالبة بالعفو الشامل[2].

2 . الاستعداد العسكري «المنظمة الخاصة أو السرية»:

إن حزب الشعب الجزائري: (الحركة من أجل انتصار الحريات) استخلص الدرس من أحداث 1945م: ولابد من تنظيم الصفوف، ومن التسلح، ومن إعداد العدة للشروع في الكفاح من أجل التحرر الوطني، لأن هذا الكفاح المسلح أصبح حتمياً، فتقرر إحداث منظمة «خاصة أو سرية»، حتى انعقد أول مؤتمر للحركة في الجزائر العاصمة يومي 15 و 16 فبراير 1947م. وقد استعمل مصطلح تسمية «المنظمة السرية» محمد بوضياف، واستعمل أحمد مهمساس مصطلح «المنظمة الخاصة».

ثم تأكد هذا القرار لما اجتمعت اللجنة المركزية في زذين بالقرب من «عين الدفلي» في ديسمبر 1948م. وقد انعقد الاجتماع بحضور مصالي الحاج في ضيعة تملكها أسرة عبد القادر بلحاج جيلاني، الذي كان في قيادة المنظمة الخاصة عضواً مكلفاً بالتدريب العسكري وبالمفتشية العامة، تواصل الاجتماع في البليدة لأنه جاء خبر خاطأئ، أن الشرطة متأهبة لحملة تفتيش في مكان الاجتماع، وقررت اللجنة المركزية منح الكفاح المسلح الأولوية، أي قررت تقوية المنظمة الخاصة. وذلك لأن الانتخابات الأخيرة لاختيار أعضاء الجمعية الجزائرية بينت أن التزوير كان سائداً ومشجعاً من طرف الحاكم العام «نيجلان»، ومن اللازم ومن المفيد أن نذكر

---

(1) الثورة الجزائرية، د . بو علاّم بن حمودة ص 141.

(2) المصدر نفسه ص 141.

القيادات المختلفة على رأس المنظمة الخاصة، لأننا سنجد معظم الأشخاص معنيين عند اندلاع ثورة التحرير في أول نوفمبر 1954م.

. تكونت القيادة الأولى من محمد بلوزداد «رئيس»، وحسين ايت أحمد «مساعد»، وأحمد بن بلة «عضو مكلف بالناحية الوهرانية»، وجيلاني رجيمي «عضو مكلف بالجزائر» وبالمتيجة وبالتيتري، ومحمد بوضياف «عضو مكلف بنواحي قسنطينة»، وعبد القادر بلحاج جيلاني «عضو مكلف بالجزائر» وشلف والظاهرة، وحسين ايت أحمد مساعد الرئيس مكلف ببلاد القبائل.

. وتكونت قيادة المنظمة السرية الثانية «من اخر سنة 1947م إلى سبتمبر 1949م» من حسين ايت أحمد الذي خلف بلوزداد الذي كان مريضاً، وعبد القادر بلحاج جيلاني «عضو مكلف بالتدريب العسكري وبالمفتشية العامة، ومحمد ماروك «عضو مكلف بالجزائر والظاهرة وشلف»، ومحمد بو ضياف «عضو مكلف بنواحي قسنطينة»، وأحمد بن بلة «عضو مكلف بنواحي وهران»، وجيلاني رجيمي «عضو مكلف بالجزائر» والمتيجة والتيتري وبلاد القبائل.

. وتكونت القيادة الثالثة من سبتمبر 1949م إلى ماي 1950م من أحمد بن بلة «رئيس»، وعبد القادر جيلاني «عضو مكلف بالتدريب العسكري وبالمفتشية العامة»، ومحمد يوسفي «عضو مكلف بالمرافق العامة وبالمتفجرات وبالمواصلات»، وعبد الرحمن بن سعيد «عضو مكلف بنواحي وهران»، وجيلاني رجيمي «عضو مكلف بالجزائر وبالمتيجة وبالتيتري وببلاد القبائل»، وأحمد مهساس «عضو مكلف بالجزائر وبالشلف وبالظاهرة»، ومحمد بوضياف «عضو مكلف بنواحي قسنطينة»، والعربي بن مهيدي «عضو مساعد لمحمد بوضياف».

وقد كان لَحَول حسين الأمين العام للحزب يلعب دور الوسيط بين جهاز الحزب وقيادة المنظمة السرية إذا تعلق الأمر بالقضايا الهامة.

ولقد حرصت المنظمة الخاصة على تجنيد مناضلين ملتزمين ومقتنعين وشجعان وناشطين وقادرين جسدياً على حسب المادة الثانية من النظام الداخلي، فعندما يكشف المناضل المتصف بتلك الصفات يمتحن، ثم إذا كانت النتيجة إيجابية يؤدي اليمين، فلن يستطيع بعد ذلك أن يفارق المنظمة، فإذا فارقها بدون سبب اعتبر فاراً منها فيتعرض لعقوبات قاسية.

إن أعضاء قيادة المنظمة الخاصة كانوا هم أيضاً يشاركون في التدريب، يروي حسين ايت أحمد في كتابه المتعلق بمذكراته قصة تبين ذلك: ذهبت جماعة من القياديين وهم لابسون كالكشافة إلى ناحية شرشال لدراسة الميدان وتصور حرب العصابات: ذهبت الجماعة المتكونة من حسين ايت أحمد ومحمد بوضياف وأحمد بن بلة وأحمد مهساس وعمر ولد حمودة وجيلاني رجيمي وعبد القادر بلحاج جيلاني ومحمد مازوك من شرشال إلى سيدي غيلاس، ثم توجهت نحو جبال الظاهرة مارة بسيدي محمد أسميان ثم ببوحرب، واتجهت نحو جبل زكار لتصل إلى عين الدّفلي. في أثناء السفر «أوت 1948م» درست الجماعة الميدان والخرائط وتقنيات حرب العصابات

دام السفر أكثر من أسبوع، ومن غريب الصدف أن بعض أعضاء الجماعة أصبحوا قياديين في الثورة، وأصبح اثنان منهم «أحمد بن بلة ومحمد بوضياف» رئيسين للجمهورية الجزائرية بعد الاستقلال.

. ومن أجل الحصول على مال يخصص لشراء الأسلحة والذخيرة، تقرر مهاجمة مركز بريد وهران، وصدرت الموافقة على العملية من طرف الأمين العام للحزب حسين لحَول، وقد شارك فيها مناضلون من المنظمة السرية، فهكذا تحصلت قيادة الحزب على 4 ملايين من الفرنكات القديمة الناتجة من مهاجمة المركز البريدي بوهران.

. وعلى حسب أحمد مهساس عدد المنضمين في المنظمة بلغ في سنة 1949م ألفين من المناضلين الخارجين من صفوف حزب الشعب الجزائري والحركة من أجل انتصار الحريات[1] الديمقراطية، وقد كان يوجد انذاك «000،50» مناضل ومحبّ داخل صفوف الحزب، لكن المنظمة الخاصة اهتزت بسبب حادث بسيط، اختطف مناضل «كان عضواً في المنظمة في ناحية تبسة» من طرف إطارات محلية، وذلك بسبب معلومات عن المنظمة سربها بدون حذر، فعندما نُقل في سيارة محاطاً بإطارات حزبية محلية «سوف تستجوبه عن تصرفاته» هرب يوم 18 مارس 1950م خوفاً من العقاب، واتصل بالشرطة فأخبرها بما وقع. وتمكنت الشرطة من إلقاء القبض على الذين اختطفوه بعد ايقاف سيارتهم في «واد زناتي» بين قالمة وقسنطينة، فالتحقيق أدى إلى عدد من الاعتقالات التي هزت المنظمة الخاصة. إذ أُلقي القبض على 400 مناضل، وصدرت أحكام على مئتين منهم، إلا أن البعض من المتابعين تمكنوا من الفرار وعاشوا في السرية حتى اندلعت ثورة أول نوفمبر 1954م فالتحقوا بصفوفها.

بعد هذه الهزة أمرت قيادة حزب الشعب الجزائري «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» المناضلين المعتقلين بإنكار وجود المنظمة السرية، وبالحديث عن مؤامرة بوليسية، وكل ذلك للمهاجمة على مسير الحزب وعلى ما تبقى من المنظمة الخاصة.

لكن مصالح الأمن الفرنسي استطاعت أن تصل إلى معلومات دقيقة عن الهيكل النظامي وعن قائمة الكثير من أعضاء المنظمة الخاصة، إلا أن البعض منهم بقي مجهولاً، والبعض الاخر التحق بالسرية كما قلنا، وقد تمكن أحمد بن بلة وأحمد مهساس من أن يفرا من سجن البليدة، وأن يلتحقا بعدد من إطارات الحزب المتواجدين في الخارج، ويساهما في تحضير الوسائل لقيام الثورة التحريرية.

بعد كل ما وقع للمنظمة الخاصة، قررت قيادة الحزب أن تحلها تخوفاً من الأخطار 1951م[2].

ولكنها في الحقيقة استمرت من خلال أفرادها الذين خارج سلطة المستعمر، وتولت تكوين الرجال الذين ساهموا في تفجير الثورة الجزائرية في نوفمبر 1954م.

---

(1) المصدر نفسه ص 144.

(2) المصدر نفسه ص 145.

3 . الإغراء الانتخابي:

وبالرغم من ظلم النظام الانتخابي، وتشكيل هيئتين انتخابيتين واحدة للفرنسيين وواحدة للمسلمين، وقلة التمثيل للمسلمين، وحرمان المسلمات الجزائريات من الانتخاب حتى مرسوم جويلية 1958م، والتزوير الشامل عند العمليات الانتخابية ؛ حاولت الأحزاب السياسية الجزائرية أن تلعب ورقة الانتخابات لانتزاع الحقوق الفردية والجماعية.

. وعند انتخاب المجلس الوطني الفرنسي التأسيسي لم يشارك إلا الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وأما حزب الشعب الجزائري العامل في سرية فقد رفض المشاركة لأنه اعتبرها اعترافاً بالسيادة الفرنسية على الجزائر «2 جوان 1946م».

وتقدمت الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية « MTLD »، وهي الوجه الرسمي لحزب الشعب الجزائري الممنوع، للمشاركة في الانتخابات التشريعية التي نظمت يوم 10 نوفمبر 1946م، وتمكنت من نيل 5 مقاعد في البرلمان الفرنسي من بين 13 مخصصة للمسلمين، وقد احتل تلك المقاعد كل من أحمد مزغنّا، ومحمد خيضر، والدكتور محمد الأمين دبّاغين، ومسعود بوقادوم، والدكتور جمال دردور.

إن وجود هؤلاء المناضلين في البرلمان الفرنسي سمح للحركة الوطنية بأن تعرف بمواقفها الوطنية وبمطالبتها بالاستقلال، ولا سيما عندما نوقش في البرلمان الفرنسي مشروع القانون الأساسي الذي أصبح قانون 20 سبتمبر 1947م الأساسي.

وشارك الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري في انتخاب مجلس الجمهورية الفرنسية «نوع من مجلس الشيوخ» المنصوص عليه في دستور 27 أكتوبر 1946، ونال 4 مقاعد من بين السبعة المخصصة للمسلمين، والمعلوم أن مجلس الجمهورية يُنتخب من طرف أعضاء المجموعات المحلية، وامتنعت حركة انتصار الحريات الديمقراطية عن المشاركة لأسباب إجرائية، نوفمبر وديسمبر 1946م.

وفي الانتخابات المحلية التي جرت في أكتوبر ونوفمبر 1947م، حصلت الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية على 31% من المقاعد، بينما حصل الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري على 27% من المقاعد، فهكذا بدأت تظهر أغلبية للجزائريين في المجالس المحلية 58%. لكن السلطة الاستعمارية تنبهت لذلك، فلجأت إلى اختلاق العراقيل أمام المرشحين، كما لجأت إلى التزوير الشامل، فعند انتخاب الجمعية الجزائرية طبقاً للقانون الأساسي 1947/20م رفضت الإدارة الفرنسية 33 مرشحاً من 59 مرشحاً في قائمة الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، وذهبت إلى أبعد من ذلك إذ ألقت عليهم القبض. واشتهر الحاكم العام الجديد المعين في بداية 1948م نيجلان بالتزوير الشامل للانتخابات.

ففي انتخابات الجمعية الجزائرية في أفريل 1948م حصلت الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية على 9 مقاعد، والاتحاد الديمقراطي على 8 مقاعد، والمستقلون على مقعدين، والمؤيدون من طرف الإدارة الفرنسية على 41 مقعداً.

والجدير بالذكر أن للجزائريين في هذه الجمعية 60 مقعداً، وللفرنسيين 60 مقعداً، وذلك ظلم لأن عدد السكان الفرنسيين عُشر عدد السكان الجزائريين.

وعند التجديد الجزئي للجمعية الجزائرية سنة 1952م وسنة 1954م، فضلت الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية أن تمتنع عن المشاركة في الانتخابات، والحصيلة من تجربة الانتخابات أنه لا يمكن الاعتماد عليها للحصول على إصلاحات تخدم تحرر الجزائر والجزائريين(1)، وساعد ذلك على إيمان الساسة بالعمل المسلح الثوري لتحقيق الاستقلال.

4 . الأزمة الداخلية للحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية:

قد كان هناك إجماع داخل حزب الشعب الجزائري «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» فيما يخص هدف الاستقلال، لكن الخلافات تطفو عندما يتعلق الأمر بالطريقة وبالوقت المناسب للشروع في الكفاح من أجل بلوغ الهدف المذكور والمتفق عليه، هل يواصل الحزب مشاركته في الانتخابات بالرغم من ظلمها للأغلبية المسلمة ومن تزويرها الواضح؟ وإذا أضفنا التنظيمية فهمنا لماذا وصل الحزب إلى الجمود ثم إلى مؤتمرين منفصلين، وفي النهاية إلى حركة من مناضلين فضلوا الثورة على النقاشات السياسية العقيمة، وفضلوا وضع الثقة في الشعب الذي كان يريد الدخول حيناً في معركة التحرير النهائي من الاستعمار(2).

. بدأ مصالي الحاج يطلب رئاسة الحزب مدى الحياة في مارس 1950م، كما طلب التمتع بحق النقض في اجتماع اللجنة المركزية بالأربعاء، وهي مدينة قريبة من العاصمة، فاستطاعت هذه القيادة أن تناور من أجل رفض هذا الطلب.

. وقد ساعد تفكيك المنظمة الخاصة من طرف السلطات الاستعمارية على إحداث جو من الشكوك داخل صفوف المناضلين، فاستقال الأمين العام حسين لَحَول من منصبه في مارس 1951م، خوفاً من أن يصبح كبش الفداء كلما يتلقى الحزب ضربات.

. ثم تطرقت اللجنة المركزية إلى مجموعة تنسيق العمل مع الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وجمعية العلماء «ماي 1951م»، لكن حزب فرحات الشعب الجزائري المحظور كان اشترط الالتزام بعدم اللجوء إلى العنف، فاقترح شوقي مصطفاي الجملة الاتية: سنعمل في إطار الشرعية. وأضاف أنه لا يرى مانعاً من إمضاء الاتفاق بذكر الحركة فقط، عند ذلك تفجر مصالي الحاج وقال غاضباً: يُراد قتل الحزب. ولم توافق اللجنة المركزية على اقتراح شوقي مصطفاي، ولكن تأثر بعض أعضائها من سلوك مصالي الحاج تجاه شوقي مصطفاي، الذي لم يقدم إلا اقتراح صيغة لحل المشكل.

وإثر هذه الحادثة استقال من اللجنة المركزية شوقي مصطفاي وسعيد عمراني وعبد الرزاق شنتوف، واجتمعت اللجنة المركزية من جديد بحضور مصالي الحاج في مدينة الأربعاء (تقع جنوب غرب العاصمة بحوالي 30 كلم)

---

(1) المصدر نفسه ص 146.

(2) المصدر نفسه ص 147.

في مارس 1952م، فرفضت رسمياً توحيد العمل مع الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وجمعية العلماء، وقررت عقد مؤتمر في جويلية 1952م[1].

وفي أفريل 1952م طلب مصالي الحاج من الحزب تنظيم جولة له عبر الوطن، وحاولت قيادة الحزب أن تقنعه بالعدول عن هذا المشروع، تجنباً لاستفزازات المصالح الأمنية ضده وضد المناضلين المنظمين للمهرجانات، لكنه أصر على قيامه بالجولة، فعند زيارته للشلف قُتل مناضلان وجُرح الكثير من المناضلين، فألقي القبض على مصالي الحاج يوم 14 ماي 1952م ثم نُفي إلى نيور، وهي مدينة توجد في الجنوب الغربي من باريس على بعد 340 كيلو متراً، وبعد استقالة لحَول حسين من منصبه عين بن يوسف بن خدّة كأمين عام في أوت 1951م، يروي بن خدة أنه عرض على مصالي الحاج مخططاً لفراره، فقبله، إلا أنه تراجع عن ذلك، وذلك في فبراير 1953م، حيث كان من المفروض أن يفرّ إلى سويسرا حيث يسترجع حريته في التحرك والنشاط[2].

وأما المؤتمر المقرر لجويلية 1952م، فلم يتمكن من الانعقاد إلا في سنة 1953م «أيام 5،4،3، من أفريل»، حضر المؤتمر الثاني للحزب في مقر هذا الأخير حوالي مائة من المناضلين، ولقد شارك في المناقشات بالقاعدة عدد من أعضاء المنظمة الخاصة، وقد تكلم باسمهم رمضان بن عبد الملك في المؤتمر، والشيء الجديد في المؤتمر هو توضيح التوجهات المستقبلية للجزائر المستقلة، ستكون الجزائر جمهورية مستقلة، وسيدة ومحايدة تجاه الكتلتين «كتلة الشرق وكتلة الغرب»، ومؤسسة لمجموعة مغاربية، ومؤيدة لحركات التحرير، ومؤسسة لاقتصاد وطني يقوم بإصلاح زراعي وبتأميم وسائل الإنتاج، ومصممة لثقافة عربية إسلامية، ومانحة الأقلية الفرنسية حق الاختيار بين الجنسية الجزائرية والجنسية الفرنسية. وقرر المؤتمر الثاني للحزب تقوية المنظمة الخاصة، وعيّن لجنة مكونة من خمسة أعضاء لاختيار تشكيلة اللجنة المركزية بالتراضي.

وتكونت اللجنة المركزية في الجزائر العاصمة يومي 4 و5 جويلية 1953م، وانتخب بالاقتراع السري بن يوسف بن خدّة كأمين عام، فعينت في هذا الاجتماع لجنة لإعادة تنشيط المنظمة الخاصة، وهي متألفة من: مصالي الحاج، وحسين لحَول، ومصطفى بن بولعيد، وبن يوسف بن خدّة، ومحمد دخلي[3].

وحضر بن يوسف بن خدّة اجتماع اللجنة المركزية المقبل، فذهب بالمشاريع إلى نيور لمقابلة مصالي الحاج، وتلقي ارائه بالنسبة إلى القضايا المطروحة، لكن مصالي الحاج فضل أن يرسل مذكرة إلى اللجنة المركزية عند اجتماعها من 12 إلى 16 سبتمبر 1953م.

وفي مذكرته، عرض مصالي الحاج كل انتقاداته تجاه قيادة الحزب، إنه يلومها على تنظيمها للتنسيق بين منتخبي الهيئة الأولى الفرنسية والهيئة الثانية الخاصة بالمسلمين، وعلى اقتراحها لمؤتمر وطني يضم أهم الأحزاب السياسية والجمعيات للمطالبة بانتخاب مجلس سيد بالاقتراع العام.

---

(1) المصدر نفسه ص 148.

(2) المصدر نفسه ص 148.

(3) المصدر نفسه ص 149.

وفي الحقيقة كان مصالي الحاج يلوم قيادة الحزب على شيء واحد، وهو رفضها لمنحه السلطات المطلقة. انتهت المذكرة بسحب الثقة من بن يوسف بن خدّة كأمين عام بهذه العبارات: أسحب الثقة من الأمين العام، وأطلب السلطات المطلقة لتقويم الحزب.

وقبل بن يوسف بن خدّة سحب الثقة منه، ولو أنه انتخب بالاقتراع السري من طرف اللجنة المركزية، لكنه طلب إلغاء فكرة السلطات المطلقة.

وذهب مصالي الحاج إلى أبعد من ذلك، إذ أرسل تعليمات إلى القاعدة لتؤسس لجاناً للخلاص العمومي، ولتقطع علاقتها مع القيادة الحزبية الحالية، وتعترف بمرباح مولاي وبأحمد مزغنا كممثلين له حصرياً لتجنب انفجار الحزب.

قبلت اللجنة المركزية في اجتماعها المنعقد يوم 28 مارس 1954م أن تمنح مصالي الحاج السلطات المطلقة لتحضير مؤتمر استثنائي تعرض فيه الأفكار لنقاش ديمقراطي، وسلطات تسيير الحزب بغرض تحضير المؤتمر، فهكذا أصبح مصالي الحاج مكلفاً بتحضير المؤتمر، لكنه فهم أنه سيحضره، كما يشاع، وبالفعل لم يستدع للمؤتمر الذي عقده هورنو إلا أوفياؤه.

نظراً إلى هذه الظروف التي يمر بها حزب الشعب الجزائري «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» (1)، اجتمع عدد من المناضلين الإطارات في الجزائر العاصمة، وأسسوا اللجنة الثورية للوحدة والعمل.

نعود الان إلى المؤتمرين اللذين جسّدا الانفصال داخل حزب الشعب الجزائري «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية».

وانعقد مؤتمر «هورنو» ببلجيكا من 13 إلى 15 جويلية 1954م بحضور الأوفياء لمصالي الحاج. في التقرير الذي أرسله مصالي الحاج إلى المؤتمر، يركز انتقاداته على قيادة الحزب ويوجه إليها التهم التالية: لم تقم قيادة الحزب بتحضير تقرير موضوعي عن أحداث 1945م، وتركت الكُتل تتكون وتهاونت بالنسبة إلى فرض الانضباط، وتميزت بالجمود والبيروقراطية، وأساءت تسيير المؤامرة ضد المنظمة الخاصة، وابتعدت عن تجديد صفوف الحزب، وعن التنسيق مع الأحزاب السياسية الأجنبية، واتهمها أيضاً بإبعاده عن كل ما يهم الحزب، وبعدم تقديم حساب عن نشاطها أمامه.

وقد عمق مؤتمر «هورنو» الأزمة، إذ وافق على منح مصالي الحاج رئاسة الحزب مدى الحياة، وعلى حل اللجنة المركزية القائمة، وعلى إقصاء حسين لحَول وبن يوسف بن خدّة وسيد علي عبد الحميد وأحمد بودة ومصطفى فروخي ومحمد يزيد ومحمد الصالح لوانشي من الحزب.

وأتى جواب اللجنة المركزية القائمة شهراً من بعد، فاجتمع مؤتمر الأوفياء للجنة المركزية بالجزائر العاصمة سراً من 13 إلى أوت 1954م، فأدانوا عمل التفرقة الذي قام به مصالي الحاج في بلجيكا، وقرروا إسقاط عضويته وعضوية أحمد مزغنا ومرباح مولاي في اللجنة المركزية، وإلغاء منصب رئيس الحزب، وعينوا لجنة مركزية فيها

---

(1) الثورة الجزائرية، ثورة أول نوفمبر 1954م.

28 عضواً: هذه اللجنة عينت بدورها هيئة مديرة انبثق منها أمانة عامة فيها ثلاثة أو خمسة أعضاء من بينهم أمين عام.

إن المادة الأولى من القانون الأساسي تحدد أهداف الحزب وهي: إنهاء النظام الاستعماري، وانتخاب مجلس تأسيس من طرف هيئة ناخبة واحدة، وتأسيس دولة مستقلة على شكل جمهورية ديمقراطية اجتماعية.

إن الذين يسميهم المؤرخون «مركزيين» هم مناضلون مؤيدون لمواقف اللجنة المركزية، فلا ينبغي الخلط مع أعضاء من اللجنة المركزية القديمة الذين قد انضموا إلى مصالي الحاج أو إلى اللجنة الثورية للوحدة والعمل.

في الحقيقة لم تعش نزعة المركزيين طويلاً: إنها أنشأت جريدة جديدة عنوانها «الأمة»، ثم عقدت دورة واحدة في أكتوبر 1954م، فقررت إرسال أمينها العام حسين لحول ومحمد يزيد إلى القاهرة، بحثاً عن المساعدة التي قد تدفعها مصر للكفاح التحرري الجزائري.

إن اندلاع ثورة التحرير في أول نوفمبر 1954م سيحث المناضلين على الاختيار الحاسم مع الثورة أو ضد الثورة، فهكذا التحق أغلبية أعضاء اللجنة المركزية بالثورة بصفة فردية، وعلى حسب ظروف وكيفيات كل شخص[1].

5 . ظروف دولية ملائمة:

إن العمل الجماعي والملتزم شكّل الوسيلة الوحيدة لتجاوز الخلافات بين الوطنيين، والشعب الجزائري من جهته وجّه لوماً للأحزاب على عجزها عن تقليد الأسلوب التحرري في تونس والمغرب، وفي الوقت نفسه كان الشعب الجزائري مطلعاً على ما جرى في ثورة الريف بالمغرب «من سنة 1921م إلى سنة 1926م».

وفي «ديان بيان فو» بالهند الصينية، حيث هُزم الجيش الفرنسي بين 13 مارس و7 ماي 1954م.

وبالفعل لقد ثار الأمير عبد الكريم الخطابي سنة 1921م على المحتلين الإسبان في الريف، وألحق هزيمة بالجيش الإسباني المتألف من 18،000 جندي، وقد انتحر العميد سيلفيسر بعد هذه الهزيمة، إلا أنه ألقي القبض على الأمير في ماي 1926م، ثم نُفي من طرف فرنسا، التي تدخلت خوفاً من تزعزع وجودها في المغرب، واستطاع الأمير عبد الكريم الخطابي أن يفر عندما كان منقولاً من منفاه عبر قناة السويس سنة 1948م في مصر. وترأس حتى سنة 1963م لجنة تحرير المغرب العربي، المكلفة بتنسيق أعمال البلدان المغاربية بالتحرير، وفي المغرب رفض الملك محمد الخامس الانصياع لسياسة فرنسا الاستعمارية، فنفي إلى «مدغشقر» يوم 20 أوت 1953م، إثر أحداث الدار البيضاء العنيفة. وبدأت المقاومة المغربية تنتظم، فأرغمت الحكومة الفرنسية على إرجاع محمد الخامس إلى بلده وإلى عرشه 16 نوفمبر 1955م.

وبعد محادثات شمال فرساي أعلن استقلال المغرب يوم 2 مارس 1956م أي 16 شهراً بعد اندلاع الثورة الجزائرية التحريرية.

---

(1) المصدر نفسه ص 151.

وفي تونس أنشئت لجنة وطنية للمقاومة بقيادة أحمد تليلي، بعد اعتقال عدد من الوطنيين المنتمين إلى حزب الدستور الجديد، «منهم الحبيب بورقيبة مؤسس هذا الحزب سنة 1934»، وشرعت المقاومة التونسية في القيام بأعمال تخريبية وهجومات تستهدف تدمير المزارع التابعة للمعمرين ومنشات اقتصادية أخرى، كما تستهدف بعض الخونة وبعض المعمرين «يناير 1956م».

أجابت السلطات الفرنسية هذه الحركة بعنف أعمى، ونشأت حركة إجرامية اسمها «اليد الحمراء» لتغتال المناضلين. ففي 5 ديسمبر 1952م اغتالت زعيم النقابة التونسية فرحات حاشد فتضاعفت أعمال التخريب، كما تقوى الضغط السياسي من طرف حزب الدستور الجديد سنتي 1953م، 1954م، وتدخلت القوات الفرنسية بقوة وصل عددها إلى 000،70 جندي، لكن العمليات الفدائية والضغط السياسي المستمر أرغما فرنسا على التفاوض، فأمضيا اتفاقيات الحكم الذاتي يوم 3 جوان 1955م بين الوزير الأول الطاهر بن عمر ورئيس مجلس الوزراء «ايدوقار فور».

واستُؤنفت المفاوضات بين ذلك، فتوصلت إلى إعلان استقلال تونس يوم 20 مارس 1956م، مع بقاء قاعدة (بنزرت) بين أيدي فرنسا لمدة. إن تاريخ استقلال المغرب «2 مارس 1956م»، وتاريخ استقلال تونس «20 مارس 1956م»؛ يدلان على أن الثورة الجزائرية سرّعت مجرى التنازل لدى الفرنسيين، ليتسنى لهم تركيز قواتهم على منع الجزائر من حصولها على الاستقلال.

لقد كان الجزائريون على علم بكل هذه الأحداث، وكانوا يسجلون تأسفهم حين كانت فرنسا تجند جزائريين للمشاركة في حرب الهند الصينية، مستغلة ظروفهم الاجتماعية. بكلمة واحدة شعر الشعب الجزائري بأنه حان الوقت لجعل حد نهائي للاستعمار المصحوب بالظلم والعنصرية والاستغلال والأعمال الإجرامية[1].

* * *

(1) المصدر نفسه ص 153.

ثانياً: تحويل المنظمة الخاصة إلى جبهة للتحرير الوطني الجزائري

كان قادة المنظمة السرية يتهيؤون للعمل الثوري على مستوى المغرب العربي، وذلك بقصد أن لا تبقى الحركة الثورية في الجزائر منعزلة، وخاصة أن فرنسا كانت عندها استراتيجية للتفاهم مع التونسيين والمغاربة، مقابل عدم تعاونهم مع الجزائريين، والالتزام بعزلهم.

ولتجنب الانعزال ؛ قام الجزائريون بإنشاء مكتب في القاهرة، واتصل بن بلة بالحبيب بورقيبة في تونس عدة مرات، ثم جاء بعده بوضياف وشنتوف إلى تونس للقيام بنفس المهمة، وذهب عبد الحميد مهري إلى العراق، حيث حصل على السلاح من نوري السعيد، وتمكن الجزائريون من الحصول على دعم مالي من المملكة العربية السعودية، تم تحويله إلى الجزائر عن طريق مصر.

غير أن الخلاف الخطير الذي نشب بين أعضاء اللجنة المركزية للحزب ومصالي الحاج في خريف 1953م، هو الذي كان له الأثر الكبير على نشاط جميع المناضلين، وأكد عبد الحميد مهري أن نسبة كبيرة من المناضلين في الحزب كانوا في البداية يؤيدون مصالي الحاج لأنه بسط القضية وقال: نحن راقدون والعالم يتحرك. وهذا يستجيب لرغبات المناضلين بما في ذلك منطقة القبائل. ولكن الأمور تغيرت فيما بعد، أي حين عاد محمد بوضياف وديدوش مراد من فرنسا في بداية سنة 1954م، وأقنعوا المناضلين بأن مصالي الحاج لا ينوي القيام بالعمل المسلح حقيقة، وأن هدفه الأول هو تطهير القيادة.

وأكد بوضياف أنه أعرب عن رغبته للدخول إلى الجزائر في بداية مارس 1954م، بقصد رد «العناصر الضالة» إلى طريق الصواب، أي الذين تأثروا بالدعاية المصالية وأخذوا يفكرون في الانحياز إلى رئيس الحزب، ولكن جوهر المهمة التي كان ينوي القيام بها هي الحيلولة دون انحياز العناصر الباقية من المنظمة الخاصة إلى صف المصاليين[1].

وبالفعل فقد اتصل بوضياف بزملائه في المنظمة الخاصة بعد عودته إلى الجزائر العاصمة أمثال مصطفى بن بولعيد، العربي بن مهيدي، ورابح بيطاط، وتدارس أعضاء المنظمة الخاصة فيما بينهم لعمل شيء ما، لوقف التصدع والانشقاق في الحزب، وإبعاد القاعدة النضالية عن الانقسام الخطير الجاري على مستوى القمة، ومن خلال هذا اللقاء انبثقت فكرة إنشاء «اللجنة الثورية للوحدة والعمل»، التي برزت إلى الوجود بصفة رسمية يوم 23 مارس 1954م[2].

وهكذا تم تكوين «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» من الحياديين أمثال محمد بوضياف، مسؤول التنظيم في فدرالية الحزب بفرنسا، ومصطفى بن بولعيد عضو اللجنة المركزية للحزب، ومن المركزيين وأعضاء اللجنة المركزية المناهضين لمصالي الحاج، وبشير دخلي عضو اللجنة المركزية للحزب، والمراقب العام للتنظيم بالحزب، وأكد محمد بوضياف أن مصالي الحاج وأنصاره قد استاؤوا من تنظيم اللجنة الثورية للوحدة والعمل.

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر، د . عمار بوحوش ص 350.

(2) محمد بوضياف، حوار جريدة الشعب الجزائرية 16 . 17 نوفمبر 1988م.

في الوقت الذي كانوا فيه على وشك الانتصار على أعضاء اللجنة المركزية لرئيس الحزب، وإعطائه قسماً من مالية الحزب، لتحضير المؤتمر الوطني للحزب خلال ثلاثة أشهر.

لقد كان ميلاد «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» بمثابة مبادرة قد يترتب عنها إعادة النظر في الانتصارات التي حققها المصاليون على اللجنة المركزية.

وقد تضمن إعلان «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» ما يلي:

. المحافظة على وحدة الحزب من خلال عقد مؤتمر موسّع وديمقراطي للحزب، وذلك لضمان الالتحام الداخلي والخروج بقيادة ثورية.

. دعوة المناضلين إلى التزام الحياد، وعدم الانضمام إلى أي فريق.

وكانت خطة بوضياف ومصطفى بن بولعيد تقوم على أساس الاستيلاء على القاعدة للبدء في الكفاح المسلح، وعملت اللجنة الثورية للوحدة والعمل على توحيد صفوف الحزب من جديد، ولكنها فشلت، وحافظت العناصر الثورية في اللجنة الثورية للوحدة والعمل على علاقتها بأعضاء اللجنة المركزية، إلى أن تأكدت أنها حققت إلى حد ما ما كانت تنتظره من هذه العلاقة، وهو تبليغ نداء الكفاح المسلح باعتباره الطريق الوحيد لحل مشاكل الجزائر، وعندئذ تقرر حل «اللجنة الثورية للوحدة والعمل»، والدعوة إلى اجتماع تحضره الشخصيات المؤيدة للعمل المسلح، وذلك بقصد دراسة الوضعية المترتبة عن الطريق المسدود الذي الت إليه اللجنة الثورية وتقرير ما ينبغي عمله[1].

1 . اجتماع الأعضاء 22 من الثوريين:

في يوم 25 جوان 1954م اجتمع الأعضاء 22 من الثوريين، الذين قرروا الانتقال إلى العمل المسلح، بعد أن عجزت قيادة حزبهم عن الانتقال من مرحلة النضال السياسي من خلال الانتخابات المحلية المزورة إلى مرحلة النضال العسكري، واسترجاع السيادة الجزائرية بقوة السلاح. وقد ترأس الاجتماع الذي انعقد بمنزل الياس دريش في المدينة بالجزائر العاصمة المناضل مصطفى بن بولعيد، بينما قام محمد بوضياف والعربي بن مهيدي وديدوش مراد بتقديم تقارير مختلفة عن تطور الحزب، والأزمة التي يتخبط فيها بالعبارات التالية: نحن الأعضاء السابقون في المنظمة الخاصة، ينبغي علينا أمام أزمة الحزب ووجود حرب تحرير بكل من تونس والمغرب أن نتشاور ونقرر ما ينبغي عمله مستقبلاً[2].

وبعد تقديم التقرير في الصباح، خصصت جلسة ما بعد الظهر لمناقشة محتواه. وقد تبين بعد الحوار الطويل بين الحاضرين، أن هناك من كان يفضل التريث في القيام بالثورة إلى أن يحين الوقت المناسب، ويكون هناك استعداد تام لخوض المعركة، بينما كان هناك قسم اخر يدعو إلى الشروع في العمل المسلح بسرعة.

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر، د . بوحوش ص 354.

(2) التاريخ السياسي للجزائر.

وبعد أخذ ورد قام المناضل سويداني بوجمعة، وألقى كلمة مؤثرة في الحاضرين وتساءل أمامهم: هل نحن ثوريون أم لا؟ وإذا كنا نزهاء مع أنفسنا فماذا ننتظر للقيام بالثورة؟

وانتهى بالمصادقة على اللائحة التالية:

. إدانة انقسام الحزب والمتسببين فيه.

. الإعلان عن عزيمة مجموعة من الإطارات على محو اثار الأزمة، وإنقاذ الحركة الثورية بالجزائر من الانهيار.

. ضرورة القيام بثورة مسلحة كوسيلة وحيدة لتحرير الجزائر، وتجاوز الخلافات الداخلية[1]. وتتكون لجنة 22 من المناضلين الاتية أسماءهم:

المنظمون الرئيسيون:

. محمد بوضياف «مولود بمسيلة».

. مصطفى بن بولعيد «مولود في اريس».

. العربي بن مهيدي «مولود بعين مليلة».

. مراد ديدوش «مولود بالجزائر».

. رابح بيطاط «مولود بالوادي».

المشاركون من منطقة العاصمة:

. عثمان بلوزداد «مولود بالجزائر العاصمة».

. محمد مرزوقي «مولود بالجزائر العاصمة».

. الزبير بوعجاج «مولود بالجزائر العاصمة».

. الياس دريش «صاحب المنزل . مولود بالعاصمة».

المشاركون من منطقة البليدة:

. بوجمعة سويداني «مولود بقالمة».

. أحمد بوشعيب «مولود بعين تموشنت».

المشاركون من منطقة وهران:

. عبد الحفيظ بوصوف «مولود بميلة».

. رمضان بن عبد الملك «مولود بقسنطينة».

المشاركون من منطقة قسنطينة:

. محمد مشاطي «مولود بقسنطينة».

. عبد السلام حباشي «مولود بعنابة».

. رشيد ملاح «مولود بالميلية».

(1) المصدر نفسه.

. السعيد بوعلي «مولود بالميلية».

المشاركون من شمال قسنطينة:

. يوسف زيغود «مولود بسمندو».

. لخضر بن طوبال «مولود بقسنطينة».

. عمار بن عودة «مولود بعنابة».

. مختار باجي «مولود بسوق أهراس».

المشارك الوحيد من جنوب قسنطينة:

. عبد القادر العمودي «مولود ببسكرة».

وبعد الانتهاء من النقاش والموافقة الجماعية على الشروع في العمل لانطلاق الثورة المسلحة، قام أعضاء مجموعة 22 بانتخاب محمد بوضياف بالاقتراع السري كمسؤول وطني، وكلف بتشكيل أمانة تنفيذية تتولى قيادة الحركة الثورية، وتطبيق القرارات التي اتخذتها مجموعة 22 في ذلك الاجتماع التاريخي بالمدينة.

وفي اليوم الثاني قام بوضياف بتشكيل الأمانة التنفيذية من نفس المسؤولين الذين يرجع إليهم الفضل في تنظيم الاجتماع وهم: بوضياف رئيساً، والأعضاء الأربعة: العربي بن مهيدي، مصطفى بن بولعيد، مراد ديدوش، ورابح بيطاط[1].

2 . اللجنة الخماسية:

وفي أول اجتماع للجنة الخماسية وهم: بوضياف، والعربي بن مهيدي، ومصطفى بولعيد، ومراد ديدوش، ورابح بيطاط، وكان في حي القصبة بالجزائر العاصمة في منزل عيسى كيشيدة «شارع بربروس»، عقدت الأمانة التنفيذية اجتماعها الأول، ودرس الأعضاء الخمسة لمجموعة «22» اللائحة المصادق عليها في اجتماع 25 جوان 1954م، ووضعوا قانوناً داخلياً للجنة، وقرروا ما يلي:

. تقوية المنظمة الجديدة عن طريق ضم الأعضاء السابقين في المنظمة الخاصة وهيكلتهم في التنظيم الثوري الجديد.

. استئناف التكوين العسكري اعتماداً على كتيّبات المنظمة الخاصة التي أعيد طبعها.

. تنظيم الفِرَق التي تتولى جمع السلاح وصنع المفرقعات اللازمة للثورة المسلحة[2].

كما تم في ذلك الاجتماع الأول توزيع المهام بين أعضاء اللجنة الخماسية، والتعهد بمواصلة العمل كقيادة جماعية، وذلك حتى لا تتكرر الأخطاء التي أدت إلى انقسام الحزب بسبب النزعة الفردية للمسؤولين في القمة. وتقرر في ذلك الاجتماع كذلك تكليف مراد ديدوش، بصفته مسؤولاً عن منطقة العاصمة، أن يتصل بجماعة

---

(1) المصدر نفسه ص 356.

(2) محمد بوضياف في حديثه مع محمد عباس، المنشور بجريدة الشعب الجزائرية بتاريخ 16، 17 نوفمبر 1988م.

القبائل الكبرى ويحاول إقناعهم بالانضمام إلى مجموعة 22، حتى تكون الثورة عارمة ويصعب على فرنسا أن تحتويها وتقضي عليها في المهد إذا كانت منحصرة في منطقة واحدة.

وأما القوة الثانية التي كانت مؤيدة للثورة، ولكنها لم تكن مشاركة في لقاء 22 فهي منطقة القبائل الكبرى، وكان قائدها كريم بلقاسم من أعضاء «اللجنة الثورية للوحدة والعمل»، ويميل إلى رئيس الحزب مصالي الحاج، الذي كان ينادي بالعمل من أجل الثورة لكن بدون مشاركة أعضاء اللجنة المركزية. كما أن كريم بلقاسم كان متحفظاً من محمد بوضياف وأعضاء اللجنة الثورية، وذلك بسبب وجود علاقة قوية تربطهم باللجنة المركزية للحزب، ولذلك أرسل وفداً إلى مؤتمر بلجيكا لتمثيل منطقة القبائل الكبرى في مؤتمر المصاليين، الذي انعقد في الفترة الممتدة من 14 إلى 17 جوان 1945م.

لكن كريم بلقاسم وجماعته الذين كانوا يؤيدون فكرة القيام بعمل مسلح بدؤوا يغيرون فكرتهم عن أعضاء «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» بعد أن اجتمعوا في يوم 25 جوان 1954م وقرروا الشروع في العمل المسلح، وابتدأت الاتصالات في الحقيقة تجري بين أعضاء «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» وبين كريم بلقاسم وجماعته في شهر ماي من عام 1954م، وذلك بواسطة الهاشمي حمود. وبعد اجتماع 22 تقرر إرسال ديدوش مراد للتباحث مع كريم بشأن الانضمام إلى مجموعة الثوريين، ولكنه لم يوفق في مهمته أيضاً، فتقرر انذاك إرسال مصطفى بن بولعيد الذي استطاع أن يقنع كريم بلقاسم وجماعته بحضور اجتماعات قيادة الثورة، على أن يقرروا عقب ذاك ما يشاؤون. وارتاح كريم بلقاسم لهذه الفكرة[1].

3 . اللجنة السادسية:

شارك كريم بلقاسم في اجتماع قادة مجموعة 22 برفقة عمر أوعمران، واستمع إلى تدخلات مسؤولي النواحي، وخرج بفكرة طيبة عن مجهودات الثوريين لبدء العمل المسلح، واقتناع بجدية الجماعة التي تحاول إقناع كريم بلقاسم ورفيقه عمر أوعمران بتضخيم الإمكانيات حيث لا ينفع التضخيم؟

وفي نفس الوقت استطاع كريم بلقاسم أن يلتقي ويتباحث مع مولاي مرباح، الرجل الثاني في حركة مصالي، لكن مولاي مرباح عامله بخشونة وجفاء وسأله بلهجة حادة: ما مصير النظام في منطقة جرجرة؟ وماذا كنتم تفعلون منذ 6 شهور؟ ولماذا هذا التقارب مع عناصر ندد بها رئيس الحزب؟ ثم طلب منه بلهجة امرة: ينبغي أن تترك هذه الجماعة[2].

وأكد محمد بوضياف أنه كان يدرك أهمية انضمام منطقة القبائل إلى مجموعة 22، ولذلك قررت اللجنة الخماسية المنبثقة عن مجموعة 22 تحرير استبيان وتقديمه إلى كريم بلقاسم، لكي يعرضه على المصاليين والمركزيين في ان واحد. وخلاصة هذا الاستبيان الاتي:

. هل أنتم مع الثورة؟ وإلا لماذا؟

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر، بوحوش ص 358.

(2) محمد عباس مع المناضل بلقاسم كريم «أسد جرجرة»، الشعب الجزائرية عدد 12، 26 ديسمبر 1988م.

. ما هو نوع المساعدة التي يمكن أن تقدموها للثورة في حالة اندلاعها؟

. كيف يكون موقفكم إذا اندلعت الثورة من خارج صفوفكم؟

وكان رد المصاليين هو رفض المبادرة، ووصف أصحابها بالديماغوجية والعمل الانقسامي. وأما المركزيون فكان جوابهم: نعم للثورة ولكن ليس في الحين. وانذاك اقتنع كريم بلقاسم بصواب رأي الثوريين، وتخلى عن تحفظاته إزاءهم، وقبل الانضمام إلى اللجنة الخماسية المنبثقة في مجموعة 22، وسمح له بإطلاع نائبه أوعمران على كل القرارات التي تتخذها قيادة الثوريين[1].

وأما المجموعة الثالثة التي لم تشارك أيضاً في اجتماع 22 وكانت مؤيدة للعمل المسلح ؛ فهي مجموعة الوفد الخارجي للحزب التي استقرت بالقاهرة. ويتكون الوفد الخارجي من محمد خيضر وأحمد بن بلة وايت أحمد، وإذا كان بن بلة هو المسؤول عن شراء السلاح وتزويد الثورة بما تحتاجه من مؤونة وذخيرة، فإن محمد خيضر كان هو المسؤول السياسي ويساعده ايت أحمد، وباختصار فقد عقد القادة الستة سلسلة من الاجتماعات ابتداء من شهر سبتمبر 1954م، وقاموا بمناقشة الترتيبات الأساسية لإعلان الثورة، وفي النهاية اتفق القادة الستة على ما يلي:

. تسمية المنظمة السياسية «جبهة التحرير الوطني الجزائري».

. تسمية المنظمة العسكرية بـ «جيش التحرير الوطني الجزائري».

. اللامركزية في العمل، نظراً لاتساع الجزائر وصعوبة قيام جهاز مركزي بتسيير الثورة تسييراً فعالاً، وخاصة في وقت صعبت فيه الاتصالات.

. ترك حرية العمل في البداية لكل منطقة حتى يحين موعد عقد مؤتمر وطني في المستقبل.

. نظراً لفشل الأحزاب في توحيدهم، واستحالة الاتفاق على من يقود حركة التحرير ؛ فقد تقرر خلق جبهة جديدة ينضم إليها الأشخاص بصفة فردية إذا كانوا متفقين مع أهدافها وتوجيهاتها.

. اعتبار يوم 15 أكتوبر هو انطلاق عملية تحرير الجزائر، إلا أن هذا اليوم تغير إلى أول نوفمبر 1954م بعد أن تسرب وقت إعلان الثورة.

. إعطاء الأولوية للداخل، لأن الوفد الخارجي يقتصر دوره على شراء السلاح والذخيرة والقيام بالدعاية، والقرارات تنبع من القادة المحاربين داخل الجزائر.

. توزيع المسؤوليات في داخل الجزائر كالتالي:

المنطقة الأولى: بقيادة مصطفى بن بولعيد ونائبه بشير شيهاني.

المنطقة الثانية: بقيادة مراد ديدوش ونائبه يوسف زيغود.

المنطقة الثالثة: بقيادة كريم بلقاسم ونائبه عمر أوعمران.

المنطقة الرابعة: بقيادة رابح بيطاط ونائبه بوجمعة سويداني.

---

(1) محمد بوضياف في حديث مع محمد عباس، المنشور في جريدة الشعب بتاريخ 16 . 17 نوفمبر 1988م.

المنطقة الخامسة: بقيادة العربي بن مهيدي ونائبه عبد الحفيظ بوصوف.

المنطقة السادسة: تعين قيادتها فيما بعد.

وأما فيما يتعلق برئيس اللجنة الذي هو محمد بوضياف، فقد تقرر أن يلتحق بالقاهرة ويتصل بالوفد الخارجي، حيث يزوده بالوثائق اللازمة لإعلان الثورة وإذاعة بيان أول نوفمبر على أمواج «صوت العرب» من القاهرة، غير أن إجراءات الحصول على التأشيرة من سفارة مصر بسويسرا جعلته يتأخر ولا يصل إلى
القاهرة إلا يوم 2 نوفمبر 1954م. ومع ذلك فقد تمكن من إرسال بيان أول نوفمبر بالبريد السريع إلى القاهرة، وأذيع في الوقت المحدد له، ولكي لا تتسرب المعلومات عن بيان أول نوفمبر 1954م، قرر قادة الولاية الثالثة فرض رقابة على الصحفي محمد العيشاوي، الذي تولى طباعة وسحب بيان أول نوفمبر بعد أن قام بتحريره محمد بوضياف ومراد ديدوش[1].

وفي يوم 10 أكتوبر، ويوم 24 أكتوبر 1954م عقد أعضاء اللجنة الستة الاجتماعين الأخيرين قبل قيام الثورة، وفيهما تقرر تسمية المنظمة الثورية الجديدة جبهة التحرير الوطني الجزائري، وفتح باب العضوية فيها لكل من يرغب في المساهمة في تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي. أي أن الانضمام يكون فردياً وليس حزبياً، كما تمت الموافقة في هذين الاجتماعين على جميع الترتيبات الخاصة بالشروع في العمل الثوري.

وبإيجاز، فإن اللجنة التي تضم 6 أعضاء قد قررت الشروع في العمل الثوري صبيحة يوم الأحد أول نوفمبر 1954م، ثم بعد ذلك يتم تنظيم الثورة وهياكلها وتكييف مؤسساتها. وحسب رأي لخضر بن طوبال، وهو من مجموعة 22 الذين ساهموا في الإعداد للثورة المسلحة، فإن الثوريين قد فكروا جيداً في مسألة التحضير الجيد للثورة وأخذ الوقت الكافي لذلك، بحيث يتم تجنب أي فشل محتمل لها. لكن في الأخير استقر الرأي على الشروع في العمل الثوري حالاً، ثم يأتي التنظيم فيما بعد، لأن انتهاء الحرب في الهند الصينية، وتفاوض فرنسا مع تونس والمغرب من جهة أخرى؛ قد ينتج عنهما تمركز القوات الفرنسية بالجزائر.

وعليه فإن قرار الثوريين كان هو «الكفاح المسلح في أسرع وقت بالوسائل المتوفرة»، ونفس الحقيقة أكدها محمد بوضياف عندما قال بأنه لم تكن لدينا صورة دقيقة عن كيفية العمل، لكن الشيء الواضح في أذهاننا هو الشروع في العمل حالاً من أجل نيل الاستقلال والإطاحة بالكيان الاستعماري[2].

ويبدو أن قيادة اللجنة الثورية لجبهة التحرير الوطني قد وضعت استراتيجية بسيطة في الاجتماع الأخير ببولوغين يوم 24 أكتوبر 1954م، وخلاصتها وضع الجميع أمام الأمر الواقع، أي الشروع في حرب التحرير، ومن لا يتقدم للمساهمة فيها يعتبر غير وطني، وتحقيقاً لهذا الهدف افترق القادة الستة في الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر 1954م، والتحق كل واحد بالمنطقة التي يرأسها وتنطلق منها العمليات العسكرية في ليلة الأحد أي

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر، د . عمار بوحوش ص 361.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 362.

اليوم الأول من نوفمبر 1954م، على أن يلتقي الجميع في شهر جانفي 1955م في القاهرة لمراجعة استراتيجية العمل الثوري[1].

أما رئيس اللجنة الثورية لجبهة التحرير الوطني الجزائري السيد محمد بوضياف، فقد سافر إلى سويسرا يوم 27 أكتوبر 1954م حيث كان من المفروض أن ينقل بيان أول نوفمبر إلى الوفد الخارجي للجبهة بالقاهرة ويذيعه من هناك، وفي نفس الوقت كان عنده موعد بسويسرا مع أصدقائه من اللجنة المركزية للحزب، محمد يزيد وحسين لحول، ومع فيلالي مبارك وأحمد مزغنة من حزب مصالي الحاج، والمفروض أن يتوجه الجميع إلى القاهرة وتقع المصالحة النهائية بين الجميع، وعندما تندلع الثورة في أول نوفمبر 1954م سيجد هؤلاء أنفسهم أمام الأمر الواقع، وما عليهم إلا الاختيار بين الالتحاق بالثورة، أو بطلان ادعاءاتهم بأنهم يحبذون العمل من أجل استقلال الجزائر[2].

4 . ماذا وقع لقادة الثورة بعد انطلاقها:

أ . قائد المنطقة الأولى:

فيما يخص قائد المنطقة الأولى مصطفى بن بولعيد، فقد اجتمع بمساعديه وطلب من كل واحد منهم أداء اليمين على كتمان السر، ثم أطلعهم على تاريخ وساعة اندلاع الثورة، وقرأ عليهم بيان أول نوفمبر باللغتين العربية والفرنسية، وفي ذلك الاجتماع تم تحديد المراكز التي تشن عليها هجومات المجاهدين ليلة الفاتح من نوفمبر 1954م.

وقد قال مصطفى بن بولعيد لقادة العمليات العسكرية أن قيادة الثورة تعلق امالاً كبيراً على المجاهدين في المنطقة الأولى بحكم أن هناك أسلحة متوفرة في تلك الناحية، وتنتظر منها الصمود لمدة ستة أشهر ريثما تلتحق المناطق الأخرى بركب الثورة، وأكد لهم مصطفى بن بولعيد بأنه وعد قادة الثورة بالصمود لمدة 18 شهراً[3].

وكما كان مخططاً فقد تمكنت أفواج المجاهدين من ضرب الأهداف المحددة في الساعة الواحدة من صبيحة أول نوفمبر 1954م، إلا أن المشكل الكبير الذي واجه مصطفى بن بولعيد هو مشكل السلاح الذي كان ينقص كثيراً، ولهذا قرر أن يتولى بشير شيهاني نائبه قيادة المنطقة، ويتوجه في شهر جانفي 1955م إلى تونس ثم إلى ليبيا لجلب السلاح، وبحث هذه المسألة مع أعضاء الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني الجزائري، لكنه وقع في الأسر يوم 11 فبراير 1955م على الحدود الليبية التونسية، وتم نقله إلى تونس حيث تم استنطاقه وتحويله إلى سجن الكدية بقسنطينة، حيث تمت محاكمته وإصدار حكم الإعدام عليه، إلا أنه تمكن من الهروب من سجن قسنطينة يوم 4 نوفمبر 1955م رفقة الطاهر الزبيري والعيفة مغلاوي، وعاد إلى الأوراس لاستئناف الكفاح، حيث اطلع على مأساة حصلت في غيابه، وهي اغتيال نائبه بشير شيهاني من طرف مجموعة من

(1) المصدر نفسه ص 362.
(2) أحمد بوشعيب في حديث مع محمد عباس، جريدة الشعب، 30 مارس 1987م.
(3) التاريخ السياسي للجزائر ص 363.

زملائه في الكفاح، إلا أن المخابرات الفرنسية تمكنت من اغتياله يوم 27 مارس 1956م بعد أن أرسلت إليه جهازاً للاتصال انفجر في وجهه عندما كان يجري تجارب عليه بقصد استعماله[1].

ب . قائد المنطقة الثانية:

وأما القائد الثاني، مراد ديدوش ونائبه يوسف زيغود، فقد تمكنا من القيام بعمليات عسكرية رائعة ليلة الفاتح من نوفمبر 1954م، وقد كان ديدوش مراد من أكبر المخططين للثورة، ونجح إلى حد بعيد في تنشيط عمليات القتال بالمنطقة الثانية، وذلك بقصد تخفيف الضغط على منطقة الأوراس. وفي يوم 18 يناير «جانفي» 1955م تمكنت القوات الفرنسية من التعرف على مكانه، فقامت قوات من المظليين الفرنسيين بمحاصرته وأصابته برصاصات قاتلة، عندما كان يواجه القوات الفرنسية بقصد إعطاء فرص لجنوده للانسحاب بسرعة، ثم خلفه في القيادة زيغود يوسف الذي يرجع إليه الفضل في القيام بعمليات 20 أوت 1955م، وتخفيف الضغط على منطقة الأوراس، وكذلك يرجع إليه الفضل في عقد مؤتمر الصومام يوم 20 أوت 1956م، حيث اقترح على كريم بلقاسم وعبان رمضان عقد مؤتمر وطني للثورة الجزائرية، ووضع نظام جديد يوحد بين مختلف المناطق، ويستجيب للتطورات التي تعيشها مسيرة الثورة.

وبعد النجاح الذي حققه زيغود يوسف في مؤتمر الصومام، وتشكيل مجلس وطني للثورة ولجنة التنسيق والتنفيذ المنبثقة عنه، تقرر أن يتوجه عمار بن عودة إلى تونس لحل مشكلة السلاح، وأن يتوجه زيغود يوسف رفقة إبراهيم مزهودي إلى منطقة الأوراس، لحل بعض المشاكل التي برزت بعد استشهاد مصطفى بن بولعيد قائد تلك المنطقة، وفي يوم 26 سبتمبر 1956م وقع في كمين نصبه له العدو، وقاتل إلى أن استشهد[2].

ج . المنطقة الثالثة:

أما قائد المنطقة الثالثة، كريم بلقاسم ونائبه عمر أوعمران، فقد توفقا في المساهمة في عمليات التحرير منذ البداية حتى النهاية. وفي فاتح نوفمبر 1954م كان كريم بلقاسم يوجه العمليات العسكرية من مقر قيادته في قرية إيغيل إيمولا، وفي يوم 26 جانفي 1955م بعث بنائبه عمر أوعمران لمقابلة عبان رمضان في «عزوزة» قرب عين الحمام، وذلك بقصد تجنيده للعمل الثوري، وبعد اتصالات عديدة التقى كريم بلقاسم ورابح بيطاط مع عبان رمضان في الجزائر، ووافقا على تكليفه بمهام معينة، وبالتعاون مع ياسف السعدي، لكن بعد إلقاء القبض على رابح بيطاط يوم 23 مارس 1955م بالجزائر العاصمة، شعر كريم بلقاسم بحزن شديد، لأن عدم وجود قيادة ثورية قوية بالعاصمة سوف يحدث خللاً كبيراً في مسيرة الثورة.

وعليه فقد قرر تعيين عبان رمضان مسؤولاً عن الجزائر العاصمة، ونائبه عمر أو عمران مسؤولاً عن المنطقة الرابعة التي هي ناحية الجزائر وما جاورها من مدن قريبة منها، ثم قام عبان رمضان بدوره بتعيين بن يوسف بن

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 364.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 364.

خدة وسعد دحلب ومحمد بجاوي في مراكز مسؤولية كبيرة بالجبهة، كما قام بتدعيم ياسف السعدي وشجعه على القيام بأعمال الكومندوس في الجزائر العاصمة.

وفي نفس الوقت قام كريم بلقاسم بمساعدة عبان رمضان بالعمل من أجل انضمام قادة الحركات السياسية الوطنية إلى جبهة التحرير الوطني الجزائري، ولم يتخلف عن ذلك إلا الحركة الوطنية الجزائرية التي يرأسها مصالي الحاج، فقد انضم إلى الجبهة فرحات عباس والأمين دباغين والشيخ أحمد توفيق المدني، والشيخ محمد خير الدين، ثم الصادق هجريس من الحزب الشيوعي الجزائري.

وعندما انعقد مؤتمر الصومام يوم 20 أوت 1956م، وتقرر إنشاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية ولجنة التنسيق والتنفيذ المنبثقة عنه، تم تعيين كريم بلقاسم بلجنة التنسيق والتنفيذ، بصفته قائد عام لجيش التحرير الوطني الجزائري، وخلفه في منصبه العقيد محمد السعيد. وعليه فقد انتقل كريم إلى العاصمة، لكي ينسق مع زملائه في لجنة التنسيق والتنفيذ بين الولايات الستة التي أقرها مؤتمر الصومام.

وعندما استحال العمل في العاصمة في مطلع 1957م، قرر أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ يوم 25 فيفري 1957م الخروج من العاصمة، حتى لا تنطفأئ شعلة الثورة في حالة إلقاء القبض على قادة الجبهة في الداخل. وإذا كان القائد الكبير للثورة العربي بن مهيدي قد تم إلقاء القبض عليه في ذلك اليوم، فإن كريم بلقاسم ومعه بن يوسف بن خدة قد تمكنا من الذهاب إلى تونس، ثم القاهرة وواصلاً عملهما في الخارج إلى غاية 1962م[1].

كان كريم بلقاسم مؤمناً إيماناً عظيماً بالثورة ضد المحتلين، ومن أقواله إلى المجاهدين الذين جمعهم له مساعده علي زعموم بين إيغل إيمولة وذراع الميزان، بعد مدة من انطلاق الحوادث الأولى، وذلك في معصرة قرب ايت عيسى، وكانت المواصلات صعبة ومنقطعة والأسلحة قليلة ونادرة، فقال لهم: اليوم راحة وأريد أن أحدثكم واحداً واحداً، جئتم للثورة عن اختيار واقتناع وإدراك، وقبلتم أن تغادروا الجميع عائلاتكم وأعمالكم، وأعاهدكم بأننا سنحرر البلاد، إنه عمل لا رجعة فيه، أخذتم قراراً خطيراً عندما التحقتم بنا، ولا بد من الذهاب إلى اخر المشوار، إما التحرير أو التضحية الكاملة. إنني أعلم أن هناك حاجة تشغلكم ؛ وعدناكم بالأسلحة ولكنها لا توجد هنا إنها حقيقة، يمكن أن نتهم إخواننا في الأوراس أو في الخارج، وبإمكانكم أنتم أن تتحققوا من ضخامة القمع.

إن الأسلحة يمكن أن تكون قد حجزت في الطريق في بعض الأماكن من طرف القوات الاستعمارية أثناء توجيهها إلينا، وأمامنا جيش عسكري قوي يتزود باستمرار بالعتاد، ونحن لا نملك شيئاً فماذا نفعل؟ قولوا أنتم، البعض يحارب باسلحة متوسطة أحسن منا وبإرادة لا تحدّ، وفي بعض ثورات التحرير هناك بندقية واحدة لاثني عشر رجلاً يربطونها بحبل ويحارب بها الواحد حتى يسقط، فيسحبها اخر بالحبل ليحارب بها، وهكذا. فكروا جيداً، وبإمكانكم أن تفكروا فينا نحن رؤساءكم الذين وعدناكم بالأسلحة، ونحن هنا معكم وبينكم

---

(1) المصدر نفسه.

ومن جملتكم في الجبل، نخوض معاً وجميعاً الحرب بالأسلحة التي لدينا والتي سوف نغنمها من العدو، وقلت لكم إنها التضحية الكاملة وإلى النهاية سنضحي حتى نغنم الأسلحة في الجبهة، وسنسحق الضباط الذين يقولون ويزعمون أننا جبناء ومخنثون نخاف أن نهاجمهم، وسيكونون مسرورين عندما يجدوننا أمامهم ليقضوا علينا جميعاً مادامت القوة غير متكافئة، ولكي ننجح لا بد من أن نطهر منطقتنا من الوشاة والأعوان الفرنسيين[1].

د . المنطقة الرابعة:

أما بالنسبة لقائد المنطقة الرابعة، رابح بيطاط ونائبه بوجمعة سويداني، فقد حاول الأول تنظيم مجموعة الفدائيين التي تقوم بالعمليات العسكرية في الساعات الأولى من صبيحة أول نوفمبر 1954م، لكنه اصطدم بمشكلة عويصة وهي أن مجموعة المناضلين بالبليدة قد رفض أعضاؤها المشاركة في العمليات العسكرية، وذلك نتيجة لبعض الاتصالات التي أجراها معهم زعيم المركزيين هناك لحول حسين على ما يبدو، ولذلك اضطر كريم بلقاسم أن يبعث بنائبه عمر أوعمران لكي يشارك في عمليات الفاتح نوفمبر بمدينة البليدة ويتعاون مع سويداني بوجمعة.

أما بيطاط قد شارك مع زميله أحمد بوشعيب، فقد قاما بالهجوم على ثكنة بيزو بمدينة البليدة، وفي يوم 23 مارس 1955م تمكنت القوات الفرنسية من إلقاء القبض على رابح بيطاط، وحكمت عليه محكمة فرنسية يوم 16 أفريل 1955م بالأشغال الشاقة، وفي شهر ماي من عام 1961م تم نقله إلى السجن الذي يتواجد فيه الزعماء الخمسة في فرنسا، وبقي هناك مسجوناً حتى 20 مارس 1962م حيث تم إطلاق سراحه.

أما نائبه سويداني بوجمعة الذي كان مسؤولاً عن الشريعة، فقد استشهد يوم 16 أفريل 1956م في معركة مع رجال الدرك الفرنسيين[2].

هـ المنطقة الخامسة:

وفيما يختص المنطقة الخامسة «ناحية الغرب الجزائري» التي أسندت رئاستها إلى العربي بن مهيدي ونائبه عبد الحفيظ بوصوف، فقد كانت فيها العمليات العسكرية صعبة في البداية، وذلك بسبب قلة السلاح والمؤونة، إلا أن بن مهيدي تمكن من تنظيم عملية تهريب السلاح من المغرب وإسبانيا وتسريبه إلى ناحية الغرب الجزائري، وبذلك استطاعت الثورة أن تعم أنحاء الجزائر كلها، ولم تبق منحصرة في الأوراس أو جرجرة.

وبعد إلقاء القبض على رابح بيطاط في بداية 1955م ووجود فراغ في قيادة العاصمة، جاء العربي بن مهيدي إليها ليساهم في تنظيمها والعمل على نجاح العمل الفدائي فيها، وفي مؤتمر الصومام في أوت 1956م، ترأس جلساته وأشرف على تنظيم المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وساهم في تكوين لجنة التنسيق والتنفيذ التي كان عضواً بها. وقد كان العربي بن مهيدي هو المسؤول عن العمل الفدائي بلجنة التنسيق والتنفيذ، إلا أن قوات

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 366.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 366.

الجنرال «ماسو» قد تمكنت من إلقاء القبض عليه صدفة يوم 25 فيفري 1957م في الجزائر العاصمة، وذلك عندما كانت تبحث عن بن خدة، وقد قدم للمحاكمة وحكمت عليه محكمة فرنسية بالإعدام الذي نفذ فيه يوم 4 مارس 1957م[1].

5 . بيان أول نوفمبر 1954م:

وُزّع البيان داخلياً وخارجياً، وكانت إذاعة صوت العرب من القاهرة أول من بثه على أمواجها إلى العالم الخارجي في اليوم الموعود، وهو يتضمن في خطوطه العامة إشعار الشعب الجزائري بأن الوقت قد حان للشروع في الكفاح من أجل التحرر الوطني، علماً بأن الشعب الجزائري كان مهيأ نفسياً ومترقباً لهذا الحدث الكبير بفارغ الصبر، مثلما تبين فيما بعد، مما يؤكد مقولة القائد الكبير محمد العربي بن مهيدي الذي قال في اجتماع «22» قولته المأثورة « ارموا الثورة للشعب فإنه سيحتضنها».

وقد ساعد على ذلك أن الوضعية الخارجية الإقليمية والدولية كانت ملائمة مغاربياً وعربياً وإسلامياً ودولياً، وخاصة وأن الكفاح التحريري كان قد بدأ في المغرب وتونس قبل ذلك بعدة شهور[2].

وهذا نص البيان:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

نداء إلى الشعب الجزائري

أيها الشعب الجزائري:

أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية:

أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا . نعني الشعب بصفة عامة والمناضلين بصفة خاصة . نعلمكم أن غرضنا من نشر هذا الإعلان هو أن نوضح لكم الأسباب العميقة التي دفعتنا إلى العمل، بأن نوضح لكم مشروعنا والهدف من عملنا ومقومات وجهة نظرنا الأساسية، التي دفعتنا إلى الاستقلال الوطني في إطار الشمال الأفريقي، ورغبتنا أيضاً هو أن نجنبكم الالتباس الذي يمكن أن توقعكم فيه الإمبريالية وعملاؤها الإداريون وبعض محترفي السياسة الانتهازية.

فنحن نعتبر قبل كل شيء أن الحركة الوطنية . بعد مراحل من الكفاح . قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية، فإذا كان هدف أي حركة ثورية . في الواقع . هو خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية تحريرية، فإننا نعتبر الشعب الجزائري في أوضاعه الداخلية متحداً حول قضية الاستقلال والعمل.

أما في الأوضاع الخارجية، فإن الانفراج الدولي مناسب لتسوية بعض المشاكل الثانوية التي من بينها قضيتنا، التي تجد سندها الدبلوماسي، وخاصة من طرف إخواننا العرب والمسلمين.

---

(1) المصدر نفسه ص 367.

(2) جهاد الجزائر، د . أحمد بن نعمان ص 21.

إن أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد، فهي تمثل بعمق مراحل الكفاح التحريري في شمال أفريقيا، ومما يلاحظ في هذا الميدان أننا منذ مدة طويلة أول الداعين إلى الوحدة في العمل، هذه الوحدة التي لم يُتح لها مع الأسف التحقيق أبداً بين الأقطار الثلاثة، إن كل واحد منها اندفع اليوم في هذا السبيل، أما نحن الذين يقينا في مؤخرة الركب، فإننا نتعرض إلى مصير من تجاوزته الأحداث، وهكذا فإن حركتنا الوطنية قد وجدت نفسها محطمة نتيجة لسنوات طويلة الأحداث، الأمر الذي جعل الاستعمار يطير فرحاً ظناً منه أنه قد أحرز أضخم انتصاراته في كفاحه ضد الطليعة الجزائرية.

إن المرحلة خطيرة:

أمام هذه الوضعية التي يُخشى أن يصبح علاجها مستحيلاً، رأت مجموعة من الشباب المسؤولين المناضلين الواعين، التي جمعت حولها أغلب العناصر التي لا تزال سليمة ومصممة ؛ أن الوقت قد حان لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص والتأثيرات، لدفعها إلى المعركة الحقيقية الثورية إلى جانب إخواننا المغاربة والتونسيين.

وبهذا الصدد فإننا نوضح بأننا مستقلون عن الطرفين اللذين يتنازعان السلطة، إن حركتنا قد وضعت المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات التافهة والمغلوطة لقضية الأشخاص والسمعة.

ولذلك فهي موجهة فقط ضد الاستعمار، الذي هو العدو الوحيد الأعمى، الذي رفض أمام وسائل الكفاح السلمية أن يمنح أدنى حرية.

ونظن أن هذه أسباب كافية لجعل حركتنا التجديدية تظهر تحت اسم:

جبهة التحرير الوطني وهكذا نتخلص من جميع التنازلات المحتملة، ونتيح الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية أن تنضم إلى الكفاح التحرري دون أدنى اعتبار اخر.

الهدف الاستقلال الوطني بواسطة:

- إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادأئ الإسلامية.
- احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني.

الأهداف الداخلية:

- التطهير السياسي بإعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي، والقضاء على جميع مخلفات الفساد وسياسة التقارب مع الاستعمار، وهي سبب تخلفنا الحالي.
- جمع وتنظيم جميع الطاقات الحية من الشعب الجزائري للقضاء على النظام الاستعماري.

أهدافنا الخارجية:

. تدويل القضية الجزائرية.
. تحقيق وحدة شمال أفريقيا في إطاره العربي الإسلامي الطبيعي.
. في إطار ميثاق الأمم المتحدة التعبير عن تعاطفنا مع جميع الأمم التي تساند كفاحنا التحرري.
وسائل الكفاح:
طبقاً للمبادأئ الثورية ونظراً للظروف الداخلية والخارجية مواصلة الكفاح بجميع الوسائل حتى تحقيق هدفنا، وللوصول إلى هذه الغاية ؛ فإن جبهة التحرير الوطني ستقوم بمهمتين أساسيتين في نفس الوقت: نشاط مكثف في الميدان السياسي في الداخل وفي الخارج، لجعل القضية الجزائرية حقيقة ملموسة في العالم كله بمساعدة حلفائنا الطبيعيين.
إنها مهمة ثقيلة تتطلب تجنيد جميع الطاقات في البلاد. سيكون الكفاح طويلاً ولكن النتيجة محققة في الأخير. ولتفادي التأويلات المغرضة، ولنبرهن على رغبتنا في السلم وفي تجنب مزيد من الخسارات البشرية ؛ فإننا نقدم قاعدة مشرّفة للتفاوض مع السلطات الفرنسية إذا كانت نيتها سليمة وتعترف بصفة نهائية للشعوب بحقها في تقرير مصيرها:
. الاعتراف بالأمة الجزائرية في تصريح رسمي يلغي جميع التدابير التي جعلت الجزائر أرضاً فرنسية متناسية التاريخ والجغرافيا واللغة والدين وتقاليد الشعب الجزائري.
. فتح مفاوضات مع ممثلي الشعب الجزائري الحقيقيين.
. إحداث جو من الثقة بإطلاق سراح جميع المسجونين السياسيين، وبإلغاء جميع التدابير الاستثنائية، وبوقف جميع المتابعات القضائية.
وفي المقابل:
. فإن المصالح الفرنسية الثقافية والاقتصادية المكتسبة بصفة نزيهة تكون مضمونة مع احترام الأشخاص والعائلات.
. جميع الفرنسيين الذين يرغبون في البقاء في الجزائر يكون لهم الخيار بين المحافظة على جنسيتهم الأصلية ويصبحون أجانب، وبين الجنسية الجزائرية. وفي هذه الحالة يتمتعون بجميع الحقوق والواجبات.
. العلاقات بين الجزائر وفرنسا ستحدد في اتفاق بين الطرفين على أساس المساواة والاحترام.

أيها الجزائري:
إننا ندعوك إلى اعتبار ميثاقنا هذا. واجبك أن تنضم إليه لإنقاذ بلادنا واسترجاع حريته، إن جبهة التحرير الوطني هي جبهتك وانتصارها هو انتصارك، أما نحن فإننا مصممون على مواصلة الكفاح، ولنا اليقين بأنك تبغض الاستعمار، وإننا نضحي بأنفسنا في سبيل الوطن.
الجزائر في فاتح نوفمبر 1954م

الأمانة الوطنية[1]

6 . تعليق وتحليل واستنتاج على بيان نوفمبر:

إن البيان يحدد الأهداف المسطرة للثورة الجزائرية بلغة واضحة لا يشوبها أي إبهام، ولا تقبل أي تأويل أو تضليل، حيث يقول بأن الهدف من قيامها هو تحقيق الاستقلال الوطني بواسطة:

. إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادأئ الإسلامية «غير الشرعية وغير اللائكية».

. تحقيق وحدة شمال إفريقيا في إطارها الطبيعي العربي الإسلامي. ونلاحظ هنا الإعلان الصريح عن الانتماء الطبيعي والهوية الوطنية ذات الأصل الثقافي والبعد الجغرافي والطبيعي العربي الإسلامي، وليس الإفريقي أو المتوسطي أو حتى النوميدي، فضلاً عن الروماني أو اللاتيني أو الفرنكوفوني.

. احترام جميع الحريات الأسياسية دون تمييز عرقي أو ديني، وهو ما يعني صراحة أن البيان النوفمبري الوحدوي والسيادي يقر حرية الاعتقاد وتعدد الأديان داخل المجتمع، كما هو شأن كل البلاد الإسلامية في العالم، وكما يقره الإسلام ذاته حيث يقرّ مبدأ {لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ} [سورة البقرة:256.

. تفادياً لاحتمالات المستقبل الذي قد يخبئه للدولة المستقلة ؛ يطالب البيان بحس وطني منقطع النظير، بالاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية، ملغية بذلك كل القرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضاً فرنسية التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري.

ونعتقد أن هذا الرفض القاطع للجنسية الفرنسية وهويتها اللغوية والدينية والثقافية من أصحاب البيان، والذي يصرح فيه الثوار بأن للجزائر هوية وشخصية متميزة تتكامل فيها كل المقومات التاريخية والجغرافية واللغوية والدينية والثقافية التي تجعلها غير فرنسية، وتمدّ بالتالي أبناءها المجاهدين وقادتها السياسيين بمشروعية المطالبة بالاستقلال التام عن فرنسا، وإفحام ساستها بالحجج الدامغة في المحافل الدولية طوال كل سنوات الكفاح.

وإذا لم تكن لغة الشعب الجزائري هي الفرنسية، كما ينص البيان، ولم يكن دين الشعب الجزائري هو المسيحية كما ينص البيان أيضاً، فما هو بديل هذه اللغة وبديل هذا الدين غير العربية والإسلام المؤكدين في البندين «1 و2» المذكورين انفاً.

وإذا قال بعضهم بأن اللغة المقصودة في البيان ليست العربية، فإننا نحيلهم على نص نشيد «فداء الجزائر» لحزب الشعب الجزائري إليه ينتمي كل مفجري ثورة نوفمبر المجيدة، والقائل في أحد مقاطعه:

فلتحيا الجزائر مثل الهلال ولتحيا فيها العربية

ويجسده شعاره الخالد المطبوع على بطاقات انخراط المناضلين في كافة أنحاء الوطن وهو «الجزائر وطننا، الإسلام ديننا، العربية لغتنا»، وهو الشعار ذاته الذي كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد وضعته عند تأسيسها

(1) المختصر في تاريخ الثورة الجزائرية، زهير إحدادن ص 103، الثورة الجزائرية، د بوعلام حمودة ص 169.

سنة 1931م، مع اختلاف بسيط في ترتيب الثوابت الوطنية، دون زيادة أو نقصان، عما هو مثبت في البيان المحرر بعد ذلك بعقود، وهو ما يثبت وحدة الهدف لكل الوطنيين مع اختلاف الوسائل والبدائل حسب الإمكانيات والمراحل[1].

ويتبين من روح البيان النوفمبري، أن الجزائر وإن انهزمت عسكرياً بعد وقوعها تحت الاحتلال سنة 1830م ؛ فإنها لم ترضخ أبداً ولم تستسلم قط لإرادة المحتل، ولم تتخلّ عن روحها الوطنية الأصيلة، ولم ترض بالاندماج في الكيان الأجنبي الدخيل، وطوال 132 عاماً، لم تعرف المقاومة الشعبية معنى الراحة. وقد سارت هذه المقاومة في خطين متوازيين دون هوادة أو انقطاع.

. المقاومة المسلحة.

. والمقاومة الثقافية والسياسية[2].

وقد بينت ذلك بالتفصيل في كتابي الأول والثاني في كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

7 . علاقة الجهاد بالثورة:

الجهاد في الإسلام من الفروض الكفائية عند جمهور أهل العلم من السلف والخلف، ومعنى هذا أنه إذا قام به من يكفي في دفع غائلة الأعداء ونصر الإسلام سقط عن الباقين، ولا يكونون اثمين، وإن لم يقم به من يكفي أثمت الأمة كلها، ولا يرتفع الإثم إلا بخروج من فيهم الكفاية، والدليل على هذا قول الله تعالى: {وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ١٢٢} [سورة التوبة:122] .

ولكنه ينبغي أن نعرف، وأن يعرف الناس جميعاً أن القتال في الإسلام لا يكون حتى يسبقه إعلان وتخيير بين قبول الإسلام، أو أداء الجزية، أو القتال، ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد، والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية.

ويكون الجهاد في الإسلام واجباً وفرض عين في الحالات الاتية:

. إذا التقى الجيشان وتقابل الصفان فإنه يتعيّن الجهاد على من حضر، وحرم عليه الفرار، إلا أن يكون ذلك لمكيدة أو خدعة حربية، أو لأخذ مكان أفضل وأحسن، أو للانحياز إلى فئة أخرى من الجيش، حيث قال الله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٦} [سورة الأنفال:16.

(1) جهاد الجزائر، د . أحمد بن نعمان ص 26.

(2) جهاد الجزائر، د . أحمد بن نعمان ص 49.

. إذا هاجم الكفار بلداً من بلاد الإسلام أو نزلوا فيه تعيّن على أهله قتالهم ودفعهم بما استطاعوا لقوله تعالىَ: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣} [سورة التوبة:123] .

ووجب على إخوانهم المسلمين «كما أسلفنا» في كل قطر وبلد ؛ أن يخفوا إليهم بالعون والمساعدة أداء لحق الأخوة الإسلامية، وإذا كان هذا واجب المسلمين إزاء إخوانهم في الدين، فكيف بهم إذا كان هذا الاعتداء الصليبي قد وقع على المسلم المعني هو ذاته، مثلما هو واقع في الجزائر، كما يتبين من الشواهد التالية:

. لقد أعلن الملك شارل العاشر يوم 12 ماي 1830م عقد ندوة دولية حول مصير الأرض الجزائرية بعد احتلالها. وقد أراد أن يبين من خلال هذا الإعلان أن الحملة الحربية ضد الجزائر شُنت لصالح أوروبا كلها ولصالح المسيحية، وكانت الحكومة الفرنسية قد استغلت قضية حجز سفينتين تابعتين للفاتيكان قبل، وهما تحملان العلم الفرنسي، وذلك لتجنيد الرأي العام المسيحي لصالح احتلال الجزائر، مما أعطاها طابعاً صليبياً في نظرهم وفي نظرنا أيضاً، كما ذكر «أندري نوزبار» في كتابه «الجزائر: المسيحيون في الحرب».

. لقد قال «لوي فيو» إثر سفره إلى الجزائر سنة 1841م، بأن الأيام الأخيرة للإسلام دنت.. ولن يكون إله للجزائر بعد 20 سنة إلا المسيح، وأن الجزائر أصبحت مُلكية فرنسية وهي الان غير إسلامية، وكذلك سيكون عما قريب مصير كل من تونس والمغرب.

ويضيف هذا المؤلف الذي رافق المارشال «بيجو» سنة 1841م «حينما كان حاكماً للجزائر»: مادام العرب غير مسيحيين فلن يصبحوا فرنسيين، وماداموا غير فرنسيين؛ فلن يستطيع أي حاكم وأي جيش أن يضمن ولو لمدة شهر دوام السلم.

وهو ما يثبت بالدلالة القاطعة أن الفكرة الصليبية تبقى سائدة طوال الاحتلال الفرنسي للجزائر، حيث يُصرح الكردينال المتعصب «لافيجري» بأنه: لابد أن يُمنح الشعب الجزائري الإنجيل، وإلا فإن على فرنسا أن تطرده إلى الصحراء(1).

وفي عنابة يتوجه رئيس الأساقفة «لينو» بالقول نحو القديس أوغستان: انظر إلى الخطر الكبير الذي يُحدق بوطنك العزيز الذي أصبح وطناً لنا، فلا تسمحوا ـ أرجوكم ـ أن يسقط من جديد في البربرية، التي نجا منها بفضل الذراع القوية لفرنسا المسيحية 28 أوت 1945م. وهو ما يؤكده خليفته الصليبي المنصِّر «الأب دوفوكو» سنة 1912م في رسالة إلى أحد أصدقائه، يصرح له فيها بقوله حرفياً: إنني أعتقد بأنه إذا لم نستطع تحويل المسلمين بالتدرج عن دينهم وحملهم على اعتناق المسيحية ؛ فإن النتيجة الحتمية هي تكوّن روح قومية جديدة تؤدي إلى طردنا من الإمبراطورية الاستعمارية في شمال أفريقيا. ويضيف قوله في الرسالة ذاتها: إن السبيل الوحيد لضمان عدم طردنا من هذه الإمبراطورية هو أن نجعل سكان البلاد فرنسيين، والسبيل الوحيد لذلك هو جعلهم مسيحيين.

---

(1) المصدر نفسه.

والخلاصة هنا: أن القتال مشروع لغاية وهي منع الفتنة والاضطهاد في الدين، ورفع أساليب الضغط والإكراه المادي والأدبي عن الناس، وتأمين الحرية للدعوة والدعاة ليؤمن من امن بحريته ويكفر من كفر باختياره إذَ {لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ } [سورة البقرة:256] .

قال تعالىَ: {قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ } [سورة يونس:108] .

وقد رجّح المحققون من العلماء أن كل ايات الجهاد ليس فيها شيء منسوخ، ولكنها على الاختلاف في الأحوال، فعلى المسلمين في كل زمان ومكان أن يأخذوا بها بحسب ما هم فيه من الضعف والقوة، فإذا كانوا في حالة ضعف جاهدوا بحسب حالهم، وإذا عجزوا عن ذلك اكتفوا بالدعوة باللسان، وإذا قووا بعض القوة قاتلوا من بدأهم من قرب منهم، وكفوا عمن كف عنهم، قال ابن تيمية: أما قتال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين، فواجب إجماعاً، فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلايشترط له شرط، بل يدفع بحسب الإمكان[1].

ويجمع على أن يكون الجهاد مؤدياً إلى مصلحة راجحة، وأن لا يترتب عليه مفسدة أعظم، وذلك لأن الجهاد بجميع صوره إنما شرع لما فيه من تحقيق المصالح، ودفع المفاسد عن الإسلام والمسلمين أفراداً وجماعات، فلا يزال مشروعاً إذا عُلم باليقين أو غلب على الظن تحقيقه لهذه المقاصد الشرعية، فإذا تيقن أو ظن أنه يترتب على القيام به من المفاسد ما هو أعظم من المصالح ؛ لم يكن حينئذ مشروعاً ولا جهاداً مأموراً به[2].

وعن هذا التأصيل الجهادي الإسلامي للثورة الجزائرية، يقول الشيخ البشير الإبراهيمي في تصريح له في إذاعة صوت العرب من القاهرة تحت عنوان:

ـ الجزائر المجاهدة:

يقول الإمام الإبراهيمي: «لو قسمت حظوظ الجهاد بين الأمم لحازت الجزائر قصبات السبق، ونطلق الجهاد على معناه الواسع الذي يقتضيه اشتقاقه من الجهد. ولنبدأ بمعناه الخاص، وهو جهاد العدو الأجنبي المغير على الوطن، وقد وضع الله الجزائر في موضع يدعو إلى الجهاد، وعلى وضع يدعو إلى الجهاد.. إلى أن يقول: لم تخلُ العصور الإسلامية من الجهاد بالنفس في الجزائر، لأن الجارَين المتقابلين على ضفتي البحر الأبيض أصبح كل واحد منهما بالمرصاد لصاحبه، وانتقل لبّ الصراع بينهما من ميدان إلى ميدان..

فبعد أن كان صراعاً على العيش، أو التوسّع في العيش، أو صراعاً على الزيت والقمح «وهما المادتان اللتان جلبتا الروماني على إفريقيا الشمالية»، صار صراعاً على الدين، زاد من شدته أن العرب بدينهم خلفوا الرومان على حضارتهم في إفريقيا، ثم لمسوهم من جبل طارق تلك اللمسة المؤلمة التي تطيروا بها وطاروا فزعاً، وظنوا أنها

(1) جهاد الجزائر، د . أحمد بن نعمان ص 52.

(2) جهاد الجزائر ص 52.

القاضية على روما وديانتها وحضارتها وشرائعها. وهذا الميدان الذي انتقل إليه الصراع أعمق أثراً في النفوس، ويزيد في عمقه أن حامليه العرب قوم لا تلين لهم قناة ولا يصطلى بنارهم».

ثم يضيف قوله: «فكانت الثغور الجزائرية المشهورة والمهجورة التي يتطرق منها العدو عامرة دائماً وأبداً بالمرابطين، وهم قوم نذروا أنفسهم لله ولحماية دينه يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، ولا يرزؤون الحكومات شيئاً من سلاح ولا زاد، وإنما يتسلحون ويتزودون من أموالهم ليجمعوا بين الحسنيين: الجهاد بالمال، والجهاد بالنفس.. وسلسلة الرباط لم تنقطع إلا بعد استقرار الأمر لفرنسا، وإنما كانت تشتد وتخف تبعاً لما يبدو على الضفة الأخرى من نشاط وخمود. وكانت على أشدها في المائة التاسعة والعاشرة والحادية عشرة في الوقت الذي عادت فيه الكرّة للإسبان على المسلمين في الأندلس، واغتنمها الإسبان فرصة لاحتلال ثغور البحر المتوسط الإفريقية، ومعظمها في جزائر اليوم.

لقد احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830م تنفيذاً لخطة مرسومة تقتضي إعادة شمال إفريقيا لاتينياً كما كان قبل الإسلام، وإذا كان قديماً على يد الرومان، وكان اليوم على يد الفرنسيين، فإنما ذلك توارث بين ابن العم وابن عمه، والخطة تقتضي احتلال الجزائر اليوم، واحتلال جناحيها يوم مجيء الوقت، ومعاونة من يريد احتلال جزء اخر من التراث الإسلامي»[1].

وعن هذا التأصيل الشرعي لجهاد الجزائر يقول في أحد أحاديثه أيضاً بإذاعة صوت العرب من القاهرة:

«إن الجزائر قد أعربت عن نفسها بالأعمال الخالدة التي قامت بها ثورتها وثائروها، وإنما أحيت من شرائع الجهاد، وسجلت من مواقف البطولة والشجاعة، ووقوف العدد القليل من أبنائها بما يملكون من سلاح يدوي قليل ـ لا يغني فتيلاً في مجرى العادة ـ في وجه عدو يفوقه أضعافاً مضاعفة في العدد والعدة والنظام والتدريب، تسانده جميع الأسلحة العصرية الفتاكة من طائرات ودبابات ومدافع ثقيلة وقادة، باشروا الحروب الاستعمارية وقادوها في ميادين مختلفة بالمشرق والمغرب وتمرنوا على أساليبها، يستمدون لوازم الحرب من سلاح وعتاد ومال من بلدهم، فلا يردّ لهم طلب ولا يتأخر إمداد.. ثم يقول في الحديث ذاته:

أعربت الجزائر عن نفسها بهذا كله، فحققت الجهاد بالنفس وهو أحد نوعي الجهاد، وهو النوع الذي عُلمت أخباره واشتهرت في العالم، ورفعت اسم الجزائر إلى السماء، وأصبح ذكرها مقروناً بالإعجاب والإكبار، وذكر بنيها مقروناً بالمدح والثناء، وأصبحت بطولتهم وشجاعتهم وصبرهم واستماتتهم في سبيل حرية بلادهم مضرب الأمثال وحديث الركبان.

وأما النوع الثاني من الدعائم التي تقوم عليها الثورة، وهو الجهاد بالمال، فقد قامت الجزائر وحدها بما تتطلبه الثورة من مال، ولم تدخر عزيزاً على أبنائها الثائرين المباشرين للجهاد، وإذا كانت فرنسا تنفق على جيشها في الجزائر المبالغ الطائلة، (فيقول المقلّون: إنها تنفق يومياً ملياراً من الفرنكات، ويقول المكثرون: إنها تنفق ملياراً ونصفاً في اليوم الواحد، مما أثقل ميزانيتها وأوقف ماليتها على حافة الإفلاس، لولا إعانة أمريكا التي عرفنا

---

(1) المصدر نفسه ص 54.

عنها أنها حاضنة الاستعمار وممرضته) ؛ فإن الجزائر المسكينة تنفق على ثورتها كل ما تملك من مال وسلاح وكسوة وطعام وهي صامدة في ذلك محتسبة»[1] .

وعن هذا التطبيق الشرعي للجهاد الإسلامي على الأرض، يقول الشيخ يوسف اليعلاوي، وهو ضابط في جيش التحرير الوطني في الولاية الأولى والولاية الثالثة ما يلي:

«لقد أبرّ الله قسم المجاهدين، وانتصرت كلمة «الله أكبر»، التي كانت الشعار الذي يرتفع وينطلق من أفواه المجاهدين عند انطلاق الرصاص من فوهات بنادقهم، ومما يؤكد هذا أن التعليمات التي ترسل من قيادات جيش وجبهة التحرير الوطني تحثّ ـ بالإضافة إلى التنظيم السياسي والعسكري ـ على أداء الصلوات والمحافظة على الشعائر الدينية والأخلاق الإسلامية، وقد يعاقب من لا يقف عند حدود الله، ولا يحترم أوامر الثورة التي لم تخرج قط عن تعاليم الإسلام، وكثيراً ما كان يعاقب المجاهدون عقاباً شديداً لارتكابهم الأخطاء التي يعتبرها الإسلام خطيرة تستوجب العقاب، كما أن الثورة قد دعمت تعليم القران الكريم في كل الولايات وهي التي تدفع أجور المعلمين، بل شجعت مادياً ومعنوياً كل المدارس العربية الموجودة على مواصلة سيرها لتعليم أبناء الشعب اللغة العربية والإسلام تحت دويّ القنابل»[2].

ويقول المجاهد حسين زهوان: «.. منذ البداية كانت هناك نساء مجاهدات في الولاية الثالثة، لكن في أواخر سنة 1959م كان هناك مخطط شال الذي شكل ضغطاً كبيراً على جيش التحرير، فتفككنا إلى وحدات صغيرة، وصرنا مُضطرين إلى أن نعيش تحت الأرض وفي المغارات، والمجاهدات أصبحن غير قادرات على العيش في القرى منعزلات عن الرجال، ولهذا فإنه من الضرورة، وربما تحت القصف ؛ تجد المرأة نفسها أحياناً مجبرة في البقاء في المغارات مع رجل مجاهد غريب عنها، مما جعل قيادة الولاية الثالثة تتخذ قراراً بإبعاد النساء، إذ أرسلت مجاهدات للعاصمة لكي يعملن هناك حتى لا يعشن ذلك الوضع، خاصة وأننا محافظون، والثورة كانت صارمة في هذه المسألة، وعقوبة من تثبت ضده تهمة في هذا الشأن هي الإعدام المحتوم»[3].

8 ـ العوامل التي ساعدت على توحّد الشعب في الثورة:

لقد بينا التطورات السياسية ودور الحركات الوطنية الجزائرية في العمل من أجل تحرير البلاد من السيطرة الاستعمارية، وبدون شك فإن الحركات الوطنية هي التي أثرت في الرأي العام الجزائري، وحرضته على القيام بثورة مسلحة ليلة أول نوفمبر 1954م على سيطرة الأجانب في بلدهم، وإنهاء سياسة تزوير الانتخابات المحلية وحرمان الجزائريين من حقوقهم السياسية في وطنهم.

لقد توحد الجزائريون بالرغم من اختلاف أحزابهم، وقاموا بتأييد الثورة منذ البداية، وضحوا بكل ما يملكون من أجل نجاح ثورتهم التحريرية، بسبب الشعور بالظلم والحرمان، وتطبيق القوانين الجائرة على الجزائريين، وهي

(1) المصدر نفسه ص 55.

(2) المصدر نفسه ص 55.

(3) من حوار مع حسين زهوان في جريدة «الجزائر» بتاريخ 8 سبتمبر 2012م.

العوامل الرئيسية التي دفعت بأبناء الجزائر أن يلتحقوا بالجبال، أو ينخرطوا بخلايا جبهة التحرير في المدن، والمساهمة في تحرير وطنهم من الأوروبيين الغاصبين لخيرات الجزائر.

وفي الحقيقة كان هناك من يطالب بتأجيل عملية القيام بعمل مسلح إلى أن يتم تدريب الرجال وشراء السلاح وتوحيد العمل السياسي، لكن الرأي الذي اتفق عليه قادة الحركة الوطنية هو الشروع في الثورة حالاً، والسلاح يمكن اقتناؤه، والأحزاب تتوحد في جبهة واحدة عندما تجد نفسها أمام الأمر الواقع، والشعب سيساند الثورة لأن جميع أبنائه يشعرون بالظلم والحرمان، وهم على استعداد للانضمام لأية حركة سياسية تقوم بالثورة ضد الأجانب في بلدهم، وقد كانت هناك عدة عوامل ساعدت على توحيد الجزائريين وتحمّسهم للعمل الثوري، ومن هذه العوامل نخص بالذكر النقاط التالية، التي نعتبرها حيوية لمساندة الثورة، وحصول الجزائر على استقلالها في سنة 1962م:

1. النقطة الأولى: انعدام المساواة بين الجزائريين والأوروبيين، حيث نجد في فرنسا كل السكان يصوتون على اختيار ممثليهم في البرلمان الفرنسي، بينما نجد في الجزائر أن أبناء البلد الأصليين لا يحق لهم التصويت على أي مرشح للبرلمان الفرنسي أو المجلس الجزائري، الذي تم إنشاؤه بمقتضى قانون 20 سبتمبر 1947م، فالأوروبيون في الجزائر الذين لم يكن يتجاوز عددهم في أول نوفمبر 1954م حوالي 1،042،000 نسمة، كان يحق لهم في القانون الفرنسي انتخاب 60 نائباً في المجلس الجزائري، و15 نائباً في البرلمان الفرنسي، و6 نواب في مجلس الشيوخ الفرنسي حسب قانون 5 أكتوبر 1946م، بينما كان لا يحق لحوالي 8،745،000 جزائري أن يساهموا في انتخابهم أو اختيار عدد النواب الذين يمثلونهم في هذه المجالس حسب عددهم السكاني.

فالمسلمون في القانون الفرنسي لا يتمتعون بالجنسية الفرنسية، وبالتالي هم محرومون من الحصول على عدد من النواب يتماشى مع عددهم الحقيقي، وبعبارة أخرى: إن عدد المسلمين يزيد ثماني مرات عن عدد الأوروبيين في الجزائر، لكن المساواة منعدمة بينهم وبين الأوروبيين في التمثيل السياسي، وإذا كان القانون الفرنسي قد منحهم الحق لأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية أن يختاروا 60 نائباً لتمثيلهم في المجلس الجزائري، و15 نائباً في البرلمان الفرنسي، و6 نواب في مجلس الشيوخ ؛ فإن الإدارة الفرنسية في الجزائر قد التجأت إلى تزوير الانتخابات وتعيين عملائها في المجالس المنتخبة من طرف المسلمين، ولهذا توحّد أبناء الشعب وقادة الأحزاب ضد فرنسا، لأنهم فقدوا الأمل في الحصول على التمثيل السياسي في المجالس المنتخبة، وعدم وجود مساواة بينهم وبين الأوروبيين.

2. النقطة الثانية: هي انعدام الديمقراطية، واستعمال «الفيتو» أو حق الاعتراض على أي قرار يتخذه المجلس الجزائري. وحسب قانون 20 سبتمبر 1947م، فالمجلس يتكون نصفه من الأوروبيين والنصف الاخر من الجزائريين، والقرارات في هذا المجلس تتخذ بالأغلبية، لكن المادة 39 من القانون تعطي الحق للحاكم العام في الجزائر أو اللجنة المالية بالمجلس أو رُبع أعضاء المجلس ؛ أن يعترضوا على قرارات المجلس لمدة 24 ساعة، وانذاك لا تتخذ القرارات إلا بأغلبية الثلثين من أعضاء المجلس، وهذا معناه عرقلة المجلس ومنعه من اتخاذ

قرارات لتطبيق النصوص الواردة في القانون، وهذا ما حصل بالفعل، حيث أن القانون كان ينص على اعتبار الأعياد الإسلامية، عيد الفطر، عيد الأضحى، عاشوراء، المولد النبوي الشريف، كلها أعياد إسلامية، لكن نظراً لاعتراض الأوروبيين على ذلك ورفضهم لتطبيق النصوص القانونية ؛ رفضت الإدارة الفرنسية في الجزائر أن تعترف بهذه الأعياد الإسلامية[1].

ونفس الموقف اتخذته الإدارة الفرنسية ضد اللغة العربية التي كان من المفروض أن تستعمل كلغة رسمية، مثل الفرنسية، في التدريس والإعلام ونشر الكتب. ومعنى هذا أن المجلس الجزائري وضع بقصد حماية مصالح الأوروبيين فقط، مادام عندهم حق الاعتراض والمطالبة باتخاذ القرارات بأغلبية الثلثين[2].

3. النقطة الثالثة: هي الزيادة الهائلة في السكان الجزائريين والنتائج المترتبة على ذلك، سواء من ناحية صعوبة العثور على عمل، أو من ناحية الحصول على تعليم، فالإحصائيات الرسمية تشير إلى أن عدد السكان المسلمين في الجزائر قد زاد بما لا يقل عن مليون نسمة في الفترة الممتدة من 1948م إلى غاية 1954م.

ونتيجة لهذه الزيادة الهائلة في السكان كثرت البطالة، وتجاوز عدد العاطلين عن الشغل 1،000،000 عامل في سنة 1954م، واضطر 300،000 عامل جزائري إلى الهجرة إلى فرنسا، والبحث هناك عن عمل وتوفير العيش لحوالي 1،500،000 نسمة في الجزائر. وباختصار فإن الفقر انتشر في الجزائر بشكل لا مثيل له، ولذلك شعر الناس بالظلم والتحقوا بالثورة وأيدوها بدون تردد في بداية 1954م[3].

4. النقطة الرابعة: هي أن الأوروبيين في الجزائر قد استولوا على نسبة كبيرة من الأراضي الخصبة في الجزائر، واستأثروا بخيرات الوطن وذلك على حساب أبناء البلد الأصليين، فالإحصائيات تشير إلى أن 72% من الجزائريين كانوا يعيشون على الفلاحة مقابل 16% من الأوروبيين، لكن نسبة ملكية الأرض الصالحة للزراعة هي 109 هكتارات للأوروبي و14 هكتار فقط للجزائري. كما يلاحظ أن الجزائريين كانوا يعانون من الفقر والمجاعة في سنة 1954م، حيث أن المدخول المالي للفلاح الجزائري لم يكن يتجاوز 20،000 فرنك فرنسي قديم، أي أن الفلاح الجزائري كان يحصل على أقل مدخول مالي في العالم بعد الفلاح الهندي الذي كان يقل عنه بعض الشيء.

فقد كان 7 ملايين فلاح جزائري يشعرون بالظلم والفقر والبطالة، وكانوا على استعداد تام لتدعيم الثورة والانضمام إليها لاستعادة حقوقهم المهضومة.

5. النقطة الخامسة: التي تؤخذ بعين الاعتبار، هي قضية القروض والدعم المالي للزراعة والصناعة، فالإحصائيات تشير إلى أن الأوروبيين كانوا يسيطرون على المؤسسات التي تقدم دعماً للزراعة، ففي سنة 1952م كان هناك 14،082 مزارع أوروبي تلقّوا قروضاً مالية لا تقل عن 12،300 مليون فرنك قديم، في حين تلقّى 8،401 مزارع جزائري قروضاً لا تتجاوز 2،600 مليون فرنك قديم، وبالنسبة للقروض التي تعطى

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 370.

(2) المصدر نفسه ص 371.

(3) المصدر نفسه ص 371.

لتدعيم الصناعات الخفيفة، فإن إحصائيات 1954م تؤكد حقيقة مذهلة، وهي أن 92% من القروض ذهبت إلى 000،65 مؤسسة صناعية أوروبية، حيث تلقت 375 مليار فرنك قديم، بينما تلقت 000،100 مؤسسة جزائرية 33 مليار فرنك قديم فقط.

ونستخلص من هذه الفروق الكبيرة في القروض، أن الجزائريين كانوا لا يحصلون إلا على مساعدة مالية ضئيلة في ميدان القروض لا تتجاوز 8%، وهذا ما جعلهم يشعرون بالظلم ويؤيدون الثورة بدون تحفظ[1].

6 . النقطة السادسة: التي يتعين علينا أن نشير إليها ؛ هي أن الموظفين الجزائريين بصفة عامة كان عددهم ضئيلاً، وذلك بسبب عدم حصول أبناء الشعب الجزائري على مستوى رفيع من التعليم، ولهذا لم يكن بإمكانهم منافسة أي أوروبي. ففي بداية الثورة المسلحة عام 1954م لم يكن يتجاوز عدد الجزائريين الذين يحصلون على راتب شهري أكثر من 000،375 عامل، في حين كان عدد الأوروبيين الذين كانوا يحصلون على راتب شهري بانتظام حوالي 000،250 عامل[2].

وأما الجزائريون الموظفون في الحكومة العامة فلم يكن عددهم يتجاوز 8 أشخاص من جملة 000،2 موظف،وبدون شك فإن هذه الحقائق تؤكد حرمان الجزائريين من الحصول على وظائف في الدولة، وهذا ما شجع كل متعلم لم يحصل على وظيفة أن يؤيد الثورة عند اندلاعها بدون تردد.

7 . النقطة السابعة: هي حرمان الجزائريين من التعليم، لأن الفرنسيين كانوا يعتقدون أن التعلم يخلق الوعي واليقظة ومقاومة الاحتلال والمطالبة بالحقوق السياسية، ولهذا كان الأوروبيون يتذرعون بحجة أن الفلوس غير موجودة لتلبية حاجيات الجزائريين، لكنها كانت موجودة لتنفق على كبار الأثرياء والمساهمين في البورصة والأملاك العقارية.

ففي سنة 1954م كان عدد الطلاب الجزائريين في 49 ثانوية بالجزائر لا يتجاوز 308،5 تلميذ مقارنة بـ 468،34 تلميذ أوروبي، ومعنى هذا أنه كان هناك تلميذ واحد في التعليم الثانوي بالنسبة لـ 300 مواطن في فرنسا، بينما كانت النسبة في الجزائر تلميذ واحد لـ 227 مواطن فرنسي، ولهذا كان هناك 000،800،1 طفل جزائري بدون تعليم ولا يعرفون القراءة والكتابة في سنة 1954م، ومستقبلهم مظلم، وبكل تأكيد فإن هذا الجيش من الأميين قد ساند الثورة منذ البداية وبدون نقاش[3].

وبطبيعة الحال، فإن شعور الناس بالظلم والحرمان والفقر قد مهد الطريق للثورة. وليست هناك مبالغة إذا قلنا أن هذه العوامل قد عجلت باندلا ع الثورة المسلحة في أول نوفمبر 1954م.

لكن الغليان السياسي، وإقدام الإدارة الأوروبية في الجزائر على تزوير الانتخابات البرلمانية والبلدية ؛ هي التي غيرت مجرى الأمور بصفة ملموسة بعد قانون 1947م، فالقادة السياسيون المسلمون قد تأكدوا بما لا يدع مجالاً للشك أن الإدارة الفرنسية كانت مصممة على حرمانهم من الحصول على مقاعد في البرلمان الجزائري،

(1) المصدر نفسه ص 373.

(2) المصدر ننفسه ص 374.

(3) المصدر نفسه ص 374.

أو مقاعد في المجالس البلدية المنتخبة، وإعطاء تلك المناصب لعملائها المتواطئين مع الإدارة الاستعمارية. وكان زعيم هذه الحركة الاستعمارية الذي اشتهر بتزييف الانتخابات في الجزائر هو الحاكم العام «مارسيل إدموند نايجلان»، الذي عينته الحكومة الفرنسية في سنة 1948م لتطبيق القانون الجديد.

ففي انتخابات أفريل 1948م الخاصة بانتخاب النواب للمجلس الجزائري، قام نايجلان بتزوير الانتخابات، ومنح 43 مقعداً للمستقلين «عملاء فرنسا»، والسماح لحركة أنصار الحريات الديمقراطية أن تحصل على 9 مقاعد فقط، والاتحاد الديمقراطي لحركة البيان الجزائري 8 مقاعد. وهذا معناه أن الأوروبيين نالوا 60 مقعداً في المجلس الجزائري، بالإضافة إلى 43 مقعداً انتزعت من الأحزاب الوطنية وأعطيت لعملاء فرنسا.

وقد قام نائب في البرلمان الفرنسي بكتابة رسالة إلى وزير الداخلية الفرنسي جيل موك بتاريخ 14 أفريل 1949م، وحذره من الأسلوب الذي استعملته الإدارة الفرنسية في الجزائر لتزوير الانتخابات، لأن الإدارة هي التي عينت النواب المسلمين الموالين لها، لكن الحكومة الفرنسية لم تبال ولم تقم بأي مجهود لاحترام قوانين الانتخابات[1].

وبعد أن كثرت الفضائح السياسية وتزوير الانتخابات بطريقة مفضوحة، قررت الحكومة الفرنسية استدعاء الحاكم العام نايجلان يوم 15 أفريل 1951م، وتعيين «روجي ليونارد» حاكماً عاماً على الجزائر الذي ينتمي إلى سلك الشرطة.

وفي الانتخابات البرلمانية يوم 17 جوان 1951م أثبت الحاكم العام الجديد مهارته في سلك الشرطة، حيث تحالف مع عمداء بلديات الجزائر ضد الوطنيين الجزائريين، ونجح في منع قادة الأحزاب الجزائرية من الحصول على أصوات تمكنهم من الدفاع عن أبناء البلد الأصليين. وقد استفاد روجي ليونارد من دعم وزير الداخلية الفرنسي السيد «ميتران» في سنة 1954م، حيث أعلن «فرنسوا ميتران» أن تمرد الجزائريين يعتبر بمثابة تمرد مجموعة من المواطنين الفرنسيين في الأراضي الفرنسية، وهذا معناه في رأيه أن الثوار الجزائريين يعتبرون أعداء للوطن، والمفاوضات الوحيدة التي يمكن إجراؤها معهم هي الحرب[2].

* * *

(1) المصدر نفسه ص 375.

(2) المصدر نفسه ص 376.

ثالثاً: ردود فعل بعد اندلاع الثورة

1 . رد فعل الحكومة الفرنسية:

غداة اندلاع الثورة صدر بيان من وزارة الداخلية الفرنسية يقول: وقعت عدة اعتداءات في هذه الليلة عبر نقاط كثيرة من التراب الجزائري، إنها صادرة من أشخاص أو مجموعة أشخاص منعزلة، ولقد اتخذت تدابير فورية من طرف الحاكم العام للجزائر، ووضعت وزارة الداخلية تحت تصرف هذا الأخير قوات إضافية من الشرطة، يسود الان هدوء كامل في مجموع الجزائر «يظهر من هذا البلاغ أن الحكومة الفرنسية لم تكن واعية بما كان يحضّر أو أنها تريد طمأنة النفوس».

ويوم 5 نوفمبر 1954م أعلن حلّ حزب الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، وألقي القبض على عدد من مناضليها، وأرسلت قوات مدد إلى الجزائر.

ويوم 12 نوفمبر 1954م صرّح رئيس مجلس الوزراء «بيار مانداس فرانس»: سنعامل التمرد بدون هوادة. وأضاف وزير الداخلية «فرانسوا ميتران»: «الجزائر هي فرنسا».. هذه هي القاعدة لا لأن دستورنا يفرض ذلك، بل لأن ذلك يتماشى وإرادتنا.

في الوقت نفسه طلب رئيس مجلس الوزراء من الولايات المتحدة أن تمارس ضغوطاً على مصر حتى لا تساعد «المتمردين»، وطلب من إسبانيا مراقبة حركة الأسلحة في المنطقة، وتدخل لدى منظمة الحلف الأطلسي فحصل على رخصة استعمال الأسلحة المخصصة لها.

والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة حافظت على موقفها الرامي إلى اعتبار القضية الجزائرية مسألة داخلية لفرنسا، وذلك حتى انتخب جون كينيدي رئيساً لها في سنة 1960م.

وأما موقف الاتحاد السوفياتي فإنه عبّر عنه بيان مشترك صدر عند زيارة «غي مولي» لموسكو. في هذا البيان المنشور في جريدة « Le Monde » يوم 22 ماي 1956م، وضعت الحكومة السوفياتية ثقتها في فرنسا لحل مسألة الجزائر «على حسب أفكار الزمان العصري وفي صالح الشعوب».

واحتجت فرنسا رسمياً على إذاعة صوت العرب التي كانت تدعو للتضامن مع الشعب الجزائري.

إن الثورة الجزائرية تسببت في عدة أزمات داخل الحكومة الفرنسية، سقطت حكومة «مانداس فرانس» يوم 5 فبراير 1955م، فجاءت بعدها حكومة «أدقار فور» فعاشت أقل من سنة، لأن الاشتراكي «غي مولي» نجح في الانتخابات التشريعية التي جرت في يناير 1956م[1].

لقد قامت السلطات الفرنسية في الجزائر بحملة واسعة ضد كل الوطنيين الجزائريين، وألقت القبض على كل من تشم فيه رائحة الوطنية الجزائرية.

---

(1) الثورة الجزائرية، د . بوعلام بن حمودة ص 176.

كانت السلطات الفرنسية لا تفرق بين جزائري شارك في الإعداد للثورة، وجزائري اخر لم يقم بعمل وطني ضدها، فالجميع يتعرضون للاضطهاد والعقاب.

وهذا العمل التعسفي من طرف الأوروبيين في الجزائر هو الذي وحد بين جميع الجزائريين ضد السلطات الفرنسية، والدليل على هذه الحقيقة هي أن بن خدّة «من حركة انتصار الحريات الديمقراطية» قد التحق بالثورة في شهر جوان من عام 1955م بعد سجنه، واقتناعه بأنه لا مفر من الانضمام إلى جبهة التحرير الوطني والمشاركة في التنظيم السياسي للجبهة، الذي كان يشرف عليه عبان رمضان بالجزائر العاصمة، ونفس الشيء حصل بالنسبة لجمعية العلماء، والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، حيث انضم الجميع إلى جبهة التحرير، وتعاون قادة هذه الحركات الوطنية مع جبهة التحرير ضد السلطات الفرنسية في الجزائر، وكما هو معلوم فإن «اليد الحمراء» الفرنسية قامت باغتيال نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ العربي التبسي في سنة 1957م، وأما عباس فرحات فقد تمكن من الهروب إلى القاهرة والانضمام إلى جبهة التحرير في أفريل 1956م[1].

2 . رد فعل فرنسيي الجزائر:

تيقن فرنسيو الجزائر بأن وقت الحقيقة قد حان، فأحسوا بأنه يجب خنق الثورة وإطفاؤها، وذلك بتجنيدهم وحملهم السلاح، ولقد سارع المعمرون إلى وهب مزارعهم لتُحوّل إلى مراكز للدفاع الذاتي وللتعذيب. من جهة أخرى قرروا أن يمارسوا ضغوطاً على الحكومة الفرنسية لكي لا تتنازل عن امتيازاتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأما جرائد فرنسيي الجزائر فنادت بإلحاح لإبادة المتمردين بكل الوسائل[2].

3 . ردّ فعل الجامعة العربية في البداية:

أعلن الأمين العام المساعد في الجامعة العربية أحمد الشقيري بوضوح في نوفمبر 1954م أن الجامعة العربية تؤيد حركة التحرير بالجزائر، وتعتبر قضية الجزائر قضية دولية «لا قضية داخلية لفرنسا»، كما تعتبر أن للجزائر حقاً لتحكم نفسها بنفسها[3].

4 . اثار الثورة الجزائرية في مسار الأحداث في شمال إفريقيا:

بفضل الله ثم الثورة الجزائرية، استرجعت ليبيا ناحية فزّان بسرعة، فعجلت فرنسا بمنح الاستقلال الذاتي للمغرب وتونس ثم الاستقلال لتتفرغ لحرب الجزائر، وقد كانت الثورة الجزائرية معتمدة على استمرار الكفاح المشترك لإرغام فرنسا على التنازل بسرعة وبأقل ثمن.

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 377.

(2) الثورة الجزائرية، بوعلام حمودة ص 178.

(3) المصدر نفسه ص 179.

فقدت الثورة الجزائرية إذاً أمل توسيع رقعة الكفاح، إلا أنها استفادت من استقلال تونس والمغرب، لأن هذين البلدين الشقيقين فتحا لها المجال لتمركز قيادة جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير كما سنرى فيما بعد.

والجدير بالذكر أن اتفاقيات الاستقلال الذاتي لتونس أمضيت يوم 3 جوان 1955م، وأن اتفاقيات الاستقلال التام في العشرين من مارس 1956م.

وأما المغرب فقد عاش غلياناً بعد عزل محمد الخامس من طرف فرنسا في العشرين من أوت 1953م ونفيه إلى مدغشقر، فبعد ضغط الشعب المغربي وانتفاضته أعادت فرنسا الملك إلى عرشه 16 نوفمبر 1955م، وفتحت مفاوضات مع حكومته أسفرت عن استقلال المغرب 2 مارس 1956م[1].

5 . رد فعل الأحزاب الجزائرية:

كوّن أنصار مصالي الحاج أفواجاً خاصة تدّعي أن المصاليين هم الذين يقومون بالثورة، وبعد وقت من الالتباس التحق البعض منهم بجبهة التحرير الوطني، وبقي البعض منهم يحاربون جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني.

. وأما حزب فرحات عباس «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري»، فقد حلّ نفسه يوم 22 أفريل 1956م، فالتحق فرحات عباس بالوفد الخارجي للثورة، والتحق أنصاره كذلك بصفوفها.

. أبدى الحزب الشيوعي حذراً في بداية الثورة، فأعلن معارضته للعنف وتأييده لحل ديمقراطي يضمن تعايش المجموعات السكانية المختلفة، وفسر العنف الثوري بوجود استغلال استعماري وتمييز عنصري. إن جريدة النقابة الشيوعية إشارت في عددها المؤرخ في 23 نوفمبر 1954م إلى أن الشعب الجزائري في حاجة إلى العمل والخبز، لا إلى قنابل ورشاشات، في الوقت نفسه رفض الحزب الشيوعي الجزائري أن يتبنى موقف المكتب السياسي الفرنسي، الذي صرّح بأنه لا يقبل اللجوء إلى أعمال فردية، من شأنها أن تصبّ في لعب الاستعماريين، وربما تكون هذه الأعمال مدبرة من طرف هؤلاء الاستعماريين في الجزائر. والتحق كثير من الشيوعيين فردياً بالكفاح السياسي والكفاح المسلح.

أما في فرنسا فقد صدرت مساعدة الثورة من مناضلين شيوعيين فردياً بدون موافقة حزبهم[2].

* * *

---

(1) المصدر نفسه ص 180.

(2) المصدر نفسه ص 177.

رابعاً: موقف جمعية العلماء من الثورة

1 . محمد البشير أول مؤيد للثورة الجزائرية:

أخذت الصيحة في أول نوفمبر 1954م الذين ظلموا حين أعلن الشعب الجزائري جهاده، فعقدت الدهشة ألسنة بعض السياسيين الجزائريين، وانطلقت ألسنة «التقدميين» تندد «بالإرهاب» وتشجب «العنف»، ولكن شخصية واحدة كانت يقظة مع خيوط فجر ذلك اليوم، وعرفت أن الفجر صادق، وأن المؤذن حقيقي، فاستجابت للنداء، إنها شخصية الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

إن أول مؤيد للجهاد الجزائري هو الإمام محمد البشير الإبراهيمي، فقد أصدر مكتب جمعية العلماء بالقاهرة يوم 2 نوفمبر 1954 بياناً حمل فيه على فرنسا وحمّلها عاقبة ما ارتكبته في الجزائر، وأكد لها أنها «ستكون سبب موتها».

ثم ذكّر حكومات المشرق العربي بواجبها في «إمداد وتشجيع» هذه الحركات المتأججة في المغرب العربي[1].

وقد جاء في هذا البيان الذي تم توزيعه على الصحافة المصرية ووكالات الأنباء العالمية: ... أما نحن المغتربين عن الجزائر، فوالله لكأنها حملت الرياح الغربية ـ حين سمعنا الخبر ـ روائح الدم زكية فشارك الشم الذي شم، والسمع الذي سمع، والبصر الذي قرأ، فيتألف من ذلك إحساس مشبوب يصيرنا ـ نحن في القاهرة ـ وكأننا في مواقع النار والنار من خنشلة وباتنة[2].

ثم أكد ذلك البيان ببيان اخر يوم 3 نوفمبر 1954م، حيّا فيه الثائرين الأبطال الذين سفهوا زعم فرنسا أن الجزائر راضية بها مطمئنة إليها، والذين شدوا عضد إخوانهم في تونس والمغرب، والذين وصلوا حلقات الجهاد الذي هو طبيعة ذاتية في الجزائري، ثم ذكّرهم بجرائم فرنسا في حق دينهم ودنياهم، وأنه ليس أمامنا إلا «بقاء كريم أو فناء شريف» [3].

ثم عزز الإمام ذانيك البيانين بثالث وجّهه إلى الشعب الجزائري المجاهد، حياه فيه وذكّره بغدر فرنسا وأياديه البيضاء عليها، ونكرانها لجميله «فلم تُبق لكم ديناً ولا دنيا»، وحذر فيه الجزائريين من النكوص والتراجع، وأكد لهم أن فرنسا: تنظر إليكم مسالمين أو ثائرين نظرة واحدة، وهي أنها عدو لكم وأنكم عدو لها، ووالله لو سألتموها ألف سنة لما تغيرت نظريتها العدائية لكم، وهي بذلك مصممة على محوكم ومحو دينكم وعروبتكم وجميع مقوماتكم. ثم يدعوهم جميعاً إلى الكفاح المسلح.. فهو الذي يسقط علينا الواجب ويدفع عنا وعن ديننا العار[4].

---

(1) اثار الإمام محمد البشير (20/5).

(2) جمعية العلماء المسلمين والثورة التحريرية، محمد بن ساعو ص 82.

(3) اثار الإبراهيمي (21/5).

(4) المصدر نفسه (21/5).

لقد كانت هذه البيانات الصادرة كلها في العشر الأوائل من نوفمبر 1954م، عن أهم شخصية دينية وسياسية جزائرية ـ من غير أن يطلب منه طالب أو يضغط عليه ضاغط ـ كانت تلك البيانات ضربة قاضية على كل مناورة يمكن أن تلجأ إليها فرنسا في حال سكوته(1).

واقترح الشيخ الإبراهيمي على شيخ الأزهر يوم 12 نوفمبر 1954، أن يدعو إلى الجهاد ضد فرنسا، كل هذه المواقف الأولية لقيادة الجمعية في الخارج ؛ جعلت الضابط الفرنسي «سيرفي» يتهم الجمعية بالضلوع في تفجير الثورة(2).

لقد قدمت تلك البيانات دعماً قوياً للمجاهدين، ونفخت في الثورة روحاً، وهي في أوهن مراحلها، حيث أخرجت الشعب الجزائري من التردد والحيرة اللذين كان يمكن أن يُصاب بهما، لجهله بمصدر الثورة وتوجهها، فبيانات الإمام الإبراهيمي شهادة للشعب الجزائري على شرعية المولود ـ الثورة ـ وصحته، وكما أدت هذه البيانات دوراً هاماً في تقبل الشعب بسرعة للثورة، وكانت بمثابة جواز مرور للمسؤولين عنها ـ الثورة ـ إلى قادة جل الدول العربية والإسلامية، الذين لم يكونوا يعرفون مسؤولاً واحداً من مسؤولي الثورة، وزاد مِن تقبُّل قادة تلك الدول للثورة ومسؤوليها طلبُ الإمام الإبراهيمي من شيخ الجامع الأزهر يوم 12 نوفمبر 1954م أن يدعو المسلمين إلى الجهاد ضد فرنسا، الأمر الذي جعل الضابط الفرنسي «سيرفي» المتخصص في علم الاجتماع يكتب في جريدة «لُومُوند»: إن جمعية العلماء هي المسؤولة عن هذه الحوادث(3).

ولاشك أن هذا الضابط يعلم أن الجمعية ليست هي التي أطلقت الرصاصات، ولكنها هي التي حررت عقول من أطلقوا تلك الرصاصات وأنفسهم، فثورة الفاتح من نوفمبر كانت ترجمة عملية لفكرة جمعية العلماء التي أسسها ابن باديس.

لقد أزعجت هذه البيانات الذين في صدورهم غلّ، وفي قلوبهم مرض، لجمعية العلماء ولرئيسها الإمام محمد البشير الإبراهيمي، لأنهم كانوا يتمنون أن لا تؤيد الجمعية جهاد شعب علّمته معنى الجهاد ووجوبه، أو أن يتأخر تأييدها فيصبح لا قيمة له، كإيمان فرعون الذي لم يعلنه إلا بعد أن أدركه الغرق، فرُدّ عليه لذلك، فإن بعض من كتبوا عن ثورة الشعب الجزائري أهملوا الإشارة إلى هذه البيانات وموقف الإمام محمد البشير الإبراهيمي من جهاد شعبه، ومنهم من أشار إلى تلك البيانات وإلى ذلك الموقف على استحياء، ومنهم من فرّق بين موقف الإمام الإبراهيمي وبياناته وبين موقف الجمعية، فقالوا إن هذه البيانات تعبير عن موقف شخصي للإمام الإبراهيمي الذي كان بالقاهرة، وبالتالي فهي لا تعبر عن موقف الجمعية.

ولنسأل هؤلاء عن الحقيقة التاريخية: إذا كان الإمام يتكلم باسمه الشخصي وليس باسم جمعية العلماء، فلماذا يوقع تلك البيانات بصفته رئيس جمعية العلماء؟ ولماذا يصرّ على ذكر مصدر تلك البيانات وهو مكتب جمعية العلماء بالقاهرة؟

---

(1) المصدر نفسه (21/5).

(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والثورة التحريرية ص 83.

(3) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (21/5).

ولنسألهم مرة أخرى: لو لم تكن تلك البيانات باسم جمعية العلماء ؛ فلماذا سكت عنها هؤلاء العلماء؟ ولماذا لم يستنكروها؟ أو يتبرؤوا منها؟ أو يشجبوا موقف الإمام؟

إن الحقيقة التاريخية تقول: إن جمعية العلماء برئيسها كانت متقدمة على غيرها في احتضانها لجهاد الشعب الجزائري.

لقد كان في إمكان الإمام الإبراهيمي أن يلتزم الصمت وينتظر تطور الأوضاع كما فعل بعض السياسيين المحترفين، أو أن يندد بالإرهاب ويستنكر «العنف» كما فعل الشيوعيون أدعياء الثورة، أو أن يصدر البيانات باسمه الشخصي ليجنّب الجمعية التي يرأسها ويقودها السوء، ولكنه أدرك بحسّه العميق وتحليله الدقيق أن هذا الذي وقع في أول نوفمبر بالجزائر هو «ثورة» وليس «فورة»، وأن هذه الثورة تتميز «بحسن التدبير والنظام والإحكام»، وأن الثورة شعبية غير متأثرة بالتأثيرات الحزبية، وأن طابعها عسكري حازم عارف بمواقع التأثير.

من أجل ذلك فهذه الثورة في أمسّ الحاجة إلى مساندة هيئة ذات مصداقية لدى الشعب الجزائري، وتزكية شخصية موثوق بها لديه، ليحتضن الثورة ويُمِدّها بأمواله وبنيه.

ولم يكن في الجزائر انذاك هيئة موثوق بها وبرئيسها وأعضائها إلا جمعية العلماء، فالشيوعيون لا تأثير لهم على الشعب الجزائري، لا قبل الثورة ولا في أثنائها ولا بعدها، فإدارتهم إدارة مكتبية ـ بروقراطية ـ لا صلة لها بالشعب، ولم تكن قادرة على تحليل الحالة الثورية تحليلاً صحيحاً، وكان خضوع الحزب الشيوعي الجزائري للحزب الشيوعي الفرنسي ـ خضوعاً كبيراً ـ وكانوا أسارى نظريتهم الخيالية القائلة: بأنه من المحال تحرير الوطن الجزائري قبل انتصار طبقة العمال في فرنسا[1]، والقائلة بنفي: صفة الثورة عن طبقة الفلاحين عامة والفلاحين الجزائريين منهم خاصة[2].

وأعضاء حزب أحباب البيان كانوا محدودي التأثير على الشعب الجزائري بسبب منطلقاتهم الفكرية التغريبية، وإيمانهم بإمكانية الوصول إلى نوع من الكيان السياسي المشترك بين الجزائريين والفرنسيين تحت السيادة الفرنسية. وأما أعضاء حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، فقد كان بأسهم بينهم شديداً، فقد اختلفوا وانقسموا على أنفسهم.

إن بيانات الإمام الإبراهيمي المتتالية المؤيدة للثورة، الداعية إلى تأييدها، كانت مدداً إلهياً لها في أول عهدها وفي مرحلة ضعفها، لأنها جعلت الشعب الجزائري يطمئن إليها ويثق بها، ويقبل عليها من غير تردد ومن غير ضغط أو إكراه، فدفع الجماهير إلى الثورة ضد المستعمر يكون دائماً باسم الدين، لأن الجزائري ـ الذي لا يملك شيئاً يقتات به ـ ليس لديه إمكانية أخرى للتعبير عما يريده وما يرفضه في المجال السياسي ؛ سوى السير وراء ما يعتقد أنه طبقاً لعقيدته الإسلامية، ومن هنا كانت استجابته لتوجيه العلماء.

---

(1) اثار الإمام محمد البشير (23/5).

(2) المصدر نفسه (23/5).

ويلعب هؤلاء العلماء دوراً كبيراً في إشعال الروح الدينية لدى الشعب، وفي دفعه من الناحية الدينية إلى الثورة ضد المستعمرين. ولم يمض إلا ثلاثة أشهر منذ إعلان الجهاد حتى تداعى أبناء الجزائر المقيمون في القاهرة وفي مقدمتهم الإمام الإبراهيمي، وحرروا ميثاقاً وأسسوا تنظيماً سُمي «جبهة تحرير الجزائر»، لخدمة الجزائر والكفاح في سبيل تحريرها واستقلالها مساندين بذلك جيش التحرير.

وراح الإمام الإبراهيمي ـ وقد أنقضت السنون ظهره وأوهنت السبعون عظمه ـ يتنقل بين البلدان العربية ليحثّ مسؤوليها على تقديم المساعدات للجهاد الجزائري، ويدعوهم إلى الضغط على فرنسا ويطالبهم بمقاطعتها اقتصادياً، ومن هذا القبيل ما شهد به أحد المسؤولين العرب انذاك محمد فاضل الجمالي المسؤول العراقي حيث قال: كان ـ الإبراهيمي ـ يلتقي بصاحب العرش وولي العهد، كما كان يلتقي برئيس الوزراء ووزير الخارجية، حاثاً إياهم على نصرة الجزائر سياسياً وعسكرياً ومادياً[1].

ولاشك في أن للشيخ بشير تأثيره الأكبر على الوفد العراقي ـ في الأمم المتحدة ـ في اندفاعه دفاعاً عن الجزائر، كما كانت له جهود موجّهة إلى رجال الفكر القومي والصحافة وعلماء الدين، يُذكي فيهم الحماس والغيرة دفاعاً عن الجزائر، ففي كل الأحوال كان الشيخ البشير ـ رحمه الله ـ محفزاً للحكومة العراقية، ومتتبعاً ما يجري في العراق من أجل الجزائر المجاهدة[2].

وقد سجل الشعراء بعض نشاط الإمام الإبراهيمي، الذي لم تقعده الأمراض والسن عن السعي الحثيث لحشد التأييد الشعبي والرسمي لقضية وطنه، ومن ذلك ما جاء في قصيدة «الفجر الوليد» للشاعر العراقي مصطفى نعمان البدري:

الله أكبر من جلال الفجر يستبق البشائر
حين أفاق على الحياة تدبُّ من قلب الجزائر
وأطلّ من خلف الخنادق يهزم الليل المغادر
فأعاد للإيمان ديدنه مع البأس المخاطر
وأجال في خير الربوع مسالك النصر المؤازر
غنّاء تُقبلُ بالسّنا المصطف في الأفق المظاهر
فإذا البشير يجوب افاق البلاد بقلب كابر
ويحاضر العُربان في تاريخ أمجاد غوابر
ويحشد الرأي العميم لنصرة البلد المصابر
فيمدّ فيهم نخوة الشجعان تثأر للعوائر[3]

(1) محمد فاضل الجمالي: الشيخ البشير الإبراهيمي كما عرفته، مجلة الثقافة عدد 87 ا الجزائر 1985م ص 124 ـ 126.
(2) المصدر نفسه ص 126.
(3) الثورة الجزائرية في الشعر العراقي، عثمان سعدي (403/2).

وكان الإمام الإبراهيمي ـ عندما لا تسمح له ظروفه الصحية أو التزاماته بالتنقل ـ يزوّدُ مبعوثي الثورة إلى بعض البلدان العربية برسائل إلى علمائها من ذوي التأثير المعنوي والكلمة المسموعة، ليسهلوا لدى سلطات بلدانهم مهمة أولئك المبعوثين.

وقد بلغ اندفاع الإمام الإبراهيمي في الدعوة إلى مساندة وطنه والعمل على دعم جهاده إلى درجة كبيرة من الاهتمام، حيث بعث برقية إلى الملك سعود يقترح عليه تكليف الأستاذين أحمد الشقيري وعبد الرحمن عزام، أو أحدهما «بالاستعداد لمتابعة قضايا الجزائر والدفاع عنها».

وقد قدّم الإمام الإبراهيمي للثورة الجزائرية خدمات كبيرة في الميدان الإعلامي بأحاديثه التي ألقاها في الإذاعات العربية، وخاصة في إذاعة «صوت العرب» سنة 1955م، حيث لم يكن للثورة انذاك جهاز إعلامي منظم، فكان لتلك الأحاديث دورها الكبير في تحسيس الشعوب العربية بالقضية الجزائرية والمسارعة إلى دعمها، كما كان لها تأثير بالغ على الجزائريين للالتفاف حول الثورة، وتأييدهم لها، ومساعدة أسر المجاهدين والشهداء[1].

وكانت بيانات الإبراهيمي لا تنقطع في دعم الثورة، ومن أشهرها نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد، حثه فيه على المشاركة في الجهاد من أجل تحرير البلاد من الهيمنة الاستعمارية، وطلب من الجزائريين الصبر في سبيل الحق، وأكد الإبراهيمي أنه يخجل من أن يراه الله ويرى الجزائريين مقصرين في الجهاد لإعلاء كلمة الله: إنني كلما استعرضت الواجبات وجدت أوجبها وألزمها في أعناقنا الجهاد المقدس[2].

وفي يوم 15 نوفمبر 1954م صرّح الإبراهيمي عن طريق راديو القاهرة قائلاً: أيها المسلمون الجزائريون!. هذا هو الصوت الذي يُسمع الاذان الصمّ، هذا هو النور الذي يفتح الأعين المغلقة، إنكم مع فرنسا في موقف لا خيار فيه نهايته الموت، فاختاروا موتة الشرف على حياة العبودية التي هي شر من الموت، سيروا على بركة الله وتوفيقه إلى ميدان الكفاح المسلح، فهو السبيل الأوحد إلى إحدى الحسنيين: إما موت وراءه جنة، وإما حياة وراءها العزة والكرامة[3].

ويروي الشيخ محمد الغزالي أن الإبراهيمي خاطبه قائلاً: إنكم بُليتم بالاستعمار مثلما بُلينا.. لكنكم تعلمون أن ما أصابنا نوع شاذ من الاستعمار يشبه السرطان من بين أنواع العلل المهلكة.. ومن المستحيل الإبقاء عليه، أو البقاء معه، إن معنى ذلك الموت الخسيس، وأولى بنا أن نموت جميعاً في ميادين الكفاح والتضحية من أن نموت على هذا النحو الذي يراد لنا[4].

ويخاطب الورتيلاني ـ أحد تلاميذ الإبراهيمي ـ الأمة الجزائرية: لقد كنا ندعو إلى العلم والتعليم حين كنا نعد العدة لهذا اليوم، أما وأن الأمة الجزائرية أدركت واجبها وفتحت واجهتها للجهاد والكفاح المسلح ؛ فإن على

(1) اثار الإمام محمد البشير (26/5).

(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، محمد بن ساعو ص 84.

(3) المصدر نفسه ص 84.

(4) المصدر نفسه ص 84.

كل أبناء هذه الأمة أن يحمل كل ما أمكنه من السلاح ليخوض به المعركة، ويكتب بدمه اخر سطر من سجل الجهاد المقدس فوق تربة الوطن[1].

انعقد اجتماع القاهرة في جانفي1955م بمنزل السيد فتحي الديب، وحضره الشيخ البشير الإبراهيمي والفضيل الورتيلاني عن جمعية العلماء، وأحمد بيوض عن حزب البيان، وأحمد مزغنة عن المصاليين، وبينما مثل المركزيين الشاذلي المكي وحسين لحول، ومن جانب جبهة التحرير حضر محمد يزيد وأحمد بن بلة ومحمد خيضر وحسين ايت أحمد، وانتهى اللقاء بتوقيع ميثاق جبهة تحرير الجزائر، الذي أذيع عبر أثير صوت العرب لمدة ثلاثة أيام متتالية، وكانت هذه الجبهة تكتلاً للنضال من أجل الحرية والاستقلال[2].

لقد أيد الإبراهيمي والفضيل الورتيلاني الثورة التحريرية منذ انطلاقها، كفعل شعبي يستحق المثابرة والكفاح الطويل والشاق حتى دون معرفة حقيقة الجهة التي فجّرتها، وساهم الإبراهيمي في التنظير لما يجب أن تكون عليه الثورة، حيث كتب في بعض مقالاته بُعيد انطلاق الثورة: سبل تحقيق أهدافها والاستراتيجية الواجب تطبيقها[3].

2 . قادة جمعية العلماء في الداخل:

قال أحمد توفيق المدني أحد قادة جمعية العلماء في الجزائر أنه خلال زيارة قادته لباتنة في أكتوبر 1954م، علم من مصدر موثوق أنه بعد أيام ستندلع الثورة، وحرصاً منه على تلبية نداء الوطن استدعى أعضاء المجلس الإداري للجمعية لاجتماع في 1 نوفمبر 1954م، وقرر المجلس مساندة الثورة دون تحفظ. كما بعث الأمين العام رسالة إلى الرئيس بالقاهرة يبلغه بأمر الثورة ويدعوه إلى تأييدها[4].

وخلال شهر جانفي 1955م، نشرت الجمعية بياناً للشعب الجزائري حررته وقدمته للمجلس، فصادق عليه ونشر بجريدة البصائر عدد 304 ومما جاء فيه: إن البلاد في حاجة إلى تغيرات أصولية أساسية تتناول سائر الأسس التي بني عليها النظام الجزائري، لا إلى إصلاحات صورية طفيفة تؤيد الحالة الحاضرة المنكرة.. ولا تقبل الأمة بأية حال ولا ترضى عن برنامج إصلاحي ؛ إلا إذا حقق رغبتها التحريرية الكبرى في كل ما يتعلق بدينها ولغتها[5].

من الفقرتين وغيرهما نتأكد تماماً أن جمعية العلماء قد ثبّتت موقفها من الثورة الصادر يوم 2 نوفمبر 1954م من طرف رئيس الجمعية، ومن داخل الجزائر من علماء الجمعية الذين دعموا العمل الثوري، الذي يعمل على التحرر من كل قيود الاستعمار، وأما ما ورد في البصائر فيمكن أن نعتبره أسلوب «تقية» لصرف نظر الاستعمار ورفع يده عن الجمعية، وخاصة أن هذا البيان جاء بعد شهرين تقريباً من اندلا ع الثورة المسلحة.

(1) المصدر نفسه ص 85.
(2) المصدر نفسه ص 86.
(3) المصدر نفسه ص 87.
(4) المصدر نفسه ص 88.
(5) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، محمد بن ساعو ص 92.

من خلال بيانات الجمعية بالقاهرة 15/11/2 نوفمبر 1954م، وبيانها في الجزائر جانفي 1955م، وأغلب افتتاحيات جريدة البصائر ؛ يتبين أن جل عناصر الجمعية كانوا مع الثورة المسلحة كسبيل وحيد للتحرر[1].

أ. الشيخ العربي التيسي:

تعدّ مدارس الجمعية ومعهدها بقسنطينة نموذجاً صادقاً في التأكيد على انخراط الجمعية في دعم الثورة منذ اندلاعها، حيث تجند معلموها وشيوخها وطلابها في إسناد ودعم الثورة، وهو ما نستشفه من خلال استعراضنا لمساهمة خلية معهد ابن باديس الثورية، ودور أساتذته في دعم الثورة التحريرية.

فقد كان الشيخ العربي التبسي يدير المعهد عندما اندلعت شرارة ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م، وقد عرف عن الشيخ وطنيته الصادقة وأفكاره الثورية، تلك الأفكار التي نشرها على نطاق واسع في بلدته تبسة، وعبر الوطن، ومما يؤثر عنه أنه عندما كان يلقي دروسه الوعظية اليومية في تبسة سأله أحد المستمعين عن قصة أهل الكهف السبعة الواردة في القران الكريم هل هي حقيقة؟ فما كان من الشيخ سوى أن أجابه جواباً سياسياً رمزياً بالقول: ما نعرف غير سبع ملايين رقود في الجزائر أنت واحد منهم، ورسالة التبسي المشفرة واضحة، وهي إشعار الجزائريين بواقعهم الاستعماري المرير وبضرورة تفطنهم لتغييره[2]، وطبعاً قصة أصحاب الكهف حقيقية وفيها دروس في الصراع بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر، والعاقبة للموحدين المتقين.

كما تدل وقائع أخرى كثيرة أوردها مقربون منه عن ثورية التبسي الجامحة، ومنها أنه وخلال الحرب العالمية الثانية ألقى الألمان بالمظلات أسلحة في جبال النمامشة بقصد استعمالها ضد فرنسا، لكن الإدارة الفرنسية طالبت السكان بتسليمها لها، فتوجه السكان لسؤال التبسي في الأمر، فقال لهم: أرجعوا قليلاً منها واحتفظوا بأكثرها، وسوف يأتي يوم استعمالها، ولما بلغ ما قاله الشيخ للإدارة الفرنسية لفقت له تهمة التعاون مع الألمان، وسجنته بسجن «لامبيز» ثم أطلقت سراحه لعدم ثبوت التهمة.

وقد نقل عنه المقربون منه أنه عندما زار مصر في جولته المشرقية والتقى عبد الناصر في سبتمبر 1954م، طلب منه صراحة أن يساعد الجزائريين بالسلاح، وهو ما ترك انطباعاً جيداً لدى عبد الناصر، الذي كان الداعم الأساسي للثورة وهي في مهدها[3].

وفي اليوم الثاني لاندلاع ثورة 1954م خرج التبسي من منزله بتبسة، فلقي شخصين مناضلين يعرفهما، فدعا أحدهما وسلمه مبلغ خمسمائة ألف فرنك طالباً منه إيصالها للجماعة، بعد أن أبلغه أنها من حرّ ماله وليست من مال الجمعية[4].

---

(1) المصدر نفسه ص 92.

(2) اسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس وطلابه في الثورة التحريرية، د . عبد الله مقلاتي ص 51.

(3) المصدر نفسه ص 52.

(4) المصدر نفسه ص 269.

وقد كشفت شهادة مساعده إبراهيم مزهودي حقائق أخرى عن مساهمة التبسي وجمعية العلماء في الثورة، حيث يذكر مزهودي أن تشجيع الشيخ التبسي كان يقف وراء التحاقه بصفوف الثورة، ويورد حادثة وقعت في بداية الثورة، إذ اتصل بعض قادة الثورة ومنهم شيخاني بشير بالشيخ العربي في تبسة وطلبوا منه مساعدة الجمعية في توفير الألبسة والأغطية لمواجهة برد الشتاء القارس، وأعربوا عن رغبتهم في لقاء الشيخ العربي خارج المدينة وفي مكان قريب من الجبل الأبيض.

فاتصل الشيخ العربي بمزهودي وأعلمه باتصال الجماعة، وبعد التشاور تبين أن خروج الشيخ يثير الشبهات، ويمكن اكتشافه من قبل الإدارة الفرنسية وعيونها، وتقرر أن يقوم بالمهمة مساعده مزهودي.

وتم إرساء اتصال وثيق بين الجمعية وقيادة الأوراس النمامشة، انطلاقاً من جبل تازينت، وامتد الاتصال بعدها إلى قيادة الشمال القسنطيني وعبان بالعاصمة، حيث طلب عبان من الشيخ التبسي تجنيد الجمعية لربط الاتصال بين قيادات الثورة وتقديم الدعم للثورة، وهي مهمة كلف بها التبسي مساعده مزهودي، وذلك بحكم وظيفة هذا الأخير مفتشاً للتعليم وعلاقاته بمعلمي المدارس الحرة في كامل الشرق الجزائري. وهكذا نهض التبسي ومزهودي بمهام جسورة في بداية الثورة وجعلا خلية الدعم الأساسية تتخذ من معهد ابن باديس مقرا[1].

وقد كان التبسي يتعهد نشاط هذه الخلية، ويؤدي بعض المهمات والرسائل التي يكلفه بها عبان، وتعاون معه في مسائل التنسيق وجمع المال وتجنيد إمكانيات الجمعية في خدمة الثورة، وقد واصل التبسي تهجمه على الاستعمار في خطبه وكتاباته، وتعرض للاعتقال مرات عدة.

وفي 4 أبريل 1957م قررت الإدارة الفرنسية التخلص منه، فاختطفته عصابة اليد الحمراء من منزله واغتالته، وأنكرت الإدارة الفرنسية علمها بالحادث، ولا يعرف إلى اليوم له قبر، وقبل اعتقاله الأخير واغتياله زار مدينة قسنطينة وتفقد المعهد وسير الدراسة، واجتمع بالشيوخ والطلبة وأوصاهم خيراً بالدين والوطن، وقد أثار خبر مقتله صدمة داخل الوطن وخارجه[2].

ب . مزهودي إبراهيم:

من رجال جمعية العلماء، ومسؤول خلية دعم الثورة بالمعهد، ورائد في جيش التحرير الوطني، ولد بالحمامات قرب تبسة عام 1922م. تلقى تعليماً دينياً بمسقط رأسه وعلى يد العربي التبسي بتبسة، وواصل تعليمه بجامع الزيتونة إلى أن تخرج منه عام 1946م بشهادة التحصيل، وعاد إلى أرض الوطن وانخرط في نشاط جمعية العلماء، وتولى عدة مسؤوليات في الإشراف على التعليم الحر، منها مفتش مدارس التعليم بالشرق الجزائري.

وانضم إلى جبهة التحرير الوطني منذ ميلادها بتوجيه من العربي التبسي، حيث ربط الاتصال بين قيادات الثورة وعبان، وتولى عدة مسؤوليات في مدينة قسنطينة، حيث أنشأ خلية لدعم وإسناد الثورة بمعهد ابن باديس، وأنجز بنجاح عدة مهام متعلقة بالتنسيق والاتصال والتموين والتجنيد، وذلك إلى غاية اكتشاف أمره في 10

(1) اسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس ص 53.

(2) المصدر نفسه ص 65.

مارس 1956م والتحاقه بالشمال القسنطيني، وعمل مساعداً لزيغود يوسف، وكان له دور هام في كسب بعض شيوخ الجمعية وطلبة معهد ابن باديس لصالح الثورة، وحضر مؤتمر الصومام وعين رائداً واقترح لقيادة الولاية الأولى ولكنه أبى، فكلف بمهمة رأب الصدع بين قيادات النمامشة، وكذا إعادة النظام إلى قاعدة تونس المضطربة، فواجه صعوبات جمة في أداء مهامه، خاصة مواجهة المعارضين لقرارات الصومام[1].

لقد تسلم مزهودي مهمته منذ أفريل 1955م، حيث بدأ عبان ينشط بالعاصمة، وظل يؤدي مهمته السرية في ربط الاتصال بين قادة الثورة نحو عام كامل. وفي فيفري 1956م اكتشف أمره، حيث علم عبان عن طريق عيونه في الإدارة العامة الفرنسية، أن رأس مزهودي مطلوب في قسنطينة، وبعد مشاورات بين عبان والتبسي ومزهودي تقرر التحاق هذا الأخير بقيادة يوسف في أوائل مارس. وقد كانت الخلية الأم تضم في عضويتها كل من بوغابة مصطفى ومحمد الميلي، وقد أنشأت فروعاً تابعة لها في مدن الشرق الجزائري، وكانت تنسق عملها مع خلايا الفداء المشكلة بمدينة قسنطينة، ومنها الخلايا التي يتولاها كل من: مصطفى عواطي، وصالح بوذراع، ومسعود بوجريو، ولما التحق مزهودي بالجبل استخلف بوغابة في تولي مسؤولية خلية المعهد. وفي بداية نوفمبر 1956م اضطر بوغابة للالتحاق بالجبل إثر محاولة اعتقاله، وترك المسؤولية للطاهر سعدي حراث الأستاذ بالمعهد وذلك إلى غاية جوان 1957م، حيث انتقل متخفياً إلى تونس، واستخلف الصادق مخلوف في قيادة المهمة، فواصل مهمته إلى غاية اعتقاله إثر أسر مساعده أحمد حماني متلبساً في أواسط أوت 1957م، وفي الوقت ذاته أسر مساعده حمادي الهاشمي، وتمكن محمد كحلوش من الفرار للجبل[2].

وخلال السنة التي نشّط فيها مزهودي الخلية، قدمت للثورة خدمات جليلة لم ينفض عنها الغبار، ولم يكن معروفاً منها سوى أن مرسولي عبان، عمارة رشيد وسعد دحلب، اتصلا بقيادة الشمال القسنطيني عن طريق خلية المعهد التي يديرها مزهودي، ولكن نشاط الخلية كان واسعاً وثرياً، وإن كان أهمه ربط الاتصال بين قيادة الثورة في العاصمة والمناطق الأولى والثانية والثالثة[3].

إن خلية الدعم التي أنشأها مزهودي من معلمي المدارس الحرة، لعبت الدور الأساسي في ربط الاتصالات بين قيادة الثورة، وكان هدفها الأولي تقديم الدعم والمساندة للثورة، واتخذت من معهد ابن باديس مقراً رئيسياً وبه مكتب مسؤول الخلية مزهودي وأساتذة وطلاب المعهد، وأنشأت فروعاً لها في الشرق الجزائري الكبرى اعتماداً على سواعد معلمي المدارس الحرة وأعضاء جمعية العلماء ومحبيها. وبواسطة شبكة فروعها مكنت الخلية أساتذة المعهد وطلابه من لعب دور طلائعي هام في دعم الثورة، كما أنها قامت بأدوار هامة في دعم ومساندة الثورة في وقت مبكر من اندلاعها، ومن تلك الأدوار نذكر:

. مهمة الاتصالات:

(1) اسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس ص 74.

(2) المصدر نفسه ص 55.

(3) المصدر نفسه ص 55.

قامت الخلية بمهمة تجديد وإحياء قنوات الاتصال المنقطعة بين مسؤولي الجبهة في العاصمة وقادة الثورة في المناطق بالداخل وفي الخارج عبر تونس، وذلك في ظروف صعبة تميزت بازدياد حجم الضغط العسكري الفرنسي، واستشهاد أو اعتقال بعض قادة المناطق، فكان على عبان أن يتواصل مع القيادة التي خلفت ابن بولعيد في الأوراس وديدوش في الشمال القسنطيني، وأن يربط الاتصال بتونس، واهتدى إلى شبكة الدعم بمعهد ابن باديس، حيث تكفل الشيخ التبسي وإبراهيم مزهودي بأداء المهمة وتجنيد أساتذة المعهد وطلابه لإنجاحها.

وبذلك أعادت الخلية ربط الاتصالات المقطوعة ومدّ قنوات جديدة، وأسهمت في ربط الاتصالات وبعث الحيوية المطلوبة لتواصل قيادات الثورة، فبخصوص منطقة الأوراس كلفت الخلية الشيخ الطاهر حراث الاستاذ بالمعهد محاولة ربط الاتصال في منطقة تبسة بواسطة الأستاذين العيد مطروح ومحمد الشبوكي. وكلفت الخلية تلميذي المعهد عالية بلقاسم والهاشمي حمادي إيجاد اتصال مع قيادة الأوراس عن طريق خنشلة. وكلفت أستاذي المعهد أحمد السرحاني وإبراهيم مازوزي، والشيخ محمود الواعي الذي كان يتردد على قسنطينة، ومدير مدرسة عين التوتة محمد درنوني بالسعي لربط الاتصال بقيادة الثورة في باتنة، وبواسطة هذه القنوات استطاع قادة الثورة في العاصمة من الاطلاع على أوضاع منطقة الأوراس التي كانت متردية عقب استشهاد ابن بولعيد وتصدوا لمعالجة مشاكلها وأزمتها الحادة[1].

وبخصوص ربط الاتصال بقيادة الخارج عبر تونس، فقد كانت المهمة دقيقة وحيوية، وخاصة في ظل عسر الاتصالات وأهمية تونس كقاعدة دعم استراتيجية.

وكانت المهمة الأساسية حسب توجيهات عبان تتمثل في تبليغ أو تلقي بعض الرسائل المكتوبة أو الشفهية بواسطة المسافرين خصوصاً. وتؤكد شهادة مصطفى بوغابة أن جوهر المهمة كان ينحصر في أمرين: طلب تزويد الثورة بما تحتاجه من سلاح وعتاد، وإبلاغ قيادة الخارج دعوة المشاركة في مؤتمر الصومام، وقد أخذ الأمر الثاني المشار إليه طابع السرية التامة، حيث يذكر بوغابة أن: اخر مبعوث لنا في هذه المهمة إلى تونس في ربيع سنة 1956م أثناء التحضير لمؤتمر الصومام. الأخ الشاب عبد الحميد الإبراهيمي حفظه الله[2].

وسجل هذا الأخير فعلاً في شهادة حديثه أنه كُلف بمهمة إلى تونس في هذا الوقت من قبل مصطفى بوغابة، حيث قال: كنت مسؤولاً عن الطلبة الداخلين في المدرسة الفرنسية للمسلمين بقسنطينة، وفي عام 1955م التحقت عن عمر يناهز 19 عاماً بجبهة التحرير الوطني في ظل قيادة الأخ مصطفى بوغابة الذي لا يزال حياً، وفي عام 1956م انضممت إلى الولاية الثانية لجيش التحرير الوطني[3].

لقد أدى معهد ابن باديس واجبه الوطني على أكمل وجه وجند أستاذته وطلابه في خدمة الثورة، وفي هذا الشأن يقول بوغابة: ولقد واصل المعهد بأساتذته وطلابه المتواجدين بالمعهد ودار الطلبة. أثناء الدراسة.

(1) إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس ص 57.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه ص 59.

والموزعين على مدنهم ومداشرهم وقراهم أثناء مواسم الراحة الصيفية والأعياد الدينية والعطل الأسبوعية، لقد واصل هؤلاء جميعاً مهمتهم في خدمة الثورة بكل الإمكانيات والوسائل عبر مختلف أماكن تواجدهم، إلى أن ألقي القبض على مدير المعهد بالنيابة وعضو الخلية الأم الشيخ أحمد حماني بتاريخ 11 أوت 1957م.

وإثر إغلاق المعهد بسبب الحادثة السابقة، وما تبعه من مضايقة نشاط المدارس الحرة في مختلف الجهات ؛ كان مصير المعلمين والطلاب الالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني أو التجنيد في خدمة الثورة.

ولقد انخرط أساتذة وإطارات المعهد في خدمة ثورة التحرير الكبرى، وذلك منذ الأشهر الأولى لاندلاعها، حيث أسهموا بكل إخلاص وتفان في توفير ما تحتاجه الثورة من دعم وإسناد، وانخرطوا في خلية المعهد التي أنشئت عام 1955م بأمر من الشيخ التبسي والتحقوا بصفوف جيش التحرير[1].

وقد تحدث الدكتور عبد الله مقلاتي عن إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس في كتابه «إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس وطلابه في الثورة التحريرية» فأفاد وأجاد وذكر قائمة من الشهداء وترجم لهم، منهم:

. الشيخ العربي التبسي.

. وحوحو أحمد رضا.

. وجعفر محمد العدوي.

. وبوشمال أحمد.

. محمد الزاهي.

. وبوشاشية بلقاسم.

. محمد الطاهر مزيان.

. إبراهيم مازوزي[2].

وذكر الأساتذة المجاهدين والمناضلين وترجم لهم شيئاً من حياتهم:

. الشيخ محمد خير الدين.

. مزهودي إبراهيم.

. بوغابة مصطفى.

. أحمد حماني.

. العباسي ابن الشيخ الحسين.

. محمد الميلي براهيني.

. الطاهر سعدي «حرات».

. عبد الرحمن شيبان.

---

(1) المصدر نفسه ص 63.

(2) المصدر نفسه ص 64 . 71.

ـ نعيم النعيمي.

ـ الصادق مخلوف، ومحمد كحلوش، وعبد المجيد حيرش، وعلي مرحوم، وأحمد حسين، ومحمد الحفناوي، وعبد الرحمن بلغمراني، وعمر جفري، والسعيد الزموشي، وعبد اللطيف السلطاني، ورمضان محمد الصالح، وعبد القادر الباجوري، وأحمد السرحاني، والمولود النجار[1].

وارتبط طلبة جمعية العلماء وخصوصاً معهد ابن باديس بالثورة التحريرية في ظروف خاصة، وذلك قبل اندلاعها وفي مرحلتها الأولى 1954م ـ 1957م، حيث كانوا بفعل تكوينهم العربي والديني، ووطنيتهم وحماستهم الجهادية المرشحين الأوائل للالتحاق بصفوف الثورة.

وساهم طلاب جمعية العلماء في العمل الفدائي والتعبوي الداخلي والخارجي. وقد ذكر الدكتور عبد الله مقلاتي في كتابه بعض أسماء الطلبة الشهداء وترجم لهم منهم: محمد لعموري، وإسماعيل مختاري، ونور الدين الصعيد، والصادق بوكريشة، وعثمان عثماني، وعبد الله خبابة، وبلقاسم بن عافية، وعلي سعادة، ومحمد الطاهر زعروري، وعبد الحميد خبابة، والهاشمي عبد الصمد، وعلي قالة، وإدريس يخلف، وموسى تيطوح، وإبراهيم يخلف، ومحمد قدوري، ومحمد بخوش، وعبد الهادي سويسي، محمد شهرة، وموسى بعطوش، وعمار بلالطة، والحاج طيايبة، وحملاوي قنفود، ولخضر بشان، وعبد الرحمن عبداوي، ومحمد شعباني، وغيرهم ممن كان لهم تأثير ملموس في ثورة الجزائر[2].

إن طلاب جمعية العلماء ومدارسها ومعاهدها انخرط الكثير منهم في صفوف الثورة وقاموا بأعمال مختلفة، وإنهم كانوا أوفياء لرسالة جمعية العلماء، فقدموا خدمات هامة للثورة في الميدان السياسي والعسكري والدعوي والتعبوي ساهم في تحرير الجزائر من الاحتلال الفرنسي.

إن معهد ابن باديس نجح في أداء دوره العلمي والحضاري والسياسي، حيث كون أساتذته نخبة من الطلاب عربية اللسان إسلامية التوجه وطنية المشاعر، وكانت سباقة للتضحية من أجل تجسيد ثوابت الشخصية الوطنية والتحرر الوطني.

إن معهد ابن باديس يعتبر مقياساً لدرجة النضج الذي وصل إليه الجزائريون، في إطار الثقافة العربية الإسلامية، مقابل الثقافة الفرنسية الدخيلة التي عمرت طويلاً، وإن هذه المؤسسة التعليمية تعتبر خطوة هامة لإعادة بناء الشخصية الوطنية الجزائرية.

لقد عمّر معهد ابن باديس نحو عشر سنوات، خرّج خلالها الاف الطلاب من مختلف مناطق الوطن، بعضهم انخرطوا في صفوف الثورة ولقوا الشهادة، وبعضهم الاخر واصلوا أداء الرسالة على أحسن وجه وأسهموا في بناء الدولة والمدرسة الجزائرية الحديثة[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 72 . 91.

(2) المصدر نفسه ص 104 . 163.

(3) المصدر فسه ص 167.

إن جهود شيوخ وأبناء معهد ابن باديس الذين ساهموا في الثورة ولعبوا دوراً أساسياً في المرحلة الأولى منها، حيث تكفلوا بربط الاتصالات بين قيادات الثورة، وجعلوا من المعهد ودار الطلبة مركزاً للثورة في مجال التوجيه والدعم وجمع الاشتراكات، وانخرط أساتذة وطلاب من المعهد في جيش وجبهة التحرير.

لقد كانت أفواج جموع طلاب معهد ابن باديس دعماً أساسياً للثورة وخاصة في مرحلتها الأولى، ففي ظروف مختلفة وعبر مراحل متعددة أسهم هؤلاء الطلاب بدور هام في صفوف جيش التحرير، أو في مهمات سياسية وإعلامية وإدارية لجبهة التحرير الوطني[1].

وقد نقل الدكتور عبد الله مقلاتي في كتابه عن إسهام شيوخ معهد عبد الحميد ابن باديس وطلابه في الثورة التحريرية كل من:مصطفى بوغابة مكتوبة بخط يده بعنوان مدى مساهمة معهد ابن باديس في الثورة 1954م . 1962م[2]، وتكلم فيها عن الشبكة السرية المحكمة من الخلايا والمناضلين، التي عمل على وضع دعائمها الاستاذ إبراهيم مزهودي ورفاقه في الخلية الأم، والتي اتخذت من معهد ابن باديس ودار الطلبة مقرها الرئيسي أثناء وجوده على رأسها، أو بعد التحاقه بقيادة الولاية الثانية الشمال القسنطيني واستخلافه بزميله مصطفى بوغابة، بهذه الشبكة استطاع أساتذة المعهد وطلابه أن يكونوا في طليعة من لبوا نداء الواجب الوطني، بتجاوبهم مع الثورة تلقائياً واحتضانهم لها ومناصرتها بدون تحفظ أو تردد، وفيها تفاصيل كثيرة تدحض الافتراءات والأكاذيب التي حاولت تشويهها وإنكار دور جمعية العلماء وطلابها وشيوخها في الثورة.

وجاء في شهادة محمد كشود: .. فمن باب الوفاء والنزاهة فإن طلبة معهد عبد الحميد بن باديس ولا أقول جميعهم، فمعظمهم كان قد التحق بالثورة التحريرية في بدايتها ثم على مختلف مراحلها بطبيعة الحال، وكان ذلك حسب ظروف وإمكانيات كل طالب.

لقد ساهم بعض من طلاب معهد ابن باديس في انطلاقة نوفمبر 1954م، وأذكر ذلك كأمثلة لا على سبيل الحصر اسم شخصين أحدهما مازال على قيد الحياة أطال الله في عمره، وهو المجاهد قتال الوردي من الولاية الأولى التاريخية، وثانيهما رحمه الله المجاهد محمد روبيح المدعو «بالمرخي» من الولاية الثانية، كما

أن المدارس التابعة للفرنسيين أو المدارس الحرة وعلى رأسها مدارس جمعية العلماء المسلمين، ومعهد ابن باديس على الخصوص ؛ قد مدت الثورة بشباب يافع من ذكور وإناث، وذلك من أجل تأطير الثورة في مختلف مهامها في الداخل والخارج، فبالنسبة للبنات مثلاً، لقد أصبحن يتولين مهام مختلفة ففيهن من أصبحن جنديات أو فدائيات أو مرشدات أو ممرضات أو تتكفلن بالاتصال والمواصلات أو عاملات تلازمن جيش التحرير الوطني إلى غير ذلك من احتياجات الثورة.

---

(1) المصدر نفسه ص 168.

(2) المصدر نفسه ص 172.

وبالنسبة للشباب فقد تكفل بالمهام التي أنيطت له من قبل الثورة، فنجد أن معظم خريجي الجامعات سواء كانوا بالخارج أو بجامعة الجزائر، وكذا خريجي معهد ابن باديس، سواء الذين كانوا يزاولون دراساتهم في مختلف الدول العربية، أو الذين مكثوا بين صفوف الثورة التحريرية وأذكر على سبيل المثال لا الحصر اسمين:

أحدهما: تولى رئاسة الولاية الأولى التاريخية وهو الشهيد محمد لعموري.

وثانيهما: بلغ رتبة رئيس الولاية السادسة التاريخية وهو المرحوم محمد شعباني، وهما من خريجي معهد ابن باديس كما نعلم[1].

إن جمعية العلماء المسلمين كانت إحدى القوى الفاعلة في الساحة السياسية قبل اندلاع الثورة، فقد تعرضت لاتهامات من بعض الأطراف بعدم مساندة الثورة وتأييدها، وكان أحمد بن بلة من بين أشد المتحاملين على الجمعية حيث يقول:

كانت مواقف القوى السياسية كلها من الثورة سلبية بما فيها الحزب الرسمي لنا وهو الحركة من أجل انتصار الحريات، أما جمعية العلماء المسلمين فلم أطلع على شيء أصدرته لكنهم كانوا متفقين مع فرحات عباس، وفرحات عباس جمع اللجنة المركزية وندد بالعمل الذي قمنا به... كل الأحزاب نددت: جمعية العلماء لم تصدر بياناً لكنها كانت مع فرحات عباس ... لكن جمعية العلماء لم تصدر بياناً ضد الثورة مثل الاخرين، لكنها كما قلت من قبل كانت معروفة بصلاتها مع فرحات عباس، وفرحات عباس كان ضد الثورة في الأول من نوفمبر وهي كانت تتبعه[2].

وهذا كلام غير صحيح وفيه تحامل على جمعية العلماء، فقد ثبت بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة أن رئيس الجمعية محمد البشير الإبراهيمي ونائبه العربي التبسي وقفوا بكل ما يملكون مع الشعب في ثورته، كما أن الجمعية لم تكن يوماً من الأيام تابعة لفرحات عباس ولا لغيره، وإنما تابعة لتعاليم القران وسنة سيد الأنام والقيم والمبادأئ التي بذل الشعب الجزائري في سبيلها الغالي والنفيس.

إن مثل هذه التصريحات في وقتها ساهمت في تغطية الجهاد العظيم الذي قامت به الجمعية ويشوّه صورتها المشرقة، ولقد عمل خصومها على تهميشها والتشكيك في مواقفها الوطنية وطمس حقيقتها.

إن ما قاله السيد أحمد بن بلة رئيس الجزائر الأول بعد الثورة والتحرير بعيد عن الواقع والحقيقة واتهام بالباطل، وزعم أن: «الاتجاه الذي كانت تدعو إليه صحافة جمعية العلماء - على طول الخط - اتجاه غير ثوري لا يؤدي إلى الاستقلال أو المطالبة به، لذلك تجدها حينما قامت الثورة في أول نوفمبر 1954م وقفت صحافة الجمعية ضدنا، وكانت تطلق علينا صفات المراهقة والمغامرة والتهور».. «كانت هكذا منذ البداية إلى النهاية .. منذ تأسيسها إلى أن قامت الثورة، وهي اليوم على ذات المنهج المعادي للثورة».

---

(1) المصدر نفسه ص 200.

(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والثورة التحريرية ص 98.

ثم يخص الإبراهيمي بالذكر فيقول: «سأضيف لك شيئاً اخر من تاريخ الثورة مع الإبراهيمي غير معروف حتى الان أيضاً عندما رفض باعتباره رئيساً للجمعية أن يؤيد الثورة وبدأت صحافتهم تكتب ضدنا وبدؤوا هم بتحركات عملية ضدنا قررنا أن نعتقله».

هذه الاتهامات تنسب لزعيم وطني كبير كابن بلة، وهي اتهامات مبالغة من أجل إرضاء نزوات حزبية وتصفية حسابات قديمة، دون المبالاة بما تحمله من تناقض صارخ مع الحقائق التاريخية[1].

فعن أي اعتقال يتحدث بن بلة؟ ثم هل الإبراهيمي لم يساند الثورة وهو الذي أصدر بيانات الدعم من القاهرة وأحمد بن بلة كان هناك؟ فبماذا نفسر تحامل ابن بلة على الإبراهيمي؟

وانتقد يوسف بن خدة جمعية العلماء وزعم أنها لم تطالب باسترجاع الاستقلال، فهو يرى أن ابن باديس طالب بإلحاق الجزائر بفرنسا في المؤتمر الإسلامي 1936م، لذلك يعتبر بن خدة أن القول بمساهمة الجمعية في اندلاع الثورة يعد تزويراً أو تحريفاً للتاريخ وجب التصدي له.

وهذا أيضاً من الأخطاء، ودليل على عدم الإنصاف، وتعمّد إنكار الشمس في رابعة النهار الصيفي، إن الذين طعنوا في جمعية العلماء وحاولوا طمس الحقائق والشواهد التاريخية على دور جمعية العلماء في تخليص الشعب الجزائري لم يحالفهم الصواب، ولم يطلعوا على حقيقة النضال والكفاح المرير الذي قادته الجمعية بقيادة ابن باديس والإبراهيمي، لإعداد الشعب للجهاد في سبيل حقوقه وحريته واستقلاله.

إن بعض أصحاب التوجهات الماركسية والناصرية حاولوا طمس الحقائق تنفيذاً لأجندة معلومة للباحثين، ومحاولة إبعاد دور العقيدة والقران الكريم وروح الدين الإسلامي في تفجير ثورة المليون شهيد، ولقد حاولت الصحف المصرية تشويه موقف الجمعية من الثورة، فبعض الصحف كالأخبار والأهرام اقتطفت بعض فقرات بلاغ الجمعية الذي نشر بالبصائر، فسارعت الجمعية لإصدار بيان احتجاجي على التشويه الذي تعرض له موقفها، مبينة أنها لم تدعُ الجزائريين إلى وقف العمليات المسلحة ولا إلى احترام القوانين الاستعمارية، بل إنها تحمِّل السلطات الاستعمارية مسؤولية التقتيل الجماعي للجزائريين[2].

إن أغلب الاتهامات التي وجهت لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تنمّ عن حساسيات سياسية جعلت أصحابها يقذفون التهم بدون أدلة، خاصة وأن تهمهم تتعارض مع الوقائع والحقائق التاريخية، التي تثبت في مجملها أن الأغلبية الساحقة من أعضاء ومنتسبي الجمعية كانوا مع العمل المسلح، وباركوا الثورة التحريرية منذ بدايتها، ودعوا الجزائريين للانخراط في هذه المبادرات التي تهدف إلى تحقيق الحرية والاستقلال، وهو رأي الكثير من الباحثين الموضوعيين في تاريخ الثورة الجزائرية[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 99.

(2) المصدر نفسه ص 102.

(3) المصدر نفسه ص 103.

3 . شهادة الأستاذ أحمد توفيق المدني الأمين العام لجمعية العلماء:

قال: العلماء أصبحوا منذ غرة نوفمبر 1954م إلى يوم النصر العظيم سنة 1962م جزءاً لا يتجزأ من الثورة، من الكفاح المسلح، من كل مسعى قامت به الثورة العملاقة من أجل تحقيق رغائب الشعب المزمجر كالأسد الهصور، وقال: وضعت البصائر منذ اليوم الأول، وباتفاق العلماء في صميم المعركة، وتوليت بتفويض من المجلس الإداري التصرف بالبصائر وتحرير افتتاحياتها ولم يكن يسيراً، فقد كان عليّ أولاً أن أتولى النضال عن حق الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال، وفضح الأساليب الاستعمارية القذرة التي كان الاستعمار الخبيث يرتكبها، من أجل إذلال شعب حر أبيّ، ومقاومة حركة ثورية متأججة الأوار، والمدّ في حكم استعمار حكم عليه الله والشعب بالموت الذريع.

وكان عليّ ثانياً أن أتجنب في مقالاتي ما تتخذ منه الحكومة ذريعة للإيقاع بالبصائر وضرب جمعية العلماء، فكنت أزن كل كلمة يخطها يراعي بميزان دقيق وأتحرى دون أن يصاب الموضوع بأذى.

وكان عليّ ثالثاً أن أعرض كل مقال افتتاحي بصفة سرية بحتة على المكلف من طرف قيادة الثورة بالإشراف على العمل، أي: إنه كان عليّ أن أكتب ما يرضي الضمير وما يعبر عن رغبة الشعب، وما توافق عليه هيئة الثورة، وما لا يجعل الحكومة تجد ذريعة لإعطاء الضربة القاصمة، ولقد نجحت في اعتقادي واعتقاد العلماء واعتقاد رجال الثورة نجاحاً غريباً[1].

أ . علمه بالثورة قبل 1 نوفمبر 1954م:

قال: جاء يوم افتتاح مدرسة باتنة خلال شهر أكتوبر من سنة 1954م، فوقفت أقول للشعب العظيم الذي أمّ المدينة من مختلف جهات البلاد، مشيراً بيدي إلى جبال أوراس الشامخة التي كانت تشرف علينا، وتحيط بنا، كأنني أتنبأ بما سيقع قريباً: من هذه الجبال الشامخة ارتفع صوت الشعب المزمجر طيلة الاف السنين، فكان صوتاً كهزيم الرعد الصاعق يمحق الظالمين، ويحطم جبروت المحتلين، ومن هذه الجبال الأبية الصامدة الرافعة رأسها للسماء سيرتفع من جديد . عما قريب . صوت الشعب القاهر الغلاب، يملي إرادته على الدنيا ويقوّض أركان الظلم والطغيان[2]

إلى أن قال: ... علمت بعد أيام من أحد موقدي نار الثورة أنها ستقع يوم غرة نوفمبر 1954م، وأقسمت له يميناً صادقاً أنني لا أبوح باسمه لأحد ولا أتكلم عن ذلك الموعد لأحد، إلا أنني أردت أن تكون جمعية العلماء مستعدة لتكون أول من يستجيب لذلك النداء، وأول من يدفع رجاله وشبابه في ميدان التضحية والاستشهاد، ذلك الميدان الذي كنت أبشر به وكنت أصوره بألوان ناصعة أثناء دروسي العامة بمركز جمعية العلماء، عن تاريخ الجزائر وتاريخ الإسلام، وأقف الموقف الطويل في تحليل معارك الحرية والاستقلال.

---

(1) حياة كفاح أحمد توفيق المدني (93/3).

(2) حياة كفاح (567/2).

فدعوت رجال الجمعية لعقد الاجتماع الإداري بمدينة قسنطينة يوم غرة نوفمبر من سنة 1954م، فأصبحنا بها ونحن نقرأ أنباء حوادث الانتفاض الأولى. وقررنا بإجماع أننا مع الثورة وبعثنا لكل رجالنا وشبابنا قرارنا هذا، وجاءت الساعة التي حددها الله، فإلى الميدان الشريف إلى الشهادة أو إلى النصر، وكان الزحف المقدس وكان النصر العظيم(1).

ب ـ الذين عينوا للثورة يومها وساعتها:

أثنى الأستاذ أحمد توفيق المدني على حزب انتصار الحريات الديمقراطية وقال: إن هذا الحزب كان عظيماً حقاً، وإنه جاهد في سبيل الاستقلال جهاداً مريراً قاسياً، وإن ضحاياه الذين يفوق عددهم الحصر قد فتحوا أمام الشعب كله سبيل التضحية والفداء، وكانوا معالم الطريق الذي قادنا نحو الثورة المطهرة ونحوالحرية الغالية ونحو الاستقلال العزيز(2).

وقال: كانت الهيمنة السياسية لحزب الانتصار، إذ أن كلمة الاستقلال الرهيبة التي كان ينادي بها عالياً، والتي كان يسعى جاهداً لنشرها وإقرارها ؛ قد جمعت حوله كل متعطش للحرية، وكل ناقم على الاستعمار وكل راغب في الثورة والانتفاض(3).

ونقد زعيمه «مصالي الحاج»: إن قيادته كانت بسيطة دون مستوى المسؤوليات ودون مستوى الأحداث، وإن هذا الرجل الذي قاوم وضحى وسجن ونكب وأبعد وجابه الموت جهاراً لا يصلح لقيادة ... وأنه لا يمكن أصلاً أن يحافظ على مكانته، إذا ما تسربت للحزب طائفة مثقفة ونخبة صالحة تعرف كيف تتصرف وتعرف كيف تدير دفة السياسة(4).

ثم قال: إن فكرة الحزب عالية رفيعة مقدسة وإن دعوته صالحة مستقيمة، لكن هذه الثمرة لا تؤتي أكلها إلا إذا غيرت قيادتها ووضعت على رأسها طائفة مستنيرة صالحة.

لكنني لا أنسى ولا يجب أن أنسى، وأكون مجرماً إذا نسيت، أن هذه الزعامة .. قد ابتكرت نظاماً غريباً، وشكلت هيئة من أعجب ما ألف في عالم المقاومة من هيئات: هو «المنظمة السرية» أو ما يدعونه « O.S » كانت هذه الهيئة لا تهتم بالسياسة إنما تهتم بالثورة وتهيأئ السلاح وتجند الرجال الصالحين القادرين وتستعد وتعد الشعب لليوم العظيم، كان على رأس هذه المنظمة السرية رجال من أمثال: أحمد بن بلة، ومحمد بوضياف، وحسين ايت أحمد، ورابح بيطاط، وعبد الحفيظ بوالصوف، رجال امنوا بالوطن وحدة، وبالاستقلال مبدأ، وبالثورة سبيلاً، وبطريق الدم والضحايا مبلّغاً للأهداف موصلاً للحرية(5).

(1) المصدر نفسه (569/2).
(2) المصدر نفسه (32/3).
(3) المصدر نفسه (31/3).
(4) المصدر نفسه (32/3).
(5) المصدر نفسه (33/3).

وتحدث أحمد توفيق عن الصراعات داخل الحزب: وأنه دخلته في اخر عهده طائفة من الرجال المفكرين المثقفين الصالحين، وانتخب هؤلاء الرجال ضمن اللجنة المركزية، وكانوا يؤمنون بالفكرة ولا يؤمنون بالزعامة المعصومة، وكانوا يؤمنون بالشورى والمفاوضة الصالحة، ولا يؤمنون بإرادة تلقى جزافاً ولا أوامر تصدر فتطاع، وما عتم الحزب بعدها أن انقسم على نفسه، فئة تثور على مصالي وعلى أوامره، وفئة تبقى مع الزعيم كأنه مفروض من الله أو كأنه صوت القدر وتنادي برئاسته مدى الحياة.

وذاق الحزب وذاق الشعب أثر ذلك الخلاف أوصاباً والاماً، وانقلبت القضية إلى مهاترات ثم مضاربات ثم مصادمات جماعية، يخرج منها البعض جريحاً ويخرج منها البعض مكدوماً، وأما جماعة المنظمة السرية ومن ازرها من الرجال؛ فقد كانتْ أرسلت للقاهرة وفداً قوامه أحمد بن بلة ومحمد خيضر ومحمد يزيد وحسين الأحوال، وقابلتْ بواسطة الأخ فتحي الديب من إدارة المخابرات العسكرية السيد الرئيس جمال عبد الناصر، فأطلعَتْه على منهاجها الثوري وعزمها على إيقاد نار الثورة، بعد أن اجتمعت أولاً وقبل سفر الوفد بقرية «زدين» وقررت أنه قد جاءت ساعة القدر، وأن الحرب التحريرية قد ان أوانها. ثم اجتمع التسعة:

. مصطفى بن بولعيد.

. محمد العربي بن مهيدي.

. ديدوش مراد.

. أحمد بن بلة.

. محمد خيضر.

. رابح بيطاط.

. كريم بلقاسم.

. حسين ايت أحمد.

. محمد بوضياف.

مرة أخرى في أوروبا واتخذوا القرار النهائي، وأعلنوا تأسيس «لجنةالاتحاد والعمل» وحرروا نداءها وعينوا للثورة يومها وساعتها[1].

إن الذين فجروا الثورة في 1 نوفمبر 1954م هم مجموعة صغيرة من مناضلي الحركة من أجل الانتصار للحريات الديمقراطية. فهذه حقيقة تاريخية واحتضنها الشعب العظيم، وكان لعلماء الجزائر وخصوصاً جمعية العلماء الأثر الفكري والعقيدي والإسلامي في تفجير طاقات الشعب الكامنة وأشواقه للحرية والاستقلال والسيادة، ففي علم الأسباب وبعد توفيق الله ما كانت الثورة تندلع لولا الله سبحانه وتعالى وتوفيقه ثم أولئك الأبطال من مجموعة المنظمة السرية الذين غلب عليهم الحس الثوري والنضالي، واستعدادهم للتضحيات والشهادة في سبيل قيمهم ومبادئهم، وما كان لهؤلاء الطلائع النادرة في تاريخ الشعوب أن ينجحوا لولا استعداد الشعب بكل

(1) المصدر نفسه (24/3).

ألوانه وأطيافه وعلى رأسهم العلماء للشروع في ملحمة شعبية عظيمة، تقدم الغالي والرخيص وأعز ما لديها في سبيل حريتها واستقلالها.

ج . الرئيس جمال عبد الناصر ومعرفته بأول نوفمبر:

تحدث السيد أحمد توفيق المدني عن جماعة المنظمة السرية التي قابلت جمال عبد الناصر ثم قال: .. كشفوا كل ذلك للرئيس جمال عبد الناصر، وقد صرح لي بنفسه من بعد في حديث شخصي معه خلال شهر أكتوبر من سنة 1956م: أنه درس بغاية الاهتمام ما قاله له الوفد.. وأنه طلب من الوفد مهلة تفكير ثلاثة أيام، قال: وكنت أخذت فكرة سيئة عن الحركة الجزائرية، واستهجنت الطريقة التي زعم مصالي أنه يقود بها الشعب للاستقلال.

لقد كان تفكيراً عقيماً وطريقة سخيفة، لكنني بعد اطلاعي على منهاج الوفد، وتأملي العميق في طريقة عمله وتهيئة مراحله؛ ارتحت له واطمأنت نفسي لنتائجه، وعلمت أنها عملية ناجحة لا محالة. وعاد إليّ الوفد فصارحته برأيي وتداولنا طويلاً وحددنا إمكانياتنا، ووعدتهم أنني أكون معهم إلى النهاية، وأمدهم حالاً بما يمكن من سلاح خفيف، وأن أسعى شخصياً لدى الدول العربية وخاصة السعودية، لكي تمد الحركة بالمال، وهكذا أمرت الأخ فتحي والأخ عزت سليمان، بأن يكونا مع الوفد دوماً ممثلين لي شخصياً، وكنت أكتم الأمر على عدد من الوزراء الذين حولي، خوفاً من تسرّب السرّ وإسراع فرنسا إلى ضرب الحركة قبل بروزها. ثم إن السعودية قررت الاستجابة بدفع مائة ألف جنيه «100 مليون فرنك»، فأمرنا بأن ترسلها إلى إسبانيا حيث محمد بوضياف، وأعطيت الأمر للملحقين العسكريين المصريين . أينما كانوا . أن يكونوا في خدمة الحركة الجزائرية، واستمرت الأعمال إلى يومنا هذا كما قصه عليك الأخ فتحي، وبعثنا بالأسلحة مما عندنا ومما اشتريناه من الخارج إلى رجال الثورة[1].

د . مراسلة الإبراهيمي وإعلامه بالثورة وأهدافها:

قال الأستاذ أحمد توفيق المدني عن الاجتماع للمجلس الإداري لجمعية العلماء الذي انعقد في غرة نوفمبر 1954م على الساعة العاشرة صباحاً: .. وبعد مذكرات طويلة ومفاهمات خاصة وعامة رأينا أننا من الثورة ومع الثورة، ولا يمكن إطلاقاً أن لا نكون مع الثورة مع الحذر التام.. وانتهى الاجتماع ورجعنا إلى المقر ليقوم كل منا بواجبه، وكان أول ما عملته هو أنني راسلت الرئيس محمد البشير الإبراهيمي أعلمه بالثورة وأهدافها، ومما قلت له: وهكذا أيها الشيخ الجليل، استجابت الأمة لدعوة الجهاد التي نشرناها مدى عشرين عاماً، وأعلنتها ثورة عارمة على الغاصبين، وأسندت قيادتها لجبهة تحرير وطني لا لحزب ولا لفرد، إنما هي قيادة جماعية على قاعدة سعد زغلول رحمه الله: في ميدان التضحية متسع للجميع.

أما وقد انضممنا نحن للثورة بقضيتنا، وسارت مواكب من شبابنا وشيوخنا تتصدر المعركة أو تتوسطها، فنرجوك أستاذي الجليل أن تفجر من ينبوع فكرك الصافي مورداً عذباً يشفي غلة الأمة الصادئة، وأن تنشر باسمك

(1) المصدر نفسه (36/3).

وبصفتك رئيساً للعلماء المسلمين الجزائريين منشوراً عاماً يبارك الثورة ويمجدها، ويدعو الأمة للمشاركة فيها روحاً وبدناً ومالاً، فالساعة حاسمة والمسؤولية جسيمة، ومن تأخر عن كفاح اليوم فلن يتقدم بعدها للكفاح إطلاقاً ويقيناً، ننتظر استجابة الرئيس للنداء[1].

4 . نتائج تأييد ومشاركة الجمعية في الثورة:

أدى تأييد جمعية العلماء المسلمين للثورة التحريرية ومشاركتها الفعالة فيها إلى العديد من النتائج نذكر أهمها:

أ . تحول موازين القوى:

لقد نتج عن الاستراتيجية الوحدوية التي تتخذها مختلف أطياف الحركة الوطنية بانضمام الجمعية ومختلف التيارات السياسية إلى الجبهة، وخوضهم مسار الكفاح في إطار هذا التنظيم ؛ نتيجة ملموسة حيث اتسعت قاعدة جبهة التحرير الوطني وتعززت صفوفها وزاد نطاق تدخلها.

ب . رجال الجمعية في قلب المعركة:

لعبت الجمعية دوراً مهماً في إعداد رجالات الثورة، الذين كانوا من خريجي مدارسها خاصة، وإن الكثير من رجال الإصلاح كانوا وقوداً مباركاً للثورة طوال سنواتها، ومن جملة زعماء وشهداء الثورة الذين كانوا في مدارس الجمعية، فقد كان مصطفى بن بولعيد من رؤساء مدارسها ومحمد العربي بن مهيدي أحد تلامذتها بمدرسة التربية والتعليم ببسكرة، كما أن الشهيد ايت حمودة عميروش «31 أكتوبر 1926م/ 29 مارس 1959م» كان شديد الصلة بالجمعية وبشعبها في فرنسا حيث كان داعماً لحركة الإصلاح ومساهماً في نشاطاتها.

ومن رجالات الثورة أيضاً الذين تلقوا تعليمهم في مدارس الجمعية: لعموري محمد الذي تخرج من معهد بن باديس بقسنطينة وارتقى لمنصب قائد الولاية الأولى بين 1957م . 1958م، ومنهم أيضاً أبوبكر بن عبد الله مسعودي، ومن رجال الجبهة الذين تكونوا أيضاً في جمعية العلماء: عبد اللطيف رحال، الذي بدأ نضاله مع أحباب البيان والحرية ثم تحول إلى جمعية العلماء، والتحق بالثورة وهو لا يزال طالباً، حيث أسندت له مسؤوليات سياسية وعسكرية، ثم عينته قيادة الثورة عضواً في الهيئة التنفيذية المكلفة بإدارة الشؤون الإدارية وتسليم السلطات عقب الإعلان عن وقف إطلاق النار[2].

فضلاً عن قوافل الشهداء الذين تربوا وترعرعوا في أحضان ومدارس جمعية العلماء المسلمين، وتقلدوا المسؤوليات الإدارية والتربوية في مؤسساتها، على غرار الأديب الشهيد أحمد رضا حوحو «1911م/ 29 مارس 1956م» والذي كان مديراً لمدرسة التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة، حيث نقلته قوات المحتل من عنابة إلى قسنطينة حيث عذّب واغتيل ومزقت أعضاؤه التي وجدها الرعاة صبيحة 20 مارس 1956م، كما أن الشهيد الربيع

(1) حياة وكفاح (43/3).

(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص 119.

بوشامة «ديسمبر 1916/ 14 ماي 1959م» نشأ على صحف ومنشورات الجمعية وتقلد مناصب تربوية فيها[1].

واستشهد من رجال الجمعية أيضاً: عبد الكريم العقون شاعر ومدير مدرسة تليملي بالعاصمة، واستشهد الصديق بوشاش «من قلعة بني عباس» وكان مراقباً لدار الطلبة بمعهد بن باديس بقسنطينة، ومحمد الأمين سلطاني من القنطرة، وكذلك الشيخ صالح بوذراع (1920/10 . 1961/1م) أحد معلمي الجمعية من الولاية الثانية.

واعتقل وسجن الكثير من أعضاء الجمعية بسبب مواقفهم الإيجابية من الثورة ومساهمتهم فيها، مثل الأساتذة عبد القادر الياجوري الذي كان في معتقل بوسوي، إلى جانب محمد الصالح بن عتيق الذي قضى فترة طويلة في المعتقلات، والشيخ السعيد الصالحي والجيلالي الفارسي وحمزة بوكوشة.

وتزودت جبهة التحرير الوطني بمجموعات هائلة من الطلبة المتعلمين المثقفين الذين كانوا دفعاً جديداً للثورة. يقول السيد محمد كشود الذي كان طالباً بمعهد بن باديس والتحق بالثورة: كنت طالباً في معهد ابن باديس، وكان من أساتذتنا الشيخ أحمد حماني الذي كان يقول لنا: من أراد أن يتورس فليتورس، ولم أكن وحدي وإنما كان معي إخوة منهم من يزال على قيد الحياة وفعلاً تورسنا، أي أننا التحقنا بجبل الأوراس بصفوف جيش التحرير الوطني.

وقد قام الشيخ العربي التبسي بتجنيد العديد من شباب الجمعية في صفوف جيش التحرير[2].

فالكثير من الذين تعلموا حرف الضاد ونهلوا من منابع جمعية العلماء المسلمين؛ لم يتأخروا يوم أن كانت الجزائر على موعد مع التاريخ، فكانوا وقود ثورتها ودروعاً لها في ساحات الوغى ورموزاً وقادة في دفع عجلة الثورة إلى الأمام، ولم يتخلف عن الركب إلا قلة ضئيلة جداً، والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه[3].

وتعرض الكثير من رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى الاغتيال من طرف القوات الاستعمارية مثل العربي التبسي، كما اغتال الفرنسيون أحمد بوشمال «1929/ 1958م» الذي كان أول من طبع بطاقات التعريف لجيش التحرير في مطبعة الشهاب بقسنطينة التابعة لجمعية العلماء، ومحمد العدوي الذي اختطف واغتيل عام 1956م، والأمين العمودي الذي قام بعدة مهام، وساهم في تحرير التقرير الذي عرضته الجبهة في الأمم المتحدة، وكان استشهاده يوم 10 أكتوبر 1957م على يد منظمة اليد الحمراء التي رمته من القطار بالعاصمة، والربيع بوشامة الذي بدأت اتصالاته مع عميروش منذ 1955م لسابق معرفته به أيام كانا منتميين إلى خلية جمعية العلماء في باريس، واكتشف أمره عندما كان يقوم بإعادة تنظيم الجبهة في مدينة الجزائر، حيث اقتحمت مدرسته واقتيد إلى التعذيب ثم الاغتيال في 1959م.

---

(1) المصدر نفسه ص 119.

(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص 121.

(3) المصدر نفسه ص 121.

وزودت الجمعية الثورة بقادة عسكريين ممتازين أشهرهم: قتال الوردي بالولاية الأولى، والعقيد محمد صالح يحياوي الذي أصبح عضواً في قيادة أركان الولاية الأولى، والرائد إبراهيم مزهودي الذي كان من أعلام جمعية العلماء المسلمين .. وانضم إلى الجبهة منذ أيامها الأولى فعمل مساعداً لزيغود يوسف، وساهم في تجنيد الكثير من شيوخ وطلبة الجمعية وحضر مؤتمر الصومام، ورقي إلى رتبة رائد وكلف بتسوية الخلاف الذي حدث بين قيادات الأوراس، وساهم في إعادة النظام إلى قاعدة تونس المضطربة،ء وعين مساعداً للرائد قاسي في تمثيل الجبهة بتونس[1].

ومن كبار القادة العسكريين المحسوبين على الجمعية: عمار ملاح، والعقيد الهاشمي هجرس الذي أصبح نقيباً سنة 1958م، وعيّن مسؤولاً للمحافظة السياسية لقيادة الأركان سنة 1960م، وصالح بن حميود، إضافة إلى بن رابح علي الذي التحق بجيش التحرير في مارس 1957م وعرف بشجاعته وحنكته العسكرية، لذلك عيّن في بداية 1960م عضواً بمجلس المنطقة السادسة برتبة ضابط مكلف بالأخبار إلى غاية استشهاده في ماي 1961م إثر معركة بجبل ششار.

كما أن عبد العزيز لكبير المناضل في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ساهم في التحضير للثورة، وقاد معارك ضد الفرنسيين حقق فيها انتصارات هامة، وارتقى إلى رتبة ملازم أول ثم نقيب، وفي 5 مارس 1958م سقط شهيداً في معركة بجبل بولقرون قرب بني سليمان، إضافة إلى العقيد محمد العموري، والرائد الطاهر فراج، والمدعو محمد لعوج، وشيحاني بشير، والنقيب عبد اللطيف طولبة، وبوعلام باقي، والرائد محمد الشريف مساعدية، والنقيب محمد عرعار، والنقيب محمد الشريف خروبي، والنقيب محمد يعقوبي، والنقيب عبد الرحمن كريمي، ومحمد بن أحمد الذي كان ضمن قيادة طرابلس ؛ كلهم من تلاميذ جمعية العلماء المسلمين وكانت لهم مساهمات فعالة، وتولوا مناصب قيادية في الثورة التحريرية[2].

ويقول رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة في سياق حديثه عن البشير الإبراهيمي في هذا الجانب: .. وقد التحق بثورة التحرير الكثير من طلابه منهم من هو حي عند الله يرزق، ومنهم كثير من إطارات الدولة في مختلف إداراتها ومؤسساتها[3].

ج. الجانب القضائي:

(1) المصدر نفسه ص 123.

(2) المصدر نفسه ص 124.

(3) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير ص 28.

بناء على تكوينهم الديني في الغالب ؛ فقد تولى بعض أعضاء وأساتذة جمعية العلماء مناصب قضائية في التنظيمات التي أرستها جبهة التحرير، التي أصبحت بديلاً عن المؤسسات القضائية الفرنسية، التي منعت جبهة التحرير الجزائريين من اللجوء إليها لفض نزاعاتهم ومشاكلهم.

ومن رجال الجمعية الذين أصبحوا قضاة نذكر: المجاهد حسين أحمد، كما أن محمد الصالح رمضان كان عضواً بالمحكمة المدنية لجبهة التحرير بالجزائر العاصمة، وأحمد قادري المناضل والأستاذ في جمعية العلماء، الذي اختاره عميروش لتولي مصلحة الأوقاف والفتوى، وعيّنه عضواً في مجلس قيادة الولاية الثالثة، وكان يلازمه دائماً، والشهيد محمد بن ربيع الذي عينته جبهة التحرير قاضياً شرعياً في الناحية الثالثة في المنطقة الأولى للولاية الرابعة، إضافة إلى المجاهد قادة محمد الصغير الذي تولى مهاماً قضائية في جبهة التحرير.

وكانت القضايا التي يتكفل بها قضاة جبهة التحرير تتعلق بتحرير العقود والتعليم والفتوى والإمامة والأحوال الشخصية والمواريث والنزاعات الأسرية والعقارية، ويستند القضاة إلى سلم عقوبات مقسم إلى درجات حسب طبيعة المخالفة[1].

د . تأطير المنظمات الشعبية:

ساهم بعض رجال الجمعية في تأطير المنظمات الشعبية المساندة لجبهة التحرير الوطني، والتي تجندت ضمن مخططات الجبهة الرامية إلى تحقيق الالتفاف الشعبي حولها، ومن ذلك التركي عباس الذي كان يشرف على جمعية التجار بمدينة الجزائر، وأشرف على تأسيس وقيادة الاتحاد العام للتجار والحرفيين الجزائريين سنة 1956م، لكن بسبب التضييق عليه نقل نشاطه إلى تونس[2].

هـ الدعم الإعلامي:

لعب المنتسبون لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين أدواراً إعلامية بارزة في صحافة الجبهة والصحافة المساندة للقضية الجزائرية، ومن ذلك تيجاني الهاشمي الذي اشتغل بالإذاعة السرية بالناضور، حيث كان أحد محرريها باللغة الفرنسية، وعبد الرحمن شيبان الذي عمل محرراً بجريدة «المقاومة» في طبعتها التونسية، ثم «المجاهد»، وساهم في تحرير نداءين للشعب الجزائري يدعوه للالتحاق بالثورة، وذلك في 12 فيفري 1955م و11 مارس 1955م، إضافة إلى علي مرحوم الذي كان يعدّ برنامج صوت الجزائر في إذاعتي تطوان وطنجة إلى غاية الاستقلال، ومحمد الميلي الذي كان عضواً في لجنة تحرير جريدة المقاومة ثم المجاهد، كما كان محمد الصالح الصديق محرراً في جريدة المقاومة[3].

وتكفل عبد الحفيظ أمقران بالإذاعة السرية للولاية الثالثة ـ بغابة أكفادو ـ حيث يقدم عبر أمواجها حصصاً إذاعية باللغات الثلاث: الأمازيغية، العربية، الفرنسية، وكان تأسيس هذه الإذاعة خلال الذكرى الثانية لمؤتمر الصومام في سنة 1958م، وبُثت برامجها عبر جهاز إرسال، وأطلق عليها «صوت الجزائر المجاهدة من قلب

(1) المصدر نفسه ص 127.

(2) جمعية العلماء المسلمين، محمد بن ساعو ص 127.

(3) المصدر نفسه ص 128.

الجزائر»، لكن بثها لم يتجاوز الساعة الواحدة يومياً، وبسبب بطارية ملغمة انفجر عتاد الإذاعة يوم 9 ديسمبر، مما أدى إلى استشهاد ثلاثة مجاهدين تقنيين، وإصابة مقدم البرامج أمقران والرائد محند الحاج بجروح.

كما أن الشاعر والإعلامي أحمد حاج حمدي «أرسلان» تولى القسم العربي لمصلحة الدعاية والإعلام التابعة لجبهة التحرير الوطني، وحققت المصلحة نجاحات كبيرة خلال إشرافه عليها رغم نقص الإمكانيات، وكان محمد الصالح رمضان عضواً في خلية الاتصال والأخبار بالولاية السادسة.

وكانت البصائر منبراً إعلامياً فضح الأساليب الاستعمارية في قمع الثورة التحريرية، وكانت تنقل أخبار الثورة وعملياتها العسكرية وانتصاراتها، وتفند الادعاءات الفرنسية التي تحاول تشويه الثوار، فأصبحت البصائر مصدراً إعلامياً ودعائياً هاماً للثورة، لذلك قامت السلطات الاستعمارية بتوقيف صدورها في أفريل 1956م[1].

و . الوساطة وتسوية الخلافات:

عمل بعض رجال الجمعية على وأد الخلافات التي نشبت بين قادة الثورة، على غرار ما حدث بين عبان رمضان وكريم بلقاسم، فقد حاول البشير الإبراهيمي إقناع عبان رمضان بعدم جدوى مواجهة كريم بلقاسم وضرورة التهدئة معه، لكن فيما يبدو أن عبان رمضان لم يأخذ بنصيحة الإبراهيمي، كما أن إبراهيم مزهودي كان قد عُيّن ضمن المجموعة التي حاولت تسوية الخلاف الذي نشب بين قيادات الثورة في المنطقة الأولى أوراس النمامشة[2].

ز . الاتصالات:

ساهم أعضاء جمعية العلماء في ضمان الاتصال داخل هياكل جبهة وجيش التحرير، وكانت مؤسسات الجمعية معاهد ومدارس ومكاتب وإدارات.. الخ تقوم بدورها لصالح الثورة، وقد كان الشيخ الإبراهيمي يقول قبل اندلا ع الثورة: إن هذه المؤسسات ستحتاج إليها الأمة في يوم من الأيام لمهمات فوق ما نتصوره الان[3].

وفعلاً فإن ذلك ما حدث، حيث أنه في عام 1955اضطلعت الجمعية بمهمة الاتصال بالمناطق. وفي هذا يقول الشيخ أحمد حماني: من عام 1955م تحملت مسؤولية جمعية العلماء في الاتصال بالولايات، وقد شهد العقيد ابن طوبال أن الانقطاع قد تم تقريباً «عاماً كاملاً»، حتى أعاده إبراهيم مزهودي والشهيد رشيد عمارة، وكان مركز انطلاق الاتصال هو معهد ابن باديس بقسنطينة والذي يمثله بوغابة، وفي عنابة يمثله سي الذيب، وفي شاطودان سليمان بشنون، في سطيف باقي بوعلام، وفي برج بوعريريج العربي سعدون، وفي الجزائر أحمد حماني الذي ساهم أيضاً في ربط الاتصال بين قيادة الشمال القسنطيني وعبان رمضان منذ بداية 1956م، وهؤلاء كلهم كانوا يباشرون العمل بين 1955م . 1956م، كما أن أمين مال الجمعية الشيخ عبد اللطيف سلطاني كان في الجزائر.

(1) المصدر نفسه ص 129.
(2) المصدر نفسه ص 129.
(3) المصدر نفسه ص 130.

يقول الشيخ أحمد حماني: عندما جاءنا الاتصال من المغرب لأول مرة الذي يمثله عبد الحميد بن أشنهو، طلب منا أن نكون مسؤولين عن الاتصال الذي يجمع السيد رمضان عبان وقادة الحركة في الجزائر، وبين ممثل الاتصال في المغرب السيد عبد الحميد بن أشنهو، وقد كنا ملزمين على إيجاد مقر لذلك، حيث ذهبت إلى الشيخ عبد اللطيف سلطاني أمين مال جمعية العلماء وطلبت منه أن يوفر لنا المقر، فلبى الطلب على الفور، حيث خصص لنا جناحاً بمنزله الواقع ببلدية القبة بالجزائر العاصمة، بحيث أصبحت تعقد فيها اجتماعات لقادة الجبهة[1].

وبالتالي فإن مؤسسات الجمعية وشبكة اتصالاتها التي كانت مسخرة للتنسيق بين شعب ومدارس الجمعية في سبيل التربية والتعليم والإصلاح، استفادت منها جبهة وجيش التحرير، وحتى خارج مؤسسات الجمعية كان رجال الجمعية يشرفون على البريد السري، أمثال: حمزة بوكوشة، أحمد سحنون، الجيلاني الفارسي، مصباح الحويذق ؛ الذين كانوا يركبون القطارات ويبلغون الأوامر والرسائل لقادة الثورة[2].

ح ـ الدعم الدبلوماسي:

الدعم الدبلوماسي الذي ساهمت به إطارات جمعية العلماء بعد انضمامها للثورة كان فعالاً، خاصة في الدول العربية والإسلامية التي كانت ترتبط بها الجمعية بعلاقات وطيدة منذ تأسيسها، من خلال البعثات الطلابية، والعلاقات بين الحركات الإصلاحية المنتشرة في ربوعها، لذلك كانت استراتيجية الجبهة ترمي لاستغلال هذا الحضور في دعم الدول العربية والإسلامية للثورة، من خلال الاعتماد على رجال الجمعية كسفراء للقيام بهذه المهمة، حيث أثبتوا نجاحهم من خلال الدعم المادي والدبلوماسي العربي والإسلامي للثورة التحريرية.

وفضلاً عن الأسماء المعروفة في جمعية العلماء التي ساهمت في هذا المسعى، هناك شخصيات جمعوية كثيرة نشطت في مجال حشد الدعم العربي والإسلامي للثورة التحريرية أيضاً، أمثال: سعدي الطاهر حراث، الذي أوفدته الجبهة إلى تونس بعد أن تولى تجنيد الطلبة وربط الاتصال بين الولايات إلى غاية جويلية 1957م، وأحمد بودا ممثل جبهة التحرير الوطني في طرابلس، والعباس بن الشيخ الحسين الذي كان ممثلاً للجبهة في المملكة السعودية منذ 1958م، والشيخ خير الدين في الرباط، وعمر دردور الذي انضم إلى الوفد الخارجي للجبهة في القاهرة، وفي 1960م تم تحويله إلى تونس حيث عمل تحت إشراف العقيد محمدي السعيد إلى غاية الاستقلال[3].

وأما محمد الغسيري فقد عيّن على رأس مكتب جبهة التحرير بدمشق عند تأسيسه سنة 1956م، لكن بعد انضمام سوريا إلى مشروع الجمهورية العربية المتحدة سنة 1958م لم يعد للمكتب نشاطات دبلوماسية،

---

(1) أول نوفمبر بداية النهاية، أحسن بومالي ص 211.

(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص 131.

(3) دور جمعية العلماء، صالح فركوس ص 265.

واقتصرت مهامه في ضمان عبور الأسلحة ومتابعة تكوين الطلبة الجزائريين بالمدارس العسكرية، وعبد الرحمن شيبان كان ضمن الوفد الممثل لجبهة التحرير في طرابلس وتونس[1].

ط . الجانب التعليمي والتربوي:

شكل المنتسبون لجمعية العلماء عصب المدارس التي كانت تابعة لجبهة التحرير الوطني، حيث تقلدوا فيها مناصب تربوية وإدارية، ليس في داخل الوطن فقط بل حتى خارجه، من خلال قيامهم بتأطير المدارس الخاصة باللاجئين خاصة في تونس والمغرب، فرغم أن الجزائر تعيش ظروفاً صعبة إلا أن الجبهة لم تهمل التعليم، حيث استغلت المؤسسات التعليمية التقليدية كالمدارس القرانية والكتاتيب والمساجد والزوايا، وعيّنت لها المفتشين والمعلمين، وتأطير المساجين والمعتقلين من خلايا تقديم الدروس وفق برنامج تعليمي متنوع يشمل العلوم اللغوية والدينية والرياضيات والجغرافيا وتشجيع المطالعة، وقد تولى هذه المهمة عدد من أعضاء وخريجي الجمعية، الذين قضوا بعض الفترات في السجون، مثل: أحمد حماني الذي تنقل بين عدة سجون في شرق البلاد، وكان عدد هؤلاء المعلمين بالمئات، تمكنوا من تحويل المعتقلات إلى ما يشبه المدارس والمعاهد[2].

* * *

(1) النشاط الدبلوماسي للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، عمر بوضربة ص 132.

(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والثورة التحريرية ص 133.

خامساً: التجنيد الشعبي الشامل

إن انطلاقة أول نوفمبر الثورية كانت عملية حاسمة في تاريخ الجزائر، فقد استفاد ثوار 1954م من تجارب الأجداد في القيام بثورات شعبية في مناطق محدودة، وعدم قدرتهم على صد الهجومات الفرنسية ضدهم، ففي هذه المرة انطلقت الثورة في عدة أماكن، واعتمد الثوار أسلوب حرب العصابات الحديثة، وبذلك صعب على الفرنسيين أن يقضوا على الثورة أين تقع، واستحال عليهم سحق قوات الثوار المتواجدة في جميع المناطق الجبلية بالجزائر.

إن الالتجاء إلى السلاح لاسترجاع السيادة الوطنية، وإقامة نظام سياسي مستمد من المبادئ الإسلامية، واحترام مبادئ الحرية دون تمييز بين الأفراد في الجزائر «حسبما جاء في بيان نوفمبر 1954م» ؛ تعتبر قرارات رائعة بالنسبة لجميع الفئات الاجتماعية في الجزائر. ومنذ البداية أظهر الأفراد والأحزاب والجمعيات الوطنية تأييدهم التام، لأن الهدف المشترك لجميع الجزائريين المسلمين هو التخلص من الهيمنة الفرنسية واسترجاع السيادة الوطنية، وهذا الهدف المشترك هو الذي دفع بالجزائريين إلى التخلي عن خلافاتهم الإديولوجية والسياسية، والانخراط في جبهة التحرير الوطني بصفة فردية أي جبهة جديدة لمواجهة العدو المشترك الذي هو فرنسا، وتأكدت هذه الحقيقة إلى الأطراف المتنازعة على السلطة، وأن حركتهم قد وضعت المصلحة الوطنية فوق الاعتبارات التافهة والمغلوطة .. وهي موجهة فقط ضد العدو الوحيد[1].

1. تحالفات داخل جبهة التحرير الوطني:

لقد نجح المنشقون عن حركة انتصار الحريات الديمقراطية وعن مصالي الحاج في إنشاء جبهة التحرير الوطني، وحملوا مشعل الحرية بقصد تحرير الجزائر من الهيمنة الفرنسية، لكن مشكلة قادة الجناح العسكري هي أن الثورة انطلقت بدون زعيم لها، وبدون خطة مرسومة، وبدون وجود أسلحة كافية لخوض معركة التحرير الفاصلة، وفي الحقيقة أن القادة الستة للثورة كانوا على قناعة تامة بأن انطلاق الثورة سيضع الجميع أمام الأمر الواقع، وأن المناضلين على مستوى القاعدة سيلتحقون بالثورة ويؤيدونها بدون تحفظ، وهذا هو الشيء الذي حصل. فقد تسارع المناضلون من جميع الأحزاب إلى الانضمام إلى جبهة التحرير الوطني، وقاموا بتقديم الدعم المادي والمعنوي للثورة بدون تحفظ، لكن السؤال المطروح هنا:

هل يقبل الثوريون أن ينضم «المركزيون» و «المصاليون» الذين يتصارعون على السلطة فيما بينهم، ويتسلموا زمام قيادة الثورة التي لم يساهموا في التحضير لها؟

والجواب على ذلك أنه: بمجرد الانطلاقة القوية للثورة في بداية نوفمبر 1954م، وانتقال محمد بوضياف إلى الخارج والتحاقه بالسيد أحمد بن بلة والسيد محمد خيضر بقصد اقتناء السلاح لخوض معركة التحرير الكبرى

---

(1) بيان فاتح نوفمبر 1954م، ملفات وثائقية رقم 24 نصوص أساسية لجبهة التحرير الوطني الجزائري 1954م. 1962م . الجزائر وزارة الأعلام 1976م ص 7.

؛ برزت على السطح بعض علامات الضعف في قيادة جبهة التحرير، شعر الجميع بالفراغ السياسي في قيادة الجبهة، وقد تأكدت هذه الحقيقة بوضوح بعد اعتقال مجموعة كبيرة أمثال بيطاط رابح في شهر مارس من عام 1955م، ومحمد بوضياف، أحمد بن بلة، وخيضر، وحسين ايت أحمد، وبعد اختطاف الطائرة المغربية التي كانت في طريقها إلى تونس يوم 22 اكتوبر 1956م.

كما عانت جبهة التحرير الوطني من فراغ سياسي كبير بعد استشهاد قادتها الأوائل أمثال مراد ديدوش في يناير 1955م، ومصطفى بن بولعيد يوم 22 مارس 1956م، والعربي بن مهيدي يوم 4 مارس 1957م، وباختصار نلاحظ أنه بعد إقدام الجيش الفرنسي على إعدام العربي بن مهيدي يوم 4 مارس 1957م ؛ لم يبق في ساحة النضال من القادة الستة للثورة الجزائرية سوى كريم بلقاسم[1].

2 . قيادة جديدة في العاصمة:

تغيرت استراتيجية العمل في الثورة نتيجة لتغيرات الأوضاع واختفاء قادة الثورة من ميادين المعركة، سواء نتيجة لاعتقالهم أو استشهادهم في المعارك التي كانوا يخوضونها ضد الاستعمار. وكان من المفروض أن يلتقي قادة الثورة في بداية 1955م ويعيدوا النظر في استراتيجيتهم وإنشاء هياكل جديدة للثورة، لكن هذا الموعد الذي حدده قادة الثورة لم يكن من السهل الوفاء به، وذلك نظراً لصعوبة الاتصال بين قادة الداخل والخارج، وانشغال كل قائد بالمهام الملقاة على عاتقه.

وابتداء من شهر جانفي 1955م شرع قادة الجبهة في انتهاج سياسة جديدة تقوم على أساس توسيع الجبهة، وتمكينها من استقطاب جميع العناصر الوطنية، التي تلتزم بالنضال من أجل تحرير الجزائر واستعادة السيادة الوطنية.

ففي يوم 19 جانفي 1955م خرج عبان رمضان من السجن وعاد إلى مسقط رأسه «بمدينة عزوزة» فاتصل به كريم بلقاسم عن طريق نائبه عمر أوعمران، وطلب منه الالتحاق بالثورة ومساعدة قادتها في التنظيم والتنسيق والإعلام والدعاية، ونتيجة لهذا التعيين الذي وافق عليه رابح بيطاط، المسؤول عن منطقة الجزائر العاصمة «الولاية الرابعة»، أصبح عبان رمضان هو الذي يلعب الدور الحساس في الثورة والمتمثل في التنسيق بين الولايات، وهذا معناه في الواقع خلق نواة جديدة والعمل من أجل برنامج عمل موحد، وخلق قيادة مركزية مشتركة بين جميع الولايات.

وفي الحقيقة إن تسارع الأحداث في الجزائر منذ بداية نوفمبر 1954م، واتساع رقعة الثورة بسرعة مذهلة، وانشغال كل مسؤول بولايته أو منطقته بالمهام الملقاة على عاتقه والمتمثلة في تقوية العمل الثوري ؛ قد أظهرت الضرورة القصوى لإنشاء قيادة مركزية جديدة لجبهة التحرير، وذلك بقصد تنسيق المجهودات بين مختلف المسؤولين، واتخاذ قرارات مشتركة ومتجانسة، وتحقيقاً لهذه الأهداف قام عبان رمضان بمجهودات كبيرة بقصد

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 385.

توحيد التيارات السياسية، حتى يتسنى لجبهة التحرير أن تنتصر على العدو، وانطلاقاً من هذه الفكرة قام عبان رمضان بتوسيع الجبهة، بحيث أصبحت تضم المناضلين في حزب الشعب، وحزب البيان برئاسة عباس فرحات، وجمعية العلماء المسلمين برئاسة البشير الإبراهيمي، ولم يلتحق بركب الثورة الحزب الشيوعي الجزائري بسبب رفضه أن يحل نفسه، وأنصار مصالي الذين كانوا يصرون على أن يكون مصالي الحاج هو قائد الثورة.

وبصفة إجمالية نستطيع أن نقول بأنه ابتداء من مطلع 1955م، برزت قيادة جديدة للثورة الجزائرية تمركزت في العاصمة بقيادة الثلاثي: كريم بلقاسم، عبان رمضان، عمر أوعمران الذي تم تعيينه مسؤولاً على المنطقة الرابعة بعد إلقاء القبض على رابح بيطاط في مارس 1955م[1].

3 . قيادة جماعية للثوار:

تدعّمت هذه النواة الجديدة للثورة بعناصر موالية لعبان رمضان، أمثال يوسف بن خدة الذي تربطه علاقات وثيقة بعبان رمضان منذ لقائهما في ثانوية البليدة، وخاصة أن عبان رمضان كان عضواً باللجنة المركزية لحزب الشعب عند إلقاء القبض عليه سنة 1950م، وبتعبير اخر فإن المركزيين الذين رفضوا الانضمام إلى بوضياف، وبقية أعضاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل والمشاركة في انطلاقة ثورة أول نوفمبر 1954م ؛ قد بدؤوا يتزعمون ثورة التحرير بعد تعيين عبان رمضان في جبهة التحرير في جانفي 1955م، أي يوم خروج بن يوسف بن خدة وأعضاء اللجنة المركزية لحزب الشعب من السجن، بعد أن تأكد وثبت للسلطات الفرنسية أنه لا ضلع لهم في إعلان الكفاح المسلح مثلما قال بن خدة نفسه[2].

وحسب الوثائق الفرنسية، فقد تم إطلاق سراح بن خدة وزملائه بفضل مساعدة الرائد «فينسان مونتاي»، الذي اعتمد عليه الحاكم العام للجزائر جاك سوستيل، لكي يقيم علاقات وجسور تعاون بين الإدارة الفرنسية في الجزائر والوطنيين الجزائريين.

وبمرور الوقت استطاع عبان رمضان في شهر أفريل 1956م توسيع الجبهة ودعمها بقادة حزب البيان أمثال فرحات عباس وأحمد فرنسيس، وقادة جمعية العلماء أمثال إبراهيم مزهودي، أحمد توفيق المدني، والعربي التبسي. وحسب تصوره فإن توسيع الجبهة يعتبر عنصراً هاماً لتوحيد جميع الجزائريين وتحقيق الانتصار على العدو، وبفضل الله ثم هذه النواة الجديدة استطاع عبان رمضان وجماعته تكثيف الاتصالات بين الولايات، والعمل وفق استراتيجية مشتركة لجميع الولايات، والدعوة لعقد مؤتمر وطني للثورة الجزائرية، وبعبارة أخرى فإن النواة الجديدة للثورة الجزائرية قد نجحت في خلق قيادة جماعية للثورة في داخل الجزائر[3].

ظهرت براعة الثلاثي عبان رمضان، كريم بلقاسم، عمر أوعمران بوضوح في سبتمبر 1955م، حيث تقرر إرسال الدكتور الأمين دباغين إلى القاهرة بصفته رئيساً للوفد الخارجي لجبهة التحرير، مع أنه ليس أحد القادة

(1) المصدر نفسه ص 387.
(2) المصدر نفسه ص 387.
(3) المصدر نفسه ص 387.

الستة الذين أنشؤوا جبهة التحرير الوطني الجزائري في عام 1954م، وكان معنى ذلك التخلص من زعامة بن بلة وبوضياف وخيضر وايت أحمد، وإجبارهم على العمل في إطار القيادة الجماعية الجديدة التي يتزعمها كريم بلقاسم وعبان رمضان وعمر أوعمران. لكن مشكل عبان رمضان أن تأييد جمال عبد الناصر للثورة الجزائرية مرتبط بقيادة بن بلة، الذي تثق فيه القيادة المصرية وتعتبره أحد القادة الرئيسيين للثورة الجزائرية.

وامتد نفوذ كريم بلقاسم وعبان رمضان إلى فدرالية فرنسا، حيث تم تعيين صالح الونشي كمستشار سياسي لعبان رمضان ويتعاون معه في المجال السياسي. وبذلك تحولت فدرالية فرنسا إلى خلية ثورية تعمل بانسجام مع القيادة الجديدة لجبهة التحرير الوطني التي يتزعمها بلقاسم وعبان رمضان. ونفس الأسلوب استعمل مع اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، واتحاد العمال الجزائريين، حيث انضمت قيادة هذه المنظمات المهنية والجماهيرية إلى جبهة التحرير الوطني الجزائري[1].

4 . الاتحاد العام للعمال:

انعقد المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام للعمال الجزائريين يوم 24 فبراير 1956م في مقر الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري بالقرب من جامع كتشاوة بالعاصمة، وقد وضع القانون الأساسي لدى محافظة الجزائر، والهدف الرسمي المذكور في القانون الأساسي هو الدفاع عن المصالح المادية والمعنوية للعمال الجزائريين، لكن المقصود ضمنياً في المرحلة الحالية هو تجنيد العمال حول الثورة التحريرية.

وبعد بضعة أشهر من المؤتمر التأسيسي أي يوم 24 ماي 1956م، اعتُقل كل فريق الأمانة العامة، منهم الأمين العام إيدير عيسات الذي اغتيل في أثناء اعتقاله يوم 26 جويلية 1959م فمات شهيداً.

وفرضتْ الحرب على الاتحاد العام للعمال الجزائريين أن يواصل عمله من تونس، وذلك تحت قيادة مولود قايد ثم مبارك جيلاني.

وحظي مولود قايد بمساعدة الاتحاد العام للعمال المغاربة والاتحاد العام للعمال التونسيين، فحصل على انخراط الاتحاد العام للعمال الجزائريين في الكنفدرالية الدولية للنقابات الحرة، التي لها مقرّها في بروكسل «بلجيكا» تمّ ذلك يوم 7 جويلية 1956م.

والجدير بالذكر أن النقابيين الفرنسيين ذات النزعة الاشتراكية وذات النزعة الشيوعية عارضتا انضمام الاتحاد العام للعمال الجزائريين، كما عارضه الاتحاد النقابي للعمال الجزائريين «ذو النزعة المصالية»، وظهرت فوائد الانخراط في الكنفدرالية بسرعة إذ أنها نادت ابتداء من سنة 1957م لحل مسألة الجزائر عن طريق المفاوضات، وعلى أساس الاعتراف بالأمة الجزائرية، وبحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، وساهم الاتحاد العام للعمال الجزائريين في إضراب 5 جويلية 1956م وإضراب أول نوفمبر 1956م، اللذين أيّدا كفاح جبهة التحرير الوطني، كما ساهم في إضراب الثمانية أيام 28 يناير 1957م إلى 4 فبراير 1957م.

---

(1) المصدر نفسه ص 390.

والمعلوم أن القوات الاستعمارية اعتقلت 5 أمانات عامة للاتحاد العام للعمال الجزائريين بين ماي 1956م وجويلية 1957م، وقد قادها على التوالي إيدير عيسات ثم محمد فليسي فرحمون دكار مرتين ومحمد شناف، نظراً لتتابع اعتقالات المسؤولين النقابيين، وتوقف النشاط النقابي للاتحاد العام للعمال الجزائريين بالجزائر في جوان 1957م[1].

وفي 12 أكتوبر 1958م جمع بن يوسف بن خدة بتونس إطارات الاتحاد العام للعمال الجزائريين، لأنه كان وزيراً للشؤون الاجتماعية في الحكومة المؤقتة في هذا عُيّنت لجنة تنفيذية متكونة من 12 عضواً، وعيّن من بينهم 5 مناضلين لتشكيل الأمانة: عبد القادر معاشو شغل منصب منسق في هذه الأمانة، ثم خلفه علي يحيى عبد النور سنة 1961م.

فصدرت من جديد جريدة «العامل الجزائري» وبقيت حتى فبراير 1961م مدافعة عن الثورة التحريرية، وداعية إلى تجنّد العمال في صفوفها. في المجال الخارجي تدخل الاتحاد العام للعمال الجزائريين بنجاح في الملتقيات الدولية، لشرح القضية الجزائرية وكشف جرائم القوات الاستعمارية الفرنسية، وقد ساهم الاتحاد في نجاح الاستفتاء من أجل تقرير المصير يوم 3 جويلية 1962م، فدعا العمال الجزائريين إلى بعث الاقتصاد الجزائري المتأثر بالاحتلال الاستعماري وبسبع سنين من حرب مدمرة.

والجدير بالتنبيه أن الاتحاد العام للعمال الجزائريين كان له امتداد في فرنسا بواسطة الودادية العامة للعمال الجزائريين المحدثة يوم 16 فبراير 1957م، وهذه الودادية دافعت عن حقوق العمال الجزائريين وأيّدت الثورة الجزائرية، فلذلك حلّتها السلطات الاستعمارية في أوت 1958م، واعتقلت العديد من مسؤوليها.

بالرغم من هذا القمع واصلت الودادية عملها سرياً، وواصلت كفاحها الإعلامي، وربطت اتصالات ببعض النقابات الفرنسية والأوساط الدينية، من أجل إقناعها بتأييد مفاوضات الحكومة الفرنسية مع حكومة جبهة التحرير الوطني[2].

النشيد الرسمي للاتحاد العام للشغالين الجزائريين نظم بسجن بربروس في 12 جويلية سنة 1956م بزنزانة رقم 69.

قال مفدي زكرياء:

نحن جند الاتحاد والعمل	ننجز الأشغال لا نرضى الكسل
نعقد العزم لتحقيق الأمل	نرفع الراية ما بين الدول

لا نكلّ لا نملّ في الجزائر

نحن عمال نهضنا للبنا	ووهبنا روحنا والبدنا
وضعنا من دمانا وطنا	واندفعنا فسبقنا الزمنااللازمة

(1) الثورة الجزائرية، د . بوعلام حمودة ص 195.

(2) المصدر نفسه ص 195.

نحن في الشعب نؤدي فرضنا — ننقذ العمال من عيش الضنا
نحن بالأشغال نحيي أرضنا — ثورة التحرير تحمي عرضناااللازمة
نحمل الجيل على أكتافنا — نرفع الشعب على أضلاعنا
نصنع التاريخ من أعصابنا — ننسج الراية من أكبادنااللازمة
كلنا للشعب والشعب لنا — نحن في الشعب عرفنا المحنا
وزعوا الأرض على فلاحنا — وانشروا الصنعة في أوطننا[1]

5 . الاتحاد العام للطلاب:

لقد أولت جبهة التحرير الوطني الشباب المثقف عناية خاصة منذ بداية الثورة، وذلك بهدف استيعاب العديد من الطاقات الفكرية والعلمية بين صفوف الطلبة، للعمل معها في صفوف الجيش كمجندين، أو للاشتغال في ميادين أخرى كالدعاية والإعلام والتموين وتعليم الجنود والمناضلين، وغيرها من الميادين الحيوية التي تعتبر أساسية لدفع عجلة الثورة قدماً.

وكانت جبهة التحرير الوطني قد أولت القطاع الطلابي اهتماماً خاصاً واعتبرته سنداً قوياً للثورة، نظراً لما يتمتع به الطالب من إمكانيات سياسية وفكرية تدفعه للقيام بمهام ثورية ضد سيطرة الاحتلال الفرنسي. فدور الطالب في الحركة الثورية . كما أكده مؤتمر الصومام . يرتبط بوضوح بكل من الثورة وأهدافها النضالية بالتعبئة الجماهيرية، ومقاومة الاحتلال بالنضال الفكري والمسلح، بل إن مؤتمر الصومام قد حيا الشباب الجزائري الذي يمتاز بالنضج المبكر والذي . نظراً لعامل البؤس والشقاء والاضطهاد الفرنسي . ينتقل من طور الطفولة إلى طور الرجولة بسرعة، مختصراً مرحلة المراهقة إلى الحرية التي يصبو بسيره وراء منظمته الثورية بولع وشغف مع ازدراء للخوف واستهانة بالموت، كما أن مؤتمر الصومام قد رأى بأن الشباب يمثل الجانب الأعظم من قوة جبهة التحرير الوطني وركناً جميعاً من أركان مقاومتها الجبارة.

ولم يخيب الطلبة الجزائريون أمل جبهة التحرير الوطني، فبمجرد أن اندلعت الثورة المسلحة في أول نوفمبر 1954م لم يتردد الطلبة في الالتحاق بها، وكانت في بداية الثورة الجمعيات الطلابية هي الإطار الوحيد الذي انصبت فيه الحياة الطلابية اجتماعياً وسياسياً[2].

أ . المؤتمر التأسيسي:

وبوحي من جبهة التحرير الوطني، عقد اجتماع تحضيري في باريس بين الرابع والسابع من شهر أفريل 1955م للنظر في كيفية إنشاء منظمة طلابية جزائرية، وقد ضم هذا الاجتماع ممثلين جزائريين عن كل الجامعات في فرنسا.

---

(1) اللهب المقدس، مفدي زكرياء ص 85 . 87.

(2) التنظيم السياسي والإداري للثورة، د . عقيلة ضيف الله ص 333.

وفي جويلية 1955م عقد الطلبة مؤتمرهم التأسيسي في باريس، وقد ضم هذا المؤتمر الطلبة الجامعيين من مختلف دول العالم، وكذلك تلاميذ المدارس الثانوية، وكان المؤتمر يهدف إلى تحديد موقف هذه الفئة من الشعب من الكفاح المسلح الذي تخوضه جبهة التحرير الوطني ضد الاحتلال الفرنسي، وكذلك وضع برنامج عمل يحدد طرق ووسائل النضال التي ينبغي استعمالها في هذا الكفاح.

وانتهى المجتمعون بالإعلان عن تأسيس منظمتهم، التي أطلقوا عليها اسم الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين « U.G.E.M.A »، وذلك بالرغم من المعارضة الشديدة التي أبداها الطلبة الشيوعيون، حيث رفضوا أن يشمل الاسم كلمة مسلمين[1]، ولعل الشيء الذي يكون قد أقلقهم كثيراً إدراج كلمة مسلمين في تسمية الاتحاد، وليس تأسيس الاتحاد في حد ذاته. غير أن المنظمة الطلابية الجزائرية الجديدة أصرت على إدخال كلمة «مسلمين» في تسميتها، وذلك بهدف التمييز بينها وبين المنظمات الطلابية الأخرى التي كانت تنشط في الجزائر وفرنسا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا النعت مسلمين يحمل أكثر من معنى بالنسبة لها: فهو يرمز إلى انتماء الطلبة الجزائريين إلى الحضارة العربية الإسلامية التي يستمدون منها مبادئ فلسفتهم وثقافتهم وسياستهم.

وهكذا فقد أعلن الطلبة في مؤتمرهم التأسيسي هذا أنهم مجندون وراء جبهة التحرير الوطني، وأنهم مستعدون للتضحية بكل ما لديهم من أجل تحقيق الاستقلال، والتحق الكثير منهم بالثورة عاملين على الخصوص في الميدان الصحي والإداري، كما قام الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين على الصعيد الدولي بحملة إعلامية واسعة النطاق، للتعريف بالقضية الجزائرية لدى مختلف التجمعات الطلابية وحركات الشباب في أنحاء العالم ولدى المنظمات الدولية، وبعد تسعة أشهر من إنشاء الاتحاد العام للطبة المسلمين الجزائريين، عقد الطلبة الجزائريون مؤتمرهم الثاني خلال شهر مارس من عام 1956م في مدينة باريس، أعلنوا فيه: أن كفاح الشعب الجزائري هو كفاح عادل وشرعي ويساير تيار تاريخ الثورة[2].

ب . نتائج المؤتمر الطلابي وإضرابهم عن الدراسة:

كان الطلبة خلال المؤتمر قد اتخذوا موقفاً ثورياً حازماً وواضحاً تجاه الثورة التحريرية الجزائرية وكفاح الشعب الجزائري، وطالبوا باستقلال الجزائر ودعوا الحكومة الفرنسية إلى التفاوض مع جبهة التحرير الوطني، بالرغم من معارضتها لذلك[3].

لكن إعلان الاتحاد لنتائج المؤتمر التي تضمنت الدعوة الصريحة إلى استقلال الجزائر، قد دفعت بالسلطات الفرنسية إلى شن حملة اعتقالات واسعة النطاق في صفوف الطلبة المناضلين المنتمين إلى الاتحاد ومنع كل نشاطاتهم.

(1) المصدر نفسه ص 334.
(2) المصدر نفسه ص 335.
(3) الثورة الجزائرية، مصطفى طلاس ص 191.

غير أن ذلك لم يزد الطلبة إلا صموداً وتصدياً لقرارات السلطات الفرنسية الجائرة، بل إن تلك القرارات قد دفعتهم إلى التفكير في اتخاذ إجراء اخر أكثر جرأة وتحدياً بالنسبة للكفاح المسلح، إنهم رأوا وتأكدوا أن مكانهم ليس في مقاعد الثانويات والجامعات الفرنسية ومدرجاتها، ولكن في الجبال إلى جانب جنود ومناضلي جيش وجبهة التحرير الوطني.

وهكذا وجدت المنظمة الطلابية ـ المتمثلة في اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين ـ نفسها أمام الأمر الواقع، فقررت بالاتفاق مع جبهة التحرير الوطني وثانوياتها وفي الجامعات الفرنسية أيضاً إعلان الإضراب عن الدروس والامتحانات بتاريخ 19 ماي 1956م، وفي نفس الوقت وجهت نداء للطلبة تحذرهم فيه من خطورة الوضع وتدعوهم إلى الالتحاق بصفوف المجاهدين[1].

وقد بدأت المنظمة الطلابية بيانها بالتطرق إلى ذكر أسماء الطلبة الذين تمّ اغتيالهم من طرف الشرطة الفرنسية أمثال: زرود بلقاسم، والطبيب ابن زرجب، والتلميذ الإبراهيمي الذي أكلته النار حياً في قريته التي احرقها الجيش الفرنسي، وكذلك اختطاف الطالب فرحات حجاج وذبحه بعد حبسه وتعذيبه لمدة عشرة أيام من طرف شرطة مدينة جيجل، وبمساعدة الحراسة المحلية المسلحة، وأيضاً تنفيذ حكم الإعدام بدون تحقيق ولا استنطاق ولا محاكمة على الأديب «رضا حوحو» الكاتب بمعهد ابن باديس بقسنطينة، وقد كان ضمن جماعة ممن أخذتهم الشرطة الفرنسية كرهائن، بالإضافة إلى شن حملات دامية من الاعتقالات والتعذيب لكثير من الطلبة، بهدف إدخال الرعب في قلوب أعضاء اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، ثم ختمته بتوجيه النداء التالي للطلبة والتلاميذ: وعليه فإننا نقوم من الان بالإضراب عن الدروس والامتحانات لأجل غير محدود، فلنهجر مقاعد الجامعات ولنتوجه إلى الجبال والأوعار، ولنلتحق كافة بجيش التحرير الوطني وبمنظمته السياسية جبهة التحرير الوطني.

أيها الطلبة والمثقفون الجزائريون!. أنرتد على أعقابنا والحال أن العالم ينظر إلينا والوطن ينادينا والبلاد تدعونا إلى حياة العز والبطولة والمجد[2].

وقد استجاب الطلبة والتلاميذ للنداء، فقاطعوا الدروس والامتحانات، والتحقوا بصفوف الجيش وجبهة التحرير الوطني، وأدوا دورهم النضالي على أكمل وجه على الصعيدين الداخلي والخارجي.

وكان تنفيذ الطلبة والتلاميذ لنداء اتحادهم على المستوى الداخلي يتمثل خاصة في الالتحاق بالجبال وحمل السلاح مع المجاهدين، فبرهنوا بذلك للسلطات الفرنسية على مدى الالتحام القوي بين كل فئات الشعب الجزائري، من أجل الدفاع عن قضيتهم العادلة وتحقيق الاستقلال التام.

(1) مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، يحي بوعزيز ص 352 ـ 353.

(2) مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية ص 353 ـ 355.

أما على الصعيد الخارجي فقد تمثل دورهم في تكثيف جهودهم لدى الاتحادات الطلابية في كل دول العالم، والعمل على تحقيق جبهة طلابية عالمية قوية تقف إلى جانب الثورة الجزائرية. ولتحقيق ذلك توزع عدد كبير من الطلبة على معظم دول العالم، وقاموا بدور فعال في مشاركتهم في عدة ندوات عالمية للطلبة، حيث تمكنوا من التعريف بالثورة الجزائرية وشرح قضيتها العادلة، وذلك بإعطاء صورة واضحة لكل طلبة العالم على وحدة الشعب الجزائري، ووقوفه صفاً واحداً وراء قادة جيش وجبهة التحرير الوطني، الذين يعود إليهم الفضل في تفجير الثورة وتنظيمها وتسييرها، كما قام الطلبة من جهة أخرى بشرح مأساتهم كطلبة يعانون تمييزاً عنصرياً فظيعاً منذ عدة أجيال، وكذلك شرح أسباب اللجوء إلى الإضراب العام غير المحدود عن الدروس والامتحانات وتحديد الأهداف المرجوة منه[1].

وهكذا استطاع الطلبة بنشاطاتهم المكثفة عبر دول العالم تفويت الفرصة على السلطات الفرنسية، التي أصيبت بصدمة عنيفة من جراء قرار الإضراب الطلابي، والتي شرعت فوراً في السعي إلى تشويهه لدى الرأي العام العالمي، لكنها فوجئت باستنكار الرأي العام العالمي للسياسة الفرنسية في الجزائر، وإدانة عملية الاعتقالات الدامية والاغتيالات، وكذلك أعمال القمع والتعذيب التي تمارسها السلطات الفرنسية في صفوف الطلبة والتلاميذ بسبب قرار الإضراب العام عن الدروس والامتحانات[2].

ج. حلّ الإضراب الطلابي:

وفي 17 أكتوبر 1957م أمر قادة الثورة الجزائرية الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين. وقد أصبح خلية أساسية من خلايا جبهة التحرير الوطني. بحلّ الإضراب، وتوجيه نداء للطلبة والتلاميذ بالعودة السريعة إلى الدراسة، فالأهداف التي قرروا من أجلها الإضراب قد تحققت، ومرحلة الكفاح بالإضراب قد انقضت، وبالتالي فقد جاء دور مرحلة تاريخية حاسمة، وهي مرحلة تحضير الأساس وبناء المستقبل الذي يفرض عليهم المزيد من العلم والاختصاص في الميادين الأخرى الضرورية للحياة.

وهنا أدرك الطلبة في الجامعات الأجنبية مدى أهمية مرحلة ما بعد الاستقلال وبناء المستقبل، فقرروا الاستجابة لنداء وقف الإضراب، والعودة إلى مقاعدهم في الجامعات والمدارس الفرنسية، بعد 17 شهراً من مقاطعة الدروس والامتحانات، لكنهم عادوا إلى ممارسة نشاطاتهم السياسية كالسابق، حيث قرر الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين عقد مؤتمره الثالث في شهر ديسمبر 1957م في قلب باريس عاصمة فرنسا نفسها، وذلك بهدف دراسة الأوضاع المادية والمعنوية للطلبة وأوضاع الثورة وتطوراتها، وأمام هذا النشاط المكثف والمتعدد الجوانب للاتحاد قررت السلطات الفرنسية حلّه يوم 28 جانفي 1958م كما اعتقلت عدداً من مسيّريه وأعضائه[3].

(1) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 337.

(2) المصدر نفسه ص 338.

(3) المصدر نفسه ص 338.

وأمام هذه الحملة المسعورة التي شنتها الحكومة الفرنسية على الطلبة الجزائريين في الجامعات الفرنسية، وأمام كثرة المضايقات والاعتقالات التي كانوا يتعرضون لها باستمرار، اضطرت اللجنة التنفيذية للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين أن تغادر فرنسا إلى سويسرا، كما اضطر معظم الطلبة الجزائريين أن يغادروا ويهاجروا إلى معظم بلدان العالم عبر سويسرا، التي تحولت إلى نقطة عبور بالنسبة لهم، حيث تولى فرعا الاتحاد في لوزان وجنيف استقبالهم، وحل مشاكلهم وتدبير منح لهم لمواصلة دراستهم في البلدان الأخرى[1].

وأما بالنسبة للطلبة الذين قرروا البقاء في فرنسا ومواصلة دراستهم في جامعاتها، فإنهم قد عزموا على مواصلة نشاطاتهم السياسية ولكن في سرية تامة هذه المرة، وبالتنسيق مع اتحادية فرنسا لجبهة التحرير الوطني[2].

وأما في الجزائر فإن الطلبة قد فضلوا ميدان الكفاح المسلح على العودة إلى الجامعة، وحتى أولئك الذين قرروا العودة فإنهم حاولوا مواصلة نشاطاتهم السياسية بالتنسيق مع الاتحاد العام للطبة المسلمين الجزائريين، ولكن صعوبة الاتصال قد جعلت مسألة العمل والتنسيق أمراً مستحيلاً، خاصة وأن قيادة المنظمة الطلابية قد انتقلت إلى سويسرا بعد أن منعت من ممارسة أي نشاط في فرنسا، ثم إلى تونس. وهكذا اضطر الطلبة إلى ممارسة نشاطاتهم في سرية تامة وبالتنسيق مع قادة جيش جبهة التحرير الوطني[3].

د . أثر الاتحاد الطلابي في ثورة نوفمبر:

كان للجنة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين نشاطات مكثفة على مستوى المغرب العربي، وذلك في إطار «جامعة طلبة المغرب العربي» «الكنفدرالية»، التي تأسست في ندوة تونس المنعقدة خلال الفترة الممتدة من 31 ديسمبر 1957م إلى جانفي 1958م. وكانت هذه الكنفدرالية تهدف إلى تكوين وحدة طلابية بين الاتحادات الثلاثة: الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، والاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، والاتحاد الوطني لطلبة تونس، ويتمثل دورها الأساسي في العمل على حماية الطلبة، والسعي لتحقيق التعاون بين الطلبة في كل دول العالم، ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أنه مثلما انتشر أعضاء الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في كل دول العالم للتعريف بالثورة الجزائرية وكسب مساندة وتأييد تلك الدول لقضيته العادلة ؛ فإنهم فد قاموا بدور مماثل على مستوى دول العالم العربي، التي جعلت كل الإمكانيات المتوفرة لديها في متناولهم للتعريف بالثورة ونقل أخبارها وتطوراتها.

وخلاصة القول: إن الطلبة الجزائريين قد قاموا بدور فعال في ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م، مثلهم مثل غيرهم من الفئات الشعبية الجزائرية الأخرى، ولعل ذلك يعود إلى أن جبهة التحرير الوطني قد أولت اهتماماً خاصاً لهذا القطاع الذي اعتبرته سنداً قوياً للثورة، إذ دعا مؤتمر الصومام إلى الاهتمام بهذه الفئة من المجتمع،

---

(1) المصدر نفسه ص 339.

(2) المصدر نفسه ص 339.

(3) المصدر نفسه ص 339.

لأن دور الطالب في الحركة الثورية يرتبط بكل من الثورة وأهدافها النضالية، بالتعبئة الجماهيرية ومقاومة الاحتلال بالنضال الفكري والمسلح[1].

وهكذا يكون الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين قد ساهم مساهمة معتبرة في ثورة التحرير، إذ استطاع أن يدافع عن حقوق الطلبة الجزائريين، وأن يحمي مصالحهم سواء في الجزائر أو في فرنسا. كما قام ببذل مجهودات جبارة من أجل تجنيد الطلبة والتلاميذ وراء جبهة التحرير الوطني. وبالإضافة إلى ذلك فإن الاتحاد قد تمكن من أن يخطو خطوات جبارة على الصعيد الدولي، حيث قام بنشاطات مكثفة من أجل التعريف بالقضية الجزائرية لدى المنظمات الطلابية وحركات الشباب في العالم[2].

وبذلك يكون الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين قد فرض شخصيته على كل التنظيمات الطلابية العالمية، وقدم خدمات جليلة للثورة الجزائرية على الصعيدين الداخلي والخارجي، وذلك بالرغم من المشاق والصعوبات وإجراءات القمع والتنكيل المسلطة عليهم من طرف السلطات الفرنسية[3].

6 . الاتحاد العام للتجار الجزائريين:

لقد أولت جبهة التحرير الوطني فئة التجار كباقي الفئات الاجتماعية اهتماماً خاصاً، وذلك نظراً لما لهذه الفئة من دور في تموين الثورة الجزائرية، فأنشأت لهذا الغرض منظمة الاتحاد العام للتجار الجزائريين « U.G–C.A » في سبتمبر 1956م بالجزائر العاصمة، وتتكون هذه المنظمة من التجار والحرفيين الجزائريين.

ويلاحظ أن إنشاء هذه المنظمة قد جاء استجابة لنداء مؤتمر الصومام، الذي أكد قبيل انعقاده على أنه: من واجب جبهة التحرير الوطني أن تساعد هذه المنظمة النقابية على التطور والتوسع بتكوين الظروف والشروط السياسية المناسبة[4].

وقد حددت وثيقة الصومام تلك الشروط فيما يلي:

. مكافحة الضرائب.

. مقاطعة كبار التجار الاستعماريين الذين يمدون الحرب الاستعمارية بمؤازرة نشيطة.

وتمكنت هذه المنظمة في بضعة شهور فقط من تقديم خدمات جليلة للثورة الجزائرية، كما قامت بعمل نضالي معتبر إذ استطاع الاتحاد أن يجند التجار وراء جبهة التحرير الوطني وأن يدعم الثوار بالمال[5].

ومن الجدير بالملاحظة أن الاتحاد العام للتجار الجزائريين قد شارك مشاركة فعالة في إضراب الثمانية أيام الذي شنه الشعب الجزائري كله، بما في ذلك الجالية الجزائرية في فرنسا، من 28 جانفي إلى 4 فيفري 1957م،

---

(1) المصدر نفسه ص 340.

(2) كيف تحررت الجزائر؟ وزارة الإعلام والثقافة ص 80.

(3) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 341.

(4) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، وزارة الإعلام والثقافة ص 40.

(5) كيف تحررت الجزائر؟ وزارة الإعلام والثقافة ص 80.

وذلك امتثالاً لأوامر جبهة التحرير الوطني وتطبيقاً لتعليماتها، وتمثلت مساهمة الاتحاد في هذا الإضراب في غلق كل المجالات التجارية.

وهكذا قد أظهرت تلك الإضرابات التي شارك فيها الاتحاد العام للتجار الجزائريين وغيره من الاتحادات الأخرى . اتحاد الطلبة، اتحاد العمال، إلخ . .. المساهمة الواسعة النطاق لصغار التجار والحرفيين، وكان ذلك دليلاً قاطعاً للرأي العام العالمي على تلاحم الشعب الجزائري مع جيش وجبهة التحرير الوطني، كما أكد الصيغة التمثيلية لجبهة التحرير الوطني قبيل انعقاد الدورة الحادية عشر للجمعية العامة للأمم المتحدة، وفند مزاعم فرنسا من أن قوات جيش وجبهة التحرير الوطني ما هي إلا عصابات ومجموعة من قطاع الطرق لا نشاط لها سوى الجبال. لكن السلطات الفرنسية لم تقف مكتوفة الأيدي أمام ما يحدث، بل راحت تسلط كل أنواع القمع والتنكيل على أعضاء الاتحاد، فاعتقلت أغلبهم وزجت بهم في السجون، وأذاقتهم كل أنواع التعذيب، وذلك على غرار ما فعلت بالاتحادات الأخرى. وأمام كثرة المضايقات والاعتقالات اضطرت قيادة الاتحاد العام للتجار الجزائريين إلى مغادرة الجزائر إلى تونس، ومواصلة نشاطاتها من هناك، وبالتنسيق مع جبهة التحرير الوطني. وأما في فرنسا فإن الاتحاد قد أصبح يمارس نشاطاته بالتنسيق مع اتحادية فرنسا لجبهة التحرير الوطني، وفي إطار منظمة جديدة تحمل اسم «الودادية العامة للتجار الجزائريين » A.G.C.A[1]

7 . اتحادية فرنسا لجبهة التحرير الوطني:

لقد اهتمت جبهة التحرير الوطني بتنظيم الثورة الجزائرية عن طريق تنظيم كل فئات الشعب، ووضع تنظيم سياسي إداري بهدف محاصرة الإدارة الفرنسية وإضعافها. ويلاحظ أن هذا التنظيم لم يقتصر على الجزائر فحسب، بل تعداها إلى الخارج حيث يوجد الجزائريون، ذلك لأن جبهة التحرير الوطني قد أدركت أن الثورة لن تتمكن من تحقيق أهدافها إلا بضرب السلطات الفرنسية في عقر دارها، ومن ثم إشعار الرأي العام الفرنسي بمطالبها العادلة.

وبذلك تكون جبهة التحرير الوطني قد فكرت وعملت منذ الوهلة الأولى على تنظيم المهاجرين الجزائريين في الخارج، وخاصة في فرنسا، فقد كان تنظيم وتأطير الهجرة الجزائرية وتعبئة العمال الجزائريين لمواجهة فرنسا من الداخل ؛ يعتبر من المهام الأساسية التي أسندت لممثلي الجبهة في فرنسا منذ الإعلان عن ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م[2].

وقام ممثلو الجبهة في الهجرة بممارسة المهام كما أسندت إليهم ؛ ولكن جهاز الأمن الفرنسي كان يتابع كل نشاطاتهم وتحركاتهم، وبالتالي استطاع أن يكشف التنظيم الجبهوي يوم 26 ماي 1955م وأن يلقي القبض على البعض من قادته، وذلك قبل أن يعطي هذا التنظيم النتائج المرجوة من نشاطاته. وقد حاولت جبهة التحرير الوطني أن تواصل نشاطها في فرنسا، ولكنها واجهت صعوبات كبيرة في تنظيم العمال المهاجرين،

---

(1) التنظيم الإداري والسياسي للثورة ص 343.

(2) المصدر نفسه ص 343.

نتيجة ظهور «مصالي الحاج» كزعيم لـ «الحركة الوطنية الجزائرية» « M.N.A » ابتداءً من ديسمبر 1954م، إذ انقسم المهاجرون إلى مناصرة مصالي وحركته، أو الاستجابة لدعوة جبهة التحرير الوطني.

ونتج عن هذا الانقسام أن وقعت خلال سنتي 1955م، 1957م تصفيات واغتيالات بين أنصار الجبهة وأنصار الحركة في صفوف العمال المهاجرين، ونتج عن ذلك أن اقتتل العمال المهاجرون الجزائريون، وكان لذلك تأثير كبير على الثورة وعلى المبادأئ العقائدية للوحدة الوطنية.

وقد اعتقدت السلطات الفرنسية أن في استطاعتها القضاء على ثورة الجزائر عن طريق الاعتقالات والمضايقات في فترة وجيزة، ولكن حسن تنظيم الثورة والإيمان بها من طرف كل الجزائريين خيب امال أعدائها المتربصين بها، فقد أوصى مؤتمر الصومام بضرورة تنظيم الهجرة في فرنسا، باعتبار العمال المهاجرين الجزائريين يمثلون رأس مال ثمين بالنسبة إلى عددهم وطابعهم الذين يتميزون به من الفتوة وقوتهم السياسية، وإن مهمة جبهة التحرير الوطني في تعبئة هذه القوى كلها كبيرة الخطورة، لا سيما وأنها تستلزم في نفس الحين كفاحاً شديداً لا هوادة فيه لاستئصال النزعة المصالية[1].

وهكذا فبعد مدة قصيرة من انعقاد مؤتمر الصومام، تمكنت جبهة التحرير الوطني من ترسيخ تنظيم محكم على غرار ما حصل في الجزائر، فقد قسمت الجبهة فرنسا من الناحية الجغرافية، وحسب الكثافة السكانية للمهاجرين الجزائريين، وفق التقسيم السياسي - الإداري الذي اعتمدته الثورة إلى ست ولايات، وتنقسم كل ولاية إلى مناطق، وكل منطقة تضم مجموعة من النواحي، التي تتكون هي الأخرى من مجموعة الأقسام، وتحتها الفروع، وفي القاعدة هناك الخلايا.

وإذا كان لابد من معرفة ما قدمته اتحادية فرنسا للثورة الجزائرية ؛ فإنه ينبغي الإشارة إلى ما تميز به نشاط أعضائها الذين احتلوا مراكز متقدمة في قيادات جبهة التحرير الوطني بفضل ما يتمتعون به من قدرات تنظيمية وفكرية وتجربة نضالية ؛ مما أعطى للثورة دعماً ونفساً جديداً للمضي قدماً من أجل تحقيق أهدافها.

ولم تكد تحل سنة 1958م حتى أصبحت اتحادية فرنسا ذات تنظيم سياسي -

إداري وعسكري محكم، مكّن الثورة الجزائرية من ضرب المواقع الاستراتيجية، الاقتصادية منها والعسكرية في قلب فرنسا نفسها. وبذلك أعطت الثورة الجزائرية الدليل للسلطات الفرنسية على أنها قادرة على نقل الثورة المسلحة إلى أرض فرنسا نفسها، ونشر الذعر والخوف وعدم الاستقرار في داخل فرنسا ذاتها، لتبين للشعب الفرنسي نوع الإرهاب والرعب والقمع والاضطهاد والقتل والتشريد، الذي يتعرض له الشعب الجزائري منذ نوفمبر 1954م من طرف جيش الاحتلال الفرنسي[2].

---

(1) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني ص 47.

(2) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 346.

8 . الحركة النسوية:

تشكل المرأة في نظر جبهة التحرير الوطني قوة هائلة، وذات أهمية أساسية في دعم ومساندة الكفاح المسلح، ولذلك أولتها الجبهة اهتماماً خاصاً واعتبرتها سنداً قوياً لها، كما اعتبرت مشاركتها في الكفاح من أجل تحرير الوطن ضرورة تفرضها متطلبات الثورة التحريرية، واعترافاً بالدور الذي يمكن للمرأة أن تلعبه في الثورة التحريرية ؛ فقد حددت وثيقة الصومام المهام الأساسية التي يمكن للمرأة أن تقوم بها، وذلك في حدود عادات البلاد وتقاليدها الخاصة وهي:

. مؤازرة المحاربين والمقاومين مؤازرة أدبية.

. تقديم الأخبار والمشاركة في الاتصالات والتموين وتهيئة الملاجأئ.

. مساعدة عائلات وأبناء المجاهدين والأسرى المعتقلين.

وقد أخذت مشاركة المرأة في الثورة الجزائرية بعداً واسعاً ابتداءً من سنة 1955م، حيث بدأت الخلايا النسائية في جبهة التحرير الوطني تتلقى طلبات الانضمام إلى صفوف الثورة بالجملة. وكانت المرأة الجزائرية منذ التحاقها بالثورة تطالب بأن تسند لها أهم وأخطر المهمات، حتى ولو كانت حديثة العهد بالالتحاق بالثورة، ويمكن تصنيف عمل المرأة في الكفاح المسلح إلى الأصناف التالية:

. المجندات المتعلمات: وهن من بدأن العمل بالمدن في صفوف الفدائيين، وقد لعبن دوراً مشرفاً في العمليات الفدائية والاتصالات والأخبار وجمع الأموال الخ... ولما تمكنت السلطات الفرنسية من إلقاء القبض على العديد منهن، فرت الأخريات والتحقن بالجبال، حيث شغلن مناصب هامة في ميادين الصحة، والتمريض، والإرشاد، والإعلام والتربية.

. والمجندات غير المتعلمات: ومعظمهن من سكان البادية حيث توجد قلاع الثورة ومراكز التحرير الوطني، وقد لعبن دوراً هاماً في تغذية الجيش، وفي إعلامه، حيث كان لكل فرقة من جيش التحرير مسبلتان أو ثلاث، وهؤلاء كن يسمين بالمسبلات لا المجاهدات، وكن لا يحملن السلاح في أغلب الظروف[1].

. المناضلات في جبهة التحرير الوطني: وهن من شغلن مناصب سياسية في الأرياف والبوادي والمشاتي بحيث كل مشتى به مسؤولة ونائبة لها، ويتمثل دورهن الأساسي في جمع الاشتراكات والتبرعات والتوجيه والإعلام وتقصي الأخبار، وقد ازداد دورهن أهمية عندما قامت السلطات الفرنسية بترحيل سكان البوادي وحشرهن في المحتشدات الإجبارية، وذلك بعد مجيء الجنرال «ديغول» إلى السلطة، باختصار كان هؤلاء المناضلات عيون الثورة بالمحتشدات.

وهكذا وبإسناد هذه المهام للمرأة الجزائرية إبان الثورة التحريرية، تكون جبهة التحرير الوطني قد فتحت حقاً المجال لكل الطاقات في البلاد، ورحبت بكل من يريد العمل من أجل تحرير الجزائر واستقلالها، ولم تخيب المرأة امال قادة الجبهة وطموحاتهم، حيث كانت سباقة للعمل والجهاد والتضحية والاستشهاد، وهذا ما جعل جبهة

(1) التظيم السياسي والإداري للثورة ص 346.

التحرير الوطني تشيد دائماً بالصورة البطولية للمرأة الجزائرية عبر كل الانتفاضات التي تلاحقت منذ احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م[1].

إن هذه الهياكل التنظيمية التي أنشأتها أو تواصلت معها وطورتها جبهة التحرير الوطني إبان الثورة، قد ازدادت أهميتها بعد إنشاء لجنة التنسيق والتنفيذ من طرف مؤتمر الصومام، فقد سمح هذا الإجراء الأخير لجبهة التحرير الوطني بأن تجند أعضاء المنظمات العمالية والتجارية والطلاب والنسائية لخدمة الثورة، وإقامة تعاون وثيق بين القيادة المركزية في الجزائر العاصمة وبين الولايات والمسؤولين في الداخل والخارج، على الرغم من الاعتقالات والملاحقات والمضايقات الشديدة التي شنتها السلطات الفرنسية على مناضليها في كل مكان بدون هوادة[2].

9 . العلم الجزائري:

العلم الجزائري يعبر عن تاريخها وحاضرها ومستقبلها، ويذكّر بتضحيات الأبطال وماسي الأبرياء، ويرمز إلى عبقرية العلماء ورجال الفكر،ويشد كل المواطنين الذين يعملون تحت ظله. فهو الشعار الذي يؤكد قوة الوطن خارج التراب الإقليمي في البحار والأقطار الأجنبية على صواري السفن وشرفات السفارات.

ويرمز اللون الأخضر للأمل.

واللون الابيض للسلم.

والهلال يذكر بالإسلام.

والنجمة قواعد الإسلام الخمس.

واللون الأحمر للتضحية.

على صفحاته الأولى سجلت الانتصارات على العدو، وعلى الصفحة الثانية التواريخ التي تذكر بشهداء التحرير. ولذلك فهو رمز هوية الوطن والثورة وسيادة الدولة وشخصية الشعب وصورة الأمة في ان واحد، وهو الرمز الوطني الجامع بين الدنيا والدين، فهو راية الثورة وراية الاستقلال، ويمثل العمق الحضاري.

وهو في الوقت نفسه أمر يتناسق مضمونه في جوهر الدورة التاريخية ذات الصبغة الحديثة المتمثلة في المقولة الشهيرة «الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا»[3].

وقد ارتبط تاريخ العلم الوطني الجزائري بهذا العمق في الحركة الوطنية وهو من صنعها، وبرزت الفكرة عند إنشاء نجم شمال أفريقيا الذي كان التعبير الصريح عن أمل التحرير والتطور في التكوين والاستعمال عبر المسيرة النضالية، فقد كان العلم الأول الذي رفعته الجماهير في المظاهرات العارمة في عمق باريس والجزائر العاصمة وكبريات المدن الجزائرية الأخرى من خلال الفترة الممتدة من 1926م إلى 1945م يختلف عن العلم الحالي بعض الشيء.

---

(1) المصدر نفسه ص 347.

(2) المصدر نفسه ص 325 و ص 347.

(3) ملحمة المظاهرات الشعبية، علي بوادري ص 13.

ففي أول الأمر كان أخضر وفي إحدى زواياه نجمة وهلال، على غرار الدول الإسلامية الأخرى. ومن 1936م . 1945م صار العلم بشكله الحالي، وقد تجسد شعاراً في أزياء الملابس والشارات التي كان يرتديها ويستعملها مناضلو الحركة الوطنية، وفي الأزياء الرياضية التي كان يرتديها رياضيو الفرق الموالية لنجم شمال أفريقيا وحزب الشعب وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية فيما بعد.

ولقد برز العلم الوطني الجزائري بوضوح سنة 1944 بعد تجمع أحباب البيان والحرية، الذي تم تبنيه كعلم رسمي للوطن الجزائري بعد تحديد شكله وألوانه من طرف قيادة حزب الشعب، ووقع تقديمه على هذا الأساس في الندوة الوطنية لأحباب البيان والحرية في مارس 1945م.

وقد رفع هذا العلم أثناء المظاهرات التاريخية في ماي 1945م، والتي سقط فيها عشرات الالاف من الشهداء الجزائريين، ومما يروى عن بعض المعاصرين الشاهدين عن بشاعة الأحداث وشناعتها أن المستعمرين الفرنسيين كانوا يلزمون الجزائريين في بعض الجهات من التراب الوطني بالقوة لحفر القبور تحت تهديد حد السلاح بالموت، ويأمرونهم مرغمين بدفن العلم الوطني الجزائري في أعماق باطن الأرض والبصق عليه[1].

وأصبح العلم الوطني يرفع بعد أحداث مارس 1945م، وأصبح المناضلون الوطنيون عند تشييع جنازة مناضل وطني يغطى بالعلم، وكان يجري التعريف به برفعه في الاجتماعات العامة وحتى في الأسواق والأعراس المخفية عن أعين الاستعمار. وعند إبلاغ الثورة المسلحة الكبرى في غرة نوفمبر 1954م أصبح العلم بالنسبة لجبهة وجيش التحرير الوطني الرمز الموحد، الذي استشهد تحت لوائه الأبطال، فضربت بذلك أروع الأمثلة في البطولة والتضحية والفداء في المعارك الكبرى ضد المستعمر.

ونصب العلم الجزائري على قمم الجبال العالية، تحدياً للطائرات وأمام عساكر العدو في المعارك والمراكز العسكرية في شهر سبتمبر 1958م بالولاية الثانية في الشمال القسنطيني عند الإعلان عن تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية، وغيرها من الولايات وربوع الوطن في 19 سبتمبر، وإجراء الاستفتاء الأول لديغول في يوم الثامن والعشرين منه. وقد التف الجزائريون حول هذا العلم الذي يمثل وحدة البلاد وهويتها ونضالها وانتماءها، وأصبحت رايات الجزائر خافقات على كل قمم الجبال المجاورة لمواقع الجيش الاستعماري، والربوات القريبة من مراكزه أو المقابلة لها، وعلى حافات الطرق وأشجارها وفي كل مكان، يوم أول نوفمبر 1961م وبصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الجزائر الوطني[2].

ولقد أصدرت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية من جهتها سنة 1961م قراراً تقر فيه العلم الوطني الجزائري، وبعد استفتاء تقرير المصير يوم 1 جويلية 1962م، وظهور النتيجة التاريخية بنسبة 97،4% بنعم يوم 2 جويلية، ثم في يوم 3 جويلية 1962م رفع العلم الوطني بسيدي فرج من طرف جيش التحرير للولايتين 3، 4 بحضور ممثلين عن الولايات الأخرى، وجمهور كبير جاء من كل الجهات ليعيش تلك اللحظات الرمزية،

(1) المصدر نفسه ص 16.

(2) المصدر نفسه ص 19.

وهي أن يرفع العلم في المكان الذي دخل منه المحتل في 1830م، وأمام ذلك الموقف التاريخي المهيب استلم القادة العلم وعزف النشيد الوطني، وطلب العقيد حسان قائد الولاية الرابعة من العقيد محمدي السعيد قائد الولاية الثالثة لكونه الأكبر سناً أن يرفع العلم، فكان مشهداً عظيماً في يوم خالد[1].

ولقد كتب الدكتور لحسن زغيدي كتاباً قيماً عن العلم الوطني الجزائري، وأشار فيه إلى دلالات رمزية وأوضح مسيرته النضالية، يقول الدكتور محمد لحسن زغيدي على صفحة كتابه: إن العلم الجزائري ربما ليس كسائر الأعلام، ولد من رحم قساوة الأيام ومرارة السنين والأعوام، فكان مبعثه أمل لتحقيق الأحلام، ونور لفجر الاستقلال وتبديد الظلام، فكانت رمزيته للوحدة والتوحيد، وربط القديم بالجديد فصبغ بقداسته الجهاد ودم الشهيد، فاختصر التاريخ في دلالاته وكان في أبعاد العلم الوحيد فنال احترام الإنسانية لما يحمل من ثورية، وقسم النشيد وهو للأجيال الضامن للاستقلال والجامع الأكيد، لقد كان العلم الجزائري معولاً وسلاحاً في يد الوطنيين والمجاهدين، وكان المعول الذي حطّم أسطورة الجزائر الفرنسية التي صنعها حلم الاستعمار، ونسجتها سنوات القهر والمسخ والتشريد والدمار بالقوانين والمراسيم والإجبار، والسلاح الذي رفعه المجاهدون والشعب في يد ترفعه والأخرى تذود عنه، وأجبروا العالم لإقراره والمحتمل للاعتراف به، وتجسيد دلالته ورمزيته وهي الوحدة والتمثيل والسيادة الكاملة.

ذلك هو العلم في نشأته وسيرته ومسيرته وأبعاده[2].

10. مفدي زكريا شاعر الثورة:

اندمج الشاعر في الثورة اندماجاً كلياً، وكان يهرّب قصائده وأناشيده من سجن بربروس، وكان ينفعل بأحداث الثورة فينظمها شعراً بليغاً يتساوى مع عظمة الأحداث، فكان يتمثلها ثم يحولها إلى امال وتحديات، وكأنه ينظم شعره في هذه الأثناء بالرصاص لا بالكلمات. كان اسم الشاعر مفدي زكريا يظهر في جريدة المجاهد «ابن تومرت» مستحضراً به مئات السنين من التاريخ، وهو اسم يرمز إلى الثورة والوحدة من قرطبة إلى بنغازي، أي الإمبراطورية الموحدية بالمعنى العقائدي والسياسي.

فالثورة الجزائرية عنده لن تقف عند حدود الجزائر الجغرافية، ولكنها ستمتد لتشمل بلاد المغرب وجوارها، ويمكننا أن نظل نتخيل في مكانه الصور التاريخية المتعاقبة إلى أن نصل إلى عهد الموحدين، الذي اعتبره المفكر مالك بن نبي هو نهاية المجد الإسلامي وبداية الانحطاط[3].

ومفدى زكريا من الشخصيات المناضلة والشعراء الفحول ودعاة الوحدة المغاربية، ويعتز بانتمائه العربي والإسلامي وتاريخه وحضارته، وكان منذ شبابه حائزاً على تكوين كبير في مجالي النضال الثوري والإصلاحي، بالإضافة إلى أنه كان يختزن تجربة جميع الذين كانوا يلتقون في بيت عمه للتداول في موضوع واحد وهو: كيفية

---

(1) العلم الوطني الجزائري، د . محمد لحسن زغيدي ص 230.

(2) المصدر نفسه صفحة الغلاف الخلفية.

(3) أعمال الملتقى الدولي، مفدي زكرياء شاعر الوحدة، 15، 26 مارس 2006م ص 78.

تقويض أركان الاحتلال الفرنسي في شمال إفريقيا، وإعادة توحيد المغرب العربي، سعياً إلى ربط مع زمن الموحدين[1].

أ . خطابه في مؤتمر عام 1934م بتونس بطلاب شمال أفريقيا:

القى خطابه فجاء فيه على الخصوص بالنقاط الاتية:

. امنت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبالقران إماماً، وبالكعبة قبلة، وبسيدنا محمد نبياً ورسولاً، وبشمال إفريقيا وطناً لا يتجزأ.

. أقسم بوحدانية الله أنني أؤمن بوحدانية شمال إفريقيا وأعمل في سبيل ذلك مادام فيَّ قلب خافق ونفس عالق.

. الإسلام ديننا ـ شمال إفريقيا وطننا ـ العربية لغتنا.

. لست مسلماً ولا مؤمناً ولا عربياً إذا لم أبذل نفسي ومالي ودمي في سبيل تحرير وطني العزيز من أغلال العبودية وإخراجه من ظلمات الجهل والفاقة إلى نور العلم والرفاهية والعيش السعيد.

.كل مسلم بشمال إفريقيا يؤمن بالله ورسوله ووحدة شماله هو أخي وقسم روحي، فلا أفرق بين تونسي ولا جزائري ومغربي، ولا بين مالكي وحنفي وشافعي وإباضي وحنبلي، بل كلهم إخواني أحبهم واحترمهم وأدافع عنهم ماداموا يعملون لله وللوطن، وإذا خالفت هذا المبدأ فإنني أعتبر نفسي أعظم خائن لدينه ووطنه.

.كل من عمل التفرقة بين أجزاء وحدة وطني أعتبره أكبر عدو لي ولوطني وأحاربه بكل وسيلة ولو كان أبي أنجبني أو أخي من أمي وأبي.

. وطني شمال إفريقيا له ذاتيته المقدسة وتاريخه الباذخ ولغته الكريمة وجنسيته الشرقية، وكل من سولت له نفسه الانسلاخ عن هذه الجنسية أو المروق من هذه الذاتية اعتبرته ابقاً من وحدة وطني، وخارجاً عن جماعة المسلمين، ليدخل لقيطاً بجنسية غيره، فعليه غضب الرب وغضب الشعب.

. قد تبين الرشد من الغي، فلا سياسة اندماج ولا سياسة استجداء، نحن طلاب حق مغصوب وتراث مسلوب يجب أن نناله وكفى، فلا منزلة بين المنزلتين ؛ إما وطنيّ صميم وإما خائن أثيم.

. نحن لا نبغض الأجناس، فالكل عباد الله، والأجانب الذين يعيشون في بلادنا نحترمهم ماداموا يحترمونا، ولا نؤذيهم ماداموا لا يؤذوننا في حريتنا وكرامتنا وخيرات بلادنا، فإذا راعوا حق صاحب الدار رعينا حق الضيوف، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وبهذا تأمر ضمائرنا الطاهرة.

. وطننا شمال إفريقيا لا يتجزأ من جسم الشرق العربي، نفرح لفرحه ونتألم لالامه، ونتحرك لتحركه، ونسكن لسكونه، تربطنا به إلى الأبد روابط اللغة والعروبة والإسلام[2].

---

(1) المصدر نفسه ص 58.

(2) المصدر نفسه ص 58، 59، 60.

في سنة 1934م مفدي في ريعان شبابه يبلغ من العمر 26 سنة يدعو إلى الوحدة باسم عقيدة التوحيد، ذكر الإسلام والإيمان بالله ورسوله (ص) والمذاهب الفقهية الإسلامية المعروفة وذكر الأخوة مرتين «هو أخي» «كلهم إخواني» وذلك مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [سورة الحجرات:10].

ويشير إلى جملة من الواجبات يراها ضرورية تجاههم، حبهم احترامهم الدفاع عنهم، غير أنه يشترط فيهم العمل لله والوطن فقدم العمل لله على العمل للوطن، كما اعتبر نفسه أعظم خائن لدينه ووطنه . إن خان هذا المبدأ. إن في تقديم العمل لله والدين دلالة على عمق الإيمان عند مفدي، كما أن الاختلاف لا يفسد للود قضية، إن احترام الاخرين واستيعابهم وتقبّل الاختلاف دليل تحضّر وسلامة قلب وسعة أفق.

جمعنا لحرب الخلاص شتاتا	سلكنا به المنهج المستبينا
ولولا التحام الصفوف وقانا	لكنا سماسرة مجرمينا

إن مفدي عندما يضع الوحدة الإسلامية في المقام الأول لا ينفي أي واحد من أشكال الوحدة الأخرى، بل هي ممتزجة مع بعضها البعض عنده، فها هو يربط بين حبه وتمسكه بدينه وحبه وتمسكه بشعبه دون أي نشاز أو تعارض، كما يعبر عن ذلك بقوله:

ولولا العقيدة تغمر قلبي	لما كنت أومن إلا بشعبي[1]

وكان مفدي زكريا رجلاً ملتزماً بمبادئه، ودفع ثمنها سجناً إبان مرحلة الاحتلال، وكتب النشيد الوطني الجزائري بدمه، ومازالت المبادأئ التي نادى بها في «خطاب عقيدة التوحيد» شاباً سنة 1934م تلازمه يخطها ويتلفظ بها في الإلياذة سنة 1972م وهو يشارف على الشيخوخة:

شربت العقيدة حتى الثمالة	فأسلمت وجهي لرب الجلالة
ولولا الوفاء لإسلامنا	لما قرر الشعب يوماً منالهو
لولا استقامة أخلاقنا	لما أخلص الشعب يوماً نضاله

إلى أن قال:

هو الدين يغمر أرواحنا	بنور اليقين ويرسي العدالة
إذا الشعب أخلف عهد الإله	وخان العقيدة فارقب زواله[2]

ب . مفدي زكريا وجمعية العلماء:

أشاد مفدي زكريا في أشعاره بجمعية العلماء في خدمة القضية الوطنية، واستمر في الاعتراف بجلائل أعمالها في الشعب والوطن، فقال في إلياذته التي هي عصارة لتاريخ الجزائر وملاحمها، فأشار إلى جهادها الذائع وجهدها الرائع ومناقب رئيسها ابن باديس والإبراهيمي عليهما وعلى رفقائهما رحمة الله عليهم جميعاً فقال:

وفي الدار جمعية العلماء	تغذي العقول بوحي السماء

(1) المصدر نفسه ص 393.

(2) المصدر نفسه ص 394.

وتهـدي النفوس الصـــراط الســـوي | وتــغــرس فــيــهــا مــعــاني الإباء
تواكـب نجم الشـــمــال انــدفــاعــاً | وتــغــمــر أكــوانــه بالسّـــنــاء
ويعضــــد باديس فيهـا البشـــير | فـتـزخـر بالخـلّص الأصــــفـيـاء
وتـغـزو الضـــلالات في الـتـائـهـين | مـع الـوهـم في مـوكـب الأغـبـيـاء
وترســي جذور الأصــالة في الشـعب | تمـحـو بها وصـــمـة الـدخـلاء
وتـبـني المـدارس عـرض الـبـلاد | فيعلي ابن باديس صـــرح البنـاء
ويـرتاع مســـتـعـمـر مســـتـبـد | وتخشـــى الخفـافيش نبع الضـــيـاء
ويـرهـب ظـل الأســـود ابـن اوى | ويـؤذي المـنـافـقَ صـــدق الـنـداء
كـذا عـبّـد الـعـلـمـاء الـثـنـايا | بوحي الســـمـاء ووحي الـدمـاء[1]

ج . مفدي زكريا وشعوره بوحدة الانتماء:

أدرك الشاعر مفدي زكريا أهمية دول المغرب أولاً لوجود عوامل عديدة تساعد على تحقيق هذا الهدف النبيل فقال:

إن الجـزائـر في الـغـرام وتـونسـا | والمغرب الأقصـــى خلقن ســواء
نحـن الـعـروبـة والشـــمـال بـلادنا | وبـه نـعـيـش أعـزة كـرمـاءأرض
مـطـهـرة تضـــم ضـــلوعـهـا | مـهـجـاً هـنـاك ذكـيـة ودمـاءبـدم
الصــحـابـة قـد تعطر ظهرهـا | قـدمـاً وأوى بـطـنـهـا الشـــهـداء
وتعـانقـت فيهـا البنود خوافقـاً | حمـــراء تحـــمـــل لـــلأنام رفـــاء
شـــعـب أغـرّ وأمـة عـربـيـة | مـا إن تـطـيـق مـذلـة وشـــقـاء
إن الحيـاة على الصَّـــغـار جريمـة | إني رأيـت الصــــاغـريـن إمـاء
وطني بروحي أفتـديـك ومـهـجـتي | ودمـي الشــــريـف مـبرة ووفـاء
وإذا الـفـتى لم يـرعَ عـهـد بـلاده | فـأقِـم عـلـيـه مـاتمـاً وعـزاء[2]

د . من قصائده في دعم الثورة:

نظم الشاعر مفدي زكريا بسجن بربروس، القاعة التاسعة في فيفري «شباط» 1957م . بمناسبة خذلان المنظمة الدولية لقضية الجزائر في دورتها الرابعة . قصيدة بعنوان «وتعطلت لغة الكلام» جاء فيها:

نطق الرصـــاص فمـا يبـاح كلام | وجرى القصـــاص فمـا يتـاح ملام
وقضـــى الزمـان فلا مردّ لحكمـه | وجرى القضـــاء وتمـت الأحكـام

(1) المصدر نفسه ص 95.

(2) مفدي زكريا شاعر النضال والثورة، د . محمد ناصر ص 316.

وسـعـت فرنسـا للقيامـة وانطوى   يـوم الـنشـور وجـفـت الأقـلام
والقابضـون على البسـيطة أفصـحوا   والـكـون باح وقـالـت الأيام
وتعلّم المسـتعمرون شـعوبها   أن الـتـحـكـم في الشـعـوب
حرامهم حرروا الميثاق هلاّ حرروا   أممـاً تسـام حـقـارة وتضـامـا
إن تـقـام لمـا يسـطـر حـرمـة   أو يعضـد القلم الرفيع حسـام
السـيف أصـدق لهجة من أحرف   كـتـبـت فـكـان بـيـانها الإبهـام
والنـار أصـدق حجـة فـاكتب بها   مـا شـئـت تصـعق عندها الأحلام
إن الصـحـائف للصـفـائح أمرهـا   والحـرب حـرب والـكـلام كـلام
عز «المكاتب» في الحياة «كتائب»   زحـفـت كـأن جـنـودهـا الأعـلام
خير المحـافـل في الزمـان جحـافـل   رفـعـت عـلـى وحـداتها الأعـلام
لغـة القنـابـل في البيـان فصـيحـة   وضـعت لمن في مسـمعيه صـمام
و«لـوافـح» الـنـيران خـير «لـوائـح»   رفعـت لمن في ناظريـه ركـام«وروائح»
الـبـارود مسـك نـوافـح   سـجـرت لمـن في مـنـخـريـه زكـام
والحق والرشـاش إن نطقـا معـاً   عنـت الـوجـوه وخرّت الأصـنـام
مـا لـلجـزائـر ترجف الـدنـيـا لهـا   والـكـون يـقـعـد حـولهـا ويـقـام
مـا لـلقـيـامـة في الجزائر أرعـدت   فـغـدا لهـا في الخـافـقـين غـمـام
لا تعجبوا فـالـدهر سـجـل دورة   مـا للخطوب على الشـعوب دوام
والـزرع أخـرج في الجـزائـر شـطـأه   فمضـى وهـبّ إلى الحصـاد كرام
والشـعـب شـق إلى الخلود طريقـه   فـوق الجـمـاجـم والخـمـيـس لهـام[1]

وقال:

يا ثـورة الـتـحـريـر أنـت رسـالـة   أزلـيـة إعـجـازهـا الإلهـام
لـك في الجزائر حرمـة قـدسـيـة   وبـكـل قـلـب في الـوجـود هـيـام
الشـعـب أنت ضـميره وصـوابه   والجـيـش أنـت دمـاغـه الـعـلام
لـيـس الجـهـاد زعـامـة وثـنـيـة   زلـت بهـم في الـثـورة الأقـدام
وتنـاثرت تلـك الهيـاكـل وانطوت   وتهـاوت الأنصـاب والأزلام
ولـقـد بهرت العـالمين وطـأطـأت   يا ثـورة الـتـحـريـر دونـك هـام

(1) اللهب المقدس ص 43 مفدي زكريا.

وتقمصت فيك الجزائر وانبرى	شيخ يحارب في الوغى وغلام[1]
يحدوهم للنصر مجلس ثورة	أركانه صهرتهم الالام
وحباهم طول الجهاد حصافة	وزكت بهم في المحنة الأعوام
وأنالهم صدق الضمير كرامة	وسما بهم في «الطامحين» مرام
شقت إلى الجبل الأشم مسالكاً	وعلى يديك إلى المصير زمام
شقي طريق الخالدين وسطري	بدم الشهادة فالدماء قوام[2]

هـ بين ابن جندي ثائر وأب شاعر ثائر:

كتب ابن مفدي زكرياء رسالة إلى أبيه بعد خروجه من السجن ومغادرة الوطن من ساحة الجهاد جاء فيها: يوم فاتح نوفمبر 1960م أبتِ العزيز . رضاك . أزكى تحياتي اخترت هذا اليوم . بالذات . يوم الذكرى السابقة لثورة الجزائر العتيدة، لأزف إليك بشرى التحاقي بصفوف جيش التحرير الوطني الجزائري، وقد حققت بهذا أمنية غالية ما انفكت تداعب خيالي، لقد أصبحت . أبت . في الثامنة عشرة من عمري وأنا أشعر بعاملين يتنازعاني، مواصلة دراستي العالية أو القيام بفرض الكفاح من أجل تحرير بلادي، فاخترت . عن عقيدة . أن أتخرج . أولاً . من معهد الزحف المقدس، ولن يفوتني . إن عشت . أن أستأنف دراستي وبلادي رافعة الرأس موفورة الكرامة، فأسهم في بناء جرائد الغد بنفس العزيمة التي تدفعني للإسهام في معركة تحريرها. وها أنا ذا . أبتِ . أصعد الجبل نفحة من روحك، ونبضة من قلبك، وقبساً من نورك. أصعد الجبل . وأنت بلبنان، تطبع ديوانك «اللهب المقدس» . لأطبع بدوري . وأنا ذرة من ديوانك . بحروف من لهب، صفحات من ديوان «اللهب المقدس».

حقاً . يا أبت . إني معتز فخور أن كنت ابناً لوالد يصنع المجد، ويرفع سمعة قومه، غير أني . وقد علمتني أن أعتمد على نفسي . حبيب إلى قلبي، أن أضيف إلى مجدك مجداً جديداً أصنعه أنا . كما صنعته أنت بكد اليمين . ثم ماذا عسى أن تفيدني دراسة الحقوق وأنا لم أتدرب بعد في قمم جبالنا على «المرافعة بالسلاح» في محكمة الوعد الحق والدفاع عن حقوق وطني السليب في ساحة الشرف، بشريعة السماء لا في جلسات القضاء البشري، بقوانين من وضع الإنسان الظلوم الجهول؟ وإني سأدفع منحتي الدراسية من ضريبة الدم قبل أن أتمتع «بمنحة جامعية» قد تغريني بحب السلامة، لتجعلني أعيش . أبد الدهر . تحت وخز الضمير.

أنت.. أنت.. . يا أبت العزيز . أنت الذي غرست فيَّ هذه الروح السامية، ونشّأتني هذه التنشئة الصالحة، ولاتزال نصائحك الغوالي ترن في أذاني وتصرخ في عروقي، ولم أصطحب معي . من متاع دنياهم . غير الرسالات التي كتبت بها إليَّ من أعماق سجنك، وكنت تبث بها الوعي العربي والحماس الوطني في فؤادي، ولازلت أحفظ منها قولك: «لست أريد من وراء تعليمك أن تصبح كتاباً في خزانة، أو الة تسجيل في مكتبة، أو

(1) اللهب المقدس ص 44.

(2) المصدر نفسه ص 45.

إنساناً ميكانيكياً فاقد الإرادة، ميت الشعور سقيم الإدراك، بل أريدك أن تكون روحاً من لهب، وفكراً من علم وأدب، ومفخرة من مفاخر العرب».

سأكون أبت العزيز ـ بعون الله ـ كما شئت، فإذا كتبت لي السلامة عشت مع إخواني حراً سعيداً، وإذا متُّ فما أنا بأول شهيد يغرس في أرض الجزائر، فلأمت ولتحيا الجزائر.

سلامي وقبلاتي الحرار الحنون التي فارقتها من سبع سنوات، ثم إلى الحبيبتين أختي عايشة استقلال وصالحة فدا، الله أكبر والمجد للجزائر والعزة للعرب.

ابنك الذي يقدسك ويقبلك ويتبع خطاك الجندي الصغير سليمان صلاح الدين[1]

فرّد الشاعر مفدي زكرياء على ابنه:

أي بني!. هكذا يفعل أبناء الجزائر:

هـكـذا يـفـعـل أبـنـاء الجـزائـر	يا صـــلاح الـدين في أرض الجزائر
ســـر إلى الميـدان مـأمون الخطى	وتـطـوّع في صـــفـوف الجيـش ثائـر
أنــت جنـدي ســـاحـات الفـدا	وأنا في ثـورة الـتـحـريـر شـــاعـر
زغـــردي يا أمـــة وافـــتـــخـــري	فـابنــك الشـــهم فـدائيّ مغـامر
كـن شــــواظـاً وتـنـزل كـالقضـــــا	ونـفـخـر فـوق هـامـات الجبـائـر
صــــلـواتي لــك والله مــعــك	ســوف ألقـاك بأعيـاد البشــــاير
فـإذا مـا عشـــت حققـت الرجـا	وإذا مـــتّ فـلـتـحـيَ الجــزائــر

هكذا يفعل أبناء الجزائر

بيروت 15 نوفمبر «تشرين الثاني 1961م

والدك الذي يدعو لك ويفخر بك[2]

11 . النشيد الوطني الجزائري:

النشيد الوطني الجزائري الرسمي «قسماً» من إنتاج شاعر عبقري فذ وطني ثائر على الاستعمار، من تحدثنا عنه مفدي زكرياء شاعر الثورة الجزائرية والمغرب العربي الكبير، وصاحب اللهب المقدس، وناظم إلياذة الجزائر التاريخية وذلك سنة 1956م، وهناك من يقول نظمها داخل سجن بربروس بالجزائر[3]، وهناك من قال في دكانه بالعاصمة[4]، قبل سجنه وبعد ذلك ألقي القبض عليه.

(1) اللهب المقدس ص 10.

(2) اللهب المقدس ص 13.

(3) تاريخ ملحمة نشيد قسماً، الأستاذ الأمين بشيشي الاستاذ عبد الرحمن بن حميدة ص 23.

(4) الثورة الجزائرية، د . بوعلام حمودة ص 185.

والشاعر مفدي زكرياء: هو سليمان بن يحي بن الشيخ الحاج سليمان ولقبه «ال الشيخ»، ولد في جمادى الأولى سنة 1326هـ الموافق 12 من شهر أفريل 1908م في بني يزقن بغرداية جنوب الجزائر، وهو شاعر الوطنية والنضال والثورة. وله مؤلفات وأناشيد وطنية عديدة في الدواوين اللهب المقدس وإلياذة الجزائر، ومن الأناشيد: فداء الجزائر، واعصفي يا رياح، وقسماً موضوع هذا الحديث. وقد توفي يوم 3 رمضان 1397هـ الموافق 17 أوت 1977م بتونس بنوبة قلبية، وقبره موجود بمسقط رأسه.

وكان صاحب فكرة النشيد الوطني الأستاذ حسين بالميلي، وفاتحَ رمضان عبان، مسؤول شؤون الثورة في العاصمة وما جاورها، وبيّن له أهمية نظم نشيد يواكب المرحلة، واقتنع عبان رمضان بالموضوع وطرحه على بعض مساعديه الذين زكوا الفكرة، وكلف بن يوسف بن خدة والأخضر رباح بالاتصال بالشعراء الكفيلين بنظم قصيدة يراعي المعايير الثلاثة الاتية:

. دعوة الشعب للالتحاق بالثورة تحت لواء جبهة التحرير الوطني.

. التشهير بالدولة الاستعمارية الباغية الهاضمة لحقوقنا والمستهينة بمقوماتنا.

. تحاشي ذكر اسم أي شخص مهما كان ماضيه أو حاضره النضالي[1].

ووقع الاختيار على المناضل الشاعر مفدي زكرياء، واستقر تلحين النشيد الوطني الجزائري في نهاية الأمر على الفنان الشهير محمد فوزي من مصر عام 1957م.

والفنان محمد فوزي ملحن النشيد الوطني الجزائري «قسماً»: اسمه الحقيقي فوزي عبد العالي، ولد سنة 1918م بمدينة طنطا القريبة من القاهرة في مصر، ويعد هذا التلحين إسهاماً مهماً ومشاركة فعالة منه في الثورة الجزائرية[2].

وأصبح بعد ذلك نشيد الثورة الجزائرية الرسمي الذي فاقت شهرته الافاق، وحفظه وتغنى بإنشاده الجيش والشعب والصغار والكبار في رؤوس الجبال . والمدن والقرى والأرياف . وكان صوت النشيد وموسيقاه يزمجران في إذاعة صوت الجزائر، وفي «برنامج أباطيل تكشفها حقائق» من إذاعة صوت العرب في القاهرة والكثير من الإذاعات العربية في المغرب والمشرق، واعتمد فيما بعد نشيداً رسمياً للدولة الجزائرية المستقلة[3].

وهذا نص النشيد الوطني الجزائري

قســـمـاً بالـنـازلات المـاحـقـات — والـدمـاء الـزاكـيـات الـطـاهـرات

والـبـنـود الـلامـعـات الخـافـقـات — في الجبال الشـــامخات الشـــاهقات

نحــن ثُــرنا فـحـيــاة أو ممــات — وعـقـدنا الـعـزم أن تحـيـا الجـزائـر

فاشـــهدوا.. فاشـــهدوا.. فاشـــهدوا

(1) تاريخ ملحمة نشيد قسماً ص 28.

(2) ملحمة المظاهرات الشعبية ص 85.

(3) المصدر نفسه ص 25.

نحن جند في سبيل الحق ثرنا وإلى استقلالنا بالحرب قمنا

لم يكن يُصغى لنا لما نطقنا فاتخذنا رنة البارود وزنا

وعزفنا نغمة الرشاش لحناً وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا

يا فرنسا قد مضى وقت العتاب وطويناه كما يُطوى الكتاب

يا فرنسا إن ذا يوم الحساب فاستعدي وخذي منا الجواب

إن في ثورتنا فصل الخطاب وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا

نحن من أبطالنا ندفع جندا وعلى أشلائنا نصنع مجدا

وعلى أرواحنا نصعد خُلدا وعلى هاماتنا نرفع بندا

جبهة التحرير أعطيناك عهدا وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا

صرخة الأوطان من ساح الفدا اسمعونا واستجيبوا للندا

واكتبوها بدماء الشهدا واقرؤوها لبني الجيل غدا

قد مددنا يا مجد يدا وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا[1]

* * *

سادساً: الإصلاحات السياسية والإدارية

في بداية الفاتح من نوفمبر 1954م حين أدركت السلطات الفرنسية مع مطلع السنة الجديدة أن سياسة القمع التي انتهجتها في الجزائر لخنق الثورة والقضاء على الثوار لم تعد تجدي نفعاً، وبدأ يتضح أن كل تلك الأساليب الجهنمية التي استعملتها لإرهاب الجماهير الشعبية وعزلهم عن الثورة قد باءت بالفشل، حينئذ التجأت إلى البحث عن إرساء قواعد سياسة جديدة تتماشى والوضع المتأزم الذي تمر به البلاد. ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أن بعد مرور شهرين فقط على انطلاق الثورة التحريرية المدعمة من طرف الشعب تغيرت الأوضاع كلية.

(1) المصدر نفسه ص 29.

فقد بدأت السلطات الفرنسية تشعر بأنها تتخبط في بحر من التناقضات ليس له حدود، وذلك نتيجة التصريحات الكاذبة والمخادعة التي كانت تصدرها عقب كل عملية عسكرية قصد تمويه الرأي العام الفرنسي، وعلى الخصوص المستوطنين الأوربيين الذين بدؤوا يدركون زيف البلاغات العسكرية، كما تفطنت السلطات الفرنسية بدورها لعدم قناعة الرأي العام بصحة البيانات الواردة في بلاغاتها. وأمام ظاهرة صعوبة احتواء الثورة والقضاء عليها في مهدها، وقبل أن يفلت زمام الأمور من يدها ؛ قررت الحكومة الفرنسية مناقشة مشروع إصلاحات سياسية إدارية يكون مقبولاً بالنسبة للمستوطنين الأوروبيين على الأقل من جهة، ويساعد على تهدئة الوضع وإخماد نار الثورة من جهة أخرى(1).

1 . الإصلاحات السياسية والإدارية في عهد حكومة مانديس فرانس:

قام وزير الداخلية الفرنسي «فرانسوا ميتران» في 5 جانفي 1955م بتقديم مشروع إصلاحات سياسية إدارية إلى مجلس الوزراء الفرنسي، وكانت تلك الإصلاحات تتمحور حول النقاط الأساسية التالية:

أ . تطبيق قانون 20 سبتمبر 1947م بدمج الجزائر في فرنسا، وذلك تحقيقاً لمقولة «الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا».

ب . إنشاء المدرسة الوطنية للإدارة « E.N.A » في الجزائر، وذلك قصد تكوين فئة من المسؤولين الجزائريين وتعيينهم في مناصب عليا في جهاز التوظيف العمومي.

ج . دمج شرطة الجزائر في شرطة فرنسا، وذلك قصد توحيد النظام وتطبيق قانون واحد على الجميع مثلما هو الحال في فرنسا.

ومن الجدير بالملاحظة أن مجلس الوزراء برئاسة «مانديس فرانس» انذاك . بعد اطلاعه على مضمون تلك الإصلاحات . قرر تغيير الحاكم العام، وأصدر بياناً بتاريخ 25 جانفي 1955م يتضمن تعيين السيد «جاك سوستال» حاكماً عاماً للجزائر خلفاً للجنرال «روجي ليونارد» زيادة على كونه قد فشل في إخماد نار الثورة، لم يكن يراه مؤهلاً لتطبيق تلك الإصلاحات، وبعبارة أدق لقد قرر رئيس مجلس الوزراء إجراء هذا التغيير، لأنه لم يكن يرى في «روجي ليونارد» الرجل المناسب لتلك المرحلة الصعبة، بالإضافة إلى هذا التغيير فقد تضمن البيان الإعلان عن دمج شرطة الجزائر في فرنسا.

والواقع أن الحكومة الفرنسية قد اضطرت اضطراراً إلى اتخاذ هذين الإجراءين والإعلان عنهما في شكل بيان صادر عن مجلس الوزراء بتاريخ 25 جانفي 1955م.

فقد كانت تهدف من وراء تعيين «جاك سوستال» حاكم عام للجزائر إلى التخلص من الضغوطات التي كان يمارسها المستوطنون الأوروبيون . من إقطاعيين وأصحاب رؤوس أموال كبار بالعاصمة . على الحاكم العام السابق «روجي ليونارد»، الذي كان أسير هذه الشرذمة التي كانت تملي عليه المراسيم التي تخدمها وتخدم

(1) التنظيم السياسي والإداري للثورة، د . عقيلة ضيف الله ص 197.

مصالحها، دون أدنى مراعاة لمصلحة فرنسا أو مصلحة المسلمين الجزائريين، وبعبارة أخرى لقد اتخذت الحكومة الفرنسية قرار تعيين «جاك سوستال» حاكم عام جديد للجزائر قصد الاعتماد عليه في تطبيق الإصلاحات[1].
وعند عرض مشروع الإصلاحات السياسية الإدارية أمام المجلس الوطني الفرنسي، كانت المعارضة قوية بسبب قوة المستوطنين الأوروبيين وسعة سلطانهم في فرض اتجاهاتهم وسيطرتهم على المجلس، فقد قاموا بحملة مضادة لمشروع الإصلاحات السياسية الإدارية الذي تقدمت به الحكومة الفرنسية، وبالرغم من محاولة رئيس الحكومة الفرنسية «مانديس فرانس» طمأنة الجميع بأن مشروع الإصلاحات ما هو إلا مناورة ومراوغة لتهدئة الشعب الجزائري؛ فإن المستوطنين الأوروبيين قد ركزوا هجومهم ضد الحكومة على الوضعية العسكرية المتدهورة في الجزائر، كما اتهموا رئيسها بأنه ينوي التفاوض مع الثوار الجزائريين مثلما تفاوض مع التونسيين والمغاربة، ولأجل ذلك رفعوا شعارات معادية لسياسة الحكومة المركزية وجندوا كل طاقاتهم للإطاحة بها، باختصار لقد اعتبروا السيد رئيس الحكومة الفرنسية «مانديس فرانس» واهب الاستقلالات ومخرباً للإمبراطورية الفرنسية[2].
وسقطت الحكومة الفرنسية التي يترأسها مانديس فرانس بعد أن نزع المجلس الوطني الفرنسي الثقة منه بـ 319 صوتاً ضد 273 صوتاً. وبانهزام حكومة مانديس فرانس في 6 فيفري 1955م ؛ يكون المستوطنون الأوروبيون قد حققوا انتصاراً كبير في معارضتهم الشديدة لأي تغيير سياسي إداري في الجزائر يمس بمصالحهم أو يحقق المساواة بينهم وبين المسلمين الجزائريين[3].
وباختصار إن مشروع الإصلاحات السياسية الإدارية قد اختفى باختفاء فرانس وحكومته.
والواقع أن هزيمة حكومة مانديس فرانس التي تعد أكبر دليل على قوة المستوطنين الاوروبيين وسعة سلطانهم، قد أغرقت فرنسا في أزمة سياسية تركتها بدون حكومة مدة تسعة عشر يوماً، ظهرت خلالها عدة محاولات فاشلة قامت بها شخصيات ذات انتماءات سياسية وعقائدية مختلفة[4].
ويلاحظ في هذا الصدد أن حكومة السيد «بينو» قد لقيت نفس مصير حكومة مانديس فرانس، وذلك على إثر عرض برنامج حكومته على المجلس الوطني الفرنسي، فقد نزعت هذه الأخيرة الثقة من حكومة بينو بـ 312 صوتاً ضد 268 صوتاً، وذلك بالرغم من تأكيد مجلس الوزراء الفرنسي على أن مشروع الإصلاحات الذي تقدم به «بينو» أمام المجلس الوطني الفرنسي ؛ لن يشرع في تطبيقه إلا بعد استتباب الأمن في كافة أرجاء البلاد، وقد بقيت فرنسا عدة أيام بدون حكومة.
وقد قرر رئيس الجمهورية الفرنسي «روني كوتي» انذاك تعيين رئيس حكومة جديد هو «ادقار فور»، الذي كلف بتشكيل حكومة جديدة، وعرض برنامجه الحكومي على المجلس الوطني الفرنسي لمناقشته[5].

---

(1) المصدر نفسه ص 199.
(2) المصدر نفسه ص 202.
(3) المصدر نفسه ص 202.
(4) الثورة الجزائرية في عامها الأول، محمد الزبيري ص 103.
(5) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 204.

2 . الإصلاحات السياسية الإدارية في عهد حكومة «ادقار فور»:

لقد عانت فرنسا أزمة سياسية خانقة وفراغاً سياسياً فظيعاً لمدة حوالي ثلاثة أسابيع بعد الهزيمة التي لحقت بحكومة مانديس فرانس في 6 فيفري 1955م، وفشل حكومة «بينو» الذريع في الحصول على موافقة أعضاء المجلس الوطني الفرنسي على برنامجه الحكومي. ولعل هذا هو السبب في تزكية «ادقار فور» من طرف المجلس الوطني الفرنسي وفوزه بالثقة التي مكنته من الإعلان عن تشكيل الحكومة يوم 24 فيفري 1955م[1].

ومن الجدير بالملاحظة أن الحاكم العام الجديد «جاك سوستال»، الذي تم تعيينه من قبل رئيس الحكومة السابق «مانديس فرانس»، لم يرض بالمجيء إلى الجزائر إلا بعد أن طمأنه رئيس الحكومة الجديدة «ادقار فور» بأن منصبه في الجزائر مضمون، وبأن برنامج الحكومة المتعلق بالإصلاحات السياسية الإدارية

الذي اقترحه «مانديس فرانس» سيزكى من طرف البرلمان الفرنسي، ثم حثه على القبول بتلك المهمة، والذهاب إلى الجزائر للشروع في العمل وتطبيق تلك الإصلاحات[2].

وبالفعل فقد بدأ «جاك سوستال» في تطبيق تلك الإصلاحات مركزاً بصفة خاصة على الجانب الاقتصادي الاجتماعي، بينما أهمل الجانب السياسي الإداري تماماً، وكانت سياسته هذه قد مكنته من الاقتراب أكثر من المستوطنين الأوروبيين وكسب ثقتهم وعطفهم.

ولكن الثورة أدركت منذ الوهلة الأولى أن هذه السياسة التي جاء بها جاك سوستال والتي تقوم على أساس إبقاء الجزائر فرنسية، قد كانت تهدف إلى عزل الثورة عن الشعب والتشكيك في المبادئ التي تضمنها بيان أول نوفمبر، والهادفة أساساً إلى تحقيق الاستقلال التام.

وهكذا رفضت الثورة تلك الإصلاحات شكلاً ومضموناً، وعبرت عن ذلك بانتشارها أكثر في كافة أرجاء الوطن واشتدادها أكثر من ذي قبل، ورفضها الشعب الجزائري أيضاً، وعبر عن ذلك بتبنيه للثورة والتفافه حولها، واشتد وطيس الثورة والقضاء عليها من جهة أخرى، ونتيجة لهذا الاضطهاد شعر الجزائريون بضرورة التكاتف أكثر إذا أرادوا التخلص النهائي من نظام الاحتلال الفرنسي الذي عانت منه بلادهم منذ أمد بعيد.

أما الفرنسيون فلم ييأسوا، وحاولوا أن يواجهوا ذلك التمرد باللجوء إلى اتخاذ تشريعات استثنائية وسن قوانين زجرية ترغم الجزائريين على الخضوع للسلطات الفرنسية، والقبول بسياسة الإصلاحات المفروضة عليهم، وبذلك التجأ الحاكم العام بالجزائر «جاك سوستال» إلى مطالبة الحكومة الفرنسية بتدعيم الجهاز القمعي بالجزائر، وذلك بإصدارها لمشروع «قانون حالة الطوارئ»، وقد رحبت حكومة ادقار فور بالفكرة، حيث عمدت إلى طبخ على عجل لمشروع قانون أسمته «قانون حالة الطوارئ»، وتقدمت به للمجلس الوطني الفرنسي للمصادقة عليه.

---

(1) المصدر نفسه ص 204.

(2) المصدر نفسه ص 206.

وبالفعل فقد عقد المجلس الوطني الفرنسي دورة استثنائية ابتداءً من 23 مارس 1955م لمناقشة مشروع قانون حالة الطوارأئ، وقد تمت المصادقة على ذلك المشروع بـ 379 صوتاً ضد 219 صوتاً، وبذلك أدخلت السلطات الفرنسية قانون حالة الطوارأئ حيز التنفيذ ابتداءً من 3 أفريل 1955م[1].

وهكذا فبوضع قانون حالة الطوارأئ حيز التنفيذ، تكون الجزائر قد دخلت مرحلة جديدة من حياتها السياسية. ويمكن حصر أهم ما جاء به ذلك القانون المشؤوم فيما يلي:

. إنشاء المحتشدات التي اختارت السلطة الفرنسية أن تقيمها في المناطق النائية ليصعب الاتصال بالمجبرين على الإقامة فيها.

. إعطاء صلاحيات للسلطات الفرنسية بحيث يحق لرجال الأمن نفي وفرض الإقامة الجبرية على الجزائريين ومحاكمتهم من قبل المحاكم العسكرية.

. السماح للشرطة باعتقال أي شخص في أي وقت بدون الحصول على موافقة الجهات القضائية.

. إنشاء جهاز للشرطة الريفية المتنقلة.

. منع تحرك الاشخاص والسيارات إلا بعد الحصول على إذن من السلطات المعنية.

وباختصار فإن قانون حالة الطوارأئ يعني نقل السلطة من الجهات القضائية والإدارية إلى الجيش الذي أصبح هو السلطة الفعلية للبلاد، وبدأت الحملات العسكرية مصاحبة بالدعاية السياسية للقضاء على الثورة، وعملت السلطات الفرنسية على إرهاب الشعب الجزائري بكافة أشكال وألوان وأنواع العنف الممنهج، من قتل وتشريد وحرق وسجن وحصر للأهالي. كما أصدرت السلطات الفرنسية تعليمات تتعلق بزيادة عدد المحتشدات والتجمعات، وشددت في نفس الوقت الرقابة السياسية في ميدان الإعلام والثقافة.

ولكن بالرغم من كل تلك الإجراءات المتخذة، فإن السلطات الفرنسية لم تتمكن من إخماد نار الثورة، بل إن النتيجة قد كانت جدّ إيجابية بالنسبة للثورة الجزائرية، إذ الخسائر الفرنسية 2/3 الخسائر الجزائرية وذلك كما سبق القول، رغم كل المجهودات التي بذلتها قصد القضاء على الثورة.

وكان جاك سوستال قد انتبه إلى هذه الحقيقة، ولاحظ بأن الجماهير الجزائرية قد بدأت تتبنى الثورة التحريرية، فقام بمحاولة جديدة أطلق عليها اسمه، وهي عبارة عن برنامج إصلاحي يشتمل على عشر نقاط يمكن تلخيصها في الاتي:

. تقسيم إداري جديد يتمثل في إنشاء عمالات ودوائر جديدة في اعتقاد جاك سوستال، فإن هذا الإجراء سيسهل عملية المراقبة ويضبط تحركات المواطنين.

. مكننة الفلاحة قصد شد الجزائريين إلى الأرض ومنعهم من الالتحاق بصفوف الثورة.

. توسيع الصناعات الخفيفة قصد خلق الوظائف ومناصب الشغل، وبالتالي امتصاص طوابير العاطلين عن العمل قبل أن تمتد إليهم يد الثورة الزاحفة.

---

(1) المصدر نفسه ص 208.

. إلغاء البلديات المختلفة قصد إيجاد الانسجام الإداري، ومن أجل الاستجابة لأحد مطالب النخبة في الجزائر.
. فصل الدين الإسلامي عن الإدارة الفرنسية، وذلك يكون استجابة لأحد المطالب الأساسية التي تنادي بها جمعية العلماء المسلمين.
. تعليم اللغة العربية في المدارس الحكومية، مع العلم أن هذه النقطة تشكل مطلباً تنادي به كافة التشكيلات السياسية الوطنية في الجزائر.
. محاربة الأمية بواسطة اللغة الفرنسية، لعل ذلك يقرب الجزائريين أكثر إلى الأمة الفرنسية.
. فتح أبواب التكوين المهني للجزائريين، حتى يشعر الشباب خاصة بأن هناك مساواة بينهم وبين أبناء المستوطنين الأوروبيين.
. تمكين المسلمين الجزائريين من الالتحاق بالتوظيف العمومي، حتى لا يبقى ذلك السلك حكراً على المستوطنين الأوروبيين، وحتى تحضر الشروط الضرورية بخلق قوة ثالثة تستفيد من خدمات الإدارة الفرنسية وترفض الالتحاق بركب الثورة(1).
. مطالبة الوطن الأم بتكثيف المساعدة للمشاريع الاجتماعية، التي من شأنها أن توفر جواً من الارتياح والرضى لدى أغلبية سكان الجزائر.

تلك هي أهم نقاط برنامج جاك سوستال. وعند التأمل فيها جيداً، يلاحظ المرء أن هذا البرنامج لا يختلف في جوهره كثيراً عن البرامج التي سبقته، بدءاً بمشروع «بلوم فيوليت» وإنتهاءً بقانون الجزائر. غير أن الشيء الذي كمم أفواه المستوطنين الأوروبيين وجعلهم يقبلون بهذا البرنامج الإصلاحي، هو تصعيد الثورة وإشعال نارها في كل مكان، خاصة وأن أمنيتهم الوحيدة قد أصبحت تتمثل في العودة إلى ماقبل نوفمبر 1954م واسترجاع الأمن والسلام المفقودين.

وفي اجتماع مجلس الوزراء الفرنسي بتاريخ 15 جوان 1955م، أوضح الحاكم العام جاك سوستال عند عرض مشروع برنامجه على أعضائه أن هذا المشروع سيطبق على المناطق المحرومة بداية، كما اشترط أن يسبق تطبيق قانون حالة الطوارأئ في كافة أنحاء الجزائر. ومن أجل تحقيق كل ذلك طالب الحكومة الفرنسية بمساعدات مالية، وقد انتهى ذلك الاجتماع بالمصادقة على برنامج سوستال، كما جدد المجلس ثقته في شخص الحاكم العام جاك سوستال وأوكل إليه مهمة إنجاز البرنامج.

وفي الواقع أن برنامج جاك سوستال لم تنفذ منه أية نقطة، ذلك أن جاك سوستال قد أصر على تطبيق سياسة الإدماج مثله مثل من سبقه من حكام الجزائر، فالمتفحص جيداً للبنود الواردة في برنامج سوستال، يمكنه أن يلاحظ أن هذا البرنامج يخفي في طياته مخططاً رسم بدقة، يرمي إلى دمج المجتمع الجزائري ومحو الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية، فتأخذ أولاً صفة تابع ثم تتدرج نحو الدمج والذوبان داخل الإطار الفرنسي(2).

(1) المصدر نفسه ص 211.
(2) مجلة أول نوفمبر المصادرة بتاريخ 1977/8/1م.

وقد اصطدمت سياسة الإدماج التي أراد جاك سوستال تطبيقها في الجزائر بأرض الواقع، ففي الجزائر قرر المستوطنون الأوروبيون رفضها، لأن هذه السياسة تعني في نظرهم تحقيق المساواة بينهم وبين المسلمين الجزائريين، وبالتالي إزالة الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر.

ولهذا السبب لاقى البرنامج تذمراً ونقداً ومعارضة شديدة من طرف المستوطنين الأوروبيين، الذين نادوا بإيصاد الأبواب في وجه كل إصلاح وكل استجابة لرغبات الشعب الجزائري، وطالبوا باستعمال الزجر الجماعي والقمع الدموي على نطاق واسع قصد القضاء على الثورة[1].

وأما في فرنسا، فإن الساسة الفرنسيين قد رفضوا تطبيق برنامج جاك سوستال، الذي يقوم على أساس دمج الجزائر في فرنسا لسبب واحد فقط، وهو أن الاندماج يعني في نظرهم إعطاء حق التمثيل السياسي في البرلمان لـ 9 ملايين من المسلمين الجزائريين، لأن هذا يعني خلق قوة سياسة إسلامية داخل الهيئة التشريعية في فرنسا ذاتها، وبالتالي فرض ضمهم ونفوذهم على الفرنسيين، وهكذا فقد وجد المسؤولون الفرنسيون أنفسهم غير قادرين على اتخاذ أي إجراء، سواء بانتهاج سياسة الإدماج التي تنعكس سلباً على التمثيل السياسي بفرنسا، أو بانتهاج سياسة التعاون مع المسلمين الجزائريين لأن ذلك يعني تصويت الأوروبيين في البرلمان ضد حكومتهم والإطاحة بها.

ويستنتج مما تقدم أن كل المحاولات والمساعي لتحقيق السلام من طرف المسؤولين الفرنسيين قد باءت بالفشل الذريع، ذلك لأن الواقع الجزائري كان يختلف اختلافاً كلياً عن التحليلات والتصريحات التي كان يدلي بها أولئك المسؤولون في باريس والجزائر، ففي الوقت الذي كان فيه أغلب المسؤولين الفرنسيين يناقشون مشاريع الإصلاحات في مجلس الوزراء والبرلمان الفرنسيين، كان رجال الشرطة والجيش الفرنسي يستعملون أبشع وسائل التعذيب لاستخراج الأسرار والاعترافات من الجزائريين، وبذلك قضوا على إمكانية وجود أي تعاون بين السلطات الفرنسية وأبناء الشعب الجزائري.

والتجأت السلطات الفرنسية إلى تمديد حالة الطوارئ، وذلك ظناً منها أن النصر لن يكون إلا عسكرياً، فقد قرر مجلس الوزراء الفرنسي في اجتماعه المنعقد في 6 جويلية 1955م تمديد حالة الطوارئ بالقطر الجزائري إلى ستة أشهر أخرى ابتداءً من شهر أكتوبر 1955م، كما صادق البرلمان الفرنسي على ذلك القرار خلال الدورة التي عقدها بين 28 و29 جويلية 1955م، وذلك بـ 382 صوتاً ضد 233، بالإضافة إلى قرار إنشاء عمالة عنابة وتنصيب مجلس للاستئناف بقسنطينة ووهران[2].

---

(1) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 213.

(2) المصدر نفسه ص 214.

غير أن ذلك الحلم ـ الانتصار العسكري ـ ستبدده هجومات 20 أوت 1955م كما سيتضح في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى، فكلما تفنن القادة الفرنسيون في مضايقة الثورة وخنقها كلما ازدادت الجماهير إيماناً والتحاماً بها[1].

3 ـ التفاف الشعب حول جبهة التحرير وهجوم 20 أوت 1955م:

استخدم جاك سوستال كل الوسائل الممكنة للقضاء على الثورة الجزائرية، وتطبيق فكرة إدماج الجزائر سياسياً وإدارياً في فرنسا، فقد كانت كل محاولة إصلاحية من محاولاته تحمل في طياتها فكرة الإدماج، مثل ما ورد في بعض تصريحاته التي جاء فيها:

ــخ إن الجزائر تؤلف جزءاً لا يتجزأ من فرنسا.

ــخ إن فرنسا لن تترك الجزائر.

ــخ إنه لابد من العمل كل يوم أكثر لإدماج الجزائر في فرنسا[2].

ولما واجه جاك سوستال صعوبات شتى في تطبيق فكرة الإدماج، التجأ إلى تطبيق قانون حالة الطوارأئ، الذي مدد العمل به ستة أشهر أخرى، قصد تهيئة الأرضية والمناخ المناسبين لتطبيق برنامجه الإصلاحي، وقد استعان في ذلك بأولئك الضباط السامين الذين اكتسبوا خبرة وشهرة واسعتين في ممارسة حرب العصابات أمثال الجنرال «بارلنج» والعقيدين «ديكورنو وبيجا». وأعطيت الإشارة الخضراء لبدء الهجومات المكثفة على جبال المنطقتين الأولى والثانية[3].

ويلاحظ أن كل التدابير التعسفية التي اتخذها جاك سوستال كان الهدف الأساسي منها هو الحدّ من روح المقاومة لدى الجماهير الشعبية، وأيضاً تسليط كل أنواع القمع على المناضلين الوطنيين قصد إبعادهم عن جبهة التحرير الوطني ومنعهم من الالتحاق بصفوف جيشها، وخاصة وضع حد لامتداد تأثير ما يجري بالأوراس إلى مناطق أخرى.

واستطاع الشعب الجزائري بصموده ووقوفه بجانب جبهة وجيش التحرير الوطني أن يتصدوا لكل الخطط والمشاريع التي عملت على القضاء على الثورة، فلم تنفع عملياتهم العسكرية المكثفة، التي أشرف عليها الضباط السامون ذوو الخبرة العالمية في تفكيك صفوف الجبهة وجيش التحرير الوطني واعتقال مناضليها.

وكانت ردة فعل جبهة التحرير الوطني إزاء تطبيق السلطات العسكرية الفرنسية قانون حالة الطوارأئ ومبدأ المسؤولية الجماعية ؛ موقفاً جهادياً منظماً أشعل لهيب الثورة وزادها قوة وانتشاراً.

أ ـ هجوم 20 أوت 1955م:

---

(1) المصدر نفسه ص 214.

(2) لمحات من ثورة الجزائر، الأخضر جودي ص 37.

(3) الثورة الجزائرية في عامها الأول، محمد الزبيري ص 216.

يجمع المسؤولون الجزائريون الذين عاشوا تلك الفترة على أن الشهيد زيغود يوسف هو صاحب فكرة تنظيم تلك الهجومات، وعندما اختمرت الفكرة في ذهنه نقلها إلى مساعديه الأقربين وفي مقدمتهم لخضر بن طوبال وعمار بن عودة.

وقد كان زيغود يوسف من قدماء المنظمة الخاصة، ومن المناضلين البارزين في حركة انتصار الحريات الديمقراطية. وتعتبر هجومات 20 أوت 1955م بقيادة القائد البطل زيغود يوسف قائد منطقة شمال قسنطينة تعتبر مرحلة هامة في مسيرة الثورة الجزائرية، إذ وضعت حداً فاصلاً لتلك التأويلات التي كانت تروجها السلطات الفرنسية عن جيش التحرير الوطني، وبعبارة أخرى إن هجومات 20 أوت 1955م قد جاءت لتجعل حداً لسياسة الإدماج التي طالما نادى بها الحاكم العام الفرنسي بالجزائر «جاك سوستال»، كما أنها كانت عبارة عن قرار تاريخي هام وحاسم اتخذته الثورة الجزائرية كرد فعل على القرار الذي اتخذه البرلمان الفرنسي المتمثل في تمديد قانون حالة الطوارأئ لمدة ستة أشهر أخرى على القطر الجزائري، قصد القضاء النهائي على جيش التحرير الوطني وبالتالي القضاء على الثورة.

وباختصار يمكن القول: إن هجوم 20 أوت 1955م قد شكل منعطفاً حاسماً في تطور كفاح الشعب الجزائري، وذلك للأسباب التالية:

. السبب السياسي: فقد فضحت هجومات 20 أوت 1955م محاولات التضليل والتشكيك في الثورة، وذلك بوضع حد نهائي للنضال السياسي في ظل مؤسسات الاحتلال الفرنسي، الذي كان ينادي به القادة التقليديون للأحزاب الوطنية، والذي كانوا يريدون من ورائه إجهاض الكفاح المسلح والاستيلاء على الحركة.

. السبب العسكري: فقد جاءت هجومات 20 أوت 1955م لتوسيع نطاق مناطق الكفاح المسلح، وفك الحصار المضروب على منطقة الأوراس التي كانت معقل الثوار، ورفع الضغط الكبير المفروض من طرف القوات العسكرية للاحتلال الفرنسي على المنطقة.

. أما السبب الثالث، فإنه يتمثل في التصعيد الخطير في موقف السلطات الفرنسية وخططها الهادفة إلى سحق الثورة في عامها الأول وذلك من خلال:

1ً. تعيين جاك سوستال حاكم عام للجزائر في مطلع سنة 1955م، وذلك كرد فعل مباشر على الثورة المسلحة، فالسيد جاك سوستال يعتبر قائداً محنكاً في السياسة وخبيراً في التجمعات البدائية التي درسها في أمريكا اللاتينية، وهذا ما جعل السلطات الفرنسية تستنجد به لتوظيف خبرته السياسية والعسكرية في القضاء على الثورة[1].

2ً. قرار تعميم قانون حالة الطوارأئ على أغلبية مناطق القطر الجزائري.

3ً. ادعاء السلطات الفرنسية بأن تطبيق قانون حالة الطوارأئ قد حال دون تعميم الثورة المسلحة، وأن القوات الفرنسية تسيطر على الموقف وتتحرك عبر أنحاء القطر الجزائري بكل حرية وأمن.

---

(1) جريدة الشعب/عدد 6473 ص 4، عمار بن عودة.

4ً. قيام السلطات الفرنسية بحرب نفسية وتوظيفها في سبيل ذلك كل ما تملك من إمكانيات حربية وإعلامية، وهذا بإشاعتها داخل الأوساط الجزائرية والفرنسية والدولية بعدم وجود ثورة في الجزائر[1].

كل هذه الأسباب وغيرها دفعت بالقائد زيغود يوسف إلى اتخاذ قرار تاريخي وحاسم لمواجهة الخطر الذي يهدد الثورة، يتمثل في تنظيم هجومات 20 أوت 1955م لنسف خطط جاك سوستال الرهيبة، وكذلك النزول بالثورة إلى الشارع لتصبح ثورة الجماهير لا ثورة نخبة من الشعب، فقد نظم أسبوعاً للزحف العام على مراكز السلطات الفرنسية بواسطة قوات المجاهدين وكل أفراد الشعب في كل أنحاء القطر، وذلك كما سبق القول رداً على سياسة القمع المسلطة على المسلمين الجزائريين من طرف السلطات العسكرية الفرنسية في الجزائر، ولكن واجهته صعوبات شتى جعلته يكتفي بتنظيم هجومات في المنطقة التي كان يقودها، وهي منطقة شمال قسنطينة التي صارت فيما بعد تسمى بالولاية الثانية[2].

وبعد التفكير الجاد والتدبير العميق في الظروف الصعبة السالفة الذكر، انتهى الشهيد زيغود يوسف بعد أن اقتنع بضرورة العملية إلى اتخاذ قرار 20 أوت الخطير. فقد كان أخطر قرار يمكن أن يتخذه قائد. فاستدعى مساعديه وعرض عليهم المسألة، ثم طفق الجميع يرسمون الأهداف الداخلية والخارجية للعملية التي يمكن حصرها فيما يلي:

. الأهداف الداخلية:

. فك الحصار الشديد عن المنطقة الأولى التي كانت في خطر، وذلك بعد أن وصلت القائد زيغود يوسف ومساعديه رسالة من شيحاني بشير، يصف فيها الوضع بالمنطقة وتشديد الحصار عليها، ويستنجد بمناضلي المنطقة الثانية.

. التأكيد للقوات العسكرية الفرنسية أن جبهة وجيش التحرير الوطني قادران على فرض جو عام من عدم الاستقرار في كامل المنطقة الثانية، وذلك عن طريق مضاعفة عدد مراكز التوتر في أماكن كثيرة من المنطقة، فتثبت بذلك أن الثورة في كل مكان.

. إثبات أن جيش التحرير الوطني ليس مجموعة من قطاع الطرق، كما تزعم الإدارة الفرنسية، وإنما هو جيش ثوري مساند من قبل الشعب، وبإمكانه أن يضرب قوات العدو في الصميم.

. إحباط سياسة جاك سوستال الإصلاحية، وذلك بإحداث القطيعة الكاملة بين الشعب الجزائري والمحتلين والإدارة الفرنسية التي تمثلهم.

.كسب انضمام كل تيارات الحركة الوطنية والشخصيات الجزائرية المرتبطة بالأحزاب في صفوف جبهة التحرير الوطني، لتوحيد صفوف وجهود الحركة الوطنية الجزائرية، وإثبات تعلق الشعب الجزائري كله بالكفاح المسلح من أجل الاستقلال الوطني التام.

(1) مجلة أول نوفمبر سنة 1981م عدد 51 ص 6.

(2) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 219.

. تكذيب ادعاءات الإدارة الفرنسية بتبعية الثورة الجزائرية لبعض العواصم الخارجية، وإثبات وطنية الثورية وشعبيتها.

. يعتبر هجوم المنطقة الثانية بمثابة رسالة إعلامية موجهة إلى كل المناطق الأخرى، حيث كانت الاتصالات معدومة بينهم، ولا يعرفون أخبار بعضهم بعضاً إلا عن طريق الجرائد الفرنسية، ففكر قائد المنطقة الثانية في الهجوم ليجعلوا كل الجرائد الفرنسية تتكلم عنهم، فيدرك مجاهدو المناطق الأخرى أن الثورة مستمرة فيقومون بدورهم، وبذلك تعم العمليات كل التراب الجزائري[1].

. أن يكون الهجوم عبارة عن انتفاضة شاملة لإفشال محاولات الإدماج التي لا يزال البعض يدعون إليها.

. الأهداف الخارجية:

ويمكن حصرها في التالي:

. إعلان التضامن مع الشعب المغربي في الذكرى الثانية لإبعاد الملك محمد الخامس ونفيه إلى مدغشقر.

. تدويل القضية الجزائرية وذلك بحمل الجمعية العامة للأمم المتحدة على إدراجها في جدول أعمال الدورة الخريفية، خاصة وأن الكتلة الأسيوية ـ الأفريقية في مؤتمر باندونج قد قررت لأول مرة عرض القضية الجزائرية على المنظمة.

. إقناع الرأي العام الفرنسي والرأي العام العالمي بأن الشعب الجزائري قد تبنى جبهة التحرير الوطني.

وهكذا إذن خطط قادة المنطقة الثانية لعمليات 20 أوت 1955م، مراعين في كل ذلك الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الثورة عشية تلك العمليات. وقد انطلقت فعلاً كما تم التخطيط لذلك، وكانت النتائج فوق ما كان قادة المنطقة الثانية والمجاهدون يتوقعونه، إذ أن الهجومات قد جعلتهم يمسكون بزمام المبادرة العسكرية والسياسية في داخل المنطقة، كما برهن الشعب الجزائري خلالها على مدى ثوريته واستجابته لقادة المنطقة، لقد كان إيمانه بالثورة التي يخوضها يفوق كل تصور[2].

ب . نتائج هجوم 20 أوت 1955م:

من الناحية العسكرية:

. فك الحصار المضروب على المنطقة الأولى بحيث تم نقل الضباط السامين الذين استنجد بهم جاك سوستال للقضاء على الثورة عند انطلاق شرارتها بمنطقة الأوراس أمثال «يكورنو وبيجار» إلى منطقة الشمال القسنطيني لمواجهة عمليات 20 أوت 1955م.

. تحطيم أسطورة تفوق الجيش الفرنسي ووصفه بـ «الجيش الذي لا يقهر»، فقد أثبت هجوم 20 أوت 1955م قدرة جبهة وجيش التحرير الوطني على ضرب القوات الفرنسية، مما جعل السلطات الفرنسية تغير استراتيجيتها العسكرية لتتماشى والتطور السريع للثورة، وكانت النتيجة تشتت قواتها العسكرية إذ لم يعد في

---

(1) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 223.

(2) المصدر نفسه ص 224.

إمكانها تركيز ثقلها في مكان معين، ليس بالنسبة لمنطقة الأوراس فحسب، بل منطقة الشمال القسنطيني ذاتها.

. تزويد جيش التحرير الوطني بالعناصر المقاتلة، فقد أعطى هجوم 20 أوت 1955م للعمل العسكري دفعاً قوياً، إذ استجابت الجماهير الشعبية لنداء قادته والتفت حوله.

. إثبات وطنية الثورة التحريرية وشعبيتها، فقد أسقط هجوم 20 أوت 1955م جميع الادعاءات التي تقول أن الثورة المسلحة مسيّرة من الخارج، كما أثبتت أن جيش التحرير الوطني ليس مجموعة من قطاع الطرق كما تزعم السلطات الفرنسية بل هو جيش مدعوم من طرف الشعب[1].

من الناحية السياسية:

. يقظة الحس الوطني لدى مجموعة 61 المكونة من النواب الجزائريين الموجودين في المجلس الجزائري الدرجة الثانية من المسلمين الجزائريين في 26 سبتمبر 1955م . خلال الاجتماع الذي انعقد بعد حوالي شهر من وقوع الهجوم . بتوقيعهم على لائحة عبروا فيها عن إدانتهم للقمع الفرنسي، وعن

رفضهم لسياسة جاك سوستال الإصلاحية، ويطالبون فيها بالاعتراف بالكيان الوطني الجزائري. وبذلك أحدثت القطيعة التامة بين الشعب الجزائري وإدارة الاحتلال الفرنسي، وبعبارة أخرى إن اللائحة التي حررتها مجموعة «61»، والتي اتخذت فيها موقفاً صريحاً ضد الاندماج وضد الإصلاحات الجزئية، وصرحت فيها بأن أي حديث ينبغي أن يكون مع الذين يقاتلون انطلاقاً من أن الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري كانت قد أدانت هذه السياسة وما يماثلها ؛ فإن تلك اللائحة قد جعلت كل مخططات الاندماج تتلاشى، كما جعلت الأحلام المعلقة على القوة الثالثة تتبخر، وبذلك تكون هجومات 20 أوت 1955م قد حفرت هوة عميقة بين الفرنسيين والجزائريين[2].

. القضاء النهائي على سياسة جاك سوستال الإصلاحية، وقد أدى هذا إلى إحداث انقلاب جذري في عقلية جاك سوستال، الذي أجبره الهجوم على إعادة النظر في سياسته، فقد انضم بصفة علنية إلى صف المستوطنين الأوروبيين وقوات الجيش الفرنسي، وأصبح شغله الشاغل في تسخير كل الوسائل المتوفرة من أجل القضاء على الثورة، وإخضاع الثوار للسلطات الفرنسية بالقوة، ولهذا يعتبر هجوم 20 أوت 1955م نهاية مرحلة الإصلاحات وبداية حرب حقيقية بين الشعب الجزائري وإدارة الاحتلال الفرنسي.

---

(1) المصدر نفسه ص 226.

(2) المصدر نفسه ص 226.

. تدويل القضية الجزائرية، إذ أدرجت في جدول أعمال دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة لسنة 1955م بأغلبية صوت واحد، وذلك بالرغم من احتجاج الوفد الفرنسي، الذي قرر الانسحاب من الدورة بعد أن قرر مكتب الجمعية إدراج القضية، وهكذا فإن تسجيل القضية الجزائرية وإدراجها في جدول أعمال الدورة العاشرة لهيئة الأمم المتحدة بعد مرور عشرة أشهر فقط من اندلا ع الثورة المسلحة يعد انتصاراً كبيراً للقضية، فقد كان الرد على فرنسا يتمثل في أنه لا يمكن إدماج أي شعب مع شعب اخر إلا بموافقته، كما أنه لا يمكن إلحاق بلد ببلد اخر بمقتضى مرسوم(1)، وبذلك تكون هجومات 20 أوت 1955م قد حطمت الصمت المفروض على القضية.

. تعزيز التضامن بين الشعبين الجزائري . المغربي، فقد تلاحقت الأحداث وتفاعلت في المنطقة وفي فرنسا نفسها بخصوص إرجاع المرحوم ملك المغرب محمد الخامس إلى عرشه، وبعد خطوات عديدة وإجراءات كثيرة قررت فرنسا الاعتراف رسمياً بـ محمد الخامس سلطاناً للمغرب بعد طرده من المغرب الأقصى، ونفيه إلى جزيرة مدغشقر، وبذلك عاد سلطان المغرب إلى عرشه بعد أن ردد المسؤولون الفرنسيون وعلى رأسهم رئيس الحكومة الفرنسية انذاك ادقار فور، وتكراراً أن الملك لن يعود أبداً.

. تأسيس المجالس الشعبية: نتج عن هجوم 20 أوت 1955م قيام جبهة التحرير الوطني في نوفمبر 1955 بتأسيس المجالس الشعبية وتنصيبها على مستوى القرى والدوائر بالمنطقة الثانية، وتعيين المسؤولين عليها، وكذلك وضع نظام لدفع الاشتراكات وتموين جيش التحرير الوطني، كما تم تأسيس مجالس للعدالة لفض الخصومات بين أفراد الشعب أطلقت عليها اللجان الشرعية. وكان الشعب الجزائري قد تقبل كل هذه التنظيمات كما تعامل معها.

إن هذه النتائج الإيجابية على مختلف الأصعدة وفي جميع الميادين ؛ تؤكد القيمة الحقيقية لهجومات 20 أوت 1955م في مسيرة الثورة التحريرية، والدليل على ذلك:

. أن مؤتمر الصومام قد انعقد في الذكرى الأولى لهجوم 20 أوت 1955م وذلك تخليداً لمبادرة المنطقة الثانية.

. أن التنظيم العسكري للمنطقة الثانية قد اعتمد كنظام للثورة التحريرية.

وهكذا تنتهي هذه السنة الأولى من الكفاح المسلح بعد أن حققت الثورة انتعاشاً في الروح الوطنية لم تعهده من قبل، وتمكنت جبهة التحرير الوطني من استعادة نفس جديد لمواصلة مشوار الثورة التحريرية.

وانطلاقاً من هذه النتائج، فقد أصبح 20 أوت 1955م أحد المعالم الرئيسية لثورة التحرير ومنعطفاً حاسماً لها(2).

---

(1) المصدر نفسه ص 227.

(2) المصدر نفسه ص 228.

4 . موقف السلطات الفرنسية من هجوم 20 أوت 1955م:

لقد اعترف المسؤولون الفرنسيون أنفسهم بالذهول والقلق وخيبة الأمل مما لحق بالقوات العسكرية والمدنية من خسائر وأضرار مادية وبشرية، وصرحوا إثر تلك العمليات بقولهم: إن مبادرات المجاهدين قد سببت حيرة واضطراباً في صفوف الجيش الفرنسي المحارب في الجزائر.

وأما فيما يخص الإجراءات العسكرية التي قررت السلطات الفرنسية اتخاذها عقب تلك العمليات، فيمكن تلخيصها في النقاط التالية:

أ . تعزيز القوات العسكرية الفرنسية في الجزائر:

بعد هجومات 20 أوت 1955م وما ترتب عليها من خسائر مادية وبشرية، أصبح هم السلطات العسكرية الفرنسية الوحيد هو إعادة الأمن إلى نصابه بأي طريقة كانت، وفرض إرادة فرنسا على الثوار الجزائريين، وإخضاعهم بالقوة للسلطات الفرنسية، وأن هجومها على الثوار سيتواصل وأن الحرب ضدهم لن تنتهي إلا بعد إعادة السلم العام.

وللتمكن من ضرب الثورة الجزائرية والقضاء عليها وعلى القائمين بها، لجأت السلطات الفرنسية إلى تعزيز قوات الجيش الفرنسي في الجزائر، عن طريق مضاعفة عدد الجنود والضباط الفرنسيين، الشيء الذي جعل هذه القوات ترتفع من 80،000 جندي وضابط في بداية 1955م إلى 190،000 جندي وضابط خلال نفس السنة، وبالإضافة إلى ذلك فإنها قد قامت بإجراء عسكري اخر، يتمثل في إرسال الفيالق وتوزيع السلاح على المستوطنين الأوروبيين المقيمين في القرى البعيدة عن المراكز العسكرية.

غير أن الشيء الذي ينبغي الإشارة إليه هو أن عمليات 20 أوت 1955م قد أثرت في القوات العسكرية الفرنسية نفسها، حيث انتشرت بين الأفراد المجندين روح التمرد والعصيان ضد قرار تعزيز القوات العسكرية الفرنسية لمواجهة جبهة التحرير الوطني والشعب المساند لها، فقد تمرد أكثر من 400 جندي فرنسي . في القوات الجوية . في محطة ليون بفرنسا، ورفضوا الذهاب إلى الجزائر لأداء الخدمة العسكرية، ولتحاشي أي حادث تقرر إعادة الجنود إلى ثكناتهم، كما تمرد أكثر من 200 جندي من فرقة المدفعية رقم 401 وتظاهروا في كنيسة سان سيفيران، وقاموا بتوزيع منشورات عبروا فيها عن قلقهم وخجلهم من استخدامهم بالقوة في قضية ليست في صالح الفرنسيين[(1)].

ب . أساليب القمع الوحشية التي استخدمتها فرنسا:

لقد عمد المسؤولون العسكريون الفرنسيون في الجزائر عقب تلك الهجومات، إلى استعمال أساليب وحشية جهنمية، وإلى توظيف سلوكيات عنيفة لا مسؤولة، تمثلت في اضطهاد المسلمين الجزائريين والانتقام منهم دون تفريق بين الكبار والصغار، وبين النساء والرجال، فقد أشعلوا النار في كل مكان، ونشروا الموت في المناطق كافة، باختصار لقد كان انتقام القوات العسكرية الفرنسية من الثورة والقائمين بها في المنطقة الثانية شديداً،

---

(1) المصدر نفسه ص 230.

فقد قامت بمجازر رهيبة واسعة النطاق، كما مارست أقسى أنواع التعذيب والتنكيل والإبادة الجماعية على سكان القرى والمشاتي والمدن التي وقعت بها هجومات 20 أوت 1955م.

ولم يكتف الضباط العسكريون الفرنسيون باستعمال تلك الأساليب اللاإنسانية، بل ذهب بهم حقدهم إلى أبعد من ذلك.. فقد أصبحوا يتفننون في تعذيب الشعب الجزائري إلى درجة فاقت النازيين في حد ذاتهم، حيث يقول أحد الضباط الفرنسيين في هذا الشأن: لقد كان الألمان في أساليبهم غلمان صغار بجانبنا[1].

كان الانتقام في كل المدن والقرى بالشمال القسنطيني شديداً، فبمجرد أن وقع هجوم 20 أوت 1955م الذي فاجأ وأذهل كل الأوساط الفرنسية ؛ أسرع المستوطنون الأوروبيون إلى تنظيم أنفسهم على هيئة حرس غير نظامي، وفتكوا بسكان المنطقة الثانية معتمدين في ذلك على سياسة الإبادة الجماعية، والقضاء على الحيوانات وإحراق القرى والمداشير، فأعادوا إلى الأذهان ذكرى مذبحة 8 ماي 1945م، ففي وادي زناتي مثلاً كانت الإبادة جماعية، فقد امتلأت شوارع وطرقات هذه المدينة بجثث القتلى، التي كان الفرنسيون يجبرون الجزائريين على جمعها ودفنها لكي يعدَموا هُم بدورهم بعد ذلك.

وفي مدينة سكيكدة يكفي ذكر تلك الإبادة الجماعية التي ارتكبتها القوات الفرنسية بالملعب البلدي للمدينة، والتي ذهب ضحيتها 1،500 مواطن، لأخذ فكرة واضحة عن شراسة وهمجية أولئك الذين يدعون الحضارة والتمدن، وفي مدينة القل السياحية قامت القوات العسكرية الجوية الفرنسية بقنبلة القرى والمشاتي وتدمير المنازل، أما في مشنة الزفران بضواحي سكيكدة فقد قتلت القوات الفرنسية ما لا يقل عن 3،500 مواطن جزائري، كما استعملت القوات الجوية لحرق المزارع والبحث عن المجاهدين في الجبال والغابات، وتضاف إلى كل هذه المجازر الرهيبة تلك الاعتقالات العشوائية التي لم ينج منها أي جزائري، والزج بالمعتقلين في المعسكرات المزدحمة بالمساجين وإعدامهم في غالب الأحيان بدون أية محاكمة.

وباختصار لقد أصبحت الحالة السائدة في الجزائر انذاك يسودها قانون الإرهاب أو إرهاب من غير قانون[2].

كل الأساليب الوحشية المستعملة قد أدت إلى نشر الوعي بين أفراد الشعب الجزائري، الذين أدركوا أكثر من أي وقت مضى، أن الطريق الوحيد للتخلص من الاحتلال الفرنسي هو مواصلة الكفاح المسلح ضده، فغادر سكان المنطقة الثانية المدن والقرى والمشاتي والتجؤوا إلى جبالها للوقوف بجانب الثوار.

ومن جهة أخرى فقد أدت تلك الأساليب إلى وضوح الرؤيا لدى الصحافة الفرنسية، التي اعترفت عقب هجمات 20 أوت 1955م ببشاعة وهمجية القوات الفرنسية، ونقلت تلك المجازر والإبادة الجماعية لإطلاع الرأي العام الفرنسي بما ترتكبه القوات الفرنسية في الجزائر.

(1) المصدر نفسه ص 231، ضد التعذيب في الجزائر، ترجمة بهيج شعبان ص 51 سنة 1957م بيير هنري

(2) التنظيم السياسي والإدراي للثورة ص 232.

وأما الصحافة الإنجليزية فقد علقت على الإعدامات التي تقوم بها السلطات العسكرية الفرنسية في الجزائر بقولها: متوسط عدد القتلى الجزائريين منذ 1954م زاد على 200 قتيل في الشهر، وأما في سنة 1956م فقد وصل المتوسط إلى 1400 قتيل في الشهر(1).

ج . إنشاء الأقسام الإدارية المتخصصة « S.A.S »:

لقد تقرر في 26 ديسمبر 1955م عقب هجوم 20 أوت 1955م إنشاء أقسام إدارية متخصصة « S.A.S » بكل أنحاء القطر الجزائري، وهي عبارة عن مكاتب متخصصة في إدارة وتسيير شؤون الجزائريين بالأرياف الجزائرية، وقد تم استقدام ضباط عسكريين فرنسيين لتولي إدارتها، وذلك نظراً لما اكتسبوه من خبرة في المغرب الأقصى، الذي لا يختلف مجتمعه عن المجتمع الجزائري من حيث العادات والتقاليد واللغة، فقد تنقلوا في الأرياف وتدربوا فيها واطلعوا على حياة سكانها ودرسوا عاداتهم وتقاليدهم وتعلموا لغتهم، فأصبح الاتصال بهم والتعامل معهم أمراً سهلاً.

ويتمثل الدور الأساسي لهذه الأقسام في الاحتكاك بالمسلمين الجزائريين في الريف، والتقرب منهم بهدف الحصول على معلومات منهم حول الثورة والثوار، تخدم القوات العسكرية الفرنسية وتمكنهم من القضاء عليها، وذلك مقابل خدمات اجتماعية تقدم إليهم في شكل توفير العمل والغذاء والتعليم قصد تحسين مستوى معيشتهم، وهي محاولة استعمارية لتطويق الثورة وعزلها عن الشعب،وكذلك اختراق وتصفية وتدمير جيش التحرير الوطني(2).

د . الإجراءات السياسية الإدارية:

فهجومات 20 أوت 1955م جعلت الحاكم العام بالجزائر يدرك خطورة الوضع السياسي الذي أصبح يهدد الجمهورية الفرنسية الرابعة، وهذا ما جعله يلتجأئ في شهر سبتمبر 1955م إلى تحضير مشروع لإحداث إصلاحات سياسية إدارية في الجزائر،وقدمه للمجلس الجزائري للموافقة عليه، وكان جاك سوستال قد ركز في ذلك المشروع على دمج الجزائر في فرنسا وإلحاقها بها وجعلها جزءاً لا يتجزأ من التراب الفرنسي، وذلك عن طريق التطبيق الفعلي لقانون 20 سبتمبر 1947م.

وكان جاك سوستال يعتقد أن إحداث بعض الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، ومنح الجزائريين بعض الحقوق السياسية والإدارية، سيكون كافياً لعزل الثورة والقائمين بها عن الشعب، وبالتالي القضاء عليها نهائياً، ومما تجدر الإشارة إليه أن جاك سوستال عند وضعه لبرنامجه الإصلاحي، قد كان اعتماده كبيراً على تلك المجموعة من النواب الممثلين للمسلمين الجزائريين بالمجلس الجزائري، أطلق عليها مجموعة المعتدلين أو مجموعة المثقفين المتنورين، غير أن جاك سوستال كان يجهل تماماً بأن جبهة التحرير الوطني قد جعلت إنذارات شديدة

(1) المصدر نفسه ص 234.

(2) المصدر نفسه ص 234.

اللهجة لهذه الإطارات المثقفة والمتنورة، وذلك عن طريق المناضلين «عبان رمضان وبن خدة»، وكانت تلك الإنذارات تتمثل في الاتصالات الشخصية وتوزيع المناشير والمراسلات التهديدية، الخ..

وهكذا فبعد تلك الإنذارات، وبعد قتل وجرح كل من يتقرب من فرنسا، أو يبدي رغبته في التعاون معها ؛ قرر المنتخبون من المسلمين الجزائريين عشية انعقاد دورة المجلس الجزائري تكثيف التشاور فيما بينهم، وانتهوا إلى تحرير وثيقة أصدروها في شكل لائحة، أصبحت فيما بعد «لائحة مجموعة الواحد والستين».

وكانت اللائحة التي صيغت في 26 سبتمبر 1955م قد تمحورت حول ما يلي:

. وقف العلميات العسكرية.

. إلغاء قانون حالة الطوارأئ ومبدأ المسؤولية الجماعية.

. إطلاق سراح المساجين.

. التفاوض مع المحاربين.

. التنديد بسياسة الإدماج التي تجاوزها الزمن.

وأهم ما جاء فيها هو الاعتراف بأن جبهة التحرير الوطني هي الممثل الوحيد للشعب الجزائري، وبذلك تكون هذه اللائحة قد جاءت لتضفي الطابع الوطني على القضية الجزائرية.

إن سياسة الإدماج التي بقي جاك سوستال يدعو إليها ويدافع عنها قد تجاوزت الزمن، وفشل في مشروعه وتحطمت معنوياته في تطبيق سياسة الإدماج، واتخذ رئيس الحكومة الفرنسية ادقار فور بتاريخ 2 ديسمبر 1955م قراراً لحل المجلس الوطني الفرنسي ونتج عنه حل المجلس الجزائري، وتدهورت العلاقات السياسية بين رئيس الحكومة الفرنسية ادقار فور والحاكم العام بالجزائر جاك سوستال[1].

5 . سقوط حكومة «ادقار فور»:

أما الضربة القاضية التي ستؤدي إلى الانهيار التام لسياسة جاك سوستال، فقد كانت يوم 2 جانفي 1956م، عندما قرر ادقار فور إجراء الانتخابات التشريعية، وكان جاك سوستال قد عارض ذلك القرار بشدة، وقرر في النهاية عدم إجراء تلك الانتخابات في الجزائر في التاريخ المحدد وبالتالي تم تأجيلها، والسبب الحقيقي في ذلك هو تخوف جاك سوستال من انتقام المسلمين الجزائريين من سياسته التي تقوم على أساس دمج الجزائر في فرنسا والتصويت على قائمة الذين يؤيدون جبهة التحرير الوطني ويطالبون بالاستقلال الوطني وفصل الجزائر عن فرنسا.

غير أن نتائج تلك الانتخابات قد جاءت مخيبة لامال ادقار فور وجاك سوستال معاً، فقد فاز الحزب الاشتراكي بزعامة غي مولي، وفي 31 جانفي 1956م حصل غي مولي على التزكية من طرف البرلمان الفرنسي ليصبح رئيساً للحكومة الفرنسية، ويكلف بتشكيل حكومته الجديدة، وبذلك سقطت حكومة ادقار فور

---

(1) المصدر نفسه ص 238.

وتسلم السلطة على إثرها الاشتراكيون بزعامة غي مولي، الذي قام فور توليه لمنصبه بإقالة جاك سوستال من منصب الحاكم العام للجزائر وتعيين الجنرال كاترو، بدله، وفي 6 فيفري 1956م قرر القيام بزيارة رسمية إلى الجزائر ليتولى هو بنفسه تنصيب الحاكم العام الجديد في الجزائر الجنرال كاترو، غير أن تلك الزيارة لم تكن موفقة، حيث استقبله المستوطنون الأوروبيون بمظاهرات عدائية عارمة أجبرته على التخلي بسرعة عن فكرة تعيين كاترو[1]، وقرر تعيين روبير لاكوست وزيراً جديداً مقيماً بالجزائر بدل الجنرال كاترو، وقدم لاكوست إلى الجزائر في 10 فيفري 1956م لتولي مهامه وتنصيبه من طرف رئيس الحكومة الفرنسية «غي مولي» قبل مغادرته للجزائر في اليوم نفسه[2].

ومن الجدير بالملاحظة أن هناك من المؤرخين الفرنسيين من يصف يوم 6 فيفري 1956م بأنه يعتبر يوم استسلام وانقلاب خطير في تاريخ الحرب بين الجزائر وفرنسا[3].

ويلاحظ أن هذه التجربة التي عاشها «غي مولي» قد غيرت اراءه وسياسته تغييراً جذرياً، فبعد أن ساد فرنسا والجزائر شعور عام بأن «غي مولي» سينتهج سياسة مصالحة بين المستوطنين الأوروبيين والمسلمين الجزائريين في الجزائر، والقيام بالتسوية السلمية بينهم. كما وعدهم بذلك خلال الحملة الانتخابية الفرنسية. غيّر الرجل موقفه وتراجع عن تنفيذ تلك الوعود، وألقى خطاباً يُطمئن فيه المستوطنين الأوروبيين الذين قاموا بمظاهرات احتجاجية على زيارته للجزائر في 6 فيفري 1956م، قال لهم فيه: إن الحكومة ستحارب وإن فرنسا ستناضل من أجل بقائها في الجزائر وإنها ستبقى هناك، إن الجزائر لا مستقبل لها بدون فرنسا[4].

ويعتبر ذلك التحول المفاجئ في سياسة رئيس الحكومة الاشتراكي «غي مولي» بداية عهد جديد، التحم فيه الفرنسيون. يساريون ويمينيون. صفاً واحداً ضد الجزائر، معتقدين بذلك أن القضاء على الثورة الجزائرية قد أصبح أمراً ميسوراً.

أما جبهة التحرير الوطني، فقد أصيبت بخيبة أمل إثر ذلك التغيير الجذري المفاجئ في سياسة رئيس الحكومة الفرنسية الاشتراكي «غي مولي»، ووجهت نداء شديد اللهجة إلى أولئك الوطنيين المترددين المنتمين إلى التشكيلات السياسية الوطنية الأخرى، تحثهم فيه على الالتحاق بصفوفها، ونزع الثقة بصفة نهائية من السلطات الفرنسية التي تخلف وعودها في كل مرة، وعزم جبهة التحرير الوطني على مواصلة الكفاح المسلح، وبدأت تفكر بعمق في هيكلة نفسها وتنظيم شؤونها[5].

---

(1) المصدر نفسه ص 239.

(2) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 339.

(3) المصدر نفسه ص 239.

(4) العمال الجزائريون في فرنسا، د . عمار بوحوش ص 118.

(5) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 240.

وبعد أن يئس القادة البارزون للتشكيلات السياسية الوطنية من السلطات الفرنسية ووعودها الكاذبة، وبعد أن أصبح الموت يهددهم من كل جانب[1]، وخاصة بعد الانتصار الملحوظ الذي حققته جبهة التحرير على الصعيدين الوطني والدولي بعد هجوم 20 أوت 1955م، وجدوا أنفسهم مجبرين على الاستجابة لنداءات جبهة التحرير الوطني المتعددة والمتكررة، فأعلنوا عن حل تلك التشكيلات والانضمام الرسمي إلى جبهة التحرير الوطني[2].

وهكذا يكون أكبر نتيجة قد حققها هجوم 20 أوت 1955م، هي توحيد جميع الاتجاهات الهامة داخل جبهة التحرير الوطني، مما جعلها تنتعش من جديد وتسترجع أنفاسها لمواصلة الكفاح المسلح، وتحقيق نتائج إيجابية على جميع الأصعدة والرفع من مكانتها الدولية.

وخلاصة القول من كل ما تقدم: أن المرحلة الممتدة من أول نوفمبر 1954م إلى غاية فيفري 1956م، تشكل مرحلة هامة في تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر، فقد كانت هذه المرحلة مرحلة متغيرة وحاسمة جداً، حيث انعكست اثارها على التنظيم السياسي والإداري في الجزائر كما تبين فيما مضى، والعامل الجوهري والأساسي في كل ذلك هو: اندفاع ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م في المنطقة الأولى، ثم هجوم 20 أوت 1955م في المنطقة الثانية.

ففي الوقت الذي كانت جبهة التحرير الوطني تسعى إلى تعميم الثورة ونشرها في كل مكان، وكانت السلطات الفرنسية تعمل كل ما بوسعها من أجل تدمير التنظيم الثوري وإبادة القائمين به، ولكنها كانت في نفس الوقت وكعادتها دائماً، تحاول إدخال إصلاحات سياسية . إدارية جزئية حتى تمتص غضب الشعب الثائر، غير أن المشكلة العويصة التي كانت تواجهها في كل مرة هي: كيف يمكن إشراك المسلمين الجزائريين في تحمل بعض المسؤوليات السياسية الإدارية دون إثارة غضب وسخط المستوطنين الأوروبيين.

إن السلطات الفرنسية لم تعد تركز . بعد هجوم 20 أوت 1955م وامتداد الثورة إلى كل مناطق الجزائر . على الإصلاحات السياسية الإدارية . كالسابق . لقد أصبح شغلها الشاغل هو اتخاذ إجراءات عسكرية للقضاء على الثورة والقائمين بها، حتى لا تمتد إلى المناطق الأخرى بعد امتدادها الواسع في المنطقتين الأولى والثانية.

وأما جبهة التحرير الوطني، فقد أصبح شغلها الشاغل بعد تلك الانتصارات التي حققتها عقب هجوم 20 أوت 1955م . خاصة بعد الانضمام الرسمي والفعلي لمناضلي التشكيلات السياسية الوطنية الأخرى إليها . هو التركيز على التنظيم العسكري والسياسي للثورة وهيكلتها[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 240.

(2) المصدر نفسه ص 241.

(3) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 243.

❋ ❋ ❋

سابعاً: مؤتمر الصومام

بعد مرور حوالي سنتين على اندلاع ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م، وبعد أن تمكنت الثورة من أن تتوسع توسعاً قوياً، بات من الضروري تحديد استراتيجية سياسية عسكرية عامة لجبهة التحرير الوطني، تهدف إلى وضع تنظيم سياسي إداري وعسكري يعبر عن امال الشعب وطموحاته، ويزيل الاغتراب السياسي الإداري الذي عانى منه الشعب الجزائري طيلة قرن وربع قرن من الزمن. غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا بإلحاح شديد هو:

ما هو التنظيم السياسي الإداري الذي أنشأته جبهة التحرير الوطني؟

ثم متى ابتدأ هذا التنظيم بصفة فعلية؟

وماذا كان موقف السلطات الفرنسية من ذلك التنظيم[1]؟

بعد محاولات ومساع واتصالات عديدة، تم عقد أول مؤتمر وطني للجبهة في 20 أوت 1956م بوادي الصومام ببلاد القبائل حيث مركز الولاية الثالثة، واجتمعوا تحت خطر عظيم واخترقوا صفوف الأعداء الساهرين، وكان مع القادة الكرام عدد من كتابهم ومعينيهم، فاشتغلوا بهمة ونشاط ودون انقطاع عدداً من الأيام، وأخرجوا الثورة الجزائرية منذ ذلك اليوم من عهد يمكن أن يوصف بشيء من الارتباك في القيادة والاضطراب في السياسة، إلى عهد نظام واستقرار ووحدة وتحديد مسؤولية، ولا أعرف ثورة تمكنت من إحداث ذلك النظام وإقرار تلك المسؤولية وتحديد تلك الأهداف ؛ كما نجحت الثورة الجزائرية العملاقة بذلك المؤتمر الصغير في حجمه العظيم بأعماله.

من تلك الساعة أصبح الناس يعرفون من المسؤول؟ وخضع الجميع لسلطة مركزية واحدة تأمر فتطاع، وتحددت مناطق النفوذ ومناطق القيادات. ومنذ تلك الساعة تعين المسؤولون رسمياً عن الولايات الجزائرية الحربية الست، وأعلنوا جميعاً في نظام وانقياد خضوعهم لتلك المقررات، وتزاحمهم على تحقيقها منذ تلك الساعة.

لقد وضحت معالم الطريق، وتعين المسؤولون عن السلاح وعن حمله وعن تبليغه لمراكز التموين العسكري، وأصبحت للثورة قيادة عسكرية واحدة هي المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وأصبحت لها هيئة عليا تنفيذية واحدة: هي لجنة التنسيق والتنفيذ، منذ تلك الساعة أنشأ جيش التحرير الوطني الجزائري جيشاً واحداً منظماً مدرباً منقاداً، له نظامه المحكم، وله ألقابه الرسمية، وله مخصصاته[2]،{وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ} وقد ذكر الأستاذ أحمد توفيق المدني في كتابه «حياة كفاح» النص الرسمي لمحضر جلسات مؤتمر الصومام، بعثت به لجنة التنسيق والتنفيذ إلى قيادة جبهة التحرير بالقاهرة.

جبهة التحرير الوطني الجزائري محضر جلسة الاجتماع الذي عقده المسؤولون عن عمالات وهران والجزائر وقسنطينة، في 20 أوت 1956م.

---

(1) المصدر نفسه ص 300.

(2) حياة كفاح (333/3)، أحمد توفيق المدني.

. الأعضاء الحاضرون:

. ابن مهيدي عن وهران: رئيس الجلسة.

. أوعمران: عن منطقة الجزائر.

. كريم: عن منطقة القبائل.

. زيغود: عن شمال قسنطينة.

. ابن طبال: نائب زيغود.

. الأعضاء الغائبون:

ابن بوليعد مصطفى: شمال الأوراس.

سي الشريف: شمال الجنوب «معذور» بعد أن وجه تقريره إلى المؤتمر.

أ . شرح الأسباب التي دعت إلى الاجتماع وموضوع الاجتماع.

ب . تقديم التقارير.

. تقرير نظامي: عن كيفية التقسيم والهيكل العام للجيش.

. تقرير عسكري: عدد المجاهدين والمناضلين، الوحدات ونظام تركيبها، الأسلحة.

. تقرير عن المالية: الداخل، المصاريف، المتبقي في الصندوق.

. تقرير سياسي: عن معنويات المجاهدين والشعب.

. القاعدة السياسية والنشريات الثلاثة:

. التوحيد:

أ . توحيد النظام في تقسيم المناطق، وتعيين مراكز القيادات المحلية، وإجراء تغيرات على القيادات.

ب . توحيد عسكري: في الوحدات والرتب العسكرية والنياشين والأوسمة في المرتبات العائلية.

ج . توحيد سياسي: المرشدون السياسيون ومهماتهم.

د . توحيد إداري: مجلس الشعب.

هـ جبهة التحرير الوطني:

المذهب والقانون الأساسي والنظام الداخلي، والبيئات والسيرة، مجلس الثورة، لجنة التنسيق والتنفيذ، اللجان.

و . جيش التحرير الوطني:

الألفاظ المستعملة «المجاهد، المسبل، الفدائي»، المرحلة الحاضرة، توسيع الهجومات والإكثار من العمليات.

ز . العلاقة بين جبهة التحرير وجيش التحرير.

ح . العلاقة بين الداخل والخارج، وخصوصاً تونس والمغرب وفرنسا.

. العتاد.

ط . نظام العمل سياسياً وعسكرياً، وسائله المادية، إيقاف القتال، المفاوضات، هيئة الأمم المتحدة والحكومة المؤقتة.

ي . مواضيع مختلفة: الأوراس، القبائل، وما عداها.

. افتتحت الجلسة على الساعة الثامنة.

. الأسباب التي دعت إلى الاجتماع، والمواضيع التي تدرس في الاجتماع، شرحها ابن مهيدي وعبان.

. التقارير:

. المنطقة رقم 2: قدمت تقريراً مكتوباً قرأه زيغود.

ملاحظات: لا يوجد بالتقرير ذكر عدد المناضلين داخل الجبهة، عدد الأسلحة الحربية «انظر ملخص التقرير في الختام».

. المنطقة رقم 3: تقرير شفهي قدمه كريم، وهذه المنطقة تشتمل على القبائل العليا والسفلى، وعلى القبائل الصغرى، وهي مقسمة إلى ثلاث مناطق صغيرة، تنقسم بدورها إلى عشر نواحي، والنواحي منقسمة إلى ثلاثين قسماً:

في فاتح نوفمبر 1954م كان بالمنطقة 450 مجاهداً، في الصندوق مائة ألف فرنك.

والان يوجد بالمنطقة:

. المناضلون داخل الجبهة عددهم: 87،044.

. المسبلون عددهم: 7،470.

. المجاهدون عددهم: 3،100.

الوحدات العسكرية:

«الفوج» يقوده عريف يتركب من عشرة إلى عشرين جندياً، وثلاثة أفواج تكوّن فرقة يقودها مساعد.

حدود المنطقة رقم «3»

جيجل، سطيف، برج بوعريريج، مسيلة، سور الغزلان، عين بسام، بالسترو، منرفيل، والبحر الأبيض المتوسط.

السلاح: 404 بنادق حربية، 106 رشاشات، 8 بنادق رشاشة، 4 بنادق رشاشة، 4،425 بندقية صيد.

ملاحظات:

المالية: بالصندوق 445 مليوناً، والان تبلغ المداخيل الشهرية، معدل 110 ملايين، والمصاريف الشهرية تبلغ معدل 55 مليون، فيتبقى كل شهر 55 مليون.

معنويات المجاهد والشعب: قوية جداً، ولكن الناس كلهم يلاحظون لنا دائماً، وبصفة ملحة، نقص الأسلحة، إن الشعب متضامن معنا، وهو مستعد للمشاركة في نفير عام إذا لزم الحال.

مسألة حركة أو رابح، وإعلان الولاء من جانب سكان دوار أريش وذراع الميزان أما حركة أو رابح فهي مشكلة في طريق الحل، أما دوار أريش فهو دوار مصالي، وقد طهرته جيوشنا، وقسم من هذا الدوار طلبت بالفعل

حماية فرنسا، أما دوار نسليوية «ذراع الميزان» فهو دوار عرف دائماً بضعف عواطفه الوطنية، ولم يعمل جيوشنا هنا أي إرهاب لأن هذا الدوار لم يدخل مطلقاً.

. المنطقة رقم 4: قدمت تقريراً مكتوباً قرأه أوعمران في فاتح نوفمبر 1954م كان هناك خمسون مجاهداً، والان يبلغ عدد المناضلين داخل الجبهة أربعين ألفاً.

والمسبلون يبلغ عددهم ألفين.

المجاهدون عددهم ألف.

هذا ويلاحظ أن المناضلين والمجاهدين والمسبلين، في نواحي برواقية، ومدية، وشايلان، وبوقاري، وثنية الحد، ومليانة، وتنس، والأصنام، وشرشال، ليسوا داخلين في الأعداد المذكورة أعلاه.

السلاح: خمس بنادق رشاشة منها بندقية بار، مائة بندقية حربية، 80 رشاشة، 300 بيستولي، 1،500 بندقية صيد.

المالية: بالصندوق مائة مليون فرنك، تدخل فيها العاصمة.

المنطقة رقم 5: تقرير شفاهي قدمه ابن مهيدي.

ملاحظة: فارق ابن مهيدي المنطقة في فاتح ماي 1956م.

حدود المنطقة: عمالة وهران،وبها ست نواحي، مغنية، الغزوات، وهران، مستغانم، معسكر، الجنوب «كولمب بشار».

في فاتح نوفمبر 1954م، كان هناك ستون مجاهداً منهم خمسون بين قتيل وجريح وأسير.

المالية، في فاتح نوفمبر 1954م كان في الصندوق 80،000 فرنك، وعدد المجاهدين في الاندلا ع الثاني في أول أكتوبر 1955م 500 مجاهد، 500 مسبل، وفي فاتح ماي 1956م كانت هناك 50 بندقية رشاشة، 165 رشاشة، 1،400 بندقية حربية، مائة مسدس، ألف بندقية صيد.

المالية: إلى فاتح ماي 1956م «35 مليون من الفرنكات»، منها 25 مليون في الخارج «الريف».

معنويات المجاهد والشعب: قوية جداً، والعلاقات بين الجيش الجبهة وبين الشعب حسنة للغاية، وسوف يطلب من منطقة وهران أن تقدم تقريراً أكثر دقة عن الحالة الحاضرة.

المنطقة رقم 6: تقرير شفاهي قدمه أوعمران، عوض سي الشريف، هذه المنطقة تكونت حديثاً وهي تشمل على الجهات الواقعة في أحواز سور الغزلان، سيدي عيسى، عين بوسيف شلالة، وهذه النواحي بلغتها فرقتنا، أما أحواز الجلفة والأغواط ومزاب، أقصى الجنوب فلم تدخلها جيوشنا بعد[1].

والان يوجد بهذه المنطقة 300 مجاهد، مائة مسبل، خمسة الاف مناضل داخل الجبهة.

السلاح: مائة بندقية حربية، بندقية رشاشة واحدة، عشر رشاشات، 50 بيستولي، مائة بندقية صيد.

المالية: عشرة ملايين أعطيت للمنطقة رقم 4.

---

(1) حياة كفاح (340/3).

القاعدة السياسية، والنشريات الثلاثة: قرأ الحاضرون هذه الوثائق، وانتقدوها وناقشوها.

التوحيد:

أ. توحيد النظام: تقسيم المناطق:

المنطقة الأولى: الأوراس النمامشة، وحدودها من الشمال: مداوروش سدراته، القرزي، سطيف، من الجنوب: الصحراء القسنطينية، من الغرب: البرج، المسيلة بوسعادة، واد جلال، من الشرق: الحدود التونسية.

المنطقة الثانية: منطقة الشمال القسنطيني: وحدودها من الشمال: من القالة إلى سوق الاثنين، من الجنوب: سطيف، طريق الجزائر قسنطينة إلى القرزي، ثم تمتد حتى الحدود التونسية، مارة بسقوس وسدراته، ومداوروش، ومن الناحية الغربية: سطيف، خراطة، سوق الاثنين، ومن الناحية الشرقية: الحدود التونسية.

المنطقة الثالثة: القبائل.

حدود المنطقة: من الشمال: سوق الاثنين، كوربي مارين، من الجنوب: خط السكة الحديدية الواصل بين قسنطينة والجزائر إلى سطيف، ثم تمتد إلى البرج، والمسيلة، وعين الحجل، وسور الغزلان، وعين بسام، وبالسترو، ومن الغرب: كوربي مارين، منرفيل، ومن الشرق: سطيف خراطة، سوق الاثنين.

المنطقة الرابعة عمالة الجزائر: حدودها من الشمال: كوربي مارين تنس، من الجنوب بويرة، عين بسام، بئر غبال، برواقية، بوقاري، تيارت، ومن الغرب: حدود عمالة وهران، ومن الناحية الشرقية: منرفيل، بالسترو، تيير، بويرة، عين بسام.

ملاحظة: العاصمة ودوائر حسين داي والروبية، والأبيار، وبوزريعة، بيير مندريس، وسانت أوجين، ليست تابعة للمنطقة رقم 3، وإنما تؤلف منطقة مستقلة.

المنطقة الخامسة: عمالة وهران، حدودها: عمالة وهران.

المنطقة السادسة: جنوب عمالة الجزائر، وحدودها من الشمال: بيردو، وبوقاري، وبرواقية، بئر غبالو، عين بسام، ومن الناحية الأخرى بل النواحي: الصحراء الجزائرية.

تنبيه: مدينة سطيف تابعة رقم 3 القبائل، ولكن منظمة هذه المدينة يجب أن تبذل مجهوداتها لتسهل المهمة، وتعيين المنطقتين رقم 1، 2.

وابتداءً من هذا اليوم تغير لفظة المنطقة، وتستعمل مكانها كلمة «ولاية» والناحية تصير منطقة، والقسم يصير ناحية.

مراكز القيادة: لما كان مبدأنا هو الإدارة الجماعية فيجب على جميع منطقتنا اتباعه بصفة مدققة، ومركز القيادة مركب من القائد «وله صفتان عسكرية وسياسية»، والقائد يمثل السلطة المركزية لجبهة التحرير الوطني يحيط به نواب ومعينون يعتبرون ضباطاً وعددهم ثلاثة، ويعتنون بالفروع التالية:

الفرع العسكري، والفرع السياسي، وفرع الاستعمالات والاتصالات.

وتوجد مراكز قيادة للولاية، وللمنطقة، وللناحية، وللقسم.

النقلة: تصدر بأمر الهيئة التي تكون أعلى علواً مباشراً من الهيئة التي ينتسب إليها المأمور، وقد قبل مبدأ التغيير والنقلة في جميع الدرجات والرتب.

ب . التوحيد العسكري:

الفوج: يتركب من أحد عشر جندياً من بينهم عريف واحد، وجنديان أولان، ونصف الفوج يشتمل على خمسة جنود من بينهم جندي أول.

الفرقة: تتركب من خمسة وثلاثين رجلاً، ثلاثة أفواج مع رئيس الفرقة ونائبه.

الكتيبة: تشمل على 110 من الرجال، ثلاث فرق مع خمسة إطارات.

الفيلق: يشتمل على 350 رجلاً، ثلاث كتائب مع عشرين إطاراً.

الرتب العسكرية: الرتب العسكرية المستعملة في القبائل أقرت وهي:

الجندي الأول: «كابران» وشعارها على شكل ثمانية أحمر اللون، يوضع على الذراع الأيمن.

العريف: «سارجان» اثنان على شكل 8 أحمران[1].

العريف ألاول: «سارجان شاف» ثلاث، 8 أحمر.

المساعد: «أجودان» شعار رتبته على شكل 7 تحته خط أبيض.

ملازم: شعار رتبته نجمة بيضاء.

ملازم ثان: «سوليوطنان» نجمة حمراء.

ضابط أول: «اليوطنان» نجمة حمراء ونجمة بيضاء،

ضابط ثاني: «كبتان» نجمتان حمروان.

صاغ أول: «كومندان» نجمتان حمراوان ونجمة بيضاء.

صاغ ثاني: «كولونيل» ثلاث نجوم حمر.

قائد الولاية: يكون برتبة كولونيل أي صاغ ثان، ونوابه الثلاثة يكونون برتبة صاغ أول.

قائد المنطقة: يكون برتبة ضابط ثان، ونوابه الثلاثة ضابط أول.

قائد الناحية: يكون برتبة ملازم ثان، ونوابه الثلاثة برتبة ملازم.

قائد قسم: يكون برتبة مساعد، ونوابه الثلاثة برتبة العريف الأول.

تنبيه: الكوميسارات السياسيون، تكون لهم نفس الرتب العسكرية، التي تكون لضباط الهيئة التي يكونون تابعين لها.

الشعار: نجمة وهلال أحمر، ذلك الشعار الذي يوضع على غطاء الرأس «تصنعه كل ولاية».

علامات الرتب: «القالوات» الولاية رقم ثلاثة.

الأوسمة: لجنة التنسيق والتنفيذ، كلفت بدراسة هذه المسألة.

---

(1) على صورة 8 بالشكل الهندي القديم.

تنبيه: كل هذه الرتب العسكرية مؤقتة، فبعد استقلال الوطن، سوف تتكلف لجنة عسكرية بدراسة كل حالة، وتوضع كل من له رتبة عسكرية في مكانه في الجيش الوطني.

رتبة الجنرال لا توجد إلا بعد أن تتحرر البلاد.

تعيين الضباط ونزع الرتبة من اختصاصات لجنة التنسيق والتنفيذ بعد اقتراحات قادة الولاية، ونواب الضباط يعينون أو تنتزع رتبتهم بأمر من قائد الولاية.

تعيين الجندي الأول، ونزع رتبته يكون بأمر قائد المنطقة.

المرتبات والمنح العائلية:

كل مجاهد يقبض مرتباً حسب السلم الاتي:

الجندي1،000 فرنك في الشهر

الجندي الأول1،200

العريف1،500

العريف الأول1،800

المساعد2،000

الملازم2،500

الملازم الثاني3،000

الضابط الأول3،500

الضابط الثاني4،000

الصاغ الأول4،500

الصاغ الثاني5،000

الممرضون والممرضات يتبعون العريف، إذن فمرتبهم 1،500 فرنك شهرياً، والأطباء المساعدون يتبعون الملازم فمرتبهم 2،500 فرنك شهرياً، أما الأطباء فهم تابعون للضباط الأول فيقبضون إذن 3،500، وكل ما يحتاجه الجندي من غذاء ولباس يتكلف به الجيش، ماعدا شؤون النظافة من صابون وغيره فإن المجاهد هو الذي يتكلف بشرائها.

المنح العائلية: كل مجاهد وراءه عائلة يطالب بالإنفاق عليها، تعطى له منحة شهرية، ولكن تجب دعوة وطنية كل أحد، حتى لا تمس أموال الثورة، وسوف تعطى التعليمات إلى رؤساء الفرق، والكوميسارات السياسيين فيما يخص هذا الموضوع.

والمسبلون تجري إعانتهم على نفس القاعدة التي يعان عليها المجاهدون، وذلك عندما يقومون بعمل دائم أي: ثلاثين يوم في الشهر، يعطى لهم نصف المنحة عندما يعملون خمسة عشر يوماً في الشهر، وربع المنحة إذا عملوا أسبوعاً في الشهر، والأسرى وعائلات الشهداء سوف تبذل لهم نفس الإعانات التي تمنح للمجاهد.

المنحة لسكان القرى: ألفا فرنك قارة مع زيادة ألفين لكل شخص «في الشهر».

لسكان المدن: خمسة الاف قارة مع زيادة ألفين لكل شخص. «في الشهر».

ج ـ التنظيم السياسي:

الكوميسارات السياسيون وشمولاتهم:

المهام الأساسية لكل كوميسار هي:

أولاً: تنظيم وتثقيف الشعب.

لا الدعاية والأخبار والتوجيه.

ثالثاً: الحرب النفسية «حرب الأعصاب»، العلاقة مع الشعب، العناية بالأقلية الأوروبية ومساجين الحرب، والكوميسارات السياسيون يعطون اراءهم في جميع برامج الأعمال العسكرية لجيش التحرير الوطني.

د ـ الأموال والتموين:

«انظر الدراسة رقم 2». مجالس الشعب سوف تشكل بواسطة الانتخابات، وسوف تتركب من خمسة أعضاء، من بينهم واحد رئيس. ومجالس الشعب هذه تنظر في القضايا العدلية والإسلامية والقضايا المالية والاقتصادية والشرطة.

هـ جبهة التحرير الوطني:

المبدأ، القانون الأساسي، والنظام الداخلي، والمنظمات المسيرة، مثل لجنة التنسيق والتنفيذ، والمجلس الوطني للثورة الجزائرية، واللجان.

المبدأ: انظر الوثائق.

القانون الأساسي والنظام الداخلي: تكلفت بتحريره لجنة التنسيق والتنفيذ.

المنظمات المسيرة:

أ ـ مجلس الثورة الجزائرية: ويتركب من 34 عضواً، 17 دائمون و17 مساعدون.

الرسميون:

1 ـ ابن بولعيد مصطفى.

2 ـ زيغود يوسف.

3 ـ كريم بلقاسم.

4 ـ أوعمران عمار.

5 ـ ابن مهيدي محمد العربي.

6 ـ بيطاط رابح.

7 ـ عبان رمضان.

8 ـ ابن يوسف بن خدة.

9 . عيسات أدير.

10 . بوضياف محمد.

11 . ايت أحمد حسين.

12 . خيضر محمد.

13 . ابن بلة أحمد.

14 . الأمين محمد.

15 . فرحات عباس.

16 . توفيق المدني.

17 . يزيد محمد.

الأعضاء المساعدون:

1 . نائب مصطفى بن بولعيد.

2 . ابن طبال الأخضر.

3 . محمدي السعيد.

4 . دحلس سليمان.

5 . بوالصوف عبد الحفيظ.

6 . ملاح علي.

7 . ابن يحيى «محمد».

8 . يحياوي محمد.

9 . مالك.

10 . دحلب سعد.

11 . الاتحاد العام للعمال الجزائريين.

12 . الاتحاد العام للطلاب الجزائريين.

13 . الونشي صالح.

14 . ثعالبي الطيب.

15 . مهري عبد الحميد.

16 . فرنسيس أحمد.

17 . سي إبراهيم «مزهودي».

تنبيه: لجنة التنسيق والتنفيذ هي التي تستدعي مجلس الثورة الجزائرية، عندما ترى ذلك ضرورياً، أو عندما يطلب نصف أعضائها مع واحد زيادة على النصف، لا يتم اجتماع مجلس الثورة إلا إذا حضر 12 عضواً، الدائمون أو المساعدون، ومبدئياً لا يجتمع مجلس الثورة إلا مرة في العام مدة وجود الحرب.

ب . لجنة التنسيق والتنفيذ:

تتركب من ابن خدة ابن يوسف، رمضان عبان، العربي ابن مهيدي، كريم بلقاسم، سعد دحلب، وإن كان هذا الأخير لا يزال بالسجن، فسوف يقع تعويضه نهائياً بمالك.

تنبيه: كل عضو من لجنة التنسيق والتنفيذ، أو نائب له تفويض من هذه اللجنة ؛ له السلطة الكافية لمراقبة نشاط كل منظماتنا في الداخل والخارج، ويلاحظ بدقة أن أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ لهم سلطة مراقبة المنظمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ..الخ..

وقادة الولايات يجب عليهم أن يقدموا قرارات عامة عن الوضعية السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية كل ثلاثة أشهر.

اللجان: لجنة التنسيق والتنفيذ مكلفة بإنشاء ومراقبة اللجان المختلفة التي يكون مركزها الجزائر العاصمة.

و . جيش التحرير الوطني: الالفاظ المستعملة «المجاهد، المسبل، الفدائي»

الوضعية الراهنة: الانتشار والتوسع، والإكثار من الهجومات.

من الان فصاعداً لا تستعمل إلا الكلمات الاتية:

المجاهد: هو جندي جيش التحرير الوطني.

المسبل: هو المشارك في العمل الفدائي: هو عضو الجماعة المكلفة بالهجومات على المراكز في المدن.

إن الاتصالات بين جميع الفرق في كل الولايات قد تمت، والان يجب أن تولى العناية إلى التوسع في العمليات والحركات في جميع الميادين.

العلاقات بين الجبهة والجيش: العلاقات الداخلية والخارجية، الوضعية في تونس، المغرب، فرنسا .

ز . العلاقات بين الجبهة والجيش: تعطى الأولوية للسياسي على العسكري.

وفي مراكز القيادة، يتعين على القائد العسكري السياسي أن يسهر على حفظ التوازن بين جميع فروع الثورة.

ح . العلاقات بين الداخل والخارج: تعطى الأولوية للداخل على الخارج، في مراعاة مبدأ التشارك في الإدارة.

الوضعية في تونس: قدم عنها التقرير، الوضعية الراهنة لنا مندوبون أربعة، يضاف إليهم ابن عودة الذي يتكلف بصفة خاصة بتوجيه المواد الحربية من تونس إلى الجزائر.

الوضعية في المغرب: قدم عنها التقرير إيدير، مبعوثنا هنالك تعالبي الطيب تحت مراقبة بوضياف.

فرنسا: قدم تقرير جامعة فرنسا للجبهة، وأهم المطالب قبلت وأمضيت رسالة من طرف جميع المسؤولين وبعث بها إلى اللجنة الجامعية لجبهة التحرير الوطني.

المواد الحربية: لا تنقل أية كمية من الأسلحة الان من ولاية لأخرى، لأن الأسلحة الموجودة هي مما أخذ من العدو. وفي المستقبل، لجنة التنسيق والتنفيذ، هي وحدها التي لها الأهلية التامة لتوزيع الأسلحة توزيعاً عادلاً، مع مراعاة الوضعية الخاصة لكل ولاية.

ط . نظام العمل:

الرجوع إلى الهجومات العسكرية بكل ثمن.

البدء في عمليات هجومية من تاريخ.. فاتح نوفمبر سوف يكون ذكرى سياسية فقط، يحافظ فيها على الإضراب العام.

ومقاطعة المدارس الفرنسية تستمر، وانتخابات لاكوست إن وجدت يجب أن تقاطع.

واستعمال القوة المسلحة في ذلك يلجأ إليه المسؤولون إن ظهر لهم صلاحية ذلك.

إيقاف النار، المفاوضات: مجلس الثورة الجزائرية هو الوحيد الذي يستطيع أن يأمر بإيقاف النار، مراعياً في ذلك الإطار الذي عينته القاعدة السياسية.

هيئة الأمم المتحدة: من هنا فصاعداً يجب على الداخل أن يعطي جميع المعلومات التي لدينا لتسهيل مهمة ممثلينا في هيئة الأمم المتحدة.

الحكومة المؤقتة:

هذه القضية سوف تنظر فيها لجنة التنسيق والتنفيذ، مع المندوبين في الخارج.

ي. أمور مختلفة:

الأوراس: درست وضعية الأوراس، واتخذ لها الحل الاتي: يبعث زيغود، وسي إبراهيم وتعطى لهم السلطات الكافية، لحل مسألة سوق أهراس، والنمامشة، ويبعث أوعمران وسي الشريف وعميروش لحل مشاكل الأوراس والجنوب.

ولجنة التنسيق والتنفيذ وهي وحدها لها الأهلية للبت في النهاية.

المحاكم: ليس من حق أي ضابط مهما كانت رتبته العسكرية أن يحكم بالإعدام على شخص، وإذن فيجب تشكيل محاكم في الجبهة والمنطقة، لتحاكم المدنيين والعسكريين، والذبح ممنوع منعاً باتاً، وفي المستقبل كل محكوم عليه بالإعدام يقتل رمياً بالرصاص، وللمتهم الحق في أن يختار من يدافع عليه.

والتمثيل والتشويه، ممنوعان مهما كانت الأسباب التي قد تقدم لتبرير ذلك.

المساجين السياسيون: يمنع منعاً باتاً قتل مساجين الحرب، وفي المستقبل سوف يجعل نظام خاص بمساجين الحرب في كل ولاية، ومهمة هذا النظام الأولى هي نشر وتبيين عدالة كفاحنا.

كتيب خاص: كل مجاهد في المستقبل سوف يعطى كتيباً خاصاً.

تسجيل الجنود: كل ولاية تقدم مشروعاً في هذا الشأن للجنة التنسيق والتنفيذ والعمل.

الرخص: سوف يؤذن في الرخص.

الفحص الطبي: كل جندي جديد، يجب أن يمر بالفحص الطبي إن كان ذلك ممكناً.

ملحق مختصر تقرير رقم 2:

عدد الجنود في فاتح نوفمبر 1954م: مائة مجاهد.

والان يبلغ عدد المجاهدين 669،1.

وعدد المسبلين 5،000.

والأسلحة: 13 بندقية رشاشة، 325 بندقية حربية، 3،750 بندقية صيد.

المالية: 203 ملايين، وخمس مائة ألف فرنك.

معنويات المجاهدين والشعب: معنوياتهم مفرحة جداً.

ملاحظة: كل الجهة المحاذية للحدود التونسية مراقبة من طرف الأوراس، مع أنه كان من المقرر منذ بداية الثورة أن تكون الجبهة التي تمتد من سوق أهراس

إلى القالة تابعة للشمال القسنطيني «انتهى التقرير» [1].

لا نستخلص من هذه القرارات المنبثقة عن مؤتمر الصومام الذي ابتدأت أشغاله يوم الثلاثاء 20 أوت وانتهت يوم 5 سبتمبر 1956م، أن الثورة الجزائرية قد انتقلت من مرحلة المبادرة الفردية إلى مرحلة التنظيمات الفعلية، من مرحلة الأشخاص إلى مرحلة النظام، وبفضل التنظيم الجديد أصبح المجلس الوطني هو الهيئة العليا التي يحق لها إبرام المعاهدات والاتفاقيات والتفاوض مع فرنسا، وبذلك تخلص القادة الجدد لجبهة التحرير من التخوف الذي كان يساورهم، وهو أن قادة الثورة في الخارج قد يتفاوضون مع فرنسا ويقبلون بالحلول التي لا تحقق الاستقلال التام.

.كما أن إنشاء لجنة التنسيق والتنفيذ قد سمح لجبهة التحرير أن تجند أعضاء المنظمات الجزائرية لخدمة الثورة، وإقامة تعاون وثيق بين القيادة المركزية في الجزائر العاصمة وبين الولايات والمسؤولين في الداخل والخارج.

. ثم إن إنشاء نظام موحد للجيش وقيادة واحدة مشتركة، قد ساعد على تعيين خلفاء للقادة الثوريين الذين يستشهدون، بدون إراقة دماء أو نشوب خلافات بين المسؤولين على من يتولى القيادة.

. وبالفعل فقد نجح عبان رمضان وكريم بلقاسم في خلق قوة ثورية جديدة منبثقة منهما ومن المركزيين أمثال بن يوسف بن خدة وسعد دحلب، وأصبح القادة المؤسسون للمنظمة الخاصة العسكرية التي حولوها إلى جبهة التحرير في عام 1954م أمثال: محمد بوضياف، وأحمد بن بلة، مجرد ممثلين للجبهة في الخارج، ينتظرون التعليمات من القيادة الجديدة في الجزائر، بعد أن كانوا يتصرفون على أساس أنهم قادة الثورة في الخارج.

. ويلاحظ هنا أن عبان رمضان قد نجح في تعيين عدة شخصيات من مختلف الأحزاب في المجلس الوطني للثورة الجزائرية، الذي يمكنه اتخاذ القرارات الإلزامية بموافقة 12 عضواً فقط من مجموع أعضائه الذين يبلغ عددهم 34 عضواً، ولكن واقع الأمر أن السلطة الحقيقية كانت في يد أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الذين ينتمون إلى حزب الشعب، حيث يمكنهم الحصول على 7 أصوات أخرى من أعضاء المجلس لكي تكون مداولات المجلس الوطني للثورة الجزائرية مقبولة وجائزة قانونياً.

كما أن النهج الذي سلكه عبان بعد مؤتمر الصومام قد غير مجرى الأمور في داخل الجزائر وخارجها، فالقرارات المتخذة في مؤتمر الصومام والتي تنص على إعطاء الأولوية للداخل على الخارج، وإعطاء الأولوية للعمل

(1) حياة كفاح (361/3).

السياسي على العمل العسكري ؛ قد نتج عنهما نقل السلطة إلى نواة جبهة التحرير الوطني في العاصمة وتوجيهها لجيش التحرير الوطني والقادة العسكريين في الولايات الستة بالقطر الجزائري[1].

. أصبحت جبهة التحرير الوطني الجزائري منذ 5 سبتمبر 1956م، أي انتهاء أشغال مؤتمر الصومام، هي القوة السياسية الوطنية الوحيدة التي التف الشعب حولها لتحرير الجزائر من قوات الاحتلال الفرنسي، وقد اتضح في مؤتمر الصومام أن جبهة التحرير أصبحت قوية وممثلة لامال وطموحات الشعب الجزائري، وذلك بفضل نجاحها في:

. القضاء على النفوذ الشخصي لأي فرد، وإقرار مبدأ القيادة الجماعية.

. وضوح الهدف، فالغاية المنشودة هي الاستقلال الوطني، والوسيلة هي الثورة لتدمير الحكم الاستعماري.

. توحيد أبناء الشعب الجزائري وتجنيده للكفاح ضد العدو المشترك، لأن تحرير الجزائر هو عمل جميع الجزائريين وليس عمل فئة واحدة من أبناء شعب الجزائر. وأشارت وثيقة الصومام إلى أن نشاط جيش وجبهة التحرير قد غير مجرى الأمور بالجزائر.

. فبفضل الله ثم ثورة أول نوفمبر 1954م تجددت الهمة والعزيمة في مواجهة العدو، وتوحد الشعب وفاق من سباته، وأظهر تصميمه على استعادة حريته وكرامته، وباختصار فإن الكفاح ضد العدو قد خلق اتحاداً روحياً وسياسياً بين جميع الجزائريين، وبذلك حصل الإجماع الوطني على مواجهة العدو حتى النهاية وانتزاع استقلال الجزائر[2].

3. وبالنسبة لأهداف الحرب، فقد لخصها قادة مؤتمر الصومام فيما يلي:

. إضعاف الجيش الفرنسي بحيث يستحيل عليه الانتصار بالسلاح.

. تحطيم الاقتصاد الاستعماري حتى يصاب بالشلل، والإدارة الفرنسية تصبح عاجزة عن مواصلة الحرب.

. إحداث إخلال بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بفرنسا بحيث يتعذر عليها مواصلة الحرب.

. العمل على عزل فرنسا دولياً وفي داخل الجزائر.

. توسيع نطاق الثورة وتدعيم مؤسسات الدولة الجزائرية، حتى يمكن الاعتراف بالنظام السياسي الجزائري والتفاوض معه في حالة الرضوخ إلى الحوار والسلم.

. ضرورة الحصول على تأييد الشعب باستمرار، حتى يصمد أمام المجهودات التي يبذلها الفرنسيون لإبادته.

4. وبالنسبة لوقف القتال

فقد تقرر في مؤتمر الصومام أنه لا يمكن وقف القتال إلا في حالات:

. الاعتراف بالشعب الجزائري شعباً واحداً لا يتجزأ.

. الاعتراف باستقلال الجزائر وبسيادتها في جميع الميادين، بما فيها الدفاع الوطني والدبلوماسية.

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر، د . عمار بوحوش ص 398.

(2) المصدر نفسه ص 400.

. الإفراج عن جميع الجزائريين والجزائريات الأسرى والمعتقلين والمنفيين بسبب نشاطهم الوطني قبل وبعد نشوب الثورة في فاتح نوفمبر 1954م.

. الاعتراف بجبهة التحرير الوطني بصفتها الهيئة الوحيدة التي تمثل الشعب الجزائري، وأنها وحدها المؤهلة للقيام بأية مفاوضات، والمسؤولة عن وقف القتال والتحدث باسم الشعب الجزائري[1].

5 . وفيما يتعلق بعلاقة الجزائر ببقية دول المغرب العربي:

فقد حرص أعضاء مؤتمر الصومام على الدعوة لإقامة علاقات سياسية قوية مع تونس والمغرب، وتنسيق المجهودات الدبلوماسية بقصد الضغط على الحكومة الفرنسية في الميدان الدبلوماسي. وأشار المؤتمرون في وثيقة الصومام إلى أن الوضع في شمال إفريقيا يتميز بحقيقة واضحة للعيان، وهي أن القضية الجزائرية مندمجة في القضية المغربية وفي القضية التونسية، بحيث أن القضايا الثلاث تكون قضية واحدة.

واعتبرت وثيقة المؤتمر استقلال المغرب وتونس بدون استقلال الجزائر لغواً ولا قيمة له، فالتونسيون والمغاربة لم ينسوا أن احتلال فرنسا لبلديهما قد جاء عقب احتلال الجزائر. وأكدت وثيقة الصومام أنه لخطأ فاحش أن يعتقد أحد أن باستطاعة المغرب وتونس التمتع بالاستقلال الحقيقي إذا ما بقيت الجزائر محتلة من طرف فرنسا[2]؟

6 . مؤتمر الصومام والهوية الإسلامية:

ذهب البعض إلى القول أن وثيقة الصومام قد تخلت عن البعد الإسلامي وأعادت النظر فيه، ويستند هؤلاء في طرحهم على ما ورد في وثيقة الصومام على أن الثورة «ليست حرباً دينية» وهدفها إقامة دولة جزائرية على شكل جمهورية ديمقراطية واجتماعية وليس إقامة ملكية أو ثيوقراطية، وما غاب عن هؤلاء هو أن هذا الكلام كان موجهاً إلى الرأي العام الغربي أكثر مما كان موجهاً إلى الداخل، وليس معناه التخلي عنه، بل يعود إلى الخوف مع استغلال فرنسا لذلك وتأليب الرأي العام الغربي على الثورة الجزائرية وإثبات تهمتها للمجاهدين بأنهم متعصبين دينيين، وكانت هذه الفكرة توضع دائماً في ذهن قيادة الثورة، وللاستدلال على ما نقوله هو مثلاً عندما وقع الاختيار على عنوان للسان حال جبهة التحرير الوطني، وتم اقتراح ثلاثة عناوين «المكافح» و«الجزائري» و«المجاهد» ووقع اختيار عبان رمضان على العنوان الأخير لأنه أقرب إلى الشعب حسب قول عبان لزملائه، ثم أضاف لهم بقوله: أما الغرب فيكفي اقناعه بافتتاحية كي لا تستغل فرنسا ذلك واتهامنا بالتعصب الديني، فقام عبان بذلك فعلاً في افتتاحية العدد الأول الصادر في جوان 1956م وشرح مصطلح «المجاهد» بأنه كل جهد يقوم به الفرد ضد النظام الاستعماري في أي وقت كان[3].

وقد وقع نفس الإشكال تقريباً في المؤتمر الثاني للحركة من أجل الانتصار للحريات الديمقراطية عام 1953م، حيث طرح البعض فكرة «جمهورية إسلامية» حسب عبد الرحمن بن اليعقوب وبن يوسف بن خدة، لكن

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 401.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 401.

(3) دراسات حول إيدلوجية وتاريخ الثورة الجزائرية.

أقنعتهم بعض الشخصيات الدينية بالتخلي عن هذه الفكرة، لأن ذلك يسمح بإعطاء سلاح لفرنسا فتثير الغرب المسيحي ضد الجزائر، وتحويل حربها ضد الجزائريين إلى حرب صليبية. وتم الاتفاق في الأخير على عبارة «جمهورية جزائرية ديمقراطية واجتماعية في نطاق المبادأئ الإسلامية» وهي نفس عبارة بيان نوفمبر 1954م تقريباً[1].

وما غاب عن الذين يستندون على ما ورد في وثيقة الصومام، وفهموه أنه تخلّ عن المبادأئ الإسلامية، أن ذلك القول لا يناقض البيان الذي لم يقل بدولة ثيوقراطية يحكمها رجال الدين الذين لا وجود لهم في الإسلام أصلاً، بل لقد قال البيان بالممارسة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إطار مبادأئ الإسلام العامة التي أجمع عليها المسلمون والمعروفة بوضوح لدى الجميع، وأن العمل في هذا الإطار لا يمنع من استيراد أي تجربة في الحكم أو الاقتصاد أو المجتمع أو منظومة قانونية، مادام أنها لا تناقض تلك المبادأئ العامة للإسلام، ونعتقد أن ما ورد في بيان نوفمبر 1954م قد فتح أبواباً واسعة للجميع.

يتبين لنا من الدراسة المتأنية لإيديولوجية الثورة ومختلف الممارسات أثناءها، أن مبادأئ الإسلام كانت تحظى بمكانة خاصة رغم الوضع في الحسبان عدم إثارة الغرب المسيحي كما سبق.

وتعود هذه المكانة إلى اعتبار الإسلام أداة لتحريك الجماهير، وأن أي مساس بمبادأئ الإسلام كان بمقدوره أن يحطم كل ما بنته الثورة.

بل إن مبادأئ الإسلام وعقيدته السليمة هي التي فجرت ثورة المليون شهيد، لقد كان الإسلام يمثل القلعة التي تحطمت عندها كل محاولات المسخ والدمج الاستعماري لأكثر من قرن وربع، كما كان يمثل العنصر الأساسي في الشخصية الوطنية الجزائرية[2].

ولقد تم التمسك بالإسلام وقيمه ومبادئه قبل الثورة وأثناء الثورة المباركة.

إن وثيقة أول نوفمبر تعتبر مرجعية مهمة للثورة الجزائرية، ويمكننا أن نستخرج منها مبادأئ أساسية لبناء الدولة الوطنية وتتمثل في:

. الجمهورية كنظام للحكم.

. الحريات الديمقراطية كأسلوب للحكم.

. العدالة الاجتماعية.

. مبادأئ الإسلام كإطار للدولة.

. السيادة للدولة والأمة.

. الانتماء الأمازيغي العربي الإسلامي للشعب الجزائري[3].

7. موقف أحمد بن بلة من مؤتمر الصومام:

(1) الدكتور رابح لونيسي ص 103.

(2) المصدر نفسه ص 105، 106.

(3) المصدر نفسه ص 135.

ومن الانتقادات التي وجهت للمؤتمر انذاك نذكر:
. أن المؤتمر لم يشر في قراراته لا للعروبة ولا للإسلام.
. أن المؤتمر كان منقوصاً من الولاية الأولى والخامسة والوفد الخارجي واتحادية فرنسا، ونرى من هنا كيف أن أحمد بن بلة كان يسعى بتصرفاته هذه إلى خلق فتنة داخل صفوف الثورة.
كان أحمد بن بلة متشبعاً بفكرة القيادة التي غرست في ذهنه بفعل احتكاكه بالمخابرات المصرية، وعلى رأسها فتحي الديب الذي حكم على مؤتمر الصومام بأنه أوقع الثورة الجزائرية في المحظور، وأنه لم يعقد سوى لتحقيق هدف واحد وهو: إزاحة أحمد بن بلة من طريق توليه لزعامة الثورة، وذلك بمحاولة إقناع قادة الكفاح المسلح بضرورة سيطرة قيادة الداخل على كل شؤون الكفاح داخلياً وخارجياً، واقتصار أحمد بن بلة على تمثيلهم بالخارج، وتنفيذ التوجيهات والتعليمات التي تصدرها قيادة الثورة بالداخل.
إن الموقف المعارض الذي وقفه أحمد بن بلة من قرارات مؤتمر الصومام نابع أساساً من كون هذا المؤتمر قد فصل نهائياً في مسألة الزعامة والصراع على السلطة، بعد اعتماده على مبدأ القيادة الجماعية الذي تم الاتفاق عليه منذ اندلاع الثورة، وهو ما يتناقض مع رغبة بن بلة الذي يسعى إلى تسيير الثورة من الخارج، والمعروف عنه أنه كان يحضر نفسه لهذا الدور على أساس أنه من القادة التاريخيين، وكان رئيساً للمنظمة السرية الخاصة، ويحظى بدعم مباشر من الحكومة المصرية ومخابراتها[1].
وهذا ما نستنتجه بشكل واضح عندما طرح أحمد محساس على مصطفى بن عودة الذي ذهب إلى تونس ليشرح قرارات مؤتمر الصومام. والمعروف أن محساس محسوب على بن بلة. فكرة أهمية الزعامة وسعى إلى إقناعه بذلك وبأهمية دورها، إلا أن ابن عودة أجابه بأن الثورة لا رئيس لها وقيادتها جماعية. وكفانا ما عانينا من مصالي الذي جعلنا منه زعيماً فكان ما كان[2].

8. اختطاف طائرة بن بلة ورفقائه:

ومن أقدار الله العجيبة أنه في الوقت الذي كان يسعى فيه الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة والملك المغربي محمد الخامس للقيام بوساطة بين الجزائر وفرنسا في إطار المغرب العربي، قامت السلطات الفرنسية باختطاف الطائرة المقلة لوفد جبهة التحرير الوطني الجزائري وذلك يوم 22 أكتوبر 1956م. وبهذه القرصنة الجوية وإلقاء القبض على أحمد بن بلة ومحمد خيضر وايت أحمد ؛ نجت الثورة الجزائرية من حدوث انقسام خطير في القيادة،ؤ

(1) الصراع السياسي داخل جبهة التحرير، د. إبراهيم لوينسي ص 60.
(2) المصدر نفسه ص 60.

والفصل في قضية الزعامة، هل تكون بالداخل أو الخارج؟ والسلطة هل تكون في يد العسكريين أو المدنيين؟ ومن يتحكم في المراكز الاستراتيجية للسلاح سواء بتونس أو المغرب؟

وكما قال أحمد توفيق المدني فإن سجن القادة في الخارج قد أزال عقبة كأداء في طريق وحدة القيادة، وانتهى أمر قيادة القاهرة وقيادة الداخل[1].

وأكد أحمد توفيق المدني أن سجن الزعماء الخمسة قد ترتب عنه خلق اتحاد بين مختلف الجزائريين، بما في ذلك الذين لم يشتركوا في إشعال الثورة، وحسب نفس المصدر فإنه لو تم عقد مؤتمر تونس ونجح المشاركون فيه في المصادقة على قرار تحت تأثير الملك المغربي والرئيس التونسي ؛ لما كان ذلك القرار لفائدة الاستقلال التام حتماً، ففرنسا يومئذ لم تكن مستعدة لذلك، ولوقع من جراء ذلك خلاف مرير في القيادة كان يضر حتماً بمصلحة الثورة[2].

وقال: الذي أعتقده هو أنه لو بقي ابن بلة وخيضر على رأس الوفد لما وافقا إطلاقاً على مقررات مؤتمر الصومام أو على جل تلك المقررات، ولوقع من أجل ذلك خلاف مرير كان يردينا ويحطم جهودنا[3]، ولم يتطرق أحمد توفيق المدني إلى ايت أحمد لأن هذا الأخير كان يؤيد عبان رمضان وقرارات مؤتمر الصومام[4].

وهكذا أصبح عبان رمضان هو الرجل القوي في الثورة الجزائرية، الذي غير الرجال والمسؤولين، وأقام المؤسسات السياسية والإدارية للدولة الجزائرية، وأسس القيادة الجماعية، وأعطى الأولوية لرجال السياسة على العسكريين، واتخاذ القرارات من طرف رجال الجبهة في داخل الجزائر، لكن تهب الرياح بما لا تشتهي السفن، فاستشهاد العربي بن مهيدي، وزيغود يوسف، وخروج كريم بلقاسم من الجزائر في شهر جوان 1957م والتحاقه بالقاهرة، وإدخال تعديلات على تشكيل لجنة التنسيق والتنفيذ ؛ قد غيرت مجرى الأمور واضمحل نفوذ عبان رمضان، وبرزت القوة العسكرية المتمثلة في كريم بلقاسم قائد الولاية الثالثة، ولخضر بن طوبال قائد الولاية الثانية، وعبد الحفيظ بوصوف قائد الولاية الخامسة، ومحمد الشريف قائد الولاية الأولى، الذين تمكنوا من أخذ السلطة من يد عبان رمضان وعزله، ثم التخلص منه في ظروف غامضة يوم2 7 ديسمبر 1957م، بعد أن تمرد عليهم ورفض الخضوع لتوجيهاتهم ومخططاتهم، وهددهم بالعودة إلى داخل الجزائر[5].

9 . العقيد عميروش وتأمين مؤتمر الصومام:

بعد عدة اتصالات ومشاورات بين قادة المناطق والمسؤولين في العاصمة ؛ تم الاتفاق على اختيار منطقة وادي الصومام لعقد هذا اللقاء نظراً لموقعها الاستراتيجي الذي يجعل منها حصناً منيعاً للمجاهدين، بالإضافة إلى

---

(1) حياة كفاح (394/3).

(2) حياة كفاح (394/3).

(3) المصدر نفسه (394/3).

(4) التاريخ السياسي للجزائر ص 402.

(5) التاريخ السياسي للجزائر ص 403.

كون المواطنين في هذه المنطقة قد احتضنوا الثورة، بحيث أصبح التنظيم الثوري فيها محكماً شاملاً وفعالاً، مما جعل كل الظروف مساعدة لاجتماع قادة المناطق في جو الأمن والأمان والاطمئنان.

ولقد أشرف على توفير هذه الظروف المثالية قبل وأثناء المؤتمر السيد عميروش ايت حمودة قائد الناحية، حيث شرع فيها منذ مطلع عام 1956م، بعد أن أعطيت له الأوامر من قيادة المنطقة بخصوص الشروع في التحضيرات المتعلقة باستقبال المشاركين، وتهيئة مكان انعقاد المؤتمر وذلك تحت مسؤوليته المباشرة.

وكان المكان الأول المحدد والمتفق عليه من طرف القيادة هو قلعة بن عباس، ولكن لظروف أمنية وتحركات عسكرية للجيش الفرنسي تقرر تغيير المكان المقرر لعقد المؤتمر، وقد جاءت فكرة تغيير المكان المقرر للمؤتمر بعد اتصالات بين كريم بلقاسم قائد المنطقة ونائبه على ناحية الصومام عميروش، الذي اقترح منطقة أخرى أوزلاقين على الضفة الغربية لوادي الصومام، ببلدية إغزر أمقران بدائرة أقبو لحصانتها وموقعها الاستراتيجي المطل على حوض الصومام، ولكونها مفتوحة مباشرة على جبال جرجرة المغطاة بغابات كثيفة، مما يسهل مراقبة حركات العدو لمسافات كبيرة، كما يفسح المجال الواسع للانسحاب نحو جبال جرجرة الحصينة بكل سهولة وبسرعة أكبر من سرعة العدو. هذا إلى جانب تجنيد سكانها الكلي مع الثورة لقوة التنظيم الثوري بها، والذي سهر لعدة أشهر على إرسائه في كل الناحية، لذلك لم يتردد في اقتراح المكان الحصين القوي لانعقاد مثل هذا الحدث الخطير الهام.

وقد كلف قائد المنطقة السيد كريم بلقاسم رسمياً عميروش بالتحضير للمؤتمر من جميع النواحي سواء الجانب البشري أو المادي أو الأمني، وحتى التنظيمي، بحكم أن هذا الأخير كان أكثر دراية واطلاعاً بالناحية، كما كان يحظى باحترام وحب سكان المنطقة الذين كانوا يكنون للثورة ولعميروش ولاءً كبيراً[1].

ويعود اختيار منطقة وادي الصومام إلى اعتبارها مظهراً من مظاهر السيطرة العسكرية لجيش التحرير، لأن هذا المكان بالذات الذي اختير للمؤتمر كان الفرنسيون يزعمون ويدعون أنهم سيطروا عليه، لذلك أراد قادة جيش التحرير أن يكون المؤتمر قوياً في بدايته، وأن يتحدَّوا العدو ويظهروا للرأي العام الفرنسي والعالمي مدى قوة وسيطرة جيش التحرير الوطني في حربه هذا على الاستعمار، وأن المكان الذي أعلن القادة المستعمرون أنهم سيطروا عليه وتمت تصفيته من الثوار ؛ استطاع قادة الثورة أن يعقدوا فيه أول مؤتمر لهم[2].

ومن أجل إنجاح تنظيم المؤتمر أنشأ عميروش لجنة للتحضير المادي والعملي والأمني تتكون من: قاسي حماي نائب سياسي في حوض الصومام، وأحمد فضال «سي حميمي» وعبد الرحمن أوميرة، الأول مكلف بتكثيف العمليات والكمائن بناحية بوقاعة لاستدراج العدو وشغله، والثاني مكلف بتأمين الطريق، كما سخر حوالي 500 جندي لحماية المؤتمر، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من المسبلين لمراقبة تحركات العدو في المنطقة، وكلف السيد حسين صالح بتوفير التموين والإشراف عليه، وإحضاره من أماكن بعيدة لكي لا يختل الاستهلاك المحلي

(1) دور العقيد عميروش في الثورة الجزائرية، شوقي عبد الكريم ص 107، 108، 109.

(2) المصدر نفسه ص 109.

فيتفطن العدو لأي تغيير أو أمر غير عادي، وكلف السيد نايت كعباش بالاستعلامات ومراقبة سكان المنطقة أيام المؤتمر والحفاظ على السرية التامة لأشغاله، فسهر ومن معه على توجيه السكان، وكلف أيضاً السيد عبد الحفيظ أمقران وسي الطاهر عميروش بمتابعة محاضر المؤتمر[1].

ومن خلال هذه التحضيرات أظهر عميروش كفاءة عالية في التنظيم والإعداد، كان قد اكتسبها خلال نشاطه السياسي في باريس قبل الثورة، أما عن الجانب الأمني فقد أشرف شخصياً على تأمين المكان بزرع رجاله في مختلف أرجاء الناحية، بحيث أصبحت كلها تحت سيطرة جيش التحرير، كما أرسل أعوانه ومساعديه لاستقبال ومرافقة الوفود القادمة للاجتماع، وفي هذا الإطار أرسل مساعده السيد قاسي حماي مع مرشدين لاستقبال وفد المنطقة الثانية، حيث يقول السيد علي كافي بهذا الخصوص، وتم اللقاء بين ممثلي المنطقة الثالثة المنظمة للمؤتمر وبين المشاركين من بقية المناطق على مشارف حدودها مع مرشدين، وبالنسبة للمنطقة الثانية التي كنت من ضمن وفدها كان في استقبالها المسؤول قاسي على حدود المنطقة، والذي أصبح فيما بعد رائداً، وبالنسبة للرابعة ذهب عميروش لاستقبالهم[2].

وعموماً أرسل عميروش دوريات لاستقبال وفود المناطق الحربية بهدف ايصالها إلى مقر المؤتمر، وتجنُّب العدو الذي كان يقوم بعملية مسح للمنطقة، ولكن برغم ذلك فإن وفد المنطقة الثانية احتك بقوات العدو خلال الاشتباك معها في عدة مواقع جعلته يتأخر قليلاً بسبب انقسامه نتيجة دخوله في مواجهة مع بعض تلك القوات التي كانت منتشرة بكثرة في المنطقة[3].

والمتتبع للأمور يجد أن مصير قادة الثورة كان في يد عميروش، الذي برهن من جديد على عبقريته وحنكته العسكرية، التي جعلت من كريم بلقاسم يثق به وبإجراءاته وتدابيره التي كانت تقريباً في كل الأحوال ناجحة، لأن الرجل كان عارفاً بالناحية وسكانها، كما أنه اكتسب الأسلوب الأمثل للتعامل مع القوات الفرنسية كراً وفراً وتأميناً لجنوده وضيوفه وقادة الثورة المباركة في الداخل، فقد نجح في تأمين المكان لعقد المؤتمر. وقد استطاع عميروش ـ بفضل الله ثم تنظيمه المحكم وسهره الدائم ليل نهار ـ أن يوفر الجو الأمثل لانعقاد المؤتمر الذي دام لعدة أيام، حيث أن الوفود لم تصل في وقت واحد، وتحتم على المؤتمرين الانتظار ترقباً لوصول وفود أخرى، وهذا ما جعل مهمة عميروش ورجاله تطول وحرصه يزيد[4].

وقد سهر على أمر المؤتمر وخدمته حوالي 800 جندي، بالإضافة إلى حوالي 1،600 مسبل وهو عدد ضخم.

وأما خلال أيام المؤتمر، فإن الأمور سارت على أحسن مايرام سواء من حيث التنظيم أو التموين أو الحراسة والتمويه، الذي كان يتم بشن الهجومات ونصب الكمائن ضد العدو في مناطق بعيدة نوعاً ما عن مقر المؤتمر،

---

(1) المصدر نفسه ص 110.
(2) المصدر نفسه ص 111.
(3) المصدر نفسه ص 111.
(4) المصدر نفسه ص 113.

قصد شغله واستدراجه إلى مناطق يريد جيش التحرير أن يجذبه لها، وهي نفس المهمة التي أسندت إلى السيد أحمد فضال «السي حميمي» من طرف عميروش الذي سخر كل جهده ووقته وذكائه وخبرته للقيام بالمهمة التي أسندت إليه على أكمل وجه[1].

وعموماً فإن عميروش ساهم في نجاح مؤتمر الصومام بما وفره هو ورجاله من أجواء مناسبة لانعقاده فوق أرض الوطن[2].

* * *

ثامناً: وسائل الفرنسيين للقضاء على الثورة

استخدمت فرنسا كافة الوسائل البشعة للتصدي للثورة، وصنعت جيوب وقادة تابعين لها من الخونة ودعمتهم بالمال والسلاح، وساهمت في سفك الدماء بين أبناء الشعب، ولكن حركات الخيانة باءت بالفشل بتوفيق من الله ثم صمود وثبات ووحدة جبهة التحرير، من هذه الوسائل:

(1) المصدر نفسه ص 114.

(2) المصدر نفسه ص 115.

1 . مشروع قسنطينة الاقتصادي وأهدافه:

تم إعداد هذا المشروع بعد الإتيان بالجنرال ديغول إلى الحكم، وأعلنه هو بنفسه بمدينة قسنطينة يوم 13 أكتوبر 1958م، قبل يومين من الشروع في شن عملية شهر الضباب، على اعتبار أن أسباب الثورة اقتصادية واجتماعية وليست سياسية، ولا صلة لها بفكرة الاستقلال والحرية وطرد الاستعمار الأجنبي.

وقد استهدف ديغول بهذا المشروع أن يكسب الرأي العالمي ويجلبه إليه، ويوهمه بأن فرنسا تعمل جاهدة على تحسين أوضاع الجزائريين، وتنمية الجزائر عن طريق إنجاز هذا المشروع الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، وأهم ما في هذا المشروع:

. إقامة أحياء سكينة بصورة استعجالية دون مراعاة لشرط الحياة العامة فيها، وذلك بقصد تسهيل السيطرة على الجزائريين وتشديد الرقابة عليهم، وقد انجر على إقامة هذه الأحياء أمراض اجتماعية خطيرة.

. منح بعض الوظائف للجزائريين للتخفيف من حالة البطالة في أوساطهم ظاهرياً، وكسبهم إلى جانب السلطات الاستعمارية ضد الثورة، وترقية بعض العملاء إلى الوظائف الإدارية السامية، ومنحهم امتيازات مادية معتبرة، فأسندت إليهم مسؤوليات معتبرة في الإدارة، وعينت بعضهم ولاة ورؤساء دوائر وموظفين سامين.

. محاولة خلق جو نفسي اجتماعي يلهي الشعب عن الثورة، وذلك بتكوين فرق رياضية وتنظيم ألعاب مسلية، وتشجيع الحفلات والسهرات الفنية والمادب في ضيعات المعمرين واستغلالها لمناهضة الثورة.

. إدخال عناصر جزائرية في مجلس الشيوخ الفرنسي، وتعيين ضباط جزائريين سامين في الجيش الفرنسي، ومنح رخص ومحلات تجارية لبعض الجزائريين.

. استغلال موارد البلاد ووضعها تحت تصرف الشركات الرأسمالية الأجنبية لاستغلالها، وتنشيط عمليات التنقيب عن البترول في الصحراء الجزائرية لدعم الاقتصادي الفرنسي المتضرر من الثورة الجزائرية. وفي هذا الإطار تم تجنيد أكثر من نصف مليون جندي لحماية المصالح الحيوية الفرنسية في الجزائر ذات المجالات الاستراتيجية وذلك ابتداءً من نوفمبر 1959م.

. 50 ألف جندي لحماية ومراقبة الخطوط الشائكة المكهربة شرقاً وغرباً على الحدود الجزائرية.

. 30 ألف جندي لحماية ومراقبة الجسور والمعامل والمصالح الاقتصادية للكولون المعمرين.

. 200 ألف جندي لحماية ومراقبة أنبوب بترول حاسي مسعود بجاية، بينهم 35 ألف للخط الممتد بين بني منصور وبجاية.

. إنشاء بعض المرافق الصحية كمستشفى رجاونة بتيزي أوزو، الذي لم يستفد منه سوى المعمرين وأذنابهم.

. شق شبكة من الطرق لتنشيط الاقتصاد الفرنسي وخدمة الأهداف العسكرية الاستعمارية والوصول إلى القرى الريفية المعزولة.

. فتح مجال محدود لتعليم اللغة الفرنسية لبعض الشبان الجزائريين، من أجل استمالتهم وجعلهم أدوات لخدمة مصالح الاستعمار عن طريق النوادي والمنتديات واللقاءات المختلفة.

. إنشاء بعض مراكز التكوين المهني لإعداد أيدي عاملة مختصة تستغل في تطوير الاقتصاد الفرنسي وترقيته.
. تقديم بعض المؤون والمنح الشكلية للشيوخ العجزة والمكفوفين المحتاجين تحت غطاء المساعدات الإنسانية[1].

2 . عملية بروميير أو أشهر الضباب:

شن الجيش الفرنسي هذه العملية العسكرية الضخمة يوم 15 أكتوبر 1958م بقيادة الجنرال فور، على رأس خمسة وثلاثين ألف جندي ومئات العربات العسكرية والطائرات المقنبلة والحوامات، وذلك بعد يومين من إعلان مشروع قسنطينة الاقتصادي، مما يدل على أنه للتعمية فقط، وليس لمعالجة وإصلاح أوضاع الجزائريين الاقتصادية والاجتماعية. وقد دامت هذه العملية إلى يوم 27 من نفس الشهر، واستهدفت القضاء على مراكز قيادة الولاية الثالثة بجبل أكفادوا الحصين والكثيف الغابات، ولم يزد عدد المجاهدين الذين واجهوها على 1،500 مجاهد، إلا أن الله عز وجل نصرهم على هذه القوات الاستعمارية التي انسحبت تجر أذيال الخيبة والهزيمة، لأن جيش التحرير تدرب على تفويته الفرص عليها.

وعلى إثر ذلك عقدت قيادة الولاية اجتماعاً عاماً في بونعمان يوم 11 نوفمبر 1958م برئاسة العقيد عميروش وتم فيه توزيع الأوسمة على المجاهدين، وأعطيت تعليمات لإعداد الملاجأئ والمخابأئ وتخزين المؤن والذخائر استعداداً للطوارأئ والظروف الصعبة المقبلة. وبعد ذلك أخذ القائد عميروش طريقه إلى تونس، مروراً بالولاية السادسة، حيث استشهد مع قائدها العقيد سي الحواس في جبل ثامر قرب بوسعادة يوم 29 مارس 1959م، فخلفه على رأس الولاية عبد الرحمن أوميرة بالنيابة إلى أن استشهد، فخلفه القائد محند أولحاج كعقيد بصفة رسمية، وكان العقيد عميروش قد استخلفه في غيابه بصفته رائداً للولاية[2].

3 . برنامج شال العسكري الضخم:

بعد أن استلم الجنرال ديغول الحكم على إثر 13 ماي 1958م بالجزائر، أحدث تغييرات هامة في قيادات الجيش الفرنسي العامل بالجزائر، وبمقتضاها عين الجنرال شال قائداً عاماً للقوات العسكرية في الجزائر خلال شهر ديسمبر 1958م خلفاً للجنرال الار، فعمل على تطوير أساليب عمل القوات العسكرية المجندة المحاربة للثورة، ووضع مشروعاً عسكرياً ضخماً حمل اسمه وهو مشروع شال، وشرع في تنفيذه ابتداءً من يوم 24 فيفري 1959م، واستهدف من ورائه تحقيق المكاسب التالية:

1 . غلق الحدود الشرقية والغربية بالأسلاك الشائكة المكهربة والألغام والمناطق المحرمة والمراكز العسكرية المكثفة، لعزل الثورة تماماً عن العالم الخارجي.

2 . إبادة جنود جيش التحرير واحتلال المناطق التي يتمركزون فيها.

3 . إقامة إدارة أخرى مخلصة لفرنسا بدلاً عن خلايا جبهة التحرير الوطني[3].

---

(1) الثورة في الولاية الثالثة التاريخية، د . يحيى بوعزيز ص 163 . 177.

(2) المصدر نفسه ص 179.

(3) المصدر نفسه ص 180.

4 . القضاء على المقاومة السرية لجبهة وجيش التحرير الوطني في أوساط الشعب وذلك بالوسائل التالية:
. المحافظة على مراكز التربيع واستعمال وحدات عسكرية خفيفة سريعة الحركة والتنقل لملاحقة الثوار.
. مواصلة المراقبة الدائمة والحازمة لملاحقة الثوار خارج الحدود.
. تكثيف عمليات الاستطلاع بسلاح الطيران والرقابة الدائمة ليلاً ونهاراً.
. تجنيد المزيد من فرق القوم والحركة والدفاع الذاتي في العمليات العسكرية لأنهم أعرف من غيرهم بالمخابأئ ومراكز الثوار وأنصارهم.
. القيام بعمليات عسكرية ضخمة تشترك فيها القوات البرية والجوية والبحرية، وتتمركز مدة طويلة في منطقة واحدة حتى تطهرها من الثوار ثم تنتقل إلى غيرها لتقوم بنفس العملية ونفس الأسلوب.
. احتلال تلك المناطق والتمركز فيها حتى يتم التأكد من انتهاء نشاط الثوار بصفة نهائية، وإنشاء فرق للفدائيين تتخصص في محاربة الثوار وملاحقتهم في كل مكان.
. تمكين الجيش الفرنسي من أسلحة وأساليب عصرية حديثة ومتطورة، وتوفيرها له بسخاء حتى يقوم بمهامه العسكرية على أحسن حال.
. الزيادة في أعداد القوات الفرنسية بالجزائر لتصل إلى مليون شخص وأكثر من ذلك، وستصل إلى مليوني رجل مع نهاية الثورة[1].

4 . مراحل المشروع:

وقد تم تنفيذ هذا المشروع العسكري الضخم حسب الكيفية والمراحل التالية:
. القيام بتطهير الهضاب العليا الغربية الوهرانية خلال شهر فيفري ومارس 1959م، وذلك في المنطقة المحصورة ما بين سعيدة جنوباً ومعسكر غرباً وفرندة وسعيدة شرقاً وحوض الشلف شمالاً.
. شن عملية الحزام على جبال الظهرة وزكار والونشريس والسرسو والتيطري والسفوح الغربية بهذه الجبال ما بين منتصف شهر أفريل ومنتصف شهر جوان 1959م.
. وخلال عملية الحزام هذه شنت القوات الفرنسية عمليتين مكملتين لها، واحدة على جبال عمور من أفلو شرقاً إلى جهات عين الصفرة، والثانية على جبال أولاد نايل وقسم من بلاد امزاب.
. شن عملية الشرارة على جبال الحضنة في بداية شهر جويلية 1959م، تمهيداً لعملية المجهر الضخمة والكبيرة والخطيرة في نفس الوقت.
. عملية المجهر على جبال جرجرة وحوض الصومام وجبال البيان، على شكل مثلث زاويته الجنوبية البويرة، وزاويته الشمالية الغربية دلس، وزاويته الشمالية الشرقية خليج بجاية، ودامت من 22 جويلية 1959م إلى مارس 1960م.

---

(1) المصدر نفسه ص 180.

. شن عملية الأحجار الكريمة على الشمال القسنطيني كله من خليج بجاية غرباً إلى عنابة شرقاً على الساحل، ومن بوقاعة غرباً إلى ميلة على الداخل، ودامت من نوفمبر 1959م إلى ماي 1960م(1).

5 . عملية المجهر:

تعد هذه العملية من أضخم العمليات العسكرية التي شنها الجيش الفرنسي ضد الثورة الجزائرية في منطقة القبائل بقسميها الكبرى والصغرى، على شكل مثلث زواياه الثلاثة خليج بجاية شرقاً، دلس غرباً، والبويرة وبني منصور جنوباً، ودامت قرابة ثمانية شهور من 22 جويلية 1959م إلى مارس 1960م، وجند فيها خمسة وسبعون ألف جندي من الأسلحة الثلاثة، البرية والجوية والبحرية، ومن اللفيف الأجنبي، وأربعة الاف سيارة عسكرية، وألفي دبابة مصفحة، ومئات من الطائرات المختلفة الأشكال والأحجام، وعشرات من البواخر والبوارج الحربية الراسية والمتنقلة بين دلس وبجاية.

وقبل أن يشرع الجنرال شال في هذه العملية العسكرية الضخمة ؛ مهد لها بشن عملية الشرارة على جبال الحضنة وحوضها الغربي التابع للولاية الأولى، كتعمية للثوار والمجاهدين بالولاية الثالثة حتى يبقوا في أماكنهم، ويلحق بهم كذلك ثوار ومجاهدو منطقة الحضنة ليطبق عليهم جميعاً هناك.

ففي أول يوم من شهر جويلية 1959م شنت القوات الفرنسية عمليات عسكرية واسعة على برج بوعريريج، والمسيلة، وبوسعادة، وحاصرتها بالطائرات والمصفحات وأنزلت الجنود في الربى وقمم الجبال والوهاد، ووضعت مراكز للتفتيش والمراقبة في كل مكان خاصة في الضلعة بين تيكستار وعين تاغروط والحمادية وبئر حمادي بين رأس الوادي وقلالة صالح بمزيتة.

وأخذت الطائرات المروحية والحوامات من هذه المراكز تنقل الجنود إلى الربى وقمم الجبال، وتنقل إليهم الأغذية والمؤون والذخائر الحربية، وتنقل المساجين إلى هناك لتسخيرهم في الأعمال الشاقة وتقديمهم إلى الموت والمخاطر قبل الجنود الفرنسيين(2).

وقد شملت عملية الشرارة هذه المنطقة المحصورة ما بين خط السكة الحديدية شمالاً وطريق بريكة والمسيلة وأولاد سلطان. وأحكم الحصار على السكان براً وجواً، ومكن الجنود من الات حديثة متطورة للاستكشاف والاستعلام، فاستعملوا الكلاب المدربة وشددوا على تفتيش القرى والمشاتي ومنعوا الناس من التنقل إلا برخص، ووضعت مراكز للمراقبة والتفتيش على كل طرق المنطقة، وسخرت عشرات من الطائرات للمراقبة والحراسة ليلاً ونهاراً، والقنبلة والتدمير، ودامت هذه العملية شهراً كاملاً من أول الشهر إلى يوم 28 منه وتم خلالها:

1 . إلقاء القبض على بعض المجاهدين والمسبلين.

2 . وحرق عدد من المراكز والمشاتي التي كان يتردد عليها المجاهدون.

3 . قتل عدد كبير من المجاهدين والمسبلين وحرق عدد من الغابات وإهلاك عدد من الحيوانات كذلك.

---

(1) المصدر نفسه ص 181.

(2) الثورة في الولاية الثالثة التاريخية ص 182.

وبعد ذلك انتقلت القوات الفرنسية إلى الولاية الثالثة لتنفيذ عملية المجهر الضخمة والتي هي لب مشروع شال برمّته.

أ . الشروع في تنفيذ عملية المجهر:

قاد هذه العلمية الجنرال شال بنفسه واتخذ قمة ثافيجوت بجبل أزرو نطهور «جبل الظهر» في شلاطة مقر القيادة، نظراً لموقعها الاستراتيجي الممتاز، المشرف على كل من القبائل الكبرى غرباً والصغرى شرقاً وحوض الصومام وخاصة جرجرة وثامغوط وأكفادو والبيبان وانطلقت يوم22 جويلية 1959م[1].

وتعاون مع شال الجنرال دولبير قائد ناحية سطيف والبرج وبوني، وشنوا عمليات عسكرية ضخمة على المناطق المذكورة، وركزوا جنود الرماة على قمم الجبال والربى والهضاب، ونصبوا المدافع البعيدة المدى إلى جانبهم، وتم حصار الطرقات الكبيرة والمسالك الهامة بأكثر من أربعة الاف سيارة ودبابة مصفحة، لمنع المجاهدين من الخروج والانسحاب إلى الأماكن الامنة، وقامت عشرات من فرق وكتائب المشاة بمحاصرة كل المدن والقرى لمنع أي اتصال بين جنود جيش التحرير والسكان المدنيين، وتفتيش كل المنازل والمشاتي والمغارات والمسارب بحثاً عن المجاهدين.

وزحفت القوات الاستعمارية على المنطقة واكتسحتها شبراً بشبر، وقرية بقرية، بجبالها وشعابها، ودمرت القرى وهتكت الأعراض والحرمات، وقتلت الناس بالجملة، واعتقلت بالجملة كذلك. وتمركز جنود البحرية على كل الربوات والقمم والهضاب والشعاب، وكلفوا بالحراسة والمراقبة الشديدة والمتواصلة ليلاً ونهاراً، وأعطيت لهم الأوامر بقتل كل من يشاهَد متحركاً حتى الحيوانات الأليفة التي هي دليل على وجود الحياة البشرية، وأعطي لكل جندي مجهر ليراقب به ويحرس ويكتشف، واستعملت حتى الأضواء الكاشفة ليلاً حتى يتعذر على المجاهدين الظهور والانتقال من مكان إلى اخر.

ب . الجنرال ديغول يزور المنطقة خلال العملية ويعلن عن سلم الشجعان:

وخلال إنجاز عملية المجهر هذه، زار الجنرال ديغول مدينة برج بوعريريج وذهب إلى قرية زمورة في قلب جبال البيبان يوم 28 جويلية 1959م وخطب هناك، ووجه نداءه المعروف بسلم الأبطال الشجعان للثوار، طالباً منهم تسليم أسلحتهم، ورفع العلم الأبيض، والاتجاه إلى أقرب مركز عسكري لهم، وقد استهدف الجنرال ديغول من زيارته لزمورة وتوجيه ندائه هذا ثلاثة أمور هامة في نظره طبعاً:

1 . إقناع العالم بأنه اقتحم جبال البيبان رغم كونها منطقة محرمة، وهذا يعني أن الثورة ضعفت، وأن جنود جيش التحرير على وشك الانتهاء والاختفاء بالقتل والموت جوعاً وبالاستسلام.

2 . اقترابه من مراكز الثورة الحساسة، وإسماع صوته للثوار بصفة مباشرة، حتى يستسلموا ويسلموا أسلحتهم وفق شعاره سلم الأبطال الشجعان.

---

(1) الثورة في الولاية الثالثة التاريخية، د . يحيى بوعزيز ص 183.

3 . تشجيع الخونة وأعداء الثورة من القوم والحركة والأعوان والأذناب الاخرين وطمأنتهم على مستقبلهم، وعلى قوة فرنسا وقدرتها على حمايتهم.

أما الجنرال شال فقد وجه نداء إلى المجاهدين خيّرهم فيه بين واحد من ثلاثة أمور:

1 . الاستسلام قبل فوات الأوان لمن أراد.

2 . أو الموت الجماعي المؤكد لهم.

3 . واعتبار من تبقى منهم مجانين، لأنهم لا يقدرون على مواجهة القوات الفرنسية.

ج . أهداف عملية المجهر:

لقد استهدف الجنرال شال من وراء هذه العملية الضخمة تحقيق الأمور التالية:

1 . اقتحام الولاية الثالثة وحصارها وعزلها تماماً عن كل الولايات الأخرى.

2 . اقتحام مقر قيادة الولاية الثالثة بأكفادو بونعمان.

3 . كشف مخابئهم وملاجئهم ومقراتهم وأماكن تواجدهم.

4 . تكثيف المراقبة العسكرية على كل مناطق الولاية لشل حركة ونشاط المجاهدين، وإرهاب السكان وعزلهم عنهم، وإيقاف مساعداتهم لهم.

5 . فرض حصار غذائي واقتصادي على كل السكان لتحطيم معنوياتهم وإرغامهم على التخلي عن الثوار وعدم تقديم أي عون أو مساعدة.

6 . إرضاء المتطرفين من العسكريين والمدنيين في الجزائر وفرنسا معاً، وإعطاء الدليل لهم على أن الجيش الفرنسي قادر على الأخذ بزمام المبادرة وإنقاذ الموقف(1).

د . الأساليب المتبعة في العملية:

وقد طبقت القوات الفرنسية خلال هذه العملية أساليب جهنمية وتفننت فيها، ومن ضمنها:

1 . تمشيط الولاية كلها تمشيطاً كاملاً وبكيفية حقودة وقاسية على مدى ثمانية أشهر، واتخذت ذلك نموذجاً لباقي العمليات التالية.

2 . تم حرق الغابات والحقول والبساتين وإتلاف كل المزروعات والمحاصيل في إطار أسلوب الأرض المحروقة، وتغوير ينابيع المياه كذلك.

3 . تم جمع السكان كلهم في مراكز احتشاد خاصة وضعت تحت الرقابة العسكرية المشددة لفصلهم عن الثوار المجاهدين بصفة نهائية وكاملة.

---

(1) المصدر السابق ص 184، 185.

4 . منع أي اتصال بين السكان في المراكز، وتحديد تحركاتهم وتنقلاتهم إلا برخص خاصة من الإدارة العسكرية الفرنسية.

5 . تم تكثيف عمليات التفتيش والاستنطاق والتعذيب والاعتقال والإبعاد بصورة متواصلة في إطار سياسة الإرهاب والتخويف والزجر.

6 . نظمت كتائب وفرق عسكرية متنقلة اعتمدت نظام وتكتيك جيش التحرير الوطني في السير والتنقل والحركة، وذلك لمضايقة جنود جيش التحرير في الجبال والغابات، استعمل فيها خاصة جنود الحركة والقوم.

هـ خطط جيش التحرير في مواجهة عملية المجهر:

إن عملية المجهر هذه ضخمة وخطيرة تسببت في مقتل واستشهاد حوالي ثمانية الاف مجاهد، ولكن جيش التحرير واجهها بصبر وشجاعة، واتخذ عدداً من الإجراءات من ضمنها:

1 . السير فرادى أو في أفواج صغيرة جداً ومنع تجمع المجاهدين في مكان واحد وبأعداد كبيرة.

2 . تجنب المواجهة مع العدو في المعارك والاعتماد على نصب الكمائن وتكثيفها.

3 . نصب الألغام والمتفجرات في الطرق والجسور التي تمر عليها القوات العسكرية الفرنسية لنسفها وعرقلة نشاط تلك القوات.

4 . الاعتماد على عنصر النساء في التموين والاتصال والعلاج ونقل الأخبار وذلك لضعف الشبهة فيهن، وقدرتهن على تلك الأعمال بعد أن دمج كل المسبلين في جيش التحرير.

5 . استغلال المزارع والقرى الواقعة بالسهول التي تخلت عنها القوات الفرنسية مؤقتاً وذلك لجلب المؤن منها، ونقلها إلى المخابأئ المعدة لذلك في المراكز الجبلية فور انسحاب القوات الفرنسية منها، وبذلك كان يتم يومياً تبادل المواقع بين جنود جيش التحرير وقوات الاحتلال، التي لم تشعر بذلك ولم تتفطن، وبالطبع كان يتم ذلك بواسطة الأعوان المجندين لصالح الثورة.

و . أسباب فشل عملية المجهر:

إن عملية المجهر رغم العدد الضخم الذي جند فيها من الجنود والأسلحة، ورغم الأساليب المتطورة التي طبقت خلالها ؛ إلا أنها انتهت إلى الفشل الذريع الذي لم يستطع الفرنسيون إخفاءه، ومرد ذلك يعود إلى عدد من الأسباب والعوامل، منها:

1 . انهيار معنويات الجنود الفرنسيين خاصة الضباط والإطارات منها بسبب طول أمدها.

2 . عدم جدوى مخطط شال العسكري رغم كل الإمكانيات التي حشدت فيه، وذلك لكونه بني على معلومات خاطئة بالنسبة للثورة وموقف الشعب منها.

3 . كانت معظم القوات الفرنسية التي استعملت فيها منهكة في العمليات السابقة بجنوب وهران والونشريس والحضنة وجبال عمور وأولاد نايل، ولم يكن بمقدورها أن تبذل جهوداً أخرى أكثر في هذه العملية.

4 . كان جيش التحرير مدرباً مسبقاً على مواجهة مثل هذه العمليات العسكرية الضخمة منذ بداية الثورة، ولم تكن هذه العملية شيئاً جديداً ومفاجئاً له، والشيء الجديد فقط هو كثرة العدد وطول المدة.

5 . كان جيش التحرير يتوفر على أجهزة استعلامات قوية ومحكمة سمحت له بالاطلاع على خطط العدو وباستمرار وعلى نواياه ومشاريعه وتحركاته، وكل ذلك مكّنه من المواجهة المطلوبة والتكيّف مع الأوضاع الجديدة بالكيفيات المناسبة والملائمة في الميدان.

6 . لم يكن الجيش الفرنسي يتوقع أن يجد أمامه فراغاً رهيباً في الميدان، حيث اختفت عناصر جيش التحرير والمسبلين، وفشل في القضاء النهائي عليها كما كان يأمل، وفاته زمام المبادرة والمفاجأة رغم ضخامة القوات والمعدات التي جندها للعملية.

7 . وقد أثبتت عملية المجهر هذه مدى ارتباط الشعب الجزائري بالثورة وتمسكه بالجهاد والمقاومة، وتفانيه في دعم المجاهدين والمسبلين مادياً وبشرياً وروحياً بشكل لا نظير له، يعتبر إحدى معجزات هذه الثورة المباركة. وأثبتت كذلك مدى حرص الشعب على ضرورة استرجاع حريته وانتزاع استقلاله الوطني، وطرد الغزاة المعتدين مهما تكن التضحيات التي سيقدمها[1].

6 . مراكز التجمع والاحتشاد:

كان لفشل مشروع شال العسكري الضخم أثره السيء والكبير على فرنسا سياسياً وعسكرياً وداخلياً، وأخذ ديغول يصعّد مناوراته ومخططاته العسكرية الجهنمية، وأخذ الجيش الفرنسي يعمد إلى تطبيق سياسة عزل الشعب عن الثورة، ومنع المجاهدين من التزود بالمؤن والأغذية والأدوية والمعلومات والأخبار عن تحركاته.

وفي إطار هذه السياسة مارس الجيش الفرنسي أسلوب تجويع الثوار، وإرغامهم على الاستسلام أو الموت جوعاً، وتهجير السكان من قراهم ومداشرهم ومشاتيهم في الأرياف والسهول والجبال وحشدهم في مراكز ومحتشدات خاصة أعدت خصيصاً لذلك، وأحيطت بالأسلاك الشائكة ومراكز المراقبة والحراسة الشديدة ليلاً ونهاراً.

وقد بلغ عدد هذه المحتشدات في الجزائر كلها 250 مركزاً ومحتشداً، بينها عدد كبير في الولاية الثالثة وحدها، وبدأ أسلوب إقامة المحتشدات منذ عام 1956م، ولكن تم التوسيع في إقامتها بعد عام 1958م ووصلت إلى القمة عام 1961م، وبلغ عدد السكان المهجرين إلى هذه المحتشدات أكثر من ثلاثة ملايين شخص، وهو ما يقدر بأكثر من ثلث سكان البلاد كلها، والنسبة الكبيرة منهم في هذه الولاية ذات الطابع الجبلي الشائك والمعقد التضاريس، وسلط عليهم القهر، والبؤس، والعري، والإهانة، والخصاصة، والأمراض والتعذيب.

---

(1) المصدر السابق ص 189.

ومارس الضباط العسكريون وضباط المصالح الخاصة عليهم مختلف ألوان التعذيب والتحقير والإهانة والقتل والتشريد، وفي بعض الأحيان يظهرون للبعض منهم الرأفة والرحمة والعناية الصحية والغذائية لاستمالتهم واستخدامهم في مصالحهم الخاصة، وعاش السكان ظروفاً صعبة وقاسية على مدى سنوات الثورة كلها.

ومع ذلك فإن هذا الأسلوب لم يفد في تحطيم الثورة وإضعافها، لأن السكان المهجرين واصلوا دعمهم لها داخل هذه المحتشدات، وكونوا الخلايا لجمع الأموال ونقل الأخبار والأسلحة والذخائر وحطموا هذا الحصار الجهنمي واخترقوه، ونجحوا في تجنيد عملائهم حتى داخل المتعاونين مع القوات الفرنسية من الحركة والقوم، الذين جندوا للقيام بمهام المراقبة والحراسة لهذه المحتشدات، فأخذوا يزودون الثورة بالأخبار والمعلومات عن تحركات القوات الفرنسية وبالأدوية والأغذية والألبسة والذخائر والاشتراكات المالية.

7 . إقامة المناطق المحرمة:

وبعد تهجير السكان من قراهم ومداشرهم، أعلنت تلك المناطق محرمة لخنق الثورة، خاصة المناطق التي تعتبر قلاعاً ومراكز حصينة في جرجرة، وحوض الصومام، وغيرها بالنسبة للولاية الثالثة، وباشر الطيران الفرنسي قنبلة القرى والمداشر وتهديمها بالقذف بالقنابل الضخمة التي تزن الأطنان وبالمدافع البرية في المراكز العسكرية المجاورة لتلك المناطق المحرمة، وعن طريق البواخر من البحر بالنسبة للقرى الساحلية القريبة من البحر أو المجاورة له، وواصلت القوات البرية المتنقلة ـ خاصة فرق القوم والحركة ـ حرق القرى وإتلاف المزروعات وتخريب الحقول والبساتين، وتلغيم البعض منها حتى لا يتاح لجنود جيش التحرير والمسبلين أن يعتصموا بها أو يلجؤوا إليها عند الضرورة عندما تداهمهم الطوارئ وتباغتهم القوات الفرنسية، كل هذا تطبيقاً لسياسة الحصار والتجويع.

8 . المصالح الإدارية الخاصة S.A.S :

ومع سياسة مراكز الاحتشاد والمناطق المحرمة، أنشأت القوات الفرنسية المصالح الإدارية الخاصة، التي تعارف الناس على ذكرها باسمها المختصر الصاص « S.A.S »، من أجل محاربة الثورة بوسائل إدارية ونفسية بسيكولوجية، ولكسب أفراد الشعب وثقة المواطنين جنباً إلى جنب مع العمل العسكري.

ولذلك كان كل مركز عسكري مقروناً بمركز أو مصلحة إدارية خاصة بجانبه، يقودها ضباط متخصصون يتظاهرون بالمعاملة الإنسانية الحسنة والشفقة والإحسان والرأفة، وبمساعدة المواطنين والعمل على تخليصهم من العقوبات والعذاب المسلط عليهم، ويفتعلون البشاشة وحسن الاستقبال للمقبوض عليهم، والمسجونين، والمعوقين، ولكل المواطنين بصفة عامة، على أمل الحصول على ثقتهم كوسيلة للحصول منهم على المعلومات المطلوبة عن الثورة ورجالها[1].

وفي أغلب الأحيان تتولى هذه المصالح المختصة توزيع المواد الغذائية على المحتاجين والراغبين في الحصول عليها لكسب ثقتهم واستمالتهم إليهم، واستعمالهم في الأغراض التي تخدم مصالح القوات الفرنسية ضد الثورة وذلك

(1) المصدر السابق ص 190 . 191.

بطريقة ذكية وماكرة، وعندما تتأكد من ثقتهم هذه تطلب منهم قطع الصلة بالثوار وعدم التعامل معهم، ومساعدة القوات الفرنسية على محاربتهم والقضاء عليهم.
ومع ذلك فإن المواطنين لم ينخدعوا بهذه السياسة الاستعمارية وتفطنوا لها، ولما تبيته هذه المصالح الإدارية الخاصة لهم، فأفشلوا سياسة ضباطها الماكرين ولم ينجحوا إلا نجاحاً محدوداً جداً، وفي بعض المناطق دون أخرى، وهو الأمر الذي دفعهم إلى تجنيد القوم والحركة من المدنيين وتكوين فرق خاصة منهم، مكّنوها من النيل منهم بصورة بشعة ودنيئة ورخيصة.

9 . تكوين فرق الحركة والقوم:

بدأ تكوين فرق القوم والحركة منذ بداية الثورة من الجزائريين، وتم التوسع فيها بعد مجيء الجنرال ديغول إلى الحكم عام 1958م، ولا يختلفون عن القوم والصبايحية في القرن الماضي، كذلك بالنسبة لطبيعة مهامهم ضمن القوات الفرنسية، وقد تضاعف عددهم وتعددت مهامهم ضمن القوات الفرنسية، وتحملوا مسؤولية التنكيل بالشعب وارتكاب أبشع الجرائم ضده بأمر من أسيادهم الاستعماريين.
فكانوا يقتحمون القرى والمنازل على غفلة من أهلها في الليل والنهار، ويعتدون على حرمات النساء والبنات ويهتكون أعراضهن، ويحرقون المنازل والقرى ويسلبون وينهبون كل ما يجدونه ويقدرون عليه من الحلي والأمتعة والألبسة والأغذية ويتلفون الباقي ويفسدونه، ويقتلون الحيونات الزائدة عن حاجتهم، ويقتلون الناس بالجملة، ويعتقلون من شاؤوا، ويعذبون الشيوخ الكبار والأطفال الصغار والنساء، ويغررون بالمواطنين فيتظاهرون في زي المجاهدين ويطلبون المأوى والغذاء والمعلومات المطلوبة، ثم يكشفون عن حقيقتهم بعد أن يتوصلوا إلى ما يريدون، ويقومون بتعذيبهم وعقابهم بمختلف الوسائل والبطش بهم، ومصادرة أملاكهم وثرواتهم وأمتعتهم وسَوقهم إلى مراكز القوات الفرنسية.
ولذلك احتقرهم الشعب وتصدت الثورة لمحاربتهم وتصفية الغلاة منهم، وكلفت من يتربص بهم لتصفيتهم في كل مكان من الريف والمدينة، بالأسواق والشوارع والأزقة والثكنات وفي مختلف المناسبات، فقلّ نشاطهم، وأصبحوا عالة على القوات الفرنسية ابتداءً من عام 1961م ولا يخرجون إلا معها وفي حمايتها، ولا يمارسون مهامهم إلا بدعمها، ونال الكثير منهم جزاءهم خلال الثورة، وبعدها فر الكثير منهم إلى فرنسا مع القوات الفرنسية الراحلة، ويعانون هناك الحياة العنصرية من طرف الشعب الفرنسي الذي يحتقرهم ويذلهم ولا يرعى حرمتهم ولا يقدر خدماتهم له.

10 . فرق الدفاع الذاتي:

ومع فشل سياسة فرق الصاص والحركة والقوم ؛ عمدت القوات الفرنسية إلى إنشاء وتطبيق أسلوب الدفاع الذاتي AUTO DEFENSE للمواطنين بعد تسليحهم، وجعل المواطنين الاخرين ينظرون إليهم نظرة الريبة واعتبارهم محاربين ضد الثورة والثوار إلى جانب القوات الفرنسية، وقد روجت وسائل الإعلام الفرنسية

لهذا الأسلوب من الدفاع الذاتي وشخصته على أنه دفاع ضد القتلة والمجرمين والخارجين عن القانون، والمعتمدين على أبناء جلدتهم الذين طلبوا بإرادتهم الأسلحة من الجيش الفرنسي لمحاربتهم وقتالهم في إطار الدفاع الذاتي[1].

ولكن هذا الأسلوب أيضاً لم ينفع ولم يقدم أية نتيجة، لأن الكثير من عناصر قوة الدفاع الذاتي تحولوا إلى خدمة الثورة دون أن يشعر العدو بذلك.

11 . سياسة الحصار الغذائي والتجويع:

طبق الاستعمار الفرنسي هذه السياسة لخنق الثورة، وتوسع فيها عن طريق تقسيط المواد الغذائية وفرض حصار غذائي شديد على المواطنين حتى لا يزودوا المجاهدين بالمؤن، وعمل على ربط الشعب به بواسطة اتصاله الدائم بالإدارة الفرنسية للحصول على احتياجاته الغذائية، ولاستمالة البعض من الناس تدريجياً للتعامل معه، والانفصال عن الثورة والمجاهدين.

وفي إطار هذه السياسة ركز الاستعمار الفرنسي جيشه في الأماكن الاستراتيجية، لمراقبة جميع تحركات ونشاطات المجاهدين وأفراد الشعب، وقام بعمليات مسح وتمشيط للسهول والجبال والغابات والقرى والمداشر والمباني والمنازل، ودمر كل ما له صلة بالثورة من بشر ونبات وحيوان وعقار، وسمم ينابيع المياه والابار وأشجار الفواكه والخضر في الحقول والبساتين، لتقتل كل من يأكلها ويشربها من الثوار وأنصارهم، وأتلف كل ما يمكن أن يعتبر مصدراً للغذاء.

وقد حددت الإدارة الاستعمارية الكميات التي ينبغي أن يزود بها كل سوق من المواد الغذائية، بصورة شحيحة ومقترة لا نظير لها إلا في سنوات المجاعات الحادة، ومنها سنوات الحرب العالمية الثانية التي أكل الناس فيها جذور تار الغدى وغيرها من الحشائش.

وواجه الجزائريون والشعب في الولاية الثالثة كما في غيرها سياسة التجويع هذه بالمزيد من الصبر والتحمل لا نظير لها كذلك، واعتمد على الحشائش الطبيعية والأعشاب والثمار كالبلوط والخروب والزعرور والحيونات البرية والتين والزيتون وأسيسنو والعناب وغيرها، وتمكن من اجتياز الأزمة وإفشال هذه السياسة الاستعمارية، وأبدى الأثرياء تضامناً لا يقدّر مع القاعدة الشعبية في هذه المعاناة.

وعندما أقدمت قيادة الولاية الرابعة على إرسال وفد إلى الإليزي، لمقابلة الجنرال ديغول والتفاوض معه في إطار سلم الشجعان الذي أعلنه في زمورة يوم 28 جويلية 1959م دون علم جبهة التحرير الوطني في الخارج، واشترط ديغول ضرورة اشتراك باقي الولايات خاصة الثالثة.

ورفضت قيادة الولاية الثالثة ذلك بشدة إلا في إطار الاعتراف بالاستقلال التام ووحدة التراب وتقرير المصير بقيادة جبهة التحرير الوطني الممثل الشرعي والوحيد للشعب الجزائري، وقامت هذه القيادة بإخبار باقي الولايات وإطلاعها بالأمر، فبالغت القوات الفرنسية في الضغط على الولاية جزاء على موقفها المبدئي،

(1) المصدر السابق ص 192، 193.

وتعرضت لخسائر فادحة مادية وبشرية، لكنها صبرت حتى لا يتم التفريق بين الداخل والخارج وبين الولايات فيما بينها.

12 . أسلوب ضباط العمل البسيكولوجي:

جندت القوات الفرنسية ضباطاً متخصصين في العمل البسيكولوجي، واستعملتهم لفصل الشعب عن الثورة والمجاهدين، وذلك بوسائل متنوعة أهمها:

1 . المصالح الإدارية الخاصة التي تدعى بالصاص، والتي تأسست عام 1956م وتم التوسع فيها منذ عام 1957م، وازدادت أهميتها في عهد الجنرال ديغول وضباط المصالح الخاصة من خريجي المدارس المتخصصة في فنون الدعاية وغسل الأمخاخ، وانتشرت في مختلف أنحاء البلاد خاصة الولاية الثالثة بقسميها الشرقي والغربي، حيث كثافة السكان عالية جداً والمظاهر التضاريسية معقدة وحماس الشعب لا حدّ له[1].

وعندما لا يوجد ضباط متخصصون من هذا النوع يتولى ضباط الثكنات والمراكز العسكرية مهمتهم، ويستعملون جنود الحركة والقوم في الاتصال بالشعب، والترجمة والاستجواب والحراسة وما إلى ذلك من المصالح.

2 . إحصاء الشبان واستدعاؤهم للخدمة العسكرية الإجبارية حتى لا يلتحقوا بصفوف الثورة.

3 . وضع بطاقة إحصائية لكل السكان ومتابعة تحركاتهم بالمراقبة والتفتيش والاستعلام والاستدعاء.

4 . وضع بطاقة خاصة لكل الشبان الذين تتجاوز أعمارهم سن 14 سنة لإحكام الرقابة عليهم وعلى أنشطتهم وأماكن تواجدهم.

5 . إصدار رخص الخروج وفرض الرقابة المشددة على الدخول كذلك.

6 . إصدار بطاقات التموين ومراقبة الشعب في استخدام تلك المؤن بوسائل العملاء، تحت إشراف ضباط المصالح الإدارية الخاصة نفسها والمشرفة على التوزيع.

7 . إصدار بطاقات خاصة لعملائهم ورعايتهم لهم وعنايتهم بهم.

8 . القيام بمهام الحالة المدنية.

9 . ترقيم المنازل والبيوت والمساكن، واستدعاء أصحاب الحوالات والطرود البريدية لاستفسارهم والاستعلام عن مصادرها وأوجه صرفها، وحجز تلك الحوالات لديها وتجزئة صرفها لهم شهرياً حسب عدد أفراد العائلة.

10 . القيام بحملات دعائية مسمومة لكسب المواطنين، ومحاولة إقناعهم بأن جيش التحرير الوطني إنما يريد بهم إضراراً وليس نفعاً.

11 . ربط وتوزيع التموين ووسائل العيش بتقديم المعلومات عن المجاهدين والمسبلين والثورة.

12 . السهر الدائم على تنشيط الإذاعات المحلية المجندة ضد الثورة ودعم وسائلها ودعايتها وترويج أخبارها ومنها: صوت البلاد.

---

(1) المصدر السابق ص 194، 195.

13 . استنطاق المعتقلين والموقوفين في المحتشدات والسجون والمعتقلات وإجراء حوارات معهم للتمكن من إضعاف معنوياتهم وغسل أمخاخهم.

وقد واجهت الثورة أساليب هؤلاء الضباط كما واجهت الأساليب والخطط الأخرى، وأفشلت وأشلت العمل البسيكولوجي الذي اعتمدوا عليه، واستعملت الرشاوي وباقي المغريات المادية والمعنوية للحصول على المعلومات المطلوبة من بعض المعمرين، ورجال الاستخبارات الفرنسية، وأذنابها من الجزائريين في صفوف الحركة والقوم والدفاع الذاتي،والموظفين في البلديات والدواوير والمصالح الإدارية المختلفة.

وبذلك افتضحت دعاية الإذاعة والتلفزة وصوت البلاد والمنشورات والجرائد وشعارات الجدران في الأماكن العامة والأسواق وفي الساحات العامة للقرى والمداشر والدواوير.

13 . وسائل التعذيب ومراكزها:

لقد تفنن الاستعمار الفرنسي في تعذيب الجزائريين طوال سنوات الثورة السبعة والنصف، وارتكب ما عجزت عنه مصالح الغستابو النازية الألمانية وليس من السهل الإحاطة بها، ولذلك نقدم عينة منها تمثل نموذجاً من جهة، وقطرة من بحر من جهة أخرى، على مستوى الجزائر كلها في الولاية الثالثة بالذات.

ومن ضمن مراكز التعذيب فيها: مجانة، ثنية الخميس، بوني، الكانطيلة، أولاد خليفة، تفرق، إلماين، أولاد سيدي إذير، ثاموقرة، أورير، أوعمولي، بني حافظ، بني ورتلان، اقبو، فريجة، بني وغليس، أوقاس، ثكنة بني ورتلان، أمالو، ملعب اقبو، تيشي، أزفون، تقزيرت، واد عيسى، زموري، قالوطة،كورتسي تيزي نصليب، قيندوز، دار خيوطي، ثاله نتسكرين المايدة، تروني، أيفوغالين، موزاية، توجه، اعقار، ايثوغليس، واد اميزور، تورنو، زياتين بوحلو، مزرعة ميشال، مزرعة رال ايمشدالني، أهل القصر، الشرفة، واد اخريص، بني منصور، حيزر، صهاريج، الهاشمية، سور الغزلان، وغيرها.

ومعظم الذين يساقون إلى هذه المراكز يخرجون منها إلى القبور الجماعية مباشرة، والأقلية الناجية يعودون إلى منازلهم مشوهين ومعطوبين ومعوقين جسدياً وعقلياً، وذلك بسبب قساوة وسائل التعذيب التي تطبق عليهم ومنها:

الكي بالنار . تسليط التيار الكهربائي على أجزاء الجسم الحساسة، وباقي الأعضاء الأخرى . والغطس في المياه العفنة ومياه الصابون وإرغام المعذبين على شربها، وإطلاق الكلاب على المساجين لنهشهم، ودق المسامير في الأجسام، وسلخ جلود الأحياء وطليها بالأملاح، وخلع الأظافر والأسنان بالكلاليب، ونزع الأصابع والأذان والنهود، والأعضاء التناسلية بالأمواس والسكاكين، وحرق الجفون بالنار وفقء العيون، وحرق شعر الرأس والجسم، وإجلاس الناس على رؤوس الزجاجات المكسرة والمسامير، وجرهم على أرضية مشوكة بالمسامير، وطلي الجسم بالزفت الحار، وهتك أعراض النساء، واغتصاب شرف الفتيات بحضور الأزواج والاباء والأخوة والأخوات والأقارب، والضرب بالسياط والعصي حتى الموت أو فقد الوعي، والرفس بالأرجل، وإدخال مقابض

الفؤوس والعصي والزجاجات في الأدبار، وغطس الرؤوس في المياه العفنة، وإدخال خراطيم المياه في الأفواه، وإرغام المعذبين على الشرب حتى تمتلأئ البطون وتخرج من جميع المخارج، وربط المعذبين إلى سيارتين في اتجاهين معاكسين ليقطعوا أنصافاً وأطرافاً، وإرغام الكثيرين على حفر قبورهم ودفن أنفسهم إلى الرقبة أحياء، وكنس الساحات العمومية والطرقات بالألسن، والزج بالعشرات في الابار، وغلقها عليهم حتى الموت، وحشد عدد كبير في أقبية وملئها بالماء وتركها حتى تتعفن أجسامهم، وتعلّق البعض على النار، وبقر بطون الحوامل، وإرغام الأسرى على الأكل وشرب المواد السامة، والقتل الجماعي لسكان القرى والمشاتي والدواوير، بعد التعذيب والتنكيل والدفن في مقابر جماعية بالعشرات والمئات بل والالاف، وترك الكثير منهم في العراء للوحوش الضارية، ورمي الناس في الحفر والخنادق الكبيرة وقيام الجنود الفرنسيين بالتبول عليهم، والتخلص من فضلاتهم عليهم كذلك أسابيع وشهوراً، هكذا مما لا يمكن للإنسان أن يحصره ويعدّه بما في ذلك رمي الأسرى من الطائرات الحوامة ليسقطوا على الأرض قتلى ومهشمي الأجسام.

14 . بعض النماذج من أشكال التعذيب:

في عام 1957م انتهك ستون جندياً فرنسياً حرمة وشرف فتاة في سن السابعة عشرة، هذا وراء الاخر في قرية أبويعلى ببلدية ايت خليلي في أربعاء نايت ايراثن، وذبحوا سبعة عشر شيخاً مسناً على شكل نحر الجمال.

. وفيما بين 23 و26 جويلية 1957م قام العساكر الفرنسيون بذبح سبعة وعشرين مدنياً في قرية يلولة «ايليلاتن».

. وفي نفس العام قام الجنود الفرنسيون بقتل عدد من الرجال وقطعوا أعضاء تناسلهم «ذكورهم» ووضعوها في أفواههم وتركوهم في العراء.

. وفي عام 1960 ذبح العساكر الفرنسيون ستة وعشرين مدنياً بقرية ايت أيسلي قرب تقزيرت.

. قام بعض العساكر الفرنسيين بهتك شرف أم أمام أبنائها، وأمروا شيخاً بنزع لباسه فرفض، وقاموا بنزع لباسه بالقوة ورموه على فتاة عارية على شكل وضع للعملية الجنسية، وقام أحد الجنود بفض بكارة البنت بأصابعه واتهم الشيخ بفض بكارتها وألصق التهمة به.

. قام عدد من الجنود في إحدى قرى الولاية الثالثة بفض بكارة عدد من الفتيات على مرأى من سكان القرية كلهم رجالاً ونساء وشيوخاً وشباباً.

. جمع الجنود الفرنسيون في إحدى قرى ايعكرون نساء المجاهدين وأودعوهن السجن مع حرمانهن من الأكل والشرب ثلاثة وثلاثين يوماً، حتى اضطررن أن يشربن ماء بولهن ويقسمنه على بعضهن، وفي كل ليلة يتعدى الجنود على شرف إحداهن(1).

---

(1) المصدر السابق 196، 197، 199.

. قام الجنود الفرنسيون في ضيعة المعمر طورنو بأوقاس شرق بجاية باستعمال صهاريج الخمر في تعذيب الرجال، فيفرغونها تماماً من الأكسجين ويملؤونها بالمساجين ويغلقونها عليهم حتى يحترقوا ويموتوا ثم يخرجونهم ويعوضونهم باخرين وهكذا.

. وفي قرية أولاد سيدي عمر ببلدية ثنية الخميس «ثنية النصر» وخلال شهر مارس 1957م جمع الجنود الفرنسيون كل رجال القرية ليلاً، وأمروهم بحفر خندق كبير ثم أعدموهم فيه واحداً وراء الاخر، وعددهم اثنان وأربعون رجلاً وذلك بحضور زوجاتهم وأطفالهم.

. وفي قرية المعاتقة جمع جنود العدو أكثر من مائتي شاب، وأمروهم بحفر خندق كبير ثم اختاروا منهم أحد عشر ورموهم داخله، وأرغموا الباقي على ردم الخندق بالتراب عليهم وهم أحياء حتى ماتوا.

. وفي قرية مشتراس قام العدو بجمع أخ مع أخته في ساحة عمومية وكان الأخ يعمل في مصلحة الدفاع الذاتي والأخت تعمل لصالح الثورة واستغلت أخاها في الحصول على المعلومات، وأرغم الجنود الفرنسيون البنت على نزع ثيابها وأرغموا أخاها على نكاحها أمام الجميع، واضطرت البنت أن تغادر القرية إلى العاصمة واختفت بصفة نهائية.

15 . مراكز التعذيب في القسمات: 2 و3 و4 الناحية 5 . المنطقة 1 . الولاية 3:

في ثاسامرث: بني لعلام، العسة.

في أولاد دحمان: طكوكة، أولاد دحمان.

في حسناوة: الشرشار، حسناوة.

في إلماين: إلماين، أولاد سيدي إذير.

في الجعافرة: الكانطية.

في تفرق: أولاد خليفة، تفرق.

في القلة: ثازالامت.

في ثنية الخميس: الفرقة، أدماع.

في مجانة: عين السلطان، مجانة.

في عين تاسرة: صدراتة، عين تسرة.

في بن داود: لباشيش، حنانتة، بن داود، الحرش.

في سيدي ابراهيم: تزمرت، منول، باشغة.

في المهير: سلاطنة، لمهير.

في المنصورة: الربيعية، المنصورة، عين الدفلة.

16 . مراكز التعذيب في القسمة 4، الناحية 4، المنطقة 1 . ولاية 3:

في زمورة: زمورة.

في خليل: الشفة، خليل، الخربة، شعبة الخولة.

في عين تاغروط: عين تاغروط.

في سيدي مبارك: سيدي مبارك.

في بني حافظ: بعد التعذيب يلقى في حفرة . مطمورة ليموت بالاختناق.

17. مراكز التعذيب في القسمتين 3 و4 الناحية 1. المنطقة 2. ولاية 3:

في القصور: القصور، الحامة، ثوبو، تازروت، أوراسن، أولاد بوبحريز.

18 . مراكز التعذيب في القسمتين 3 و4 الناحية 3 . منطقة 1 . ولاية 1:

في رأس الوادي: رأس الوادي، بئر حمودي، طمولة.

في أولاد إبراهيم: شعبة العون، بوخداش، سيدي عبد الله.

في تيكستار: أولاد مورسلي، بير الكرمة.

في برج الغدير: برج الغدير، أولاد مخلوف، الدشرة، أولاد سليني.

في غيلاسة: غيلاسة، أولاد سيدي أحسن.

في أولاد حناش: أولاد حناش.

في بليمور: عياضات، بليمور.

في الحمادية: الحمادية، الواد لخضر.

في الرابطة: الرابطة، أولاد عيسى، أم الديسة، العكريشة.

في العش: المطاوشة، غافستان، المخازن، أولاد حامة، المجاز.

19 . مراكز العدو بالولاية 3 . المنطقة 1 . الناحية 4 . القسمة 3 و4

زمورة: زمورة.

خليل: خليل، الشفاء، الخربة، شعبة الغولة.

عين تاغروت: عين تاغروت.

سيدي مبارك: سيدي مبارك.

20 . مراكز العدو بالولاية 3 . المنطقة 2 . الناحية 1 . القسمة 3 و4

القصور: القصور، الحامة، توبو، تازورت، أوراسن، أولاد بوحريز.

21 . مراكز العدو بالولاية 3 . المنطقة 1 . الناحية 4 . القسمة 3 و4

تسامرت: بني لعلام، العسة.

أولاد دحمان: طاكوكة، أولاد دحمان.

حسناوة: حسناوة، الشرشار.

إلماين: إلماين، سيدي إدير.

تفرق: تفرق.

الجعافرة: الجعافرة.

ثنية النصر: الفرقة، أدماغ.

القلة: تازالامت.

مجانة: مجانة، عين السلطان.

عين تسرة: عين تسرة، صدراته.

بن داود: لباشش، حنانته، بن داود، الحراش.

سيدي إبراهيم: تزمرت، منول باشغة.

المهير: المهير، سلاطنة.

المنصورة: المنصورة، الربيعية، عين الدفلة[1].

وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

وقد فصّل خميسي سعدي في كتابه «معتقل الجرف بالمسيل أثناء الثورة التحريرية» في أنواع المعتقلات ووسائل التعذيب لمن أراد التوسع في هذا الموضوع.

إن ما لاقاه الشعب الجزائري خلال الاحتلال وخلال ثورته المجيدة من أنواع الظلم والقهر، ومن أنواع التنكيل والتعذيب ؛ هو الذي سيظل عزيمة فولاذية في الأعماق، وقوة موحدة وطاقة دافعة، وقيم راسخة تنفر من كل ما يمس بكرامة الوطن وينال من سيادته واستقلاله.

ولاشك أن الإيمان بالله القوي العزيز ثم الوطنية الصادقة، والوفاء لثوابت الأمة، هو الذي جعل أبطال ثورة التحرير رجالاً ونساء، شيوخاً وشباناً، يستميتون في مجالات التضحية والإيثار والفداء، وجعل الشعب الجزائري بمختلف فئاته يصمد أمام فظاعة التعذيب، فإن هذه المعاني وهذه القيم أيضاً جعلت من تاريخ الثورة الجزائرية كنزاً ومنهجاً للبطولات والمواقف التي تضاهي بها الشعوب والأمم في مجال النضال والكفاح من أجل الحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية، ومن الكتب التي دونت وقائع التعذيب بشهادات أصحابها والمعاصرين للأحداث مع الصور الوثائقية كتاب: من بطولات المرأة الجزائرية في الثورة وجرائم الاستعمار الفرنسي للدكتور

(1) الثورة في الولاية الثالثة ص 201 . 204.

محمد قنطاري الذي تميز بالحقائق والوثائق والدراسات والتحقيقات والشهادات على جرائم المستعمر البغيض عدو الإنسانية والحرية وحقوق الإنسان.

إن هذا الكتاب في مستوى حدث الثورة الجزائرية وملحمات بطلاتها، كالمجاهدة خليف فاطمة الشهيدة التي لم تمت وغيرها من أخواتها المجاهدات.

فهذا الكتاب في واقع أمره وأبعاده العميقة، كتاب قيم وصورة عن التعذيب ناطقة معبرة وصفحة سوداء معتمة مخزية من جرائم فرنسا في الجزائر، ويمكن إيجاز خصائصه ومميزاته وأبعاده بما يلي:

. يصور أبلغ تصوير وحشية المستعمرين وحقدهم على الجزائريين.

. يختصر خصائص الشعب الجزائري في النضال والمقاومة وحب الحرية، كما يصور رغبته الملحة في الحرية والاستقلال.

. يصور فساد الفطرة والأخلاق ونذالة النفوس وخسة الطبائع عند المستعمر الفرنسي.

. يعكس بوضوح ضعف المستعمر، الذي يمارس التعذيب لأنه وجد نفسه أمام قوة قاهرة، فهو من هنا يحاول أن يحطمها بقوة الإذلال والإجرام والظلم، ولكن أنى له ذلك؟

. يصور بطولة المرأة الجزائرية في هذه المرأة فاطمة خليف التي جاهدت وقاومت وعذبت أفظع تعذيب وقطعت يداها، ومع ذلك لم تهن ولم تضعف وتشتكي، وهان عليها كل ذلك كما هان عليها أن تعيش بلا يدين وتقاسي من جراء ذلك حياة صعبة للغاية، لا يدركها إلا من يعيش بلا يدين.

. يعرض صوراً فظيعة للتعذيب الوحشي تنخلع منها القلوب، وترتاع منها النفوس، وتلبس الطبيعة من جرائها ثوب الحداد.

هذه بعض اثار تلك الصور في نفس من يراها، وكيف بأثرها في نفس من عاشها؟

. الكتاب باختصار صورة معبرة صادقة للبطولة والتعذيب في أقصى حدودهما وأبلغ دلالتهما في الجزائر خلال ثورة التحرير[1]

* * *

(1) من بطولات المرأة الجزائرية في الثورة ص 229.

تاسعاً: وسائل الثورة لمواجهة السياسة الاستعمارية

لقد كانت السياسة الاستعمارية التي طبقها واتبعها جيش الاحتلال في الولاية الثالثة، كما في غيرها قاسية جداً وطاغية وشرسة ومدمرة، ولكن قادة جيش وجبهة التحرير الوطني أساساً والشعب الجزائري بصفة عامة، كانوا أكثر قدرة ونجاعة في المواجهة والتحدي، فتصدوا لمحاربته ومقاومة كل خططه العسكرية والسياسية والبسيكولوجية والاجتماعية والتنظيمية والأمنية والإعلامية والمخابراتية وغيرها، بكيفية جدّ ناجعة.

فمن ناحية التنظيم العام أشرنا وذكرنا سابقاً كيف تم تقسيم الولاية إلى أربع مناطق، وكل منطقة إلى نواحي وكل ناحية إلى أقسام أو قسمات. واستحدث جهاز تنظيمي محكم عسكري وسياسي على مستوى هذه المناطق والنواحي والأقسام، أوكل إليه تسيير شؤون الثورة والإشراف على كل أعمالها ومنجزاتها وتوجهاتها، وأثبت هذا الجهاز نجاعته في الميدان، وأفشل كل أساليب جيش الاحتلال وإداراته الاستعمارية على مدى سنوات الثورة كلها[1].

1 . من الناحية العسكرية:

اعتمد جيش التحرير الوطني أسلوب حرب العصابات والكر والفر والغارات الخاطفة المدروسة في مجموعات صغيرة وخفيفة وسريعة، وحسب الظروف والمواقع والأزمنة والأمكنة والمستجدات التي تضمن له في أغلب الأحيان التفوق والانتصار، وتجنبه كثرة الضحايا والخسائر، ومن أهم الميزات التي كانت تضمن له دوماً الانتصارات معرفته الجيدة للأرض والطبيعة وتلاحمه مع الشعب الذي يدعمه ويمده بكل الامكانيات المطلوبة مادياً وأدبياً وإعلامياً، وتواصل هذا الدعم إلى أن تحقق الانتصار الأكبر في صيف عام 1962م[2].

إن العمليات التي قامت بها جبهة التحرير الوطني في المدن وجيش التحرير الوطني في الجبال والأرياف أخذت عدّة أشكال، ولكن لها هدفاً واحداً وهو مناوشة مراكز العدو والهجوم على مواقعه وتخريب منشاته الاقتصادية، في الوقت نفسه كانت العمليات تطهر المحيط من المعذبين ومن الخونة، وقد سبقتها حملة خاصة سماهاالنظام الجبهوي التوغل، والقصد منها شرح أهداف الثورة واختيار أهل الثقة واكتشاف جيوب المعارضة، ولضمان أمن أفواج المجاهدين فرض تقتيل الكلاب حتى لا تنبه بنباحها على الزائرين، واقترنت حملة التوغل بالاستيلاء على بنادق الصيد من أجل هدفين: كسب سلاح «ولو بسيط»، وحرمان القوات الفرنسية من الحجز عليه[3].

أ. استغلال فرار الجزائريين من الجيش الفرنسي:

---

(1) الثورة في الولاية الثالثة التاريخية ص 205.

(2) المصدر نفسه ص 205.

(3) الثورة الجزائرية ثورة أول نوفمبر 1954م، بوعلام بن حمودة ص 227.

سعت جبهة التحرير الوطني لإقناع الجزائريين المجندين طوعاً أو كرهاً في الجيش الفرنسي بالالتحاق بجيش التحرير الوطني، إن العملية ليست سهلة لأنها محفوفة بخطر توغل العدو في صفوف الثورة، فإليكم أمثلة من هذه العمليات التي وفرت عدداً معتبراً من الأسلحة الالية لصالح جيش التحرير الوطني.

. في أكتوبر 1955م التحق الرقيب مصطفى خوجة بجيش التحرير الوطني بصحبة رفيقين، وهم حاملون عشر رشاشات من نوع 49 أ Mat وكمية من الذخيرة مع مصطفى خوجة، بمؤهلاته الحربية وشجاعته وإيمانه في صفوف جيش الولاية الرابعة، ثم استشهد يوم 11 أكتوبر 1956م ببرج الكيفان قرب العاصمة، وذلك في أثناء زيارته للجنود المجروحين المعالجين في منزل عائلة بن مرابط، واستشهد مصطفى خوجة و17 مجاهد من رفاقه، وسمي كوماندو الولاية الرابعة باسمه، وأصبح يلقن دروساً عسكرية للعدو في مستوى وسط الجزائر.

. إن طاهر زبيري، يذكر في كتابه فرار كتيبة من الجنود من سوق أهراس وعلى رأسها عبد الرحمن بن سالم «مارس 1956م» وجلبت معها أسلحة وذخيرة، إلا أن العدو تتبعها وقتل عشرات من أعضائها، وأما الناجون منها فقد واصلوا الكفاح في صفوف جيش التحرير الوطني، وعاش بعضهم حتى الاستقلال ومنهم عبد الرحمن بن سالم.

. على حسب محمد لمقامي: إن فرار الجزائريين من الجيش الفرنسي، بدأ في 1956م بالغرب الجزائري، ويذكر حالات مماثلة حتى في الغرب «في القنيطرة مثلاً»، ويذكر أيضاً فرار عدد من جنود اللفيف الأجنبي الذين رفضوا أن يكافحوا من أجل قضية ليست قضيتهم، وقد وصل عدد الفارين من اللفيف الأجنبي نحو ألف بين سنة 1956م وسنة 1958م في الغرب الجزائري، في حين يقدم فاروق بن عطية عدد 281،3 جندياً من اللفيف الأجنبي الذين استقبلتهم بلدانهم بواسطة اللجنة الدولية للصليب الأحمر[1].

ب . عملية خاصة قامت بها الولاية الثالثة:

حاول الجيش الفرنسي أن يجند ويسلح شباناً جزائريين ينتظمون على شكل وحدات صغيرة مثل المجاهدين، ويتتبعون وحدات جيش التحرير الوطني، وكانت هذه العملية خاضعة للمصالحة الأمنية الفرنسية، وجرت هذه العملية من نوفمبر 1955م إلى سبتمبر 1956م ببلاد القبائل، وكُلف أحد الضباط الفرنسيين بتجنيد الشبان الجزائريين بموافقة الحاكم العام، وكان الحاكم العام ينسق مع القيادة الوطنية والقيادة المحلية للجيش الفرنسي.

فاتصل الضابط الفرنسي « Ousmer » بشخص كان يعرفه وهو الطاهر حشيش، وهذا الأخير اتصل بصاحب مطعم في عزازفة اسمه أحمد أوزايد، ولكن كان هذا الأخير مناضلاً في حزب الشعب الجزائري وصديقاً لبلقاسم كريم وعمر أوعمران، فاتصل أحمد أوزايد بهما بواسطة سعيد بريروش «يا زوران» الذي عُيّن فيما بعد عقيداً وقائداً للولاية الثالثة، فكلف أحمد أوزايد بالإشراف على العملية، ولكن بتجنيد مناضلين جبهويين لهذه القوة بدلاً من أعداء الثورة، فقد وصل عدد المجندين 500،1 شخص تحركوا على شكل وحدات أوهمت القوات الفرنسية بأنها تقوم بتصفية «المجاهدين»، بينما هي كانت تصفي أعداء الثورة. ونظراً إلى مخاطر العملية

(1) الثورة الجزائرية، د . بوعلام بن حمودة ص 228.

تقرر في مؤتمر الصومام إصدار الأوامر لكي تلتحق هذه القوة بجيش التحرير الوطني، هرب هؤلاء بسلاحهم إلى جيش التحرير الوطني يوم 30 سبتمبر 1956م، غداة هذا الالتحاق نظمت القوات الفرنسية حملة واسعة للتفتيش، فاستشهد 300 مجاهد وأسر 600 والتحق 600 بجيش التحرير الوطني فامتزجوا بوحدات المجاهدين.

إن هذه العملية الكبيرة والجريئة والذكية قد رفعت معنويات الشعب كما أشارت إلى ذلك جريدة المجاهد رقم «3»[1].

ج . تعدد أشكال هجومات جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني:

إن هجومات جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني انتشرت في كل أنحاء الوطن بأشكال متعددة.

. استهدفت عمليات التخريب: المحصولات الزراعية والمزارع التابعة للمعمرين والطرقات والجسور والسكة الحديدية والمحولات الكهربائية والأعمدة.

. صناعة القنابل ظهرت في كل ولاية: وقد أشرف عليها جنود لهم تجربة في الجيش الفرنسي،ء وتحايلوا في استعمال القنابل الفرنسية التي لم تنفجر، وتمكنوا من تشغيل الألغام عن بعد، فهكذا تكرر تفجير القطارات في «واد جرّ» غرب العاصمة، الأمر الذي أدّى إلى حراسة شاملة للسكك الحديدية من طرف عدد كبير من القوات الفرنسية، وقد لجأت هذه الأخيرة إلى وضع المسافرين الجزائريين في الأمام وقاية من التفجيرات. فوجه جيش التحرير هجوماته على قطارات البضائع[2].

في الجزائر العاصمة كلف الطالب في الكيمياء المسمى عبد الرحمن طالب بصنع قنبلة تُستعمل كجواب على القصف الذي يتعرض له السكان في الجبال.

لقد توصل الطالب إلى صنع أول قنبلة بمساعدة شريف دبيح في أوت 1956م، فتطوعت نساء وطالبات لوضعها في أماكن يتردد إليها فرنسيون متطرفون. إن هذا النوع من العمليات أحدث هلعاً في صفوف العدو.

. تشكلت أفواج من المجاهدين في وقت مبكر تحت إشراف مصطفى فتّال وبلقاسم بوشافة، المتصلين بجيش التحرير في المنطقة الرابعة «الولاية الرابعة»، ثم أشرف سعدي ياسف على النظام السياسي والعسكري بالعاصمة، حيث وجهت ضربات قوية ضد الخونة والفرنسيين المتطرفين ومسؤولي الجيش الفرنسي والشرطة والثكن ومراكز الشرطة.. وذلك على يد علي عمارا المدعو علي لابوانت وعمر حمادي واخرين. وقد ارتفع عدد العمليات بالجزائر حتى أن العميد «راؤول صالان» يعترف في مذكراته بأنه في شهر نوفمبر 1956م وحده شنت جبهة التحرير الوطني 2900 عملية هجومية في العاصمة.

وهناك قوات أخرى واجهتها جبهة التحرير الوطني بالعاصمة، وهي التنظيمات السرية التي تكفلت بقتل الجزائريين واستفزازهم.

---

(1) المصدر نفسه ص 229.

(2) المصدر نفسه ص 230.

ولقد هوجمت كنائس بالعاصمة بيد أن سعدي ياسف قائد منطقة الجزائر يذكر أنه لم يُصدر أمراً بالهجوم، فهدف المتطرفين كان جرّ الفرنسيين إلى عمليات إشعال النار ضد الجزائريين الأبرياء «ديسمبر 1956م».

. ويذكر علي هارون أن خلايا العمليات في فرنسا بدأت تظهر ابتداءً من اخر 1955م تحت إشراف أحمد دوم وعبد الكريم سويسي، ركزت العمليات في البداية على الدفاع الذاتي ضد اعتداءات المصاليين والشرطة. إن هذه الإضاءات تعطي صورة عن حجم العمليات بالمدن. ولكن كيف جرت العمليات في الأرياف[1]؟

د . هجومات وكمائن واشتباكات في الأرياف:

نشير في بداية الفقرة إلى أن العمليات العسكرية لم تكن في شكل واحد «كمين هجوم اشتباك..» لأنها قد تبدأ بكمين وتتواصل باشتباك، وقد تتضمن عملية تفتيش «يقوم بها العدو» كميناً في أثنائها تنصبه وحدة لجيش التحرير، زيادة على أن كل عملية يشنها جيش التحرير الوطني تكون متبوعة بحملة تدميرية وتقتيلية تقوم بها القوات الفرنسية ضد السكان الموجودين جغرافياً في مكان الكمين أو الاشتباك.

إن العمليات كانت يومية وفي كل الجهات، أحصتها الملتقيات التي نظمتها المنظمة الوطنية للمجاهدين ولكنها غير مكتملة، فعلى المجاهدين الباقين على قيد الحياة أن يكملوها لأنها تبين حجم المعارك وعظمة التضحيات، كما تبين الجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبتها القوات الفرنسية، كما تقدم نماذج من المعارك التي وقعت من سنة 1954م إلى سنة 1956م، حتى نبين جو الحرب بين فئة قليلة من المؤمنين بقضيتهم التحررية وفئة كثيرة مدججة بالسلاح، وهي لا تؤمن بقضيتها بل هي الة قتل يحركها النظام الاستعماري[2].

هـ نماذج من المعارك المختلفة:

. وقع اشتباك بين وحدات من جيش التحرير الوطني يقودها كل من عباس لغرور والحاج لخضر واخرين تحت إشراف ناجي ندوي في خفقة أمعاش بالقرب من أريس «8 نوفمبر 1954م». إن القوات الفرنسية أرادت أن تقضي على الثورة عند ميلادها إلا أنها فقدت 150 جندياً «مجموع القتلى والجرحى»، استشهد في هذه المعركة 12 جندياً وجُرح اخرون من بينهم قائد وحدات المجاهدين ناجي ندوي الذي فقد عينه في الاشتباك.

. في أم الكماكم في ناحية تبسة جابه مائة مجاهد «تحت قيادة بشير شيهاني» 1،500 جندي فرنسي مسلحين بأسلحة خفيفة وثقيلة ومستعملين دبابات وطائرات، استشهد في الاشتباك 12 مجاهداً وجُرح 20 اخرون، لكن القوات الفرنسية فقدت 80 جندياً «مجموع القتلى والجرحى» وطائرة أسقطها المجاهدون وعدداً من الشاحنات التي أحرقها المجاهدون المهاجمون.

. على حسب علي كافي، إن هجوم المجاهدين والسكان في الشمال القسنطيني يوم 20 أوت 1955م ؛ كان محضراً منذ ثلاثة أشهر من طرف يوسف زيغود قائد المنطقة الثانية «الولاية الثانية فيما بعد»، الهدف العسكري

(1) المصدر نفسه ص 230، 231.

(2) المصدر نفسه ص 231.

للهجوم هو مناوشة مواقع العدو وتخفيف الحصار على «الأوراس النمامشة» تلبية لطلب المنطقة الأولى «الولاية الأولى فيما بعد».

أما الأهداف السياسية فهي داخلية: إيقاظ المتمردين من الشعب، وإحداث حالة «لا أمن» دائمة، وإظهار الجانب الشعبي للثورة، وخارجية: ممارسة ضغط حتى تُسجل قضية الجزائر في جدول أعمال الأمم المتحدة، والتعبير عن التضامن مع الشعب المغربي الذي يتظاهر للمرة الثانية احتجاجاً على نفي الملك محمد الخامس إلى مدغشقر[1].

. يوم 22 سبتمبر 1955م وقعت معركة الجُرف الشهيرة جنوب شرق «مدينة تبسة» التي أصبحت أسطورة يفتخر بها المجاهدون عبر الوطن، وقد خلدها المجاهد والشاعر الكبير محمد الشبوكي في نشيده الخالد: «جزائرنا يا بلاد الجدود...» بقوله في أحد الأبيات:

«سلوا جبل الجرف عن جيشنا فيخبركم عن مدى بطشنا»

وقد دامت هذه المعركة 8 أيام فقد العدو فيها حوالي 600 جندي، وجرح أكثر من ذلك، بينما استشهد 80 مجاهداً، وقد كان المجاهدون تحت قيادة بشير شيهاني وعباس لغرور وعجول عاجل، ويمكن الاطلاع على تفاصيل هذه المعركة في كتاب العقيد الطاهر الزبيري الذي يقول: إن المجاهدين تمكنوا من إسقاط عدد من الطائرات ومن تدمير عدة دبابات، ويقول: إن بعض المجاهدين المحاصرين من طرف قوات ضخمة للعدو كانت تستعمل السلاح الثقيل والخفيف، قد استطاعوا أن يصلوا إلى مغارة كبيرة اختفوا فيها، فعندما اكتشفتها القوات الفرنسية سدّتها، ولكن بعد حين أحس المجاهدون تياراً هوائياً اتياً من مدخل ثان بعيد عن الأول، فاستطاعت الوحدات المنسحبة إلى المغارة أن تخرج من الباب الاخر فنجت بأعجوبة.

. وفي 13 يناير 1956 وقعت معركة بقيادة مصطفى بن بولعيد «قائد المنطقة الأولى» بالأوراس جابه فيها ألفين من جنود العدو بإفري لبلح، أسفرت المعركة عن استشهاد 28 مجاهداً و16 مدنياً منهم امرأة وطفل، ومن جهة العدو سقط 110 جندياً «بين قتلى وجرحى».

. رجعت قوات العدو 12 جويلية 1956م إلى المنطقة بجيش مكون من حوالي 8،000 عسكري ومحمي بـ 22 طائرة من كل نوع وبالأسلحة الثقيلة، وقد كان عدد المجاهدين 75، دام الاشتباك من الفجر إلى الليل، فأسفر عن استشهاد 14 مجاهداً وعن مقتل حوالي 300 جندي فرنسي وعدد من الجرحى يناهز هذا الرقم، وقد أسقطت طائرتان عموديتان.

حاول الجيش الفرنسي تحطيم مركز جيش التحرير بقرية أولحاج في بلدية ششتار قرب خنشلة، فهاجم المركز بألفي جندي وهو متستر بعدد من السكان وضعهم في الصف الأمامي، وكان ذلك في شهر جويلية من سنة 1956م.

---

(1) المصدر نفسه ص 232.

. وقد دامت المعركة ثلاثة أيام بين ألفي عسكري فرنسي أتوا من المراكز القريبة، ومائتي مجاهد مسلحين بأسلحة الية و9 بنادق ورشاشة، فقتل حوالي 500 جندي فرنسي واستشهد 60 مجاهداً وجُرح 20 وأسر 3، في اليوم الثالث من المعركة استطاع المجاهدون أن ينسحبوا من الحصار.

. في يوم 19 أوت 1956م اشتبكت كتيبتان من جيش التحرير الوطني مع الجيش الفرنسي في سطحة الدير بالكويف شمال تبسة، كانت الكتيبتان مسلحتين بأسلحة الية ونصف الية، وبنادق صيد و3 بنادق رشاشة، وقد تدخل العدو بثلاثة الاف عسكري مدعمين بـ 15 طائرة وبدبابات ومصفحات وأسلحة ثقيلة.

. يوم 27 نوفمبر 1956م وقع اشتباك كبير في جبل نوال على بعد 7 كيلو مترات جنوب تبسة، كان الجيش الفرنسي متألفاً من حوالي 20،000 عسكري، وأما عدد المجاهدين فقد كان يقدر بـ 700 موزعين على 5 كتائب، وقد فاجأ المجاهدون العدو عند نزول العساكر من الشاحنات، فأطلقوا عليهم النار بالبنادق الرشاشة، وعند ذلك تدخل الطيران فأطلق النار خطأ على القوات الفرنسية، مما رفع حصيلة العدو إلى حوالي 500 جندي قتيل و700 جريح و6 طائرات مُسقطة، وقد استولى المجاهدون على 20 رشاشة وثلاث بنادق رشاشة وعدد من القنابل اليدوية.

. وفي 2 أفريل 1957م وقعت معركة في بوشقوف «ولاية قالمة»، اشتبكت فيها فصيلتان من جيش التحرير الوطني مع 7000 جندي فرنسي مدعمين بالطائرات والدبابات والأسلحة الثقيلة، تفرقت الفصائل إلى 7 أفواج وتمركزت في أماكن صخرية، واستعملت أسلحتها الالية وبندقيتها الرشاشة، أسفرت المعركة عن قتل حوالي 300 جندي فرنسي وجرح 200 وقد أسقطت طائرتان، في حين استُشهد 54 مجاهداً وأُسر 12.

. يوم 28 جوان 1957م عرف جبل فوه «بين تبسة وبئر العاطر» اشتباكاً كبيراً بين 6،000 جندي فرنسي وثلاث فصائل من المجاهدين مسلحين ببنادق الية وثلاث رشاشات ثقيلة، صدّ المجاهدون هجمات العدو وتمكنوا من اختراق خط المحاصرة، بعد قتل 300 جندي فرنسي وجرح ما يقارب هذا العدد وتدمير دبابتين وشاحنات، وقد استشهد في هذا الاشتباك 29 مجاهداً وجُرح 7[1].

. وعن معركة كيمل يقول الرائد مصطفى مراردة: كنا ذات يوم متمركزين في غابة «لبراجة» في كيمل، وكان العدو قد جاء إلى المنطقة بأعداد كثيفة من العساكر، وخلال عدة أيام أنشأ مراكز أحاط بها كل المكان الذي كنا متمركزين فيه وكنا نلاحظ تحركاته قبل أسبوع، لكن القائدين زبيري وسوايعي لم يصدرا الأوامر بتفريق المجاهدين ولا بالخروج من الغابة الكثيفة التي كان يتعذر على الواحد أن يرى غيره حتى على بعد عشرة أمتار، وكان أي اقتراح بالخروج من الغابة والانصراف من مواجهة العدو سيُعتبر جبناً ومحاولة للفرار من مواجهة العدو، ولذلك تم البقاء في نفس المكان حتى هاجم العدو الجبل الذي كنا متمركزين فيه، فلما رأينا هجوم العدو أيقن الجماعة أن الأمر جدّ وأننا هالكون لا محالة إذا بقينا في نفس المكان.. حاولنا أن نتسلل عبر الوادي، لكن العدو كان قد أخذ احتياطاته لذلك فتربص بنا على جنبي الوادي، ولذلك وقعنا في الكمين

(1) جهاد الجزائر، د . أحمد بن نعمان ص 165.

الذي أعده لنا وكان الرصاص ينهال علينا من كل صوب، ولم يكن بإمكاننا الرد لأن كل واحد منا كان همه النجاة ولسنا في وضعية تسمح لنا بأي رد فعل.

وكانت النتيجة أن تمت تصفية عدد كبير من المجاهدين ووقع علي سوايعي شهيداً إلى جانب مجموعة كبيرة من الثوار وجرح الطاهر الزبيري في يده.

وتمكنت أنا وجماعة من كتاب القيادة من النجاة، حيث خرجنا واتجهنا إلى زريبة الوادي مع رجل كان يعرف المنطقة جيداً اسمه «إبراهيم عقالي»، ومنها تفرقنا بعد أن فشل العدو في إدراكنا. في هذه المعركة استشهد الكثير من الأبطال الأوائل يبلغ عددهم أكثر من سبعين شهيداً، أذكر منهم: عباس المعروف باسم «تراكسيون»، بلقاسم البرجي، الشريف جيلاني، عبد العزيز عشي، عبود زرقيني، عمار محماح، لخضر قوارف، محمد الدراجي، الذين كانوا عيوناً لنا في الغابة، كما استشهد كل المسؤولين الذين كانوا قادة للمنشقين من قبل، وكان استشهاد كل هؤلاء خسارة كبيرة للثوار[1].

وقد ذكر الدكتور أحمد بن نعمان في كتابه جهاد الجزائر حقائق التاريخ ومغالطات الجغرافيا، بعض المعارك التي وقعت أثناء الثورة نقلت منه ما حدث في الولاية الأولى، ومن أراد التوسع عن المعارك في الولاية الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فليرجع إلى الكتاب المذكور[2]

وقد توسع كذلك الدكتور يحي بوعزيز في كتابه «الثورة في الولاية الثالثة التاريخية»، وكذلك الدكتور بوعلام حمودة، الثورة الجزائرية، يقول الدكتور أحمد بن نعمان عند حديثه عن المعارك: تعمدنا وضع هذا الفصل لذكر بعض المعارك بصفة رمزية وليست حصرية، وذلك لدلالتها الزمانية والمكانية، وقد اعتمدنا فيها على شهادات المجاهدين الذين شاركوا في هذه المعارك، وكذلك بعض التقارير الولائية والوثائق الفرنسية المنشورة[3].

ومن الملاحظات عن المعارك التي ذكرناها كنماذج:

. عدد القوات الفرنسية في كل معركة أكثر بكثير من عدد المجاهدين المقاتلين في الميدان، ففي كل عملية نجد الاف العساكر الفرنسية يجابهها المجاهدون بفصيلة أو كتيبة أو كتيبتين أو ثلاث كتائب «نادراً».

. هناك فروق كبيرة بين سلاح القوات الفرنسية وسلاح جيش التحرير الوطني، فالجيش الفرنسي متزود ببنادق الية وبمدافع رشاشة وأسلحة ثقيلة ودبابات ومصفحات ووسائل المواصلات ومتحرك تحت تغطية الطائرات الاستكشافية أو المقنبلة، أما جيش التحرير فإنه يستعمل نصيباً من البنادق الالية ونصيباً من البنادق نصف الالية وقليلاً من البنادق الرشاشة والرشاشات الثقيلة والباقي من بنادق صيد، والأسلحة معظمها منتزعة من العدو في المعارك، والباقي اتٍ من بعض الفارين من الجيش الفرنسي، ومن الكميات الداخلة من تونس والمغرب وليبيا[4].

---

(1) جهاد الجزائر د . أحمد بن نعمان ص 166.

(2) المصدر نفسه ص 167 . 190.

(3) المصدر نفسه ص 163.

(4) الثورة الجزائرية، بوعلام حمودة ص 240.

. وبالرغم من هذه الفروق الكبيرة في التسلح وفي الوسائل وفي عدد المقاتلين في كل معركة ؛ نلاحظ أن خسائر الجيوش الفرنسية مرتفعة، وهذا راجع إلى شجاعة المجاهدين وإلى إيمانهم بالنصر وإلى قبولهم للتضحية الكبرى، وإلى تحركهم وإلى طبيعة الميدان الملائمة لحرب العصابات، وإلى تأييد الشعب الجزائري وسرعة التدرب على استعمال الأسلحة غير المعروفة سابقاً.

. بعد كل معركة مهما يكن نوعها تنتقم القوات الفرنسية من السكان الجزائريين الذين يعيشون بالقرب من ميادين العمليات، فيُقتل الأبرياء، وتُغتصب النساء، ويُعتقل الرجال بدون بينة، وتُدمر المساكن، وتُقتل الحياة الريفية بتأسيس مناطق محرمة ومحتشدات «مراكز تجميع السكان» [1].

2 . من الناحية الاجتماعية:

اهتم قادة جيش وجبهة التحرير الوطني بتنظيم الشعب في خلايا وتجمعات منضبطة وواعية ومطيعة، وبتوعيته بالقضية وحشده لدعم الثورة دعماً مطلقاً، وفي المقابل اهتموا برعاية مشاكله هو، ونجدته كلما تعرض لضربات جيش الاحتلال وطغيانه وجبروته وما أكثرها، وما أشد قساوتها.

وبهذه الكيفية وهذه السياسة الحكيمة تم التلاحم الكبير بين الشعب وقادة الثورة، وفشل الاستعمار فشلاً ذريعاً في فصلهما عن بعضهما، رغم كل ما قام به من أساليب متوحشة كالتعذيب والتقتيل والتشريد والتهجير الجماعي للسكان، وإقامة محتشدات مسيجة ومحروسة وتجويعهم وإهانتهم وإفقارهم وإخلاء القرى والمداشر وتهديمهما وتخريبهما تماماً، وإفساد المؤن وتحطيم الأثاث والأدوات وكل وسائل العيش مهما كان نوعها[2].

أ . إضراب الأيام الثمانية:

لقد ساهمت التشكيلات الاجتماعية المنظمة من قبل جبهة التحرير الوطني في نجاح إضراب الأيام الثمانية، فقد استطاعت قيادة جبهة التحرير أن تصدر توجيهاتها إلى لجان المناطق والنواحي والأقسام، وإلى المسؤولين المحليين للمدن والقرى، وأعلمت المسؤولين السياسيين والعسكريين بأنه أثناء الأسبوع المقبل، وبالتحديد أثناء مناقشة القضية الجزائرية في الجمعية العامة للأمم المتحدة ؛ أن ينطلق الإضراب بكفاءة تنظيمية عالية فوق كامل التراب الوطني.

والهدف الأساسي لهذا الإضراب هو إظهار تعلق المواطنين الثابت واللامشروط وبصورة واضحة بجبهة التحرير الوطني وبرنامجها.

كانت التعليمات قوية ومؤثرة وحازمة فقد جاء فيها: إن هذا الإضراب سيكون وسيلة لكل واحد كي يعبر عن إخلاصه للشهداء الذين لا يمكن نسيانهم وللقضية الوطنية.

إن هذا الإضراب سيكون عاماً، وسيمس بدون استثناء كافة «الطبقات» الجماهير العاملة «الشغيلة» عمال وأرباب العمل للقطاعين الخاص والعام موظفون وصيادلة وفلاحون ..الخ

(1) الثورة الجزائرية، بوعلام حمودة ص 241.

(2) الثورة في الولاية الثالثة التاريخية ص 206.

لن يسمح بأي استثناء، وإن التعليمات سوف تبلغ المناسب لتحديد التاريخ المحدد للإضراب وكلمة السر والشعارات المطلوب توزيعها وكذا المهام المطلوبة، ثم فيما بعد تم تحديد تاريخ الإضراب من يوم الاثنين 28 جانفي إلى يوم الاثنين 4 فيفري 1957م.

غير أنه في انتظار هذه التعليمات ؛ فإنه على مختلف المسؤولين أن يقوموا بعمل دعائي كبير في الحال، وذلك لتحضير العقليات أكثر للاختبار نظراً لأهمية الهدف المنشود.

إن هذا الإضراب الحاسم يجب أن يعرف نجاحاً تاماً.

. تعيين لجان موجهة خصوصاً لتنظيم الإضراب في المدن والقرى التي لا توجد بها بعد اللجان المحلية للجبهة والتي تبلغ إليها التعليمات الضرورية.

. لفت انتباه الفدائيين منذ الان إلى الدور الذي سوف يوكل إليهم قريباً بهدف التنفيذ اللامشروط لكلمة السر الخاصة بالإضراب، ولهذا يجب عليهم تحضير القنابل والقنابل اليدوية والمتفجرات اللازمة وأن يكونوا على استعداد يوم انطلاق الإضراب.

. يجب على المسؤولين العسكريين فيما يخصهم أن يدرسوا كيفية تحضير كمائن على الطرق الوطنية والرئيسية لمنع مرور السيارات والأشخاص أثناء فترة الإضراب(1).

ولقد اتُخذ هذا القرار في الثلث الأول من شهر نوفمبر 1956م بمقر لجنة التنسيق والتنفيذ الواقع بشارع بلقاسم كريم . تيلملي سابقاً . رقم 113، ولفهم أبعاد هذا القرار ينبغي وضعه في سياقه على الصعيد الدولي والفرنسي والجزائري:

. على الصعيد الدولي: كان السياق يتميز بحدثين بارزين:

. أولاً: اختطاف الطائرة المغربية التي كانت تنقل أربعة ممثلين قياديين وهم في طريقهم إلى تونس، وحسب صحافة ذلك العهد، إن المخطوفين الأربعة كانوا سيشاركون يوم 22 أكتوبر 1956م في لقاء مع الملك محمد الخامس والرئيس بورقيبة لمناقشة افاق السلام في المغرب العربي، وكان العاهل المغربي والرئيس التونسي يعتزمان التوسط بين الجبهة وفرنسا لإيجاد تسوية سلمية للقضية الجزائرية.

. ثانياً: العدوان الثلاثي على مصر، وقد جاء هذا العدوان الذي قامت به كل من بريطانيا وفرنسا والكيان الصهيوني إثر تأميم قناة السويس من طرف جمال عبد الناصر، وقد كانت تسيّر القناة شركة مساهمة بريطانية فرنسية. وقد ترك هذان الحدثان أثراً عميقاً وانفعالاً قوياً في صفوف الشعب الجزائري(2).

. على الصعيد الفرنسي: كانت هناك حكومة يسارية على رأسها الاشتراكي غي مولي، وقد قررت هذه الحكومة اليسارية تصعيد الحرب بعد أن منحها المجلس الوطني الفرنسي كامل السلطات بتصويت أغلبية النواب بما في ذلك النواب الشيوعيون، وقد تجسد هذا القرار في إرسال مزيد من القوات الفرنسية إلى الجزائر.

---

(1) مجموعة القوانين الداخلية لجيش التحرير، جمعها علي بوداري ص 99.

(2) ثوار عظماء، محمد عباس ص 387.

. على الصعيد الجزائري: كان الغالة من الكولون يلحون في طلب إعدام المجاهدين الأوائل الذين وقعوا في الأسر ليكونوا عبرة ورادعاً لغيرهم في نظر أولئك الطغاة.

في هذا السياق الدولي الفرنسي والجزائري المشحون بالتوتر، قررت لجنة التنسيق والتنفيذ تنظيم إضراب الأيام الثمانية الشهير، الذي شكل أحد المعالم البارزة في مسيرة الثورة الجزائرية.

وكان توقيت الإضراب في البداية يوم 10 ديسمبر 1956م، وهو تاريخ مناقشة القضية الجزائرية كما أعلن بادئ الأمر في الأوساط الأممية بنيويورك، لكن هذه الأوساط أجلت تاريخ المناقشة إلى 20 ديسمبر، فأُجِّل موعد الإضراب. وجاءت أعياد اخر السنة لتؤجل الموعد مرة ثانية، وهكذا من تأجيل إلى تأجيل حتى استقر رأي اللجنة على تاريخ 28 يناير 1957م لبدء الإضراب قبيل فتح ملف القضية الجزائرية في نيويورك.

وكانت لجنة التنسيق والتنفيذ ترمي من وراء هذا الإضراب غير المألوف إلى تحقيق عدة أهداف من أهمها:

. دعم مساعي جهود المجموعة العربية الاسيوية أثناء مناقشة القضية الجزائرية. وكانت فرنسا يومئذ تعتبر القضية مسألة داخلية تتعلق بالسيادة الفرنسية وحدها، باعتبار أن الجزائر هي مجرد ثلاث عمالات تابعة لفرنسا، والجبهة عبارة عن مجموعة من «الفلاقة» المشوشين، ومن ثمة فلا حق لأية قوة خارجية بما في ذلك الأمم المتحدة أن تتدخل في هذه القضية.

. تدمير خرافة «الجزائر الفرنسية» أمام الرأي العام الدولي، بتبيان طبيعة النزاع الدائر على الساحة الجزائرية، نزاع بين أمة وأخرى بهدف استقلال الجزائر[1].

. تعزيز سيطرة جبهة التحرير في أوساط الشعب، وكانت يومئذ ما تزال تعاني من النشاط التخريبي للعناصر المتعاونة مع فرنسا، وترجمة ذلك في الظهور أمام العدو والرأي العام الدولي كممثل شرعي وحيد للشعب الجزائري وناطق واحد باسمه.

وكانت فرنسا يومئذ تتهرب من المفاوضات بدعوى أن ليس هناك طرف مسيطر على الوضع يمكن التفاوض معه، مروجة في نفس الوقت لفكرة «الطاولة المستديرة أي التفاوض مع عدة أطراف جزائرية» واعتبار الجبهة واحداً منها فقط.

. دفع جماهير المدن في خضم معركة التحرير لتخفيف الضغط عن الجبال والأرياف، فجماهير المدن لم تكن يومئذ مجندة بالقدر الكافي، ولم ترم بعد بكامل ثقلها في الحرب.

لتحقيق هذه الأهداف الأربعة الأساسية إذن كان إضراب الأيام الثمانية الذي لم يكن مألوفاً في مدته وشموليته، وقد تولى المرحوم عبان رمضان تحرير نداء الإضراب باسم «لجنة التنسيق والتنفيذ»، ووجه إلى الولايات واتحادية الجبهة بفرنسا وإلى ممثلي الجبهة في كل مكان من المغرب وتونس ومصر. وكان جوهر النداء يتلخص في

(1) المصدر نفسه ص 388.

الاستعداد لشن إضراب لمدة ثمانية أيام، بالتوقيت مع الشروع في مناقشة القضية الجزائرية من الجمعية العامة للأمم المتحدة[1].

وبدأ تنفيذ الإضراب في 28 يناير حتى 4 فبراير 1957م، وكان النجاح تاماً بشهادة الصحف الفرنسية نفسها، فصحيفة «لوموند» كتبت في عدد 29 يناير تصف الإضراب بالعاصمة: سكون مؤثر يخيم على مدينة خالية، وقدرت مجلة «فرانس أوبسارفتور» الأسبوعية نسبة نجاح الإضراب 99%.

إن هذا النجاح بالإضافة إلى مفاجأة إدارة الاحتلال بالإضراب واتساعه، كان مدعاة لتدخل عسكري فوري وعنيف، فقد قام جنود «ماسو» بتمريناتهم الأولى في القمع والنهب من خلال تحطيم أبواب وواجهات المحلات التجارية المغلقة، وإخراج المضربين من ديارهم ونقلهم إلى أماكن عملهم بالقوة، واعتقال واغتيال العديد من المواطنين والمناضلين.

وحوصرت الأحياء العربية في المدن الكبرى بالأسلاك الشائكة، لتوضع بعد حين تحت عمليات التمشيط والتفتيش المنتظمة، وهكذا انتقلت الحرب إلى المدن بأكثر ما تكون شراسة وعنفاً[2].

ب . نتائج الإضراب:

ومن النتائج الهامة التي أسفر عنها إضراب الأيام الثمانية الشهير كما يستخلصها بن خدة:

1 . تزكية الشعب وجماهير المدن بصفة خاصة لمطلب الاستقلال، وفي ذلك ضربة قاسية لمقولة «الجزائر فرنسية».

2 . تعزيز وحدة الشعب تحت طائلة القمع الاستعماري الذي كان شاملاً وبدون تمييز.

3 . تعزيز مكانة وسمعة جبهة التحرير الوطني داخلياً وخارجياً.

4 . تخريب أسس الثقة والتعاون بين المناضلين وبين المواطنين وإدارة الاحتلال بالعاصمة، مما خفف الضغط إلى حد ما على الولايات.

5 . تعود العسكريين على الحكم، وكان في ذلك بداية نهاية الجمهورية الرابعة بفرنسا التي لفظت أنفاسها يوم 13 ماي 1958م.

6 . تزايد الشعور بالخوف وانعدام الأمن لدى الكولون رغم وجود الجيش الفرنسي، هذا الشعور الذي كان له أثر في الهجرة الجماعية التي عرفتها الجزائر عشية وغداة الاستقلال.

وهناك الوجه الاخر لإضراب الأيام الثمانية الذي تجدر الإشارة إليه كذلك، ويتمثل في الانعكاسات السلبية كما يستخلصها عضو لجنة التنسيق والتنفيذ بن خدة:

---

(1) المصدر نفسه ص 388.

(2) المصدر نفسه ص 390.

1ً. الثمن الباهظ الذي دفعته الثورة، ويتجلى في تدمير جانب كبير من هياكل الجبهة في العاصمة خاصة، وإلقاء القبض على المواطنين والمناضلين بصفة جماعية، وتعذيب وإعدام نخبة من العناصر القيادية التي لا تقدر خسارتها بثمن، ومن هؤلاء الشهداء:

. محمد العربي بن مهيدي عضو لجنة التنسيق والتنفيذ.

. المحامي علي بومنجل.

. صالح بوقادوم ومحمد لانجريط اللذين زج بهما في زنزانات مع الكلاب البوليسية، وقد أصيبا لذلك بانهيار عصبي، ولم يتورع جلادو فيلا سوزيني من الإجهاز على الشهيد لانجريط.

. محمد وعمارة الذي جعل للجنة التنسيق والتنفيذ من مسكنه مقراً لها وقد أعدم بعد خروج اللجنة من العاصمة.

. عبد القادر قدوش مسؤول الأفواج المسلحة بالعقيبة «أعالي بلكور»، وقد عذب بلهب الشاليمو حتى لفظ أنفاسه.

. ومن المناضلين الذين ألقي عليهم القبض وعذبوا تعذيباً شديداً المناضل إبراهيم الشرقي مسؤول النظام السياسي بمنطقة الجزائر العاصمة.

2ً. خروج لجنة التنسيق والتنفيذ من العاصمة تحت ضغط قوات الاحتلال، إلى الولاية الرابعة ومنها إلى القاهرة عبر تونس والمغرب. ومع كل ذلك ومن أجل كل ذلك يعتبر إضراب الأيام الثمانية الشهيرة حدثاً هاماً في مسيرة الثورة التحريرية[1].

ج. بيان إضراب الثمانية أيام:

أيها الشعب الجزائري:

إن كفاحك البطولي ليرجع عهده إلى سنة 1830م، إن الاستعمار الفرنسي يحاول منذ مائة وسبعة وعشرين عاماً أن يبيدك ويمحق شخصيتك ويقضي على شخصيتك ولكن دون جدوى.

إن الاستعمار الفرنسي ظل طيلة مائة وسبعة وعشرين عاماً يقتل ويسحق ويعذب خيرة أبنائك البررة.

إن الاستعمار الفرنسي جعل من جزائرنا طيلة مائة وسبعة وعشرين عاماً موطن البؤس والرعب والخنق والكبت، لقد بقيتَ طيلة هذه المائة وسبعة وعشرين عاماً رافعاً لواء الكفاح لواء الجزائر المكافحة المجاهدة، لواء جنود عبد القادر، لواء ثوار بني سناسن، وأولاد سيدي الشيخ، والمقراني، وأبطال جبال أوراس «1916. 1926م»، وضحايا سطيف، وقالمة، وشهداء سيدي علي بوناب، ولواء جيش التحرير الوطني منذ أول نوفمبر 1954م.

أيها الشعب الجزائري:

إن القيادة العليا لجيش وجبهة التحرير الوطني التي هي مرشدك في النضال والتي تعززها ثقتك المطلقة بها، ترسل إليك هذا النداء لتنفيذ إضراب شامل لمدة ثمانية أيام في كل التراب الوطني.

---

(1) المصدر نفسه ص 393.

إن واجبكم هو أن تستعدوا للقيام بهذا الإضراب الثوري العظيم في إجماع كامل ووحدة لا انفصام لها.
إن من واجبكم أن تساعدوا بعضكم بعضاً في هذا الاستعداد، وأنكم لتجعلون جميعاً من هذا الإضراب تظاهرة شعبية تشمل طول البلاد وعرضها، من تبسة إلى مغنية، ومن الساحل البحري إلى الصحراء.
يا أبناء الأمة الجزائرية من عمال وفلاحين وتجار وموظفين طلبة وتلاميذ، رجالاً ونساء وأطفالاً.. إنكم ستبعثوها صرخة مدوية في وجه الاستعمار، صرخة تنبعث من أعماق ثورتنا العظيمة عندما تنفذون إضرابكم التاريخي الأكبر، وإن القيادة العليا لجيش وجبهة التحرير الوطني الجزائري توصيكم بجمع حاجياتكم لهذه المدة، أعينوا بعضكم بعضاً.
شيدوا بناء الأمة الجزائرية الحرة المستقلة بالكفاح والتضامن.
أيها الجزائريون، أيتها الجزائريات:
إن نجاح هذا الإضراب سيكون معناه أمام العالم أنكم تعتبرون وفد جيش وجبهة التحرير الوطني هو المتكلم الأوحد لشعب الجزائر المناضل.
إن تنفيذكم للإضراب الثوري العظيم بما فيه من نصب المكامن في الطرق، ومن التخريب والاشتباكات والهجومات على المدن والمراكز العسكرية ؛ سوف يكون الخطوة الحاسمة على سبيل النصر العظيم.
أيها الشعب الجزائري:
لتقف صفاً واحداً متراصاً وراء جيشك الفتي، وجبهتك العتيدة، لينجح إضرابك العظيم، العزة للأبطال، والمجد للشهداء.
يحيا جيش وجبهة التحرير الوطني، تحيا الجزائر حرة مستقلة[1].

3 . من الناحية الغذائية:

اهتم قادة جيش التحرير الوطني بالتموين وضمان وصوله إلى كتائب جيش التحرير في الجبال والأرياف، وإلى المحرومين والمعذبين في القرى والمداشر المعزولة وفي المخابأئ والمغاور والملاجأئ، فألفوا فرقاً خاصة لذلك، تكلفت بجمع المؤن وتدبيرها وتخزينها ونقلها وتوزيعها حسبما يتطلب الأمر في كل أطراف الولاية، وتعاون الجميع بما في ذلك الجنود، والمدنيون، النساء، الرجال،الأطفال، وتحملوا تبعات ذلك طوال سنوات الثورة[2].
وتحدث الأستاذ علي بوداري في كتابه: «نافذة على اقتصاد الثورة في الشمال القسنطيني» وهو يتضمن من الجلب إلى الاستهلاك، وهو مستمد من تقارير الثورة منذ النشأة، ومروراً بالتطوير والتنظيم والتقنين والتسيير والتعليمات ورسائل الأخبار والتقارير المتنوعة من مستويات مختلفة، وجهد الثورة المضني الكبير المبذول في العمل والمقاومة والصمود، لإفشال خطط العدو الاستعماري في الحصار الاقتصادي المضروب، وبرنامج القطع

(1) المصدر نفسه ص 398.
(2) الثورة في الولاية الثالثة ص 206.

والتجويع والمنع القمعي المفروض على الثورة والشعب في الجبال، عبر المراحل من المناطق الحربية والمناطق السلمية في 1956م إلى المناطق المحرمة 1957م.

إن التموين يعتبر من الضروريات الأولية الأساسية للثورة مثل المال والسلاح والقيادة والجندي المحارب وأرض ميدان الحرب والشعب المؤيد لها في الميدان الداخلي، وهي كلها أمور وعناصر حيوية وشروط مرتبطة ببعضها البعض ارتباطاً قوياً ووثيقاً، ولذلك فكل ميادين الثورة تكون متشابكة ومتكاملة ومتماسكة مع بعضها البعض أيضاً، إذ ينطلق عملها من نقاط متفرقة وقواعد مختلفة ويصب جهدها كله ويلتقي في اتجاه هدف واحد، وهو انتصار الثورة، وهذا الوضع صار أمراً عاماً وشعوراً يشترك فيه كل الناس أفراداً ومنظمات دون استثناء[1].

أ. تسيير التموين:

كان تسيير التموين لسنوات عديدة بعد اندلاع الثورة بالتحديد من 1955م إلى أواخر 1958م وأوائل 1959م مدمجاً في الميدان السياسي. ويشرف عليه المسؤولون المكلفون بالميدان في الدواوير ومقاطعات الأقسام الأولى، وبعد تنصيب لجان الإدارات أواخر سنة 1956م صار المحافظ السياسي مسؤولاً رسمياً وقانونياً عن المال والتموين في ان واحد. وكان القانون ينص كما ورد في المنشور رقم 7 المؤرخ في 20 مارس 1957م الصادر عن إدارة الولاية الثانية المتضمن اختصاصات مختلف أعضاء لجان المناطق والنواحي والأقسام عن التموين ما يلي:

. يقوم المحافظ السياسي بشراء المؤونة والملابس الضرورية لعناصر نظام دائرته الترابية.

. يراقب إرسال واستعمال المواد، ويسهر على تكوين مخزون للتموين لمواجهة كل احتمال، وفي اجتماع الإدارة يقدم التقرير المالي.

وقد استمر الوضع وعلى هذا الحال إلى غاية تنصيب العضو المكلف بالتموين في الإدارة. وأول ظهور رسمي لمسؤول التموين في هياكل نظام الثورة كان على مستوى المجالس الشعبية للدواوير بعد مؤتمر الصومام، في 20 أوت 1956م، التي تم تنصيبها بعد انتخاب من الشعب خلال شهور أكتوبر نوفمبر ديسمبر 1956م، والقول بوجود رسمي لمسؤول التموين قبل هذا الوقت فيه نظر[2].

ب . هياكل التموين ومهامها:

كان تنصيب عضو خاص مسؤولاً بميدان التموين ضمن تشكيلة المجالس الشعبية الخماسية في الدواوير عند إنشائها أواخر سنة 1956م، كان أول ظهور فعلي لهيكل فرع التموين في ميدان النظام والتنظيم الميداني الرسمي للثورة في ذلك الوقت.

---

(1) نافذة على اقتصاد الثورة، علي بوداري ص 9.

(2) المصدر نفسه ص 13.

وبدأت عبارة ومصطلح الاقتصاد تتردد على ألسنة المسؤولين، مما جعل البعض منهم في أول الأمر يصف مسؤول التموين بوزير الاقتصاد ومسؤول المال بوزير المال، وكانت اختصاصات ومهام مسؤول التموين المحلي في المجلس الشعبي للدوار محددة في قانون المجالس الشعبية للدواوير وهي كالتالي:

. أنه المسؤول الوحيد عن تسيير التموين في الدوار.

. أنه يسهر على حفظ وأمن مستودعات التموين الموجودة في الدوار.

. أنه ينظم سلاسل جلب التموين ليتمكن له تموين الشعب في الدوار.

. أنه يشجع الاستغلال الفلاحي، أي يحث السكان على فلاحة الأرض.

. أنه ينظم قائمة للعائلات المحتاجة ويحض على فكرة الإعانة والاستغاثة[1] .

ج . مصادر تكوين تموين الثورة:

المصادر المادية التي يتكون منها تموين الثورة تتوزع على الأبواب والعناصر التالية:

. الشراء بالمال: ويشمل جميع الاحتياجات من الأغذية والألبسة والأغطية والأدوية والمواعين والأشياء المختلفة الأخرى التي تستعملها الثورة.

. الزكاة: وهي تشمل كل الأصناف التي حددها الشرع وتدخل ضمن هذا العنوان بشروطها المحددة.

. التبرعات بمختلف تكويناتها.

. الغنائم من العدو والخونة العاملين معه، والهبات وغير ذلك من المصادر المتاحة.

د . تخزين التموين:

وشرع نظام الثورة منذ ذلك الوقت في أوائل سنة 1957م في تنفيذ خطة بناء المخابأئ «الكازمات» في أعماق الغابات، لخزن الحبوب من القمح والشعير وبقية مختلف مواد التموين الأخرى المتنوعة، من المعلبات والعجائن والأدوية والملابس والأسلحة والذخيرة والوثائق..الخ

وكان حفر وتهيئة هذه المخابأئ وبناؤها ينجز من قبل أشخاص من الجنود ذوي الخبرة والأمانة والسيرة والثقة في أفواج الأشغال «الجيني»، المشكّلة في كل قسم للقيام بهذه المهمة، وقد عين المجاهد لخضر بوالشمة الذي كانت له تجربة وخبرة في هذا الميدان لمتابعة ومراقبة أعمال بناء المخابأئ في جميع أقسام الناحية 221 بالميلية، وتتوزع مخابأئ الخزن على كل غابات الجبال في الدواوير، عبر الأقسام في شرق الوادي الكبير وغربه، ليسهل استغلالها في حالات حصار العدو، وعزلة الطبيعة[2].

وكل عمليات الإنجاز والتخزين والتوزيع تجري في سرية تامة من قبل أشخاص معينين خاصين، ومساحات المخابأئ في الداخل منظمة ومتقنة وواسعة كالبيوت، ولها منافذ وثقب صغيرة للتهوية، وكان لكل إدارة ومجلس ومنظمة محطة مخابأئ خزنها الخاصة بها[3].

(1) نافذة على اقتصاد الثورة، علي بوداري، ص 9.

(2) المصدر نفسه ص 156.

(3) المصدر نفسه ص 157.

وفضلاً عن مخابأئ التموين، كانت هنا وهناك وهنالك سواء في المدن أو القرى وفي السهول والجبال مخابأئ مخصصة لإيواء الأشخاص، وبالخصوص خلال عمليات شال ما بين 1959م إلى 1962م.

وكانت تعليمات نظام الثورة تؤكد بقوة على ضرورة بناء ووجود «كازمات» للأشخاص بسرية تامة، لكل منظمات وأفواج الفرق المقلة والموزعة منها إلى درجة التهديد بالعقاب، وقد استغل الأفراد والمنظمات في هذا الغرض . أي مثل الكازمات الغيران والكهوف والصخور الطبيعية في الجبال والشعاب والوديان وجروف شواطأئ البحر، والأنفاق المنجمية وأكوام الحجارة والقرط والتبن وغيرها[1].

ومع كل ما تقدم من الاحتياطات، فإن المخابأئ كلها معرضة لخطر كشف العدو في كل زمان ومكان، وهذا إما أن يكون عن طريق الصدفة بسبب التفتيشات الدقيقة، أو العثور على وجود الاثار على الأرض، أو بوشاية الخونة والمستسلمين، أو باعترافات الأسرى من النظام والمقبوض عليهم من الشعب.

وقد استشهد أو أسر أو جرح العديد من أفراد النظام في مثل هذه الحالات بالمخابأئ، وفي سياق الحديث عن المخابأئ، فإن الثورة كانت توجه الشعب وتدعوه بل وتأمره ببناء المخابأئ وحفر الخنادق قرب الديار، للوقاية والاحتماء من الغارات الجوية وقنابل المدافع منذ أوائل الثورة[2].

وظاهرة خزن التموين في جوف الأرض والزيت بصفة خاصة في الدواوير بالجبال ؛ قد عرفها وعاشها الناس من قبل، وهي تعود إلى أيام الحرب العالمية الثانية، خوفاً من التفتيشات العدوانية للقومية الذين كونتهم سلطات الإدارة الاستعمارية الفرنسية في ذلك الوقت.

هـ شبكة توزيع التموين:

رغم كثرة المراكز وتنوعها وانتشارها وتباعد المسافات فيما بينها وقلة وسائل النقل ومضايقات العدو ؛ فإن توزيع التموين على المراكز داخل كل قسم كان يتم بصورة يومية دائمة من قبل شبكة التوزيع التابعة للجنة المكلفة بذلك في فرع التموين، وهذا في الأحوال العادية وحسب الإمكان، أو من قبل المجالس الشعبية للدواوير التي تساهم في تخفيف حدة النقل بواسطة الشعب أو المقاومين العاملين في التموين. وفي تقرير الشهر يجمع المدخول للمحطة والخروج إلى مراكز منظمات الثورة[3].

و . تقنين الاستهلاك:

لم يترك نظام الثورة استهلاك التموين في المراكز مطلق اليد يسير جزافاً، بلا نظام ولا ضوابط ولا حساب، بل حدد الكمية اللازمة من الطعام المخصص للشخص في اليوم «الرسيون»، والمقادير الغذائية اليومية الكاملة للفرد الجندي في جيش التحرير الوطني في الوجبات الثلاثة التالية:

. الفطور في الصباح.

. الغداء في منتصف النهار.

---

(1) المصدر نفسه ص 157.

(2) المصدر نفسه ص 158.

(3) المصدر نفسه ص 159 . 161.

. العشاء في الليل.

ومقادير التموين اليومي كانت محددة كالتالي:

. الدقيق 600 غرام أو ما يعادلها من العجائن والمواد الأخرى.

. الزيت 70 غرام ويستعمل زيت الزيتون في جميع المراكز.

. القهوة أو التيزانة في اليوم 3 مرات.

. الحليب مرة واحدة في الصباح.

. أكل اللحم ثمان مرات في الشهر.

. تموين الجيش بالخضر بحيث أن تكون الخضر في غذاء الجيش ومأكله.

. وكذلك كان يلفت نظر المسؤولين في النواحي أن يمدوا يد المساعدة لبعضهم في كامل المنطقة.

. يلزم على القسم أن يبذل جهده في مدّ وحداته بالخضر والفواكه وذلك للاحتفاظ بصحة وحداتنا ومدّ الجيش هذا يكون على الأقل مرتين في الأسبوع والفواكه ثلاث مرات في كل شهر على الأقل أيضاً.

. وكانت بعض التعليمات تؤكد على مدّ الجيش بالخضر يومياً وعلى أساس مائة غرام للشخص في كل يوم.

. الأغطية بطانية «زورة» لكل شخص، لكن في عمق الحرب تكاد لا تكون تماماً صيفاً وشتاء.

. الملابس والأحذية حسب الحاجة لكل شخص أو منظمة.

هذا النظام عام يشمل جميع منظمات وأفراد الثورة، وهذه التعليمات تعتبر كقانون يطبق على المراكز كلها[1].

ز . المحاسبة على التموين:

المحاسبة على التموين العام لنظام الثورة تجري كل شهر بانتظام مثل سائر الميادين والهياكل والأعمال الأخرى للثورة، وذلك بإعداد وضبط وتقديم تقرير كامل شاملة فيه المواعيد المحددة للمحاسبات خلال الاجتماعات في الأوقات الامنة العادية، مثل ما كان يقع في الفترة الممتدة من 1957م إلى 1959م، أما في الظروف غير العادية التي نشأت بعد ذلك عند هجوم شال، فصارت التقارير ترفع عن طريق السلم خارج الاجتماعات بسبب العدو، وتبدأ عملية تقارير التموين قاعدياً على مستوى كل مركز الذي تقيم فيه منظمة أو عدة منظمات أو مركز الفرق والأفواج على مستوى مكان الإقامة في كل دوار، وهذه التقارير توحد على مستوى المجلس الشعبي للدوار ليصبح تقريراً واحداً شاملاً سواء مشتريات الشهر الكلية او المدخول ومخرج مجموع التموين العام في الشهر ويوجد على مستوى لجنة التموين، ليرفع صعوداً إلى القسم فيوحد ويرفع إلى الناحية، وهكذا أيضاً يرفع إلى المنطقة فالولاية وتنجز هذه التقارير من قبل كتاب إداريين خاصين، ويراعى في شكلها النموذجي المثال الموحد لعمل الجميع داخل الإقليمي النظامي وفي محتواها تكون ضمن القوانين ومتطابقة معها ولا تخرج عن التعليمات التي تحكم تسيير التموين.

---

(1) المصدر نفسه ص 173.

والتموين من أصعب الأعمال والمحاسبات في الثورة للمطالب اليومية الكثيرة والتعقيدات الناتجة عن طبيعته وأثره الفعال في حياة الناس. والعبء الأكبر للتموين بصفة خاصة وأعمال الثورة بصفة عامة يقع على عاتق الأقسام والدواوير لأنها قاعدة أساس الارتكاز والتمركز، وتمثل الفضاء الواسع والميدان المهم المناسب في حقل النشاط اليومي العسكري والسياسي والاقتصادي المباشر مع الجيش والشعب.

واجتماعات المحاسبة في الظروف الامنة كانت مدرسة تكوينية هامة، لكن امتحانها كان صعباً جداً حيث كان يتعلق بكل صغيرة وكبيرة في مواد التموين المتشعبة، وكان الرفض يمس بعض المواد الممنوعة الاستهلاك في المراكز مثل الفلفل الأكحل «رأس الحانوت» [1]..الخ

وكانت الأجهزة المختصة في توفير التموين تهتم اهتماماً خاصاً بتوفير القمح والزيت واللحم.

ولقد استخدم الثوار وسائل نقل متعددة في إيصال التموين لأبناء جبهة التحرير المجاهدة، وتعاملوا مع الخيل والبغال والحمير في جبال شمال الجزائر والجمال والمهاري في الجنوب بالصحراء، إذ لعبت دوراً بارزاً وشاركت بقوة وفعالية في نجاح الثورة وانتصارها، سواء باستعمالها في الركوب عند التنقل أو نقل المرضى والجرحى أو نقل التموين أو نقل السلاح وذخائره في داخل الجزائر، أو في إطار تنظيم قوافل جلب السلاح ونقله من تونس إلى ولايات الثورة في داخل الجزائر[2].

4 . من الناحية الصحية:

جندت جبهة التحرير الوطني عدداً هاماً من الأطباء والممرضين رجالاً ونساءً، ووزعتهم على مختلف مناطق الولاية ونواحيها وأقسامها لعلاج المرضى والمعطوبين، وإسعاف الجرحى وتدبير الأدوية، والأدوات الطبية اللازمة للعلاج، وقد تطور هذا الجهاز الصحي للثورة بمرور الزمن، عدة وعدداً ونجاعة، وأفاد الثورة والمجاهدين، وتوسع عمله وامتد إلى خارج الجزائر، تونس، والمغرب، وبلدان شرق أوروبا[3].

وكانت مصالح الصحة تهتم بالمواطنين وتزورهم لتقديم نصائح في الوقاية والنظافة وتقديم العلاج عند الإمكان.

في خارج الجزائر كان مسؤول الصحة تابعاً لمسؤولي القواعد الخلفية، ثم إلى قيادات العمليات العسكرية، وبعد يناير 1960م لقيادة أركان جيش التحرير الوطني، إن الدكتور محمد الصغير النقاشي سيّر نظام الصحة بالخارج من سنة 1956م إلى سنة 1962م باستثناء الفترة التي خلفه فيها الدكتور تيجاني هدّام أي بين مارس 1957م وأكتوبر 1958م.

الفرق بين وسائل الصحة بالخارج ووسائل الصحة بالداخل شاسع.

---

(1) المصدر نفسه ص 249.

(2) المصدر نفسه.

(3) الثورة في الولاية الثالثة ص 206.

وبعد تجميع السكان ونظراً إلى القصف بالمدافع وبالطائرات للمناطق المحرمة كان من اللازم أن تُبنى مراكز الصحة والعلاج تحت الأرض، يشير المجاهدون الذين بقوا على قيد الحياة إلى أن عمليات البتر أو اقتلاع الرصاص كانت تجرى بدون مخدّر.

فالجريح يُقيد من طرف رفاقه حتى لا يتخبط، ثم تُخاط الجروح بخيوط عادية تُغلى في الماء، وعملت المجاهدات والمجاهدون المكلفون بالصحة في هياكل جيش التحرير الوطني في ظروف صعبة جداً، قلة الأدوات الطبية والأدوية، والعيش في مخابئ تحت الأرض، والتنقل المستمر للنجاة من ضربات العدو، وصعوبة نقل الجرحى من جهة إلى جهة أو نقلهم إلى الخارج.

إن عدد الشهداء في مصالح الصحة بجيش التحرير مرتفع، وذكر الدكتور بوعلام بن حمودة أسماء منهم في كتابه(1)، وعملت قيادة جبهة التحرير الوطني على تنظيم المصالح الصحية للولايات، وصدرت تعليماتها للجهات المختصة، وكان لمصالح الصحة في الداخل والخارج جهد عظيم في الوقوف مع الثورة، وقدمت عملاً متميزاً وفريداً في أحداث ثورة شعب الجزائر.

واستعمل قادة جبهة التحرير كذلك مستشفيات البلدان المجاورة لعلاج المجاهدين الجرحى بمساعدة أطباء جزائريين، ثم أحدث جيش التحرير الوطني مراكز علاج تابعة له في «غاردماو» و«تاجروين» و«تالا»، وقاعدة العربي بن مهيدي في وجدة للأمراض المزمنة، وقد قنبلها العدو مرتين في سنة 1960م ويوم توقيف القتال أي 19 مارس 1962م، ومركز المعاقين في بركان بالمغرب، ومركز المعوقين بالدّار البيضاء المحدث سنة 1960م، ومركز إعادة تمرين المرضى المحدث سنة 1960م بالقرب من تونس من طرف الأستاذ زهير يعقوبي، وأنشئت بالخارج مراكز التكوين الطبي مثل سنغنغن بمنطقة الريف بالمغرب، وقد سيّره الدكتور محمد بن عيسى أمير، ونُظم التكوين في مراكز تابعة للمستشفيات أو لمدارس التدريب العسكري.

. الهلال الأحمر الجزائري:

أحدث يوم 7 يناير 1957م في طنجة بعد أن نال مشروع القانون الأساسي الذي حضّره فوج من المناضلين الجبهويين المقيمين في تيطوان بالمغرب، قبول لجنة التنسيق والتنفيذ « CCE » بواسطة سي علال «الطيب الثعالبي»، الذي كان يشرف على اتحادية الجزائريين بالمغرب، فتكونت قيادة الهلال الأحمر الجزائري من حسن بوعلي «رئيس»، والدكتور مصطفى مكاسي أمين عام، وقد كان بن إسماعيل بومدين مذكوراً في القانون الأساسي كأمين عام، والدكتور جيلاني بن تامي مندوب لدى اللجنة الدولية للصليب الأحمر بجنيف في سويسرا.

ثم حوّل مقر الهلال الأحمر الجزائري من المغرب إلى تونس يوم 25 ديسمبر 1957م، وأصبحت اللجنة المديرة ابتداءً من يوم 21 أكتوبر 1958م متألفة من مصطفى بن باحمد «رئيس»، وأحمد بودربة «أمين عام»، وجيلاني بن تامي «مندوب الهلال لدى اللجنة الدولية للصليب الأحمر بجنيف».

(1) الثورة الجزائرية، بوعلام بن حمودة ص 302.

كانت للهلال علاقة نظامية بمسؤول الشؤون الاجتماعية في لجنة التنسيق والتنفيذ « CCE »، ثم بوزير الشؤون الاجتماعية في الحكومة المؤقتة « GPRA ». في النشاط اليومي كان الهلال الأحمر الجزائري ينسق مع مصلحة الصحة في الجيش والمصلحة الاجتماعية التابعة لنظام جبهة التحرير الوطني.

تميز الهلال الأحمر بنشاط كثيف أهمه: إعلام المحافل الدولية بجرائم القوات الفرنسية وبحالة اللاجئين، وتوجيه نداء لاحترام اتفاقيات جنيف «حول أسرى الحرب» من طرف فرنسا، وإجراء مساع لإطلاق سراح الأسرى، وتكوين الممرضين والممرضات، وتجنيد الأطباء الجزائريين، وجمع الأدوية لصالح المجاهدين واللاجئين، وإعانة مادية للاجئين، وإرسال فرق طبية لعلاجهم، ومرافقة فرق الصليب الأحمر الدولية عند زياراتها التفقدية.

وساهم الجزائريون العائشون في تونس والمغرب في إيواء المجاهدين وفي تمويلهم، وقد انخرط أولادهم في كل هياكل الثورة فتنظموا في تونس داخل 7 نواح، حيث عُينت لجنة للمتابعة ولتشجيع جمعيات مختلفة لها صلة بالثورة، أما الجزائريون العائشون بليبيا فقد أدمج نظامهم في اتحادية الجزائريين بتونس لأن عددهم كان قليلاً.

في المغرب تكفلت اتحادية الجزائريين بتنظيم الجزائريين القاطنين هناك.

قيادة الولاية الخامسة اهتمت أيضاً بالجزائريين العائشين قرب الحدود المغربية الجزائرية، فكونت لجنة للمتابعة ابتداء من سنة 1955م، تكونت اللجنة من رئيس ومسؤول على الحالة الاجتماعية والسكن ومسؤول على التموين نظراً إلى تزايد عدد اللاجئين ومسؤول على الأمن واليقظة، في ماي 1956م أحدثت قيادة الولاية الخامسة فرعاً للتنظيم والسكن، ومصلحة لاستقبال اللاجئين، ولجنة لاستقبال الجرحى والتكفل بهم. وعند تكوين الحكومة المؤقتة تكفلت هذه الأخيرة بالجانب المدني للجزائريين، في حين تكفلت قيادة الولاية الخامسة بالجانب العسكري[(1)].

5 . في ميدان التربية والتعليم:

اهتم قادة الثورة بالتعليم في القرى والمداشر، وجندوا المعلمين وحفّاظ القران الكريم لذلك، وكان لجهود جمعية علماء المسلمين دور عظيم في هذا المجال وبذلوا وقتاً وجهداً لا يستهان به، كما كان لقادة جبهة التحرير دور في دعم ميدان التربية والتعليم، وقد لعب القائد الشهيد ايت حمودة عميروش دوراً رائداً في هذا الميدان، وحرص كل الحرص على تعليم كل الأطفال في المساجد والكتاتيب القرانية في كل القرى والمداشر والدواوير المحررة، وجند كل المعلمين وحفاظ القران الكريم لذلك، ولم يكتف بهذا فوجه بعثات طلابية إلى تونس خلال عامي 1956م، 1957م، 1958م، ليواصلوا دراستهم هناك وفي كل بلدان المغرب العربي. وأنشأ بتونس داراً خاصة بهم في حي داندان غرب مدينة تونس يأكلون فيها ويشربون وينامون ويتابعون دراستهم في معاهد الزيتونة وغيرها[(2)].

---

(1) الثورة الجزائرية ص 304، بوعلام حمودة.

(2) الثورة في الولاية الثالثة ص 207.

وخصص أموال الأوقاف في الولاية الثالثة للإنفاق عليهم، وسعى لدى كل الولايات لفعل ذلك ونجح مسعاه في الأخير، وتكفلت جبهة التحرير الوطني بكل الطلبة الجزائريين وشرعت في إرسالهم إلى الخارج في بعثات مختلفة إلى بلدان المشرق العربي، وشرق أوروبا وغربها، وأمريكا الشمالية، واللاتينية للدارسة في مختلف الفروع والتخصصات العلمية والأدبية والمدنية والعسكرية[1]، يقول الدكتور يحيى بوعزيز: ومن المفيد هنا أن أشير إلى أني لما تخرجت في تونس عام 1956م وطلبت من القائد عميروش عام 1957م أن أدخل إلى الجزائر، رفض بإصرار وقال: لسنا بحاجة إليكم في الجزائر واصلوا دراستكم لتكونوا إطارات للجزائر المستقلة سواء هنا في تونس أو في غيرها من البلدان[2].

6 . في ميدان القضاء:

اهتم قادة الثورة بمعالجة المشاكل والقضايا التي تحدث بين المواطنين، وكلفوا المشرفين على شؤون الأوقاف الإسلامية وعلماء الدين بالتكفل بها وإصدار الأحكام في إطار الشريعة الإسلامية، ومنع أصحاب القضايا من اللجوء إلى القضاء الفرنسي الاستعماري، فاستجاب الجميع لذلك أيضاً وانصاعوا وأطاعوا بكل عفوية خدمة للثورة وأهدافها، وإفشالاً للسياسة الاستعمارية التي كانت تسعى دائماً من أجل إحداث الشرخ، وفصل الشعب عن الثورة[3].

لقد أتى مؤتمر الصومام ببعض التوجيهات إلا أنها غير كافية. كوّن المؤتمر لجاناً شعبية من خمسة أشخاص، منها رئيس مُكّلف بالحالة المدنية والشؤون المدنية والإسلامية، كما قرر تأسيس محاكم تنظر في قضايا المدنيين والعسكريين، لكن ظروف الحرب وقرار ترحيل السكان من طرف القوات العسكرية الفرنسية لم يسمح ذلك بتنفيذ حرفي لتوجيهات مؤتمر الصومام في هذا الميدان، فاجتهد المسؤولون محلياً: تعيين قضاة واللجوء إلى «الجماعات»، تعيين لجان القضاء النصح بالصلح، لجوء إلى الفقه الإسلامي، أخذ بالاعتبار قائمة الممنوعات التي قررتها جبهة التحرير الوطني، تنفيذ الأحكام فوراً لأن الاستئناف صعب التطبيق.

أمام هذه الصعوبات صدر نص توجيهي أمضاه بلقاسم كريم يوم 12 أفريل 1958م بعد مداولة جرت داخل لجنة التنسيق والتنفيذ «ءٍءِ CCE »، نشر هذا النص في كتاب عبد الحميد زوزو: فإلى القارأئ هذه الخلاصة: وضّح فصل من فصول التوجيه مفهوم المجاهد وواجباته وحقوقه، ووضح فصل اخر الأخطاء البسيطة والأخطاء الخطيرة والأخطاء الخطيرة جداً، وذكرت العقوبات المناسبة لكل حالة. تنظر محاكم الولايات في قضايا الاعتداءات الجنسية، تنظر المحكمة العليا في قضايا الضباط السامين، وتنظر محاكم الولايات في قضايا الضباط، وتنظر محاكم المناطق في قضايا ضباط الصف والجنود، ويُعين القضاة على حسب مستوى المحكمة من طرف لجنة التنسيق والتنفيذ أو الولاية أو المنطقة.

---

(1) المصدر نفسه ص 207.

(2) المصدر نفسه ص 207.

(3) الثورة في الولاية الثالثة ص 208.

لكل متهم الحق في اختيار محام وإن لم يفعل ذلك تُعين المحكمة محامياً تلقائياً تُرفع الدعوى إلى المحكمة المسؤولة عن تعيين المحكمة فيُعين قاض للتحقيق في القضية.

بيّن بلقاسم كريم أن التعذيب ممنوع، وأن الحكم بالإعدام ينفذ بالرصاص.

إن ظروف الحرب لم تسمح بتطبيق كلي لهذه التوجيهات ولم تسمح للهيئة التنفيذية العليا بمراقبة درجة التطبيق في الميدان.

ثم صادق المجلس الوطني للثورة الجزائرية في السداسي الثاني من سنة 1959م على نصّ المؤسسات المؤقتة للدولة الجزائرية، حيث أكد على حق الدفاع، في حين أن القانون الأساسي لجبهة التحرير الوطني الذي صادق عليه المجلس الوطني للثورة الجزائرية في يناير 1960م ينصّ على أن كل مخالفة يرتكبها مناضل أو مسؤول هي من اختصاص الهيئة التي ينتمي إليها المعنيّ.

ونصّ القانون الأساسي أيضاً على أن لجنة ستؤسس لتحضير قائمة الأخطاء والعقوبات المناسبة لها، والإجراءات الخاصة بالتحقيق والمحاكمة.

وخارج الجزائر نُصّبت محاكم كلما طُرحت قضايا، محكمة تبورسق في تونس في جويلية 1957م، محكمة تونس لمحاكمة لعموري وأنصاره في مارس 1959م، ومحكمة وجدة لمحاكمة النقيب الزبير في صيف 1960م، إلا أن رمضان عبان اغتيل من دون مثوله أمام محكمة.

ومن الجدير بالذكر أن المرسوم رقم 163،62 الصادر يوم 31 ديسمبر 1962م اعتبر قرارات اللجان القضائية الجبهوية في المجال المدني صالحة وقابلة للتنفيذ، بشرط أن تحمل الصيغة التنفيذية على حسب الإجراءات المذكورة في المرسوم المشار إليه أعلاه[1].

7 . وفي المجال الأمني:

وضع قادة وجيش جبهة التحرير الوطني جهازاً أمنياً قوياً لضبطه وتنظيمه ودعمه، والحفاظ على سلامة المواطنين والمجاهدين ومراقبة تحركات العدو، وترصد خططه العدوانية الغادرة، وترصد أعوانه وأذنابه، وقد زرع أعوان الأمن على كل أطراف الولاية، وكلفوا بتتبع كل تحركات جيش الاحتلال وأعوانهم والتعرف على توجهاتهم وخططهم وإبلاغها إلى المسؤولين ليقوموا بالواجب، وتعاون مع هذا الجهاز أعوان الاتصال والاستعلام ونقل الأخبار في الاستعلام عن كل صغيرة وكبيرة للعدو، ومراقبة كل تحركاته وتعاون الجميع على إفشال كل خطط جيش العدو، وكشف مراميه ومساعيه الاستعمارية الخبيثة. وبفضل ذلك استطاعت الثورة أن تتخطى كل العراقيل والصعوبات والعقبات والمكائد وأن تحقق النصر المؤزر في النهاية[2].

كانت مؤسسة المخابرات والدعاية والإعلام R.P.I هي تنظيم ثوري تحت الإشراف المباشر للقيادة العامة لجيش التحرير. إن R.P.I يعني المخابرات والدعاية.

(1) الثورة الجزائرية ص 297.

(2) الثورة في الولاية الثالثة ص 208.

أ . مفاهيم التنظيم:

.كل العناصر التي تكون هذا التنظيم يجب أن تتمتع قبل كل شيء بنضج عقلي وتكوين نظامي محكم، وهذا يعني أن مباداُئ التضحية والطاعة والمثابرة والصلابة ينبغي أن تكون متوفرة بل ومشروطة مسبقاً.

. إن هذا التنظيم يقوم على أساس السرية المطلقة، وحركة مرنة ومنهجية، إن الفصل بين مختلف العناصر «الأفراد والأعضاء» ينبغي أن يكون تاماً، وأي عرقلة لهذا العمل يجب أن تعاقب بشدة.

. إن عدد العناصر الذين يمكن إدماجهم غير محدد بشرط الحرص الدائم على الفصل والسرية.

وهكذا فإن عون المخابرات والدعاية والإعلام يجب عليه دائماً أن لا يعمل ما لا يعنيه، وأن لا يكون معروفاً إلا من طرف مسؤوله المباشر، وأن يجهل نشاطه كلية صديقه الأكثر ائتماناً.

. إن كل عناصر «م.د.أ» ينبغي عليهم أن يكونوا في الموعد لأداء اشتراكهم بانتظام، وأن يعدّوا تقاريرهم وتحقيقاتهم بضمير واع.

إن هذه الخصال والسلوكيات ضرورية، وبهذه الصفة وحدها يمكن إدراك كل الأهداف المرسومة من قبل هذا التنظيم.

ب . الاستخبارات:

هناك إخبار خاص وإخبار عام «المعلومات».

. المخابرات الخاصة «المعلومات الخاصة»: وتستهدف مصالح العدو العسكرية والسياسية التي قد تكون إما:

. مصالح الشرطة وملحقاتها.

. القوات المسلحة وملحقاتها «مراكز وثكنات ومكاتب».

. السجون ومراكز الإقامة.

. الأحزاب السياسية والنقابات أو الجمعيات الأخرى.

يجب إقحام عدة أعوان للأخبار في الدعاية والإعلام في عدد من الميادين. فيمكنهم أن يكونوا أعواناً مزدوجي المهمة، بل يمكن أن يتسللوا بوسائل مناسبة ومباشرة، إذ يجب عليهم أن يقدموا المعلومات كاملة عن نشاطات وحركة الميادين السالفة الذكر.

ج . المعلومات العامة:

وتستهدف كل الجماهير، كل السكان، وكل الأفراد. فهي قد تعني الجار، كما تعني الأجنبي. وتستهدف كذلك كل أصناف المعلومات والأخبار، وقد تعنى بالوضع العام والروح المعنوية، والنشاطات، والعقلية العامة للجماهير وكذلك الأفراد.

إن عون «م. د. أ» يجب عليه أن يلاحظ ما حوله ويتدخل في كل شيء دون أن يفشي أو يكشف انتماءه لأي كان.

د . الدعاية والإعلام:

إن عون «م. د. أ» في هذا الدور يجب عليه أن يقاوم كل أنواع التشهير والنميمة وكل محاولات المضايقة بمواقفه أو بأقواله، وعليه أن يعمل على عدم احتقار كل ما يمكن أن يفيد العدو، بل يجب عليه على العكس أن يضاعف نضاله، وأن يمجد الأعمال البطولية للمقاتلين، ويجب عليه أن يندد بكل المؤسسات التي يقيمها العدو، وعليه أن يعلم المواطنين بإبلاغهم كل الحقائق.

إن عليه أن يزرع الروح الوطنية وروح العمل لدى كل الجزائريين دون أن يكشف عن انتمائه[1].

وكان لجهاز الأمن والاستخبارات دور عظيم في إفشال مخططات الاحتلال وإنجاح ثورة الشعب الجزائري وتحرير البلاد من العدو الفرنسي.

8 . المرأة الجزائرية:

إن للمرأة دوراً رائداً في هذه الثورة بالولاية الثالثة، على مستوى الجزائر كلها، وقاسمت الرجل المجاهد كل أعماله وأتعابه ومشاقه المدنية والعسكرية والسياسية، فتولت الطهي، والإطعام، والإيواء للمجاهدين، وباشرت عمل الإعلام كنقل الأخبار، وترصد حركات العدم، وإيصال الرسائل والمعلومات، وتولت التمريض، والعلاج للمرضى والمجروحين، والمعطوبين، وتنقلت في الجبال والشعاب، وحملت السلاح وشاركت في المعارك، وأخفت المجاهدين، ونقلت إليهم المؤن والأغذية والملابس والمعلومات والأخبار، وشجعتهم على الصمود والثبات والاستبسال في المقاومة والجهاد، وأعطت المثل بالصبر والجلد والتحمل، وكانت خير مثل وعلى كل لسان لكل نساء الجزائر وبلدان العالم العربي والإسلامي والأوربي، ومن أمثلتهن ورموزهن: مليكة قايد، وفضيلة سعدان وأختها مريم، والجميلات الثلاثة، جميلة بوباشة وجميلة بو حيرد وجميلة بو عزة[2].

أ . جميلة الجزائرية والمجاهدات:

احتلت المناضلة الجزائرية «جميلة» حيزاً كبيراً في الشعر العربي وخصوصاً العراقي الذي قيل في هذه الثورة الجزائرية، فأكثر من ثلاثين قصيدة من قصائد موسوعة الثورة الجزائرية في الشعر العراقي حملت عنوان جميلة، وحديث الشعراء عن جميلة. كما قدم الشعراء جميلة في عدة صور، فهي ابنة العروبة وخولة بنت الأزور الجديدة وهي نغمة في قلب كل أم عربية، وهي شعلة عز وكبرياء وهي المناضلة الحبيبة.

وقصيدة «أنا فكرة» للدكتور جواد البدري، التي نظمها وأهداها لجميلة عام 1958م تعتبر من أجمل ما قيل في نضال جميلة، فقد جسد الشاعر الثورة الجزائرية في جميلة المناضلة، واعتبر الثورة فكرة وليست كائناً من لحم ودم، ولهذا فإنها لا تموت بموت الأشخاص، وهي فكرة كامنة في العقول والنفوس، وفي دموع الكادحين منذ أن ظهر الإنسان على ظهر الأرض:

اقتلوني

أنا فكرة

---

(1) قوانين مجموعة: علي بوداري ص 55 إلى 158.

(2) الثورة في الولاية الثالثة التاريخية ص 109.

في العقول النيِّرة

في النفوس الخيِّرة

في دموع الكادحين

في قلوب الطيبين

عبر الاف السنين

مستقرة

أنا فكرة

إن الثورة فكرة، نور تضيء للشعوب، طريق الانعتاق، وبناء مصير عادل، وهي نار تحرق أعداءها وأعداء الإنسان، وهي زهرة تنشر عطرها بين الشعب عبر النسيم، لتروي الملايين من البشر، وهي أمل الناس ودفء أحلامهم[1].

أنا أنوار ونار

أنا فكرة

اسحقوني

أنا زهرة

عطرها تنشره الأنسام

في كل مكان

ترتوي منها الملايين

عبير النسمات

تبعث النشوة والدفء

وأحلام الأمل

لبني الأرض جميعاً

ويطلب الشاعر منا أن نسأل التاريخ: كم إنسان حر كريم مزق الطاغية جسمه؟ ودقَّ وشقَّ صدره؟

لكن الجلاد انقرض مشيّعاً باللعنات، ويبقى الأحرار الشهداء فكرة يستلهمها الناس:

أسألوا التاريخ

واستوهوه ذكره

كم فتى كريم

مزق الجلاد جسمه

دق عظمه

---

(1) الثورة الجزائرية في الشعر العراقي، عثمان سعدي (128/1).

شق صدره

ومضى الجلاد ملعوناً

ولكن بقي الأحرار فكرة

اقتلوني

أنا فكرة

فأنا جميلة إن كبلني المستعمر بقيد من حديد، وضرب جسدي العاري حتى أدماه بالسياط والنار، فلأني رمز شعب لا يحيد عن هدفه في التحرر ولأني حرة تأبى الذل والخضوع.

أنا إن قيدني الباغي بقيد من حديد

وتدمي جسدي العري بضربات البليد

بسياط ولهيب فلأني رمز شعب لا يحيد

ولأني حرة تأبى الخضوع والمذلة أنا حرة

ويستمر الشاعر في التحدث باسم جميلة التي تعلن للأعداء: اقتلوني فأنا فكرة، والفكرة لا تموت، أنا رمز لنضال الشعب من أجل تحقيق سلام يتخلص فيه الإنسان من الحروب والاستغلال معاً، حيث يسود حياته الحب بين الناس والوئام بين الشعوب، فأنا أضحي من أجل الحق:

اقتلوني أنا فكرة

اسحقوني أنا زهرة

أنا رمز لنضال الشعب من أجل السلام

وشعار الود والإخلاص في دنيا الوئام

أنا إن ضحيت بالنفس، وغايات المرام

فلأجل الحق أمضي وأضحي

بشباتي

وبعزمي[1]

وأما الشاعر أيوب صبري يقول على لسان جميلة:

إذا كانت يدي رفيقة فأنا على الأعداء صواعق ورعد، وهي عزم كالموت لا يحيد.. لكن مع الناس الطيبين، فأنا على كل عاطفة وحب، فأنا ابنة الجزائر والعروبة، وأنا في مستوى «جان دارك» المناضلة الفرنسية التي ضحت بحياتها في سبيل وطنها.

كفِّي الرقيقة كف والدة بها رأم وسعد

(1) المصدر نفسه (130/1).

لكنها أبداً علىالأعداء صاعقة ورعد

الموت حتم لا يرد وإن عزمي لا يرد

لكنني إنسانة أبداً وعاطفة وود

إني أنا بنت الجزائر والعروبة لي تمد

قد مجدوا «جان دارك»، هلا مجدوني وهي ند[1]

وأما الشاعر سعيد قاسم فقد قال عن جميلة:

البطلة جميلة

أختي جميلة والأسى يُدمي فؤادي في الحياة

ما أنت إلا زهرة ذبلت بتعذيب الطغاة

في غيْهب السجن المريب

* * *

من صوتك الحُلو الجميل سمعت ألحان الكفاح

فعلمت سرَّ العيش في الدنيا بسيف أو سلاح

فلتشعل نارُ الحروب

* * *

هم أوقدوها فتنة سوداء عارمة اللهيب

حرب الإبادة هذه شُنَّت على شعب نجيب

جَاروا على أرض الحبيب

* * *

الظلم يَخْذل يا جميلةُ والعدالة تنتصر

وبنو فرنسا في الجزائر ذنبُهم لا يُغفرُ

سادوا على دروب العيوب

* * *

أختاه يا بنت العروبة رفرفي فوق الرَّوابي

يا راية الأحرار قد رُفعت علىتلك الهضاب

تفديك حبَّات القلوب

* * *

---

(1) المصدر نفسه (487/1).

لبيك يا رمز الكفاح وخيرَ درس في الحياة

يا من رفعتِ لنا منارَ الحق في هذا الثبات

والصبر نصرٌ عن قريب[1]

* * *

إني من الحدباء، باسمك أنشد الشِعرَ الحزينا

كالبلبل الغريد يَسكبُ دمعه لحناً حنُونا

في ظلمة الليل الرهيب

* * *

لم يشهد التاريخ أهدر من فرنسا للدماء

عاثت فساداً في الشعوب وقوضت صرح البناء

كم هيَّجت قلب اللبيب

* * *

هذا «حزام الموت» ينطقُ باسم «تحرير الشعوب»

فرضوه تشريداً لشعب هامَ في طيِّ الدروب

في مطلع اليوم العصيب

* * *

هذا عذابُ الكهرباء وغيره في ذي السجون

الروح أقوى يا جميلة منه في غيب المنون

والله في عون المنيب

* * *

أختاه فجرُ النصرِ لاحَ فحطمي قيدَ العبيد

واستقبلي ظُلم الطغاة بعزم جبار عنيد

فالويل للباغي الكذوب

* * *

أبناء قومي ما عَهِدْنا فيكم رجلاً جباناً

هذِي جميلة أختكم هيَّا أنقذوا شرفاً مهاناً

من علج باريس الغصوب[2]

* * *

---

(1) المصدر نفسه (487/1).

(2) الحدباء: الموصل

كان لمشاركة المرأة الجزائرية في حروب التحرير صدى في شعر الثورة، فقد عكس ونقل لنا هذا الشعر أجواء الثورة بالامها واماالها، وإن المتصفح لهذه النصوص الشعرية تطالعه صورة المرأة المجاهدة البسيطة التي قاومت المستعمر الفرنسي، بصبر وإيمان كبيرين، كما تطالعه صورة المجاهدة وهي تقوم بمختلف المهام التي كانت تسند إليها.

فهذا شاعر الثورة مفدي زكريا، يسجل في قصيدته بنت الجزائر سنة 1956م في صورة واقعية تلبية بنت الجزائر لنداء الكفاح، إذ ينقل لنا عبر القصيدة أجواء الثورة ووقائعها، حيث المعركة، والعدو، والقنابل، والجراح، والموت، والفداء، والنصر.

ويورد الشاعر هذه المعاني الثورية في أسوب إنشادي على لسان البنت الجزائرية التي تحارب العدو بكل جوارحها ووجدانها وهي تنشد قائلة:

أنا بنت الجزائر	أنا بنت العرب
يوم نادى المنادي	ودعا للكفاح
قمت أحمي بلادي	وتركت المزاح
وصدقت جهادي	وغدوت الجناح
في صفوف القتال	أنا ألهب نارا
من أعالي الجبال	أنا أدعوا البدارا
في معاني النضال	أنا كنت المنارا
أنا أرمي القنابل	والمسدس جنبي
أنا أفدي المقاتل	بعيوني وقلبي
أنادي البواسل	حطموا غلّ شعبي

أما الشاعر صالح خباشة فينقل لنا من خلال شعره سنة 1957م جوانب أخرى من صورة المجاهدة وهي تمارس الأعمال في الجبل.

زيادة على هذا فالشاعر يعطينا المواصفات الجمالية المتميزة لهذه المجاهدة والتي لا شك أنها تختلف عن المواصفات الجمالية للمرأة العادية، فحزام هذه المجاهدة ليس فضة، لكنه من سبائك الخرطوش، وكفُّها مخضبة بالدم وليس الحناء، ويدها تلمع بمسدس وليس بسوار، وهي ملاك مع الجريح، ولبؤة مع العدو. وغيرها من المواصفات الأخرى التي تتميز بها المجاهدة التي أبرزها الشاعر من خلال استخدامه أسلوب التقابل بين الصور، وهذا ليجسد لنا الصورة الكلية للمجاهدة، وهذا في أسلوب وصفي إخباري إذ يقول:

بنت الجزائر والنضال يهزها	تاقت إلى خوض الغمار الدام
يشقت إلى الجبل الأشم مسالكا	مسدودة في أوجه الأخصام
لقد انتطقنا وما انتطقن بفضة	فسبائك الخرطوش خير حزام

ولهـا يـد لمـاعـة لا بالسـوار وإنمـا بمسـدس رجـام
والكف منهـا تنكر الحِنَّـا وقـد ألفـت خضـاب الـدم كـالأقـدام

ويواصل الشاعر خباشة في القصيدة نفسها تعداد الأعمال التي تقوم بها المجاهدة في الجبل، فهي إلى جانب إعدادها للطعام تخيط الملابس وتقوم بالتمريض وتحنّ على الجرحى في الوقت نفسه، تواجه العدو في ضراوة، يورد الشاعر هذه المعاني في أسلوب إخباري مباشر فيقول:

مـا بين مختلف الثيـاب تخيطهـا والنـار تضـرمهـا لطهي طعـام
أو حـول راقـنـة أناملـهـا تبـاري سـرعـة ألفـا من الأقلام
فـهـي المـلاك مـع الجـريـح ولـلمعـادي لبـؤة ترديـه في إقـدام

كما أن حضور المجاهدة مع إخوانها في الجبل يشكل رافداً معنوياً قوياً، فهي تقوي عزائمهم وتشجعهم بزغاريدها وثباتها على مقاومة العدو، وبذلك فهي حقاً . نموذج فذ للفداء، ورمز للبطولة وفي ذلك يقول الشاعر:

ش إن زغـردت في كـرة ذعـر العـدا مـنـهـا وأذكـت نارهـا بضـرام
أو رتـلـت في نصـرنا أنشـودة نـزلـت عـلـى الأحـرار بـرد سـلام
أصـبـحـت يا بـنـت الجـزائـر للبطولـة والفـدا علمـاً من الأعلام
وسـخرت بالتعـذيـب وهو فواجع بالصـبر كم أفللت حـدَّ سـهـام(1)

وهذا الشاعر صالح الجعفري العراقي يقول عن نضال النساء الجزائريات ومساهمتهن في إنجازات الثورة الجزائرية، حيث قال:

أرأيتَهُنَّ كأنهنَّ شحذن من زُبر الحديد
أو أنَّهنَّ بُعثنَ يوم الرَّوع خلقاً من جديد
كافحن بالصبر الجميل وبالحجارة والجريد
متهللات كالربيع مغرِّدات بالنشيد
متحليات بالشجاعة لا الحُليِّ ولا العقود
يجرُرْن أذيال الفخار نُسجن من كرم الجدود
يطلعن في أفق الجزائر مثل أقمار السعود
وينرن للأحرار أرجاء الطريق إلى الخلود
فإذا الغد المجهول وضَّاحُ المعالم والحدود
وإذا الغد المكتوم ذو لُسُن وذو شأن وطيد
يرجُمْنَ بالعزمات تُنذر بالهلاك وبالوعيد

(1) المصادر، العدد الخامس. 2001م ص 92.

زُمر الجبابرة الطغاة وكلّ شيطان مريد[1]

ب . صورة الأم:

إن بطولة المرأة الجزائرية لا تنحصر في صورة المجاهدة فحسب، بل تتعدد في صور شتى مختلفة، وهذا بتعدد أداور المرأة الجزائرية في المجتمع خلال الكفاح المسلح. وبطولة المرأة الجزائرية برزت أيضاً في صورة الأم التي أثبتت للمستعمر شجاعتها أمام المحن، والمواقف الصعبة التي تجاوزتها بصبر وأناة.

ويتصدر هذه المواقف الصعبة التي عايشتها الأم الجزائرية إبان الثورة المسلحة، وسجلها شعر الثورة الجزائرية في صفحاته الخالدة ؛ موقف الأم في قصيدة محمد العيد المعنونة «من وحي الثورة والاستقلال»، وهي تودع ابنها الوحيد ليلتحق بصفوف الثورة وتلقي عليه النظرة الأخيرة ولا تعرف هل يعود أم لا، ولا يخفى ما في هذا الموقف من حزن وأسى وما يسببه من معاناة واضطراب نفسي للأم إثر فراق ابنها، فلنتأمل مشهد الوداع بين الأم وابنها المثير للأشجان وهي تقول له:

ولــرب ثــكــلــى مــن وراء وحــيــدا	صـــرخــت ودمع العين يــدمي المجمر
ايا ذخر عمري، يا حشــاشــة مهجتي	يا طيــب عيشـــي يا غنــاي الأوفر
ايا أنــس مــأوى الحــزيــن وأنســـــه	مــأواي أوحــش منــذ غبــت وأقـفـر
ايا برء قلبي هــل تؤوب فــأشـــتفي	يا نور عيني هــل غبــت فــأبصـــر
ادنيــاي مظـلـمـة إلى يوم اللـقــاء	وحشــــــاي مضـــرمـة إلى أن تظهرا
إني أحس من الأســـى كبدي انمحت	ونــيــاط قــلــبي مــن نــواك تــبــتر
اأتـكـون حـيــاً يا تـرى؟ فـيـجـيـبـهــا	رجع الصدى «أتكون حياً يا ترى؟» [2]

نوفي الشمال القسنطيني في سنة 1955م، حين أحضر أحد الضباط الفرنسيين جثة ابنها الذي استشهد في غارة جوية وطلب من الحاضرين التعرف على هويته، فتقدمت الأم، وانحنت في جلال على ابنها الشهيد ثم أطلقت في الفضاء زغرودة أدهشت الحاضرين، وزادت دهشة الضابط الفرنسي، عندما قالت له الأم بكل اعتزاز: أنا فخورة بابني لأنه مات من أجل بلاده ولمثل هذا أعددته[3].

وقد قالت الشاعرة العراقية امال الزهاوي تصف في أثر الأم على المجاهدين في ساحات الوغى في قصيدتها «نداء الأم»، مهداة إلى المجاهدين الجزائريين حيث تقول:

ونداء أمي صارخاً أقوى من المتفجّرات

أقدم بُنيَّ على العدو كعاصفات صارخات

فبقُرب ضِيقك دائماً أخواتك المتذمرات

---

(1) الثورة الجزائرية في الشعر العراقي (16/2).

(2) المصادر، العدد الخامس 2001م ص 94.

(3) المصدر نفسه ص 97.

يشددن عزمك للتحرر من ليال حالكات

صرخاتُهن بوجه خصمك بالغناء مزمجرات

أصواتهن بجنب صوتك بالعدو منددِّات

يرقبن أيام الكفاح بأعيُنٍ متطلعات

ينشدن فجر الانتصار بأنفسٍ متلهفات[1]

إلى إن قالت:

أمَّاه صوتك لا يزال له بأعماقي رنين

فهو الضياء بظلمتي ولعُزلتي نصح ثمين

قد عشت في هذا النداء بكلِّ روحي من سنين

متحفزاً للثورة الكبرى بوجه الغاصبين

أمَّاه صوتك في الكفاح يرن من قلب حنون

يطغى على صوت التفجر كاسحاً وجه المنون

يبقى بأعماق الفؤاد صدىً تفجُّره دفين

من بعد عهد بيننا وأنا في عهد أمين

أماه إني في التحرر ماضياً لا بعد حين

سيظل عزمي كاسحاً بطش الفرنسيِّ اللعين

ويظل صوتي ساخراً بالمقصلات وبالسجون

حين يدوي صارخاً في فرحة النصر المبين

أمي الجزائر حرِّرت من قبضة الظلم المهين[2]

ج. صورة الزوجة:

وهناك صور أخرى للزوجة سجلها شعر الثورة، وهي تمثل نموذج الزوجة المخلصة الوفية لزوجها في أحلك الظروف، هذه الصورة تطالعنا في قصيدة قصة ثائر «للشاعر محمد الأخضر السائحي» ومن خلال أسلوب القصة، يجسد لنا الشعر موقف الزوجة الشجاعة التي تشد عزيمة زوجها، بل نجدها هي التي تحثه على الالتحاق بصفوف الثورة ليعود إليها بالنصر، لتحيا معه حياة كريمة، وبرهنت الزوجة الجزائرية عن مدى شجاعتها وعمق وعيها، إذ أنها لم تكتف بتشجيع زوجها لمحاربة العدو، بل انضمت هي الأخرى في صفوف المجاهدين، وهذا ما تلخصه لنا قصيدة «بالفداء تحيا الجزائر» للشاعر أبو الحسن علي بن صالح، إذ يحكي لنا قصة فدائي

---

(1) الثورة الجزائرية في الشعر العراقي (220/1).

(2) نفس المصدر (221/1).

وزوجته الفدائية الذين يلتحقان بالجبل ويضحيان بحياتهما في سبيل حرية الجزائر، وهذا سنة 1956م، يورد الشاعر أحداث هذه القصة في أسلوب الحكاية، والحوار بين الزوجين، فهذا الزوج يخاطب زوجته قائلاً:

عـزمـنـا أن نضـــحـي بالـغـوالي ... وبالأمــوال والمــهــج الــغــوالي

نضـــحـي بالـنسـاء وبالـرجـال ... ونـبـذل كـل مـرتخـص وغـالي

لـتحـريـر الـعـروبـة في الجـزائـر ... وداعـاً واصـبري صـبراً جمـيـل

اوإياك والـبـكـا ودعـي الـعـويـلا ... فـإن أمـامـنـا درباً طـويـل

ابـغـير الـعـز لا نـرضـى بـديـلا ... عـقـدنا الـعـزم أن تحـيـا الجـزائـر

وبعد أخذ ورد بين الزوجين تفاجأئ الزوجة زوجها بنضالها وعدتها الحربية التي كانت تخفيها عنه فيندهش الزوج لتكتمها وبطولتها، ويقرران في الأخير الالتحاق معاً إلى الجبل حيث الكفاح المسلح، ويصف الشاعر هذا الموقف الأخير بقوله:

هـنـا فتحـت حقيبتهـا وكـانـت ... أعـــدتهـــا مجـــهـــزة ودارت

لـتـلـبـس بـذلـة زرقـاء وراحـت ... تريـه مسـدسـاً ومُـدى، وقـالـت

أنا بـنـت الـفـدا بـنـت الجـزائـر ... تعجّـب من تكـتـمـهـا الـعـجـيـب

ومـن إخـفـاء بـطـولـتـهـا الـغـريـب ... فصـاح بـفـرحـة هـذا مُـنـايا

لـبـاة الـلـيـث لا تخشـى الـرزايا ... تخـوض بجـرأة بحـر المِـنـايا

وتـرسـلـهـا مـدويـة الشـظـايا ... لـتـحـرق كـل محـتـل وغـادر

فتجيبه الزوجة قائلة:

فـهـيـا لـلـمسـير بـكـل عـزم ... لـنـبـلـغ ذروة الجـبـل الأشـم

وحـاذر أن تـرانا يا ابـن عـمـي ... جـواسـيـس الـعـدو المـدلهـم

فإن الليل للثوار ساتر

وهكذا تلتحق الزوجة مع زوجها إلى ساحة الوغى ليفديا الجزائر وفي ذلك قال الشاعر:

إلى سـاح الـوغـى انـبريا وراحـا ... ومـن روح الـتـحـمـس مـا اسـتراح

اتـقـلـد مسـرعـاً كـل سـلاحـا ... ومـن روح الـفـدا اتخـذا وشـاح

اوصاحا: بالفدا تحيا الجزائر[1]

وهكذا تجلو لنا صورة الزوجة في شعر الثورة التحريرية، في مواقف شتى، وهذا ببطولتها ومعاناتها وإسهامها، في صناعة الحدث الثوري مع قافلة المجاهدين، وبتشجيعها لزوجها على الالتحاق بالكفاح المسلح، وهذا في «سبيل الله عز وجل» ثم عزة وكرامة الوطن[2].

(1) المصادر العدد الخامس عام 2001م ص 102.

(2) المصدر نفسه.

كما كان للأخت والبنت والعمَّة والخالة والجدة دور كبير في الثورة ونجاحها والتصدي لأساليب الغزاة.

وفي كتاب قوانين مجموعة: القوانين الداخلية لجيش التحرير الوطني لعلي بوداري ذكر:

المنشور رقم 9 بتاريخ 1957/5/2م

الموضوع: دور النساء المجاهدات

بمقتضى قرار لجنة الولاية يصدر القانون التالي للفتيات المجاهدات:

. التعيين:

يتم تعيين النساء المجاهدات في مراكز التمريض وهن ملزمات بمتابعة تربص طبي إجباري مسبقاً تحت إشراف مسؤول المصلحة الصحية للولاية، غير أن لهذا الأخير صلاحية إعفاء أية مجاهدة لا تتمتع بالتكوين المطلوب من متابعة التربص.

تخضع النساء المجاهدات داخل مركز التمريض لنفس النظام بالنسبة لعمال ذلك المركز ما عدا فيما يتعلق بشروط السكن والنقل اللذين كانا موضوع بلاغ خاص «إرسال خاص».

. دور النساء المجاهدات:

تقوم النساء المجاهدات بدور مزدوج:

. دور طبي.

. دور سياسي.

. في الدور الطبي: تقوم النساء المجاهدات داخل مراكز التمريض بدور الممرضة لدى المرضى، أما خارج المركز يعتنين بكافة العلاجات الطبية وبأعمال المرأة المدنية.

ولدى ممارسة هذا الدور تكون المرأة المجاهدة تحت مسؤولية الممرض الرئيس للقسم الذي تم تعيينها لديه.

. الدور السياسي والاجتماعي: فوق إقليم القسم الذي وجد لديه منصب التعيين تقوم المرأة المجاهدة لدى أخواتها الجزائريات بدور اجتماعي وسياسي.

. الدور الاجتماعي: يجب على المرأة المجاهدة أن تكون مؤمنة اجتماعية حقيقة في خدمة المرأة الجزائرية، فيجب عليها أن تسعى لتمكينها من العلاجات الضرورية التي يمكن أن تساهم في تخفيف متاعب المرأة أو تحسين ظروفها أو ظروف العائلة، وتنصحها فيما يتعلق بتربية الأبناء وشروط النظافة والصحة ..الخ..

ولممارسة هذه المهمة فإنه يجب على المرأة المجاهدة أن تلعب دور المستشارة الناصحة التي تنير وتقنع، ولا يجوز لها أن تعطي أمراً مهماً كان.

. الدور السياسي: إن المرأة المجاهدة يجب عليها أن تعلم المرأة الجزائرية كيف تدرك مشاكل الساعة، وعلى الأخص فهي ملزمة بأن تشرح لها معنى «حقيقة» جبهة التحرير الوطني، ما هي أهداف الثورة الجزائرية وافاق المستقبل.

إن النساء المجاهدات يجب عليهن أن يكن قادرات على الإجابة عن أي سؤال يمكن أن يطرح عليهن من طرف أخواتهن في هذا الموضوع، ثم تعريف المرأة الجزائرية بواجباتها والتزاماتها، وعليهن بصفة خاصة أن يبيّنّ لهن ماذا تنتظر منها جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني في دورها السياسي والاجتماعي؟ إن النساء المجاهدات يعملن تحت مسؤولية المحافظ السياسي للقسم، حيث يوجد منصب التعيين.

إن لجان المناطق والنواحي والأقسام وكذا الأطباء والممرضون والممرضات مكلفون بتنفيذ هذا المنشور[1].

9 . التعبئة المعنوية بالإسلام وقيمه:

لقد تمسك الشعب الجزائري بالإسلام وعقيدته السمحة، وعمل بها وبمبادئه. وردَّ بذلك على سياسة الفرنسة والتنصير والتمسيح التي طبقتها فرنسا الاستعمارية على مدى قرن وثلث القرن في إطار الحرب الصليبية التي شنتها على الشعب الجزائري منذ عام 1830م إلى مطلع عام 1954م تاريخ اندلا ع ثورة أول نوفمبر المباركة، وعملت بكل وسائلها وإمكاناتها المادية والأدبية من أجل تنصير وتمسيح الشعب الجزائري وبلاد الجزائر، ولكن بدون جدوى على أي حال، لأن الشعب الجزائري مؤمن ومسلم بالأصالة، وشديد التمسك به وبعقيدته الإسلامية وقرانه ولغته القرانية أباً عن جد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وبفضل ذلك الإيمان الراسخ والتمسك به، صمد كالجبال الراسيات ووقف وقفة العمالقة، وأفشل كل محاولات الاستعمار من أجل اختراقه وفصله عن دينه وعقيدته الإسلامية، التي بفضلها وفضلها فقط مع شجاعة المجاهدين حقق الانتصار الأكبر غداة شهر جويلية 1962م على أعتى قوة عسكرية انذاك.

لقد أسهم الإسلام والقران، ولغة القران، وحضارة القران في حشد قوى الشعب الجزائري للدفاع عن الحرية والاستقلال ومقاومة ومحاربة الظلمة والمعتدين والكفرة الجاحدين عبر التاريخ، وتعتبر ثورة أول نوفمبر 1954 . 1962م بالنسبة للشعب الجزائري مثالاً ونموذجاً للتحدي والمواجهة والصمود ضد المحتلين الفرنسيين الاستعماريين تحت مظلة الإسلام، ولواء كلمة «الله أكبر».

وفي إطار الجهاد والمجاهدين، إذ إسترخص المجاهدون الجزائريون المسلمون أرواحهم وحياتهم وأسرهم وأملاكهم في سبيل حماية الإسلام والعقيدة الإسلامية والقران، ولغة القران، وحضارة القران، وقاوموا سياسة الفرنسة والتنصير والتمسيح التي مارسها الاستعمار الفرنسي قرناً وثلث القرن ضد الشعب الجزائري دون أن يحقق أهدافه الاستعمارية التي تلاشت أمام صمود الشعب الجزائري بفضل الله ودينه العظيم.

فالإسلام هو مفتاح سعادة الشعوب الإسلامية والشعب الجزائري الذي ندوِّن في تاريخه المجيد.

ولولا الإسلام ما كانت ثورة أول نوفمبر الكبرى أصلاً، ولما كتب لها النصر بعد أن اندلعت، لأن الإسلام هو الجدار والخندق الفاصل بين الشعب الجزائري، وفرنسا المسيحية الاستعمارية، ولولاه لنجحت في تمسيحه[2]، وتنصيره.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) الثورة في الولاية الثالثة التاريخية ص 270.

أ . محمد البشير ومقالاته التعبوية:

استمر العلامة محمد البشير الإبراهيمي في مقالاته وتوجيهاته الحماسية للشعب الجزائري، فكتب الكثير من المقالات، وسافر وجمع المال لدعم الثورة وجلب لها الدعم المعنوي والمادي، ومن أشهر مقالاته في تأجيج حماس الشعب والثوار ضد الاحتلال.

.كيف تنجح الثورة؟

الثورة القائمة في الجزائر، يتوقف نجاحها على تحقيق ثلاثة أشياء: الإطالة، والتعميم، والسلاح،وبهذه الثلاثة نجحت كل الثورات التي وقعت في العصور القريبة علىالاستعمار، فثورة ليبيا على الاستعمار الإيطالي دامت عشرات السنين حتى أقضّت مضاجع الطليان من عسكريين وسياسيين، وثورة الهند الصينية على الفرنسيين الغاصبين دامت ثماني سنوات.

وإذا كان من سر نجاح ثورة الشهيد عمر المختار اعتصامه بالجبل الأخضر، فإن في الجزائر عشرات من الجبال تفوق الجبل الأخضر في الارتفاع ووعورة المسالك وكثافة الغابات الطبيعية، وليس جبل أوراس بأولها ولا باخرها، وهي ممتدة على طول القطر الجزائري من حدود تونس إلى حدود مراكش، وتوازيها سلسلة الأطلس الصغرى على طول سواحل مقاطعة قسنطينة، وثلثي مقاطعة الجزائر، وفيها من القمم الصخرية الوعرة والغابات ما لا يقل عن قمم وغابات الأطلس الأكبر.

فالجزائر مسلحة بهذا السلاح الطبيعي الذي لا يوجد في غيرها إلا قليلاً، غير أنه لا يحسن الاعتماد عليها كثيراً في هذا العصر الذي من أسلحته الطائرات والقنابل الثقيلة وأسلوب التطويق والحصار الذي يقطع الإمداد على المعتصمين بالجبال، ثم هذا الأسلوب الذي اهتدت إليه إيطاليا في أخريات ثورة عمر المختار، وهو ترحيل سكان القرى بالجبل وسفوحه وإبعادهم عن المجاهدين، ثم وضعهم في الأسلاك الشائكة المكهربة على ما يقرب من مئتي كيلومتر على الحدود المصرية، وهذا الصنيع نفسه قد بدأت فرنسا في سلوكه بجبل أوراس، فقد أفادت وكالات الأنباء أنها أمرت سكان القرى الامنة بالنزوح عنها كيداً لهم ومكراً بهم، حتى تنزل النكال بالثائرين ولو بتسليط النار على الغابات كلها.

وأما تعميمها فهو شرط أساسي لنجاحها لأنه يوزع القوى الفرنسية، ويقوي تأثير الرعب في نفوس المعمرين أصحاب المزارع والضياع، وهذا التعميم متوقف على الأسلوب الذي يجري عليه الثائرون في جبل أوراس، وعلى التوجيه السري الذي يباشره الدعاة إلى الثورة، والمغذون لها بالرأي والإمدادات المادية.

وأما التسليح فهو أصعب الأشياء، لأن الجزائر محاطة بمراكش وتونس، ولا يمكن التسليح إلا منها، وفرنسا محتاطة من عشرات السنين لهذه القضية بخصوصها، وما احتلت فزان إلا لهذا، وما بادرت بمفاوضة التونسيين وإسكات الفدائيين في تونس إلا لهذا، فعلى الرجال والهيئات العاملة لخير الجزائر خاصة والمغرب العربي عامة حصر أعمالها واهتمامها في هذه النقطة، ومع الجد والعزيمة والصدق والصبر وحسن التدبير يهون كل عسير[1].

---

(1) موقف الإمام الإبراهيمي (498/1).

ب . موالاة المستعمر خروج عن الإسلام:

قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في كلمة أُلقيت بإذاعة صوت العرب بالقاهرة عام 1955م جاء فيها:..

إن الإسلام والاستعمار ضدان لا يلتقيان في مبدأ ولا في غاية، فالإسلام دين الحرية والتحرير، والاستعمار دين العبودية والاستعباد.

. والإسلام شرع الرحمة والرفق وأمر بالعدل والإحسان.

. والاستعمار قوامه على الشدة والقسوة والطغيان.

. والإسلام يدعو إلى السلام والاستقرار.

. والاستعمار يدعو إلى الحرب والتقتيل والتدمير، والاضطراب.

. والإسلام يثبت الأديان السماوية ويحميها، ويقر ما فيها من خير ويحترم أنبياءها وكتبها، بل يجعل الإيمان بتلك الكتب وأولئك الرسل قاعدة من قواعده وأصلاً من أصوله.

والاستعمار يكفر بكل ذلك، ويعمل على هدمه، خصوصاً الإسلام ونبيه وقرانه ومعتنقيه.

نستنتج من ذلك أن الاستعمار عدو لدود للإسلام وأهله، فوجب في حكم الإسلام اعتبار الاستعمار أعدى أعدائه، ووجب على المسلمين أن يطبقوا هذا الحكم الإسلامي وهو معاداة الاستعمار لا موالاته.

الاستعمار الغربي . وكل استعمار في الوجود غربي . يزيد على مقاصده الجوهرية وهي الاستئثار والاستعلاء والاستغلال، مقصداً اخر أصلاً وهو محو الإسلام من الكرة الأرضية خوفاً من قوته الكامنة، وخشية منه أن يعيد سيرته الأولى كرة أخرى.

وجميع أعمال الاستعمار ترمي إلى تحقيق هذا المقصد، فاحتضانه للحركات التبشيرية وحمايته لها وسيلة من وسائل حربه للإسلام.

وتشجيعه للضالين المضلين من المسلمين غايته تجريد الإسلام من روحانيته وسلطانه على النفوس ثم محوه بالتدريج، ونشره للإلحاد بين المسلمين وسيلة من وسائل محو الإسلام، وحمايته للافات الاجتماعية التي يحرمها الإسلام ويحاربها .كالخمر والبغاء والقمار. ترمي إلى تلك الغاية، ففي الجزائر . مثلاً . يبيح الاستعمار الفرنسي فتح المقامر لتبديد أموال المسلمين، وفتح المخامر لإفساد عقولهم وأبدانهم، وفتح المواخير لإفساد مجتمعهم. ولا يبيح فتح مدرسة عربية تحيي لغتهم، أو فتح مدرسة دينية تحفظ عليهم دينهم.

ويأتي في اخر قائمة الأسلحة التي يستعملها الاستعمار الغربي لحرب الإسلام اتفاقه بالإجماع على خلق دولة إسرائيلية في صميم الوطن العربي وانتزاعه قطعة مقدسة من وطن الإسلام وإعطائها لليهود الذين يدينون بكذب المسيح وصلبه، وبالطعن في أمه الطاهرة.

فالواجب على المسلمين أن يفهموا هذا، وأن يعلموا أن من كان عدواً لهم فأقل درجات الإنصاف أن يكونوا أعداء له، وأن موالاته بأي نوع من أنواع الولاية هي خروج عن أحكام الإسلام، لأن معنى الموالاة له أن تنصره على نفسك وعلى دينك وعلى قومك وعلى وطنك.

والمعاذير التي يعتذر بها الموالون للاستعمار كالمداراة وطلب المصلحة، يجب أن تدخل الموازين الإسلامية، والموازين الإسلامية دقيقة تزن كل شيء من ذلك بقدره وبقدر الضرورة الداعية إليه، وأظهر ما تكون تلك الضرورات في الأفراد لا في الجماعات ولا في الحكومات.

وموالاة المستعمر أقبح وأشنع ما تكون في الحكومات، وأقبح أنواعها أن يحالف حيث يجب أن يخالف، وأن يعاهد حيث يجب أن يجاهد، وأقبح ما فيها من القبح أن يحالف استعمار على حرب استعمار.

وقد كانت الحروب قبل اليوم لمعان بعضها شريف، وقد يكون أحد الجانبين فيها على حق، أما هذه الحروب التي لا تنتهي الواحدة منها إلا وهي حامل مقرب بأخرى أشد منها هؤلاء، وأشنع عاقبة، فلم يبق فيها شيء من معاني الشرف ولا من معاني الرحمة ولا من معاني الكرامة الإنسانية، وإنما هي حروب مجنونة يبعثها الاستعلاء والتسلط على الضعفاء والاستئثار بخيرات أرضهم، والضعفاء دائماً هم الأدوات التي تقع بها الحروب، وتقع عليها الحروب، فهم في السلم محل النزاع، وفي الحرب ميدان الصراع.

لا مثال للبلاهة والبلادة أوضح من مخالفة الضعيف للقوي ؛ إلا إذا صح في الواقع وفي حكم العقل أن يحالف الديك النسر، أو تحالف الشاة الذئب.

كيف نحالف الأقوياء وقد دلت التجارب أنهم إنما يحالفوننا ليتخذوا من أبنائنا وقوداً للحرب، ومن أرضنا ميداناً لها، ومن خيرات أرضنا أزواداً للقائمين بها، ثم تنتهي الحرب ونحن المغلوبون الخاسرون على كل حال، وقد تكررت النذر فهل من مدكر؟

أيها المسلمون أفراداً وهيئات وحكومات:

لا توالوا الاستعمار فإن موالاته عداوة لله وخروج عن دينه.

ولا تتولوه في سلم ولا حرب، فإن مصلحته في السلم قبل مصالحكم وغنيمته في الحرب هي أوطانكم، ولا تعاهدوه فإنه لا عهد له، ولاتأمنوه فإنه لا أمان له ولا إيمان.

إن الاستعمار يلفظ أنفاسه الأخيرة، فلا يكتب عليكم التاريخ أنكم زدتم في عمره يوماً بموالاتكم له، ولا تحالفوه فإن من طبعه الحيواني أن يأكل حليفه قبل عدوه[1].

ج . فرنسا وثورة الجزائر:

مسودة هذا المقال كتبها الشيخ العلامة الإبراهيمي في القاهرة سنة 1959م:

إذا كانت النتائج تنتزع من المقدمات ؛ فإن النصر للثورة الجزائرية. هذا ما تحكم به العقول الراجحة، وتقتضيه أصول الاجتماع الإنساني، وتؤيده العادات الجارية، إنما نحن في عالم أسباب ومسببات، تصطرع فيه سنن ثابتة لا تبديل فيها ولا تغيير، والثورة الجزائرية دائرة في هذا المدار من أول يوم، جارية على السنن التي يقتضيها التدافع البشري في الحياة، على مقدار من حالها وظروفها وإعداد ما يطلب مثله من مثلها، وهي تجبر نقصها في الإعداد الحسي الذي تقتضيه السنن بإعداد روحاني له أثر في نتائج الصراع بين كل مجموعتين، وله وزنه في

(1) المصدر نفسه (503/1، 504).

ترجيح كفة على كفة، وله قيمته في نصر العدد القليل على العدد الكثير، ذلك كله ثابت بشهادة الدين وشهادة الحس، فالقوة المادية التي ساقتها فرنسا على المجاهدين الجزائريين في هذه الحرب تفوق قوة الجزائريين أضعافاً مضاعفة، بل نسبة قوة الجزائر إلى قوة فرنسا هي نسبة الصفر.

وأين من لا يملك طائرة واحدة ممن يملك الاف الطائرات، ويزاد عليها وفرة العدد، واتصال المدد، ووفرة القوات، وكل ما يعرفه الناس من الأسلحة المضادة، ولكن الجزائريين يملكون قوة أخرى لا يملكها الفرنسيون، يملكون القوة الروحية، وقوة النفوس الطاهرة، وقوة العزائم الثابتة، وقوة التصميم الذي لا يطرقه الوهن.

يملكون توحيد القصد، وصدق التوجه، وشرف الغاية، بحيث لا يضل بهم فيها سبيل، ولا تختلف لهم وسيلة، ولا يزيغ لهم رأي، ففرنسا تقاتل على باطل وهو الاستعمار، والمجاهدون يقاتلون على حق وهو عزة الحياة وكرامة العروبة ومجد الإسلام. وفرنسا تقاتل في سبيل استعباد الإنسان وامتهان كرامته، وهم يقاتلون في سبيل تحريره وإسعاده وعزته، فهل يستويان مثلاً[1]؟

. فرنسا استعمارية:

واستمر العلامة الإبراهيمي في مقاله وبين بأن:

فرنسا استعمارية بطبيعتها ولا تلتذ من ثمرات الاستعمار إلا بإستعباد المستضعفين من خلق الله، وانتهاك حرماتهم،والرقص على جثثهم، والطرب لأنينهم، وعندها أن نهب الأموال وسلب الأرزاق وتجريد الضعفاء من أسباب القوة، ونشر البؤس والأمراض، كل ذلك يأتي في الدرجة الثانية بعد تعذيب الأبدان وسلب الإرادات وقتل الضمائر، وكأنها في القرن الأخير تنبهت إلى أنها وارثة الرومان الأقدمين فأرادت أن تبلغ مثل ما بلغ الرومان، أو فوق ما بلغ الرومان، من اتساع الرقعة وبسط السلطان، وسَوق العالم بعصا القوة والبطش، وكان يمكن أن تبلغ هذا في غفلة من الدهر وفي ساعة انكدار النجوم وإدبار الأيام، وتسلط النحس على كثير من الشعوب، كما كان يمكن أن تبلغ هذا من طريق الإحسان والعدل.. ولكنها الأعراق المتأصلة في الخبث لم تدع لها منفذاً لتصوير شيء اسمه العدل، أو شيء اسمه الإحسان[2].

. فما رأينا استعماراً أفجر من فرنسا:

تنتحل فرنسا وصف العظمة، والعظمة نوعان:

عظمة نفسية طبيعية في الأفراد أو في الشعوب، وعظمة مزورة مصطنعة، ومرجع الأولى إلى سمو الروح الإنساني الذي تنشأ منه الفضائل كلها، كالرحمة والمحبة والعدل والإحسان والوفاء والصدق والعفة، وهذه هي أمهات الفضائل في الأفراد وفي الشعوب، ومن فضل الشيطان على فرنسا أنها عارية من هذه الفضائل كلها، وتاريخها الاستعماري المديد كله شهادة ناطقة بهذا، فما رأينا استعماراً أفجر من الاستعمار الفرنسي، ولا أخشن منه

(1) مواقف الإمام الإبراهيمي (602/1).

(2) المصدر نفسه (302/1).

مساً، فهو يتعمد جعل الرذائل أساساً لحكمه ومعاملته للضعفاء الذين يقعون في قبضته، فمن ظلم لا رحمة معه إلى استئثار لا عدل فيه، إلى نهم لا قناعة فيها، إلى لصوصية لا حد لها، ولو اقتصر بلاؤه على الظواهر المادية لهان الأمر قليلاً، لكنه يجاوزها إلى الدين، وإلى عقائده في النفوس، وإلى مدب السرائر ومعتلج العواطف، وإلى الصلات الروحية بين الأخ وأخيه، وبين الجار وجاره.

ومن لئيم المكر والكيد والإضلال في هذا الاستعمار ؛ أنه يعتمد على القانون، والقانون هو الذي يضعه، وهو الذي ينفذه وهو الذي يطبقه، كما شاءت أهواؤه في التشريع والتنفيذ. ومن تعمقه في المكر وقلب الحقائق، أنه يسخِّر تلك القوانين لحماية الرذيلة، فالذي يفتح مدرسة لتعليم الأطفال مبادئ دينهم ولغتهم مجرم مخالف للقانون، أما الذي يفتح مخمرة يفسد بها عقول الناس ويتلف أموالهم فهو حر تحميه تلك القوانين، وأمثال هذا كثير.

هذه وأمثالها هي الأساطين التي بنيت عليها العظمة الفرنسية التي أثمرت هذا الاستعمار، والتي ما زال يتبجح بها ساسة فرنسا والمغرورون من رجال الاستعمار فيها، ولو أن هذا التبجح ارتفع صوته قبل الحربين العالميتين ويوم كانت تتمتع بسمعة عسكرية، ترهب وتخيف، لقلنا: لعل وعسى، فأما بعد تلك الحربين، وبعد ثورة الهند الصينية، وبعد ثورة الجزائر، فقد كشفت المحسوسات أن النفسية التي لا تعتمد . أول ما تعتمد . على الروح هي عظمة زائفة دعية.

إن هيبة الأسد تنبعث من أظافره وأنيابه، فإذا أصبحت أظافره مقلمة وأنيابه مهشمة، فقد بطل سحره وضاعت هيبته.

إن العظمة الحقيقية لا تتحدث عن نفسها بلغة الكلام، وإنما تفصح عنها الحقائق الملموسة من أعمال ومعاملات وصدق يحوط ذلك كله، ولأمر ما لم تعل هذه النغمة بالتحدث عن عظمة فرنسا قديماً في أيام صعود نجمها، وإقبال أيامها، وإنما كثرة تردادها في هذه السنوات الأخيرة، كان ذلك مقصوداً لتغطية الهزائم المتلاحقة على فرنسا في الميدانين السياسي والاجتماعي.

ولو كان الساسة الفرنسيون عقلاء لهداهم العقل الرصين الرزين إلى التي هي أقوم، وهي تبديل العقلية العتيقة كما يبدل أحدهم ثوبه إذا اتسخ، ولأرشدهم إلى تطهير الروح المدمرة، واستبدال السيئة بالحسنة، والظلم بالعدل، والاستئثار بالإيثار، والأنانية بالمساواة، وسوء المعاملة للناس بحسن المعاملة، ولكنهم عموا عن رؤية الحقائق الماثلة، وصموا عن سماع الكلمة العاقلة، فكان نظافة البدن عندهم أهم من نظافة النفوس، وكأن تدبير الجسد ألزم في نظرهم من تدبير الممالك.

كانت فرنسا وما زالت ثائرة على الشعب الجزائري، ثورة متماسكة الحلقات من قرن وربع قرن، يعني من معارك الاحتلال الأول، فلم ينطفئ لها غيظ باستسلام الجزائريين وبإلقائهم السلاح، بل بقيت الأحقاد تغلي وتظهر اثارها في كل ما تعاملنا به فرنسا.. تظهر في القوانين المسنونة لحكمنا، وهي قوانين خاصة بنا، وفي التعاليم

التي يسير صغار حكامها فينا، وهي استمرار نزع الأرض الصالحة من الأهالي بالقوة وإعطائها إلى المعمر الأوروبي أيا كان جنسه، وفي الاستيلاء على جميع معابدنا وأوقافنا وزيادتها في رقعة الاستعمار.

ولم يكفها هذا، بل حرمتنا من اختيار أئمتنا ووضعت المساجد تحت يدها، وأصبحت هي التي تعين الإمام والمؤذن والقيّم، لتسخرهم في أعمال بعيدة عن الدين، امتهاناً لكرامة الدين، ولقد بلغ هذا الامتداد حدّه في المدة الأخيرة. فسخرت جميع رجال الدين الموظفين للتجسس على إخوانهم، وأصبح تجسسهم لها شرطاً في الوظيفة الدينية.

وحرمت علينا تعلم ديننا إلا بمقدار لا يغني ولا يفيد، وحرمت علينا تعلم لغة ديننا حتى المبادأئ الطفيفة، وحرمت علينا تعلم لغتها إلا بمقدار ضئيل تهيئنا به لخدمة الحكومة في وظائف الترجمة ولخدمة السادة المعمرين، ولولا تيار من النهضة طغى منذ ثلاثين سنة تقريباً فدفع طائفة من شباب الأمة إلى اقتحام أسوار الكليات والجامعات إليها، لولا ذلك التيار لما وجدت هذه الطائفة القليلة التي تحمل لواء الثورة اليوم، ولما كانت النهضة السياسية التي تقدمت الثورة.

وضربت فرنسا بيننا وبين إخواننا في الشرق سداً منيعاً وستاراً حديدياً، أين منه ستار الروس، ومن فروع هذا السد أنها لا تسمح برخصة الحج الذي هو فرض ديني إلا لأتباعها المخلصين، ومع إخلاص هؤلاء الأتباع فإنها تحيطهم بسياج من الجاسوسية، ولا تسافر قافلة الحج إلا تحت رئاسة حكم إداري استعماري من الطراز الأول، يبقى في «جدة» ويدخل جواسيسه من الحجاج إلى الحرمين وهو متصل بهم في كل دقيقة.

هذه جوانب بارزة من ثورة فرنسا المستمرة علينا، وهي حقائق يراها كل جزائري، ولكننا ضربناها أمثلة وأقمناها شواهد، وبعدها فروع تتناول جزئيات حياتنا الفكرية والعقلية والمادية.. فانظروا هداكم الله كيف تحيا أمة على قوانين جائزة يضعها عدوها ولم يشركها في وضعها ولا تنفيذها[1].

. أسباب حرب فرنسا للثورة:

ومن أسباب هذه الثورة في فرنسا علينا أننا عرب، وأقوى أسبابها أننا مسلمون، وأننا لم ننس الوشائج المتشابكة بيننا وبين بني أبينا من الشرق العربي، وبيننا وبين إخواننا من الشرق الإسلامي، وأننا نؤمن بالقومية العربية إيماناً راسخاً ونفخر فخراً طالما أطار صواب رجال الاستعمار، ولحقنا بسببه من الأذى ما لا يعلمه إلا الله، وأننا نولي وجوهنا شطر البلاد العربية التي هي مشرق ديننا، ومجتمع أنسابنا، والصفحة الأولى التي خط عليها تاريخنا، فما بال فرنسا حاضنة الإنسانية بزعمها، بثورتنا عليها أربع سنوات، ويطيش صوابها إلى درجة الجنون، فتسوق علينا الجيوش الجرارة بالأسلحة الفتاكة وتتدلى بأخلاقها إلى الوحشية، فتعذب الأبرياء فنوناً من العذاب لا تخطر على بال، ثم تقتلهم بطريقة يتبرأ منها الوحش الضاري الموكل إلى غرائزه، ثم تمعن في تقتيل الأمهات الحوامل والأطفال العجزة الذين تحرم قتلهم قوانين السماء وقوانين الأرض، مما يدل دلالة على أنها مصممة على إبادة الجزائريين.

(1) المصدر نفسه (605/1).

من هنا يأخذ العلماء والأخلاقيون الدليل على أن الشر أصيل، وأن حديث الخير والمدنية والعلم في الشعب الذي تنبت فيه هذه الموبقات حديث خرافة.

صحيح أن الاستعمار والاستعباد استغلال في أول أمره، ثم ينقلب التذاذاً بالتسلط والاستعباد في وسط أمره، فإذا بلغ أشده أصبح سعاراً كالكلب المكلوب، ثم يصبح مرضاً عضالاً في أهله لا ينفع فيه علاج، والحكيم كل الحكيم هو من يكتشف دواء لداء الاستعمار في نفوس الاستعماريين، فهو والله أخطر وأشد فتكاً بالبشرية من داء السل والسرطان، وإنني أتلمح أن داء الاستعمار أيسر علاجاً من داء السل والسرطان، وأنه لو تداعى عقلاء الأمم وأطباؤه الروحانيون وأخلصوا في مكافحته لاجتثوه من أصوله[1].

ـ ثورة الجزائر على الظلم والجور والاستعباد:

كانت ثورة الجزائر من أول يوم تحمل فيما تحمل من معان أنها ليست ثورة على فرنسا من حيث أنها دولة، ولا على الفرنسيين من حيث أنهم أمة، فنحن أعقل من أن نثور ثورة مستميتة على حكومة أو على جنس كيفما كانت تلك الحكومة أو ذلك الجنس، ونحن قوم أدبنا ديننا أن الحرب مفسدة ولا ترتكب إلا لدفع مفسدة أعظم منها، وأوصانا بأن لا نغمس يداً في فتنة وأن لا نبدأ أحداً بالقتال، وأن لا نقاتل إلا من قاتلنا، ولا أن نركب إلا أحسن المحامل ما دام جزء من المائة حسناً، وأعلمنا أن الحسنات يذهبن السيئات، ولكن ما ذنبنا إذا بدأنا الاستعمار الفرنسي بالشر وسوء المعاملة، وحرمنا من جميع مقوماتنا واعتدى على ديننا فتعمده بالمسخ وعلى شعائرنا فتعمدها بالتعطيل، وعلى مساجدنا فتعمدها بالهدم، واتخذ من بعضها كنائس، وعلى لغتنا فتعمدها بالمحو، وعلى فضائلنا فغمرها بالرذائل حتى أصبح الجو الذي يجمعنا وإياه كله عاتم غائم ليس فيه إشراق ولا صفاء، وقد صبرنا على هذه الحالة التي لا يصبر عليها إنسان ولا حيوان مدة تزيد عن القرن، فهل من عاذر؟ وهل من منصف؟ وهل من عاقل؟ وهل من معين؟

وكانت ثورة الجزائر من أول يوم تحمل فيما تحمل من معان أنها ثورة على الظلم والجور والاستعباد، وتلك الشرور التي ضربنا الأمثلة على سائرهافي هذه الكلمة، وكذلك النفوس الحرة إذا بلغ بها الضيم مبلغاً تزنه بالموت فيرجح، وتيأس من خير الحياة وخير الأحياء، وتتلمس المخرج إلى نور الحياة من جهاتها الست فلا تجده إلا ضرباً من المحال، فهي معذورة حين تتلمس الراحة من طريق التعب، والحياة من طريق الموت، وهي معذورة إذا اندفعت في طلب الموت بأكباد حرار إليه، ظمأى إلى موارد الردى لا ترهبها قوة عدوها ولا تخيفها وفرة سلاحه، لأنها وزنت أمسها وغدها بالقسط، فأقدمت وعلى بصيرة من أمرها، وقرأت حسابها لما تجره عليها الحرب من تشتيت شمل وتحيّف مال، وعلمت أنها إن لم تلق الموت مرفوعة الرأس لقيها الموت وهي مطأطئة ذليلة، وهو ميزان ـ كما ترون ـ لا يستخدمه ولا يركن إليه إلا من كان في مثل حالة الشعب الجزائري في الظلم والهضيمة، وهي ـ كما ترون ـ مغامرة لا يغامرها إلا من يؤثر الموت المعجل على الموت البطيء.

---

(1) المصدر نفسه (606/1).

وإن لم يكن إلا الأسنّة مركباً فلا يسع المضطر إلا ركوبها[1]

فهذا شعب أصيل وقفت به صروف الدهر على صراط أدق من الشفرة، وحملته على تجرّع واحد من اثنين أحلاهما مرّ، فلا تلوموه إذا حكَّم السيف وترك للأقدار تقدير العواقب، وقد تولته العناية الإلهية، فلم يزل منذ خطا الخطوة الأولى في السبيل الذي رضيه، يستنشق من نفحات النصر الإلهي والتأييد الرباني ما ينعشه ويشدّ عزيمته، وما زالت تنفحه من روائح النصر في كل خطوة ما يدفعه إلى الخطوة الثانية مسدد الخطى، وهو إلى هذه الساعة مغتبط بما يقدمه لعدوه من هزائم يزيد من مرارتها في ذوق العدو وحرارتها في صدره.. أن هؤلاء المجاهدين لا يقاتلونه بالأسلحة التي تعرفها الحرب، وإنما يقاتلونه بسلاح الإيمان والثقة بالله وبالنفس، إنما يقاتلونه بالسلاح الذي يعرفه منهم يوم كانوا معه جنباً إلى جنب في الحربين الماضيتين، وما ذلك السلاح إلا الشجاعة والإقدام والثبات، وإذا جاء نصر الله بطل كيد الأقوياء.

ليت شعري، أية فائدة حقيقية تجنيها فرنسا من وراء هذه الحرب؟ وأي مغنم منها؟ نحن نعرف الجواب الصحيح:

إن الفوائد من هذه الحرب لا تعود إلى فرنسا كدولة، ولا إلى الفرنسيين كأمة، ولا تعود إلى التاريخ الفرنسي بصفحات زاهرة بالفخر، مشرقة بالمجد، وإنما تعود إلى طائفة مخصوصة يسمونها ظلماً «المعمرين»، وهي التي خربت الجزائر ويوشك أن تخرب فرنسا، وتأتي بنيانها من القواعد لجشعها وأنانيتها وحرصها على جمع المادة[2].

إن هذه الثورة أثارت كوامن الأحقاد الدفينة في صدور الفريقين، وكلما امتد عمر الثورة يوماً ازدادت نار الحقد اضطراماً، فلا يبقى في قلب واحد من المتحاربين مكان للصفاء، فالمعمرون والجيش المسخر لخدمة أغراضهم وفرض أنانيتهم يمعنون في التنكيل بمن أوقعهم القدر في قبضتهم من المستضعفين، وما ينقمون منهم إلا أنهم حملوا السلاح في وجه أسيادهم، ورجال المقاومة من المجاهدين ممعنون في التنكيل بالجيش الفرنسي وبجميع أفراد هذه الطائفة وإلحاق الهزائم الفاضحة بهم، وتلطيخهم بالعار الذي لا يمحوه الدهر، وعذر المجاهدين في هذا أن هذه الطائفة هي أصل البلايا التي أحاطت بالشعب الجزائري، فكيف يمكن، بل كيف يتصور مع هذا كله أن يتناسى الفريقان أيام القتال وما صاحبها من تقتيل وتشريد للجزائريين؟ وما وقع فيها من انتهاك لحرمة هؤلاء الفراعنة المتألهين، وتحطيم لمزارعهم وقضاء على سلطانهم، وخرق لحجاب هيبتهم وتكدير لمعيشتهم، واغتيال لطائفة كبيرة من أعوانهم الذين كانوا يجرون في أعنتهم، وإنه لأمر عظيم عندهم.

والخلاصة أن الحالة بيننا وبينهم وصلت إلى حد لا يمكن معه أن نجتمع تحت سقف واحد، ولا أن نعيش في وطن واحد[3].

. طلب الدعم للثورة الجزائرية:

(1) المصدر نفسه (608/1).

(2) المصدر نفسه (609/1).

(3) المصدر نفسه (612/1).

أيها الإخوان:

إن إخوانكم يستنصرونكم فعليكم النصر، وإنهم يقاتلون لأجلكم فاعرفوا لهم حقهم في هذا القتال، وإن مواقفهم المجيدة في هذه الثورة شرّفتكم جميعاً، وإن نصرهم نصر لكم، وإن فشلهم محسوب عليكم، وإن الاستعمار عدو لكم جميعاً، وإنه إن انتصر فسيذيقكم عذاب الهون جميعاً.

أيها الإخوان:

لا تخطبوا للجزائريين، فقد شبوا في طوق الخطب، ولا تنشدوا لهم القصائد فعندهم ما هو أفصح منها، إن العضب الطرير في يد الشباب الضرير لأفصح من كل خطيب، لقد خطبنا فيهم يوم كانت لهم اذان تسمع للخطب والأشعار، لنغمز إباءهم ونستثير حميتهم، فلما تأثروا ثم ثاروا نطقت البنادق وسكت الخطباء والشعراء، إن شعراء الجزائر وخطباءها الذين أفلتوا من عذاب فرنسا في سجونها ومعتقلاتها كلهم في الجبال قد شغلهم أخذ الثأر عن قول الأشعار، وجِّهوا خطبكم لهذه الجموع المقصرة، وللجماعات غير السامعة ولا المبصرة، املؤوا أيدي إخوانكم سلاحاً يملؤوا تاريخكم محامد وماثر، ويملؤوا قلوب أعدائكم رعباً ورهبة، اكفوهم مؤونة الأيام يكفوكم مؤونة القتال.. إن بقايا الموت من أطفال ونساء وشيوخ عجَّز قطع الموت كل ما بينهم من صلات فهم هائمون مشردون، وقد وصلت فلولهم إلى هذا الشرف.

إن إخوانكم المجاهدين قد قاموا دونكم بواجب القتال، وإنهم لا يحتاجون منكم عوناً من الرجال، فقوموا لهم ببقية الواجبات.

إن المسألة ليست تكفين ميت وتجهيزه يقوم بها غني واحد، لا بل الأمر أعظم من ذلك، إنها ثورة التهمت الأخضر واليابس من جنود فرنسا وثروتها وأموالها المخزونة، وأوقفتها على حافة الإفلاس، كما التهمت ثروة الجزائريين على تفاهتها، فالفلاحة والتجارة وهما كل ما يعتمد عليه الجزائري، قد رمتها الجيوش الفرنسية بالنهب والإتلاف، وإن أخوف ما نخافه على ثورة الجزائر هو أن يجوع الشعب الجزائري، فقفوا عند هذه النقطة واقرؤوا لها ألف حساب.

إنكم أيها العرب والمسلمون من ورائكم، تنالون القسط الأوفر من غنم هذه الثورة، فما لكم لا تشاركون بكل ما تملكون في غرمها؟

الان وجب حق الأخ على أخيه.. إن الأرحام تشابكت وتعددت بينكم، فالعربي أخو العربي في الدم والجنس، والمستضعف بالذل والاستكانة، والمظلوم أخو المظلوم، والأفريقي المضطهد أخو الأفريقي المضطهد، والشرقي أخو الشرقي، ومن حسنات الاستعمار ـ إن كان الشر يريد الخير ـ أنه طوانا في ملاءة واحدة، ومسنا بعذاب واحد، وأذاقنا ظلماً متشابهاً، وإن فينا لقوة، وإن عددنا ليربو على عددهم، وقد تلاقينا على ظلمه، فلماذا لا نتلاقى على التخلص منه؟

إن الأمر جدّ فجِدّوا، وإن العدو مستعد فاستعدوا.

أيها الإخوة:

إن إخوانكم الجزائريين لا يعتمدون قليلاً ولا كثيراً على هذه المؤسسات الكاذبة المتحدة على الضلال، ولا على هذه الألفاظ التي تلوكها الألسنة المقطوعة الصلة بالقلوب من حقوق الإنسان وحق تقرير المصير، فإن هذه الألفاظ كلهامن أكاذيب الاستعمار لينوِّم بها الشعور وليُلْهينا بها إلى حين.

إن الجزائريين يقاتلون فرنسا على ما سامتهم من أنواع العذاب وسلاحهم الوحيد هو إيمانهم بالله ناصر المستضعفين وقامع الطغاة ومُذل الجبابرة، وإنهم يقاتلون لأجلكم، ويضحون بالأهل والأبناء انتصاراً للعروبة وللإسلام[1].

إن العلامة الإبراهيمي يعتبر من أكبر المرجعيات الفكرية والدينية والثقافية للثورة الجزائرية، وساهم في دعم مسيرة الثورة بكل ما يملك من بيان ناصع، وعلاقات واسعة، وخطابة قلَّ نظيرها، وعقل رشيد، وقلب موصول بالله العزيز الجبار.

* * *

(1) المصدر نفسه (620/1).

المبحث الثالث

مواقف الدول والشعوب العربية من ثورة الجزائر

كان من الطبيعي تفاعل الشعوب العربية والإسلامية مع الشعب الجزائري والوقوف معه في ثورته المباركة، وكان الدعم على المستوى الشعبي والحكومات التي تمر بها الدول العربية، فكان لدول الجوار القدح المعلى خصوصاً المملكة المغربية وتونس وليبيا، كما أن لمصر دوراً متميزاً، وكذلك المملكة العربية السعودية، والعراق وسوريا، وكل الدول العربية ومعظم الدول الإسلامية والشعوب الحرة وحكوماتها في العالم.

ويمكن القول بأن أفراد الأمة العربية والإسلامية ساندوا دعم جهاد ثورة الجزائر ونصر شعبها بإخلاص نادر المثال في العطاء والتضحية بالمال والرجال والأقوال والأفعال، مثلما وقفت الشعوب العربية والإسلامية مع الشعب الجزائري طوال سنوات ثورته المجيدة من بدايتها إلى نهايتها المشرفة له ولها.

لقد ظهر تضامن البلدان العربية وشعوبها منذ الوهلة الأولى لانطلاق الثورة، ولكن هذا الدعم كان متفاوت الحجم والنوع في الميدان، لأن بعض هذه البلدان كان مايزال هو نفسه تحت الاحتلال أو الحماية، كالإمارات وعمان وقطر وجنوب اليمن والبحرين، التي كانت تحت الحماية البريطانية ولم ينل الكويت استقلاله إلا سنة 1961م، وكان العراق مستقلاً ولكن لم تتجسد مساعدته إلا بعد وصول العميد عبد الكريم قاسم إلى السلطة سنة 1958م[1].

وإذا كان من الصعب حصر كل أوجه المساعدات التي قدمتها الدول العربية الشقيقة وشعوبها للثورة الجزائرية التي اعتبروها قولاً وفعلاً ثورتهم.. فإننا نقتصر هنا على ذكر الأهم والأعم منها للحقيقة والتاريخ والاعتبار وهي:

. تنظيم أيام أو أسابيع تضامنية مع الثورة الجزائرية.

. أعمال ضد مصالح فرنسا بعد عملية القرصنة التي تعرضت لها الطائرة المقلة للوفد الجزائري يوم 22 أكتوبر 1956م.

. تضامن واسع بعد هجوم الطيران الفرنسي على ساقية سيدي يوسف «8 فبراير 1958م».

. مساعدات مالية متفاوتة من جميع البلدان العربية.

. تكوين عسكري للمجاهدين الجزائريين في بعض البلدان العربية.

. فتح مجال الإعلام للثورة الجزائرية «صوت العرب مثلاً بالقاهرة». وكذلك إذاعة الرباط وتونس وطرابلس ودمشق وبغداد.

---

(1) جهاد الجزائر، د . أحمد بن نعمان ص 313.

. وقوف البلدان العربية ككتلة متراصة عند تناول القضية الجزائرية في المحافل الدولية.

زيادة على هذه الأعمال المشتركة، لابد أن نشير إلى عمليات متميزة قامت بها بعض الدول العربية من أجل الثورة الجزائرية منها:

.كون القاهرة منارة للوطنية العربية ومركز إشعاع للثورة الجزائرية، ففيها تنصبت الحكومة المؤقتة الجزائرية وفيها اجتمعت، وفيها اجتمع المجلس الوطني للثورة.

. في أوت 1956م أخبر الرئيس جمال عبد الناصر أحمد بن بلة وفرحات عباس بأنه خصص مساعدة مالية للثورة الجزائرية وأخذ أسلحة وذخيرة من الجيش المصري إلى جيش التحرير الجزائري، إلى جانب ما تعرضت له مصر من عدوان ثلاثي فرنسي بريطاني صهيوني في سنة 1956م، والذي كان من أسبابه الأساسية مساعدة مصر للثورة الجزائرية في مختلف المجالات السياسية والإعلامية والعسكرية.

. رفض سكان طرابلس الليبيون الخروج لتحية الوزير الأول التركي عدنان ماندريس لما زار ليبيا في خريف سنة 1957م، وذلك للاحتجاج على الموقف السلبي لتركيا في الأمم المتحدة، ونشير إلى أن ليبيا كانت البلد العربي الوحيد الذي قاطع شراء منتوجات فرنسية.

. وضع العراق كل وزنه لمساعدة الثورة الجزائرية، وذلك بعد مجيء العميد عبد الكريم قاسم إلى الحكم بين سنتي 1958م و 1961م، وكان الترتيب الأول من بين الواهبين الماليين، وقد كان متبوعاً بالجمهورية العربية المتحدة «أي مصر» والكويت ثم المملكة العربية السعودية.

. خصصت سوريا أياماً برلمانية للجزائر المكافحة.

. خصص الكويت اقتطاعات من موارده المالية لصالح الثورة الجزائرية.

. خصص ملك الأردن بناية في عمان لممثلي الثورة الجزائرية في الأردن.

. وضع أمير قطر قصره في سويسرا تحت تصرف الوفد الجزائري المتفاوض مع فرنسا.

. إعانة خاصة قدمتها الكويت لالاف اللاجئين الجزائريين عندما أرادوا الرجوع إلى الجزائر بعد الاستقلال، كما أنه نظراً لأن النظام المالي التونسي لم يكن يسمح لهم بتحويل العملة التونسية، فوضعت الحكومة الكويتية مبلغاً مالياً بالجنيه الإسترليني لتغطية عملية تحويل 3 ملايين فرنك نحو الجزائر صبيحة الاستقلال[1].

وإليكم شيء من التفصيل لما قامت به الحكومات والشعوب العربية والإسلامية لدعم الشعب الجزائري وثورته.

(1) جهاد الجزائر ص 321.

أولاً . ليبيا:

لعبت ليبيا دوراً كبيراً في دعم القضية الجزائرية وثورة التحرير، انطلاقاً من إيمان قادتها وشعبها الراسخ في الوقوف إلى جانب الشعب الجزائري أيام محنته ودعم ثورته معنوياً، وقد تجسد هذا الموقف منذ زمن المصلح الكبير محمد بن علي السنوسي وتصديه للاحتلال الفرنسي ودعمه للمجاهدين، ولم تنقطع هذه الصلة بين الشعبين الشقيقين وازدادت قوة وتحمساً مع اندلا ع ثورة أول نوفمبر 1954م، ووقف الملك والحكومة والشعب بكافة ما يملكون لتحقيق الانتصار العظيم على الغزاة المحتلين.

1. اهتمام الملك إدريس بالثورة الجزائرية:

كان السنوسيون منذ زمن المؤسس الأول للحركة الإمام محمد بن علي السنوسي مهتمين بأمر الجهاد في الجزائر، وواصل الملك إدريس جهوده المادية والمعنوية لدعم ثورة الجزائر التي اندلعت في 1954/11/1م. وقد أثبتت الوثائق التاريخية جهوده العظيمة وأعماله الجسيمة في هذا الباب، فقد ذكر السيد مصطفى أحمد بن حليم في كتابه «صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي» في الباب التاسع تحت عنوان «ثورة الجزائر ودور ليبيا الخطير في مساندتها» ما يقيم الحجة والبرهان على صدق الملك إدريس لدعمه للثورة الجزائرية.

فقد ذكر السيد مصطفى بن حليم عندما كان بالقاهرة أن الرئيس جمال عبد الناصر اتصل به ودعاه لاجتماع منفرد معه وفاجأه قائلاً أنه يود أن يتحدث معه عن الثورة الجزائرية التي اندلعت، وشرح جمال عبد الناصر لمصطفى بن حليم أنه اتفق مع الملك سعود والأمير فيصل على أن تقوم المملكة العربية السعودية بتقديم كافة الأموال اللازمة لشراء السلاح والعتاد والإمدادات اللازمة للثورة الجزائرية، وأن يقوم رجال الجيش المصري والمخابرات بشراء ذلك السلاح والعتاد وإيصاله إلى الحدود الليبية، وهو يأمل أن يشرف رئيس الحكومة السيد مصطفى بن حليم بنفسه بنقل ذلك السلاح والعتاد عبر ليبيا إلى الحدود الجزائرية، حيث يستلمه منه ممثلو الثورة الجزائرية. ثم قال جمال عبد الناصر لمصطفى بن حليم: أو لعلك تخشى الفرنسيين وتخاف بطشهم؟

فرد عليه مصطفى بن حليم رئيس وزراء ليبيا سابقاً وقال له: يا ريس!. لعلك لا تعرف أن جد الملك إدريس جاء إلى ليبيا من الجزائر هارباً من الطغيان الفرنسي وأمضى حياته في نشر الدعوة الإسلامية وإيقاظ الأمة الإسلامية، لتقاوم موجة الطغيان والتنصير الفرنسي، ووالد الملك إدريس ظل يقاوم تغلغل المد الفرنسي في تشاد والسودان والنيجر، حتى لقي وجه ربه، والسيد أحمد الشريف والملك إدريس أفنيا عمرهما ضد الطليان.

ورد جمال عبد الناصر على هذه الإجابة المقنعة بقوله: ألا تستوعب الدعابة؟ إنني أعرف كل هذا، وأعرف أن الليبيين أبطال جهاد، ولكنني أرغب أن أرى رد فعلك.. وتبين لي أنك مغربي حاد المزاج لا تتقبل الدعابة بروح مرحة[1].

كانت القوات البريطانية المتواجدة في ليبيا والمنتشرة على طول البلاد من طبرق إلى غرب طرابلس والجواسيس الإنكليز يسيطرون على مراكز حساسة، وموظفون من الإنكليز أيضاً في شرطة ولاية طرابلس، وفرنسا لاتزال تحتل جنوب «فزان»، ولسفارتها في طرابلس وبنغازي جهاز مخابرات من الطراز الأول وله أعوان وعيون منتشرة في طول البلاد وعرضها.

بيّن السيد حليم تلك الملابسات لجمال عبد الناصر الذي أجاب: إنني على علم تام بأن ما أطلبه منك عمل ينطوي على خطورة كبيرة ومغامرة خطيرة[2]، ثم أضاف: لولا أنني مطمئن لوطنية الملك إدريس ووطنيتك وحرصكما الشديد على تحرير الشمال الإفريقي من نير الاستعمار الفرنسي البغيض لما طلبت منكم ما طلبت، وعلى أية حال فأنا رهن إشارتكم لأي عون أو نصح أو مساعدة في سبيل هدفنا النبيل لتخليص الجزائر من ربقة الاستعمار. بعد ذلك قام جمال عبد الناصر بتعريف مصطفى بن حليم بالسيد أحمد بن بلة[3].

كان قائد قوة دفاع الفريق محمود بوقويطين لا يثق في جمال عبد الناصر، ويراه حريصاً على تفجير القلاقل وزعزعة النظام داخل ليبيا، واتخذ من ستار مرور السلاح إلى الجزائر وسيلة لتوزيع السلاح داخل ليبيا ضد المملكة.

وعُرض الأمر على الملك رحمه الله فقال: من ناحية لا يمكننا أن نتردد في القيام به.. ومن ناحية أخرى فإنني لا أريد أن أعرض استقلال هذا الوطن الذي ضحينا في سبيله بكل عزيز وغال، واستشهد في سبيله مئات الالاف من الليبيين، ولا أود أن أقامر بهذا الاستقلال خصوصاً مع فرنسا التي خرجت عن طورها وترتكب كل يوم الكثير من الجرائم والحماقات في قمع كل حركة استقلالية في الشمال الإفريقي، ومع توتر علاقتنا مع فرنسا بعد طلبنا إجلاء قواتها عن فزان ؛ فإنها ستلتمس أي عذر لترتكب معنا حماقة كبرى[4].

ويبدو أن مرور السلاح من خلال البر أخذ فيها قرار بمنع ذلك من جهة مصر.

أ. بين أحمد توفيق المدني وملك ليبيا:

يقول الأستاذ أحمد توفيق المدني: رجعت للقاهرة يوم 23 ماي، فإذا بالأخ العقيد فتحي الديب. رئيس المخابرات المصرية. يدعوني بسرعة: القضية خطرة. ذهبت إليه فبادرني: أفتدري ماذا فعل الكلام في ليبيا؟ قلت: أخيراً إن شاء الله، قال: إن الملك أعطى أوامره بأن لا يدخل السلاح الجزائري أصلاً إلى ليبيا بواسطة البر، وأعلمونا رسمياً بأن ذلك السلاح يجب أن يرسل عن طريق البحر. ومعنى هذا أن فرنسا تتسلمه لقمة

(1) صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، مصطفى بن حليم ص 351.

(2) المصدر نفسه ص 352.

(3) المصدر نفسه ص 352.

(4) المصدر نفسه ص 353.

باردة كما تسلمت السفينة «اتوس» من قبل. ونحن نرفض إطلاقاً أن نسلم فرنسا سلاح الجزائر، فعليك يا شيخ توفيق أن تسافر حالاً دون أدنى انتظار إلى ليبيا وتقنع هؤلاء ال.... بوجوب فتح الحدود، وإعادة الحالة إلى سالف عهدها، وإلا فسيمنع السلاح عن الجزائريين، والأمر يومئذ لله[1].

وبعد سفر شاق بالسيارة وصل إلى طرابلس، وقال: وأسرعت بمقابلة الرئيس ابن حليم، فإذا به مهموم كئيب، قلت دون مقدمات: كيف وقع هذا؟ قال: العلم عند الملك، قلت: وكيف العمل لإنقاذ الموقف؟ قال: الشايب «الملك» وحده هو الذي يستطيع أن يعمل شيئاً، قلت بصراحة: هل للأجانب من

إنكليز وفرنسيس دخل في هذا؟ فابتسم ابتسامة صفراء وقال: ربما كان هذا، وإنما لا حجة لي عليه، أسرعْ بالذهاب لطبرق، وسأخبر الأخ الشلحي رئيس ديوان الملك بقدومك عليه، ورتّب الشلحي موعداً للأستاذ المدني، قال:

ذهبت وأنا متوتر الأعصاب متجهم عابس، وقد فارقني في تلك المناسبة ما كان مشتهراً عني من تفاؤل ومن ابتسام يكاد يكون تقليدياً، وأدخلوني على الملك في غرفة صغيرة بسيطة بلغت الحد الأقصى من البساطة، ووقف لي الملك كعادته مرحباً، فما كاد بصري يقع عليه حتى تشنجت وسالت دموعي مدراراً وما كنت قبل ذلك أعرف البكاء، إطلاقاً. قال لي الملك مندهشاً: يا لطيف، ماذا جرى؟ ماسبب هذه النوبة العاطفية؟ قلت وصوتي متهدج لا يكاد يبين:

أبكي على هذه اللحية البيضاء التي شابت في الإسلام والجهاد، وستساق إلى جهنم مجرمة اثمة، أبكي على هذا الجهاد الطويل الذي كان ماله الانهيار والاستخذاء، أبكي وأنا أرى المجاهدين والمجاهدات في الجزائر الدامية يمسكون بتلابيبك يوم القيامة، يقولون: ربنا هذا الذي أسلمنا للقتل، هذا هو سبب ما قاسينا من موت وخراب وانتهاك حرمات، هذا هو الذي منع سلاحنا، فمكّن العدو منا، فنكبنا بعد عز، وأجهز علينا بعد نصر مبين، هذا..

وما تركني الملك أستمر، بل تقدم خطوة، وأخذني من يدي وأجلسني إلى جانبه، وأصفرّ لونه فوق اصفراره الطبيعي، حتى أصبح كليمونة الصيف، وقال وصوته الضعيف لا يكاد يسمع: إن الذي قلته فظيع، فظيع جداً، فبيِّن لي الأمر، وإن كنت أنا قد أسأت عن غير علم، فأنا مستعد لإصلاح ما أفسدت، وأستغفر الله العظيم.

هدأ روعي شيئاً، وشرحت له فداحة الأمر الذي أصدره بمنع ورود السلاح الجزائري من مصر إلى ليبيا إلا بحراً، وفرنسا تتبعنا بجواسيسها في كل مكان، وقصصت عليه قصة السفينة «اتوس»، وكان على علم منها، وقلت له وأنا أتعمد المبالغة: إن لم يدخل السلاح الجزائري ليبيا فوراً حالاً، فإن الجهاد الجزائري يوشك يكون ماله الاندحار والانهيار والمسؤولية عليك وحدك.

(1) حياة كفاح (454/3).

قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وفكر قليلاً، ثم دق جرساً فجاءنا أحد الرجال بقهوة طيبة فتناولناها ونحن سكوت، وقال: إن إخواننا المصريين وخاصة ملحقهم العسكري إسماعيل صادق، قد فقدوا اتزانهم عندما وقع العدوان الثلاثي، وحاولوا إحداث فتنة نكراء بالبلاد الليبية، ودفعوا بالعامة المتحمسة إلى إحراق بعض المحلات، ووزعوا عليهم شيئاً من السلاح الجزائري، فاضطررنا لإصدار أمر بأن لا يدخل ذلك السلاح إلا بحراً، حتى تتسلمه الأيدي الجزائرية دون واسطة بمرفأ طرابلس، هذا فقط ما وقع، ولم يخطر ببالي أصلاً أن ذلك سيكون بلاء على الكرام المجاهدين. لكننا سنصلح الأمر حالاً، ثم ألقى بيده على الجرس فدقه مرتين، أو أكثر، فإذا بقائد عسكري ذي رتبة رفيعة يقف على الباب ويحيي التحية العسكرية ويقول في حزم: سيدي.

قال له الملك: أعط الأمر حالاً لقيادة الحدود الشرقية، بأن تفتح الطريق أمام السلاح الجزائري، وأن تسهل له أسباب المرور. فاندهش القائد العسكري، وظهرت على وجهه علامات الحيرة، وظل واقفاً[1].

فقال له الملك بحزم: نفذ ما أمرتك حالاً، حالاً دون تردد. فألقى التحية العسكرية بقوة، ضارباً برجله الأرض، وما كاد يرجع أدراجه حتى قال له الملك: اسمع إذا ما نحن خسرنا استقلال ليبيا وكسبنا استقلالا، فنحن الرابحون. وذهب «القائد محمود أبو قويطين». وقلت للملك وقد شرح الله صدري: هنيئاً لك يا سيدي. قال في شبه ابتسامة: بل هنيئاً للكرام المجاهدين في الجزائر، فإذا ما انتصر الإسلام يوماً، وسينتصر لا محالة، فالفضل لله أولاً، والفضل لهم أخيراً.

وفي صبيحة الغد، وأنا على مقربة من طبرق، رأيت سيارات النقل الضخمة تسير بأقصى سرعتها تحمل الأحرار المجاهدين الأبرار، طوبى لهم وحسن ماب[2].

ب ـ ليبيا قاعدة خلفية ولوجستية:

أصبحت ليبيا قاعدة خلفية ولوجستية وسياسية للثورة الجزائرية، حيث كانت بها مستودعات الأسلحة، ومراكز التدريب، وشبكات التسليح، كما وفرت إقامة خاصة لقادة جبهة التحرير وأمّنت تنقلاتهم، وأصبحوا يتصرفون بكل حرية دون مراقبة أو إزعاج. وللإشارة فإن شبكات التسليح بليبيا لم تتلق أية ضغوطات ولم يجمد أي نشاط للثورة بها عكس ما كان يحدث في بعض ـ البلدان الأخرى ـ وبذلك احتلت ليبيا مكانة رائدة في مجال دعم الأسلحة لصالح الجزائر[3].

وقد أشار رئيس الجزائر الأول أحمد بن بلة الذي أجرى انذاك اتصالات بالحكومة الليبية والفعاليات الشعبية: إن حركة التحرير الجزائرية قد اتصلت بالحكومة الليبية منذ وقت مبكر، وإن التعاون مع الحكومة الليبية كان قائماً، والمساعدات كانت حقيقة، ولكنها تعطى لنا في سرية مطلقة.. ويشير بن بلة أن ثورة أول نوفمبر

(1) حياة كفاح (456/3).

(2) المصدر نفسه (457/3).

(3) المصدر نفسه.

1954م التي انطلقت بقليل جداً من السلاح يتراوح ما بين 350 إلى 400 قطعة من البنادق الإيطالية، وصلت سراً من ليبيا عن طريق غدامس إلى بسكرة، وبقيت مخبأة لمدة طويلة مثلما ذكرنا ذلك سابقاً.

وقد كان عبد العزيز شوشات يتولى رئاسة مكتب تونس في طرابلس، وكان على الزليطي مسؤول المكتب نظرياً، لأن العنصر النشيط والبارز هو عبد العزيز شوشات، وقد ضم المكتب أشخاصاً لاجئين وفدوا إلى طرابلس، وشكل بهم عبد العزيز شبكة للتسليح، وقد اقتفى الجزائريون أثرهم وتعاونوا معهم لاستخدام شبكاتهم لتمرير وتهريب السلاح إلى الجزائر، ومن أعضاء الشبكة نذكر محمد بوعزة، ومحمد عرعار، وعمر البرجي، وهم من بين الجزائريين الذين تم تسليحهم بأسلحة جمعت من صحراء طرابلس بفضل الشبكة التونسية، بحكم أنهم من السابقين في مجال تكوين شبكات التموين والتسليح. ومن أنواع الأسلحة التي كانت تجمع: الخماسي الألماني، والستاتي الإيطالي، والعشاري الإنجليزي، والرشاشات من نوع «ستارن».

وتجدر الإشارة إلى أن عملية تهريب الأسلحة إلى الجزائر تمت بمعرفة الجزائريين أو بالتنسيق معهم ؛ بحيث يتم نقلها من ليبيا عبر مسلك زوارة بواسطة الشاحنات، ثم بن قردان لتصل إلى الأرضي التونسية، ومنها إلى الجزائر عن طريقين هما[1]:

. ولاية شمال قسنطينة عبر سوق أهراس بوسائل مختلفة.

. ولاية الأوراس بواسطة الجمال عبر ممر الجرف بأقصى الجنوب.

وأحياناً أخرى كان السلاح ينتقل بواسطة الشاحنات الكبيرة عبر الأراضي الليبية، ثم بواسطة الجمال عبر الصحراء بعد غلق ممر أهراس.

وتجدر الإشارة أن استعمال الأراضي الليبية لنقل الأسلحة من المشرق كان يتم تحت رقابة الحكومة الليبية، وبتغطية منها. وذلك بأمر من الملك إدريس السنوسي نفسه. كما بذل مدير عام الشرطة بطرابلس عبد الحميد بيّ درنة قصارى جهده لتسهيل عملية نقل السلاح، كما كانت تدخلاته تبعث الطمأنينة في نفوس المهربين الليبيين.

إن نجاح عمليات التهريب الأولى دفع بالحكومة الليبية إلى إرسال برقية إلى أعضاء الجبهة بالقاهرة عن طريق سفارة تونس تدعوهم إلى إرسال ممثل عنهم إلى طرابلس، وبذلك تم تعيين السيد محمد خيضر لهذه المهمة، ومن جهة أخرى لجأت السلطات الفرنسية إلى تشديد الرقابة للحدّ من عمليات تهريب السلاح، حيث كثفت من نشاطها بواسطة دوريات عسكرية على الحدود الليبية التونسية، إضافة إلى نشاط الضابط «جايلز» البريطاني إلى منطقة غريان بغرض التصدي لعمليات التهريب، متستراً بحجة القيام بمناورات في المنطقة، ولولا تدخل مدير عام الشرطة بطرابلس عبد الحميد بيّ درنة الذي أوقف عملية التفتيش التي كان رجال «جايلز» يقومون بها لانكشف أمر السلاح المخزن بالمنطقة[2].

---

(1) الإمداد بالسلاح خلال الثورة الجزائرية، د . الطاهر جبلي ص 353، 354، 355.

(2) المصدر نفسه ص 356.

واستمر نقل السلاح من مصر براً تارة عن طريق شاحنات التجار الليبيين المتنقلين بين مصر وليبيا بانتظام، وقد كان بينهم رجل الأعمال عبد الله عابد السنوسي، الذي وافق على عملية حمل السلاح بعد التنسيق مع السلطات المصرية والليبية[1].

ج. مطارات ليبيا في خدمة ثوار الجزائر:

بعد اجتماع 27 أبريل 1956م رأت لجنة السلاح الجزائري بالقاهرة أنه من الضروري السعي لدى رئيس الوزراء الليبي بن حليم لكي يضع تحت تصرف اللجنة الفرعية للأسلحة بليبيا مطاراً أو مطارين على الحدود الجزائرية الليبية جنوباً بقصد إيصال الأسلحة بصفة فورية، ومباغتة للفرنسيين.

ولهذا الغرض أرسل وفد جزائري مكون من السيدين أحمد توفيق المدني، والأمين دباغين إلى طرابلس، التي وصلاها في يوم 30 أبريل من نفس السنة، حيث التقيا في اليوم الموالي بالوفد الليبي المكون من السادة: مصطفى بن حليم رئيس الحكومة، وقائدي الجيش والطيران، ومسؤول المطارات الليبية، وبحضور سفير مصر بطرابلس السيد أحمد الفيقي[2].

وقد قررت الحكومة الليبية بعد هذا اللقاء وبناء على طلب الوفد الجزائري ما يلي:

. تضع الحكومة الليبية مطاري بلدة نالوت جنوب فزان تحت تصرف القيادة الجزائرية بعد إصلاحهما من طرف الحكومة المصرية.

. نقل السلاح بواسطة الطائرات من نوع «داكوطا»، نظراً لخصوصيتها في التحليق على انخفاض يسمح لها بالتسرب بين الجبال بعيداً عن مراقبة رادارات الطيران الفرنسي.

. ضرورة دخول السلاح من مصر إلى ليبيا بواسطة الطائرات وبعلم رئيس الحكومة الليبي بغرض تأمين العملية[3].

. العمل على شراء السلاح بليبيا وتوفير كل الشروط الضرورية لإنجاح العملية.

وبعد هذا اللقاء ختم الوفد الجزائري زيارته بزيارة الملك إدريس السنوسي حيث خصه باستقبال كبير، وأعرب له عن وقوف ليبيا الدائم والداعم للقضية الجزائرية، وعن تقديم كل التسهيلات لتمرير السلاح، وتنقل المجاهدين عبر كل التراب الليبي[4].

د. السلاح التركي لإعانة الجزائر:

كانت سياسة تركيا . الرسمية . سياسة منكرة بالنسبة للثورة الجزائرية، بينما كان الشعب التركي المجاهد العملاق يقف موقف المؤيد الصلب للثورة الجزائرية، يؤازرها في صحفه وفي منتدياته، وكانت حكومة عدنان مندريس

(1) المصدر نفسه ص 358.

(2) الإمداد بالسلاح خلال الثورة الجزائرية ص 358.

(3) المصدر نفسه ص 358.

(4) المصدر نفسه ص 359.

تصادم الثورة الجزائرية وتدلي بصوتها في هيئة الأمم المتحدة إلى جانب فرنسا أو تحاول أن تقف موقفاً حيادياً، هو لفائدة فرنسا أولاً وأخيراً.

وجاء اليوم المحدد وحل ركب عدنان فرأوا المطار خالياً من الناس تماماً، وركبوا السيارات فلم يكن في الطرقات أحد، أي أحد، كانت المدينة خالية بصفة مطلقة لا ترى فيها رجلاً ولا امرأة ولا شيخاً ولا صبياً، هكذا دفعت النخوة والشهامة في الليبيين في طرابلس لإعلان غضبهم على تركيا، واستنكاراً لسياستهم تجاه الجزائر المجاهدة، فأغلقوا قاطبة أبواب ديارهم وحوانيت تجارتهم وأضربوا عن العمل الإداري في دواوين الحكومة.

فكاد عدنان مندريس ومن معه يصعقون، وقال لمن حوله من الرسميين: أهكذا يقابل الليبيون وفد الحكومة التركية، ونحن أصدقاؤكم وإخوانكم منذ قرون، وسالت دماؤنا معاً في شتى المعارك الإسلامية، ونصرناكم في كل أزمة حلت بكم، فما هي هذه المقاطعة الشعبية، وما هي أسبابها العميقة؟

قال له رئيس الحكومة: نحن أيضاً لا علم لنا بهذا، ولم نشعر بوجود هذا الإضراب الشعبي إلا هذه الساعة، أما الأسباب فهي بلا شك ولا ريب، موقفكم من الثورة الجزائرية وانتصاركم لفرنسا على الجزائريين، وهم يخوضون معركة الحياة والموت ويقومون بجهاد قاس مرير من أجل استرجاع حريتهم السليبة، واستقلالهم الضائع، وكرامتهم التي امتهنت شر امتهان.

قال مصطفى بن حليم للأستاذ أحمد توفيق المدني: ما كدت أقول له هذا حتى غصّ بريقه، واختلجت عضلات وجهه، وقال بصوت متهدج: إنكم لا تفهمون ولا يفهم إخواننا الجزائريون حقيقة موقفنا اليوم، نحن عاطفياً وقلبياً مع الجزائر في نضالها الحر الشريف، لكننا من جهة أخرى لنا ارتباطات مع فرنسا، ولنا في الوقت الحاضر مصالح اقتصادية كثيرة معها، وهي تعيننا فلا نستطيع أن نتنكر لها جهاراً.

قال مصطفى بن حليم: فأجبته: إذن تستطيعون أن تتنكروا لمبادئكم ولضمائركم ولعواطف شعبكم ولا تستطيعون أن تتنكروا لمصالحكم الاقتصادية؟

قال لي: إن كل شيء يمكن تقويمه وإصلاحه في عالم السياسة، فما هو - برأيكم - العمل الذي يرضي إخواننا الجزائريين والليبيين ويصلح الموقف معهم؟

قلت: ومع كل العرب كافة، لأن العرب كافة من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب قد أعلنوا تضامنهم الفعال مع الثورة الجزائرية، فكل عمل ضد الجزائر إنما هو في الحقيقة ضد العرب عموماً، وأما ما يجب عمله فسأخبرك به غداً، بعد استشارة جبهة التحرير وهم الان هنا.

وكان الأستاذ أحمد توفيق المدني متواجداً في ليبيا فقال لمصطفى بن حليم: لا نريد من تركيا إلا أمرين لا ثالث لهما: أن تقلع عن إعانة فرنسا ضد الجزائر، وأن تنصر كغيرها مبادأئ العدل والإنصاف، وأن ترسل للجزائر مدداً من الأسلحة الحديثة الموجودة لديها، وبذلك نطوي صفحة الحاضر ونفتح صفحة جديدة تصل المستقبل بالماضي.

قال له مصطفى بن حليم هذا، فأجابه: أما تغيير مسلكنا السياسي فسنقوم به تدريجياً حتى نلتقي بعد حين مع إخواننا الجزائريين والعرب في موقف واحد، وأما السلاح فنحن مستعدون لإمداد إخواننا الجزائريين بنصيب وافر منه، وإنما كيف السبيل لايصاله؟

قال له ابن حليم: أرسلوه هدية من الشعب التركي إلى الشعب الليبي ونحن نسلمه للجزائريين.

قال عدنان: اتفقنا، إنما الأمر موكول بمصادقة رئيس الجمهورية جلال بايار، وسأخبرك بصفة سرية عندما تتم هذه المصادقة.

وأخبرت الحكومة الليبية الملك إدريس بهذا، فقال لعدنان أثناء استقباله له: أنا مسرور جداً بوعدكم الذي قطعتموه للحكومة بإعانة الجزائر المجاهدة، وأرجو أن يتحقق الوعد قريباً، فأبلغوا رجائي هذا للسيد الرئيس جلال بايار[1].

كان عدنان مندريس يخشى عواقب اكتشاف أية شبهة بأن تركيا تمد الثورة الجزائرية بأي عون مادي، وكرر عدة مرات بأن هذا سبب طرد تركيا من حلف الأطلسي، وهو الركيزة الرئيسية التي يرتكز عليها دفاع تركيا في مواجهة الخطر الروسي العظيم.

وكان ابن حليم يشعر بأن مخاوف عدنان مندريس حقيقية، فهدّأ من روعه وقال له: إن الثورة الجزائرية في أشد الحاجة إلى أنواع كثيرة من الأسلحة الحديثة وهذه الأسلحة متوفرة لديكم، فإذا أعطيتكم كشفاً مفصلاً بهذه الأسلحة وأهديتموه أنتم إلى شقيقتكم ليبيا، فليس في هذا ما يثير أي شك أو ريب لدى فرنسا.

وقال مصطفى لعدنان مندريس: إن الليبيين سوف يقومون بتسريب السلاح إلى الإخوان الجزائريين تدريجياً، ووعده بأن لا يُعلم هذا السر للقيادة الجزائرية العليا، بل عدد قليل من أفراد تلك القيادة العليا. وواصل ابن حليم حديثه مع ضيفه رئيس وزراء تركيا عدنان مندريس واستعرض له ماضي تركيا الإسلامي وتاريخها في الذود عن الإسلام، وإعلاء كلمته، ومزج السياسة بالعاطفة الدينية، إلى أن قال عدنان مندريس: سنقدم لكم هدية السلاح، وأرجو الله أن يوفقكم في إيصالها لأولئك الذين يحتاجونها في الدفاع عن دينهم، أما نحن في تركيا فإننا نقدم الهدية لجيش الشقيقة فقط، وشدد على المحافظة على السرية المطلقة، وبعد أسابيع قليلة وصلت هدية السلاح التركي واستلمها الجيش الليبي في احتفال عسكري، ثم بدأ تسريبها تدريجياً إلى مجاهدي الجزائر[2].

هـ سفارة ليبية في باريس:

كان الملك إدريس رضي الله عنه بعيد النظر، فبعد أن استقال السيد مصطفى بن حليم من الحكومة في اخر مايو 1957م عينه مستشاراً خاصاً له بمرتب رئيس وزراء، وأصر على بقاء ابن حليم في خدمة الدولة، وشرح الملك لرئيس وزرائه السابق أنه يحتاج إليه قريباً، ثم عرض عليه أن يرسله سفيراً لليبيا في باريس، لأن علاقته

(1) حياة كفاح (517/3).

(2) صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي ص 361، 362، 363.

ممتازة مع رجال الثورة الجزائرية، ولأن الحكومة الفرنسية قد وصلت لقناعة بأن قضية الجزائر لا تُحل عسكرياً وإنما بالمفاوضة مع سكان الجزائر.

وعندما رد ابن حليم على الملك بقوله: إن الحكومة الفرنسية أصبحت على علم تام بالدور الذي قام به في مساعدة الثورة الجزائرية، وتهريب السلاح والعتاد لها، وإن الثقة منعدمة بينهم وبينه، رد الملك بأن هذا هو خير مؤهل ليجعل الحكومة الفرنسية تستعمل مساعيك كقناة للوساطة مع الثورة الجزائرية، لتأكدها من أن زعماء الجزائر سيتقبلون نصحك قبولاً حسناً ويثقون بما تنقل لهم من اقتراحات، وأضاف الملك: عليك أن تكمل رسالتك نحو الثورة الجزائرية.

لقد كانت مهمة سفير ليبيا في فرنسا البحث مع الحكومة الفرنسية عن سبل سلمية لإعطاء شعب الجزائر حق تقرير مصيره، وتشجيع الحكومة الفرنسية على انتهاج سياسة النفاهم والتفاوض مع جبهة تحرير الجزائر، والإقلاع عن سياسة القمع والعنف والتشريد ضد الشعب الجزائري[1].

وبدأ السفير مصطفى بن حليم بتنفيذ دوره الذي رسمه له الملك، وقام الملك إدريس بطلب رسمي من الجنرال ديغول الذي أصبح رئيساً للجمهورية، بأن يطلق سراح أحمد بن بلة ورفاقه من السجن، أو على الأقل أن يخفف وطأة السجن إلى إقامة جبرية أو شيء من هذا القبيل، وأجاب الجنرال ديغول على طلب الملك إدريس بواسطة سفير ليبيا بفرنسا مصطفى بن حليم، الذي حمّله ديغول رسالة إلى الملك إدريس بأن مسعاه لن يذهب سدى، وبعد أيام نُقل أحمد بن بلة ورفاقه إلى فيلا في ضاحية «شاشيبي» بجوار باريس[2].

وفي يناير عام 1961م زار ليبيا الكونت دوباري موفداً من طرف الجنرال ديغول رئيس الجمهورية انذاك، واستقبله محمد عثمان الصيد بصفته رئيساً للحكومة في طرابلس، وكان الكونت دوباري يحمل رسالة خطية من ديغول للملك إدريس السنوسي، وأبلغ المبعوث الفرنسي السيد محمد الصيد رئيس الوزراء أن الجنرال ديغول يريد إبلاغ الملك إدريس عبر هذه الرسالة، أن فرنسا ستعمل قريباً على حل لقضية الجزائر يضمن مصلحة الجزائريين ويلبي المطامح العربية، لكنه يرجو من القادة العرب خاصة أولئك الذين تعرّف عليهم إبان الحرب العالمية الثانية، ومنهم الملك إدريس تفهم ظروف فرنسا الداخلية، ومساعدته حتى يمكن إخراج هذا الحل إلى حيز الوجود، وبالفعل لم تمض أربعة أشهر حتى بدأت مفاوضات الاستقلال بين فرنسا والجزائر في 20 مايو 1961م في «إيفيان».

عقب إطلاق سراح أحمد بن بلة ورفاقه الأربعة، وكان يطلق عليهم «الزعماء الخمسة» من السجون الفرنسية، قام هؤلاء الزعماء بزيارة إلى ليبيا واحتفى بهم الليبيون حكومة وشعباً احتفاء كبيراً، واستقبلهم الملك إدريس السنوسي وحثهم على التضامن ونكران الذات، وذكّرهم بالحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول (ص):

---

(1) المصدر نفسه ص 364.

(2) صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي ص 375.

رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. وطلب منهم الاهتداء بهذا الحديث، ودعاهم إلى نبذ جميع أشكال الخلاف والشقاق والأنانية التي تضر ـ إن وجدت ـ بالجزائر واستقلالها[1].

و ـ الملك إدريس يتبنى يتيمة جزائرية:

أنشأ الديوان الملكي الليبي مركزين لإيواء والتكفل مالياً وتربوياً بأبناء وبنات الشهداء في مملكته، واختار الملك وزوجته السيدة فاطمة يتيمة جزائرية لتربيتها، ووقع الخيار على فتاة اسمها عقيلة من مدرسة اليتامى، بالتنسيق مع المسؤول على هذا المركز الأستاذ محمد الصالح.

وفي اليوم التالي ليوم استلامها أذاعت إذاعة ليبيا خبراً قالت فيه: إن البرلمان الليبي قد اجتمع في مقره المعهود وأصدر بياناً يفيد أن الملك «إدريس السنوسي» قد تبنى بنت شهيد جزائرية تدعى عقيلة، وستصبح من الان وابتداء من يوم قراءة هذا البيان على الشعب الليبي أميرة في القصر باسم «سليمى السنوسي»

واستمرت مع الملك وزوجته، وبعد استقرار الملك في مصر بعد الانقلاب في ليبيا كانت معه، ومضت أعوام تتبعها أعوام حتى كانت سنة 1976م، حيث تم تزويجها من قبل الملك للدكتور أحمد رضوان، وأقام إدريس السنوسي لها حفلة كبيرة ودعا لها الرئيس أنور السادات وقرينته[2].

2 ـ مؤتمرات مصيرية للثورة الجزائرية في ليبيا:

تواصل الدعم الليبي للقضية الجزائرية وثورة أول نوفمبر، حيث شهدت الأراضي الليبية عدة اجتماعات ومؤتمرات مصيرية بالنسبة للشعب الجزائري وثورته المباركة. ومن أهم هذه المؤتمرات:

أ ـ مؤتمر طرابلس الأول: الاجتماع الثالث للمجلس الوطني للثورة الجزائرية:

انعقد هذا المؤتمر بمدينة طرابلس عاصمة ليبيا، وبمعية من ملكها الذي سهل العملية وسخر لها كل الوسائل الضرورية لإنجاحها، وكان ذلك في 16 ديسمبر عام 1959م، وكانت قد حدثت بين الدورتين الأولى والثانية تطورات هامة، منها تشكيل الحكومة المؤقتة في 19 سبتمبر 1958م، والاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره في 16 سبتمبر 1959م. وأشرفت اللجنة السباعية على التحضير لمؤتمر طرابلس، وكان من مهام هذه اللجنة إعادة الاعتبار للثورة، وكذلك إعادة النظر في تشكيلة الحكومة المؤقتة، ووضع قائمة جديدة للجنة تضم ممثلي الولايات الثورية داخل التراب الجزائري، وممثل فدرالية جبهة التحرير في فرنسا، وممثلها في المغرب الأقصى، إلى جانب ضباط جيش التحرير الموجودين في الخارج، ومنهم: أحمد قايد، والطاهر الزبيري، وعلي منجلي، وعلي السواعي، وأحمد بن شريف، ومن المدنيين: أحمد بومنجل، والشيخ خير الدين، وتضمن جدول أعمال المؤتمر:

ـ دراسة وتحليل الوضع العسكري داخل الجزائر.

ـ دراسة الوضع السياسي وبالتحديد موضوع المفاوضات مع إدارة الاحتلال الفرنسي.

---

(1) الحركة السنوسية، للمؤلف علي الصلابي ص 584.

(2) المجاهد محمد صالح الصديق، إسماعيل ميرة ص 148 إلى 155.

. التطرق للأوضاع الداخلية وأوضاع اللاجئين جراء سياسة القمع الفرنسية.

. دراسة الوضع المالي دراسة معمقة وشفافة.

. دراسة تشكيلة الحكومة المؤقتة المقبلة بما في ذلك قيادة الأركان العامة.

وقد نتج عن مؤتمر طرابلس الأول عدة نتائج انعكست على تطور الأحداث بالنسبة للثورة التحريرية من أهمها:

. وضع نظام جديد لجبهة التحرير الوطني الجزائرية.

. إعطاء صلاحيات واسعة للمجلس الوطني للثورة الجزائرية.

. إعادة تشكيل تنظيم الحكومة المؤقتة بتعيين فرحات عباس رئيساً لها للمرة الثانية.

. إنشاء قيادة عسكرية جديدة، ومطالبة ضباط الخارج بالالتحاق بالثورة، وهذه القيادة هي اللجنة الوزارية للحرب: وتضم السادة: كريم بلقاسم، وعبد الحفيظ بوصوف، والأخضر بن طوبال.

. التأكيد على أن تكون قاعدة المفاوضات هي مبدأ تقرير المصير بإشراف من هيئة الأمم المتحدة.

. بعث وإحياء فكرة وحدة المغرب العربي.

. دفع الإخوة الأفارقة المؤمنين بالثورة الجزائرية إلى إقناع رعاياهم بالانسحاب من الجيش الفرنسي.

. ضرورة الاعتماد على المساعدة العسكرية للدول الصديقة، ومنها:

الصين، والاتحاد السوفياتي.

. توسيع العمل المسلح على أكثر من نطاق داخل الجزائر وداخل التراب الفرنسي.

. تأسيس هيئة الأركان العامة لجيش التحرير الجزائري، ومهمتها إعادة تنظيم جيش التحرير حسب المتطلبات العسكرية الجديدة في الداخل(1).

وفي 18 جانفي من عام 1960م، وبعد حوالي أكثر من ثلاثين يوماً من أشغال المؤتمر، تم تعيين السيد فرحات رئيساً للحكومة الجزائرية المؤقتة الثانية، في حين تم تعيين العقيد هواري بومدين مسؤول هيئة الأركان العامة للثورة، وكان ذلك موافق 23 جانفي من عام 1960م إلى جانب دخول العديد من ضباط جيش التحرير إلى الجزائر بناء على توصيات المؤتمر، ومنهم العقداء: لطفي بودغن من الولاية العسكرية الخامسة، والحاج الأخضر عبيد من الولاية العسكرية الأولى، والطاهر الزبيري من نفس الولاية، وأحمد بن شريف وسليمان دهيليس من الرابعة.

ومن هذا المنطلق كانت ليبيا قبلة للسياسيين الجزائريين الذين كثفوا نشاطاتهم السياسية والدبلوماسية من طرابلس وبنغازي من أجل نصرة قضيتهم، وقد لقوا الدعم الضروري من طرف الحكومة الليبية وعلى رأسها الملك إدريس السنوسي وبتوجيه منه، حيث مهدت هذه الأخيرة كل الظروف الملائمة للجزائريين لعقد مؤتمرهم الرابع بطرابلس الغرب بتاريخ 27 أوت 1961م، والذي يعد من أهم المؤتمرات الوطنية بعد مؤتمر الصومام

(1) مواقف الدول العربية من القضية الجزائرية، د . مريم صغير ص 105.

في 20 أوت 1956م، ومؤتمر القاهرة 1957م، والذي جاء في فترة تولي السيد بن يوسف بن خدة رئاسة الحكومة المؤقتة[1].

ب . مؤتمر طرابلس الثاني: الاجتماع الرابع للمجلس الوطني للثورة الجزائرية:

انطلقت أشغال هذا المؤتمر في 9 أوت من عام 1961م، في ظل صراع شديد لم تظهر ملامحه إلا عند أصحاب القرار الثوري انذاك بمختلف أطيافهم واتجاهاتهم، وعلى وجه الخصوص بين الحكومة المؤقتة التي جردت تقريباً من كل صلاحياتها وهيئة الأركان العامة، وهذا يعني بالدرجة الأولى ظهور الصراع بين المدنيين والعسكريين، وتؤكد بعض المصادر أن هذا الخلاف استغله السيد بن يوسف بن خدة الذي كان ناقماً على تيار كريم بلقاسم وبوصوف وبن طوبال لصالحه، وهذا ما أشار إليه السيد هشماوي بقوله: تظاهر بالتأييد والتلاعب بين الفئتين، واستطاع أن يجد فيه كل طرف مبتغاه املاً استغلاله، واستطاع بذلك أن يزيح فرحات عباس ليجلس مكانه بموافقة الطرفين، ولكنه لم يلبث بعد أخذ مكانه أن انحاز إلى الجناح العسكري في الحكومة المؤقتة.

وقد انصبت أشغال المؤتمر حول قضية المفاوضات مع فرنسا، لتنتهي يوم 27 أوت من عام 1961م بتعيين بن يوسف بن خدة رئيساً للحكومة المؤقتة، وظهور تشكيلة حكومية جديدة أخرى، ومع ذلك فإن الصراع بين الأجنحة داخل الثورة بقي مستمراً لكن دون أن يؤثر تأثيراً مباشراً على مسار الثورة، خاصة بين رئيس الحكومة السيد بن يوسف بن خدة وجماعته من جهة وقيادة الأركان بزعامة هواري بومدين من جهة أخرى[2].

ج . مؤتمر طرابلس الثالث: الاجتماع الخامس للمجلس الوطني للثورة:

حفاظاً على مكتسبات الثورة الجزائرية سياسياً وعسكرياً، وانطلاقاً من حرص قادتها على مصالح الشعب الجزائري في ظل الأوضاع الراهنة دولياً وإقليمياً وداخلياً ؛ تقرر عقد مؤتمر ثالث للثورة في المدينة نفسها التي احتضنت المؤتمرات السابقة ابتداءً من 27 ماي 1962م.

وقد بدأت جلساته الأولى في هذا اليوم، والتي ستستمر إلى غاية 7 جوان من نفس السنة، وترأسها السيد محمد الصديق بن يحيى إلى جانب نائبيه السيدين عمر بوداود رئيس فدرالية جبهة التحرير الجزائرية في فرنسا، والعقيد علي كافي قائد الولاية الثانية، وكانت أولى نتائج هذا المؤتمر، هي دراسة المفاوضات الثنائية مع فرنسا حول قضية الاستفتاء ومن ثم التفكير في وضع برنامج مستقبلي للجزائر.

وبذلك جاء مؤتمر طرابلس ليواجه تحديات المستقبل ومسؤوليات الموقف الجديد، بعد إخضاع السلطات الاستعمارية الفرنسية للاعتراف باستقلال الجزائر، وكذلك الاستعداد للاستفتاء حول تقرير مصير الشعب الجزائري المقرر إجراؤه في أول جويلية عام 1962م.

---

(1) المصدر نفسه ص 106.

(2) المصدر نفسه ص 108.

لقد دعت مرة أخرى الحكومة المؤقتة الجزائرية برئاسة بن يوسف بن خدة، المجلس الوطني للثورة إلى الاجتماع بمدينة طرابلس بالمملكة الليبية، وذلك بعد تهيئة كل الظروف من 25 ماي إلى 7 جوان من عام 1962م، فكان المؤتمر الذي حضره أعضاء الحكومة الجزائرية المؤقتة، وكذلك القيادة العامة لجيش التحرير الوطني إلى جانب قادة الولايات الستة.

وبذلك تم وضع برنامج مستقبلي للعمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي لمرحلة الاستقلال، يعود الفضل في نجاحه إلى وقوف ملك ليبيا وحكومتها وشعبها لرعاية الثوار السياسيين والعسكريين، حتى يتسنى للجزائريين وضع الأسس الأولى لبناء الدولة الجزائرية المستقلة، والذي جعل من جهة ثانية جبهة التحرير الوطني هي مصدر التوجيه الحقيقي لكل التنظيمات الأخرى مثل الحكومة وجيش التحرير.

وكانت أهم نقطة خرج بها المؤتمر هي إقراره بإقامة دولة جزائرية ديمقراطية شعبية، وتحويل جبهة التحرير بعد دورها الثوري إبان مرحلة الحرب إلى حزب طلائعي جماهيري تعبوي.

وقد بقي برنامج طرابلس مصدر إلهام الحكومة بالنسبة لسياستها الداخلية والخارجية، خاصة السنوات الأولى التي تلت الاستقلال، وقد بقى العمل به إلى أن تم صدور ميثاق الجزائر في أفريل عام 1964م[1].

3 . الدعم الشعبي الليبي لثورة الجزائر:

ونظراً للأواصر الدينية والقومية والجغرافية والتاريخية بين الشعبين الجزائري والليبي، كان الشعب الليبي المه الوضع الاستعماري بالجزائر، الذي كانت تعيشه طوال عهد الاحتلال، وهزها ابتهاجاً انفجار الثورة التحريرية في مختلف أرجاء التراب الجزائري، وأخذت القطاعات الشعبية تفكر جدياً في إيجاد الطريقة التي يمكن بها دعم ثورة الجزائر ومناصرتها في المجالين المعنوي والمادي، وكانت الفكرة التي لمعت في الأفكار وواجهها الجميع بالرضى والتأييد، هي تأسيس لجنة من الأعيان الذين اشتهروا بالوعي الديني والقومي، ولهم تحمسهم للقضايا المشتركة في العالم العربي والإسلامي، فانعقد الاجتماع لهذا الغرض في محل تجاري حضره السادة:

- الشيخ محمود صبحي.
- محمد بن طاهر.
- عمر طلوبة.
- راسم باكير.
- محمد الكريكيشي.
- محمد العربي.
- الهادي المشيرقي.

(1) المصدر نفسه.

وقرروا تشكيل لجنة لمناصرة الشعب الجزائري، فراسلوا في هذا الشأن الجهات الرسمية في الدولة لطلب الإذن بالشروع في العمل، ومشاركة الحكومة.

واشتمل المشروع على تكوين هيئة مكونة من عدد من الأعضاء وفتح باب التبرع الشعبي لنجدة الثوار في الجزائر، والقيام بالدعاية للإعلان عن المشروع، وتسليم المبالغ المتحصل عليها لممثل الثورة الجزائرية بطرابلس، وبإشراف السلطات المحلية المختصة.

وتكونت أول لجنة لمناصرة الجزائر في اجتماع في منزل المناضل الهادي المشيرقي على النمط التالي:

. الشيخ محمود صبحي، رئيساً.

. محمد بن طاهر، عضواً.

. الهادي المشيرقي، أمين الصندوق المالي.

. راسم باكير، عضواً.

. عمر طلوبة، عضواً.

. سعد الشريف، عضواً.

. محمد العربي، عضواً.

. محمد البهليل، عضواً.

. عبد العزيز الزقلعي، عضواً.

. محمد بورقيبة، عضواً.

. عبد الله بوفيطة، عضواً.

. جميل المبروك، عضواً.

. الأمين بن حامد، عضواً.

. الهادي بن شنشن، عضواً[1].

وكان مقر الجمعية في منزل السيد الهادي المشيرقي، الذي كان يوفر للأعضاء الجو الملائم لهم حتى يضطلعوا بمهمتهم على أحسن وجه.

وما إن انطلقت الجمعية في طريقها واتجاهها المعين المحدود، حتى تفرعت عنها لجان فرعية في كافة مناطق البلاد، وأخذت تقوم بحملات التبرعات على أصعدة مختلفة[2].

وتألفت هذه اللجان من: المثقفين، والكتاب، والشعراء، والتجار، وأصحاب الحرف، والطلاب، والعمال، والجمعيات النسائية. واستغلت كل الوسائل والأساليب والإمكانات المتاحة من: حفلات خيرية، ومقالات،

---

(1) المناضل الليبي الهادي المشيرقي، محمد الصالح الصديق ص 113.

(2) المصدر نفسه ص 113.

وطبع لصور الشهداء، وعرض الأشرطة التي تجسد بسالة الشعب الجزائري، وتجسم الأساليب الهمجية الفرنسية الاستعمارية.

وكان الانضمام إلى عضوية اللجان الفرعية يتم عن طريق اللجنة المؤسسة أو من قبل المواطنين الذين يشهدون للعضو بحسن سيرته وسلوكه.

وإذا كانت اللجان كلها قد بذلت جهدها وأدت رسالتها المنوطة بها، فإن هناك لجنة رائدة في الميدان كان لها الدور الكبير الفعال، الذي يذكر على الدوام بالشكر والتقدير، وتلك هي اللجنة المالية التي تشكلت في شهر يوليو سنة 1956م، وتألفت من هؤلاء السادة:

ـ الهادي المشيرقي، أميناً للصندوق.

ـ سعد الشريف، مساعداً.

ـ جميل المبروك، مساعداً.

ـ الهادي بن شنشن، عضواً.

ـ الأمين بوحامد، عضواً.

ـ محمد بن طاهر، عضواً.

ـ سعيد السراج، عضواً.

ـ عمر بهليل، عضواً.

وجلّ أعضائها ـ كما ترى ـ من اللجنة الليبية لمناصرة الجزائر.

وارتاح الشعب الليبي إلى هذه اللجنة، وتوالت تبرعاته من مختلف أنحاء المملكة الليبية، بشكل يدعو إلى الفخر والاعتزاز، مما جعل السيد الهادي يسجل هذا الرضا ويشيد بهذا الإقبال المشجع والمتميز على مساندة الثورة التحريرية، يقول فيه: يسرّ لجنة جمع التبرعات لجيش التحرير الوطني الجزائري أن تتقدم بوافر شكرها وخالص تقديرها لجميع أفراد الشعب على ما أظهروه من همة عالية وروح طيبة نحو الجزائر المجاهدة، وما أبدوه من تشجيع وتعاون مع اللجنة طوال مباشرتها هذا المشروع الذي لا تبتغي من ورائه إلا عزة الإسلام ونصر العروبة والمسلمين، راجين من الله أن يوفق إخواننا الجزائريين في كفاحهم ونضالهم، ويثبت أقدامهم وينصرهم نصراً مبيناً.

ولما اتسعت أعمال اللجنة وكثر المقبلون عليها، وأخذ مؤيدوها يتضاعفون يوماً بعد يوم، ورغباتهم في المناصرة والتأييد تتنوع بتنوع الرغبات والحاجات، ضاق بهم مكتب السيد سعد الشريف الذي كان مركزاً لهم، فانتقلوا إلى عمارة الأوقاف بباب الحرية، وإثر ذلك وقع تعزيز اللجنة بأعضاء جدد، وصار أعضاء اللجنة الثانية كما يلي:

ـ محمود عبد السلام صبحي رئيساً

ـ مختار ناصف مسؤولاً إدارياً

. محمد بن طاهر	عضو من أعضاء اللجنة الأولى
. سعد علي الشريف	عضو من أعضاء اللجنة الأولى
. يوسف العرابي	عضو جديد
. الهادي إبراهيم المشيرقي	عضو مؤسس اللجنة الأولى
. أحمد راسم بكير	عضو من أعضاء اللجنة الأولى
. يوسف سليمان مادي	عضو جديد في اللجنة الأولى
. عمر طلوبة	عضو جديد في اللجنة الأولى
. حميدة الحامي	عضو جديد في اللجنة الأولى

وسارت اللجنة الجديدة على نفس النهج، وأظهرت نفس الفعالية، وسارت على الدرب بانضباط منقطع النظير، وكأن الأعضاء قد أصبحوا أسرة واحدة[1].

وقد ظلت اللجنة طوال الثورة على نشاطها، وظل الشعب الليبي الشقيق على كرمه، وتضحياته ومناصراته، وكان هناك أسبوع الجزائر يفتتحه رئيس الدولة أو الحكومة بمبلغ مالي يقدمه للثورة، ثم تنطلق الهيئات والمنظمات والمؤسسات وعامة الطبقات الشعبية، وتشرف عليه بل تسيّره وتديره اللجنة، ويستمر أكثر من شهر أحياناً، هذا الأسبوع تتبارى فيه الهمم وتتنافس في العطاء والتضحية والجود، كل بما قدر عليه.

والمثير أنك ترى خلال هذا الأسبوع أطفالاً صغاراً يتنافسون في جمع التبرعات، وكلهم جد وعزم وحيوية ونشاط، ولا يلهيهم عن ذلك شيء.

وفي الأسبوع الذي يخصص فيه دخل هام من المتاجر والفنادق والأعمال الحرة لصالح الثورة، بتسجيل صور لا أروع منها ولا أدل على متانة اللحمة الأخوية بين الشعبين الجزائري والليبي، منها[2]:

أ . مواقف تهز المشاعر:

. متسول في شوارع طرابلس:

في صبيحة يوم من أيام رمضان 1958م بكّر متسول إلى مكان استراتيجي في قلب مدينة طرابلس تلاقت فيه عدة شوارع، وجلس على الرصيف وتحته حصير أبلاه مر الأيام وعلى فخذه عصا طويلة عتيقة، وعلى كتفيه مزق من عباءة بالية قد اتخذها في عراك الأيام وقاية، ولكن الرياح القاسية تتنازعه هذا الستار فتكشفه عن كتفيه من حين لاخر.

يقول محمد الصالح الصديق: واتفق أن وقفت بالقرب منه مع سفير عربي، نتحدث عن تطورات الثورة وتضامن ليبيا مع الشعب الجزائري، وخاصة في هذا الأسبوع. وكنت من حين لاخر أرمي بعيني إلى المتسول العجوز سيما عندما تمتد إليه يد محسنة في رفق فيقابلها بابتسامة.

---

(1) المناضل الليبي الهادي المشيرقي ص 117.

(2) المناضل الليبي الهادي المشيرقي ص 117.

وبعد ساعة من الإفطار ذهبت إلى مكتب الهلال الأحمر الجزائري بباب الحرية، حيث تجمع التبرعات، ووجدت المكتب غاصاً بمختلف الطبقات، الأطفال، الشباب، والكهول، والشيوخ، وكلهم جاؤوا لتلبية النداء المقدس وتأدية فروض الأخوة، فبينما كنت أتحدث مع المسؤولين وأتابع حركة المتبرعين إذ بشيخ أعمى تسبقه عصاه، ويقوده طفل صغير يشق الطريق بين الناس المتزاحمين وهو يقول:

أين من يجمع التبرعات؟

ففسحوا له الطريق وقادوه، فلم أكد أراه بلحيته البيضاء وعباءته البالية وعصاه الطويلة، حتى ثارت في قلبي دوامات عنيفة من شتى العواصف والأفكار، وعصفت بكياني مختلف المشاعر: إنه الشيخ الذي رأيته صباح اليوم[1].

أخرج من جيبه صرة بها كل ما جمعه في بياض ذلك اليوم، وقدمها إلى المسؤول عن التبرعات، فعندما رفض المسؤول أن يقبلها مؤكداً له أن مثله لا يقل حاجة إلى المساعدة عن المجاهدين، استشاط غيظاً وأبى مصرّاً أن يعود بها، ولم يهدأ حتى قبلت منه.

. ولدي من شهداء الجزائر:

ذات يوم خرج بالسيارة مجاهد يعمل في لجنة التبرعات في أسبوع الجزائر إلى إحدى ضواحي طرابلس لمهمة كلّف بها، فدهس شاباً دون العشرين من عمره فقتل، وما إن بلغ الخبر والده حتى أسرع مذعوراً إلى مكان الحادث يعتصره الألم ويهزه هول المصاب، فما إن علم أن قاتل ولده جزائري كان يسوق سيارته بسرعة حتى يؤدي مهمة للثورة في موعدها المحدد ؛ حتى هدأ وسكن وتقدم بخطى وئيدة إلى ابنه ممرغاً في الدماء، فحدجه بنظرة ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم التفت إلى السائق وقال له والدموع تترقرق في عينيه: اذهب يا أخي لمهمتك حتى لا تفوت، فإن الوقت لا ينتظر، أما ولدي فإنه من شهداء الجزائر، وللشهداء مكانتهم عند ربهم. وكانت دهشة السائق بالغة عندما احتضنه بذراعيه وقال له: اذهب ولا تتأخر عن موعد المهمة، أما ابني فإنه لم يمت لأنه ذهب شهيداً في سبيل الجزائر.

. العرائس الليبيات يتبرعن بحليهن للثورة:

تبرع العرائس الليبيات اللاتي صادف زفافهن أسبوع الجزائر، فتبرعن بحليِّهن للثورة الجهادية المقدسة لديهن مثل كل الشعب الليبي[2].

علماً أنه وفي كل ليلة من أسبوع الجزائر الذي يمتد إلى شهر أو شهرين، تنظم حفلة أو حفلات في مختلف أحياء مدينة طرابلس وفي مختلف المدن الأخرى، ويتكلم فيها الخطباء عن الدور البطولي الذي يقوم به الشعب الجزائري منذ اندلاع الثورة التحريرية، والانتصارات الضخمة التي يحققها الأبطال الجزائريون.

(1) المصدر نفسه ص 118.

(2) جهاد الجزائر ص 312.

وفيما نشاطات أسبوع الجزائر قائمة على قدم وساق في نواح متعددة من المملكة الليبية ؛ مرت عروس بدوية مثقلة بمصوغات ذهبية وفضية في موكب من أهلها يزفونها إلى زوجها زفاً، وفيما هي في الهودج حانت منها التفاتة إلى مكان هناك، فرأت منظراً أثار فضولها رأت الناس يتهافتون متسائلين على سيارة فيها علم جزائري ونفر من الناس، يأخذون منهم ما يشبه الهدايا، فاستوقفت الموكب تسأل وليَّ أمرها عما ترى، فقال لها: إنهم يتصدقون بما توفر لهم من عملة وذهب وفضة مساندة لإخواننا الجزائريين في حربهم المشروعة على الاستعمار الفرنسي، فتصدقت بكل ما تملكه من مصوغات ومجوهرات محتسبة الأجر عند الله تعالى[1].

ب ـ مقاطعة المنتجات الفرنسية:

في عام 1961م ظهر الأثر الإيجابي للجنة مقاطعة فرنسا التي كان مقرها بطرابلس، حيث استطاعت جر العديد من الشركات الليبية إلى قطع علاقاتها التجارية مع فرنسا، وهذا ما حدث بالنسبة لشركة القافلة التي تعهدت بأن لا تستورد أي بضاعة أو قطع الغيار من أي بلد كان إذا كانت هذه البضاعة أو قطع الغيار فرنسية الصنع[2].

ج ـ خدمات الهادي المشيرقي للثورة الجزائرية:

كان من أبرز الشخصيات الليبية التي ساندت الثورة الجزائرية، والتي وقفت بكل جهدها لصالح هذه القضية العادلة، الهادي إبراهيم المشيرقي، وقدم كل ما يملك من أجل ذلك:

ـ بيوت في فنادق لصالح الثوار:

كان يدير شؤون ستة فنادق بطرابلس، منها اثنان كبيران مشهوران في قلب المدينة، هما فندق المهاري والفندق الكبير، وكان ينزل فيهما المناضلون الجزائريون وخاصة منهم قادة الثورة ـ إذ ذاك ـ أمثال كريم بلقاسم، وعبد الحفيظ بوصوف، ومحمد يزيد، وعبد الله بن طوبال، ومحمدي السعيد، وأحمد فرنسيس، وعبد الحميد مهري، ويوسف بن خدة، وسعد دحلب، فيكرمون غاية التكريم، ويخدمون خدمة متميزة، ثم عندما يشكرونه على كرمه المتميز يقول لهم: الشكر لكم لأنكم أتحتم لي هذه الفرصة الثمينة لأنال بهذا العمل المتواضع شرف المساهمة في هذه الثورة التاريخية الماجدة.

ـ إقامة حفلات على شرف المشاهير:

اعتاد أن يقيم حفلاً على شرف أية شخصية تزور مدينة طرابلس أو تمر بها، وسواء أكانت هذه الشخصية سياسية، أم علمية، أم رسمية، أم نضالية، فيدعو لها رئيس البعثة والمكلف بالإعلام للثورة، فتطرح الثورة بوجهها قضاياها، ويبرز ذلك في أجهزة الإعلام من صحف ومجلات ومطبوعات وإذاعات. وكانت المادب التي يقيمها من أجل هذا الغرض تكلفه أموالاً طائلة، ولكنه لا يكترث لذلك أبداً مادامت قد حققت غرضه، ومن أمثال المشاهير:

(1) المجاهد محمد الصالح، إسماعيل ميرة ص 161.

(2) مواقف الدول العربية ص 120.

. الحاج الأمين الحسيني.

. مالك بن نبي.

. البشير الإبراهيمي[1].

وإذا كان السيد الهادي المشيرقي عظيم التقدير لكل المناضلين الجزائريين بالخصوص ؛ فإن خمسة منهم كانوا عنده في مستوى متميز لاعتبارات مختلفة شخصية أو نضالية، هؤلاء هم: الشيخ البشير الإبراهيمي، حسين ايت أحمد، أحمد بن بلة، عمرو أوعمران، بشير القاضي[2].

. ماذا يضير موتي بعد موت مليون من إخوتي؟

يقول الهادي إبراهيم المشيرقي في كتابه «قصتي مع ثورة المليون شهيد»: في الأسبوع الأول من شهر مايو 1960م زارني خليفة العروسي وكيل وزارة التموين والتسليح، وكان معه وزير التموين والتسليح عبد الحفيظ بوصوف.. جاء الاثنان إلى مكتبي وسألني خليفة سؤالاً مباشراً:

. هل تعرف شخصاً اسمه «بيزنرويلي»؟

فأجبته على الفور: نعم.. أعرفه جيداً فقد كان يورد الأسلحة لمكتب المغرب العربي بالقاهرة.

وجاء السؤال الثاني مباشراً أيضاً.. وقاطعاً مثل سابقه:

. هل أنت مستعد للعمل مع الثورة الجزائرية بأقصى حد؟

والجواب:

نعم.. وهذا شرف يُمنح ولا يُفرض.

وعقّب الوزير الجزائري رداً على جوابي:

. المسألة فيها خطورة على حياتك؟

ورددت:

. ماذا يضير موتي بعد موت مليون من إخوتي؟

وهز رأسه متمتماً طيب.. ثم بلع ريقه وأردف قائلاً، والكلمات تخرج من بين شفتيه بصعوبة:

. حتى نكون واقعيين، وهذا ما يجب إزاء الأشخاص الثوريين ؛ فإن الأمر يتطلب . للاحتياط . أن تكتب وصيتك وبراءة للثورة من دمك.

. أكتبها من كل قلبي، وأنا مرتاح وسعيد بشرف انضمامي إليكم، وهذا شرف طالما تمنيته وطلبته منكم مراراً.. وها قد تحقق ولله الحمد.

---

(1) المناضل الليبي الهادي المشيرقي ص 123.

(2) المناضل الليبي الهادي المشيرقي ص 145.

وبالفعل كتبت وصيتي وورقة أخرى أبرأئ فيها الثورة تماماً من دمي، وأعفيها من أية مسؤولية خاصة بمصيري، كما كتبت رسائلي لأسرتي، وفي الصباح يوم 29 مايو 1960م أخذني خليفة العروسي إلى السفارة السعودية في طرابلس.

وهناك كان في انتظارنا الوزير المفوض بكري عبد الكبير، وتسلم مني ما أحمله من وصايا وبراءة ورسائل لأسرتي، فوضعها في مظروف كبير وأودعها في الخزانة الحديدية.

وكنت قد حررت ايضاً عدة رسائل أخرى لأفراد أسرتي وأودعتها بدورها في مظروف مغلق، وسلمتها لصديقي عبد الرحمن شرف الدين..

واتفقنا على أن نتقابل أنا وخليفة العروسي في فندق «كونتس هوف» بمدينة ميونيخ الألمانية[1]..

والتقيا هناك وقال: وبدأنا على الفور العمل وناقشنا المطلوب، وتوالت الاجتماعات حول التفاصيل، وكانت عصابة اليد الحمراء في أقصى حالات نشاطها في محاولة مسعورة لقطع طرق الإمداد والتسليح على الثورة الجزائرية، وقد ارتكبت عدة جرائم اغتيالات..

ولم يكن «ويلي» بعيداً عن مراقبتها، وكان هو بنفسه يعرف ذلك، ويتخذ احتياطات كثيرة للخداع . وبعد مفاوضات ومباحثات . بدأت الأمور تستقر على حال، فقد حددا الكميات والنوعيات والأسعار وجاء دوري هنا، فباختصار، فإن «ويلي» كسمسار سلاح لم يرد التعامل مع الثوار مباشرة، فهم في رأيه بعيدون عن الاستقرار في مكان، وحياتهم عرضة للمخاطر، كما أن مراكزهم تتغير، وبالتالي فإن مسؤولياتهم متغيرة، وهو يريد مسؤولاً يسدد له مستحقاته في مواعيدها وتفاصيلها، وفي المقابل فإن الثوار لا يثقون في تجار السوق السوداء وفي سلعة خطيرة كالأسلحة بصفة أخص، حيث يكثر النصب فضلاً عن التلاعب والخديعة وغيرها مما يزال وسيظل بحكم هذه التجارة.

وقد اتفق الطرفان «الثوار والتاجر» على البحث عن حل لهذه الثقة المفقودة بين الطرفين، واقترح التاجر اسمي بحكم المعرفة السابقة منذ أيام مكتب المغرب العربي، وبدأ «ويلي» عمله على الطبيعة، فأخذ يلف على المخازن والمخابأئ طلباً للأسلحة، وودعني خليفة على موعد أن يعود بعد ثلاثة أيام أو يومين ومعه ثمن ما اتفقنا عليه، واتفقنا أن نلتقي في فندق اخر حدده «ويلي».

وبعد يومين فقط عاد خليفة العروسي من دمشق.. وسلمني ثلاثة صكوك باسمي وبها مبالغ ضخمة:

. الأول تحت رقم 316/ 87804 بقيمة مليون و189 ألف دولار، وهو محول على مصرف «تشيس مانهاتن بنيويورك».

. الثاني بقيمة 712 ألف و50 مارك ألماني، وهو تحت رقم 326/ 187805 ومحول على مصرف «دوت شبانك دوسلدروف».

(1) قصتي مع الثورة الجزائرية ص 480.

. والثالث بقيمة 822 ألف و200 مارك ألماني غربي، وهو تحت رقم 327/ 187806 ومحول على المصرف السابق نفسه.

والصكوك الثلاثة صادرة باسمي، وقد سلمت خليفة إيصالاً واحداً بالصكوك الثلاثة، وذكرت في الإيصال أنه في حالة موتي أو فقداني للوعي فإنه على ورثتي أن يعيدوا قيمة الصكوك حالاً إلى جبهة التحرير الوطني الجزائري، كما حررت رسالة للمصرف بنفس المعنى وظللنا نلتقي ثم نفترق، وتطول الاماد بين اللقاءات وصديقي «ويلي» مشغول تماماً بتجهيز الصفقة.

وحان وقت التسليم، وبدأت اللقاءات تكتسب سمة النهاية عندما فوجئنا بأن «ويلي» بعد إحدى هذه اللقاءات يحاول إدارة محرك سيارته، فإذا بإنفجار ضخم يطيح بكل شيء في السيارة ويحولها إلى شظايا، وخاصة ذلك المقعد المجاور له، والذي طالما جلست عليه غادياً ورائحاً حتى قبل لحظات الانفجار، ولكن قلَّ صدق الله{لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا} [سورة التوبة:51]

لقد نجوت، ولكن صديقي المسكين بتر الانفجار ساقه وأصابت الشظايا وجهه، وتسببت في إصابته بضعف شديد في الإبصار(1).

وقد دفن السيد الهادي إبراهيم المشيرقي بالجزائر مع الشهداء الذين أحبهم وأوصى أن يدفن بجوارهم، وكانت وفاته في مساء يوم الاثنين الثالث من شهر شوال من عام 1428هـ الموافق 15 أكتوبر سنة 2007م، واستقبل جثمانه في مطار هواري بومدين من طرف شخصيات جزائرية وطنية وسياسية وعلمية، ثم نقل في موكب مهيب إلى مقبرة العالية، وصلى عليه صلاة الجنازة الشيخ محمد الطاهر ايت علجت، ثم أبّنه الأمين العام للمنظمة الوطنية للمجاهدين بكلمة جاء فيها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

الله أكبر الله أكبر الله أكبر

{مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣} [سورة الأحزاب:23] .

ها أنت أيها المجاهد الكبير والمناضل الوفي الأخ الكريم الهادي إبراهيم المشيرقي، نزيل أديم أرض الجزائر الطاهرة التي حلمت بأن يضم ثراها جثمانك، وكانت تلك خير شهادة على حبك لهذا الوطن إلى أن قال: .. وإنه لمن شرف الاعتزاز أن يحتضن تراب الجزائر المجاهدة جثمانك الطاهر إلى جانب رائد المجاهدين الأمير عبد القادر، ورمز الشهداء محمد العربي بن مهيدي، والمناضلين الكبيرين الرئيسين محمد بوضياف وهواري بومدين، فنم قرير العين صحبة هؤلاء الأفذاذ الذين ستبقى أسماؤهم حية في ضمير شعبهم وفي وجدان أمتهم العربية والإسلامية.

---

(1) جهاد الجزائر ص 315.

فالله نسأل أن يتغمدك برحمته الواسعة، وأن يرزقنا جميل الصبر في فقدانك أيها المجتهد والمناضل الذي عرف كيف يضع نفسه وإمكانياته في خدمة القضايا الكبرى والمصيرية للأمة.

{يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ27ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٢٨فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ٣٠}
[سورة الفجر:30] .

إنا لله وإنا إليه راجعون[1]

إن المملكة الليبية بحكوماتها وشعبها ساعدت ثوار الجزائر في معركتهم المقدسة ضد فرنسا، وقاموا بمد الثورة بالسلاح والذخائر والأموال والمساعدات، إن جميع الساسة والقادة العسكريين زمن المملكة الليبية والذين كانت لهم علاقة مباشرة بمدّ الثورة في الجزائر يشهدون أن الملك كان مسانداً لحركة الثورة وحريصاً على نجاحها، ولم يقصر معها لا مادياً ولا معنوياً. وتميز الموقف الليبي تجاه الثورة الجزائرية بالوحدة بين الشعب والحكومات والملك خلال كل مراحل حرب التحرير. وكل تأييد الملك والحكومة والشعب مطلقاً للشعب الجزائري في ثورته.

* * *

(1) المناضل الليبي الهادي المشيرقي ص 211.

ثانياً: المغرب:

أثر اندلاع الثورة الجزائرية في عمق المجتمع المغربي، الذي راح حكومة وشعباً يتضامن معها ومع الشعب الجزائري، وقد تجلى ذلك في مطالبة ممثل المغرب الأقصى لدى هيئة الأمم المتحدة عام 1955م السيد أحمد بلا فريج بوضع حد وبسرعة للمجازر المرتكبة في حق الشعب الجزائري، والكف فوراً عن إراقة دماء هذا الشعب الذي حرمته فرنسا من أبسط حقوقه، كما أكد موقف المغرب الأقصى حكومة وشعباً الرافض للطرح الاستعماري القائل إن الجزائر جزء لا يتجزأ من التراب الفرنسي، معتبراً ذلك ضرباً من الخيال لا يسعها إلا أن تنهار أمام حقيقة القضية الجزائرية وثورة الشعب الجزائري[1]

إن ضغط الثورة المستمر على السلطة الاستعمارية الفرنسية ما بين 1954م و1956م، وضغط الحركة الوطنية المغربية وضربات المقاومة المغربية الباسلة؛ دفع إدارة الاحتلال الفرنسي أن تسارع إلى الاعتراف باستقلال المغرب الأقصى الشقيق، لكي تتفرغ كلية للثورة في الجزائر وذلك عام 1956م، لكن استقلال المغرب الأقصى الشقيق كان وراء بعث سياسة فرنسية جديدة تجاه هذا البلد العربي، الذي وجد نفسه مرغماً على أمرين اثنين: إما الدخول في نطاق التعاون مع فرنسا والالتزام به، وإما مساندة ودعم الثورة الجزائرية وقضيتها العادلة والتضامن معها طبقاً لما نصت عليه مواثيق الحركات الوطنية في المغرب العربي ومطالب شعوب المنطقة. وكان الأمر الثاني هو الذي اختاره الشعب المغربي بزعامة الملك الراحل محمد الخامس[2].

واستبشرت جبهة التحرير الوطني الجزائرية خيراً في استقلال المغرب الأقصى، من خلال فتح جبهة ثانية لدعم الثورة التحريرية، هذا إلى جانب كسب حليف طبيعي له حق الدفاع عن القضية الجزائرية ودعم ثورة الشعب الجزائري مادياً ومعنوياً. وفعلاً كانت البداية في الدعوة التي وجهها العاهل المغربي الملك محمد الخامس إلى الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة وزعماء الثورة الجزائرية في الخارج لعقد ندوة سلام بالمغرب الأقصى، حيث أبدت فرنسا الاستعمارية رغبة شديدة في حضورها، وهدفها من ذلك هو الوقوف بقوة ضد القضية الجزائرية حتى لا تتمكن من كسب الصف المغربي وانطلاقاً من هذا الموقف الرسمي المغربي لإيجاد حل للقضية الجزائرية، بادرت الصحف المغربية إلى التعبير عن موقفها المؤيد لقضية الشعب الجزائري وثورته المجيدة، حيث أكدت على ضرورة دعمه حتى يحقق استقلاله الكامل واللامشروط انطلاقاً من توصيات ومبادأئ هيئة الأمم المتحدة. كما بادر الطلبة المغاربة إلى احتضان الثورة الجزائرية من خلال تقديم الدعم الضروري لها لرفع الغبن الذي يعاني منه الشعب الجزائري، وتجلى موقفهم البطولي في دعوة اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين لحضور المؤتمر الطلابي المنعقد بالمغرب الأقصى، والذي ضم إلى جانب الطلبة الجزائريين كلا من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب الداعي لانعقاد المؤتمر، والاتحاد العام للطلبة التونسيين، وقد وجه المؤتمرون مطالب أساسية لكل من الحكومتين

---

(1) مجلة دعوة الحق، الأوقاف المغربية العدد 403 سنة 2012م ص 69.

(2) المصدر نفسه.

المغربية والتونسية تدعو إلى دعم الثورة الجزائرية، ومطالبتهما ببذل الجهود لإيجاد مخرج مشترك لأزمة المغرب العربي، في إطار مواجهة فرنسا لكونها العدو المشترك لسكان المغرب العربي[1].

1 . مواقف من الملك محمد الخامس:

في تاريخ 15 سبتمبر 1956م، ألقى العاهل المغربي محمد الخامس خطاباً بمدينة وجدة الحدودية، تناول فيه معاناة شعوب المغرب العربي من السياسة الاستعمارية المطبقة من حكام فرنسا المتعاقبين، مركّزاً في ذات الخطاب على معاناة الشعب الجزائري، وأكد من جهته كذلك على ضرورة إيجاد حل سلمي وعادل للقضية الجزائرية، وأن مستقبل الجزائر يدخل ضمن إطار وحدة المغرب العربي، ومما جاء في هذا الخطاب: إننا نود أن يوضع حد لحرب الجزائر بسرعة حتى نحافظ على علاقات الصداقة بين أقطار شمال إفريقيا وفرنسا[2].

لقد كان دعم المغرب الأقصى للثورة الجزائرية وقضيتها العادلة بزعامة الملك محمد الخامس صفعة قوية بالنسبة لفرنسا، خاصة وأنها كانت تتوقع وقوف المغرب الأقصى إلى جانبها في مطلبها الرامي إلى كون الجزائر جزءاً لا يتجزء من ترابها، لذا كان ردها سريعاً، فبعد شهر واحد من خطاب العاهل المغربي، قامت باختطاف الطائرة التي كانت تقل قادة الثورة الجزائرية من جبهة التحرير الوطني الذين نزلوا ضيوفاً على الملك محمد الخامس، وكان الجميع في طريقهم إلى تونس لعقد ندوة خاصة بالسلام في المنطقة[3].

أ . الموقف من القرصنة الفرنسية:

في 23 أكتوبر 1956م أي بعد يوم واحد من وقوع القرصنة الجوية، أعلنت السلطات الاستعمارية الفرنسية عن تجميد كل مفاوضاتها الجارية مع الحكومة المغربية، معتبرة التصريحات الرسمية المغربية تجاه الثورة الجزائرية دعماً معنوياً للقضية الجزائرية، وهي في نظرها مساس بسيادتها على اعتبار الجزائر جزءاً من ترابها.

لقد كان موقف المغرب الأقصى من العملية التي تعرض لها بعض قادة الثورة في الخارج أنها مساس بسيادتها وكرامة شعبها، لذا راحت تستنكر بشدة هذه العملية، واستدعت على الفور سفيرها بالعاصمة الفرنسية باريس، وطالبت بشدة بإعادة المختطفين إليها دون قيد أو شرط مسبق، وهددت رسمياً برفع القضية إلى محكمة العدل الدولية بلاهاي، في حالة عدم إذعان فرنسا لذلك، على خلفية أن الطائرة المختطفة من طرف الحكومة الفرنسية هي طائرة مدنية مغربية.

وهكذا توالت الاحتجاجات المغربية ضد العملية التي اعتبرها العاهل المغربي محمد الخامس كارثة مصرحاً في صحيفة فرانس تيرور، بأن عملية القرصنة هذه هي طعنة أكثر خطورة بالنسبة لشرفه من حادثة تنحيته عن العرش، على اعتبار أن اختطاف زعماء الثورة الجزائرية وقع في بلاده، كما صرح من جهته أحد مسؤولي جيش التحرير المغربي إثر هذه العملية لجريدة الإكسبريس أيام ندوة تونس حول السلام بما يلي:

---

(1) المصدر نفسه ص 70.

(2) جريدة المجاهد، العدد 27 تاريخ 25 فبراير 1959م.

(3) وهم: أحمد بن بلة، محمد خيضر، بوضياف، حسين ايت أحمد، والصحفي مصطفى الأشرف.

دعونا الجزائريين لندوة تونس التاريخية لنلقنهم دروساً، لكن انقلب الأمر فالجزائريون هم الذين أعطوا دروساً للمغاربة والتونسيين، لقد كنا نقول لهم كيف تتهيؤون لفعل السلم مع فرنسا، والان هم يقولون لنا ماذا يشكل الاستقلال الذي تزعمون أنكم أحرزتم عليه؟ فالعالم أصبح يعرف أنه لا توجد قضية الجزائر أو تونس أو مراكش، بل هناك قضية المغرب العربي، سنكون جميعاً مستقلين أو نكون جميعاً في حرب[1].

لقد فشلت فرنسا في خنق القضية الجزائرية من خلال عرض الصفقات التجارية المربحة، فبعد فشلها الذريع في جلب كل من ليبيا وتونس، جاء دور المغرب الأقصى الذي حاولت إغراء حكومته بالنفط الجزائري عن طريق تجديد العرض، لكن الملك محمد الخامس رفض بشدة هذه الصفقة عام 1957م واعتبرها مساساً بكرامة الشعب الجزائري الشقيق، الذي هو بأمس الحاجة لدعم بلاده المعنوي أكثر من أي وقت مضى من عمر الثورة[2]

ب ـ مطالبة أحرار العالم لدعم القضية الجزائرية:

وبمناسبة الاحتفالات بذكرى العيد العالمي للشغل وهو أول ماي، ألقى الملك محمد الخامس كلمة في هذا المهرجان العالمي في ماي 1957م، تطرق فيها إلى التأييد المغربي المطلق لكفاح الشعب الجزائري ونصرة قضيته العادلة، كما أصدر بهذه المناسبة العمالية الاتحاد العام للعمال الجزائريين نداء إلى كل أحرار العالم طالبهم فيه بدعم قضية الشعب الجزائرية وكفاحه من أجل الاستقلال.

وفي 31 جانفي عام 1957م شن العمال المغاربة عن طريق اتحادهم إضراباً من أجل دعم الثورة الجزائرية، وإشعار السلطات الاستعمارية أن الطبقة العاملة في المغرب الأقصى واعية تمام الوعي بالقضية الجزائرية، التي تعتبر بالنسبة لهم قضيتهم الأولى، وقد استجاب الجميع لهذا الإضراب الذي عمّ مدينة الرباط، كما نظم مهرجاناً نسوياً بمدينة تطوان، تُوّج بإرسال برقية من طرف النساء المغربيات إلى هيئة الأمم المتحدة لإبلاغها بمعاناة الشعب الجزائري من سياسة الظلم والقهر المسلطة عليه من طرف إدارة الاحتلال الفرنسي[3].

لقد تمكنت الثورة الجزائرية من تصدّر القضايا المغربية الهامة، ولقيت الدعم المعنوي الكافي في الداخل والخارج، وهو ما عبر عنه مرة أخرى كذلك العاهل المغربي محمد الخامس بقوله: إننا لا نستطيع الاستمرار في احترازنا الحالي، إن لم يحلّ المشكل الجزائري ويعترف للشعب الجزائري بالحرية والاستقلال.. وكل ما يمس الجزائر يحدث صدى عميقاً بالمغرب بسبب العلاقات الوثيقة. كما صرح في شهر مارس 1958م لرجال الصحافة الدولية، بأن امتداد الحرب إلى كامل الشمال الإفريقي لم يعد عبارة تقال للتخويف، ولكنه أصبح حقيقة مجسدة[4].

ج ـ مقابلة الملك لممثلي جبهة التحرير:

---

(1) دعوة الحق، العدد 403 السنة الخامسة والخمسون سنة 2012م الأوقاف المغربية ص 71، 72.

(2) المصدر نفسه ص 72.

(3) المصدر نفسه ص 72.

(4) المصدر نفسه ص 72.

في يوم السادس من شهر فيفري 1957م تقابل الملك محمد الخامس مع وفد من جبهة التحرير الجزائرية في مدريد فحضروا حفل استقبال الملك محمد الخامس، وكان برئاسة أحمد توفيق المدني، وسلموا عليه سلاماً حاراً أسرع من البرق، وفي اليوم الثاني عند الساعة الخامسة كان اللقاء الخاص بين وفد جبهة التحرير والملك ومرافقيه، وكان الصحفيون في الردهة يسجلون ويصورون كل داخل، فذكرت كل الصحف الفرنسية نبأ تلك المقابلة، وقالت صحيفة باريسية مشهورة: إن الملك قد استقبل وفداً من جبهة التحرير الجزائرية «يرأسه توفيق المدني الذي هو من أمهر المناضلين عن القضية الجزائرية».

وبعد حديث ونقاش وحوار قال لهم الملك: إنه مهما كانت الظروف فهو مع الجزائر وشعبها وثورتها يقف وقفة المجاهد لا وقفة المؤيد، وإن سلاح الثورة يتجول في المغرب بكل حرية، وإن المعاملة بين الجزائريين وبين المغاربة تقع باستمرار على بساط المحبة والوئام، وإنه مستعد لإمدادنا إذا لزم الأمر بشيء تكونوا في مسيس الحاجة إليه. وخرجوا من عنده وكأنهم خرجوا من حضرة ولي حميم وأخ كريم[1].

وبعد ذلك سافر أحمد توفيق المدني ومن معه إلى المغرب بعد طلب من عبد الحفيظ بوالصوف، وتردي العلاقة بين ثوار الجزائر بالمغرب وبعض المسؤولين المغاربة، حيث أن المخابرات الفرنسية زرعت مجموعة من الجزائريين لإشاعة الشائعات المغرضة، ويتعمدون إشاعتها في الأوساط التي تمس من قريب حزب الاستقلال والمقاومة والقصر، وكانوا يشيعون أن الجبهة تعمل لفائدة الشيوعية مما عكّر الجو وتلبدت الغيوم.

والتقى أحمد توفيق بالمسؤولين الجزائريين وممثل الجبهة السيد محمد خير الدين، والذي قدم خدمات جليلة للجبهة في المغرب وجهوداً خارقة للعادة في ذلك السبيل، ويشهد الجميع أنه لولا حنكته ولولا سلوكه السياسي الحكيم، لخرجت القضية عن نطاقها السياسي ولاتسعت شقة الخلاف على كل الراقعين.

وتم اللقاء بين أحمد توفيق والإخوة المغاربة عند الشهيد المهدي بن بركة، وكان يومئذ روح حزب الاستقلال وكان قوته المحركة، وحضر الاجتماع سادة أبرار أحرار مثل الفقيه غازي، رجل الدين القوي ورجل السياسة المتين، وعمر ابن عبد الجليل المقاوم وبقية من رجال الاستقلال ورجال المقاومة.

وبعد تناول الطعام افتتح الحديث والجماعة تنصت، كأن كل طيور الدنيا حطت فوق رأسها، فذكر الكدر الذي يسود العلاقات بين إخوة كان عليهم أن يتضامنوا في الكفاح وأن يشتركوا في الجهاد، وذكر أحمد توفيق المدني: بعض أمثلة على ذلك، ورجا أن لا يخرجوا من اجتماعهم إلا متضامنين عاملين اليد في اليد من أجل خير الجزائر واستقلالها ووحدة المغرب العربي.

قال المهدي بن بركة متكلماً باسم الجماعة: يا أخ توفيق إن علاقتنا بك قديمة ترجع إلى عهد الكفاح الأول، ولا تنسى ولا ينسى أحد ما قمت به من واجب النضال عن المغرب واستقلاله وملكه الزعيم، إلى أن زالت الغمة وانفرجت الأزمة، والان نكلمك بما تعرف عنا من صراحة ومن ضرب الهدف في الصميم.

---

(1) حياة كفاح (424/3).

يوجد بيننا خلاف فعلاً، حول المقاصد وحول الأهداف، وهذا الخلاف يزداد اتساعاً يوماً بعد يوم، سببه الأساسي أننا نسمع من الكثير من الجزائريين، بل من بعض مسؤوليهم هنا ما يفيدنا أن الجبهة تسير في طريق شيوعي، وتعمل لفائدة الشيوعية، وأن انتصارها هو انتصار للمبادأئ الهدامة التي تقوض ديننا، وتقوض نظامنا، وتقضي على وحدتنا، وقد خاطبنا الشيخ خير الدين في الأمر، فكذبه ونفاه وقال: لو أن الأمر كان كذلك لما انضمت جمعية العلماء للجبهة، ولما كان هو عاملاً على رأس الجماعة بالمغرب، إنما نحن خاطبنا بعض المسؤولين الاخرين، فمنهم من قال لنا: ليس هذا وقت المذاكرة في مثل هذه الأمور، ومنهم من أكد لنا أن الجزائريين سيقولون كلمتهم في النهاية بعد الاستقلال وسيختارون لأنفسهم ما يريدون، وأنت ترى ولا ريب أنه يصعب علينا جداً، بل يكاد يستحيل أن نعمل على مساعدة حركة ليست لها أهداف واضحة.

انفجرتُ انفجاراً ثورياً، وكأنني فنبرة ألهب فتيلها فتكلمت بحماس وإيمان، وكنت أثناء كلامي خطيباً لا متحدثاً، ومما قلت: إنني أقبل كل شيء، وأتكلم عن كل شيء ؛ إلا أننا نتهم في ديننا، وفي أهدافنا المقررة المرسومة، وفي مبادئنا التي أعلناها مراراً على الناس، وما لكم يا إخواني تسمعون كلام زيد من الناس، وعمرو من الناس، وفيكم مثل هذا الزيد ومثل هذا العمرو، ولا ترجعون لقادة ثورتهم كأنهم يسكنون الزهرة أو المريخ ولا ترجعون لتلاوة بياناتها، وتصريحاتها الرسمية؟

أقولها لكم مرة أخيرة وأرجو أن تسمعوا لها جيداً: إن ثورتنا إسلامية مطهرة، وإن شعبنا من أعمق شعوب الأرض إيماناً وإسلاماً، وإن جيش التحرير يعتبر نفسه مجاهداً في سبيل الله، من مات منه شهيداً فقد وصل إلى الله جل شأنه من أقرب طريق، لسنا شيوعيين ولا نكون شيوعيين، ولن تتغلغل الشيوعية بين صفوفنا كيفما كان الحال، ومهما تطور الأمر، ثم وأنتم الطبقة المفكرة الواعية في البلاد وعندكم حزب شيوعي، لا يستهان به، ألا تعرفون موقف الحزب الشيوعي منا؟ ألا تعرفون مقاومته لنا؟ ألا تعرفون أن الشيوعيين لم ينضموا إلى الجبهة، ولن ينضموا لها.

وأقول بحضور أخي الدكتور محمد أمين الدباغين، والحاضر معي هنا، إننا لا نعمل إلا في دائرة الإسلام والعروبة، ووحدة المغرب العربي، وفي سبيل حرية الأمم واستقلالها قاطبة، وأؤكد لكم رسمياً وعلناً وسجلوا على قولي هذا، وسجلوه على أخي المرافق لي: إن الجزائر في جهادها، وفي استقلالها، لن تتخلى إطلاقاً أبداً عن إسلامها وعروبتها ووحدتها، وإن الله سينصرها النصر الذي وعد به المجاهدين الصابرين، وطوبى لمن كان معها ساعة الشدة، وويل لمن وقف في سبيلها أو اعترض طريقها. يا دكتور أمين الدباغين: أتصادق على ما قلتُ؟ قال: والله ما قلتَ إلا حقاً، هذا هو مبدأنا الذي عليه نحيا وعليه نموت.

تكلم الفقيه الغازي بعد حديثي الطويل وقال: والله لقد كانت فرصة حسنة لنسمعك مرة أخرى بعد خطابك يوم فدالة بالرباط، وأنا أقول أنني امنت واقتنعت وزال عني كل ريب.

وتكلم ابن عبد الجليل المفضل بمثل ذلك، وتكلم ممثل المقاومة الشعبية وأجاد، وبعد أن تداول القوم الحديث ونحن نسمع، قال المرحوم ابن بركة متأثراً: أؤكد لكما أنه لم يبق لنا أي خلاف معكم حول المبادئ والأهداف، وإننا سنخبر كل رفقائنا بهذا والحمد لله، وخرجنا وكانت الساعة السادسة مساء[1].

. مقابلة الملك ودعم سخي لشراء السلاح:

قال أحمد توفيق المدني: في نفس ذلك اليوم جاءنا رسول من القصر يقول: إن جلالة الملك يرجو مقابلتكم اليوم في منتصف الليل بالقصر.

وبعد أن اجتمعنا ببقية أصحابنا محمد خير الدين والمبروك ومن معهما، قال لي المبروك وخير الدين: توجد في مرفأ طنجة سفينة تحمل سلاحاً جيداً وذخيرة حية وهي مهربة يريد صاحبها بيعها، وليس لنا من النقود ما يكفي لابتياعها، وإن تركناها نكن قد خسرنا كثيراً، فاغتنم فرصة مقابلتك لجلالة الملك وأخبره بالأمر واطلب مساعدته، فلعل الله يمهد الأسباب.

وبعد اللقاء بالملك: تكلم الملك بصوت خافت، مرحباً بنا ترحيباً أخوياً صادقاً، وقال: لقد أطلعني الإخوان الذين اجتمعتم بهم على كلامكم معهم، وأعلموني أنهم امنوا به واقتنعوا، فبارك الله فيكم، وأؤكد لكما ما كنت قلته لك بمدريد، من أن المغرب كله لا فرق بين حاكم ومحكوم، مشارك لكم في جهادكم إلى نهايته المشرفة، وإن كانت بعض الشكوك سببها تصريحات وأعمال طائشة، ساورت أنفس بعض رجالنا قد قشعتم سحبها بارك الله فيكما.

قال أحمد توفيق المدني: يا جلالة الملك!. إننا لم نشك إطلاقاً في عونكم وفي شدّكم لأزرنا، وما كنا نتوقع أن يشك بعض الإخوان من ذوي المكانة عندكم في أهدافنا وفي حقيقة اتجاهنا، والحمد لله أن زال كل ذلك، وقد جاء في القران بمناسبة حديث الإفك قوله تعالى:{لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ } [سورة النور:11]، قال: هو خير إن شاء الله.

حدثته عن السفينة الراسية بطنجة، وما فيها من خير كثير، وحاجتنا الأكيدة إليها ثم أردفت: من دلائل الخير أن نجتمع بجلالتكم الان لنسألكم مد يد المساعدة القوية لإخواننا العاملين مع «المبروك» حتى يتسنى لهم إتمام الصفقة، وماتنفقوا من خير تجدوه عند الله هو خيراً.

قال الملك في شبه ابتسامة: لا أرد لك رجاء. ليتصل بي الأخ المبروك بوسيلته المعروفة وأنا أكمل له الثمن المطلوب، اشتراكاً مني خاصاً في الجهاد، وقد برّ بوعده قدس الله روحه، وكان اشتراكاً ضخماً شكرناه وخرجنا من عنده[2].

---

(1) حياة كفاح (426/3، 427).

(2) حياة كفاح (429/3).

2 . الحكومة المغربية تفتح حدودها للمجاهدين:

فتحت الحكومة المغربية بتوجيه الملك محمد الخامس حدودها للمجاهدين الجزائريين، وجعلت من أراضيها ميداناً لتدريبهم، وبعض مدنها قواعد خلفية للثورة. وهذا الدعم الكبير زاد من قوة الثورة، بل شتت خطط العدو الفرنسي الذي أصبح لا يقوى على رد هجمات المجاهدين.

ونشطت قيادة الثورة في وضع الخطط وتكوين شبكات تتولى مهمة الحصول على السلاح من أوروبا وتوصيله إلى المنطقة الغربية من البلاد عبر المغرب الأقصى، وقد أنشأت لهذا الغرض إدارة الاتصالات الخاصة بالمعلومات، ومن الطرق والوسائل الناجعة في تهريب الأسلحة عبر التراب المغربي: استعمال صناديق الخضر والفواكه، فبعد تفريغها كانت تملأ بالذخيرة الحربية، وكذلك الأواني الفخارية التي تحضر في مدينة فاس وتملأ بالذخيرة ومنها تدخل التراب الجزائري، هذا إلى جانب خزانات وقود السيارات التي كانت تشحن هي الأخرى بالأسلحة وتمر عبر الحدود الغربية إلى الجزائر، ويعود مصدر شراء هذه الأسلحة والذخيرة الحربية بالدرجة الأولى إلى مساهمة الجزائريين في الاشتراك داخل وخارج الوطن إبان الثورة التحريرية، هذا إلى جانب الأسلحة التي كان يستولي عليها المجاهدون الجزائريون من جنود الاستعمار[1]، إلى جانب دعم الحكومات والشعوب الشقيقة والصديقة للجزائر.

وخلال المراحل التي مرت بها الثورة التحريرية بالنسبة للمغرب الأقصى، فقد وضع حوالي خمسمائة «500» متطوع مغربي من مدينة مراكش تحت تصرف جيش التحرير الوطني بأمر من العاهل المغربي محمد الخامس، الذي أصدر أمراً بالسماح بمرور المعدات العسكرية وحتى المتطوعين الأجانب إلى الجزائر عبر الحدود المغربية الجزائرية، هذا إلى جانب سماح الحكومة المغربية للشعب بالتظاهر لفائدة القضية الجزائرية ودعم الشعب الجزائري.

كما أن كل العمليات الفدائية التي كان يقوم بها المجاهدون في الناحية الغربية مصدر تموينها ات من الحدود المغربية الجزائرية، خاصة العمليات التي شهدتها مرحلة 1958م. 1962م بالولاية الخامسة[2]، كما فتح جيش التحرير المغربي أبوابه لتدريب المجاهدين بمنطقة الريف ليعودوا بعد ذلك إلى الجزائر، يحمل كل مجاهد معه قطعتين حربيتين بذخيرتهما.

بالإضافة إلى ذلك شكلت الأراضي المغربية ملجأ امناً للمصابين من رجال الثورة يتلقون فيها علاجهم ليعودوا بعد ذلك إلى أرض المعركة، كما كانت ملاذاً للمطاردين من المناضلين في جهات أخرى، خاصة بعد اشتداد الخناق على الولايات الأخرى.

وأمام هذا الدعم للثورة والتسهيلات المقدمة لرجالها ؛ قامت السلطات الفرنسية بتقديم احتجاجات رسمية إلى مجلس الأمن تشكو فيه المغرب على موقفها هذا، كما قامت بزرع الألغام وإقامة الخطوط الشائكة المكهربة

---

(1) دعوة الحق العدد 43 ص 77.

(2) دعوة الحق العدد 43 ص 77.

على طول الشريط الحدودي بين الجزائر والمغرب، إضافة إلى تكثيف دوريات الحراسة ليلاً ونهاراً، إلا أن ذلك لم يمنع المجاهدين من الاستمرار في عملياتهم انطلاقاً من الأراضي المغربية التي اتخذوها قاعدة خلفية[1].

لقد أدى المغرب الأقصى ملكاً وشعباً واجبه لنصرة قضية الشعب الجزائري والوقوف معه في محنته ودعمه مادياً ومعنوياً حسب ما تقتضيه الظروف الداخلية والخارجية وواجب الأخ تجاه أخيه[2].

3 . مؤتمر طنجة:

دعا الأستاذ علال الفاسي رئيس حزب الاستقلال المغربي إلى عقد مؤتمر يضم . إلى جانب حزبه . كلاًّ من الحزب الحر الدستوري التونسي، وجبهة التحرير الوطني الجزائرية، قصد دراسة الأوضاع المستجدة على الساحة المغربية، والعمل على توحيد المواقف المغربية ضد الاستعمار الفرنسي، وانطلاقاً من القناعة المغربية المؤيدة لفكرة ضرورة دعم القضية الجزائرية وإيجاد حل عادل لها.

تجسدت فكرة عقد مؤتمر طنجة في 27 أفريل 1958م، الذي اكتسب أهمية كبيرة بالنسبة للمغرب العربي، من خلال التركيز على دعم القضية الجزائرية وإبراز مكانتها العربية والدولية. وعلى هذا الأساس حضرت كل من تونس التي مثّلها حزب الدستور التونسي وضم وفدها السادة: الباهي لدغم، والطيب مهيري، وعبد الله فرحات، وأحمد التليلي، وعلي البلهوان، وعبد المجيد شاكر، وعن المغرب الأقصى كان حزب الاستقلال الداعي للمؤتمر، ومثّله وفد ضم السادة: علال الفاسي، والمهدي بن بركة، وعبد الرحيم بوعبيد، وأحمد بلا فريج، والمحجوب بن الصديق، والفقيه البصري، وأبو بكر القادري، وأما جبهة التحرير الوطني الجزائرية فقد شاركت بوفد مكون من السادة: عبد الحميد بوصوف، وعبد الحميد مهري، وفرحات عباس، وأحمد فرنسيس، وأحمد بومنجل، ومولود قايد، وكان هدف مشاركة جبهة التحرير الوطني الجزائرية في المؤتمر:

. تمتين التضامن بين شعوب المغرب العربي الثلاثة.

. طرح التواجد العسكري في القطرين الشقيقين التونسي والمغربي الذي يهدد الثورة الجزائرية.

. تهيئة الرأي العام العالمي لدعم الثورة من خلال كشف الدعم العسكري الذي تتلقاه فرنسا من الحلف الأطلسي.

. المؤتمر هو الفاصل بين المرحلة التي كان الاستعمار يواجه فيها كل قطر مغربي على حدة، والمرحلة التي سيواجه فيها مغرباً عربياً موحداً.

. إن وحدة المغرب العربي ضرورة ملحة للقضاء على الاستعمار في الجزائر ومخلفاته الخطيرة في كل من تونس والمغرب الأقصى[3].

---

(1) الإمداد بالسلاح خلال الثورة الجزائرية ص 371.

(2) دعوة الحق عدد 403 ص 79.

(3) مؤتمر طنجة، معمر العايب، رسالة ماجستير ص 77 إلى 81.

لقد كانت افتتاحية جلسات المؤتمر علنية بقصر المارشال بمدينة طنجة على الساعة الخامسة والنصف مساءً، تحت رئاسة زعيم حزب الاستقلال المغربي السيد علال الفاسي، حيث أعطيت كلمات الافتتاح لممثلي الوفود، فألقيت كلمة الوفد المغربي من طرف السيد أحمد بلا فريج، ثم تلتها كلمة ممثل الوفد الجزائري السيد عبد الحميد مهري، وأخيراً كلمة الوفد التونسي التي ألقاها السيد الباهي لدغم[1].

وبعد ثلاثة أيام من الحوار والمناقشة خرج المؤتمرون في اليوم الرابع بالتوصيات التالية:

. دعم حرب التحرير الجزائرية ومتابعة تطوراتها وانعكاساتها القريبة والبعيدة على المغرب العربي وإفريقيا والعالم.

. تصفية التواجد الاستعماري الفرنسي في منطقة المغرب العربي بما في ذلك موريتانيا.

. تشكيل أمانة دائمة للمؤتمر تتكون من ستة أعضاء، مهمتها تنفيذ قرارات المؤتمر.

. قرار توحيد منطقة المغرب من خلال اتحاد فدرالي[2].

شكّل انعقاد ونتائج مؤتمر طنجة عاملاً إيجابياً لجبهة التحرير الوطني، ورأت هذا الحدث بأنه تعبير عن إرادة 25 مليوناً من المغرب العربي بجانب كفاح الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي[3].

4 . استقبال الحكومة المؤقتة:

ورغم الدعم المعنوي الذي لاقته القضية الجزائرية من طرف الحكومة المغربية، إلا أن هناك خلافاً ظهر بين جبهة التحرير الجزائرية والحكومة المغربية حول قضية الحكومة الجزائرية المؤقتة، حيث تمسكت الحكومة المغربية مثل تونس بفكرة أن يتم الإعلان عن ميلاد الحكومة المؤقتة، بموافقتها المسبقة، وحق مساهمتها في إبداء الرأي حول تشكيلة الحكومة الجزائرية، لكن جبهة التحرير الوطني عارضت ذلك، ورأت أن المغرب الأقصى مثل تونس لها حق الاستشارة والاطلاع فقط، وأن تأسيس الحكومة المؤقتة الجزائرية من صلاحيات لجنة التنسيق والتنفيذ الجزائرية وحدها، وهذا بناء على ما أقرته وقررته هيئات الثورة الجزائرية[4].

انطلاقاً من اعتبار الإعلان عن قيام الحكومة الجزائرية قضية جزائرية داخلية، وبناء على توصيات مؤتمر طنجة 1958م ؛ أعلمت لجنة التنسيق والتنفيذ الجزائرية الحكومة المغربية بخبر الإعلان عن قيام الحكومة المؤقتة، وبناء على أهمية المغرب الأقصى من الناحية الغربية للجزائر، فقد أعلن عن نبأ تأسيس هذه الحكومة في كل من القاهرة والرباط هذا إلى جانب تونس، على الساعة الواحدة بعد الظهر بتوقيت الجزائر، ليأتي الاعتراف الرسمي للمغرب الأقصى بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.

لكن هذه الخلافات لم تؤثر على مسار العلاقات المغربية الجزائرية، وبقي التواصل الأخوي بين الشعبين واستمر الدعم المعنوي المغربي للقضية الجزائرية، وقد برهن زعماء الثورة الجزائرية في مرات عديدة عن العلاقة الحميمية

---

(1) دعوة الحق العدد 403 ص 74.

(2) جريد المجاهد، العدد 23 تاريخ 7 ماي 1958م ص 11.

(3) السياسة العربية والمواقف الدولية، د . اسماعيل دبش ص 107.

(4) مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني، محمد لحسن لزغيدي، المؤسسة الوطنية للكتاب 1989.

التي تربطهم بالمغرب الأقصى، وقد جسدوا هذا الشعور في تلبيتهم لطلب الحكومة المغربية بإطلاق سراح الفرنسيين الذين تم إلقاء القبض عليهم من طرف الثورة في ترابها، وهو ما قام به الهلال الأحمر الجزائري في شهر فبراير عام 1959م.

وبحلول شهر مارس من عام 1960م استقبل العاهل المغربي الملك محمد الخامس في مراكش وفداً حكومياً جزائرياً، عرض عليه المضايقات التي يتلقاها الجزائريون من طرف القنصليتين الفرنسيتين المتواجدتين في كل من وجدة وبوعرفة، وقد استجاب الملك محمد الخامس لطلب الوفد الجزائري وأمر بغلق القنصليتين مباشرة، وهذا ما دفع برئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة السيد فرحات عباس إلى القيام بزيارة عمل إلى المغرب الأقصى، حيث صرح على ضوء ذلك بما يلي: إن الجزائر هي المغرب، وإن تضامننا أبدي، وإن الصحراء هي مسألة تهم الجزائر والمغرب فقط، ولا تهم من بعيد أوقريب الاستعمار الفرنسي[1].

وقد استمرت العلاقات الأخوية بين الحكومتين مرة أخرى في التزايد من خلال الزيارة التي قام بها السيد بن يوسف بن خدة رئيس الحكومة المؤقتة الثالثة إلى المغرب الأقصى، والتي دامت من 4 جانفي إلى 1 فبراير من عام 1962م، والتي نتج عنها التصريح المهم الذي تناول النقاط الأساسية التالية:

. تم إطلاع الحكومة المغربية على جميع جوانب الثورة.

. إطلاع المغرب الأقصى على المشاكل المرتبطة بتفاوض محتمل بين السلطات الاستعمارية الفرنسية والجزائر.

. تأكيد المغرب الأقصى على التضامن وإعانة الشعب الجزائري في كفاحه من أجل استقلاله ووحدته الوطنية وحرمة ترابه.

. اعتراف الشعب الجزائري بالجميل وبتأييد المغرب الأقصى وملكه لقضية تحرير الجزائر.

. تقدير الجزائر للجهود المبذولة من طرف المغرب الأقصى بقيادة الملك محمد الخامس لتحرير الزعماء الجزائريين المختطفين المسجونين في فرنسا وإشراكهم في الحوار[2].

لقد قامت المغرب ملكاً وشعباً بالمساندة المطلوبة والمناصرة الرائعة لقضية الشعب الجزائري والوقوف معه في محنه، ودعمه مادياً ومعنوياً حتى تحقق نصر الجزائر والعرب والمسلمين والأحرار في العالم، وإعلان الاستقلال والتحرر من الاستعمار البغيض.

* * *

(1) دعوة الحق ص 76.

(2) المصدر نفسه ص 76.

ثالثاً: تونس:

يقول المجاهد الرائد عثمان سعدي في مذكراته: وبإمكاننا القول إن عدداً لا بأس به من الثوار التونسيين التحقوا بصفوف جيش التحرير الوطني إلى جانب إخوانهم المجاهدين الجزائريين، مما يدل على أن كفاح الشعبين التونسي والجزائري كان كفاحاً واحداً، وفي خضم المعركة استشهد عدد من المجاهدين التونسيين في الجزائر، ومن بقي على قيد الحياة استمر في الكفاح إلى جانبنا إلى أن طلبت منهم الحكومة التونسية العودة إلى بلادهم، وفي هذه المرحلة لم تكن تونس قد حصلت على استقلالها، فالجيش الفرنسي ظل متواجداً على أراضيها[1].

كان الشعب التونسي مسانداً مادياً ومعنوياً وعسكرياً لثوار الجزائر، وكانت تونس البوابة الشرقية للثورة الجزائرية في دخول الأسلحة والمؤونة الحربية إليها، وكانت تونس من أهم معابر المجاهدين ونقل الأسلحة القادمة من ليبيا ومصر.

1 . اتفاق بين الطرفين:

تم عقد العديد من اللقاءات الثنائية بين الطرفين الجزائري والتونسي حول موضوع دعم الثورة التحريرية والبحث عن سبل إنجاح العملية، ومن أهم هذه اللقاءات لقاء القاهرة الذي جمع الأستاذ أحمد توفيق المدني عن الطرف الجزائري والسيد الباهي لدغم عن الطرف التونسي، وقد توج اللقاء باتفاق يتعلق بنقل الأسلحة فقط.

في الوقت نفسه عارض السيد صالح بن يوسف ورجاله سياسة بورقيبة تجاه الثورة الجزائرية معتبرين استقلال تونس ناقصاً ما لم تستقل الجزائر، وهي القضية التي خلقت شقاقاً بين الرجلين في تونس، خاصة وأن صالح بن يوسف رفض التخلي عن مقاومة الاحتلال الفرنسي بالسلاح، بل وضع رجاله تحت تصرف الثورة التحريرية الجزائرية، وقد استاءت الحكومة التونسية برئاسة بورقيبة من تدخلات هذا الأخير خاصة ما يخص نقل الأسلحة من مصر إلى الجزائر مروراً بتونس[2].

كانت نتيجة لقاء القاهرة هي توقيع اتفاق ثنائي جزائري ـ تونسي في 22 جانفي 1957م مثّل الجزائر كل من السادة أحمد توفيق المدني والأمين دباغين، ومثّل تونس كل من السادة الصادق مقدم والطيب سليم، وقد جاء فيه ما يلي:

ـ تتعهد الحكومة التونسية بنقل الأسلحة الجزائرية التي تصلها عبر الحدود من ممثلي جبهة التحرير الوطني، وتتعهد بتسليمها لمن تعيّنه الجبهة لهذه المهمة.

ـ تكون اللجنة التي تشرف على العملية تحت حراسة وضمان هيئة مشتركة مؤلفة من ممثلين عن الديوان السياسي التونسي وممثلين عن جبهة التحرير الوطني الجزائرية.

ـ تتعهد الهيئة المشتركة بأن لن تتسرب إلى البلاد التونسية أية قطعة.

(1) جهاد الجزائر ص 307.

(2) مواقف الدول العربية من القضية الجزائرية ص 147.

. المسائل المتعلقة بتنفيذ هذا الاتفاق بصفة سريعة وعملية تتولاها لجنة مشتركة.

. تبدأ اللجنة أعمالها حال مصادقة الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة على هذا النص النهائي بعد رجوع الوفد التونسي من القاهرة إلى العاصمة التونسية[1].

لقد برز إحساس قوي لدى التونسيين بأن الواجب يدعوهم للمقاومة والكفاح إلى جانب إخوانهم في الجزائر، بعد نية الاستعمار الفرنسي في الانفراد بهم وحدهم، وكان التيار المطالب بالنضال تياراً قوياً يطمح إلى تحقيق الوحدة المغربية، وقد شعرت فرنسا بهذا الخطر فسخرت كل إمكانياتها المالية والإعلامية والعسكرية من أجل القضاء على هذا التيار، والوقوف إلى جانب تيار الحبيب بورقيبة الذي وجد نفسه في حرج شديد أمام دعاة مساندة ودعم الثورة الجزائرية.

لقد كان التيار الوحدوي بين تونس والمغرب والجزائر قوياً، وكان من أكبر دعاته صالح بن يوسف الذي عقد اجتماعاً في بيته لقيادات جيش التحرير المغربي، وللإشارة فإن تكوين جيش تحرير مغربي كان يدعو إليه باستمرار الأمير عبد الكريم الخطابي، وقد أصبحت ضرورة ملحة في ظل المتغيرات التي كانت تمر بها كل من الجزائر وتونس والمغرب الأقصى[2].

وكانت تلك الجهود والمواقف أوراق ضغط حقيقية على نظام بورقيبة الحريص على إرضاء فرنسا، مما جعله يحرص على توثيق العلاقات المتينة مع جبهة التحرير الجزائرية وتقديم المساعدات اللازمة لها، فلم تبخل تونس عن الثورة الجزائرية حيث كانت قاعدة خلفية للثورة وعبر أراضيها كانت تتدفق الأسلحة للجزائر، كما أصبحت أراضيها مراكز لجيش الحدود ومأوى لالاف المشردين من اللاجئين جراء تداعيات السياسة الاستعمارية[3].

وظل السيد صالح بن يوسف يرى أن استقلال تونس يعتبر ناقصاً ما لم تستقل الجزائر، ورفض وضع السلاح، وأمر رجاله بأن يكونوا سنداً للثورة التحريرية، الأمر الذي عرّضه لاستياء الحكومة التونسية وخصوصاً عندما تعلق الأمر بنقل الأسلحة من مصر إلى الجزائر عبر تونس، مما أدى في الأخير إلى عقد اتفاق ثنائي بين الطرفين الجزائري والتونسي[4]، كما مر معنا.

2 . الغضب الفرنسي:

رغم قلة الدعم المادي التونسي للجزائر، إلا أن تونس لم تسلم من غضب السلطات الفرنسية التي اتهمتها بدعمها عسكرياً للثورة الجزائرية، وبررت هزائمها بالإعانة التونسية، خاصة بعد فشل خط موريس المكهرب والجهنمي على الحدود الشرقية بين الجزائر وتونس.

(1) المصدر نفسه ص 48.

(2) الإمداد بالسلاح خلال الثورة الجزائرية ص 364.

(3) المصدر نفسه ص 365.

(4) المصدر نفسه ص 365.

وقد حاولت السلطات الاستعمارية خلق قوة عسكرية مشتركة تونسية فرنسية لحراسة الحدود، الهدف منها ليس كبح جماح المجاهدين فقط وإنما تقييد حرية تونس عسكرياً وإخضاعها لإدارتها.

وانتقاماً لهذا الموقف راحت فرنسا تدمر القرى والمداشر وتقوم بأعمال وحشية يندى لها جبين البشرية، من أبرزها أحداث ساقية سيدي يوسف التونسية في 8 فبراير عام 1958م، حيث شنت القوات الفرنسية هجوماً جوياً قوامه ست وعشرون طائرة حربية، حصد أكثر من مائة «100» قتيل من المدنيين العزّل، وجرح أكثر من مائتين اخرين. وبررت قوات الاحتلال اعتداءها هذا بحق متابعة المتمردين عن إرادتها من الجزائريين في التراب التونسي[1].

3 . ردة فعل الحكومة التونسية:

كان رد الفعل التونسي سريعاً وقوياً إزاء هذه المجزرة، حيث رفعت القضية إلى مجلس الأمن بتاريخ 12 فبراير 1958م، ثم فرضت مباشرة حصاراً على قاعدة بنزرت، التي كانت تابعة للقوات الاستعمارية الفرنسية، كما عرقلت كل نشاط للقوات الفرنسية العاملة على أراضيها، وهو ما دفع فرنسا إلى رفع شكوى ضد تونس لمجلس الأمن بتاريخ 15 فبراير 1958م مبررة ذلك بالمساعدات التي تقدمها تونس للثورة الجزائرية، لكن رد الرئيس التونسي بورقيبة كان قوياً حيث صرح بغضب شديد أن هناك عشرات ومئات ساقية سيدي يوسف داخل التراب الجزائري[2].

كما جاء على لسان السيد الباهي لدغم مايلي: إن هذه الحادثة تغذي شعور الأخوة والتضامن والدين واللغة والذي نشعر به إزاء إخواننا الجزائريين.

أما رد جبهة التحرير الوطني، فقد جاء على لسان لجنة التنسيق والتنفيذ حيث جاء في الرسالة التي وجهتها هذه الأخيرة إلى الحكومة التونسية: نجدد لكم باسم الشعب الجزائري المجاهد تضامننا الكامل مع الشعب التونسي ووقوفنا إلى جانب القوات العسكرية التونسية لإنقاذ الاستقلال التونسي[3].

لقد دفعت أحداث ساقية سيدي يوسف . إضافة إلى هذا الموقف البطولي لجبهة التحرير الوطني . بالحكومة التونسية إلى السماح بمرور القوافل المحملة بالسلاح عبر أراضيها، وكذلك تسهيل عملية عبور أفراد جيش التحرير الوطني.

وفي 19 ديسمبر 1960م وقعت الحكومتان التونسية والجزائرية المؤقتة اتفاقية نصت على أن كل سلعة أو تجهيز يخص الحكومة الجزائرية المؤقتة أو جيش التحرير الوطني أو الهلال الأحمر الجزائري معفي من الضرائب والرسوم الجمركية[4].

---

(1) مواقف الدول العربية، د . مريم صغير ص 149.

(2) المصدر نفسه ص 149.

(3) المصدر نفسه ص 150.

(4) المصدر نفسه ص 150.

لا يمكن أن ننفي أبداً مواقف الحكومة التونسية الإيجابية والشجاعة وخاصة السياسية والدبلوماسية تجاه القضية الجزائرية. وقد كان التنسيق بين تونس وبقية الأقطار العربية مكثفاً وجاداً، من أجل تدويل القضية الجزائرية في مواجهة الدعاية الفرنسية بصفة خاصة، والغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية بصفة عامة، متضمنة أن ما يحدث بالجزائر هو تمرد جماعة متطرفة خارجة عن القانون، وأن ما يحدث في الجزائر لا يرقى لطرحه على مستوى الجمعية العامة بالأمم المتحدة.

السيد المنجي سليم ـ ممثل تونس في الأمم المتحدة ـ «نوفمبر 1957م»، كان طرحه واضحاً ونقيضاً للطرح الفرنسي حيث أكد: من يصدق فرنسا بأنها تقوم بعملية تهدئة لمتمردين إذا كان عدد أفراد جيشها في أكتوبر، قبل شهر من بداية نوفمبر 1954م حرب الجزائر، لم يتجاوز 50،000 ألف واليوم نوفمبر 1957م عدد القوات الفرنسية وصل 900،000، أي أن فرنسا تخصص رجلاً واحد من قواتها لعشر من السكان الأهالي[1].

ويمكن القول بعد هذا العرض أنه رغم الإمكانات المحدودة لتونس، وانطلاقاً من إيمانها بالمصير المشترك وأخوة الدين والعروبة والتاريخ المشترك ؛ راحت السلطات التونسية تدعم الجزائر جاعلة من أراضيها قاعدة خلفية للثورة الجزائرية، وموقعاً امناً للفارين من الاضطهاد الفرنسي، ومن بنوكها مستودعاً للتبرعات المالية التي كانت تجمع عبر الأراضي التونسية[2].

* * *

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 117.

(2) الإمدادات بالسلاح ص 368.

رابعاً: مصر:

كان للتأييد المصري أهمية كبرى وتأثير إيجابي على مسار الثورة الجزائرية يعترف به كل من درس بعمق تاريخ الثورة الجزائرية.

1 . عبد الناصر قبل اندلاع الثورة:

كانت القاهرة مستقر النخبة الثورية الجزائرية، ومصدر إلهام لكل الشعوب العربية التي تسعى للاستقلال والحرية، وإن كانت مرحلة الملك فاروق بالنسبة للجزائريين تميزت بوضع لبنات قوية في صرح بناء مغرب عربي موحد، انطلاقاً من مساهمتهم في مكتب المغرب العربي إلى لجنة تحرير المغرب العربي ؛ فإن مصر الثورة أكملت مشوار النضال وقدمت كل ما في وسعها لنصرة كل القضايا العربية ومنها قضية الجزائر، التي كانت تصل إلى كل العرب من المحيط إلى الخليج عن طريق إذاعة صوت العرب من القاهرة.

كما أن هذه المرحلة هي الأخرى تميزت بالتنسيق الكبير بين جماعة المنظمة الخاصة « OS » والرئيس المصري جمال عبد الناصر، وهذا ما يعكس روح الثقة التي كان الجزائريون الثوريون يضعونها في إخوانهم المصريين انذاك. فقد أوفدت المنظمة الخاصة مجموعة من مناضليها إلى مصر قوامه أحمد بن بلة ومحمد خيضر ومحمد يزيد وحسين الأحول، وقابلت بواسطة فتحي الديب من إدارة المخابرات العسكرية السيد الرئيس جمال عبد الناصر، فأطلعته على منهاجها الثوري وعزمها على إيقاد نار الثورة . بعد أن اجتمعت أولاً وقبل سفر الوفد بقرية «زدين» . وقررت أنه قد جاءت ساعة القدر وأن الحرب التحريرية قد ان اوانها.

ثم اجتمع «التسعة» مرة أخرى في أوروبا واتخذوا القرار النهائي وأعلنوا تأسيس «اللجنة الثورية للاتحاد والعمل»، وحرروا نداءها وعينوا للثورة يومها وساعتها، وكشفوا كل ذلك للرئيس جمال عبد الناصر. وقد صرح بذلك للسيد أحمد توفيق المدني في حديث شخصي معه خلال شهر أكتوبر من سنة 1956م: أنه درس بغاية الاهتمام ما قاله له الوفد، وأنه طلب من الوفد مهلة تفكير ثلاثة أيام.

قال: وكنت أخذت فكرة سيئة عن الحركة الجزائرية، واستهجنت الطريقة التي زعم مصالي أنه يقود بها الشعب للاستقلال، لقد كان تفكيراً عقيماً وطريقة سخيفة، لكنني بعد اطلاعي على منهاج الوفد، وتأملي العميق في طريقة عمله وتهيئة مراحله ارتحت له، واطمأنت نفسي لنتائجه، وعلمت أنها عملية ناجحة لا محالة، وعاد إليّ الوفد فصارحته برأيي وتداولنا طويلاً، وحددنا إمكانياتنا ووعدتهم أنني أكون معهم إلى النهاية وأمدّهم حالاً بما يمكن من سلاح خفيف، وأن أسعى شخصياً لدى الدول العربية وخاصة السعودية، لكي تمد الحركة بالمال. وهكذا أمرت الأخ فتحي والأخ عزت سليمان بأن يكونا مع الوفد دوماً ممثلين لي شخصياً، وكنت أكتم الأمر على عدد من الوزراء الذين حولي، خوفاً من تسرب السر، وإسراع فرنسا إلى ضرب الحركة قبل بروزها. ثم إن السعودية قررت الاستجابة بدفع مائة ألف جنيه 100 مليون فرنك، فأمرنا بأن ترسلها إلى إسبانيا حيث محمد بوضياف، وأعطيت الأمر للملحقين العسكريين المصريين . أينما كانوا . أن يكونوا في خدمة الحركة

الجزائرية. واستمرت الأعمال إلى يومنا هذا كما قصه عليك الأخ فتحي، وبعثنا بالأسلحة مما عندنا ومما اشتريناه من الخارج إلى رجال الثورة.

هذا ما قاله لي عبد الناصر، بصفة تكاد تكون حرفية[1].

وكان من الضروري على مفجري ثورة نوفمبر توزيع البيان خارج الحدود الجزائرية، وليس هناك ما هو أضمن لهم في نجاح العملية غير أرض مصر. وفعلاً فإنها كانت أقرب لهم من غيرها من الدول الأخرى وذلك لجانبين اثنين:

.كون الشعب المصري الشقيق تعامل منذ البداية مع القضية الجزائرية وتعاطف معها.

. ظهور تيار قومي عربي بزعامة جمال عبد الناصر دعم من قوة الجزائريين وحماسهم في تفجير الثورة وإحساس أشقائهم العرب بها[2].

لم يكن يخفى على السلطات الاستعمارية الفرنسية الخطر الذي تشكله الدولة المصرية حكومة وشعباً في موقفها من القضية الجزائرية وثورة التحرير، خاصة بعد اندلاعها في أول نوفمبر عام 1954م وارتباطها العضوي بالأمة العربية وعلى رأسها مصر انذاك التي تعرضت لانتقادات الفرنسيين، منها تصريح أحد النواب الذي صب جام غضبه على مصر، واعتبرها مصدر الخطر كله بقوله: إن الشر جاء من إذاعة القاهرة[3].

ومع ذلك بقيت مصر على موقفها في تدعيم القضايا العربية، خاصة وأنها كانت تؤمن بفكرة توحيد العمل المسلح بين أقطار المغرب العربي الثلاثة، وهو الأمر الذي جعل بعض قادة الثورة ومن بينهم المجاهد أحمد بن بلة يتحفظون على ذلك، حيث أقنع هذا الأخير السلطات المصرية بصعوبة العمل الجماعي بين أقطار المغرب العربي الثلاثة، وسبب ذلك هو أن هناك فئة تؤمن بالعمل المسلح كوسيلة لتحقيق الاستقلال وفئة رافضة لهذا الطرح.

وانتهى الأمر باتفاق الطرفين الجزائري والمصري على ضرورة تفجير الثورة، بعد أن تعهدت القيادة المصرية بتقديم العون المادي والمعنوي للجزائريين. وإذا كان الرئيس المصري جمال عبد الناصر وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة قد أعطوا الضوء الأخضر لدعم الثورة انطلاقاً من قناعاتهم كعرب ؛ فإن هناك تياراً داخل مجلس قيادة الثورة المصرية كان رافضاً لدعم ومساندة الجزائريين، على اعتبار أن الثورة داخل مصر مازالت فتية وتحتاج إلى نضال طويل تتطلبه أوضاع البلاد الداخلية، وأن أولوية الأولويات هي إصلاح هذه الأوضاع قبل فتح جبهات خارجية بإمكانها إضعاف مصر داخلياً وقد تعود عليها بالسلب.

ومعنى ذلك أن التيار المعارض لدعم الثورة الجزائرية كان يرى أن الثورة الجزائرية في حد ذاتها مجرد مغامرة خاسرة لا أكثر ولا أقل.

---

(1) حياة كفاح (36/3).

(2) مواقف الدول العربية ص 188.

(3) مواقف الدول العربية، د . مريم صغير ص 189.

لكن التيار الناصري داخل مجلس قيادة الثورة المصرية، استطاع إقناع التيار الرافض لدعم الثورة الجزائرية بعدة معطيات موضوعية تضمنت ما يلي:

. اعتبار الثورة الجزائرية ليست قضية الشعب الجزائري وحده بل هي قضية مصر وكل العرب.

. الجزائر كجبهة ثورية تشكل خط دفاع أمامي بالنسبة للثورة المصرية.

. الثورة الجزائرية، سند قوي لمصر والأمة العربية في نضالها للاستعمار بكل أشكاله.

. إن استقلال مصر دون باقي الدول العربية التي مازالت تحت نير الاستعمار لا يضمن للثورة المصرية الاستقرار لا الداخلي ولا الخارجي لتحقيق أهدافها البعيدة والقريبة المدى على حد سواء.

. رفع القيادة المصرية لشعار الوحدة العربية، فهذا الشعار لا يمكن تحقيقه دون استقلال باقي الدول العربية، ومنها بالدرجة الأولى الجزائر، وبالتالي لابد من مساندة الشعب الجزائري والوقوف إلى جانب قضيته العادلة من خلال دعم ثورته.

هذه المعطيات الموضوعية والواقعية في ان واحد ؛ جعلت مصر الثورة تتبنى دعم الثورة الجزائرية سياسياً وعسكرياً، ورجحت كفة عبد الناصر الذي كلف السيد فتحي الذيب وعزت سليمان بأن يكونوا مع الوفد . الجزائري . ممثلين لي شخصياً وكنت أكتم الأمر على عدد من الوزراء الذين حولي خوفاً من تسرب السر
وإسراع فرنسا إلى ضرب الحركة قبل بروزها[1].

لم يقتصر دعم مصر للقضية الجزائرية على جانب معين، بل كذلك الجانب السياسي، على اعتبار أن الثورة الجزائرية قضية عربية ولا بد من دعمها، خاصة وأن فرنسا تشن على العرب في جزء من المغرب العربي معركة مزدوجة عسكرياً وسياسياً، عسكرياً لأنها تواصل بحملاتها إبادة المدنيين بالجملة في كل منطقة من مناطق الجزائر، وسياسياً لأنها تجعل من الوسطاء المؤيدين لفرنسا سفراء لها ينطقون باسمها ويدافعون عن مصالحها، بعد أن أصبحت فرنسا عاجزة عن أن تدافع عن نفسها بنفسها[2].

ومن هذا المنطلق رأت مصر ضرورة تقديم الدعم السياسي للثورة الجزائرية، فكانت البداية مع الجانب الإعلامي وذلك من صوت العرب بالقاهرة، هذه الإذاعة التي كان لها شرف بث أول بيان للثورة الجزائرية هو بيان أول نوفمبر 1954م وذلك على أمواج الأثير، هذا إلى جانب البيانات الأخرى التي كانت تصدر عن جبهة جيش التحرير الوطني[3].

ومن المؤسسات المصرية كذلك التي لعبت دوراً بارزاً في الدعاية للقضية الجزائرية «جماعة الكفاح من أجل تحرير الشعوب الإسلامية»، التي كان يرأسها الشيخ الأزهري «دراز»، والشبان المسلمون التي كان رائدها المصلح والداعية أحمد الشرياصي، وكذلك مؤتمر الخريجين العرب الذي كان يرأسه الدكتور فؤاد جلال، والذي ساعد الأستاذ أحمد توفيق المدني في تأليف كتابه عن الجزائر.

---

(1) المصدر نفسه ص 191.

(2) المصدر نفسه ص 192.

(3) المصدر نفسه ص 192.

لقد سمحت حكومة عبد الناصر لكل الشخصيات الوطنية من استعمال أراضيها للنشاط السياسي قصد دعم القضية، حيث تم تكليف الأستاذ توفيق المدني بتجهيز نشرة إخبارية يومية عن حوادث الثورة وتوزيعها على كل الجرائد والصحف ووكالات الأنباء[1] .

2 . مؤتمر القاهرة: الاجتماع الثاني للمجلس الوطني للثورة الجزائرية 1957م:

هناك إجماع يكاد يكون شاملاً وكاملاً لدى شريحة كبيرة من المؤرخين والباحثين المتخصصين في تاريخ الثورة، أن مؤتمر القاهرة المنعقد في أوت 1957م جاء ليصحح الأخطاء الاستراتيجية والمنهجية التي وقع فيها اجتماع الصومام المنعقد في 26 أوت عام 1956م، خاصة وأنه أحدث فجوة كبيرة في صفوف زعماء الثورة، كاد من خلالها أن يؤثر على الثورة التحريرية بقراراته التي خرجت عن مبادأئ أول نوفمبر 1954م، وبأمر من عراب الصومام المرحوم عبان رمضان، وقد اعترف هو نفسه بإخفاء لقاء الصومام بدليل قبوله المشاركة في مؤتمر القاهرة.

لقد كانت هناك ظروف عديدة مهدت لانعقاد مؤتمر القاهرة يمكن حصر أهمها فيما يلي:

. النتائج التي انبثقت عن مؤتمر الصومام وبالتحديد قضية الأولويات، أو مبدأ التفضيل بين زعماء الثورة وبالتحديد أولية الداخل عن الخارج، والسياسي عن العسكري، وكذلك محاولة إفراغ الثورة من بعدها العربي الإسلامي الذي لم يرد تماماً في محتوى الصومام.

. قضية اختطاف الطائرة المغربية التي كان على متنها زعماء الثورة في 22 أكتوبر 1956م، وهم السادة أحمد بن بلة ومحمد بوضياف ومحمد خيضر وحسين ايت أحمد.

. العمليات الفدائية المكثفة التي كان يقوم بها المجاهدون الجزائريون داخل العاصمة الجزائر، وكان من أهمها وأبرزها معركة الجزائر الكبرى ما بين عامي 1956م، 1957م.

. سياسة فرنسا التعسفية ضد الشعب الجزائري، وبالتحديد السياسة التي انتهجها رئيس الحكومة الفرنسي غي مولي ما بين فبراير 1956م وجوان 1957م، والقائمة على الحديد والنار ضد الثورة الجزائرية، بالإضافة إلى سياسة خليفته الرئيس بورجي مونوري الذي سد كل المنافذ المتعلقة بمحاولة إيجاد حلول مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية من خلال مبدأ المفاوضات، وعمد إلى دعم إقامة الأسلاك الشائكة المكهربة لعزل الثورة الجزائرية عن محيطها العربي، خاصة وأنه كان يمثل اليمين المتطرف في فرنسا.

. بروز مؤشرات الصراع الداخلي بين عبان رمضان وجماعته، الذين حاولوا السيطرة على زعامة الثورة مستغلين الظروف الصعبة التي كانت عليها الثورة الجزائرية في هذه المرحلة، خاصة وأنها فقدت العديد من زعمائها الأوئل من مفجري ثورة أول نوفمبر الذين استشهدوا في ساحة المعارك من أمثال العربي بن مهدي، ومصطفى بن بلعيد، وديدوش مراد، وزيغود يوسف، ومنهم من سجن منذ اندلاعها، والمجموعة الأخرى التي تعتبر نفسها

(1) المصدر نفسه ص 192.

ممثلة للرعيل الأول من مفجري الثورة ومنهم عبد الحفيظ بوصوف والأخضر بن طوبال وكريم بلقاسم ومحمود الشريف.

وابتداءً من 27 أوت 1957م بدأت أشغال مؤتمر القاهرة، وقد تركزت قراراته فيما يلي:

. تفويض لجنة التنسيق والتنفيذ لتولي اختصاصات القيادة العليا للثورة الجزائرية، بحيث تكون تعليماتها لها صفة الإلزامية لكل الهيئات بالنسبة لجبهة وجيش التحرير الوطنيين.

. إقرار مبدأ رفض المفاوضات مع الحكومة الفرنسية ما لم تعترف هذه الأخيرة باستقلال الجزائر وسيادته الوطنية.

. التأكيد على عروبة الجزائر وسيادته.

. لجنة التنسيق والتنفيذ مقيدة بالعودة إلى المؤتمر الوطني إذا ما تعلق الأمر بقبول مبدئي للمفاوضات مع الحكومة الفرنسية أو حول أية قضية تخص تقرير مصير الشعب الجزائري.

. تقدم لجنة التنسيق والتنفيذ تقريرها السنوي حصيلة نشاطها في الداخل والخارج في المؤتمر القادم عام 1958م.

. إعطاء الحرية لأعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ في العمل بين العواصم العربية، خاصة بين القاهرة وطرابلس وتونس ومراكش، توسيع النشاط الدبلوماسي للجنة التنسيق والتنفيذ على الصعيد الدولي، قصد كسب المزيد من الدعم والتأييد الدوليين للقضية الجزائرية في المحافل الدولية خاصة بالنسبة للهيئات الدولية.

. إلغاء كل ما جاء في مؤتمر الصومام يمس بمبادئ أول نوفمبر بما في ذلك قضية الأولويات.

. توسيع المجلس الوطني للثورة من أربعة وثلاثين عضواً إلى أربعة وخمسين عضواً.

. توسيع أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ من خمسة أعضاء إلى أربع عشر عضواً.

. اعتبار المجلس هو الممثل لجميع التيارات السياسية التي انضمت للثورة التحريرية.

. إعطاء صلاحيات مطلقة للمجلس على حساب لجنة التنسيق والتنفيذ التي حددت صلاحياتها نوعاً ما.

. اعتبار زعماء الثورة المسجونين في فرنسا أعضاء شرفيين في لجنة التنسيق والتنفيذ.

انطلاقاً من هذه المعطيات التاريخية، فإن مؤتمر القاهرة كان وراء عودة بعض القادة الأوائل لأول نوفمبر، كما استطاع أن يقلص إلى حد كبير نفوذ عبان رمضان وجماعته سياسياً وعسكرياً، بدليل أنه كلف فقط بالإعلام داخل لجنة التنسيق والتنفيذ.

وانتهت العملية بتوزيع المهام الرئيسية بين هؤلاء القادة الذين ينتمون إلى الرعيل الأول للثورة، بحيث تشكلت لجنة جديدة ضمت السادة:

. كريم بلقاسم، مسؤول الشؤون الحربية.

. عبد الحفيظ بوصوف، مسؤول التموين بالسلاح وجهاز الاستعلامات.

. محمود الشريف، منصب الشؤون المالية.

. الأخضر بن طوبال، منصب التنظيم الإداري والشؤون الداخلية.

. فرحات عباس، مكلف بالإعلام والصحافة.

. عبد الحميد مهري، مكلف بوزارة الشؤون الاجتماعية.
بالإضافة إلى تأسيس لجنة التنظيم العسكري التي سبقت الإشارة إليها في شهر أفريل من عام 1958م، والتي ضمت كلاً من السادة: هواري بومدين، والسعيدي محمدي، وعمار بن عودة، ولعموري، وعمار بوقلاز.
لقد وقفت مصر ضد كل المحاولات التدميرية للثورة الجزائرية[1].

3 . تأييد الحكومة المؤقتة:

بمناسبة تأسيس الحكومة الجزائرية المؤقتة، لعبت مصر دوراً أساسياً في دفع أعضاء جامعة الدول العربية لتخصيص 12 مليار فرنك فرنسي قديم للثورة الجزائرية، وبقرار من الرئيس عبد الناصر نفسه خصصت مصر المداخيل الأولى من تأميم قناة السويس للكفاح الجزائري ؛ هذه المبالغ التي وصلت إلى ثلاثة مليارات فرنك فرنسي قديم[2].
وكانت أهم مجالات التنسيق الدبلوماسي الجزائري كانت تتم عن طريق مصر، ومعظم النشاطات السياسية والدبلوماسية لجبهة التحرير الوطني والحكومة الجزائرية المؤقتة انطلقت من القاهرة.
الرئيس عبد الناصر نفسه، أو عن طريق مستشاره الشخصي فتحي الديب، كان يشرف على عملية التأييد المعنوي والمادي للثورة الجزائرية، والتأكيد من تعميق قوة التضامن المصري مع الجزائر، بما فيها حتى حضوره الأسابيع الخاصة للتضامن مع الشعب الجزائري، والتي كانت تنظم دورياً عبر أنحاء التراب الوطني المصري، متضمنة جمع التبرعات المالية والتعبئة المعنوية والإعلامية، تنظمها وتنشطها القيادة المصرية وعلى رأسها الرئيس جمال عبد الناصر وتحت إشراف القيادة المصرية.
كذلك كان الشعب المصري يحتفل بالذكرى السنوية لاندلا ع ثورة نوفمبر دورياً، مصحوبة بتعبئة جماهيرية وإعلامية لا تقل أهمية عن احتفال الشعب المصري بالثورة المصرية نفسها، مرفوعاً بنوابه وأعضاء الحكومة المصرية.
وبمناسبة الذكرى السادسة «نوفمبر 1960» لثورة نوفمبر كان الرئيس جمال عبد الناصر على رأس الاحتفال والتجمع الجماهيري الكبير، في هذه المناسبة ذكر الرئيس عبد الناصر:
إننا ونحن ننظر إلى شعب الجزائر وهو يستقبل العام السابع لثورته نحمد الله الذي مكن شعب الجزائر من أن يصمد ويثابر بدون وهن، ليجابه أكثر من 800 ألف جندي من قوات فرنسا بقواته وأسلحته القليلة، ثم يدوخ فرنسا وجيوشها وأسلحة الحلف الأطلسي التي تعتمد عليها فرنسا، ويدوخ الدول التي تدعي أنها تمثل العالم الحر[3].

---

(1) مواقف الدول العربية ص 200.
(2) السياسة العربية والمواقف الدولية، د . إسماعيل دبش ص 71.
(3) المصدر نفسه ص 71.

4 . الإمداد بالسلاح:

أول شحنة سلاح جاءت من مصر قدرت بحوالي 8،000 جنيه، وتم تمريرها عن طريق ليبيا، وكانت أول صفقة سلاح من أوروبا الشرقية بتمويل مصري حوالي مليون دولار، ومعظم الأموال 75% التي كانت تقدمها جامعة الدول العربية للثورة الجزائرية والمقدرة 12 مليون جنيه سنوياً كانت تأتي من مصر، وأهم التدريبات العسكرية الفعالة لجيش التحرير الوطني خارج الجزائر كانت تتم بمصر[1].

كان التنسيق بين أحمد بن بلة وفتحي الديب مندوب المخابرات المصرية على مستوى عال جداً، للبحث في الوسائل والطرق التي تكفل توفير السلاح والذخائر للثوار الجزائريين. كانت الخطة المسطرة هي استعمال كل الطرق للحصول على الأسلحة، فكانت تشترى من المهربين الدوليين عن طريق مصر، وهم يقومون بعد ذلك بإيصالها إلى أماكن محددة داخل التراب الجزائري، وفي حالة فشل عملية من عمليات الشراء يتم تزويد الثوار بالأسلحة من مخازن الجيش المصري[2].

وكان الترتيب مع السلطات الليبية لمرور السلاح من خلالها إلى الجزائر على قدم وساق إلى جانب الطريق البحري، حيث كانت الأسلحة والمؤونة الحربية تصل إلى الجزائر بإستعمال السفن المصرية من جهة، وكذلك تأجير سفن أجنبية إذا اقتضت الضرورة لذلك، وكانت عمليات إمداد جيش التحرير بالاسلحة في بداية الأمر تتم بواسطة السفن المصرية، إلا أن القيادة المصرية استبعدت قضية شحن السفن المصرية لما لها من تأثير سلبي على سمعة مصر إقليمياً ودولياً في حالة اكتشافها من طرف السلطات الاستعمارية، وفي مارس 1955م تم شحن «اليخت دينا» بالسلاح إلى المجاهدين الجزائريين بعد أن تم تأجيرها من طرف مصر.

ومن السفن الأجنبية التي اشتهرت بحمل السلاح إلى الثورة الجزائرية إلى جانب اليخت دينا هناك اليخت «نمو»، واليخت «جودهوب»، هذا الأخير هو الذي تمت بواسطته إيصال الأسلحة إلى الجبهة الغربية الجزائرية. هذا إلى جانب السفينة الشهيرة «اتوس» التي كانت محملة بالسلاح في اتجاه الجزائر، لكن الفرنسيين اكتشفوا أمرها وهذا ما دفعهم إلى تقديم شكوى شديدة اللهجة إلى مجلس الأمن ضد الحكومة المصرية.

لم يتوقف الدعم العسكري المصري للجزائر بعد هذه الحادثة بل واصل المصريون عملية إمداد السلاح، وهو الأمر الذي دفع بفرنسا إلى المشاركة في العدوان الثلاثي على مصر، إلى جانب كل من مصر وإسرائيل، خاصة بعد إعلان الرئيس جمال عبد الناصر تأميم القناة[3].

تواصلت عمليات تهريب السلاح ولم تنقطع خلال ليبيا عن طريق التنسيق مع سلطاتها وبعض رجال الأعمال الليبيين الذين لهم خبرة في تهريب الأسلحة، وكللت هذه العمليات بوصول دفعة من الأسلحة استلمها المناضل علي مهساس في شهر فيفري 1957م، وأمّن وصولها إلى الولايات الشرقية بالجزائر[4].

---

(1) المصدر نفسه ص 71.

(2) مواقف الدول العربية ص 203.

(3) المصدر نفسه ص 205.

(4) الإمداد بالسلاح ص 333.

ولم ينحصر الدعم العسكري على الأسلحة التي فاقت فيه مصر كل تصور، وكان الرئيس عبد الناصر باراً بوعده في وقوفه مع ثوار الجزائر، بل كانت القاهرة مركزاً لتدريب الجزائريين على حرب العصابات ثم إيفادهم إلى الجزائر للالتحاق بالثورة، ولم يتوقف الدعم العسكري واستمر عبر الحدود الشرقية الجزائرية وخضعت فرنسا للأمر الواقع وامنت تحت الضغط بحتمية الثورة الجزائرية[1].

5 . الدعم في المحافل الدولية:

كان تأييد مصر للقضية الجزائرية ولكل مطالب جبهة التحرير الوطني كان مطلقاً ومتشدداً وبدون تحفظ، حتى لو تعلق الأمر بعلاقة مع دولة كبرى لها مصالح حيوية واستراتيجية معها مثل الاتحاد السوفيتي، ذلك ما عبر عنه الرئيس عبد الناصر في تحذيره إلى خروتشوف الرئيس السوفيتي من الانسياق وراء محاولات ديغول لإقناعه بزيارة حاسي مسعود، منطقة ابار بترولية جزائرية كبرى بالصحراء، لأن ذلك سوف يتسبب في هوة فاصلة بين الشعب السوفيتي والشعوب العربية[2].

أ . التدخل للإفراج عن المخطوفين:

جاء اختطاف زعماء الثورة الجزائرية أحمد بن بلة، محمد بوضياف، ومحمد خيضر، وحسين ايت أحمد، يوم 22 أكتوبر 1956م، وكان موقف مصر من القضية قوياً وسريعاً، حيث قامت وزارة الخارجية المصرية بإعلام كل السفارات العربية والأجنبية بملابسات القضية، وأخبرت الأمين العام للأمم المتحدة بذلك وطلبت منه التدخل للإفراج عن المختطفين الجزائريين، كما كلفت إذاعة صوت العرب بشن حملة دعائية كبيرة ضد فرنسا، والعمل على رفع معنويات المجاهدين.

وبأمر من جمال عبد الناصر كلف الملحق العسكري المصري في الرباط القيام باختطاف بعض الشخصيات الفرنسية بمراكش والاحتفاظ بهم كرهائن إلى غاية الإفراج عن المعتقلين الجزائريين[3].

ب . منظمة تضامن الشعوب الأفرو. اسيوية:

سياسياً ودبلوماسياً لعبت مصر دوراً هاماً في تدعيم مشاركة الجزائر في مؤتمر باندونغ «ماي 1955م»، كما كان لمصر دور فعال في تمكين الجزائريين من لعب دور مؤثر في منظمة تضامن الشعوب الأفرو. اسيوية منذ نشأتها بالقاهرة «ديسمبر 1957م».

ما يميز مؤتمر باندونغ، هو ليس تدويل القضية الجزائرية ومساندتها معنوياً فقط، بل أكثر من ذلك التزام أعضاء المؤتمر بتقديم المساعدة المادية لحرب التحرير الجزائرية، وتأكيد شرعية مطالب الشعب الجزائري وشرعية الوسائل

(1) مواقف الدول العربية ص 206.

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية، د . إسماعيل دبش ص 73.

(3) المصدر نفسه ص 195.

المستعملة «العمل المسلح» من أجل الاستقلال والحرية، كان ذلك من بين التزامات الدول المشاركة في مؤتمر باندونغ، التي أكدت تقديم مساعداتها المحسوسة إلى الشعوب المكافحة من أجل استقلالها[1].

شكّل مؤتمر باندونغ «أفريل 1955م»، والذي جاء شهوراً قلائل بعد اندلاع ثورة نوفمبر «1954م»، أول فرصة واسعة لطرح القضية الجزائرية على المستوى الدولي، لم يؤكد المشاركون في المؤتمر فقط تأييدهم المعنوي للقضية الجزائرية دولياً، بل التزموا بالمساندة المادية لحرب التحرير الجزائرية.

إن مؤتمر الدول الأفرو. اسيوية يؤيد حقوق شعوب الجزائر والمغرب الأقصى وتونس في تقرير مصيرها بنفسها ونيل استقلالها.. وتلتزم بتقديم مساعدتها المحسوسة إلى الشعوب المكافحة من أجل استقلالها[2].

لقد كان التنسيق الجزائري المصري مكثفاً ومتكاملاً في تعامله دولياً، لتعبئة الرأي العام العالمي لمناصرة أهداف التحرير الوطني في الجزائر.

نشاطات خاصة للساسة المصريين، تحت توجيهات الرئيس عبد الناصر، كانت مخصصة لتدويل وتدعيم القضية الجزائرية. وفي نفس الاتجاه كان لمصر دور دبلوماسي فعال سواء على مستوى علاقاتها الثنائية، أو على مستوى المحافل والمنظمات الدولية.

محمود فوزي، ممثل مصر لدى منظمة الأمم المتحدة، أكد في تدخله «ديسمبر 1957م»: إن الشعب الجزائري العظيم قد أكد. بدمائه التي قدمها. عزمه على نيل الاستقلال بصفة لا تترك المجال للشك، وأن هذه الحقيقة لا يمكن أن تعدل، بل يجب الاعتراف بها وقبولها في الوقت اللازم وبكل تعقل. إن الشعب الجزائري قد صمم العزم على أن يعيش في ظل الكرامة والحرية[3].

ج. المفاوضات مع فرنسا:

ومع تقهقر فرنسا على الصعيد العسكري وتغيير موازين القوى لصالح الثورة الجزائرية سياسياً ؛ أدركت فرنسا قوة الدعم المصري للجزائر، لذا لجأت إلى الرئيس جمال عبد الناصر طالبة منه مساعدتها في إجراء مفاوضات مع جبهة التحرير الوطني، من خلال لقاء وزير خارجيتها كريستان بينو مع جمال عبد الناصر، الذي طلب من الوسيط الفرنسي أن تفضي المفاوضات إلى حل مشرف يضمن للجزائريين حقوقهم الكاملة في السيادة على أرضهم، شريطة أن تكون جبهة التحرير هي الممثل الشرعي والوحيد للجزائريين. وجاءت مرحلة ديغول التي تميزت بتصريح رئيسها حول حق الجزائريين في تقرير مصيرهم، وإبداء رغبته في إجراء مفاوضات معهم، وكانت مصر سابقة في إعطاء رأيها حول عملية المفاوضات، حيث قام الأستاذ أحمد توفيق المدني بإجراء مشاورات مع ممثلي الدول العربية بالقاهرة، والاتصال بالرئيس جمال عبد الناصر الذي وافق على ذلك، شريطة أن تصب المفاوضات في قضية الاستقلال اللامشروط للشعب الجزائري[4].

---

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 71.
(2) المصدر نفسه ص 72.
(3) المصدر نفسه ص 72.
(4) المصدر نفسه ص 202.

ومع بداية مفاوضات إيفيان، أصدرت حكومة الجمهورية العربية المتحدة 20 ماي 1961م بياناً أكدت فيه مساندتها للحكومة الجزائرية المؤقتة في المفاوضات التي ستجرى مع الحكومة الفرنسية، والتي ترمي إلى الاعتراف للشعب الجزائري بحق تقرير المصير، حتى يتحصل على استقلاله وسيادته التامة ووحدة ترابه، وتؤكد الجمهورية العربية المتحدة أنها تعتبر الصحراء الجزائرية كجزء لا يتجزأ من الوطن الجزائري يخضع إلى سيادة الشعب الجزائري كبقية تراب الوطن، كما أنها تساند المساندة التامة مواصلة الكفاح الوطني بجميع الطرق الناجعة حتى يتحصل الشعب الجزائري على حريته واستقلاله ووحدته بدون قيد أو شرط[1].

6 . في الأمم المتحدة:

إن تدعيم وتأييد الشعب الجزائري في صراعه الوطني القومي والحضاري مع الاستعمار الفرنسي أصل مميز في الدبلوماسية المصرية وسياستها الخارجية، ذلك ما أكده الرئيس عبد الناصر دورياً في تعبئته لتدويل القضية الجزائرية، في خطابه في الدورة 15 للأمم المتحدة ذكر الجميع أنه:

ليس ما يخالجنا شك في أن الحرب الدائرة في الجزائر اليوم، والتي قدم لها الشعب الجزائري طواعية أرواح مليون من أبنائه حتى الان ؛ لا يمكن أن تنتهي بغير انتصار الحرية، إن الأمم المتحدة اليوم ليتعين عليها أن تقوم بواجبها، ما أظن أننا نغالي إذا ما تقدمنا بطلب الشعب الجزائري في تقرير مصيره.. لا يمكن للحكومة الفرنسية أن تغير إرادة الله الذي جعل الجزائر قطعة من القارة الإفريقية وجعل شعبها جزءاً من الأمة العربية[2].

إن مصر بقيادتها التاريخية في تلك المرحلة تعدّ حليفة للثورة الجزائرية الأكثر فعالية والأكثر أهمية، فيما يتعلق بالدعم المادي والمعنوي والسلاح والعتاد والمواقف الداعمة دولياً للجزائر بدون حدود وبدون تحفظات.

ومع بداية مفاوضات إيفيان أكد الرئيس عبد الناصر دعمه للجزائر فقال: إننا نتجه بكل تأييدنا المادي والمعنوي بدون حدود وبدون تحفظات لنضعها في نصرة الجزائر في هذه المفاوضات، واثقين أن نتيجتها لابد أن تكون على مستوى التضحيات والأعمال البطولية للشعب الجزائري الذي خاض المعركة لا ضد فرنسا وحدها بل ضد الحلف الأطلسي كله[3].

* * *

(1) السياسة العربية، د . إسماعيل دبش ص 73.

(2) المصدر نفسه ص 75.

(3) المصدر نفسه ص 73.

خامساً: السعودية:

لقد كان التحدي السعودي للغرب في أول دعم سياسي علني من طرف المملكة العربية السعودية للثورة الجزائرية وقضيتها العادلة، وهو لفت انتباه هيئة الأمم المتحدة بواسطة ممثلها في نيويورك بتاريخ 5 جانفي 1955م، وذلك بعد شهرين من اندلاع ثورة نوفمبر 1954م إلا أن الحالة التي تسود الجزائر خطيرة جداً ولابد من التطرق إلى معاناة الشعب الجزائري من السياسة التسلطية الفرنسية، كما حمّلت المملكة العربية السعودية من خلال الأستاذ أحمد الشقيري فرنسا المسؤولية الكاملة عما يحدث للشعب العربي في الجزائر، وكردّ فعل قامت بحملة قوية وشرسة ومضادة لسياسة الاحتلال الفرنسي المطبقة ضد شعب أعزل هو الشعب الجزائري[1].

واستمرت المملكة العربية السعودية تدافع عن حق الجزائر في الحرية والاستقلال حتى تحررت الجزائر. وكانت لها صولات وجولات على منبر الأمم المتحدة، ففي دورة عام 1956م كشف الوفد السعودي لوفود الدول الحاضرة في الجمعية العامة جرائم الاستعمار الفرنسي المرتكبة في حق الشعب الجزائري الأعزل، إلى جانب كل أنواع الإرهاب والتعذيب والتقتيل الفردي والجماعي المرتكبة في حقه، وقد وجه ممثل الوفد السعودي كلامه من على منبر الهيئة الأممية إلى دول الحلف الأطلسي، التي قامت مقام فرنسا في إزاحة القضية الجزائرية من جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة قائلاً: كيف تقفلون أبواب الأمم المتحدة في وجه القضية الجزائرية، نحن لا نريد لفرنسا إدانة ولا إهانة، كل ما نريده هو الوصول إلى حل سلمي ديمقراطي وفق أهداف الأمم المتحدة[2].

لقد تبنت السعودية القضية الجزائرية على مستوى هيئة الأمم المتحدة، وفتحت المواجهة مع الحلف الأطلسي عموماً وفرنسا بوجه خاص، وبالتالي ربطت مصيرها بمصير القضية الجزائرية، وهذا ما جعلها عرضة لانتقادات الطرف الفرنسي والدخول معه في مواجهات قوية، وهذا ما ميز دورة عام 1956م الأممية، حيث عرض الوفد السعودي القضية الجزائرية ودافع عنها دفاعاً مستميتاً، توج بتسجيل الوفد الجزائري ضمن قائمة الوفد السعودي، وهو الأمر الذي أثار ثائرة الوفد الفرنسي برئاسة رئيس الخارجية السيد «بينو»، الذي اتهم السعودية بانتمائها إلى الشيوعية على اعتبار أنها تدعم الثورة الجزائرية[3].

بعد مرحلة المواجهة العنيدة بين السعودية وفرنسا، جاءت دورة 1958م التي سمحت للدول العربية تعزيز موقفها في الهيئة الأممية والدفاع عن القضايا العربية منها قضية الجزائر، حيث راح ممثل المملكة العربية السعودية في هذه الدورة يوجه سهام الانتقادات اللاذعة للسياسة الفرنسية في الجزائر، ويرد بقوة وحزم على مزاعم فرنسا، ويناشد الدول الأعضاء في الهيئة الأممية العمل من أجل إقناع فرنسا والضغط عليها بكل الوسائل لإخراجها من الجزائر ورفع المعاناة عن شعبها، انطلاقاً من الواقع التاريخي الذي أكد على سيادة هذا الشعب عبر مراحل

(1) مواقف الدول العربية ص 215.
(2) المصدر نفسه ص 219.
(3) المصدر نفسه ص 221.

تاريخه في أرضه، وأنه لا يمت للشعب الفرنسي بأية صلة كانت، وبالتالي فإن الشعب الجزائري له كيانه القائم بذاته هو الكيان العربي لا غير.

وقد انتهت دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة المنعقدة في عام 1958م بقرارها الذي صرح بحق الشعب الجزائري في الاستقلال والحرية، على غرار كل شعوب العالم.

ومع انعقاد الدورة الرابعة عشر للجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة عام 1959م، أعلن الوفد السعودي من على منبرها مرة أخرى عن ضرورة تطبيق كل القرارات السابقة المتعلقة بالقضية الجزائرية، ووقف ممثل الوفد في هذه الدورة يشرح للمجتمع الدولي كل الأخطار الناجمة والتي ستنجم مستقبلاً عن الإدعاءات الفرنسية الباطلة، والهادفة إلى الاحتفاظ بالجزائر بحدّ السيف متحدية بذلك الشعور الجزائري والعربي والدولي، وهذا ما يناقض تماماً أطروحات الرئيس الفرنسي الكاذبة حول إيجاد حل للمعضلة الجزائرية، لكنه حل يتماشى والمصالح العليا الفرنسية.

لقد اتسمت هذه الدورة بالتحدي السعودي للأطروحات الفرنسية التي لا تستند إلى الفعل القانوني والموضوعي للقضية في حد ذاتها، ومن التساؤلات الحادة والمحرجة في ان واحد التي طرحها الوفد السعودي في تدخلاته بشأن القضية الجزائرية ما يلي: هل تريد الأمم المتحدة وهي أعلى هيئة أممية أن تضع نفسها في خدمة المصالح الاستعمارية؟

وقد ركز الوفد السعودي في هذه الدورة على أن الثورة الجزائرية ماضية إلى الأمام ومن ورائها كل شعوب العالم التواقة إلى الحرية والاستقلال وعلى رأسها الشعب العربي، وأن الشعب الجزائري ومن خلال كفاحه المستمر وثورته المظفرة سيحقق حريته في نهاية المطاف[1].

كما شهدت دورة عام 1960م نفساً جديداً بالنسبة للوفد السعودي، الذي راح وبصورة علنية يوجه الاتهام إلى الولايات المتحدة الأمريكية بتواطئها ضد ثورة الشعب الجزائري وقضيته، ومؤازرة حليفتها فرنسا صاحبة وثيقة حقوق الإنسان ؛ هذا التواطؤ الذي جسده طلب الوفد الأمريكي في التروي عند طرح القضية الجزائرية دون أن يعطي لها أدنى اهتمام، وغير مبالي بما حققه على الصعيد الدولي من انتصار وتأييد واسعين. وما ميز التدخل السعودي في القضية هو صراحة ممثلها وهجومه الشرس على فرنسا وحلفائها، حيث جاء في إحدى تدخلاته ما يلي: ترى من الذي جعل القضية ملتهبة؟ أهي خطبي النارية؟ أم أسلحتكم النارية الفتاكة[2]؟

واحتج المندوب السعودي على جعل الاستفتاء على مصير الجزائر يقوم به الشعب الفرنسي فقال: نحن نرفض الاستفتاء، ولكن ما هو الاستفتاء؟ فقد جعل منه ديغول عملية مزدوجة ذات استراتيجية ذكية يريد من ورائها فرنسة الجزائر، ما هو شأن الشعب الفرنسي في تقرير مصير الجزائر، إن الشعب الجزائري هو الذي يقرر المصير، وتقرير المصير عند الجنرال ديغول هو إفناء المصير[3].

---

(1) أحمد الشقيري زعيماً فلسطينياً ورائد عربياً، خيرية قاسمية ص 429.

(2) المصدر نفسه ص 484.

(3) المصدر نفسه ص 387.

وفي دورة 1961م الأممية بدأت فرنسا تشعر بدنو أجلها في الجزائر، لذا راحت تبحث لها عن مخرج اخر وبطرح مغاير لطروحاتها السياسية السابقة. وقد تمثل هذا الطرح الجديد في الاحتفاظ بالصحراء الجزائرية والمناطق الاستراتيجية العسكرية مثل ميناء أرزيو، إلى جانب حقول البترول التي اكتشفت من طرفها، لكن الوفد السعودي عارض هذه السياسة الجديدة، واعتبر المطالب الفرنسية غير منطقية، على اعتبار أن هذه المناطق هي جزء من الوحدة الترابية للجزائر، ولا حق لفرنسا في المطالبة بها.

ومما قاله ممثل الوفد السعودي في هذا الصدد ما يلي: طال كلامنا في الأمم المتحدة عن قضية الجزائر، وطال عصيان فرنسا لقرارات الأمم المتحدة، لكن صبر الشعب الجزائري لن ينفذ، وسيظل يحمل السلاح حتى تتحقق له حريته واستقلاله[1].

وفي عام 1962م دعمت السعودية طلب الجزائر المستقلة على أن تكون عضواً في الهيئة الأممية، فكان للجزائر ما أرادت لتزيد من التمثيل العربي قوة في هذه الهيئة، وقد وقف ممثل الوفد السعودي كعادته يلقن فرنسا دروساً في التاريخ العربي وبطولات شعوبه قاطبة، مرحباً بالعضو العربي الجديد، وملتفتاً في نفس الوقت إلى الوفد الفرنسي قائلاً له: الان انتهت الحرب بين الجزائر وفرنسا، والان ينتهي الحوار بيننا وبين فرنسا في الأمم المتحدة، وإني أرى من واجبي أن أعترف من غير أن أعتذر: لقد كنت قاسياً على فرنسا وعلى الجنرال ديغول، لكن هذه هي الحرب[2] .

1 . دعم الملك سعود بن عبد العزيز:

يمكن تقييم دعم السعودية للقضية الجزائرية من خلال مخاطبة الملك سعود عند استقباله «6 مارس 1959م» الوفد الحكومي الجزائري برئاسة السيد فرحات عباس، رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة بحضور رئيس مجلس الوزراء والأمراء، وكبار الدولة وأعيان المملكة: بأنكم لستم جزائريين أكثر مني.. وبأن القضية الجزائرية هي قضية مقدسة، وبذلك هي فوق القانون وتشريع الدولة، ولذلك تعطل القوانين إذا هي وقفت في وجه ما تتطلبه من الجهاد في الجزائر.

واعتبرت «المجاهد» الاستقبال الخاص للوفد الجزائري من طرف الملك ورجال دولته: عطف صادق للقضية الجزائرية، كما وصف فرحات عباس تدعيم السعوديين هذا بأنه استمرارية لما بذلوه ومازالوا يبذلونه من مساهمة فعالة في معركة التحرير الجزائرية التي هي معركة العروبة جمعاء، ولم تبد السعودية تحفظاً في تأييدها للقضية الجزائرية حتى ولو أدى ذلك إلى التاثير السلبي على علاقاتها الودية مع الغرب، وذلك ما يمكن إبرازه من خلال مثلاً تأكيد الملك سعود خلال استقباله «9 جانفي 1958م» الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة السيد هامر شولد:

---

(1) مواقف الدول العربية ص 231.

(2) المصدر نفسه ص 232.

إن علاقتنا السياسية مع فرنسا متوقفة على حل القضية الجزائرية حلاً يعيد لأهلها العرب حريتهم واستقلالهم، وإن العرب مرتبطون معهم برابطة الأخوة التي لا تنفصم.. وإن البلاد العربية لن تكتفي بإرسال المساعدات المالية لإخوانهم المجاهدين، بل إنني اقترح على الدول العربية اتخاذ خطوة إيجابية جديدة وهي مقاطعة فرنسا حتى تقر حق إخواننا الجزائريين في حريتهم واستقلالهم(1).

وكرر الملك سعود ذلك باستمرار، واحتفالاً بالذكرى السابعة «1961م» لثورة نوفمبر، وجه الملك خطاباً في الإذاعة السعودية أكد فيه أن المملكة العربية السعودية لن تعيد علاقتها الدبلوماسية مع فرنسا إلا بعد استقلال الجزائر، وأكد أنه سيبقى السند المتين للثورة الجزائرية(2).

وفي أثناء زيارة الملك سعود إلى سوريا «أكتوبر 1957م»، أعطى اهتماماً خاصاً لممثلي جبهة التحرير الوطني هناك، مؤكداً مساندته المستمرة للقضية الجزائرية، ومبرزاً عمله المشترك مع الرئيس السوري شكري القوتلي من أجل نصرة الجزائر. وتأكيد المملكة هذا برز كذلك في مساندتها المطلقة لكل مطالب جبهة التحرير الوطني والحكومة الجزائرية المؤقتة في مفاوضاتها مع الفرنسيين في إيفيان «20 مارس 1961م» (3).

2. الدعم المالي السعودي:

قال أحمد توفيق المدني أحد ممثلي جبهة التحرير في الخارج: كانت الضيافة - بالرياض - ممتعة وقابلنا الملك سعود بن عبد العزيز مقابلة حارة، واستمع إلى كلامي في تفهم عميق، وقال: أبشروا سيكون لكم بحول الله ما تطمئن إليه قلوبكم، إني أكلف بكم وزير المالية الشيخ سرور الصبان، وإنني أدرس معه كل الإمكانات فكونوا على ثقة من أننا نعمل ما يوجبه الله والضمير.

كان ذلك يوم 11 ديسمبر ويوم 15 ديسمبر أعلمنا الشيخ سرور الصبان أن الملك فهم الواقع على حاله، وأنه الان بصدد التشاور مع كل ملوك ورؤساء العرب، ليعرف ما فعلوا وما هم عازمون على فعله، وسيكون بحول الله في المقدمة والطليعة، وتواعدنا على اللقاء بعد عودتنا من الأردن(4).

وعدنا لجدة فكنا بها يوم افتتاح سنة 1958م وأخذنا نتصل ونوالي الاتصال ؛ ثم طرنا إلى الرياض يوم 3 جانفي، وقابلنا الملك سعود وكان في جمع حاشد من رجاله وال بيته وزائريه، وتعشينا على مائدته الملكية.. وأمسك الملك بيدي بعد العشاء وقال: قد أرسلت لكم كشفاً بكل ما دفعناه للجزائر إلى هذا اليوم، قلت: وصلنا، قال ما نصه بالحرف: نحن معكم إلى النهاية ولا نتخلى عنكم أبداً، إنما ليست لنا الان إمكانيات مالية، فقررت أننا نقوم بعد شهر بفتح اكتتاب شعبي عام، أبدأ فيه بنفسي وأضع فيه مقداراً جسيماً ويشارك فيه الأمراء، ويشارك فيه الشعب، وستكون النتيجة فوق ما تتصورون. وسيخبركم الصبان بتفاصيل هذا القرار.

---

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 78.

(2) المصدر نفسه ص 78.

(3) المصدر نفسه ص 79.

(4) حياة كفاح (79/3).

كان الصبان مريضاً، فانتظرنا شفاءه، ثم من الله علينا بالاجتماع به فحدثنا وكان فحوى حديثه:

ـ الملك قرر أن يفتح الاكتتاب بمبلغ مائة مليون فرنك على أن يكون نصيب الحكومة 250 مليون وهو يضمنها.

ـ أن يكون الدفع لكم رأساً حسب ما طلبتم، يوضع في حسابكم بدمشق.

ـ مهما أردتم سلاحاً أو مالاً أو مسعى سياسياً، فاتصلوا بالملك رأساً بواسطة رسالة أو رسول وهو موجود لتحقيق ذلك حسب الجهد والطاقة.

ـ يقول جلالة الملك: إنه يفكر الان في أمر جمع مؤتمر عام لملوك ورؤساء المسلمين لتدارس قضية الجزائر والنظر في حاجاتها، وطريقة إسهامهم في إمدادها، فطلبنا إليه أن يتولى نيابة عنا تقديم شكرنا للملك وأن الاتصال بيننا سيكون مستمراً بحول الله[1].

وفي يوم 6 مارس سنة 1959م يقول الأستاذ المدني: نزلنا أول في مطار جدة، فإذا بنا نستقبل رسمياً بصفة مرموقة وبين صفوف حرس الشرف، وكان ينتظرنا رجال الحكومة ووالي جدة، كان يوم 6 مارس سنة 1959م. بعد استراحة قصيرة ذهبنا ممتطين سيارتنا الرسمية إلى منبع النور ومصدر الهدى مكة المكرمة، حيث أدينا العمرة وصلينا بساحة مسجدها المطهر فريضتي

المغرب والعشاء، ورأيت الرئيس فرحات عباس، المتفرنج، رأيته والله يرتعد فرقاً وهو بين يدي الله، وقد اصفرّ لونه حتى أصبح ليمونة صيف، وارتعش إلى درجة أنني كنت أمسك به حتى لا يقع، ووجم كأنما هو صوفي من رفقاء الجنيد أمام جلال الله وعظمة الله وروعة بيت الله، وهكذا تفجر إيمانه فإذا هو أصدق وأقوى إيمان[2].

أخذنا صباحاً طائرة الملك الخاصة وذهبت بنا إلى الرياض، حيث كان ينتظرنا على السلم سمو الأمير فيصل «الملك فيما بعد» وكان ولياً للعهد ورئيساً لمجلس الوزراء، ويحف به رجال الدولة وأساطين الحكم. وكان لنا معه عشية حديث هام، فكان هو الجزائري المطالب وكنا نحن المجاهدين المطلوبين، ثم أطلعنا على حقيقة الحالة المالية المرتبكة في الدولة... وقال الأمير فيصل: إنني أحاول رغم مرضي وهرمي أن أضع حداً لهذه الحالة المؤلمة التي لا يمكن أصلاً أن تدوم، وسأضع لميزانية الدولة وأموالها ـ بإعانة الله ـ أسس قارّة لا تتعداها، وعندئذ لن نقع بمشيئة الله في أزمة مالية إطلاقاً. أما كفاح الجزائر فهو الجهاد الحق ومن لم يشترك فيه بنفسه وبماله فقد باء بغضب من الله، وإننا زيادة عن دفع حصتنا مما قررته الجامعة العربية ومع استعدادنا لدفع كل حصة تقررها سنبذل بحول الله فوق ذلك حسب الجهد والطاقة.

ومن الغد يوم 8 مارس.. وكانت مقابلة مودة وعطف وإخلاص، وأكد لنا خلالها ما قال من قبل أخوة الأمير فيصل عن القضية الجزائرية، وأما ليلاً فقد أقام لنا جلالة الملك مأدبة حافلة حضرها نحو الثلاثمائة من رجال الدولة وأعيانها وكبرائها.. وعند تناول القهوة العربية في البهو الوسط، أحطنا بالملك فأعلمنا أنه أمر لنا كتحية

(1) حياة كفاح (534/3).

(2) حياة كفاح (597/3).

قدوم بمليار فرنك، تدفع لحسابنا بدمشق وأن ذلك المقدار سيتبع بمقدار اخر، وقال مبتسماً: أنتم تدفعون ضريبة الدم ونحن ندفع ضريبة المال والله يوفقنا[1].

كما خصصت السعودية 250 ألف جنيه سنوياً لحرب التحرير الجزائرية سلمت عن طريق جامعة الدول العربية، بالإضافة إلى ذلك حدد الملك يوم 15 شعبان يوم الجزائر لجمع التبرعات المالية. وفي مناسبة 15 شعبان 1958م كان الملك أول المتبرعين بمليون ريال سعودي بالإضافة إلى مليونين ونصف من الحكومة.

ومن بين المساعدات المالية الخاصة التي كانت تقدمها السعودية هو تقديم مليون جنيه إسترليني للحكومة الجزائرية المؤقتة «جويلية 1961م»، وبهذه المناسبة وجه السيد فرحات عباس رئيس الحكومة المؤقتة رسالة إلى الملك مؤكداً فيها أنه: لا يسعني يا صاحب الجلالة إلا أن أرفع إلى جلالتكم شكري الصادق، واعتراف وتقدير حكومتي وشعب الجزائر لما بذلتم وتبذلونه في سبيل نصرة قضيتنا، التي هي قضية الأمة العربية التي باعتزازها يعز الإسلام. وإن حكومة وشعب صاحب الجلالة الذي ناصر قضيتنا ولا يزال يناصرها منذ البدء ؛ لا يستغرب منه أن يظل النصير الأول لقضيتنا العادلة[2].

* * *

(1) حياة كفاح (599/3).

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 79.

سادساً: الكويت:

قال الأستاذ أحمد توفيق المدني في زيارته للكويت: لم نجد كويت اليوم، بل وجدنا كويت الأمس، أنزلونا في دار للضيافة بسيطة جدّ البساطة لم نجد فيها ونحن في يوم 6 ديسمبر أي مكيف للهواء ولا أي أثر من اثار النعمة التي أضفاها الله على الكويت فيما بعد، وتشرفنا بمقابلة سمو الأمير عبد الله السالم الصباح في بيت متواضع تداعى للخراب، وقد استمتعت نفسي بما وجدته مكتوباً على باب ما كانوا يدعونه قصراً: لو دامت لغيرك ما وصلت إليك.

وكان الأمير الجالس إلى مكتب متواضع في غرفة بسيطة كثير الوعي واضح الذكاء واسع الاطلاع بادي الهمة يتحدث فيمتع، صوته هادأئ، وكلامه رصين، وهو راوية للشعر العربي الفحل، يتمثل في كلامه بأبيات منه، كأنما هو قائلها، لشدة انطباقها على الواقع.

كان يقول: نحن نشارككم في كفاحكم، فلا تهنوا ولا تحزنوا، سيزداد مقدار إعانتنا على مقدار ما ستزداد مداخيلنا، وإنكم لواجدون عندنا بحول الله ما تحبون.

وقابلنا بعده بعض الأمراء، واجتمعنا طويلاً مع لجنة الجزائر المكلفة بتنظيم أسبوع الإعانة وهي لجنة من الواعين المدركين المضحين، كانت تجتمع حول قطبين هما، الدكتور الخطيب والسيد الأستاذ يوسف الفليج. وقد سمت وتعالت أعمال الكويت فيما بعد معنا إلى أن بلغت القمة في اخر عهد الكفاح[1].

وبمناسبة الذكرى السابعة لاندلاع الثورة الجزائرية، تبرع أمير الكويت بمبلغ صبه في حساب جبهة التحرير لدعم الثورة الجزائرية، وقد قدر انذاك بثلاثة ملايين دولار.

وفي إحدى زيارات وفد جبهة التحرير الوطني الجزائرية برئاسة رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية انذاك السيد فرحات عباس إلى الكويت، أكد أميرها مرة أخرى للوفد الجزائري تمسك بلاده وشعبه بدعم الثورة الجزائرية مادياً ومعنوياً. ومما جاء في تأكيده هذا ما يلي: كنا معكم قلباً ثم صرنا معكم قلباً ومالاً ومهما اتسعت أموالنا زدنا في إعانة الجزائر، لا نتقيد بميزانية ولا نحدد المدد بعدد[2].

ودعمت حكومة الكويت أسبوع الجزائر لمناصرتها، وبادرت إلى تأسيس لجنة كويتية تقوم بجمع الإعانات والتبرعات لصالح الثورة، ولمواصلة هذا الدعم أجبرت الحكومة الكويتية كل العمال في القطاعات الحكومية على دفع مبالغ مالية من أجورهم تضامناً مع الشعب الجزائري، بالإضافة إلى إصدار طوابع بريدية خاصة بدعم الثورة الجزائرية على أساس أنها واجب قومي[3].

وكانت الكويت من الدول العربية التي فتحت أبوابها للطلبة الجزائريين، وكان بها قبل الإعلان الرسمي عن تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ثلاثة وعشرون طالباً يدرسون بالمرحلة الثانوية بمعهد الشيوخ

(1) حياة كفاح (528/3).

(2) مواقف الدول العربية ص 324.

(3) المصدر نفسه ص 325.

النموذجي، وكانت الحكومة الكويتية هي التي تتكفل بكل نفقات الطلبة الجزائريين، إلى جانب منحهم مبلغاً من المال قدره ثمانون ألف فرنك مع تذكرة سفر خارج الكويت، يضاف إليه مبلغ اخر قيمته ستة الاف فرنك لتغطية مصاريف كل طالب.

وفي نفس السياق تمكن وفد الحكومة الجزائرية المؤقتة عند زيارته للكويت من الحصول على أربعين مقعداً إضافياً للطلبة الجزائريين، وقد وعدت الحكومة الكويتية رفع العدد في المستقبل ورفع المنح المخصصة لهم إلى مائة ألف فرنك، وقد وصل عدد طلاب الثانوية من الجزائريين في الكويت إلى سبع وثلاثون طالباً كانت نفقاتهم كلها على حساب السلطة الكويتية الرسمية[1].

وسمحت السلطات الكويتية بتخصيص ساعات في إذاعتها الوطنية للثورة الجزائرية، وكانت بقدر ثلاث ساعات أسبوعياً مما سمح لشرائح واسعة من سكان الخليج العربي يتعرفون عن القضية الجزائرية وأن هناك شعب عربي في منطقة المغرب العربي يعاني ويلات الاستعمار الفرنسي هو الشعب الجزائري.

لقد وقفت الكويت أميراً وحكومة وشعباً بجانب الثورة الجزائرية وواكبت أطوارها، وأدركت تماماً أن فرنسا الحضارة هي فرنسا الدمار والإبادة في الجزائر[2].

واقترنت المساعدات المادية الكويتية للشعب الجزائري منذ انطلاقة الشرارة الأولى للثورة سنة 1954م بمؤازرة وجدت ترجمتها على كافة الأصعدة المعنوية والإعلامية والسياسية، وأدركت الكويت منذ انطلاقة الثورة الجزائرية، أن المساندة المطلوبة للشعب الجزائري ليست مساندة مادية فقط وإنما هي مساندة ومناصرة الشقيق ضد المغتصب، الأمر الذي انطلقت منه الكويت حكومة وشعباً تعلن موقفها المساند واستعدادها للتضحية بكل ما تملك في سبيل نصرة الحق واستعادة الكرامة والاستقلال، هذا على الرغم من أن الكويت لم تكن نالت استقلالها السياسي بعد[3].

وقد صرّح رئيس الحكومة المؤقتة لدى استقباله للبعثة الطبية الكويتية «1962م» فقال: صحيح أن كفاح الشعب الجزائري في الداخل قد حطم الاستعمار ولكن هناك جهود الشعوب العربية.. الكويت وقادتها الأشاوس بما قدموا من تبرعات ومساعدات وتأييد ؛ أثرت كلها في سير المعركة[4].

* * *

---

(1) المصدر نفسه ص 325.

(2) المصدر نفسه ص 327.

(3) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 100.

(4) المصدر نفسه ص 100.

سابعاً: قطر:

شارك القطريون أميراً وشعباً في دعم الثورة الجزائرية ومناصرتها معنوياً ومادياً. في المدارس كان التلاميذ يقومون بتحية المجاهدين بالجزائر بعد تحية العلم القطري، ويرددون أبيات ثورية جزائرية، والزائر لمتحف المجاهد بمحافظة الجزائر الكبرى يجد صورة الأمير الوالد حمد بن خليفة ال ثاني، وهو ينشط داخل المدارس لجمع التبرعات المالية والمادية لدعم حرب التحرير الجزائرية، وشارك في التعبئة الجماهيرية داخل المدارس لمساندة الشعب الجزائري في صراعه مع الاستعمار الفرنسي، لذلك ومن باب الامتنان قُلد أمير دولة قطر وسام الاستحقاق «أصدقاء الثورة الجزائرية» خلال زيارته للجزائر ديسمبر 1996م عرفاناً له بهذه الجهود.

تلاميذ المدارس والشعب القطري ككل كان دائماً يردد أبيات شعرية من التراث الشعري القطري حول الثورة الجزائرية:

عاش شعب الجزائر، عاش أبو خالد «الرئيس عبد الناصر»، والجزائر تفوز بحرب الابطال عزها الله على كل من يعاديها.

في المدارس كانت الأناشيد الوطنية الجزائرية تردد يومياً، وكانت التجمعات الطلابية دورياً تدين الاستعمار الفرنسي وتدعو لمقاطعة البضائع الفرنسية. الدعم المعنوي المالي لم يكن فقط من الشعب القطري، بل كذلك من السلطات القطرية نفسها عن طريق تخصيص أموال خاصة بالثورة الجزائرية، بالإضافة إلى فرض رسوم على الكثير من الخدمات لصالح الثورة الجزائرية، وسمحت بتأسيس لجان لجمع التبرعات المختلفة من حلي وذهب وأشياء مادية أخرى[1].

وأهم حدث ميز الموقف القطري تجاه الثورة الجزائرية هو المبادرة القوية التي قام بها أمير دولة قطر عام 1961م، عندما سلم قصره المتواجد في سويسرا لوفد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، الذي كان يجري مفاوضات مع الحكومة الفرنسية حول تقرير مصير الجزائر، وكان هدف أمير قطر هو أن تكون للوفد الجزائري المفاوض كامل الحرية المطلقة في تحديد قراراته حول مستقبل الجزائر، دون أي ضغط من أية جهة غربية أخرى، وقد رفع العلم الجزائري على مدخل القصر[2].

وقام أمير قطر بتمويل وتموين وتوفير احتياجات الوفد المفاوض في إيفيان، وشعر الوفد وكأنه يتفاوض على أرضه بعيداً عن أية مضايقات[3].

وكانت الوفود الجزائرية المكلفة بالتعبئة والإعلام حول بشاعة الاستعمار الفرنسي ؛ تجد استقبالاً حاراً وتحية متزايدة على المستوى الشعبي وعلى مستوى الدوائر الحكومية. وكان الاهتمام الإعلامي القطري بالثورة الجزائرية

---

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 101.

(2) مواقف الدول العربية ص 321.

(3) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 102.

مكثفاً، وتنقل للشعب القطري أحداث حرب التحرير الجزائرية، وتلقى محاضرات وتنظم ندوات تنشطها وفود جزائرية زارت قطر دورياً.

وخرج القطريون في الشوارع للتعبير عن فرحتهم بالانتصار عند إعلان استقلال الجزائر يقولون: تعلمنا من الثورة الجزائرية الصبر والعز والكرامة.

وبنفس المحتوى أثناء استقباله للسيد عبد القادر قارة، سفير الجزائر بقطر سابقاً، عبّر له أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة ال ثاني عن مدى تقديره الخاص للثورة قائلاً:

من ثورة الجزائر تعلمنا الصبر والكفاح، ومن ثورة الجزائر تعلمنا الاعتماد على النفس، وأتمنى لكل ثورة عربية ضد الاحتلال أن تتعلم من ثورة شعبكم[1].

* * *

(1) المصدر نفسه ص 102.

ثامناً: العراق:

مر الموقف العراقي تجاه الثورة الجزائرية بمرحلتين، الأولى انتهت مع الإطاحة بالنظام الملكي «14 جويلية 1958م» في هذه المرحلة بحكم نفوذ أو ضغوط الدول الغربية خاصة بريطانيا ذات التأثير الكبير، واضطرت الحكومة للاستجابة النسبية لضغوط الشعب العراقي الذي خرج يندد بالاستعمار الفرنسي ومعلناً التأييد للثورة الجزائرية، وشكّل لجان المساندة المادية بما فيها جمع تبرعات مالية وطبية وغذائية، وكانت المساعدات العراقية الغذائية فعالة لأنها تأتي في الأزمات، وضمنت الحكومة العراقية 250 مليون فرنك فرنسي سنوياً لدعم حرب التحرير الجزائرية، وخصصت 250 ألف جنيه استرليني تدفع لجامعة الدول العربية لمساندة القضية الجزائرية.

وكان شعراء العراق في الموعد، ويعتبرون من أكثر شعراء الدول العربية غزارة في الثورة الجزائرية، واستطاع الأستاذ عثمان سعدي أن يجمع في مجلدين شعر العراق في الثورة الجزائرية وسمّاه «الثورة الجزائرية في الشعر العراقي».

وفي الدورة العاشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة جاءت أول محاولة لإدراج القضية الجزائرية في أعمالها العادية، وهي أول دورة عادية تنعقد بعد قيام الثورة الجزائرية، وذلك على إثر طلب تقدمت به أربع عشرة دولة أفرو. اسيوية في 26 جانفي «يناير» 1955م، وكان الوفد العراقي برئاسة فاضل الجمالي في هذه الدورة من بين الوفود التي طالبت بإدراج القضية الجزائرية في جدول أعمال الجمعية العامة، وقد ركز رئيس الوفد العراقي على أن الثورة الجزائرية تطرح الان على أساس أنها قضية إنسانية لكونها قامت من أجل تحرير شعب اغتصبت أرضه وسلب استقلاله، وأنه في الوقت الذي تقوم فيه الطائرات الفرنسية بإلقاء القنابل ؛ فإنه لا يمكن لأعضاء الأمم المتحدة عرض هذه المسألة على اعتبار أنها تخص قضايا فرنسا الداخلية[1].

ونظراً للمعارضة القوية التي واجهتها الدول الأفرو. اسيوية في الجمعية العامة للأمم المتحدة من طرف فرنسا وحلفائها وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية ؛ اكتفت هذه الأخيرة ومنها العراق بالتصويت في اللجنة الأولى على إدراج القضية الجزائرية بأغلبية صوت واحد[2]، كما لعبت العراق دوراً بارزاً تجاه الثورة الجزائرية من خلال دعم قضية الشعب الجزائري في الدورة الحادية عشر التي طرحت في الجمعية العامة، وكانت العراق من بين الدول التي قدمت مذكرة شديدة اللهجة، اتهمت فيها فرنسا القيام بأعمال قمع عسكرية واسعة النطاق في الجزائر، وهو انتهاك للاتفاقية الدولية التي تحرم إبادة الجنس البشري، وكشف سياسة فرنسا القائمة على إبادة شعب الجزائر وقمعه، وذكرت المذكرة أن فرنسا رفضت سياسة التوفيق في الجزائر[3].

وركز فاضل الجمالي على أهم الأسباب التي تجعل من الثورة الجزائرية قضية دولية، وأنها ليست مسألة داخلية فرنسية كما أدعى وزير خارجية فرنسا السيد «بينو»، فكان رده هو أن الادعاءات الفرنسية بأن المسألة الجزائرية تخص فرنسا وحدها إدعاء باطل، والحقيقة أن الجزائر ليست فرنسا وأن الجزائريين ليسوا فرنسيين، لذا فإن هذه

(1) مواقف الدول العربية ص 256.

(2) المصدر نفسه ص 256.

(3) المصدر نفسه ص 257.

القضية أصبحت مسألة دولية وليست مسألة داخلية فرنسية، ومن بين أهم الأسباب التي أوردها مندوب العراق السيد فاضل الجمالي ما يلي:

. الوضع داخل الجزائر يمكنه أن يحدث خلافات حادة في العلاقات الدولية، وأن تواطؤ فرنسا مع إسرائيل في ضرب مصر كان انتقاماً من جانب فرنسا ضد مصر التي دعمت شقيقتها الجزائر.

. تواطؤ الحلف الأطلسي مع فرنسا في حربها ضد الجزائر بدعمه إياها لنصف مليون من قواته في الجزائر، إلى جانب نفقات فرنسا العسكرية في الجزائر والتي تفوق مليون دولار يومياً، وبذلك يكون الحلف الأطلسي قوة قائمة لسحق الحريات والديمقراطية في الجزائر.

. اعتراف تسع وعشرين دولة في مؤتمر باندونغ بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، والنضال من أجل استرجاع سيادته واستقلاله. ولحل القضية الجزائرية، أكد ممثل العراق على الطرق السلمية لتحقيق ذلك مركزاً على ما يجب أن تقوم به الدول الغربية بالدرجة الأولى في التخلي عن أساليبها القديمة القائمة على الاستعمار والاستغلال[1].

وخلص ممثل العراق إلى القول بأن على هيئة الأمم المتحدة أن تؤدي واجبها أخلاقياً وقانونياً تجاه الثورة الجزائرية وقضيتها العادلة، وذلك بالضغط على الشعب الفرنسي وحكومته قصد معالجة هذه القضية بنفس الطريقة والروح التي عولجت بها قضيتا تونس ومراكش[2].

وكانت إعانة العراق في الحكم الملكي بسبب الضغوط الشعبية من الأفاضل وأصحاب النخوة، وفي زيارة أحمد توفيق المدني عبّر عن استيائه في زيارته في العهد الملكي في مذكراته، وتحدث مع علي جودت الأيوبي رئيس الحكومة وجهاً لوجه، قال المدني بلغة التلميح التي فتحت بصيرته إلى واقع راه فيما بعد رأي العين: إن العراق لم يستطع أن يتقدم للميدان الجزائري كما يريد، لقد أعانتكم الحكومة إعانة بسيطة خضعت فيها لظروف الزمان والمكان، لكن لن يطول بكم الانتظار فيما أعتقد سترون من العراق إعانة لا تتصورونها الان، فما من شعب كشعب العراق يقدّر قيمة الكفاح الجزائري ويحدب على الكفاح الجزائري، إن معركتكم لا تزال طويلة وستجدون العراق ليكمل معكم المسيرة[3].

1 . الدعم المالي بعد إسقاط الملكية بالعراق:

زار وفد من الحكومة المؤقتة العراق يوم الثلاثاء 21 أفريل 1959م برئاسة فرحات عباس وكان معه: أحمد توفيق المدني، وكريم بلقاسم، ومحمود الشريف، إبراهيم مزهودي، وعبد الرحمن اليعلاوي، من ضمن رحلات قاموا بها للبلاد العربية، وهذا أحمد توفيق المدني يصف لنا ماذا حدث: خرج لاستقبالنا بحر من البشر هائج

(1) المصدر نفسه ص 258.

(2) المصدر نفسه ص 258.

(3) حياة كفاح (527/3).

مائج احتل الطرق والساحات واحتل المطار واحتل نفس مجال الطيران، فاضطربت الطائرة المقلة لنا لاختراق الصفوف المتراصة وهي تسير سير الغيلم خشية إحداث مجزرة بشرية.

بعد نصف ساعة على الأقل أسكنت الطائرة محركاتها ونزلنا فتلقفتنا أيدي الجماهير، وبعد لأي وعناء تمكن الرئيس عبد الكريم قاسم من اللحاق بنا، بينما كانت أكف نحو المائة ألف رجل تتلقف أعضاء بقية الوفد، وتسير بهم حسبما تسمح به حركة الجماهير ذات اليمين وذات الشمال، وسقط أحدنا أثناء الزحام فداسته أقدام الجماهير وسال دمه من جراحاته، وبعد ساعة أو أكثر من ساعة التحق بنا في غرفة المطار بقية رجال الوفد، وكانت المظاهرة الصاخبة قد أحيت امالهم وأنعشت أرواحهم، وكادت في نفس الوقت تقضي على أجسامهم، وقال عباس فرحات بلسان عربي قلّما نطق به: هؤلاء أحبونا ففعلوا بنا ما فعلوا، فماذا كانوا يفعلون لو أنهم يكرهوننا؟

بعد ثلاثة أيام عقد عبد الكريم قاسم مجلس الوزراء ودعانا إلى حضوره في بناية وزارة الحربية، فرحب بنا ترحيباً حاراً بليغاً، وكانت به شبه لُكنة تخالف ما اتصف به أهل العراق قاطبة من فصاحة اللسان وجزالة القول وضخامة الألفاظ، وأناط بي الأستاذ فرحات عباس مهمة الإفصاح عن رغائب الجزائر، ووضعية كفاحها وحاجتها الملحة إلى المدد السريع الفعال.

فشكرت العراق شعباً وحكومة على ما أبداه من روح ثورية عالية، ونددت بما كانت أبدته حكومة قبل الثورة من تقاعس عن المدد لا يتجانس مع روح العراق، ولا يتفق مع عاطفته الملتهبة نحو الجزائر وجهادها.

وقلت بعد أن شرحت الموقف الحربي فوق المصور الجغرافي: الان جاءت الساعة الحاسمة، ساعة بعدها النصر، أو بعدها الفناء، المال والسلاح، هذا ما نطلب من العراق. نريد المال الجزيل والسلاح الوافر، فالعرب كلهم تقدموا فيما مضى بما يستطيعون . والان جاء دوركم فانظروا ماذا أنتم فاعلون؟

قال عبد الكريم قاسم: كفاح الجزائر أمر أساسي في كفاح العرب العام، ولن ينجح العرب أصلاً في مستقبل أيامهم، ما لم تفز الجزائر باستقلالها، كلنا للجزائر، أما السلاح فسنعطيكم سريعاً ما لدينا، ومن أجود الأنواع، وأما المال فهو الان قليل بين أيدينا لكنا لا نبخل عليكم بشيء، وسنتحمل فوق ما نستطيع.

قلت: المال بالنسبة لنا اليوم كالسلاح، وقد تطورت المعركة سياسياً كما تطورت حربياً، فالسلاح للتطور الحربي، والمال للتطور السياسي.

نطق السيد حديد وزير المالية فقال: لا نجد بين أيدينا اليوم شيئاً من المال. فكيف نستطيع أن نعطي من خزينة خاوية على عروشها؟

فأجابه عبد الكريم قاسم بلهجة شديدة وقال: سواء كان لدينا المال أو لم يكن عندنا منه شيء فواجبنا إمداد الجزائر حالاً، أخِّرْ دفع مرتبات الموظفين، أخِّرْ إنجاز المشروعات التي لديك، أخرّ كل شيء إلا الجزائر، يجب أن تغاث حالاً.

ودخلنا في جدال من أجل تعيين مقدار المال، طلبت ستة مليارات من الفرنكات القديمة، فصرخ السيد حديد وكاد يلطم وجهه، لا نستطيع إطلاقاً أبداً ـ ونحن على حالنا الان ـ أن نجد أكثر من مليارين، على أن ينالنا منها ضيق شديد، قال قاسم ـ وبقية الوزراء لا يقولون كلمة ـ: إن الستة التي طلبها الأخ توفيق غير ممكنة الان، وإن المليارين اللذين قال عنهما حديد لا يكفيان، فأنا أقترح أن يكون المقدار ثلاثة مليارات، نتعهد بدفعها سنوياً ما دام الكفاح الجزائري مستمراً إلى أن يتم الاستقلال.

قلت: فلو زدت عليها ملياراً؟ قال: غير ممكن وأرجو الأخذ باقتراحي. فسكت الجميع وتلك علامة المصادقة.

قلت مغتنماً: أما وقد تقرر هذا ونحن شاكرون؛ فلنعين اجال الدفع، قال حديد: إننا ندفع حسب الإمكان.

قلت:

أبداً، إن تكاليفنا كثيرة ويجب أن نعرف مداخيلنا بصفة مضبوطة، فما رأيكم لو قسمناها أربعة أقساط يكون كل قسط «750» مليوناً، تدفع في اجال محددة كل 15 يناير، و15 افريل، و15 يوليو، و15 أكتوبر؟

أراد حديد أن يتكلم، فقاطعه الرئيس قاسم قائلاً: أنا قبلت هذا الاقتراح، فسجل عندك اجال الدفع، وأريد أن لا يتأخر الدفع أصلاً إطلاقاً.

وهكذا كان والله!. فمنذ تلك الساعة، إلى يوم استقلال الجزائر لم يتأخر قسط عن موعده المحدد، فحيا الله همة العراق، وحيا الله شعب العراق[1].

2 . الدعم بالسلاح:

كان التنسيق بين العسكريين العراقيين والجزائريين مكثفاً ومنظماً وسرياً، والنقل كان مباشرة عن طريق الطائرات العراقية نزولاً بليبيا، بإشراف مباشر عراقي جزائري، بالتنسيق مع السلطات الليبية، ولم يتوقف الطيارون العراقيون من إيصال السلاح للمكان، وفي الموعد المحدد، وقدم العراق للجزائر حتى أدق الأسلحة، وأجهزة اتصال عسكري «50 جهازاً» يصعب الحصول عليها في مكان اخر، لأن العراق تحصل عليها من منظمة الحلف الأطلسي عندما كان عضواً في حلف بغداد[2] قبل ـ انقلاب عبد الكريم قاسم ـ

3 . طلبة الجزائر في العراق:

سمحت الحكومة العراقية للطلبة الجزائريين بالتدريب في كلياتها العسكرية، وذلك تحت نفقتها، حيث بلغ عدد الخريجين الجزائريين من هذه الكلية العراقية الحربية ما يقارب الأربعين عسكرياً برتبة ملازم ثان، هذا إلى جانب كلية الطيران التي استقطبت ما يقارب 27 طالباً عام 1962م منهم خمسة طيارين[3].

---

(1) حياة كفاح (627/3).

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 96

(3) مواقف الدول العربية ص 271.

4 . مقاطعة فرنسا:

قررت الحكومة العراقية في 13 نوفمبر 1958م وقف كل نشاط اقتصادي وتجاري للفرنسيين في العراق، وكان لهذا القرار تأثير سلبي كبير على المصالح الاقتصادية الفرنسية بالعراق، بحيث أن 70% من المشاريع العراقية الكبرى مثل الطرق، وإقامة الجسور وبناء السدود، والمنشات العامة والمصالح الكبرى ؛ كانت تنفذ من طرف شركات فرنسية، واعتبرت مجلة المجاهد هذا القرار موقفاً رائعاً جاء تدعيماً عملياً لثورة الجزائر، وتعبيراً قوياً عن وحدة النضال العربي الذي صهرته بوتقة الالام والامال المشتركة، مشاعر قومية أصيلة رسبت في أعماق النفس العربية أجيالاً طويلة لتظهر اليوم كأشد ما تكون حرارة وحيوية وقوة[1].

5 . تعبئة شعبية ودعم في المحافل الدولية:

على المستوى الجماهيري كان الانسجام متكاملاً وقوياً بين الحكومة والشعب على كل المستويات، من أجل التعبئة المعنوية والمادية للمعركة القومية في الجزائر، بما فيها المظاهرات والاحتجاجات الجماهيرية المتكررة والمكثفة دورياً وفي كل مناسبة، وعلى رأسها ذكرى أول نوفمبر التي مثلت حدثاً بارزاً في العراق، وأعطيت اهتماماً خاصاً من طرف العراقيين حكومة وشعباً.

ومن بين مظاهر الاعتبارات الخاصة خصصت الحكومة العراقية العشرة دقائق الأولى في المدارس إلى تدريس القضية الجزائرية والتحسيس بها، وكانت إذاعة بغداد تخصص برنامجاً يومياً حول الثورة الجزائرية لمضاعفة تدعيم وتعبئة الشعب العراقي والعربي بصفة عامة للوقوف لجانب إخوانهم بالجزائر، وعممت وكثفت الحكومة العراقية التعبئة الجماهيرية والاحتجاجات الشعبية عبر التراب العراقي منددة بالأعمال الإجرامية والأساليب الوحشية، التي تستخدمها جيوش فرنسا ضد الشعب الجزائري[2] .

وعلى مستوى العلاقات الثنائية الرسمية، وصل الموقف العراقي لدرجة النقد والهجوم القوي ضد أي إجراء يمس أو يؤثر مباشرة أو غير مباشرة على مسار حرب التحرير الجزائرية، حتى ولو حدث ذلك مع دولة مثل الاتحاد السوفياتي التي تهم المصالح الوطنية الحيوية للعراق، فعبد الكريم قاسم الرئيس العراقي دون تردد حذّر خروتشوف الرئيس السوفياتي من زيارة حاسي مسعود «بالجزائر»، معتبراً ذلك مساساً بالعلاقات الثنائية بين العراق والاتحاد السوفياتي والعلاقات العربية السوفياتية ككل[3].

وكان العراق أول قطر عربي يعترف بالحكومة الجزائرية المؤقتة، يقول الأستاذ توفيق المدني: ما كدت أنتهي يومئذ من قراءة النص العربي لإعلان الحكومة المؤقتة ومناهجها حتى تقدم سفير العراق المحامي فائق السامرائي

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 95.

(2) المصدر نفسه ص 93، 94.

(3) المصدر نفسه ص 91.

الثائر الفائر، فأعلن اعتراف العراق بالحكومة الجديدة ووعد العراق بالإعانة الكاملة للثورة الجزائرية والتأييد المطلق[1].

كما كانت العراق في مقدمة الأقطار العربية سياسياً ودبلوماسياً في العمل على تدويل القضية الجزائرية، وفي خطاب للسيد هاشم جواد وزير خارجية العراق في افتتاح مؤتمر وزراء الأقطار العربية ببغداد «30 جانفي 1961م» أكد فيه: إن معركة الجزائر التي خضناها في الأمم المتحدة مازالت تستدعي مزيداً من العمل والتضحية، وتستوجب توفيقاً في الخطط في الشدة على العدو بشتى الوسائل الاقتصادية والسياسية المتيسرة مساندةً للجهود العسكرية الجبارة والكفاح المرير الذي يخوضه إخواننا الجزائريون[2].

وكان العراق يستغل أية فرصة لعلاقاته الثنائية لتوظيفها لصالح القضية الجزائرية، خلال زيارة. «أفريل 1960م» مثلاً. وفد حكومي أندونيسي للعراق، أصدر وفدا الحكومتين بياناً مشتركاً أدانا فيه الاستعمار الفرنسي، ومطالبته بفتح مفاوضات سريعة ومباشرة من أجل استقلال الشعب الجزائري. وبنفس النشاط والتعبئة كانت مواقف العراق في المحافل والهيئات الدولية: لقد ان الأوان لكي تتخذ الأمم المتحدة موقفاً أكثر إيجابية من المشكل الجزائري، ويجب عليها اليوم أن تخطط برنامجاً يساعد على تطبيق مبدأ حرية تقرير المصير بالجزائر بعد أن خيب الجنرال ديغول الرأي العام[3].

كان التاييد العراقي للجزائر جدياً وملتزماً، ونتائجه كانت ملموسة ومؤثرة إيجابياً على مسار الثورة الجزائرية، وهذا باعتراف السيد فرحات عباس بعد زيارته للعراق أفريل 1959م: زيارتنا للعراق الشقيق تعتبر نصراً كبيراً للقضية الجزائرية، حكومة العراق أدت واجبها كاملاً، وعلى الخصوص فيما كانت قد تعهدت به إلينا[4].

ونفس التقييم تضمنه البيان المشترك بين حكومتي العراق والجزائر أثناء زيارة الوفد الجزائري برئاسة السيد فرحات عباس: العراق حكومة وشعباً يؤازر القضية الجزائرية بالأسلحة والأموال وفي الميدان العالمي، كما تضمن البيان مطالبة الشعوب والبلدان العربية بمضاعفة المساعدات والدعم السياسي والمادي للثورة الجزائرية والإسراع بتنفيذها[5].

تاسعاً: سوريا:

تميز موقف الشعب السوري بالتأييد المطلق للثورة الجزائرية، والانتقاد الشديد لأي موقف لحكوماتهم لا يرقى للأهداف والوسائل الكاملة لحرب التحرير الجزائرية، ومطالبين سواء إعلامياً أو عن طريق المظاهرات أو في

(1) المصدر نفسه ص 91.
(2) المصدر نفسه ص 92.
(3) المصدر نفسه ص 94.
(4) المصدر نفسه ص 98.
(5) المصدر نفسه ص 98.

المجلس النيابي «الممثل نوابه من مختلف الأحزاب» بمقاطعة فرنسا، والضغط على جامعة الدول العربية لاتخاذ موقف فعال وواضح ومؤيد دون تحفظ لتحرير كل الأراضي العربية المحتلة.

1 . مواقف للبرلمان السوري:

تزامناً مع تحول حرب التحرير الجزائرية إلى مرحلة هامة في التنظيم والشمولية عقب مؤتمر الصومام «أوت 1956م» ؛ كثف مجلس النواب السوري من جلساته، من أجل متابعة تصاعد حرب التحرير الجزائرية وتضاعف قمع الاستعمار الفرنسي للشعب الجزائري، وخصص جلسات خاصة لمناقشة مدى التأييد العربي للثورة الجزائرية من خلال مداخلات النواب، والجميع قدم انتقادات شديدة لعدم وصول التأييد العربي للثورة الجزائرية إلى مستوى تضحيات الشعب الجزائري ومستوى قوة القمع الفرنسي، وانتهوا بتبني القرارات التالية:
. استنكار مجلس النواب اختطاف الجزائريين.
. تكليف الحكومة لتبادر فوراً إلى دعوة الحكومات العربية لتخصيص مبلغ لا يقل عن خمسين مليون ليرة سورية لنصرة إخواننا العرب في المغرب، ومدهم بما يحتاجون لممارسة حقهم بتقرير مصيرهم.
. تكليف الحكومة بالاتصال فوراً بالحكومات العربية لإقرار مقاطعة فرنسا سياسياً واقتصادياً وثقافياً.
. تكليف الحكومة بالاتصال فوراً بالحكومات العربية لتهيئة اجتماع على مستوى عال من المسؤولين العرب، بما فيهم المسؤولين في تونس ومراكش وممثلي الجزائر، لإقرار الخطط الواجب اتباعها لمساعدة الجزائر في بلوغ أهدافها في الحرب والاستقلال.
. إبلاغ حكومتي تونس ومراكش تأييد سوريا لموقفها السليم من الأحداث الأخيرة.
وجدت هذه القرارات موافقة دون تحفظ من طرف رئيس الحكومة السوري السيد صبري العسلي الذي حضر الجلسة ووعد بتنفيذها، وبرز التجاوب الحكومي مع رد الفعل الجماهيري وممثليه في مجلس النواب، وخرجت الجماهير منددة بالاستعمار الفرنسي واختطافه لقادة الثورة الجزائرية بعد عملية القرصنة الجوية، وأدان السوريون بشدة الاستعمار الفرنسي، مطالبين بمضاعفة التأييد المادي في جميع المجالات، من أجل إفشال خطط الاستعمار الغاشم لإضعاف الثورة الجزائرية[1].

2 . الرئيس شكري القوتلي:

تضاعف الدعم الحكومي السوري في عهد الرئيس شكري القوتلي، ومنذ البداية اتخذ مواقف مبدئية مؤيدة للثورتين المصرية والجزائرية، ومندداً بكل محاولات التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان العربية من طرف القوى الكبرى وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية، وبهدف تدعيم الوجود السياسي الجزائري دولياً ؛ عملت سوريا على استغلال أي حدث وطني بسوريا له طابع دولي للتحسيس بالقضية الجزائرية وإشراك الجزائر مباشرة فيه، مثلما حدث في معرض دمشق الدولي «أكتوبر 1957م»، وأثار الجزائريون فيه دوياً، ويستغل ممثلو

(1) المصدر نفسه ص 82.

الجزائر هذه التظاهرة لدعم قضيتهم، واللقاء مع الوفود الرسمية بتشجيع وتنسيق قادة الحكومة السورية، وعلى رأسهم الرئيس القوتلي نفسه، وخلال زيارته لجناح الجزائر أكد القوتلي وقوف حكومته دون تحفظ بجانب أي قضية عربية ذات بعد قومي، داعياً العرب حكومات وشعوباً إلى مد يد العون وتأييد الجزائر في جهادها ضد الاستعمار[1].

وأكد للوفد الجزائري الذي زار سوريا في مارس 1957م: إن سوريا مشتركة معكم في القتال، إن أردتم سلاحاً أمددناكم بالسلاح، وإن أردتم مالاً عندنا ما نستطيع بذله، وإن أردتم رجالاً فرجال سوريا مستعدون لخوض الوغى إلى جانبكم، أقول لكم هذا علناً وجهراً لكي تسمع فرنسا قولنا، ولكي تعلم أننا قوم جد لا هزل، وأنا أكلم قائد الجيش السوري هنا أمامكم ليفتح مخازن الذخيرة حتى يأخذ منها المجاهدون الجزائريون ما يريدون، لقد عقدنا العزم النهائي على أن نموت أو نحيا معاً، وستكون لنا الحياة الحرة الكريمة بإذن الله[2].

وبمناسبة يوم 30 مارس 1958م الذي دعت إليه منظمة تضامن الشعوب الأفرو. اسيوية لتنظيم تظاهرات وجمع التبرعات والتحسيس بالقضية الجزائرية عبر البلدان الإفريقية والاسيوية ؛ أكد الرئيس القوتلي إلى ممثلي جبهة التحرير الوطني بدمشق بأن قضية الجزائر قضيتنا، وحدودها حدودنا، ونضالها نضالنا، ومصيرها مصيرنا، وإني على يقين بأن شعب الجمهورية العربية المتحدة بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر سيكون على رأس كل حركة قومية تنازع أطماع المستعمرين[3].

3 . يوم الجزائر:

في يوم 10 رمضان عام 1377هـ الموافق 30 مارس 1958م، كانت دمشق العاصمة السورية على موعد مع يوم الجزائر الذي تميز بإقامة الاحتفالات والمهرجانات الثقافية، أبرزها ذلك الاحتفال الذي أقيم تحت الرعاية السامية لرئيس الجمهورية السورية شكري القوتلي، وبحضور العديد من الوزراء والشخصيات البارزة منها: وزير الداخلية انذاك عبد الحميد السراج، نوري الإيبش، وفاخر عاقل، والسيدة قمر قزعون شورى، والسيد أكرم الحوراني نائب رئيس الجمهورية، والسيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم، والأمين العام لجامعة الدول العربية السيد عبد الخالق حسونة، ومنظر القومية العربية ميشال عفلق، وكذلك سفير المغرب في دمشق السيد المحجوب بن الصديق، وممثل جبهة التحرير الوطني الغسيري[4].

وقد تم تشكيل هيئة بالعاصمة السورية دمشق يتمثل عملها في جمع التبرعات المالية، وقد عرفت هذه الهيئة بجماعة أسبوع الجزائر، حيث كانت تقدم الأموال بعد جمعها إلى مكتب جبهة التحرير الوطني الجزائرية بدمشق، وهو من جانبه يقوم بوضعها في أحد البنوك هناك، وكان عمل جماعة أسبوع الجزائر تجاه الثورة الجزائرية بتوجيه

---

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 84.

(2) المصدر نفسه ص 85.

(3) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 85.

(4) مواقف الدول العربية ص 243.

من الرئيس شكري القوتلي، وبأمر منه. وخلال الأسبوع الجزائري في مارس 1957م مثلاً تسلم الوفد الجزائري 1،800،000 ليرة سورية و 49،130،132 دولار بصكوك موقعة من الرئيس القوتلي نفسه، وفي نفس السنة تسلم ممثل مكتب جبهة التحرير الوطني بدمشق صكاً اخر قدره مليار وخمسة ملايين فرنك[1].

4 . أطفال سوريا:

في وصف السيد أحمد توفيق المدني لزيارته لسوريا قال: .. وعند خروجنا من المقبرة قبيل الغروب وجدنا أنفسنا أمام جماعة من الصبية يعودون من المدرسة إلى ديارهم وأحاطت بنا شلة منهم، وقال قائل: من أنتم أيها السادة؟ قلت له: نحن من الجزائر. فصاح التلاميذ كلهم بصوت واحد: لتحيا الجزائر لتحيا الجزائر، وقال لي أصغرهم سناً: بالله سلموا على كل من يضرب البارود في الجزائر.
بهذه الكلمة البسيطة الحارة الصادرة عن قلب مؤمن مطمئن انطبع حب دمشق وأهل دمشق فوق صفحات قلبي إلى الأبد أعيش به، وأموت به، وأبعث حيا[2].

5 . فتح أرصدة بنكية:

وإلى جانب التبرعات المالية، سمحت الحكومة السورية بتسهيل مهام الوفد الجزائري بفتح أرصدة بنكية قابلة لتحويل العملة الصعبة. ومن أبرز البنوك التي كانت مسرحاً لهذه العمليات بنك الرافدين، الذي كانت توضع فيه الأموال باسم رئيس مكتب دمشق السيد عبد الحميد مهري، الذي تحصل على مكانة مرموقة في دمشق، تفتح في وجهه كل الأبواب، وتذلل أمامه كل الصعاب، يعينه في أعماله إعانة فعالة الأخ الشيخ الغسيري عليه رحمة الله وبركاته[3].

6 . الدعم بالسلاح والذخيرة والرجال والغذاء:

سهلت الحكومة السورية عملية جلب الأسلحة واقتنائها، وقامت بفتح حدودها مع العراق وجعلتها منطقة عبور للأسلحة الاتية من العراق، وهذا بناء على الاتفاق الثنائي بين الحكومة السورية ولجنة السلاح الجزائري، الذي يشترط على سوريا التكفل بتأمين الأسلحة وضمان إرسالها إلى الجهة التي تعينها الهيئة المشار إليها[4].
ولم ينحصر الدعم المادي في الناحية المالية وتزويد الثورة الجزائرية بالأسلحة سواء من مخازن الجيش السوري أو عن طريق فتح حدودها لنفس الغرض، وإنما تجسد هذا الدعم في أرض المعركة حيث فتحت سوريا باب التطوع لكل السوريين سواء الوسط الشعبي أو الوسط العسكري، وبالتالي أصبحت الرغبة في الجهاد لدى السوريين أمراً ضرورياً، لأنه نصرة لإخوانهم الجزائريين الذين هم بأمس الحاجة إليهم أكثر من أي وقت مضى.

---

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 85.
(2) حياة كفاح (302/3).
(3) حياة كفاح (301/3).
(4) مواقف الدول العربية ص 248.

ومن هذا المنطلق توافد على أرض الجزائر بعض الإخوة السوريين الذين انضموا إلى صفوف الثورة المباركة، ودعموها بضباط سامين ساهموا بدرجة كبيرة في تدريب وتوجيه أفراد جيش التحرير الوطني في الجبال وتلقينهم الأساليب الحربية الجديدة[1].

وإذا كان السلاح بالنسبة للجزائريين قضية ضرورية، فإن المواد الغذائية هي الأخرى كانت ذات أهمية، ودعمت سوريا جبهة التحرير الوطني بكمية كبيرة من القمح بحوالي ألفي قنطار من القمح السوري مجاناً، واستمر الدعم العسكري بالسلاح والعتاد لثوار الجزائر، وتدريب فرق من أعضاء جيش التحرير بما فيها التدريب على الطيران العسكري. وكان الطلبة الجزائريون هناك يعاملون كسوريين ويشاركون الاحتفالات والأعياد الوطنية الرسمية كجنود وضباط سوريين مرتدين الزي العسكري السوري، ويشاركون حتى في الاستفتاءات الوحدوية مثل الاستفتاء على الوحدة بين سوريا ومصر[2].

7 . الدعم العلمي والثقافي:

لم تبخل سوريا على الطلبة الجزائريين في نهل العلم والثقافة والمعرفة، بل دعمت هذا الاتجاه عن طريق فتح المجال لهم، حيث تزايد عددهم ليصل إلى 107 طالب، وهذا بعد المجهودات التي قامت بها جبهة التحرير الوطني ممثلة في مكتبها التمثيلي الذي فتح مفاوضات مع الوزير السوري للتربية والتعليم، انتهت بعقد اتفاق بين الطرفين قبلت فيه سوريا مطالب الجزائريين ومن أهمها: دفع الحكومة السورية منح للطلبة الجزائريين، وإعفاؤهم من رسوم الدراسة، كما يمكنهم التزود مجاناً بالكتب الضرورية[3].

والعلاقة العلمية والثقافية بين الجزائر وسوريا مستمرة إلى يومنا هذا وممتدة جذورها في أعماق التاريخ وعبق الحضارة الإسلامية، وشهدت ازدهاراً واضحاً مع هجرة الأمير عبد القادر إلى سوريا، فلقد لعب الأمير والمهاجرون من الجزائر دوراً ملموساً في التعليم والتربية.

لقد وقفت الحكومة السورية وشعبها قلباً وقالباً مع دعم ثورة الجزائر، وكان للاستعمار والمعاناة والمواجهة المشتركة للشعبين الجزائري والسوري ضد الاستعمار الفرنسي، تأثير متميز في دعم سوريا للكفاح الجزائري العظيم.

* * *

(1) المصدر نفسه.

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 86

(3) مواقف الدول العربية ص 242.

عاشراً: لبنان:

كان الدعم المعنوي والمساندة الشعبية والحكومية من لبنان منسجمة مع الخط العربي العام على المستوى الشعبي والحكومي، وعاش الشعب اللبناني أحداث حرب التحرير الجزائرية ومناسباتها وذكرياتها بكل جوارحه، وعبّر باستمرار عن حزنه على قمع الشعب الجزائري، وإدانته للاستعمار الفرنسي وحلفائه بمناسبة الذكرى السادسة «1960» لثورة أول نوفمبر مثلاً، مظاهرات ضخمة عمت لبنان وعبرت فيها الجماهير اللبنانية عن سخطها تجاه الاستعمار الفرنسي، ومنادين بحياة جيش التحرير الجزائري. وبحديقة السفارة الفرنسية ببيروت علق المتظاهرون العلم الجزائري منادين بعروبة الجزائر ولبنان.

وفي نفس المناسبة ألقى السيد صائب سلام رئيس الحكومة اللبنانية خطاباً أكد فيه مساندة لبنان الشقيق لكفاح الجزائر المجاهدة.. لقد قلتم «مخاطباً المتظاهرين» كلمتكم اللبنانية العربية الصميمة، وكان لها وقعها عند العرب وعند إخواننا الجزائريين، إن عهد الاستعمار قد ولى إلى غير رجعة، وقد حطمه أبطال الجزائر[1].

دولياً كان للموقف الرسمي اللبناني بجانب الأقطار العربية الأخرى تأثير فعال في تعبئة المواقف الدولية للوقوف بجانب قضية الجزائر العادلة ومناقشة الموضوع بطريقة شرعية، والعمل على إقناع الجميع بضرورة إعطاء الشعب الجزائري الحرية المطلقة في تقرير مصيره، ذلك ما أكده السيد صائب سلام رئيس الحكومة اللبنانية أثناء تدخله أمام الدورة الخامسة عشرة للأمم المتحدة «أكتوبر 1960»:

بما أن الحكومة الفرنسية لم ترض بالتفاوض حول شروط الاستفتاء الحر، طالبت الحكومة الجزائرية بتنظيم استفتاء تحت رقابة الأمم المتحدة وهو طلب معقول. إنه من واجب الأمم المتحدة أن تضمن حرية الاستفتاء بالجزائر، إذ أن من مصلحة الجزائر وفرنسا والعالم أجمع ألا يتطرق الشك إلى ذهن أحد فيما يتعلق باختيار الشعب الجزائري ونزاهة الاستفتاء[2].

وفي إطار الدعم الرسمي للثورة الجزائرية، فقد أدلى رئيس الحكومة اللبنانية بتصريح رحب فيه برد الحكومة الجزائرية المؤقتة الإيجابي، حول قبول مبدأ المفاوضات، واعتبرها الممثل الوحيد للشعب الجزائري المجاهد. كما جاء إعلان وزير خارجية الجمهورية اللبنانية بعد عام من تصريح رئيس الحكومة وذلك في يوم 17 فيفري 1961م، ليؤكد فيه مرة أخرى على التضامن مع القضية الجزائرية مادياً ومعنوياً، وتضمن قرار بلاده المساهمة بمبلغ مالي قدره 500 ألف ليرة لبنانية لتضاف إلى حساب ميزانية الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية[3].

وقد برز دور الطلاب اللبنانيين في تحريك مشاعر الشعب اللبناني من خلال لافتات كتب عليها مطالبة الدول العربية بالعمل السريع لإنقاذ الجزائر، والتنديد بأعمال الاستعمار الفرنسي الوحشية، وأكدوا في هذه المظاهرات العارمة على ضرورة تزويد الجزائر بالسلاح والمال والمتطوعين. وما جلب الانتباه هو تصدر فتاة لبنانية تحمل

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 87.

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 87.

(3) مواقف الدول العربية ص 297.

العلم الجزائري وبجوارها فتاة أخرى تحمل العلم اللبناني، ومن بيروت إلى مدن لبنانية أخرى منها طرابلس وصور، التي شهدت بدورها مظاهرات أقيمت على إثرها مهرجانات شعبية كبيرة، طالب فيها المشاركون إرسال برقيات تأييد وتضامن للشعب الجزائري، وضرورة الإسراع في مساعدة الثورة الجزائرية بالأموال والسلاح والمتطوعين، والتأكيد على مقاطعة فرنسا سياسياً واقتصادياً وثقافياً، وتنبيه حكومتهم بالإسراع في دفع مستحقاتها في الميزانية المخصصة للجزائر[1].

ومن جهة ثانية كانت سنة 1961م سنة التضامن الطلابي المتزايد، حيث استنكر شباب مدينة صيدا اللبنانية المؤامرة التي أعلن عنها الرئيس الفرنسي شارل ديغول، لكونها تهدف إلى تقسيم الجزائر، ومحاولة فصل الصحراء عن شمالها لغناها بالبترول، وقد أكدوا وقوفهم الدائم مع الشعب الجزائري في جهاده من أجل استرجاع الاستقلال الكامل والغير منقوص[2].

لم يمر عام على مظاهرات بيروت عام 1960م حتى انفجرت مظاهرات عارمة في ذكرى أول نوفمبر من عام 1961م، وكانت العاصمة بيروت ميداناً لها، حيث جسدت التأييد المطلق للقضية الجزائرية، وجاءت تحية للذكرى السابعة، وقد طاف المتظاهرون كل شوارع بيروت الرئيسية مارين بالسفارات العربية والأجنبية. وكانوا يرددون عبارات التأييد والدعوة لنصرة الشعب الجزائري، واستنكار العدوان الفرنسي الغاشم، وقد استمرت المظاهرات أوقاتاً طويلة. ونفس الحدث شهدته باقي كبريات المدن اللبنانية ومنها طرابلس حيث أقيمت فيها مهرجانات كبيرة إحياء ليوم الثورة الجزائرية[3].

وفي زيارة وفد الحكومة المؤقتة للبنان، وكان أعضاء الوفد: عباس فرحات، كريم بلقاسم، وأحمد توفيق المدني الذي ذكر قصة الزيارة في كتابه فقال:

.. وباشرنا الأعمال فقابلنا الرئيس الكيّس اللبق فؤاد شهاب، ورئيس الوزراء الحازم الفطن رشيد كرامي، ووزير الخارجية النابه الحاج حسين العويني، ورئيس مجلس النواب، وكانت كلها زيارات ودّ ومجاملة تكلمنا خلالها عن كل شيء خاصة قضية الجزائر، وما تتطلبه من جهود وموقفنا الخاص من فرنسا، وقالوا لنا جميعاً: إنهم معنا قلباً ولكن المال والسلاح على مراد الله، ووعدوا بالتأييد التام لدى هيئة الأمم المتحدة وبالسعي لدى فرنسا وهم مدللون لديها.

ثم قابلنا خشبة مسندة تدعى مفتي لبنان، كان يمتاز بصمته وبرودته وبما يظهر عليه من لا مبالاة مطلقة، وبسطت له وضعية الجزائر، فكنت كأنني أخاطب أوثان الكعبة في عصر الجاهلية، ثم قمنا للخروج فودعنا بقوله: الله ينجح المساعي، وخرجنا لا نلوي على شيء.

(1) المصدر نفسه ص 299.

(2) المصدر نفسه ص 300.

(3) المصدر نفسه ص 300.

ومن الغد قابلنا زعيم المسيحيين البطريك «المعوشي» كان رجلاً كاملاً شهماً بديع الكلام جليل الإنصات تحادثنا معه نحو ساعتين، كنا خلالهما في حضرة سياسي من الطراز الأول، وطني عربي من الصادقين، ومناضل يدرك معنى الثورة ويدرك ما تتطلبه الثورة، جادلنا فأحسن جدالنا، ووضعت القضية الجزائرية برمتها على المحك وبسط عنها من ارائه ما ملأنا إعجاباً وتقديراً قال:

إن استقلالكم أمر لا شك ولا ريب فيه، فقد امن به كل الناس، إنما الموضوع الحقيقي هو إدراك هذا الهدف بأقصى ما يكون من السرعة، وأقل ما يمكن من الضحايا، إنكم بذلتم إلى الان أقصى ما يمكن بذله من دماء ومن جهد ومن تضحيات، وقد جاءت ولا ريب ساعة الحصاد فلتكونوا حكماء ولتعرفوا كما قال العرب الأول: من أين تؤكل الكتف.

إنني سأكون بعد يومين في باريس ماراً بروما، وسأخاطب بإطناب قداسة الباب في الموضوع وأقنعه بوجوب قيامه بمسعى حميد في الموضوع، كما سأخاطب الجنرال ديغول ورجال حكومته ورجال الكنيسة الفرنسية، حتى تتضافر الجهود، وتقترب ساعة الخلاص، وأود أن ترسلوا لي بعد رجوعي رجلاً أخبره بما علمت وبما سمعت، وبما حققت.

ودعناه ورافقنا إلى الباب الخارجي، وعدنا أدراجنا نعادل في داخل نفوسنا بين مقابلة حضرة المفتي وحضرة البطريق الحكيم[1].

لقد استمر الدعم المعنوي والمالي بقدر المستطاع من الشعب اللبناني لثورة الجزائر من مصادر جماهيرية منظمة ومتعددة، وكانت تجمع وتوصل لممثل جبهة التحرير الوطني المساعدات المالية، كما كانت للحكومة اللبنانية مساهمات مالية ومعدات طبية توجه لمساندة حرب التحرير[2].

* * *

(1) حياة كفاح (635/3).

(2) السياسة العربية والسياسة الدولية ص 87.

الحادي عشر: الأردن:

كان للأردن موقف إيجابي تجاه الثورة الجزائرية، وذلك راجع للتأثير الشعبي الكبير على التوجه السياسي في الأردن الداعم للقضية الجزائرية والفلسطينية. والموقف الأردني عبّر عنه الملك اثناء زيارة الوفد الحكومي الجزائري لعمان في 23 . 27 مارس 1959م حيث قال:

إن ثورة الجزائر هي صوت القدر، وإن استقلال الجزائر هو حكم التاريخ، ولا يمكن ولا يعقل ولا يتصور أن تنتهي حرب تحريركم هذه دون أن ترفعوا أعلام الاستقلال زاهية فوق كل بقاع الجزائر، فالصبر والإيمان والثبات، إن عامل النصر الأول والأخير هو اقتناع المجاهد بالهدف الذي يجاهد من أجله، ولقد برهنتم للدنيا على أن المجاهد الجزائري هو أكثر الناس إيماناً بهدفه واستماتة في سبيل تحقيقه، إنكم تعتمدون على ركنين أساسيين هما مصر والسعودية، ومن بعدهما سوريا والعراق فاعتقدوا أنكم ما ازددتم جهاداً، إلا ازدادت الإعانات تدفقاً، أما نحن أهل هذه المملكة الضعيفة عدداً وعدة فليس لدينا إلا لقمة عيش، نحن مستعدون لاقتسامها معكم، هذا هو جهد المقل[1].

وخلال مراحل الحرب التحريرية الجزائرية كان للأردن مواقف غير متحفظة أو مترددة في مناصرة كل مطالب الجزائر، لاستقلال تام ومطلق لا يخضع لشروط ويضمن الوحدة الترابية للجزائر، ذلك ما أكدته الحكومة الأردنية في بداية مفاوضات إيفيان 20 مارس 1961م.

كانت السلطة الأردنية مؤيدة ومساندة للحراك الشعبي من تظاهرات وتجمعات منتظمة ومستمرة داعمة لثورة الجزائر، وبمناسبة يوم الجزائر 30 مارس 1958م نظم الأردن تظاهرات مساندة، وجمعت أثناءها تبرعات مالية بما فيها تنظيم مباراة في كرة القدم بين جيش التحرير الشعبي الجزائري والفرقة العسكرية الأردنية، وخصصت مداخلها لتدعيم حرب التحرير الجزائرية، وخصصت المملكة الأردنية سفينة أردنية لنقل الأسلحة من الإسكندرية إلى مراكز جيش التحرير الوطني بالجزائر.

وبعد استرجاع استقلال الجزائر جسّد الملك الاعتبار الخاص للثورة الجزائرية وقضيتها العادلة، بمنحه بناية عريقة وفي مكان متميز واستراتيجي بالعاصمة عمان مقراً لسفارة الجزائر مجاناً اعترافاً لثورة نوفمبر وشهدائها الأبرار[2].

* * *

(1) حياة كفاح (530/3).

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 89.

الثاني عشر: السودان:

كان السودان يحتفل دورياً بالذكرى السنوية لثورة نوفمبر على المستوى الشعبي والحكومي، وبهذه المناسبة تتضاعف تعبئة وتحسيس الشعب السوداني بالعمل على تقوية الدعم المعنوي والمادي لإخوانهم بالجزائر، وإدانة الاستعمار الفرنسي بقوة جماهيرياً وحكومياً.

بمناسبة الذكرى السابعة 1961م لثورة نوفمبر ؛ السيد طلعت فريد عضو المجلس الأعلى للثورة السودانية أكد على ديغول أن يعترف باستقلال الجزائر، وإلا فإن الجزائريين سيفرضون إرادتهم ويجبرونه على الخروج من الجزائر مكبلاً بالعار[1].

ولعبت السودان دوراً فعالاً خاصة مع الدول الإفريقية المجاورة للوقوف بجانب مطالب التحرر الجزائرية، وكان له تأثير إيجابي على أثيوبيا لاتخاذ موقف لصالح القضية الجزائرية في منظمة الأمم المتحدة.

مندوب السودان في الأمم المتحدة أحمد الصياد أكتوبر 1960م ؛ تحدث داعماً للجزائر وخاطب الجمعية العامة قائلاً: الحكومة الجزائرية تتصف بالنضج السياسي وتسلك سياسة سليمة، إن حكومتي تساند طلب الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بإجراء استفتاء تنظمه وتراقبه الأمم المتحدة[2].

وأثناء زيارة فرحات عباس «1959» رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة إلى السودان، وجد الوفد الجزائري ترحيباً خاصاً واستعداداً كبيراً لتدعيم حرب التحرير الجزائرية. وخلال هذه الزيارة أكد الرئيس السوداني الجنرال إبراهيم عبود للوفد الجزائري: رغم أننا مادياً فقراء، إلا أننا نقوم بواجبنا فوق استطاعتنا[3].

وفتح مكتب لجبهة التحرير الوطني الجزائرية رسمياً في العاصمة الخرطوم، ونتج عن ذلك أيضاً عقد عدة ندوات لشرح القضية الجزائرية وسبل دعمها مادياً ومعنوياً، وكان من أهمها الندوة التي عقدها الشيخ أحمد توفيق المدني رئيس الوفد الجزائري، وهذا ما دفع من ناحية أخرى إلى بروز دور الطبقة المثقفة السودانية في نصرة القضية الجزائرية جماهيرياً، حيث قام أساتذة وطلبة جامعة الخرطوم بمظاهرات وتجمعات تناولت التأييد المطلق لقضية الشعب الجزائري[4].

كما توالت دعوات السلطات السودانية الرسمية لجبهة التحرير الوطني، قصد المزيد من توعية الجماهير السودانية بالقضية الجزائرية، وكللت الزيارات المتكررة للسودان بزيادة ربط العلاقات الأخوية بين الشعبين الشقيقين، وأصبحت السودان من بين الدول العربية التي دافعت باستماتة عن الثورة الجزائرية، وأصبحت لها من الجرأة السياسية ما جعلها فاعلة عربياً، حيث اتخذت الحكومة السودانية قراراً شجاعاً، تمثل في سحب سفيرها من العاصمة الفرنسية باريس جراء السياسة القمعية المسلطة على الشعب الجزائري، وفي الخرطوم وجهت مذكرتي احتجاج شديدتي اللهجة للسفارة الفرنسية، عبّرت فيهما عن استنكارها الكبير للمجازر المرتكبة من طرف

(1) المصدر نفسه ص 77.
(2) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 77.
(3) المصدر نفسه ص 76.
(4) مواقف الدول العربية ص 307.

الجيش الفرنسي في حق الشعب الجزائري، ومن جهة أخرى طالبت الحكومةَ الفرنسيةَ بوقف تنفيذ أحكام الإعدام المتواصلة ضد الوطنيين الجزائريين، والإسراع في الاعتراف باستقلال الجزائر الكامل(1).

وأرسلت السودان عن طريق سفيرها بالقاهرة مبلغاً مالياً حسب طاقتها لجبهة التحرير الجزائرية، وفي عام 1961م كان مؤتمر الاتحاد الدولي للنقابات العربية الذي كان يضم نقابة العمال في مصر والعراق وليبيا واليمن والسودان، وكان يضم أكثر من ستة ملايين منخرط من العمال العرب، وفيه تم اتخاذ قرار هام تضمن التدابير الضرورية واللازمة من مقاطعة البضائع الفرنسية إلى جانب وسائل النقل من بواخر وطائرات، وحدثت هذه الجرأة بعد أن كانت هذه النقابات قد قاطعت البواخر الأمريكية، وقد نجحت المقاطعة وجاءت بنتائج إيجابية لصالح الثورة الجزائرية(2).

وكان التجاوب الشعبي كبيراً جداً. وهذا أحمد توفيق المدني يصف لنا تجمعاً شعبياً كبيراً ألقى فيه كلمة مؤثرة بخصوص ثورة الجزائر حيث قال: كان للاجتماع الشعبي العظيم الذي سمحت لنا السلطة بإقامته في أم درمان أعظم الأثر في نفسي وفي إخواني. وكان الاجتماع ليلاً ووقع في مكان فسيح جداً، يسع نحو خمسة أو ستة الاف من الناس، ورتبوا منصته أحسن ترتيب، ووضعوا على جوانبه مكبرات الصوت بصفة فنية محكمة لا أذكر أنني رأيت مثلها في الشرق، كان المنظر بديعاً حقاً، لقد اختلط سواد البشرة مع سواد الليل، ما كنت أرى من فوق المنصة إلا بحراً من الألبسة البيضاء الفضفاضة التي تتراءى للناظر وكأنها بناء مرصوص يشد بعضه بعضاً وفوقه بحر اخر بعد انفصال قليل، هو بحر العمائم البيضاء الضخمة التي يستعملها إخوتنا من أجل مقاومة اشعة الشمس وحرارتها.

والسوداني مستمع جليل يقدر قيمة الخطيب، فلا يقاطعه بهتاف أو صراخ أو بأناشيد هوجاء كما يقع بمصر وبالعراق خاصة، وتحمست وأسهبت في وصف الام الجزائر مما تقاسيه من بطش وإرهاق، وما يرتكب فيها من مجازر وفظائع لم تشاهد البشرية مثلها، وأكدت حاجة الجزائر إلى العونين المادي والأدبي، وبينما أنا في عنفوان الحماس أضع في الكلام قنابل محرقة، إذ بزوبعة هوجاء صارخة مدوية تنفجر في القاعة فتجرف معها كامل المستمعين، كأنما مسهم تيار كهربائي في ان واحد، وأخذت أستمع رغم إرادتي لصوت هو صوت أمة، صوت جهاد، هو صوت الضمير الحر انطلق من عقاله فجأة في سماء الشعور والإحساس، نادى الناس كافة بأصوات تشبه هزيم الرعد أثناء زوبعة عاتية عاصفة: الجهاد: الجهاد السلاح إلى الجزائر، وقال بعضهم: لا نترك النساء تذبح ونحن رجال قاعدون، وقال اخرون: لنشترك في حرب الجزائر فإن تحررت تحررنا جميعاً.

---

(1) مواقف الدول العربية ص 308.

(2) المصدر نفسه ص 309.

وهكذا أصبحت الخطابة من القاعة والقوم وقوف، وأصبحت أرى منظراً لم أره طوال حياتي في الكفاح، وأصبحت أرى بين بحر العمائم البيضاء وبين بحر الأردية البيضاء نوراً أحمر بلون الدم إلى أن كاد يفقدهم الشعور، وصعدت الدماء دفعة واحدة إلى الرؤوس، فاحمرت الأحداق حتى باتت وكأنها النار الحامية[1].

إلى أن قال:.. وأشرت إلى القوم بالسكوت وأعدت الإشارة مراراً إلى أن خفت وطأة الموجة العارمة ما تمكنت من إسماع صوتي بواسطة المكبرات حتى عدت إلى الحديث عن تلك الفظائع والموبقات بمثل لهجتي الأولى، وعقبت على ذلك بقولي:

إن إخوانكم مجاهدي الجزائر الأبية يتمتعون بحمد الله بقوة في البدن، وبكثرة عالية في العدد، ولو استطعنا أن نسلح مليوناً من الرجال، لوقف في الميدان مليون رجل يتقدمون بثغر باسم نحو النصر أو الشهادة. لا يا إخوان، لسنا في حاجة إلى الرجال، نحن في حاجة إلى مال وإلى السلاح، وإلى عمل سياسي خارجي يتوازن مع الكفاح الداخلي ويسانده، هذه هي حاجتنا الأكيدة وهذا هو واجبكم المفروض[2].

قال: وما كدت أنتهي حتى بادر القوم بتكوين لجنة من أحسن رجالهم الشعبيين من أجل جمع المال، على مقدار ما يستطيع السودان بذله إعانة لإخوانه المجاهدين في سبيل الله. ثم اجتمعنا بعد ذلك بقليل مع رجال اللجنة الشعبية وقررنا أنهم يرسلون لنا بالقاهرة، وبواسطة سفارة السودان، ما يجمعونه من شعب يذوق الجوع والحرمان لكنه يستطيع أن يجوع أكثر، وأن يتبرع بجزء من الضروري من قوته لإخوانه المجاهدين.

يا رجال السودان الأبرار، يا أبطال أفريقيا، يا غطارفة الإسلام، يا أباة الضيم، أسجل لكم على هذه الصفحة كلمة إعجاب وإكبار وإجلال، إن كان ما بين أيديكم قليلاً، فقد حملت قلوبكم الندية كنوز الدنيا وثروة العالم وليس الغنى هو غنى الجيب، إنما الغنى هو غنى القلب والروح، وقد متعكم الله بتلك الثروة الخالدة[3].

* * *

(1) حياة كفاح (281/3).

(2) المصدر نفسه (282/3).

(3) حياة كفاح (283/3).

الثالث عشر: اليمن:

انحصر دعم اليمن سياسياً في المحافل الدولية وعلى وجه الخصوص في هيئة الأمم المتحدة، حيث ناصرت القضية الجزائرية بجانب أشقائها العرب، في جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة، وكان ذلك في الفاتح من شهر أكتوبر عام 1955م. وكان صوت اليمن داعماً للموقف العربي الموحد من أجل نصرة القضية الجزائرية العادلة، رغم اعتبار فرنسا هذه العريضة عبارة عن أجل أعطي لفرنسا بطريقة غير مباشرة للإسراع إلى حل القضية الجزائرية مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية الممثل الشرعي للشعب الجزائري[1].

وفي 19 سبتمبر 1958م عندما تم الإعلان عن تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كانت اليمن من الدول السباقة إلى الاعتراف بها رسمياً وكان ذلك في 21 سبتمبر 1958م.

ومن المواقف الإيجابية تجاه الثورة الجزائرية هي مواصلة الدعم المعنوي في أعلى هيئة دولية، ففي دورة عام 1959م أكد ممثل اليمن على أنه يجب على الحكومة الفرنسية أن تقبل فكرة محاورة ممثلي الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، خاصة ما يتعلق بالطرق الكفيلة التي يمكن تطبيقها في الفترة الانتقالية، وذلك قبل البدء في عملية الاستفتاء مع ضرورة ضبط الضمانات التي أقرتها هيئة الأمم المتحدة لممارسة كل الحريات ولنجاح عملية الاستفتاء نفسها.

وفي سياق مساندة اليمن للثورة الجزائرية دبلوماسياً، فقد كان الوفد اليمني ضمن وفود الاتحاد الدولي للعمال العرب، الذي أكد في مؤتمره المنعقد 1961م على ضرورة مقاطعة الطائرات والبواخر والسلع الفرنسية.

وأما مؤتمر دول عدم الانحياز المنعقد في بلغراد عام 1961م، فقد شاركت فيه اليمن، وندد فيه مندوبها بالاستعمار العالمي وفضح مناورات الاستعمار البريطاني لتثبيت أقدامه في جنوب اليمن، وأكد على ضرورة احترام ومصداقية على قرار بمنع استعمال الأسلحة النووية في إشارة إلى فرنسا، والدعوة إلى عقد مؤتمر دولي بهذا الشأن خاصة وأن الظرف كان مناسباً، بحيث كانت فرنسا في الوقت نفسه قد بدأت تجاربها النووية في الصحراء الجزائرية[2].

كان التفاعل الشعبي والرسمي مع ثورة الجزائر كبيراً، وحتى الدول التي كانت تحت الاستعمار المباشر وغير المباشر ساهمت شعوبها وسلطاتها في دعم القضية الجزائرية كسلطنة عمان، والإمارات، والصومال، وجيبوتي، وجزر القمر والدول الإسلامية عموماً، وكان دعمها مادياً ومعنوياً وتنظيم مظاهرات جماهيرية دورية.

وكان تفاعل الشعب اليمني عظيماً مع الثورة الجزائرية، ولم يقتصر على التضامن المعنوي والتجمعات الشعبية للتنديد بالاستعمار الفرنسي أو على جمع التبرعات المالية، بل امتد حتى للحياة الثقافية والفنية اليومية للشعب اليمني. وعبد الهادي السبيت كان أحد الفنانين المشهورين الذين نشطوا فنياً، وكانت الأجواء الحماسية المؤثرة في داخل الشعب اليمني من خلال ترديد أبيات شعرية حول الثورة الجزائرية:

---

(1) مواقف الدول العربية ص 313.

(2) المصدر نفسه ص 316.

يا شـاكي السـلاح شـوف النصـر لاح   حـط يـدك على المدفع زمن الذل راح[1]

* * *

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 125.

الرابع عشر: المواقف الدولية تجاه ثورة التحرير:

دولياً شكّل عالم الجنوب «العالم الثالث» أهم مصدر «بعد الوطن العربي هو طبعاً جزء من عالم الجنوب» لدعم الثورة الجزائرية، كما كان لبعض الدول الاشتراكية والتيارات اليسارية والقوى التحريرية والإنسانية في عالم الشمال دور إيجابي بجانب القضية الجزائرية، وفي نفس الوقت واجهت الثورة الجزائرية مواقف دولية مناقضة لأهدافها خاصة من عالم الشمال، وبالأخص من حكومات الدول الأعضاء في منظمة حلف شمال الأطلسي(1).

وهناك عدة عوامل ساهمت في توطيد تضامن مستعمرات وشعوب عالم الجنوب، من بينها: التجربة والمعايشة المشتركة أو المتجانسة للاستعمار، القمع، التخلف، التمييز العنصري بين الأبيض الأوروبي الأصل وغير الأوروبي الأصل، الاستغلال «من طرف القوى الاستعمارية»، التعايش أو التوافق السياسي. الثقافي في مواجهة الثقافة الأوروبية النخبوية ذات البعد العنصري والاستغلالي التي طبعاً لا تعكس ثقافة وقناعة أغلبية الشعوب الأوروبية(2).

ومثل بقية قارات عالم الجنوب؛ كان الجزء الأكبر من اسيا ضحية للتوسع الاستعماري، حيث عاشت مناطق كثيرة منها مثل الهند الصينية مقاومة مسلحة مكثفة ضد الاستعمار لأكثر من 30 سنة «1975 . 1945م».

1 . الصين:

جاء أهم تأييد مطلق لحرب التحرير الجزائرية في عالم الجنوب خارج الوطن العربي من الصين، ولإبعاد التساؤل حول تصنيف الصين في عالم الجنوب؛ يكفي التذكير بأنها كانت ضحية للتوسعات الاستعمارية مثل معظم الدول في اسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية، فقد كانت الصين ضحية للاستعمار الياباني المباشر حتى الحرب العالمية الثانية، وهيمنة المعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية حتى انتصار الثورة الصينية «1949م» والإطاحة بنظام تشان كاي شيك، بل وحتى بعد انتصار الثورة الصينية بقيت أراض صينية تحت استعمار أو هيمنة الدول الرأسمالية الكبرى مثل هونغ كونغ، التي بقيت تحت الاستعمار البريطاني المباشر حتى 1997م، وتايوان التي هي عملياً مازالت إلى يومنا هذا تحت التأثير المباشر للولايات المتحدة الأمريكية خاصة عسكرياً، بالإضافة إلى ذلك لازالت هناك جزر صينية تقع بين تايوان واليابان تحت سيطرة هذه الأخيرة، ولازلت جزر ماكاو الصينية كذلك تحت الاستعمار البرتغالي، هناك اتفاق بين الصين والبرتغال لتسليم المستعمرة إلى الصين في ديسمبر 1999م(3).

---

(1) المصدر نفسه ص 140.

(2) المصدر نفسه ص 141.

(3) المصدر نفسه ص 142.

والصين دولة تعترف بالحكومة الجزائرية المؤقتة، وفي ثلاثة أيام فقط «22 سبتمبر 1958م» بعد تكوين هذه الأخيرة 19 سبتمبر 1958، في حين صدر الاعتراف السوفياتي سنتين من بعد 3 أكتوبر 1960م.

اعتبر ماو تسي تونغ القائد الصيني بأن تشكيل الحكومة الجزائرية المؤقتة كان تعبيراً عن إرادة الشعب الجزائري غير المساومة مع الاستعمار، ووصف السيد فرحات عباس الاعتراف الصيني بأنه تشجيع عظيم لأنه يعبر عن 600 مليون صيني، لقد تضمن الدعم الصيني للجزائر تغطية مالية وتجهيزات عسكرية مباشرة منذ بداية حرب التحرير الجزائرية، بما فيها 12 مليون دولار. وسنة 1959م وحدها سلمت الصين للجزائر 2 مليون فرنك فرنسي(1).

وكانت زيارات جبهة التحرير للصين متكررة، وفي إحدى لقاءاته بالوفود الجزائرية التي زارت الصين أثناء حرب التحرير الجزائرية، عقب ماوتسي تونغ على أحد المتدخلين من الوفد الجزائري عندما قال: بأننا جئنا لنتعلم الحرب الشعبية حرب العاصابات من الصين، أجابه ماو: كيف جئتم تتعلمون من تجربة الصين في الحروب الشعبية، ونحن تعلمنا ذلك منكم من مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري؟

وفي مارس 1959م كانت زيارة وفد جزائري برئاسة السيد عمر أو صديق كاتب دولة في الحكومة الجزائرية المؤقتة، وخلال هذه الزيارة تسلم الوفد الجزائري معدات وتجهيزات عسكرية وطبية(2).

كما حضر الوفد الأسبوع الجزائري في الصين 13 . 20 مارس 1959م لمناصرة الثورة الجزائرية، وكانت هذه المناسبة تنظم دورياً وباستمرار من طرف الصينيين حزباً وحكومة، وتتضمن معارض ومظاهرات تأييداً لكفاح الجزائر، وفي هذه المناسبة تجمع التبرعات، مثلاً في «مارس 1958م» وصل حجم التبرعات من ثلاث هيئات شعبية «لجنة تضامن الشعوب الاسيوية، جامعة النقابات الصينية، والجمعية الإسلامية» إلى أكثر من 200 ألف دولار.

وكانت الصحافة الصينية تعطي اهتماماً خاصاً لحرب التحرير الجزائرية، وبمناسبة زيارة يوسف بن خدة وزير الشؤون الاجتماعية في الحكومة الجزائرية المؤقتة إلى الصين «3 ديسمبر 1958م»، اعتبرت هذه الصحافة الصينية هذه الزيارة حدث اليوم، ووجد الوفد الجزائري استقبالاً خاصاً وترحيباً متميزاً من طرف القيادة الصينية وعلى رأسها ماوتسي تونغ، وفي هذه الزيارة كانت للسيد بن خدة اتصالات مكثفة ونشاط خاص مع القيادة العسكرية الصينية وعلى رأسها المارشال يونج ته هواي، نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع، أكد هذا الأخير للوفد الجزائري:

إن الشعب الصيني والحكومة الصينية يرحبان ترحيباً خاصاً بمندوبي حكومة الجزائر، بالرغم من بعد المسافة بين قطرينا إلا أن قلوبنا قريبة جداً من بعضها، ذلك أن تجربة الجزائر وتجربة الصين تجربة واحدة(3).

---

(1) المصدر نفسه ص 147.

(2) المصدر نفسه ص 149.

(3) المصدر نفسه ص 149.

وبعد انتصار الثورة الجزائرية، وجد الصينيون لدى الجزائريين تقديراً واعترافاً مستمراً بالمساعدات المعنوية والمادية التي قدمتها الصين الشعبية للجزائر من أجل انتصار الثورة الجزائرية، مثلما عبر عنه السيد عبد الرحمن كيوان رئيس البعثة الدبلوماسية الجزائرية بالصين «ماي 1961م»:

الشعب الجزائري لن ينسى أن حكومة الجمهورية الشعبية الصينية كانت من بين أولى الحكومات التي اعترفت بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، ومنذ ذلك الحين ما انفك بلدكم العظيم يقدم مساندة مستمرة لثورتنا. إن الصداقة الصينية الجزائرية تنصهر في الكفاح، لذلك فهي قوية ودائمة[1].

2 . أندونيسيا:

كان لأندونيسيا دور أساسي في تدعيم مشاركة الوفد الجزائري في مؤتمر باندونغ على الأراضي الأندونيسية رغم ضغوط الدول الغربية بقيادة فرنسا، واعتبر أحمد سوكارنو الرئيس الأندونيسي الممثلين الجزائريين في مؤتمر باندونغ قادة لقضية عادلة، ووجودهم يشكل الهدف الأساسي لمؤتمر باندونغ، وهو مساندة تحرير الشعوب المستعمرة، بالنسبة إلى الرئيس سوكارنو عدم الانحياز لا يعني عدم إدانة ومحاربة كل أنواع الاستعمار والهيمنة التي تمارسها القوى الاستعمارية، إننا محايدون حقاً، لكننا لسنا محايدين بالنسبة للاستعمار[2].

وأكد الرئيس أحمد سوكارنو في كل مناسبة دولية وقوف أندونيسيا بجانب حرب التحرير الجزائرية، وعمل دبلوماسياً من أجل تدويل القضية الجزائرية، وحتمية استرجاع الجزائر لسيادتها: من الواضح أن الشعب الجزائري يريد الاستقلال، هذه حقيقة لا يتطرق إليها الشك.. إذن فيجب تنظيم استفتاء بالجزائر تحت رقابة الأمم المتحدة.. ويجب أن يكون موضوع الاستفتاء، هو الاستقلال، فهذه القضية قد سويت بالدماء والدموع، ومن المؤكد أن الجزائر المستقلة ستتحقق[3].

3 . كوريا الشمالية:

وجد الوفد الحكومي الجزائري خلال زيارته إلى كوريا الشمالية «أفريل» 1960م برئاسة السيد كريم بلقاسم ترحيباً خاصاً وعناية متميزة واستقبالاً حاراً من طرف قيادة كوريا الشمالية.

إن الوفد الحكومي للجمهورية الديمقراطية الشعبية لكوريا ينظر بإكبار وإعجاب عظيم إلى الكفاح البطولي، الذي يخوضه الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي من أجل الاستقلال الوطني والحرية، ويعبر له عن تضامنه التام[4].

---

(1) المصدر نفسه ص 151.

(2) المصدر نفسه ص 153.

(3) المصدر نفسه ص 153.

(4) المصدر نفسه ص 155.

4 . فيتنام:

عاش الشعب الفيتنامي الاضطهاد والقمع الفرنسي، كما تذوق روح الانتصار على فرنسا، فلم يكن بحاجة لتوعية أو تعبئة لإدانة الاستعمار الفرنسي للجزائر. في أماكن ومدن مختلفة عبر التراب الفيتنامي ؛ وجد الوفد الجزائري بقيادة السيد يوسف بن خدة استقبالاً خاصاً، بداية بالقائد الفيتنامي هوشي منه، واستعداداً مطلقاً للتضامن مع الشعب الجزائري، وتدعيم معركته العادلة، وكان ذلك في 13 ديسمبر 1958م. وبنفس الروح والمحتوى والحماس استقبل وفداً حكومياً جزائرياً اخر برئاسة السيد كريم بلقاسم أثناء زيارته لفيتنام «أفريل 1960م».

يعبر الوفد الفيتنامي عن ابتهاجه بالنجاح العظيم الذي حققه الشعب الجزائري بمقاومته البطولية، ويشهّر الشعب الفيتنامي بالجرائم الفضيحة التي يرتكبها الجيش الفرنسي في الجزائر، ويستنكر بالخصوص الإعانات التي تقدمها أمريكا للمعتدين الاستعماريين ليواصلوا حربهم الاستعمارية ضد الشعب الجزائري[1].

رغم الإمكانيات المادية المحدودة لفيتنام، ورغم أن هذه الأخيرة في حد ذاتها كانت تعيش معركة تحررية ثانية ضد المعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ؛ فقد جسدت القيادة الفيتنامية دعمها للثورة الجزائرية ليس فقط في مجال المساندة المعنوية وتبادل الخبرات، بل تجاوز ذلك إلى إرسال (2 ماي 1961م) مساعدات غذائية بما فيها 201 طناً من الدقيق للاجئين الجزائريين بتونس[2].

5 . الهند:

المسلمون الهنود بما فيهم البنغلاديش. انفصلت عن الهند سنة 1971م. كان لهم تأثير هام على صانعي القرار الهندي في التعامل مع القضية الجزائرية بحكم وضعهم كقوة شعبية وجماهيرية أساسية داخل الهند، وكما كان لنشاطهم الشعبي بما فيه المهرجانات والمظاهرات المكثفة دور هام في تعبئة الجماهير الهندية ككل بعدالة القضية الجزائرية.

وكان للجالية العربية في الهند دوراً أساسياً في تنظيم المساندة الجماهيرية الهندية للثورة الجزائرية، وخلال زيارة الرئيس فرحات والوفد المرافق له لبومباي «2 فيفري 1961م» عايشوا شخصياً ومباشرة هذه التعبئة والمساندة الجماهيرية[3].

ودبلوماسياً كانت الهند بحاجة لربح أكبر عدد ممكن من الدول والحركات الاستقلالية باسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية، وبالنسبة للهند، مساندة القضية الجزائرية سوف يدعم حملتها الدبلوماسية لكسب حركات تحررية ودول فاعلة في الوطن العربي وعالم الجنوب ككل[4].

(1) المصدر نفسه ص 156.

(2) المصدر نفسه ص 157.

(3) المصدر نفسه ص 157.

(4) المصدر نفسه ص 159.

6 . ماليزيا:

وجد الشعب الماليزي في القضية الجزائرية عمقاً وهدفاً حضارياً مشتركاً لا بد من مساندتها، معاناة الشعب الماليزي من الاستعمار البريطاني أضاف عاملاً اخر لتعميق المساندة الماليزية لحرب التحرير الجزائرية، وترامي استقلال ماليزيا «1957م» مع أهم مرحلة في حرب التحرير الجزائرية، وبالتالي شكلت ماليزيا عضواً إضافياً فعالاً في تدعيم القضية الجزائرية دولياً، وأضافت وجود دولة إسلامية واسيوية أخرى تساند قضايا الاستقلال والتحرر في العالم، وكان للضغط الجماهيري تأثير خاص على ممثلي حكومات الدول الإسلامية في المحافل الدولية من أجل الوقوف بجانب حركات الاستقلال والتحرر الوطني في العالم الإسلامي[1].

7 . سنغافورة:

معايشة الشعب السنغافوري للتجربة الاستعمارية مع المستعمر البريطاني ؛ كانت عاملاً أساسياً وراء وقوف سنغافورة بجانب حرب التحرير الجزائرية، ذلك ما لمسه الوفد الجزائري برئاسة السيد عباس فرحات خلال زيارته إلى سنغافورة «26 جانفي 1961م». واستقبل السنغافوريون الوفد الجزائري بمظاهرات منددة بالقمع الفرنسي للشعب الجزائري، بالإضافة إلى حرق صورة رمزية لعلم الاستعمار الفرنسي، والمناداة بحياة الشعب الجزائري واستقلال الجزائر، وسقوط فرنسا[2].

8 . باكستان:

أكدت السلطات الباكستانية باستمرار مواقفها الإيجابية تجاه حرب التحرير الجزائرية واسترجاع استقلال الجزائر، ومنها تصريح الرئيس الباكستاني أيوب خان إلى السيد محمد قلو رئيس البعثة الجزائرية بالباكستان «نوفمبر 1961م»:

إنني كرئيس دولة شاعر بمصالح شعبه، وكرئيس عسكري مقتنع بأحكامه، أتحدث إليكم بكل صراحة وبساطة، وأجدد للشعب الجزائري والممثلية تأييد حكومتنا، وتأييد الشعب الباكستاني للجزائر المكافحة من أجل استقلالها.

وتأخرت باكستان في اعترافها الرسمي بالحكومة المؤقتة وكان بعد 3 سنوات من تأسيسها، ولهذا مهما كانت مواقف الباكستان بجانب قضايا الاستقلال والتحرر؛ فإن سلوكها السياسي والدبلوماسي والعسكري كان دائماً متأثراً بارتباطها الوطيد بالمعسكر الرأسمالي، ورغم تأثير المعسكر الرأسمالي ـ المؤيد لفرنسا ـ فإن رئيس الحكومة المؤقتة فرحات عباس وجد استقبالاً معتبراً بالباكستان «أفريل 1959م»، واستعداداً جماهيرياً لدعم الثورة الجزائرية معنوياً ومادياً.

---

(1) المصدر نفسه ص 160.

(2) المصدر نفسه ص 160.

9 . تركيا:

بعد زيارة السيد عدنان مندريس «أفريل 1958م» رئيس الحكومة التركية إلى ليبيا والاستقبال الرسمي الليبي الفاتر مرفوقاً بالاحتجاج والمقاطعة الجماهيرية ؛ بدأت تركيا تغير من سياستها تجاه الثورة الجزائرية خاصة في مجال التدعيم العسكري، وتم ذلك بالتنسيق مع الحكومة الليبية، كما بدأت الحكومة التركية تدريجياً بتغيير سياستها بما فيها السماح بفتح مكتب لجبهة التحرير الوطني في أنقرة وكان الموقف الشعبي داعماً ومؤيداً للثورة الجزائرية.

10 . إيران:

كانت دولة إيران في تلك الفترة حكومتها منسجمة مع الغرب، وتتماشى أكثر مع الانتماء الغربي، وأما على المستوى الجماهيري فقد كان للشعب الإيراني مواقف مساندة وداعمة للثورة الجزائرية، دفعت النظام الإيراني إلى عدم الوقوف علنياً ضد القضية الجزائرية في المحافل الدولية خاصة مع اقتراب انتصار حرب التحرير الجزائرية.

* * *

الخامس عشر: دعم بعض الدول الأفريقية:

قال نيلسون مانديلا 1998م: الجزائر كانت وستبقى قلعة الثوار والأحرار، والسند القوي لكل الشعوب المناضلة من أجل العدالة والحرية، ومواقفها الأصيلة ترجمتها إلى عطاء ودعم وإسهام مباشر في تحرير القارة الأفريقية، إن عطاء ثورة الجزائر وجبهة التحرير الجزائرية كان عظيماً وقوياً وفاعلاً، وستظل كل الشعوب الأفريقية تذكر باعتزاز للجزائر دورها الرائد في تحريرها من الاستعمار، وتثمن جهودها في توحيد وتضامن القارة وشعوبها، والنهوض بالتنمية والاقتصاد فيها[1].

وحين انتقلت حرب التحرير الجزائرية، كانت معظم البلدان الأفريقية تحت الاستعمار، وكان واضحاً أن الاستعمار لن يتنازل عن مناطق كثيرة منها: أنغولا، جنوب أفريقيا، وناميبيا، واعتبرت جبهة التحرير الوطني باستمرار بأن عملها التحرري جزء مكمل، وله تأثير متبادل من أجل تحرير أفريقيا ككل.

لقد وجدت حركات الاستقلال والتحرر الأفريقية في الثورة الجزائرية نموذجاً ليس فقط في إخراج استعمار تقليدي، بل كذلك نموذجاً لمواجهة الاستعمار الاستيطاني وخاصة في أنغولا، الموزمبيق، زمبابوي[2].

وكانت دافعاً قوياً لحركات الاستقلال لعدم المساومة مع المستعمر مثل ما حدث في غينيا والكونغو وغانا ومالي، وأما عن التأييد الأفريقي للثورة الجزائرية، فقد كانت لبعض الدول الأفريقية مواقف جد إيجابية ومتشددة ضد الاستعمار الفرنسي، ومساندة بدون تحفظ للقضية الجزائرية دولياً ولحرب التحرير الجزائرية داخلياً، مثل:

1 . غينيا:

كان لدى غينيا قيادة وطنية برئاسة أحمد سيكوتوري، الذي عرف بمواقفه الثابتة ضد الاستعمار وهيمنة القوى الرأسمالية ليس فقط على غينيا، بل على أفريقيا والعالم ككل. وكان سيكوتوري أحد القادة البارزين والقياديين المناوئين للاستعمار، والمطالبين باستقلال وتحرير الشعوب دون قيد أو شرط، ومناصراً لكل الوسائل التي تضمن ذلك بما فيها العمل المسلح حين قال:

.. فنحن مصممون تصميماً راسخاً على تقديم مساعدتنا غير المشروطة للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية من أجل استقرار السلم في الجزائر، حسب الشروط والضمانات التي حددتها الحكومة الجزائرية... ونحن نعلم بصفة واضحة أن موقف الحكومة الفرنسية نحو الرغبات الشرعية للشعب الجزائري ؛ سيحدد بشكل أقوى وأوضح موقف الشعب الغيني وحكومته من الحكومة الفرنسية[3].

ولم يتوقف الرئيس أحمد سيكوتوري في تأييده المطلق للثورة الجزائرية على العلاقات الثنائية بين البلدين الجزائر وغينيا، بل حمّل كل دولة أو حكومة مسؤولية إجرامية في حالة التردد أو التحفظ من مساندة الثورة الجزائرية:

---

(1) المصدر نفسه ص 165.

(2) المصدر نفسه ص 165.

(3) المصدر نفسه ص 166.

إن كل حكومة لا تهتم بقضية الشعب الجزائري في استقلاله إنما تشارك الاستعمار في جرائمه، وإن أية حكومة تعلن أنها غير مسؤولة إزاء القضية الجزائرية ؛ فإنما تتحمل بموقفها هذا مسؤولية تأييد الاستعمار ومناصرة الظلم والعدوان[1].

2 . الكونغو:

اتخذ السيد لومومبا أثناء إدارته للحكومة الكونغولية مواقف هادفة وقوية بجانب حرب التحرير الجزائرية والأفريقية بصفة عامة، ولو على حساب وجوده على رأس الحكومة الكونغولية، وذلك ما تضمنته مثلاً تأكيدات السيد لومومبا إلى السيد فرحات عباس رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة أثناء لقائه بهذا الأخير «13 أوت 1960م»:
إن المشكل الجزائري بالنسبة لنا هو مشكل القارة الأفريقية بأكملها، إن أفريقيا لا تحمل أي حقد للرجل الأبيض، وإنما تطالب بحقها في الكرامة والحرية مثل جميع بلدان العالم.
إنه لا وجود لجزائر فرنسية في نظرنا، وإنما هناك جزائر وكفى، وهذه الجزائر توجد في القارة الأفريقية.
على الغرب اليوم أن يختار: أما أن يقبل بتحرير أفريقيا بأكملها ويعيش معها في ظل الصداقة، وإما أن يرفض صداقة أفريقيا[2].

3 . غانا:

الرئيس الغاني كوام نكرومة أكد دورياً انسجام مواقف حكومته مع الشعب الغاني، مبرزاً قناعته وتأكيده من حتمية الانتصار الجزائري على فرنسا، في خطابه أمام الدورة الخامسة عشر للجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة أكتوبر 1960م، وكرر الرئيس نكرومة وأكد موقف بلاده والمتمثل في:
إن فرنسا لا تستطيع أن تنتصر عسكرياً، والطريق الوحيد للخروج بفرنسا من هذا المأزق هو طريق التفاوض[3].

4 . مالي:

كانت مالي حكومة وشعباً بقيادة موديبو كابتا داعمة للتحرر الجزائري، وكانت ممراً هاماً لعبور الأسلحة عبر الجنوب الجزائري لتدعيم حرب التحرير الجزائرية، وكانت تنظم مظاهرات شعبية خاصة في المناسبات الوطنية للثورة الجزائرية، مندددة بالاستعمار الفرنسي، مؤكدة تضامن الشعب المالي مع معركة تحرير الشعب الجزائري[4].
وقال مندوب مالي في الأمم المتحدة نهاية سبتمبر 1960م: إن حرب الجزائر وحدها كانت سبباً كافياً لحمل الدول الأفريقية على قطع علاقاتها مع فرنسا، إذ أن فرنسا تقود في الجزائر حرباً إبادية.

---

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 166.
(2) المصدر نفسه ص 167.
(3) المصدر نفسه ص 168.
(4) المصدر نفسه ص 169.

وبالنسبة إلى مالي لم يكن هدف ونموذج الثورة الجزائرية فقط لتحرير الجزائر، بل لتحرير أفريقيا ككل لأن تضحيات الوطنين الجزائريين بعد تضحيات الوطنين في فيتنام ؛ هي السبب في تطور الموجة التحريرية، التي تعدّ جميع الدول الأفريقية مدينة لها بالاستقلال.

وساندت حكومة مالي كل مطالب الحكومة الجزائرية المؤقتة في مفاوضات إيفيان، ذلك ما أكده الرئيس موديبو كابتا نفسه في رسالة موجهة إلى السيد فرحات عباس رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة[1].

ومهما كان مستوى حجم المساندة للثورة الجزائرية من بعض الدول الأفريقية ؛ فإنها لا تخفي التأييد الأفريقي الجماهيري الواسع على مستوى البلدان الأفريقية، سواء التي كانت مستقلة، أو التي كانت انداك ما زالت تحت الاستعمار.

وشعبياً كان الجميع في تضامن مطلق مع الثورة الجزائرية، ومساندة مستمرة على مستوى التنظيمات والتجمعات غير الحكومية إقليمياً ودولياً. كما كان بالمقابل لممثلي جبهة التحرر الوطني والحكومة المؤقتة تنسيق وتضامن دائم مع قوى وحركات التحرر الأفريقية في المحافل الدولية، من أجل مناصرة استقلال وتحرير كل الأراضي المستعمرة في أفريقيا خارجياً[2]

* * *

(1) المصدر نفسه ص 169.

(2) المصدر نفسه ص .170.

السادس عشر: الاتحاد السوفياتي ودول أوربية:

1 . الاتحاد السوفياتي:

لم يخفِ الرئيس خروتشوف النظرة السوفياتية لحرب التحرير الجزائرية من خلال المنظور الفرنسي، معتبراً القضية الجزائرية مشكلاً فرنسياً ويجب أن يحل داخلياً، وأن «المشكل القائم» في شعوب الاتحاد الفرنسي. ولهذا لا يمكن للاتحاد السوفياتي التدخل في الشؤون الداخلية للدولة، وذلك ما أكده كذلك مولوتوف، أحد قادة السوفيات:

إن رغبة الحكومة السوفياتية هي أن تبقى فرنسا في الجزائر. وتعامل الاتحاد السوفياتي الداعم لفرنسا على حساب الجزائر وجد انتقاداً شديداً من طرف الحكومات العربية، مؤكداً للرئيس خروتشوف أن ذلك سوف يعمق الهوة الفاصلة بينه وبين الأقطار العربية، ولم يعترف الاتحاد السوفياتي بالحكومة المؤقتة الجزائرية، إلا بعد 3 أكتوبر 1960م، أي بعد أن تأكد للاتحاد السوفياتي ـ مثله فرنسا ـ حتمية نهاية وجود الاستعمار الفرنسي[(1)].

بعد ذلك تغير الموقف السوفياتي، وفي أكتوبر 1960م:

إن فرنسا تشن حرباً استعمارية طاحنة في الجزائر، مستعملة الطائرات والمدافع والدبابات وقنابل النابالم وغيرها من وسائل الإبادة ضد الجزائريين، الذين يكافحون منذ سنوات بكل شجاعة وبطولة من أجل حرية وطنهم لاستقلاله. لقد قتلت فرنسا مئات الالاف من الجزائريين ودمرت وأحرقت مئات المدن والقرى وقذفت بخمس السكان في المحتشدات، إن هذه الوضعية لا يمكن أن نسمح باستمرارها، ولا يمكن أن تدوم أكثر مما دامت، أساند اقتراح الحكومة الجزائرية، إن الجزائريين يعرفون أحسن من أي أحد أليق الحلول بهم. إن عواطفنا معهم، لأن عواطفنا تميل مع المكافحين من أجل الحرية والاستقلال[(2)].

2 . يوغسلافيا:

يوغسلافيا الدولة الوحيدة الأوربية التي اتخذت مواقف متشددة من الاستعمار الفرنسي بعيدة عن توظيف لعبة المصالح السياسية والاستراتيجية مع فرنسا، وقدمت مساندة سياسية ودبلوماسية للقضية الجزائرية دولياً، ودعمت مالياً وعسكرياً حرب التحرير،وأشاد الرئيس اليوغسلافي تيتو، أثناء زيارته إلى تونس أفريل 1961م ولقائه بالحكومة المؤقتة برئاسة السيد فرحات عباس:

إن الشعب الجزائري بكفاحه البطولي، والدم الغزير الذي بذله خلال 7 سنوات ؛ قد أعطى أدلة لا تحصى على عزمه الراسخ في انتزاع حريته واستقلاله، وإن هذا الكفاح البطولي قد لقي وسيلقى دائماً عطفاً وتأييداً

(1) المصدر نفسه ص 181.

(2) الرئيس خروتشوف، في ندوة صحفية خلال تواجده في الدورة 15 للأمم المتحدة بنيويورك، المجاهد العدد 3178، أكتوبر 1960م ص 2.

مطلقاً من طرف شعوب يوغسلافيا، التي بذلت هي نفسها تضحيات جسيمة لتحقيق حقها المقدس في الاستقلال.

وفي الدورة الخامسة عشرة (15) للأمم المتحدة «أكتوبر 1960م» قال السيد جوزيف تيتو، رئيس يوغسلافيا:

.. إن الشعب الجزائري الذي يواصل تقديم تضحيات كبرى يطالب بحقه الطبيعي والشرعي في تقرير المصير، هذا الحق اعترفت به فرنسا، لكن المفاوضات التي تلت برهنت مع الأسف أن الفرنسيين لم يستخلصوا النتائج العملية المترتبة على الاعتراف بحق تقرير المصير، ولهذا تبحث الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية عن مخرج بواسطة استفتاء يجري تحت رقابة الأمم المتحدة، ونحن لا نملك إلا أن نحيي ونؤيد هذا الاقتراح.. فإن لم يحل المشكل الجزائري في أمد قريب حلاً ديمقراطياً، فإن ذلك لا يعني ضمنياً مشروعية إباحة استعمال القوة لخنق مطامح شعب، وذلك يؤدي في الواقع إلى إباحة الحرب بصفة عامة[1].

وكانت الزيارة الأولى للرئيس فرحات عباس إلى يوغسلافيا «جوان 1959م»؛ بداية عملية لاعتراف يوغسلافيا بالحكومة الجزائرية المؤقتة، وهكذا كانت يوغسلافيا أول بلد أوربي يعترف بالحكومة الجزائرية المؤقتة.

أثناء زيارة الوفد الحكومي الجزائري إلى يوغسلافيا، أكدت هذه الأخيرة مساندتها المطلقة لحرب التحرير الجزائرية، وتعاملت مع الوفد الجزائري على أساس علاقات ثنائية بين دولتين، وليس فقط علاقة دولة مع حركة تحررية سواء في الاستقبال أو في الإيواء أو البروتوكولات التي تمت بين الحكومتين.

وصفت «المجاهد» الاعتراف والتدعيم اليوغسلافي للجزائر:

إن يوغسلافيا كانت هي أول بلد أوربي عبر عن مساندته للكفاح التحريري الجزائري، بمثل هذه القوة، وبمثل هذه الصراحة، وبمثل هذا الحماس، وبمثل هذه الرسمية، ونحن لا نشك أن الأمة اليوغسلافية إذ تفعل ذلك ؛ فلأنها تعرف أنه كفاح شبيه بالكفاح الذي قادته المقاومة اليوغسلافية، وعلى رأسها الماريشال تيتو، ضد الاحتلال الأجنبي[2].

وثاني لقاء على أعلى مستوى بين قيادتي الحكومتين الجزائرية واليوغسلافية تم مع الرئيس اليوغسلافي تيتو أثناء زيارة هذا الأخير إلى تونس «أفريل 1961م».

في هذا اللقاء قرر الرئيس تيتو مضاعفة المساندة اليوغسلافية المالية والعسكرية لحرب التحرير الجزائرية[3]، داعياً الحكومة الجزائرية لإرسال طلابها وجنودها للتكوين بيوغسلافيا مجاناً، وإرسال الجرحى من الثوار الجزائريين إلى المستشفيات اليوغسلافية، حتى داخل تونس كانت يوغسلافيا بواسطة سفيرها تزود باستمرار ممثلي جبهة التحرير الوطني بأجهزة صحية وطبية لمعالجة ضحايا حرب التحرير الجزائرية[4].

وأثناء تسليمه لأدوية وأجهزة صحية للجزائريين أكد سفير جمهورية يوغسلافيا بتونس:

---

(1) المجاهد، العدد 78، 3 أكتوبر 1960م، ص 2.

(2) المجاهد، العدد 44، 14 جوان 1959م ص 3.

(3) المجاهد، العدد 94، ص 3.

(4) المجاهد، العدد 94، ص 3.

إن التضحيات التي قدمتموها خلال كفاحكم من أجل حرية واستقلال الشعب الجزائري ؛ تحتم على جميع القوى وجميع الشعوب التقدمية والديمقراطية في العالم، أن تقدم مساعدتها وتأييدها في هذه الفترة الحاسمة من النهاية المشرفة لمجهوداتكم النضالية، في سبيل انتزاع حريتكم الكاملة ووحدة ترابكم الوطني[1].

كما أكد السفير اليوغسلافي استعداد بلاده الدائم لمضاعفة المساعدة للاجئين الجزائريين، وكان محسوساً عبر مراحل حرب التحرير الجزائرية، بما فيها تقديم إعانات مالية[2].

وعقب لقاء الوفد الجزائري بالرئيس تيتو «أفريل 1961م» أكد السيد محمد يزيد وزير الأخبار في الحكومة المؤقتة قائلاً:

إن العلاقات مع الشعوب اليوغسلافية، وخاصة مع الماريشال تيتو ؛ كانت منذ يوم غرة نوفمبر 1954م أخوية ومثمرة، إن الوفد الجزائري عبّر للرئيس تيتو عن تقديره للمساندة الحارة التي يقدمها للثورة الجزائرية.

وكان ثالث لقاء بين قيادتي الحكومتين تم بيوغسلافيا «سبتمبر 1961»، حينما زار السيد فرحات عباس يوغسلافيا لتمثيل الجزائر في المؤتمر الأول لدول عدم الانحياز[3]، ووجدت القضية الجزائرية في هذا المؤتمر تدعيماً خاصاً ولهجة متشددة من معظم رؤساء الحكومات والدول من القارات الثلاث: اسيا، إفريقيا، وأمريكا. خاصة من دول مثل: يوغسلافيا، مصر، العراق، أندونيسيا، غينيا، وكوبا[4].

أدت هذه المساندة اليوغسلافية المطلقة للثورة الجزائرية إلى تعرضها للعدوان الفرنسي على غرار مصر، والمغرب وتونس، بما فيها قرصنة الأسطول الفرنسي باستمرار لسفن يوغسلافية أو حجزها من طرف البوارج الحربية الفرنسية[5].

3 . مساندة الولايات المتحدة الأمريكية لفرنسا:

لم يكن الدعم العسكري الأمريكي لفرنسا فقط عن طريق منظمة الحلف الأطلسي، بل كان كذلك مباشراً كلما أحست بأن جيش التحرير الوطني الجزائري يهدد فرنسا. ذلك ما يفسر مشاركة طائراتها مع فرنسا في ضرب ساقية سيدي يوسف.

وفي المحافل الدولية لعبت الولايات المتحدة الأمريكية الدور القيادي في التعبئة والتأثير من أجل تدعيم المنظور الفرنسي، بما فيها الحملة لوقف طرح القضية الجزائرية في منظمة الأمم المتحدة، وحتى محاولة التأثير على الدول العربية مثلما حدث لملك المغرب محمد الخامس 25 نوفمبر 1958م، أثناء زيارة هذا الأخير إلى الولايات المتحدة الأمريكية، رفض الملك محاولة التأثير عليه، وأكد الموقف المغربي المؤيد بصفة مطلقة لاستقلال الجزائر

(1) المجاهد، العدد 114، ص 2.
(2) المجاهد، العدد 37، ص 11.
(3) المجاهد، العدد 104 «11 ديسمبر 1961».
(4) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 189.
(5) المصدر نفسه ص 189.

الكامل، من أن الأهداف الأساسية لزيارة الملك إلىالولايات المتحدة كانت محاولة كسب الراي العام العالمي بجانب القضية الجزائرية.

وفي اجتماع لأعضاء حلف بغداد بأنقرة «ديسمبر 1957م»، رفضت الولايات المتحدة طلب العراق دراسة القضية الجزائرية، والتوصل لحل يضمن استقلال الجزائر. وتجاهلت الولايات المتحدة الأمريكية حتى اراء خبرائها وممثليها ونصائحهم لتبني موقف معتدل تجاه استقلال الجزائر لأنه أمر محتوم، كما ذهبت الولايات المتحدة حتى لدرجة الضغط على الحكومة التونسية من أجل تقييد نشاط الحكومة الجزائرية المؤقتة وجبهة التحرير الوطني بتونس، وعرقلة مسيرة حرب التحرير الجزائرية. وأكدت الولايات المتحدة الأمريكية في لقاء لأعضاء منظمة الحلف الأطلسي بباريس «ديسمبر 1957م» مساعدتها وتدعيمها المادي والمعنوي لفرنسا، بما فيها تسليم نصف مليار دولار في هذه المناسبة فقط لتدعيم فرنسا لمواجهة جيش التحرير الوطني.

وبالنسبة للحلف الأطلسي، الجزائر قطعة من فرنسا، وبالتالي فهي تحت النفوذ والنطاق الاستراتيجي للحلف، ولهذا شكلت الثورة الجزائرية بالنسبة لأعضاء الحلف تهديداً لمجالهم الحيوي منذ البداية، فيجب مجابهتها. واتفقوا جميعاً على إرسال قوات أطلسية دفاعاً عن المجال الحيوي للحلف.

وأدانت جبهة التحرير الوطني باستمرار موقف الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت واعية لتحالفها العضوي مع فرنسا، واعتبرت القمع الفرنسي المباشر للشعب الجزائري قمعاً أمريكياً أيضاً[(1)].

* * *

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 194، 195، 196.

المبحث الرابع

الحكومة المؤقتة والمفاوضات مع فرنسا

أولاً: الحكومة المؤقتة:

إن فكرة تأسيس حكومة جزائرية مؤقتة لم تكن من بنات أفكار لجنة التنسيق والتنفيذ الثانية «أوت 1957 سبتمبر 1958»، ولم تكن أيضاً ثمرة لمقررات أول دورة للمجلس الوطني للثورة الجزائرية «20 . 28 أوت 1958م»، كما أنها ليست وليدة لتوصيات مؤتمر طنجة في أفريل 1958م، ولكنها ظهرت للمرة الأولى من صلب مشروع اقترحه عناصر الوفد الخارجي على القيادة التنفيذية المركزية للثورة في العاصمة في منتصف عام 1956م.

لقد جوبهت فكرة تأسيس الحكومة التي أعلنها انذاك كل من محمد خيضر وأحمد بن بلة بالرفض الشديد من طرف عبان رمضان، الذي أبدى امتعاضاً كبيراً من فكرة تشكيل حكومة جزائرية في المنفى، وقد أدى تباين المواقف حول هذا المشروع إلى احتقان وتوتر في العلاقة بين ما أصبح يعرف بالداخل والخارج في قيادة الثورة انذاك، كما أدت التطورات السياسية التي عرفتها حرب التحرير في خريف 1956م إلى تأجيل فيه إلى بداية عام 1958م.

وكان خروج القيادة التنفيذية للثورة من الجزائر في بداية عام 1957م، إلا أن فكرة إنشاء حكومة جزائرية مؤقتة لم يتم طرحها كأولوية بالنسبة لقيادة الثورة، وذلك بسبب التأزم الداخلي الشديد الذي عرفته صفوف لجنة التنسيق والتنفيذ الثانية ابتداء من اجتماع أوت 1957م.

ولعل انشغال قيادة الثورة التي استقرت بصورة نهائية في الخارج مطلع عام 1958م بترتيب أوضاعها وتوزيع المهام بين أبرز عناصرها، هو الأمر الذي أدى إلى إرجاء البدء في مشروع تشكيل الحكومة الجزائرية في المنفى إلى غاية ربيع 1958م[1].

ويرى بعض المؤرخين بأنه أصبح لزاماً أمام ألاعيب فرنسا ومناورات ديغول المتعددة، أن يعلن عن تأسيس تلك الحكومة، وأخذت الفكرة تسري كالنار في الهشيم، يتكلم الناس عنها في كل مكان، فرنسا، في الشرق، في تونس، المغرب، وتوالت المذكرات في القاهرة وغيرها، واعتكف الناس على دراسة ذلك العمل وطريقة إنجازه[2].

يقول الأستاذ أحمد توفيق المدني: وقد فهمت من مذاكراتي مع الإخوة المصريين أنهم لم يكونوا مؤيدين لقيام حكومة مؤقتة، وأنهم كانوا يؤمنون إيماناً أعمى بزعامة أخلصت لهم وأخلصوا لها، ورجال تلك الزعامة يوجدون

---

(1) الولايات التاريخية لثورة التحرير الجزائرية، د . محمد صالح بجاوي ص 301.

(2) حياة كفاح (579/3).

بالسجون الفرنسية، فإما أن تكون الحكومة منهم أو لا تكون أصلاً، ثم إنهم زيادة على كل ذلك لم يكونوا يثقون بالأستاذ فرحات عباس، وهو من جهته لا يثق بهم، إنهم لم يتفاهموا معه أصلاً، فلا يتكلم بالعربية معهم ولا هم يتكلمون بالفرنسية معه، ويرون فيه رأياً حاسماً قاطعاً: إنه رجل دُسَّ على الثورة، قصد جرها إن عاجلاً أو اجلاً إلى مفاوضات مع فرنسا تخرج الجزائر من ميدان العمل الثوري العربي إلى ميدان العمل مع فرنسا، والسير في ركاب الغرب. وعمل المصريون بمختلف الوسائل على إحباط ذلك المسعى، فأخفقوا، بينما كان رجال كل الدول يؤيدون ويحبذون، وبعد استشارات طويلة ومذاكرات متشعبة.. بقيت خارجاً عنها بصفة تامة، بأنه وقع تشكيل حكومة وُضعت بها رغم أنفي(1).

1 . إعلان الحكومة المؤقتة:

قال المدني: وسُلِّمت بياناً عنها ـ أي عن الحكومة المؤقتة ـ ليلة الإعلان، إلى كل السفارات العربية، وإلى السيد فتحي الديب ليبلغها بدوره إلى السيد الرئيس عبد الناصر، قال لي الأخ فتحي وهويضحك ضحكة صفراء، فاقع لونها: سجل من الان، إننا أول معترف بهذه الحكومة، إنما سجل عندك خاصة أننا لسنا راضين بها، ونخشى أن تسوء العاقبة من جراء وجودها.

وكان يوم 19 سبتمبر 1958م، هو يوم إعلان الحكومة، وقد اجتمع رجال الصحافة، ومختلف ممثلي وكالات الصحف الأجنبية بقاعة في عمارتنا بشارع مديرية التحرير، وحضر معنا سفير العراق الثائر بالقاهرة، الأستاذ رفيق السامرائي، وتولى الرئيس فرحات عباس تلاوة قرار التأليف، وأخذت الكلمة بعده، فعرّبتُ للحاضرين ذلك القرار، وأعلنت أن حكومة الجمهورية المتحدة، قد أعلنت اعترافها بهذه الحكومة، وقدم لي حالاً الأخ السامرائي بياناً تلوته على الحاضرين وفيه اعتراف العراق بالحكومة، وتلا ذلك فوراً سفير ليبيا معترفاً رسمياً بالحكومة، وكذلك سفير دولة باكستان، وهكذا بين الساعة الواحدة و5 دقائق والساعة الواحدة و10 دقائق تم اعتراف خمس دول بالجمهورية الجديدة، وعلى السادسة من مساء ذلك اليوم جاء اعتراف دولة اليمن(2).

2 . وزراء الحكومة المؤقتة:

تكونت الحكومة المؤقتة من:

ـ فرحات عباس	رئيس الحكومة.
ـ كريم بلقاسم	نائب الرئيس.
ـ أحمد بن بلة «سجين»	نائب الرئيس ووزير القوى المسلحة.
ـ محمد خيضر «سجين»	نائب الرئيس.
ـ حسين ايت أحمد «سجين»	نائب الرئيس.

(1) المصدر نفسه (580/3).

(2) حياة كفاح (581/3).

. محمد بوضياف «سجين» نائب الرئيس.

. رابح بيطاط «سجين» نائب الرئيس.

. دكتور محمد أمين الدباغين وزير الخارجية.

. محمد الشريف وزير التسليح والتموين.

. عبد الحميد بو الصوف وزير المواصلات والاتصالات العامة.

. عبد الحميد مهري وزير أمور الشمال الأفريقي.

. الدكتور أحمد فرنسيس وزير المالية.

. محمد يزيد وزير الأخبار والإعلام.

. ابن يوسف بن خدة وزير الشؤون الاجتماعية.

. أحمد توفيق المدني وزير الشؤون الثقافية.

. الأمين خان كاتب دولة.

. عمر أو صديق كاتب دولة.

. مصطفى استامبولي كاتب دولة.

وهكذا انطلقت الحكومة المؤقتة وخرجت الجزائر للعالم، مجاهدة، عاملة، ساعية، ذللت الصعاب وحطمت العراقيل، ورفعت الاستقلال[1].

3 . التطور السياسي والإداري لأجهزة الحكومة المؤقتة:

تحولت الحكومة المؤقتة إلى هيئة سياسية وإدارية أكثر تطوراً ونشاطاً مقارنة ببقية التنظيمات الثورية الأخرى، بعد أقل من سنة واحدة من إنشائها، إذ يسمح لها الاستقرار في القاهرة وتونس بأن تتلقى دعماً مادياً ومعنوياً كبيراً من طرف عدد من الدول العربية والأفرو . اسيوية، إلى جانب بعض دول أوربا الشرقية، وتمكنت أيضاً من تنظيم سبل التمويل التي كانت تصلها من فدرالية جبهة التحرير في فرنسا عن طريق عدد من البنوك التونسية والسورية والمصرية والمغربية.

واتخذت الحكومة المؤقتة الجزائرية من القاهرة مقراً أولياً لرئاستها حين أعلن عن ميلادها، ولكنها شرعت منذ مطلع عام 1959م في تنظيم أجهزتها وتأسيس مقرات لوزاراتها في كل من ليبيا وتونس والمغرب، وفي تشكيل بعثاتها الدبلوماسية التي تم توجيهها إلى عدد معتبر من الدول في مختلف قارات العالم، كما سارعت إلى احتواء التنظيمات الفيدرالية القديمة في كل من فرنسا وتونس والمغرب وضمها إلى سلطة وزارة الداخلية[2].

وكان من أهم أجهزة الحكومة المؤقتة التي تطورت تطوراً ملحوظاً، والتي كان يتم اختزال القيادة السياسية والعسكرية من الفعلية للثورة من خلالهما: وزارة القوات المسلحة والخارجية والتموين والاتصالات.

(1) المصدر نفسه.

(2) الولايات التاريخية لثورة التحرير، د . محمد بجاوي ص 323.

4 . وزارة القوات المسلحة:

كانت وزارة القوات المسلحة من أهم وزارات الحكومة المؤقتة عند إنشائها في سبتمبر 1958م، وقد تولى بلقاسم الإشراف عليها بسبب حرصه الشديد على البقاء في الموقع الذي كان يشغله في صفوف لجنة التنسيق والتنفيذ الثانية، واستمر لمدة تقارب العام في مهام الإشراف على تنظيم جيش الحدود، وفي الإشراف على جيش التحرير في الداخل، كما شكلت تلك التولية حلاً وسطاً قبل المنافسين الرئيسيين له في قيادة الثورة انذاك بوصوف وبن طوبال، اللذين سعيا إلى قطع الطريق عليه عندما أظهر طموحه لرئاسة الحكومة المؤقتة.

قام كريم بلقاسم بتعيين نفس العناصر التي كانت تحيط به من قبل في ديوان وزارته، ثم شرع في انتقاء مجموعة من الضباط الفارين من الجيش الفرنسي بغرض الاستعانة بهم في الإشراف على المعسكرات والمدارس العسكرية ودوائر التسليح والتموين المنتشرة في عدد من المدن التونسية والمغربية.

وقدَّر بعض الباحثين عدد الإطارات الذين كانوا يشرفون على إدارة هذه الوزارة «200» إطار، وكان أداء هذه الوزارة موضع نقد شديد من طرف أعضاء الحكومة المؤقتة، الذين حملوا كريم بلقاسم مسؤولية الفشل في تنظيم جيش الحدود، وفي مواجهة السدود المكهربة، وأيضاً في تراجع وتيرة قوافل السلاح نحو الولايات، ونجحت الضغوط التي مارسها كل من بوصوف وبن طوبال، في إرغام كريم بلقاسم على التخلي عن عدد من أبرز مساعديه وعلى رأسهم الرائد إيدير، بسبب تعرض هذا الأخير لحملة واسعة من الانتقادات من طرف قدماء المقاتلين، وقد مهدت تلك الضغوط لإلغاء وزارة القوات المسلحة في اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية في ديسمبر 1959م جانفي 1960م، وإنشاء هيئتين بديلتين له هما:

. اللجنة الوزارية الحربية.

. وهيئة الأركان العامة.

وعلى إثر إلغاء وزارة القوات المسلحة أسندت إلى كريم بلقاسم مهمة الإشراف على وزارة الخارجية في التشكيلة الثانية للحكومة المؤقتة التي أعلن عنها في جانفي 1960م، وخلف بذلك الدكتور محمد الأمين دباغين الذي غادرها في منتصف عام 1959م.

إن كريم بلقاسم الذي كان يتمتع بسمعة ثورية، نتيجة لتجربته الطويلة كقائد لمعقل منطقة القبائل قبل انطلاقة الثورة، وحتى خلال سنواتها الثلاث الأولى، فشل في القيام بمهام كانت تبدو مناسبة لكفاءته في المجال العسكري، وعندما تولى الإشراف على وزارة القوات، لكنه حقق نجاحاً لم يتوقعه الكثير من رفاقه على رأس وزارة الشؤون الخارجية، لعدم امتلاكه للمؤهلات الكافية لقيادة دبلوماسية الثورة، نظراً لطبيعة ومستوى تكوينه العام.

لم يهمل كريم بلقاسم الحاشية التي كانت تحيط به في وزارته السابقة، فقام بإرسال عدد منهم على رأس بعثات في مهمات دبلوماسية، إذ أرسل أو عمران على رأس بعثة إلى تركيا، والرائد إيدير إلى باكستان، والرائد قاسي إلى تونس، وعمران صديق إلى غينيا، وبو علام أو صديق إلى مالي، ولجأ كريم بلقاسم إلى الاعتماد على

مجموعة من الإطارات السياسية والعناصر المثقفة لمساعدته في الإشراف على وزارة الخارجية، ومن أبرز هؤلاء كان سعد دحلب الذي خلفه على رأسها بعد أوت 1961م، إلى جانب عبد الملك بن حبيلس «محامي» ومبروك بلوحسين «محامي»، محمد حربي «طالب في التاريخ»، وعبد العزيز بن ميلود، وتوفيق بوعتورة، وعزيز حسن، وعبد القادر بن قاسي وغيرهم، وقد اشتغل معظم هؤلاء من قبل في لجان الصحافة والإعلام، وفي صفوف فيدرالية فرنسا، وفي دواوين الوزارات الأخرى للحكومة المؤقتة[1].

5 . وزارة الداخلية:

شكلت وزارة الداخلية نواة رئيسية في قيادة الجهاز التنفيذي للثورة في السنوات الأربع الأخيرة من حرب التحرير، وعلى عكس سابقتها عرفت هذه الوزارة استمرارية مميزة، لأن مقاليد إدارتها بقيت في يد بن طوبال لمدة ثلاث سنوات كاملة، قبل أن تتم إزاحته عنها في أوت 1961م، ثم إسنادها إلى كريم بلقاسم الذي جمع حينها بينها وبين منصب نيابة رئاسة الحكومة، إن تسمية هذه الوزارة لم تكن تتناسب مع مجال عملها، لأنها كانت تشرف على تنظيمات فرعية للثورة في الخارج، ولم تكن تتمتع بسلطة فعلية مباشرة على ولايات الداخل التي كانت علاقتها بها تقتصر على تبادل التقارير أو استلام التعليمات الصادرة عنها.

ويمكن توضيح هذا بالإشارة إلى أن مجال نشاط هذه الوزارة، كان محصوراً في الإشراف على فيدراليات فرنسا وتونس والمغرب، وأما صلاحياتها فكانت متعددة تتضمن القضايا المتعلقة بالتأطير والتكوين السياسي في المدارس والقواعد العسكرية الخلفية، وبالتدخل لحل الأزمات الداخلية في صفوف وحدات جيش الحدود ومراقبة حركة العبور، كما أنها كانت تشرف على تنظيم عملية انخراط الإطارات الجزائرية من طلبة وعناصر عسكرية في صفوف الجيش الخارجي، وداخل المصالح الإدارية للحكومة المؤقتة، وفي بعض الأحيان كانت تتجاوز هذا الإطار إلى التدخل في شؤون اللاجئين الجزائريين في دول الجوار، خاصة في كل ما كان يتعلق بالرقابة وبالخدمات الاجتماعية والثقافية.

وكان بن طوبال يسعى إلى تكوين ما يشبه الشرطة السرية في صفوف جبهة التحرير الوطني وهو ما كان يبديه حول قناعته بالفوائد العملية للقبضة الحديدية التي تؤدي إلى انضباط الجماهير. وظهر في شكل ملفت في عدد من المحاكمات التي عقدت من أجل معاقبة عدد من أعضاءالهيئات العسكرية وقادة المناطق الذين تمردوا على الجهاز التنفيذي أو على قادتهم ممن هم أعلى مرتبة، مثل محاكمة مجموعة العمودي في تونس في ربيع 1959م، والتحقيق في قضية الملازمين، وقضية النقيب الزبير في القواعد العسكرية الغربية لجيش الحدود في المغرب الأقصى سنة 1958م وسنة 1960م[2].

---

(1) المصدر نفسه ص 328.

(2) المصدر نفسه ص 328، 329، 330.

6 . وزارة التسليح والاتصالات العامة:

كانت وزارة التسليح والاتصالات العامة التي أشرف عليها عبد الحفيظ بوصوف بصورة مستمرة خلال الفترة (1958 . 1962)، كانت من أكثر الدواوين الوزارية أهمية ونفوذاً داخل الحكومة الجزائرية المؤقتة، وكانت الوزارة الوحيدة التي تمتلك مقرات في كل من تونس وطرابلس ليبيا والرباط بالمغرب، وكانت تولية بوصوف على رأس هذه الوزارة دفعاً مهماً في جمع كم معتبر من أجهزة الاتصال منذ صيف 1956م، حين كان مشرفاً على قيادة الولاية الخامسة خلفاً لابن مهيدي، وهو الأمر الذي سمح له بتكوين فريق تقني أشرف على شبكات الاتصالات من القواعد الغربية لجيش الحدود.

وجنَّد بوصوف العديد من الطلبة الجامعيين والثانويين ابتداءً من مارس 1957م، ولم يبت طويلاً حتى راح يفاخر بما أنجزه في مراكز التكوين التقني للاتصالات، وهو ما أثار رغبة رفاقه في قيادة الثورة بعد معاينة ذلك، وصادف أن كان عبان رمضان وسعد دحلب أول من قام بزيارة تلك المراكز في 15 . 16 ماي 1957م، وتوالت الدفعات التي أشرف على تكوينها عبد الحفيظ بوصوف، وازداد عدد العناصر المجندة في صفوف المصالح المختلفة التي تم استحداثها فيما بعد، إلى درجة أنه في عام 1959م أصبح عدد الإطارات التي نجح بوصوف في جمعها وتأطيرها في وزارته يتجاوز ال300 بين إداري وتقني[1].

وكانت وزارة التسليح والاتصالات العامة تتكون من مجموعة من المصالح، كالاتصالات اللاسلكية والرموز والشفرة والتموين العسكري «شراء الأسلحة والعتاد» والوثائق والجوسسة المضادة والإذاعة.

وقد اعتمدت هذه الوزارة على تكوين أعداد معتبرة من الإطارات التي كانت تشرف على التسليح والتموين والاتصالات، والاستعلامات، كما لجأت إلى تجنيد عناصر جزائرية كانت تمتلك مؤهلات احترافية في المغرب وفي فرنسا على وجه الخصوص. وكانت وزارة بوصوف تمتلك «6» مخازن للأسلحة والعتاد في تونس، و«5» مخازن أخرى في المغرب إلى جانب قاعدة طرابلس، وتوفرت إلى جانب ذلك مراكز عديدة للاتصالات في المدن المغربية والتونسية التي كانت بها قواعد جيش الحدود.

إن الدور الهام الذي لعبته هذه الوزارة سمح لقيادة الثورة في الخارج بالاحتفاظ بقدر كبير من الانسجام والاستقلالية والمقاربة في المسائل المتعلقة بالاتصالات والاستعلامات التي كان بإمكانها إحداث ثغرة كبيرة للتدخل في الشؤون الداخلية لها، كما أنها ساهمت بقسط كبير في كسر عزلة الولايات المتحدة عن القيادة الخارجية، لأن جهود بوصوف أتاحت هامشاً كبيراً للمحافظة على قنوات اتصال مستمرة في أغلب الأحيان بين الهيئات السياسية والعسكرية مع ولايات الداخل، وقد أكسبت الإنجازات التقنية والعملية لهذه الوزارة عبد الحميد بوصوف سمعة كبيرة ومكانة مرموقة في أعلى مراتب قيادة الثورة في سنوات 1957م . 1961م[2].

---

(1) المصدر نفسه ص 333.

(2) المصدر نفسه ص 335.

6 . القدماء في الحكومة المؤقتة:

كانت وزارة التسليح والاتصالات العامة 1958 . 1962م تستقطب لوحدها أكثر من ثلثي عدد القادة والإطارات والتقنيين في صفوف الحكومة الجزائرية المؤقتة، وهو ما يعني أن بقية الوزارات بما فيها رئاسة الحكومة لم تتمكن من أن تتحول إلى أجهزة تنفيذية، فالقيادة الفعلية كانت إلى درجة كبيرة بيد جهاز التسليح والاتصالات العامة، وهو ما أدى إلى حجب الأدوار التي كان يقوم بها كل من فرحات عباس وسعد دحلب وأحمد فرنسيس وعبد الحميد مهري وأحمد المدني وأحمد يزيد وأمين دباغين، وإلى التظليل على أداء الوزارات التي أسندت إليهم، لأن المشاركة السياسية لتلك الوزارات في صناعة القرارات كانت هامشية، ودورها كان يقتصر على تجميل واجهة قيادة الثورة في الخارج، في صورة شبيهة بذلك الذي كانت تقوم به البعثات الخارجية المنتشرة في 38 دولة عبر العالم.

إن الدور الذي كان يقوم به فرحات عباس لم يكن يتجاوز مهمة القيام بدور الناطق السياسي باسم الحكومة المؤقتة، لأنه كان محاصراً في ديوانه الصغير، بين كريم بلقاسم، وبن طوبال، وبوصوف «الباءات الثلاثة»، الذين كانوا لا يسمحون له بإصدار أي بيان أو تصريح سياسي يتضمن الإشارة إلى قرارات مهمة إلا بعد مناقشتها في جلسات موسعة ومغلقة، يمكن اعتباره دليلاً مهماً على أن الحكومة المؤقتة لم تكن تمثل جهازاً تنفيذياً يضم في صفوفه أعضاء القيادة السياسية للثورة، كما يوحي بذلك تعدد مهامه وتمثيل مختلف عناصر النخبة الوطنية في صفوفه.

وكما يمكن القول بأن الكثير من الهيئات والمناصب التي تم استحداثها داخل الحكومة المؤقتة، لم تكن تهدف إلى تحقيق التجاوب مع الضرورات الميدانية، بقدر ما كانت تخضع إلى منطق تحقيق صفات ذات مكاسب سياسية ومعنوية مرتبطة بالتنافس حول مواقع القيادة.

ويمكن الإشارة هنا إلىأن كتابات الدولة التي أسندت إلى ثلاثة ضباط من الداخل عند تشكيل الحكومة المؤقتة ؛ كانت من الناحية العملية مجرد عملية لذر الرماد في أعين قادة الولايات الذين لم تتم استشارتهم في قضية تأسيسها، لأن تلك الغاية منها إشعار الداخل بأنه كان في موضع اهتمام عند قيادة الخارج[1].

إن إلغاء وزارة هامة ثم تكليف المشرف عليها بوزارة دونها أهمية أو وزير بدون حقيبة، كما حدث مع كريم بلقاسم في جانفي 1960م، ثم مع بن طوبال في أوت 1961م ؛ كان مؤشراً على تراجع نفوذهما ومكانتهما لصالح أطراف أخرى، كما أن اللجوء إلى تولية قائد عسكري مثل محمدي السعيد لوزارة دون حقيبة، لم تكن الغاية منه سوى إبعاده وإزاحته عن الترشح لمنافسة بو مدين على رأس هيئة الأركان العامة.

ولم تستقر وضعية الوزارات المساعدة في التعديلات الحكومية الثلاث، لا لأنها لم تنجز حصيلة إيجابية كما كان حال وزارة القوات المسلحة التي أشرف عليها كريم بلقاسم أو وزارة الخارجية عندما تولاها الأمين دباغين، ولكنها كانت رهينة لسيطرة العقداء الوزراء على السلطة الفعلية في قيادة الثورة، وقد انعكس تنافس هؤلاء

(1) المصدر نفسه ص 337، 338، 339.

فيما بينهم حيناً، وتوحدهم في مواجهة الوزراء السياسيين حيناً اخر على وتيرة تطور واستقرار تلك الوزارات، التي ألغي بعضها بعد إدماجها مع أخرى، مثل ما حدث مع وزارة الشؤون الثقافية التي أدمجت مع الشؤون الاجتماعية، ووزارة التسليح والتموين العام التي ألحقت بوزارة بوصوف بعد إبعاد محمود الشريف.

وعندما كان يتم تفادي إدماج وزارتين مع بعضهما البعض كانت النتيجة غالباً ما تنتهي إلى عزل واستبدال عناصر بأخرى، حتى ولو كانوا من المشهود لهم بالكفاءة في عملهم، مثلما حدث بالنسبة لكل من الأمين دباغين في بداية عام 1960م وأحمد فرنسيس وفرحات عباس في أوت 1961م، وهذا ما كان يكشف أن الوزارات «الفنية» كانت الضحية الأولى للأزمات الداخلية في الحكومة المؤقتة، وأنها لم تكن في الواقع سوى واجهة سياسية رمزية تخفي القيادة الثورية التي كانت بأيدي الباءات الثلاثة[1].

7 . التامر على الحكومة المؤقتة:

وبطريقة سرية عاد العقيد العموري الذي تم نفيه إلى القاهرة في شهر سبتمبر من عام 1958م إلى تونس مع أحد أنصاره الذي يسمى الجمعي سعدية «والمعروف باسم مصطفى لكحل»، وحاولا تنظيم انقلاب ضد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، والتخلص خاصة من العقيد محمود الشريف وزير التموين بالسلاح، والعقيد كريم بلقاسم، ويبدو أن العقيد عبد الحميد بوصوف والعقيد لخضر بن طوبال ؛ كانا على علم بالمؤامرة لأنهما زوّدا محمد العموري والجمعي سعدية بجوازين جديدين للسفر إلى تونس، وكان القصد من هذا التشجيع هو التخلص من كريم بلقاسم. قد اكتشفا المؤامرة قبل تنفيذها.

وخلال اجتماع العموري مع 28 من أنصاره في مدينة الكاف التونسية، تمكن كريم بلقاسم من الاستعانة بالجيش التونسي لإلقاء القبض على 28 من المتامرين على الحكومة المؤقتة يوم 16 نوفمبر 1958م، وتقديمهم للمحاكمة. ولعب بوصوف دوراً كبيراً في محاكمة القادة العسكريين المتامرين على الحكومة المؤقتة، حين تقرر تعيين العقيد هواري بومدين رئيساً للمحكمة، وزميله علي منجلي وكيلاً للجمهورية، والعقيد الصادق محامياً، وفي الأخير أصدرت المحكمة العسكرية أحكامها بالإعدام على العقيد العموري، والعقيد نواورية، والرائد عواشرية، والرائد الجمعي سعدية، الذين تم تنفيذ حكم الإعدام فيهم في اليوم التالي.

أما بقية المتهمين بالمشاركة في المؤامرة على الحكومة المؤقتة، أمثال: عبد الله بلهوشات، أحمد دراية، ومحمد الشريف مساعديه وغيرهم من الضباط، فقد تم سجنهم لغاية 1960م، أي أن الحكم كان لمدة سنتين.

وباستعمال الجيش التونسي للاستيلاء على أجهزة اللاسلكي وإلقاء القبض على الثوار الجزائريين، الذين كانوا يعارضون كريم بلقاسم وأعضاء الحكومة المؤقتة بسبب الخلافات حول التزود بالسلاح، ونوعية القادة الذين ينبغي أن تسند لهم القيادة، وخاصة في الولاية الأولى والحدود ؛ فقدت الحكومة المؤقتة مصداقيتها، وأصبحت تعتمد على جيش دولة أخرى للتغلب على الخلافات التي تحصل بين المسؤولين، وبفضل هذه المحاكمة السريعة

---

(1) المصدر نفسه ص 341.

والأحكام القاسية ضد الثوريين غير المنضبطين ؛ برز بومدين كشخصية عسكرية قوية وقادرة على إعادة الأمن والاستقرار في الحدود الشرقية للجزائر[1].

8 . اجتماع قادة الداخل:

في الفترة الممتدة من 6 إلى 12 ديسمبر 1958م، تمكن معظم قادة الداخل من تنظيم لقاء بينهم وذلك بقصد دراسة الأوضاع السائدة بداخل الجزائر، والتعرف على الحلول الممكنة لفك العزلة المضروبة حولهم من طرف القوات الفرنسية، التي عرقلت عمليات الاتصال بقيادة ثورة الجزائر بالخارج، وقد قام بهذه المبادرة العقيد عميروش، وبارك هذه الفكرة السيد كريم بلقاسم الذي أصبح يشعر بالخطر الذي يداهم ثورة التحرير إذا لم تكن هناك اتصالات مستمرة بين قادة الثورة في الخارج ورؤساء الولايات في الداخل، وإذا كان العقيد عميروش «قائد الولاية الثالثة» قد نجح في الالتقاء بالعقيد سي محمد بوقرة «قائد الولاية الرابعة» ؛ فإنه لم يتمكن من إقناع العقيد كافي «رئيس الولاية الثانية»، والعقيد لطفي «مسؤول الولاية الخامسة»، بالمشاركة في ذلك اللقاء الذي جمع رؤساء الولايات في الداخل، وذلك لأنهما كانا متخوفين من محاولة العقيد عميروش لتوحيد قيادة الداخل، بقصد تقوية نفوذ كريم بلقاسم وجعله زعيماً وحيداً للثورة الجزائرية، وعند انتهاء اجتماع العقداء الذين حضروا الاجتماع الذي دعي إليه العقيد عميروش.

قام الرائد عمر أو صديق بنقل محضر ذلك الاجتماع إلى الحكومة المؤقتة بالخارج. وبناء على ما جاء في محضر الاجتماع، قررت الحكومة المؤقتة استدعاء قادة الولايات العسكريين في الداخل لتنظيم اجتماع بين رؤساء الولايات خارج الجزائر. وأثناء توجههم لحضور المؤتمر المقرر في تونس في شهر أفريل من عام 1959م، وقعت معركة كبيرة بين فرقة من جنود جيش التحرير تتكون من 40 جندي وضابط وبين 2500 جندي من قوات الكولونيل «ديكاس»، وفيها استشهد العقيد عميروش قائد الولاية الثالثة والعقيد سي الحواس قائد الولاية السادسة، بعد الاستماتة في الدفاع عن فرقة جيش التحرير حتى اخر خرطوشة، وكان ذلك يوم 29 مارس 1959م، وقام ديغول بمنح وسام الشرف للعقيد «ديكاس» على هذا العمل الجبار بالنسبة لفرنسا، الذي قام به هذا الضابط الفرنسي.

ولسوء الحظ فإن العقيد سي محمد بوقرة قائد الولاية الرابعة قد استشهد بدوره يوم 5 ماي 1959م، وبذبك فقدت الثورة الجزائرية ثلاثة عقداء رؤساء لثلاث ولايات هامة في البلاد، وهبوا حياتهم فداء لحرية الجزائر واستقلالها[2].

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر، ص 475 . 479.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 484.

9 . خلاف الحكومة المؤقتة مع مصر:

حصل خلاف كبير بين أعضاء الحكومة المؤقتة وحكومة الجمهورية العربية المتحدة، التي كانت تتزعم العالم العربي في سنة 1959م. وخلال اللقاء الذي جمع الرئيس عبد الناصر وأعضاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية يوم 6 فبراير 1959م بالقاهرة، تطرق الرئيس عبد الناصر إلى قضية السلاح الذي كانت تبعث به حكومته إلى الثوار الجزائريين، وأبلغهم بأنه على علم بتكديس السلاح بمخازن ليبيا وتونس، وحجبه عمن لا يساير بعض المسؤولين في الحكومة المؤقتة.

وأكد السيد جمال عبد الناصر للسيد فرحات عباس وأعضاء حكومته أنه بالرغم من الخلافات التي كانت موجودة بين أعضاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية من جهة، وبين حكومة جمهورية مصر العربية، فإن حكومة القاهرة سوف تواصل دفع المعونة للجزائر في صورة سلاح ومعدات وذخيرة، وكذا عملة صعبة ومحلية تسلم لحكومتهم وبصفة مستمرة وطبقاً للميزانية المحددة لنا[1].

* * *

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 486.

ثانياً: الاحتكام إلى القادة العسكريين

بعد أن أدرك قادة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية أنه لا فائدة تجدي من حكومة ضعيفة، فقد كثر النقد وتوجيه الاتهام، ودخلت في أزمة مع معارضيها، وظهرت خلافات كبيرة بين أعضائها، فقرروا تقوية الثورة عن طريق إدخال قيادة جديدة ذات نفوذ مرموق في داخل البلاد وخارجها. وتحقيقاً لهذا الهدف، تقرر تشكيل لجنة من القادة العسكريين للتغلب على الصعاب التي تواجهها الثورة على الحدود وفي داخل الجزائر.

وتتكون اللجنة العسكرية من العقداء الاتية أسماؤهم:

. محمد السعيد، «قائد الناحية الشرقية».

. هواري بومدين، «قائد الناحية الغربية».

. عبيد حاج لخضر، «قائد الولاية الأولى».

. علي كافي، «قائد الولاية الثانية».

. محمد يازورين، «قائد الولاية الثالثة».

. سليمان دحيلس، «قائد الولاية الرابعة».

. لطفي، «قائد الولاية الخامسة».

. كريم بلقاسم، «وزير القوات المسلحة».

. عبد الكريم بوصوف، «وزير الإتصالات والمخابرات».

. لخضر بن طوبال، «وزير الداخلية».

واجتمع هؤلاء القادة واستمر اجتماعهم «110» يوماً من النقاش والحوار، وأسفر اجتماعهم في النهاية على تشكيل مجلس وطني جديد للثورة الجزائرية يتشكل من قادة عسكريين من ممثلين للثورة الجزائرية في فيدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني، ومن ممثلين لجبهة التحرير في تونس والمغرب، كما تعزز المجلس الوطني للثورة الجزائرية بتعيين قادة المجالس الولائية فيه، وذلك بالإضافة إلى القادة العسكريين المتواجدين بالحدود، أمثال علي منجلي، قايد أحمد، علي سواحي، عمار رجائي، الطاهر زبيري،وأحمد بن الشريف.

وباختصار، فإن القادة الجدد الذين يتكون منهم المجلس الوطني للثورة الجزائرية ينتمون إلى جيش التحرير، ومتفقون على ضرورة تقوية الثورة عن طريق خلق سلطة قوية قادرة على توجيه الأمور السياسية والعسكرية.

وفي الفترة الممتدة من 16 ديسمبر 1959م إلى 18 يناير «جانفي» 1960م، اجتمع أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية الجدد بمدينة طرابلس في ليبيا، واتخذوا إجراءات دقيقة تتعلق بالاستراتيجية العسكرية وتنظيم وتدعيم إمكانيات جيش التحرير الوطني الجزائري، واتخذوا الإجراءات التنظيمية الضرورية لجعل كفاح أبناء الشعب الجزائري أكثر فاعلية. وفي هذا الإطار قرر أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية إعادة تشكيل الجهاز الحكومي، وأوصوا بإنشاء لجنة وزارية مشتركة للدفاع الوطني ضمن الحكومة تلتحق بها قيادة أركان.

وبعد 33 يوماً من النقاش والحوار بين الأعضاء الجدد للمجلس الوطني للثورة الجزائرية، تقرر العمل على إطار جماعي وتقليص نفوذ الشخصيات العسكرية القوية داخل الحكومة المؤقتة، أي أن القرارات بدأت تتخذ على مستوى مؤسسات تشريعية وتنفيذية وليس على مستوى فردي، مثلما كان الحال قبل 1960م، كما تقرر تشكيل لجنة استشارية تتكون من السادة دحلب والعقيد هواري بومدين والعقيد محمدي السعيد(1).

1 . الحكومة المؤقتة الثانية:

وفي اجتماع طرابلس، ظهرت قوة المجلس الوطني للثورة الجزائرية، فقد تقرر تشكيل حكومة للوحدة الوطنية يترأسها فرحات عباس، ويكون كريم بلقاسم عضواً بها ومسؤولاً عن الشؤون الخارجية في الحكومة الجديدة. وأما المنصب السابق الذي كان يشغله كريم بلقاسم وهو وزير القوات المسلحة فقد تقرر إلغاؤه وتعويضه بـ «لجنة وزارية للحرب»، كما تم إبعاد يوسف بن خدة من منصبه كوزير للشؤون الاجتماعية، وحل محله في هذا المنصب عبد الحميد مهري.

وتتشكل هذه اللجنة العسكرية من عبد الحفيظ بوصوف ولخضر بن طوبال وكريم بلقاسم، غير أن هذه اللجنة التي اعتمد في أعمالها على قيادة الأركان العامة، والتي تقرر أن تسند إليها جميع الأعمال العسكرية المتعلقة بالثورة الجزائرية، وفي هذا الإطار، استطاع عبد الحفيظ بوصوف أن يعين العقيد هواري بومدين رئيساً للأركان العامة، وأما العقيد محمدي السعيد فقد تم تعيينه وزيراً للدولة في الحكومة الجديدة.

وباعتباره قائداً للأركان قام العقيد هواري بومدين باختيار القادة العسكريين المقربين إليه أمثال على منجلي وقايد أحمد، وكانت هذه الخطوة الأولى لإحلال القادة العسكريين محل القادة التاريخيين، الذين سيطروا على الوضع منذ أول نوفمبر 1954م، إلى غاية الاجتماع التاريخي للمجلس الوطني للثورة الجزائرية في مدينة طرابلس ليبيا من 16 ديسمبر 1959م إلى 18 جانفي 1960(2).

2 . أعضاء الحكومة المؤقتة الثانية «18 جانفي 1960 . أوت 1961م»

تتكون هذه الحكومة من كل من:

. عباس فرحات	رئيساً.
. كريم بلقاسم	نائب الرئيس ووزير الخارجية.
. ابن بلة أحمد	نائب ثاني للرئيس.
. بوضياف محمد	وزير دولة.
. ابن طوبال الأخضر	وزير الداخلية.
. بوصوف عبد الحفيظ	وزير الاتصال والاستعلامات.

(1) المصدر نفسه ص 494.

(2) المصدر نفسه ص 495.

. أحمد أفرنسيس	وزير المالية.
. مهري عبد الحميد	وزير الشؤون الاجتماعية.
. محمد يزيد	وزير الأخبار.
. محمدي السعيد	وزير دولة.
. خيضر محمد	وزير دولة.
. ايت أحمد حسين	وزير دولة.
. بيطاط رابح	وزير دولة[1].

3 . المعالم الرئيسية لسياسة الحكومة الثانية:

حدد المجلس الوطني الجديد للثورة الجزائرية المعالم الرئيسية للسياسة الجديدة، التي يتعين على الحكومة المؤقتة الثانية أن تنتهجها في المستقبل، ومن جملة المحاور الرئيسية التي أقرها المجلس الوطني للثورة الجزائرية، التي تقوم عليها السياسة الجزائرية نخص بالذكر النقاط التالية:

. تطبيق تقرير المصير عن طريق استفتاء يجري تحت إشراف الأمم المتحدة، أو التفاوض مع فرنسا إذا اقتضت الضرورة ذلك.

. تقوية علاقات التعاون والتحالف مع دول المغرب العربي ودول المشرق العربي، وكذلك دول الكتلة الاشتراكية.

. انتهاج سياسة جديدة تهدف إلى إجبار فرنسا على سحب جيوشها من المراكز المتواجدة بها بكل من تونس والمغرب.

. القيام بمجهودات لدى الدول الأفريقية من أجل إقناعها بسحب الجنود الأفارقة من الجيش الفرنسي بالجزائر.

. الدخول في مفاوضات مع الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية، بقصد جلب المتطوعين والفنيين وإرسالهم إلى حدود الجزائر مع تونس والمغرب.

. اختراق الحواجز والأسلاك الكهربائية على الحدود من طرف جيش التحرير، وتدويل القضية الجزائرية.

. دخول قادة الثورة وقادة الولايات في جيش التحرير إلى داخل الجزائر.

. إرسال مبعوثين إلى داخل الجزائر، وتقوية العلاقات مع قادة الولايات بالداخل.

. تشكيل لجنة للمالية، وتكليفها بتقديم الدعم المالي للولايات في داخل الجزائر.

. هيكلة الجيش ودعمه مادياً وبشرياً.

. وأكد الرائد على منجلي الذي اختاره بومدين لكي يكون مساعده الأيمن في إعادة تنظيم الجيش ورفع معنوياته، بأن أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية الذين شاركوا في ديسمبر 1959م جانفي 1960م قد أقسموا بالمصحف الشريف على الالتزام بتنفيذ القرارات المذكورة أعلاه[2].

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 250.

(2) المصدر نفسه ص 496.

4 . إعادة تنظيم الجيش واستقالة بومدين:

وفي مدة قصيرة استطاعت قيادة الأركان أن تقيم سلطة مركزية قوية، بحيث أصبحت وحدات الجيش منضبطة ومطيعة للقيادة، وفي منتصف 1961م اتضح أن قيادة الأركان أصبحت تسيطر على الوضع في تونس والمغرب، حيث قامت بتجنيد الطلبة والأطباء، وطلبت من الجميع مساندة الثورة، غير أن الوضع تغير يوم 21 يونيه «جوان» 1961م حيث تمكن جيش التحرير من إسقاط طائرة فرنسية في الأراضي التونسية، وتم أسر طيار فرنسي قفز بمظلته في التراب التونسي، وهنا تدخلت الحكومة التونسية، وطلبت من هيئة الأركان تسليم الطيار الفرنسي حالاً وبدون شرط، وإلا فإنها ستضطر لغلق الحدود ومنع عربات جيش التحرير من التحرك في الأراضي التونسية، وقطع المياه عن وحدات الجيش الجزائري.

وعندما رفضت قيادة الأركان هذا الطلب التونسي، تدخلت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وطلبت من قيادة الأركان تسليم الطيار الفرنسي لتونس، وكانت حجة بوصوف وبن طوبال أن الثورة في خطر، وأن الأخوة التونسيين سيعلنون في وسائل الإعلام عن تمرد هيئة الأركان العامة عن الحكومة المؤقتة، وعند خروجهما من قاعة الاجتماع، رافقهما هواري بومدين بمفرده وأعطاهما موافقته بالإفراج عن الطيار الفرنسي، ثم عاد إلى قيادة الأركان والدموع تنهمر من عينيه، وهو يقول: لقد قدمت استقالتي.

وأثارت استقالة بومدين التي قدمها إلى رئيس الحكومة المؤقتة يوم 15 جويليه 1961م ضجة كبيرة في الأوساط السياسية والعسكرية، وقد اتهم بو مدين الحكومة المؤقتة في رسالة استقالته بالانحراف، وعدم تطبيق قرارات طرابلس، والعمل على تصفية الأركان العامة باعتبارها العقبة الوحيدة أمام بروز المطامح الشخصية، التي تتنافى مع مبدأ القيادة الجماعية.

وبعد استقالة أعضاء قيادة الأركان: بومدين، قايد أحمد، وعلي منجلي، توجه القادة الثلاثة إلى ألمانيا الغربية، حيث التقوا بأحد كبار المسؤولين في فيدرالية فرنسا السيد عمر بوداود وتناقشوا معه في الموضوع، وأرسلوا رسالة إلى الزعماء الخمسة المسجونين في فرنسا، لإطلاعهم على الوضع، ثم توجهوا إلى المغرب من هناك[1].

5 . الحكومة المؤقتة الثالثة:

وعندما فشلت المفاوضات بين فرنسا والحكومة المؤقتة في «لوقران»، والتي جرت في الفترة من 20 إلى 28 جويليه 1961م، اضطرت الحكومة المؤقتة إلى استدعاء أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية لعقد اجتماع في طرابلس، وذلك ابتداء من 2 إلى 27 أوت «أغسطس» 1961م.

وخلال ذلك الاجتماع التاريخي قام علي منجلي وقايد أحمد «من هيئة الأركان» بشن هجوم كبير على الحكومة المؤقتة، وخاصة على كريم بلقاسم، الذي نجح في إضعاف هيئة الأركان عن طريق «اللجنة الوزارية للحرب التي تتكون منه ومن عبد الحفيظ بوصوف ولخضر بن طوبال»، ثم جاء دور يوسف بن خدة فتهجم

(1) المصدر نفسه ص 500.

على فرحات عباس، والحكومة المؤقتة، وطالب بإنشاء هيئة عليا من جبهة التحرير الوطني لتحل محل الحكومة المؤقتة، وأثناء تدخله في النقاش أظهر بن خدة موافقته على أحد مطالب هيئة الأركان، والمتمثل في توحيد الجيش في الداخل وفي الحدود تحت قيادة هواري بومدين وعلي منجلي وأحمد قايد، واستفاد بن خدَّه من الخلافات بين أعضاء الحكومة المؤقتة وهيئة الأركان، وتمت الموافقة على تعيينه رئيساً للحكومة[1] الجديدة، والتي تكونت من كل من:

. يوسف بن خدِّة	رئيس الحكومة ووزير المالية.
.كريم بلقاسم	نائب الرئيس ووزير الداخلية.
. ابن بلة أحمد	نائب رئيس المجلس.
. محمد بوضياف	نائب رئيس المجلس.
. محمد السعيدي	وزير الدولة.
. رابح بيطاط	وزير الدولة.
. ايت أحمد	وزير الدولة.
. بوصوف عبد الحفيظ	وزير التسليح والاتصالات العامة.
. ابن طوبال الأخضر	وزير الدولة.
. سعد دحلب	وزير الخارجية.
. محمد يزيد	وزير الأخبار[2].

وبعد انتهاء اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية، كشف بن خدِّة عن أوراقه وتوجهاته الحقيقية، وبدأ المواجهة مع هيئة الأركان. وعندما استؤنفت المفاوضات الفرنسية ـ الجزائرية في بداية يناير 1962م بمدينة إيفيان، لم يشارك أعضاء هيئة الأركان في تلك المفاوضات، وشكل أعضاء هيئة الأركان سلطة موازية لسلطة الحكومة المؤقتة، وبدأ بن خدّة يتعاون مع كريم بلقاسم ويحاول إرسال بعض قادة الجيش إلى الداخل، وتجنيد قادة الولايات ضد هيئة الأركان، وتقديم الولاء والطاعة للحكومة المؤقتة.

وحاول بن خدّة أن يحل الإشكال مع هيئة الأركان في غار الدماء «مقر هيئة الأركان بالأراضي التونسية»، وتفاوض معهم في كيفية تسوية الخلافات القائمة بين هيئة الأركان والحكومة المؤقتة، لكن بن خدّة أعطى انطباعاً لهيئة الأركان بأن الحكومة الجديدة قد ورثت التناقضات السابقة، ولا تستطيع تطبيق القرارات المتخذة في المؤتمر الوطني للثورة الجزائرية في شهر يناير 1960م، والخاصة بتوحيد الجيش وتزويده بالأموال والسلاح لمواصلة الحرب حتى النصر.

(1) المصدر نفسه ص 502.

(2) السياسية العربية والمواقف الدولية ص 251.

وبعبارة أخرى، إن التغيير في الحكومة قد انحصر في تغيير الوجوه، والاستمرار في انتهاج نفس السياسة التي كانت تنتهجها حكومات فرحات[1].

كانت استراتيجية الحكومة المؤقتة في بداية 1962م بقيادة بن خدة تقوم على أساس:

. احترام اتفاقية «إيفيان» المبرمة مع فرنسا، بصفتها هي الطرف المتفاوض مع فرنسا.

. عدم استدعاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية لعقد اجتماع له، حتى لا تكثر المناقشات حول مستقبل الوطن في وقت غير ملائم لهذا النقاش، والمفروض أن تقوم الهيئة التنفيذية المنبثقة عن اتفاقية «إيفيان» بتطبيق هذه الاستراتيجية للحكومة المؤقتة، وذلك بالتعاون مع قادة الولايات في داخل البلاد. لكن الخلل الكبير الموجود في استراتيجية الحكومة المؤقتة أنه لم تكن هناك هيئة للتنسيق بين الولايات أو بين الولايات والهيئة التنفيذية، وبهذا بقيت قوات ولايات الداخل مشتتة وقواتها مبعثرة، وذلك بسبب عدم وجود أي تنسيق بين قادة الولايات من جهة وبين الولايات والهيئة التنفيذية من جهة أخرى، كان من استراتيجية يوسف بن خدة الاحتفاظ بالسلطة عن طريق سلطة جبهة التحرير[2]، ولكنه فشل في ذلك بسبب صدامه مع هواري بومدين وهيئة الأركان.

6 . تحالف أحمد بن بلة مع هيئة الأركان:

عندما خرج الزعماء الخمسة من السجن، تواصل قادة هيئة الأركان معهم، وتقاربت وجهات النظر مع أحمد بن بلة، الذي كان على اتصال بهيئة الأركان عندما كان في سجن «أولنوا»، وذلك عن طريق عبد العزيز بو تفليقة وعلي بن بلة ؛ فإن الحل السليم للأزمة هو إنشاء مكتب سياسي لجبهة التحرير تكون له سلطة سياسية على الحكومة المؤقتة، وفي مؤتمر طرابلس من قبل الاستقلال اقترح أحمد بن بلة إنشاء مكتب سياسي وبرنامج اقتصادي واجتماعي للجزائر، وانضم إليه فرحات عباس فيما بعد، وذلك بقصد محاصرة بن خدة ودحلب وكريم بلقاسم، الذين أبعدوه من السلطة في شهر أغسطس من عام 1961م.

وبالنسبة لقيادة الأركان، فإن استراتيجيتها كانت تتمثل في عقد مؤتمر للإطارات، وذلك بقصد حل الخلافات الموجودة بينها وبين الحكومة المؤقتة، ولهذا كانت قيادة الأركان تطمح لتجسيم فكرة بن بلة المتمثلة في جمع القوات الوطنية الحية حوله، وذلك في إطار جبهة التحرير الوطني، اتفق أحمد بن بلة وهيئة الأركان على استراتيجية واحدة، وهي تحرير ميثاق يتضمن المحاور الرئيسية، وبرنامج عمل للحكومة الجزائرية، وانتقال السلطة إلى مكتب سياسي لجبهة التحرير الوطني الجزائري تخضع له الحكومة المؤقتة[3].

وظهر بوضوح التنسيق بين قادة الأركان وأحمد بن بلة يوم قررت هيئة الأركان استدعاء القادة الخمسة لزيارة جيش التحرير المتواجد بمدينة وجدة المغربية، وذلك عقب خروجهم من السجن، وفي تلك الزيارة انفرد عبد

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 503.

(2) المصدر نفسه ص 504.

(3) المصدر نفسه ص 505.

العزيز بو تفليقة وأحمد مدغري بالسيد بن بلة، وشرحا له موقف هيئة الأركان من الحكومة المؤقتة، وإذا كان قايد أحمد وعلي منجلي يفضلان عدم الاعتماد على أي زعيم ومواجهة الحكومة المؤقتة، فإن هواري بو مدين كان يرى أن مصلحة البلاد تقتضي عدم مواجهة الحكومة والتحالف مع أحمد بن بلة.

واشتد الخلاف بين هيئة الأركان ويوسف بن خدّة، وساءت العلاقة بين بن خدّة وبن بلة، الذي ردَّ على بن خدّة في اجتماع طرابلس الأخير بعنف وكلام غير لائق، فاستاء بعض أعضاء المجلس الوطني للثورة من تدخل بن بلة وخاصة أعضاء الحكومة المؤقتة وغادروا الاجتماع، وإثر وصوله إلى تونس قام رئيس الحكومة المؤقتة السيد يوسف بن خدّة باتخاذ قرار حاسم يتمثل في عزل هيئة الأركان العامة للجيش، أي عزل العقيد هواري بومدين والرائدين قايد أحمد وعلي منجلي. وانذاك توجه بو مدين رفقة السعيد عبيد إلى الولاية الأولى وخلفهما عشرة الاف من جنود جيش التحرير المرابط على الحدود، ومن هناك زحف هواري بو مدين على بقية الولايات بجيشه المزود بالأسلحة الثقيلة والخفيفة[1].

7 . المكتب السياسي:

وبعد إعلان نتائج الاستفتاء وقرار الشعب الجزائري بالمصادقة على استقلال الدولة الجزائرية عن دولة فرنسا يوم 3 جويليه 1962م، قام بن بلة بإنشاء قيادة مؤقتة له في مدينة تلمسان،وذلك في رعاية أحمد مدغري والي تلمسان والمعروف بتعلقه الكبير بالسيد أحمد بن بلة، وبعد جدل ونقاش طويل أعلن أحمد بو منجل في 22 جويليه 1962م المتحدث الرسمي باسم مجموعة تلمسان في مؤتمر صحفي عن التشكيلة الجديدة للمكتب السياسي الذي اقترحته هيئة الأركان.

وطبعاً فإن محمد بوضياف وكريم بلقاسم لم يعجبهما القرار المتخذ من طرف واحد، وأعلنا عن استقالتهما من المكتب السياسي الذي اقترحته هيئة الأركان بطرابلس، وقررا إنشاء لجنة وطنية للدفاع عن الثورة في تيزي وزو، ثم عقد مؤتمر وطني فيما بعد. وفي يوم 2 أوت 1962م جرت مفاوضات بين كريم بلقاسم وبو ضياف من جهة ومحمد خيضر من جهة ثانية، واتفق الجميع على الإبقاء على المكتب السياسي المقترح في طرابلس، لكن بشرط أن تكون السلطات المعطاة للمكتب السياسي محدودة، وتقتصر على تنظيم الانتخابات التشريعية والدعوة لاجتماع اخر للمجلس الوطني للثورة الجزائرية، غير أن توزيع المهام على أعضاء المكتب السياسي يوحي بأن الهيئة السياسية جاءت لتعمل كسلطة سياسية ذات سيادة تامة:

. أحمد بن بلة، يشرف على السلطة التنفيذية.

. بن علا، مسؤول عن الجيش.

. بيطاط، مكلف بجبهة التحرير الوطني.

. محمد السعيد، مسؤول عن قطاع التربية الوطنية.

---

(1) المصدر نفسه ص 507.

. محمد بوضياف، مكلف بالعلاقات الخارجية.

. خيضر، مكلف بالتنسيق بين الجميع والمخابرات.

. ايت أحمد، رفض أن يشارك في أعمال المكتب السياسي.

وفي منتصف شهر أوت 1962م، وقع خلاف بين المكتب السياسي الذي قام بإعداد قائمة المترشحين للانتخابات البرلمانية، التي كان من المفروض أن تجري يوم 2 سبتمبر 1962م، وبين قادة الولاية الرابعة الذين يرفضون ترشيح الشيخ خير الدين وعبد الرحمن فارس والسيدة شنتوف في منطقة الجزائر العاصمة.

وفي يوم 1962/8/19م تم نشر قائمة المرشحين من طرف المكتب السياسي لجبهة التحرير إلى الانتخابات التشريعية القادمة، وعندما التجأ قادة الولاية الرابعة إلى العنف للاحتجاج على اللجنة الانتخابية المعينة من طرف المكتب السياسي ؛ قرر أحمد بن بلة وأعضاء المكتب السياسي يوم 1962/8/30م استعمال جيش هيئة الأركان للزحف على الجزائر العاصمة، وإسكات أصوات المعارضة للمكتب السياسي. وفي يوم 9 سبتمبر 1962م بسط الجيش الوطني الشعبي سلطته على العاصمة وانسحبت قوات الولاية الرابعة بعد وساطة ناجحة للعقيد حسان، والعقيد محند ولد الحاج.

وفي يوم 20 سبتمبر 1962م جرت الانتخابات التشريعية، ونجح جميع الأعضاء الذين اقترحهم المكتب السياسي للحزب الواحد، وبعد أسبوع، أي يوم 26 سبتمبر 1962م قام السيد أحمد بن بلة بتشكيل حكومته الجديدة، وتقاسم فيها المناصب الحساسة في الدولة مع قيادة الأركان التي استأثرت بوزارة الدفاع، التي أسندت إلى العقيد هواري بومدين، ووزاة الداخلية التي أسندت إلى أحمد مدغري[1].

أما أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية، الذين عارضوا المكتب السياسي وهيئة الأركان، وكان يطالبون بعقد مؤتمر وطني لحل الأزمة، فقد تم حذف أسمائهم من قائمة المترشحين للبرلمان الجديد، ومن جملة الشخصيات التي حرمت من الترشيح للبرلمان الجديد «بينما كانوا في المجلس الوطني للثورة»:

عبد الحفيظ بو صوف، لخضر بن طوبال، سعد دحلب، العقيد صالح بو بنيدر، والعقيد علي كافي، والعقيد عمار بن عودة، والرائد الطاهر بو دربالة، والرائد عبد المجيد كحل الرأس، ومحمد الصديق بن يحيى، ومصطفى لشرف، ونفس الشيء حصل للسيد بلعيد عبد السلام الذي كان عضواً بالهيئة التنفيذية ببو مرداس.

وفي يوم 1965/6/19م قام العقيد هواري بو مدين وزملاؤه في هيئة الأركان بانقلاب ضد بن بلة وعزله من السلطة بصفة نهائية[2].

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 509.

(2) التاريخ السياسي للجزائر، ص 509.

❋ ❋ ❋

ثالثاً: مسار المفاوضات بين الجزائر وفرنسا

1 . إضراب عام من فرنسيي الجزائر:

إن الإضراب العام الذي نظمه فرنسيو الجزائر يوم 13 مايو 1958م استهدف الاحتجاج على عجز الحكومات الفرنسية عن التغلب على «المتمردين»، وعن إيجاد حل عسكري في إطار إدماج الجزائر بفرنسا، ذلك الإضراب قرَّرته لجنة اليقظة التي تضم في صفوفها المحاربين القدامى والطلبة الذين اتفقوا على التجمع قرب النصب التذكاري في وسط العاصمة، لتكريم الأسرى الثلاث الذين قتلهم جيش التحرير الوطني بعد محاكمتهم، لم تكن الحجة إلا ذريعة لتجنيد الفرنسيين ضد سياسة التنازل التي تنتهجها الحكومة الفرنسية.
بالفعل لقد تحوَّل التجمع أمام مبنى الحاكم العام يوم 13 ماي 1958م إلى احتلال المبنى وتدمير كل أثاثه ووثائقه، مما جعل السلطات المدنية والعسكرية في حيرة من أمرها وعاجزة عن القيام بمسؤولياتها، وطالب المتظاهرون بتعيين حكومة للإنقاذ. وحاول العميد «صالان» تهدئة المتظاهرين فلم ينجح، فتدخل العميد «ماسو» بصفته مكلفاً بالحفاظ على أمن العاصمة، فأعلن على الساعة التاسعة إلا الربع مساء إحداث «لجنة الخلاص الوطني» حتى تُعيَّن في فرنسا حكومة برئاسة العميد «شارل ديغول».
وقد برَّر هذا الموقف بوجود حكومة ضعيفة في باريس، حكومة تجري اتصالات غريبة على حسب زعمهم بجبهة التحرير الوطني، في الوقت الذي ترتفع خسائر الجيش الفرنسي. ففي منتصف الليل، وبعد مشاورات مع عدة مسؤولين، وجَّه العميد «ماسو» نداء إلى العميد «ديغول» لكي يترأس حكومة الإنقاذ العمومي من أجل ضمان دوام الجزائر «كجزء من فرنسا».
وفي اليوم نفسه خاطب «صالان» الجمهور المتظاهر أمام مقر الحاكم العام، وأكد إرادته في إبقاء الجزائر فرنسية، وختم خطابه بالهتاف «يحيا العميد ديغول»، ومن ثم انطلق مسار رجوع العميد ديغول إلى الحكم، وتقدم المستشار الفني في وزارة الدفاع الوطني ونائب رئيس لجنة الخلاص العمومي فقرأ على الجمهورية رسالة العميد «ديغول» التي جاء فيها ما يلي:
في الزمان الماضي وضع بلدي بأكمله ثقته فيَّ لقيادته نحو الخلاص، فليعلم اليوم أنني مستعد في ظروف المحن التي تصيبه لتحمل أعباء السلطة الجمهورية.
بعد التصريح لم تبق إلا مسألة إجراءات لتسليم السلطة في إطار احترام الدستور الفرنسي[1].

2 . تولي ديغول السلطة:

عندما تأكد الجنرال «ديغول» أن العسكريين قد قرروا الإطاحة بالحكومة الفرنسية بالقوة، أصدر بياناً أعلن أنه بصدد تكوين حكومة جمهورية قادرة على حماية وحدة واستقلال الوطن.. وبأنه يأمل من القوات العسكرية

---

(1) الثورة الجزائرية، د . بو علام حمود ص 277، 278.

البرية والبحرية والجوية أن تلتزم بأوامر قادتها، لكن رئيس الحكومة الفرنسية «فليملان» أبدى استياءه من ذلك البيان، خاصة وأنه لم يعده في لقائهما الأخير بالتخلي له عن السلطة.

وفي 28 ماي 1958م، قرر رئيس الحكومة الفرنسية اقتراح عقد اجتماع لمجلس الوزراء، اعترف من خلاله لأعضاء المجلس بأنه من المستحيل تجنب حرب أهلية إذا ما استمرت الأمور على ما هي عليه، والحل الوحيد في رأيه يكمن في التنازل عن السلطة للجنرال «ديغول» بطريقة سلمية وشرعية. وهكذا قرر «فليملان» تقديم استقالة حكومته لرئيس الجمورية «روني كوتي»، الذي رحب بها وقبلها على الفور، لأنها تعتبر المخرج الوحيد من الأزمة التي تتخبط فيها فرنسا.

وبالتالي العدول عن فكرة القيام بثورة على نظام الحكم الفرنسي القائم، ويلاحظ أن رئيس الجمهورية الفرنسية قد تلقى في نفس اليوم برقية من قادة الجيش في الجزائر، أخبروه فيها بأنهم سيشرعون في تنفيذ مخططهم في 30 ماي 1958م، فما على رئيس الجمهورية إلا الاختيار بين تسليم السلطة للجيش بطريقة شرعية، وإلا فإنهم سيقومون بالاستيلاء عليها بالقوة وعن طريق الثورة.

وفي 29 ماي 1958م، ازدادت الأزمة السياسية ـ العسكرية حدة، ولم يُخفِ رئيس الجمهورية الفرنسية الرابعة تخوفه من اندلاع حرب أهلية، فقرر التدخل من أجل حماية الجمهورية، حيث وجه رسالة مساء ذلك اليوم نفسه إلى كل من رئيس المجلس الوطني «أندري لو تروكي» ورئيس مجلس الجمهورية «غاستون مونرفيل»، يدعوهما فيها إلى التفاوض فيما بينهما من أجل تسليم السلطة بطريقة سلمية وشرعية للجنرال «ديغول». كما أطلعهما أنه في حالة فشل هذا التفاوض، ورفض تعيين الجنرال «ديغول» كرئيس للحكومة مع إعطائه «سلطات مطلقة» لإدارة شؤون البلاد، ومنحه صلاحيات خاصة لتسيير شؤون الجزائر ؛ فإنه سيقدم إستقالته من رئاسة الجمهورية.

وفي مساء ذلك اليوم دائماً ـ أي: يوم 29 ماي 1958م استقبل رئيس الجمورية «روني كوتي» الجنرال «ديغول» وطلب منه أن يتولى رئاسة الحكومة، ولكن في إطار الشرعية دائماً بحيث ينبغي عليه أن يقف أمام نواب البرلمان الفرنسي للموافقة على تعيينه رئيساً جديداً للحكومة الفرنسية. وقد وافق الجنرال ديغول على هذا الطلب، ولكنه اشترط أن يمنحه البرلمان الفرنسي السلطات المطلقة لتسيير شؤون البلاد، وصلاحيات دستور 1946م قصد وضع أسس متينة لسلطة تنفيذية قوية.

ولتحقيق ذلك، اشترط الجنرال ديغول تجميد دور البرلمان وتأجيل اجتماعاته لمدة 6 شهور، وفي الفاتح من شهر جوان 1958م وقفت حكومة الجنرال «ديغول» أمام المجلس الوطني الفرنسي الذي منحها الثقة بأغلبية 329 صوتاً ضد 224 صوتاً[1].

(1) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 396.

3. نجاح الانقلاب العسكري الديغولي:

وهكذا أصبح الجنرال «ديغول» رئيساً لمجلس الوزراء ووزيراً للدفاع الوطني في نفس الوقت. وقد رحب قادة الجيش. وعلى رأسهم الجنرال «راؤول سالان».

بهذا التعيين، وهللوا للانتصار الذي حققوه، لقد اعتبروه عودة إلى الشرعية. أما المدنيون فإنهم لم يخفوا استغرابهم لما يحدث حولهم، واعتبروا أنفسهم مخدوعين، وتواصوا بالحيطة والحذر. والواقع أن قادة الجيش قد قاموا بانقلاب عسكري وأطاحوا بالجمهورية الفرنسية الرابعة، وذلك بالتعاون مع القادة الأوربيين المتمردين في الجزائر، والديغوليين الذين تمكنوا من التسرب في الجيش منذ شهر مارس 1958م، وكوّنوا خلية عسكرية وخططوا لإعادة ديغول إلى الحكم من جديد.

وقد كان هدف المستوطنين الأوربيين من المشاركة في الانقلاب فرض حكومة جديدة يثقون بأنها ستدافع عن مصالحهم وتساعدهم في تحقيق رغباتهم، وترفض التفاوض مع جيش وجبهة التحرير الوطني الذي هدد كيانهم، وبذلك يكونون قد برهنوا مرة أخرى على مدى قدرتهم على التحكم في السياسة الفرنسية، وتوجيهها الوجهة التي تخدم أغراضهم، أما هدف الديغوليين من الانقلاب، فيتمثل في إعادة زعيمهم الجنرال ديغول إلى الحكم. وفيما يخص الجيش، فإن هدفه الأساسي من الانقلاب يتمثل في استعادة مجده وسمعته بعد أن ضيعهما نتيجة انهزامه في كل من الهند الصينية وتونس والمغرب.

وبالنسبة لمواقف الأحزاب السياسية من الانقلاب، فقد أبدى قادتها شعوراً بالارتياح لمجيء الجنرال «ديغول» رئيساً جديداً للحكومة الفرنسية، فقد رأوا في ذلك فرصة لوضع حد لحرب الجزائر التي أرهقت فرنسا مالياً، وحل الأزمة السياسية والعسكرية القائمة، ثم ترك المجال لها بعد الانتهاء من المهمة التي كلفت بها.

وفيما يتعلق بقادة جيش وجبهة التحرير الوطني، فإنهم قد تلقوا خبر تعيين الجنرال ديغول رئيساً جديداً للحكومة الفرنسية بيقظة وحذر شديدين، ذلك لأنهم لم ينسوا أن هذا الرجل هو مدبر مجزرة 8 ماي 1945م، مقابل التضحيات الجسام التي قدمها الجزائريون خلال الحرب العالمية الثانية، لهذا، فإن قادة جيش وجبهة التحرير الوطني قد سارعوا إلى استراتيجية دقيقة، تستهدف إعلاء مكانتها وتوطيد ثقة الجزائريين بقدرتها على مقاومة أية حكومة فرنسية مهما كانت قوتها.

غير أن أحلام كل أولئك الذين تعاونوا فيما بينهم من أجل إعادة الجنرال تبددت، فالسياسة التي عمل على اتباعها بعد توليه الحكم فاجأت الجميع وخيبت امالهم، ذلك لأن الاستراتيجية الجديدة للثورة الجزائرية قد كان لها تأثير كبير في الحياة السياسية في فرنسا، وإذ أصبحت هي التي تتحكم في مصير سياستها وأمنها، فقد قررت جبهة التحرير الوطني فتح «جبهة قتال» ثانية في فرنسا نفسها، مهمتها نقل الثورة إلى هناك، وقد عرفت كل المدن الفرنسية سلسلة من العمليات الفدائية، اندلعت في وقت واحد يوم 24 أوت 1958م في كل القطر الفرنسي.

وهكذا كلما جاءت حكومة فرنسية إلى الحكم، وأرادت أن تبرز قوتها للثوار عن طريق برامجها الإصلاحية، التي تقوم أساساً على توفير كل الوسائل المتاحة لقمع الثورة الجزائرية والقضاء عليها قبل إحداث إي إصلاح سياسي، إداري، أو اجتماعي، اقتصادي ؛ إزداد الثوار قوّة واقتناعاً بأن التصعيد في الكفاح المسلح هو الوسيلة الوحيدة للحصول على الاستقلال الكامل، وأنه لا بد من الاستمرار في البحث عن استراتيجية قتل، تجعل الجيش الفرنسي بكل فرقه المجندة، وبكل قواعده العسكرية، واقعاً تحت الضربات القاضية للثورة الجزائرية[1].

4 . مناورات الجنرال ديغول:

استطاعت الظاهرة الديغولية أن يعمّ مفعولها السيكولوجي مختلف أنحاء الجزائر، ابتداء من الثالث عشر من ماي سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف، فالدعاية الاستعمارية استطاعت في ظرف قصير جداً أن تثبت في أذهان المواطنين الجزائريين عظمة الجنرال ديغول وقدرته على تسوية المشكل الجزائري، واستعداده لتحقيق السلام في ربوع البلاد، ولم ينج من تأثير هذه الغاية حتى بعض كبار المسؤولين في جبهة التحرير الوطني وفي التنسيق والتنفيذ بالذات.

إن الجنرال ديغول يعدّ من أعظم الرؤساء الذين عرفتهم فرنسا ما في ذلك شك، وعظمته هي بالضبط ما يكذب الدعاية الاستعمارية المذكورة، وقد أورد هو نفسه في مذكراته ما يدعم هذا القول، فعندما توقف طويلاً عند المسألة الجزائرية مؤكداً: رجالاً تاريخيين أمثال دويرمون، وبيجو، وكلوزيل، وهم الذين بذلوا جهوداً جبارة من أجل إلحاق الجزائر بفرنسا، وليس من المعقول أن تضيع هذه المستعمرة في عهد حكومتنا.

لأجل ذلك فكر وقدر ثم وضع بنفسه خطة للقضاء على الثورة ترتكز على دعائم أساسية هي:

. التنمية الاقتصادية قصد تشغيل المواطنين وعزلهم عن جبهة التحرير الوطني، وقد وظف لذلك أرصدة مالية كبيرة في إطار ما يسمى بمشروع قسنطينة، الذي أعلن عن ميلاده والشروع في تجسيده يوم الثالث من شهرأكتوبر سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف.

. إيهام الرأي الفرنسي والعالمي بالجنوح إلى السلم، قصد الحد من الانتصارات التي حققتها وتحققها جبهة التحرير الوطني في حظيرة الأمم المتحدة ولدى منظمات الجمهورية المختلفة.

ففي هذا الإطار أعلن في اليوم الرابع من أكتوبر في نفس السنة أنه يأمر العسكريين بمغادرة لجان السلامة العامة، وفي اليوم الثالث والعشرين من ذات الشهر عرض على جيش التحرير الوطني ما يسمى بسلام الشجعان.

. إعادة تنظيم الجيش وتزويده بأحدث أنواع الأسلحة مع أمره بتكثيف العمليات العسكرية الهجومية، وبهذا الصدد استدعى الجنرال «صالان» إلى باريس، واستبدله في اليوم الثاني من شهر ديسمبر بالجنرال شال، كقائد عام للقوات المسلحة، وبول دولوفريي كمندوب عام لفرنسا في الجزائر.

---

(1) التنظيم الإداري والسياسي للثورة ص 298.

وإذا كان الجنرال ديغول في العلانية يبدي نفس الاهتمام بالدعائم الثلاث المذكورة؛ فإنه في الواقع كان يراهن فقط على الدعامة الثالثة، معتقداً أن الاستراتيجية الجديدة التي بشر بها الجنرال شال قادرة على إنهاء الثورة في أجل قريب.

وبالفعل لقد وضع تحت تصرف قائد القوات المسلحة الجديد إمكانيات ضخمة في المجالين المادي والبشري، ولمساعدته تمّ تعيين وترقية مجموعة من الجنرالات والعقداء الذين تخرجوا من المدارس العسكرية العليا، أو الذين اكتسبوا في الميدان خبرة واسعة في حرب الفيتنام وفي الجزائر نفسها.

ولم تكن استراتيجية شال مجرد حبر على ورق، بل إن كل المصادر تؤكد على أن كل العمليات العسكرية التي انطلقت مع بداية العام الجديد قد شكلت خطراً كبيراً على جبهة التحرير الوطني، خاصة في الولايتين الثالثة والرابعة[1].

إن هذه العمليات قد تواصلت إلى غاية عام ستين وتسعمائة وألف، ملحقة أضراراً بالمدنيين، وخسائر بجيش التحرير الوطني لم يعرف لما مثيل لا من قبل ولا من بعد، وهو الأمر الذي جعل فرحات عباس يقول في كتابه «تشريح حرب»:

إن الجزائر لم تعرف ثقل الحرب مثل ما عرفت ذلك في عهد الجنرال ديغول، لكن على الرغم من كل هذه الجهود، فإن الجنرال شال لم يحقق الانتصارات العسكرية التي طلبها منه رئيس الدولة الفرنسية، الذي اضطره الواقع إلى الحل المبني على التفاوض، وهو الحل الذي شرع في تطبيقه منذ 1959/5/16م، عندما صرح ـ باسم فرنسا ـ أنه يعترف للشعب الجزائري بحقه في تقرير مصيره.

ولم يلجأ الجنرال ديغول إلى تقرير المصير، إلا عندما تأكد بنفسه أن مخطط شال استهلك، ولم يعد قادراً على التوصيل، بسبب المقاومة غير المنتظرة التي أبدتها وحدات جيش التحرير الوطني، التي عرفت كيف تتكيف مع الوضع الجديد من جهة، ونتيجة ظهور معارضة شديدة للمخطط المذكور في صفوف الضباط السامين في الجيش الفرنسي نفسه من جهة ثانية.

فمن المعلوم أن شال أسس مخططه على النتائج المستخلصة من تجريد الجيش الاستعماري في الهند الصينية، محاولاً توظيف أساليب الحرب الثورية، والدعاية النفسية التي طبقها «ماوتسي تونغ»، لكنه لم يأخذ في الاعتبار شيئاً أساسياً، هو أن تلك الأساليب الثورية والدعاية النفسية ما كنت لتنجح في تقويض أركان الاستعمار الفرنسي بالهند الصينية لولا نبل الهدف المقصود، وطبيعة التيار التحريري، وتفاعل الشعب مع قيادته، كلها عوامل لا يمكن للجنرال شال أن يتوفر عليها لإنجاز مخططه، الذي لم يكن مصيره أحسن من مصير مخطط الجنرال نافار في الهند الصينية[2].

---

(1) تاريخ الجزائر المعاصر، د . محمد العربي الزبيري (176/2).

(2) المصدر نفسه (178/2).

5 . الشاعر مفدى زكريا يرد على ديغول:

بمناسبة مناقشة القضية الجزائرية في الدورة الرابعة العادية للمنظمة الدولية المنعقدة في سبتمبر «أيلول» 1959م، والتي أسفرت عن تواطؤ دول التحالف الأطلسي على خذلان اللائحة الأفريقية الاسيوية، قال مفدى زكريا:

«ديغول» يعلم ما نريد ويفهم ... ما باله حيران لا يتكلم
فقد الصراحة أم أضاع فصاحة ... أم أن تقرير المصير توهم
إن السياسة لا تزال تناقضاً ... وحديثها أبداً حديث مبهم
وقف القتال، خرافة إن لم يكن ... للشعب في أمر «المصير» تحكم
أرض الجزائر لابنها ثرواتها ... ومن الخيانة أن تباع الأسهم
ومن السفاهة أن تضيع حقوقها ... فيما يدبر في الظلام ويبرم
ومن الحماقة أن يقسم قدسها ... إن الجزائر وحدة لا تقسم
وقفت مضرجة تسيل جراحها ... من بعد «خمس» في الورى تتظلم

إلى أن قال:

أهدافنا في العالمين صريحة ... الشعب أعلنها وفسرها الدم
الشعب أكسبه الجهاد حصافة ... وروية فهو الحكيم الملهم
وسراته الأحرار ما استهواهم ... دون المصير مخدر ومنوم
السلم، نحن رجاله، لكننا ... شجعان ــ يا ديغول ــ لا نستسلم
إن كان في طي السلام مذلة ... فالموت أشرف للكرام وأسلم
أو كان تقرير المصير خديعة ... فلنعم تقرير المصير جهنم[1]

6 . دوافع رضوخ ديغول للتفاوض:

في مذكراته التي نشرت مطبوعة سنة سبعين وتسعمائة وألف، تعرض الجنرال ديغول إلى الأسباب الحقيقية التي جعلته يختار تقرير المصير كحل نهائي للمسألة الجزائرية، فقال: كما هي العادة فإن الإتصال المباشر مع الناس في مواطن نشاطهم قد وضع في ذهني معطيات ما كانت جميع التقارير لتستطيع تبيانها، لقد تأكدت الان أن الثورة قادرة وستبقى قادرة إلى ما لا نهاية على إبقاء المقاومة في المناطق خاصة وأن ذلك بمساعدة السكان[2].

كما أن الثورة الجزائرية تسببت في أزمات سياسية ومالية داخل فرنسا نفسها:

أ . مالياً:

---

(1) اللهب المقدس ص 126.

(2) تاريخ الجزائر المعاصر (179/2).

كلفت فرنسا الحرب ضد الجزائر 1،500 مليون دولار سنوياً، كما اضطرت فرنسا إلى اتخاذ قرارات اقتصادية متشددة، مثل تجميد الأجور، ورفع الضرائب، وتخفيض الفرنك، هذا الإجراء الأخير تسبب في التأثير على علاقاتها مع مستعمراتها الأفريقية، وامتد التأثير حتى إلى الشباب الفرنسي، حيث طلب 7،500 منهم تأجيل الخدمة الوطنية خوفاً من إرسالهم إلى الجزائر، وأدى العجز المالي الفرنسي رغم المساعدات المالية المكثفة خاصة من طرف أمريكا بفرنسا إلى اقتراض نصف مليار دولار من صندوق النقد الدولي، ووجهت هذه الأموال إلى نفقات عسكرية على الحرب، التي بلغت 33% من نفقات الميزانية العامة الفرنسية مع نهاية سنة 1957م[1]. ومضاعفة المساعدات المالية المكثفة، والتدعيم العسكري للجيش الفرنسي الذي بلغ تعداده 700 ألف مقابل 50،000 جندي جزائري ؛ لم يضع حداً لمعركة الجزائر، بل ضاعفت مع الإدارة الجزائرية في كسب انتصارات يومية، وأدى في الأخير إلى استعانة فرنسا حتى بجنود سنغاليين، وإيطاليين وبلجيكيين، وألمانيين، والبعض من هؤلاء فر من الجيش الفرنسي بعد معرفته للحقيقة الإنسانية والشرعية لحرب التحرير الجزائرية، وانضم إلى جيش التحرير الجزائري، وحتى بعض الضباط الفرنسيين ثاروا على قادتهم[2].

ب . سياسياً:

كانت الثورة الجزائرية سبباً في سقوط الجمهورية الفرنسية الرابعة، ووضعت حداً للطروحات الفرنسية بأن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا، وأن القضية كانت داخلية، وأن ما يحدث كان عملاً إجرامياً قام به إرهابيون وعصابات متمردة.

وأخيراً لقد أضاف انتصار الثورة الجزائرية سجلاً اخر لهزائم فرنسا المتتالية، بدءاً على الأقل بفشل نابليون في التوسع الأوربي في مصر وسوريا، وفشل روسيا كما كانت مهزومة أثناء الحرب العالمية الأولى لولا حلفائها، وفي الحرب العالمية الثانية فقدت سيادتها باحتلالها من طرف ألمانيا، ولم تحرر نفسها إلا بعد تدخل الحلفاء[3].

ج . نشاط الحركات الفرنسية المناهضة للحرب:

إن تطورات الثورة الجزائرية السريعة والانتصارات المستمرة التي حققتها قد دفعت بالجنرال (ديغول) نفسه إلى الاعتراف رسمياً . بعد ما تنبه إلى ما أصاب الجيش الفرنسي من خسائر بشرية أثناء المعارك مع جيش التحرير الوطني . بانهزام بلاده سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. فقد صرّح في أواخر سنة 1960م بقوله:

قد أضحى ثابتاً لديّ أن استمرار هذا الوضع لا يمكن أن يجلب لبلادنا سوى الخيبة والماسي، وأنه حان الوقت للخلاص منه[4].

---

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 198.

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 198.

(3) المصدر نفسه ص 198.

(4) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 473.

وأما فرحات عباس: رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، فقد وجه في 17 فيفري 1960م نداء إلى أوربيي الجزائر ليوضح لهم حقيقة الثورة الجزائرية، جاء فيه:

إن الحرب الدائرة في الجزائر ليست حرب العرب ضد الأوربيين، ولا هي حرب المسلمين ضد المسيحيين، وليست كذلك حرب الشعب الجزائري ضد الشعب الفرنسي، وإنما حرب فرضت على شعب بقي دهراً طويلاً في الإهمال الذي هو مصدر الامه ومتاعبه، إنها حرب شعب بقي زمناً طويلاً مداس الكرامة مهان الشخصية، ولقد ان الوقت لإدراك الأسباب الحقيقية لكفاحنا المشروع.

ومن تصريح الرئيس الفرنسي الجنرال «ديغول»، ونداء رئيس الحكومة المؤقتة «فرحات عباس» ؛ تمكن الرأي العام الفرنسي من الاطلاع على حقيقة الثورة الجزائرية، ومدى تأثيرها على الوضع الفرنسي. ونتج عن ذلك أن أصبح يسوده جو من الامتعاض واليأس إزاء حرب الجزائر.

ولعل المثير للانتباه في هذا الشأن، هو الانقسام الشديد في الرأي العام الفرنسي فيما يتعلق بالقضية الجزائرية، حيث انضمت فئات كثيرة إلى الحركات المعارضة للحرب في الجزائر، ولم تعد المسألة تقتصر على الخلاف التقليدي بين اليمين واليسار. وقد راحت الفئات التي انضمت إلى معارضة حرب الجزائر تنشط بهدف توعية الرأي العام الفرنسي وتعبئته لمطالبة الحكومة الفرنسية بوضع حد لحرب الجزائر، وكانت تعتمد في نشاطها هذا على بيانات تكشف فيها عن الأعمال العنصرية والجرائم الفظيعة التي ترتكبها السلطات الفرنسية باسمه في حرب الجزائر.

ويمكن حصر أهم الحركات المعارضة التي انضمت إليها مختلف الفئات في الاتي:

. حركة السلام الفرنسي:

وقد أصدر مكتب الحركة بياناً يكشف فيه للرأي العام الفرنسي القمع الذي تمارسه الشرطة الفرنسية ضد الجزائريين. ومن أهم ما تضمنه هذا البيان:

إن مثل هذه الأعمال العنصرية والأحقاد التي يقوم بها المدنيون الأوربيون في الجزائر، وخصوصاً وهران ؛ لن يكون لها من نتيجة ـ اللهم ـ إلا توتير العلاقات المقبلة بين فرنسا والجزائر[1].

. الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا:

وقد قام بإصدار بيان يدعو فيه الحكومة الفرنسية إلى مواصلة المفاوضات مع الحكومة المؤقتة بهدف إنهاء حرب الجزائر، وقد جاء في هذا البيان:

إن الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا يؤكد من جديد أن المفاوضات مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، والوصول بهذه المفاوضات إلى هدفها المنشود، هو وحده الكفيل بوضع حد لهذه الوضعية الدامية[2].

. الشخصيات الثقافية الفرنسية:

---

(1) المصدر نفسه ص 475.

(2) المصدر نفسه ص 475.

وقد أصدرت هذه الشخصيات بياناً تدعو فيه الشباب الفرنسي إلى التنديد بالأعمال التي لا تتفق مع المبادأئ الإنسانية.

ومن أهم ما تضمنه هذا البيان: والفرنسيون ببقائهم صامتين يعتبرون متواطئين في هذه الأعمال الاضطهادية العنصرية، التي أصبحت باريس مسرحاً لها، والتي تعود بنا إلى تلك الأيام السوداء أيام الاحتلال النازي، إن الموقعين يتوجهون بالنداء إلى جميع الأحزاب والنقابات والمنظمات الديمقراطية، ليس فقط للمطالبة بإيقاف هذه التدابير المهيمنة، ولكن للإعراب عن تضامنهم مع العمال الجزائريين[1].

وباختصار، فإن النشاطات المكثفة لهذه المنظمات المعارضة لحرب الجزائر، قد كان لها الصدى العميق في الأوساط الفرنسية، التي أصبحت تدافع عن الشباب الفرنسي وتعارض توريطه في حرب الجزائر، كما أنها قامت بتنظيم مظاهرات في أواخر سنة 1961م، نددت فيها بسياسة القمع وأعمال التعذيب التي يتعرض لها الجزائريون، وطالبت الحكومة الفرنسية بمواصلة المفاوضات بهدف إنهاء الحرب، ومن الجدير بالذكر أن هذه المنظمات قد لعبت دوراً فعالاً في توعية الشعب الفرنسي، وتعبئته من أجل التصويت لصالح اتفاقيات إيفيان ووقف إطلاق النار في 8 أفريل 1962م[2].

7 . عوائق أمام الجنرال «ديغول»:

في يوم 8 يناير «جانفي» 1959م، أعلن في خطاب تنصيبه كرئيس للجمهورية الخامسة، أن الجزائر في حاجة إلى تهدئة وإعطائها شخصيتها الخاصة بها، على أن تبقى متعاونة مع فرنسا ؛ وفي يوم 25 مارس 1959م أعلن عن فكرة الجزائر الجزائرية. وتبلور موقف «ديغول» من القضية في خطابه إلى الشعب الفرنسي يوم 16 سبتمبر 1959م، والذي قال فيه بأن الوقت قد حان لإعطاء فرصة للجزائريين لكي يعبروا بأنفسهم عن مستقبلهم ويقرروا مصيرهم بأنفسهم. واختتم ديغول خطابه التاريخي الذي وجهه إلى الشعب الفرنسي عبر تلفزته الوطنية بقوله: إن الوقت قد حان لكي يقرر الجزائريون مصيرهم بأنفسهم على أساس المساواة، ويختاروا بين الانفصال عن فرنسا، أو إقامة نظام فيدرالي معها[3].

أ . تحالف قادة الجيش والمستوطنين ضد ديغول:

وبسرعة مذهلة تحالف قادة الجيش وزعماء المستوطنين الأوربيين بالجزائر ضد ديغول، وأعلنوا عن معارضتهم لأي تفاوض مع جبهة التحرير الوطني الجزائري. وفي يوم 18 يناير 1960م أعلن الجنرال «ماسو» في حديث له مع جريدة ألمانية بأن الجيش قد ارتكب غلطة عندما اختار ديغول ودعمه من أجل الوصول إلى السلطة في فرنسا. واستاء ديغول من تصريح «ماسو» واستدعاه إلباريس لتعيينه في وظيفة ثانوية بفرنسا.

(1) المصدر نفسه ص 475.

(2) المصدر نفسه ص 476.

(3) التاريخ السياسي للجزائر ص 518.

وفي يوم 22 يناير 1960م طار الجنرال «شال» إلى باريس، وطالب «ديغول» بعودة الجنرال «ماسو» إلى الجزائر لأن الدماء تسيل هناك بغزارة إذا لم يعد الجنرال «ماسو» إلى منصبه. وبالفعل فقد أقام الأوربيون المتاريس في الجزائر العاصمة، وتعاهدوا على العمل من أجل الإطاحة بحكومة ديغول إذا لم يتراجع عن فكرة تقرير المصير التي أعلن عنها يوم 16 سبتمبر 1959م.

وحسب خطة الأوربيين، فإن الغاية من التمرد الذي قاموا به ابتداء من يوم 1960/1/22م هو الإطاحة بديغول وتعيين الجنرال «شال» في مكانه، لكن ديغول لم يستسلم ولم يخضع لقادة الجيش وقادة الجالية الأوربية في الجزائر، وخرج منتصراً من المواجهة معهم في يناير 1960م، لأن الرأي العام الفرنسي لم يؤيد المتمردين في الجزائر، والجنود استجابوا لنداء «ديغول»، وعملوا من أجل إعادة الأمن إلى نصابه مثلما طلب منهم رئيس دولتهم.

وابتداء من أول فبراير 1960م شرع «ديغول» في تنقية الأجواء، وإبعاد القادة العسكريين عن السياسة، وخاصة أولئك الذين أظهروا تعاطفاً مع زعماء الجالية الأوربية بالجزائر، مثل المكتب الخامس الذي كان تابعاً للجيش وقادته متحالفون مع زعماء الجالية الأوربية بالجزائر، وكان قد لعب دوراً هاماً في التأثير والضغط على المسلمين الجزائريين لكي لا يقبلوا تقرير المصير الذي اقترحه «ديغول».

وفي يوم 4 فبراير 1960م اتخذ ديغول إجراءً هاماً يتمثل في نزع السلطات المعطاة للجيش لكي يحل محل الشرطة في القيام بعمليات التعذيب وإلقاء القبض على الجزائريين بدون مراقبة قضائية، وأعاد تلك السلطات الأمنية إلى رجال الشرطة الذين يعملون ويخضعون لسلطات الولاة أو الحكومة.

وبهذه التغييرات الهامة في الجيش، وإبعاد قادته عن السياسة، وتحويل الجنرال «شال» إلى أوربا ؛ بدأ ديغول يتحرك بحرية تجاه قادة الثورة الجزائرية لكي يستدرجهم إلى إجراء مفاوضات أولية، والتعرف على وجهات نظرهم في كيفية إيقاف عملية الاقتتال، والتوصل إلى حل سلمي للمشكل الجزائري[1].

ب ـ محاولة شق صفوف الثوار:

لقد تكلم «ديغول» كثيراً عن سياسة تقرير المصير في الجزائر، لكنه لم يفصح عن محتوى تلك السياسة التي بقيت غامضة لمدة طويلة من الوقت، وفي شهر ماي من عام 1960م شرع «ديغول» في وضع مشروعه الخاص بتقرير المصير موضع التنفيذ، حيث قام وكيل الجمهورية في مدينة الجزائر بإجراء اتصالات مع القاضي مريض قدور المتواجد بمدينة المدينة، وذلك بقصد تنظيم لقاء بين قادة الولاية الرابعة وأربعة من كبار الضباط الفرنسيين.

وفي يوم 10 يونيو «جوان» 1960م، استقبل «ديغول» بقصر الأليزي قادة الولاية الرابعة في ذلك الوقت وهم: صالح زعموم «قائد الولاية»، ونائبه محمد بو نعامة «السياسي بنفس الولاية»، واثناء إجراء المفاوضات

(1) المصدر نفسه ص 519.

مع وفد الولاية الرابعة اقترح ديغول على زائريه من الولاية الرابعة أن يتم الاتفاق على وقف إطلاق النار ووضع الأسلحة في أماكن يتم تحديدها مسبقاً بناء على اتفاق مسبق بين الطرفين.

وفي الحقيقة كان واضحاً من هذه الاتصالات أن الغاية منها هي تفجير الثورة الجزائرية من الداخل، فإذا نجحت خطة التفاوض مع رجال الداخل، يستطيع «ديغول» تقسيم الجزائريين وتشتيت قواهم، وذلك عن طريق خلق انشقاق بين قادة الثورة في الداخل والخارج، وإذا لم تنجح خطة التفاوض مع القوات المحاربة في داخل الجزائر ؛ فإن ديغول يستعمل ورقة التفاوض مع بعض الأشخاص في الداخل كوسيلة للضغط على الحكومة المؤقتة، لكي تقبل بشروطه المتمثلة في وقف إطلاق النار وتسليم السلاح ثم إجراء الانتخابات لاختيار قادة جدد[1].

واتضح من الاتصالات التي تمت يوم 10 يونيه «جوان» 1960م بين ديغول وسي صالح في قصر الإليزي بفرنسا، أن كلاًّ منهما كان يدرك في قرارة نفسه أنه لا بديل عن التفاوض مع جبهة التحرير، التي كانت تجسم إرادة الشعب الجزائري في النضال ومواصلة الحرب حتى نيل الاستقلال التام، فقد اعترف «سي صالح» أمام ديغول بأن هذا اللقاء لا يمكن اعتباره موقفاً انعزالياً، أو معارضاً لبقية الرفاق في السلاح في جيش التحرير الوطني الجزائري، وأبلغه كذلك أنه جاء ليتعرف على وجهة النظر الفرنسية بالنسبة لإجراء الاستفتاء الخاص بتقرير المصير، ثم إجراء اتصالات مع المسؤولين الجزائريين الاخرين في الجزائر وخارجها.

وبنفس الصراحة قال له ديغول: بأن فرنسا ستتوجه بدورها بنداء إلى قادة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، تطلب فيه من قادة هذه الحكومة اتخاذ الإجراءات الضرورية لوقف إطلاق النار، وأثنى «سي صالح» على هذه المبادرة من طرف فرنسا، وأكد للجنرال «ديغول» إن وفده جاءإلى فرنسا بقصد دعم فكرة التفاوض ودفع هذه الحركة إلى الأمام، واعترف بأنه لا يملك صلاحيات إجراء حوار مع فرنسا باسم الثورة الجزائرية، ومن الأحسن أن تتفاوض فرنسا مع جبهة التحرير الوطني الجزائري[2].

ج . محاكمة من تفاوض مع ديغول:

انتهت المحاولة التي قام بها ديغول بالفشل، لأن قادة الثورة الجزائرية في الداخل والخارج توحدوا واتفقوا على اعتبار جبهة التحرير الوطني هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الجزائري، وهي المؤهلة لإجراء أي تفاوض مع فرنسا والدفاع عن حقوق الشعب الجزائري.

وبمجرد عودة الوفد الجزائري المفاوض من باريس، ألقي القبض على أعضاء المجموعة وتقديمهم للمحاكمة.

وكانت التهمة الموجهة إليهم هي: أن قيادة الولاية الرابعة ارتكبت سابقة في حق الإجماع العام للثورة، بحيث تجاوزت صلاحياتها كقيادة ولاية من بين ست ولايات أخرى، ووافقت على الالتقاء برئيس دولة تحاربنا منذ سنوات، وتحتل وطننا منذ قرن وربع قرن، دون إذن القيادة العامة السياسية أو العسكرية، وكانت نتيجة التحقيق

(1) المصدر نفسه ص 520.

(2) المصدر نفسه ص 521.

والمحاكمة إعدام أعضاء المجموعة التي تجرأت على الاتصال بفرنسا، والتفاوض مع «ديغول» بدون موافقة القيادة الجزائرية في تونس(1).

8 . بداية التفاوض بين حكومة ديغول وجبهة التحرير:

في يوم 14 يونيه «جوان» 1960م، ألقى الرئيس ديغول خطاب هاماً أعلن فيه عن استعداد فرنسا لاستقبال أي وفد جزائري ترسله الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، بقصد التفاوض مع الحكومة الفرنسية. وتفاءلت الأوساط الدبلوماسية بهذا النداء الموجه للثوار الجزائريين لكي يتحاوروا مع ديغول، بعد أن تخلص من ضغوط الجنرالات وقادة الجالية الأوروبية في الجزائر، ورحبت الحكومة المؤقتة للجزائر بدعوة ديغول للتفاوض، وأرسلت إلى فرنساوفداً يتكون من محمد الصديق بن يحي مسؤول الإعلام بالمحكمة المؤقتة والمحامي أحمد بن منجل «مسؤول الإعلام بالحكومة المؤقتة»، وأما الوفد الفرنسي فقد كان يقوده «روجي موريس» المكلف بالشؤون الجزائرية في قصر الإليزي، والعقيد ماتون الذي كان يتفاوض مع «سي صالح» من الولاية الرابعة بالجزائر.

ومثلما توقع الملاحظون السياسيون فقد باءت هذه الجولة الأولى من المفاوضات بالفشل، لأن الوفد الجزائري لم يعامل كوفد جاء للتفاوض، ولكنه اعتبر بمثابة مجموعة من المتمردين يتعين على فرنسا أن تتعامل معهم بحذر شديد.

وعليه، فإن المفاوضات التي ابتدأت يوم 1960/6/25م واستمرت لغاية 1960/6/29م لم تحقق أية نتيجة إيجابية، لأن الوفد الفرنسي كان يسعى بالدرجة الأولى إلى التفاوض من أجل وقف إطلاق النار وإجبار جيش التحرير على تسليم سلاحه، واستعمال ذلك اللقاء كدعاية له بأن فرنسا ترغب في السلام، والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ترفضه، كما أن وفد جبهة التحرير قد استاء من معاملة السلطات الفرنسية له، حيث فرضت عليه حصاراً إعلامياً وحرمته من إجراء الاتصالات مع الخارج، ولم تسمح له بالزيارات والاتصالات بالصحافة.

ولهذا فشلت محادثات مولان، وعاد الوفد الجزائري إلى تونس وتوقف مسار السلام لمدة 8 أشهر كاملة، وحسب الانطباعات التي عاد بها الوفد الجزائري المفاوض، فإن الحكومة الفرنسية كانت متخوفة من تمرد رجال الجيش وقادة الجالية الأوروبية بالجزائر، والأمل لازال يساورها في إحراز انتصار عسكري على الثوار الجزائريين. وبالفعل، فقد عمد ديغول في صيف 1960م إلى تدعيم الجيش المتكون من 000،500 جندي في الجزائر، وخصص ميزانية كبيرة لتموين الحرب، التي كانت تكلفه يومياً 3 مليارات من السنتيمات الفرنسية، وتماشياً مع هذا المنطق فقد تجسم في أرض الواقع خطر التمرد على ديغول من طرف قادة الجيش والجالية الأوروبية بالجزائر، والعمل من أجل الإطاحة بحكومته.

---

(1) المصدر نفسه ص 521.

ففي يوم 14 سبتمبر 1960م عاد إلى الجزائر الجنرال «سالان» بعد أن أعلن عن تقاعده في شهر يونيه «جوان» 1960م، وذلك بقصد تزعم «جبهة الجزائر الفرنسية»، والمشاركة في المؤامرات التي كانت تحاك ضد ديغول والحكومة الفرنسية بصفة عامة. وفي نفس اليوم الذي وصل فيه «سالان» إلى الجزائر أي 1960/9/24م، أعلن في تصريح للصحافة بأنه لا يحق لديغول أو أي سلطة فرنسية أن تقرر مصير أية أراضي فرنسية توجد تحت سيادة فرنسا. وفي الحال تمَّ استدعاؤه إلى فرنسا ومنعه من الإقامة في الجزائر، غير أن الجنرال «ماسو» الذي كان مصمماً على منع ديغول من التفاوض مع الثوار الجزائريين لم يمكث طويلاً في فرنسا، حيث هرب إلى إسبانيا، ثم التحق بالجزائر التي عاد إليها وهو خارج على القانون.

وفي يوم 4 نوفمبر 1960م، قرر «ديغول» أن يتقدم خطوة ثانية إلى الأمام في طريق المفاوضات، ففي خطابه التاريخي يوم 1960/11/4م أعلن الرئيس الفرنسي عن ميلاد «الجزائر الجزائرية»، وأكد في خطابه بأنه سيواصل العمل من أجل تحقيق السلم في الجزائر. وتحقيقاً لهذا الهدف، قام بإرسال وزيره للدفاع «بيير مسمير» إلى الجزائر، وذلك لإبلاغ قادة الجيش أن الوقت قد حان للتفاوض وتطبيق الاستفتاء الخاص بتقرير المصير، وتسيير الجزائر من الجزائر العاصمة بطريقة مستقلة.

وفي يوم 1960/11/23م أقدم «ديغول» على تنحية المندوب العام في الجزائر «بول ديلو فريبي»، الذي كان يهادن الأوربيين ويخاف من تمردهم على فرنسا، وتعويضه بالسيد «جين موران» الذي لم يكن متخوفاً من مواجهة الأوربيين في الجزائر.

وفي الأسبوع الثاني من شهر ديسمبر 1960م بدأ يتحرك «ديغول» ويثبت الأوربيين في الجزائر أنه سيد الموقف في فرنسا، وأن الأوربيين لن يستطيعوا من الان فصاعداً فرض إرادتهم على فرنسا[1].

9 . زيارة الجنرال ديغول للجزائر والمظاهرات الحاشدة:

ففي يوم 1960/12/8م قام الرئيس الفرنسي بزيارة إلى الجزائر، وذلك بقصد تهيئة الجو لإجراء الاستفتاء الخاص بتقرير المصير، الذي تقرر أن يجري في كل من الجزائر وفرنسا في شهر يناير «جانفي 1961م»، وقد انتهز الأوربيون هذه الفرصة لكي يقوموا بمظاهرات صاخبة ضد ديغول، وضد سياسته في الجزائر، وفي هذه المرة قام الملايين من الجزائريين المسلمين بمظاهرات مضادة ينادون فيها باستقلال الجزائر والتفاوض مع جبهة التحرير الوطني.

وباختصار فإن مظاهرات ما يزيد عن 8 ملايين مسلم جزائري في الفترة الممتدة من 10 إلى 13 ديسمبر 1960م ؛ أقنعت «ديغول» بأنه من الصعب على فرنسا أن تسترد ثقة المواطنين الجزائريين، وكما قال بن يوسف بن خدَّة، فإن هذه الانتفاضة الشعبية كانت منعرجاً في مسيرة وحدة الثورة، وحدثاً حاسماً في تاريخ معركتنا المسلحة وفي سير المفاوضات.

---

(1) المصدر نفسه ص 524.

لقد أظهرت هذه الانتفاضات روح الكفاح والقدرات النضالية التي ظلت مرتفعة لدى الجماهير رغم الإرهاب البوليسي والعسكري، فأقنعت ديغول بضرورة التفاوض، وأن كل محاولة ترمي إلى حل عسكري ستبقى بدون جدوى، وعليه كانت هذه الانتفاضة الشعبية عاملاً حاسماً في التعجيل بسير المفاوضات[1].

إن مظاهرات 11 ديسمبر 1960م قد بينت للشعب الفرنسي حقيقة الثورة الجزائرية، حيث برز فيها تيار مناهض للسياسة الفرنسية يطالب بحل القضية الجزائرية عن طريق التفاوض مع قادة الثورة[2].

لقد فتحت هذه المظاهرات جبهة جديدة شعبية مستمرة ضد العدو، ولم تتوقف المظاهرات هنا وهناك. سواء كانت تلقائية غير منظمة، أو بأمر وتنظيم من طرف الثورة. إلى غاية تحقيق النصر.

ولقد استغلت قيادات إدارات الثورة في مختلف المستويات. سواء في الحكومة المؤقتة بالخارج أو في الولايات بالداخل. هذه المظاهرات استغلالاً سياسياً حسناً، بالقيام بحملة دعائية وإعلامية واسعة النطاق لتقوية وترسيخ وتعميق تضامن الشعب لفائدة الثورة، فيما بين بعضه، وبين الثورة في وقت واحد[3].

10. عودة المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني:

نال الجنرال ديغول تأييد أبناء شعبه لسياسته في الاستفتاء التاريخي يوم 8 يناير 1961م، حيث أيَّد 75% من الشعب في فرنسا 53% في الجزائر لسياسة تقرير المصير، وكان قد رأى بنفسه المظاهرات في الجزائر عند زيارته لها، وما اتسمت به من التنظيم المحكم، وقد برهنت له أن جبهة التحرير الوطني هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الجزائري، ولهذا قرر استئناف المفاوضات مع الحكومة المؤقتة عن طريق الاتصالات السرية بهدف دراسة الخطوط العريضة[4]، وطلب من قادة الجبهة العودة إلى مائدة المفاوضات لاستئناف محادثات «مولان» التي توقفت يوم 1960/6/29م.

أ. وساطة سويسرية:

نجحت الدبلوماسية السويسرية في تهيئة الظروف بين فرنسا والحكومة المؤقتة للبدء في المفاوضات، وفي يوم 19 فبراير 1961م وصل إلى مدينة «لوسيرن» السيد جورج بومبيدو رئيس بنك روتشيلد والسيد «برينو» الفرنسية، كما وصل إلى نفس المدينة الوفد الجزائري، الذي كان يضم أحمد بو منجل المحامي المشهور في القانون ومدير الإعلام بالحكومة المؤقتة، وكذلك السيد الطيب بولحروف ممثل الجزائر في روما وسويسرا، وأما الجانب السويسري الذي كان يعمل على تهيئة الظروف اللازمة لنجاح المفاوضات، فقد كان يقوده السيد «جيانريكو بوشي» والسيد «أوليفيي لونق».

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 525.

(2) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 477.

(3) ملحمة المظاهرات الشعبية، على بوداري ص 153.

(4) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 481.

وفي يوم 1961/2/20م، التقى بمدينة «لوسيرن» السويسرية الوفدان الفرنسي والجزائري، واقترح بومبيدو على وفد جبهة التحرير أن يوضح موقفه من عدة قضايا تتعلق بكيفية إجراء الاستفتاء الخاص بتقرير المصير، والضمانات التي ينبغي تقديمها للجالية الأوربية بالجزائر، والمرسى الكبير بمدينة وهران والصحراء الجزائرية، ثم أكد الوفد الفرنسي الذي يعبر عن وجهة نظر حكومة باريس بأن القيادة الفرنسية مستعدة لإجراء الانتخابات الخاصة بتقرير المصير واحترام نتائجها، واقترح بأن تبدأ المفاوضات الرسمية بعد وقف إطلاق النار، وبالنسبة لقضية الصحراء فلا نقاش فيها لأن الصحراء منطقة شاسعة تحيط بها عدة دول، والجزائر ما هي إلا إحدى هذه الدول، وعلى فرنسا أن تستشير الجميع، وفيما يخص المرسى الكبير فقد اعتبره الوفد الفرنسي تابعاً لفرنسا، مثل جبل طارق الخاضع للسيادة البريطانية في التراب الإسباني، وقد ألح «بومبيدو» على ضرورة الاتفاق على هدنة ووقف إطلاق النار قبل الشروع في أية مفاوضات، كما لمح «بومبيدو» إلى ضرورة إشراك تيارات أخرى في المفاوضات بحيث لا تكون جبهة التحريرهي الممثل الوحيد للشعب الجزائري.

واستمر الوفدان في المفاوضات لغاية 1961/2/15م، وهو اليوم الذي اكتشف فيه كل طرف أن المواقف متباعدة، ولا يمكن التغلب على الصعاب التي برزت أثناء النقاش بين أعضاء الوفدين، فالجزائريان رفضا الأفكار التي عرضها المفاوضان الفرنسيان والمتمثلة فيما يلي:

. منح الحكم الذاتي للجزائر.

. فصل الصحراء عن الجزائر.

. تقسيم الجزائر من الناحية العرقية إلى مسلمين وأوربيين.

. بحث القضايا حول طاولة مستديرة.

. قبول هدنة قبل إجراء المفاوضات الرسمية[1].

واشترط أعضاء الوفد الجزائري أن تتم المفاوضات لتحقيق الأهداف التالية:

. الاستقلال التام.

. السيادة التامة للجزائر.

. وحدة التراب الوطني بما في ذلك الصحراء.

. وحدة الأمة الجزائرية وعدم وجود أية تجزئة.

. جبهة التحرير هي الممثل الوحيد للشعب الجزائري بأكمله.

. وقف إطلاق النار بعد التوصل إلى اتفاق.

ثم إن الخلاف الحاد الذي حصل بين الوفدين يتمثل في طلب الوفد الجزائري بإطلاق سراح الزعماء الخمسة المسجونين، حتى يتسنى لهم المشاركة في المفاوضات، في حالة إصرار الوفد الجزائري على هذا الطلب، كما

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 275.

رفض الوفد الفرنسي الطلب الذي تقدم به الوفد الجزائري، والخاص باستقبال الجنرال «ديغول» للسيد فرحات عباس رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية[1].

وخلال شهر مارس من عام 1961م توقفت المفاوضات لمدة قصيرة من الوقت، وعاد كل وفد إلى قيادة بلده، والتشاور مع كبار المسؤولين بدولته.

وفي يوم 30 مارس 1961م، اتفق الطرفان على الدخول في مفاوضات رسمية ابتداء من يوم 7 أفريل 1961م في مدينة «إيفيان»، غير أن تصريح «لويس جوكس» وزير الشؤون الجزائرية يوم 1961/3/31م بأن فرنسا ستتفاوض مع «الحركة الوطنية الجزائرية» التابعة لمصالي الحاج ؛ قد غير مجرى الأمور. حيث أعلنت الحكومة الجزائرية أنها ترفض أن تحضر مفاوضات «إيفيان» ما دامت فرنسا تنوي التفاوض مع حركة أخرى لا تلعب أي دور في حركة تحرير الجزائر من قوات الاحتلال الفرنسية.

وحاولت فرنسا أن توضح للجزائريين أن تصريح «جوكس» ليس له أي أثر سواء على مستقبل الجزائر أو اعتراف فرنسا بالتفاوض مع جبهة التحرير، كما ورد في البيان الصادر بتاريخ 1961/3/30م، وقد أدلى «جوكس» بذلك التصريح قبل أن يطلع على البيان المشترك الصادر بتاريخ 1961/3/30م، والذي اعترفت فيه فرنسا بجبهة التحرير الوطني، كطرف مفاوض مع الحكومة الفرنسية، غير أن الحكومة الجزائرية لم تقتنع بهذه الحجج ورفضت التفاوض مع فرنسا، إلا إذا أعلنت هذه الأخيرة أنها لن تتفاوض في نفس الوقت مع الحركة المصالية[2].

ب . محاولة انقلاب فاشلة:

في الفترة الممتدة من 22 إلى 26 أفريل 1961م قام جنرالات فرنسا «شال، جوهو، سالان، زيلر» بمحاولة انقلاب فاشلة ضد «ديغول» في الجزائر. وفي هذه الفترة من تاريخ فرنسا شعر «ديغول» بالخطر الذي يهدد فرنسا، وانقسامها إلى مؤيد ومعارض للاستفتاء الخاص بتقرير المصير في الجزائر، وتأكد لدى «ديغول» أنه إذا لم يستطيع أن ينهي الحرب في الجزائر ؛ فإنها ستقضى عليه وتدخل الأمة الفرنسية في غمار حرب أهلية[3].

واستغل «ديغول» فرصة القضاء على الجنرالات المتمردين ضد حكومته وتقديمهم للمحاكمة، وتجريدهم من جميع الرتب والامتيازات التي كانوا يحصلون عليها، فأظهر استعداداً كبيراً لاستئناف التفاوض مع جبهة التحرير والتخلص من المشكل الجزائري الذي أصبح يقلقه، وعندما استلم لويس جوكس اقتراحاً من الحكومة المؤقتة عن طريق الحكومة السويسرية باستئناف المفاوضات الجزائرية الفرنسية، أجاب «ديغول» بأن فرنسا على استعداد لاستئناف المفاوضات مع جبهة التحرير بسرعة، وذلك بقصد وضع الأوربيين في الجزائر أمام الأمر الواقع، بدلاً من العمل على إقناعهم.

---

(1) المصدر نفسه ص 528.

(2) المصدر نفسه ص 529.

(3) اتفاقيات إيفيان، يوسف بن خدة «معرّب» ص 23.

واقترح الوفد الفرنسي أن تبدأ المفاوضات من جديد يوم 1961/6/15م، وفي نهاية الأمر استقر الرأي على استئناف المفاوضات بصفة رسمية يوم 20 ماي/ 1961م[1].

* * *

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص.

رابعاً: اتفاقية إيفيان

بدأت المباحثات الجزائرية الفرنسية يوم 20 ماي 1961م،ودامت إلى 13 جوان 1961م.
مكان الاجتماع موجود في إيفيان، مدينة فرنسية على الحدود مع سويسرا.
وكان أعضاء الوفد الجزائري يبيتون بسويسرا بقصر وضعه تحت تصرفهم أمير قطر، وكانوا يُنقلون بطائرة عمودية أو سفينة في ظروف أمنية مشدَّدة، وقد كان أعضاء الوفدين يتبادلون التحية ولكن بدون مصافحة.
وتألف الوفد الجزائري من بلقاسم كريم نائب رئيس الحكومة الجزائرية مكلَّف بالشؤون الخارجية، وسعد دحلب أمين عام لوزارة الخارجية، وأحمد بو منجل مدير سياسي في وزارة الإعلام، والرائد أحمد قائد، والرائد علي منجلي من هيئة الأركان العامة لجيش التحرير الوطني، والطيب بولحروف ممثل جبهة التحرير في روما، ومحمد بن يحيى إطار في الحكومة، ورضا مالك مكلَّف بالعلاقات مع الصحافة.
فيما يخص مشاركة ممثلي هيئة الأركان العامة لجيش التحرير الوطني في مباحثات إيفيان، يقول سعد دحلب ما يلي: إن سلوك هيئة الأركان العامَّة في مباحثات سنة 1962م، هو عبارة عن امتناع وترك الحكومة تعمل بدون تدخلها، وذلك حتى تنزع مسؤوليتها عند تطبيق السياسة المترتبة على اتفاقيات إيفيان[1].
وتألف الوفد الفرنسي من رئاسة الوفد لويس جوكس وزير الشؤون الجزائرية في الحكومة الفرنسية، والمرافقين له حوالي ثمانية أشخاص، وتأزم الوضع بين الفريقين منذ البداية. فالفرنسيون قد جاؤوا إلى «إيفيان» بقصد التفاوض بشأن تحديد الشروط الخاصة بالفترة الانتقالية من الإدارة الفرنسية إلى الإدارة الجزائرية، والحصول على الضمانات الخاصة بالأوربيين وأملاكهم بالجزائر، وكذلك المطالبة بمنحهم جنسية مزدوجة، غير أن الجزائريين رفضوا هذا الطرح واقترحوا التفاوض بشأن الاستفتاء الخاص بتقرير المصير، وحصول الجزائر على استقلالها.
واتهم السيد كريم بلقاسم وفد فرنسا بأن هذه الأخيرة تريد أن تفرض وضعاً معيناً قبل إجراء انتخابات تقرير المصير، واعتبر كريم بلقاسم الاقتراحات الفرنسية بمثابة محاولة تهدف إلى وضع قوانين خاصة للاحتفاظ بامتيازات الأوربيين في الجزائر وفرض الأمر الواقع على الجزائريين[2].

1 . انسحاب الوفد الفرنسي وعودة المفاوضات:

في يوم 1961/6/13م، قرر «ديغول» أن يسحب وفده من المفاوضات التي أصبحت تدور في حلقة مفرغة، واتهم «ديغول» الوفد الجزائري بأنه جاء إلى المفاوضات بقصد القيام بالدعاية، وفرض الشعارات الثورية التي تتبناها الثورة الجزائرية. وتساءل «ديغول» كيف يمكن تحقيق أي تقدم على طاولة مفاوضات يوجد حولها 19 متفاوضاً؟ وتساءل لماذا لا يقبل الوفد الجزائري بتخفيض العدد حتى يمكن إحراز تقدم ملموس؟

(1) الثورة الجزائرية، د . بو علام بن حمودة ص 558.
(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 530.

وأثناء توقف المفاوضات ذهب «لويس جوكس» إلى الجزائر لكي يتعرف على الشعور السائد هناك تجاه المفاوضات، وبعد عودته إلى باريس هتف إلى الوسيط السويسري السيد «أوليفي لونت»، وأبلغه بأن جميع الجهات التي اتصل بها في الجزائر كانت مؤيدة للتفاوض مع وفد جبهة التحرير، وأنه سيتصل بالجنرال «ديغول» ويعرض عليه فكرة استئناف المفاوضات عن قريب.

واستُؤنفت المباحثات يوم 20 جوليه 1961م بمدينة لوقران الفرنسية القريبة من الحدود السويسرية[1]، إلا أن الوفد الجزائري غاب عنه الرائد أحمد قايد والرائد علي منجلي، لأنَّ هيئة الأركان قاطعت الأشغال بسبب خلافها مع الحكومة المؤقتة، ودام الاجتماع من 20 إلى 28 جويليه 1961م[2].

2 . الوفد الجزائري يقطع المفاوضات:

توقفت المفاوضات يوم 1961/7/28م من نفس الشهر، وذلك بطلب من الوفد الجزائري في هذه المرة. وجاء هذا الانقطاع بمثابة صدمة للفرنسيين والسويسريين بسبب رفض فرنسا أن تكون الصحراء خاضعة للسيادة الجزائرية حتى بعد استقلال الجزائر، ولم يبق أي مسؤول كبير في الحكومة المؤقتة بجنيف لمواصلة الاتصالات، وعاد أعضاء الوفد الجزائري كله إلى تونس، ما عدا السيد الطيب بو لحروف سفير الجزائر بسويسرا وإيطاليا.

وفي الفترة الممتدة من 9 إلى 1961/8/27م اجتمع أعضاء المجلس الوطني للثورة في طرابلس، وذلك بقصد دراسة نتائج المفاوضات مع فرنسا، وتقييم مسار الثورة الجزائرية بعد حوالي 7 سنوات من الحرب المتواصلة ضد الاستعمار الفرنسي، وبعد نهاية الاجتماع في يوم 1961/8/27م صدر بيان من المجلس الوطني للثورة الجزائرية، يدعو فيه إلى تقوية العمليات العسكرية لجيش التحرير الوطني الجزائري، وتجنيد الجماهير الجزائرية لمواصلة الكفاح حتى نيل الاستقلال التام، وتحقيق مبدأ الوحدة الترابية للوطن، ووحدة الشعب الجزائري. كما تقرر في هذا المؤتمر تغيير عدد من أعضاء الحكومة التي يرأسها فرحات عباس، حيث تم تعيين بن يوسف بن خدة رئيساً للحكومة الجديدة، وسعد دحلب وزيراً للخارجية،، وكريم بلقاسم وزيراً للداخلية، ونائباً لرئيس الحكومة[3].

3 . المفاوضات السرية:

قرَّر المتفاوضون اختيار اتصالات سرية للتهرب من الصحافيين، ومن تسريب أخبار قد تضر بسير المفاوضات.

---

(1) المصدر نفسه ص 531.

(2) الثورة الجزائرية، د . بو علام ص 559.

(3) التاريخ السياسي للجزائر ص 533.

وفي يوم 28 أكتوبر 1961م انطلقت المفاوضات السرية بين الوفد الجزائري المتكون من رضا مالك ومحمد الصديق بن يحيى، والوفد الفرنسي المتكون من دولوس وشايي. وبعد يومين من التفاوض السري، قرّر الوفدان الافتراق على أن يلتقيا من جديد في الفترة الممتدة من 8 إلى 10 نوفمبر 1961م.

وتعقد الوضع من جديد يوم طلبت الحكومة المؤقتة من الحكومة الفرنسية أن تسمح لوفد جزائري بزيارة الزعماء الخمسة الذين لا زالوا في السجن بفرنسا. واشترط «ديغول» أن يحصل هذا بعد أن يسفر اللقاء بين جوكس ودحلب على نتائج إيجابية في اجتماعهما القادم، وبالفعل فقد اجتمع «جوكس» ودحلب يوم 9 ديسمبر 1961م بمدينة «روس» الفرنسية، وتوصلا إلى نتائج مرضية.

وفي يوم 1961/12/15م، وافقت السلطات الفرنسية للسيد محمد الصديق بن يحيى أن يتوجه إلى فرنسا، ويجري اتصالات مباشرة بالزعماء الخمسة المسجونين في قصر «أولنوا»، وبعد عودة بن يحيى من فرنسا، التقى الوزيران الفرنسي والجزائري يوم 1961/12/25م بنفس المدينة «روس»، وفي هذا اللقاء قامت فرنسا بتقديم مشروع بيان إلى الحكومة المؤقتة، والتزمت هذه الأخيرة بدورها بتقديم مشروع بيان إلى فرنسا في مطلع يناير 1962م، وفي الفترة الممتدة من 27 إلى 29 ديسمبر 1961م قام بن طوبال بزيارة الزعماء الخمسة، والتقى للمرة الثالثة «جوكس» ودحلب يومي 29 و30 ديسمبر 1961م، وذلك بقصد تقديم وثيقة إضافية من الحكومة الفرنسية إلى الحكومة المؤقتة[1].

وفي يوم 9 يناير 1962م، جاء محمد الصديق بن يحيى بمشروع الحكومة المؤقتة الذي سلمه إلى المسؤولين الفرنسيين، وبعد دراسته طلب «ديغول» من جوكس أن يعجل بإنهاء المشكل الجزائري، والإقلال من الاتصالات المتواصلة برئيس الوفد الجزائري. والسبب في هذا التوجه الجديد هو أن المنظمة السرية للجيش قد كثفت من نشاطاتها في الجزائر، وأصبحت هي التي تؤثر في الأوربيين بالجزائر، والحكومة الفرنسية أصبحت غير قادرة على التحكم في زمام الأمور هناك، كما أن البلبلة والقلق والتخوف من المستقبل قد بدأت تزعج أبناء الشعب الفرنسي في فرنسا ذاتها.

وعليه ؛ فإن أبناء الشعب الفرنسي، والرئيس «ديغول» نفسه، بدؤوا يحسون أنه لا فائدة تجدي من هذه المراوغات، وأن المفاوضات هي الطريقة الوحيدة لإنهاء المشكل الجزائري، ثم إن أبناء الجزائر قد أصبحوا يتعرضون للاغتيالات والمضايقات من أعضاء منظمة الجيش السرية في الجزائر.

وهذا الموقف والتطور المفاجئ، دفع بأعضاء الوفد الجزائري في المفاوضات أن يستعجلوا ويتوصلوا إلى اتفاق مع الحكومة الفرنسية في أسرع وقت ممكن، قبل أن تفلت الأمور من يد المسؤولين الفرنسيين المتواجدين بالجزائر[2].

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 534.

(2) المصدر نفسه ص 535.

4. استمرار المفاوضات:

في يوم 10 فبراير 1962م، وصل إلى سويسرا الوفد الجزائري المتكون من كريم بلقاسم «نائب رئيس الحكومة» ووزير الداخلية، سعد دحلب وزير الخارجية، وبن طوبال «وزير دولة»، محمد يزيد «وزير الإعلام»، ويرافقهم محمد الصديق بن يحيى، رضا مالك، الصغير مصطفاوي.

وفي نفس اليوم وصل أيضاً الوفد الفرنسي المتكون من: «لويس جوكس» وزير الشؤون الجزائرية، جين دوبرقلي كاتب الدولة مكلف بالصحراء «من حركة الاستقلاليين»، روبير بيرون وزير الأشغال العمومية، من حركة الجمهورية الشعبية، ويرافقهم المستشار «برينو دولوس» و«رولان بيليكار» والجنرال «دو كاماس» و«كلود شايي».

وخلال تسعة أيام من العمل المتواصل بمدينة لي روس من 9 إلى 20 فبراير 1961م، حاول كل وفد أن يحصل على نتائج مرضية لحكومته، وكل طرف أدرك أن الصعوبة لا تكمن فيما يتفق عليه رجال الاختصاص في المفاوضات، وإنما تكمن في إقناع المسؤولين في المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وفي الحكومة الفرنسية التي تسعى لطمأنة الأوربيين في الجزائر أن الاتفاق يمنحهم ضمانات كافية لحمايتهم بصفتهم أقلية من أي قرار تتخذه الأغلبية، والذي قد يضر بمصالحهم وامتيازاتهم في الجزائر وما أكثرها[1].

وفي هذه الاجتماعات السرية والحاسمة «10 . 20 فبراير 1961م» عكف الخبراء على دراسة مشروع الاتفاق الخاص بوضع حد للحرب الجزائرية التي دامت ما يزيد عن 7 سنوات، ونتج عنها تشتيت أبناء الشعب الجزائري، واستنزاف طاقة أبناء الشعب الفرنسي مالياً وبشرياً ومعنوياً. وقد كانت النقاط الحساسة التي تشغل بال الخبراء وتختلف التصورات والحلول المقترحة بشأنها، وتتلخص فيما يلي:

. مطالبة فرنسا ببقاء الجيش الفرنسي في قواعد معينة بالجزائر مثل المرسى الكبير، وقواعد التجارب العسكرية بالصحراء، في حين يرفض الجزائريون بقاء جيش الاحتلال ببلادهم، لأنه يمس بالسيادة الوطنية.

. إصرار فرنسا على فصل الصحراء، وذلك لأنها مشتركة بين عدة دول، ولا يمكنها أن تتخلى عنها بسبب الاستثمارات الكبيرة في البترول، بينما تمسك الجزائريون بوحدة التراب الوطني والسيادة الكاملة على جميع الأراضي الجزائرية.

. تمسك فرنسا بمبدأ ازدواجية الجنسية للأوربيين المقيمين بالجزائر وعدم التعرض لأملاكهم، ورفض الجزائريون هذه الفكرة أو المبدأ وأصروا على عدم إعطائهم أي امتياز، وعليهم الاختيار بين أخذ الجنسية الجزائرية والخضوع للقوانين أو البقاء كأجانب.

. طالبت الجزائر أن يشارك الزعماء الخمسة المسجونون في المفاوضات، والمشاركة أيضاً في الاجتماع القادم للمجلس الوطني للثورة الجزائرية الذي يعتبر السلطة العليا للثورة الجزائرية، وهو الذي يوافق أو لا يوافق على

(1) المصدر نفسه ص 536.

أي اتفاق تبرمه الجزائر مع فرنسا، غير أن الوفد الفرنسي رفض إطلاق سراحهم إلى أن يتوصل الطرفان المتفاوضان إلى اتفاق رسمي مقبول من طرف فرنسا والجزائر.

. اعتبرت فرنسا قضية وقف إطلاق النار قضية أساسية، ولا بد من الاتفاق على يوم معين لوقف إطلاق النار قبل الشروع في المفاوضات، لكن الحكومة المؤقتة رفضت فكرة إيقاف العمليات الحربية قبل التوصل إلى اتفاق رسمي بين الجانبين.

. اقترحت فرنسا أن لا يدخل جنود جيش التحرير إلى المدن بألبستهم العسكرية وأسلحتهم، حتى لا يشعر السكان أنهم انتصروا عسكرياً على فرنسا، كما طالب الجانب الفرنسي بدخول جنود جيش التحرير إلى الثكنات التي يتخلى عنها الجيش الفرنسي، وهو مجرد من سلاحه وكأنه جيش مهزوم، هذه الخطة لم يقبلها الوفد الجزائري شكلاً ومضموناً.

. اشترط الجزائريون على فرنسا أن لا تكون هناك متابعة قانونية وتعسفية ضد الفرنسيين الذين تعاونوا مع الثورة الجزائرية، لكن الوفد الفرنسي اعتبر ذلك تدخلاً في شؤون فرنسا الداخلية، ورفض هذا الطلب الجزائري.

. تمسكت فرنسا بفكرة بقاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية خارج الجزائر لغاية يوم إجراء الاستفتاء الخاص بتقرير المصير، بينما طالبت الحكومة المؤقتة المشاركة في تسيير الجزائر منذ اليوم الأول الذي يتم فيه إبرام معاهدة السلام بين البلدين[1].

5 . الوصول إلى اتفاق إيفيان:

وبعد أخذ ورد وتبادل الاراء حول هذه المواضيع، وتأزم الوضع بالجزائر حيث أصبح زعماء الجالية الأوربية يهددون بالقيام بثورة مضادة ضد حكومة فرنسا وحكومة الجزائر ؛ توصل الوزراء والخبراء إلى مشروع اتفاق على جميع النقاط المدرجة في جدول الأعمال، وحولوا ذلك المشروع إلى الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وحكومة الجمهورية الفرنسية، لإبداء الرأي فيه وتقديمه للسلطات المختصة في كل بلد للموافقة أو الاعتراض عليه.

وفي يوم 20 فبراير 1961م عاد الوفد الجزائري إلى تونس، وقدم مشروع الاتفاق إلى الحكومة المؤقتة التي درسته دراسة دقيقة، ثم استدعت 71 عضواً من أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية «البرلمان» لمناقشة مسودة الاتفاق، وفي الفترة الممتدة من 22 إلى 27 فبراير 1962م، اجتمع قادة المجلس الوطني للثورة بمدينة طرابلس «ليبيا»[2]، وقد حضر الاجتماع «33» عضواً، وأرسل 16 عضواً وكالات على التصويت.

إن رئيس الحكومة المؤقتة يوسف بن خدّة هو الذي قدَّم نتائج المفاوضات، ثمَّ تدخل سعد دَحَلب كمُقرِّر، وذكر رئيس الحكومة المؤقتة أن يوم توقيف القتال سيكون يوم 19 مارس 1962م في منتصف النهار على حسب ما أُتفِق عليه.

(1) المصدر نفسه ص 537.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 538.

وجرى نقاش داخل المجلس الوطني للثورة الجزائرية، أما الأصوات الرَّافضة، فإنها انحصرت في أعضاء هيئة الأركان العامَّة «باستثناء رابح زيراري»، وقد طلبوا تحسين الوضع السياسي الداخلي قبل كلِّ شيء، وأثاروا نقصاً في النصوص.

وفي التشاور أعضاء الأركان العامة لم يعارضوا توقيف القتال ولا الاستفتاء من أجل تقرير المصير، إلا أنهم استنكروا قبول قوَّة محلية لحفظ الأمن. وحاول خليفة العروسي انتقاد الجوانب الاقتصادية للاتفاقيات، إلا أنَّ حُججه لم تصمد أمام شروح سعد دحلب.

صوّت المجلس الوطني للثورة الجزائرية على مشروع اتفاقيات إيفيان بـ «45 صوتاً مؤيداً، 33 عضواً كانوا حاضرين في الاجتماع و16 عضواً أرسلوا وكالات، وقد صوَّت ضد اتفاقيات إيفيان أعضاء من هيئة الأركان العامَّة وهم: هواري بومدين، «محمَّد بو خرّوبة»، وعلي منجلي، وأحمد قائد، وانضم إليهم مختار بويزم قائد الولاية الخامسة، والحقيقة أن تصويتهم كان ضد الحكومة المؤقتة لا ضدَّ النصوص، علماً بأن المصادقة على اتفاقيات ايفيان كانت تقضي أغلبية 2/3 من الحاضرين والموكِّلين، فهي مضمونة في 45 صوتاً مؤيداً من بين 49 صوتاً.

ولقد جدَّد المجلس الوطني للثورة الجزائرية الثقة للحكومة المؤقتة، وكلَّفها بإمضاء الاتفاقيات[1].

وفي يوم 5 مارس 1962م صدر بيان في باريس وتونس في ان واحد، يؤكد للعالم أن وفداً عن الحكومة الفرنسية ووفداً عن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية سيلتقيان بمدينة «ايفيان» يوم 7 مارس 1962م، وذلك لإجراء مفاوضات رسمية وعلنية بينهما.

ونظراً لتدهور الأوضاع بالجزائر، فقد جاء الوفد الفرنسي بإرادة قوية للتغلب على المشاكل التي لا زالت مثار خلاف حاد بين الطرفين، كما أن الوفد الجزائري قد تجاوب معه وقام بتقديم بعض التنازلات، وأظهر ليونة كبيرة في مواقفه ؛ ما دامت الحكومة الفرنسية مستعدة للاعتراف بسيادة الجزائر على جميع أراضيها.

وفي يوم 18 مارس 1962م توصل الجانبان إلى اتفاق نهائي، وتم الاتفاق على وقف إطلاق النار يوم 19 مارس على الساعة الثانية عشر من ظهر ذلك اليوم. وفي اليوم التالي أفرجت فرنسا عن الزعماء الخمسة المسجونين لديها، والذين توجهوا إلى المغرب من سويسرا، وذلك في طائرة أمريكية مؤجرة من طرف ملك المغرب.

ثم هاجروا بعدها المغرب لزيارة بعض الأقطار العربية، وفي مقدمتها مصر، إذ وصلوا يوم 29 اذار/ مارس 1962م، واستقبلهم بعد ذلك الرئيس جمال عبد الناصر وسط موكب رسمي وشعبي كبير، ثم غادر الوفد بعدها إلى بغداد في 5 نيسان/ أبريل من العام نفسه. إذ استقبله في المطار الزعيم عبد الكريم قاسم رئيس وزراء العراق، وتم استقبال الوفد بحفاوة رسمية وشعبية كبيرة فاقت الخيال كما ذكر ابن بلة، فقد أحاط مد جماهيري

(1) الثورة الجزائرية، د . بو علام ص 563.

كبير موكبهم من كل جانب، وكانت الهتافات تدوي بحياة الجزائر الحرة ومجاهديها الأبطال، وبعدها تمت زيارتهم إلى ليبيا وتونس.

والجدير بالذكر، أن شخصية أحمد بن بلة كانت محط أنظار المسؤولين واهتمامهم في الأقطار العربية التي زارها، وقد أكد ابن بلة في مصر والعراق أن الثورة الجزائرية جزء من الثورة العربية الكبرى وحركة التحرر الأفريقية، مؤكداً مواصلة كفاحه حتى تتحقق أهدافه كاملة في الميدان العربي والأفريقي بالكفاح ضد الاستعمار، وبشكل خاص النضال من أجل تحرير فلسطين(1).

6 . خطاب رئيس الحكومة المؤقتة يوسف بن خدّة للشعب الجزائري:

هذا الخطاب وجهه السيد يوسف بن خدّة رئيس الحكومة المؤقتة إلى الشعب الجزائري مساء يوم 18 مارس 1962م الساعة الثامنة والنصف من إذاعة تونس.

أيها الشعب الجزائري:

بعد عدة شهور من المفاوضات الصعبة الشاقة، تحقق اتفاق عام في ندوة إيفيان بين الوفد الجزائري والوفد الفرنسي، وهذا نصر عظيم للشعب الجزائري الذي أصبح حقه في الاستقلال مضموناً. ونتيجة لذلك، باسم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية المفوضة من طرف المجلس الوطني للثورة الجزائرية، فإنني أعلن وقف إطلاق النار في كامل أنحاء الوطن الجزائري ابتداء من يوم الاثنين 19 مارس 1962م على الساعة 12 بالضبط، وإنني باسم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية أصدر الأمر إلى جميع قوات جيش التحرير الوطني المحاربة بالتوقف عن العمليات العسكرية، وعن النشاط المسلح في مجموع التراب الجزائري.

أيها الجزائريون والجزائريات:

مضى الان سبع سنوات ونصف منذ أن حمل الشعب الجزائري السلاح ليفتكّ حريته واستقلاله وسيادته الوطنية، فالمجد للشعب الجزائري الذي سجل في هذه الملحمة الكبرى أروع صفحة في تاريخه، ورحم الله كل ضحايا الكفاح وجميع الشهداء الذين سقطوا في ميدان الشرف ليحيا الوطن الجزائري، والمجد لجرحانا الذين لا حصر لهم، والذين واجهوا قوى الاستعمار المتكالبة وعرَّضوا حياتهم للخطر.

والمجد للمناضلين في جبهة التحرير الوطني الذين كانوا في طليعة المعركة.

والمجد للمساجين والموقوفين في المحتشدات الذين تألموا في سجون الاستعمار.

إليكم جميعاً تعلن الأمة اعترافها الأبدي، وتتخذ منكم الأجيال القادمة مثلاً أعلى، وتجعل منكم ذكرى خالدة، فبفضلكم وبفضل إخلاصكم وتضحياتكم التي لا حدَّ لها، تحققت انتصارات ضخمة في طريق التحرر، واليوم وفي هذا الظرف التاريخي أحيِّي الشعب الجزائري البطل الذي دفع ثمناً غالياً في هذه الحرب وبذل من شجاعته، وأبدى من نزاهته وإخلاصه ما استرجع به الوطن السليب الجزائري وأعاد إليه كرامته.

---

(1) المغرب العربي المعاصر، د . محمد علي داهش ص 113.

أيها الجزائريون والجزائريات:

منذ سبع سنوات ونصف من الحرب القاسية وقف الشعب الجزائري أمام إحدى القوات العظمى العالمية في عصرنا، لقد تجند أكثر من مليون جندي فرنسي لقهر شعبنا، واستعملوا في سبيل ذلك كل أسلحتهم العصرية من طائرات ومدافع ودبابات وسفن حربية، وبلغ بفرنسا أن أنفقت ثلاثة ملايين فرنك في اليوم في هذه الحرب، وكانت مع ذلك تستفيد من الإعانات الضخمة التي يمدها بها الحلف الأطلسي في جميع الميادين العسكرية والمالية والسياسية والمعنوية، وحاول الاستعمار الفرنسي بواسطة قسم كبير من المستوطنين في الجزائر أن يتشبث بالجزائر الفرنسية.. كل هذه القوة بماذا قابلها الشعب الجزائري؟ قابلها أولاً بإيمانه بعدالة قضيته وبثقته بنفسه ومستقبله، وقابلها بإرادته التي لا تتزعزع، وعزمه على فك أغلال الاستعمار، وقابلها أخيراً وبالخصوص بوحدة صفوفه في الكفاح.

إن الجزائريين.. إن كل الجزائريين.. نساءً ورجالاً، شيوخاً وشباباً، من الجزائرالعاصمة الى تمنراست، ومن تبسة إلى مغنية.. وقفوا كلهم وقفة رجل واحد في حربهم التحريرية، فلا محاولات التفريق ولا أعداء الثورة، ولا المستفزون.. لم يكن لأي واحد من أولئك أن يمس إيمانهم أو وحدتهم القوية.. لقد شعر الجزائريون أنهم كالجسد الواحد في هذه المعركة الهائلة، وكانت جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني في طليعة هذه المعركة من أجل الشعب، وبفضل كفاحهم المتواصل استطاعوا أن يسددوا ضربات قاسية للعدو.

إن الثورة الجزائرية قد انتزعت إعجاب الجميع، وهي اليوم تتمتع بسمعة عالمية وبتأييد عدد كبير من الأصدقاء في العالم، فإلى إخواننا العرب في المغرب والمشرق، وإلى جميع الأفريقيين، وإلى الأقطار الاشتراكية، وإلى شعوب العالم الثالث، وإلى الديمقراطيين في فرنسا وأوربا.. إلى كل أولئك نحن مدينون بالشكر والاعتراف بالجميل عمَّا وجدنا من طرفهم من مساندة وتأييد.

إن الشعوب التي ما تزال تحت نير الاستعمار قد استخلصت من كفاحنا عبرة ودرساً ثميناً في نضالها.

إن هذه المعركة قد أزالت الخرافة القائلة بأن الاستعمار لا يُغلب.. وإنها قد ساهمت في تحرير القارة الأفريقية، وبرهنت من ناحية أخرى على أن أي شعب، مهما كان صغيراً، ومهما كانت وسائل كفاحه متواضعة، يستطيع أن يقف ويصمد وينتصر على الاستعمار مهما كانت قوته.. إن الكفاح البطولي الذي قام به الشعب الجزائري، والمساندة الدولية، قد أجبرت العدو على أن يتخلى عن مواقفه القديمة وعن حلمه بالجزائر الفرنسية، وأن يعترف بحتمية استقلال الجزائر.

إن الاستعمار بالرغم من الوسائل التي استعملها ؛ قد انتهى به الأمر بعد سنوات طويلة من المعارك إلى التخلي عن حلمه في الانتصار العسكري، ووجد نفسه مضطراً للدخول في المفاوضات مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وإننا إذا اعتبرنا المواقف الفرنسية التي كانت تشترط وقف القتال قبل أي تفاوض، فإننا نجد أن الشعب الجزائري قد حقق في هذا الميدان نصراً عظيماً، وهذا النصر في الاستقلال الذي سيكون هو النتيجة الحتمية لتقرير المصير.

إن نهاية المفاوضات بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والحكومة الفرنسية، هي عبارة عن مرحلة جديدة في تاريخ البلاد، وإن قرار وقف العمليات العسكرية فوق مجموع التراب الوطني هو نتيجة لاتفاقيات أبرمت على أساس ضمانات تتعلق بتقرير المصير وبمستقبل البلاد.

إن محتوى هذه الاتفاقيات يتماشى مع مبادئنا الثورية التي أعلناها أكثر من مرة وهي:

أولاً: الوحدة الترابية للجزائر في حدودها الحالية، وهذا ما يقضي على كل محاولة مكشوفة أو متسترة لتجزئة الجزائر في الشمال أو لفصلها عن صحرائها.

ثانياً: استقلال الجزائر: إن الدولة الجزائرية ستتمتع بجميع مقومات السيادة، بما في ذلك الدفاع الوطني، والسياسة الخارجية، واتجاهها الخاص في الداخل وفي الخارج.

ثالثاً: وحدة الشعب الجزائري التي اعترفت بها فرنسا، وبهذا تخلت عن فكرتها الاستعمارية بتجزئة الشعب الجزائري إلى فئات وطوائف.. إن الوحدة الوطنية للشعب الجزائري تدعم حضارته العربية الإسلامية التي انصهرت في المعركة من أجل الاستقلال.

رابعاً: الاعتراف بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بوصفها المفاوض الوحيد والممثل الحقيقي للشعب الجزائري، إن هذا الاعتراف قد فرضه الواقع.. وهكذا فإن المفاوضات التي دارت أول الأمر حول ضمانات تقرير المصير قد تطورت بشكل حاسم نحو مفاوضات عامة تشمل كل مستقبل الجزائر، وإن الدول الجزائرية ستختار بكل حرية مؤسساتها الخاصة وتسطر نظامها السياسي والاجتماعي الذي يتلاءم مع مصالحها، وفي ميدان السياسة الخارجية فإن الجزائر ستخطّ وتطبق سياستها التي ستختارها بكل حرية وبسيادة تامة.. إن هذه الدولة ستكون دولة ديمقراطية، إنها ستوقع بدون أي تحفظ على ميثاق حقوق الإنسان، وإنها ستقيم مؤسساتها على المبادأئ الديمقراطية والمساواة في الحقوق السياسية بين جميع المواطنين بدون تمييز في الجنس أو الدين.

وفيما يتعلق بالأوربيين بالجزائر فإننا سوَّينا هذا المشكل في نطاق سيادة الدولة الجزائرية، وبمقتضى وضعياتهم الخاصة في بلادنا.. إننا رفضنا نظام المجموعة للأوربيين في الجزائر، كما رفضنا مبدأ الجنسية المزدوجة التي تمس بوحدة الدولة الجزائرية وتعرقل تطورها، وتوصلنا إلى اتفاق يسمح للأوربيين بممارسة الحقوق المدنية الجزائرية لمدة معينة، ابتداء من تقرير المصير، وبعد هذه الفترة من الوقت يمنح للأوربيين في الجزائر حق الاختيار في الجنسية الجزائرية التي يطلبونها بصفة فردية وبين البقاء على جنسياتهم، وعندئذ يعاملون بمقتضى الاتفاقية الخاصة بالرعايا الفرنسيين، أما الذين يختارون منهم الجنسية الجزائرية فستحفظ لهم ثقافتهم ولغتهم ودينهم، وسيكون لهم تمثيل عادل في الشؤون العامة وخاصة في المجالس، ومما يميز الوطنية الجزائرية أنها سوَّت مشكلة الأوربيين بروح ديمقراطية وإنسانية.

منذ أول نوفمبر 1954م ونحن نكرر بأننا لا نحقد على الأوربيين في الجزائر، وبالرغم من أعمال العنف والجرائم التي تسلط تسلطاً أعمى على الأبرياء، فإن شعورنا نحوهم لم يتغير.. إننا نفرق بين العصابات الفاشية من

المغامرين وبين بقية الأوربيين، وإنني أدعو الأوربيين الذين يدركون واقع عصرنا، والذين يفكرون في مستقبلهم إني أدعوهم أن يبتعدوا عن العنصريين وعن غلاة المستعمرين الرجعيين، إن الأوربيين الذين يريدون أن يعيشوا في الجزائر المستقلة، ويعملوا في أمن وسلام في إطار التعاون المثمر، إن هؤلاء قد أعطيناهم الضمانات الضرورية العادلة.

أما فيما يخص المسائل العسكرية، فقد سويت على أساس جلاء القوات الفرنسية المسلحة.. إن هذه القوات بعددها الكبير وعتادها الهائل، سيتم جلاؤها حسب توقيت مضبوط، وبالرغم من وجود قاعدة المرسى الكبير في الجزائر، فإننا سنبقى أوفياء لسياسة الحياد وعدم الانحياز التي سُطرت أخيراً في مؤتمر بلغراد، وإن الأمثلة في البلدان المحايدة التي توجد فيها قواعد عسكرية أجنبية ليست قليلة في العالم.

إن الجزائر المستقلة لن تشارك في أي حلف عسكري، وستنظم دفاعها الخاص بسيادة مطلقة، وإن إقامة التوقيت المحدد لجلاء القوات الفرنسية عن الجزائر التي عانت الاحتلال الأجنبي أكثر من قرن، يعتبر نصراً مبيناً.

أما فيما يخص التعاون الذي ستقيمه الدولة الجزائرية مع فرنسا ؛ فإنه سيقام على أساس المساواة والاحترام لسيادة كلا البلدين، وعلى المصالح المتبادلة، ويشمل هذا التعاون الميادين الاقتصادية والفنية والمالية والثقافية، وكذلك استثمار ثروات الصحراء، ويمكن قبول بلدان أخرى مجاورة ضمن هذه المؤسسة.

أما بالنسبة للإصلاح الزراعي، فإن من المقرر هو أن فرنسا ستساهم في دفع تعويضات للمعمرين.

وبالنسبة للفترة الانتقالية، فلكي تتهيأ الجزائر لممارسة الاستقلال، ولتتوفر الشروط السياسية والإدارية لتقرير المصير بحُريَّة، حصلت اتفاقيات ترمي خصوصاً إلى تشكيل هيئة تنفيذية مؤقتة وقوة محلية، وتعيين مندوب سامي لفرنسا بالجزائر يقوم مقام الوالي العام، وإطلاق سراح المعتقلين والمساجين، وإزالة المحتشدات ومراكز التجمع، ورجوع اللاجئين والذين أُبعدوا عن ديارهم.. وفي هذه الفترة الانتقالية سيمتنع الجيش الفرنسي عن العمليات العسكرية، وعن كل نشاط يعرقل التعبير الحر عن إرادة الشعب الجزائري، ويبقى جيش التحرير الوطني على حاله محتفظاً بنظامه وبسلاحه وبإطاراته في المناطق التي يوجد بها الان.

إن الفترة الانتقالية تتطلب تيقظاً كبيراً، وإن وقف إطلاق النار ليس هو السلم، والخطر لا يزال ماثلاً في منظمة العصابات العنصرية الفاشية التي تحاول أن تغمر بلادنا في موجة من الدماء بعد أن يئست من إبقاء الجزائر فرنسية، وإن السلطات الفرنسية المدنية والعسكرية كانت لحدّ الان تتواطأ كثيراً أو قليلاً مع هذه المنظمة، وإن من المصلحة العليا للسلم والتعاون بين البلدين أن يوضع حد لهذا التواطؤ.

إن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية من جهتها عازمة على الوفاء بعهودها، والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية المؤتمنة على السيادة الجزائرية، والمتكلمة باسم الشعب الجزائري، ستواصل تحمل مسؤولياتها إلى أن تتكون حكومة نهائية منبثقة عن المجلس الوطني الجزائري الذي سينتخب بعد مدة قصيرة من يوم الاستفتاء.

أيها الشعب الجزائري..

يجب أن نستعد لتحقيق الاستقلال.. إن الاستقلال ليس غاية في ذاته وإنما هو وسيلة فقط تمكننا من تغيير وضعية شعبنا، إنه سيتيح لنا الانتقال من حالة التعفن الاستعماري إلى طور التحرر والاندفاع في معركة البناء الاقتصادي والتحرر الاجتماعي.. إن عدة مهمات تنتظرنا، وفي مقدمتها تشييد ما تهدم طيلة سبع سنوات من الحرب، وتضميد الجراح، ومقاومة البطالة والتخلف، وإن من مهماتنا أن نبني مجتمعاً جديداً يكون صورة لوجه الجزائر الفتية، الجديدة، الحرة.. الجزائر التي يجب أن يساهم في تشييدها كل مواطن، وكل هذه المهمات تتطلب منا منذ الان مجهودات أكثر من ذي قبل، وتجنيد كل طاقاتنا ووحدتنا وانسجامنا جميعاً حول الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وتتطلب اليقظة والامتثال لإحباط مناورات الاستفزازيين والديماغوجيين والمفرقين.. إن كل الجزائريين يجب أن يعتبروا في حالة طوارئ.

إن تنظيم الجماهير في الجزائر سيتعزز ويتقوى.. إن المحالفات السياسية والدبلوماسية التي تحصلنا عليها طيلة سبع سنوات من الكفاح ستتعزز وتتسع.

أيها الجزائريون والجزائريات:

إن وقف إطلاق النار ليس هو السلم، إن الفترة الانتقالية هي الاستعداد للاستقلال، وليست هي الاستقلال، وما لم يقع الإعلان عن الاستقلال، وما لم تقم دعائم الدولة، وما دامت حكومة الجزائر الحرة غير مستقرة فوق التراب الوطني ؛ فإن الشعب والمجاهدين والمناضلين يجب أن يبقوا في حالة التجنيد.. يجب أن لا نتخلى عن يقظتنا طيلة هذه الفترة الانتقالية، إن كل مسؤول وكل مناضل يجب أن يبقى في مركزه. إن الجزائر ستكون كما نريدها نحن الجزائريين أن تكون، وإن الشعب الجزائري القوي بوحدته، وأمام العالم الذي يراقبه، سيواصل نضاله لتحقيق الأهداف التي استشهد من أجلها مئات الالاف من الأبطال الجزائريين.. إن الشعب سيبقى ساهراً على تطبيق الاتفاقيات الفرنسية الجزائرية، وإن شعبنا سيستطيع الاعتماد على جميع الشعوب في العالم، بما فيها الشعب الفرنسي الذي تهمه أيضاً قضية السلم في الجزائر.

أيها الشعب الجزائري:

يجب أن نقوي من طاقاتنا ونهيأئ بعث الدولة الجزائرية المستقلة ذات السيادة، الدولة التي تتيح لنا إرساء قواعد سليمة لجمهورية جزائرية ديمقراطية واجتماعية.

نصر الله الشعب الجزائري المناضل، وعاش استقلال الجزائر[1].

(1) قوانين مجموعة «القوانين الداخلية لجيش التحرير الوطني» ص 162 إلى ص 170.

7 . نص اتفاقيات إيفيان:

وفيما يلي محتوى الاتفاقيات التي وقع ضبطها بين الجانب الجزائري والجانب الفرنسي، والتي ستصبح نافذة بعد الاستقلال، والتي أبرمتها الحكومة المؤقتة مع الحكومة الفرنسية، وهذا هو النص الكامل لتلك الاتفاقيات:

«إن المحادثات التي جرت بإيفيان من 7 إلى 18 مارس 1962م بين حكومة الجمهورية الفرنسية والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية انتهت إلى النتيجة التالية:

أبرم اتفاق لوقف القتال وسيوضع حد للعمليات العسكرية وللكفاح المسلح في مجموع التراب الجزائري يوم 19 مارس 1962م في منتصف النهار.

إن الضمانات الخاصة بتطبيق تقرير المصير وتنظيم السلطة العمومية بالجزائر أثناء الفترة الانتقالية قد حددت باتفاق مشترك.

ونظراً إلى أن تكوين دولة مستقلة وذات سيادة على إثر تقرير المصير بتلاءم مع الواقع الجزائري، ونظراً إلأن التعاون بين فرنسا والجزائر يتجاوب في هذه الحال مع مصالح القطرين ؛ فإن الحكومة الفرنسية تعتبر بالاشتراك مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بأن حل استقلال الجزائر بالتعاون مع فرنسا هو الحل الذي ينسجم مع هذا الوضع.

إن الحكومة الفرنسية والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية اتفقتا تبعاً لذلك على تحديد هذا الحل في التصريحات التي ستعرض على موافقة الناخبين أثناء اقتراع تقرير المصير.

تنظيم السلطات العمومية:

أثناء الفترة الانتقالية وضمانات تقرير المصير:

1 . ستسمح الاستشارة حول تقرير المصير للناخبين بأن يعلنوا هل أنهم يريدون الجزائر مستقلة؟، وفي هذه الحال هل يريدون أن تتعاون فرنسا والجزائر في ظروف تضبطها التصريحات الحالية؟.

2 . تجري هذه الاستشارة بعموم التراب الجزائري، أي: في المقاطعات الخمس عشرة التالية: العاصمة الجزائرية . باتنة، عنابة، قسنطينة، المدية، مستغانم، الواحات، وهران، الأصنام، سعيدة، ساورة، سطيف، تيارت، تيزي وزو، تلمسان.

3 . تكون حرية الاستشارة وصدقها مضمونين وفقاً للقانون الذي يضبط ظروف استشارة تقرير المصير.

4 . يكون تنظيم السلطات العمومية حتى إنجاز تقرير المصير مقاماً، ووفقاً للقانون المرفق للتصريح الحالي تحدث سلطة تنفيذية مؤقتة ومحكمة للنظام العمومي، ويمثل الجمهورية الفرنسية في الجزائر مندوب سام، وتنتصب هذه المؤسسات وخاصة السلطة التنفيذية المؤقتة فور دخول وقف إطلاق النار حيز التنفيذ.

5 . يكون المندوب السامي الممثل لسلطة الجمهورية الفرنسية لا سيما في ميدان الدفاع والأمن وحفظ النظام بوصفه صاحب الكلمة عند الضرورة القصوى . أي: عندما تطلب منه ذلك الهيئة التنفيذية.

6 . تكلف السلطة التنفيذية المؤقتة خاصة:

. بالتصرف في الشؤون العامة التي تهم الجزائر وتسهر على تسيير إدارة الجزائر وترجع لها مهمة إدخال الجزائريين إلى مختلف هذه الإدارة.

. وبحفظ الأمن العام، وتكون لها لهذه الغاية مصالح شرطة وقوة أمن توضع تحت نفوذها.

. وبإعداد تقرير المصير وتنفيذه.

7 . تتألف محكمة النظام العام من عدد متساو من حكام أوربيين وحكام مسلمين (عرب).

8 . تعاد في أقرب الاجال ممارسة الحريات الفردية والحريات العامة بصفة مطلقة.

9 . تعتبر جبهة التحرير الوطني تشكيلة سياسية ذات طابع شرعي (قانوني).

10 . يفرج عن المعتقلين سواء بفرنسا أو بالجزائر في أجل أقصاه عشرون يوماً ابتداء من وقف إطلاق النار.

11 . يعلن فوراً عن العفو ويفرج عن الأشخاص المعتقلين.

12 . الأشخاص اللاجئون بالخارج يمكنهم أن يعودوا إلى الجزائر، وستتولى لجان تنتصب في المغرب وتونس لتسهيل هذه العودة.

. الأشخاص الذين وقع جمعهم يمكنهم أن يعودوا إلى مكان سكناهم الاعتيادي.

. السلطة التنفيذية المؤقتة تتخذ التدابير الاجتماعية والاقتصادية وغيرها الرامية إلى ضمان عودة هؤلاء السكان إلى الحياة العادية.

13 . الاقتراع على تقرير المصير يجري في أجل أدناه ثلاثة أشهر وأقصاه ستة أشهر، وسيضبط التاريخ باقتراح من السلطة التنفيذية المؤقتة في بحر الشهرين الموالين لانتصابها.

الاستقلال والتعاون:

إذا وقع اختيار على الاستقلال والتعاون فإن فحوى التصريحات التالية يكون ملزماً للدولة الجزائرية.

أ . استقلال الجزائر:

1 . الدولة الجزائرية تمارس سيادتها المطلقة والتامة في الداخل والخارج. وتمارس هذه السيادة في كل الميادين وبالخصوص في الدفاع الوطني والشؤون الخارجية.

تتخذ الدولة الجزائرية لنفسها بكامل الحرية مؤسساتها الخاصة، وتختار النظام السياسي والاجتماعي الذي تراه الأكثر ملاءمة لمصالحها، وفي الميدان الدولي تختار وتنفذ بكامل السيادة السياسية التي تختارها.

تصادق الدولة الجزائرية بدون تحفظ على التصريح العالمي لحقوق الإنسان، وتقيم مؤسساتها على مبادئ ديمقراطية وعلى التساوي في الحقوق السياسية بين كل المواطنين دون ميز في الجنس أو الأصل أو الدين. وتطبق خاصة الضمانات المعترف بها للمواطنين من ذوي الحالة المدنية الفرنسية.

2 . حقوق الأشخاص وحرياتهم وضماناتها:

. تراتيب مشتركة:

لا يمكن أن يستهدف أي شخص لتدابير الشرطة أو العدالة أو عقوبات زجرية أو أي تمييز مهما كان بسبب أفكار عبر عنها بمناسبة الحوادث التي جدت بالجزائر أو أعمال ارتكبها بمناسبة هذه الحوادث نفسها قبل يوم الإعلان عن وقف القتال.

ولا يمكن لأي جزائري أن يجبر على مبارحة التراب الجزائري أو أن يمنع من الخروج منه.

أحكام تخص المواطنين الفرنسيين ذوي النظام المدني من الحق العام:

1 . نظم الوضع القانوني للمواطنين الفرنسيين ذوي النظام المدني للحق العام في نطاق التشريع الجزائري الخاص بالنسبة للجنسية الجزائرية حسب:

. طوال مدة ثلاث سنوات ابتداء من تاريخ تقرير المصير يستطيع المواطنون الفرنسيون ذوو النظام المدني للحق العام المبادأئ التالية:

. إذا كانوا مولودين بالجزائر، ومقيمين بها منذ عشر سنوات إقامة عادية منتظمة حتى يوم تقرير المصير.

. وإذا كانوا مقيمين بالجزائر منذ عشر سنوات إقامة عادية منتظمة حتى يوم تقرير المصير، وكان أحد والديهم مولوداً بالجزائر ومتمتعاً أو في استطاعته التمتع بالشروط المطلوبة لممارسة حقوق المواطنة.

. أو كانوا مقيمين بالجزائر منذ عشرين سنة إقامة عادية، ومنتظمة حتى يوم تقرير المصير.

. يستطيع هؤلاء التمتع بالحق الكامل في حقوق المواطنة الجزائرية ويعتبرون بذلك رعايا فرنسيين ممارسين لحقوق المواطنة الجزائرية. وإن التابعين الفرنسيين الممارسين لحقوق المواطنة الجزائرية لا يمكنهم في الوقت نفسه ممارسة حقوق المواطنية الفرنسية.

وبانتهاء أجل السنوات الثلاث المشار إليه يحصلون على الجنسية الجزائرية بواسطة مطلب تسجيل أو مطلب تأكيد لتسجيلهم في القائمات الاتحادية، وفي حالة عدم تقديمهم هذا المطلب يقبل تمتعهم باتفاقية الاستيطان.

2 . حفظاً وضماناً لحماية الأشخاص والأملاك والمشاركة النظامية في حياة الجزائر خلال السنوات الثلاث بالنسبة للتابعين الفرنسيين الممارسين لحقوق المواطنية الجزائرية، وبالنسبة للجزائريين ذوي النظام المدني الفرنسي بعد انقضاء هذا الأجل تقررت التدابير التالية:

. تتاح لهم مساهمة عادلة وحقيقية في الشؤون العامة، فيكون تمثيلهم في المجالس مناسباً لقيمتهم العددية الفعلية، وتضمن لهم مشاركة عادلة في مختلف فروع الوظيفة العمومية.

. وتضبط مساهمتهم في الحياة البلدية بمدينتي الجزائر ووهران في أحكام خاصة. وتحترم حقوق ملكيتهم فلا تتخذ أي إجراءات انتزاع ملكية ضدهم بدون تقديم التعويض العادل الذي يتم تحديده مسبقاً.

. يتلقون الضمانات الملائمة لميزاتهم الثقافية واللغوية والدينية، ويحافظون على نظام حالتهم الشخصية الذي يحترم وينفذ من قبل المجالس العدلية الجزائرية المشتملة على قضاة منتسبين لنفس النظام. ويستعملون اللغة الفرنسية داخل المجالس وفي علاقاتهم مع السلطات العمومية، وستساهم جمعية صيانة حقوقهم في حماية هذه

الحقوق المضمونة لهم، وستقوم محكمة الضمانات وهي مؤسسة من مشمولات القانون الجزائري الداخلي بالسهر على احترام هذه الحقوق.

ب . العلاقات بين فرنسا والجزائر:

العلاقات بين البلدين تقوم على الاحترام المتبادل لاستقلالهما وعلى تبادل المصالح والمزايا بين الجانبين. فالجزائر تضمن مصالح فرنسا والحقوق المكتسبة فيما يتعلق بالشخصيات المادية والمعنوية حسب الشروط المحددة في هذه البيانات. وفي مقابل هذا تمنح فرنسا للجزائر إعانتها الفنية والثقافية وتقدم إعانة مالية ممتازة لفائدة تطورها الاقتصادي والاجتماعي.

1 . الإعانة الفرنسية محددة لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد، وسيحدد مبلغها حسب الظروف وحسب مستوى يماثل مستوى المشاريع الجارية. وسيحدد البلدان في نطاق احترام الاستقلال التجاري والجمركي للجزائر مختلف الميادين التي تتمتع فيها المبادلات التجارية بنظام امتيازي.

وستكون الجزائر داخلة في منطقة الفرنك، ستكون لها عملتها الخاصة وخزينة العملة الصعبة الخاصة بها، وستكون بين الجزائر وفرنسا حرية تحويل الأموال حسب شروط تتلاءم مع التطور الاقتصادي والاجتماعي للجزائر.

2 . في مقاطعتي الواحات والصاورا يتم استثمار ثروات ما تحت الأرض حسب المبادأئ التالية:

1ً . التعاون الفرنسي الجزائري يتضمن إنشاء جهاز فني للتعاون الصحراوي يمثل فيه الجانبان بنسبة متساوية، ودور هذا الجهاز على الأخص هو تطوير الشبكات اللازمة لاستثمار ما تحت الأرض، وإبداء رأيه في مشاريع القوانين والتنظيمات ذات الصبغة المنجمية، ودراسة المطالب المتعلقة بإعطاء رخصة تنقيب. لكن الدولة الجزائرية هي التي تمنح رخص التنقيب، وهي التي تملي وتحدد التشريع المنجمي في نطاق السيادة الكاملة.

2ً . المصالح الفرنسية تكون مضمونة على الأخص بواسطة:

أ . ممارسة الحقوق المتعلقة بالرخص المنجمية التي منحتها فرنسا حسب قوانين التشريع البترولي الصحراوي كما يوجد حالياً.

ب . في حالة ما إذا كانت العروض متساوية، ستعطى الأولية للشركات الفرنسية فيما يتعلق بإعطاء الرخص الجديدة حسب الإجراءات التي ينص عليها التشريع المنجمي الجزائري.

. الدفع يقع بالفرنك الفرنسي فيما يخص الوقود الصحراوي المعين لسد حاجات الاستهلاك الداخلي الفرنسي والبلدان الأخرى التي تنتمي لمنطقة الفرنك.

ج . فرنسا والجزائر ستطوران علاقاتهما الثقافية: كل بلد يستطيع أن ينشأئ فوق تراب الاخر ديواناً جامعياً وثقافياً يكون مفتوحاً للجميع.

وستقدم فرنسا إعاناتها لتكوين الفنيين الجزائريين، وسيوضع فرنسيون وخصوصاً المعلمون والفنيون تحت تصرف الحكومة الجزائرية بواسطة اتفاق بين البلدين.

تسوية المسائل العسكرية:

فيما إذا ما تمت المصادقة على حل استقلال الجزائر والتعاون بين الجزائر وفرنسا ستسوى المسائل العسكرية حسب المبادأئ الاتية:

. القوات الفرنسية التي سيخفض عددها تدريجياً إبتداءً من إيقاف القتال، ستنسحب من الحدود الجزائرية في وقت ممارسة تقرير المصير، وسينخفض عددها إلى ثمانين ألف جندي في ظرف اثني عشر شهراً، ابتداءً من تقرير المصير، وعودة هذه القوات إلى وطنها يجب أن يتم في ظرف أجل ثانٍ يمتد على أربعة وعشرين شهراً. وسيقع الجلاء عن المنشات العسكرية بنفس التدريج.

. الجزائر تسوغ لفرنسا استعمال قاعدة المرسى الكبير لمدة 15 عاماً قابلة للتجديد باتفاق بين البلدين.

.كما ستسوغ الجزائر لفرنسا استعمال بعض المطارات والميادين والمنشات العسكرية التي هي ضرورية لها.

تسوية الخلافات:

فرنسا والجزائر تسويان مختلف الخلافات التي تنجم بينهما بوسائل التسوية السلمية، وسيلجان إلى وسائل التسوية السلمية سواء بواسطة التصالح أو التحكيم، وفيما إذا لم يتم الاتفاق على هذه الإجراءات يستطيع كلٌّ من الطرفين أن يتوجه مباشرة إلى محكمة العدل الدولية.

عواقب تقرير المصير:

بمجرد الإعلان الرسمي المنصوص في المادة 27 من قانون تقرير المصير يبدأ تنفيذ الأعمال المنصوص عليها:

وفيما إذا ما تمت المصادقة على حل الاستقلال والتعاون:

. استقلال الجزائر يقع الاعتراف به حالاً من طرف فرنسا.

. تحويل الصلاحيات يتم في الحين.

. القوانين المنصوص عليها في التصريح العام والتصريحات التي ستلحق بها ستصبح نافذة المفعول في نفس الوقت.

. الهيئة التنفيذية المؤقتة تنظم في ظرف ثلاثة أسابيع بعد استفتاء الانتخابات لتعيين المجلس الوطني الجزائري الذي ستحول له سلطاتها.

وهكذا بعد سبع أعوام وستة أشهر من كفاح مرير، وجهود مضنية، وعذاب أليم، تحمّله شعب مجاهد صبور تم الاعتراف بالاستقلال. وأمضيت معاهدة الشرف والفخار[1].

8 . تطبيق اتفاقيات إيفيان:

أ . نشر النصوص:

---

(1) حياة كفاح (806/3 إلى 816).

عنوان إيفيان التي أمضاها من الجانب الفرنسي Robert و Louis Joxe Jean de Broglie Buron، وأمضاها من الجانب الجزائري بلقاسم كريم حملت عنوان «نتائج محادثات إيفيان» (18 مارس 1962م).

هذه الوثائق نُشِرت في الجريدة الرسمية يوم 20 مارس 1962 على شكل نصَّين:

. نصٌّ يتعلق بتوقيف القتال ويحمل عنوان «اتفاق توقيف القتال».

. ونصٌّ يحمل عنوان «تصريحات حكومية متعلقة بالجزائر بتاريخ 19 مارس 1962م.

لا يوجد خلاف بين نصوص جبهة التحرير ونصوص الحكومة الفرنسية إلا في الترتيب فقط، وفي شكل بعض النصوص، ففيما يخص تنظيم الاستفتاء والسلطات بصفة انتقالية، وفيما يخص إحداث محكمة الأمن العمومي بالجزائر؛ لجأت الحكومة الفرنسية إلى مراسيم لنشرها ولضمان تطبيقها.

فيما يخص العفو الشامل أصدرت الحكومة الفرنسية يوم 29 مارس 1962م مرسومين:

مرسوم يتعلق بالجزائريين الذين شاركوا في ثورة التحرير، ومرسوم اخر يعني من شارك في قمع ثورة التحرير.

والجدير بالذكر أن الحكومة الفرنسية استعملت المراسيم لتجنُّب بُطء النقاش في البرلمان، وهي معتمدة على الاستفتاء الذي أُجري يوم 14 يناير 1961 والذي سمح لها بالتشريع عن طريق مراسيم.

عُيِّنَ Christian Fourquet محافظاً سامياً ممثلاً للجمهورية الفرنسية، وحلَّ العميد Michel Fourquet على رأس القوات المسلحة الفرنسية بالجزائر.

ب . تطبيق توقيف القتال:

. في خطاب رسمي ألقاه يوم 18 مارس 1962م، أعلن الرئيس ديغول أن مرحلة جديدة سترى النور، وهي جزائر مستقلة متعاونة مع فرنسا تعاوناً وثيقاً، ويضيف أنَّ ما اتفق عليه يُرضي العقل.

. من جهته أعلن بن يوسف بن خدّة رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية توقيف القتال على كل التراب الوطني ابتداء من منتصف نهار 19 مارس 1962م، وقد تكلم باسم الحكومة الجزائرية التي أُعطِيَت الإشارة الخضراء من طرف المجلس الوطني للثورة الجزائرية.

. أعلن العميد Aillert توقيف القتال ابتداءً من التاريخ المتَّفق عليه.

. نُصِّبَت اللجنة المختلطة لمراقبة توقيف القتال في Rocher Noir (بومرداس) فعُيِّنَ الرائد محمد علاهم كممثل لجيش التحرير الوطني، والعميد Navelet كممثل للجيش الفرنسي، في كل محافظة عُيِّنَت كذلك لجان مختلطة تتألف من ممثلين للجيش الجزائري وممثلين للجيش الفرنسي.

. أُطلِقَ سراح المسؤولين المعتقلين وذلك يوم 18 مارس 1962م على الساعة الحادية عشرة فالتحقوا بالوفد الجزائري المفاوض بسويسرا، وذهب الجميع إلى الرباط حيث استقبلوا استقبالاً شعبياً ورسمياً كبيراً يوم 19 مارس 1962م.

. موضوع القُوَّة المحلية المنصوص عليها في اتفاقيات إيفيان أصبح مشروعاً ميّتاً للأسباب التالية: بالنسبة للأمن العام كان جيش التحرير الوطني هو المتحكم في الميدان، والتحق كثير من وحدات القوة المحلية بجيش التحرير الوطني، وبرزت تحفظات من جيش التحرير الوطني تُجاه وجود هذه القُوة.

. بصفة عامَّة طُبِّقَ توقيف القتال بصفة مُرضية، فاستطاعت اللجان المحلية واللجنة الوطنية أن تجد حلاً لقضايا نشأت هنا وهناك.

إن الخطر جاء من المنظمة المسلحة السرية، التي قررت أن تخرب اتفاقيات إيفيان بكل الوسائل، حتى الوسائل الإجرامية، سنخصص فقرة لهذا الموضوع.

. أثيرت في بعض الكتب مسألة «تقتيل» أعضاء «الحركة» الباقين في الجزائر بعد توقيف القتال، قد درست اللجان المختلطة المنصوص عليها في اتفاقيات إيفيان حالات الاختطاف أو المفقودين، فالعدد لم يصل إلى عشرات الالاف، كما تدعي بعض الكتب، يذكر عبد الرحمن كريمي (سي مراد) الذي كان مسؤولاً عن الونشريس أنه عقد اجتماعاً مع المعمرين، وطلب منهم استئناف العمل فصفقوا لخطابه.

من جهته إن العقيد طاهر زبيري قائد الولاية الأولى يخبرنا بأنه أطلق سراح 500 «حَركيّ» وأقنعهم بحتمية الاستقلال، وبضرورة تسليم أسلحتهم لجيش التحرير الوطني حتى لا تستغلهم المنظمة المسلحة السرية (OAS).

في حديثي مع العقيد سي حسن (يوسف خطيب) قائد الولاية الرابعة، أعلمني بأن الشُّبَّان من القوة المحلية كانوا يفرون من وظائفهم ويلتحقون بجيش التحرير الوطني، فقررت الولاية نزع سلاحهم وردَّهم إلى أُسَرهم.

يكتب Maurice Faivre في الصفحة 207 من كتابه «لا يمكن أن نقدم رقماً لعدد أعضاء «الحركة» المقتولين (في مرحلة ما بعد توقيف القتال) بدقة، ويضيف في الصفحة نفسها أن المؤرخ Xavier Yacono يشكك في عدد 300،000 المذكور هنا وهناك، ويظن أنَّ العدد هو ما بين 50،000 و70،000.

ذكرنا هذه الواقائع لحمل بعض المؤرخين على التزام الحذر حينما يتعلق الأمر ببعض الأرقام.

أما مغادرة الفرنسيين للجزائر بعد توقيف القتال، فإن هذا الأمر ناتج عن تصرفات المنظمة المسلحة السرية التي مارست سياسة الأرض المحروقة ممَّا جعل كل الفرنسيين يخافون من ردّ فعل الجزائريين المحتمل.

. إن استفتاء أفريل 1962م في فرنسا طلب من الشعب الفرنسي أن يوافق على سياسة الرئيس ديغول تجاه الجزائر. سنعود إلى هذه المسألة في الفقرة الرابعة من هذا الفصل.

ج . تنصيب الهيئة التنفيذية عملها:

دائماً في إطار تطبيق اتفاقيات إيفيان، نُصِّبت الهيئة التنفيذية المؤقتة في Rocher (ببومرداس) يوم 8 أفريل 1962م، وبدأت تشتغل يوم 13 أفريل 1962 تحت رئاسة عبد الرحمن فارس الذي عُيِّن بعد موافقة الحكومة المؤقتة.

تألفت الهيئة التنفيذية من تسعة جزائريين، وثلاثة فرنسيين (ليبيراليين ومسيحيين)، ويوجد مناضلون جبهويون من بين الجزائريين.

وقد احتفظت تشكيلة الهيئة التنفيذية بالتسميات المنصوص عليها في اتفاقيات إيفيان وكانت كما يلي:

. رئيس الهيئة التنفيذية: عبد الرحمن فارس.

. نائب الرئيس: Roger Roth .

الأعضاء:

. مندوب للشؤون العامة: شوقي مصطفاي.

. مندوب للشؤون المالية: Jean Mannoni .

. مندوب للشؤون الإدارية: عبد الرزاق شنتوف.

. مندوب للشؤون الأمنية: عبد القادر الحصار.

. مندوب للشؤون الاجتماعية: بومدين حميدو.

. مندوب الأشغال العمومية: Charles Koenig .

. مندوب للشؤون الثقافية: الشيخ إبراهيم بيوض.

. مندوب للبريد: محمد تفتيفة.

والمعلوم أن الحكومة الجزائرية عينت شوقي مصطفاي كمسؤول على خلية جبهة التحرير الوطني بالهيئة التنفيذية المؤقتة، وقد تكونت الخلية من شوقي مصطفاي (كمسؤول) وعبد الرحمن فارس وعبد الرزاق شنتوف وعبد السلام بلعيد ومحمد بن تفتيفة (كأعضاء).

مهام الهيئة التنفيذية المؤقتة محدودة إلا أنها أساسية وصعبة: كان عليها أن تكسِّر المحاولات الإجرامية للمنظمة المسلحة السرية (OAS)، وأن تحضّر الاستفتاء، وأن تعين الموظفين لسد الفراغ الموجود في الإدارة بعد فرار الفرنسيين، وأن تُنعش الاقتصاد، وأن تحضّر انتخاب المجلس التأسيسي...الخ. وقد كان من المفروض أن تنتهي مهام الهيئة التنفيذية رسمياً يوم أول جويليه 1962م، إلا أنها امتدت بفعل الواقع نظراً إلى الخلافات في قمة جبهة التحرير الوطني.

توصل الرئيس عبد الرحمن فارس إلى نيل استسلام الشريف بن سعيدي الذي كان يحارب جيش التحرير الوطني في ناحية عين بوسيف (جنوب شرق لمدية) وذلك على رأس 800 شخص، كما نال استسلام عبد الله سالمي الذي كان على رأس وحدة مصالية بالقرب من بوسعادة، وتمكن عبد الرحمن فارس من تكوين القوة المحلية لحفظ الأمن ولو جزئياً، ولقد حدد تاريخ جويليه لإجراء الاستفتاء وذلك بعد استشارة الرئيس ديغول والحكومة الجزائرية.

وقد حاول الرئيس عبد الرحمن فارس أن يُجَنِّب الجزائر جرائم المنظمة المسلحة السرية عن طريق لقاء أحد قادتها Jean Jacques Susini، وبفضل مساعي الرئيس السابق لبلدية الجزائر Jacques Chevallier سنتكلم عن ذلك فيما بعد.

. تطبيقاً لاتفاقيات إيفيان أمضى عبد الرحمن فارس رئيس الهيئة التنفيذية و Louis Joxe وزير الدولة المكلف بالشؤون الجزائرية تسع اتفاقيات فرعية، تم الإمضاء يوم 28 أوت 1962م بعد الترخيص المكتوب الذي صدر من الرئيس ديغول يوم 27 أوت 1962.

هذه الاتفاقيات الفرعية تناولت:

1 . وضعية الموظفين العاملين بالجزائر.

2 . وضعية المعلمين الفرنسيين بالجزائر.

3 . المسائل القضائية.

4 . طرق تنفيذ العمليات المالية بين الجزائر وفرنسا.

5 . المراقبة المالية.

6 . تنفيذ التزامات المنظمة المشتركة للنواحي الصحراوية (OCRS).

7 . تطبيق التصريح المبدئي حول التعاون لاستغلال الثروات الباطنية في الصحراء.

8 . تنظيم تقنية استغلال الثروات الباطنية في الصحراء.

9 . تطبيق مدونة المحروقات وتحويل المسؤوليات في ميدان البترول.

نشير من جهة أخرى إلى أن الهيئة التنفيذية رفضت طلب ملك المغرب الحسن الثاني الرّامي إلى فتح ملف رسم الحدود بين الجزائر والمغرب، وأجابت أن هذا الأمر من صلاحية الحكومة الجزائرية التي ستُنْتَخَب في المستقبل القريب(1) .

9 . محاولة تخريب اتفاقيات إيفيان من طرف المنظمة المسلحة السرية:

لم تولد المنظمة المسلحة السرية (OAS) في سنة 1962م، بل كانت لها جذور في منظمة المقاومة من أجل جزائر فرنسية (ORAF) التي بدأت ترتكب جرائم ضد الجزائريين منذ سنة 1955، ولقد ارتكبت جريمة يوم 10 أوت 1956م ضد سكان القصبة وقتلت 70 مدنياً (من بينهم سبعة أطفال)، وكان ذلك في شارع Thebes (شارع بودرياس الأب والابن حالياً).

ولقد كانت لها جذور في تشكيلات أخرى: أُسِّسَت الجبهة الوطنية الفرنسية FNF يوم 11 نوفمبر 1958م، وقد كان على رأسها Joseph Ortiz الذي أصبح قيادياً في المنظمة المسلحة السرية (OAS) فيما

(1) الثورة الجزائرية، د . بو علام ص 573 إلى 578.

بعد، هدف تلك الجبهة معارضة سياسة ديغول الرامية إلى التخلي عن الجزائر، تجسدت المعارضة بالعنف وبتوريط الجيش الفرنسي.

والمعلوم أن Jean Jacques Susini طالب في الطب، اقترح على Ortiz مخططاً للتمرد بعدما سمع خطاب ديغول المتعلق بتقرير المصير (16 سبتمبر 1959م).

تأسست جبهة الجزائر الفرنسية (FAF) ثم حاولت هذه الحركات المناصرة للجزائر الفرنسية أن توحد صفوفها، فعقد العقيد Raoul Salan (الذي قاد القوات الفرنسية بالجزائر من نوفمبر 1956م إلى ديسمبر 1958م) ندوة صحفية يوم 25 أكتوبر 1960م، وقد حضر الندوة كل من الباشاغا بوعلام و Georges Bidault والعميد Zeller : في هذه الندوة التوحيدية، ينكر Salan حق الرئيس ديغول في التخلي عن الجزائر وفي التفاوض مع «المتمردين»، ويؤكد أن الحل الوحيد هو التاخي الذي برز في 13 ماي 1958م الذي سيؤدي إلى إدماج الجزائر في فرنسا.

إن إحداث المنظمة المسلحة السرية (OAS) أُعلِنَ في مدريد يوم 11 فبراير 1961م، وذلك من طرف Pierre Lagaillarde (الرئيس السابق لمنظمة الطلبة بالجزائر)، و Jean Jacques Susini (طالب في الطب)، وكانا قد هربا من الاعتقال بعد قضية المتاريس، في الإعلان أُشيرَ إلى أن رئاسة المنظمة راجعة إلى العميد Raoul Salan الذي كان في حالة فرار أيضاً.

وفي منشورها الأول طلبت المنظمة المسلحة السرية (OAS) من مناصري «الجزائر الفرنسية» أن يطبقوا أوامرها وأوامرها فقط، وأن يشاركوا بالسلاح ضد التخلي عن الجزائر الفرنسية.

في ماي 1961م صرح العميد Raoul Salan بأنه يقود لجنة عسكرية تعتمد على أفواج المنظمة، وعلى تشكيلات كوماندوس مثل الكوماندوس Delta الذي يقوده Roger Degueldre (مظلي سابق).

كان عدد الناشطين في المنظمة المسلحة السرية (OAS) يُقدَّر بألف شخص.

مارست المنظمة الإجرامية سياسة الأرض المحروقة ونهب البنوك والتقتيل للجزائرين وقتل الفرنسيين التقدُّميين.

من بين جرائم المنظمة المسلحة السرية: قتل الأستاذ Pierre Popie (الذي كان يدافع عن المعتقلين الجزائريين) وذلك يوم 25 يناير 1961، وقتل ثلاثة مناضلين من جبهة التحرير الوطني حُكِمَ عليهم بالإعدام من قبل (وقد أخرجوا من سجن وهران ليُقتلوا في 23 يناير 1962م)، وقتل ستة مربّين ومن بينهم مولود فرعون الكاتب الشهير وذلك يوم 15 مارس 1962م بالجزائر العاصمة، وتقتيل 72 جزائرياً من البطّالين الذين كانوا ينتظرون التشغيل في ميناء الجزائر (2 ماي 1962م)، وقد جُرِحَ في الاعتداء 250 شخص، وتقتيل 30 شخص بقذائف موجَّهة إلى الحي الشعبي بلكور (بلوزداد حالياً) يوم 4 ماي 1962م، وإحراق مكتبة الجزائر فأُتلف 60،000 كتاب...[1]

(1) المصدر نفسه ص 579، 580.

10 . النهاية الحتمية للمنظمة المسلحة السرية (OAS):

عجلت عدة أسباب وعدة أحداث بنهاية المنظمة المسلحة السرية:

.كانت القضية فاشلة مسبقاً لأن استقلال الجزائر كان حتمياً.

. وجهت المنظمة ضرباتها إلى المسلمين فظهرت نزعتها العنصرية.

. مارست المنظمة سياسة الأرض المحروقة التي أرهبت حتى الفرنسيين الذين لاذوا بالفرار.

. اتهام المنظمة من طرف العميد Ailleret قائد القوات المسلحة الفرنسية بالجزائر باللجوء إلى العنف والإرهاب، من أجل قلب مؤسسات الجمهورية وفرض رأي الأقلية بالقوة، ولقد أضاف في مذكرة يوم أول أكتوبر 1962م تهمة أخرى متمثلة في محاولة المنظمة تأسيس جمهورية فرنسية في الجزائر ووهران.

. محاولة الانقلاب التي قام بها أربعة عُمداء في أفريل 1961م أثرت في مصير المنظمة المسلحة السرية.

.كانت المنظمة تنتظر دعماً من الجيش الفرنسي، ولكن بعد فشل محاولة الانقلاب، قام الرئيس ديغول بتصفية عميقة داخل صفوف الجيش والشرطة: تم اعتقال 400 شخص وتوقيف 5 عمداء و6 عقداء وإقصاء 220 ضابط و250 موظف (ماي 1961م)، كما أُصْدِرَت أوامر بالإحضار ضد عسكريين وشرطيين فارين، وأُلقي القبض على العُمداء: Faure Challe و Petit و Nicot و Gouraud و Bigot و Zeller، وحُلّت منظمة الطلبة، ووُقِّفت جرايد مثل La Depechere و L,Echo D,Alger, quptidienne، وحُلّت وحدات هامة من المظليين.

بدأ الفرنسيون يغادرون الجزائر منذ أفريل 1962م بالرغم من منع المنظمة السرية (OAS)، فقدت هذه المنظمة مصادر المساندة والإيواء والنقل والتمويل...

. فشلت محاولات تكوين وحدات خارج المدن، ففي سكيكدة أقنع العميد المسؤول على المنطقة المتمردين بالرجوع إلى ديارهم لأنَّ مشروعهم انتحاري، وفي الونشريس قضى الطيران الفرنسي بسرعة على الوحدات المتمردة التي أرادت أن تعتمد على «حركة» الباشاغا بوعلام، وحدة أخرى من المتمردين تحت قيادة الرائد Bazin قضى عليها جيش التحرير الوطني يوم 9 أفريل 1962م بالونشريس، عدد من الفروع التابعة للمنظمة الإجرامية حطمتها أفواج من المجاهدين والفدائيين (14 ماي 1962م) في العاصمة.

. انتهت المنظمة المسلحة السرية بعد اعتقال 11،000 شخص، ومعاقبة 3،493 شخص بالسجن، وإصدار أحكام بالإعدام على 44 شخص، وقد نُفِّذَ الحكم في أربعة منهم.

. قد ساهمت الأفواج المسماة Les Barbouzes في محاربة أعضاء المنظمة المسلحة السرية (OAS).

فمن هم Les Barbouzes ؟ التسمية هذه كانت مخصَّصة لمئتي شرطي فرنسي مكلَّفين من طرف الحكومة الفرنسية بمحاربة منظمة (OAS)، ثم استُعمِلت التسمية لتعيين الأفواج التي جنَّدها Lucien Bitterlin تحت غطاء الحركة المؤيدة للرئيس ديغول BPC والممتدة إلى الجزائر على شكل اتحادية الجزائر،

هدف هذه الأفواج Barbouzes محاربة المنظمة المسلحة السرية بسلاح اتٍ من الأمن العسكري وتموين سري صادر من المندوبية العامة للجزائر.

شاركت أفواج Les Barbouzes في إلصاق شعارات لصالح الحكومة الفرنسية، وفي الهجوم على مقاهي منظمة (OAS)، وقد خَسِرَت تلك الأفواج 27 من أعضائها.

في يناير 1962م طلب زعيم حركة MPC السيد Jacques Dauer من فرعه في الجزائر أن ينحلّ نظراً إلى اختلاط الأمور، إن العناصر الباقية من Les Barbouzes عادت إلى فرنسا في الثُّلاثيّ الأوَّل من سنة 1962م، وذلك بعد أن فجرت المنظمة المسلحة السرية مقرهم المركزي بشارع Fabre بلبيار (شارع علي بجاوي حالياً) وفندقهم بحي ديار السعادة بالجزائر.

. حاولت المنظمة المسلحة السرية أن تغطي فشلها بالعمل على تحقيق اتفاق يوقف العمليات المسلحة، من جهته حاول رئيس الهيئة التنفيذية أن يقنع مسؤوليها بفشل حركتهم المبنية على العنف، وبصلاحية ما جاء في اتفاقيات إيفيان من ضمانات لصالح الأقلية الفرنسية. وقد سُهِّلَت الاتصالات بواسطة Jacques Chevallier الرئيس السابق لبلدية الجزائر و Jean Marie Tine وهو رجل أعمال ليبيرالي.

وقع لقاء أول في منزل Jacques Chevallier يوم أوَّل جوان 1962م: حضر اللقاء عبد الرحمن فارس رئيس الهيئة التنفيذية من جهة، Jean Jacques Susini والعقيد Gardes من جهة المنظمة المسلحة السرية، في هذا اللقاء طلب Susini اتصالاً بعضو من الحكومة الجزائرية، ففهم عبد الرحمن فارس أنَّ المنظمة فشلت وتفتش عن مخرج، ولا سيما أنَّ حالتها تتدهور يوماً بعد يوم، أُلقِيَ القبض على العميد Sagan في وهران يوم 25 مارس 1962م، وصرح العميد Edmond Jouhaud في بداية جوان 1962م أن استقلال (الجزائر) أصبح مكسباً نهائياً، فلا بد أن يُبحَث في تفاهم يجعل حدّاً لكل عمل مسلح.

تدخل المحافظ السامي Christian Fouchet في موضوع الاتصالات مع قياديي المنظمة المسلحة السرية، واستقبل مسؤول خلية جبهة التحرير الوطني في الهيئة التنفيذية شوقي مصطفاي، وأفهمه أن الرئيس ديغول لا يرى مانعاً إذا حصل اتفاق من أجل حقن الدماء.

ذهب وفد الهيئة التنفيذية إلى تونس في جوان 1962م ليخبر الحكومة المؤقتة بما جرى في الأسابيع الأخيرة، تكون الوفد من عبد الرحمن فارس وشوقي مصطفاي ومحمد بن تفتيفة. تلقى الوفد جواباً من أحمد بن بلة وسعيد محمدي بطرابلس ومن يوسف بن خدّة بتونس: لا بد من احترام تاريخ أوَّل جويليه لإجراء الاستفتاء ولا بد من تجنُّب اتفاق مكتوب مع منظمة (OAS).

نظم لقاء يوم 17 جوان 1962م بالقرب من فندق الجزائر بين عبد الرحمن فارس وشوقي مصطفاي من جهة و Jacques Susini Jean بحضور Jacques Chevallier و Jean - Marie Tine من جهة أخرى.

أثار Jacques Susini مسألة الضمانات الممنوحة للأقلية الفرنسية، فأجاب شوقي مصطفاي بأنَّ ما جاء في اتفاقيات إيفيان كافٍ وشرح أهمَّ بنودها، وقد رفض شوقي مصطفاي أن يكون اتفاق مكتوب، بعد المناقشة اتفق الجانبان على توجيه نداء بعد تبادل الموضوعات التي تُشرَح.

فهكذا صرَّح شوقي مصطفاي من إذاعة الجزائر يوم 17 جوان 1962م بأن قوات الأمن مفتوحة للجميع، وبأن ممارسة الحقوق المدنية مضمونة للجميع في الجزائر المستقلة، في ندائه أشار شوقي مصطفاي إلى الاتصالات بين الهيئة التنفيذية وممثلي منظمة (OAS) قائلاً: حضرت اللقاء لأن منفعته اعترف بها القادة الجزائريون الذين تنتظرون منهم التأمينات الضرورية.

في اليوم نفسه وجَّه Jean – Jacques Susini نداء إلى الفرنسيين يرجوهم فيه أن يلبوا طلب العميد Raoul Salan بوقف العنف، لأنَّ التأمينات المطلوبة بدأت تتجسَّد.

تدخل العميد Raoul Salan يوم 19 جوان 1962م من خلال رسالة وجَّهها للفرنسيين يقول فيها على الخصوص «علينا أن نتشجع الان لمصلحة الوطن، وأن نتكيف مع الوضعية الجديدة» (رسالة مذكورة في الصفحة 338 من كتاب Bernard Tricot).

بعد هذه التصريحات، صدرت انتقادات من طرف أحمد بن بلة وبن يوسف بن خدّة بالرغم من موافقتهما على الخطوط العريضة. والحقيقة أنَّهما كانا متأثرين بجو التسابق إلى السلطة الملحوظ في تلك المرحلة. سنعود إلى موضوع الخلافات فيما بعد.

تبعاً لهذا الجو من عدم الثقة، قرر أعضاء الهيئة التنفيذية الاستقالة من مناصبهم يوم 27 جوان، وشرحوا الأسباب في الرسالة ذاكرين أن المسؤولين في الحكومة الجزائرية المؤقتة لم يعارضوا فكرة القوة المحلية وفكرة العفو الشامل لصالح أعضاء المنظمة المسلحة السرية (OAS).

إن الرسالة أمضاها عبد الرحمن فارس وشوقي مصطفاي وعبد الرزاق شنتوف وعبد السلام بلعيد ومحمد بن تفتيفة بصفتهم أعضاء خلية جبهة التحرير الوطني في الهيئة التنفيذية.

بعد شرحها لظروف الاتفاق مع منظمة (OAS) لِحقنِ الدماء، رسمت الرسالة الخطوط العريضة بالنسبة إلى المستقبل القريب: ضرورة إحداث هيئة للتنسيق بين الولايات، وضرورة تكميل اتفاقيات إيفيان بتعديل يبين تشكيلة الهيئة التنفيذية المؤقتة وصلاحياتها في المدة التي تجري بين تاريخ الاستفتاء وتنصيب المجلس التأسيسي ثمَّ تعيين الحكومة.

فرضت الحكومة المؤقتة استقالة أعضاء الهيئة التنفيذية نظراً إلى اقتراب موعد الاستفتاء، فبقيت الهيئة تعمل حتى الانتخابات التشريعية في سبتمبر 1962م[1].

(1) الثورة الجزائرية، بوعلام ص 580 إلى 584.

11 . إجراء استفتاء تقرير المصير:

يوم 8 يناير 1961م استُفتِيَ الشعب الفرنسي في مشروع قانون يسمح لرئيس الجمهورية باستشارة الشعب الجزائري عن مصيره السياسي في علاقته بفرنسا، ويسمح له باتِّخاذ المراسيم اللازمة لتطبيق استفتاء تقرير المصير وتنظيم السلطات حتى الاستفتاء.

نتائج الاستفتاء كانت لصالح الموافقين فهي كما يلي:

عدد الناخبين المسجلين	233،520،23.
عدد المصوتين	913،986،23.
عدد الأصوات المعبَّر عنها	444،265،23.
عدد المصوتين بنعم	669،447،17.
عدد المصوتين بلا	775،817،5.

بمقتضى القانون الملحق بسؤال الاستفتاء والصادر يوم 14 يناير 1961م تمكنت الحكومة الفرنسية من اتخاذ مرسومين يوم 19 مارس 1962م، مرسوم ينظم استفتاء تقرير المصير بالجزائر ومرسوم ينظِّم السلطات العمومية الانتقالية.

. أما استفتاء 8 أفريل 1962م في فرنسا فقد طلب من الفرنسيين أن يوافقوا على محتوى اتفاقيات إيفيان وعلى كيفية تطبيقها بمراسيم، فكانت النتائج لصالح الموافقين فهي كالتالي:

عدد الناخبين المسجلين	072،582،27.
عدد المصوتين	404،779،20.
عدد الأصوات المعبر عنها	497،675،19.
عدد المصوتين بنعم	423،866،17.
عدد المصوتين بلا	074،809،1.

. بعد استشارة الحكومة الجزائرية والحكومة الفرنسية، حدَّدت الهيئة التنفيذية تاريخ إجراء الاستفتاء وهو أول جويليه 1962م. رُسِّمَ هذا التاريخ في لقاء تم بين Louis Joxe وزير دولة مكلف بالشؤون الجزائرية وسعد دحلب وزير الخارجية في الحكومة الجزائرية.

. سيطرت جبهة التحرير الوطني على الحملة المتعلقة بالاستفتاء، فأشرفت على مهرجانات في كل مكان، مهرجانات أكدت فيها على أهمية النصر المحقق، وعلى جسامة تضحيات الشعب، ونبَّهت إلى ضرورة اليقظة لأنَّ أعداء الاستقلال ما زالوا يناورون؟

هناك تيارات سياسية شاركت في الحملة ولو بحجم هامشيّ، نجد فيها شيوعيين جزائريين، ومناضلين من الحزب الاشتراكي الفرنسي SFIO، والحزب الاشتراكي الموحَّد (PSU)، والحركة الجمهورية الشعبية (NRP)، واللجنة الليبيرالية من أجل جزائر جديدة، لكنَّ هذه التيارات غابت عن الساحة السياسية بعد الاستقلال.

يوم 8 جوان 1962م، تدخل الرئيس ديغول بخطاب موجَّه إلى الشعب الفرنسي وإلى الشعب الجزائري يقول فيه على الخصوص:

«بعد 23 يوماً سيصادق الشعب الجزائري من خلال الاستفتاء على اتفاقيات إيفيان، وسيُرَسِّم الاستقلال والتعاون (مع فرنسا) كما فعل الشعب الفرنسي عن طريق استفتاء 8 أفريل 1962، فهكذا تجاوزاً لكل الأزمات ولكل المشاعر الحماسية ستُفتَح مرحلة جديدة من العلاقات بين الجزائر وفرنسا، وسيُفتح فصل جديد لانتصارهما وذلك نتيجة لقرار حر واتفاق معقول بين الشعبين...».

إن السؤال الذي طُرِحَ على الشعب الجزائري في الاستفتاء جاء كما يلي:

«هل تريدون أن تُصبِح الجزائر دولة مستقلة متعاونة مع فرنسا في إطار الشروط التي حدَّدتها تصريحات 19 مارس 1962م؟».

نتائج الاستفتاء كانت كالتالي:

عدد الناخبين المسجَّلين	.736،549،6
عدد المصوتين	.680،017،6
عدد الأصوات المعبَّر عنها	.115،992،5
عدد المصوتين بنعم	.581،975،5
عدد المصوِّتين بلا	.534،16

فهكذا صوَّتت الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري على الاستقلال.

قد وقَّع على هذه النتائج أعضاء اللجنة الوطنية للمراقبة وهم:

الرئيس: قدّور ساطور.

والأعضاء: الهادي مصطفاي . عمار بن تومي . Alexander Chaulet . عبد اللطيف رحَّال . Jean Guyot . أحمد هنّي.

أُعلنت النتائج الرسمية يوم 3 جويليه 1962م، في اليوم نفسه وجَّه الرئيس ديغول رسالة إلى رئيس الهيئة التنفيذية عبد الرحمن فارس، وذلك بواسطة المحافظ السامي Christian Fouchet، تؤكد هذه الرسالة أن فرنسا سجلت نتائج استفتاء أول جويليه 1962م وتطبيق تصريحات 19 مارس 1962م، فاعترفت باستقلال الجزائر، وتضيف هذه الرسالة أنَّ الصلاحيات المتعلقة بالسيادة في الجزائر حُوِّلَت منذ اليوم إلى الهيئة التنفيذية المؤقتة بالجزائر.

أفاد عبد الرحمن فارس باستلام رسالة الرئيس ديغول، وسجَّل الاعتراف الرسمي باستقلال الجزائر من طرف الجمهورية الفرنسية، وصرَّح بأنه استلم الصلاحيات المنوطة بالسيادة في التراب الجزائري.

. يوم 3 جويليه 1962م أُنزِلَ العَلَم الفرنسي من طرف جنود فرنسيين في ساحة (Rocher Noir) (بومرداس)، ورُفِعَ مكانة العَلَم الجزائري من طرف شاب من الكشافة الإسلامية الجزائرية ومجاهد من المجاهدين.

. في اليوم نفسه أي يوم 3 جويليه 1962 فُتِحَت الحدود الجزائرية التونسية والحدود الجزائرية المغربية فرجع الاف اللاجئين إلى ديارهم.
توجّه رئيس الحكومة المؤقتة الجزائرية بن يوسف بن خدّة إلى مقر ولاية الجزائر، وهو مصحوب بأعضاء من الحكومة المؤقتة وهم: بلقاسم كريم ومحمد وحُسَين ايت أحمد ولخضر بن طوبال وعبد الحفيظ بوصوف ومحمد يزيد.
وقد كان سكان العاصمة في الموعد فحيَّوهم أحسَن التحية.
. قام مجاهدون من الولايات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة باستعراض في شوارع العاصمة. فلمّا وصلوا إلى ساحة الشهداء طلب منهم سكان باب الواد مسيرة في حيهم لتخويف ما تبقّى من المجرمين التابعين للمنظمة المتطرفة (OAS). قطعت وحدات جيش التحرير الوطني حي باب الواد وهي مصحوبة بالمواطنين الهاتفين بحياة الجزائر المستقلة، ثمَّ توجهت إلى سيدي فرج حيث رُفِعَ العَلَم بحضور عدد من المجاهدين الضباط، الذين رجوا من العقيد مُحند أولحاج (مقران أكلي) أن يشرف على مراسيم رفع العَلَم وتحيته، لكبر سنه وتكريماً له[1].

12 . تطور الوضع بعد ترسيم مع المكتب السياسي:

. من بين 12 عضواً في الحكومة المؤقتة، خمسة أصبحوا أعضاء في المكتب السياسي: أحمد بن بلة ورابح بيطاط ومحمد بوضياف ومحمد خيضر وسعيد محمدي، رفض عضو اخر وهو حُسَين ايت أحمد الدخول في المكتب السياسي وطالب بعقد مؤتمر لتجاوز الخلافات.
ونشير إلى أن محمد بوضياف رفض أيضاً الدخول في المكتب السياسي، ثم قَبِلَ بعد أن ظن أنَّ المجلس الوطني للثورة الجزائرية سيجتمع من جديد للفصل في الأمر، ولكنه استقال بعد تطور الأحداث.
دائماً داخل الحكومة المؤقتة نسجل أن محمد خيضر وسعد دَحلَب استقالا في حين بقي رئيسها بن يوسف بن خدّة يتحرك، أما محمد يزيد فإنه كان يسعى إلى التوفيق بين الاراء، نَشِطَ بلقاسم كريم في تيزي وزّو من حيث حاول أن ينسق مع الولايات الأخرى.
. منذ تصريح تلمسان، تصرف المكتب السياسي كمركز للسلطة فتعاملت الهيئة التنفيذية معه بدلاً من الحكومة المؤقتة. والمعلوم أن هيئة أركان الحرب أيَّدته منذ انتهاء اجتماع المجلس الوطني، وشرعت في حملة انتقاد ضد الحكومة المؤقتة.
سعى المكتب السياسي إلى نيل الولايات، وقد تم له ذلك مع قيادات الولاية الأولى والخامسة والسادسة التي ربطت اتصالات بهيئة الأركان، في الولايات المعارضة للمكتب السياسي بدأت تُقام هياكل تنشّطها عناصر مؤيدة للمكتب السياسي: أُرسِلت مجموعة من ضباط جيش التحرير الوطني إلى قسنطينة لاستمالة مسؤولي الولاية الثانية، فوجدوا التأييد من الرائد العربي برجم المدعو «سي العربي الميلي» الذي عارض موقف قائد

---

(1) المصدر نفسه ص 945 إلى 948.

الولاية صالح بوبنيدر، يشير طاهر زبيري في كتابه إلى أن هواري بومدين أرسل سعدي ياسف ومصطفى فتَّال وأحمد بن شريف إلى العاصمة، لتحضير دخول جيش الحدود، لكنهم وجدوا في الميدان رابح زيراري الذي أرسله بن يوسف بن خدّة لتنظيم العاصمة، في حين كانت الولاية الرَّابعة قد ضمَّت بموافقة الحكومة العاصمة إلى الولاية الرابعة كمنطقة سادسة، تعقَّدت الأمور بتعيين لجان يقظة أشرف عليها محمد خيضر عضو المكتب السياسي.

. نلاحظ أنَّ بعض البلدان الخارجية أبدت تحيزها لبعض الأطراف، فمصر عوَّلت منذ زمان على أحمد بن بلة فكثَّفت الاتصالات معه، أما الملك الحسن الثاني فقد عيَّن على حسب سعد دَحلَب محمد الغزاوي المدير العام للأمن المغربي «كسفير جلالته لدى أحمد بن بلة» بدون أن يقطع العلاقات مع الحكومة المؤقتة، وهو يلومها على عدم تأييدها في ملف موريتانيا، وعلى عدم قبولها فتح ملف رسم الحدود بين الجزائر والمغرب.

. اعتمدت معارضة المكتب السياسي على عدم انتخاب المكتب السياسي وعدم حصوله على أغلبية الثلُثَين المطلوبة، واحتجت الولايات الثانية والثالثة والرابعة والمنطقة السابعة من الولاية الخامسة على العمل الموازي المنافِس لها بتحريك هيئة الأركان، وقد ظهرت مجموعة تيزي وزّو بإشراف بلقاسم كريم ومحمد بوضياف وتأييد قائد الولاية الثالثة محند أولحاج (مُقران أكلي) وسمَّت نفسها «لجنة الدفاع والاتصال للجمهورية»، وذلك بهدف توحيد صفوف جيش التحرير الوطني، وتحضير مؤتمر جبهة التحرير الوطني، وإعداد انتخابات المجلس التأسيسي[1].

13 . مبادرات لإيجاد حل سلمي للخلافات:

. موازاة مع التصريحات والتكتلات والمجابهات في بعض الأحيان، بُذِلت مساعٍ لإيجاد حل سلمي بين المتعارضين: لقد عُقِدَ اجتماع زمّورة يومَي 24 و25 جوان 1962م، واجتماع الجزائر يوم 2 أوت 1962م بين ممثلي مجموعة تلمسان ومجموعة تيزي وزّو (كما سنرى بعد قليل).

. وقد تنقَّل سي حسن (يوسف خطيب) وسي محند أولحاج (مقران أكلي) إلى الرباط في بداية جويليه 1962م، وقابلا أحمد بن بلة ومحمد خيضر.

لم يُسفِر اللقاء عن شيء إيجابي، بل بالعكس، لقد عبَّر محمد خيضر (على حسب ما قال يوسف خطيب المدعو سي حسن سنة 2011) عن إرادة المكتب السياسي في تحمُّل مسؤولية السلطة مهما يكن الثمن.

. ليَّنت الحكومة المؤقتة موقفها يوم 23 جويليه 1962م بقبولها المكتب السياسي بشكله الحالي، ولكن بشرط أن يجتمع المجلس الوطني للثورة الجزائرية ليصادق رسمياً على القائمة لأنه هو الهيئة العليا للثورة.

. التقى يوم 2 أوت 1962م بالجزائر عضوان من مجموعة تلمسان وهما محمَّد خيضر ورابح بيطاط وعضوان من مجموعة تيزي وزّو وهما بلقاسم كريم ومحند أولحاج (مُقران أكلي)، فاتفق الجانبان على تحديد تاريخ 27

(1) المصدر نفسه ص 603، 604.

أوت لإجراء الانتخابات التشريعية، وتاريخ بداية سبتمبر لعقد اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية، في الوقت نفسه يُكَلف المكتب السياسي بتحضير هذين الحدثين فقط.

غداة هذا الاتفاق أي يوم 3 أوت اقترح بن يوسف بن خدّة مخططاً مماثلاً: انتخابات تشريعية يوم 27 أوت، وعقد اجتماع المجلس أسبوعاً من بعد لترسيم المكتب السياسي أو لتعديل تشكيلته، ثم تحضير المؤتمر المقرر لاخر سنة 1962م.

. تنازل بن يوسف بن خدّة عن صلاحياته كرئيس الحكومة المؤقتة وحوّلها للمكتب السياسي، وفي الوقت نفسه تبقى الحكومة المؤقتة كهيئة للثورة حتى انعقاد المؤتمر.

. نسجِّل أن الشعب الجزائري بقي بعيداً عن هذه الخلافات، بالعكس فقد قام بمظاهرات تلقائية رافعاً هتافات تنادي لجعل حد للعنف بين الإخوة، وقد كان الشعار المردَّد «سبع سنين بَرَكات» أي تكفي سبع سنين من الحرب مع فرنسا.

. ولوحظ أن عدة شخصيات سياسية ساندت المكتب السياسي المعلن، منهم فرحات عباس والشيخ محمد خير الدين والعقيد عمارا العسكري المدعو «عمارا بوفلاز»...[1]

14 . الحوادث والمجابهات:

. تقدمت وحدات جيش التحرير الوطني تدريجياً من الحدود الشرقية والغربية واستقرت أولاً في الولايات الموالية للمكتب السياسي، أي الولاية الأولى (الأوراس)، والخامسة (الغرب)، والسادس (الجنوب)، ولكن قد بدأت المناورات منذ يناير 1962م: فقد أرسل بن يوسف بن خدّة رابح زيراريّ وموسى شارف كعضوين في مجلس الولاية الرابعة، في حين كان عدد من ضباط الداخل ينتظرون الترقية، وفي مارس 1962م أرسل إلى قيادة الولاية الرابعة ضباطاً كانوا مارسوا مسؤوليات فيها من قبل، وهم سليمان دهيلس (المدعو سي الصادق) وعمر أوصديق (المدعو سي الطيب) وبوعلام أوصديق وعلي أونيسّ.

فشرح قائد الولاية الرابعة سي حسن (يوسف خطيب) للإخوان أن مجلس الولاية الرابعة قائم وأنَّ التعيينات الجديدة لها أغراض سياسية، فتوقفت عملية الاستيلاء على السلطة في الولاية الرابعة.

قبل اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية في طرابلس (27 ماي . 5 جوان 1962م)، أُرسِلَ الشاذلي بن جديد من طرف هواري بومدين رئيس هيئة الأركان إلى قسنطينة، لإقناع قادة الولاية الثانية بمواقف هيئة الأركان العامَّة، ولإعداد رجوع وحدات جيش التحرير الوطني من الحدود إلى داخل البلاد.

يقول الشاذلي بن جديد في الصفحة 209 من كتابه: وجدت مسؤولي الولاية الثانية يستعدون للذهاب إلى اجتماع طرابلس، وقد كانوا مجتمعين في دورة مفتوحة «فَهِمتُ بعد نَفسها» أنهما لا يعترفان بسلطة هيئة

---

(1) المصدر نفسه ص 605.

الأركان العامّة، وأنّهما يطالبان بإدماج الوحدات، اعتُقِل الضابطان محمد عطايلية والهاشمي هجرس اللذان أُرسِلا إلى قسنطينة للبحث عن مصيره، واعتُقِلَ أيضاً ضباط اخرون كأحمد قائد عضو هيئة الأركان العامة. أُطلِقَ سراحُ هؤلاء الضباط بعد الاتفاق السياسي الذي وقع بين أحمد بن بلة وصالح بوبنيدر قائد الولاية الثانية.

. بعد دخول وحدات الولاية الرابعة إلى العاصمة يوم 29 جويليه 1962م، أُلقي القبض على عمر أوصديق ورابح زيراريّ المعيَّنَين للعاصمة من طرف الحكومة المؤقتة ثمَّ أُطلِقَ سراحهما، وقد اعتبرت قيادة الولاية الرابعة أنها هي المسؤولة عن العاصمة منذ سنة 1960م.

. ألقي القبض كذلك على محمد بوضياف في المسيلة ثم أطلق سراحه بعد تدخل المكتب السياسي (30 جويليه 1962م).

. وقعت عدة مناوشات في الجزائر العاصمة في شهر أوت 1962م بين أفواج تابعة للولاية الرابعة وأفواج تابعة لسعدي ياسف الذي كُلِّفَ بتحضير دخول المكتب السياسي في العاصمة.

. لم تنجح الولاية الثالثة والولاية الرابعة في إقناع المكتب السياسي بإيجاد حل توافقي للخلافات، فصرَّحتا أن نظام جبهة التحرير الوطني سيبقى قائماً حتى انتخاب حكومة من طرف المجلس التأسيسي، فهذه الحكومة هي التي ستتكفل بتحوير جيش التحرير الوطني، أما تحوير جبهة التحرير الوطني إلى حزب سياسي، فلن يتم ذلك إلا من خلال المؤتمر المزمع عقده في اخر سنة 1962م.

. زيادة على الولاية الأولى والخامسة والسادسة الموالية للمكتب السياسي، سعت الهيئة العامة لجيش التحرير إلى إيجاد إطارات تساندها في الولايات الأخرى أي الثانية والثالثة والرابعة، فهكذا جاءت وحدات من الولاية الأولى والحدود لاحتلال قسنطينة بمساعدة أفواج موالية يشرف عليها المدعو سي العربي الميليّ، فألقي القبض على قائد الولاية الثانية صالح بوبنيدر وعلي لخضر بن طوبال ثم أُطلِقَ سراحهما (في صيف 1962م) فوقعت في قسنطينة مناوشات انتهت بقبول صالح بوبنيدر سلطة المكتب السياسي.

. دخلت وحدات الولاية الرابعة العاصمة (وقد كانت تشرف عليها نظامياً منذ 1960م) فراقبت الإذاعة والتلفزة الوطنية لعدة أيام من جويليه وأوت 1962م[1].

15 . دخول القوات الموالية للمكتب السياسي إلى العاصمة:

عُقِدَ اجتماع في بوسعادة يوم 27 أوت 1962م فأخذ القرار لدخول العاصمة. حضر الاجتماع أحمد بن بلة ومحمد خيضر وسعيد محمدي والحاج محمد بن عَلا وأعضاء هيئة الأركان العامة هواري بومدين (محمد بوخرّوبة) وعلي منجلي وأحمد قايد والشريف بلقاسم عضو قيادة الجيش بالغرب، كما حضر الاجتماع ممثلو الولايات الوفية أي طاهر زبيريّ والعربيّ الميليّ (العربي بَرْجَم) وبوحجر بن خدّو (سي عثمان) ومحمد شعباني.

(1) المصدر نفسه ص 606، 607

إن البلاغ الصادر من الاجتماع يندد باحتلال العاصمة من طرف وحدات تابعة للولاية الرابعة (ولو أنها موجودة فيها منذ 1960م)، ويعلن تأخير الانتخابات التشريعية إلى تاريخ 20 سبتمبر 1962م.

. يوم 30 أوت 1962م تَلَقَّت وحدات من الولاية الأولى والولاية الثانية والولاية الخامسة والولاية السادسة أمراً بالتقدم نحو العاصمة. وقد سارت الوحدات على ثلاثة محاور: المسيلة وسيدي عيسى وسور الغزلان وتابلاط والأربعاء ثم الجزائر (تحت قيادة العقيد طاهر زبيريّ)، ومحور الجلفة وعين وسارة وقصر البخاري ولمدية والبُليدة، ثم العاصمة (تحت قيادة العقيد محمد شعبانيّ)، ومحور تلمسان ووهران والشَّلف ثم العاصمة (تحت قيادة بوحجر بن حَدّو).

اتصل الرائدان من الولاية الرابعة لخضر بورقعة ومحمد بوسماحة بالعقيد محمد شعبانيّ في المحور الثاني لتجنُّب الاشتباك، لكنَّ المحادثات لم تنجح، شرحا له الموقف الحياديّ للولاية الرابعة لكنه صمم على تطبيق أمر السير نحو العاصمة.

وقعت اشتباكات بين الوحدات في عدد من الأماكن: عين وسارة وسيدي عيسى (حيث تعاونت وحدات من الولاية الرابعة والولاية الثالثة لوقف مسيرة الوحدات الأخرى)، وسور الغزلان والشّلف حيث دامت الاشتباكات 7 ايام (سبتمبر 1962م).

ولقد تظاهر سكان المناطق لوقف الزحف، وفي بعض الأحيان تمدَّدوا على الطريق لمنع الاشتباكات.

ولقد عبر المجاهدون عن غضبهم أمام كل هذه الأسلحة الثقيلة التي كان من المفروض أن تُوجَّه إلى القوات الاستعمارية في أثناء ثورة التحرير.

يكتب بن يوسف بن خدّة أن عدد القتلى من الجانبين بلغ الألف، وذلك على أساس معلومات بثتها الصُحُف انذاك.

. لجعل حدّ لهذه المواجهات قَبِلَ العقيد سي محند أولحاج (مُقران أكلي) قائد الولاية الثالثة والعقيد سي حسن (يوسف خطيب) لقاء مع أحمد بن بلة، فاتفق الجميع على فتح الطريق أمام وحدات الجيش، وعلى قبول مبدأ تحوير جيش التحرير الوطني، وعلى المشاركة في تحضير قوائم المرشحين للانتخابات التشريعية. أما بخصوص المواقف السياسية، أي قضية اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية وعقد مؤتمر جبهة التحرير الوطني ؛ فقد احتفظ كل واحد منهم بمواقفه[1].

. بعد هذا الاتفاق تسارعت الأحداث: استقر أحمد بن بلة يوم 4 سبتمبر 1962م بالعاصمة وهو مرفوق بالمكتب السياسي الذي نظَّم أموره في فيلا Joly قبالة قصر الشعب الحالي، وقد كان أياماً من قبل وزَّع الصلاحيات بين الأعضاء.

---

(1) المصدر نفسه ص 608.

فتكفل محمد خيضر بأمانة الحزب والإعلام والمالية، وتكفل أحمد بن بلة بالتنسيق مع الهيئة التنفيذية، وتكفل محمد بوضياف بالشؤون الخارجية لكنه استقال من المكتب السياسي، وتكفل سعيد محمدي بالتربية الوطنية، وتكفل محمد بن علا بالمسائل العسكرية.

. بواسطة طائرة عمودية تنقل أحمد بن بلة ويوسف خطيب إلى أماكن الاشتباكات يوم 6 سبتمبر 1962م وأوقفا التقاتل بين الإخوة.

فهكذا استطاعت وحدات هيئة أركان جيش التحرير الوطني أن تدخل العاصمة يوم 9 سبتمبر 1962م وأن تستقر في الثكن المتروكة من طرف الجيش الفرنسي، مباشرة بعد ذلك أُدمِجَت وحدات الولاية الثانية والثالثة والرابعة في الجيش الذي سُمِّيَ منذ بداية مسيرته بالجيش الوطني الشعبي (ANP)[1].

16 . تحويل السلطات:

. إن كيفيات انتخاب المجلس التأسيسي حَدَّدتها الأمرية التي أمضاها رئيس الهيئة التنفيذية عبد الرحمن فارس وصدرت يوم 16 جويليه 1962م.

الدائرة الانتخابية أساسها الولاية، وقد كان عدد الولايات خمس عشرة في سنة 1962م.

وقد كان عدد المقاعد متناسباً مع عدد السكان، أما نظام الانتخاب فقد اعتُمِدَ نظام القائمة والأغلبية بدور واحد.

. إن المكتب السياسي هو الذي حضَّر قوائم المرشحين بعد أن طلب من الولايات التاريخية تقديم اقتراحات، فكانت الفرصة ثمينة لإقصاء عدد من الإطارات من طرف المكتب السياسي. يشير عمر بوداود إلى إقصاء حق اتحادية جبهة التحرير بفرنسا في 16 مقعداً، فاضطُرَّت الاتحادية إلى تقديم مترشحين في قوائم الولاية الثالثة والولاية الرابعة، والمعلوم أن مواقف الاتحادية السياسية في الخلافات كانت قريبة جداً من مواقف قادة الولاية الثالثة والولاية الرابعة، فابتداء من أكتوبر 1962م حُوِّلت الاتحادية إلى ودادية الجزائريين بفرنسا وعُيِّن على راسها مسؤولون جُدُد.

. قدم المكتب السياسي 196 مرشحاً للانتخابات، ومن بينهم 16 فرنسياً من الجزائر، فحصلت القوائم على قبول أغلبية الناخبين.

زيادة على انتخاب النواب، دُعِيَ الشعب الجزائري للجواب على السؤال المنصوص عليه في أمرية 17 جويليه 1962م، والمتعلق بقبول مبدأ تعيين الحكومة من طرف المجلس التأسيسي، ومبدأ التشريع من طرف المجلس التأسيسي في انتظار الدستور.

صادق الشعب الجزائري على مشروع القانون الملحق بالسؤال بأغلبية 324،267،5 صوتاً من بين 004،286،5 أصوات معَبَّر عنها.

---

(1) المصدر نفسه ص 609.

يوم 20 سبتمبر 1962م، جرت الانتخابات في ظروف حسنة، لأن الشعب الجزائري فضَّل الرجوع إلى مؤسسات تخدم الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي خلفها الاستعمار وسبعة أعوام ونصف من الحرب.

اجتمع المجلس التأسيسي يوم 25 سبتمبر 1962م، فانتخب فرحات عباس رئيساً له.

في اليوم نفسه صرَّح المجلس التأسيسي بأن الجزائر «جمهورية ديمقراطية شعبية»، وبأنه الوحيد الذي سيسهر على السيادة الوطنية في الداخل وفي الخارج، وقد سُجِّلَ في الجلسة نفسها أن الحكومة المؤقتة للجمهورية والهيئة التنفيذية وضعتا حداً لصلاحياتهما (من خلال برقية بن خدّة ورسالة عبد الرحمن فارس).

. يوم 28 سبتمبر 1962م انتُخِبَ أحمد بن بلة رئيساً للحكومة، فشكلها وقدم برنامجها، فصادق عليه المجلس.

راعى رئيس الحكومة في التشكيلة: التوازن الجهوي، وإرضاء المكتب السياسي، وهيئة الأركان العامَّة، وتمثيل تشكيلات قديمة كحزب فرحات عباس (من خلال أحمد بومنجل وأحمد فرانسيس)، وجمعية العلماء المسلمين (من خلال أحمد توفيق المدنيّ) فهنا يبتدأئ تاريخ جديد، تاريخ الجزائر المستقلة[1].

لقد انتصرت ثورة الشعب الجزائري بفضل الله ومنِّه، وثورته الشعبية العظيمة، وعقيدته الإسلامية المتينة، وقيادته الفذة في كوادرها المتعددة، والمتنوعة والمتشعبة، وحسها الوطني الكبير، واشترك فيها جميع ألوان الطيف الجزائري، الغني والفقير، الأبيض والأسمر، العربي والأمازيغي، المهندس والطبيب، الشيخ والتاجر، الرجال والنساء.. الصغار والكبار..الخ.

إن فكرة المقاومة والثورة كانت موجودة في أذهان الجزائريين منذ اليوم الأول الذي وطئت به أقدام الفرنسيين أراضيهم تحركهم عقيدة الجهاد، وقد كانت العمليات الجهادية والثورات الشعبية حلقات متواصلة، لكن الوضع تغير في عام 1954م، حيث انطلقت الثورة على المستوى الوطني وأخذت طابعاً شمولياً وتنسيقاً محكماً، وعبرت عن امال كل جزائري مضطهد، وخلقت قناعات عامة بأن الأسلوب الثوري هو الأسلوب الوحيد الذي يمكّن كل فرد من المساهمة في تغيير الأوضاع لصالحه ولصالح المجموعات المحرومة مثله، فالثورة بالنسبة للمواطن الجزائري أصبحت هي الوسيلة الوحيدة لإعادة الاعتبار إليه، وتمكينه من تشييد حياة أفضل، وإعطائه الفرص الذهبية لتحقيق ما يصبو إليه من رفاهية وحياة كريمة.

لقد ساند الشعب مساندة مطلقة الكفاح المسلح لاسترداد الحرية والكرامة، وتحقيق الاستقلال، ولقد نجحت الثورة بفضل الله ثم وعي الجماهير والأخذ بفقه النضال والكفاح والجهاد لتحقيق المقاصد والامال والأهداف المشتركة للمواطنين.

لقد طالت المعارك، وتحمل الشعب جميع ألوان التعذيب، وأضاف الاضطهاد وأنواع الحرمان، ووسائل التشريد خلال سنوات طويلة، لكنه انتصر في النهاية.

---

(1) المصدر نفسه ص 610.

لقد ساهمت تعاليم الإسلام في الدفع المعنوي، والزاد الروحي لتحقيق هذا الفوز العظيم[1].

17 . صلاة الجمعة الأولى بعد الاستقلال في مسجد كتشاوا بالجزائر العاصمة:

خطب الأستاذ الإمام محمد البشيرالإبراهيمي يوم الجمعة 5 جمادى الثانية 1382 هجرية الموافق الثاني من نوفمبر 1962م ميلادية، بحضور أركان الدولة ووفود غفيرة من مختلف الدول الإسلامية فقال:

الحمد لله ثم الحمد لله، تعالت أسماؤه وتمت كلماته صدقاً وعدلاً، لا مبدل لكلماته، جعل النصر يتنزل من عنده على من يشاء من عباده، حيث يبتليهم فيعلم المصلح من المفسد، ويعلم صدق يقينهم وإخلاص نياتهم، وصفاء سرائرهم وطهارة ضمائرهم.

سبحانه وتعالى جعل السيف فرقاناً بين الحق والباطل، وأنتج من المضادات أضدادها، فأخرج القوة من الضعف، وولّد الحرية من العبودية، وجعل الموت طريقاً إلى الحياة، وما أعذب الموت إذا كان للحياة طريقاً، وبايعه عباده المؤمنون الصادقون على الموت، فباؤوا بالصفقة الرابحة، وِ{۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا } [سورة التوبة:111].

سبحانه وتعالى جده، تجلى على بعض عباده بالغضب والسخط، فأحال مساجد التوحيد بين أيديهم إلى كنائس للتثليث، وتجلى برحماته ورضاه عن اخرين، فأحال فيهم كنائس التثليث إلى مساجد للتوحيد، وما ظلم الأولين ولا حابى الاخرين، ولكنها سنته في الكون واياته في الافاق، يتبعها قوم فيفلحون، ويعرض عنها قوم فيخسرون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله شرع الجهاد في سبيل الله، وقاتل لإعلاء كلمة الله حتى استقام دين الحق في نصابه وأدبر الباطل على كثرة أنصاره وأحزابه، وجعل نصر الفئة القليلة علىالفئة الكثيرة منوطاً بالإيمان والصبر.

صلى الله عليه وعلى اله وأصحابه وكل متبع لهداه، داعٍ بدعوته إلى يوم الدين.

ونستنزل من رحمات الله الصَّيِّبة وصلواته الزاكية الطيبة لشهدائنا الأبرار، ما يكون كفاء لبطولتهم في الدفاع عن شرف الحياة وحرمات الدين وعزة الإسلام وكرامة الإنسان وحقوق الوطن.

وأستمد من الله اللطف والإعانة لبقايا الموت واثار الفناء، ممن ابتلوا في هذه الثورة المباركة بالتعذيب في أبدانهم والتخريب لديارهم والتحيُّف لأموالهم.

وأسأله تعالى للقائمين بشؤون هذه الأمة ألفة تجمع الشمل، ووحدة تبعث القوة، ورحمة تضمد الجراح، وتعاوناً يثمر، وتسديداً يقوِّم الرأي ويثبت الأقدام، وحكمة مستمدة من تعاليم الإسلام وروحانية الشرق وأمجاد العرب بعد أن قطعت دابرة في الأرض.

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 569، 570.

ونعوذ بالله ونبرأ إليه من كل داعٍ يدعو إلى الفرقة والخلاف، وكل ساعٍ يسعى إلى التفريق والتمزيق، وكل ناعق ينعق بالفتنة والفساد.

نحيي بالعمار والثمار والغيث المدرار هذه القطعة الغالية من أرض الإسلام التي نسميها الجزائر والتي فيها نبتنا، وعلى حبها ثبتنا، ومن نباتها غذينا، وفي سبيلها أوذينا.

أحبيك يا مغنى الكمال بواجب وأنفق في أوصافك الغر أوقاتي

يا أتباع محمد عليه السلام!. هذا هو اليوم الأزهر الأنور.

وهذا هو اليوم الأغر المحجل، وهذا هو اليوم المشهود في تاريخكم الإسلامي بهذا الشمال، وهذا اليوم هو الغرة اللائحة في وجه ثورتكم المباركة، وهذا هو التاج المتألق في مفرقها، والصحيفة المذهبة الحواشي والطرر من كتابها.

وهذا المسجد هو حصة الإسلام من مغانم جهادكم، بل هو وديعة التاريخ في ذممكم، أضعتموها بالأمس مقهورين غير معذورين واسترجعتموها اليوم مشكورين غير مكفورين، وهذه بضاعتكم ردت إليكم، أخذها الاستعمار منكم استلاباً،وأخذتموها منه غلاباً، بل هذا بيت التوحيد عاد إلى التوحيد، وعاد إليه التوحيد فالتقيتم جميعاً على قدر.

إن هذه المواكب الحاشدة بكمٍّ من رجال ونساء يغمرها الفرح، ويطفح على وجوهها البشر لَتجسيم لذلك المعنى الجليل، وتعبير فصيح عنه، وهو أن المسجد عاد إلى الساجدين الركع من أمة محمد، وأن كلمة لا إله إلا الله عادت لمستقرها منه كأن معناها دام مستقراً في نفوس المؤمنين، فالإيمان الذي تترجم عنه كلمة لا إله إلا الله، هو الذي أعاد المسجد إلى أهله، وهو الذي أتى بالعجائب وخوارق العادات في هذه الثورة.

وأما والله لو أن الغاشم أعاده إليكم عفواً من غير تعب، وفيئة منه إلى الحق من دون نصب، لما كان لهذا اليوم ما تشهدونه من الروعة والجلال.

يا معشر الجزائريين: إذا عُدَّت الأيام ذوات السمات والغرر والشيات في تاريخ الجزائر فسيكون هذا اليوم أوضحها سمة وأطولها غرة وأثبتها تمجيداً، فاعجبوا لتصاريف الأقدار، فلقد كنا نمر على هذه الساحة مطرقين ونشهد هذا المشهد المحزن منطوين على مضض يصهر الجوانح ويسيل العبرات، كأن الأرض تلعننا بما فرطنا في جنب ديننا، وبما أضعنا بما كسبت أيدينا من ميراث أسلافنا، فلا نملك إلا الحوقلة والاسترجاع، ثم نرجع إلى مطالبات قولية، هي كل ما نملك في ذلك الوقت، ولكنها نبهت الأذهان وسجلت الاغتصاب وبذرت بذور الثورة في النفوس حتى تكلمت البنادق.

أيها المؤمنون: قد يبغي الوحش على الوحش فلا يكون ذلك غريباً، لأن البغي مما ركب في غرائزه، وقد يبغي الإنسان عرقاً نزاعاً إلى الحيوانية وشيطاناً نزاعاً بالظلم وطبعاً من الجبلة الأولى ميالاً إلى الشر، ولكن العجيب الغريب معاً، والمؤلم المحزن معاً، أن يبغي دين عيسى روح الله وكلمته على دين محمد الذي بشَّر به عيسى روح الله وكلمته.

يا معشر المؤمنين: إنكم لم تسترجعوا من هذا المسجد سقوفه وأبوابه وحيطانه، ولا فرحتم باسترجاعه فرحة الصبيان ساعة ثم تنقضي، ولكنكم استرجعتم معانيه التي كان يدل عليها المسجد في الإسلام ووظائفه التي كان يؤديها من إقامة شعائر الصلوات والجمع، والتلاوة ودروس العلم النافعة على اختلاف أنواعها، من دينية ودنيوية، فإن المسجد كان يؤدي وظيفة المعهد والمدرسة والجامعة.

أيها المسلمون: إن الله تعالى ذم قوماً فقال: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْ } [سورة البقرة:114] ، ومدح قوماً فقال: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ١٨} [سورة التوبة:18] .

يا معشر الجزائريين: إن الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا (ص): «إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما دون ذلك».

فهو قد خرج من أرضكم ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم ولم يخرج من ألسنتكم، ولم يخرج من قلوب بعضكم، فلا تعاملوه إلا فيما اضطررتم إليه، وما أبيح للضرورة يقدر بقدرها.

يا معشر الجزائريين: إن الثورة قد تركت في جسم أمتكم ندوباً لا تندمل إلا بعد عشرات السنين، وتركت عشرات الالاف من اليتامى والأيامى والمشوهين الذين فقدوا العائل والكافل والة العمل، فاشملوهم بالرعاية حتى ينسى اليتيم المشوه أنه عالة عليكم، وامسحوا على أحزانهم بيد العطف والحنان، فإنهم أبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم.

يا إخواني: إنكم خارجون من ثورة التهمت الأخضر واليابس، وإنكم اشتريتم حريتكم بالثمن الغالي، وقدمتم في سبيلها من الضحايا ما لم يقدمه شعب من شعوب الأرض قديماً ولا حديثاً، وحزتم من إعجاب العالم بكم ما لم يحزه شعب ثائر، فاحذروا أن يركبكم الغرور ويستزلكم الشيطان، فتشوهوا بسوء تدبيركم محاسن هذه الثورة أو تقضوا على السمة العاطرة.

إن حكومتكم الفتية منكم، تلقت تركة مثقلة بالتكاليف والتبعات في وقت ضيق لم يجاوز أسابيع، فأعينوها بقوة، وانصحوها فيما يجب النصح فيه بالتي هي أحسن، ولا تقطعوا أوقاتكم في السفاسف والصغائر، وانصرفوا بجميع قواكم إلى الإصلاح والتجديد والبناء والتشييد، ولا تجعلوا للشيطان بينكم وبينها منفذاً يدخل منه، ولا لحظوظ النفس بينكم مدخلاً.

وفقكم الله جميعاً، وأجرى الخير على أيديكم جميعاً، وجمع أيديكم على خدمة الوطن، وقلوبكم على المحبة لأبناء الوطن، وجعلكم متعاونين على البر والتقوى غير متعاونين على الإثم والعدوان.

قال تعالى: {وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٥٥} [سورة النور:55] .

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم وهو الغفور الرحيم[1].

18 . بيان 16 أفريل 1964م للشيخ البشير الإبراهيمي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

كتب لي أن أعيش حتى استقلال الجزائر، ويومئذ كنت أستطيع أن أواجه المنية مرتاح الضمير، إذ تراءى لي أني سلمت مشعل الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام الحق، والنهوض باللغة العربية . ذلك الجهاد الذي كنت أعيش من أجله . إلى الذين أخذوا زمام الحكم في الوطن، ولذلك قررت أن التزم الصمت.

غير أني أشعر أمام خطورة الساعة، وفي هذا اليوم الذي يصادف الذكرى الرابعة والعشرين لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس . رحمه الله . أنه يجب عليّ أن أقطع ذلك الصمت، إن وطننا يتدحرج نحو حرب أهلية طاحنة ويتخبط في أزمة روحية لا نظير لها، ويواجه مشاكل اقتصادية عسيرة الحل.

ولكن المسؤولين . فيما يبدو . لا يدركون أن شعبنا يطمح قبل كل شيء إلى الوحدة والسلام والرفاهية، وأن الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية، لا من مذاهب أجنبية.

لقد ان للمسؤولين أن يضربوا المثل في النزاهة، وألا يقيموا وزناً إلا للتضحية والكفاءة، وأن تكون المصلحة العامة هي أساس الاعتبار عندهم، وقد ان أن يرجع لكلمة الأخوة . التي ابتذلت . معناها الحق، وأن نعود إلى الشورى التي حرص عليها النبي (ص)، وقد ان أن يحتشد أبناء الجزائر كي يشيدوا جميعاً «مدينة» تسودها العدالة والحرية، «مدينة» تقوم على تقوى من الله ورضوان[2].

* * *

وزار الرئيس أحمد بن بلة الشيخ الإبراهيمي في بيته وقبل رأسه وقال: أعترف أنني تأخرت في زيارتك، على أنك أنت الشيخ الذي بينت لنا الطريق إلى الإسلام والعروبة، وهو طريق سلكناه ولا زلنا نسلكه.

وردَّ الشيخ: إذا كنت حقاً على طريق الإسلام والعروبة سأظل إلى جانبك، لكن إذا حدت عنهما، سأكون لك بالمرصاد[3].

19 . وفاة الإمام محمد البشير الإبراهيمي:

في أوائل شهر ماي، تدهورت حالة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الصحية، فجأة، ووافته المنية ببيته يوم ماي 1965م، وأذيع خبر وفاة الإمام عبر أمواج الأثير، وانتشر بسرعة البرق في أرجاء الجزائر، وتوافدات الحشود إلى بيته، وكان من بينهم العقيد هواري بومدين وزير الدفاع، وألقى النظرة الأخيرة على الجثمان الطاهر، فقرأ

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (305/5، 306، 307، 308).
(2) المصدر السابق (317/5).
(3) مذكرات جزائري، أحمد طالب الإبراهيمي (188/1).

الفاتحة وخاطب الحاضرين، قائلاً: إن رحيل الشيخ البشير الإبراهيمي لا يعد خسارة لأسرته وحدها، فبرحيله تفقد الجزائر، بل والعالم الإسلامي قاطبة، رجلاً كرَّس حياته كلها من أجل عزة الجزائر والإسلام، تغمد الله الفقيد برحمته الواسعة.

ونقلت مراسم الدفن مباشرة في التلفزة، وقطعت الإذاعة الجزائرية ـ الليلة التي سبقت ـ البرنامج المعتاد، وبثت ايات بينات من القران الكريم حداداً على فقدان العالم الرباني والمجاهد الكبير، وأظهرت يومية «الشعب» الرسمية تغطية عن حياة الراحل، ونشرت في عددها الصادر بتاريخ 22 ماي مقالاً بعنوان «الشعب في جنازة الإمام»، مشيرة إلى ذلك التلاحم بين الشعب وأفكار الراحل.

انطلقت الجنازة من الجامع الكبير الذي كان يؤمه الشيخ أحمد سحنون يومئذ، واتجه المشيعون مشياً على الأقدام، نحو مقبرة سيدي أمحمد الكائنة بحي بلكور، وكان هناك ما لا يقل عن مائتي ألف من المواطنين، حسب تقدير الإذاعة الوطنية نفسها، أبوا إلا أن يسيروا في الموكب الجنائزي تعبيراً عما كانوا يكنونه للشيخ من احترام ومحبة، واستغرقت المسيرة زهاء ساعتين لقطع مسافة بضعة كيلومترات.

حضر رفاق بومدين من بينهم: الشريف بلقاسم وزير الإرشاد الوطني، وأحمد مدغري وزير الداخلية، وعبد العزيز بوتفليقة، وسفراء الجزائر المعتمدين في الخارج ممن كان بالجزائر، وحضر الدفن عليه القوم وكبارهم وكان أحمد بن بلة خارج العاصمة.

وكتب فرحات عباس من أدرار فيما بعد: بلغني نبأ وفاة الفقيد الشيخ البشير الإبراهيمي.. إنها شخصية كبيرة ترحل عنا.

إن الشيخ البشير رفيق سجن، بعد حوادث ماي 1945م بالسجن العسكري لقسنطينة، وكان أيضاً أبي الروحي.

وقرأ خطبة التأبين الشيخ محمد خير الدين، أحد الأعضاء السابقين في أول مكتب إداري لجمعية العلماء، القليلين ممن بقوا على قيد الحياة، هو الذي قرأ خطبة التأبين، وتأثر الناس عندما قام أمير شعراء الجزائر محمد العيد ال خليفة يلقي قصيدته التأبينية ذات المستوى الأدبي الرفيع والشحنة العاطفية الكبيرة، لقد أبكى جميع الحاضرين، ولم يستطع هو ذاته التحكم في دموعه وراح يجهش بالبكاء عندما قال:

فسلاماً ولا اقول وداعاً	أبت النفس أن تراك عديما
عشت فوق الثرى عظيماً	فأحرى بك أن تسكن السماء عظيما[1]

ـ لقد قال الشيخ العربي التبسي عن الإبراهيمي: إن الإبراهيمي فلتة من فلتات الزمان، وإن العظمة أصل في طبعه، والعظمة الحقيقية في رأيي تكمن في القلب، والحقيقة أن الإبراهيمي كان عظيماً بعقله ووجدانه، بقلبه ولسانه، فكل من تقلب في أعطافه نال من ألطافه، فالقريب والرفيق والسائل والمحروم والمريد والتلميذ ؛ يجد فيه الأب الشفيق والأخ الصديق، الذي لا يبخل بجهده وجاهه وماله ـ وإن قلّ ـ لتفريج الكروب وتهوين

(1) المصدر نفسه ص 219.

الخطوب، وما تقربتَ منه إلا ملك قلبك بحلمه وغمر نفسك بكرمه، قبل أن يشغل عقلك بعلمه ويسحر لبَّك بقلمه، وكانت الخصال البارزة فيه: الإيثار والحلم والوفاء[1].

ـ وقال الأستاذ أحمد توفيق المدني ـ رحمه الله ـ عندما تبوأ كرسيه في مجمع اللغة العربية بالقاهرة: فتقدم الإبراهيمي الأمين يحمل الراية باليمين، لا يأبه للمكائد ولا للسجون، ولا يبالي بالمنافي في الفيافي، بل دخل المعمعة بقلب أسد وفكر أسدّ، ووضع في ميزان القوى المتشاكسة يومئذ تلك الصفات التي أودعها الله فيه:

ـ علماً غزيراً فيَّاضاً متعدد النواحي، عميق الجذور.

ـ واطلاعاً واسعاً عريضاً، يُخيل إليك أن معلومات الدنيا قد جمعت عنده.

ـ وحافظة نادرة عزَّ نظيرها.

ـ وذاكرة مرنة طيّعة جعلت صاحبها أشبه ما يكون بالعقل «الأليكتروني».

كدائرة معارف جامعة سهلة التناول من علوم الدين التي بلغ فيها مرتبة الاجتهاد بحق، إلى علوم الدنيا مهما تباينت واختلفت، إلى شتى أنواع الأدبين القديم والحديث بين منظوم ومنثور، إلى تاريخ الرجال والأمم والدول، إلى أفكار الفلاسفة والحكماء من كل عصر ومصر، إلى بدائع الملح والطرائف والنكت، كل ذلك انسجم مع ذكاء وقاد، ونظرات نافذة، تخترق أعماق النفوس وأعماق الأشياء.

وفصاحة في اللسان، وروعة في البيان، وإلمام شامل بلغة العرب لا تخفى عليه منها خافية، وملكة في التعبير مدهشة، جعلته يستطيع معالجة أي موضوع ارتجالاً على البديهة، إما نثراً أو نظماً.

ودراية كاملة بجميع ما في الوطن الجزائري يحدثك حديث العليم الخبير، عن أصول سكانه وقبائله وأنسابه ولهجاته، وعادات كل ناحية منه، وأخلاقها، وتقاليدها وأساطيرها الشعبية وأمثالها، وإمكاناتها الاقتصادية، وثرواتها الطبيعية.

ـ كل ذلك قد توّج بإيمان صادق، وعزيمة لا تلين، وذهن جبَّار منظَّم، يخطط عن وعي، وينفِّذ عن حكمة، وقوة دائبة على العمل، لا تعرف الكلل والملل.

هذا هو البطل الذي اندفعنا تحت قيادته الموفقة الملهمة نخوض معركة الحياة التي أعادت لشعبنا بعد كفاح طويل لسانه الفصيح، ودينه الصحيح، وقوميته الواعية الهادفة[2].

كان الإبراهيمي ـ طيب الله ثراه ـ يدرك في أعماقه أن الاستقلال اتٍ لا محالة متى هانت التضحيات في سبيله، وكان يدرك أن هذا الاستقلال لن يكون سوى مرحلة في صراعنا الحضاري ضد قوى الاستعمار في مختلف أشكاله، أي أن أبناء الجزائر مطالبون بالإبقاء على الجذوة الروحية حية في صدورهم، لأنها تعطي لحياتهم معنى،

---

(1) اثار الإمام محمد البشير (17/1).

(2) المصدر نفسه (17/1).

وتجعل لوجودهم عنواناً، وكان يحلم بذلك المجتمع الذي يضمن لأبنائه العفاف والكفاف، ويجمع بين الأصالة والمعاصرة، ويعتز بمقوماته الشخصية الوطنية وأخذ سبيل العلم على مدارج الرقي والتقدم[1].

. رحم الله شهداء الجزائر وعلماءها وقادتها وأبطالها ومن ناصرهم وازرهم وحمل رسالتهم المقدسة في تحرير الشعوب.

. رحم الله كل من رفض الدنيئة في دينه وعرضه وكرامته وحقوقه وإنسانيته، فقاوم الاحتلال الفرنسي جيلاً بعد جيل، وتصدى لكل ألوان الظلم بكافة أشكاله وأنواعه وصوره البشعة.

. رحم الله قوافل الشهداء، وتقبل الله الأثمان الغالية من مهج وجوع وخوف ومال قدموها في سبيل الله عز وجل.

. رحم الله أولئك الأحرار الذين سطَّروا ملحمة الجهاد الغالية والكفاح المرير، وعلَّموا الشعوب المتعطشة للحرية بأن إرادة الشعوب تنتصر على إرادة الطغاة، لأن ذلك من سنن الله:

{فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً }.

«واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»

* *

الخلاصة

1 . تولى الإمام محمد البشير الإبراهيمي قيادة جمعية العلماء بعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس.

2 . يعتبر بيت الإبراهيمي من البيوتات التي حفظت العلوم وتوارثتها، وظهر فيها العلماء ونشروا الفقه والمعرفة والتراث في الجزائر.

3 . نشأ الإبراهيمي في بيت والده كما ينشأ أبناء بيوت العلم، وبدأ في التعليم وحفظ القران الكريم في الثالثة من عمره، ولما بلغ سبع سنين استلمه عمه من معلّمي القران وتولى تربيته وتعليمه بنفسه، فكان لا يفارقه لحظة حتى في ساعات النوم، فكان عمه هو الذي يأمره بالنوم وهو الذي يوقظه.

4 . تصدّر للتدريس بعدما شهد له العلماء برسوخه ونبوغه وتميزه واطلاعه الواسع.

5 . سافر الإبراهيمي إلى عدة دول طالباً للعلم ومعلماً، مصر، المدينة، سوريا.

6 . في المدينة المنورة كان لقاؤه مع الشيخ ابن باديس لقاءً تاريخياً، وضعوا الخطط والمناهج والوسائل لإعداد جيل يحمل رسالة الإسلام وقيم الحرية والعدالة وحقوق الإنسان، ويعمل على التحرر من الاستعمار.

(1) المصدر نفسه.

7 .كانت جهود ابن باديس العلمية والتربوية ومساندة العلماء له مؤثرة في حياة الشعب الجزائري، واستطاع ابن باديس تنظيم عمله الدعوي والتعليمي والإرشادي من خلال جمعية العلماء المسلمين، وأصبحت أعمال العلماء منظمة ومدروسة وواضحة الأهداف والمقاصد.

8 . تولى الإبراهيمي قيادة جمعية العلماء بعد وفاة ابن باديس، وشرع في مهامه بعد خروجه من المنفى.

9 . من أهم صفات الإبراهيمي، علمه وفقهه وحماسته، والروح التجديدية، ومصلح كبير، ومفكر عظيم، ومجتهد شجاع، ومبدع متألق، وبليغ وأديب وخطيب، وزهده وإخلاصه، وإنسانيته الرفيعة.

10 .كانت أهم أعماله بعد ما تولى قيادة جمعية العلماء بناء معهد الإمام عبد الحميد بن باديس، وتطويره بعد إنشائه بسنوات قليلة، وكان له أثر في تخريج كوادر متميزة عملت لنشر الدعوة وانخرطت في الثورة فيما بعد.

11 . توسعت الجمعية في عهد الإبراهيمي في بناء المساجد والمدارس ودعم الأنشطة الخيرية والشبابية وإرسال الدعاة إلى المشرق للدراسة، وتوسع المجلس الإداري للجمعية وتمّ تنقيح القانون الأساسي.

12 . مقومات الفكر الإصلاحي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي واهتماماته الاجتماعية، الإسلام والعروبة، والإسلام دين التحرر العام، ربط الإسلام بالعروبة، واهتم بالتحرر وتوحيد جهود الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي، وكان خطابه توحيدياً فيما يتعلق بتوحيد الشمال الإفريقي والعرب والمسلمين، وتحدث عن داء الأمة وعوامل الانقسام، وأسباب الوحدة في قراءة تاريخية سننية متميزة، وأوضح بداية تفرق المسلمين في تلك الدراسة، وظهور المذاهب الفقهية والتعصب لها، وبروز المذاهب الكلامية، واهتم بالتوعية والتربية وتنوير الشعب من خلال خطابه وخطاب جمعية العلماء الفكري والعلمي والمقاصدي، واهتم بتقوية العمل الجماعي وتطويره من خلال الجمعيات والمدارس والنوادي والمساجد والكشافة، واهتم بتربية الشباب وتكوينهم علمياً وخلقياً، وعمل على إعداد جيل من الشباب يحمل رأية الحرية والاستقلال، واهتم بالمرأة والزواج والطلاق.

13 . طوّف الشيخ الإبراهيمي في كتاباته وخطاباته ومحاضراته في مواضيع شتى، تناولت السياسة والتربية والنفس والاجتماع والأخلاق والتاريخ، ولم

يخل موضوع منها إلا وفيه إشارة إلى الماضي القريب والبعيد، يستمد منه الخبرة، ويستخلص منه العظة، ويتخذ منه مدداً لثورته على المستعمر وفضح مكايدة وردّ أحقاده وأطماعه.

14 .كان على دراية واسعة واطلاع كبير بتاريخ الإسلام، والاستعمار الروماني وأحوال المغرب العربي وتاريخ الجزائر.

15 . من ملامح منهج الإبراهيمي في تناول قضايا التاريخ: تاريخ أمة متصل الحلقات، الاهتمام بالأحداث الكبرى، ويرى بأهمية الوثائق والأدوات المعرفية، وكان يركز على التاريخ الجامع للمشرق والمغرب، ويستنبط السنن التاريخية ويعمل على ربطها بواقعنا المعاصر، وكان معنياً بأسباب الصعود والنزول.

16 . يعتبر الإبراهيمي مناضلاً سياسياً ومكافحاً للاستعمار من الطراز الأول، ومجاهداً في سبيل الله أولاً وأخيراً. ومع دخول فرنسا الحرب العالمية الثانية رفضت جمعية العلماء تأييدها لفرنسا أو التعاطف معها، وكان ردّ فعل فرنسا التضييق على جمعية العلماء، وأمرت الإبراهيمي بتوقيف دروسه ومحاضراته، وتقرر نفيه إلى مدينة افلو الصحراوية في 10 أفريل من عام 1940م.

17 . بعد خروجه من السجن كانت حركته اتسمت بالنشاط والانتشار والتواصل مع العلماء والأعيان والساسة والعمل على توحيد الجبهة الداخلية ضد الاحتلال.

18 . وفي شهر جانفي من عام 1943م، اتفق قادة الحركات الوطنية في الجزائر أن يعقدوا اجتماعاً مشتركاً بقصد تكوين تحالف بين الحركات السياسية في الجزائر وتحديد المطالب السياسية للجزائر، وحضر الاجتماع التأسيسي لهذا التحالف الدكتور بن جلول وفرحات عباس وأحمد توفيق المدني من جمعية العلماء.

19 . بعد انتهاء الحرب قررت جمعية العلماء يوم 6 ماي 1945م توسيع نشاطاتها السياسية والثقافية إلى بقية دول المغرب العربي، فأرسلت وفداً إلى تونس، واخر إلى المغرب الأقصى، وذلك بقصد توحيد العمل على مستوى أقطار المغرب العربي.

20 . الثامن من ماي 1945م، مرحلة أساسية في الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري، فقد تعرض الجزائريون لإبادة جماعية دشنتها فرنسا الاستعمارية ضد مظاهرات الشعب السلمية، معلنة أن زمن العبودية قد ولّى وأن عصراً جديداً قد أطل في أفق الجزائر، فاستخدم العدو كل الأسلحة البرية والطائرات والبوارج الحربية ونسفوا المباني وأحرقوا المشاتي وقتلوا 45 ألف شهيداً في ضحايا الأسبوع الدموي واعتقلوا زعماء الحركة الوطنية والألوف من المواطنين.

21 . اقتنع الشعب الجزائري أن طريق النضال السلمي للوصول للحقوق أصبح مسدوداً ومغلقاً، ولا طريق للحرية ونيل حقوقهم المسلوبة إلا بالسلاح والسلاح وحده، وبذلك أصبحت دعوة الكفاح المسلح تجد سبيلها في أوساط شباب ما بعد الحرب العالمية الثانية، واقتنع الشعب بأن الحرية لا توهب ولا تهدى ولكن تنتزع انتزاعاً من الطغاة المستعمرين، وتروى شجرتها الزكية بدماء الأحرار.

22 .كان العمل السياسي ما بين 1945م إلى 1954م يلاقي صعوبات وعوائق من قبل المستعمر، الذي أظهر حرصه على استغلال واستعباد الشعب الجزائري وقمعه بالحديد والنار وتكبيله بالقوانين الجائرة.

23 . لم تستطع الأحزاب في تلك الفترة أن تتوحد في مشروع وطني واحد وجامع، ونقد الإبراهيمي الساسة وأحزابهم في مقالات قوية ومؤثرة.

24 . استمر الإمام الإبراهيمي في توجيه الشعب ونقده لسياسة الاستعمار الثقافية والسياسية والاجتماعية والقمعية، وكتب رسائل مفتوحة إلى الفرنسيين ورئيس الجمهورية الفرنسية قال فيها: تغير الكون وما فيه ولم تتغير الحكومة في نظرتها إلى الدين الإسلامي والمسلمين، فالدين الإسلامي مملوك للحكومة الجزائرية، تحتكر

التصرف في مساجده ورجاله وأوقافه وقضاته.. ولكن بدون جدوى، وكانت رسالة مفصلة عن أعمالهم البشعة وتجهيلهم للشعب.

25 . باءت الحوارات والمساعي السلمية للحصول على حقوق الشعب الجزائري من فرنسا بالفشل الذريع، فأعلن الإمام الإبراهيمي رأيه للشعب ووجه إليه خطابه الشهير المسمى «الكلمة الأخيرة» دعا فيه لتوحيد الصفوف ومكاشفة الشعب بالحقيقة بأن الاستعمار لن يعطيكم حقوقكم.

26 . خرج الإبراهيمي عام 1952م إلى المشرق لتوسيع نشاطه العلمي والحصول على فرص دراسية من الدول العربية للطلبة الجزائريين، وكان من أهدافه تعريف الشرق العربي بالمغرب العربي وطلب العون المادي والمعنوي، من دول وشعوب المشرق حتى تستطيع الجمعية الاستمرار في عملها العظيم، وهو إنقاذ الجزائر العربية من البربرة والاستعجام، وقطع الطريق على الاستعمار الفرنسي ومقاصده السيئة التي بيتها للجزائر.

27 . لقد تركت رحلته إلى المشرق اثاراً سياسية وفكرية وثقافية، وألقى محاضرات وكتب مقالات في التاريخ الجزائري الحديث والفكر الإسلامي المستنير، وزار السعودية ومصر والعراق والشام.

28 . اهتم الإبراهيمي بقضايا العالم الإسلامي والعربي، وكان له اهتمام بقضية ليبيا وفلسطين وغيرها، وتحدث عن ليبيا، وعن موقعها من الجزائر، وقوافل الحجيج والرّحالة، وعلاقة الأخوة، وجهاد الليبيين وما يراد بها، وعن استقلالها والأثمان الغالية التي قدمها الليبيون للتخلص من المستعمر ونيل استقلالهم، وساند ودعم وأيد القضية الفلسطينية بكل ما يملك، ولمصر مكانة خاصة عند الإبراهيمي.

29 . للشعب الجزائري نضال كبير وكفاح مرير وجهاد عظيم توارثته الأجيال، منذ دخول المحتلين الفرنسيين إلى بلادهم، وأصبحت الأجيال تسلم راية الجهاد لبعضها على التوالي، وكان جهاد الشعب الجزائري شاملاً وعظيماً.

30 .كان ابن باديس في استراتيجيته هو وعلماء الجمعية يرون لا بد من العمل للاستقلال عن طريق الجهاد والإعداد الشامل لمواجهة المحتل، من تربية عقائدية، وتنوير للعقول، وتوحيد للصفوف والتحقيق العاقل..الخ

31 . استعمل عبد الحميد بن باديس في العديد من مواضيع شعره ونثره، كلمات وعبارات تحمل دلالات ثورية وتحررية استعملها من أجل بث الحماسة في نفوس الشعب الجزائري، ومن أشهر قصائده الدالة على الفكر الثوري التحرري التي ترنم بها الشعب الجزائري قوله:

شعب الجزائر مسلم	وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله	أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له	رام المحال من الطلب
يا نشء يا ذخر الجزائر	في الشدائد والكرب
يا نشء أنت «رجاؤنا»	وبك «الصباح» قد اقترب
خذ للحياة سلاحها	وخض الخطوب ولا تَهَبْ

32 .كان لابن باديس وجمعية العلماء دور كبير في قيادة الأمة الجزائرية وصياغة مقومات الشخصية الجزائرية، التي ساعدت في إيجاد أرضية فكرية وعقائدية ساهمت في إنجاح ثورة نوفمبر 1954م.

33 . ساهمت عوامل عدة في اندلاع ثورة نوفمبر من أهمها، اثار أحداث 1945م، كان القمع الوحشي الفرنسي للشعب مضجراً لروح المقاومة لدى المواطنين، بل كانت تلك الأحداث مرحلة جديدة أعيد من خلالها النظر في وسائل العمل والكفاح للمرحلة المقبلة، واستنتج الجزائريون أن الاستعمار الفرنسي لن يقتنع من الجزائر إلا بالقوة.

34 . إن حزب الشعب الجزائري استخلص الدرس من أحداث 1945م، وشرع في تنظيم «المنظمة الخاصة أو السرية» لإعداد العدة للشروع في الكفاح المسلح.

35 . في يوم 25 جوان 1954م اجتمع الأعضاء 22 من الثوريين الذين قرروا الانتقال إلى العمل المسلح.

36 . يعتبر بيان 1 نوفمبر 1954م مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر، فقد حدد الأهداف المسطرة للثورة الجزائرية بلغة واضحة لا يشوبها أي إبهام، ولا تقبل

أي تأويل أو تضليل، حيث يقول بأن الهدف من قيامها هو تحقيق الاستقلال الوطني.

37 . علاقة الثورة بالجهاد، نظر علماء الجزائر وعلى رأسهم الإبراهيمي بأن ثورة الجزائر ضد الاستعمار هي جهاد شرعي بالمفهوم الإسلامي.

38 . توحد الجزائريون بالرغم من اختلاف أحزابهم، وقاموا بتأييد الثورة منذ البداية، وضحوا بكل ما يمتلكون من أجل نجاح ثورتهم.

39 .كانت ردة فعل الحكومة الفرنسية عنيفاً، واستخدمت وسائل القمع من قتل وسجن وتشريد وهتك للأعراض واستيلاء على أملاك الناس..الخ للقضاء على الثورة.

40 . فشلت الإصلاحات الإدارية والسياسية المزيفة لإقناع الشعب بمصداقية فرنسا في توجهاتها الجديدة.

41 .كان الإمام محمد البشير أول مؤيد للثورة الجزائرية من الشخصيات العامة.

42 . اقترح الشيخ الإبراهيمي على شيخ الجامع الأزهر يوم 12 نوفمبر 1954م أن يدعو إلى الجهاد ضد فرنسا.

43 . ما قدمه الإبراهيمي من دعم معنوي وبيانات مؤيدة، شكلت دعماً قوياً للمجاهدين ونفخت في الثورة روحاً وهي في أوهن مراحلها، حيث أخرجت الشعب الجزائري من التردد والحيرة اللذين كان يمكن أن يُصاب بهما، لجهله بمصدر الثورة وتوجهها، فبيانات الإمام الإبراهيمي شهادة للشعب الجزائري على شرعية المولود . الثورة . وصحته.

44 . إن الحقيقة التاريخية تقول إن جمعية العلماء برئيسها كانت متقدمة على غيرها في احتضانها لجهاد الشعب الجزائري.

45 . إن بيانات الإمام الإبراهيمي المتتالية المؤيدة للثورة الداعية إلى تأييدها دون تردد، كانت مدداً إلهياً لها في أول عهدها وفي مرحلة ضعفها.

46 . أيّد أعضاء المجلس الإداري للجمعية اجتماع 1 نوفمبر 1954م وقرر المجلس مساندة الثورة دون تحفظ كما بعث الأمين العام رسالة إلى الرئيس بالقاهرة يبلغه بأمر الثورة ويدعوه إلى تأييدها.

47 . الشيخ العربي التبسي «الشهيد» ومزهودي إبراهيم وغيرهم من العلماء التابعين لجمعية علماء المسلمين قاموا بجهود عظيمة، ومؤثرة ومركزة ومشكورة في دعم الثورة.

48 . إن الذين فجروا الثورة في 1 نوفمبر 1954م هم مجموعة صغيرة من مناضلي الحركة من أجل الانتصار للحريات الديمقراطية، فهذه حقيقة تاريخية واحتضنها الشعب، وكان لعلماء الجزائر وخصوصاً جمعية العلماء الأثر الفكري والعقدي والإسلامي في تفجير طاقات الشعب الكامنة وأشواقه للحرية والاستقلال والسيادة.

49 . أدّى تأييد ومشاركة العلماء المسلمين للثورة إلى نتائج مهمة منها، تحول موازين القوى، وساهموا في الجانب القضائي، وأصبح رجال الجمعية في وسط المعركة، وأطّروا المنظمات الشعبية، ودعموا الإعلام الثوري بخطبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم وأقلامهم، وساهموا في ضمانات الاتصالات بين هياكل جبهة وجيش التحرير، وكانت مؤسسات الجمعية معاهد، ومدارس، ومكاتب، وإدارات..الخ تقوم بدورها لصالح الثورة. وكان الإبراهيمي يقول قبل اندلا ع الثورة: إن هذه المؤسسات ستحتاج إليها الأمة في يوم من الأيام لمهمات فوق ما تتصوره الان، وفعلاً فإن ذلك ما حدث، وساهم قادة جمعية العلماء المسلمين في الدعم الدبلوماسي والمالي والسياسي والتعليمي والتربوي للثورة.

50 . إن إنطلاقة أول نوفمبر الثورية كانت عملية حاسمة في تاريخ الجزائر، فقد استفاد قادة الثورة من تجارب الأجداد في القيام بثورات شعبية في مناطق متعددة، واستخرجوا منها الدروس والعبر، وانطلقت الثورة في عدة أماكن واعتمد الثوار أسلوب حرب العصابات الحديثة.

51 . استطاعت جبهة التحرير الجزائرية أن توحد جهود الأحزاب والمنظمات والنقابات...الخ في جبهة عريضة داعمة للثورة متحدية للغزاة.

52 . العلم الجزائري يعبر عن تاريخها وحاضرها ومستقبلها، ويذكر بتضحيات الأبطال وماسي الأبرياء، ويرمز إلى عبقرية العلماء ورجال الفكر، ويشد كل المواطنين الذين يعملون تحت ظله، فهو الشعار الذي يؤكد قوة الوطن خارج التراب الإقليمي في البحار والأقطار الأجنبية على صواري السفن وشرفات السفارات

. ويرمز اللون الأخضر للأمل.

. واللون الأبيض للسلم.

. والهلال يذكر بالإسلام.

. والنجمة قواعد الإسلام الخمسة.

. واللون الأحمر للتضحية.

53 . مفدي زكريا لقب بشاعر الثورة، وترك قصائد ملهمة للحس النضالي الشعبي، وهو صاحب النشيد الوطني الجزائري، من أشهر دواوينه «اللهب المقدس».

54 . اشتدت المعارك ضد الاحتلال الفرنسي، ومن أشهر هجومات الثوار ضد الغزاة هجوم 20 أوت 1955م وكان له نتائج سياسية وعسكرية داخلية وخارجية لصالح الثورة.

55 . لقد أصيب المسؤولون الفرنسيون أنفسهم بالذهول والقلق وخيبة الأمل بسبب ما لحق بالقوات العسكرية والمدنية من خسائر وأضرار مادية وبشرية.

56 . عززت فرنسا قواتها بالجزائر وضاعفت أساليبها القمعية ضد الشعب الجزائري.

57 . بعد مرور حوالي سنتين على اندلا ع الثورة وتمكنها من أن تتوسع توسعاً قوياً، وبات من الضروري تحديد استراتيجية سياسية عسكرية عامة لجبهة التحرير الوطني، كان مؤتمر الصومام لوضع تنظيم سياسي وإداري وعسكري يعبر عن امال الشعب وطموحاته.

58 . بعد مؤتمر الصومام تطور الأداء الثوري بعد تنظيم الجوانب العسكرية والإدارية والسياسية والتشريعية والتنفيذية، وأصبحت جبهة التحرير هي القوة السياسية الوطنية الوحيدة التي التف حولها الشعب الجزائري لتحرير الجزائر من قوات الاحتلال الفرنسي، وأصبحت جبهة التحرير قوية وممثلة لامال وطموحات الشعب.

59 . استخدمت فرنسا كافة الوسائل البشعة للتصدي للثورة، وصنعت جيوب وقادة تابعين لها من الخونة ودعمتهم بالمال والسلاح، وساهمت في سفك الدماء بين أبناء الشعب، ولكن حركات الخيانة باءت بالفشل بتوفيق من الله ثم صمود وثبات ووحدة جبهة التحرير.

60 . لقد تفنن الاستعمار الفرنسي في تعذيب الجزائريين طوال سنوات الثورة السبعة، وهذا التعذيب استمرار لمنهجهم القمعي منذ الاحتلال، وكانت سياسة فرنسا ضد الثوار والشعب قاسية جداً وطاغية وشرسة ومدمرة، ولكن قادة جبهة التحرير مع الدعم الشعبي الكبير أفشل خطتهم وأربكهم وولد لهم مشاكل سياسية واقتصادية وهزائم عسكرية.

61 . أبدع قادة الثورة في تطوير قوتهم العسكرية وتواصلهم الإقليمي والدولي، وتنظيم الجانب الإداري والاستفادة من الطاقات الكامنة في الشعب وتوجيهها لخدمة المشروع العام المتمثل في تحقيق الاستقلال.

62 . ساهمت التشكيلات الاجتماعية المنظمة من قبل جبهة التحرير الوطني في نجاح إضراب الأيام الثمانية، فقد استطاعت قيادة جبهة التحرير أن تصدر توجيهاتها إلى لجان المناطق والنواحي والأقسام، وإلى المسؤولين المحليين للمدن والقرى وأعلمت المسؤولين السياسيين والعسكريين، بأنه أثناء الأسبوع المقبل وبالتحديد أثناء مناقشة القضية الجزائرية في الجمعية العامة للأمم المتحدة أن ينطلق الإضراب بكفاية تنظيمية عالية فوق كامل التراب الوطني، والهدف الأساسي لهذا الإضراب هو إظهار تعلق المواطنين الثابت واللامشروط وبصورة واضحة، بجبهة التحرير الوطني وبرنامجها.

63 . نظمت جبهة التحرير هياكل التموين ومهامها وكيفية وصولها للثوار، ومصادر تموينها وتخزين ما تراه مناسباً للغذاء الأساسي للثوار وشبكة توزيعها.

64 . جندت جبهة التحرير الوطني عدداً هاماً من الأطباء والممرضين رجالاً ونساءً، ووزعتهم على مختلف مناطق الولايات ونواحيها وأقسامها، لعلاج المرضى والجرحى وتدبير الأدوية والأدوات الطبية اللازمة للعلاج. وقد تطور هذا الجهاز الصحي للثورة بمرور الزمن، عدة وعدداً ونجاعة، وأفاد الثورة والمجاهدين وتوسع عمله وامتد إلى خارج الجزائر في تونس والمغرب وبلدان شرق أوروبا.

65 . وضع قادة وجيش جبهة التحرير الوطني جهازاً أمنياً قوياً لضبطه وتنظيمه ودعمه، والحفاظ على سلامة المواطنين والمجاهدين، ومراقبة تحركات العدو وترصد خططه العدوانية الغادرة وترصد أعوانه وأذنابه.

66 . كان للمرأة الجزائرية دور رائد في هذه الثورة وعلى مستوى الجزائر كلها، وقاسمت الرجل المجاهد كل أعماله وأتعابه ومشاقه المدنية والعسكرية والسياسية، وتولت الطهي والإطعام والإيواء للمجاهدين وباشرت عملاً أمنياً، كنقل الأخبار وترصد حركات العدو وإيصال الرسائل والمعلومات وتولت التمريض وعلاج المرضى وحملت السلاح وشاركت في المعارك.

67 . استمر العلاّمة محمد البشير الإبراهيمي في مقالاته وتوجيهاته الحماسية للشعب الجزائري، فكتب الكثير من المقالات، وسافر وجمع المال لدعم الثورة، وجلب لها الدعم المعنوي والمادي. ومن كلماته التي ألقيت بإذاعة صوت العرب بالقاهرة 1955م جاء فيها: إن الإسلام والاستعمار ضدان لا يلتقيان في مبدأ ولا في غاية، فالإسلام دين الحرية والتحرير، والاستعمار دين العبودية والاستعباد.

68 . كان من الطبيعي تفاعل الشعوب العربية والإسلامية مع الشعب الجزائري والوقوف معه في ثورته المباركة، وكان الدعم على المستوى الشعبي والحكومات، وكان لدول الجوار القدح المعلى في الدعم، المغرب الأقصى، وتونس، وليبيا، وكذلك بقية الدول العربية مصر، والسعودية، والكويت، وقطر، والعراق، وسوريا، والأردن، والسودان..الخ

69 . كما كان للصين دور مهم في دعم الثورة الجزائرية، بعكس الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، ومن الدول التي ساندت الشعب الجزائري في جهاده، أندونسيا، كوريا الشمالية، فيتنام، والهند، وماليزيا، وتركيا، وغانا، ويوغسلافيا.

70 . كانت هناك مواقف متميزة وعظيمة لملوك وزعماء من العالم في مساندة الثورة الجزائرية:

. الرئيس جمال عبد الناصر مصر

. الملك سعود بن عبد العزيز والملك فيصل السعودية

. الملك إدريس السنوسي ليبيا

. الملك محمد الخامس المغرب الأقصى

. الرئيس تيتو يوغسلافيا

. الزعيم ماو تسي تونغ الصين

. القائد الفيتنامي هوشي منه فيتنام وغيرهم.

71 .كان يوم 19 سبتمبر 1958م هو يوم إعلان الحكومة المؤقتة الجزائرية، وهي مرحلة جديدة في النضال والكفاح، وتشكلت ثلاث حكومات مؤقتة إلى ما قبل إعلان الاستقلال وقامت بجهود متميزة لدعم الثورة.

72 . طوّرت الحكومة المؤقتة أجهزتها التنفيذية بما يلائم وينسجم مع المرحلة وخصوصاً وزارة القوات المسلحة، والداخلية والخارجية، والتسليح والاتصالات العامة.

73 . حدث تحالف بين أحمد بن بلة ورئيس الأركان هواري بومدين بدعم من مصر، لتولي السلطة بدلاً من الحكومة المؤقتة.

74 . اضطرت فرنسا بعد الخسائر الاقتصادية والعسكرية وسقوط حكوماتها بسبب الثورة الجزائرية أن تدخل في مفاوضات مع الحكومة المؤقتة في عهد الجنرال ديغول، وكانت شاقة وعنيفة ومرت بمراحل صعبة انتهت بحق الشعب الجزائري في تقرير المصير واتفاقيات إيفيان.

75 . ألقى يوسف بن خدّة رئيس الحكومة للشعب الجزائري مساء يوم 18 مارس 1962م من إذاعة تونس خطاباً تاريخياً لإعلام الشعب بنتيجة الانتخابات وبالاتفاق الذي تمّ مع فرنسا.

76 . سعت الحكومتان الفرنسية والجزائرية، لتطبيق توقيف القتال وتهيئة الظروف لإجراء استفتاء تقرير المصير.

77 . يوم 8 جوان 1962م تدخل الرئيس ديغول بخطاب موجه إلى الشعب الفرنسي وإلى الشعب الجزائري يقول فيه على الخصوص: بعد 23 يوماً سيصادق الشعب الجزائري من خلال الاستفتاء على اتفاقيات إيفيان، وسيرسم الاستقلال والتعاون مع فرنسا، كما فعل الشعب الفرنسي عن طريق استفتاء 8 افريل 1962م، فهكذا تجاوزاً لكل الأزمات ولكل المشاعر الحماسية ستفتح مرحلة جديدة من العلاقات بين الجزائر وفرنسا وسيفتح فصل جديد لانتصارهما وذلك نتيجة لقرار حر واتفاق معقول بين الشعبين.

78 . صوّتت الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري على الاستقلال، ووقع على هذه النتائج أعضاء اللجنة الوطنية للمراقبة، وأعلنت النتائج الرسمية يوم 3 جويلية 1962م. وفي اليوم نفسه وجه الرئيس ديغول رسالة إلى رئيس الهيئة التنفيذية عبد الرحمن فارس، وذلك بواسطة المحافظ السامي، وأكدت هذه الرسالة: أن فرنسا سجلت نتائج استفتاء أول جويلية 1962م وتطبيق تصريحات 19 مارس 1962م فاعترفت باستقلال الجزائر. وتضيف هذه الرسالة أن الصلاحيات المتعلقة بالسيادة في الجزائر حولت منذ اليوم إلى الهيئة التنفيذية المؤقتة بالجزائر.

79 . في يوم 3 جويلية 1962م أنزل العلم الفرنسي من طرف جنود فرنسيين في ساحة «بومرداس» ورفع مكانه العلم الجزائري من طرف شاب من الكشافة الجزائرية الإسلامية ومجاهد من المجاهدين.

80 . توجه رئيس الحكومة المؤقتة الجزائرية يوسف بن خدة إلى مقر ولاية الجزائر وهو مصحوب بأعضاء من الحكومة المؤقتة وهم: بلقاسم كريم، ومحمد بوضياف، وحسين ايت أحمد، ولخضر بن طوبال، وعبد الحفيظ بوصوف، ومحمد يزيد.

81 . منذ تصريح تلسمان تصرف المكتب السياسي كمركز للسلطة، فتعاملت الهيئة التنفيذية معه بدلاً من الحكومة المؤقتة، والمعلوم أن هيئة الأركان أيدته منذ انتهاء اجتماع المجلس الوطني، وشرعت في حملة انتقاد ضد الحكومة المؤقتة.

82 . تنازل يوسف بن خدة عن صلاحياته كرئيس الحكومة المؤقتة وحولها للمكتب السياسي.

83 . عُقد اجتماع في بوسعادة يوم 27 أوت 1962م فأخذ القرار لدخول العاصمة، حضر الاجتماع أحمد بن بلة ومحمد خيضر، وسعيد محمدي، والحاج محمد بن علا، وأعضاء هيئة الأركان العامة هواري بومدين، وعلي منجلي وأحمد قايد والشريف بلقاسم وغيرهم.

84 . وقعت اشتباكات بين الوحدات في عدد من الأماكن وتظاهر سكان المناطق لوقف الزحف، وفي بعض الأحيان تمددوا على الطريق لمنع الاشتباكات، وتدخل الوسطاء بين الطرفين وفتحت الطريق أمام وحدات الجيش وعلى قبول مبدأ تحوير جيش التحرير الوطني، وعلى المشاركة في تحضير قوائم المرشحين للانتخابات التشريعية.

85 . بعد هذا الاتفاق تسارعت الأحداث واستقر أحمد بن بلة يوم 4 سبتمبر 1962م بالعاصمة وهو مرفوق بالمكتب السياسي الذي نظم أموره داخل العاصمة.

86 . وتمّ تنظيم الانتخابات وقدّم المكتب السياسي 196 مترشحاً، وحصلت القوائم على قبول أغلبية الناخبين.

87 . يوم 20 سبتمبر 1962م جرت الانتخابات في ظروف حسنة لأن الشعب الجزائري فضّل الرجوع إلى مؤسسات تخدم الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي خلّفها الاستعمار وسبعة أعوام ونصف من الحرب.

88 . اجتمع المجلس التأسيسي يوم 25 سبتمبر 1962م فانتخب فرحات عباس رئيساً له.

89 . يوم 28 سبتمبر 1962م انتخب أحمد بن بلة رئيساً للحكومة فشكلها وقدم برنامجها فصادق عليه المجلس.

90 . راعى رئيس الحكومة في التشكيلة التوازن الجهوي وإرضاء المكتب السياسي وهيئة الأركان العامة وتمثيل تشكيلات قديمة كحزب فرحات عباس «من خلال أحمد بومنجل وأحمد فرانسيس» وجمعية العلماء المسلمين «من خلال أحمد توفيق المدني» فهنا يبتدأئ تاريخ جديد.

91 . لقد ساند الشعب مساندة مطلقة الكفاح المسلح لاسترداد الحرية والكرامة، وتحقيق الاستقلال، ولقد نجحت الثورة بفضل الله ثم وعي الجماهير، والأخذ بفقه النضال والكفاح والجهاد لتحقيق المقاصد والامال والأهداف المشتركة للمواطنين.

92 . لقد ساهمت تعاليم الإسلام في الدفع المعنوي والزاد الروحي لتحقيق هذا الفوز العظيم.

93 . خطب الأستاذ الإمام محمد البشير الإبراهيمي يوم الجمعة 5 جمادى الثانية 1382هـ الموافق الثاني من نوفمبر 1962م في مسجد كتشاوا بالجزائر العاصمة بحضور أركان الدولة ووفود غفيرة من مختلف الدول الإسلامية.

94 . توفي الإمام محمد البشير الإبراهيمي يوم 20 ماي 1965م وشيّع إلى مثواه الأخير في جنازة مهيبة حضرها عشرات الألوف من أبناء الشعب الجزائري. وقال وزير الدفاع هواري بومدين بعدما ألقى النظرة الأخيرة على جثمانه وقرأ الفاتحة عليه وخاطب الحاضرين قائلاً: إن رحيل الشيخ البشير الإبراهيمي لا يعد خسارة لأسرته وحدها فبرحيله تفقد الجزائر، بل والعالم الإسلامي قاطبة، رجلاً كرّس حياته كلها من أجل عزة الجزائر والإسلام، تغمد الله الفقيد برحمته الواسعة.

95 . رحم الله شهداء الجزائر وعلماءها وقادتها وأبطالها ومن ناصرهم وازرهم وحمل رسالتهم المقدسة في تحرير الشعوب.

. رحم الله كل من رفض الدنيئة في دينه وعرضه وكرامته وإنسانيته، فقاوم الاحتلال الفرنسي جيلاً بعد جيل وتصدى لكل ألوان الظلم بكافة أشكاله وأنواعه وصوره البشعة.

. رحم الله قوافل الشهداء وتقبل الله الأثمان الغالية من مهج وجوع وخوف ومال قدموها في سبيل الله عز وجل.

. رحم الله أولئك الأحرار الذين سطروا ملحمة الجهاد الغالية والكفاح المرير وعلموا الشعوب المتعطشة للحرية بأن إرادة الشعوب تنتصر على إرادة الطغاة لأن ذلك من سنن الله. {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً }.

96 . إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وما هي إلا محاولة جادة لإزاحة الركام عن صفحات بطولية مشرقة من تاريخ شعب عزيز وحبيب الذي قدّم صفحات من نور في طريق الجهاد والكفاح والنضال تستمد منه الشعوب التي تسعى لنيل حريتها الدروس والعبر.

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم، أن يتقبل هذه الدراسة، وأن يبارك فيها، وأن يجعلها من الأعمال الصالحة التي أتقرب بها إليه، وأن ينفع بها شعوباً وأمماً تتعرض حقوقها للانتهاكات وتسعى لنيل حريتها وكرامتها وإنسانيتها من وحوش البشر، إن ربي على كل شيء قدير.

«وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»

المصادر والمراجع
لموسوعة كفاح الشعب الجزائري
الأجزاء الثلاثة
(بالترتيب الألفبائي)

1 . أبحاث إسلامية في الفكر والتاريخ، د. نجيب بن خيرة.

2 . ابن باديس الزعيم الروحي، د. محمود قاسم.

3 . ابن باديس حياته واثاره، عمَّار الطالبي.

4 . ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، محمد بهي سالم.

5 . ابن باديس فارس الإصلاح، د. محمد بهي الدين.

6 . ابن باديس مفسراً، عبد الرحمن حسن سلوداي.

7 . ابن باديس وعروبة الجزائر، محمد الميلي.

8 . ابن عربي عقيدته ومواقف العلماء منه، د. دغش العجمي.

9 . الاتجاهات الوطنية، محمد حسين.

10 . الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، عزيز سامح.

11 . اتفاقيات إيفيان، يوسف بن خدّة.

12 . اثار الإبراهيمي، إشراف ابنه أحمد طالب الإبراهيمي.

13 . أثر العلماء في مشروع النهضة، د. يحيى اليحيى.

14 . أثر دعوة محمد بن عبد الوهاب على الفكر الإسلامي الإصلاحي في الجزائر، عبد الحميد عويس.

15 . أحمد الشقيري زعيماً فلسطينياً ورائداً عربياً، خيرية قاسمية.

16 . أحمد بوشعيب في حديث مع محمد عباس، جريدة الشعب، 30 مارس 1987م.

17 . أخطاء في التاريخ يجب أن تصحح، جمال عبد الهادي.

18 . استراتيجية ابن باديس في تدبر القران، د. محمد زرمان.

19 . الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد الناصري.

20 . أسد جرجرة، حوار مع المناضل بلقاسم كريم قام به محمد عباس، عدد 26 ديسمبر 1988م.

21 . الإسلام والمذاهب الفلسفة المعاصرة، د. مصطفى حلمي.

22 . إسهام شيوخ معهد عبد الحميد باديس في الثورة الجزائرية، عبد الله مقلاتي.
23 . إسهامات النخبة الجزائرية في الحياة السياسية والفكرية التونسية، خير الدين شترة.
24 . أطوار العلاقات المغربية الثمانية، إبراهيم شحاتة.
25 . أعلام الإصلاح، محمد علي ديوز.
26 . أعلام ومواقف في ذاكرة الأمة، د. عبد الرزاق قسوم.
27 . أعمال الملتقى الدولي، مفدي زكريا شاعر الوحدة، 15، 16 مارس 2006م.
28 . إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، عبد القادر فضل ومحمد الصالح رمضان.
29 . الإمام عبد الحميد بن باديس من خلال مقالات الإمام محمد البشير الإبراهيمي.
30 . الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في تجديد العقيدة، محمد الدراجي.
31 . الإمام عبد الحميد بن باديس، محمود قاسم..
32 . الإمام عبد القادر الجيلاني، للصلابي.
33 . الإمداد بالسلاح خلال الثورة الجزائرية، د. الطاهر جبلي.
34 . أمير أمراء الجزائر، علج علي باشا.
35 . الأمير عبد القادر الجزائري، بديعة الحسيني.
36 . الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث، د. محمد بشير بويجرة.
37 . الأمير عبد القادر سيرته المجيدة في حقبة من تاريخ الجزائر.
38 . الأمير عبد القادر وبناء الأمة، عبد القادر بو طالب.
39 . أول نوفمبر بداية النهاية، أحسن بومالي.
40 . الإيمان بالقدر، علي محمد الصلابي.
41 . بداية الحكم المغربي للسودان الغربي، لمحمد الغربي.
42 . البداية والنهاية، لابن كثير.
43 . بن بلة يتكلم، السعيد الصافي.
44 . بناة المجد، أحمد مصالي الحاج، جيلاني ضيف.
45 . بناة المجد، توفيق المدني.
46 . بيان فاتح نوفمبر 1954م، ملفات وثائقية رقم 24 نصوص أساسية لجبهة التحرير الوطني الجزائرية 1951. 1963م الجزائر، وزارة الإعلام 1976م.
47 . البيت الباديسي، د. عبد العزيز فيلالي واخرون.
48 . تاريخ أفريقيا الشمالية، جوليان.
49 . التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي، دار ابن كثير.

50. تاريخ الجزائر الحديث، للجيلاني.
51. تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير فارس.
52. تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي.
53. تاريخ الجزائر المعاصر، د. محمد الأمين بلغيث.
54. تاريخ الجزائر، للميلي.
55. تاريخ الدول، لابن خلدون.
56. تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون.
57. التاريخ السياسي للجزائر، د. عمار أبو حوش.
58. التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي، محمد زاهد عبد الفتاح أبو غدة.
59. تاريخ العرب الحديث، د. حلمي محروس.
60. تاريخ الفتح العربي في ليبيا، الطاهر الزاوي.
61. تاريخ المغرب العربي الحديث، محمود علي عامر.
62. تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى العاشر، مجموعة من الأساتذة.
63. تاريخ المغرب وحضارته، حسين مؤنس.
64. تاريخ المغرب، لمحمد بن عبود.
65. تاريخ جودت، أحمد جودت.
66. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير.
67. تاريخ عصر النهضة، د. نور الدين حسام.
68. تاريخ ملحمة نشيد قسماً، الأستاذ الأمين بشيشي، الأستاذ عبد الرحمن بن حميدة.
69. تحفة الزائر، محمد باشا.
70. التداول على السلطة التنفيذية، للصلابي.
71. تدريب الراوي شرح تقريب النواوي، لابن حجر.
72. تسهيل المعاني وأدلة خليل.
73. التعريب بين المبدأ والتطبيق، ابن نعمان.
74. تفسير الألوسي روح المعاني، للإمام الألوسي.
75. تفسير الرازي، للإمام الفخر الرازي.
76. تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد القرطبي.
77. تلمسان عبر العصور، محمد الطمار.

78 . التنظيم السياسي والإداري للثورة، د. عقيلة ضيف الله.
79 . ثوار عظماء، محمد عباس.
80 . الثورة الجزائرية في الشعر العراقي، عثمان سعدي.
81 . الثورة الجزائرية في عامها الأول، محمد الزبيري.
82 . الثورة الجزائرية ودور جمعية علماء المسلمين، د. عبد الرحمن بن عمير النعيمي.
83 . الثورة الجزائرية، بو علام بن حمودة.
84 . الثورة الجزائرية، دراسات حول إيدلوجية وتاريخ الثورة، د. رابح لونيسي.
85 . الثورة الجزائرية، مصطفى طلاس.
86 . الثورة في الولاية الثالثة التاريخية، د. يحيى بو عزيز.
87 . جريدة البصائر، من جرائد جمعية علماء المسلمين.
88 . جريدة الشعب، عدد 6473، عمار بن عودة.
89 . جريدة المجاهد، العدد 27 تاريخ 25 فباير 1959م.
90 . الجزائر الثائرة، الفضيل الورتلاني.
91 . الجزائر المعاصرة، صلاح العقاد.
92 . الجزائر في التاريخ، عثمان سعدي.
93 . الجزائر والحملات الصليبية، للعسيلي.
94 . جمال الدين الأفغاني، عبد الرحمن الرافعي.
95 . جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، د. أحمد الخطيب.
96 . جمعية العلماء والثورة التحريرية، محمد بن ساعو.
97 . جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي، عبد الرشيد زروقة.
98 . جهاد الجزائر، د. أحمد بن نعمان.
99 . جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، نبيل عبد الحي رضوان.
100 . الحاج أحمد باي، د. بو ضرساية بو عزة.
101 . حاشية العدوي.
102 . حاضر العالم الإسلامي، شكيب أرسلان.
103 . حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، أحمد توفيق المدني.
104 . الحركات الاستقلالية في المغرب، علال الفاسي.
105 . حركة ابن باديس التربوية، على علواش.
106 . الحركة الإصلاحية، محمد طهاري.

107 . الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر، خديجة بقطاش.
108 . الحركة السنوسية، علي محمد الصلابي.
109 . الحركة الوطنية، د. أبو القاسم سعد الله.
110 . الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، للمطاري.
111 . الحروب الصليبية في المشرق، لمحمد العمروسي.
112 . الحريات العامة، راشد الغنوشي.
113 . الحرية أو الطوفان، د. حاكم المطيري.
114 . حقائق الأخبار عن دول البحار، إسماعيل سرهنك.
115 . حوار جريدة الحقيقة، أحمد سحنون.
116 . حوار مع الأمير عبد القادر، د. عبد الكريم منصور.
117 . حوار مع حسين زهوان في جريدة الجزائر، بتاريخ 8 سبتمبر 2012م.
118 . الحوليات الجزائرية، محمد إحسان الهندي.
119 . حياة الأمير عبد القادر، مقدمة أبو القاسم سعد الله وترجمته.
120 . حياة كفاح، أحمد توفيق المدني.
121 . الخالدون المائة، مايكل هارت.
122 . خطوات في العمل الإسلامي، أبو جرة سلطاني.
123 . خلاصة تاريخ الأندلس، شكيب أرسلان.
124 . الخلفية الدينية، للتميمي.
125 . الدخول إلى الجزائر، د. محمد دراج.
126 . الدر الثمين والمورد المعين، شرح ابن عاشور لميارة.
127 . درء التعارض، لابن تيمية.
128 . دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عز الدين عمر.
129 . دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، للعبادي أحمد العبادي.
130 . دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ناصر سعيدوني.
131 . الدور الإصلاحي والنشاط السياسي للشيخ البشير الإبراهيمي، د. إبراهيم مهديد.
132 . دور العقيد عميروش في الثورة الجزائرية، شوقي عبد الكريم.
133 . دور جمعية العلماء، صالح فركوس.
134 . الدولة الأموية، علي محمد الصلابي.
135 . الدولة العثمانية دولة إسلامية، عبد العزيز الشناوي.

136 . الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، إسماعيل أحمد.

137 . الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، جواد العزاوي.

138 . الدولة العثمانية، جمال عبد الهادي.

139 . الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي.

140 . الدولة العثمانية، د. علي حسون.

141 . الدولة العثمانية، د. علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة، لبنان.

142 . ديوان محمد العيد.

143 . الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام أبي الحسن الشنتريني.

144 . الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب.

145 . ردود وتعليقات على كتاب «حياة الأمير»، الأميرة بديعة الحسيني الجزائري.

146 . رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية.

147 . رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي.

148 . رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان، عبد الجليل التميمي.

149 . الرئيس خروتشوف في ندوة صحفية خلال تواجده في الدورة 15 للأمم المتحدة بنيويورك، المجاهد، العدد 3178، أكتوبر 1960م.

150 . زاد المعاد في هدى خير العباد، لابن القيم.

151 . سقوط غرناطة، د. ناصر العمر.

152 . السلطان محمد الفاتح، عبد السلام عبد العزيز.

153 . السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان.

154 . سنن الترمذي.

155 . سؤال النهضة عند الشيخ عبد الحميد، د. لطيفة عميرة.

156 . السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، أرجمنت كوران.

157 . السياسة العربية والمواقف الدولية، د. إسماعيل دبش.

158 . السياسة والقضاء عند ابن باديس وابنه حميدة، د. عبد العزيز فيلالي.

159 . سير أعلام النبلاء، للذهبي.

160 . السيرة النبوية، على محمد الصَّلابي.

161 . سيرة خير الدين باشا، عبد القادر عمر.

162 . الشاذلي بن جديد، مذكرات.

163 . شرح زروق على الرسالة.

164 . شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني، للأمين الحاج.
165 . شروط النهضة، مالك بن نبي.
166 . الشعوب الإسلامية، د. عبد العزيز سليمان.
167 . الشهاب، مجلة تصدر عن جمعية العلماء.
168 . الشوقيات، ديوان أحمد شوقي.
169 . الشيخ البشير الإبراهيمي، إمام في مدرسة الأئمة، محمد عمارة.
170 . الشيخ البشير الإبراهيمي، كما عرفته، محمد فاضل الجمالي، مجلة الثقافة عدد 87 الجزائر 1985م.
171 . الشيخ عبد الحميد بن باديس، السلفية والتجديد، د. محمد الدراجي.
172 . الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح.
173 . الشيخ عبد القادر الجيلاني، د. سعيد القحطاني.
174 . الشيخ عبد القادر، الإمام الزاهد القدوة، د. عبد الرزاق الكيلاني.
175 . الشيخ محمد البشير، بأقلام معاصريه.
176 . الصحف العربية الجزائرية، د. محمد ناصر.
177 . صحيح ابن حبان.
178 . صحيح البخاري بشرح ابن حجر.
179 . صحيح مسلم.
180 . صدى كفاح عمر المختار في الجزائر، ناصر الدين سعيدوني، مجلة البحوث التاريخية.
181 . صراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني.
182 . صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، مصطفى بن حليم.
183 . صلاح الدين الأيوبي، علي محمد الصلابي.
184 . صوت الإمام الإبراهيمي في الثورة، أحاديث الإمام عن الثورة في إذاعة صوت العرب، الأستاذ عبد القادر نور.
185 . ضوابط المصلحة، محمد سعيد رمضان البوطي.
186 . عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء، محمد الدراجي.
187 . عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية، د. عبد الحميد درويش النساج.
188 . عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مصطفى حميداتو.
189 . عبد الحميد بن باديس، «الشهاب» عدد خاص ج 4 م 14.
190 . عبد الحميد بن باديس، أندري ديرليك.
191 . عبد الحميد بن باديس، بسام العسلي.

192. عبد الحميد بن باديس، فتحي عثمان.
193. عبد الحميد بن باديس، مازن مطبقاني.
194. العقائد الإسلامية لابن باديس، عبد الحميد بن باديس.
195. العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري، د. عبد الحليم عويس.
196. العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلس.
197. عقيدة التوحيد، د. سعاد منير.
198. العلاقات بين الجزائر والمغرب، بن خروف.
199. العلم الوطني الجزائري، د. محمد لحسن زغيدي.
200. العلمانية، د. سفر الحوالي.
201. علوم الحديث ومصطلحه، صبحي الصالح.
202. العمال الجزائريون في فرنسا، د. عمار بوحوش.
203. عوامل النصر والهزيمة، شوقي أبو خليل.
204. الغنية، للجيلاني.
205. فارس الجزائر، العماد مصطفى طلاس.
206. الفتح الرباني، للجيلاني.
207. فتح العثمانيين عدن، محمد عبد اللطيف البحراوي.
208. فتح عدن، محمد عبد اللطيف البحراوي.
209. الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز العمري.
210. فتوح الغيب، للجيلاني المقالة السابعة والخمسون.
211. فتوحات خير الدين، محمد أمين.
212. فكر الأمير عبد القادر، للأميرة بديعة الحسيني الجزائري.
213. الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد.
214. الفكر السياسي عند مالك بن نبي، بوراس يوسف.
215. فلسفة التاريخ العثماني، محمد جميل بيهم.
216. في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى.
217. قادة فتح بلاد المغرب، محمود شيت خطاب.
218. قراءة جديدة في التاريخ العثماني، زكريا سليمان بيومي.
219. قصتي مع الثورة الجزائرية، الهادي المشيرقي.
220. قلائد الجواهر، للتادفي.

221. قوانين مجموعة، القوانين الداخلية لجيش التحرير، جمعها علي بو داري.
222. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، د. علي محمد الصلابي.
223. كيف تحررت الجزائر؟ وزارة الإعلام والثقافة.
224. لسان المعرب، لأبي عبد الله السليماني.
225. لمحات من ثورة الجزائر، الأخضر جودي.
226. اللهب المقدس، مفدي زكريا.
227. ليبيا بين الماضي والحاضر، حسن سليمان محمود.
228. مجالس التذكير في كلام الحكيم الخبير، لعبد الحميد بن باديس.
229. المجاهد محمد صالح الصديق، إسماعيل ميرة.
230. المجاهد، العدد 114.
231. المجاهد، العدد 37.
232. المجاهد، العدد 78، 3 أكتوبر 1960م.
233. المجاهد، العدد 44، 4 أجوان 1959م.
234. مجلة الأصالة، عبد الرحمن شيبان، ماي 1978م.
235. مجلة اللغة العربية، القاهرة ج 21.
236. مجلة أول نوفمبر، الصادرة بتاريخ 1977/8/1م.
237. مجلة دعوة الحق، الأوقاف المغربية، العدد 203.
238. مجموع الفتاوى، لابن تيمية.
239. مجموع رسائل ابن حزم.
240. محمد بوضياف حوار جريدة الشعب الجزائري.
241. محنة المورسيكوس في إسبانيا، لمحمد قشتيليو.
242. مختصر تفسير ابن كثير.
243. المختصر في تاريخ الثورة الجزائرية، زهير إحدّادن.
244. مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، محمد العربي الزبيري.
245. المدخل الفقهي العام، للشيخ د. مصطفى الزرقاء.
246. المدرسة الباديسية ومناهجها الدراسية، عيسى عمراني.
247. مذكرات جزائري، أحمد طالب الإبراهيمي.
248. مذكرات مالك بن نبي.

249. مذكرات محمد خير الدين.
250. مراة الزمان، سبط ابن الجوزي.
251. المسألة الشرقية، للدسوقي.
252. المستدرك على الصحيحين.
253. مسند أحمد.
254. مسيرة الحركة الإصلاحية بتلمسان، خالد مرزوق.
255. المشرق العربي والمغربي، د. عبد العزيز فائد.
256. مشكلة الحرية، زكريا إبراهيم.
257. المصادر، فصلية تعنى بشؤون المقاومة، العدد الخامس عام 2001م.
258. مظاهر المقاومة الجزائرية، محمد الطيب العلوي.
259. مع الثورة الجزائرية، جمعية الأدباء، تقديم د. عبد الرزاق قسوم.
260. مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، يحيى بو عزيز.
261. معالم الفكر السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يوسف بوغابة.
262. معتقل الجرف بالمسيلة أثناء الثورة التحريرية، خميسي سعدي.
263. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان.
264. المغرب العربي الكبير، شوقي الجمل.
265. المغرب العربي المعاصر، د. محمد علي داحش.
266. المغرب العربي، صلاح العقاد.
267. المغرب الكبير، جلال يحيى.
268. المغرب الكبير، د. السيد عبد العزيز سالم.
269. المغرب في بداية العصور الحديثة، د. صلاح العقاد.
270. المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د.عبادة كحيلة.
271. المغرب في عهد الدولة السعدية، عبد الكريم كريم.
272. مفدي زكريا شاعر النضال والثورة، د. محمد ناصر.
273. مقدمة مجلة الشهاب، بقلم عبد الرحمن شيباني.
274. المقدمة، لابن خلدون.
275. الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته.
276. ملحمة المظاهرات الشعبية، على بو داري.
277. من بطولات المرأة الجزائرية في الثورة، د. محمد قنطاري.

278 . من تاريخ الحركة الإسلامية، محمد فتحي عثمان.

279 . من هدي النبوة، ابن باديس.

280 . من وثائق جمعية العلماء المسلمين، عبد الرحمن شيبان.

281 . منابع الثقافة والسياسة في الخطاب الوطني عند كل من مصالي الحاج وفرحات عباس، د. يوسف حميطوش.

282 . المناضل الليبي الهادي المشيرقي، محمد الصالح الصديق.

283 . المنتقد، مجلة جزائرية.

284 . منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة.

285 . مواقف الإمام الإبراهيمي، مقدمة الدكتور محمد دراجي.

286 . مواقف الدول العربية من القضية الجزائرية، د. مريم صغير.

287 . مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني، لحسن لزغيدي.

288 . الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زبيب.

289 . موسوعة المغرب العربي، عبد الفتاح مقلد الغنيمي.

290 . موطأ الإمام مالك.

291 . نافذة على اقتصاد الثورة، علي بو داري.

292 . النشاط الدبلوماسي للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، عمر بو ضربة ص.132

293 . النشاط العلمي والفكري للمهاجرين، محمد صالح.

294 . النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، وزارة الإعلام والثقافة.

295 . نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث، جمال فنان.

296 . النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية، ناصر الدين سعيدوني.

297 . نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب المقري، تحقيق د. إحسان عباس.

298 . نفوس ودروس في إطار التصوير القراني، لتوفيق محمد سباع.

299 . نهاية الأندلس، محمد عبد الله عنان.

300 . نوابغ العرب، مجموعة من الأساتذة.

301 . نيل الأوطار، محمد علي الشوكاني.

302 . هكذا ظهر جيل صلاح الدين، د. ماجد عرسان الكيلاني.

303 . وادي المخازن، لشوقي أبي خليل.

304 . وثائق جديدة عن حياة خفية في حياة ابن باديس الدراسية، د. عبد العزيز فيلالي.

305 . وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، معالم الفكر السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دراسة تحليلية، يوسف بو غابة.
306 . الوسطية في القران الكريم، د. علي الصلابي.
307 . وصف أفريقيا، للوزان.
308 . الولايات التاريخية لثورة التحرير الجزائرية، د. محمد صالح بجاوي.

* * *

جدول المحتويات

كتب صدرت للمؤلف

1 . السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2 . سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3 . سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4 . سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5 . سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6 . سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب. شخصيته وعصره.
7 . الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8 . فقه النصر والتمكين في القران الكريم.
9 . تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10 . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11 . عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12 . الوسطية في القران الكريم.
13 . الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14 . معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15 . عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16 . خلافة عبدالله بن الزبير.
17 . عصر الدولة الزنكية.
18 . عماد الدين زنكي.
19 . نور الدين زنكي.
20 . دولة السلاجقة.
21 . الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
22 . الشيخ عبد القادر الجيلاني.
23 . الشيخ عمر المختار.
24 . عبد الملك بن مروان وبنوه.
25 . فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
26 . حقيقة الخلاف بين الصحابة.
27 . وسطية القران في العقائد.
28 . فتنة مقتل عثمان.

29 . السلطان عبد الحميد الثاني.

30 . دولة المرابطين.

31 . دولة الموحدين.

32 . عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33 . الدولة الفاطمية.

34 . حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

35 . صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36 . استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ص)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37 . الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38 . الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39 . المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40 . سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41 . الشورى في الإسلام.

42 . الإيمان بالله جل جلاله.

43 . الإيمان باليوم الاخر.

44 . الإيمان بالقدر.

45 . الإيمان بالرسل والرسالات.

46 . الإيمان بالملائكة.

47 . الإيمان بالقران والكتب السماوية.

48 . السلطان محمد الفاتح.

49 . المعجزة الخالدة.

50 . الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

51 . البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52 . التداول على السلطة التنفيذية.

53 . الشورى فريضة إسلامية.

54 . الحريات من القران الكريم، حرية التفكير، وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55 . العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

56 . المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57 . العدل في التصور الإسلامي.

58 .كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59 . الأمير عبد القادر الجزائري.

60 .كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس . الجزء الثاني ..

61 . سنة الله في الأخذ بالأسباب.

62 .كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

* * *